

الإمام

الدكتور عبد الحليم محمود

فتاوى

فاضلة

الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الأول

دار المعارف

فتاوى

الإمام عبد الحليم محمود

فتاوى

الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الأول

الطبعة الخامسة

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
وهَيِّئْ لنا مِنْ أمْرِنا رَشَدًا

جهد المقل

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين ، وبعد .

فلما كان تراث مولانا الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه مما يحرص المسلمون جميعًا على الاستفادة منه والانتفاع بما قدم فيه من كنوز وذخائر ، وكانت فتاواه تغطى كثيرًا من المسائل التى تهم المؤمن فى حياته وسلوكه من عقائد وأحكام وآداب ، فقد وجدنا لزامًا علينا أن نجمعها فى هذا السفر .

وقد حرصنا على جمع كل مايمكن جمعه من هذه الفتاوى التى نُشرت أو أذيعت أو ألقيت أو أُرسلت إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، حتى اجتمع لنا هذا العدد المبارك إن شاء الله منها ، فتوفرنا على إعدادها وتصنيفها وتبويبها محاولين الرجوع دائمًا إلى الأصل المكتوب بخط الإمام رضى الله عنه .

وبدأنا بما يتعلق بالعقائد ، إلهية ونبوية وغيرها ، باعتبارها الأساس الذى تنبنى عليه المسائل ، ثم ألحقناها بما توفر فى علوم القرآن والسنّة ، وثنينا بمسائل عامة فى الفقه ، تقوم مقام الأصول فيه ، فالمسائل التى تتحدث فى جزئياته وفروعه ، ثم المسائل العامة التى تتعلق بالحلال والحرام والعلم فى الإسلام والتصوف الإسلامى ، وختمنا بمسائل عن الدين والحياة .

وهذا جهد المقل ، فقد كان مولانا الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه قطب العصر وخاتمة العلماء المحققين ، وليس لمثلى أن يملك أكثر مما فعل ، والله هو الهادى إلى سواء السبيل .

الزيتون – السلام

مولد الإمام عبد الحليم محمود (رضى الله عنه)
١٩٧٩/٥/١٠

أ. د. منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بالأزهر الشريف

سُئِلَ رضي الله عنه في العقيدة

فى العقيدة الإسلامية

إن رجال الأمم الإسلامية ترتفع أصواتهم فى كل مكان فى الآونة الحاضرة منادية بالإصلاح ، وعاملة على الأخذ فى سبيله ، من أجل مايتمناه الجميع من نهضة نرجو الله أن تأخذ طريقها السليم .

ولاريب فى أن مشكلة الإصلاح الإسلامى لاتزال فى حاجة إلى معالجتها فى إجمالها وعمومها .

ماهو الأساس ، وماهى العناصر التى يقوم عليها الإصلاح الإسلامى فى الأسرة ، فى المدرسة ، فى الجامعات ، فى المجتمع الكبير ، مجتمع الأمة الإسلامية ؟ .

وإن أمل المسلمين الغيورين أن يوفق الله المصلحين والباحثين وحملة الأقلام إلى أن يصدروا فى توجيهاتهم وفى إصلاحهم عن الإسلام . يتخذونه أساسًا يستنيرون بمبادئه وأهدافه .

وبعض الناس حينما يثار موضوع الإصلاح يتجهون عادة إلى أوربا وأمريكا ، أى إلى الحضارة الحديثة ، يستلهمونها التوجيه فى المنهج والموضوع ، إنهم يستلهمون أوربا فى منهج الإصلاح وموضوع الإصلاح الذى يرون تطبيقه فى الأمم الشرقية الإسلامية . غير مراعين فى ذلك اختلاف البيئة ، واختلاف الدين ، واختلاف العرف والتقاليد ، واختلاف الماضى الحضارى .

ومن أجل ذلك يتساءل كثير من الناس .

ماموقف المسلم من الحضارة الحديثة ؟ .

وما موقف علماء الإسلام منها ؟ .

والواقع أن هذا الموضوع أثار كثيرًا من الجدل والنقاش فى مختلف الأقطار الإسلامية والشرقية ، ولم ينته الحديث فيه بعد ، فلا يزال الجدل للآن فيه مستمرا ، ولاتزال الندوات تعقد هنا أو هناك ، والمقالات تحبر فى هذه المجلة أو تلك . . يرى قوم أن سبيل الإصلاح هو أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها بمالها وماعليها ، نأخذها بدون تمييز ولاتخير .

ومنذ عهد ليس ببعيد وقف أحد كبار الشرقيين فى ندوة جمعت بين كبار رجال الفكر وكبار علماء الدين وأعلن .

لِمَ نتنكر للحضارة الحديثة ؟

هذه الطائرات التى نستخدمها ، هذه الأدوية التى نستعملها ، مستحضرات التجميل هذه

التى نسعد بها ، أليست ثمار الحضارة الحديثة ، إنه يجب علينا عرفانًا بالجميل أن نأخذ الحضارة الحديثة ككل ، نأخذها وحدة لاتنفصم وليس هذا رأى هذا المفكر وحده ، وإنما هو رأى طائفة كبيرة فى الشرق تدعو إلى أخذ الحضارة الحديثة ككل دون استثناء شىء منها .

١ – إن الحضارة الحديثة فى رأيهم حضارة متكاملة مادة ، ومعنى ، شكلا وجوهرًا فلنأخذها ككل .

٢ – ويعارض هؤلاء كثيرون . يرفضون الحضارة الحديثة جملة وهذا الرفض قد يكون كثيرًا فى الأفراد.بيد أن بعض الدول تبنته أيضًا ، حاولت بعض الدول فى الماضى أن ترفض الحضارة الحديثة كلية وأن تغلق فى وجهها الأبواب ، ولم توفق الدول ولم يوفق الأفراد أيضًا فيما يتعلق بهذه المحاولة .

٣ – والرأى الثالث يرى أنه علينا أن نأخذ الحضارة المادية ، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ونترك منها غير الصالح .

وهذا الرأى يبدو أنه رأى الأغلبية .

هذه هى مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع ، بل هى تقريبًا مجموعة الاحتمالات العقلية فى ذلك ، ومع هذا فإننى شخصيًا لم أرتض منها رأيًا .

أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كُلاً لا يتجزأ فأظن أن المسألة فى الجو الإيمانى وفى الجو الإسلامى السليم لاتحتاج إلى مناقشة كثيرة .

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية ، فلا يتأتى أن يسود رأى كهذا فى الجو الإسلامى .

أما فيما يتعلق برفضها كلية فإن هذا – واقعيًا – لم يتحقق لافى الأفراد ولافى الجماعات ، ولافى الدول ولافى الأقطار أيًا كانت .

ليس هناك قطر لم يستفد من الحضارة الحديثة ، وليس هناك إنسان لم يستفد من الحضارة الحديثة .

الإنسان والأقاليم والأقطار ، بل بنو آدم كلهم ، قد استفادوا من هذه الحضارة الحديثة ، وهذه الفكرة لم تتحقق فى الواقع .

ويأتى الرأى الوسط الذى ساد ويسود فى كثير من الأوساط ، والذى يبدو لكثير من الناس أنه الرأى السليم الصحيح ، نأخذ من الحضارة الحديثة ، ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد .

وبتأمل بسيط يمكننا أن نرى أن هذا الرأى فاسد أيضًا ، إذ يعتمد على الاختيار العقلى وعلى

الميول البشرية للإنسان دون ملاحظة للدين ، إذا قلنا بأخذ الصالح فما هو الصالح ؟ وفى رأى من ؟

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر .

إذا قلت مثلا ٦٪ فائدة البنـوك ثم تساءلت : أهذا صالح أم غير صالح ؟ يقول لك كثير من الناس بحسب عقولهم وأفكارهم وآرائهم ، يقولون لك إنه لابأس بذلك ، لابأس بستة فى المائة فى البنوك ، ويرفض ذلك آخرون .

فهل ٦٪ فى البنوك صالح أخذها أوليس بصالح ؟ يختلف الناس .

ونأتى إلى مسائل أخرى متحدثين بأسلوب الدين ونقول : شرب قليل من الخمر هل هو صالح أوليس بصالح ؟

وستجد لامحالة من يقول لك ، إنه لابأس بشرب قليل من الخمر ؟ والاستحمام المختلط على الشواطئ جماعات رجالا ونساء ، هل هو صالح أوليس بصالح ؟ .

هل نأخذه من الحضارة الغربية أو لا نأخذه من الحضارة الغربية ؟ : ستجد أيضًا أصحاب الأهواء الشيطانية ، وأصحاب الآراء الجنسية ، يقولون لك : إن هذا صالح . الجسم صحته تتوافر فى ضوء الشمس ، ويستفيد من الفيتامينات التى فى إشعاع ضوئها ، و . . .

هذه القضايا – وكثير غيرها مما لايقرها الدين – سنجد لها أتباعًا يقرونها من هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم ، وسنجد من يقول : إن ذلك صالح .

إذا قلنا بأخذ الناحية الصالحة فى الحضارة الحديثة ورفض الناحية غير الصالحة فإن الرأى لايستقيم ، لأن الناس يختلفون فيه اختلافًا كبيرًا ، ولايتأتى التحديد : تحديد الصالح وتحديد غير الصالح ، لايتأتى الاتفاق على التحديد مادمنا فى مجال العقل فحسب ، ومادامت المسألة آخذة وضعها العقلى الفكرى فقط .

ماالمخرج – إذن – من هذا ؟

ماهو – إذن – موقفنا من الحضارة الحديثة إذا كنا لانقبلها ولانرفضها ولانقبل التوسط فيها ؟ .

وأريد أن آخذ الآن فى إبداء رأينا الشخصى فيما يتعلق بالموضوع ونحن فيما يتعلق بمجال الحضارة الحديثة نرى – كما يرى غيرنا – والآراء فيما سنذكره لاتختلف تقريبًا – أن الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين :

القسم المادى : قسم المعامل والمصانع ، قسم الطب ، قسم الكيمياء ، قسم الطبيعة هذه

الناحية المادية البحتة من الحضارة الحديثة لايتأتى لنا قط أن نقول إن أوربا ابتدعتها ابتداعًا أو اخترعتها اختراعًا .

وهذه الناحية نفسها – الناحية المادية – لها جانبان .

جانب المنهج – وجانب الموضوع : أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه منهج الاستقراء ، وهو منهج تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية .

هذا المنهج الاستقرائى ، أو المنهج العلمى ، أو منهج السمع والبصر أى منهج الملاحظة – منهج إسلامى .

لقد سار عليه الإسلام وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية . (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

والسمع والبصر أساس الملاحظة والتجربة ، أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة . إن عدم اتباع الظن والسير وراء الملاحظة ووراء التجربة . هذا منهج الإسلام اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد ، وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام هو الذى بدأ بوضع المنهج التجريبى ، واعترفوا بأن « روجيه باكون » الذى يعتبر فى أوربا المؤسس الأول للمنهج التجريبى أخذه عن العرب ، وبأنه لم يكن إلا تلميذًا من تلاميذ العرب . . لم يكن إلا طالبًا فى مدرسة العرب . اعترفوا بهذا صراحة ، يقول أحد كتابهم فيما يتعلق بالمنهج الخاص بالتجربة والملاحظة أى منهج الاستقراء الذى بنيت عليه الحضارة المادية الحديثة – وهو الأستاذ « بريفولت » فى كتابه (بناء الإنسانية) يقول :

ليس « لروجيه باكون ولا لفرانسيس باكون » الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن « روجية باكون » إلا رسولا من رسل العلم ، والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو نفسه لم يمل قط من التصريح بأن تعلُّم معاصريه فى أوربا اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ويقول فى مكان آخر من كتابه :

ولقد كان العلم أهم ماجادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ويقول أيضا : لم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية .

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب وبما للمنهج العربى من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة .

لا أريد أن أطيل فى سرد نصوصه – وهى كثيرة – كلها تثبت أن هذا المنهج التجريبى إنما هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة العربية ، وأن أوربا إنما أخذته من العرب ولم تبتدعه ابتداعًا ولم

تكتشفه اكتشافًا . هذا فيما يتعلق بالمنهج .

أما فيما يتعلق بالموضوع فإن المؤلف نفسه الذى ألف هذا الكتاب الذى تحدثنا عن بعض آرائه ، يقول فى صراحة لالبس فيها. إن العلم الأوربى مدين للعلم الإسلامى العربى فى كثير من موضوعاته ، إنه ليس مدينًا فى المنهج فحسب وإنما فى الموضوعات أيضًا .

ومما هو معروف أنه كان فى الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعى ، كان هناك ابن الهيثم فى البصريات وفى الأضواء .

ويرى كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب « باكون » نفسه فى الحرارة والضوء ماهو إلا نسخة من كتاب ، ابن الهيثم « فى البصريات » .

كان عندنا ابن الهيثم فى الطبيعة .

وكان عندنا الرازى وابن سينا فى الطب .

وكان عندنا جابر بن حيان فيما يتعلق بالكيمياء .

وكان عندنا الكندى فيما يتعلق بالرياضيات .

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف أوربا بأنها مدينة لهم إلى الآن فيما يتعلق بمنهجهم التجريبى المبنى على الملاحظة وعلى التجربة .

وفيما يتعلق بالموضوعات التى تطرقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التى لاتزال لها قيمتها الآن .

هذا الموضوع – موضوع الطبيعة – إذا أردنا التعبير الإسلامى عنه هو على حد الكلمة التى أطلقها الشيخ (محمد عبده) وهى الكلمة التى تعبر التعبير الصحيح الإسلامى .(سنن الله الكونية) .

فالطبيعة وقوانينها واكتشافاتها وموضوعاتها والبحث فيها إنما هو البحث فى سنن الله الكونية « واكتشاف قوانينها إنما هو اكتشاف لسنن الله الكونية » .

إن الله سبحانه وتعالى يمن علينا فى القرآن الكريم بأن سخر لنا البحار والأنهار ، وسخر لنا الأرض وسخر لنا السماء ، وسخر لنا الكواكب وسخر لنا القمر ، وسخر لنا الشمس ، وسخر لنا الكون كله ، لقد سخره للإنسان ، وهو بهذا الامتنان يطلب من الإنسان أن يجوب الفضاء وأن يغوص فى الماء ، وأن يخترق كل المعميات فى هذا الكون حتى يزداد إيمانًا على إيمان وإقرارًا ، فيزداد فى خضوعه وفى خشوعه لعظمة الله العظيمة ، ولهيمنته هذه التى لايندّ عنها شىء فى هذا العالم المسخر .

تتبع آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق ، كل هذا دعوة إسلامية ، وتتبع آيات الله والتسخير

لايتأتى إلا عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة المنهج التجريبى المنهج الحديث : هذا هو منهج الإسلام .

ويدعونا الإسلام أيضًا – إلى أن نكون فى هذا الجانب المادى أقوى مانكون .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

والاستطاعة لاتكاد تحد ، وكلما وصل الإنسان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة يجب عليه أن يلجها ، فهو فى كل آونة مترق فى عالم الطبيعة ، وهو فى كل آونة متتبع لهذه القوانين مترق فيها حتى يظل دائمًا فى القمة ، فيكون مركزه دائمًا وباستمرار القمة من القوة المادية . .

وإذا كان المسلمون قد تأخروا فى هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن الكريم ولاذنب الإسلام وإنما ذنب تكاسلهم وخمولهم .

وهم بهذا التأخر آثمون إسلاميًا ، إنهم آثمون فى نظر الإسلام وفى نظر القرآن الكريم . . فهم أصحاب دعوة ، والقرآن أعدهم من قديم لهذه الدعوة . وهم أصحاب رسالة ، وأصحاب الرسالات إن لم يكن عندهم القوة القوية ، وإن لم يكن عندهم السلطان المسيطر ، إن لم تكن عندهم السيطرة المتحكمة من أجل الخير ومن أجل العدل ومن أجل الحق ، إن لم يكن عندهم هذا فإن رسالتهم تستمر حبرًا على ورق ، ولم يرد الإسلام أن تكون الرسالة الإسلامية – أو أن تستمر الرسالة الإسلامية – حبرًا على ورق .

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة فى العالم ، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين فى نظر الإسلام ، كانوا آثمين وكانوا مقصرين فى حق رسالتهم التى كلفهم الله سبحانه وتعالى بها .

إنها آخر الرسالات ، إنها الرسالة الأبدية ، إنها الرسالة الدائمة ، ولابدمن قوة دائمة فى هذا العالم تسندها ، فإذا لم تكن هذه القوة فإن هذه الرسالة لايكون لها من التأثير ومن النفوذ ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها .

الجانب المادى – إذن جانب إسلامى ، وماعلينا إلا متابعة الإسلام فى هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة ، وبكل طريقة تتيسر .

ولايقال إذن – حينما نسير فى الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ومتبينين الاكتشافات والاختراعات إننا أخذنا الحضارة الأوربية ، وإنما يقال : إننا تابعنا الخطوات التى تابعها وسار فيها أسلافنا ، وإذا كنا فى هذا المجال نستعين بهذا أو ذاك فإن الاستعانة ليس معناها أخذ من الحضارة لأن هذا الجانب لالون له ، أى أن الرقى المادى لالون له ، لايقال هذه الكيمياء ألمانية أو فرنسية

أو إنجليزية وإنما هى الكيمياء أينما كانت وأينما وجدت لاتتسم بلون ، فإذا استعنا بهذا أو ذاك فى سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا متابعين وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التى بدأها أسلافنا وانقطعنا عنها فترة ونريد أن نعود إليها من جديد .

ويأتى بعد ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافى . وهذا القسم الثقافى نبتدئ فيه بشىء من تاريخ الإسلام نفسه أو بعض الحوادث التى حدثت فى ربوع الإسلام .

لقد حلّ رسول الله ﷺ بالمدينة التى نورت به ، وأخذ يعمل جاهدًا على نشر الدعوة الإسلامية متخذًا كل وسيلة لبيانها وإيضاحها .

وفى يوم من الأيام – كما يروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن جابر رضى الله عنه – أتى عمر ابن الخطاب النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال : فغضب وقال : « أتهوكون »[1] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ماوسعه إلا أن يتبعنى .

هذا الحادث رواه الإمام أحمد بوجه آخر عن سيدنا عمر رضى الله عنه ، وفيه يقول رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظّى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

ولم يكتف رسول الله ﷺ – بذلك بل قام خطيبًا ، وكان مما قال « ياأيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارًا وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولايغرنكم المتهوكون » .

ثم أمر بتلك الصحيفة فحيت حرفًا حرفًا .

ويبدو أن هذه الحادثة تكررت بصورة أخرى « فقد روى ابن جرير وغيره قال : جاء أناس من المسلمين بكتب كتبوا فيها ماسمعوه من اليهود فقال النبى ﷺ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره .

وتكررت المسألة مرة ثالثة ، فقد أخرج عبد الرازق فى المصنف والبيهق فى شعب الإيمان عن

---

(١) أى تشككون فى شريعتكم .

الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبى ﷺ بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبى عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، ثم أعاد عليها ماسبق أن قال للآخرين وهو :

والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا نبيكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم : أنا حظكم من النبيين وأنتم حظى من الأمم .

وفى مرة رابعة قال رسول الله ﷺ هذه الكلمة التى تبين مدى مايجب على المسلمين نحو تعاليم نبيهم .

لقد قال ﷺ :

« والله لوكان موسى حيًّا ماحل له إلا اتباعى » .

ولقد أحب رسول الله ﷺ أن تكون المسألة فيما يتعلق بأخذ المسلمين عن غيرهم حاسمة بائنة ، فلقد مر الصحابة فى يوم من الأيام على اليهود وهم يتلون التوراة فتخشع المسلمون فعاتبهم رسول الله ﷺ قائلا الآية الكريمة .

(أَوَلَم يكْفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إنّ فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وتمضى السنون وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ويتبع الصحابة هديه فى ألاّ يكون كتابهم وهدْى نبيهم ﷺ مجال توجيههم .

وفى يوم من الأيام بينما كانت السيدة عائشة رضى الله عنها فى بيتها إذا بها تتلقى هدية ، فظنت أنها أهديت لها من عبد الله بن عمرو فردتها وذكرت السبب فى ردها قائلة عن عبد الله بن عمرو : إنه يتبع الكتب ، وقد قال الله تعالى .

(أَوَلَم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فقال لها حامل الهدية ، إنها ليست من عبد الله بن عمرو ولكنها من عبد الله بن عامر فتقبلتها .

ويمضى الزمن والمسلمون يضعون أمام أعينهم قوله تعالى (وقد آتيناك من لدنّا ذكرًا . من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِمْلا) .

يقول الإمام ابن كثير :

يعنى من أعرض عن هذا القرآن فاتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد ، كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين على مرفوعًا وموقوفًا .

« من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

ولما تولى سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة رأى أن المسلمين فى حاجة إلى معرفة أوسع بعالم

الطب ووسائل العلاج ، وفكر فى تيسير الاستعانة لأطباء المسلمين بثقافات الأمم الأخرى فى هذا المجال ، ففكر فى ترجمة كتاب أو كتب فى هذا الموضوع ، ولكنه قبل أن يقدم على الأمر سأل نفسه : إن هذا العمل عمل لم يفعل مثله رسول الله ﷺ ، ولم يفعل مثله أحد الخلفاء الراشدين ، فهل يجوز له أن يقوم بذلك ؟

وتردّد فى الأمر ثم استخار الله فترة طويلة من الزمن حتى شرح الله صدره لتنفيذ الترجمة فأمر بها ، وكان الكتاب بين أيدي المسلمين ، ولم يذكر أحد من المسلمين لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه نهيًا ، ولم يرفع أحد منهم صوتًا بالإنكار عليه ، لا لأنه الخليفة ولكن لأنهم لم يروا فى العمل من بأس .

وقد يتساءل إنسان عن السر فى موقف الرسول ﷺ وموقف عائشة رضوان الله عليها من الإنكار على الذين يتبعون الكتب وهو موقف يختلف عن موقف المسلمين من عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : حيث كانت موافقتهم له عامة كاملة .

وهنا قبل أن نمضى فى البحث نسارع بالعودة بالقارئ إلى ما سبق أن ذكرناه من التفرقة بين مجالين .

أولها : المجال المادى ، مجال الطبيعة ، مجال المادة ، مجال الأرض والسماء ومابين الأرض والسماء . وهذا المجال لايطبع ذاتية الأمة بطابع خاص ، ولايعطيها لونًا معينًا لأن القوانين المادية والمبادئ الحسية لاتختلف من قطر إلى قطر ولامن بيئة إلى بيئة .

وإذا سايرت أمّة أمة أخرى فى هذا المجال فإنها لاتكون بذلك قد فعلت مايضر بذاتها أو يقلل من شأن شخصيتها . والمسلمون فى عصورهم الزاهرة اندفعوا إلى كشف المساتير فى المجال المادى ، فكونوا حضارة مادية خصبة ، وأفادوا الإنسانية فى الطبيعة وفى الكيمياء ، وفى الطب ، وفى الصيدلة وفى غير ذلك من ميادين الحس من جوانب المادة ، وهم وإن بلغوا حينئذ مرتبة القيادة والزعامة فإنهم لم يكونوا يتحرجون من الاستفادة فى هذا المجال بكل ما أنتجته الإنسانية من مكتشفات . .

والمجال الثانى : هو المجال الروحى ، وهو مجال يتضمن فى خطوطه العامة : العقيدة والأخلاق والتشريع وهذا المجال هو الذى يكون ذاتية الأمة ، ويطبعها بطابع معين ، ويعطيها لونًا خاصًا .

لقد استخار الله سيدنا عمر بن عبد العزيز أربعين يومًا فى ترجمة كتاب فى الطب ثم شرح الله صدره كما سبق أن بينا ، وكتاب الطب كتاب من كتب الحضارة فى جوها المادى إنه كتاب من الكتب ذات الطابع المادى ، ولابأس أن يترجم كتاب من هذا النسق أو أن يتابع أو أن يقتبس

منه ، أو أن يؤخذ فى الجو الإسلامى من مبادئه . وتسير الحياة بالمسلمين هادئة فى جوانبها الحضارية [٢] إلى أن يأتى العصر العباسى ، وتبدأ الترجمة : والترجمة لم يعترض عليها معترض فيما يتعلق بجانب الطب أو بجانب الطبيعة أو بجانب الكيمياء[٣] ، ولكن المسلمين فى أول العهد العباسى كانوا نافرين كل النفور من أن نترجم ماوراء الطبيعة اليونانية .

إن ماوراء الطبيعة يعنى بالأبحاث التى تتصل بالعقيدة ، وأجمع المسلمون على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقًّا فعندنا ماهو أحق منها وهو القرآن الكريم فى الأسلوب الإلهى :

وإذا كانت باطلا فإننا فى غنى عنها .

---

(٢) لقد كتبنا فى هذا الموضوع عدة مرات فى الكتب والجرائد والمجلات ومما كتبناه فى ذلك مايلى : إن الحقيقة التى لايختلف فيها الدارسون للدين الإسلامى هى أن الإسلام منذ نشأته يناصر العلم ويحث عليه ويوجبه : إنه يوجب العلم فى جميع الميادين وفى شتى النواحى إنه يوجب العلم بمعناه الحديث : العلم بالطبيعة وبالكيمياء ، وبالطب . . إنه يوجبه على صورة بحيث تصبح الأمة الإسلامية كلها آثمة إذا لم تصل فى هذا الميدان إلى أرقى مايمكن أن يصل إليه الإنسان .

والله سبحانه يمن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار ، ويسخر لنا الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وسخر لنا الأرض ، وسخر لنا السماء وسخر لنا مابين الأرض والسماء .

وبعبارة مختصرة : يمن الله علينا بأن سخر لنا هذا الكون بأكمله ، وأنه من شكر الله تعالى على نعمائه أن نستجيب إليه سبحانه فنسخر ماسخر لنا ، نسخره بالعلم ونتسلط عليه بالمعرفة ونمتلكه بالبحث ، ونتابع كل ذلك فى تطور مستمر وفى تحديد متتابع ، ومما لاشك فيه أنه لايتحدث أحد من المستنيرين والغيورين على الإسلام عن الغزو الفكرى فى هذا المجال – هو الوحيد الآن الذى يعبر عنه فى الحضارة الغربية الحديثة بالمجال العلمى – سواء فى ذلك روسيا وأمريكا وأوربا وهو المجال الذى يعبر فى العصر الحاضر عن التقدم والتأخر بسبب رقيه فى أمة أو ضعفه فيها .

(٣) ولكن الإسلام مع اعترافه بالجانب العلمى المادى ومع إيجابه له لايعترف به كقياس لتقدم الأمة أو تأخرها ، ولكن تقدم الأمة وتأخرها بحسب المقياس الإسلامى إنما هو بتحقيقها أو عدم تحقيقها المثل العليا فى الأخلاق التى أتى بها الإسلام ، وهنا نصل إلى الجانب الآخر من جوانب الحضارة الغربية ، أو تصل إلى القضية الثانية من القضايا التى نريد أن نحدد موقف الإسلام منها ، وهى قضية الثقافة . والناس حينما يتحدثون عن الحضارة الحديثة يتحدثون عن جانبين يتكون منهما الجانب العلمى المادى ، وقد شرحنا موقف الإسلام منه ، والجانب الثقافى النظرى وهو مانريد أن نتحدث عنه الآن ، وفى هذا المجال نبدأ بذكر حقيقتين .

أما الأولى : فهى أن النتاج البشرى كله فى الجانب الثقافى النظرى هو نتاج ظنى ولايتسم باليقين فى قليل ولافى كثير ، وهو لأنه ظنى – متعارض ومتغير ومتطور وكل شخص يقول : إن هذه القضية أوتلك – فى الجانب النظرى – هى قضية يقينية ، إنما هو شخص مخطئ عرف ذلك أم لم يعرفه .

أما الحقيقة الثانية : فهى أن الإسلام له نظام أصيل مستقل ، إنه نظام إلهى ، إنه وحى السماء معصوم ، وهو دين ، وهو عقيدة .

ومن القصص ذات المغزى العميق أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه رأى صحيفة بيد أحد الصحابة يقرأ فيها فسأله عنها فقال : إنها قطعة من التوراة ، فظهر الغضب على وجه الرسول صلوات الله عليه ونهاه من الاستمرار فى القراءة وقال له : لو كان موسى حيًّا ماوسعه إلا اتباعى . وهنا نلحظ فى وضوح تفرقة فى موقف الإسلام من الجانب العلمى المادى ، وموقفه من الجانب الثقافى النظرى . فهو فى الجانب العلمى المادى موجب وفارض ومشجع وحاث .

أما فى الجانب الثقافى النظرى المتغير المتطور الظنى القابل للخطأ والصواب فإن كل دعوة للأخذ به واعتناقه والإيمان به إنما هى دعوة عابثة ، وهى دعوة آثمة إذا ماطغت على الجو الفكرى الإسلامى ، وهى دعوة منكرة إذا ماأراد إنسان إحلالها محل المبادئ الإسلامية .

وكذلك شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق ، كانوا يعتزون بأخلاقهم ، ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المتزلة الموحاة ، لقد كانوا يعتزون بذلك لدرجة أنهم لايرون أن يكون هناك أى كتاب أو رأى يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية سواء أكانت عقيدة أم أخلاقًا . ولم يترجموا كتب الأخلاق إلى أن جاء المأمون . والمأمون بتربيته الفارسية كان عنده من التهاون القليل أو الكثير ، ولم يكن عنده من التحرج ما كان عند غيره ، فأمر بترجمة الكتب التى تتصل بما وراء الطبيعة والكتب التى تتصل بالأخلاق .

لقد قام بترجمة هذا على الرغم من النفور العام بين المسلمين المؤمنين المتدينين .

لقد ترجم كتب ماوراء الطبيعة ، ترجم كتب الأخلاق على نفور من هؤلاء الذين يرون أن العقيدة الإسلامية يجب ألاّ يكون بجوارها أى شىء آخر ، وأن الأخلاق الإسلامية يجب أن تكون مستقلة لايكون بجوارها شىء ولاتدنس ولاتتلوث بما يتوهم أنه حق بجانب الحق .

لكن الترجمة – ترجمة ماوراء الطبيعة – أخذت شيئًا فشيئًا مجالها ، وترجمة الأخلاق أخذت شيئًا فشيئًا مجالها – بل أصبحت مألوفة فى البيئة الإسلامية ، وأصبحت وكأنها شىء عادى ، وليست ترجمة ماوراء الطبيعة أقل شأنًا – فيما يتعلق بالجو الإسلامى الصحيح من الورقة التى كانت بيد سيدنا عمر .

إن العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية هما اللتان تكوّنان ذاتية المسلم ، أى أن ذاتية الأمة الإسلامية لاتتكون بكيمياء أمريكية لأن الكيمياء كما قلنا لالون لها ، ولاتتكون بطبيعة روسية لأن الطبيعة لالون لها .

حقيقة أنه لابد من الكيمياء ولابد من الطبيعة كما قلنا للقوة وللغلبة وللسلطان ولتأدية الرسالة من أجل الحق والخير .

إن الذى يكوّن ذاتية الأمة هو اللون الثقافى فيها ، وقد رأينا موقف الرسول ﷺ وموقف المسلمين الأول منه .

وعلى أى وضع إذا نظرنا إلى هذه الثقافة فى نفسها : الثقافة النظرية ، وهذا هو الجانب الذى أهتم به كثيرًا ، وأريد أن أنبه الأذهان من جديد إلى أنى أتحدث عن ثقافة لاتتصل بالملاحظة ولابالتجربة ، أى أنها ثقافة ليست بحسيّة .

أتحدث – إذن – عن الثقافة النظرية البحتة ، عن الفلسفة ، عن الأخلاق ، عن هذا الجانب فى علم الاجتماع الذى لايتصل بالملاحظة والتجربة ، عن الجانب فى علم النفس الذى لايتصل بالملاحظة والتجربة عن هذه الجوانب فى أى علم وفى أى موضوع لايتصل بالاستقراء .

إن التجربة تتحكم فتكون فيصلا فيما يتعلق بالحق والخطأ ، لكن المجالات النظرية البحتة ليس لها هذا الفيصل الذى يفرق بين الحق والباطل .

ماوراء الطبيعة مجال نظرى بحت ، وهو يختلف من فرد إلى آخر ويتعدد بتعدد اختلاف الأفراد .

إذا جئنا للجو اليونانى فإنّا نجد أن « أفلاطون » فيما يتعلق بتصور « الآلهة » يختلف عن « أرسطو » وتصور أرسطو يختلف عن تصور (الرواقيين) وتصور (الرواقيين) يختلف عن تصور (أبيقور) أو الأبيقوريين .

يصور أفلاطون الإله على أنه مثال للخير على رأس المثل ، أو مثال للجمال على رأس المثل ، ومع أن أرسطو من مدرسته فإنه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى ، ويرى أنه المحرك الأول ، وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بإرادته ، وليس هو الذى خلق العالم ، وليس هو الذى صور العالم وكونه ، بل إنه لايعلم عن العالم شيئًا مطلقًا ، إنه لا يعلم عن العالم شيئًا : يستوى فى ذلك التافه من أمره والعظيم منه إنه لايعلم حتى مجرد وجود العالم .

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون امتزاجًا كاملا : فهو سره وهو فى كل ذرة من ذراته ، وفى كل خلية من خلاياه ويأتى أبيقور ويقول : ليس هناك شىء اسمه الله ، وليس هناك إله ، وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها ، وباختلاف رؤسائها . وقبل أن نستمر فى شرح موضوع هذه الثقافة النظرية البحتة ، قبل أن أستمر فيها طويلا أريد أن أتحدث عن قصة لها مغزاها العميق كى تكون أمام أنظارنا حينما نضرب الأمثال فيما بعد :

اجتمع سقراط باثنين من الفيثاغوريين من كبار فلاسفة الفيثاغورية أحدهم اسمه سيمياس ، وكان من كبار الفلاسفة ، اجتمعوا يناقشون فيما يتعلق بخلود الروح : هل هى باقية بعد الموت ؟ هل هى مستمرة أو أنها فانية ؟

هل الإنسان حينما يموت يموت مادة وروحًا ، أو إنه يموت مادة فقط وتبقى الروح ! وهل الروح خالدة ؟

كانوا يتحدثون فى هذا الموضوع ، ويحاولون مااستطاعوا أن يقيموا الأدلة على خلود الروح ، على أنها باقية بعد الموت ، ثم تنتهى بهم الأدلة وينقطع بهم البرهان .

يقول سيمياس لسقراط : إن الموضوع مازال فى حاجة إلى بحث أكثر ، ويوافق سقراط ثم يقول متأسفًا .

إن العقل فى مجال ماوراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر فى

يوم عاصف ، أما مثل الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب ، إنه السفينة الأمينة لقطع البحر ، ويسألون جميعًا على أنه لو كان قد نزل دين يحدد هذا الأمر فإنهم كانوا يستجيبون إليه ، ويؤمنون به ويستسلمون وتهدأ نفوسهم فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولاجدال فى أن العقل فى محيط ماوراء الطبيعة لوح من خشب لقطع البحر ولكنه فى حقيقة الأمر لوح من خشب فى كل علم نظرى لامجال للتجربة ولا للملاحظة فيه .

وخذ أى مادة من المواد النظرية ، خذ ماوراء الطبيعة وخذ الأخلاق وخذ التشريع ، خذ هذه النواحى الكثيرة المتعددة التى سميت بأسماء علوم مختلفة وهى كلها نظرية – فإنك ستجد العقل دائمًا هو لوح الخشب الذى لايتلقى أن يقطع به الإنسان البحر مهما احترس ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح ، والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث وكل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم ، ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر ، وإلا لما كان فى حاجة أن ينشىء فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله .

ومعنى الفلسفة : أنها ابتداع دين بجوار الدين ، أو عقيدة بجوار عقيدة كذلك الأمر فيما يتعلق بالأخلاق ، إنها على هذا النسق . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتشريع ، إنه على هذا النسق .

وإذا ترك التشريع للعقل فسيكون هناك الاختلاف ، وإذا ترك ماوراء الطبيعة للعقل فسيكون هناك الاختلاف أيضًا . والمخرج أن نصدر فى كل هذه الأمور عن الدين ، ولامجال لرأى آخر . إذا أخلصنا لابد من أن نعتمد فى المجالات الثلاث :

مجال ماوراء الطبيعة :

مجال الأخلاق :

مجال التشريع على الدين :

هذه المجالات ثابتة فى الدين ، مستمرة لاتقبل التطور

مجال العقيدة لايقبل التطور العقيدة هى هى ، لاتختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى ، ولامن قطر إلى آخر ، ولامن زمن لزمن ، ولا من مكان لمكان .

ولاتختلف الأخلاق الإسلامية أيضًا من بيئة إلى أخرى ، ولامن مكان لمكان ، ولامن زمن لزمن ، فهى هى :

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيرًا من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامى متطور ولكن التشريع مبادئ ووسائل ، قد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محددة ، ويتركها للزمن ولكن المبادئ أو الغايات هى هى :

مثلا : مبدأ الشورى : لم يحدد وسيلته الإسلام ، أى أن الشورى نفسها مبدأ إسلامى ثابت ، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام ، وتركها للبيئات وتركها للأزمان ، يحددونها عن طريق البرلمان ، عن طريقة أخرى ، يحددونها كيفما شاءوا .

لكن الغايات ، النهايات ، المبادئ ، القواعد ، إنها ثابتة ، ويتساءل كثير من الناس وما شأن الاجتهاد إذن ؟

إن المجتهدين فى الإسلام كثيرون ، فما شأن الأجتهاد فى الدين إذن ؟ والواقع أن هذا الجانب يضلّ فيه كثير من الناس ، أو يزلّ فيه كثير من الناس .

الاجتهاد فى الإسلام معناه : أن يحاول المجتهد ما استطاع ، وأن يحاول ماأمكنه ، أن يربط بين حادثة حدثت جديدة وبين قاعدة إسلامية موجودة ، أو أن يدخل فى نطاق قاعدة إسلامية عامة حادثة من الحوادث التى حدثت جديدة ، فليس الاجتهاد إذن ابتداعًا أو اختراعًا أو تطورًا ، وليس فيه شىء من هذا القبيل ، وإنما هو محاولة جديدة كادحة دائبة مستمرة ، للوصول إلى ماكان عليه الرسول ﷺ ، لو كان الرسول موجودًا .

وإذا صح الحديث فهو مذهبى ، قاعدة تنقض كل شبهة من الشبهات التى ترمى إلى أن الاجتهاد ، إنما هو ابتداع ، أو هو اختراع ، أوهو شىء من هذا القبيل . ليس إذن فى الجانب الإسلامى تطور ، أقول هذا ، لأنه من أخطر الأمور على العقيدة الإسلامية ، وعلى الجو الإسلامى ، الفكرة التى تسود فى كثير من الأوساط وهى سائدة فى الثقافة الأوربية الآن ، أعنى فكرة التطور ، وفكرة التطور تتناسب مع الثقافة فى أوربا .

والثقافة فى أوربا – الثقافة النظرية – التى لاتتصل بالتجربة أو بالملاحظة ، الثقافة النظرية فى أوربا متطورة ، وهذا حقيق ، متطورة لأنها بشرية ، وكل ماهو بشرى من نتاج العقل البشرى فإنما هو نسبى ، وهو إذن متطور ، وقد يكون هذا التطور تطورًا إلى القديم لاتطورًا إلى شىء جديد ، يعنى مثلا مذهب الوجودية الحالى ، الذى يقال إنه مذهب جديد كل الجدة إنما هو مذهب السفسطائية القديم ، لا أكثر ولا أقل – إنه المذهب الذى يرى أنه ليس هناك حقيقة مطلقة ، وإنما الإنسان يكيف نفسه ، ويكون نفسه ويوجه نفسه .

وهو ليس فى هذا إلا فردًامن الأفراد ، له رأيه الخاص ، لذلك لايسرى رأيه على الآخرين ، لأنه ليست هناك حقائق مطلقة ، فهو عودة إلى المذهب القديم – مذهب السفسطائية القديم – المذهب الذى لفظته كل الهيئات السليمة ، إنه عودة إلى مذهب تلفظه كل البيئات السليمة .

ومذهب الوجودية فى الحقيقة والواقع لايسود إلا فى البيئات المريضة التى لاترى وزنًا للقيم

الأخلاقية ، ولا للدين ، ولاللحقائق المطلقة ، وترى أن الإنسان يكوّن نفسه من الألف إلى الياء ، مستقلا عن التقاليد ، وعن الدين ، وعن كل شيء فى المجتمع ونعود إلى فكرة التطور .

لقد نشأت مع (دارون) وكانت لها شهرة قوية فى أوساط أوربا ، وفى أوساط الشرق ، ولكن هذه الفكرة نفسها – باعتراف كل العلماء – فيها الفجوات التى نجعلها ظنية لايقينية إنها فكرة ظنية لم تصبح يقينًا ، وكثير من العلماء هاجمها وعارضها ، وأقام الأدلة على انهيارها ، ولكنها مع ذلك سارت فى بعض الأوساط الشرقية ، وأصبحنا الآن – وهذا هو الخطر الذى نحذر منه – أصبحنا الآن نرى كتبًا بأقلام المسلمين وبأقلام المفكرين الكبار ، تقول بفكرة التطور ، وكأنها حقيقة موجودة .

ومامن شك فى أن هناك التطور المادى ، لاينكر ذلك أحد ، هناك تطور من الفحم إلى وابور الغاز ، إلى البوتاجاز ، وهناك التطور من السيارة إلى الطائرة .

هناك التطور المادى لاينكر ذلك أحد إطلاقًا ، ولكن هذا التطور لادخل له مطلقًا ، ولاشأن له مطلقًا بتطور العقل ، من حيث هو عقل الإنسان .

إن الإنسان من حيث هو الإنسان لم يتطور عقله من حيث هو عقل ، لم يكن مثلا عشر درجات ، ثم أصبح خمسين درجة أو ما شاكل ذلك .

الإنسان لم يتطور إلى كائن آخر ، إنه لايزال هو الإنسان الذى وجد من عهد آدم إلى الآن ، ولكن من المؤسف أن بعض المفكرين فى الشرق يسيرون فى الأمر وكأن التطور حقيقة واقعة . وكأن التطور العقلى واقعة ، وكأنه يقين مطلق ، وفى هذا خطورة كبيرة .

أضرب مثلا للخطورة حينما تدخل فكرة التطور فى مسائل الدين « إن أحد كبار المفكرين الإسلاميين وله شهرة ذائعة فى الجو الإسلامى ، حينما أراد أن يفسر القرآن ، وحين أراد أن يفسر قصة سيدنا آدم وخلق سيدنا آدم ، وأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود ، وكان فى ذهنه فكرة التطور ، وأن الانسانية بدأت بكذا وكذا ، وأن آدم ليس هو أول الإنسانية مباشرة ، يعنى أن الإنسانية لم تبدأ بآدم مباشرة كان فى ذهنه كل ذلك ، فلما جاء يفسر القرآن ويفسر قصة آدم ، فسرها على أنها تصوير ، مجرد تصوير ، مجرد تمثيل ، مجرد قصة » .

مجرد قصة لماذا ؟

مجرد تمثيل ، لماذا !

مجرد تصوير ، لماذا ؟ .

ليخرج من فكرة التطور ، وحتى لايلتزم قضية أن آدم هو أول البشرية حقًا ، أول البشرية

خلق خلقًا جديدًا ، أنشأه الله سبحانه وتعالى ، سواه بيديه ، ونفخ فيه من روحه .

وإذا كانت قصة آدم تمثيلا ، وإذا كانت تصويرًا ، فلا يبقى شيء فى القرآن لايمكن أن يؤوّل ، إذا أولنا قصة آدم ، إذا أوّلنا قصة سجود الملائكة ، إذا أوّلنا كل ذلك . . .

وقد ذكرت فى القرآن عدة مرات ، إذا أولناها لايبقى فى القرآن أو فى الإسلام شيء لا يمكن أن يؤوّل ، وفى تأويل كل شيء القضاء على الإسلام .

وعلى هذا ففكرة التطور يجب ألاّ تدخل فى المحيط الفكرى الدينى للمسلمين ، وكل من أدخلها فى المحيط الفكرى الدينى الإسلامى إنما يضر الإسلام ويكون خطرًا على الإسلام أكثر من العدو القاتل .

هذا الصديق الجاهل يكون خطرًا على الإسلام ، أكثر من العدو العاقل .

وهذا مثل ، مجرد مثل من الأمثلة الكثيرة . وعلى كل حال ، فإن الكتب الحديثة تجدها دائمًا قائلة بفكرة التطور ، وإن الإنسانية تطورت وإنها . . . إلخ . .

كل هذه النواحى إذا أدخلناها فى محيط العقيدة ، أو أدخلناها فى محيط الأخلاق أو أدخلناها فى محيط الدين ، فإنها تجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية ، ومعنى مجموعة من المبادئ النسبية ، أنها ليست حقائق مطلقة ، وأنها يمكن أن تتطور وتتطور إلى اللانهاية ، ويأتى يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين وعن المبادئ الدينية الانفصال الكامل والانفصال التام .

فكرة التطور فيما يتعلق بالحضارة الحديثة قام بها (دارون) ويعترف اليهود أو يعترف الصهيونيون ، فى كتابهم أو مبادئهم « برتوكولات حكماء صهيون » يعترفون بأنهم هم الذين وضعوا (دارون) فى الأفق على المنصة ، وهم الذين أعلنوا عنه ، وهم الذين أذاعوا فكرته ، وهم الذين حبذوها ، وهم الذين نشروها فى كل مكان .

ولقد فعلوا ذلك لأنها تقوض الأديان من أساسها ، وهى مع ذلك كما قلنا – فكرة ظنية ، وكلما تقادم العهد بها ازداد الشك فيها . الثقافة الحديثة ، أو الحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى ، إذا رحبنا بها ، فإن ذلك يعد من الحجب التى تحجب شيئًا فشيئًا الفكرة الإسلامية والذاتية الإسلامية ، وأنه لمن المعقول أننا عندنا القرآن وعندنا السّنّة ، وقد طبق القرآن وطبقت السنة فكان ازدهار الأمة الإسلامية وكان مجدها . .

من المعقول أن نصدر فى ثقافتنا عن ذاتية إسلامية عن قرآن وسُنة ، وكل هذا البريق فيما يتعلق بالحضارة الحديثة فى جانبها الثقافى يجب ألا يخدعنا مثلا : الحرية والمساواة. ومن الغريب أن الأوربيين أنفسهم من كبار المفكرين فى أوربا نفسها ، يرون أن هذين المبدأين متعارضان :

يرون أنه إذا وجدت الحرية فلامساواة .

وإذا وجدت المساواة فلا حرية .

يرون التعارض فى المبدأين وأنهما لايجتمعان ، لأنه إذا وجدت المساواة ، فكيف يتأتى أن توجد الحرية .

ومن هذه الأشياء فى الجانب الثقافى أيضًا : مايقال من أن العلم للعلم ، أو الأدب للأدب ، أو الفن . . . كل هذه لها خطورتها فيما يتعلق بالأجواء الإيمانية ، فى جو الإيمان لايتأتى مطلقًا أن يكون الأدب للأدب ، وإنما الأدب للأخلاق وللفضيلة ، لترقية الفطر ، لإثارة الشعور الدينى الكريم ، لكل هذه المعانى .

أما فكرة الأدب للأدب فإنه لايستسيغها مطلقًا ، عقل أو قلب مؤمن ، كذلك فيما يتعلق بالفن للفن ، الفن للفن معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت .

الفن للفن أيضًا فكرة لايتأتى للمؤمن أن يقول بها وأن يمتدحها أو أن يتبناها شعارًا له هذه النواحى كلها وكثير غيرها فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة : الثقافة النظرية يجب أن نكون بعيدين عنها كل البعد ، وأن نتبع فى هذا الجانب الإسلامى وحده ، نجعله الأساس ، نجعله المصدر الموجه .

إن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة ، هى كما يقول أحد كبار المفكرين فى أوربا مثلها كمثل « الموضة » وأزياء النساء تتبدل من عام إلى عام ، ومن فترة إلى فترة .

إن « موضة » هذا العام فى علم النفس مثلا هى كـذا هى نظرية فلان ، أو هى نظرية فلان ، أو هى نظرية فلان ، والموضة فى العام المقبل أو فى العام الماضى نظرية أخرى . . . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة ، أو فيما يتعلق بالتشريع . . . إلخ .

هذه النواحى كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافى فى الحضارة الحديثة ، بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد ، وأن نقرأه لاعلى أنه حقائق ومبادئ ، وإنما على نتاج بشرى متغير متطور نسبى لاثبات له ، وإذا قرأناه على هذا الوضع انتفى بعض الضرر منه .

ويجب أن نصدر عن ذاتية إسلامية ، وعن مبادئ إسلامية ، عن قاعدة إسلامية عن جو إسلامى .

والنتيجة التى أريد أن أنتهى إليها . وهى الخاتمة إنما هى العودة إلى الإسلام .

العودة إلى الإسلام :

١ – ملاحظة وتجربة ، ومنهجًا وقوة مادية .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

العودة إلى الإسلام : من تسخير الأرض ، وتسخير السماء وتسخير مابين الأرض والسماء وتسخير الكواكب ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسخير البحار والأنهار .

العودة إلى الإسلام أقوى ماتكون فى الجانب المادى .

٢ – والعودة إلى الإسلام ، والاعتزاز بالإسلام أقوى ماتكون فى الجانب الثقافى ، سواء اتصل ذلك بالعقيدة أو اتصل ذلك بالتشريع ، أو اتصل ذلك بالأخلاق .

فى التعريف بالإيمان

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ويقول سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس . « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وفيما رواه البخارى . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فوالذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » .

وفيما رواه البخارى : عن أنس قال : قال النبى ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفيما رواه البخارى : عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن الحياء من الإيمان .

وقد كتب الإمام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه كتابًا عن الإيمان سار فيه على هدى الكتاب والسنة والصحابة والتابعين وسلف الأمة وقد قدم للكتاب بمقدمة يستدل فيها بآيات الكتاب الكريم وكانت أحاديث كتاب الإيمان كلها موجهة لليقين بأن الإيمان قول وفعل . يقول الإمام البخارى عن الإيمان :

وهو قول وفعل ويزيد وينقص قال الله تعالى . . . ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية نذكر منها .

(ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم)[٤] .

(وزدناهم هدى)[٥]

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)[٦] .

(والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم)[٧] .

(ويزداد الذين آمنوا إيمانًا)[٨] .

(وقوله : (أيكم زادته هذه إيمانًا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا)[٩] .

وقوله جل ذكره (فاخشوهم فزادهم إيمانًا)[١٠] .

وقوله تعالى (ومازادهم إلا إيمانًا وتسليمًا)[١١] .

قد أفلح المؤمنون :

وإذا كان هذا رأى البخارى رضى الله عنه فإن أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى : « مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان : قول ، وعمل يزيد وينقص » .

---

(٤) (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ، ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) . (سورة الفتح آيتا ٤ ، ٥)

(٥) (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا) .

(سورة الكهف آيتا ١٣ ، ١٤)

(٦) (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردًّا)

(سورة مريم - آية ٧٦)

(٧) سورة محمد - آية ١٧ .

(٨) (وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًاولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر) .

سورة المدثر آية (٣١) .

(٩) (وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون) .

(سورة التوبة - آية ١٢٤) .

(١٠) (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

(سورة آل عمران آية : ١٧٣)

(١١) (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانًا وتسليمًا) .

سورة الأحزاب آية (٢٢) .

ويقول عبد الرزاق حسبما ذكره الإمام النووى فى شرح مسلم .

سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله ابن عمر ، والأوزاعى ، وعمر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة ، يقولون : الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعى ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وطاوس ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك .

ويتابع عبد الرزاق الحديث فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إثباته بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب . والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وذلك أنه لاخلاف بين الجمع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه لايستحق اسم مؤمن ، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ماعرف من التوحيد لايستحق اسم مؤمن ، وكذلك إذا أقر بالله تعالى ، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لايسمى مؤمنًا بالإطلاق وإن كان من كلام العرب يسمى مؤمنًا بالتصديق فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى لقوله عز وجل .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون،الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفاته .

وماذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال الإيمان هو العمل من شرح صحيح البخارى فيقول : فإن قيل قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق . قيل التصديق هو أول منازل الإيمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازله ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا . هذا مذهب جماعة أهل السنة : إن الإيمان قول وعمل .

قال أبو عبيد : وهو قول مالك ، والنووى ، والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم .

قال ابن بطال ، وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها . فقال .

باب أمور الإيمان .

وباب الصلاة من الإيمان .

وباب الزكاة من الإيمان .

وباب الجهاد من الإيمان . وسائر أبوابه .

وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم إن الإيمان قول بلا عمل وتبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة .

وينهج الإمام الطبرى هذا النهج أيضًا فيقول : « الإيمان – كلمة جامعة الإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل » ا . هـ .

بيد أن العامة – وهى دائمًا الأكثرية – انتهت بالإيمان إلى أن أصبح – على حد تعبير الشيخ محمد عبده « يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيمانًا لايفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن .

وهذا الذى غلب على العامة من معنى الإيمان ، أثر على بعض علماء الكلام أنفسهم فتناقشوا نقاشًا طويلا فى معنى الإيمان ، وهل هو التصديق بالقلب فحسب بالغًا مابلغ هذا التصديق من الضعف والسلبية أو إنه تصديق وفعل ، وقد أراق المتكلمون كثيرًا من المداد لتحبير العشرات من الصفحات فى هذا الموضوع .

وإذا تدخل العامة فى الشئون العلمية ، وإذا تأثر العلماء بآراء العامة ، متخلفين بذلك عن القيادة ، متخلين بذلك عن القيادة الرشيدة ، فإن الأمر ينتهى لامحالة بأن ينزل العلماء إلى المستوى الشعبى « شاعرين بهذا النزول أو غير شاعرين » : ومن هنا كان الرأى يسود فى بعض أوساط المتكلمين : أن الإيمان مجرد التصديق مهما كانت منزلة هذا التصديق من الهزل والسلبية وكان من فضل الله علينا أن بين لنا سبحانه مقاييس الإيمان فى كتابه الكريم ، والصور الإيمانية فى هذا الكتاب الخالد لاتكاد تحصى .

وكان من فضل الله أيضًا أنَّ الرسول صلوات الله عليه ، بكلامه ، وفعله ، وسيرته يحقق مثلا أعلى للإيمان كما أراد الله ورسوله .

ونريد – بتوفيق الله – فى حديثنا عن الإيمان : أن نتخذ الأساس القرآن الكريم وأحاديث صحيحة رواها الإمام البخارى والإمام مسلم فى أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وقد ذكرنا بعض الآيات القرآنية فيما سبق .

أما الأحاديث : فعن أبى هريرة رضى الله عنه يقول رسول الله ﷺ ، الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان ، رواه الإمام البخارى . وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن

رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بضع وستون أو بضع وستون شعبة » فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان .

وحينما بنى سادتنا العلماء المحققون – الذين أخلصوا لله ورسوله – تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضّحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة التى تحدثت عن الإيمان : قسموا تلك الشعب إلى مايختص منها بالقلب ، ومايختص باللسان ، ومايختص بالبدن أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله ، اعتقادًا وقولا وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة نتبين أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، وأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه .

وإن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن .

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع .

وإن الجهاد من الإيمان يقول صلوات الله عليه وسلامه . « انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

ومنها نتبين أيضًا أن قيام ليلة القدر من الإيمان والإنصاف من النفس من الإيمان وبذل السلام للعالم من الإيمان . والإنفاق من الإقتار من الإيمان .

وتطوع قيام رمضان من الإيمان .

والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله عنها بالإيمان فى قوله تعالى : (وماكان الله ليضيع إيمانكم) .

ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام – تعارفًا وتوددًا من الإيمان .

وإذا ماتغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان وهو لاينعم بحلاوة الإيمان إلا . . « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار »

وأساس الإيمان على كل حال هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . والإيمان بالقدر خيره وشره .

وهذا الأساس كأساس القصر بالضبط ، وكما لايطلق على أساس القصر أنه قصر فكذلك لايطلق على أساس الإيمان أنه إيمان كامل ، وكما لايكون القصر بدون الأساس فإنه لايوجد الإيمان بدون الشهادتين .

وهذا الأساس نفسه يتبلور فى شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

فى أساس الإيمان

أشهد أن لاإله إلا الله :

من روائع مناجاة ابن عطاء السكندرى مايلى . (١٢)

« إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك .. أن يكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك » .

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ اهـ » .

إن مسألة وجود الله لم تكن فى يوم من الأيام محل بحث عند ذوى الشعور الدينى السليم . ولم ينشأ الجدل فى هذه المسألة إلا فى العصر اليونانى : فهو العصر الذى جعل منها مشكلة قابلة للأخذ والرد والقبول والرفض .

والواقع أن ظروف العصر اليونانى القديم هى التى جعلت منه مثلا سيئًا فى كل مايتعلق بالدين والخلق . لقد كان عصرًا خلا من الدين الحق ، ولم ينعم بالمعرفة الصحيحة عن طريق الوحى .

فحاولت طائفة منه أن تصل إلى الوحى عن طريق الكهانة ، ومن ذلك كاهنات معبد دلفى المشهورات .

وحاولت طائفة أخرى أن تصل إلى الوحى عن طريق النسك والعبادة والذكر ، ومن هؤلاء فيثاغورث وأتباعه ، وأفلاطون والأفلاطونيون القدماء منهم والمحدثون .

لقد حاولوا أن يقتنصوا الوحى اقتناصًا وأن يكشفوا عن الحجب ، وأن يزيلوا الأقنعة وأن يصلوا إلى الله ، فيتصلوا بالجمال والجلال والخير المطلق .

بيد أن الطريق الذى سلكوه إنما هو طريق خاطئ لأنه لم يؤسس على وحى يرسم طريق الهداية الصحيح ، إنما أسس على نهج عقلى بشرى أو على تقاليد متوارثة .

ومن أجل ذلك لم ينتج الثمرات المرجوة ، ثم هو طريق صعب المرتقى ، لأنه يعارض النزعات

---

(١٢) حينما يكتب الكاتبون عن الإيمان يبدءون عادة بإثبات وجود الله سبحانه ويتخيلون أن هذه المسألة أهم مافى موضوع الإيمان ، وهذا النهج – فيما نرى – لايقره دين ولاتقره فطرة . وقد حاولنا أن نستفيض فى بيان رأينا فى هذا النهج مبينين أن الدين لا يضع مسألة وجود الله موضع بحث ، وأن الفطرة السليمة لاتقر بذلك .

الحيوانية فى الإنسان ويحاول السمو بها وإعلاءها ، ويريد أن يرقى بالإنسان إلى مايقرب من المستوى الروحى الملائكى .

ولكن بنى البشر فى الأغلب منهم يخلدون إلى الأرض ويتبعون أهواءهم . لذلك كانت قلة قليلة تلك الفئة التى حاولت اتباع هذا التيار فى صرامة وإخلاص .

أما الأغلبية العظمى من اليونان فقد اتبعوا التيار الذى يعتمد على العقل البشرى اعتمادًا كليًّا ، وكان زعيمهم الأكبر فى ذلك أرسطو فهو الذى وطد أركان العقل البشرى ، وأشاد به كأساس للبحث فى عالم ماوراء الطبيعة وفى عالم الفضيلة أو الخير .

وما كان العقل فى يوم من الأيام – عند الحكماء المصريين أو حكماء الهنود – أهلاً لأن يكون مصدر المعرفة فى عالم الغيب .

وأخذ العقل – عقل أرسطو ومن لف لفه – يجادل ويمارى فى الحقائق – صغرت أو كبرت ، دقت أو جلت ، واضحة كانت كوضوح النهار أو خفية كأنها غلفت بقطع من الليل المظلم ، وتجرأت أقلامهم على تناول عالم الغيب وعالم الخير بالإنكار أو الشك أو ترجيح الوجود أو توجب العدم .

وحاول كل زعيم أن يصور الأمر فى هذين الميدانين – ميدان ماوراء الطبيعة وميدان الأخلاق – بحسب مزاجه وأهوائه ، وبحسب ماتمليه عليه ثقافته وبيئته ، وبحسب ماتمليه عليه طبيعته الجسمانية وجبلته الخلقية .

وانتهى الأمر بأن حاول المثبتون الرد فحاول المنكرون تعليل الرفض : وزالت قدسية الموضوع ، وأصبحنا أمام جو من اللجاج والمماراة لايليق بجلال الله وعظمته (ماقدروا الله حق قدره) .

ولو قيض الله للبيئة اليونانية جوًّا من الخير والهدى ، ولو أنعم الله عليهم بنشأة رسول فيهم ، لما كان هذا الانحراف الذى انتشر فيهم ، منذ أرسطو وانتشار الوباء الخبيث والذى تغلغل حتى وصل به الأمر وهو انحراف منحرف – إلى أن أصبح وكأنه الوضع الطبيعى ، فساد فى كل بيئة وغزا كل عقل ، وكلما تقدم به الزمن ازداد رسوخًا وثباتًا وازداد انتشارًا حتى لقد غزا الأديان نفسها التى تأبى أن تقره أو تعترف به ، لقد تغلغل فى المسيحية فوضع رجال المسيحية مسألة وجود الله وقضية الفضيلة موضع البحث ونزلوا إلى مجال المجادلة والمماراة .

وأخذ هذا الوضع يتخطى القرون حتى جاء الإسلام فوضع الأمر فى نصابه ووجه الأذهان إلى أن الأمر الأساسى إنما هو مسألة الوحدانية « أشهد أن لإاله إلا الله » وجه الإسلام الأذهان فى

عنف ، وفى قوة إلى التوحيد ، لا إلى إثبات الوجود ، لقد وجه الأذهان إلى أن الله لا يحتاج فى ثباته وفى وجوده إلى دليل ، وهو – على العكس – الدليل على غيره فغيره ثابت به ، والعالم ثابت به ، والسماوات والأرض والعرش والكرسى . كل ذلك موجود بوجوده ثابت بثباته والوجود بأكمله محتاج فى كل لحظة إليه فضلا عن احتياجه إليه فى نشأته الأولى ووجوده الأصلى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إنه يمسكها فى كل آونة وفى كل لحظة فإذا ماتخلى عنها طرفة عين تلاشتا فكانتا هباءً وكانتا عدمًا ، وكل ذرة فى العالم ، وكل خلية فى كائناته إنما ثباتها بالله وقيامها به .

ومثل الإنسان كمثل أى كائن آخر من حيث وجوده وقيامه بالله ، وقد كرمه الله وأعطاه الكثير من المنح والمزايا ، ووهبه هذا التمييز والفهم ، وسخر له الكثير من العوالم الأخرى ، وجعله خليفة فى الأرض ، ومن أجل ذلك كانت مسئوليته فيما يتعلق بتصحيح الصلة بينه وبين الله عظيمة خطيرة . أما تصحيح هذه الصلة فإن ذروتها العليا ومثلها الأسمى إنما هو ما أمر به صلوات الله وسلامه عليه فى قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونُسكى ومحياىَ ومماتى لله ربِّ العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

وفرق هائل بين من يتخذ هذه الآية القرآنية شعارًا ومن يحاول – متجاوزًا قدره – الاستدلال على وجود الله بمخلوق من مخلوقاته . إن الفرق بينهما هو الفرق بين طريق الهدى والصواب وطريق الجدل والشك . وجاء الإسلام – كما قلنا – ليضع الأمور فى نصابها وليصحح الأوضاع التى انحرفت .

ومن هذه الأوضاع المنحرفة الشرك بالله ، والإنسان يشرك بسبب الضعف على وجه العموم وقد يكون هذا الضعف فقرًا ، وقد يكون جهلاً ، وقد يكون طمعًا وجشعًا ، وقد يكون خوفًا وفزعًا وقد يكون غير ذلك ، ومهما يكن من أمر الشرك فإنه أينما وجد ليس إلا مظهرًا من مظاهر الضعف .

وحاول الإسلام أول ماحاول أن يظهر النفوس من هذا الضعف وأن يعيدها بالتوحيد – إلى مجالات العزة والكرامة .

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . فكانت دعوته للتوحيد .

أما مافى القرآن مما تخيله الناس استدلالا على وجود الله ، وأعتقد أن القرآن يذكره للاستدلال وجودا لله ، فليس إلا بيانًا لمظاهر قدرة الله وعنايته بالعالم ، ومن ذلك مثلا : (وفى الأرض قطعٌ

متجـاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صِنْوانٌ وغير صِنوانٍ يُسقى بماء واحد ونُفضل بعضها على بعض فى الأكل) .

وإن الله سبحانه وتعالى جعل :

(وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا ، وجعلنا سراجًا وهّاجًا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجًا ، لنخرج به حبًّا ونباتًا ، وجنات ألفافًا) .

و (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سماوات طبـاقًا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير . . .) .

وما مثل هذا فى تصور قدرة الله كمثل : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفًا . فيذرها قاعًا صفصفًا ، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا ، يومئذ يتّبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا ، يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا ، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) .

إن فى ذلك وكثير غيره إنما ذكر ليبين عظمة الله وجلاله وقدرته ويبين رحمته بعباده وعنايته بهم .

ومامن شك فى أنه يمكن أن يؤخذ من ذلك أدلة كثيرة على وجود الله .

وما من شك فى أن الأدلة التى تؤخذ من ذلك يمكن أن تصاغ فى أسلوب منطقى : فى قياس يشتمل على المقدمات والنتائج ، ويكون متفقًا مع قواعد المنطق الأرسطى ومبادئه ، ولكن ذلك لن يكون أبدًا تصويرًا لهدف من أهداف القرآن . فالقرآن لم يضع قط وجود الله موضع شك حتى يحتاج إلى الاستدلال عليه .

ومن القصص التى تروى على أنحاء شتى وبأساليب مختلفة تتفق فى الجوهر وتختلف فى الرسم مايحكى من أن بعض مشاهير العلماء ألف كتابًا ضخمًا فى إثبات وجود الله فأقام له أصدقاؤه حفلة تكريم من أجل عمله هذا الضخم ، ومرَّ بهم بعض الصالحين فأخذوا يحدثونه عن عبقرية المؤلف فسأل :

ومتى غاب الله حتى يكون فى حاجة إلى إثبات ؟ فوجم الجميع ، ولم يستطع المؤلف الإجابة ، وتركهم الرجل الصالح وهو يردد .

(قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) قال رجل للنووى : الصوفى المعروف : ماالدليل على الله ؟ قال : الله – قال الرجل : فما العقل ؟

قال : العقل عاجز ، والعاجز لايدل إلا على عاجز مثله :

من رام بالعقل مسترشداً سرحه فى حيرة يلهو
وشاب بالتلبيس أسراره يقول فى حيرته هل هو

والنتيجة التى نريد أن نصل إليها هى : إن روح القرآن إذًا هى قيادة النفوس إلى التوحيد (ومأأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، قل إنما يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) .

وتأتى مشكلة الملاحدة والوجوديين المنكرين لوجود الله ، ماذا نفعل بإزائهم ؟ إن مثل هؤلاء لاوجود لهم فى مجتمع سليم طاهر ، ويكفى اعتزالهم كمرض خبيث ينفر الإنسان منه ويكفى عزلهم أن يفسدوا الآخرين : تلاميذ كانوا أو طلبة أو عمالا أو زرّاعًا ولن تمر فترة طويلة عليهم فى هذا الوضع حتى يرتدعوا ويعدلوا عن اتباع أهوائهم وشهواتهم .

ومالوجودية إلا لهوى . إنما هوى النفس التى لاتحتمل القيام بالواجب الاجتماعى والدينى .

والإلحاد ضعف : لأنه محاولة للفرار من التكاليف . ومع كل ماتقدم فإنه لايتأتى لى أن أترك هذا المجال دون أن أذكر قصة سمعتها حديثًا هزتنى من الأعماق ووقعت من نفسى موقعًا من الروعة والجلال لا يمكننى تصوير مداه .

لقد ذكر لى هذه القصة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ مدثر الحجاز وكيل جامعة أم درمان الإسلامية ورئيس الطريقة التيجانية بالسودان .

فى إحدى القرى النائية المنعزلة من قرى السودان كان يعيش رجل عابد صالح وكان يقضى وقته بين المسجد والبيت ، لم يكن يفارق القرية يومًا ما ، والقرية فى انعزالها كأنها بالنسبة له ، العالم كله .

وفى يوم من الأيام ولظروف معينة ، غادر هذا الرجل الصالح القرية بصحبة صديق له وجدًا فى السير حتى وصلا إلى الطريق الذى يؤدى إلى المدينة .

ومإن وصلا إلى الطريق حتى رأيا – بطريق المصادفة – رجلا من رجال الجيش الإنجليزى

بملابسه العسكرية مترف المظهر ، متحليًا بكل مايمكن أن يتزين به رجل الجيش المترف الأنيق .

ولم يكن الشيخ الصالح قد أتاحت له الظروف رؤية مثل هذا المنظر فى قريته أو فى عالمه المنعزل النائى الذى اختصره الشيخ – مع صغره – من قرية إلى بيت ومسجد .

وتأمل الشيخ رجل الجيش الإنجليزى فى دهشة ثم سأل صديقه مشيرًا إلى هذا الشىء الغريب ، ماهذا ؟ فقل له صديقه : هذا كافر .

وعاد الشيخ يسأل فى دهشة أشد وفى استغراب أقوى – أهو كافر بالله ؟

فقال صديقه : نعم . وما إن نطق صديقه بذلك حتى تملك الشيخ شعور بالاشمئزاز منعه من أن يتلفظ أو ينطق .

وغمره إحساس بالغثيان أخذ يقوى ويزداد بسرعة سريعة وإذا بالشيخ يتقايأ اشمئزازًا وغثيانًا وتقززًا من هذا الكافر .

هذه هى القصة :

أترى تصويرًا أدق للشعور بالنسبة للملحد من هذا الاشمئزاز ؟ أترى صدقًا أصدق من الغثيان من الكافر؟ وأى قلم يبلغ فى التعبير مابلغ هذا الشيخ وأى أسلوب .

إن جميع الأعراف فى جميع أرجاء الكون تتفق فى الاشمئزاز ممن ينكر الجميل ، وهذا الاشمئزاز يتفاوت بنسبة قيمة الجميل الذى يسدى ، وبنسبة درجة التكرار التى تقابله ، وينسبه صفاء النفس التى تعلم ، أو ترى هذا النكر .

والإنسان إيجادًا وتصويرًا وخلقًا من صنع الله ، وهو بصرًا وسمعًا وذوقًا وإحساسًا وشعورًا من صنع الله ، وهو عقلا وفكرًا من صنع الله ، وكل نعمة ظاهرة وباطنة . ونعم الله لاتعد – إنما هى من صنع الله .

(وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) (ومابكم من نعمة فمن الله)

إن الإنسان – مادة ومعنى ، حسًا وعقلاً ، شعورًا وفكرًا – وما بالإنسان من نعم ينقلب فيها ليلاً ونهارًا صباحًا ومساء – إن كل ذلك من الله .

فإذا ماكفر إنسان بالله فإنه يكون أخس من أن يعاقبه الإنسان بالصفع ، وأحقر من أن يبصق الإنسان فى وجهه . . ولايستأهل إلا الاشمئزاز إلى درجة التقايؤ . أما الجزاء فى الدين الإسلامى : يستتاب فإن لم يتب : قُتل مرتدًا .

* * *

ومما لاشك فيه أن من الوسائل الكريمة التى تحول دون انتشار هذه القيادات الفاسدة الملحدة

فى المجتمع مايرجع إلى علماء الدين : فإنهم وقد هيأ الله لهم أن يتولوا قيادة المجتمع دينيًّا لاشك يكون تأثيرهم جارفًا إذا كانوا مثلا عُليا للفضيلة : للفضيلة فى أسمى معانيها وأشملها أى إذا كانوا حقًّا بالمنزلة التى ترضى الله ورسوله علمًا وخُلقًا ، وحبًّا للخير ، وإخلاصًا فى كل مايأتون ومايدعون .

وقد بين الله مقاييس الخير وموازين الفضيلة وبين طريق الشر وسبيل الضلال . وعلماء الدين أعرف بذلك من غيرهم فمسئوليتهم أشد وواجباتهم أصرم وتأثيرهم فى المجتمع باديه وحاضره ، لاشك كبير . والله يهدينا جميعًا سواء السبيل .

وأشهد أن لا إله إلا الله :

إن درجات المعرفة لاحصر لها ، وليس فى اللغة مايسد الحاجة فى التعبير عن كل درجة منها ولكن فى اللغة كلمات تعبر عن مراحل طويلة ، تبتدئ بالمعرفة التى تكون جهلا لتنتهى بالمعرفة التى هى اليقين الكامل وتبتدئ بالمعرفة السلبية التى تدفع إلى العمل لتنتهى بالمعرفة الإيجابية الفعالة .

وفيما يتعلق بمعرفة أن لاإلهَ إلا الله يمكن أن نورد بعض التعبيرات المتدرجة فى الرسوخ والثبات تبعًا لتفاوت حالة الأفراد .

فبعض الناس ، يقول : لاإله إلا الله .

وبعضهم « ينطقها » .

وبعضهم « يقتنع » بها .

وفريق « يؤمن » بها .

وقلة « تعتقدها » .

وقليل « يوقن » بها .

ولكن المثل الأعلى فى الإسلام أن « نشهد » أن لاإله إلا الله .

« ونشهد » تلك هى « ذروة اليقين » أو على حد التعبير الصوفى « حق اليقين » والوصول إلى مرتبة الشهادة ليس بالأمر الهين ، ولكنه ليس بالمستحيل فإذا ماتاب الإنسان إلى بارئه ، وقتل نفسه ، وأحيا روحه ، وشرب من العين التى يشرب منها عباد الله ، والتى يفجرونها بأنفسهم تفجيرًا : بالتوبة الخالصة وبما ذكره القرآن من وسائل هذا التفجير إذ يقول شارحًا هذه الوسائل . (يُوفون بالنذر ، ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا ، إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا) .

إذا ما أخلص الإنسان التوبة ، وأناب إلى الله ولجأ إليه رق قلبه ، وصفت روحه فيحدث له فى لحظات أن يغيب عن العالم وعما حوله وعن نفسه ، ويتلاشى كل شىء ويضحك ويصير أثرًا بعد عين أو هباءً منثورًا ، عند ذلك يشهد « أن لا إله إلا الله » ويصير بذلك شهيدًا والشهيد من شهد .

ومن شهد وهو فى هذا العالم أعرق فى صفة التشهيد ممن شهد أثناء الوفاة أو بعد الممات . ومن « شهد » أن لا إله إلا الله فقد رفعه الله إليه ، رفعه إليه وهو معنا فى عالم الكون والفساد .

وإذا مارفعه إليه بالشهادة صار ربانيًا وامتنع عليه حينئذ أن يشرك بالله فأصبح أحديًا وأصبح من الموحدين .

والتوحيد هو شهادة أن لا إله إلاالله . وهو عقيدة وحالة .

وليس هناك من صعوبة كبيرة فى أن يصبح التوحيد عقيدة ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة فى أن يصبح التوحيد حالة .

إن نفى الشرك من أقوال الإنسان وأفعاله مؤسسًا ذلك على نفيه من قلبه ومن نفسه درجة لا ينالها إلا الأقلون ، وهم الذين تحرروا من رق المادة ، ومن عبادة الأوثان .

ورق المادة وعبادة الأوثان هما من السمات العامة التى تسود البشرية فى مختلف ظروفها ، يتمثل ذلك فى عبادة المال . وعبادة الجاه ، وما من شك فى أن الخضوع للشهوات – وهى كثيرة – إنما هو عبادة لها ، والإنسان بطبعه يخلد إلى الأرض ويبيع هواه وتستعبده الأرض ، ويستعبده هواه ويبتعد بذلك – وبمقياس درجة استعباده عن الله سبحانه وتعالى .

وكل خضوع لغير الله وكل عبودية لما سوى الله شرك بالله ، إنها تتنافى مع التوحيد ، إنها لاتنسجم مع لاإله إلا الله .

والشرك الخفى كثيرة ألوانه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هؤلاء قلة ، ومن الظلم فى الإيمان أو من الإشراك فى الإيمان مثلا أن يتصدق الإنسان للمراءاة أو للفخر أو يصلى ويصوم غير ناظر إلا للناس ومايقولونه عنه .

عن أبى هريرة – فيما رواه الإمام مسلم – سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمته فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هوجرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال . فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟

قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .(١٣) .

وكل عمل صغر أو عظم لايراد به وجه الله وإنما يراد به غيره فهو إشراك به سبحانه . والتلبيسات الآن كثيرة وقد أتت بسبب الجانب الثقافى اللادينى من المدنية الغربية وقد تسربت إلينا فى خفاء غزتنا غزوًا لاشعوريًا وكان من أثر ترددها أن ألفناها وأصبح مايخالفها فى نظرنا باطلا ، واتسم ذلك الباطل بسمة الحق وانعكست الآية .

وقد صورت لنا هذه المدنية أن من أسمى الأعمال إنما هى الأعمال التى يأتيها الإنسان إرضاء لضميره .

بيد أن إرضاء الضمير ليس هدف المؤمن الحقيقى ، فهدفه الوحيد إرضاء الله . وإرضاء الضمير إذًا كهدف للعمل إنما هو تلبيس وانحراف .

أما السبب فى أنه تلبيس وانحراف فهو أننا إذا أخذنا إرضاء الضمير قائدًا وباعثًا هدفًا ضللنا سواء السبيل : ذلك أن الضمير متغير متقلب متحول مختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن ثقافة لأخرى . وهو فى الجملة لااستقرار له ولاثبات . فلو عملنا الأعمال إرضاء للضمير لأسسناها على شفا جرف هار .

وقد أنزل الله قواعد للأخلاق ثابتة خالدة على الدهر فهى المقياس ، واتباعها واجب سواء وافق الضمير ، أو خالفه ، وهذا الاتباع نفسه يجب أن يكون هو الملحوظ فيه إنه طاعة لله وخضوع له واتباع لأمره . ومن التلبيسات أيضًا مايقال الآن كثيرًا من أن هذا العمل أوذاك إنما

---

(١٣) رواه مسلم والنسائى ورواه الترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

يراد منه المصلحة العامة . والمصلحة العامة هذه يقولها كل إنسان ، ويتمسح فيها بالحق والباطل ، وكل إنسان يقيسها بمقياسه الشخصى . وبمنفعته الذاتية وهى مصلحة عامة إذا اتفقت مع مصالحه ، أما إذا اختلفت فهى باطل وهى فساد فى نظره وفى قوله ، وهى على كل حال تتأرجح وتميل نفيًا وإثباتًا مع القائل أو المدعى ومع ميوله وأهوائه .

وإذا أردنا إذًا أن نخرج عن دائرة الذبذبة والميل مع الهوى فعلينا بالتزام المبادئ التى حددها الوحى ، فهى وحدها التى تعرفنا بالمصلحة العامة أو بالصالح العام وهى وحدها التى تقودنا فى كل الأحوال إلى الخير والحق ، وهى التى بها تزكية أنفسنا إذا أردنا بها وجه الله .

ومن هذه التلبيسات : الاعتداد بالنفس أو الاعتزاز بالنفس ، فى مسائل الدين ، وذلك هو مايمكن أن نعبر عنه الآن بالدين العقلى . ومعنى ذلك فى حقيقة الأمر تحكيم العقل فى الدين وإخضاع الدين للعقل . وهذه النزعة تسود عند هؤلاء الذين لايسيطر عليهم الشعور الدينى السليم .

وعادة تنتهى هذه النزعة بجعل الدين فلسفة وجعله نظرًا عقليًا أكثر منه خضوعًا وطاعة وإيمانًا ، ويصبح الدين بذلك مجرد معرفة تختلف فيها الأنظار والعقول وتتضارب فيها الآراء والأفكار ، ويصبح الأمر أمرَ هوًى ومزاج وذوق ، ويخضع الإنسان لعقله لا لله ، فيبتعد بذلك قليلا أو كثيرًا عن « لا إله إلا الله » ويدخل فى زمرة « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

والوسائل التى عالج بها الإسلام موضوع قيادة الناس ليشهدوا أن لاإله إلا الله كثيرة ، ويمكن أن يقال بصفة عامة : إن الإسلام كله قائم على الشهادتين . ونذكر من هذه الوسائل أن القرآن يشرح فى كثير من الآيات أن الله سبحانه .

ضمن الرزق .

وحدد الآجال .

فهو سبحانه يقول فى ضمان الرزق .

(وفى السماء رزقكم وما توعدون) .

ويؤيد ذلك بالقسم بنفسه سبحانه وتعالى فيقول بعد ذلك مباشرة .

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) .

ويقول سبحانه (ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) . ويقول لمن كانوا يقتلون أولادهم خوف الفقر . (ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أما تحديد الآجال فيقول الله فيه . (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون) (لكل أجل كتاب) ويقول الله تعالى للذين آمنوا : (يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى

الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير) وإذا كان الله سبحانه ضمن الرزق وطلب أن نسعى إليه . (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

فكل جشع وقلق وحيرة واضطراب ولجوء إلى غير الله فى الرزق إشراك بالله ، وإذا كان الله قد حدد الآجال فإن الجبن والفرار إشراك بالله .

والمؤمن إذًا مطمئن إلى رزقه ساع إليه ، وهو يعلم أن الآجال بيد الله فليس إذًا بجبان ، وإذا ما اطمأن إلى رزقه ، واطمأن إلى أن كائنًا من كان لاينقص من أجله زالت العقبات فى طريق وصوله إلى التوحيد عقيدة وحالا .

وإذا ماكان موحدًا عقيدة وحالا فقد شهد أن لا إله إلا الله وكان بذلك محاولا الاقتداء برسول الله ﷺ الذى قال له رب العزة جل وعلا . (قُلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ومَحْيايَ ومماتى لله رب العالمين .لاشريك له)

أشهد أنّ محمدًا رسول الله :

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله ، ولامفر من هذه الشهادة ، بل إنه لاتقبل – فى الأوضاع المستقيمة .

شهادة أن لا إله إلا الله « دون شهادة » وأن محمدًا رسول الله ، وهما إقرار متكامل بالإيمان إقرار لايتجزأ .(١٤) . كيف نشهد أن محمدًا رسول الله ؟

يقول الإمام الغزالى : « فإن وقع لك الشك فى شخص معين أنه نبى أم لا فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمعرفة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم ، ولاتعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعى رحمه الله فقيهًا وكون جالينوس طبيبًا ، معرفة بالحقيقة ، لابالتقليد عن الغير ، بل إن تتعلم شيئًا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضرورى بحالتهما فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ونريد الآن أن نشرف بمرافقة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لنشهد بعض سناء النبوة ولألائها فيه صلوات الله عليه .

---

(١٤) لقد سرنا ، فيما يتعلق بوجود الله . على أن الأمر لايحتاج إلى إثبات ، أما فيما يتعلق بإثبات صدق الرسول ﷺ ، فإن الأمر على العكس : ذلك أن القرآن وجهنا إلى ظروف وملابسات وإلى أدلة وبراهين : تثبت صدقه ﷺ ، فإذا حاولنا هنا الاستفاضة فى إثبات صدقه ﷺ فإنما نتبع فى ذلك التوجيه القرآنى الكريم .

إنه سليل أمجاد : يحدثنا التاريخ عن شرفهم وعراقة أصلهم وعن المكرمات التى كانوا يقومون بها من أجل الإنسانية ومن أجل الخير .

فقصىّ – أحد أجداده ﷺ – ابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت دار الندوة هذه هى مجلس الشورى وهى البرلمان ، وهى المجلس التنفيذى بل إنها كانت أوسع من ذلك كله ، ففيها كان أمر قريش كله وماأرادوا : من نكاح أو حرب ، أو مشورة فيما ينوبهم .

ولايعقدون لواء حرب لهم ولالقوم غيرهم إلا فى دار الندوة يعقده لهم قصى : ولاتخرج عير قريش فيرحلون إلا منها ، لايقدمون إلا نزلوا فيها تشريفًا له (لقصى) وتيمنًا برأيه ومعرفة بفضله ، ويتبعون أمره كالدين المتبع لايعمل بغيره فى حياته وبعد موته .

وقصى هذا من أجداد الرسول ﷺ وتابعه ابنه عبد مناف ، فاضل هو الآخر فى الذورة والسنام شرفًا فى قومه .

وكذلك كان أمر بن عبد مناف : الذى أنقذ أهل مكة من الموت جوعًا فى السنين الجدب التى أصابتهم والتى ذهبت بأموالهم .

أما عبد المطلب الجد المباشر للرسول ﷺ فقد كان من حكماء العرب وكان من حكماء قريش ، « وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها : كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق والنهى عن قتل الموءودة ، وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده أو من ناحية والدته فإنها خلقًا وعراقة أصل : من أشرف بيوت مكة وأكرمها وأسماها بشهادة المؤرخين عن بكرة أبيهم .

فكان الرسول ﷺ – كما يقول ابن هشام – « أوسط قومه نسبًا ، وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه .

ولد – صلوات الله عليه – فأرخ ميلاده ، ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

كان ميلاده تمهيدًا لذلك بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى فى هذه الفترة التى سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام برعايته وعنايته ليكون أهلاً لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية جمعاء عن المعنى الصحيح . فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه .

وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع حاكمًا كان أو محكومًا وزوجًا

كان أو أبًا ، أو ابنًا أو أخًا أو رئيسًا فى العمل أو عاملا . . إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف .

وكلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته .

والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه ، بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف وترمز إلى ذلك السيرة النبوية برموز جميلة فتحدثنا .

أنه فى ليلة ميلاده ، غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع إيوان كسرى ، وخبت نار الفرس أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام .

إن عمد الشرك والضلال ، والانحراف ، والظلم ، والاستعباد بدأت تتهاوى وتنهار منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور والهداية ، والرشاد وشيك الظهور والانتشار ، وسمى المولود ، محمدًا ، أما سبب هذه التسمية فهو من جانب أن آمنة أتاها – فيما يروى – آت حين حملت به ، فقال لها :

إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى .

أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه « محمدًا » ومن جانب آخر : فهو حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له . ماسميت ابنك ؟ فقال محمدًا فقيل له :

وكيف سميت باسم ، ليس لأحد من آبائك ، وقومك .

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم وذلك حسبما يروى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب ، وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب : كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ثم عادت كأنها شجرة وعلى ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها .

فقصها ففسرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه : محمدًا .

وأخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد ، وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط والأمل والتفاؤل . وإن

الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطًا ، فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها ، وتنشط دوابها ، وأن تسير الرحلة رخاء ، وأن يكون محمد فى براءته وطهارته ، وفى طفولته الباسمة ونضارته المتألقة هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد ﷺ بيت حليمة بهجة وسرورًا ، ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وسكانه ويبارك الله فى كل شىء فيه ، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة فيزيد عطفها على محمد ﷺ ، ويزيد حنانها عليه ، فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان وينغرس كل ذلك فى نفسه ، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم ،

وفى عامه الرابع ﷺ فى هذه السن التى يبتدئ الإنسان فيها بنوع من التمييز يمكن أن يؤدى به إلى بعض الأعمال التى قد تخرجه من براءة الطفولة المطلقة وطهارتها الناصعة ، فى هذه السن ، حصنته رعاية الله بما تعبر عنه السيرة النبوية : بشق الصدر ، وهذا الرمز هو كما يرويه الإمام مسلم : صاحب الصحيح قال : عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه : يعنى مرضعته إن محمدًا قد قتل . فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . لقد استخرج جبريل حظ الشيطان من قلبه فى هذه السن المبكرة فكان كما تقول السيدة آمنة : والله ماللشيطان عليه من سبيل .

وحقيقة إنه صلوات الله وسلامه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة – حينما كان رسول الله ﷺ شابًا فتيًا قويًا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة .

لقد كانت بيوت الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفى هذه وتلك المغنيات والراقصات الماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى رضى الله عنه ، أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : ماهممت بشىء من أمر الجاهلية إلا مرتين . إحدى المرتين : أنه ﷺ : كان فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش . فقال لصاحبه .

« اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة ، وكان بها عرس فيها لهو وزمر ، فلما دنا من الدار . ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله له .

وفى المرة الأخيرة قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم فيها ، كما ألقى فى المرة الأولى وهذا الخبر الذى يفيدنا عصمة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن شرور الجاهلية ومفاسدها : يعرفنا بأمر آخر ، وهو رعاية محمد ﷺ للغنم قبل بعثه .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه يرعاها فى بادية بنى سعد . وقد كان يرعاها فى مكة وقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه أن موسى عليه السلام بعث وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم أهلى بأجياد ، إنما جعل الله هذا فى الأنبياء كما يقول صاحب الروض الأنف ، تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أممهم رعاية لهم .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى صلوات الله وسلامه عليه .

وأشهد أن محمدًا رسول الله .

وصفه قومه بالأمين ، لما رأوه ولاحظوه وحققوه وأيقنوا به : من صفات تتمثل فيها الأمانة واضحة وضاءة .

لقد كان أمينًا على نفسه ، فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس .

وكان أمينا على الناس فلم ينتهك عرضًا ولم يوقع بعض القوم فى بعض بالنميمة ولم يغتب .

وكان أمينًا على الأموال التى تودع عنده ليتاجر بها ، وليحفظها ، فلم يختلس ولم يسرق . وكان أمينًا على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ، ولامغالاة .

وكان أمينًا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها إنه الأمين . . . أجمع عليها القرشيون وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود واستلُّوا السيوف ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم ، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول آت ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمدًا وصاحوا : « إنه الأمين » .

والأمين : تعنى الصادق المخلص ، فالصدق والإخلاص : عنصران تتكون منهما الأمانة وكانت هذه الأمانة معروفة عنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، فى شبابه وفى حياته كلها وهو القائل فيما بعد : لا أمان لمن لا أمانة له .

وعند بدء (دعوته جهرًا) حينما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال :

يامعشر قريش : فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا فقالوا مالك يامحمد ؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم ، أن خيلا بسفح الجبل ، أكنتم تصدقوننى ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وماجربنا عليك كذبًا قطّ .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة . . . حتى عدد الأفخاذ من قريش – إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولامن الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا « لاإله إلا الله » .

وإذا كان رسول الله صلوات وسلامه عليه قد طرح الثقة بنفسه على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم ، فإنه كان مطمئنا واثقًا من حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها مايجعل رأى قريش قبيحًا .

لقد كانت حياته : البراءة الكاملة ، والطهر التام . وهذا مادعاه إلى أن يتحدى فى صراحة ، وأن يعلن فى وضوح أن حياته تثبت صدق مايقول :

ولو تمثلت الأمانة – الصدق والإخلاص – فى كل من يحيطون به من المكيين لماكان فى حاجة إلى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفى الإخبار ، بأنه رسول فتكون الاستجابة .

ولقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون : لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين : أى لما توفر فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر وآمن ورقة ، وغيرهم ، بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفون فيه ، ولما يعلمونه من حياته .

ولقد أقر بهذه الصفة : – صفة الأمانة – أبو سفيان فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول ﷺ ، سأله هرقل قائلا . هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال : فقال أبو سفيان : لا . وكان استنتاج هرقل . أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

سأل هرقل أبا سفيان أيضًا عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى . فقال له هرقل : سألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر .

وحديث هرقل هذا مع أبى سفيان الذى رواه البخارى وروته كتب الحديث ، وكتب السيرة : جدير بالتأمل . فهو استنتاج عاقل ، ومنطق مروى ، ونأخذ منه الآن ما يتصل بحياة الرسول ﷺ ، وندع مايتصل بالرسالة لما بعد : يقول هرقل لأبى سفيان .

سألتك عن نسبه ، فذكرت : أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا .

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت : أن لا .

قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه . . ا . هـ

وإذا نظرنا إلى حياة الرسول ﷺ من ناحية الوراثة أو من الناحية النفسية . . فإننا نجد : أنها تحقق صدقه .

لقد كانت حياته – صلوات الله وسلامه عليه – شرحًا مستفيضًا ، وتوضيحًا كاملا وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون ، ومايتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن علامات الأنبياء .

« أنه يوجد لهم قبل الوحى : خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات المنافرة لها ، كأنها منافرة لجبلته .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام ، مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره ، فانكشف ، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره .

ودُعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم .

بل لقد نزهه الله عن ذلك كله ، حتى أنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة ، فقد كان ﷺ ، لايقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

« إننى أناجى من لاتناجون » ا هـ .

ومن الملاحظات الدقيقة : التى وجه ابن خلدون الأذهان إليها مشيرًا بها إلى أن الملابسات والظروف والجو الذى عاش فيه الرسول ﷺ وحياته قبل البعثة وبعدها إنما كان كل ذلك خيرًا وفضيلة ، سواء من ناحية سلوكه الشخصى ، أو من ناحية صلته بملك أو وحى يقول ابن خلدون :

وانظر لما أخبر النبى ﷺ ، خديجة رضى الله عنها بحال الوحى أول مافاجأته وأرادت اختباره فقالت : « اجعلنى بينك وبين ثوبك ، فلما فعل ذلك ذهب عنه »

فقالت : « إنه ملك وليس بشيطان » .

ومعناه أنه لايقرب النساء ، وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه ، أن يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه ملك .

يعنى : إن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك » اهـ .

هذا النهج الذى نهجناه فى هذا البحث ، والذى اتجه إليه ابن خلدون ، واتجه إليه من قبله هرقل ، هو نهج الفطرة ، ونهج العقل وهو النهج القرآنى : إنه نهج الفطرة ، ولذلك قالت السيدة خديجة رضى الله عنها ، على البداهة للرسول – حينما فاجأها بخبر الوحى وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » قالت له :

« كلا . . . والله لا يخزيك الله أبدًا : إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدم وتُقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ونحن إذن حينما ننهج هذا النهج . فإنما نتأسى بالقرآن الذى بين أن حياته صلوات الله وسلامه عليه ، تقف دليلا واضحًا على أنه : صادق فى كل مايقول : فهو على خلق عظيم . (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه . « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

وهذا الجانب الخلقى فيه : يعرفه قومه ، ومواطنوه . حق المعرفة ، فقد كانوا يعرفون محمدًا ، كما يعرفون أبناءهم وإخوتهم ، لاتخفى عليهم من سلوكه خفية .

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ويوجه القرآن تفكيرنا : إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، كان أميًّا فما كان يتلو من قبله من كتاب ولايخطه بيمينه : إذن لارتاب المبطلون .

(وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطُّه بيمينك إذًا لارْتاب المبطلون) .

ثم إن مما يلفت النظر فى قوة : أنه مكث فيهم أربعين سنة ، لايتحدث عن رسالة ولانبوة ومضى عهد الشباب الطموح لم يعلن فيه شيئًا ، ولم يتحدث فيه بزعامة ولاملك ولانبوة ، فلما اكتمل نضجًا ، وعقلا ، تحدث عن اجتباء الله له واختباره لأداء الرسالة .

(قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولاأدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون)

ويتحدى القرآن المنكرين فى صدقهم ، وإخلاصهم وإن شئت فقل : فى أمانتهم فيعرض عليهم أمرًا واحدًا سهلا لايشق عليهم تنفيذه .

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد)

ويزيد القرآن على ذلك كله : التحدى بالقرآن الكريم .

(وأشهد أن محمدًا رسول الله)

وما من شك فى أن كل شخص مخلص ، يستمع إلى الدعوة الإسلامية : يقر مع النجاشى : إن الذى جاء به محمد ﷺ ، والذى جاء به عيسى عليه السلام : يخرج من مشكاة واحدة .

لقد كان النجاشى يؤمن بعيسى عليه السلام إيمانًا لايخالجه فيه شك ، فلما سمع وصفا لموضوع الدعوة الإسلامية آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، إيمانًا كإيمانه بعيسى عليه السلام فى صدقه ، وفى أنه يستمد دعوته من الله .

لقد قالها النجاشى حينما سمع جعفر بن أبى طالب يقص أمر الجاهلية وأمر الإسلام ، وقد عاش جعفر بن أبى طالب حياة الجاهلية ، وعاش حياة الإسلام وكل الأخبار والوثائق : تؤيده فيما يتعلق بالجاهلية .

والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة تؤيده فيما يتعلق بالإسلام يقول جعفر :

« أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف .

فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا : نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله : لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وعدَّد عليه أمور الإسلام .

فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا وحرمنا ماحرم الله علينا ، وأحللنا ماأحل لنا .

فلما سمع النجاشى ذلك . وقر فى قلبه يقين لايتزعزع بصدق محمد . فقال كلمته المشهورة السابقة .

أما هرقل فيما رواه البخارى ، فإنه حينما سأل أبا سفيان عن الدعوة الإسلامية ، ذكر له أبو سفيان أن محمدًا ، يأمر الناس :

« أن يعبدوا الله وحده ولايشركوا به شيئًا وينهاهم عن عبادة الأوثان ، ويأمرهم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وصلة الرحم ، فقال هرقل :

إن كان ماتقول حقًا فسيملك ماتحت قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن

أنه منكم ، فلو أنى أعلم أننى أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ،

هذا النهج : من الاستدلال بالدعوة على الصدق وجعل النظر فى الدعوة إحدى الوسائل التى تسلم مع غيرها من الملابسات إلى اليقين بصدق الداعى .

هذا المنهج الذى اتخذه هرقل والنجاشى هو المنهج الذى أقره الإمام الغزالى ، فإنك إذا : « أكثرت النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ماقاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله : « من عمل بما علم ورثه علم مالم يعلم » وكيف صدق فى قوله :

« من أعان ظالمًا ، سلطه الله عليه » . وكيف صدق فى قوله .

« من أصبح وهمومه هم واحد – هو التقوى – كفاه الله هموم الدنيا والآخرة فإذا جربت ذلك فى ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضرورى لاتتمارى فيه بنبوته عليه الصلاة والسلام .

إن النظر إلى الدعوة الإسلامية فى نظر الإمام الغزالى هو إحدى الوسائل التى تثبت صدق الرسول ﷺ . وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال : العالم الاجتماعى الكبير ابن خلدون وهو يستوعب فى نظرة عامة – الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات .

وننقل هنا ماكتبه خاصًّا بموضوع الاستدلال بالدعوة ، حينما تكون الدعوة خيرًا محضًا كالدعوة الإسلامية على صدق الرسول فيما يدعيه يقول : ومن علاماتهم أيضًا .

دعاؤهم إلى الدين والعبادة : من الصلاة والصدقة والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه ، وفى الصحيح أن هرقل حين جاءه : كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام ، أحضر من وجد فى بلده من قريش ، وفيهم « أبو سفيان » ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : « بم يأمركم » .

وقال أبو سفيان : « بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف . . إلى آخر ما سأل فأجابه فقال : إن يكن ماتقوله حقًّا فهو نبى وسيملك ماتحت قدمى هاتين .

والعفاف الذى أشار إليه هرقل : هو العصمة فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ﷺ ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة . اهـ .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوع الرسالة الإسلامية فإننا نجده فى صورة دقيقة الهدف الذى

حدده الله من إنزالها ، وهو الرحمة العامة ، يقول تعالى لرسوله الكريم : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

والرحمة إذن هى الطابع العام ، لكل التعاليم الإسلامية سواء فى ذلك ما يختص بالمجتمع أو ما يختص بالفرد ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالجانب العقدى أو بالجانب الأخلاقى ، أو الجانب التشريعى .

وهذه الرحمة تظهر فى مختلف ميادين النشاط الإنسانى بصورة متعددة ، فتظهر فى المجتمع بمظهر العدالة والأخوة ، وقد ربط الإسلام المجتمع بعضه ببعض برباط كرباط البناء المحكم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » .

ويتماسك كتماسك الجسد الحى الذى يسعد جميعه أو يشقى جميعه ، بسعادة أعضائه أو بشقائها « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى .

وهذا الإحكام ، وهذا الترابط : إنما كان بسبب العدالة السارية التى تكبح شهوات الجموح ، وترد من غرب الطامع ، وتفىء بالمسرفين إلى سبيل الاعتدال . والأخوّة بجوار العدالة عامل ثان من عوامل الترابط والتماسك .

والمؤمنون : لوحدة أهدافهم ، ولوحدة آمالهم : هم إخوة متعاونون . (إنما المؤمنون إخوة) .

وتظهر الرحمة فى الفرد – فى أسمى معانيها – فى صورة التجرد لله سبحانه وتعالى : (ألا لله الدين الخالص) .

وهذا الدين الخالص : إنما هو العبودية الكاملة لله وحده ، وإذا ماوجدت هذه العبودية ، وجد الإيثار والتضحية ، والبذل والفداء ، ووجد كل خلق كريم ، وكان البعد عن كل خلق ذميم وأصبح الإنسان الذى يتمثل فيه ذلك رحمة ، أينما حل وحيثما أقام ولكنه هو نفسه : يصبح أيضًا ، بعبوديته هذه فى كنف الله تعالى وفى رعايته ، وكان آمنًا على نفسه ، وعلى ذويه ، سعيدًا بعناية الله تعالى به وتوفيقه له ، فهو إذن مغمور برحمة الله .

والمثل الأعلى الذى تمثلت فيه الرسالة الإسلامية خير تمثيل ، إنما هو : رسول الله ﷺ ، لقد كان خلقه القرآن كما جاء على لسان عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، لقد خالط القرآن فى روحه وبدنه ، وامتزج ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالرسالة الإسلامية وامتزجت به فكانت هى الرحمة المرسلة ، وكان هو الرحمة المهداة .

وإذا نظرنا إذن إلى الرسالة الإسلامية ، فإننا نشهد أن محمدًا رسول الله صلوات الله ورحمته وتحياته وسلامه عليه .

صور إيمانية

ومن صور الإيمان السامية التى نتطلع إليها كنبراس مضىء ، وكمثل أعلى ننظر إليه فى احترام وقداسة ، ونحاول أن نتخذ منه أسوة وقدوة : الصور الآتية .

تروى كتب السيرة النبوية ، وكتب الأحاديث الشريفة : أن رجالا من أشراف قريش مشوا إلى أبى طالب ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فى عزم مصمم ، وفى إرادة مريدة ، فعظم على أبى طالب من جانب فراق قومه وعداوتهم له ، ولكنه من جانب آخر لم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه ، ووقع فى حيرة مريرة ، واستغرق فى تفكير عميق ثم بعث إلى رسول الله ﷺ وقص عليه نبأ قومه ثم قال له :

يا ابن أخى : ابق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، وفى لمحة فكرية عميقة مستغرقة تكشف لرسول الله ﷺ المستقبل بدون نصرة عمه ، فإذا به يزداد ثقة بالله ، وإيماناً بنصره وإذا به يقول :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ثم قام واثقاً بالله تعالى ثقة لا تزعزعها الأعاصير ، ثقة تميد دونها الجبال ، ولا يميد فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يابن أخى ، فأقبل رسول الله ﷺ فقال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

وإن الشجاعة الأدبية المؤمنة لا تتمثل حقيقة إلا إذا كانت هناك معارضة قوية ، وكلما زادت المعارضة ، وكلما قويت حتى تصبح تهديداً منذراً ووعيداً مهدداً كانت الشجاعة الأدبية عند المؤمن بالحق ، والمؤمن بالصواب مثلا أعلى ، ورجولة كاملة ، وهذه الحادثة التى رويناها ، لا تمثل ظاهرة عابرة فى حياة الرسول ، صلوات الله عليه ، وإنما تمثل شعاراً دائماً .

قال عتبة بن ربيعة يوماً ، وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده « يا معشر قريش » ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك : حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يزيدون ويكثرون فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال :

يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة والكمال فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً .. تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع . »

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال : افعل .

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فُصِّلتْ آياته قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعْرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنَّةٍ مما تدعونا إليه ..)

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم : قالوا « ما وراءك يا أبا الوليد » قال « ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » .

يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوّا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : « هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدالكم »

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : إن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة .

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث أخو بنى عبد الدار ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن الأسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى أمية والعاص ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض .

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه » .

فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه « وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا له »

« يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت إنما تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً ، تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً ، فربما كان ذلك – بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم .

وصورة من صور الإيمان حققها الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وكم حقق الصحابة من صور إيمانية .

لقد خرج الرسول ، ﷺ ، مع الجيش ليعترض طريق قافلة قريش ردًّا على ما أخذوه من أموال المسلمين ظلماً واغتصابًا فأتاه الخبر عن قريش بمسيرتهم ليمنعوا قافلتهم ، فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصدّيق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال : وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ، ولم يكن الرسول ﷺ قد سمع قول الأنصار ، ولم يكن أحد منهم قد تكلم فقال ﷺ : أشيروا علىَّ أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دورنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا ، فكان رسول الله ﷺ ، يخاف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم ، فلما قال رسول الله ﷺ ، قام سعد بن معاذ وتذكر كلمته بأكملها ، لأنها من الدساتير الرائعة الواجبة التحقيق فى الصلة بين الجيش المخلص وقائده المؤمن .

قال سعد : والله أكأنك تريد يا رسول الله ، قال أجل ، قال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لَصُبرٌ فى الحرب صُدقٌ عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وكان السير على بركة الله ، وكان النصر بتوفيق الله .

ومن الصور الإيمانية التى قصها القرآن الكريم غير مرة ، ووضعها ، وضّاءة متلألئة ، أمام أنظار المسلمين فكانت عبرة ، وكانت حافزاً : قصة السحرة الذين أتى بهم فرعون مغالباً بهم سيدنا

موسى ، فإنه لما تبين لهم الحق ، قالوا على ملأ من الأشهاد وفى وجه فرعون « (آمنا برب هارون وموسى) .

وثارت ثائرة فرعون ، وغلى مرجل غضبه . وهددهم بإنزال أفظع ألوان العذاب فماجبنوا ، وما تخاذلوا .

ولنترك مجال الحديث للقرآن يصور لنا هذه القصة فى سورتين كريمتين : سورة الأعراف وسورة طه .

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون ومَلَئِهِ فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جِئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ، قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم لمن المقربين ، قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ، ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ، قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنّا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لمّا جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

ويقول الله تعالى متحدثاً عن فرعون فى سورة طه : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينّك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوىً ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضُحى . فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجْمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًّا وقد أفلح اليوم مَن استعلى . قالوا يا موسى إما أن تُلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا

حبالهم وعصِيُّهم يخَيَّلُ إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجّدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

مؤمن آل فرعون

ويقص القرآن الكريم علينا قصة مؤمن أخفى إيمانه ليكون أكثر فاعلية فى مساعدة المؤمنين ، إنه مؤمن ومن آل فرعون .

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا : ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم[١٥] وما كيد الكافرين إلاّ فى ضلال . وقال فرعون ذرونى[١٦] أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى إنى عذت[١٧] بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا[١٨] أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات[١٩] من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم . إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إنْ جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب[٢٠] مثل دأب[٢١] قوم نوح

---

(١٥) واستبقوا نساءهم .

(١٦) أى اتركونى أقتله .

(١٧) التجأت إليه متحصنًا به .

(١٨) بسبب أنه يقول ربى الله فلا يقوله فرعون .

(١٩) بالحجج الواضحات وهى المعجزات التى شاهدوها .

(٢٠) الأحزاب الأمم والطوائف التى هلكت من قبل وأبادها الله بسبب الإشراك به والتكذيب بأنبيائه وإتيان المعاصى .

(٢١) مثل الجزاء الذى نزل بقوم نوح وعاد وثمود ومن أتى بعدهم .

وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومَنْ يُضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السمٰوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب . وقال الذى آمن يا قوم اتبعوا أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنّما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفَوِّض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

صور تتعارض مع الإيمان

مثل الملحد :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين،ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض . واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) .

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسموات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال ، والمحيطات ، والنجوم والكواكب ، كل ذلك من آيات الله ، هذا الإبداع المحكم الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره هذه الآيات التى تحيط بالناس ، أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته . حاول بعض الناس الانسلاخ منها ، فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم ،والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون ، ولقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأى وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله فتهيئوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان . وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم إذ أخذوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم . وسواء كنا بصدد من أخلف إلى الأرض أو بصدد من اتبع هواه ، فإن مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

ولكن لِمَ يلهث فى كلتا الحالتين ؟

إن الذى أخلد إلى الأرض مهما بسط الله له فى الرزق فهو ضيق بحياته لأنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة – مهما أوتى الإنسان منها – فإنها – ما دام الإنسان جشعاً – لا تنتهى إلى إرضائه ، لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لطلب ثانيًا – ولو كان له واديان لطلب ثالثاً . وإذا ضيق الله عليه فى الرزق فإنه يلهث ، وذلك واضح .

ومن آثر اتباع الهوى فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ولا على اطمئنان يسكنه وهو ضيق بالحياة

ذرعاً لأن هواه لا تحده حدود ، ولأن خياله لا يكبح جماحه مبدأ ، ولا خلق كريم ، ولا مثل أعلى ثابت ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث .

وهذا المثل إنما مثل الذين كذبوا بآيات الله وقد أنزله تعالى ليتفكر فيه الناس وليتعظوا به ولعله يقود إلى الهداية والرشاد هؤلاء الذين انحرفوا عنها ..

فى صفات الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم

لقد أبان الله عز وجل عن الكثير من صفات غير المؤمنين فقال تعالى فى سورة (القلم) :

(فلا تطع المكذبين[٢٢] ، ودّوا لو تدهن فيدهنون[٢٣] ، ولا تطع كل حلاف مهين[٢٤] ، همّاز بنميم[٢٥] ، منّاع للخير معتدٍ اثيم ، عتل بعد ذلك زنيم[٢٦] ، ان كان ذا مال وبنين[٢٧] ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم[٢٨]) .

هذه بعض أوصاف غير المؤمنين تكون فيهم متفرقة أو مجتمعة كل بحسب درجته فى الإشراك بالله ، والإلحاد . ثم يقول الله تعالى بعد هذه الآيات مباشرة : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) ....

وصورة أصحاب الجنة من الصور التى تتعارض مع الإيمان الصحيح .

---

(٢٢) الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا برسله .

(٢٣) ودوا لو تلين لهم فيلينون لك . أى : وهؤلاء المكذبون أن تمالئهم بإجابتك إياهم إلى الركون إلى باطلهم فيمالئونك باتباع بعض ماتقول دون إيمان منهم به .

(٢٤) كثير الحلف حقير .

(٢٥) عياب : يمشى بين الناس بالنميمة للإفساد بينهم .

(٢٦) يمنع الخير : كلما استطاع - عن الغير - ويتجاوز العدالة إلى الظلم بالتعدى على الناس كثير المعاصى .

والعتل : الجاف فى المعاملة ، الغليظ فى السلوك . والزنيم : الدعىّ فى نسبه أى من ينتسب إلى غير أبيه ومعنى « بعد ذلك » أى مع كل هذه القبائح والآثام فإن هناك ماهو أقبح منها وهو زنيم .

(٢٧) يقول صاحب الكشاف عن هذه الآية : إنها متعلقة بقوله (ولاتطع) يعنى ولاتطعه مع هذه المثالب لأنه كان ذا مال وبنين . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما وعده على معنى لكونه مشمولا مستظهرًا بالبنين . كذب بآياتنا .

(٢٨) المعنى سنضع بعلامة على أنفه أى سنجعله فى غاية الذل والمهانة جزاء بما كذب وتكبر .

صور أصحاب الجنة

وهى قصة قديمة حديثة ، إننا نقرؤها على أنحاء متعددة فى آثار الماضين ، ونشاهدها على ألوان مختلفة فى حوادث عصرنا الراهن .

ومجمل القصة كما يرويها القرآن أن جملة من الأولاد ورثوا عن أبيهم بستاناً يانعاً ناضراً « إنه جنة » .

فلما حان قطاف الثمار الناضجة الشهية وطنوا العزم ، وصمموا الإرادة ، وأقسموا على أن يستأثروا بجميع ما حملت وأن يخصوا أنفسهم بالثمين والخطير ، ولا يدعوا لفقير ولا لمسكين من حظ .

وسولت لهم أنفسهم وسول لهم الشيطان ، أنهم أحق بكل ثمرة فيها من الفقراء والمساكين ، أليسوا أصحاب عيال ؟ أليسوا أصحاب أسر ضخمة ؟ وكيف يطمئنون على رزقهم فى الغد ؟ إن الغد مجهول ، ولا يدرى الإنسان ما يأتى به المستقبل من أحداث فعليهم إذن أن يمنعوا تسرب أية ثمرة من هذه الثمار إلى أيد محتاجة أو بطون جائعة تتمثل فى الفقراء والمساكين .

ولما ارتفع صوت أوسطهم يدعوهم إلى حق الله زجروه ، ولم تجد كلمة الحق منه عندهم آذاناً مصغية ولا قلوباً مفتحة .

لقد بيتوا هذا العزم بليل ، وقدروا أمراً ، وقدر الله أمراً .

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت جنتهم خراباً ولا شجر فيها ولا ثمر .

وجاء هؤلاء الذين دبروا المؤامرة بليل ، جاءوا متلصصين حذرين ، جاءوا وهم يتخافتون ألا يدخلها اليوم عليكم مسكين . فلما رأوها وقعوا فى حيرة ، وظنوا أنهم ضلوا الطريق وتبلبلت أفكارهم أخذاً وردًّا ، فلما تيقنوا من الأمر أسقط فى أيديهم وكان ذلك درساً قاسياً وكان عبرة ، وكان عظة .

وفى لمحات من التركيز الواعى ، أصبح عندهم الاستعداد الكافى لأن يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ، وهنا ارتفع صوت أوسطهم .

(ألم أقل لكم لولا تسبحون)

ووجد هذا النداء آذانا مصغية وقلوباً متفتحة فنطقوا فى إخلاص . (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) . وأخذوا يستعرضون أمرهم . (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) فقد تدارسوا فيما

بينهم الأمر واستنتجوا منه العظات والعبرة ، وانتهوا إلى الوصف الصادق الذى ينطبق عليهم فى مؤامرتهم ضد الإنفاق فى سبيل الله فقالوا :

(يا ويلنا إنا كنا ظالمين)

ثم تابوا توبة نصوحاً خالصة إلى الله فى صدق وكانت نهاية قولهم .

(إنا إلى ربنا راغبون)

والله قد يربى بالابتلاء ، كما أنه قد يبتلى بالنعم . والمؤمن الحق الذى – لا يفرح بالنعمة إلا على أساس أنها توصله إلى مرضاة الله ، ولا يقنط للابتلاء لأن الصبر عليه إنما هو مرضاة الله ، وأن المال قد يكون ابتلاء إذا أقبل وقد يكون ابتلاء إذا أدبر ، وقد يكون نعمة إذا أقبل ، وقد يكون نعمة إذا أدبر ، والمثل الأعلى هو ألا نجعل المال فى إقباله وإدباره إلٰها يعبد من دون الله ، وأن نسمو بأنفسنا حتى لا نجعلها من عبيد المال ، وحتى نحررها من رق الذهب والفضة وذلك بأداء حق الله ، والإنفاق فى سبيله .

عن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله ﷺ « إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا لما أوحى إليه فجئته ذات يوم فقال : إن الله عز وجل يقول : « إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له الثانى ، وإن كان له الثانى لأحب أن يكون له الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : خلتان يحبهما الله عز وجل ، وخلتان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء . وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد بعبد خيراً : استعمله فى قضاء حوائج الناس .

والصورة التى تتعارض مع الإيمان فى هذه القصة إنما هى الشح والبخل التى غمرت أصحاب الجنة ، قبل التوبة وقبل العودة إلى الله ، فكان الابتلاء خيراً إذ أنه كان سبباً فى أن تعمر قلوبهم بالإيمان .

قارون

كان قارون من قوم موسى ، وقد نشأ فى ربوع مصر ، وآتاه الله ثراءً عريضاً ورزقه من المال مالا يكاد يحصى ولا يعد ، وهيأ له من وسائل الحياة الهانئة وأسبابها الشىء الكثير ، فكان مع ثرائه الواسع قوى الجسم وضىء الصورة إلى درجة أن كان يسمى « المنور » وكان إلى ذلك طلق اللسان ، جذاب الحديث ، أتاه الله كل ذلك . وآتاه أكثر من ذلك ، فكان منطق الحكمة أن يؤدى لله حق

الشكر على نعمه ، وأن يتصرف فيما منحه الله إياه تصرف المعترف بالفضل الذى لا ينكر الجميل .

ولكن نفسه كانت تتطلع إلى غير ذلك . لقد أجال بصره فى بيئته وفى عشيرته فلم يجد ما يساعده على أن يكون حاكماً ، أو صاحب ولاية ورئاسة ، فأخذ ينسلخ من عشيرته وينفصل عن قومه ، ويتقرب إلى فرعون يداهنه ، ويتملق كبرياءه ، ويتزلف إليه حتى أصبح من جلسائه وفى فترة من الفترات وجد نفسه ينعم بجاه الثروة ويستمتع بجاه السلطان .

فانتشى بهذا المجد الزائف ، وملأه الغرور ، واستولى عليه الكبر ، ورسخ فى نفسه أن السعادة إنما هى الثراء والجلوس مع فرعون .

ولما وقر فى نفسه ذلك ، نسى الله أو تناساه ، فتعود عادات الذين لا دين لهم من ازدراء العشيرة واحتقار الفقراء ونضوب معين الرحمة من القلب ، واعتبار أن الحياة الدنيا هى كل شىء . وأن المثل الأعلى إنما هو الاستمتاع على أى وضع كان ، وفى أى صورة حدثت .

وسارت الحياة به على هذا النمط رخاء فترة من الزمن فاعتقد أنها ستسير به هكذا إلى النهاية . . ولكن ، وفى يوم من الأيام بينما كان يجلس قارون مع فرعون وهامان دخل موسى عليه السلام يعرض عليهم الرسالة التى كلفه الله بتبليغها ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب .

لقد كان المنتظر من قارون أن يدافع عن موسى ، إن لم يكن من أجل الحق الواضح فمن أجل العصبية والجنسية ، ولكنه ضرب بالحق ، وبالعصبية عرض الحائط ، وجارى فرعون ، حرصاً على ماله ، واحتفاظاً بثروته ، وقال كما قال فرعون : « ساحر كذاب »

ومن أجل الإبقاء على ثروته جارى فرعون فى إسرافه وطغيانه فقال موافقاً له اقتلوا الذين آمنوا معه (مع موسى) واستحيوا نساءهم .

ولما قال فرعون (ذرونى أقتل موسى) لم يحاول قارون الدفاع عن رسول الله ، وإنما الذى فعل ذلك رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .

وارتكب قارون كل ذلك إيثاراً للمال ، وخوفاً على الثروة من أن يصادرها فرعون لو خالفه فيما يرى من رأى ، وغاب عنه أن الثروة والملك والدنيا والآخرة بيد الله وحده ، وكما أنه سبحانه المانح الوهاب فإنه تعالى المانع القابض .

ولما رأى بعض الصالحين من قوم قارون أن الثروة والجاه أفسداه تشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به ، تلطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى أمور خمسة هى فى الواقع القواعد العامة المثالية لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى القانون

الذى يجب أن يخضع له أهل الغنى قالوا له :

١ – إنك مباه بثروتك ؛ فخور بها ، فرح بكثرة المال ، وما ينبغى أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر ، فإن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

٢ – وقد أتاك الله الكثير المتنوع فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واتجه فى كل ما تأتى وما تدع إلى تقوى الله ومرضاته .

٣ – والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات فى هذا الطريق بالعمل الصالح الذى سيكون رصيدك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

٤ – وأحسن كما أحسن الله إليك ، فاجعل زكاة مالك مساعدة الفقير وزكاة قوتك نصرة الضعيف وزكاة جاهك معاونة المظلوم حتى يسترد حقه .

٥ – ولا تبغ الفساد فى الأرض : إن الله لا يحب المفسدين .

ولكن هذه المبادئ السامية : التى إذا عمت كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة لم تلق أذناً مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخراً متحديا لا يبالى . (إنما أوتيته على علم عندى) .

لقد أوتيت هذا المال بسبب تدبيرى وحكمتى وحسن تصريفى للأمور ، وحدسى الذى لا يخطئ فى شئون التجارة ورأيى الصائب فى ارتفاع الأسعار ونزولها ، وأنكر بذلك أى أثر إلهى للنعمة التى ينعم بها .

وتناسى قارون وهو فى نشوة الثراء ، وحماسة الجدل ، الأخبار الصحيحة التى تدل على أن الله سبحانه أهلك كل ذى جاه لم يتق الله فيما أنعم به عليه ، ولم يؤد حق النعمة مالا كانت أو قوة أو رئاسة .

(أو لَمْ يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وأراد قارون أن يتحدى وأن يسخر وأن ينعم بالتحدى والسخرية ممن نصحوه فخرج يوماً على قومه فى موكب كأبهى ما يكون من الزينة والأبهة ، وكأضوأ ما يكون بريقاً وزخرفاً لقد خرج على قومه فى زينته – فى كل زينته – فمدت إليه الأعين ، وأخذ بريق الذهب الذى يتحلى به الركب يخطف بالأبصار ، ولمعان الفضة المحلاة بها سروج الخيل يخلب الأفئدة .

وتهادى الركب بقارون وهو ينظر يميناً وشمالا فى كبرياء سافر ، وفى غرور مكشوف ولما رأى هذا المنظر الذين يسيرون بحسب قانون الغرائز ويريدون الحياة الدنيا فتنهم بريق الذهب ، ولمعان

الفضة وزخرف الموكب فقالوا فى شهوة غلابة وفى جوع إلى المال نهم .

(ياليت لنا مثل ما أُوتى قارون ، إنه لذو حظٍّ عظيم)

ولكن الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم ردوا عليهم منبهين : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً) .

وسنة الله لا تتخلف عادة ، نذكر منها فيما نحن بصدده قوله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمْس) .

وقوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

وإذا كانت هذه سنة الله فى الأرض (وفى القرى) فماذا ينتظر أن تكون فى قارون وأمثاله ؟ إنها : (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

ولما رأى الذين تمنوا مكان قارون بالأمس ما حل به رجعوا إلى الله وأنابوا إليه (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) .

أما العبرة من كل ذلك فيلخصها القرآن – عند انتهاء قصة قارون – تلخيصاً جميلا موجزاً ، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) .

وإلى هنا انتهت قصة قارون ، وكان يمكننا أن نقف عند هذا الحد ، ولكن هناك بعض الطرائف والملاحظات ، يقول الله تعالى : عن قارون : (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أُولى القوة) .

١ – يقول صاحب البحر المحيط : « سميت أمواله كنوزاً لأنها لم تؤد الزكاة وعلى ذلك فإن الأموال التى تؤدى فيها الزكاة لا تدخل تحت قوله تعالى (الذين يكنزون الذهب والفضة) .

٢ – أما عن المفاتح التى تنوء بها العصبة أولو القوة ، فقد قال أبو مسلم رأياً له طريفاً جدًّا فى تفسيرها فقد قال : المراد من المفاتح ، العلم والإحاطة كما فى قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب) ، والمراد : « وآتيناه من الكنوز هذه لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها .

٣ – يذكرنا ثراء قارون بأثرياء المسلمين فى العصور الماضية وكان من هؤلاء عبد الرحمن بن

عوف ولكنه رضى الله عنه ، كان يؤدى حق الله كاملا فى ماله ، حتى لقد تبرع يوماً لفقراء المدينة بقافلة كاملة مكونة من خمسمائة جمل بما تحمل من تجارة إذن – فالمال إنما يكون فتنة إذا لم يؤد حق الله كاملا فيه – وكذلك الأولاد إنما تكون فتنة إذا لم يؤد الوالد حق الله والوطن بتربيتهم خير تربية .

فى قوانين إلٰهية خاصة بالإيمان

والقانون معناه : علة ومعلول ، سبب ومسبب ، مقدمة ونتيجة ، أى أن هناك ارتباطاً بين مقدمات تسمى علـلا وأسباباً ، وبين نتائج تسمى معلولا أو مسببات .

وإذا كانت قوانين العالم المادى ، وهى أيضاً قوانين إلٰهية – تطرد عادة ، فإن القوانين التى سنذكرها أثبت وأقوى لأن الله سبحانه أعلن صدقها وصحتها .

وهذه الفتوى :

إنما نقدمها لهؤلاء الذين يعتقدون أو يسيرون فى حياتهم كما لو كانوا يعتقدون أن العمل الصالح والتقوى والتوكل ، والصدق والإخلاص إنما هى أمور من أجل الآخرة فقط ، ونفعها إنما يكون يوم الحساب .

ومما لا شك فيه أن نفعها يوم الحساب كبير ولكن الله سبحانه وهو أصدق القائلين ، يبين لنا أن نفعها فى الحياة الدنيا يكون أيضاً نفعاً كبيراً ، وأن فائدتها فى سلوكنا اليومى وفى تصرفاتنا ، وفى أمتنا ، وفى السكينة تغمر قلوبنا ، وفى إزالة الحيرة والخوف من قلوبنا . . فى كل ذلك وغير ذلك من وجوه الخير بالنسبة لنا ، وبالنسبة لأهلنا . . كبير . .

فى فائدة الإيمان بالنسبة للفرد
القوانين الإلٰهية الإيمانية المتعلقة بالفرد

وإذا تحقق المؤمن بالإيمان الصادق فإنه يكون قد فاز بخيرى الدارين . ومن أعظم ما يفوز به أن الله يصبح وليه ، ويخرجه من الظلمات إلى النور .

(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) .

ويهديه الله الصراط المستقيم .

(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) ويتكفل الله بنجاته .

(ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًّا علينا ننج المؤمنين)

ويتكفل الله بنصره فى الدنيا والآخرة .

إن الله سبحانه ينبه أولا على أن النصر من عند الله . (وما النصر إلا من عند الله) . وينبه ثانيًا إلى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ثم يرشد إلى أن نصر المؤمنين حق عليه سبحانه . (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) .

ويؤكد ذلك مبيناً أن نصره سبحانه يتضمن النصر فى الحياة الدنيا ولكنه لا يقتصر عليها وإنما يتحقق فى الآخرة أيضاً ، يقول سبحانه :

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

ولكنه سبحانه يبين فى صورة لا لبس فيها هؤلاء الذين ينصرهم فيقول (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

والتقوى داخلة فى نطاق الإيمان ومن قوانينها : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم) .

(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

والتوكل داخل فى نطاق الإيمان وقانونه : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . ومن الإيمان الرحمة ولها قوانين :

١ – الراحمون : يرحمهم الرحمان .

٢ – ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

٣ – لا تنزع الرحمة إلا من قلب شق .

٤ – عدم الخزى فى الدنيا والآخرة وهذا القانون أعلنته السيدة خديجة رضوان الله عليها حينما أقسمت للرسول ﷺ قائلة :

كلا والله ما يخزيك الله أبداً .

ثم عللت عدم الخزى بقولها :

إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب العدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وهذا الوصف إنما هو تفصيل لأوضاع الرحمة أو هو الرحمة مفصلة ، ومن القوانين التى تتصل بالرحمة ما يلى :

١ – من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .

٢ – ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة .

٣ – ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة .

٤ – والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

وما من شك فى أن التوبة أول المعارج فى سلم الإيمان الصادق ، ومن قوانينها :

١ – إن الله يحب التوابين .

٢ – (استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

ويرسم رسول الله ﷺ كيفية تحقيق الإيمان الصادق فى طى حديث رواه إمام المحدثين الإمام البخارى رضى الله عنه فى أصح كتاب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى .

يخبر رسول الله ﷺ فى حديث قدسى عن رب العزة .

« من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب » .

« وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولإن استعاذنى لأعيذه » ويتوج كل ذلك قوله تعالى :

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

فى الإيمان والمجتمع

أما الأمن فى المجتمع ، فإنه يقاس بدرجة الإيمان فى الأفراد ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس اضطرب الناس واستولى عليهم القلق ، فيما يتعلق بدمائهم ، وأعراضهم وأموالهم مهما كانت سيطرة القانون وقوته ، فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل الظاهر .

أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله . ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع ، وحاجة المجتمع للإيمان ، وإذا ما سيطر الإيمان على الكيان الإنسانى كله كان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يتوادّون ويتعاطفون ، ويتآخون فى الله ، يصور رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، هـذه الولاية خير تصوير فيقول :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ويقول فى روعة رائعة :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ويقول الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

والمؤمنون قوامون إذن على المجتمع : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكنهم من قبل ذلك ، ومن بعده يأتمرون فى أنفسهم بالمعروف . وينتهون فى أنفسهم عن المنكر لأنهم مؤمنون ، ويقيمون الصلاة ، تزكية لنفوسهم وتطهيرًا لقلوبهم ، ويكررون الصلاة استدامة لهذه التزكية واتباعاً لما أمر الله .

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا)

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

وهم يؤتون الزكاة تطهيراً وتزكية لأموالهم ونفوسهم وإعانة للفقير والمسكين وصاحب الجاه .

ومن خصائص المؤمنين التى ذكرت فى الكتاب والسنة وفى الآية السابقة ، أنهم يطيعون الله ورسوله .

والقرآن يقرن عادة طاعة الرسول بطاعة الله عز وجل ، بل يجعل طاعة الرسول ، طاعة الله عز وجل .

(ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ومن هنا كانت نزعة شيطانية : ذلك التيار الذى ينساب كالأفعى مشككاً فى أحاديث رسول الله ﷺ مزلزلا لمنزلتها فى النفوس باسم البحث العلمى ، وما هو من البحث العلمى فى شىء ، وإنما هو حب الظهور ، وحب الشهرة واتباع الهوى على حساب الحق وعلى حساب الإيمان والأمن ، والسلام الروحى .

وإنه لمن المعروف أن حب الشهرة إنما هو من مركبات النقص ، التى تقود الإنسان إلى ارتكاب كل موبقة ، ولسنا بصدد الحديث عن هؤلاء الآن ، وإنما نريد أن نبين أن الآية الكريمة السابقة التى أضفت على المؤمنين هذه الأوصاف السامية تنتهى بقوله تعالى ، تفضلا عليهم وتبشيرًا لهم :

(أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

إنهم إذن ناجون ، وهم منتصرون ، وهم فى قبس من رحمة الله ، لا ينقطع وما ذلك إلا لإيمانهم ، وليس إيمانهم الذى نالوا به هذه المنزلة بالأمر الهين .

فالإيمان بضع وسبعون شعبة ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق « ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

والمؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

والمؤمن كله منفعة إن شاورته نفعك ، وإن شاركته نفعك وإن ماشيته نفعك فأمره كله منفعة .

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ رضى الله عنهم يجلسون حوله ، وإذا بهم يسمعونه يقول « والله لايؤمن ، والله لا يؤمن ، فاستفسر الصحابة رضوان الله عليهم عن الأمر ، فقال : « من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وليصل رحمه ، وليقل خيراً أو ليصمت » .

وهكذا الإيمان لو تتبعنا جميع جوانبه ، لوجدنا أثره فى المجتمع كبيراً ، ولوجدناه إيجابيًّا لا سلبية فيه .

وللإيمان موازين لا تخطئ يزن بها نفسه من يدعى الإيمان ، ويزعم أنه فى زمرة المؤمنين ، نذكر من ذلك قول رسول الله ﷺ يسأل بعض أصحابه رضوان الله عليهم . « أتصبرون عند البلاء ؟ قالوا نعم : أتشكرون عند الرخاء ؟ قالوا : نعم : أتثبتون عند الحرب واللقاء ؟ قالوا : نعم قال : مؤمنون ورب الكعبة » .

أما بعد فإن الله سبحانه أوجز لنا تحديد المؤمنين فى كلمات قليلة تتضمن من المعانى الشىء الكثير فقال : سبحانه فى كتابه الكريم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) وهذه الآية مبتدئة بأداة الحصر هى المقياس الصحيح للإيمان .

فمن ظن بنفسه الإيمان فلينظر إلى هذه الآية فإن وجد أنها لا تتحقق فيه فليعمل على إكمال نفسه ، ومن رأى أنه يمثلها فليحمد الله مصدر الهداية والتوفيق .

ويشكره سبحانه على ما تفضل به عليه .

فى نتيجة النطق بالشهادتين

إذا نطق الإنسان بالشهادتين – أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً رسول الله – فهو مسلم ولزمه أن يؤدى جميع فرائض الإسلام فيجب عليه أن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن كان مستطيعاً ، ومن امتنع عن أداء ركن من هذه الأركان لا يخرجه ذلك من الإسلام إلا إذا كان امتناعه عن إنكار وجحود لهذا الركن أو ذاك .

فمن امتنع عن أداء الزكاة تهاوناً فهو مسلم عاص مطالب بأدائها ، أما إذا كان امتناعه عن إنكار فريضتها فإنه يكفر بذلك ويخرج من عداد المسلمين لأنه أنكر ما علم من الدين بالضرورة .

ولقد حارب سيدنا أبو بكر رضى الله عنه الممتنعين عن أداء الزكاة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وإنما حاربهم سيدنا أبو بكر حرب مرتدين لأنهم أنكروا أن تكون الزكاة من أركان الدين أو من أقرّ أنها من أركان الدين ومع ذلك لم يؤدها فمثله كمثل من يعترف أن الصوم مثلا من أركان الدين ومع ذلك لا يصوم ، إن هذا أو ذاك ماداما مقرين فَهُما من عصاة المسلمين أما من أنكر فهو كافر ..

فى الدليل المقنع على وجود الله

الدليل المقنع على وجود الله آثاره المشاهدة التى لا يمكن أن تكون موجودة بغير قوة كبرى على قدرة وعلم وصفات يصدر عنها هذا الإبداع وهى قوة الله تعالى : والإيمان بوجود الله حقيقة مقررة فى فطرة الإنسان منذ خلق ، والرجل البدوى حين سئل عن وجود الله بفطرته فقال :

البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير فسماء ذات أبراج . . وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ وأنت تعلم أن آدم خلق وهبط إلى الأرض وفى قلبه هذه الحقيقة ، ونشأت ذريته الأولى على هذا الإيمان ولما تفرقوا فى طول البلاد وعرضها ، شغلهم طلب العيش والمأوى عن التفكير فى خالق هذا الكون وهدتهم فطرتهم إلى أن هناك من هو أقوى منهم يسيرهم ويسيطر عليهم بما يرونه من كواكب ومخلوقات شتى حاولوا التقرب إليها أو التحصن ضد خطرها ، وكما يحدثنا علماء الفلسفة والأجناس البشرية رموزاً إلى هذه القوة الخفية بما يعبر عن عقيدتهم فى شكل تمثال أو غيره .

ومن هنا جاء الرسل لتلفت أنظار الضالين إلى حقيقة الألوهية .

ومهما يكن من شيء فإن علماء العصر الحديث على الرغم من تنكرهم للدين الذى عاشوا فى ظله قروناً وحرمهم كثيرًا مما يحتمه انطلاق الفكر ونشاط الإرادة فلم يستطيعوا أن ينكروا وجود إله وراء هذه المادة التى هى وعاء علمهم وتجاربهم وكان أسلوبهم فى البحث بعيدًا عن الأسلوب التقليدى الدينى الذى ثاروا عليه ، ولو شئت لأوردت لك كثيرًا من أقوال كبارهم فى إثبات وجود الإله ، ولكنى أحيلك على كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) الذى جمع فيه « جون كلوفرموسما » الباحث الدينى الاجتماعى كثيرًا من شهادات علماء أمريكا المتخصصين فى سائر العلوم بما يؤكد اعتراف العلم بوجود الله .

وإن شئت دليلا على طريقة المتكلمين وعلماء التوحيد على وجود الله أحيلك على رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده « ولعلك توفق إلى فهم الأسلوب الموضوع للاستدلال على وجود الله سبحانه . اعتقد أيها السائل أنك ما دمت مسلمًا ومؤمناً بالتالى بوجود الله فلا تشغل نفسك بأمر لا يعنى به إلا الفلاسفة والعلماء المختصون الذين ينفقون وقتاً كبيراً فى الجدل والمناقشة .

فى المعجزة تدل على صدق الرسول

إن قيام سيدنا محمد ﷺ بالدعوة إلى دين جديد حقيقة تاريخية مقررة ، لا ريب فيها وتلك آثارها شاهد صدق عليها ، ولما جاء بالدعوة وكذبه قومه وطلبوا منه ما يثبت صدقه بالإضافة إلى ما عرفوه عنه من صدق وأمانة وقد انتزع منهم هذا التصديق المبدئى بقوله : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىَّ » ؟ :

قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، فقال لهم : « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

فلما كذبوا جاءهم بالقرآن متحديا به فعجزوا وبعشر سور فعجزوا وبسورة فعجزوا على الرغم من أنهم فرسان البلاغة والفصاحة ، وقد نص على ذلك قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وحيث إنهم عجزوا عن محاكاته علم أنه ليس من صنعه فيكون من صنع الله وحده الذى جعل المعجزة دليلا على أن الرسول مبعوث من عنده ، وقد صح فى الحديث المتفق عليه ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة .

وإذا صدقنا بالقرآن معجزة صدقنا برسالة سيدنا محمد وبكل ما جاء به فالآيات فى القرآن

كثيرة تثبت رسالة جميع الرسل السابقين وإن شئت توضيحاً لهذه الحقيقة فارجع إلى رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) .

فى الإسلام صالح لكل زمان ومكان

إن الإسلام هو آخر الأديان جميعاً وهو صالح لكل زمان ومكان ، وبحيث يتمشى مع تطور البشرية فى عصورها المختلفة ويناسب كل بيئة مهما كان مستواها وذلك بفضل قواعده الكلية ونصوصه الجامعة التى تدع مجالا واسعًا للتفسير والتطبيق على الأحداث والقضايا المتجددة . والمتنوعة ، وتوضيح ذلك يحتاج إلى مساحة واسعة وأحيلك إلى كتاب (الإسلام دين عام خالد) للمرحوم محمد فريد وجدى .

أما من جهة مسايرته للتقدم العلمى الحديث وما جاء به من كشوف فإن الإسلام كرّم العقل وقدّره ، وحث على النظر والفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وشجع كل باحث على البحث مهما كانت النتيجة التى يصل إليها ، فله أجر إن أخطأ ، وأجران إن أصاب ، وما جاء به العلم من كشوف فى العصور الزاهية للإسلام وفى عصر النهضة الحديثة ، فإنما هو نفحة من نفحات السياسة العلمية التى لم يجىء فى غير الإسلام ما يضاهيها قوة ودقة وتشجيعاً ، وهو لم ينص على اكتشاف معين فما أكثر الاكتشافات ، وحتى يجعل لبعضها نوعاً من الاهتمام يثير جدلا وأن يحث على البحث قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق) .

وقد حاول بعض الناس أن يلتمسوا نصوصاً صريحة تدل على اكتشاف معين ، ولكنهم تعسفوا فى التأويل بما لا حاجة إلى القرآن ، فيكفيه التشجيع العام للعلم وتكريم العلماء وتسخير الكون كله أرضه وسمائه لنشاط عقله وفكره وعمله . .

فى أن لكلمة « الإسلام » معنيين : أحدهما عام والآخر اصطلاحى خاص

إن المعنى العام هو : إسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا المعنى : لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا بشخص ، فإلقاء الإنسان بنفسه بين يدى الله تعالى مستسلماً لما يريد خاشعًا لربوبيته طالبًا لمرضاته . . إن هذا المعنى لا يتقيد بماضٍ ولا بحاضر ولا بمستقبل ، إنه المعنى الخالد الذى

يجب أن يكون عليه كل إنسان فى صلته بالله سبحانه وتعالى ، بل هو المعنى والدليل الوثيق لكلمتى (الدين) ومن أجل ذلك كان التعبير القرآنى (إن الدين عند الله الإسلام) .

وتفسير الدين بأنه الإسلام : كان ذلك أعمق تعبير وأصدق تفسير ولا يتأتى ولن يتأتى أن تجد لكلمة « الدين » تفسيرًا أصدق ولا تعبيراً أرق من كلمة : « الإسلام » .

ومن أجل ذلك كان منطقيًّا أن يكون سيدنا آدم مسلمًا وأن يكون سيدنا نوح مسلماً ، وأن يقول سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل : (ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك) وأن يوصى سيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب أبناءهما بالإسلام (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقـوب يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون) .

وهكذا الأمر بالنسبة لجميع الأنبياء : فقد كانوا جميعاً من المسلمين . .

أما المعنى الاصطلاحى الخاص فإن هذا الدين الذى أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى محمد ﷺ والذى جاهد الرسول وكافح لنشره فى مكة طيلة ثلاث عشرة سنة وأخرج منها بسببه ، فهاجر تاركاً الأهل والعشيرة ومسقط الرأس فى سبيل الله ثم أخذ يكافح ويجاهد فى المدينة المنورة طيلة عشر سنوات حتى بلّغ الرسالة وأدى الأمانة إلى آخر ما نزل من وحى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وتتمثل مبادئ هذا الإسلام بصورة عامة فى « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وتتمثل هذه المبادئ فى كل ما أتى به القرآن من عقائد ومن أخلاق ومن تشريع . .

إن المعنى الاصطلاحى الخاص للإسلام يلتقى التقاءً تامًّا بالمعنى العام يصل هذا الالتقاء إلى حد التطبيق والشرح والتفسير .

إن كل جزئية من جزئيات المعنى الاصطلاحى الخاص إنما كان باعثها : إسلام الوجه لله وغايتها ، وفى نفسها صورة من إسلام الوجه لله ، وضمن آية جزئية : خذ الزكاة مثلا : فإن باعثها أن يتخلى الإنسان عن المادة بعد امتلاكها مرضاة لله واتباعاً لأمره ، وأما نتيجتها : فهى تخلى الإنسان عن أن يستعبد للمادة فى سبيل إسلام وجهه لله وحده ، وهى فى نفسها تزكية للنفس عن أن تكون متعلقة بغير الله وكل هذا : إنما قوة إسلام الوجه لله ، وقد مثلنا بالزكاة متعمدين ، لأن غيرها من الصلاة والحج والشهادة ، والصوم أوضح فى تصوير إسلام الوجه لله .

وهكذا يلتقى المعنى العام بالمعنى الاصطلاحى الخاص « ولا يوجد تعبير وإيضاح للمعنى العام إلا هذا الذى بين دفتى القرآن الكريم .

فى الحكمة من إرسال الرسل

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ومن دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت قولهما ، (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلُواْ عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الأيات ومن غيرها : نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل ، إنما هى : تبليغ آيات الله تعالى أى تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر ، إن الله سبحانه وتعالى – لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهى : العقيدة والأخلاق والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه والعمل به إلى تزكية النفس وتطهيرها وصفائها ، فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها وكانوا أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء ، وهو مستوى يجد فيه مَنْ يحققه السعادة كل السعادة ، والبهجة كل البهجة ، ويشعر من يرتق فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه وتعالى ، بالسكينة تحيط به وبالطمأنية تملأ جميع أقطاره ، ويشعر فوق كل ذلك برضوان من الله أكبر ، فحكمة إرسال الرسل إذن إنما هى إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى إلى المستوى الذى يرضاه الله لهما .

فى موطن الرسالة

يقول الله تعالى لرسوله صلوات الله عليه فى شأن الرسل : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك) .

يقول سبحانه (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فالرسل كثيرون ، وربما كان لم يعلم منهم أكثر مما علمنا ، وأما كن من لم نعلم منهم مجهولة لدينا ، والقول إذن بأن الله اختار الوطن العربى ليكون مهبط الرسالات السماوية ربما يكون فيه بعض التسامح .

ولكنه مما لا شك فيه أن الرسالات السماوية الكبرى الأخيرة نزلت فى الوطن العربى .

لقداختار الله سبحانه وتعالى موسى وعيسى ومحمداً بالذات صلوات الله عليهم فتحدد المكان الذى نزلوا فيه ، فالمكان تابع للرسول واختيار الرسول هو الذى حدد مكان الرسالة .

وأما صفات المواطنين الذين كانوا مع الرسول وحملوا لواء الدعوة معه وبعده ، فإنها صفات وأثر من آثار تربية الرسول نفسه ، وكل رسول إنما هو معلم ومربٍّ ، إنه يعمل منذ الكلمات الأولى للوحى على أن يغرس خلق الخير والفضيلة فى طائفة يربيهم تربية دينية هادفة مقصودة ليحملوا الرسالة وينشروا كلمة الله فى مشارق الأرض ومغاربها ومن ذلك نتبين أن الله سبحانه وتعالى إنما اختار أولا وبالذات إنساناً فتحدد بذلك المكان ، واكتسب المكان نوراً من نور الرسول ، فكان مشرفا يشرف الرسول ، وخير مكان هو مكان خير الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . .

والله أعلم .

فى خلافة الله فى الأرض

يقول الله تعالى لملائكته : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . .

ولقد استحق الإنسان خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه ووضع فيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجمال التى هى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه ، فالله مثلا : سمى نفسه الرحمان ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم أعنى . « الله » قال سبحانه : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد أعد لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد أن يكون كريماً .

وهكذا خلق الله الإنسان مستعداً للرحمة والكرم والمغفرة والعفو والسلام والعلم والسمع والبصر . . وغير ذلك . .

وكل ذلك من صفاته سبحانه وتعالى . والله سبحانه خالق مصور ومبدع وفى مقابل – ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكدح فى الأرض جعلها الله ذلولا له وسخرها له ، بل سخر الكون كله له من سمائه وأرضه وما بينهما ليستخدم كل ذلك للعلم بالعلم والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيرة ، وبالفعل المتواصل ، أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شريراً أو كان كسولا فإنه يكون قد تخلى عن الرسالة التى هيأه الله لها ، وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلا لها .

والله أعلم . . .

فى معنى الإيمان فى الكتاب والسنّة

لقد حدد القرآن مفهوم الإنسان بأنه عقيدة وعمل ، قال تعالى :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

وقد كان مما أمر الرسول به وفد عبد القيس الإيمان بالله وحده – قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا الله ورسوله أعلم – قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ، فقد أوضح الرسول ﷺ حقيقة الإيمان فى مفهوم الشرع بأنه يشتمل مع التصديق القلبى على الأعمال وهذا ما فهمه السلف والمحدثون ومنهم الإمام البخارى .

فى فائدة الإيمان بالنسبة للمجتمع

تقاس درجة الأمن فى المجتمع بمقياس درجة الإيمان فى أفراده ، فكلما ازداد إيمان الأفراد أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس اضطرب الناس واستولى عليهم القلق فيما يتعلق بأموالهم ودمائهم وأعراضهم مهما كانت سيطرة القوانين ، فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الشكل والظاهر .

أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع وكانت حاجة المجتمع للإيمان .

فى مظاهر الإيمان

إن مقاييس الإيمان ومظاهره كثيرة ، ونتخذ أساس ذلك حديثاً صحيحاً رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة يقول رسول الله صلوات الله عليه : الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء من الإيمان وقد قسم سادتنا العلماء تلك الشعب فى ضوء الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية إلى ما يختص منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن ، فالحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وإن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن ،

وليس بمؤمن من شبع وجاره جائع ، وإن الجهاد من الإيمان ، والإنصاف من النفس من الإيمان ، وبذل السلام والإنفاق من الإيمان ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية ، حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور ، فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان ، وشرطها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار . .

فى هل الشك ينقص الإيمان ؟

من علم أنه خلق من عدم وأن من خلقه قادر على أن يبعثه بعد موته ويحاسبه على ما قدم لنفسه من خير أو شر ، ومَنْ علم أنه ليس فى طوق أحد أن يمنح الحياة لأى شىء حتى الذباب آمن بربه وأذعن لأمره لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وآمن بالقضاء والقدر وحسبه أنه قد يرى فعل شىء لديه كل أسباب فعله ولكنه لا يتيسر له ذلك فمن الذى حال بينه وبين فعل ما يريد أليس هو الله رب العالمين والشك ينقص الإيمان وقد يذهب به كله ، ونعوذ بالله من زوال الإيمان أو نقصه .

وعليك كلما مر بك خاطر الشك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وأن تقول : بسم الله ذى الشأن عظيم البرهان شديد السلطان ما شاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون – ثلاثا .

رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ثلاثاً . يا مقلِّبَ القلوب ثبت قلبى على دينك – ثلاثاً .

وتستديم قراءة هذه الأحاديث عقب كل صلاة فإن ذلك يذهب بالشك الذى لديك إن شاء الله ويجعلك من المحافظين . .

وأنصح لك ألا تعارض قول : الله ربى لا أشرك به شيئاً ، فإن لهذا الحديث أثراً كبيراً فى إصلاح أحوال ذوى النفوس المريضة .

والله تعالى أعلم .

بين العقل والدين

لا يتأتى التعارض بين القرآن الكريم والعقل :

وذلك أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وقد نزل القرآن الكريم هداية للعقل فى الأمور التى إذا ترك العقل وحده فيها لتعرض دون شك – للضلال ، وهذه الأمور التى لا يستطيع العقل أن يسير فيها إلا على هدى من الله تعالى هى : مسائل العقيدة ، ومبادئ الأخلاق وقواعد التشريع ونظم المجتمع .

وحينما نستعرض تاريخ الفكر البشرى فى هذه المسائل نجد العقل ، قد تخبط فيها حينما انفصل عن الدين ، وما كانت رسالات الأنبياء إلا لقيادة الإنسانية إلى الحق فى أمور العقيدة والأخلاق والتشريع .

ولكن الأهواء تتسلط أحياناً فتخيل للإنسان أنها عقليات فيسير الإنسان وراءها مع أنها مجرد أهواء والله سبحانه وتعالى يقول :

(أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم . .)

ويقول تعالى : (أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً . . .)

وكل من يرى تعارضاً بين النص والعقل ، يجب عليه أن يعود إلى نفسه ويتأمل من جديد ، وكثيراً ما يكون هذا الذى يسمى تعارضاً بين النص القرآنى والعقل إنما هو تعارض بين النص والعادات المألوفة ، ومألوفات الناس فى حياتهم العادية لا تتحكم فى النص وخوارق العادات التى يجريها الله تعالى على يد بعض أنبيائه أو على يد بعض أوليائه ، إنما هى خوارق عادات وليست خوارق عقليات .

وعلينا إذن أن نتدبر فى تأمل كل ما يمكن أن نتوهمه تعارضاً بين النص والعقل فسنرى فى النهاية أن النص والعقل يسيران فى انسجام . تام . .

والله أعلم . .

فى مشكلة القدر

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم » :

هذا الحديث الشريف يلخص المنهج الذى نحب أن يسير عليه العالم الإسلامى فى أمر العقيدة .

نحب أن يسير عليه رأياً وفكرة ، ونحب أن يسير عليه – من قبل استعداداً وتأهلاً . وهذا الاستعداد والتأهل يتأتى على الخصوص بوساطة دور التعليم فى جميع مراحله والصحافة والكتب التى تنشر .

وهذا الحديث الشريف يسانده فى معناه مالا يكاد يحصى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والآثار التى وردت عن كبار الصحابة وكبار التابعين . يقول الله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

لقد كمل الدين ، فكفانا الله كل ابتداع ، وإذا كان الدين كاملا فما علينا إلا الاتباع أما طريقة الاتباع فقد حددها الله فى الآية الكريمة التى سبق ذكرها ، والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات فى فهم ووعى وتأييد ، وهى ليست مثار جدل ولا خصومة ، وليست مجال نزاع يحتدم أو أهواء تثور ، وأن نؤمن بالمتشابه كما ورد ، وألا نتبعه متأولين .

فإن تتبع المتشابه ، إنما ينشأ عن القلوب التى تلونت بالزيغ والانحراف وهى التى تتبعه ابتغاء الفتنة وتتبعه لتأويله ، وتأويله إنما يعلمه الله .

ولكن ما هو هذا المتشابه ؟ :

لقد اختلف فيه أئمتنا ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف وإنما نريد أن نقول ، فى اطمئنان وثقة :

إن المسائل التى نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الخوض فيها والمسائل التى كان الاتجاه العام فى عهد الخلفاء الراشدين ينفر من الخوض فيها هى من المتشابه ، فالمتشابه إذن ، هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامى فى عهده الأول : عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وخلفائه الراشدين وتتحرج من الخوض فيه . مثل ماذا ؟

أما أولى مسائل المتشابه التى نريد أن نتحدث – بتوفيق الله تعالى – عن شىء من تاريخها فهى مسألة القدر .

لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أثيرت مسألة القدر فى أى وسط كان ، مهما كان قليل العدد فإنها تقسمه إلى قسمين : يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود فى دينهم ففرقت بينهم ، وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .

وأثيرت فى الديانة النصرانية على مجرى التاريخ فكان النزاع والجدل وكان التحيز لرأى والتعصب له ، وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان ، وأراد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة فكان ينهى دائماً عن إثارتها وعن الجدال فيها ، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم : بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن الكريم لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

وعن أبى هريرة « قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمرّ وجهه ، ثم قال :

أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

واتخذ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، موقفاً حاسماً حازماً بالنسبة لمنع الخلاف فى هذه المسألة أو حتى مجرد إثارتها .

ومضى رسول الله ﷺ راضياً مرضيًّا ، وهو لا يسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة ، بأن تثار هذه المسألة .

ولم تثر هذه المسألة فى عهد سيدنا أبى بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث فى دين الله .

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة برد كل من تحدثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .

ومسألة القدر إذن : من المتشابه ، إنها من أهم مسائل المتشابه ، وهى فضلا عن ذلك عصية على الحل . إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أثيرت فى الشرق أو فى الغرب ، وسواء أثيرت فى القديم أو فى الحديث أو أثيرت فى البادية أو فى الحضر ، إنها مفرقة بين الباحثين

فيها ، ومهما طال الجدل بينهم فلن ينتهوا إلى نتيجة ، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل شيئاً فشيئاً ، إلى المجتمع الإسلامى حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى .

ولقد مهدت السياسة أولا لهذا التسلل وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم .

كتب معاوية بن أبى سفيان – بعد أن تولى الملك – إلى المغيرة بن شعبة يطلب منه أن يكتب إليه الحديث الذى كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه أحياناً ، وهو على المنبر . فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : فى دبر كل صلاة إذا سلّم :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث الشريف من على المنابر مؤمناً بأنه من عوامل توطيد مركزه فى الأمة .

هذا الاستعمال السياسى للأقوال الشريفة أثار بعض الضمائر التى لم تطمئن إلى هذه الصورة التى اعتبروها استخداماً للدين ، والتى لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد له ، فهبوا يعارضون فكرة الجبر التى أخذ معاوية يبشر بها مستنداً إلى هذا الحديث الشريف .

ولسنا الآن بصدد التاريخ الكامل لهذه المشكلة ولقد بينا الآن على الأقل أمرين :

أحدهما : أن هذه المشكلة من المتشابه . لأن الرسول ﷺ نهى عن الخوض فيها .

ثانيهما : أن السياسة هى التى بدأت بإدخال هذه المشكلة فى البيئة الإسلامية .

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك فهى : أن البحث فى هذه المسألة : يجب أن ينتزع كلية من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تنتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا ما فعلنا ذلك ، فإننا نكون قد أزلنا سبباً هامًّا من الأسباب التى تفرق بين المسلمين بسبب الخلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد . .

وبالله التوفيق . .

فى مشكلة الصفات

يقول الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

ويقول سبحانه (ليس كمثله شىء)

ويقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مستنتجاً ومرشداً .

« إن الله ليس كمثله شىء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر ؟ أمّا حكماء المصريين القدماء ، فإنهم يقولون فى حكمة حكيمة « محال على من يفنى أن يكشف النقاب الذى تنقب به من لا يفنى » ومن يفنى : هو الإنسان .

ومن لا يفنى هو الله الباقى :

وسواء نظرنا إلى التراث الدينى الصحيح من قرآن أو سنة . أو نظرنا إلى أصحاب الآراء السليمة التى فهمت الأوضاع الدينية فهماً ينسجم مع الروح الصحيحة للتدين ، فإننا نجد أن الاتجاه العام فى ذلك كله يبتعد بالإنسان ابتعاداً تامًّا عن أن يقول فى الله سبحانه – ذاتاً وصفات – برأيه « تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

إن هذا الأثر يرسم النهج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا أراد النجاة وابتغى السلامة .

(ا) وما من شك فى أن البحث فى الذات والصفات الإلهية ، من ناحية الصلة بينهما : توحيداً أو تغايراً والبحث فى الصفات الموهمة للتشبيه ، نفياً أو تأويلا إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه وهم متوهم ، ولا خيال متخيل ، وإنه لحق : إن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

وقد كان من الطبيعى : أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من البشر حق قدرها ، وأن يقدروا الله حق قدره .

ولو سار الأمر على هذا النسق لما تطاول البشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا حدودهم وبالتالى لما كان هناك اختلاف وتنازع وافتراق فى موضوع الصفات الإلٰهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من البشر وغيّرهم عقلهم وخدعهم شيطانهم : فحاولوا بعقولهم على الله ما لم ينزل به سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية فى علم الكلام – مشكلة الصفات – التى أثارت الجدل والخصومة والتفرقة بين المسلمين ، جعلتهم فرقًا تتنابز

وتتخاصم ، ويرمى بعضها بعضاً بالانحراف والضلال .

(ب) ونشأت المشكلة حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم والتى توهم التشبيه ، كاليد والوجه والاستواء ، أو التى وردت فى الأحاديث كالنزول : والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها تأويلا لها أو نفياً لمعناها أو تفسيراً أو شرحاً .

ومنذ أن بدأ الحديث فيها بدأ الجدل حولها والنزاع ، واستمر خلال العصور عصراً تلو عصر ، ولا يزال للآن يثار الجدل بين أنصار الإمام الأشعرى وأنصار الإمام ابن تيمية .

وكان النزاع حول موضوع الصفات وصلتها بالذات على وجه العموم يسير فى هدوء أحياناً وفى عنف أحياناً أخرى .

وقد تولد عنه كثير من المشاكل الدامية ، كمشكلة خلق القرآن ، والمشاكل المبلبلة للأفكار والخواطر كمشكلة « الصلاح والأصلح » وجدت هذه المشاكل وكثرت وتعددت كدليل واضح على عجز العقل البشرى تجاه العظمة اللانهائية للإلهية .

ومع الإخفاق المتتابع فى البحث فى هذا الموضوع منذ الآماد المتطاولة ، فإن البشرية لم تَرْعوِ ولم تتعظ ولا تزال مستمرة فى البحث تتخبط فيه وتتنازع وتتجادل وتختصم .

(حـ) والحكمة كل الحكمة إذن ، إنما هى فى موقف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم — فقد هدتهم نزعتهم الدينية السليمة إلى الموقف السليم فـ « قدروا الله حق قدره » وقدروا أنفسهم حق قدرها ، فسلموا من البلبلة ، والاضطراب ، وسلموا من التنازع والاختلاف ، وكانوا فرقة واحدة .

لقد اتخذوا مبدأً أساسيًّا : وقاعدة لامراء فيها ولا شك هى قوله تعالى (ليس كمثله شىء) وهذه الآية تنسف كل تشبيه نسفاً مطلقاً ، فاحترز سلفنا الصالح عن التشبيه حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :

(خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) أو أشار بأصبعه عند رواية الحديث الشريف .

« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن . وجب قطع يده وقطع أصبعه .

احترز السلف عن التشبيه ، ولكنهم احترزوا عن التعطيل أيضاً ، فهم يثبتون لله اتباعاً للقرآن — الإرادة — والعلم — والصفات الكريمة التى ورد بها القرآن الكريم .

والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن ، تجاه كلمات الصورة واليد ،

والنزول ، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها وليس معنى ذلك أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته ومما ليس بجسم ، ولا عرض فى جسم .

وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله .

وألاّ يحاول لها تفسيراً ولا تأويلا .

وشعار السلف معروف فى أمثال هذه الكلمات إنه « أمروها كما جاءت »

وكانوا يذكرون فى هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة . (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب) ولا مناص ، لمن يريد أن يحترز عن الزيغ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير وأن يمر بهذه الكلمات كما جاءت .

ويلخص الإمام الرازى فى كتابه « أساس التقديس » المذهب السلفى فى كلمات موجزة دقيقة كل الدقة فيقول : إن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها شىء غير ظواهرها ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض فى تفسيرها .

هذا هو مذهب السلف فى الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلا ولا خصومة ، وليس من طبيعته ذلك ، إنه مذهب العبودية الصحيحة .

وهو المذهب الذى يتمذهب به كل من عنده نزعة التدين السليمة . وهو مذهب الإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل والسلف الصالح رضى الله عنهم .

ومن الطبيعى أن يكون مذهب الفرقة الناجية .

ويجب على كل المسلمين الفاقهين لدينهم ، أن ينشروه فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية فهو أمانة فى عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها منعاً للحيرة والاضطراب عند الأفراد ، ومنعاً للاختلاف والتنازع بين الجماعات ، ونشراً للإسلام وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجامعات الإسلامية ، ويجب أن ينتزع بحث الصفات كلية من محيط الفكر الإسلامى ، وأن تنتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر هامًّا من الأسباب التى تفرق المسلمين بسبب الاختلاف فى العقيدة ، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد .

فى روح الإنسان ومعنوياته هى ميدان التحدى الحقيق
فما نصيب العقيدة الدينية فى بناء هذا الجانب

معنى المادية :

أن يتجه الإنسان إلى ما هو مادى فقط ، يقف عنده ، من جاه أو مال ، أو ولد ، أو متاع آخر ، من متع الدنيا وهؤلاء الماديون لا يتورعون عن ارتكاب كل سبيل ، ولو كانت محرمة أو مزعجة ، فى سبيل تحقيق ما يريدون . ومن هنا تركبهم الشقاوة ، ويسيطر عليهم الهم ، ويضحون فى سبيل آمالهم بكل شىء .

ويحرم الإسلام المادية الطاغية ، ويحارب الماديين المغالين ، لا نحرافهم عن السلوك الإنسانى المهذب ، وغفلتهم عن المثل العليا . ويصفهم سبحانه بقوله : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) لشقائهم بما سعوا إليه .

ومعنى الروحية :

إدراك المعانى الإنسانية الفاضلة الرفيعة وآثارها على القيم المادية وحدها ، والإسلام وسط بين المادية الطاغية ، والروحية المذلة القاسية ، فهو يطلب تحقيق المادية العادلة والروحية المهذبة ، مع إيثار هذه على ثلاث ، إيثار لما هو خير وأبق (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردًّا) .

ويقول سبحانه : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) فالجانب الدائم والباقى فى جانب الروحية الفاضلة من أعمال البر وصالح الأعمال ، والوقوف مع الحق والخير .

والإنسان مفطور على حب الجانب المادى (زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ويشفع ذلك مباشرة بعد ذلك بالالتجاء الآخر والذى هو المحك الحقيق لصدى الإيمان وقوته (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا

عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) .

فالإنسان ومعنوياته والفضائل الإنسانية هى ميدان التحدى الحقيق فى ميدان الاختيار . والإسلام وإن عُنى بالجانبين - كما ذكرنا - فقد فضل الجانب المعنوى والإنسانى .

فى ماذا عن ظاهرة الإلحاد التى بدأت تزحف إلى العديد من الأوساط العلمية ؟ كيف نحد من زحفها الخبيث ؟

حينما رحل المستعمر عن البلاد الإسلامية التى احتلها ترك ظله ووجوده وراءه فى صورة : موجهين تربوا على مائدته ، ودانوا بما يدين وحملوا رسالته من بعده . . وفى صورة كتب ملحدة ، تقوض كل ما بقى من الشريعة الإسلامية على يد المستعمر أو صنائعه من بعده ، وأحياناً يكون خطر من ينتسبون إلى الإسلام أشد وأنكى على الإسلام من أعداء الإسلام .

وحين ازدوجت مناهج التعليم عندنا طغت المناهج الوافدة فى الثقافة الأصيلة فعم الإلحاد ، وطغى الوافد على الأصيل وحط من قدره مما جعل من موازين وقيم ليصرف الناس عنه .

وحين ولدت مبادئ هدامة ، من شيوعية ملحدة تنكر وجود الله وتهزأ بالدين ، ورجاله ، ومن وجودية هدامة تدعو إلى الفوضى والإباحية ، وتخلع ربقة الدين .

وحين خفّت التعاليم الإسلامية بتقليصها من الدراسة وتعطيلها عن التنفيذ وإبعادها عن مجال الحكم والتوجيه ، استشرى الإلحاد بكل الوسائل ليحيا ويستشرى ، وينتشر انتشار النار فى الهشيم .

فلابد من التعاون بين الأفراد والجماعات والأسر والبيوت ، ورجال الدعوة والحكومة ووسائل الإعلام والعناية بتدريس الدين ، وتمكين الدعاة وإعدادهم الإعداد الكافى ، والدولة قدوة فى ذلك لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

وحينئذ ستشرق شمس الهداية من جديد ، ويختفى الإلحاد مع الظلام ، ويفرح المؤمنون بنصر الله ، قال ﷺ .

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فى الروح

إن الموت ليس انفصالا كليًا بين الروح والجسد ، فالآثار الدينية ترشد إلى أن القبر – وهو مقر الجسد بعد الموت – إما أن يكون روضة من رياض الجنة وإما أن يكون حفرة من حفر النار ، وترشد هذه الآثار إلى أن الروح تبقى بعد الموت وتسمع السلام عليها ، وتعرف الشخص الذى يزور قبر صاحبها .

أما فيما يتعلق بمقرها فإنه يختلف باختلاف عملها من خير ومن شر ، ويختلف أيضاً بسبب اختلاف درجة الخيرية شرفاً وأشرف ، أما أين هذا المقر فإن أين يستفهم بها عن المكان والأرواح لامادية فهى إذن لا تتقيد بمكان ، أما أن الجسد يتحلل ويذهب فإن الله سبحانه وتعالى يحدثنا ذاكراً السؤال والجواب يقول : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ويقول سبحانه (أفعيينا بالخلق الأول ؟) أى أفعجزنا عن الإيجاد من العدم حتى نتصور أن يعجز عن الإعادة مع أنها أسهل من الخلق الأول فالبعث إعادة الخلق من جديد وليس ذلك على الله ببعيد ، يقول سبحانه : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

فى الروح من أسرار الله تعالى

لقد حاول الفلاسفة القدماء وحاول الفلاسفة المحدثون البحث فى الروح ، ولقد حاول أيضاً علماء الكلام من كل الأديان البحث فيها ، ولكن هؤلاء وأولئك لم يتفقوا فى شأنها على رأى ولم يسلم واحد منهم للآخر حجته أو دليله ، وبقيت الآية القرآنية حقيقة لا مراء فيها (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

أى الروح سر من أسرار الله عز وجل ، أمر رسول الله ﷺ ، بألاّ يتحدث عن كنه حقيقته ، وما دام الأمر كذلك فلا عبرة بالسؤال عنه .

ورحم الله امرأً وقف عند أمر ربه تعالى ، فلم يتجاوزه إلى مالا ينبغى له . فإن الروح لم يطلع عليها أحد حتى يعرف من أى شىء تكونت ، وكلام الفلاسفة وغيرهم فى شأن الروح ، لا يعضده دليل علمى ، ولا دليل نقلى ، لهذا نرى أنه لا ينبغى لأحد أن يتجاوز قدر نفسه فيبحث فى

موضوع لا تصل إلى سره العقول وكل ما يمكن أن يقال فى أمر الروح ، أنها سر الحياة ، وبدونها لا تكون حياة . .

فى زيارة القبور والأضرحة

زيارة القبور عامة والأضرحة خاصة مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وحث النفس على التأسى بالسابقين من الصالحين آل بيت الرسول ﷺ ، وينبغى للزائر الاشتغال بالدعاء والتفرغ إلى الله سبحانه والاعتبار بالموت وقراءة القرآن والدعاء إلى الله أن يجعل ثوابه للميت ، فإن ذلك ينفعه على الأصح إن شاء الله .

ومما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور « اللهم رب الأرواح الباقية ، والأجسام البالية ، والشعور المتمزقة ، والجلود المتقطعة ، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أنزل عليها روحاً منك وسلاماً منى . » .

ومما ورد أيضاً : أن يقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لا حقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، وينبغى أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة فلا يقبل حجراً أو عتبة أو خشباً ويكون سؤاله وطلبه من الله سبحانه وتعالى وعلى الله القبول .

فى اكتشافات العلم الحديث ووجود الله

إن الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى من العقل والنقل أكثر من أن تعد أو تحصى ولا يمارى فى ذلك إلا من لا يحس بوجود نفسه ، لأن وجوده على قيد الحياة دليل قاطع على وجود الله سبحانه ، فمن الذى أوجده وأعطاه القدرة على الاكتشاف ووهبه العلم ، قال تعالى ، (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول الرسول ﷺ : « من عرف نفسه عرف ربه » .

العربى الجاهل فى البادية حينما سُئل عن الله فقال بفطرته ، البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير .

والأجدر بهؤلاء الذين وصلوا إلى الاكتشافات الحديثة وصعدوا إلى القمر أن يزدادوا إيماناً ويقيناً بوجود الله ، لأنهم قد أنفقوا الكثير من المال والوقت والبحث والدرس على أن يصلوا إلى أقرب كوكب من الكواكب إلى الأرض ، وهو واحد من المجموعة الشمسية التى هى إحدى الملايين من المجموعات التى تسبح فى الفضاء بنظام وإبداع واتفاق لا يصطدم واحد منها بالآخر :

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) ، فكان ينبغى بعد هذه الاكتشافات أن تخر الجباه ساجدة أمام عظمة الله ، قائلة « تبارك الله أحسن الخالقين » .

والإسلام يحث على التزود من العلم والمعرفة وأول آية من كتابه وهو القرآن تنزلت على النبى ﷺ تدعو إلى ذلك (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) ونفى الله المساواة بين من يعلمون ومن لا يعلمون فقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وأمر نبيه بأن يدعوه بقوله : (وقل رب زدنى علماً) .

ودعانا القرآن إلى النظر فى المخلوقات فقال : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت) وقال : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وسخر لنا الشمس والقمر لننتفع بهما وسائر النجوم ، ومن وسائل الانتفاع أن نكتشف ما فى النجوم من أسرار ، قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) وهبوط الإنسان على القمر ليس إلا اكتشافاً لهذا الكوكب الذى أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه مسخر لنا لننتفع بما فيه ، وليس فى القرآن ما ينافى ذلك أو يستبعده ..

فى العقائد التى انحرفت سبب الإلحاد

دين الله نزل صافياً من السماء منذ آدم ، ولكن أهواء البشر غيرت على مر الزمن وبدلت وانحرفت بالكثير منه إلى طريق غير مستقيم يتعارض مع العقل ، ولا ينسجم مع المنطق .

ولعل الذين يلحدون ، بسبب العقائد التى انحرفت ، لهم بعض العذر ، فإذا قلت لإنسان : إن التوراة تروى أن الله نزل إلى الأرض ، كائناً بشرياً وسار فى مزرعة سيدنا إبراهيم ، دون استئذان صاحب المزرعة ، فلما رأى إبراهيم هذا الغريب يسير فى المزرعة ، فى حرية وعدم مبالاة ، ثار كبرياؤه ، فحصلت بينهما مشادة والتحما فى معركة حامية ، أوشك إبراهيم فيها أن يصرع إلهه ، وأن يطرحه أرضاً لولا أن الإله المشفق على نفسه من السقوط والهزيمة النكراء ، صارح إبراهيم بحقيقة أمره فأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق لبنى جنسه .

إذا قلت لإنسان هذا ، فليس من الغريب أن يلحد فى التوراة ، وله العذر إذا ما شك فى الدين الذى يقوم على هذا الكتاب .

وإن أى إنسان مميز تقول له عن كائن معين بالذات ولد فى يوم محدد وفى شهر معين ، ونشأ كما ينشأ الآخرون . . إذا قلت لإنسان مميز إن هذا الكائن مولود غير مخلوق وإنه أزلى ، وإنه واحد ، ومع ذلك فهو ثلاثة فى الوقت الذى هو فيه واحد ، وواحد فى الوقت الذى هو فيه ثلاثة ، إذا قلت لإنسان ذلك فشك وألحد فى دينه فله العذر .

وكلمة القديس أوغسطين : « إنى أومن بهذا لأنه غير معقول » غير مستساغة لذى أصحاب المنطق والتفكير السليم .

ولكن من البداهة أن الشك فى دين معين لا يقتضى الشك فى جميع الأديان وإذا كان البطلان قد ظهر ، بالنسبة لدين خاص فليس معنى ذلك أن البطلان يتعدى ذلك الدين إلى غيره . . .

فى ذكر أنبياء الله فى الكتاب

لا عجب أن يذكر فى الكنائس أنبياء الله : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فإن يعقوب هو إسرائيل ، وعلى بنى إسرائيل نزل الوحى مدة طويلة ، وكثر فيهم الأنبياء فإسحق بن إبراهيم جدهم ويعقوب أبوهم ومنهم موسى وعيسى وزكريا ويحيى . . ونحن مؤمنون بهم وبكل الأنبياء ولا يمنعنا كونهم من بنى إسرائيل ألا نؤمن بهم حسداً أو تحزبًا وتفريقاً بين أنبياء الله بل نحن مؤمنون بهم وبكل من علمنا ومن لم نعلم من الأنبياء ، ودينهم الذى جاءوا به وهو عبادة الله وحده والتصديق بكل حق عنده . والله يحب أن يؤمن العالمون بكل أنبيائه كذلك . .

فى عبادة الأوثان

عبادة الأوثان تعنى أن يتوجه العابد إلى الوثن بالعبادة ، ويعتقد فيه أنه مجال لحلول الإله وأنه يضر وينفع ، ويجازى كلا من أتباعه بما يستحق .

وإذا كان الله تعالى ذكر قول عباد الأوثان : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فإنه قد بين أنهم كانوا يعبدونهم ، والعبادة مطلق الطاعة والخضوع لمن بيده الضرر والنفع والتصرف الكامل فى الإنسان وما يحيط به .

وليس من ذلك تقبيل الحجر الأسود والطواف بالكعبة لأن فى هذين الفعلين عبادة الله بأداء فعل ما جعله الله تعالى مظهر العبادة المقبولة .

وليس فى هذا الفعل عبادة لحجر أو تعظيم لحجر – وإنما فيه عبادة لله وحده وإفراد له بالطاعة والخضوع .

إن عبادة الأصنام والأوثان تعظيم لغير ما عظمه الله ، وإشراك لله بجعل بعض المخلوقات لها من مظاهر الألوهية مالله – وانصراف عن التسليم الكامل لله بالوقوف عند بعض مخلوقاته وتعظيمها تعظيمًا لا يليق إلا به سبحانه .

ولو اعتقد إنسان أنه بتقبيله الحجر يعبد الحجر فهو كافر وكذلك الأمر فى الطواف بالبيت . إن على الحاج أن يستشعر المطلوب هنا وهو الاستسلام الكامل لله ، وتنفيذ كل ما أمر به وخصه عليه .

وإن كلمة سيدنا عمر معروفة مشهورة فيما يتعلق بالحجر حيث قال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أن رسول الله قبلك ما قبلتك ، وهذه الكلمة التى يقر بها جميع المسلمين تنفى كل شبهات الوثنية .

إن الحاج يبدأ الطواف ببسم الله والله أكبر . . .

فى القوة المادية وسيلة لإرضاء الله تعالى

لا يلزم من امتلاك القوى المادية تأييد الله وتسديده ، فكما تكون القوة والنعم المادية نعمة لمن شكر واستخدمها فى الخير ، تكون نقمة لمن كفر واستخدمها فى الشر . عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إن الله ليملى للظالم – أى يمهله و يؤخر مؤاخذته و يمد له فى حبال الأمل ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا قوله تعالى : (وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخَذَ القرى وهى ظالمة إن أخْذَهُ أليم شديد) ولقد جرت العادة بأن الأنبياء والأولياء والمؤمنين الصادقين أكثر الناس صبرًا على البلاء ومقاومة لطغيان الكفر والفساد « فهذا رسول الله ﷺ يحكى عن نبى من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وهو بذلك إنما يصور بعض ماجرى له مع قومه .

وبالصبر والعمل الجاد الدائب والتوكل على الله تعالى يتحول الضعف إلى قوة فى الأمة الإسلامية ويتحقق وعد الله للمؤمنين : (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) . . (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

والمقصود أن القوة المادية تكون وسيلة إلى مرضاة الله إذا استندت إلى إيمان صحيح ودين قويم – أما إذا لم تستند إلى شيء من ذلك فهى وسيلة لاختبار المؤمنين بالصبر فى مواجهتها والعمل على الوصول إلى مستواها والسير بمبادئهم رغماً عنها ، ومحاولة تسييرها على أساس هذه المبادئ . .

فى الحلف بغير الله

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقال ﷺ : « كل يمين يحلف بها دون الله شرك » .

من هذا نعلم أن الحلف لا يكون إلا بالله ، ومثل الحلف بالله الحلف بالقرآن ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته فهو كالحلف بالله سواء بسواء وأما الإجبار فى الحلف فممنوع شرعاً إلا إذا كان لغرض شريف مثل التثبت من صحة قول الحالف فى موضوع يتصل بمصلحة المسلمين ، وإلا فالإجبار على الحلف الباطل حرام ، والإكراه على الحلف لا يضر الحالف فى صحته إذا تحققت شروط الإكراه ، وكان الحالف بريئاً وعند الإكراه بغير حق يرفع الحالف أمر مَنْ أكرهه إلى القضاء لحفظ دينه وكرامته وإذا ترتب على الحلف أضرار مادية يرفع الحالف أمره إلى القضاء .

والله أعلم ....

فى الجبر والاختيار

هذه مسألة خاض فيها العلماء منذ زمن طويل وذهبوا فيها مذاهب .

١ – مذهب الجبرية الذى يرى أن الإنسان لا كسب له ولا اختيار فى أفعاله وأنه كريشة معلقة فى الهواء تسيرها الرياح كيف شاءت .

٢ – مذهب المعتزلة الذى يرى أن الإنسان إنما يخلق أفعاله الاختيارية ويوجدها بقدرته وإرادته التى خلقها الله فيه ولا دخل للقضاء والقدر فى أفعاله .

٣ – ومذهب أهل السنة الذى يرى أن الله هو الذى يخلق أفعال العبد والعبد له كسب واختيار فى أفعاله .

وهذا هو الذى ارتضاه جمهورالمسلمين وهو أن العبد مخير فى أفعاله لأنه هو الذى يرجح ويختار حسب ما أودعه الله فيه من عقل يميز الخير من الشر ، وأنه هو الذى يعزم ويصمم على الفعل ، وبعد ذلك يكون خلق الفعل من الله سبحانه وتعالى كما قال فى كتابه العزيز . (والله خلقكم وما تعملون) .

فى الإسلام دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة السليمة ، وليس فيه كهنوت ولا رجال دين يملكون أن يغفروا الخطايا ويعفوا عن الذنوب .

وهذه الأمور هى من العلاقة بين العبد وربه ، فمن التزم أوامر الله واجتنب نواهيه دخل الجنة بفضل الله وإحسانه . قال تعالى :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا) .

فجعل الجنة جزاءً للإيمان والعمل الصالح . وليس من الإسلام أن يبيع الإنسان نفسه لأحد فالمسلم حر عزيز لا يباع ولا يشترى ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئًا عند الله سبحانه وتعالى : ولقد قال الرسول ﷺ لأقربائه موضحاً لهم هذه الحقيقة مرشدًا لهم إلى الطريق القويم ومحذرًا لهم من الاتكال على الانتساب إليه دون عمل فقال منادياً أقرب الناس إليه « يا فاطمة بنت محمد اشترى نفسك من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ويا صفية عمة رسول الله اشتروا أنفسكم من الله (أى بالعمل الصالح) لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

وقال سبحانه وتعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

من كل ذلك نعلم أن علاقة المسلم برجال الدين هى علاقة إرشاد وهداية وقدوة ومثل : وليست علاقة استذلال واستعباد .

ومن يدعو الناس إلى أن يبيعوا أنفسهم نظير أن يدخلوا الجنة فليس من رجال الدين ولا من المتأدبين بآدابه أو المتمسكين بتعاليمه ، ويجب أن يحذره الناس ولا ينخدعوا به .

فى الخلافة

إن الخلافة فى الإسلام لا تورث ، إنها ليست ملكاً عضوضاً ، والمقطوع به من الدين إن الأمة يجب عليها أن تختار للخلافة أكملها فهماً للدين وتقوى الله وأمثلها حكمة واتزاناً وحزماً وعدلا . .

ونظام ميراث الملك ابناً عن أب عن جد أو نظام كون الملك فى أسرة معينة لا يتعداها نظام لا يعرفه الإسلام .

لم يوصِ سيدنا أبو بكر بالخلافة لأحد أبنائه ، ولم يأمر بها سيدنا عمر لأحد من أبنائه برغم أن ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان قمة فى التقوى والصلاح والفضيلة ولم يوص سيدنا عثمان بالخلافة أن تكون فى أسرته وما كان سيدنا على ، من الجهل بالإسلام وقواعده بحيث يأتى بعمل يخالف روح الإسلام ويخالف قواعده فيأمر أصحابه أن ينتخبوا ابنه الحسن خليفة من بعده وإذا كان هناك أمر فما يعنى الانتخاب إذن ؟ ولِمَ الانتخاب ؟ إن المنطق البسيط يرشد إلى أن سيدنا على لا يفعل مثل ذلك .

ويأتى التاريخ الصحيح وكتب السير والأخبار الثابتة فتؤيد ما أيده المنطق وترشد إلى أن سيدنا علياً ما كان يرى الخلافة كسرية متوارثة وإنما كان يراها انتخاباً من أولى الأمر . .

والله أعلم . . . .

فى الشيعة

إن الأغلبية الغالبة الآن من الشيعة توجد فى إيران وفى العراق وفى اليمن ، وشيعة إيران والعراق من الشيعة الاثنا عشرية ، أما شيعة اليمن فإنهم من الشيعة الزيدية وهذه الأقطار الذى ذكرناها تضم ملايين الشيعة .

بيد أن هناك آلافاً من الشيعة العلويين فى لبنان ، ومجموعة ضخمة من الشيعة (طائفة البهرة) فى الهند ، وطائفة ضخمة أخرى من الشيعة الإسماعيلية فى الهند وأفريقيا .

أما تسميتهم بالشيعة فلأنهم شايعوا علياً رضى الله عنه فى خلافه مع معاوية رضى الله عنه ، ومع الآخرين من الصحابة ، فكانوا شيعة على أى مناصريه ومؤيديه على كل من خاصمه .

أما الفروق التى بين الشيعة وبين غيرهم فهى فروق فى الفقه وفى العقيدة وأبرز مظاهر الخلاف بين أهل السنّة والشيعة فى الفقه . أمران :

أحدهما : زواج المتعة وهو أن يتفق الرجل مع المرأة على أن يستمتع بها فترة من الزمن فى مقابل مبلغ من المال ، إذ يعتبر الشيعة ذلك حلالا ويعتبره أهل السنة حراماً .

والأمر الثانى : فى الاختلاف الفقهى حول الجمع بين العصر والظهر ، وبين المغرب . يأخذ به الشيعة فيجمعون ولا يفعل ذلك أهل السنة إلا فى حالات معينة ، أما الاختلاف فيما يتعلق بالعقيدة فأبرز مظاهره .

١ – اعتقاد الشيعة فى عصمة أئمتهم ، أما أهل السنة فإنهم لا يعتقدون إلا فى عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ – اعتقاد الشيعة أن عليًّا كرم الله وجهه أفضل أصحاب رسول الله ﷺ على الإطلاق ، وأنه كان أحق بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء ، أما أهل السنة فإنهم يكبرون عليا رضى الله عنه ويحترمونه ولكنهم يرتبون الخلفاء فى الأفضلية بحسب ترتيب الخلافة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ، وهؤلاء الأربعة هم أفضل الصحابة عند أهل السنة .

تفصيل الحديث عن الشيعة

أصل الشيعة[٢٩]

يختلف الناس فى أصل « الشيعة » ؛ فيعزوها بعضهم إلى أثر الفرس ، الذين كانوا يقدسون « المَلِكَ » ؛ فلما زال مُلكُهم ، ودخلوا فى الإسلام ، ظهر أثر ذلك فى موقفهم من « آل البيت » وتقديسهم للأئمة .

ويرى آخرون : أن « الشيعة » تدين فى نشأتها لـ « عبد الله بن سبأ » ، الذى كان يهوديًّا واعتنق الإسلام للنَّيل منه ، والكيد له ؛ فأظهر هذا المذهب ليفرِّق بين المسلمين ، ويقضى على وحدتهم ، وعزتهم .

---

(٢٩) من مصادر هذا الفصل : مقالات الإسلاميين « للأشعرى » .

الفرق بين الفرق « للبغدادى » ، التبصير فى الدين « للإسفرايينى » .

الملل والنحل « للشهرستانى » . مقدمة « ابن خلدون » عثمان « للدكتور طه حسين » ، على وبنوه « للدكتور طه حسين » فجر الإسلام « للدكتور أحمد أمين » ، ضحى الإسلام « للدكتور أحمد أمين » ، أصل الشيعة وأصولها « الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء » أصول الإسماعيلية « للدكتور برنارد لويس » .

رأى « ولهوزن » و « دوزى » :

يقول الدكتور « أحمد أمين » :

وقد ذهب الأستاذ « ولهوزن » إلى أن العقيدة « الشيعية » نبعت من « اليهودية أكثر مما نبعت من « الفارسية » مستدلا بأن مؤسسها « عبد الله بن سبأ » وهو يهودى .

ويميل الأستاذ « دوزى » إلى أن أساسها « فارسى » ؛ فالعرب تدين بالحرية ، و « الفرس » يدينون « بالمَلِك » ، وبالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات « محمد » ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه « على بن أبى طالب » ، فمن أخذ الخلافة منه « كأبى بكر » و « عمر » و « عثمان » و « الأمويين » فقد اغتصبها من مستحقها ؛ وقد اعتاد « الفرس » أن ينظروا إلى « الملك » نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى « على » و « ذريته » .

وقالوا : « إن إطاعة الإمام أول واجب ، وأن إطاعته لله[٣٠] » أ هـ .

رأينا فى أصل الشيعة :

ولكنا نرى أن السبب فى نشأة (الشيعة) ، لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم فى الإسلام ، ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة فى « عبد الله بن سبأ » . وإنما هو أقدم من ذلك ؛ فنواته الأولى ترجع إلى شخصية « على » – رضى الله عنه – من جانب ، وصلته بالرسول – عليه الصلاة والسلام – من جانب آخر .

وتوضيح ذلك : أن صلة « على » بالرسول – عليه الصلاة والسلام – أقدم من الإسلام نفسه .

لم ينس « محمد » – عليه الصلاة والسلام – بعد زواجه « بخديجة » ، رضى الله عنها ، عطف « أبى طالب » عليه ، ورعايته له .

فقد ضم « أبو طالب » الرسول إليه ، وكفله ، بعد وفاة جده « عبد المطلب » وذلك بالرغم من كثرة عياله ، وعدم ثرائه .

وكان من تصرفات المقادير : أن أصابت « قريشاً » أزمة شديدة فتحدث رسول الله ، ﷺ ، مع عمه ، « العباس » وكان من أيسر « بنى هاشم » ، فقال له :

---

(٣٠) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ، ص ٣٤٠ .

إن أخاك « أبا طالب » كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عِيالِه : آخُذُ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكِلهُما عنه .

فقال « العباس » : نعم ، فانطلقا حتى أتيا « أبا طالب[٣١] » .

وانتهى الأمر بينهما وبينه : أن أخذ رسول الله ، ﷺ ، « عليا » فضمه إليه ، وأخذ « العباس » « جعفرا » .

نشأ « على » مع الرسول ، ﷺ ، منذ نعومة أظفاره ، فتفتحت عيناه – طفلا – على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة فى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود المتبادل بين الزوجين الطاهرين ؛ والحنان الذى يملأ البيت الكريم ، والرحمة التى تفيض من قلب « محمد وخديجة » فيكون من أثرها حمل الكلّ ، وصلة الرحم ، وقرى الضيف ، والإعانة على نوائب الدهر ، فترك ذلك فى نفسه أكرم الأثر .

وأوحى الله إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، « وعلى » – يومئذ – ابن عشر سنين ، فلم تتدنس جبهته بالسجود لصنم ، ولم يكن فى سن تجترح فيها المعاصى : فاعتنق الإسلام طاهراً .

ولقد أراد – قبل إسلامه – أن يستشير أباه ، وبات ليلته يفكر فى الأمر ، فلم يكن يغمض له جفن ، فلما أصبح أعلن فى ثقة واطمئنان : أنه أسلم ، وأنه فى غير حاجة لرأى « أبى طالب » وقال :

« لقد خلقنى الله من غير أن يشاور « أبا طالب » فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله » .

« وكان رسول الله ، ﷺ ، إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه « على ابن أبى طالب » مستخفياً من أبيه « أبى طالب » ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا[٣٢] »

وحين نزلت الآية الكريمة (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا « محمد » عشيرته إلى الطعام فى بيته ، وحاول أن يحدثهم ، داعياً إياهم إلى الله ، فقطع عمه « أبو لهب » حديثه واستنفر القوم ليقوموا .

ودعاهم « محمد » فى الغداة كرة أخرى ، فلما طعموا قال لهم :

ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم : بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ فأعرضوا عنه ، وهموا بتركه .

---

(٣١) سيرة ابن هشام ، ص : ٢٩٣ .

(٣٢) سيرة ابن هشام ، ص : ٣٦٢ .

لكن « عليا » نهض وهو ما يزال صبيًّا دون الحلم وقال :

أنا يا رسول الله فى عونك ، أنا حرب على ما حاربت . فابتسم « بنو هاشم » وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم يتنقل من « أبى طالب » إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين[٣٣] .

وفى ليلة الهجرة أسر الرسول ، ﷺ ، إلى « على » أن يتسجَّى بُرْدَه الحَضرميَّ الأخضر ، وأن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس[٣٤] .

وآخى رسول الله ، ﷺ ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، ثم أخذ بيد « على » بن « أبى طالب » فقال : هذا أخى .

فكان رسول الله ، ﷺ ، و « على » بن « أبى طالب » رضى الله عنه ، أخوين[٣٥] .

لقد رباه رسول الله ، ﷺ ، صغيراً ، وكان رضى الله عنه ، يعيش فى بيته كأحد أبنائه ، وكان أول من أسلم من الذكور ، وآخى رسول الله ، ﷺ ، بينه وبينه ، وزوجه بأحب بناته إليه .

« فاطمة » ، رضى الله عنها .

ثم إن شجاعته الفذة ، وإخلاصه النادر للرسول ، ﷺ ، وتقواه ، وزهده ...

كل ذلك مشهور ، لا يحتاج إلى توضيح ، ولذلك يقول الدكتور « طه حسين » بحق :

ولقد قال المسلمون بعد وفاة النبى : إن « عليا » كان أقرب الناس إليه ، وكان ربيبه ، وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة ، وكان ختنه ، وأبا عقبه ، وكان صاحب لوائه ، وكان خليفته فى أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة « هارون » من « موسى » بنص الحديث عن النبى نفسه .

لو قد قال المسلمون هذا كله ، واختاروا « عليا » بحكم هذا كله للخلافة ، لما أبعدوا ، ولا انحرفوا[٣٦] .

ولا غرابة ، والأمر كذلك أن : « كان جمع من الصحابة » يرى أن عليا أفضل من « أبى بكر » و « عمر » وغيرهما :

---

(٣٣) حياة محمد ، للدكتور هيكل ، ص : ١٤٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص : ٢١١ .

(٣٥) سيرة (ابن هشام) ، والروض الأنف : ص ١٨ .

(٣٦) عثمان للدكتور « طه حسين » ، ص ١٥٢ .

وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى « عماراً » و « سلمان الفارسى » و « جابر بن عبد الله » ، و « العباس » و « بنيه » و « أبى بن كعب » و « حذيفة » إلى كثير غيرهم (٣٧) .

ولكن اجتماع الثقيفة انتهى باختيار « أبى بكر » ، رضى الله عنه ، خليفة للمسلمين فامتنع « على » ، رضى الله عنه ، عن البيعة ، لاعتقاده ، أنه أحق بالخلافة ، والحديث التالى يبين موقفه .

فى صحيح البخارى : حدثنا « يحيى بن بكير » ... عن « عائشة » ، أن فاطمة – عليها السلام – بنت النبى ، ﷺ ، أرسلت إلى « أبى بكر » تسأله ميراثها من رسول الله ، ﷺ ، مما أفاء الله عليه « بالمدينة » و « فدك » وما بقى من خمس خيبر ، فقال « أبو بكر » .

إن رسول الله ، ﷺ ، قال :

لا نورث ، ما تركناه صدقة ؛ إنما يأكل آل محمد فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ، ﷺ ، عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله ، ﷺ ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ، ﷺ ، فأبى « أبو بكر » أن يدفع إلى « فاطمة » منها شيئاً ، فوجدت « فاطمة » على « أبى بكر » فى ذلك ، فهجرته ، فلم تكلمه حتى توفيت .

وعاشت بعد النبى ، ﷺ ، ستة أشهر ، فلما توفيت ، دفنها زوجها « على » ليلا ، لم يؤذن بها « أبا بكر » وصلى عليها . وكان « لعلى » من الناس وجه حياة « فاطمة » فلما توفيت استنكر « على » وجوه الناس ، فالتمس مصالحة « أبى بكر » ومبايعته . ولم يكن يبايع تلك الأشهر ؛ فأرسل إلى « أبى بكر » أن ائتنا : ولا يأتنا أحد معك . كراهية ليحضر « عمر » ، فقال « عمر » :

لا والله لا تدخل عليهم وحدك . فقال « أبو بكر »

وما عسيتهم أن يفعلوا بى ، والله لآتينهم .

فدخل عليهم « أبو بكر » ، فتشهد « على » فقال :

إنا قد عرفنا فضلك ، وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا الأمر ، وكنا نرى ، لقرابتنا من رسول الله ، نصيباً ، حتى فاضت عينا « أبى بكر » . فلما تكلم « أبو بكر » قال :

والذى نفسى بيده ، لقرابة رسول الله ، ﷺ ، أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى ، وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال : فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ، ﷺ ، يصنعه فيها إلا صنعته .

---

(٣٧) فجر الإسلام ، من ص : ٣٢٨ .

فقال « على » « لأبى بكر » : موعدك العشية للبيعة .

فلما صلى « أبو بكر » الظهر ، رقى المنبر فتشهد ، وذكر شأن « على » ، وتخلفه عن البيعة ، وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر .

وتشهد « على » فعظم حق « أبى بكر » ، وحدَّث : أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على « أبى بكر » ، ولا إنكاراً للذى فضله الله به ، ولكنا كنا نرى لنا فى هذا الأمر نصيباً ، فاستبد علينا ، فوجدنا فى أنفسنا .

فسر بذلك المسلمون ، وقالوا : أصبت . وكان المسلمون إلى « على » قريباً حين راجع الأمر بالمعروف[٣٨] . اهـ .

بايع « على » « أبا بكر » فى إخلاص المؤمن الصادق الإيمان . وأخذت حياته تسير فى مجراها الطبيعى : زهد ، وتقوى ، وعلم ، وورع ، واستمر منارة يهتدى بها الحائر ، ومثلا أعلى يسير على هداه من رغب عن سنن الباطل ، وطمح إلى رضوان الله .

وتوفى « أبو بكر » — رضوان الله عليه — بعد أن عهد بالخلافة إلى « الفاروق » فاجتمعت كلمة المسلمين على « ابن الخطاب » فقادهم جَهْدَه إلى مرضاة الله ، وكان « على » فى زمنه ، كما كان فى زمن « أبى بكر » ، المنارة والمثل الأعلى .

وكان كل شىء يرشح « عليا » للخلافة بعد موت « عمر » : قرابته من النبى ، ﷺ ، وسابقته فى الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه فى سبيل الله ، وسيرته التى لم تعرف العوج قط ، وشدته فى الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه فى كل ما عرض عليه من المشكلات .

ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على « أبى بكر » : لأنه كان رفيع المكانة عند النبى ، ﷺ ، وثانى اثنين فى الغار ، ولأنه خلف « النبى » على الصلاة بالناس .

ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على « عمر » ، لمكانة « عمر » أولا ، ولعهد « أبى بكر » بالخلافة إليه ثانياً .

لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا « عليًّا » للخلافة ، لا يجدون بذلك بأساً ، ولا يبقون فيه حرجاً ، « فعمر » قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصبية فى

---

(٣٨) البخارى ، ويجب أن تأخذ هذا الحديث بتحفظ فيما يتعلق بتفاصيله وتعبيراته ، فهو رواية السيدة « عائشة » — رضى الله عنها — وقد يكون فيه ، بطريقة لاشعورية ، بعض مايغض من شأن « على » ، ولكنه صحيح فيما يعرفنا به من امتناع « على » عن البيعة ، ومن تحديد الزمن الذى امتنع فيه . ولهذا أهميته .

العرب عامة ، وفى قريش خاصة ، بالمنزلة التى كان فيها « عبد الرحمن بن عوف » .

فهو قد أصهر إلى « قريش » ، وأصهر إلى « مضر » ، وأصهر إلى « ربيعة » ، وأصهر إلى « اليمانية » ، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن . فلو قد ولى الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليقاً أن يقارب بين العصبيات المتباعدة ، وأن يجمع الناس على طاعته ، وأن يحملهم على الجادة كما قال « عمر » .

ولكن المسلمين لم يختاروه لأمرين :

أحدهما : خوف قريش أن تستقر الخلافة فى « بنى هاشم » إن صارت إلى أحد منهم . وقد بينت الحوادث أن « علياً » لم يكن لينقل الخلافة بالوراثة ، فهو قد سار سيرة « النبى » وسيرة « عمر » فلم يعهد لأحد من بعده .

والآخر : أن « عليا » لم يقبل ما عرضه عليه « عبد الرحمن » من أن يبايع على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وفعل « أبى بكر » و « عمر » لا يحيد عن شىء من ذلك . تحرج « على » من أن يعطى هذا العهد ، مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصر عن الوفاء به كاملا ، فعرض أن يبايع على أن يلزم كتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته[٣٩] .

وللمرة الثالثة لم يتول سيدنا « على » الخلافة : إنما تولاها سيدنا « عثمان » واستمر سيدنا « على » المنارة ، والهدى ، والمثل الأعلى . وحدثت الأحداث التى انتهت بقتل سيدنا « عثمان » ... وتولى سيدنا « على » الخلافة فلم يتغير سلوكه ولم ينحرف عن الجادة .

وقد عاش « على » قبل الفتوح ، كما عاش بعد الفتوح ، عيشة هى إلى الخشونة والشظف ، أقرب منها إلى الرقة واللين : فلم يتجر ، ولم يتسع ، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه ، ويرزق أهله ، ويستثمر فضوله فى مال اشتراه يَنْبُع ، ثم لم يزد عليه .

ولما مات لم تحص تركته بالألوف ، فضلا عن عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما كانت تركته كما قال « الحسن ابنه » فى خطبة له : سبعمائة درهم ، كان يريد أن يشترى بها خادماً .

وكان « علىّ » فى أثناء خلافته القصيرة ، يلبس خشن الثياب ، والمرقع منها ، ويحمل الدرة ، ويمشى فى الأسواق ، فيعظ أهلها ، ويؤدبهم ، كما كان يفعل « عمر » فكان هذا دليلا على أن « عمر » كان صادق الفراسة حين قال : « لو ولُّوا الأجلح لحملهم على الجادة[٤٠] » .

حقًّا لقد كان سيدنا « على » مثلاً سامياً فى الدين والأخلاق ، ومع ذلك فإنه لم يكد يتولى الخلافة بعد مقتل سيدنا « عثمان » ، حتى اضطرب الأمر ، واختل النظام .

---

(٣٩) عثمان « للدكتور طه حسين » ، ص : ١٥٢ - ١٥٣ . (٤٠) عثمان ، ص : ١٥ .

أراد سيدنا « على » أن يقود الناس إلى الآخرة ، فإذا هم متطلعون إلى الدنيا ، وأراد أن يوجههم إلى الله ، فإذا بالمادة قد غلبت عليهم ، ولقد عاش طيلة خلافته فى جلاد وصراع ، ضد الأهواء ، والشهوات ، والدنيا .

وفى النهاية لقى مصرعه على يد « عبد الرحمن بن ملجم » . وتغلبت الأهواء ، والشهوات ، والدنيا . ممثلة فى « معاوية » .

وانتصرت الدنيا ، ولكن كان للآخرة عشاقها ومحبوها ، وهؤلاء لم يتوانوا فى نصرة « على » حيا ، فلما قتل أخذوا يذكرون حياته الحافلة بصالح الأعمال وجليلها ، وأخذت صورة « على » – بمر الزمن – تلبس ، شيئاً فشيئا هالة من الإجلال ... والتقديس ... والتنزيه ... والربانية ... والألوهية ... و ... وهل من مزيد ؟ .

كانت « الشيعة » – فى بدء أمرها – محبة كمحبَّة « سلمان الفارسى » « لآل البيت » ثم أصبحت محبة ، وعطفاً ، وشفقة ، حينما اعتقد بعض الناس : أن « البيت العلوى » لم يأخذ المكانة اللائقة فى المجتمع . فلما أصبح الظلم : اضطهاداً ، وتعذيباً ، وتشتيتاً ، وبتراً للأعضاء ، وسملا للعيون ، وقتلا ... تكونت « الشيعة » بالمعنى الاصطلاحى المعروف الآن ... وكان رجال « البيت العلوى » ومن يعطف عليهم ، يغذون الفكرة ، ويمدونها بما استطاعوا من مال ، ومن تشجيع ...

ولكن الأفكار – إذ ذاك – لم تكن تسير بالمال والتشجيع فحسب ، وإنما كانت تتطلب سنداً من الدين لا مناص منه .

ولجأت « الشيعة » إلى القرآن ، وإلى السنة ، تستمد منها – فى يسر ، أو فى تعسف – ما يعينها على ما تريد ...

وآل أمر « الشيعة » إلى شِيَع ، وأفرط الكثير منها فى « على » وغالى ، والحب – حقا – يعمى ويصم : فكان من ذلك ، الغلاة .

ولعل فيما تقدم ، ما يدل على أن أصل « الشيعة » لم يكن يهوديًّا ، ولم يكن فارسيًّا ، كما يزعم بعض المستشرقين ، وإنما نشأت الشيعة نشأة طبيعية ، ونمت نموا طبيعيًّا .

فرق الشيعة :

وبرغم أن (الشيعة) تفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من أحزاب ، فإنه من الممكن تقسيمها إلى :

١ – غلاة .

٢ – إسماعيلية ؛ وما تفرع عنها .

٣ – إمامية اثنا عشرية .

٤ – زيدية .

أما الغلاة ، فقد بادوا ، وانقرضوا ، وقد تبرأ منهم الشيعة : الإمامية منهم ، والزيدية .

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » ، فى رده على بعض الناقدين « للشيعة » .

« فهل مراده ما يسمونه » « : « غلاة الشيعة » « كالخطابية » و « الغرابية » و « العلياوية » و « المخمِّسة » ، و « البزيعية » ، وأشباههم من الفرق الهالكة « المنقرضة » التى نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش ، وما هى إلا من الملاحدة : (كالقرامطة) ، ونظائرهم . أما « الشيعة الإمامية » ، و « أئمتهم » « ع » فيبرءون من تلك الفرق « براءة التحريم [٤١] » .

أما « عبد الله بن سبأ » الذى يلصقونه « بالشيعة » أو يلصقون « الشيعة » به – فهذه كتب « الشيعة » بأجمعها تعلن بلعنه ، والبراءة منه ، وأخف كلمة تقولها كتب رجال « الشيعة » فى حقه ، ويكتفون بها عن ترجمة حاله عند ذكره فى حرف العين هكذا : « عبد الله بن سبأ » ألعن من أن يذكر [٤٢] » .

وأما « الإسماعيلية » ، وهم منتشرون فى الهند ، والباكستان ، وجنوب إفريقيا وشرقها : فلسنا الآن بصدد الحديث عنهم ، وعن مذهبهم ، وقربه وبعده عن الدين ، وصلته أو عدم صلته بالأفلاطونية الحديثة أو بغيرها من مذاهب ، وسنترك ذلك لفرصة أخرى إن شاء الله .

سنقتصر فى الحديث إذاً على « الإمامية الإثناعشرية » و « الزيدية » و « الشيعة الإمامية الاثنا عشرية » يمثلون – كما يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » – أكثرية أهل السواد فى « العراق » ، وتسعة أعشار « إيران » ، وجماعات فى « القفقاز » من « الاتحاد السوفيتى » وجبل « عامل » من « الشام » ، وجزر « البحرين » و « الكويت » وسواحل « الأحساء » ، و « الهند » [٤٣] .

ويقول « الدكتور أحمد أمين » : ويبلغ « الإمامية » الآن نحواً من سبعة ملايين فى « فارس » ، ونحو مليون ونصف فى « العراق » ، وخمسة ملايين فى « الهند » [٤٤] .

و « الزيدية » هم « الشعب اليمنى » على الخصوص .

---

(٤١) أصل الشيعة ، ص : ٤٦ – ٤٧ .

(٤٢) أصل الشيعة ، ص : ٥٠ .

(٤٣) أصل الشيعة .

(٤٤) ضحى الإسلام ، ص٢١٣ .

١ – والإمامية والزيدية يتفقون على أن « عليا » أفضل الخلق بعد رسول الله ، ﷺ .

٢ – وأنه لذلك كان أحق بالخلافة من « أبي بكر » و « عمر » أما فيما عدا هذا ، فلا يكادون يتفقون على شيء .

مذهب الإمامية :

والإمامية مجمعون على أن النبي ، ﷺ ، نص على استخلاف « على » بن « أبي طالب » باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ، ﷺ ، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف ، وأنها قرابة ، وأنه جائز للإمام فى حالة التقية أن يقول : إنه ليس بإمام ، وأبطلوا جميعاً الاجتهاد وزعموا أن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس ، وزعموا أن « عليا » رضوان الله عليه ، كان مصيباً فى جميع أحواله ، وأنه لم يخطىء فى شيء من أمور الدين ...

وأنكروا الخروج على أئمة الجور ، وقالوا : ليس يجوز ذلك دون الإمام المنصوص على إمامته ...

وهم يدْعَون « الإمامية » ، لقولهم بالنص على إمامة « على » بن « أبي طالب »[٤٥] .

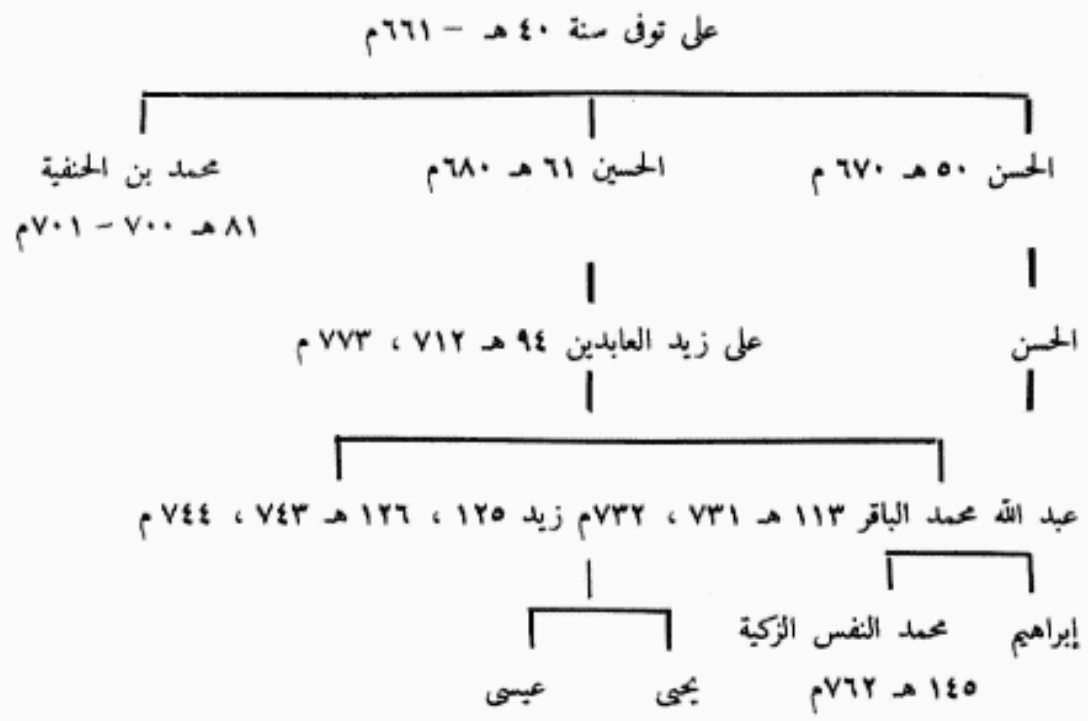
وسميت : الإمامية الاثنا عشرية ، لأنها تُسَلسِلُ الأئمة إلى الثانى عشر « محمد بن الحسن ابن على » وهو الغائب المنتظر عندهم ، الذى يدعون أنه سيظهر فيملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

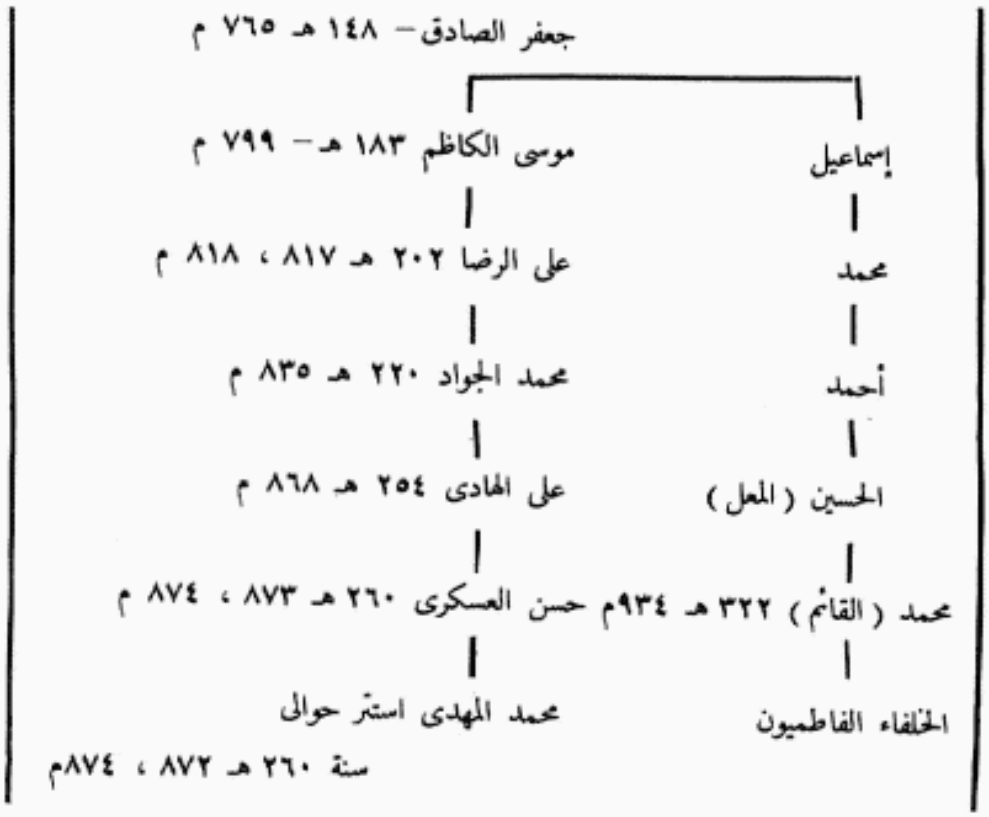
والشجرة التالية تبين تسلسل الأئمة عند فرق « الشيعة » نقلا عن المستشرق « برنارد لويس » .

---

(٤٥) مقالات الإسلاميين ص ٨٧ – ٨٨ ط النهضة المصرية .

آل على


على توفى سنة ٤٠ هـ - ٦٦١م
الحسن ٥٠ هـ ٦٧٠ م
الحسين ٦١ هـ ٦٨٠م
محمد بن الحنفية
٨١ هـ ٧٠٠ - ٧٠١م
الحسن
على زيد العابدين ٩٤ هـ ٧١٢ ، ٧٧٣ م
عبد الله محمد الباقر ١١٣ هـ ٧٣١ ، ٧٣٢م زيد ١٢٥ ، ١٢٦ هـ ٧٤٣ ، ٧٤٤ م
إبراهيم
محمد النفس الزكية
١٤٥ هـ ٧٦٢م
يحى
عيسى


الأئمة المستورون الإسماعيلية
أئمة الشيعة الاثنى عشرية
جعفر الصادق - ١٤٨ هـ ٧٦٥ م
إسماعيل
موسى الكاظم ١٨٣ هـ - ٧٩٩ م
محمد
على الرضا ٢٠٢ هـ ٨١٧ ، ٨١٨ م
أحمد
محمد الجواد ٢٢٠ هـ ٨٣٥ م
الحسين (المعل)
على الهادى ٢٥٤ هـ ٨٦٨ م
محمد (القائم) ٣٢٢ هـ ٩٣٤م
حسن العسكرى ٢٦٠ هـ ٨٧٣ ، ٨٧٤ م
الخلفاء الفاطميون
محمد المهدى استتر حوالى
سنة ٢٦٠ هـ ٨٧٢ ، ٨٧٤م

الزيدية :

وكان « الإمامية » ، و « الزيدية » فى بدء أمرهما : حزباً واحداً ، ثم اختلفا ! والسبب فى اختلافهما لم يكن أصلا من أصول الدين ، وإنما كان حول « الإمامة » ، وهو يبين وجهة نظر كل منهما فيها .

يقول – البغدادى : « وسبب افتراقهما » أن « زيد » بن « على » قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة ، وخرج بهم على والى العراق ، وهو « يوسف » بن « عمر » الثقفى عامل « هشام » بن « عبد الملك » على العراقيين ، فلما استمر القتال بينه وبين « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، قالوا له :

إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى « أبى بكر » ، و« عمر » اللذين ظلما جدك « على » بن « أبى طالب » .

فقال « زيد » :

إنى لا أقول فيهما إلا خيراً ، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرًا ، وإنما خرجت على « بنى أمية » الذين قاتلوا جدى « الحسن » . وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيتاً لله بحجر « المنجنيق » والنار ففارقوه عند ذلك – حتى قال لهم : رفضتمونى ! ومن يومئذ سموا : « رافضة » ....

وبقى « زيد » فى مقدار مائتى رجل وقاتلوا جند « يوسف » بن « عمر » الثقفى ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل « زيد » ، ثم نبش من قبره وصلب ، ثم أحرق بعد ذلك[٤٦] .

والزيدية يرون أن الأدلة الخاصة بإمامة « على » – رضى الله عنه – اقتضت تعيينه بالوصف لا بالشخص ، وتقصير الناس إنما أتى من حيث إنهم لم يضعوا الوصف فى موضعه .

وهم لا يتبرءون من « الشيخين » ، ولا يطعنون فى إمامتهما ، مع قولهم بأن « عليا[٤٧] » أفضل منهما :

ذلك أنهم يجوِّزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل . ويشترطون بأن يكون « الإمام » عالمًا ، زاهداً ، جوادًا ، شجاعا ، ويخرج داعيًا إلى إمامته .

---

(٤٦) الفرق بين الفرق للبغدادى : ص ٢٥ ، ط المعارف .

(٤٧) « ابن خلدون » ص ١٣٩ ، ط عبد الرحمن محمد .

وقد كان « زيد » يناظر أخاه « محمد الباقر » على اشتراط الخروج فى الإمام ، فليزمه « الباقر » ألا يكون أبوهما « زين العابدين » إمامًا ، لأنه لم يخرج ، ولا تعرض للخروج :

وكان « الباقر » ينعى عليه أيضاً مذاهب « المعتزلة » وأخذه إياها عن « واصل ابن عطاء[٤٨] » .

و « الزيدية » سموا بذلك نسبة إلى صاحب المذهب وهو « زيد بن على بن الحسين السبط » .

وقد ساق الزيدية « الإمامة » على مذهبهم فيها ، وإنها باختيار أهل الحل والعقد ، لا بالنص ؛ فقالوا بإمامة « على » ، ثم ابنه « الحسن » ، ثم أخيه « الحسين » ، ثم ابنه « على زين العابدين » ، ثم ابنه « زيد بن على » ، وهو صاحب هذا المذهب ؛ وخرج بالكوفة ، داعيًا إلى « الإمامة » ، فقتل وصلب .

وقال الزيدية بإمامة ابنه « يحيى » من بعده ، فمضى إلى « خراسان » ، بعد أن أوصى إلى « النفس الزكية » فخرج بالحجاز وتلقب « بالمهدى » ، فأرسل إليه « المنصور » جيشًا ، فقتل . بعد أن عهد إلى أخيه : « إبراهيم » الذى قتل « بالبصرة[٤٩] » .

الشيعة وأصول الإسلام

نرى مما سبق : أن الشيعة تكونت فى المبدأ حبًّا فى « على » : لقرابته من الرسول ﷺ ولشخصيته الفذة . ثم تطورت فأصبحت « حزب البيت العلوى » .

ونظرياتها دارت – أولا وبالذات – حول الإمامة ، وحول الإمام :

« فالمهدى » إمام من أئمتهم ، يعود فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً . و « العصمة » لأئمتهم ، لا شك فيها ، بحسب نظرهم .

و « الغيبة » التى تعقبها « الرجعة » إنما هى لإمام : هو آخر الأئمة ، اختفى ، وهم فى انتظار عودته ، مهما طال الزمن .

و « التَّقيَّة » إنما وجبت لإحكام العمل حتى يتولى « البيت العلوى » الرياسة ...

أين الخلاف فى الأصول فى كل هذا ؟

يقول الشيخ « محمد الحسين آل كاشف الغطاء » فيما يتعلق بموقف « الشيعة الإمامية » من الغلاة الذين يتبرأ منهم كل مسلم :

---

(٤٨) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ .

(٤٩) مقدمة « ابن خلدون » ، ص : ١٤٠ ، ط عبد الرحمن محمد .

أما الشيعة الإمامية ، وأعنى بهم جمهرة العراق ، وإيران ، وملايين من مسلمى الهند ، ومئآت الألوف فى سوريا ، والأفغان ؛ فإن جميع تلك الطائفة ، من حيث كونها شيعة : يبرءون من تلك المقالات . ويعدونها من أشنع الكفر والضلالات : وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوقات ، أو ملابسة لهم ، فى صفة من صفات النقص ، والإمكان ، والتغير ، والحدوث ؛ وما ينافى وجوب الوجود ، والقدم ، والأزلية ؛ إلى غير ذلك من التنزيه . والتقديس المشحونة به مؤلفاتهم فى الحكمة ، والكلام من مختصره : كالتجريد ، أو مطولة كالأسفار ، وغيرهما مما يتجاوز الألوف ، وأكثرها مطبوع منتشر ، وجلها يشتمل على إقامة البراهين الدامغة على بطلان التناسخ ، والاتحاد ، والحلول ، والتجسيم[٥٠]

رأينا فى الشيعة :

« الشيعة » : حزب ، وهم لذلك يزيفون كل ما يقف عقبة فى سبيل توطيد مركزهم ، ويتهافتون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم ، ويؤولون التاريخ حسب ما تهوى نفوسهم :

فإذا ما تركنا العصبية جانباً فإننا نرى – فى إخلاص – أنه لو كان هناك ما يشبه – ولو من بعد – أن يكون رغبة « للرسول » فى أن يتولى « على » الأمر من بعده ، لسارع « أبو بكر » و « عمر » إلى بيعته .

إن إخلاص « أبى بكر » و « عمر » لله ، ولرسوله ، وللدين ، أسمى وأجل من أن يتطرق إليه ظل من الشك .

وسيدنا « عمر » – رضى الله عنه – حينما دهمته الطعنة المشئومة ، وأوشك أن يلاقى ربه ، وأراد أن يخرج من الدنيا ، ولم يأل جهداً فى الإخلاص لربه ، وللأمة الإسلامية ... لم يول « عليا » ، وإنما جعل الأمر شورى ، بين ستة نفر ، هم أمثل الأمة الإسلامية فى نظره ، ومن بينهم « على » رضوان الله عليه .

ولم يبته مجلس الشورى هذا باختيار « على » .

ولما تنازل « عبد الرحمن بن عوف » عن ترشيح نفسه ، ليختار الخليفة – وكان الأمر بيده – لم يختر « عليا » وإنما اختار « عثمان » رضى الله عنهما .

ثم إنه امتنع عن بيعة « على » « سعد بن أبى وقاص » بطل « القادسية » وفاتح « فارس »

---

(٥٠) أصل الشيعة ، ص : ٤٧ – ٤٨ .

وأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وأحد هؤلاء الذين توفى « الرسول » وهو راض عنهم ، ومطمئن إليهم .

وامتنع عن بيعته « عبد الله بن عمر » ، الرجل الزاهد ، الورع ، الذى آثر الله فى كل تصرفاته .

وامتنع عن بيعته أيضاً « أسامة بن زيد » – وصلته « بالرسول » معروفة – وتقدير « الرسول » له أشهر من أن يتمارى فيه اثنان .

وامتنع عن بيعته « محمد بن مسلمة » ومكانته فى الأنصار معروفة .

وامتنع عن بيعته غير هؤلاء ممن أراد السلامة لدينه ، والبعد عن الفتن .

على أن أصول الإسلام العامة تستوجب المساواة بين المسلمين فى الحقوق ، والواجبات ، وتجعل الأكرم هو الأتقى .

والحق أن الأمة الإسلامية – على اختلاف طبقاتها – تقدر « عليا » تقديراً كريمًا ، وتنزله من نفسها منزلة سامية ، أما ما وراء ذلك من آراء « الشيعة » الغالية منهم والمعتدلة ، فليس ديناً ، وليس ضرورة عقلية .

وإننا لنعتقد – فى إخلاص – أن الزمن كفيل برد « الشيعة » إلى السنن القويم . وبالله التوفيق .

فى علامات الساعة

من الأمور التى يجب الإيمان بها كما جاءت عن الصادق المعصوم ﷺ علامات الساعة لأنها من الأمور الغيبية ، ومن علامات الساعة إتيان المهدى ونزول عيسى عليه السلام .

وقد ورد بذلك الآثار عن الرسول ﷺ ، وإتيان المهدى قبل عيسى عليه السلام ، ثم نزول عيسى يكون عند خروج الدجال فينزل فيقتله ويكسر الصليب ويقتل الخنزيرويضع الجزية كما ورد فى الحديث ..

ونزول عيسى عليه السلام إنما هو تأييد لرسالة سيدنا محمد ﷺ وأنه سينزل عاملا بشريعة الإسلام مؤيدًا لها ناشراً عبادتها وتعاليمها ، صلوات الله وسلامه على رسل الله أجمعين ..

فى الإمام المهدى المنتظر

خبر ظهور المهدى جاءت به نصوص السنة الصريحة وأنه سيكون أول ظهوره بمكة المكرمة ، وسيكون قبل نزول المسيح عيسى ين مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وسيظل قائماً بأمر المسلمين يتولى شئونهم ويقودهم فى جهاد عدوهم ، حتى ينزل المسيح بن مريم حاكمًا بشريعة سيدنا محمد ﷺ منفذاً لقواعد الإسلام والمفهوم من جو الأحاديث الخاصة بالمهدى أنه قائد عربى مناضل مجاهد يحاول نشر العدالة ورفع الظلم كما جاء فى الأحاديث الخاصة فى أسلوب صريح . واضح . وأنه ينزل سيدنا عيسى عليه السلام وقد أقيمت الصلاة فيتنحى المهدى للمسيح من إمامة المسلمين فى تلك الصلاة فيدفعه المسيح عيسى بن مريم بين كتفيه ويقول له : لك أقيمت فصل ، فيصلى بالمسلمين تلك الصلاة ثم يتسلم سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام القيادة منه ، ثم يذهب إلى الدجال فيقتله ..

ومن أخبار المهدى ما رواه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى ، وفى لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتى .

وعن على رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال : «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جوراً» أخرجه أبو داود .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : المهدى منى ، أجلى الجبهة ،

أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين ... أخرجه أبو داود .

وهذا الحديث وإن كان فى ظاهره انقطاع إلا أنه بالنسبة للأحاديث الواردة فى وجود المهدى وولايته للمسلمين صحيح المتن وهو بذلك يوجب على المسلمين التحرز من رفض ما جاء فى المهدى من أخبار وتفهم من الأحاديث الواردة فيه أنه ليس خاصًّا ببقعة من الأرض كنيجيريا مثلا أو غيرها وإنما قائد للمسلمين بدليل قول النبى ﷺ يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلماً وجوراً .

والجو العام لأحاديث المهدى يبشر بتحقيق الدولة العالمية التى تضم جميع أقطار الأرض تحت راية واحدة وهى راية العدل والخير والحق ، وهو أمل يسعى له كثير من الذين يريدون للإنسانية خيراً ، ويظنون بها خيراً ، وهو حلم راود الكثير من الفلاسفة خطط له الفارابى مثلا حينما كتب عن عالمية الحكم بمناسبة كتابته عن المدينة الفاضلة .

والأحاديث عن المهدى أيضاً تذكير للمسلمين بأن من رسالتهم إزالة الظلم والجور من العالم أجمع ونشر الحق والخير وتحقيق العدالة .

والله أعلم ...

فى نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية

نعم سينزل المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية وسيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد بنفسه على مَن ألّهوه وبدلوا شريعته وأنكروا ما جاء به من التبشير بسيدنا محمد ﷺ كما قال تعالى :

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

والدليل على ذلك قوله ﷺ :

والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً – أى عادلا – فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وفى رواية : يقول أبو هريرة راوى الحديث : اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ...) أى وما من أحد من أهل الكتاب يكون فى زمن نزول عيسى عليه السلام إلا ويؤمن به

إيماناً صحيحاً قائماً على أساس أنه عبد من عباد الله وأنه مقر لنبينا بالرسالة . وفى رواية عن الرسول ﷺ قال :

« والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. »

بل إن عيسى عليه السلام حينما ينزل يبلغ من تقديره للرسول ﷺ ولرسالته أن يمتنع عن التقدم على إمام المسلمين الذى يصلى بهم يقول ﷺ .

« ولا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم ﷺ ، فيقول أميرهم تعال صل لنا . فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة » .

قال الإمام النووى : فى قوله ﷺ ، حكماً : دليل على أن عيسى عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة أى الإسلام – ولا ينزل نبيًّا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة .

وما من شك فى أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين والرسل بنص القرآن الكريم يقول سبحانه : (وخاتم النبيين) .

وكونه ﷺ خاتم النبيين إنما يؤخذ أيضاً من أن الله سبحانه تكفل بحفظ القرآن من كل تحريف أو تبديل : يقول سبحانه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فالذكر أى القرآن بمثابة رسول دائم قائم فى الإنسانية يحق الحق وسيبطل الباطل ، والله سبحانه وتعالى بهذا الحفظ يشير إلى أن محمداً ﷺ لا تزال رسالته قائمة محفوظة ، وكأنه بذلك بيننا مبشر وهادٍ ونذير ، ورحمة لكل من اتبعه فنزول عيسى عليه السلام إنما هو من أجل التبشير بدعوة نبينا والعمل على إقامتها ، ومما له مغزاه العميق أن رسول الله ﷺ يقول عن سيدنا موسى : « والله لو كان موسى حيًّا ما حل له إلا اتباعى » وكذلك الأمر فى سيدنا عيسى فلو كان حيًّا ما حل له إلا اتباع محمد رسول الله ﷺ . والله أعلم .

فى المسيخ الدجّال

المسيخ الدجّال إنسان مولود من أبوين كسائر البشر ، فسيدنا عمر رضوان الله عليه ظنَّ أنه ابن صياد ، وكان ابن صياد مولوداً من أبوين ، وقد أراد سيدنا عمر أن يقتله ، فنهاه الرسول ﷺ قائلا له : إن يكن فلن تُسلَّط عليه ، وإن لا يكنه فلا خير له فى قتله . فهو موجود إذاً واستعاذة

الرسول صلوات الله عليه منه إنما كانت تعليماً للأمة وتحذيرًا لها منه . وسيظهر قبل قيام الساعة . وأما علامات قدومه فذلك عندما يخف وزن الإيمان فى النفوس ، ويغزو الشر القلوب وتكثر الخلافات ويسود الشغب .

أما الفتنة التى ستحدث فإن ضعاف الإيمان وجرهم عن طريق الرغبة وعن طريق الرهبة إلى اتباعه والكفر بالدين الصحيح ، كفر مطلق ، وهى أيضًا ذلك الصراع الرهيب بينه هو وأتباعه من جانب . وبين من استمسكوا بالإيمان واعتصموا بحبل الله وقانا الله شره ، وأعاذنا من الفتن .. والله أعلم ..

فى عمد بعض اللادينيين إلى الخلط بين المذاهب الفنية والأدبية وبين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة الصلة بتصور العقيدة

المذاهب الفنية والأدبية التى تتعلق بوسيلة التعبير ، وكيفية توصيل المعانى إلى الناس لا يقيدها الدين إلا من ناحية ما تعبر عنه ، أى أن الدين يهتم بالمعنى المعبر عنه ، وبأن تكون وسيلة التعبير غير مفيدة معنى آخر ، وبأن يكون هذا المعنى فى إطار الخير ..

ومن المفيد أن نشير إلى قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى أن الرسالة لا يمكن أن تصل إلى المرسل إليهم إلا إذا كانت بلغة يعرفونها وبلسان يفهمونه ..

وقد أوجب الإسلام تعلم لغات الناس لتوصيل الدعوة إلى غير العرب انطلاقاً من قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وانطلاقاً من هذه القاعدة تنوّعت أساليب القرآن من محاورات عقلية إلى أمثال حسية ، إلى قصص أدبية ، ليتسع مجال فهمه لكل العقول ولشتى البيئات وهو سر من أسرار الإعجاز فيه ، إن كل إنسان مهما كانت درجة ثقافته يفيد منه ، ولا يمكن أن يرتفع إنسان مهما علت ثقافته عن مستوى التعبير القرآنى الكريم .

وفى السنة الشريفة تنوعت أساليب الرسول ﷺ ما بين استفهام لتنبيه الأذهان إلا ما يلقى من علوم ، وتوجيه مباشر ، وسؤال لاستخراج المعلومات من الناس ثم تصحيح هذه المعلومات إلى غير ذلك مما يجده الباحثون .

ومذاهب التعبير إذن مذاهب إنسانية تختلف باختلاف أحوال الناس ونظمهم ودرجة

ثقافتهم ، والإسلام لا يقيدها كما قلنا إلا من ناحية ما تعبر عنه ، ومن ناحية الألفاظ المستخدمة فى التعبير .

أى أن الإسلام لا يبيح الخروج على آدابه ولو فى اللفظة المستعملة فى التعبير ، ويترك للمسلم بعد ذلك أن يعبر عن فكرته بالأسلوب الذى يرد ، دون أن يقيده بمذهب ما ، فلم يأت الإسلام بمذهب للتعبير لا يرضى غيره ... وهكذا ...

هذا عن المذاهب الفنية والأدبية .

أما المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فقد رسم الإسلام إطاراً للتحرك فى مجالها بما سنَّهُ من تكاليف وقرره من قواعد .

فأسلوب التصرف فى المال مقيد فى الإسلام بمراعاة أن يكون مصدره من حلال ، وبأن يدفع حق الله منه وهو الزكاة ، وبألاَّ يفرط فى حق لازم عليه كالنفقة على أهل بيته ، وصلة رحمه ، وهكذا ...

أما كيفية العمل فقد ترك الإسلام للناس طريق التطور فى استخراج خيرات الأرض عن طريق الصناعة بطرقها المختلفة أو الزراعة أو التخصص فى مجال من المجالات . والمذاهب الاجتماعية رسم الإسلام لها أُطرًا لا ينبغى الخروج عليها ، كنظام النكاح والطلاق وسائر ما يتعلق بتكوين الأسرة ، وتركيب المجتمع ، ومسئولية المسلم من غيره من المسلمين ، وفيما عدا ذلك ترك الإسلام للمسلم أن ينظر فى نظم المجتمعات المختلفة ، ويؤسس النظريات على أساس من هذا النظر ، ليظهر روعة الإسلام فيما قرره من أحوال المجتمعات ، ليتكون له من البصر بشئون الدنيا ما يمكنه من نشر تعاليم الإسلام أو تطبيقها إن كان ممن يملك وسائل التطبيق .

المذاهب الفكرية والفنية إذن وسائل للتعبير لا يقيدها الإسلام إلا من حيث ما تعبر عنه ، والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية – إن وافقت الإسلام أخذ بها على أنها إسلام أو وضع إلٰهى لا على أنها أفكار بشرية ، وإن خالفت الإسلام ضربنا بها عرض الحائط ، إذ المسلم لا يرى خيراً فيما لا يوافق دينه ، وإلا كان متناقضاً مع نفسه .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) .

فى أهل الفترة

من عاش ومات قبل الرسول ﷺ وقبل نزول القرآن الكريم يسمون أهل فترة ، وهؤلاء قد اختلف فى حكمهم علماء التوحيد .

فيرى أهل السنة أنهم ناجون وليسوا بمكلفين لقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

ولقوله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة) وآية : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) صريحة كل الصراحة فى أن أهل الفترة ناجون وهم لا يبعثون على دين معين ، ونجاتهم إنما هى بفضل الله ورحمته .

فى أول من كفر بعد مجىء الإسلام ، ومن هو أول من حاول تشويه الإسلام

إذا دخل الإيمان فى القلب وشع نوره على الأعضاء ، فإن المؤمن لا يمكن أن يرتدّ عنه ولا يتأتى الكفر إلا ممن دخل فى الإسلام لمجرد منفعة ، أو مصلحة تعود عليه . فإذا لم تتحقق هذه المصلحة فإنه يرجع عن دينه ، وهذا هو الذى لا يغفر الله له ذنبه ولا يتجاوز عن سيئاته .

قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) .

أما أول من حاول تشويه الإسلام فهم اليهود ، كانوا فى عصر الرسول ﷺ يشككون فى الإسلام ويقولون للذين كفروا إنهم أهدى سبيلا من محمد وقومه قال تعالى فى سورة النساء .

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

وبعد عصر الرسول ﷺ دخل كثير منهم فى الإسلام ليكيدوا له ويدسوا سمومهم فيه ويشوهوا تعاليمه فدسوا الإسرائيليات فى تفسير القرآن ، ووضعوا كثيراً من الأحاديث ونسبوها للنبى ﷺ .

بيد أن المسلمين الصادقين كانوا لهم بالمرصاد فبينوا زيفهم ونبهوا على كل دسيسة حاولوا بها الكيد للإسلام وصدق الله تعالى إذ يقول :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وسُئِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فى عدد الرسل

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر رسلا من أنفسهم ليرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

والأنبياء والرسل كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله ، والواجب الإيمان إجمالاً بأن لله أنبياء ورسلا كثيرين لا يعلمهم إلا هو كما قال تعالى :

(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

ويجب علينا أن نؤمن تفصيلا بخمسة وعشرين رسولا وهم المذكورون فى القرآن الكريم ، وقد جمعهم علماء التوحيد فى بيتين من الشعر :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وقد ورد فى ذلك أحاديث ضعيفة والمشهور منها ما رواه ابن مردويه عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا » .

قلت يا رسول الله : كم الرسل منهم ؟ قال « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير »

هذا والله أعلم بعدتهم كما ورد فى الآية السابقة ..

فى لماذا اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ؟

(إن أول بيت وضع للناس للّذى ببكة مباركاً)

وهذا البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام .. وإبراهيم عليه السلام إنما رفع قواعده التى كانت موجودة من قبل ..

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وكما كان أول بيت للعبادة فإنه فى التقدير الأزلى آخر بيت لله تقام فيه العبادة على الوجه الصحيح الصادق ..

ولقد اختار الله تعالى الجزيرة العربية للرسالة المحمدية لأن بها بيته هذا المحرم ملتقى الحجيج من كل جانب . من جوانب الأرض ، ولأن أهلها كانوا حينئذٍ أحسن الناس استعداداً لحمل رسالة الله ... ولو أن الرسالة كانت فى غير جزيرة العرب لما وجدت آذاناً مصغية .. ولا قلوباً واعية .. ذلك أن الروم كانوا أهل دين يصعب عليهم تركه إلى دين آخر ، والفرس كانوا ذوى ملك وسلطان . يرون فيها العزة والمتعة ، ولا يمكن أن يدينوا معها بدين آخر من أبرز ما فيه تغيير العقيدة وتغيير الأنظمة وإزالة الطغيان الذى كان سمة كثيرين من الملوك والأمراء .. لذلك كانت الجزيرة العربية المكان الصالح لنشر الدعوة المحمدية لأن أهلها كانوا بفطرتهم وعدم اعتناقهم أىّ دين من الأديان التى كانت موجودة حينئذ مهيئين لقبول الرسالة وحملها ..

ولقد رفض اليهود الإسلام بالمدينة . وما حولها وهم يعلمون تمام العلم صفة رسول الله ﷺ فى كتابهم .. ولكن خوفهم من ذهاب السلطان جعلهم يجحدون .. وأصحاب السلطان فى الفرس والروم لا شك كانوا يرفضون الدين الجديد خوفاً من زوال سلطانهم ..

فى ما يقال بأن سيدنا محمد ﷺ هو أول مخلوق فأين كان حينما كان آدم وحواء فى الجنة ؟

فى كتاب « حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين » للنبهانى « فى خلق نوره ﷺ وانتقاله من أصلاب أجداده الطاهرين » قال الحافظ أبو على الحسن بن على بن عبد الملك الرهونى المعروف بابن القطان فى كتابه البشائر والأعلام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات :

كان من أول ما ظهر من آياته ﷺ قبل البدء ما رواه على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ : كنت نوراً بين يدى ربى عز وجل قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام .

وفى حديث آخر : كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين .

ولعل المراد أنه كان نبيًّا فى علم الله سبحانه وتعالى .

وكان ﷺ حينما كان آدم وحواء فى الجنة ، فى صلب آدم .

وكما ورد فى الحديث الشريف خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدتنى أمى لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء .

والرأى السليم الصحيح فى كل هذا هو أن النبى ﷺ ولد ولادة طبيعية عادية وليس فى أمر خلقه خوارق عادات والأحاديث التى تتحدث عن خلقه ﷺ قبل خلق آدم لا أساس لها من الصحة وليس الأمر أمر أولية فى الخلق فليس فى أولية الخلق أساس للتفاضل أو التفضيل وإنما أساس الفضل والتفضيل هو التقوى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وهو الخلق الحسن ولقد كان رسول الله ﷺ على أعلى مستوى أخلاق وهو الذى قال سبحانه وتعالى فيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) وهو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد وصفت السيدة عائشة رضوان الله عليها خلقه فقالت « كان خلقه القرآن » ولقد وصل ﷺ القمة فى الإخلاص السامى وفى السمو الأخلاقى بقول الله تعالى له :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين) ﷺ ..

روى الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته » ...

وروى أحمد بسنده عن ميسرة قال : قلت يا رسول الله ... متى كنت نبيًّا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ..

رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وهذان الحديثان لا يدلان على أنه ﷺ أول مخلوق ، وإنما يدلان على أن نبوته ثابتة من القديم وأن الله سبحانه وتعالى كتبها وقدرها وتم بها ما أراد .

أما كونه ﷺ أول مخلوق فيحتاج إلى ما يدل عليه من الآثار الصحيحة ..

وأولية الخلق لا تستلزم تفضيلا ولا تشريفاً .. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى رتب بعض الأشياء على بعض فى الوجود ، ولم يجعل السبب بأفضل مما يترتب عليه من المسببات .

أما كونه ﷺ أحب مخلوق إلى الله .. فهذا مما لا يمكن أن يشك فيه .. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى كثير من الآيات .. إنه ﷺ رحمة للعالمين قال تعالى :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وهو ﷺ خاتم الأنبياء قال تعالى :

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطاً ونصره الله نصراً عزيزاً واختصه بالشفاعة العظمى التى يتقاصر دونها مشاهير الأنبياء .

وببركته ﷺ رفع العذاب عن أهل الأرض ولم يهلكهم الله فى الدنيا بكفرهم أو من عنادهم قال تعالى :

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)

وامتثالا منه ﷺ لقوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) تحدث عن كثير من هذه النعم ، وعن تكريم الله تعالى له وتفضيله له على كل خلقه .. قال ﷺ :

« لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى .. وقال :

أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة .. رواه مسلم وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » — رواه مسلم وأبو داود ...

وقال :

« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ — آدم فمن سواه — إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» رواه أحمد والترمذى وابن ماجه . .

وفضائله ﷺ كثيرة والأدلة على كونه أحب الخلق إلى الله عديدة نفعنا الله باتباعه ورزقنا حبه وحب من يحبه وجعلنا من جنوده الصادقين ..

أما لماذا ؟ فذلك أنه ﷺ أخلص نفسه لله سبحانه وتعالى إخلاصاً كاملا .

ومعنى كونه أول المسلمين : إنه أول المسلمين فى كل فضل وفى كل خير وفى كل مكرمة ولأجل ذلك كان أحب خلق الله إلى الله .

وألقى بنفسه إلقاء كاملا فى الرحاب الإلهى مستجيباً إلى الله فى كل ما أمر منتهياً عن كل ما نهى ولقد حقق صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى :

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

فى النسب الشريف

الصحيح من نسب رسول الله ﷺ أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

أما ما بعد عدنان من الأسماء فإنه لا يقين فيه .

والذى صح عن رسول الله ﷺ أنه انتسب إلى عدنان لم يتجاوز .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ فى ذكر نسبه إلى عدنان قال : « كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً » .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال إنما ننتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى ما هو ، أما مسألة أن النسب الشريف ينتهى حقًّا إلى سيدنا إبراهيم فقد روى فى ذلك الإمام البخارى حديثاً « صحيحاً » عن واثلة بن الأسفع : قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة . واصطفى من بنى كنانة قريشاً . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

ويلاحظ أن هذا الحديث الشريف لم يذكر سلسلة النسب من إسماعيل عليه السلام إلى بنى كنانة ولكنه يؤكد أن النسب الشريف ينتهى إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام وليس فى ذلك استحالة عقلية وليس هناك من التاريخ اليقينى ما ينفى ذلك وبقى الحديث صحيحاً وأن نسبه ﷺ ينتهى إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

فى حكمة إرسال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق ﷺ :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

ومن دعاء سيدنا إبراهيم ، وسيدنا إسماعيل ، وهما يرفعان القواعد من البيت (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

من هذه الآيات ، ومن غيرها : نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل ، إنما هى تبليغ آيات الله ، أى تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر ، إن الله سبحانه وتعالى : لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية لبناء المجتمع وهى : العقيدة ، والأخلاق ، والتشريع ، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه والعمل به ، إلى تزكية النفس وتطهيرها وصفائها .

فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها ، وكانوا

أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع به إلى مستوى التزكية والطهر والصفاء وهو مستوى يجد فيه من يحققه السعادة كل السعادة والبهجة كل البهجة . ويشعر من يرتق فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه بالسكينة تحيط به وبالطمأنينة تملأ جميع أقطاره ويشعر فوق كل ذلك رضوان من الله أكبر . حكمة إرسال الرسل إذن إنما هى إسعاد المجتمع وإسعاد الفرد والرقى بها إلى المستوى الذى يرضاه الله لها وهو المستوى الربانى .

بيد أن الإنسانية ابتعدت شيئاً فشيئاً عن الأديان والرسالات ، فأخذت تشقى بنسبة هذا الابتعاد أفراداً وجماعات ، وأخذت فى تدمير بعضها بعضاً وتنكيل بعضها بالبعض الآخر ولو عادت إلى الله لسعدت أفراداً ولسعدت جماعات ، وباب السعادة مفتوح ورحمة الله لن تضيق بمريد مخلص ، وعلى كل فرد إذا أراد الخير لنفسه وللإنسانية أن يتمسك وأن يدعو إلى التمسك بهدى السماء ، ففى ذلك سعادته وسعادة المجتمع .

فى معجزة النبى فى الأميّة

رسولنا محمد ﷺ ، كان أميًّا لم يعرف القراءة والكتابة وهذه معجزة له إذ إنه جاء بالقرآن الذى أعجز العرب الفصحاء البلغاء وهم أهل القراءة والكتابة مع كونه أميًّا ، وهذا دليل على أنه من عند الله ..

وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله :

(وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

وفى سورة الأعراف قوله تعالى :

(الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) .

فى خُلق الرسول ﷺ

سُئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خُلق رسول الله صلوات الله عليه فقالت : كان خُلقه القرآن . والقرآن كان يتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حديثاً مباشراً أو كان يرسم المبادئ ويضع القواعد فى العقيدة والأخلاق ويصور فى الوقت نفسه الطريق الذى كان يسير عليه السراج المنير الرءوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه ، فالقرآن إذن المصدرُ الأول الذى تستمد منه صفات الرسول وأخلاقه ﷺ .

والمصدر الثانى هو كتب الأحاديث الصحيحة وخيرها صحيح البخارى يليه صحيح مسلم وكل كتاب من كتب الأحاديث على وجه العموم يخصص قسماً منه لصفات الرسول وأخباره ثم يأتى فى المرتبة الثالثة كتب السيرة القديم منها والحديث .

ومن خير كتب السيرة القديمة سيرة ابن هشام ، ولقد طبعت طبعات مختلفة محققة مع شرح الكلمات الصعبة . ومن خير الكتب القديمة والحديثة كتاب الأنوار المحمدية للعارف بالله يوسف النبهانى .

أما الكتب الحديثة فإن من خيرها كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل وقد نال هذا الكتاب إقبالا يستحقه وقد توالت طبعاته ولا تزال تتوالى وتجد رواجاً كبيراً هى أهل له ومنها كتاب « محمد رسول الله » . وهو كتاب مترجم عن الفرنسية كتبه أحد كبار مفكرى الفرنسيين بعد أن هداه الله للإسلام وبعد أن حج بيت الله الحرام معتمداً على المصادر الإسلامية الأصلية .

فى حجة الوداع

فى السنة العاشرة للهجرة وقد دار الفلك دورته قبل شهر ذى القعدة نادى منادى رسول الله ﷺ فى المسلمين أن يجهزوا أنفسهم لحج بيت الله الحرام مع رسول الله ﷺ فقد عزم الرسول أمره على أن يؤدى بالمسلمين فريضة الحج ليأخذوا عنه المناسك فهو إمام المسلمين وقدوتهم (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) واجتمع الألوف المؤلفة من المسلمين وقدموا من الصحارى والبوادى وضربوا خيامهم حول المدينة استعداداً للرحيل إلى بيت الله الحرام وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة سار الرسول ﷺ ومعه نساؤه كلهن ومائة ألف أو يزيدون من المسلمين ميممين شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة ليطوفوا بالبيت ويقفوا بعرفات ويؤدوا مع الرسول ﷺ هذه الفريضة الجامعة فيعرفوا منه صلوات الله وسلامه عليه المناسك الصحيحة وهو القائل صلوات الله عليه :

خذوا عنى مناسككم ، وبلغ الرسول والحجيج معه مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة وأدوا جميعاً مناسك العمرة ، ويقف الرسول ﷺ محرماً لأداء مناسك الحج ، وفى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة ذهب الرسول والمسلمون معه إلى منى فقضوا فيها ليلتهم حتى مطلع الفجر فصلى الرسول الفجر وركب ناقته القصواء حين بزغت الشمس ويمم بها جبل عرفات والمسلمون من ورائه وارتقى الرسول الجبل وألوف المسلمين محيطين به ، بين مُلَبٍّ ومُكَبِّرٍ ، وضربت

للرسول قبة بنمرة ، ولما زالت الشمس يوم عرفات يوم الحج الأكبر ركب ﷺ ناقته وسار بها حتى أتى بطن الوادى ونادى فى الناس بصوت جهورى وهو على ناقته وكان يردد الصوت من بعد ربيعة بن خلف ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه خطب فى الناس خطبته الجامعة التى وضع بها القواعد والأسس لهذا الدين القويم وأكد الحلال والحرام ، وبين الحقوق والواجبات .

فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه وكل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه ، وأن الرّبا كله باطل قليله وكثيره سواء ، وأن للمرأة على الرجل حقوقاً وللرجل عليها حقوقاً ونبه المسلمين إلى أن ما فيه عز الدنيا والآخرة لكم هو كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا انحرفوا عنها فذلك هو الضلال البعيد وها هى ذى خطبته ﷺ :

قال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

« فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع – أى مهدر – ولكن لكم أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

« قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحله الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها : أربعة حُرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أما بعد : أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهم ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنَّ فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح .

« فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيّناً : كتاب الله وسنة رسوله .

« أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمون أن كل مسلم أخٌ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه « فلا تظلمن أنفسكم » .

اللهم هل بلغت :

فأجاب الناس من كل صَوْت : نعم : فقال اللهم فاشهد » .

هذه هى خطبة الوداع وسميت بذلك لأن الرسول ﷺ ودع الدنيا وذهب إلى الرفيق الأعلى بعد أداء مناسك الحج والذهاب إلى المدينة بقليل .

وكان أسلوبه ﷺ فيها أسلوب مودع ، كقوله : اسمعوا واعقلوا فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبداً – ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

وقد حدث أنه ﷺ بعد الخطبة نزل عن ناقته وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها وسار حتى الصحراء ، وهناء تلا على الناس قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . فلما سمعها صاحبه الصّدّيق أبو بكر رضى الله عنه بكى ، إذ أحس أن النبى ﷺ وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه .

وكما سميت الخطبة خطبة الوداع فقد سميت الحجة كذلك حجة الوداع ، كما سميت حجة البلاغ ، لأن النبى ﷺ أتمّ فيها بلاغه للناس بما أمره الله ببلاغه .

وبعد قليل من عودته ﷺ إلى المدينة المنورة بعد أن أتمّ مناسك الحج دهمه ﷺ مرض الحمى ، وعانى منه صلوات الله وسلامه عليه ما عانى ، وخُيّر الرسول ﷺ بين مفاتيح خزائن الدنيا أو الخلد فيها ثم الجنة وبين لقاء ربه والجنة فاختار لقاء ربه صلوات الله وسلامه عليه ..

فى معجزات النبىّ غير القرآن

لكل نبىٍّ معجزات . فهل لرسول الله ﷺ معجزات غير القرآن ، وما هى ؟

أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بالمعجزات التى تدل على تصديقه سبحانه وتعالى لهم فى دعواهم ، وكأن الله سبحانه وتعالى – بهذا التأييد – يقول : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وهذه المعجزات تناسب العصر الذى بعث فيه الرسول وتكون من جنس ما اشتهروا به حتى يكون عجزهم عن معارضته دليلا على أنها من صنع الله وليست من صنع البشر .

ولما كان العرب أهل فصاحة وبلاغة كانت أعظم معجزة للرسول ﷺ القرآن المنزل باللفظ العربى الذى أعجزهم ببلاغته ، فلم يستطيعوا معارضته أو الإتيان بشىء من مثله وهو المعجزة الخالدة .

ولنبينا ﷺ معجزات كثيرة حسية أظهرها الله على يديه وشاهدها الحاضرون ، ولقد تحدث القرآن عن بعضها وذكرت السنة بعضاً آخر منها .

فتحدث القرآن عن معجزة الإسراء والمعراج . قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) وقوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى) فالآية الأولى تذكر حادثة الإسراء والثانية تشير إلى المعراج .

وفى السنة الكثير من الأحاديث التى تتحدث عن معجزاته عليه السلام ومنها مثلا نبع الماء من بين أصابعه الشريفة .

ولقد أفرد بعض المؤلفين مؤلفات فى معجزاته عليه الصلاة والسلام .

فى كيف كان بدء الوحى ؟

إن الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها وفيه بعض سيرة النبى ﷺ وصفاته فى مطلع نزول الوحى عليه : هو حديث بدء الوحى .

وهذا الحديث وثيقة هى من الأهمية بحيث لايوجد مايماثلها فى الأدب العالمى ، وأهميتها ترجع إلى وصفها للكيفية التى أتى بها – أول ما أتى الوحى . وإن الإنسان حينما يقرؤها يلمس فيها مباشرة صدق الحديث ، وسهولة التعبير ، وتصويرًا للحقائق لايجد الشك إليه سبيلا .

ومن المعروف أن السيدة عائشة تروى فى هذا الحديث ماعلمته علمًا يقينيًّا من الملابسات والظروف والأخبار الصادقة والروايات الصحيحة ومن حديث رسول الله ﷺ لها مباشرة .

ويمكننا أن نذكر ماتحدثت به عن سيرة النبى ﷺ فيما يلى بحسب الترتيب الذى ورد فى الحديث .

١ – لقد أخذ رسول الله ﷺ يرى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

٢ – وعند ذلك حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى مشارف مكة ، بعيدًا عن ضجيج

المدينة وصخبها ومشاغلها ويعتكف فى غار حراء « فيتحنث فيه » وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك « أى يأخذ الزاد للاعتكاف من جديد » ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

٣ – ولما جاء الملك فى الغار وحدث ماحدث بينهما خرج من الغار يرجف فؤاده ، وبعد أن أخبر السيدة خديجة بالأمر قال لها :

« لقد خشيت على نفسى » .

فقالت السيدة خديجة واصفة سيرة النبى فى دقة دقيقة ، سيرته التى كان عليها فى مطلع الوحى ، وكان عليها طيلة حياته ، سيرته التى كانت متناسقة مع بواعث رسالته وأهدافها ، تلك البواعث والأهداف التى قال عنها سبحانه وتعالى (ومأأرسلناك إلا رحمة للعالمين . . . .) قالت السيدة خديجة ردًّا على قوله « لقد خشيت على نفسى « كلا والله مايخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المُعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وهذه الصفات التى وصفته بها السيدة خديجة والتى روتها السيدة عائشة فى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ، إنما هى عبارة عن الرحمة .

ولقد كانت سيرة النبى – ﷺ – رحمة كلها ، وهو القائل :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وهو القائل :

« أنا نبىّ الرحمة » .

فى حياة الشباب لرسول الله ﷺ

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحًا مستفيضًا وتوضيحًا كاملا ، وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون ومايتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« أنه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والذكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع . وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلّته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف . فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره .

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب : فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه .

فى الرسول يعمل كما يعمل سائر الناس .

عاش الرسول ﷺ حياته الكريمة بكل ماتقتضيه هذه الحياة من حركة وسعى وعمل فى كل المجالات المطلوبة . . . لقد رعى الغنم واشتغل بالتجارة قبل البعثة . . . وكان القائد السياسى والحربى للمسلمين بعد البعثة .

وتطلبت هذه الحياة العريضة التنقل فيما بين أرجاء الجزيرة العربية فتنقل فيها بل تجاوزها إلى غيرها كبلاد الشام ، واستخدم فى تنقلاته وسائل المواصلات المطلوبة والميسورة فى وقته وفى ظروفه . . . فاستعمل فى ركوبه الخيل والإبل والحمير . .

وقد حفظت لنا كتب السنة والسيرة أوصافًا لما كان يستخدمه ﷺ فى ركوبه وأسفاره بل أسماء لها .

ولكنه ﷺ لم يحتج فى حياته الكريمة إلى ركوب سفينة أو اجتياز بحر .

ومع ذلك فقد كان عارفًا بالبحر وبما وراء البحر . لقد سمع بعدالة ملك الحبشة النجاشى قبل الهجرة . . فوجه أتباعه إليه فرارًا من ظلم المشركين واستبدادهم . . . وركبوا البحر من شواطئ الجزيرة العربية إلى الحبشة وعادوا بعد تلك الهجرة مجتازين له .

وبشر أمته بأن منهم من سيركب البحر مجاهدًا فى سبيل الله وسيغزو من وراءه .

إن عدم ركوبه ﷺ سفينة أو نزوله البحر أمر عادى اقتضته ظروف حياته وأحوال بيئته لا صلة له بتشريع ولا علاقة له بالنبوة .

ومما يتصل بهذا المجال ، حكى أن بحارًا أوربيًّا قرأ فيما تُرجم من القرآن قوله تعالى : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) .

فسأل : أكان هذا بحارًا يجتاز البحار ويتنقل بين أرجائها ؟ فقيل له بأنه لم يركب البحر فى حياته . . . . فقال : إن هذا الوصف لايصفه بهذه الدقة والبراعة إلا من شاهده وعاش فيه . . . . فقيل له : إن القرآن ليس من عنده إنه من عند الله – فآمن وكان ذلك سببًا فى إسلامه .

فى أبرز صفات الرسول الخالدة

إن من أبرز صفات الرسول ﷺ الخالدة ، والتى تشع النور ، وتعطى القدوة الحسنة على مر العصور ، والتى نحتاج إلى التركيز عليها فى حياتنا الحاضرة : صفة الجهاد .

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام . . هو الذى يقول :

« والذى نفس محمد بيده : لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل :

« من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » إن النبى العابد – هو النبى المكافح . . . وإن نبى الرحمة هو نبى الجهاد . . وما كان الجهاد قط فى الإسلام إلا فى سبيل الله . . فإذا ماخرج عن سبيل الله ، لم يكن إسلاميًّا ، وكل مافى سبيل الله إنما هو رحمة . .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد ، لم يتراجع فى غزوة قط . وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانًا . ولكنه صلوات الله وسلامه عليه ، فى ما يقوله سيدنا على ، وهو من هو بطولة وفروسية :

« كنا إذا حمى الوطيس – أى الحرب – اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمينا به وفيه – فيكون أقربنا إلى العدو » . .

وكان صلوات الله وسلامه عليه – مع التجائه إلى الله تعالى ، يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر – يحكم الأمر إحكامًا بحيث لايدع فيه ثغرة . .

هكذا كان أمره فى جميع أموره :

لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيمًا محكمًا ، ثم اتجه إلى الله يدعوه وكان دائمًا متفائلا . . كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين . .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر ، ثلاثة أمثال المسلمين . . فهزمهم المسلمون بإذن الله . .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد ، شذوذًا فى القاعدة . . وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا – متأولين – أوامر الرسول ﷺ غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة . . إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة . . أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورًا لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه . . أنه فى غزوة الأحزاب وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة . . يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام فى المدينة . . ليقضوا عليه دينًا ، وليقضوا عليه دولة . . ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا . . وقد كان المسلمون يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ومنعًا من وصول العدو إليهم .

وفى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه القصة التالية : حسبما رواه الإمام أحمد :

« أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق لاتأخذ فيها المعاول . . فشكونا إلى رسول الله ﷺ ، فجاء . . ثم هبط إلى الصخرة . . فأخذ المعول وقال : باسم الله . . فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : والله أكبر . . أعطيت مفاتيح الشام – والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . . ثم قال : باسم الله وضرب ضُربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر . . أعطيت مفاتيح اليمن . . والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين ، وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا إن محمدًا يعدهم ويمنيهم ، وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن . .

هذا التفاؤل ، وهذه الثقة فى الله ، لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب ، الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة . .

فى عرض الرسول نفسه على قبائل العرب

عرض المشركون على رسول الله ﷺ من الأموال والجاه ما يغرى غير النبى ﷺ بقبوله وترك مايدعو إليه ، ولكن رسول الله ﷺ لم يكن ليدع ماأرسل به إلى الناس لدنيا لابقاء لها ، لأن الله

ثبته بالقول الثابت والله أعلم حيث يجعل رسالته فى الذين لا يخالفون عن أمره من صفوة عباده .

لو أن رسول الله ﷺ استجاب لمشركى مكة وركن إليهم قليلا بالكف عن تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم فى تبليغ رسالة ربه لكان مقرًّا لهم ، والمقر لأحد على فعل معصية يعتبر شريكًا له فى فعلها ومجزيًا بإثمها .

وحاش رسول الله ﷺ أن يقر أحدًا على معصية ، أو يركن إليه أو يدع ما أرسل به إلى العرب وقوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض . . .) بيان لشدة تمسك رسول الله ﷺ بما أوحى به الله إليه . .

فى عدد الغزوات التى قام بها النبى

عدد الغزوات التى غزاها الرسول ﷺ تسع عشرة غزوة وقيل إنها إحدى وعشرون ، عن أبى إسحاق قال : كنت إلى جنب زيد بن أرقم فقيل له كم غزا النبى ﷺ من غزوة قال تسع عشرة ، قيل كم غزوت أنت معه قال : سبع عشرة قلت : فأيهم كانت أوّل ؟ قال العشيرة أو العشيرُ فذكرتُ لقتَادَةَ قال العشيرة وروى عن جابر أن عددها إحدى وعشرون ففات زيد بن أرقم ذكر سنتين ، ولعلها الأبواء وبواط .

وأشد الغزوات هولا غزوة أحد ، لأن هذه الغزوة فيها انتصر المسلمون أولاً ثم أخذوا فى تقسيم الغنائم وجمعها ، فاستغل الفرصة المشركون وانهالوا عليهم كالسيل الجارف ثم رأى المسلمون أن الهول الذى وقع عليهم لا يمكن صده فانسحبوا وولوا الأدبار حينئذ أصيب ﷺ وشُقَّتْ رباعيته ولم يكن معه إلا أبو بكر وعدد قليل من الصحابة ، وشاع الخبر أن محمدًا قُتل ، فاشتد الهول على المسلمين والخوف وكادت نفوسهم أن تضيق بها الأمكنة . .

فى الإسلام حمل السيف دفاعًا عن حريته وعقيدته

بدأ رسول الله ﷺ الدعوة إلى التوحيد فى مجتمع لايدين بالتوحيد ، وأخذ صلوات الله عليه طيلة الفترة المكية ، يبين الدعوة بالقرآن ، وبالأحاديث ، وبالسلوك المستقيم ، وفى هذه الفترة المكية كلها : لم يرفع الرسول صلوات الله عليه سيفًا ، ولم يقم حربًا ، وكان أعداء الحق يعذبون المسلمين ، وينكلون بهم ، ويحاولون قتل رجال لأنهم يقولون : ربنا الله .

وانتهى التعذيب إلى غايات أليمة : فأخرج الذين يقولون : ربنا الله من ديارهم ، وشتتوا من أوطانهم ، فكانوا المهاجرين : هاجروا إلى الحبشة أولا ، ثم هاجروا إلى المدينة .

ولكن الكفر لم يكتف بذلك ، فأراد أن يقضى على الإسلام فى المدينة ، وكان من توفيق الله : أن وجد فى هذه الفترة من المؤمنين من أمكنهم أن يردوا هجمات الشرك والكفر : فحملوا السيف دفاعًا عن أنفسهم وأوطانهم ولقد ألجأهم الشرك مرة إلى أن يحفروا حول مدينتهم خندقًا عميقًا ، حينما جاء أعداء الله آلافًا مؤلفة ، ليقضوا على المؤمنين فى ضربة واحدة وفى صورة حاسمة ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم .

والتاريخ إذن : يرينا – فى صورة لامرية فيها – أن الإسلام لم يحمل السيف طيلة الفترة المكية ، وقد كان ينتشر بالدعوة إليه . ثم حمل السيف دفاعًا فى أوائل الفترة المدنية ، وكان ينتشر بالدعوة إليه ، ثم لما انتشر الإسلام بالدعوة السلمية انتشارًا واسعًا ، وأصبح قوة لها شأنها ولها خطرها ، رأى المؤمنون بها أن إيمانهم بالحق لايكون كاملا إلا إذا فتحت أبواب الدعوة إلى هذا الحق فى كل مكان ، ولما كان الطغاة والمستبدون يقفون فى وجه الحق ، ويتكبرون على الهداية ، رأى المؤمنون بالحق : أنه لابد من تحرير الشعوب من طغيان الطغاة واستبداد المستبدين ، حتى يمكن بيان الحق والدعوة إليه ، فحملوا السيف تحريرًا للشعوب وفتحًا للأبواب التى أغلقها الملوك المستبدون فى وجه الدعوة إلى الله ، وليس فى تاريخ الإسلام كله حادثة واحدة تدل على أن المسلمين أجبروا شخصًا على اعتناق الإسلام ، بل كان الأمر بالعكس لبعض الولاة ، كان يضيق ذرعًا بكثرة اعتناق الناس الإسلام بالرغم مما يعمله للحد من ذلك . إن الاسلام انتشر فى كل مكان أشرق نوره فيه لأنه حق واضح ، ولأنه رحمة للعالمين .

فى رسائل النبى إلى الأمراء والملوك

كان رسول الله ﷺ ، يبعث الرسائل إلى ملوك الدول يدعوهم إلى الإسلام ، ومن هذا القبيل رسالته ، ﷺ التى بعث بها دِحْية إلى هرقل : بدأت هذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » ، وهى آية من القرآن ، وبعد أن دعا الرسول : ﷺ : هرقل إلى الإسلام كتب ﷺ فى رسالته :

(يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا ولايتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

هذه الرسالة إلى هرقل رواها الإمام البخارى ورواها الإمام مسلم .

فهى إذن ثابتة وهى تشتمل على بعض القرآن ، وهى مرسلة إلى النصارى .

والذى أرسلها هو الرسول ، ﷺ ومن المعلوم ، ومن المتيقن لدى رسول الله ﷺ ، أنهم سيمسون الرسالة ، ولو كان مسها حرامًا لاشتمالها على القرآن لما كتب الرسول ، ﷺ فيها قرآنا ، وهذا هو مارآه الإمام داود الظاهرى ، والإمام ابن حزم .

هذا ومما يبيح أن يحمل القرآن من هم على غير دين الإسلام ، أنه من المحتمل أنهم يقرءون فيه فيهتدون .

أما إذا تضمن حمل غير المسلم للمصحف إهانة لكلام الله فإنه يحرم على المسلمين أن يكونوا وسيلة أو وساطة لتمكين غير المسلمين من حمله .

هذا وعلى المسلمين أن يهدوا إلى كتاب الله بكل وسيلة كريمة تيسر اهتداء الناس إلى الحق ، وقد يكون من ذلك تمكين غير المسلم من الاطلاع على القرآن .

لايلزم من رواية ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل أن يكون كتب بنفسه ، فقد كان له كتاب للوحى . وكان الكتبة يكتبون ما يأمرهم بكتابته .

وقد كان الرسول ﷺ أميًّا قبل الرسالة قال تعالى : (وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون) .

ولم يرد مايفيد تعلمه ﷺ الكتاب بعد الرسالة . وورد فى الآيات والأحاديث الصحيحة مايفيد أميّة الرسول ﷺ ، قال تعالى :

(ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل) .

وقال تعالى :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

وأميّة الرسول ﷺ معجزة من أبلغ المعجزات دلالة على صدق الرسول ﷺ فى رسالته ، ورد كل ما ادعاه المشركون من تلقيه ﷺ عن أهل الكتاب ونحو ذلك .

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

ولأجل ذلك أمر الرسول ﷺ للقضاء على الأمية بين المسلمين بتعليم القراءة والكتابة ، وكان له كتّاب للوحى ولغير الوحى كالرسائل ونحوها . . .

وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ كلها داعية للعلم بشتى ألوانه وحاثة على سلوك طرق التعلم والتعليم .

زواج الرسول كان لمصلحة الرسالة

الذى نعرفه أن زواجه ﷺ كان مسايرًا للحكمة والمصلحة لا للعواطف ، فقد قضى ﷺ أول شبابه ولم يهتم بالزواج حتى فتح الله له ويسر له أمره وسخر أم المؤمنين خديجة وهى فى مثل سن والدته ، وقد كان يعمل فى مالها تجارة من قبل عرف عنه فيها الأمانة والبركة فعرضت عليه نفسها فتزوجها واقتصر عليها طول حياتها ، وأعقب منها ذريته كلها إلا إبراهيم فإنه من مارية الجارية القبطية التى ملكتها يمينه لما أهداها إليه المقوقس عظيم القبط . . فلما ماتت السيدة خديجة وعمره خمسون أو فوقها لم يعمد إلى زواج شابة مثلا بل تزوج كبيرة فى السن هى السيدة سودة بنت زمعة بهدف أن ترعى أولاده . وقد عقد على السيدة عائشة بمكة وكانت بنت تسع سنين إكرامًا لأبيها أول المؤمنين به وأصدقهم صحبة له ، وبعد الهجرة إذ كانت بنت تسع سنين دخل بها . ومابنت سبع سنين ولاتسع بمحركة للعاطفة عند النبى الرزين المكين – تزوج سيدتنا أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وقد كانت آمنت به وهاجرت إلى الحبشة فى سبيل الله . . فهل يتركها بعد ماعادت دون زوج لأبيها مثلا ، وقد كان عدوًا محاربًا له ، أو يتخذها زوجة له صيانة لها ومد يد نحو السلم تألفًا للقلوب ؟ كما زوجه الله بنت عمته السيدة زينب بنت جحش الذى كان زوجها لزيد بن حارثة ، لقد تزوجها ﷺ بعد ماطلقها من زيد بن حارثة الذى كان النبى ﷺ قد تبناه لاختياره الله ورسوله على أبيه وأهله وعشيرته وزوجه زينب بنت عمته لحكمة أرادها الله تعالى هى هدم عادة التبنى بعد ما كان يفعلها أهل الجاهلية بأن زوج نبيه امرأة زيد التى طلقها وقد كان النبى يخالطه شىء من الحياء قبل نفاذ الأمر ولكنه السميع المطيع لأمر الله فمادام منفذًا له فلا عليه من قالة الناس ، والله أحق أن يخشاه وقد كان أول من يخشى الله ويطيعه فلا يتأخر عن تنفيذ ما يأمر به أما قوله : هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك فلا يدل على أن الزواج نبع للعاطفة بل اعتذار عن ميل القلب بحكم البشرية فى المخالطة والمباشرة مثلا إلى بعض الأطراف أكثر من غيره وذلك طبعى لاحرج فيه مالم يحمل على ظلم أو بغى وذلك لم يحصل ، إذ قال ﷺ هذا قسمى أى بالعدل فيما أملك أى من التصرفات ، أما الذى لا أملك أنا بل تملكه أنت – من جعل بعض الأشياء والأشخاص أحب إلىّ من غيرها – فلا مؤاخذة فيه مادام العمل فى الحق لاعلى الهوى . .

عن لقب أمهات المؤمنين
وعن طلاق الرسول وعن كونه نبى أميّ

إنما سميت السيدة عائشة وسائر أزواج النبى ﷺ أمهات المؤمنين إجلالا واحترامًا ومنعًا من زواجهن من بعده ﷺ كما يتأدب المرء مع أمه .

هل طلق النبى ﷺ ؟ نعم : حملت إليه امرأة فى عرسها فلما دخل عليها كان بعض النسوة قد خدعنها وقلن لها : إذا أراد منك شيئًا فقولى أعوذ بالله منك . فلما قالت ذلك أجابها قائلا : عذت بمعاذ الحق بأهلك أى أنك استغثت بغياث عظيم هو الله فارجعى إلى أهلك فإنك مطلقة والحق بأهلك عند العرب عبارة تفيد ذلك . .

هذه واحدة . كما رووا أنه طلق السيدة حفصة بنت سيدنا عمر رضى الله عنه فأوحى الله إليه أن يراجع حفصة فإنها صوامة وقوامة وإنها من نسائه فى الجنة .

لقد بقى ﷺ فيما نعلم أميًّا طول حياته المباركة حتى بعد نزول القرآن الكريم ، فقد كان له كتبة يسجلون الوحى بالقرآن كما نزل عليه . .

فى مظاهر الرحمة فى سلوك الرسول

إن سلوك الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان الرحمة نفسها ، ولقد وصفته السيدة خديجة رضوان الله عليها فقالت : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وهذه الصفات كلها : تتبلور فى كلمة واحدة هى الرحمة .

وفى يوم من الأيام ، رأى أحد الأعراب رسول الله ﷺ : يقبل أحد أحفاده ، فقال ، مندهشًا : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الأولاد وما قبلت واحدًا منهم قطّ ، فعرّفه صلوات الله عليه وسلامه فى نوع من الاستهجان . أن الله قد نزع الرحمة من قلبه ولقد تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان ، وكتب السيرة تروى أنه صلوات الله عليه وسلامه : مرّ ذات يوم على بستان رجل من الأنصار فدخله ، فإذا جمل يحن وتذرف عيناه ، فأتاه النبى صلوات الله عليه وسلامه فمسح عليه ، فسكت ثم قال صلوات الله عليه : من رب هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار : فقال هذا لى يارسول الله ، فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ، إنك

تجيعه وتدئبه (أى تتعبه وتجهده) فخجل الشاب الأنصارى وتغير سلوكه مع الجمل وتذكرنا هذه القصة بما قصه صلوات الله عليه من قصة ذلك الرجل الذى وجد كلبًا يلهث من شدة العطش ، فملأ خفّه وسقاه فغفر الله له بسبب ذلك .

فى الإسراء والمعراج

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسد النبى ﷺ وروحه بعد البعثة . . .

ولقد توارد على ذلك – كما يقول الإمام ابن حجر – ظواهر الأخبار الصحيحة ولاينبغى العدول عن ذلك ، إذ ليس فى العقل مايحيله حتى يحتاج إلى التأويل .

ولو كان ذلك منامًا أو بالروح فقط لما كذب رسول الله ﷺ مكذب لجواز وقوع مثل ذلك لآحاد الناس :

إن الناس فى الرؤيا يرون أنهم سافروا ، وأبعدوا وذهبوا وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم وثمار عهودهم ، فلو كنا بصدد رؤيا لما ارتاب فى صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان . . . ولما أشفقت السيدة أم هانى رضى الله عنها على رسول الله ﷺ حين أخبرها الخبر وقال إنه سيحدث الناس به فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة :

« إنهم سيكذبونك فلم يستجب صلوات الله وسلامه بنصيحتها لأن الحق ينبغى أن يُذاع وأذاعه ﷺ بين الناس .

– ماهو إذن الموقف الذى ينبغى أن يتخذه من هذا الموضوع ؟ .

إن موقف المؤمن الصادق فى ذلك إنما هو موقف سيدنا أبى بكر :

فعن عائشة رضى الله عنها أنه سعى رجال من المشركين إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس – فقال أوقد كان ذلك ؟ . . . .

قالوا : نعم . . .

قال : لئن قال ذلك فقد صدق . . قالوا تصدقه إنه قد ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ . . قال نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى الصّدّيق . .

لقد كان رسول الله ، صلوات الله عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين

الفينة والفينة ، لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن طريق الإرشاد الإلٰهى وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه ، وهو القرآن : خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنًا عليها .

ولأن الرسول – صلوات الله عليه – تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن أكمل رسول ، ﷺ .

ومن هنا كانت إمامته – صلوات الله عليه – بالرسل والأنبياء فى بيت الله المقدس ، ولأنه صلوات الله عليه ، أكمل رسول ، كان من أجل ذلك ، أقرب المقربين إلى الله ، سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى مالم يصل إليه بشر ، بل إلى مالم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله عليه إلى (قاب قوسين أو أدنى) وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضًا – بل بطريق أولى – معنى روحى ، أى أن الرسول صلوات الله عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت – فى روحانيتها – آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى عليهما السلام ، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة . . . . وهكذا حتى تجاوزت روحيًا إبراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة ، ولقد تجاوزت كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لايبلغ ملك مقرب ، ولانبى مرسل . .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله عليه ! !

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية .

ومن الرحاب الإلٰهى . . . ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الإسراء والمعراج ، أكان رؤيا أم كان يقظة . . . .

أستغفر الله ، وأتوب إليه ! !

إن ذلك الجدل ، إذا دل على شىء ، فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

وإذا كان ماسبق يدلنا على جانب من مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فتزداد بذلك تقديرًا ، وحبًا واتباعًا ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطًا محكمًا ، بين الدين والأخلاق . .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطًا ، لاينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى ، لايتجزأ ، مصدرها هو مصدره ، إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط . .

فى الحكمة من الإسراء والمعراج

إنها ليست حكمة واحدة وإنها هى عدة حكم منها : أنه كان تكريمًا للرسول ﷺ فى وقت استحكم فيه الجهاد بين قوى الخير ممثلة فى الرسول وأتباعه ، وقوى الشر ممثلة فى المشركين يتزعمهم أبو جهل ، وكانت قوى الشر فى عنفوانها على قوى الخير فجاءت معجزة الإسراء والمعراج مبينة مكانة الرسول ﷺ ، وأظهرت أن مقامه صلوات الله عليه وسلامه عليه : قاب قوسين أو أدنى فى القرب من الله سبحانه .

ومن حكم معجزة الإسراء والمعراج أنها كانت تصفية لضعاف النفوس والشاكين والمترددين ، لقد كانت نفيًا لهم عن الجماعة الإسلامية الناشئة إذ إنهم لو مكثوا فيها لكانوا ضررًا عليها ، ولئن كانت معجزة الإسراء والمعراج تكريمًا للرسول ﷺ فإنها كانت ابتلاء للجماعة الإسلامية ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليذهب الزبد جفاء .

وتخلصت بذلك الجماعة الإسلامية الناشئة من الضعاف والشاكين والمترددين .

ومن الحكم بيان أن القيادة فى بيت المقدس يجب أن تكون للمسلمين وهذا هو المعنى الذى يؤخذ من إمامة رسول الله ﷺ للأنبياء والرسل ، إن الإمامة فى بيت المقدس وإن الكلمة الأولى والقيادة يجب أن تكون للمسلمين دون غيرهم ، فإذا قصروا فيها فهم آثمون أفرادًا ، وهم آثمون جماعات ، وهم آثمون دولا وحكومات .

ومن هذه الحكم مانبهت عليه المشاهدة الأولى فى مرحلة الإسراء المباركة لقد كان أول ماشاهد رسول الله ﷺ مشهد هؤلاء الذين يزرعون ويحصدون فى يوم ولما سأل عنهم قيل إنهم المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

والجهاد هو وسيلة الحصول إلى القيادة فى بيت المقدس .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إن روح سيدنا عمر وروح صلاح الدين من وراء الأجيال تناديكم لإنقاذ بيت المقدس مرددة قول الله تعالى :

(انفروا خفافًا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

ومرددة قوله تعالى : (إلاّ تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولاتضرّوه شيئًا ، والله على كل شىء قدير) .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

فى المراد من أسماء الله الحسنى

إن أسماء الله الحسنى ألفاظ من القرآن الكريم ، وهى دلالات على الله سبحانه وتعالى تهدى إلى ما يتصف الله به من وجوه الكمال فهى مباركة فى نفسها من حيث هى أسماء للذات المقدسة ، وهى مباركة بالنسبة لقارئها من حيث هى هداية وإرشاد للمسلم فى عقيدته ومن أجل ذلك كان الاعتقاد فى بركاتها ، سواء كانت متلوة مقروءة أو محمولة مكتوبة : اعتقاداً سليما :

وعلى هذا فإنه لا مانع للمسلم من أن يحتفظ بأسماء الله الحسنى مكتوبة محفوظة ملفوفة فى قطعة من القماش الطاهر ، وذلك للتبرك بها ، كما يحتفظ الإنسان بآيات من القرآن الكريم ملفوفة فى قماش طاهر ، ولم يمنع أحد من المسلمين أن يكتب الإنسان القرآن ، أن يكتب آيات منه أو يكتب أسماء الله الحسنى ويحملها متبركاً بها .

فإذا كُتبت أسماء الله الحسنى ولُفت لفًّا متقناً أو جلِّدت فى عناية ثم علقت فى رقبة الطفل فلا مانع من ذلك ، خصوصاً أن ذلك يدل دلالة واضحة على تقديس أسماء الله الحسنى وتقديرها واحترامها ، وعلى الرغبة الطيبة فى تعويد الأطفال على تقديسها واحترامها وتقديرها .

وما من شك فى أن أسماء الله الحسنى إنما أخبرنا الله بها لتدل أولا وبالذات على الكمالات الإلهية ولتهدينا إلى العقيدة السليمة ، بالنسبة لله سبحانه ، وذلك لا يتنافى أبداً مع كتابتها وحملها وتعليقها فى رقبة الأطفال إيمانًا ببركتها ، وتقديساً لها وحُبًّا فيمن دلت عليه سبحانه .

وقد ورد فى الأخبار أن سيدنا خالد بن الوليد كان يتبرك بشعرات من شعر رسول الله ﷺ ، يحتفظ بها فى عمامته فالتبرك بأسماء الله الحسنى لا مانع منه .

فى أفضل وسيلة لحفظ القرآن الكريم

أفضل الطرق وأيسرها لحفظ القرآن الكريم هى أن يتفهم القارئ معانى الآيات التى يقرؤها ، وبوجه إجمالى فظلال المعانى فى ذهنه تساعد على بقائها ، وسهولة حفظ الجمل المعبرة عنها ، ثم يبدأ الطفل – عادة – بالسور القصيرة والأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم ، يضاف إلى ذلك أن يقرأ المُحفِّظ الآيات أمام تلاميذه ، فالقراءة الجيدة تعود التلاميذ على حسن النطق وحسن الترتيل ، ولا يكلف التلميذ بحفظ آيات كثيرة حتى لا يثقل عليه حفظ ما يكلف به .

أما الفوائد التى تعود على حافظ القرآن فأهمها المعلومات التى يستفيدها من آى القرآن وأحكامه . وقصصه ومواعظه ، فقد قلت إنه ينبغى للمتعلم أن يلم بالمعانى الإجمالية للآيات التى يحفظها ، ثم هو يستفيد قدرة على التعبير الأدبى ، ويحسن الاقتباس من آيات القرآن ، والقراءة بعد كل هذا عبادة ، يستطيع الحافظ أن يؤديها فى أى وقت وفى أى مكان .

فى حرمة مسّ المصحف للمحدث

إن قراءة القرآن على غير وضوء جائزة ما دام القارئ طاهراً من الجنابة ، وقد ورد أن سيدنا عمر رضى الله عنه كان يقرؤه على غير وضوء ، فلما سئل فى ذلك أجاب بما يفيد أنه جائز ، وأما حمله على غير وضوء ، فقد أجاز أبو حنيفة رضى الله عنه ، ذلك إذا كان بغلافه" ، أى إذا كان مُغلّفاً داخل كساء .

ولقد اختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء : فالجمهور على المنع من مسه . ويقول الإمام القرطبى :

« واختلفت الرواية عن أبى حنيفة ، فقد روى عنه ، أنه يمسه المحدث حدثاً أصغر ، وقد روى هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس وغيره » .

ويقول الإمام القرطبى : وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم طاهراً أو محدثاً حدثاً أصغر .

أما مس الصبيان للمصحف فالأظهر الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن . وبعد فإنه مما لا شك فيه أن مس المصحف على طهارة كاملة من الأمور التى يحرص عليها المؤمن كلما أتيحت له الفرصة لذلك ، وهو فى هذا يسير مع الوضع الصحيح لتكريم المصحف واحترامه . بيد أنه تحدث ظروف لا يتمكن الإنسان فيها من الوضوء لسبب من الأسباب ، وتكون فى الوقت نفسه الفرصة متاحة للقراءة فى المصحف ، وفى هذه الحالة للإنسان أن يأخذ برأى الأئمة الذين أباحوا مسه على غير وضوء . ذلك خير من أن يترك فرصة متاحة للقراءة والثواب .

فى احترام الأوراق المكتوب فيها القرآن

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمن ومنة امتن بها عليهم . . وقد طالبهم باحترامه والقيام بحقوقه وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه ، قال تعالى : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون)

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية من آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق ما فيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولا يعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا أغفل المسلم أو ظن أن ما فى الورق ليس قرآناً فإذا ما تمزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان أمين ، أو إلقاؤها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتابة وتتحول حينئذ إلى ورقة عادية سرعان ما تتفتت .

والمقصود فى هذا كله المحافظة على القرآن الكريم بما يجب نحوه من احترام وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهرين من مس المصحف أو شىء من القرآن ، فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات ، وقد كان سبب الوبال لبعض الأفراد الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شر ممزق .

فى مسّ المصحف المكتوب باللغة اللاتينية بغير وضوء

الأمر فى مسّ المصحف المكتوب بالحروف اللاتينية . لا يختلف عنه بالنسبة للمصحف المكتوب بالحروف العربية .

غير أن أمر كتابة المصحف بالحروف اللاتينية لا يتم إلا بفهم المعنى المراد من كل آية قرآنية وصياغته باللغة المترجم إليها ، وليست ترجمة المعنى كترجمة النص ، فترجمته قد تكون مستحيلة فى كثير من الحالات ، أما ترجمة المعنى فهى ميسورة للمترجم ، وفهم المعنى لآيات القرآن يختلف باختلاف الباحثين إيجازاً وإطناباً وفهماً للمراد كله ، وقصوراً فى فهم المراد تارة أخرى .

وعلى ذلك فالمصحف العربى يختلف كثيراً عن المصحف اللاتينى من حيث إن المصحف العربى نص المنزّل من عند الله لا يحتمل غيره ، أما المصحف اللاتينى فإنه ترجمة للمعنى وليس نصًّا ، أعنى أنه كتاب تفسير لا قرآن .

لذلك فمسه بغير وضوء لامنع منه .

فى فضل البسملة

حسب البسملة فضلا أن افتتح الله بها كل سورة من سور القرآن ما عدا سورة « براءة » ، وحسبها فضلا أن كان رسول الله ﷺ لا يدعها فى كل كتاب أرسله إلى من دعاهم إلى الإسلام ، وحسبها فضلا أن ذكرها الله عَزَّ وجل فى سورة النحل ، حاكياً عن سليمان عليه السلام أنه صدر بها كتابه إلى بلقيس : قال تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو علىَّ وأتونى مسلمين) .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يدع البسملة فى كل شأن من شئونه وحث عليها مبيناً فضلها فقال :

« كل أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أجزم ، وفى رواية أبتر ، وفى أخرى أقطع . . والمعنى لا بركة فيه » .

وذكر فى بداية العمل من إثارة الإذعان بأن هذا الأمر يكون ابتداؤه ويكون تمامه بالله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به جل جلاله .

ومن آثارها بركة هذا العمل كما نص الحديث السالف الذكر عن رسول الله ﷺ ، ولقد قالها نوح عليه السلام وهو يركب سفينته وقد بلغت الشدّة نهايتها حينما فتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدر ، وصارت الأمواج تتلاطم كالجبال ، فكانت (بسم الله) أماناً لنوح ومن معه فى السفينة ، ولعل فى هذا بلاغاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فى استحباب سماع تلاوة القرآن

إن سماع القرآن خير جزيل ، وإن تلاوته خير جزيل أيضاً ، وتلاوته بصوت مسموع أفضل من سماعه ، وذلك لأن تلاوته بصوت مسموع فيها – فى آن واحد – استعمال اللسان والآذان .

والتالى للقرآن يمكنه أن يقف عندما يمر على آية استغفار يستغفر ، وعندما يمر على آية توبة يتوب ، وعندما يمر على آية عذاب يتضرع ويطلب النجاة .

ويتيسر له أن يعيد القراءة متدبراً متأملاً ، وأن يقف عند بعض الآيات متفهماً ، وكل هذا

لا يتيسر فى نوع من الكمال بمجرد السماع ، ولا يمنع عدم المهارة بالقرآن من أن يقرأه الإنسان ، فرسول الله ﷺ يقول فيما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها :

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

ويقول ﷺ فيما رواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

وهذا الحديث نص فى القراءة لا فى السماع .

فى معنى كلمة آمين

إن كلمة آمين معناها : اللهم استجب ، وهى ترد عقب كل دعاء .

إنها ترد عقب الفاتحة بعد قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين) .

وروى الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما : رضى الله عنهم أجمعين : أن رسول الله ﷺ قال : إذا قال الإمام « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقولوا آمين ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى رواية للبخارى إذا قال أحدكم آمين ، وقالت الملائكة فى السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه .

ولكن هذه الكلمة تختص بالصلاة ، فعن أبى مصبح المقرائى فيما رواه أبو داود قال : كنا نجلس إلى أبى زهير النميرى رضى الله عنهما وكان من الصحابة يحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال اختمه قال آمين ، مثل الطابع على الصحيفة ، قال أبو زهير النميرى أخبركم عن ذلك : خرجنا مع رسول الله ﷺ ليلة نمشى فأتينا على رجل ألحّ فى المسألة : أى ألحّ فى الدعاء – فوقف النبى ﷺ يستمع منه ، قال النبى أوجب أن ختم ، قال رجل من القوم بأى شىء يختم ؟ فقال : بآمين ، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب – أى قبل الله دعاءه ، فانصرف الرجل الذى سأل النبى ﷺ فأتى الرجل فقال اختم يا فلان بآمين وأبشر . .

أما كون الإمام لا يجهر بها فذلك لأنها ليست قرآناً ، وأما جهر المأمومين بها فإنه ليس واجباً وهم بالخيار إن شاءوا جهروا وإن شاءوا أسروا .

فى نزول القرآن فى ليلة القدر وهل كان جملة أولا

يرى بعض العلماء – ومنهم الشيخ محمد عبده – أن المراد بنزول القرآن فى هذه الليلة ابتداء نزوله ، مستدلا بما قاله الشعبى – المراد من نحو أنزلناه وأنزل فيه القرآن : الابتداء بإنزاله .

وعلى هذا المعنى فإن القرآن ابتدأ الله سبحانه إنزاله فى ليلة القدر ، ثم توالى إنزاله بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب حكمة الله سبحانه وهو الحكيم الخبير . أما كيف انقسمت السور القرآنية إلى المكيّة والمدنية . فإن السبب فى ذلك هو اختلاف أماكن نزول القرآن ، فقد استمر نزول القرآن على الرسول ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة : قال تعالى : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزلناه تنزيلا) وقال : (وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) ومن الآيات ما نزل بمكة ، ومنها ما نزل بالمدينة ، فسمى ما نزل بمكة بالمكىّ ، وما نزل بالمدينة بالمدنىّ ، واستخلص العلماء لكل سماته وخصائصه ومجال البحث فيه ، وإن فى تمييز المكىّ من المدنىّ ومعرفة مكان النزول يعطى صورة واضحة عن اهتمام المسلمين بكتاب الله وبكل ما يتعلق به : حيث لم يكتفوا بحفظه بل عرفوا ملابساته وما أحاط به من ظروف .

فى الوحى

يمكن الشخص العادى أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام ، فليست رؤيته بمستحيلة ، وليست رؤيته وعدمها ، خاضعة لرغبة شخص أو عدمها ، وإنما مرد ذلك كله إلى الله عزّ وجل ، وعلى النحو الذى يريده الله سبحانه ، حسب قدرة الرائى ، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ، ليس كآحاد البشر ، وقد رأته السيدة مريم عليها السلام ، وليست بنبية ، ورآه أناس كثيرون فى حياة النبى ﷺ وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . . . شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . إلخ . الحديث فى أول صحيح مسلم وكان هذا الذى رآه الصحابة هو جبريل .

وليس معنى أنه يُرى أن كل من يراه يوحى إليه وحى تشريع ، لا . . . لأن وحى التشريع انتهى بوفاة رسول الله ﷺ ، وإنما تعبر الرؤيا مناماً أو يقظة بالمعنى الذى يتناسب وحال الرائى من بشارة أو إنذار أو تقرير أو نحو ذلك والوحى الخاص بقوله : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . .) الآية .

هو وحى الرؤيا المنامية ، ولم يرد فى شرح الآية نص يكشف ماهية الوحى الذى كان ، ولعله وحى إلهام . والآية الكريمة محتملة لذلك .

فى محاولات أعداء الإسلام لتحريف القرآن

المحاولات لتحريف القرآن الكريم مستمرة ودائمة . . منذ عهد قديم ، وقد تمثلت أولا فى الخروج بتفسيره عن هدى الدين ، وصرف المسلمين عن هدايته بأخبار موضوعة تبلبل المفاهيم وتصرفها عن روح الدين ، كما هو ملاحظ فى بعض التفاسير من الإسرائيليات . والحشو .

ومن ناحية ثانية فقد حرفت بعض الطوائف معانى القرآن الواضحة الظاهرة إلى معان باطنة لا تمثل إلا ما يهدم الدين تحت دعوى الخصوصية والفهم الذى لا يقبل الخطأ ونحو ذلك ، وتمثلت هذه المحاولات : فى القضاء على لغة القرآن . . وتوجيه الطعنات إليها ثم إلى القرآن ثالثاً : بتغيير رسمه وكيفية نطقه .

وآخر هذه المحاولات تغيير القرآن الكريم بحذف بعض الكلمات منه أو تغيير شكل الكلمة حتى يتغير المعنى تبعاً لذلك . وطبع مصاحف محرفة طبعات أنيقة ونشرها على أوسع نطاق .

وعلماء المسلمين يحفظون القرآن فى صدورهم ويكشفون ما استطاعوا عن هذا التزييف .

والأزهر يمارس نشاطاً كبيراً فى مجال القضاء على كل محاولات التحريف فتقوم لجنة المصحف التابعة لمجمع البحوث الإسلامية باعتماد ما تراه صحيحاً من المصاحف قبل الطبع . .

وتفحص المصاحف المزورة وتصدر نشرات عنها وعن طبعاتها وتنبه البلاد الإسلامية إلى خطرها .

وتقوم حكومة مصر على أساس توجيه هذه اللجنة بمصادرة كل مصحف غير مطابق لنص القرآن الكريم .

وسيقوم المجمع بطبع مصحف نموذجى ونشره على أوسع نطاق بحيث يعتبر أساساً لمقارنة غيره به (٥١) .

ومقارنة لكل ما يمكن أن يصدر من طبعات محرفة ، أنشئت إذاعة القرآن الكريم بمصر ، تتلو

---

(٥١) كان الأمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه أمينًا عامًا لمجمع البحوث الإسلامية وقت صدور هذه الفتوى ، وقد تم فى عهد توليه مشيخة الأزهر طبع هذا المصحف ، ونُشر على أوسع نطاق .

القرآن آناء الليل وأطراف النهار بعدة قراءات ، تيسر للمسلم أن يراجع مصحفه على أساس قراءتها .

وبعد فالله سبحانه وتعالى : قد تكفل بحفظ القرآن ، قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وعلماء الإسلام يحفظون القرآن وعندهم من النسخ المضبوطة الكثير . . ومن الممكن الرجوع إليهم فيما يشك فى تحريفه .

والأمل كبير فى أن تتكاتف الحكومات الإسلامية أمام هذا المظهر الخطر من محاولات تزييف الدين والتراث فى أقدس مخلداته ، وهو القرآن الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فى التوبة كما وردت فى القرآن

لقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة على مصراعيه أمام المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم فى الذنوب ولم ييئسهم من رحمته فقال تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون) .

وقال سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال أيضاً : (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) . وغير ذلك من آيات القرآن الكريم التى ترغب فى التوبة وتحث عليها .

وفى الحديث الصحيح : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل .

وفيه أيضاً : إن الله فتح بابه للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها . فمن أسرف على نفسه ثم تيقظ ضميره يلزمه أن يرفع أكف الضراعة والندم على ما فرط منه فى حق مولاه ، وليبك على خطيئته ، ويعزم على عدم الرجوع إليها ، ويرد المظالم إلى أهلها ويؤدى الفرائض التى فاتته بشروط التوبة ، إن فعل ذلك قبل الله توبته وعفا عن ذنبه وخطيئته وجعله فى زمرة عباده المقبولين .

أما إن أخل بشروط التوبة وتاب باللسان ولم يرد المظالم ولم يقلع عن المعصية فإن توبته مردودة عليه نعوذ بالله من ذلك .

فى حادث الإفك

إن من المبادئ الإسلامية الأصيلة الأخوّة الإسلامية : (إنما المؤمنون إخوة) ، « والمؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

ومن أجل ذلك فإن الذين يسيرون فى طريق معارض وهم الذين يحبون أن تنتشر الخصال القبيحة فى الذين آمنو أعد الله لهم عذاباً أليماً فى الدنيا وفى الآخرة ، والله يعلم ما انطوت عليه السرائر وأما أنتم فلا تعلمون من ذلك شيئاً .

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وهذه الآية الكريمة وما يتلوها إنما هى تعقيب على ما اقترفه البعض من الخوض فى حديث الإفك ، لقد أخذ البعض يخوض فى عرض الرسول ﷺ ولولا فضل الله ورحمته بالمجتمع الإسلامى إذ ذاك لمس الذين خاضوا فى الإفك والمشايعين لهم والساكتين على بهتانهم عذاب عظيم .

ويستمر الله سبحانه فى التعقيب على الحادث تربية للمؤمنين فيحذرهم سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، وذلك أن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر إنه لا يوجه إلى خير ، ولولا أن الله سبحانه قد رسم طريق الهداية واضحاً لا لبس فيه رسمه فى العقيدة ، وأساسها التوحيد ممثلا فى : إياك نعبد وإياك نستعين ، ورسمه فى التشريع وأساسه العدالة ، ورسمه فى الأخلاق وأساسها الرحمة — ولولا فضل الله ورحمته على عباده لولا كل ذلك ما زكّى منهم أحداً أبداً ، ولكن يأخذ بيد من يشاء فيزكيه ويطهره من الإثم بالتوبة والغفران ، وهو سبحانه السميع لكل من التجأ إليه متضرعاً ، متجهاً إلى تزكية نفسه ، العليم بالمخلصين فى الإنابة إليه .

ولقد روى الإمام البخارى وغيره أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان ينفق على مسطح لقرابته وفقره فلما خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها قال أبو بكر : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً فنزل القرآن الكريم ناهياً أولى الفضل وذوى السمعة أن يقسموا على عدم الإنفاق على ذوى القربى

والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، ونصح الله المؤمنين بالعفو والصفح وخاطبهم قائلا :

ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم : فلما سمع أبو بكر رضى الله عنه هذا الخطاب قال : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، وأعاد نفقته على مسطح .

فى إمكان الإعادة بعد العدم

وجود الشىء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه من عدم ، وإن كان لا يوجد حد بالنسبة لله ، شىء أسهل وشىء أصعب هذا الدليل الموجود فى الآيات فى كلمات قليلة .

(قُلْ يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ظهور الشىء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس .

وإذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو :

إن الشىء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق : هذا الدليل موجود فى آية : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) . وقد انتفع به الأشعرى فى إثبات إمكان البعث .

خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن .

فى منهج التشريع القرآنى

يشرع القرآن أحياناً : فى صورة مجملة – لبعض المسائل التى تتغير أساليبها بتغير الزمن ويترك للمجتمع تحديد الأساليب والطرق التى تناسب الحالة التى عليها المجتمع والتى تحقق الفائدة من التشريع ، وذلك كما فعل فى الشورى مثلا ، فقد أمر بها الله سبحانه ، ثم ترك سياستها وكيفية تحقيقها لتؤدى الهدف منها إلى المصلحين فى المجتمع وولاة الأمور فيه .

أما المسائل التى تكون عادة مثار نزاع فى المجتمع أو بين أفراد الأسرة الواحدة فإن القرآن قد فصلها تفصيلا ، ووضحها سافرة لا لبس فيها وذلك كالميراث مثلا :

لقد بين القرآن الأنصبة محددة فى مختلف الحالات والظروف ، فأبان نصيب الزوجة مثلا حينما

يكون للمتوفى أولاد ، ونصيبه حينما لا يكون له أولاد ، والأم والبنت ، والأخت وهكذا .

وهذا معلوماً من الدين بالضرورة . فمن جحده إنكاراً ، أو جحده غير معترف بعدالته ، أو جحده مفضلا غيره من التشريعات عليه ، فإنه يكون بذلك قد خرج من الملة الإسلامية .

والواقع أن الانحراف فى موضوع الإرث يأتى من طائفتين :

طائفة المتفرنجين الذين يريدون أن يسووا بين الرجل والمرأة فى الميراث ويعتبرون أنفسهم من المجددين المتطورين ، وهم بهذا يعتبرون أنفسهم أحكم من الله سبحانه ، وأحكم تشريعاً منه وهم بهذا خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

والطائفة الثانية : هى طائفة العقليات والمنازع الجاهلية التى وصل بها احتقار المرأة أن كانت تدفنها حية فى العصر الجاهلى .

إن هذه العقليات الجاهلية لم تمت بعد ، إذ لا يزال أثرها حيًّا للآن برغم تحطيم الإسلام لها وإنكاره عليها وهدمه لمبادئها ، إنها لا تزال حية فى نفوس الذين لم تتشبع نفوسهم بروح الإيمان والذين لم يغمرهم نور الإسلام ، ولقد صور القرآن موقف هذه العقليات بالنسبة للمرأة أبلغ تصوير فى قوله تعالى :

(وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وهؤلاء يجحدون كل حق للمرأة ويحرمونها من الميراث برغم وضوح حكم الله سبحانه وتعالى فى وجوب إعطائها حقّها وهم بذلك خارجون على الإسلام وعلى رب الإسلام .

وسواء كنا بصدد المتفرنجين أو بصدد العقليات الجاهلية فإن الواجب أن يخضع الإنسان لحكم الله أحكم الحاكمين ، وأن يوقن بأن كل خروج عليه إنما هو اتباع للهوى وسير وراء نزعات الشيطان .

وإن القرآن ليصف أمثال هؤلاء الذين يخرجون على قوانين الله سبحانه ، بأنهم كافرون وبأنهم ظالمون ، وبأنهم فاسقون . وقانا الله السوء وهدانا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فى حكم النسخ فى القرآن

يقول الشيخ جمال الدين القاسمى :

قد تقرر أن النسخ فى الشرائع جائز ، موافق للحكمة وواقع : فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التى كان عليها إبراهيم ، وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة ، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة لأن الأحكام العملية التى تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر ، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان ، فالحكيم العليم شرّع لكل زمن ما يناسبه .

ولقد فسر صاحب كتاب محاسن التأويل فى تفسير القرآن قول الله تعالى :

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) بقوله :

ما نبدل من آية بغيرها كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن (أو ننسها) أى نذهبها من القلوب كما أخبر بقوله : (ونسوا حظا مما ذُكِّروا به) (نأت بخير منها)

وعلى النسق فى تفسير هذه الآية سار الشيخ محمد عبده ، وكثير من رجال الفكر فى العصر الحاضر وهم يرون أن نسخ القرآن بالقرآن لم يحدث ، ويتابعون فى ذلك أبا مسلم بن بحر الأصفهانى المفسر الشهير الذى يقول :

ليس فى القرآن آية منسوخة ، ويشرح كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه من التخصيص أو التأويل .

وهذا الرأى الذى نراه ، وعلى ذلك فإن من ينكر النسخ فى القرآن الكريم لا يكون كافراً ، والرأى المشهور لدى المسلمين إنما استند على الخصوص إلى آية النسخ فى القرآن الكريم ، وهى آية يمكن أن تفسر بنسخ الشرائع لا بنسخ آيات القرآن بعضها لبعض .

فى الذين قاموا بتشكيل القرآن الكريم بعد النبى ﷺ

نزل القرآن على الرسول ﷺ بلسان عربى مبين ، وكان الرسول ﷺ يقرؤه كما أنزل عليه وكما سمعه من جبريل ويسمعه الصحابة منه ، فيحفظونه كما سمعوه . وهم بسليقتهم العربية لا يلحنون .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ودخل فى دين الله غير العرب واختلطت اللغة وبدأ اللحن فى الكلام العربى أمر الحجاج بتشكيل القرآن خوفاً من اللحن . فالحجاج فى عهد بنى أمية هو أول من

أمر بتشكيل القرآن ونقطه ، ومن الروايات المشهورة أن أول من قام بتشكيل القرآن ونقطه إنما هو أبو الأسود الدؤلى بأمر عبد الملك بن مروان ، وقد ذكر الإمام السيوطى رواية تقول : إن من الذين اشتركوا فى نقط المصحف وشكله الحسن البصرى ويحيى بن يَعْمُرُ .

فى الحافظون لحدود الله

الحفاظ على حدود الله سبحانه : هو الالتزام الكامل بأداء ما أوجبه الله على خلقه والعمل بمقتضاه أمراً كان أو نهياً يقوم بتلك أفراد الأمة : حكاماً ومحكومين إذ كل راع مسئول عن رعيته .

وحدود الله تبدو فى ظاهرها عبارة عامة لكنها مع ذلك ذات مفهوم محدود ، جوهره الالتزام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويرسم الله سبحانه وتعالى صورة من الصور لهذه الحدود أو بعضها فى أول سورة : النساء : فمطلعها أمر بالتقوى : (يأيُها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) . . . ثم بعد ذلك أمر آخر. يقول الله : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . . .) ثم هناك أحكام أخرى .

يقول تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً)

ثم يقول : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا) .

ثم بين سبحانه أحكاماً فى القسمة والميراث يقول تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) .

وقوله : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . .) إلخ الآيات . ثم أشار سبحانه إلى كل ذلك بقوله سبحانه (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم) .

وتضمنت هذه الآية جزاء الحافظين لحدود الله ، أما العصاة الذين تعدوا الحدود وطغوا وبغوا فجزاؤهم فى الآية التالية مباشرة .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)

إنه الجزاء الوفاق للحافظين لحدود الله والمعتدين لها .

فى دعاء الصالحين

بظهر الغيب

روى مسلم عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل :

وروى مسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول : دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل :

بل إن نفس الرسول ﷺ صح عنه أنه طلب من عمر رضى الله عنه أن يشركه فى الدعاء فقرت بذلك عين عمر .

وغير ذلك كثير من الآيات والأحاديث ، إذن دعاء الصالحين نافع سواء كان ذلك الدعاء من الأفضل للفاضل كما حصل من الأنبياء لغيرهم أوكان من المفضول للأفضل كما حصل من عمر للنبى ﷺ ، وكما حصل من المؤمنين الذين حكى عنهم ذلك فى سورة الحشر (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) فدعاء الصالحين مستجاب وبركة .

وأما وجودهم والجلوس معهم فنافع وبركة ، والأدلة على ذلك لا تحصى ولا تعد من الكتاب والسنة والحوادث .

فى الفرق بين العزم والهم

العزم هو : توطيد النفس على المعصية والقصد إليها بالقلب والشعور . والهم : إمرار فكرة المعصية بالفكر من غير استقرار .

وفى الحديث الصحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : قال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك . . فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة .

وعلى هذا : فمن دارت المعصية بخاطره دون عزم عازم ورغبة أكيدة فلم يعملها خوفاً من الله وإيثاراً للصواب كتب له حسنة لأنه جاهد نفسه فتغلب على الشر فيها . .

ومن عزم عليها وتأكدت رغبته فيها كتبت عليه سيئة ، فإن لم يعملها وتغلبت مجاهدته كتبت له حسنة . .

ومن المعلوم أن من عزم على المعصية فمنعه منها مانع من غير نفسه كخوف فضيحة أو عقوبة قانون ، أو ما إلى ذلك لا حسنة له ، وعليه إثم نيته التى نواها . . .

فى التخلق بأخلاق الله الجمالية

يقول الله تعالى : لملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ولقد استحق خلافة الله فى الأرض لأن الله سبحانه خلقه وفيه الاستعداد للتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه ، ومن المعروف أنه مطلوب من كل شخص أن يتخلق بأخلاق الجمال التى لله سبحانه وتعالى ، فالله مثلا سمى نفسه الرحمٰن ، بل جعل هذه الصفة تالية للاسم الكريم ، أعنى اسم (الله) فقال سبحانه : (قل ادعو الله أو ادعو الرحمٰن) .

ومطلوب من الإنسان أن يكون رحيماً ولقد هيئ لأن يكون رحيماً إذا شاء ، والله سبحانه كريم ومطلوب من الإنسان أن يكون كريماً وفيه الاستعداد لأن يكون كريماً ، وهكذا خلق الله الإنسان مستعدًّا للرحمة والكرم والمغفرة والعفو والسلام والعلم والسمع والبصر وغير ذلك من صفاته سبحانه وتعالى ، والله سبحانه خالق ومصور ومبدع وفى مقابل ذلك بالنسبة للإنسان العمل والكدح فى الأرض التى جعلها الله ذلُولا له ، وسخرها له ، بل سخر الكون كله من سمائه وأرضه وما بينهما ليستخدم كل ذلك بالعلم والعمل ، واستحق الإنسان خلافة الله فى الأرض إذن بهذه الصفات الخيّرة وبالعمل المتواصل .

أما إذا لم يكن كذلك بأن كان شرّيراً أو كان كسولا فإنه يكون قد تخلى عن الرسالة التى هيأه الله لها وهى رسالة الخلافة فلا يكون أهلا لها .

فى خلق آدم ليكون خليفة الله فى السموات والأرض

بين الله سبحانه وتعالى أنه إنما خلق آدم للأرض وذلك قبل أن يصور وينفخ فيه الروح ويبرز فى عالم الوجود فقال للملائكة :

(إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وقد سئل الحسن رحمه الله عن : آآدم للسماء خُلق أم للأرض ؟

فقال : ما هذا ؟ للأرض خلق .

فقال السائل : أرأيت لو اعتصم ولم يأكل من الشجرة ؟

قال : للأرض خلق ، فلم يكن بد من أن يأكل منها .

ومن أجمل الآراء فى قصة آدم وأعمقها رأى الإمام أبى الحسن الشاذلى : لقد شعر أبو العباس المرسى فى يوم بضيق شديد لم يعلم له سبباً ، فذهب إلى أبى الحسن الشاذلى ، فلما رآه قال مباشرة :

آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام ، ثم نزل به إلى الأرض ، والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله الله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة .

وأنت أيضاً لك قسط من آدم كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة المعارف ، فأنزلك الله إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

أما أين نزل فذلك غيب لا يتحدث عنه التاريخ الموثوق به ، وقد كان يكفى ذلك للكف عن بحث العلماء فى هذا الموضوع ولكن العلماء بحثوا فيه واختلفوا ، شأنهم فى ذلك فى بحث كل ما لم يرد فيه نص صحيح . .

فى معنى اليتيم

يقول تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . .)

واليتيم : هو : من مات أبوه وهو دون البلوغ ذكراً كان أو أنثى ، لأنه فى حاجة إلى العطف والرعاية .

أما بعد البلوغ فيكون قد زال عنه هذا الاسم ، لأنه قوى واشتد هذا هو اليتيم بوجه عام .

أما اليتيم الذى يستحق الصدقة فهو اليتيم الفقير الذى لا مال له من ميراث ، ويستوى فى ذلك الذكر والأنثى . .

فى قصة قوم تُبَّع

قوم تبع الذين جاء ذكرهم فى القرآن هم : حِمْير باليمن ، وقد فصل القرآن ذكرهم فى سورة سبأ ، وكانت حمير كلها ملك فيهم رجل سموه تبعاً ، كما يقال قيصر لمن ملك الروم ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس .

وتُبَّع هذا المذكور فى الآية : كان رجلاً صالحاً خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه واتسعت مملكته وكثرت رعاياه ، فاتفق أن مر بالمدينة المنورة فى أيام الجاهلية فلاينه أهلها بأن حاربوه فى النهار وجعلوا يقدمون له الزاد بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم .

ولما مر بالكعبة أراد هدمها فلما أخبر بما لها من حرمة تركها وكساها كسوة حسنة وقد اعتنق اليهودية دين موسى عليه السلام قبل ظهور المسيح وتابعه قومه فى ذلك حتى إذا مات عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام وكان ما كان مما قصه الله تعالى عن أهل سبأ وتبدل خيراتهم إلى نقم . .

أخرج الحاكم عن عائشة قالت : كان تُبَّع رجلا صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه .

وروى أحمد بسنده عن سهل بن سعد عن الرسول ﷺ قال :

« لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم » أى أسلم وجهه لله ولم يشرك به شيئاً من خلقه »

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى اضطراب الأخبار فى شأن تُبَّع حيث لم ترد تفصيلاتها عن طريق موثوق يعتدّ به ، ولم تثبت الكشوف التاريخية الصحيحة شيئاً مهمًّا فى هذا المجال .

وكل ما يجب علينا أن نؤمن به هو صلاح هذا الرجل وفساد قومه كما بينته عائشة رضى الله عنها .

فى حكم قراءة القرآن على الأموات

قراءة القرآن على الأموات ليست واجبة إلا فى صلاة الجنازة فقط ؛ أما عند القبر فقد استحبها عبد الله بن سيدنا عمر رضى الله عنهما بعد الدفن مباشرة ، واستحبها الشافعى كذلك ، فقد ورد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : أحب أن يقرأ عند القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخواتيمها ، وقال الإمام الشافعى : أحب أن يقرأ عند الميت بعد الدفن ختمة كاملة .

وذلك لما يرجى من تنزل رحمة الله فى المكان الذى يتلى فيه كتابه وهذه الرحمة يستفيد بها الأحياء والأموات .

وإذا ترك المسلم قراءة القرآن على الأموات فليس عليه عقوبة ، وقد كان النبى ﷺ يزور المقابر كثيرًا ويسأل الله تعالى لأهلها الرحمة والعافية ، والدعاء للأموات مستحب سواء زرت المقابر أم لم تزر تأسياً برسول الله والخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .

ولقد دعا لهم سيدنا إبراهيم بالمغفرة كما حكى الله عنه بقوله .

(ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) .

فى تفسير أوائل السور

الحروف التى بدئت بها سور القرآن مثل (آلم) و (آلر) و (طسّمّ) و (حٰمٓ) (ص) قيل إنها أسماء للسور التى بدئت بها ، وقيل إنها أقسام أقسم الله بها على أن ما اشتملت عليه السور التى بدئت بها حق لا ريب فيه ، وقيل إنها أسماء لله تعالى وقيل إنها نزلت للتحدى بها ، وإن القرآن الكريم مؤلف من مثل الحروف التى يؤلفون منها كلامهم . وإن على الذين ينكرون أنه من عند الله أن يأتوا بمثله والله أعلم بمراده .

آراء فى فواتح السور

منها : أنها أسماء للسور المبدوء بها ، فـ (طسّ) اسم للسورة المبدوء بها ، وكذلك (حم) ونحوها ، غير أن بعض هذه الأسماء مشترك من عدة سور مثل (حمٓ) و (آلم) و (آلر) . . .

ومثل هذه يكون التمييز فيها بمشخصات كأن يقال : حمٓ ، الأحقاف ، أو حمٓ فُصِّلت ، وهكذا .

وقيل : إنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها والغرض منها إفهام المخاطبين أن ما يتلى عليهم من الكلام إنما تركب من الحروف التى يتخاطبون بها ويتداولونها ، وإما لإظهار شرفها وفضلها إذ هى مبنى كتبه المنزلة .

وموقف المؤمن من أمثال ذلك ينبغى أن يكون موقف الراسخين فى العلم الذين يقولون (آمنا به كلٌّ من عند ربنا) .

فى مكانة الأنبياء

إنها فرصة طيبة للحديث فى المسائل التى تتعلق بأنبياء الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين :

والمبدأ الأول : هو أن الأنبياء معصومون فقد اصطفاهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، وتخيرهم الآباء والأجداد والأمهات والجدات لقد اختار لهم الأسر ، المنبت وانظر إلى القرآن الكريم يقول عن عيسى عليه السلام قبل ميلاده .

(ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيًا)

لقد كان أمراً مقضيًّا قبل ميلاده .

وتكفل الله بهم بعد ميلادهم ، إنه سبحانه يصطفيهم لنفسه ويربيهم على عينه ويبعد عنهم كل أذى ويبعدهم عما يشين ويعصمهم عن كبريات السيئات قبل بعثتهم ويعصمهم عن كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم .

تلك هى العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى ضوئها يجب أن يسير المفسر ، وعند حدودها يجب أن يقف ، وعلى هذا فإن الأمر فى الآية ظاهر :

لقد اختصم اثنان من بنى البشر كما يختصمون كل يوم فى هذا الأمر أو ذاك فذهبا إلى داود عليه السلام يعتقد الظالم أنه بلسانه الطلق ، وذكائه القوى يستطيع أن يلبس على داود عليه السلام فيبدى الباطل فى صورة الحق ويظهر الظلم فى صورة العدالة ويعتقد المظلوم أن حقه واضح برغم كل ما يزيفه خصمه ، لقد كان النزاع على غنم ، والنعاج هى الإناث من الضأن ولا مجال لغير ذلك ولا يتأتى أن نصرف اللفظ إلى غير معناه .

وحكم بينهم داود عليه السلام قائلا : (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) ، ثم بين

الطبائع البشرية فقال : (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) ، ثم استثنى طائفة قليلة حددها بقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) ، ولكن ثم تُختتم الآية بقوله تعالى : (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ، وخرَّ راكعاً وأناب) وما هى الفتنة التى ظن داود عليه السلام أن الله فتنه بها ؟

والفتنة هى الملك ، وهى هذه السعة من السلطان والجاه والسيادة يقول تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وهل يسير بعض المفسرين على هذا النسق ؟

نعم : إن المحققين من المفسرين يرون هذا الرأى وعلى رأسهم القاضى عياض ، والإمام ابن كثير الذى يقول : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات لم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه .

فى تفسير الربع الثانى : من الجزء الأول من سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يُضِلُّ بِهِ كثيراً ويهدى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلاَّ الفاسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ويُفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون (٢٧) كيف تكفرون بالله وكُنْتُم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون (٢٨) هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم (٢٩) وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون (٣٠) وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألَمْ أَقُلْ لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكٰفرين (٣٤) وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها

رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥) فأزلَّهما الشيطانُ عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٣٦) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم (٣٧) قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم منى هُدى فمن تبع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خلدون (٣٩) يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأَوْفوا بعهدى أُوفِ بعهدكم وإياى فارهبون (٤٠) وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإيّاى فاتقون (٤١) ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (٤٢) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين .)

إن التفسير لكل ربع من القرآن الكريم ، فى مجال التحريك والتحرك بالقرآن العظيم ينبغى أن يرسم صورة متكاملة . . لأن كل ربع فى تقسيم القرآن ، إنما يعطى معنى من المعانى التى تكتمل بها الصورة فى كل سورة .

وهذا الربع الثانى من سورة البقرة يبدأ بداية مثيرة ، إلا أنها مرتبطة بالموضوع الرئيسى الذى يتناوله هذا الربع . وأعنى بذلك تحديد علاقة الإنسان بربه وبقصة بدء الخليقة فى ذلك الحوار القدسى بين الله سبحانه وتعالى والملائكة ثم بينه جلت حكمته وبين آدم عليه السلام وإبليس . . لقد علم الله سبحانه آدم عليه السلام الأسماء كلها وهيأه بذلك ليكون خليفة الله فى أرضه لكى يعرف ابتداء مصادر العلم ومبادئ الانطلاق بهذا العلم . . وبعد أن وقف آدم على هذه الأسرار وتلك المداخل أصبح مهيئاً للخلافة وحينما اجتاز آدم الاختبار طلب الله من الملائكة أن تسجد لآدم .

وينتهى الأمر بما تشرحه الآيات تفصيلا من موقف إبليس الذى وصفه الله بالكفر والعصيان ولكن آدم عصى أمر ربه – لقدر وتقدير – تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وهنا الفرق الكبير والبون الواسع بين آدم الذى تاب فتاب الله عليه ، وبين إبليس الذى عصى ولم يستغفر ولم يتب وإنما استمر فى كفره وعصيانه .

والغريب أن هذا الربع يبدأ باستهلال غريب ، أخّاذ يثير التساؤل ولكن حينما تربطه بمحتوى ما جاء به الربع تكتمل فى أذهاننا الحكمة من أن يورد سبحانه هذه الآيات فى مدخل هذا الربع . إنه تعالى يريد أن يوضح مسبقاً أن الكافرين سوف يشككون ويتذبذبون ولن يقروا أو يسلموا ، وأنهم سينتقدون أى شىء حتى فى هذا الأمر البسيط – ضرب المثل بالبعوضة – وهو لا يعدو أن يكون سبيلا وأسلوبا من الله عز وجل لتبسيط الأمر بتلك الأمثال ليقربها إلى عقل الإنسان وإدراكه

وحسه ، ويقرر سبحانه بوضوح وجلاء أن المؤمنين يعلمون أنه الحق من ربهم حتى ولو كان الأمر مثل بعوضة فما فوقها . (أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) والأوصاف المباشرة لهؤلاء الفاسقين فى هذا الموقع هى :

١ – ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

٢ – يقطعون ما أمر الله به أن يُوصل .

٣ – يفسدون فى الأرض .

وبعد هذه المقدمة الأخّاذة والمثيرة يبين الله لنا أن المؤمن وهو الذى يعلم أنه الحق – يصبح مطمئنا لأمر الله وحكمه ، واثقاً فى الكلام المنزل من عند ربه . فمن مقومات الإيمان الأولى ما توضحه الآية (والذين آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) زالت من قلوبهم الريبة والشك . أما الذين كفروا فهم فى ريب دائم وتشكك مستمر ، فإذا كان أمر التشكيك يصل إلى هذا المثل (البعوضة) فما بالنا بقضية الخلق . . ولهذا فإن الله سبحانه يسأل هذا السؤال الذى يتضمن الدهشة والاستغراب وعدم تصور التصديق حينما يسأل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سمٰوات وهو بكل شىء عليم) وأظهر سبحانه وتعالى صفة العلم عند المدخل إلى بدء الخليقة .

وهكذا نرى ونتعلم أن الله سبحانه وهو يبنى الإنسان من خلال الآيات كان لابد أن يبدأ بعد تعريف الإنسان بأنواع الناس الذين سيلتقى بهم مسار القرآن – كان لابد أن ينتقل إلى تحديد علاقة الإنسان بخالقه منذ بدء الخليقة لكى يعرف كل إنسان قدره ومكانته فليس آدم عليه السلام فى ذلك إلا كل إنسان ، ومن يستشعر هذا المعنى لابد أن يستشعر مدى تكريم الله لشخصه وما ميزه به من علم استوجب سجود الملائكة لآدم . . فإذا كان التصرف على مستوى هذا التكريم يتكافأ مع هذا العلم الذى علمه ربه إيّاه استطاع الإنسان أن يعرف فضل الله عليه وتكريمه إيّاه .

وكما حرص الربع الأول على تحديد وتعريف أنواع الناس الذين سيجرى التعامل معهم فإن الربع الثانى حريص على تحديد علاقة الإنسان أولا بخالقه ثم بالملائكة قبل أن يدخل مع القرآن – فى الرسالات . . ينبغى أن تكون هذه العلاقة واضحة ومستقرة رحمة بالإنسان عندما يعرف مصادر القوة ، ويعرف مصادر العلم ، ويعرف مصادر السلطة ومِمَّنْ يستمد الإنسان كل هذه المساندة . فمن أكبر النعم التى تفضل الله بها على الإنسان أن يشمله برحمته ، وأن يزوده بعلمه وأن يسخر له ما فى الأرض جميعاً وميزة العلم فى حد ذاتها من أكبر الدعامات لتحقيق الرحمة للفرد فى تنمية

هذا العلم الذى وضع الله به آدم عند نقطة أساس يمكن أن ينطلق منها إلى منابع الغيب بلا قيد وبلا حد فى نطاق ما يأذن به رب هذا الوجود ، فالحوار يؤكد كرامة الإنسان ويؤكد دور الإنسان فى عمارة الكون ومسئوليته عن هذا العلم الذى أودعه الله فيه والفتوى يشار إليها بأنه علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

وهنا يضاف إلى العلم الحكمة . وقد يعطى لنا العلم ولكن الحكمة هى التدبير المحكم وهى صنعة الله ، وإن الذين يشقون فى هذه الحياة هم الذين يريدون أن يعرفوا الحكمة وراء كل شىء ومن وراء كل تدبير ، لأنهم يعيشون فى الظاهر وسبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمهما كان مقدار علمك فإنه فوق كل ذى علم عليم ، إن الله لا يحب أن يسأل لماذا ولا كيف . . أما إذا تفضل الله على عبد من عباده فآتاه الحكمة فما لا شك فيه أنه قد أُوتى خيراً كثيراً وينتهى الحوار بالكلمة الفاصلة التى يجب أن ينتهى إليها كل إنسان حتى لا يتعب .

(قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

وبهذا تحدد الموقف ليلتزم كل امرئ حدّه ومكانه من هذه القاعدة الكلية رحمة به حتى لا يضل ، ورحمة بالمجتمع حتى لا يضيع ، ورحمة بالبشرية حتى تهتدى إلى الصراط المستقيم .

إن كل تشريف لا يتم إلا بقدر ما يؤدى المقابل له من تكاليف ، فما استحق آدم سجود الملائكة إلا بعد أمرين :

العلم ، ثم اجتياز الاختبار بنجاح :

وهنا أصبح مُعدًّا لمباشرة الخلافة بكل ما عليها وبكل مالها ، وطالما أن هناك مسئولية فلابد أن تتأكد المسئولية بالتزام الأوامر ، والانتهاء من النواهى ، وإلا كيف يبنى الالتزام ؟ وهنا أيضاً يطلب من الملائكة السجود فتسجد ويمتنع إبليس الذى أبَى واستكبر وكان من الكافرين .

(وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)

فطالما هناك تكليف . كان هناك التزام أوامر وهناك نواه . . وبهذا يكون التكريم عليه أعباء والتزامات إذا أديت كان التكريم هو الجزاء وإذا لم تُؤدّ ينتهى بنا الأمر إلى ما تعرض له الربع الأول فى شأن الكافرين والمنافقين .

وكانت أول تجربة لآدم يخرج فيها عن أمر ربه لنعرف أن الخطأ جائز وممكن إلا أن يكون تحديًا

وأن الله تواب رحيم . . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، وبعد أن أمره الله بالهبوط إلى الأرض كفل له الرزق والاستقرار إلى حين لقائه سبحانه وتعالى :

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هُدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تأكيد جديد لما جاء فى الفاتحة بأن هناك رسالات وهناك رسلا ستأتى سيتبعهم من أنعم الله عليهم وسيعصاهم من غضب الله عليهم . وسينحرف بها من ضل عن الطريق ، أى أننا على مسار قراءة القرآن سنرى أمثلة لمن أنعم الله عليهم وأمثلة لمن غضب الله عليهم . . ومن حادوا عن الصراط المستقيم وكيف كان عملهم وكيف كان جزاؤهم فنتعلم من هذه العظة ونتدارك أنفسنا بالخير والعمل الصالح ، وننتهى عند آية مخالفة الله عز وجل ثم ينبه إلى الذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون توضيحا للجزاء فى لقاء المخالفة وفتحاً لباب التوبة كما كانت توبته على آدم بعد هبوطه تبياناً كاملاً لأساس التصرف بين الإنسان وربه وبين الإنسان والملائكة تعريفاً بإبليس ومن يمثلونه على الأرض حتى نتقى الوقوع فى حبائلهم ، وينتهى هذا الربع بالكلام ولأول مرة عن بنى إسرائيل وذلك بمزيد من التفصيل بالنسبة للذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم بالنسبة لبنى إسرائيل فى مجال إعداد المسلم الذى يسعى القرآن لبنائه ينتهى هذا الربع بتحصين المسلم فى مجال بنائه وإعداده لمواجهة أنواع البشر الذين سيلتقى بهم على هذه الأرض ، ويكون من بين من يحذرنا الله منهم بنوإسرائيل وهذا التحذير يأتى من خلال خطاب موجه إليهم لعل وعسى أن يعود إليهم عقلهم ويعود إليهم إيمانهم السابق حينما فضلهم الله على العالمين فجحدوا نعمته ونقضوا عهده فيخاطبهم قائلا (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) وكأنما فى خطابه هذا لهم يوضح تصرفهم بشأن التوراة التى بدلوا فيها وعدلوا ليشتروا بها ثمناً قليلا (وإياى فارهبون) ينبههم إلى أن يرهبوه وحده ثم يشير إلى صفة تعانى منها البشرية كلها من تصرف يهود حتى إنها أصبحت علامة مميزة لهم فى مجال أخبارهم ودعايتهم ، وأعلامهم فيقول : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) . بالمعنى العام كونوا مع الناس ولا تنحرفوا كما انحرف إبليس .

النواهى :

- لا تنقض عهد الله من بعد ميثاقه .
- لا تقطع ما أمر الله به أن يوصل .
- لا تفسد فى الأرض .
- اتبع هدى الله (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

أوامر لبنى إسرائيل وهى أوامر خاصة لها صفة العموم :

١ – اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم .

٢ – أوفوا بعهدى أوف بعهدكم .

٣ – إيّايَ فارهبون .

٤ – (آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به) (القرآن)

٥ – (لا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون) .

٦ – (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

٧ – (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) .

فى تفسير قول الله تبارك وتعالى :

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[٥٢]) فهل إبليس من الملائكة أو من الجن . . وهل هو من الشياطين .

° ° °

معرفة جنس إبليس من المعتقدات التى كلفنا بها ، ومع ذلك فإن معرفة جنسه متوقفة على الخلاف فى كونه من الملائكة أوْ لا : وهو قبل معصيته لأمر الله لا يُعلم حاله بطريق ثابت ، وكل ما قيل فى ذلك فهو منسوب إلى بعض الصحابة ، أما بعد الإخبار بمعصيته ففى معرفة جنسه رأيان :

الرأى الأول : أنه من الملائكة . واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها :

(ا) ظاهر الاستثناء فى قوله تعالى : (فسجدوا إلا إبليس) وهو استثناء متصل يدل على أنه من الملائكة .

---

(٥٢) سورة البقرة آية (٣٤)

(ب) أنه لو لم يكن من الملائكة لما كان أمر الله لهم بالسجود متناولا له ، ولو لم يكن متناولا له استحال أن يكون تركه للسجود إباء معصية ، ولما استحق العذاب ، وحيث حصل ذلك عامًّا بأن الخطاب بالسجود يتناوله فهو من الملائكة .

والرأى الثانى : أنه ليس من الملائكة واستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة منها .

(ا) قوله تعالى : فى سورة الكهف إلا إبليس كان من الجن .

(ب) إن الملائكة معصومون من المعصية لقوله تعالى : (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وإبليس عصى واستكبر عن السجود فهو ليس من الملائكة .

وأدلة الطرفين متناقضة فلا يمكن الأخذ برأى فى هذا الموضوع ولهذا قيل : إن إبليس ليس من الملائكة ولا من الجن بل هو خلق مفرد خُلِقَ من نار ، وإبليس يطلق عليه شيطان ، لأن الشياطين هم شرار الجن – فإن منهم أخياراً ، كما يطلق لفظ الشيطان على من تمرد من الإنس والجن والدواب ، وإذا أردت تفصيلا أوضح فارجع إلى كتاب « آكام المرجان » للمحدث الشبلى ومجلة الأزهر مجلد ٨ ص ٥٦٦ وما بعدها .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين)[٥٣] سورة البقرة آية : ٤٧

* * *

ليس فى القرآن آية تدل على تفضيل بنى إسرائيل على كل العالمين فى جميع العصور وإنما فيه فى سورة البقرة ما يدل على أنهم أفضل عالمى زمانهم ، فقد كانوا مؤمنين بالله ربهم وبأنبيائهم فى وقت كفر الناس فيه بربهم فعوقبوا بعقوبات رادعة من إرسال الجراد على محاصيلهم الزراعية ، وإرسال الضفادع إليهم فأقضت مضاجعهم وحلت بأطعمتهم ، وسال الدم من أجسامهم لابتلائهم بأمراض الحساسية وكانت نهايتهم أن غرقوا فى البحر ونجا موسى عليه السلام ومن معه .

والآيات التى وردت بتفضيل بنى إسرائيل على عالمى زمانهم آيات بسورة البقرة منها : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) .

وبنو إسرائيل الذين لم يؤمنوا بعيسى ومحمد عليهما الصلاةُ والسلام من الخاسرين وليسوا بمساوين لأحد من المسلمين لقول الله تعالى :

---

(٥٣) سورة البقرة – آية (٤٧)

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)

فى تفسير قوله تعالى :

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(٥٤) .

* * *

ليس الإيمان بالله واليوم الآخر ممازجاً للنصرانية واليهودية ودين الصابئة على أوضاعها الحاضرة أو المحرفة عما جاء به الأنبياء والمرسلون ولا تدل الآية على شيء من ذلك ، والذى تدل عليه أن المرء على أى دين كان فجاءه دين الله غير محرف على يد الداعى إلى الحق فاتبعه نجا وفاز أو أن الذى كان عليها كما جاء بها أنبياؤهم دون تغيير قبل التعقيب برسالة أخرى كان على الدين الحق ، والصابئة قوم زعموا أنهم .

على دين نوح وقيل يؤمنون بطائفة من الأنبياء ويعظمون الأحد ويعملون بالمعمودية والاعتراف .

فى قول الله تعالى :

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين)(٥٥)

* * *

ادعى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم دون الناس وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن غيرهم من الناس ليس لهم فى الآخرة نصيب من الخير .

فبين الله سبحانه بالدليل العملى كذب اليهود وافتراءهم حيث طالبهم بتمنى الموت والرغبة فيه ولو تمنوه لوقع بهم .

والواقع أن الآية تشتمل على تحقيق الحق بين المسلمين واليهود ، لقد ادعى اليهود ما ادعوا من الميزات فى الآخرة فأمر الله رسوله أن يساجلهم وأن يقول لهم أنتم تقولون ذلك ، وأنا أقول إنه كذب فقالوا نتباهل أى نقول لعنة الله على الكاذب والموت المحقق لمن يدعى خلاف الحق ، فدعاهم ﷺ إلى ذلك فأبوا ولو أجابوه لنزل بهم الموت ولشرق أحدهم بريقه .

وهكذا تبين كذب اليهود فى دعواهم بهذا التحدى وظهر الحق من عند الله .

---

(٥٤) سورة البقرة – آية (٦٢) . (٥٥) سورة البقرة (٩٤) .

فى تفسير قوله تعالى :

(فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[٥٦] .

* * *

معنى الآية الكريمة : أن مَن ذكر الله بالقلب كالتفكر فى الدلائل الإلٰهية ومظاهر الكمال الربانى فى هذا الخلق البديع ، والتنظيم الذى يجبر المتشككين على الإذعان والتسليم ويزيد المهتدين هدى .

ومَنْ ذكر الله باللسان بألوان الذكر الواردة من التسبيح والتهليل والتقديس والصلاة على الرسول ﷺ .

ومَنْ ذكر الله بالجوارح بأداء أمر ربه والابتعاد عما نهى عنه صادراً فى ذلك عن قلب حى وشعور يقظ .

أثابه الله تعالى برفع درجاته وتحسين مكانته ، وما إلى ذلك من المنازل العالية التى لا تحدها حدود ولا تحصرها قيود وعبر عن ذلك بالذكر لأن من يذكر شيئاً يعرف حقه ويدرك ما له وما عليه . وعلى ذلك فعلى الإنسان دائماً – خاصة المسلم أن يذكر الله على كل حال وفى أى وقت لئلا يُحْرم من فضل الله .

ففى الآية حث على الذكر ودعوة إليه لما ذكرناه .

وبعد الأمر بالذكر وبيان فائدته جاء الأمر بالشكر ، وقدم الأمر بالذكر على الأمر بالشكر لأن الذاكر مشتغل بالله تعالى والشاكر مشتغل بالنعمة والاشتغال بالله أولى من الاشتغال بالنعم .

ومن لا يشكر الله كافر بنعمه ونعم الله كثيرة . . إنها لا تحصى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ومن داوم على شكر الله زاده سبحانه من نعمه .

(لئن شكرتم لأزيدنكم) .

والذاكر الشاكر راض وهو بذلك سعيد فى دنياه حتى إذا لقى الله سبحانه فرح بلقاء ربه .

فى حياة الشهداء فى سبيل الله

حياة الشهداء ، حياة أرواح فقط ، إلا أنها أرقى من حياة غيرها بدليل قول النبى ﷺ أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى رياض الجنة ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش .

---

(٥٦) سورة البقرة – آية (١٥٢) .

غير أن الآية الكريمة تنص بدلالة اللفظ على أنه لا ينبغى لأحد أن يقول فى الشهداء إنهم أموات بدليل قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون[٥٧] .

وللشهداء خاصية أخرى بالنسبة لأجسادهم ، فإنها تبقى بحالها حتى تبعث أرواح أصحابها متصلة بها .

تلك الخاصية ليست لأحد سواهم إلا الأنبياء الصديقين والعلماء العاملين ، وبالاستقراء وجد أجسام كثير من المشهود لهم بالصلاح والتُّقى باقية فى قبورها بحالها لم يصبها شىء من البلى .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٥٨] ،

وفى قول الله تعالى : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشدُّ من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين)[٥٩] .

قال الله تعالى : فى سورة البقرة فى الحث على الجهاد : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل) .

وقال فى آية أخرى : (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل) .

* * *

والمعنى : روى أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة ليترصّد عيراً لقريش فيهم عمرو بن الحضرمى وثلاثة معهم فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وكان ذلك فى غرة رجب وهم يظنونه جمادى . فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام الذى آمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم فسفك فيه الدماء وأخذ الأسارى ، فشق ذلك على أصحاب السرية فنزلت الآية : والمعنى أنهم يستعظمون القتال فى الشهر الحرام ، وما فعلوه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج المسلمين من ديارهم أكبر من القتال فى

---

(٥٧) سورة البقرة – آية (١٥٤) .

(٥٨) سورة البقرة – آية (١٩٠) .

(٥٩) سورة البقرة – آية (١٩١) .

الشهر الحرام ، والأفظع منه فتنة المسلمين عن دينهم والشرك فى الحرم أشد قبحاً فلا تبالوا أيها المسلمون بقتالهم فى أى مكان وأى زمان .

والذى يرى المنكر يرتكب يجب عليه أن يغيره بأى نوع من أنواع التغيير . ولا يسكت عنه ، فمن وصايا لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وحديث الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

فى تفسير قول الله تعالى :

(أحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . إلى آخر الآية[٦٠] .

* * *

أما قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) فإنه نزل لإزالة لبس حدث فى أول تشريع الصيام ، وذلك أن بعض المؤمنين ظن أن اتصال الرجل بزوجه ومباشرته لها محرم ليلا ، كما هو محرم نهاراً ، فبين الله لهم أن الرفث وهو مباشرة الرجل زوجه ليس بحرام فى ليالى رمضان ، وإن كان محرماً فى نهاره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[٦١] .

* * *

إن هذه الآية الكريمة تتضمن دعاءً مباركاً وقد كان رسول الله ﷺ يرددها كثيراً ، روى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنساً ، أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبى ﷺ ؟ قال : يقول : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وكان أنس رضى الله عنه إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها :

---

(٦٠) سورة البقرة – آية (١٨٧) .

(٦١) سورة البقرة – آية (٢٠١) .

ولقد حدث عبد السلام بن شداد كما يذكر ابن كثير – قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم قال :

« اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال يا أبا حمزة إنّ إخوانك يريدون القيام فادعوا الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور؟ إذا أتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله .

والحسنة فى الدنيا أوسع من أن تختص بباب من أبواب الخير دون غيره فهى شاملة لجميع أنواع الخير ، وقد جمعت كما يقول الإمام ابن كثير كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر ، فإن الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب حصين وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبادات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلّها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا .

وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرضات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة . وقبل أن نترك الكلام عن هذه الآية الكريمة نذكر ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ .

هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟ قال نعم : كنت أقول :

اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ :

سبحان الله ، لا تطيقه أولا تستطيعه فهلا قلت :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

قال فدعا الله فشفاه . والله أعلم .

فى قوله تعالى :

(نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين)[٦٢] .

* * *

يقول الإمام السجستانى فى غريب القرآن عن هذه الآية :

---

(٦٢) سورة البقرة – آية (٢٢٢) .

الحرث هو إصلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ويسمى الزرع الحرث أيضاً :

ولما كانت النساء مواضع النسل وما ينبغى فيهن من نطف الرجال فقد شبهتهن الآية الكريمة بالأرض التى هى موضع الإنبات والزرع . فنطفة الرجل التى تلقى فى الرحم فيكون منها الولد كالبذر الذى يلقى فى الأرض لإنبات الزرع . فيكون معنى الآية الكريمة : نساؤكم مواضع نسلكم كالأرض موضع حرثكم فكما تأتون أرضـــكم لإصلاحها ، وإلقاء البذر فيها من أى جهة شئتم فأتوا نساءكم من أى جهة شئتم ما دام الإتيان فى موضع الحرث أى « القبل » إذ هو موضع المرأة فلا حرج أن تأتيه من الأمام أو من أى جهة تشاء .

وقدموا الخير الذى أمركم الله به لأنفسكم وذلك شامل لصالح الأعمال ، قال تعالى : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا) .

وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند غشيان الزوجة ومن الأدعية المأثورة فى هذه الحالة « بسم الله اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » ولا مانع أن يشمل ذلك كله ، واتقوا الله وخافوا ربكم وراقبوه فى جميع أحوالكم فافعلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه واعلموا أنكم مُلاقوه ، فمجازيكم على أعمالكم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

وبشر المؤمنين الذين يعملون خير الأعمال ويتركون قبيحها . روى أن اليهود كانوا يقولون : مَنْ جامَع امرأته من الخلف فى قبلها جاء ولدها أحول فذكر ذلك درسول الله ﷺ فقال صلوات الله وسلامه عليه كذبت اليهود ونزلت الآية :

يقول الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشاف وقوله تعالى : (فأتوا حرثكم أنّى شئتم من الكتابات اللطيفة والتفويضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها فى كلام الله لقوله هو أذى فاعتزلوا النساء ، وقوله فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مللها فى محاوراتهم ومكاتباتهم .

أما آية : (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . . الآية (٥٨) من سورة النور فقد اشتملت على كثير من الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ، ومن هذه الآداب الحميدة والتوجيهات السديدة ومن هذه الآيات يجب أن يأخذ الآباء بها أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد ، كما يؤدب بها الإماء والعبيد . والاستئذان قبل الدخول فى ثلاث حالات قد يكون الإنسان فيها مكشوف العورة أو هو معرض لكشفها ، لأنه فى هذه الحالات الثلاثة غالباً ما يخلع ملابسه ويستبدل بها من الملابس أو الغطاء ما لا يؤمن معه كشف ما لا يحسن كشفه أما الإماء

أو الأطفال وهذه الأوقات الثلاثة وقت القيلولة وبعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر وقد سماها القرآن عورات ثلاث ، إذ فيها يختل نظام الإنسان فى ملبسه على الوجه الذى شرحنا «بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) أمر الله سبحانه المؤمنين بأن يؤدبوا عبيدهم وإماءهم وكذلك أطفالهم الذين لم يبلغوا من التكليف بهذا الأدب الإسلامى الجميل ، وهو الاستئذان قبل الدخول بملبسهم ثلاث مرات فى اليوم والليلة هى : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة – أى تخلعوها فى القيلولة – ومن بعد صلاة العشاء هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز دخول الصغار والإماء فيها إلا بعد الاستئذان لتكونوا قد سترتم فيها ما عساه أن يكون قد انكشف من عوراتكم فقبل صلاة الفجر وقت القيام من النوم وطرح الثياب التى ينام فيها ، ووقت الظهيرة تخلع الملابس للقيلولة وبعد صلاة العشاء وقت التجرد من ثياب اليقظة وارتداء ثياب النوم ، أما عدا هذه الأوقات الثلاثة فلا حرج عليكم فى أن يدخل إماؤكم وصغاركم عليكم فيها ، بلا استئذان لأنهم يطوفون عليكم لخدمتكم وتطوفون عليهم لاستخدامهم وطلب ما تحتاجون إليه منهم .

ليس عليكم جناح بعدهن أى بعد الأوقات الثلاثة المذكورة (طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض ، فالحاجات بينكم وبينهم متداخلة والمصالح متشابكة والأمر بالاستئذان فى كل وقت يؤدى إلى الحرج (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى مثل ذلك البيان والتوضيح يوضح الله لكم آياته والله عليم حكيم بأحوالكم وما يصلح أمركم ، حكيم فيما يشرعه لكم من آداب وأحكام .

روى عن مدلج بن عمرو – وكان غلاماً أنصاريا – أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهيرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليدعوه فدخل عليه وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه : فقال عمر : لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا ألاّ يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبى ﷺ فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية : وهى إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضى الله عنه وقيل نزلت فى أسماء بنت أبى مرشد قالت : إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلها يكونان فى لحاف واحد – وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون فى حال نكرهها – فنزلت الآية الكريمة :

فى تفسير قول الله تعالى :

(والذين يُتوفَّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن

فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير[٦٣]) .

* * *

والمعنى أن الذين يموتون ويتركون زوجات لهم : يجب على الزوجات أن ينتظرن بدون تعرض للزواج ولا يصح العقد عليهن فى مدة أربعة أشهر وعشرة أيام ، فإذا انتهت تلك المدة فلا إثم ولا حرج على ولاة أمورهن فى السماح لهن بالتزين والتجمل والتعرض للزواج فى حدود ما هو معروف فى الشرع ، والله ، سبحانه وتعالى : بما تعملونه خبير ، فلا يخفى عليه شىء من التحايل فى مخالفة المعروف فى شرعه ودينه .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام .

ولكن آية فى سورة الطلاق خصصت تلك الآية بغير الحامل حيث قال الله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والمقصود من المعروف ما يقره الشرع من التزين المقبول ، فإذا تبرجت النساء أو تزين بما يخالف الشريعة الغراء أثِمْن ووجب على ولاة أمورهن منعهن .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد[٦٤]) .

* * *

يأمر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بالصدقة من طيبات أموالهم ، قال حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه .

ونهاهم عن التصدق براذلة المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله طيّبٌ لا يقبل إلا طيباً .

ويقول الإمام ابن كثير : ولهذا قال : (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون .

والهدف الذى من أجله ذكرنا هذه الآية الكريمة هو أن كثرة الثواب فى الصدقة تابعة لطيب المتصدق به وجودته فإن كانت فضلات الطعام هى الأطهر الأنفس الأجود فثوابها أكثر .

---

(٦٣) الآية (٢٣٤) من سورة البقرة .

(٦٤) الآية (٢٦٧) من سورة البقرة .

على أن كثرة الثواب فى الصدقة متعلق بأمر ثان أيضاً هو صفاء المتصدق وإخلاصه وإرادة وجه الله سبحانه فى تصدّقه .

والخلاصة أن كثرة الثواب على الطيب من الصدقة أى أن تكون المتصدَّق به طيباً فى النوع وطيباً من حيث نيّة المتصدق .

يقول الله تعالى :

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيّات »

فعلى قدر جودة المتصدَّق به وعلى قدر صفاء المتصدَّق يكون الثواب .

فى تفسير قول الله تعالى :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال مَن أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلْتَ واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين[٦٥]) .

ما يتعلق بالمفردات :

أحسّ عيسى : أى علم ويقول أبو منصور اللغوى : يقال أحسست بالشىء وحسست . وقول الناس فى المعلومات محسوسات خطأ . والصواب المحسّات ، فأما المحسوسات فهى المقتولات يقال حسه إذا قتله .

والأنصار : الأعوان . واستنصرهم طلب عونهم على إقامة الحق وبيان أمر الله المُوحَى به .

والحواريون : هم كما يقول الإمام ابن عباس أصفياء عيسى ، ويقول الفراء هم خواص عيسى . أما الحواريون فى اللغة فهم الذين طهروا من كل عيب .

وهؤلاء الحواريون كانوا اثنى عشر رجلا . وكانت صناعتهم صيد السمك كما يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما .

لقد استجاب هؤلاء للدعوة إلى الله وقالوا فى صدق وإخلاص نحن أنصار الله . والدعوة إلى الله والاستجابة إلى هذه الدعوة معناها الإيمان الصادق بالتوحيد الخالص .

والتوحيد الخالص فى الماضى وفى الحاضر وفى كل مكان وفى كل زمان إنما هو الإيمان بأن الله

---

(٦٥) آيتا (٥٢ ، ٥٣) من سورة آل عمران .

وحده هو المتصرّف فى الكون لا شريك له فى الذات ، ولا شريك له فى الفعل ، من خلق ورزق وإعطاء ومنع وحياة وموت .

وقد بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة هذه العقيدة فى استفاضة وفى دقة لا مزيد عليها .

وليس فى العالم الآن نص مقدس للأسلوب الإلهى يشرح الإيمان بالله كما يشرحه القرآن .

والكلمة التى تعبر عن هذا فى إحاطة شاملة وفى عمق عميق هى كلمة الإسلام . ومن أجل ذلك عبر الحواريون عن شعورهم العامر بالإيمان بالله بقولهم لعيسى عليه السلام : واشهد بأنا مسلمون .

وإذا أردنا شرحاً لكلمة الحواريين واشهد بأنا مسلمون فإننا نقول : إن رسولنا ﷺ : سئل عن الإسلام ما هو فقال : أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

لقد أسلم الحواريون قلوبهم لله فأصبحوا مسلمون ، والإسلام بهذا المعنى هو التوحيد . وإذا وجد الإنسان ربه فإنه يسير فى جو : إياك نعبد وإياك نستعين : وجو إياك نعبد وإياك نستعين هو الجو الإسلامى الصادق وهو جو الأنبياء فى رسالتهم الصافية .

إن سيدنا نوحاً يقول : وأمرت أن أكون من المسلمين .

لقد أمر أن يسلم قلبه لله تعالى ، وأمر أن يدعو قومه إلى ذلك . يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) .

وأما هود فقد قال لقومه : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . وصالح أيضاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وكل الرسل أمروا بالتوحيد وأمروا به أى أُمروا وأَمروا بإسلام القلب لله ، وكانوا بذلك مسلمين ، وكانوا بذلك يسيرون على منهج إياك نعبد وإياك نستعين .

وكان الحواريون مسلمين بهذا المعنى :

والإسلام بهذا المعنى هو الدين : إنه الدين فى إطلاقه المطلق زماناً ومكاناً ، وفى تحديده المحدد فى القلب ، وفى السلوك وهو بذلك الدين عند الله .

إن الدين عند الله الإسلام .

وإذا كان ما قدمنا منطقاً دقيقاً لقضية (إن الدين عند الله الإسلام) ولا يتمارى فى ذلك أحد – فإن معنى ذلك أن إسلام القلب لله هو الدين منذ الأزل ، ولقد جاءت الرسل به ، وبكيفية الوصول إلى تحققه فى القلب والشعور ، لقد حققه الحواريون .

وتابع الحواريون حديثهم قائلين (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) .

وما من شك فى أن من اتبع الرسول على الوضع السليم فإنه يسلم قلبه لله ، ومن أسلم قلبه لله فإنه يكون بذلك قد هيأ نفسه ليكتبه الله مع الشاهدين .

والشاهدون هم الصادقون المخلصون فى إيمانهم . اعترفوا به قولا وصدقوا قلباً ، وأقاموه بجوارحهم .

أما كيفية إسلام القلب لله فى العصر الحاضر ، فقد تكفل بها القرآن الكريم فى تفصيل مفصل وفى دقة دقيقة بالأسلوب الإلهى نفسه الذى قال الله عنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

فى معنى قوله تعالى :

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين)[٦٦]

* * *

هذه الآية من آيات سورة آل عمران المباركة ، وسورة آل عمران تتحدث فيما تتحدث عنه – عن عقيدة التوحيد لله سبحانه ، وهذه العقيدة هى جوهر عقيدة الإسلام التى قررها رب العزة وشهد بها هو وملائكته وأولو العلم فقال فى السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) .

وقد جاءت الآية المسئول عنها فى هذا الإطار من الدعوة إلى التوحيد ونبذ غيره من الأديان ، سواء كانت ديانات صحيحة ثم حرفت أو اتجاهات فكرية فاسدة أدت إلى الشرك والإلحاد كعقائد الوثنية والشيوعية وغيرها .

ولكى يزداد الجواب وضوحاً نحب أن نقول : إن الآية الكريمة المذكورة سبقت بآيات أربع تقرر عقيدة الإسلام منذ الأزل فهى دعوة الرسل كلهم جميعاً منذ آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام بأن يكون من جوهر رسالتهم ودعوتهم إلى الله أن يؤمنوا بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء وينصروه وإن بعث بعدهم مع ما آتاهم الله من علم ونبوة كريمة وحكمة .

وقد أقروا جميعاً عليهم السلام وشهدوا وشهد الله معهم على هذا الميثاق وتوعد الله من ينقض هذا العهد بالعذاب ووصفه بالفسوق والعصيان ، ثم ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً سوى دين الله الإسلام القائم على التوحيد الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ثم أمر رسوله الكريم ﷺ أن يسلك نفسه فى هذا العهد والميثاق من دعوة الرسل لله المسماة بالإسلام لا يفرق بين أحد منهم

(٦٦) سورة آل عمران – آية (٨٥) .

ويؤمن بهم جميعاً كما آمنوا به فى العهد والميثاق الذى أخذ عليهم ، ويعلن فى صراحة ووضوح أن دينه وهو دين (الإسلام) ما هو الإ امتداد وإكمال لدعوة مَن سبقه من الرسل والأنبياء .

ثم تأتى بعد ذلك الآية المسئول عنها ليقرر فيها الحق سبحانه أن من سلك طريقاً آخر غير الإسلام أيًّا كان هذا الطريق سواء كان ديناً محرّفاً عن وجهه الصحيح ، أو عقيدة فاسدة قامت على اتباع الهوى وميل النفس والشيطان ، كل ذلك لن يقبل من صاحبه لأنه مهما حل من الفضائل فهو بعيد عن أمرين :

الأمر الأول : عقيدة التوحيد لله سبحانه .

والأمر الثانى : الإيمان بالله والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، وبدون هذين الأمرين لا تقبل عقيدة مهما كانت : أما الآيات فهى قوله سبحانه :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرى ، قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوْعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ثم جاءت الآية الكريمة بعد ذلك قائلة .

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .)

فى قوله تعالى :

(فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين[٦٧])

* * *

معنى الآية كما ورد فى كتاب الكشاف للزمخشرى وروح المعانى للألوسى وتفسير الحافظ وابن كثير وغيرهم ، فمن حاجك أى جادلك وخاصمك من النصارى فى شأن ليس من بعد ما جاءك من البينات الموجبة للعلم فقل : « تعالوا » أى هلموا ندع كل منا ومنكم أبناءه ونفسه إلى المباهلة ،

(٦٧) سورة آل عمران - آية (٦١) .

ثم نتباهل بأن نقول : مبهلة الله « أى لعنة الله على الكاذب منا ومنكم ، يقول الزمخشرى : البهلة بالفتح والضم لعنة وبهله الله ، لعنه وأبعده من رحمته ، من قولك أبهله إذا أهمله ، وأصل الابتهال هذا ، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه ، وإن لم يكن التعاناً يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا وفد نجران : إن النصارى لما قدموا على رسول الله ﷺ فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم ، قال الإمام محمد بن إسحق بن بصار فى سيرته المشهورة وغيره : قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يئول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكربن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد وابناه وخويلد ، وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم وهم : العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلا من رجال العرب من بنى بكربن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس ، واخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وكان يعرف أمر رسول الله ﷺ . وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ، ولكنه استمر فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها قال ابن إسحاق وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية يقول ، من رآهم من أصحاب النبى ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (دعوهم) فصلوا إلى المشرق قال : فكلم رسول الله ﷺ من أبى حارثة بن علقة والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم يقولون هو الله ، أى (عيسى) ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً ، وفى كل ذلك من قولهم نزل القرآن .

فلما كلمه حبران قال لهما رسول الله ﷺ « أسلما » قالا قد أسلمنا قال : إنكما لم تسلما فاسلما « قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما أن لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير .

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما فأنزل الله فى ذلك قولهم أمرهم سورة آل عمران فى بضع وثمانين منها .

وجاء فى تفسير الألوسى أن رسول الله ﷺ لما تلا عليهم قوله تعالى :

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) قالوا : إن ما نعرف ما تقول ونزل (فمن حاجّك . .) الآية .

فقال لهم رسول الله ﷺ إن الله تعالى قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم » فقالوا يا أبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك ، وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن طريف عطاء والضحاك عن ابن عباس أن ثمانية من أساقفة أهل نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقب والسيد فلما نزلت آية المباهلة قالوا : أخرنا ثلاثة أيام فخلا بعضهم ، وتصادقوا فيما بينهم .

قال السيد للعاقب ، قد والله علمتم أن الرجل نبى مرسل ، ولئن لاعنتموه إنه ليستأصلكم وما لاعن قوم نبيًّا قط ، فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لم تتبصروه تبصرة ، وأبيتم إلا ألف دينكم ، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم .

وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه على والحسن والحسين وفاطمة فقال رسول الله ﷺ « إن أنا دعوت فأمّنوا أنتم » فأبوا أن يلاعنوه ، وصالحوه على الجزية .

وعن الشعبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد أتانى البشير أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة .

وروى أن أسقف نجران لما رأى رسول الله ﷺ مقبلا ومعه على وفاطمة والحسنان رضى الله عنهم قال : يا معشر النصارى إنه رأى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لانباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا ونصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة ، ألف فى صفر وألف فى رجب وثلاثين درعاً عادية من جديد ، فصالحهم على ذلك وقال : والذى نفسى بيده أن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ولا استأصل الله نجران وأهله حتى يطيروا على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى وكلهم حتى يهلكوا .

وبعد فالسائل بعد هذا البيان قد عرف الإجابة عن كل ما أورد من أسئلة . والله الموفق .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون[٦٨]) .

* * *

أرسل رسول الله ﷺ كتباً إلى النصارى يدعوهم فيها إلى الإسلام وفى هذه الكتب قوله تعالى : (بسم الله الرحمٰن الرحيم) وهى آية من القرآن الكريم وفى بعضها ، قوله تعالى : (يٰأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) وهذا نص قرآنى ، وأرسل رسول الله هذه الكتب وهو يعلم أن هؤلاء النصارى يمسونها ، وقد يكون أحدهم جُنباً ، ومن هنا رأى الإمام داود الظاهرى والإمام ابن حزم والإمام البخارى : إنه يجوز مس المصحف للجنب ، أما من حرم ذلك فإنما حرمه تعظيماً للمصحف وتكريماً ، وتعظيم المصحف وتكريمه تقتضى أن يرفع المسلم المصحف مباشرة إذا رآه مُلقىً فى نجاسة ولو كان جُنباً فإذا تركه فإنه يكون آثماً بتركه ، وإذا رفعه ولو كان جنباً فإنه يُثاب على رفعه وقوله تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون.لا يمسه إلا المطهرون) « فسرها الإمام البيضاوى – على أحد مذاهب التفسير – بقوله : « فى كتاب مكنون » : مصدق ، وهو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون ، لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدرات الجسمانية وهم الملائكة .

ويجوز إعطاء المصحف لغير المسلم لإصلاحه إذا كان ممزقاً أو لتجليده إذا لم يوجد مسلم يقوم بهذا العمل ، أما إذا وجد مسلم يقوم بذلك فهو أولى : وذلك لأن المسلم – لإيمانه يعظم المصحف ويحترمه ، أما غير المسلم – لعدم إيمانه بالقرآن لا يتحرى الاحترام والتكريم .

فى قول الله تعالى :

(كنتم خير أمة أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون[٦٩]) .

* * *

بين الله سبحانه وتعالى السبب فى خيرية الأمة الإسلامية وذلك هو قيامها فرداً فرداً بالأمر بالمعروف ، والمعروف الذى تقدم الأمة الإسلامية على الأمر به هو الحق ، وهو الخير ، وهو الفضيلة ، وهو العدل ، وهو الرحمة ، وهو كل هذه الآداب السامية والشيم الجميلة التى أتى بها

---

(٦٨) آل عمران آية (٦٤) .

(٦٩) سورة آل عمران – آية (١١٠)

الإسلام والتى يتضمنها الإيمان مبتدئة بإماطة الأذى عن الطريق حتى تنتهى بشهادة أن لا إله إلا الله .

والمنكر الذى تحاربه الأمة الإسلامية وتنهى عنه إنما هو الرذيلة بجميع ضروبها ، وهو الظلم على اختلاف ألوانه ، وهو التعدى غدراً وخيانة ، وهو كل ضرب من ضروب البطش والجبروت . إن الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ثم لإيمانها بالله الذى حدد الله فى نطاقه تحديداً كاملا الخير والشر .

ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المبادئ التى اهتم الله سبحانه ورسوله بتوطيده توطيداً محكماً ، ولقد أمر الله به ورتب عليه الفلاح فقال سبحانه : ولتكن منكم أمة ،

وإذا كانت الأمة الإسلامية خير أمّة أُخرجت للناس لهذا فإن الله لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل لأنهم ما كانوا يقومون بهذا المبدأ فقال سبحانه : (لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل . .) الآية .

ولقد بين رسول الله ﷺ عاقبة اتباع مبدأى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى النجاة ، وعاقبة إهمالها وهى الغرق فقال فى حديث رائع : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم فقالوا .

إنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

فى قوله تعالى :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين [٧٠]) .

* * *

هذه الآية نزلت تعقيباً على ما حدث فى غزوة أُحد حينما أُشيع بين الناس أن محمداً ﷺ قد قتل ورأى بعض الصحابة أن الحاجة إلى القتال قد انتهت وخارت عزائمهم ، ولكن بعض الصحابة ثبتوا فى مواقعهم وتمسكوا بالقتال . . عن أنس رضى الله عنه أن عمه أنسَ بن النضير غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله النبى ﷺ للمشركين لئن أشهدنى الله قتالا للمشركين

(٧٠) سورة آل عمران - آية (١٤٤) .

ليرين ، ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك عما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعنى المشركين ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد ، فقال سعد : أنا معك قال سعد : فلم أستطع أصنع ما صنع . فوُجِدَ فيه بضع وثمانون من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ، قال : فكنا نقول : فيه وفى أصحابه نزلت (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) .

ونزلت الآية الكريمة : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن الدين والرسالة لا يرتبطان بحياة الرسول ﷺ الدنيوية أو انتهاء هذه الحياة فالمؤمن حقًّا يدافع عن الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم النّاسُ إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم[٧١]) .

* * *

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران :

(الذين استجابوا . . . . . ذو فضل عظيم) الآيات

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى جملة ما نزل من آيات فى غزوة أحد ، ولقد كان فى غزوة أحد دروس وعظات كثيرة ، وكانت عاقبة هذه الغزوة خيراً بالنسبة للمسلمين ، فقد علمتهم أموراً كثيرة نذكر منها أمراً واحداً فقط هو :

أن يلتزموا التزاماً تامًّا بأمر القائد مهما كانت الظروف ، ومهما صور لهم خيالهم أنهم أصبحوا فى حِلٍّ من مخالفة الأمر . وذلك أنهم رأوا بأعينهم بغية مخالفة الأمر وهو ما بدا من مظهر الهزيمة .

وما إن انتهت المعركة بهذا المظهر حتى ركب الأعداء راجعين إلى مكة ، ولكن المسلمين ظنوا أن الأعداء ركبوا مسرعين من أجل الذهاب إلى المدينة ، وكان هذا هو المنطق الطبيعى لغلبتهم : أن يذهبوا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام نهائيًّا .

(٧١) سورة آل عمران – الآيات (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤) .

فدعا رسول الله ﷺ المسلمين للنهوض من كبوتهم والاستعداد لسبق العدو إلى المدينة إذا كان حقًّا ذاهباً إليها . ولمَّ المسلمون شعثهم وضمدوا جراحهم وحفزهم الإيمان والثقة فى الله على النشاط والعمل ، واستجابوا بذلك لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح : أى نالهم الجراح والطعنات والضرّ على جميع ألوانه يوم أحد .

فوعد الله سبحانه وتعالى الذين أحسنوا منهم واتقوا الأجر العظيم . وهل ذهب المشركون إلى مكة دون تردد أو تلاوم ؟

كلا فإنهم حين سار بهم الطريق عادوا إلى أنفسهم يتساءلون أكانت المعركة فاصلة ؟ أأحسنوا فى العودة إلى مكة ؟ وأخذوا يترددون ويتلاومون ويجيلون الرأى فيما بينهم ثم رأوا أن يمكروا بالمسلمين ليروا أثر الهزيمة فى نفوسهم فأرسلوا إليهم يذكرون فيها أنهم قد جمعوا لهم جموعهم من جديد ليستأصلوا عن آخرهم .

وحين بلغت هذه الرسالة التى حاول المشركون أن يظهروها بمظهر الرسالة العرضية استعد المسلمون استعداداً كاملا للمعركة من جديد . وعبر القرآن عن ذلك فى أسلوب جميل وفى روح قوية وفى معنى من الإيمان عميق ، يقول الله تعالى : (الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

فلما كان ذلك رد الفعل فى نفوسهم أثابهم الله تعالى على ذلك بما عبر سبحانه وتعالى عنه بقوله .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

فى قوله تعالى :

(يأيُّها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً[٧٢]) .

* * *

قال ابن عباس فى هذه الآية . كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها . . وإن شاءوا زوجوها وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية :

وفى بعض الروايات عنه : أن الرجل كان يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عنه بذلك أى نهى عن ذلك .

(٧٢) سورة النساء آية (١٩) .

وقيل : كان الرجل إذا مات وترك زوجه ألقى عليها قربه ثوبه فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها فنزلت الآية .

ولا يخفى ما كان فى ذلك كله من تصرفات الجاهلية – من إهدار لحرية المرأة وكرامتها واستهانة بحقها ، فمنعه الله تعالى وترك لها حرية اختيار من تقبله من الأزواج بعد انقضاء عدة الوفاة ، وارتفع بها عن أن تكون مادة من المواد الموروثة عند الزوج .

فإذا ما انقضت العدة تقدم للزواج بالمرأة من شاء من الرجال من أقارب الزوج أو من غيرهم ، فمن قبلت الارتباط به حل له زواجها .

ويستوى على ذلك أى قريب للزوج ، فيجوز تزوجها من شقيقه ومن ابن عمه وابن خاله : نعم لا يجوز لها الزواج من أبيه لأن الله تعالى جعل من المحرمات حلائل الأبناء أى زوجاتهم .

ولا يجوز لها الزواج من ابنه لأن الله تعالى قال .

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) .

وما عدا ذلك من الأقارب يحل له الزواج منها ، ويحل لها الزواج منه ، بعد العدة وبعد استيفاء شروط النكاح .

فى تفسير الآية الكريمة وهى قوله تعالى :

(الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[٧٣]) .

* * *

هذه الآية تعالج أموراً خطيرة من أمور الأسرة بصفتها مجتمعاً صغيراً يحتاج – ككل مجتمع من المجتمعات – إلى قائد يقوم على أمره ويسوس شئونه ويرجع إليه الأمر فى إدارة السفينة ، فتقرر الآية الكريمة الشأن فى القيام على النساء ورعايتهن وتوجيههن كما يوجه الراعى رعيته بالأمر والنهى ونحو ذلك هو للرجال .

يقول الإمام الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة (الرجال قوامون على النساء) للإيذان بعراقة الرجال ورسوخهم فى الاتصاف بما أسند إليهم .

وعلل سبحانه وتعالى : هذا الحكم بأمرين

---

(٧٣) سورة النساء (٣٤) .

أحدهما : فطرى خلقى (بما فضل الله بعضهم على بعض) والآخر : فى الأصل التكوينى والخلقة فالشأن أن الرجال مهما قاموا بفطرتهم وتكوينهم للقيام بهذه المهمة فهم قوامون على النساء بسبب تفضيل الله تعالى لهم عليهن ، ولذلك خصوا بالرسالة والإمامة الكبرى ، فلا تكون المرأة خليفة للمسلمين ، والإمامة الصغرى فلا تصلى إماماً للرجال . كما خصوا كذلك بإقامة الشعائر كالأذان والإقامة والخطبة والجمعة والشهادة فى أمهات القضايا ، وجعلت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل فى قضايا المعاملات .

قال تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تَضِلّ إحداهما فتُذكّر إحداهما الأخرى) .

الأمر الثانى : فى التعليل لهذا الحكم أمر كسبىّ وليس فطريًّا والشأن أن يقوم به الرجال ، وهو قوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم) قال مجاهد : إنه المهر ، ويجوز أن يُراد به ما يعم المهر والإنفاق عليهن ، فالرجال هم الذين يدفعون المهور للنساء وهم الذين يجب عليهم الإنفاق عليهن حتى ولو كنّ غنيّات بمالهن الخاص بهن .

ثم بينت الآية بعد ذلك المنهج الذى يسلكه الرجال إذا نشزت المرأة وخرجت على طاعته من وعظ وهجر فى المضاجع وضرب غير مبرح ، فإذا أطاعت واستقام أمرها فلا سبيل لبغى الرجل عليها أو طلاقه لها ، (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)

ولعله من المفيد أن نبين سبب نزول هذه الآية ليتبين للناس مدى عناية شرع الله تعالى بأمور الأسرة وما يصلح شأنها يقول : الألوسى : والآية كما روى عن مقاتل : نزلت فى سعد بن الربيع ابن عمرو ، وكان من النقباء وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن زهير وذلك أنها نشزت عليه فلطمها .

فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها . فقال النبى ﷺ لتقتص من زوجها . فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبى ﷺ : ارجعوا هذا جبريل عليه السلام : (أتانى) وأنزل الله هذه الآية : الرجال قوامون على النساء . . إلخ .

فتلاها ﷺ ، ثم قال : أردنا أمراً وأراد الله تعالى أمراً والذى أراده الله تعالى خير . . وقال الكلبى نزلت فى سعد بن الربيع وامرأته خولة بنت محمد بن سلمة وذكر القصة وقد استدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ، وأن عليها طاعته لا فى معصية الله تعالى ، وأن أفضلية الرجل على المرأة إنما بالفطرة والتكوين والخلق حتى إن كان فقيراً ففقر الرجل لا يجعل المرأة أفضل منه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(حُرِّمتْ عليكم الميتةُ والدَّم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به وَالْمُنْخَنِقَةُ والمَوْقوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحةُ وما أكلَ السَّبع إلا ما ذكّيتم وما ذُبح على النُّصُبِ [٧٤]) .

* * *

أل فى الآية الكريمة للجنس الشامل للبرى المتوحش والمستأنس الذى يُربّى فى البيوت ويألف لأنه لم يرد من السنّة تخصيص لبعض أنواعه دون البعض .

ونفهم من نص الآية الكريمة : أن أكل لحم الخنزير بصفة عامة حرام يجب البعد والكف عن تناوله والاجتناب الكلى عنه امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى واتباعاً لرسوله ﷺ ، فإنه الإمام والقدوة الحسنة الذى تجب متابعته دون متابعة الذين يتناولونه من غير المسلمين .

وما أظن الذين يحرصون على تناول لحم الخنزير البرى مفرقين بينه وبين الخنزير الذى يربى فى البيوت ، إلا تابعين لغير المسلمين تحقيقاً لمعجزة النبى ﷺ فى الذين يخالفون عن أمر الله وعن أمر الرسول ﷺ حيث يقول : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً شبر ، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضَبٍّ خرب لسلكتموه » إذن فإن لحم الخنزير سواء كان برياً أو مربّى فى البيوت – لا يصح لمسلم أكله ولا يجوز مطلقاً تناوله .

فى تفسير قول الله تعالى :

(اليوم أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ مُحصنين غير مُسافحين ولا مُتَّخذِى أخدانٍ ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبِطَ عملُهُ وهو فى الآخرةِ من الخاسرين) [٧٥] .

* * *

والمحصنات : هُنَّ العفيفات العاقلات الممتنعات عن الزِّنى والفساد .

والآية دالة على جواز نكاحهن دون غيرهن من أهل الشرك من المجوس ومنكرى الدين جملة .

فيجوز على هذه الآية نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية بدليل هذه الآية .

---

(٧٤) سورة المائدة – آية (٣) .

(٧٥) سورة المائدة – آية (٥) .

ويرى ابن عمر أن اليهودية والنصرانية من أهل الشرك لأنهم بدّلوا الدين ، وقالوا فى الله تعالى ما لا يليق به .

والجمهور على خلاف ذلك :

نعم يجوز للحاكم لمصلحة خاصة أن يمنع مثل هذا النكاح إذ رأى فيه ما قد يضر بالدولة أو يسىء إلى النظام العام .

من ذلك ما فعله عمر مع بعض الصحابة ممن تزوج بغير مسلمة .

فى تفسير قوله تعالى :

(يهدى به الله مَنِ اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذْنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم) (٧٦)

* * *

قال المفسرون فى معنى هذه الآية : إن الله سبحانه وتعالى يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير .

وإن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك والضلال .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

وإنما جمع سبحانه وتعالى لفظ الظلمات ووحد النور ولم يجمعه لأن الحق الذى هو مُشبّه بالنور واحد ، والكفر الذى هو الظلمات أجناس كثيرة وأصناف متعددة وكلها باطلة ، كما قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) .

ففى هذا إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه ولذا كان طريق الإيمان واحداً لا اعوجاج فيه ولا التواء ولا تفرق .

وأما الكفر والضلال فطرقها متعددة متشعبة .

---

(٧٦) سورة المائدة – آية (١٦) .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (٧٧)

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وفى سورة المائدة يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم ، إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين) .

* * *

وهذه الآيات كلها ، وغيرها كثير ، صريحة فى أنه لا يصح أن يكون الأب المسيحى وليًّا لابنته المسلمة فى عقد زواجها .

وقد يسأل إنسان : ومن يكون الوالى إذاً ؟

إن الوالى الذى يتولى عقد الزواج فى مثل هذا هو الحاكم المسلم أو من يقوم مقامه من المسلمين أو مَن توكله هى أن يتولى عقد زواجها .

أما إذا رفض الأب المسيحى زواج ابنته التى أسلمت من شخص صممت هى أن تتزوج منه بعد أن أسلمت فليس لرفض الأب قيمة .

وإذا عقد العقد عند مأذون شرعى واستوفى شروطه من وجود الوكيل الذى توكله الزوجة ، ومن وجود الشهود ، فعقد الزواج صحيح ولا يؤثر رفض الأب المسيحى فى صحته .

فى معنى قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) (٧٨)

* * *

وبهذا قطع الله سبحانه وتعالى الطريق على كل متعلل لشربها وأبى قبول أى عذر ممن يتناولها ،

---

(٧٧) سورة المائدة - آية (٥٥) .

(٧٨) سورة المائدة - آيتا (٩٠ - ٩١) .

والصلاة عماد الدين ، وبين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ، وقد حدد الله تعالى لها مواقيتها وأمر بمراعاة هذه الأوقات قال تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

ونزل جبريل فصلى بالنبى ﷺ كل صلاة وبيّن من الصلوات فى يومين متتابعين ، وفى اليوم الأول كانت صلاته فى أول الوقت ، وفى اليوم التالى كانت صلاته فى آخر الوقت ، وبيّن بعد ذلك أن ما بين صلاته من وقت هو وقت الصلاة المطلوب أداؤها فيه .

ولا يجوز تقديم الصلاة على وقتها إلا لعذر ضرورى من سفر أو مطر يتعذر معه أداء الصلاة فى وقتها أو الاجتماع لها فى المسجد فى هذا الوقت .

كما لا يجوز تأخيرها عن وقتها المحدد إلا لعذر قهرى من الأعذار التى حددها الرسول ﷺ بقوله : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون المغلوب على مثله حتى يبرأ . وعن النائم حتى يحلم وفى رواية : وعن المبتلى حتى يبرأ » .

وكلها موانع طبيعية لا يد للإنسان فى أحداثها ولا قدرة له على منعها : أما شرب الخمر فإنه كبير وجرم شنيع وصاحبه مسئول عما يرتكبه فى حال سكره محاسب عليه فى الدنيا أمام قانون الشرع ، وفى الآخرة أمام الله .

وقد جعل الله الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فكيف يجوز التلاعب بها تقديماً أو تأخيراً للتمكن من فعل المنكر وهو شرب الخمر .

وبعد ، فلا يجوز لمسلم أن يسكر ولا يصح له تقديم الصلاة على وقتها لأجل هذا السكر أو الخوف من حدوثه ، وليتق الله ربه ليحسن حسابه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) ويقول الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره . . الخ » فهل هناك تعارض بين الآية والحديث ؟

* * *

للإجابة على هذا السؤال : نذكر حديثين يتصلان بالموضوع أوثق اتصال : روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من

ضلّ إذا اهتديتم) وأنكم تضعونها على غير موضعها .

وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه »

وروى الترمذى بسنده عن أبى أمية الشيبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية ؟

قلت : قول الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) . .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت رسول الله ﷺ قال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًّا مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة ، وإعجابَ كلِّ ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم .

ومعنى الآية إذن : إن على المسلم أن يأمر وينهى ولا عليه بعد ذلك أثمر سعيه أم لم يثمر . .

فيكون المقصود لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم بالتمسك بالحق والدعوة إليه ، ونبذ الباطل والنهى عنه ، وهو ما يوافق حديث أبى بكر رضى الله عنه ، وهذا التفسير هو ما نرجحه .

وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين حديث . من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، لأن الآية تطمئن المسلم إلى أنه لا وزر عليه إذا أدى واجبه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقُل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنَّه غفور رحيم) (٧٩)

* * *

إن هذه الآية الكريمة توضح تفضل الله على عباده ورحمته بهم ، فهى تأمر الرسول ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين عملوا السيئات ثم تابوا وأخلصوا بأن أمرهم سلام ، أى أن التوبة انتهت بهم إلى السلامة ، فقد غفر الله لهم وتقبل توبتهم وعرفهم أن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة لهؤلاء الذين يعملون المعاصى عن جهل بعقابها بالنسبة لهم فى هذه الحياة الدنيا ، وعن جهل

(٧٩) سورة الأنعام - آية (٥٤) .

بعقابها بالنسبة لهم فى حياتهم الأخرى ، والواقع أن اليقين بعاقبة المعاصى فى الدنيا والآخرة يجعل الإنسان بمعزل عن إتيان الآثام .

ومن هنا يقول الحسن رضى الله عنه : كل من عمل معصية فهو جاهل . ويقول أحد الحكماء : إن الآثام توقع الإنسان فى الشقاء ، ولا يعدل الإنسان عن السعادة التى تتمثل فى الفضيلة إلى الشقاء الذى يتمثل فى المعصية إلا إذا كان جاهلا ومن هنا : كما يقول - كانت المعصية جهلا وكانت الفضيلة معرفة .

ولقد ذكر القرآن الكريم معنى هذه الآية ليفتح الطريق أمام العصاة إلى التوبة وليحث الذين يعملون السيئات على قرع بابه تعالى بالرجوع إليه تائبين فتعمهم رحمته قال تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً) .

ويقول سبحانه :

(ثم إنّ ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إنّ ربك من بعدها لغفور رحيم) . (٨١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٨٢)

ويقول : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير) .

* * *

وفى هاتين الآيتين بيان لحكمة الله سبحانه وتعالى فى إرسال الرسل واختيارهم ، وأن هذا الاختيار راجع لمشيئته وحده ، يختار الرسول من أى بلدة ومن أى بيئة ويعده للرسالة ويهيئه لها ، فليس بشرط أن يكون الرسول من أهل البلدة ورسولنا ﷺ (جعله الله رحمة للعالمين) وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً وأمر الله الناس جميعاً اتباعه قال تعالى :

(يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم)

ومع ذلك فلم تحرم أفريقيا من الرسل : (لقد ولد فيها موسى عليه السلام وأخوه هارون .

---

(٨٠) سورة النساء - آية (١٧) .

(٨١) سورة النحل - آية (١١٩) .

(٨٢) سورة الأنعام - آية (١٢٤) .

ووفد إليها يوسف ويعقوب والمسيح عليهم السلام ، ومن قبل ذلك وفد إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وبعد ، فلعل أفريقيا قبل الرسالة المحمدية حوت كثيراً من الرسل ، إذْ لم يرِدْ عنهم حصر جامع فى القرآن الكريم ، ولم يذكر سجل كامل بأسمائهم وتواريخهم :

قال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) .

وقال : (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات ، وغير معروشات ، والنّخل والزّرع مُختلفاً أُكله والزيتون والرُّمّانَ مُتشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقَّه يوم حَصاده ولا تُسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) (٨٣)

* * *

ويقول الرسول ﷺ ، فيما سقت السماء العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر وحديث رسول الله ﷺ ، يدل على العموم ، والآية الكريمة تؤيد المنهج نحو العموم ، وعلى أساس العموم المأخوذ من الآية ومن الحديث ، تكون الزكاة واجبة فى كل ما أنبتته الأرض وهذا هو رأى أبى حنيفة الذى يعمم الزكاة فى جميع ما تنبته الأرض لا يفرق فى ذلك بين الخضراوات والفواكه – والحبوب ، وهو الرأى الذى نرتضيه أما فيما يتعلق بالمواشى التى تجب فيها الزكاة فهى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، وتجب الزكاة فيها إذا توافرت فيها الشروط الآتية :

أن تبلغ . وأن يكون قد حال عليها الحول .

فى الأعراف :

الأعراف : هى الأشياء المشرفة ، والمراد بها هنا المكان المشرف الذى بين الجنة والنار ، أما أصحاب الأعراف فهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفتهم حسناتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، لأنها درجة متوسطة بين الجنة والنار ، فهم ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، ولكن الله تعالى سيدخلهم الجنة بفضله ورحمته ، فلأنه ليس فى

---

(٨٣) سورة الأنعام – آية (١٤١) .

الآخرة من دار سوى الجنة أو النار ، فهم - بعدل الله - فى مكان بين الجنة والنار وهم - بفضله يكون مآلهم الجنة .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاتهم أكثر بواحدة ، دخل النار وأن الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل من إيمان ، ومن استوت حسناته وسيئاته ، كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الأعراف فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ، سلام عليكم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (٨٤)

* * *

يخبر الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة أن أهل القرى وهم الناس فى مجتمعاتهم - صغيرة كانت تلك المجتمعات أو كبيرة وقديمة كانت أو حديثة - لو أنهم التزموا الإيمان واتبعوا قاعدة التقوى لوسعنا عليهم الرزق وزودناهم من الخير فى كل شىء ، وليست البركات خاصة بالرزق المادى وإنما تتضمنه وتتجاوزه إلى الرزق المعنوى ، فتكون البركات فى صورة الرعاية الإلهية للإنسان المؤمن المتقى ، وفى صورة العناية بالله ، إن الله مع المتقين ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ، ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وسنة الله سبحانه أن من كان لله كان له ، ومن كان مع الله كان الله معه ، ومن تقرّب إلى الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً ، ومن تقرب إليه سبحانه ذراعاً تقرب منه باعاً ، ومن أتاه يمشى أتاه تعالى هَرْولة ، ولكن أهل القرى لم يلتزموا سنة الله التى وضحها على لسان رسله ولم يتبعوا هديه وكذبوا برسله فأصابهم الله بما يتناسب مع أعمالهم من الشقاء والعذاب (من عَمِل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلّام للعبيد) .

(ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً) .

---

(٨٤) سورة الأعراف - آية (٩٦) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين) . (٨٥)

* * *

إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء بل عملهم مردود ودعاؤهم غير مستجاب ، وعلى ذلك فلا مجال لدخولهم الجنة وهم عن رحمة ربهم محجوبون لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ، وإنما تطرد من على أبواب علِّيين إلى أسفل سافلين .

أما الذنب الذى ارتكبه هؤلاء الذين أوعدهم الله بهذا الوعيد فإنه الشرك بالله ، والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك بالله سبحانه وتعالى له أثره على المجتمع وعلى الإنسانية فى غاية الخطورة ، وخصوصاً على الجانب الأخلاقى من المجتمع .

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أمثال هؤلاء فيقول :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون) .

فهم قوم أتبعهم الشيطان ووجههم وسيرهم إلى الشر والفساد فكانوا من الضالين ، ولو شاء الله لرفعهم وهداهم إلى آياته ، ولكنهم هم الذين اتجهوا إلى الشر وأخلدوا إلى الأرض بدل اتجاههم إلى السماء وإلى الهداية والصلاح والإصلاح . وآيات الله واضحة ولكنهم عاندوا وكفروا وأشركوا فنالوا مقت الله وغضبه فى الدنيا والآخرة .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون) .

* * *

المقصود بأمة محمد ﷺ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – وهم الذين يستحقون أن يُضافوا إليه ويتشرفوا بالانتساب له والاندراج تحت لوائه . . وهم أمة الإجابة .

أما غير المسلمين فى عصره وبعد عصره فلا يستحقون الانتساب إليه ولا يجوز تكريمهم

(٨٥) سورة الأعراف – آية (٤٠) .

بإضافتهم إليه ، ولم يضفهم الرسول ﷺ إليه حينما تحدث عن أمته ، قال ﷺ : كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . . .

ولكنهم يعتبرون من أمة الدعوة حيث شاهدوا أنواره وأنوار ما جاء به فأعرضوا عن الحق واستكفوا عن اتباعه ، ومن هنا عبر عنهم الرسول ﷺ : باسم الأمة ولم يعبر عنهم بأمتى فقال ﷺ :

« والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بالذى جئت به إلا حرم الله عليه الجنة » .

فسمى اليهود والنصارى أمة ولم يقل من أمتى يهوديًا أو نصرانيًا .

ومن هنا فإن الفرق واضح بين أمة محمد – أى من آمن به – وغيرها من الأمم ممن لا يؤمن . .

فى تفسير قوله تعالى :

(وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه أنِ اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً) (٨٦)

* * *

أما قوله تعالى : (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) فإنه خبر عن بنى إسرائيل ، يقول الله تعالى فيه : إنه سبحانه ، صيّرهم اثنتى عشرة قبيلة ، فأصبحوا فى تفرقهم وتعددهم كالأمم . . أما هذا العدد بالذات ، فإنه يرجع إلى أن أولاد يعقوب عليه السلام كانوا اثنى عشر ولداً ، فكانت القبائل اثنتى عشرة قبيلة ، كل واحدة منها تنتمى إلى واحد منهم .

فى قول الله تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) (٨٧)

* * *

ويقول الله سبحانه فى تعريف المؤمنين :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) .

---

(٨٦) سورة الأعراف – آية (١٦٠) .

(٨٧) سورة الأعراف – آية (٢٠٤) .

والأمر بالاستماع ، والإنصات ، اللذين تفيض بسببهما رحمة الله على السامع المنصت ، إنما كان من أجل التدبر للمعانى الكريمة التى انطوت عليها الآيات القرآنية ومن أجل الاتعاظ بها ، والتزام الحدود التى سنتها ، والقواعد التى أتت بها ، وهى لكل ذلك إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيماناً .

وكلام الله سبحانه وتعالى له أثره الطيب فى إثارة خشية الله عند المؤمنين الصادقين يقول الله سبحانه : (الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) .

والله سبحانه وتعالى يبين أن الخشية تتحقق عند المؤمنين الصادقين نتيجة لتلاوة القرآن أو سماعه ، حتى إنه لو نزل القرآن على جبل لتمثل فيه الخشوع ، بل يصل الخشوع به إلى درجة التصدع يقول سبحانه : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

فالواجب إذن التزام الهدوء والصمت مع التدبر والتأمل .

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه أعظم من كل ما سواه ، وأننا فى جو القرآن إنما نكون فى جو إلهى ، أى أننا – قارئين أو مستمعين – إنما نناجى الله سبحانه ، أو ننصت إليه ، فالواجب ألا يكون تأثرنا بغيره ، وألا يكون انتباهنا إلى ما سواه ، ولا بأس من أن ينطق الإنسان مختاراً أو مضطرًّا عندما يمتلئ قلبه بمعنى من المعانى فى سموه وجلاله ، أو بكيفية من كيفيات الأداء التى تناسب المعنى ، لا بأس بأن ينطق متفاعلا مع الجو القرآنى بسبحان الله ، أو جلّ جلال الله ، أو سبحان من هذا كلامه ، أو أستغفر الله ، أو تبت إلى الله ، أو اللهم قِنى عذابك ، أو اللهم أفض على من رحمتك .

وقد كان الرسول ﷺ يفعل ذلك .

ذلك هو موقف المؤمنين عند تلاوة القرآن أو عند سماعه .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (٨٨)

* * *

(٨٨) سورة الأنفال – آية (٢) .

فلا ينبغى للمستمع ولا يجوز للمستمعين ارتفاع الأصوات وإحداث الصخب عند تلاوة القرآن ، ولا يتأتى لهم إلا الصمت والهدوء والسكينة ليزدادوا إيماناً ، وتخشع قلوبهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله يقول سبحانه :

(الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) . فإذا ازداد إيمان السامع للقرآن حينما يُتلى ، واقشعر جلده ، ولان قلبه ، واستجابت أعضاؤه لذكر الله ، لا يجد مجالا للصياح ولا لكلمات الاستحسان ، بل تنهمر دموعه ويحسن الاستماع والاستجابة لكل ما يتلى ، يقول تعالى :

(وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

وكما يجب على السامع هذا فإنه يجب على القارئ أيضاً أن يعلم أنه حينما يجلس للقراءة فإنه يناجى الله تعالى بكلامه ، فيحسن الجلوس بين يديه ، ويتلو كتاب الله وعليه السكينة والوقار الذى يناسب جلال الله وعظمته ، فإن ما يتلوه حجة عليه وله ، فلا أقل من أن يفرّ من أن يكون عليه ليكون له ، وليكون بحسن أدائه وخشوعه حالة قراءته مع السَّفَرة الكرام البررة .

قال صلوات الله وسلامه عليه : « الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة » .

وقال ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وسائل النصر فى القرآن الكريم رسمها الله سبحانه فى عبارة موجزة بقوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[٨٩] .

* * *

وهذه الآية الكريمة صريحة فى القوة المادية ، إنها تعنى أعدوا لهم القوة المادية البحرية من مدرعات ومدمرات .

وأعدوا لهم القوة البرية من مدافع ودبابات .

وأعدوا لهم القوة الجوية بكل ما تستطيعون من قوة ، هذا من الناحية المادية ، والآية الكريمة صريحة أيضاً فى الإعداد المعنوى ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم فى هذا الإعداد المعنوى بأمرين :

الأول : بعث الثقة بالتفاؤل فى نفوس المؤمنين .

---

(٨٩) سورة الأنفال - آية (٦٠) .

والثانى : رعاية وتدبير يفتّان فى عضد الأعداء ويخزلانهم ما أمكن ذلك .
فوسائل النصر هى : الإعداد المادى ، والإعداد المعنوى ، والتدبير المحكم لتوهين الأعداء .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (٩٠)

* * *

يروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما نزلت : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر ما خفف عنهم ، أى أن ترتيب الحكم سار على ترتيب الآيتين .

وكان المسلمون فى أول أمرهم قليلى العدد ، والمشركون كثيرى العدد ، فكان على المسلم أن يصمد لعشرة من الكفار – ثم كثر عدد المسلمين وتعددت تبعاتهم وخفف الله عنهم هذه المسئولية الشديدة فى الجهاد . فأصبح الفرض على المسلم أن يصمد لاثنين من الكفار ولو صمد لأكثر زاد ثوابه . . . وهكذا .

وذلك ليتأتى الجهاد لأكبر عدد ممكن من المسلمين وتتوزع تبعاته عليهم . وفى الآيات الأمر بالحض على القتال والتعبئة الروحية والنفسية للمقاتلين ، ليكون قتالهم عن عقيدة ، وبيان أثر الدعاية والتعبئة فى الحروب .

وفيها : التذكير بصمود السابقين حيث كان الفرض عليهم أن يصمد الواحد منهم لعشرة من الكفار . . وقد قاموا بذلك الفرض ، فصمد الواحد منهم لأكثر من عشرة كما فى غزوة مُؤْتة وغيرها من الغزوات .

وفيها : أن الصبر أساس النصر ، الصبر على أعباء القتال ، وعلى ما ينتج عنه من خسائر ، والصبر فى مواجهة دعايات الأعداء .

---

(٩٠) سورة الأنفال – آية (٦٥) .

فى سورة براءة والبسملة

تسمى هذه السورة الكريمة سورة العذاب ، لأن العذاب – عقاباً للمنافقين والمشركين – قد ذكر فيها كثيراً ، وتسمى المبعثرة ، لأنها بعثرت ، أى أظهرت وكشفت أسرار المنافقين وعوراتهم ، وتسمى المدمومة ، أى المهلكة للمنافقين ومن لف لفهم ، وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى عن الجاحدين المنكرين من ثمود حينما كذبوا صالحا وكفروا برسالته :

(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) . . أى أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتسمى أيضاً المخزية لأنها بكشف أسرار المنافقين قد أخزتهم ، ولها أسماء أخرى تنحو هذا النحو من بيان أمر المنافقين حتى لقد فضحهم فى سفور لا لبس فيه .

وموضوعها إذن لا يتناسب هو والرحمة أو الرأفة ، ومن أجل ذلك لم يبدأها الله سبحانه : ببسم الله الرحمٰن الرحيم . .

وهل يرى المفسرون هذا التعليق ؟

لقد عبر عن ذلك أسلافنا رضوان الله عليهم خير تعبير .

يروى صاحب محاسن التأويل ، وروى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال : سألت على ابن أبى طالب : لِمَ لمْ تكتب فى براءة البسملة ؟

قال : لأنها أمان وبراءة نزلت بالسيف ، أى فنزولها لرفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة . ولذا قال ابن عيينة :

اسم الله سلام وأمان ، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة ، قال الله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ، قيل له فإن النبى ﷺ : قد كتب إلى أهل الحرب البسملة . . قال : إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم ولم ينبذ إليهم ، ألا تراه يقول : « سلام على من اتبع الهدى » فمن دعا إلى الله عز وجل ودعى إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى فظهر الفرق .

وكذا قال اليهود : إن التسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتح بالتسمية .

فى تفسير أول سورة التوبة

إن رسول الله ﷺ لم يأمر بكتابة البسملة فى أول سورة التوبة ، لأنه لم ينزل عليه وحى بذلك .

والحكمة فى أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل الوحى بكتابة البسملة هى كما رواه الحاكم عن رسول الله ﷺ بما أن البسملة أمان ، وسورة التوبة نزلت لرفع الأمان ، وقد نزلت سورة التوبة ، لنقض عهد الكفار ، وفضيحة المنافقين الذين هم أخطر على الإسلام من الكفار الظاهر كفرهم ، فهى سورة عذاب .

والبسملة رحمة ولا تجتمع رحمة مع عذاب ، وسورة التوبة تسمى : السورة الفاضحة لفضيحة المنافقين بها .

وسورة العذاب وكل ذلك يتنافى مع ما تشعره البسملة من الرحمة ولذلك لم تكتب فى أولها .

فى حكم التشاؤم

نهى القرآن الكريم عن التشاؤم ، وبين أن الشؤم من التشاؤم ، حيث حكى عن رسل المسيح عليه السلام فى سورة (يس) ردًّا على المتشائمين : (قالوا طائركم معكم)

وقال ﷺ . لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر .

فقد كان الناس يتطيرون ويتشاءمون إذ كانوا يخرجون الطير فإن طار إلى الشمال تشاءموا وإن طار إلى اليمين تيامنوا وكانوا يتشاءمون من شهر صفر ، فعقد القران فى أى شهر وفى أى يوم جائز لا كراهة فيه ولا حرمة ، فهذا الاعتقاد لا أصل له فى الدين ، بل هو من قبيل الخرافات التى يجب أن تحارب .

لأن من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله خرج عن الدين ، لأن التحريم والتحليل المرجع فيه إلى الكتاب والسُّنّة ، وعلى الأئمة العلماء البيان فقط .

ولقد ضرب الله مثلا لنا فى ذلك عن أعمال الكفار حيث كانوا يحلون ويحرمون بعض الشهور حيث قال الله تعالى يحذرنا من الوقوع فيما وقعوا فيه :

(إنما النَّسىءُ زيادة فى الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدَّة

ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله . زُيِّن لهم سوءُ أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) . (٩١)

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة) (٩٢)

* * *

الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ذكرت فضل الجهاد فى سبيل الله وبينت فضل الشهداء وما لهم من المنازل والدرجات عند ربهم ، لم تفرق بين شهيد فى عصر النبوة وشهيد متأخر عن ذلك العصر .

والآية الكريمة التى تقرر تلك الصفة الإلهية الرابحة التى عقدها الله تعالى مع المقاتلين فى سبيل الله الذين يَقْتُلُون ويُقْتَلون فاشترى منهم ربهم عز وجل أنفسهم وأموالهم وباعهم الجنة ، لم تفرق بين شهيد مع رسول الله وشهيد لم ينل شرف الصحبة لرسول الله ﷺ . يقول تعالى :

(إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَن أوْفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) .

وآيات سورة آل عمران التى تبين أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فَرِحُون بما حباهم به ربهم من النعم عامة شاملة لشهداء عصر النبوة وما بعده من عصور ، فقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد يكون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة ما يؤكد أن هذا الفضل عام بالشهداء فى كل العصور ، وليبقى الحافز على الدفاع عن الدين والاستشهاد فى سبيل عزة الإسلام ودفع العدوان عن أرضه وحماه .

فإن المجاهد فى سبيل الله يبذل دمه وماله ويصد العدوان عن أرضه ودينه لعلمه بأن ما عند الله للشهيد خير وأبقى .

ومما ذكره القرطبى فى سبب نزول هذه الآيات قوله : وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ، لما أصيب إخوانهم بأحد : جعل الله

---

(٩١) سورة التوبة – آية (٣٧) .

(٩٢) سورة التوبة – آية (١١١) .

أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا هنا أنّا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب ، فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله : (ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً) . . إلخ وروى بقى بن مخلد عن جابر قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال : « يا جابر ما لى أراك منكساً مهتما ؟ قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين ، فقال ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك ، قلت بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول ، وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب فقال : له يا عبدى تمنّ أعطك قال : يا رب ردنى إلى الدنيا فأُقْتَلُ فيك ثانية ، فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . .) الآية . فقولهم من يبلغ إخواننا عنا إنّا أحياء فى الجنة نُرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد . وفى رواية أخرى ليزدادوا فى الجهاد رغبة ولا ينكلوا عند الحرب ، وقول الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم ونزول هذه الآيات بهذه الصيغة يرجح القول بأنها عامة فى جميع الشهداء .

وأما العمل الذى يجب أن يقوم به المقاتل فى سبيل الله حتى ينال الشهادة فهو أن يكون خروجه للجهاد فى سبيل الله مع صدق العزم وإخلاص النية لله سبحانه ، فإنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . والرسول ﷺ يقول : لا يكْلم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشخب اللون لون دم والريح ريح مسك ، وألا ينهزم ، ولا يتقهقر وأن يظل يقاتل حتى يُقتل فى سبيل الله صابراً محتسباً ، مُقبلا غير مُدبر .

فالله تعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومَنْ يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

روى مسلم عن عبد الله بن أبى قتادة أنه سمعه يحدث رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن قُتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر .

ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله أتكفر عن

خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك .

وبين فضل الله سبحانه على المجاهد فى سبيله الذى يخلص النية ويصدق فى عزمه فى طلب الشهادة له أنه يعطيه درجة الشهيد وإن مات على فراشه .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تصبه .

وعن سهل بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف حدثه عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه ، أما من يخرج مع المجاهدين مُقاتلا فى صفوفهم رياءً وسمعة أو لغرض دنيوى فلاحظَّ له فى نيل فضل الشهيد وإن قُتل .

فقد جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى أن رجلا أعرابيًّا أتى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فَمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله .

وعن أبى موسى قال : سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أىّ ذلك فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وقال ﷺ « مَن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومَن قُتل دون عِرضه فهو شهيد » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فيمَ عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فيمَ عملت فيها ؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار .

ومن هنا يتضح أن الكرامة التى أعدها الله للشهيد والفضل الذى خصه الله به متوقف على صدق النيّة والإخلاص لله ، والهدف الذى قاتل وقُتل من أجله ، يستوى فى ذلك الشهيد فى عصر النبوة والشهيد بعد ذلك العصر .

أما فضل الصحبة لرسول الله ﷺ فتلك درجة لم ينلها إلا من شرف بصحبته لرسول الله ﷺ وحمل معه العبء الأكبر فى نشر الدعوة والذود عنها ، والتمكين لها فجر مطلعها ، فقد كانوا رضى الله عنهم رهبان الليل فرسان النهار ، وحسبهم ما قاله القرآن الكريم فى شأنهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله ورضى عن صحابته ومتبعيهم إلى يوم الدين .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (٩٣)

* * *

نزلت هذه الآية فى المتخلفين عن الرسول ﷺ فى غزوة تبوك ، وهى غزوة ندب الرسول ﷺ إليها كل قادر ، وبذل فيها الصادقون ما يستطيعون ولم يتخلف منها أحد ممن يستطيع الجهاد إلا قليلون .

قال ابن كثير (جـ ٤ ص ٥) كان المتخلفون من غزوة تبوك أربعة أقسام :

مأمورون - مأجورون : كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن مسلمة ، وابن أم كلثوم .

ومعذورون : وهم الضعفاء المرضى ، والمقلون الذين لم يجد الرسول ما يحملهم عليه فرجعوا باكين لعدم الخروج .

وعصاة مذنبون : وهم الثلاثة : أى كعب بن مالك وصاحبيه ، وأبولبابة وأصحابه وكانوا عشرة .

---

(٩٣) سورة التوبة - آية (١١٨) .

وهذه الآية نزلت فى أبى لبابة وأصحابه فيما قاله المفسرون وما رواه أصحاب السير ، لقد ربطوا أنفسهم بسوارى (أعمدة) المسجد وقالوا لن نترك مكاننا حتى يطلقنا رسول الله ﷺ ، فلما علم الرسول بذلك قال : وأنا والله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله عز وجل هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن المسلمين ، فأنزل الله تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) وعسى من الله لتحقق الوقوع فأطلق الرسول ﷺ سراحهم وعذرهم فجاءوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ، ما أمرت أن آخذ أموالكم فأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . .) إلخ فقبل منهم بعض أموالهم ، ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمتصدق عند التوبة من الذنب لقبول التوبة وسيلة للتطهير من الآثام والذنوب . .

فى تفسير الآية :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (٩٤)

* * *

الخطاب فى الآية للعالم كله – فيكون المراد بقوله تعالى : من أنفسكم أى من جنسكم وأصلكم بشراً مثلكم تفهمون عنه وهو ما يتناسب وعموم الدين وشمول الرسالة .

ويتضح هذا الرأى فى قراءة عبد الله بن قسَيْط المكى ، « من أنفسهم » أى من أشرفكم نسباً وأكرمكم حسباً ، وهو ما قامت عليه الأدلة وشهدت به الوقائع .

والآية مدنية بلا خلاف وهى من أواخر آيات القرآن نزولا ، وتفسير الآية على العموم : هو أن الله مَنّ على العالم عامة وعلى العرب خاصة – بإرساله إليهم رسولا منهم يعرفونه ويرون من ملامح حياته الخاصة والعامة ما يقطع بصدقه ، ومن أهم صفاته وأظهر خصائصه رغبته الشديدة فى تخليص العالم من المشقة والعنت والهلاك بإخراجهم من ظلمات الكفر وشروره إلى صفاء الإسلام ونوره ، وحرصه الحريص على الوصول بالبشرية إلى بر الأمان فى رضا الله وطاعته وعبادته حق عبادة .

وهذا الحرص على إسعاد الآخرين ، والأسى الشديد عليهم إذا لم يخرجوا عن غيهم وما هم عليه من ضلال فإنما يدل على رحمة شاملة ورأفة متأصلة تزداد عمقاً وتقوى وأصالة بالنسبة

(٩٤) سورة التوبة – آية (١٢٨) .

للمؤمنين حيث يغذيها الحب ويغمرها الإخاء .

وفى الآية تشريف للرسول ﷺ ، وتكريم للمؤمنين ، وتبكيت للكافرين .

ولقد كان الرسول ﷺ حريصاً على هداية الإنسانية ، حزيناً لما سيصيب الكافرين نتيجة البغى والعناد ، ويمثل لنا ذلك قوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

(إنْ عليك إلا البلاغ) (أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

فى تفسير قوله تعالى :

(الر ، كتاب أحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير)

وقوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . . .) (٩٥)

* * *

ذلك أن المعنى فى الآية الأولى أن القرآن الكريم كتاب محكم فى نفسه كما تتحدث آية أخرى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

إنه محكم فى نفسه ، وهو محكم عند الله سبحانه ، وهو محكم عند الراسخين فى العلم .

ومعنى محكم هنا : أنه حق واضح مترابط ، بين الدلالة صادق الحجة ، فكل آياته محكمة إحكاماً إلهيًّا كاملا .

أما بالنسبة : لعامة الناس فإن القرآن ينقسم إلى قسمين : قسم مفهوم واضح هو ما يتعلق بالدين بمعناه العام : عقيدة ، وأخلاقاً ، وتشريعاً .

وعبر عن هذا القسم . بأنه محكم لوضوحه . وقسم يتعلق بذات الله وصفاته لا يعلم تأويله وتفسيره إلا الله والراسخون فى العلم .

أما العامة فإن مستواهم الروحى لا يرقى إلى فهمه .

وعبر عن هذا القسم بالمتشابه : أى أنه غير واضح بالنسبة للعامة من الناس ، وهو من ذلك محكم فى نفسه ، محكم عند الله ، ومحكم عند الراسخين فى العلم .

---

(٩٥) الآية الأولى من سورة هود أما الأخرى فمن سورة آل عمران آية (٧) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وما من دابَّة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرَّها ومستودَعها ، كل فى كتاب مبين[٩٦]) .

° ° °

يقول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) ويقول سبحانه : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ويقسم سبحانه على ذلك نظراً لضعف الإنسان وقلقه فيما يتعلق بالرزق فيقول تعالى : (فوربِّ السماء والأرض إنه لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون) .

هذا ومن المبادئ الدينية المقررة أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق من كل ذلك نتبين الإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالأجير وفيما يتعلق بالكتاب وهو : وجوب أداء الصلاة برغم كل الظروف فى أول الوقت أو فى منتصفه أو قرب نهايته إذا لم يكن بد من هذا ، ولتكن النتيجة ما تكون ، ومن اتجه إلى الله فإن الله لا يضيعه .

أما السيدة التى عليها أيام من رمضان فإنها أدرى بحالتها الصحية هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الفيصل بينها وبين زوجها إنما هو رأى الطبيب : وليس لزوجها أن يمنعها فإذا تأكدت من نفسها أو من رأى الطبيب تأكداً تاما أن حالتها تسمح فعليها القضاء ، ودين الله أسمى من أن يخضع لنزوات زوج وأعلى من أن ينحرف مع انحراف الطبائع .

فى قول الله تعالى :

(وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ[٩٧]) .

° ° °

هذه الآية واردة فى مقابلة الآية التى وردت فى عذاب من كفروا بالله تعالى وكذبوا رسله وهى قوله تعالى : (فأما الذين شَقُوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إنَّ ربَّك فعَّال لما يريد) .

وهى تنص على أن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هم السعداء عند

---

(٩٦) سورة هود – آية (٦)

(٩٧) سورة هود – آية (١٠٨) .

الله عز وجل وأنهم ماكثون فى الجنة خالدون فيها ، لا تنقطع سعادتهم ولا يفنى نعيمهم .

أما قوله تعالى : (ما دامت السمٰوات والأرض) فإنه مثل أُريد به تأبيد خلود المؤمنين فى الجنة ، وأنهم لن يفوتهم وقت من الأوقات إلا وهم مستمتعون فيه ، بنعيم الله فى جنته ، وليس المراد به الاستثناء وذلك كقول العربى مثلا : سأفعل كذا ما لاح كوكب أو ما أضاء فجر ومعناه أنه لن يترك فعل ذلك الشىء أبداً وليس معناه يفعله كلما لاح كوكب أو أضاء فجر وأنه يترك فعله فى غير ذلك كلا .

وأن قوله تعالى : (عطاءً غير مجذوذ) يؤيدهذا التفسير ، فإن معناه عطاء من الله تعالى ، لا يفنى ولا يبيد ، والآيات فى القرآن كثيرة مستفيضة فى تأبيد هذا المعنى وفى إثباته .

فى إن فعل الخيرات يذهب السيئات بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفاً من الليل ، إن الحسناتِ يذهبْن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين[٩٨]) .

* * *

إن الطريق الشرعى الذى رسمه الله سبحانه وتعالى ، هو أنه إذا اتجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الخطوة الأولى إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، وكيفية التوبة الخالصة النصوح بيّنها الإمام النووى فيقول :

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط ، أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثانى أن يندم على فعلها ، والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً ، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه ردّه إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها .

وقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، وفتح أبواب رحمته لكل من يتجه إليه ، يقول سبحانه :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[٩٩]) .

---

(٩٨) سورة هود – آية (١١٤) .

(٩٩) سورة الزمر – آية (٥٣) .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى : وفى دقة دقيقة داعياً إليه عباده . « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم »

فالتوبة هى الخطوة الأولى لمن أتى من المعاصى ، ويأتى معها وبعدها فعل الخيرات فيكون إن شاء الله العفو والمغفرة والرحمة . ويقول الله تعالى :

(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها .

هذا وإن ارتكاب كثير من المعاصى ، فإن فعل الخيرات مكفر لها بشرط : الإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على أن لا يعود إليه أبداً فإن تحقق منه ذلك فلا شك أن فعل الخيرات يكفر ما ارتكبه من معاصى وصدق الله العظيم إذ يقول :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) .

فالتوبة الصادقة والعمل الصالح يبدل الله بذلك سيئاتهم حسنات ويغفر ما تقدم من ذنب .

ومما لا شك فيه أن باب الله مفتوح للتائبين والله يحب التوابين . . .

فى قصة يوسف عليه السلام

إن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع تتسلسل فى معناها على الوضع التالى :

لقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك ، واقتنع الملك بأن هذا التعبير هو الصواب فقال : ائتونى به ، فلما جاءه رسول الملك يدعوه لمقابلته أحب يوسف أن يلقى الملك وهو برىء من كل شبهة فحمل الرسول رسالة الملك قائلا :

(ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إنّ ربى بكيدهن عليم) ورجع الرسول إلى الملك وبلغه الرسالة فجمع الملك النسوة وسألهن :

ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه .

فرد النسوة قائلات :

حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

وكانت امرأة العزيز حاضرة حينئذ فقالت : (الآن حصحص الحق) – أى تبين الحق وظهر وبرز – ثم اعترفت قائلة : (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) .

وهذا الاعتراف منها علله بقولها : (ذلك ليعلم أنى لم أخُنْه بالغيب) أى ليعلم زوجها الحقيقة وهى أن المسألة لم تكن إلاّ مراودة وأن الجريمة الكبرى لم تقع .

ثم استمرت تقول : وما أبرئ نفسى فإنها قد تمنت وأحبت وأرادت والنفس دائماً أمّارة بالسوء إلا من عصم الله (وما أبرئ نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم)

كل هذا كان بحضرة الملك ولم يكن يوسف إذ ذاك حاضراً وإنما أحضره الملك بعد ذلك آمراً من جديد (ائتونى به أستخلصه لنفسى) وكلمة : أستخلصه لنفسى تدل دلالة واضحة على أن الملك اقتنع اقتناعاً تامًّا ببراءة يوسف عليه السلام .

فالآيات المسئول عنها من كلام امرأة العزيز ، وليست من كلام يوسف عليه السلام كما أوضحنا .

فى تفسير قوله تعالى :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم[١٠٠]) .

* * *

وهذه الآية نص صريح فى أن كتاب كل رسول الذى نزل عليه كان بلسان قومه . . فالتوراة والإنجيل والزبور كانت بلسان من نزلت إليهم . . وكان هذا اللسان هو اللسان العبرى . . أو اللغة العبرية .

ولقد كانت تكتب تلك الكتب كالقرآن . وقد وردت النصوص التى تثبت ذلك . . فموسى عليه السلام يقول الله تعالى عنه .

(وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخُذْها بقوة وأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها[١٠١]) .

وعن التوراة يقول تعالى :

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين . . .) إلخ

---

(١٠٠) سورة إبراهيم – آية (٤)

(١٠١) سورة الأعراف – آية (٤٥) .

وعن الإنجيل يقول تعالى :

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونورٌ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) .

وعن الزبور يقول تعالى :

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) فالتوراة والإنجيل والزبور كانت تكتب كالقرآن ونزلت بلغات أهلها وهى العبرية . .

ومن المعلوم أن اللغة العبرية لغة بنى إسرائيل تخالف اللغة العربية فى حروفها وتختلف عنها فى طريقة كتابتها .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما يقوله تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فى تفسير قوله تعالى :

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون[١٠٢]) .

* * *

هذه آية من سورة النحل ذكرها الله تعالى فى تعداد نعمه على عباده ، ونذكر أولا مفرداتها التى هى فى حاجة إلى بيان :

الظلال : جمع ظل وهو ما يقى الإنسان من حر الشمس .

والأكنان : جمع كِنّ وهو وقاء كل شىء وستره .

والسرابيل : جمع سربال وهو ما يستر الإنسان .

والبأس : شدة الحرب .

والمعنى والله سبحانه وتعالى جعل من النعم التى أسبغها على عباده ما يستظلون به من شدة الحر من الغمام والجبال والأشجار والبيوت وغيرها مما يستظل به من حر الشمس ولفحها لولا ذلك لأهلكت الشمس الآدميين .

وكذلك من نعم الله سبحانه أن جعل لهم من الجبال أماكن يسكنون فيها ويستكنّون ويستترون

---

(١٠٢) سورة النحل - آية (٨١) .

كالكهوف والمغاور والأسراب والحصون والمعاقل التى يسترون فيها الأعداء ويعتصمون بها من كل ما يقصدهم بشرٍّ أو يريدهم بسوء .

ومن نعمه أيضاً أن جعل لهم مما خلق ثياباً من القطن والصوف والكتان والحرير ونحو ذلك يحفظهم من الحر اللافح وتدفع عنهم البرد القارس الذى يضر بأجسامهم ويقلل من إنتاجهم .

وكذلك جعل لهم مما خلق دروعاً يلبسونها ويستترون بها فتدفع عنهم قذائف العدو ورماحه عند شدة الحرب والتحام الجيش . مثل هذا الإنعام الكبير الذى أنعم الله به عليكم أيها الآدميون إنما جعله لكم ليتم نعمته عليكم فتشكروه عليها وتسلموا وجوهكم له وتبتعدون عن الشرك وعبادة غيره ، لأن من أنعم بهذا النعم الكبرى حقيق بأن يعبد وحده ولا يشرك بعبادته مع غيره .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً[١٠٣]) .

* * *

كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله ويقول : وأعوذ بك من أرذل العمر فما معنى هذا وما ضرر العمر الطويل ؟ .

أرذل العمر : أردؤه وهو الهرم والخرف ومعنى قوله تعالى : ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر ، أى منكم من يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئاً فيصير كما كان فى أول طفولته ضعيف النية ساذج العقل قليل الفهم .

وهذه الحالة هى التى استعاذ منها رسول الله ﷺ . فالعمر الطويل بركة للصالحين وتكثير لثوابهم ، والعمر الذى انتهى بالإنسان إلى حالة يحتاج فيها إلى من يرشده ويهديه ويسوسه ويرعاه يصبح مفرغاً من المشقة الكبيرة التى يسأل الإنسان ربه أن ينجيه منها .

على أن منصب النبوة الشريف كما نعلم ومسئولياتها تتطلب من النبى ﷺ أن يكون قادراً على إدارة شئون الدنيا وتحقيق مطالب الآخرة وذلك يحتاج إلى القوة البدنية والعقلية ، والهرم المرذول يمنع من ذلك ويجعل المرء عاجزاً حتى عن قيادة نفسه ، ومن هنا استعاذ منه الرسول ﷺ .

وإن تقييد العمر بالأرذل يدل على أن من العمر الطويل ما هو خير وبركة ، ولا ينتهى بالإنسان إلى هذه الحالة المرذولة وهذا ما لم يستعذ منه رسول الله ﷺ .

---

(١٠٣) سورة النحل - آية (٧٠) .

ثم إن أرذل العمر قد يحصل لمن هو صغير السن إذا ساء خلقه وفسد عمله أو صار كما يقول الفقهاء سفيهاً ولو كان فى ريعان الشباب .

ومن هنا فإن هذه الاستعاذة ليست استعاذة من طول العمر وإنما هى استعاذة من العمر الذى لا يكون فيه عمل صالح أو قدرة على أداء ما يجب وترك ما ينبغى أن يترك .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون[١٠٤]) .

* * *

كل ما هو عدل وإحسان وخير يأمر الله تعالى به . وكل ما هو فاحشة ومنكر وإفساد ينهى عنه سبحانه .

ومعاشرة الرجل لرجل مثله من الفواحش المنكرة التى لا يرتكبها إلا من انتكست فطرته وكان أخس من الحيوان فى طبعه ، لأن الحيوان لا يفعل ذلك ولا يأتيه ، ولقد انتشرت هذه الفاحشة فى قوم فأرسل الله إليهم لوطاً ، عليه السلام ليحولهم عن هذه الفاحشة المنكرة ولكنهم أصروا على ارتكابهم لها فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله بذنوبهم ونكس بيوتهم عليهم وذكر قصتهم فى كثير من سور القرآن لتكون عظة وعبرة لأمثالهم . قال تعالى فى سورة الأعراف .

(ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به . وقال بعض الأئمة وهو قول آخر للشافعى رضى الله عنه إن حكمه حكم الزانى ، فإن كان محصناً رجم وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة وعلى الجملة فإن هذه الفاحشة من الكبائر التى

(١٠٤) سورة النحل – آية (٩٠) .

يجب على مرتكبها أن يبادر إلى الإقلاع عنها والتوبة والرجوع إلى ربه والتكفير عن سيئاته قبل أن يأخذه الله كما أخذ قوم لوط بالعذاب الأليم فهو كافر لأنه أحل ما حرمه الله ، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة ونعوذ بالله من هذه الفاحشة التى تؤدى إلى العذاب الأليم .

فى تفسير قوله سبحانه :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون[١٠٥]) .

* * *

هذه الآية ترغيب للمؤمنين فى الإتيان بالأعمال الصالحة وبكل ما حث عليه الشرع من برّ وإحسان وتشمل الذكر والأنثى وفى هذا دليل على مسئولية كل فرد من الرجل والمرأة عن عمله ومجازاة كل منهما بالجزاء الحسن على العمل الصالح بالمساواة ، والمراد بالحياة الطيبة هو الحياة التى ينعم فيها صاحبها بطيب العيش والهدوء والطمأنينة ، والاستقرار وعدم المخاوف والأحزان .

وهذه الحياة يرى جمهور المفسرين أنها فى الدنيا ، والدنيا وإن كانت لا تخلو من بعض المنغصات إلا أن المؤمن يرزقه الله القناعة بما قسم الله له ، والرضا بما قرره وقضاه فيكون راضيا فى حياته سعيدا بها منعماً فيها ، وذلك شأن كامل الإيمان . والله سبحانه وتعالى يبين لنا أن التقوى سبب فى إخراج الإنسان من كل مأزق ومن كل هم ومن كل ضيق ، وهى سبب فى توافر الرزق وحصول الإنسان عليه من حيث لا يحتسب .

فيقول سبحانه (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، والعمل الصالح مع الإيمان سبب فى السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والسعادة فى الدنيا هى ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بالحياة الطيبة .

فى سبيل الدعاة :

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم مبيناً سبيل الدعاة وطريقهم :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[١٠٦]) .

* * *

---

(١٠٥) سورة النحل - آية (٩٧) .

(١٠٦) سورة النحل - آية (١٢٥) .

وسبيل الداعى إلى الله سبحانه أن يكون عالماً بأمر الدعوة عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً يقول الله تعالى فى القرآن الكريم على لسان رسوله الكريم :

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

والبصيرة فى هذه الآية الكريمة تشمل الدعوة وأسلوب الدعوة وسبيل البصيرة فى الدعوة العلم بها وسبيل البصيرة فى أسلوب الدعوة الرفق والاتزان وأخذ الأمور مأخذ الروية والتعقل ، وهذه هى الحكمة .

ثم الحديث الواعظ بأحسن الطرق والأساليب التى تأخذ بالقلوب وتتعلق بها الأسماع وهذه هى الموعظة الحسنة .

وإذا اقتضت الظروف الجدل والنقاش واضطررت إليه اضطراراً ، فليكن بالحسنى ، والجدل والنقاش إنما هى المرتبة الثالثة فى الدعوة إلى الله ، وهى مرتبة لا يأتيها الإنسان إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك ، وهل فى القرآن الكريم نهى صريح عن اتخاذ الأسلوب العنيف .

يقول الله تعالى للمؤمنين : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم) .

وهذا نهْى لهم عن اتخاذ الأسلوب العنيف فى الدعوة .

ويقول الله تعالى لرسوله : (ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

وكل من خالف أوامر القرآن وأسلوب الرسول عليه والصلاة والسلام فى الدعوة فهو آثم . لأن كل دعوة فى الإسلام على غير الوجه الذى أرشدنا الله ورسوله إليه تسىء إلى الإسلام أكثر مما تنفعه فهى دعوة ضارة بالإسلام ، ثم يأتى صاحبها ويمنع من الاستمرار فيها » .

فى معنى قول الله تعالى :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير[١٠٧])

* * *

فالمسجد الأقصى موجود بنص تلك الآية الكريمة ، وكان مسرى رسول الله ﷺ إليه ، وقد تناولته أيدى الأمراء بعد الفتح الإسلامى بالتجديد تارة ، والزخرفة تارة أخرى .

وما ورد من أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هو الذى بنى المسجد الأقصى وأكمله من بعده الوليد صحيح .

---

(١٠٧) الآية الأولى من سورة الإسراء .

ولعل بناءه له كان نتيجة حتمية لتجديده تجديداً يناسب ما للمسجد من مكانة سامية فى نفوس المسلمين وغيرهم من الدول التى تتجه إليه وتستقبله فى صلاتها ودعائها كاليهود والمسيحيين.

ولما لم يتم الملك بناءه أتمه من بعده ولده.

وما نشر فى الصحف من أن بعض الدول الإسلامية دول علمانية لا يغير من جوهر المسجد الأقصى شيئاً.

فى قوله تعالى :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنَّ علوًّا كبيراً[١٠٨]) .

* * *

المراد بالكتاب فى الآية الكريمة هو التوراة التى أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام ، والمعنى كما يقول العلامة ابن كثير فى تفسيره ، يخبر الله تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب أى أخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيراً : أى يتجبرون ويطيعون ويفجرون على الناس كقوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) . أى أخبرناه بذلك وأعلمناه به .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء الذين سلطهم الله على اليهودمن هم ؟ وقد وردت فى ذلك روايات كثيرة ، يقول ابن كثير : وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً (وما ربك بظلام للعبيد) ، إنهم كانوا تمردوا وقتلوا حلفاً من الأنبياء والعلماء وسواء أحدثت المرتان اللتان تشير إليهما الآية الكريمة أم حدثت أولاهما وبقيت الآخرة فإن الآية الكريمة تحدد وعيد الله لهم بأنهم إذا عادوا إلى الإفساد فى الأرض عاد الله إلى التنكيل بهم على يد بعض عباده قال تعالى : مختتماً هذه الآيات : (عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرًا) .

ومن المؤكد تاريخيًّا أنهم عادوا إلى الإفساد فى الأرض فسلط الله عليهم من نكل بهم وشردهم وأذاقهم وبال أمرهم ، ولا يغيب عن الأذهان ما حدث بهم فى النصف الأول من هذا القرن وما يحدث من طرد العالم كله لهم ليستريح من شرهم وأخيراً وليس – بإذن الله آخراً ما حدث بهم

(١٠٨) سورة الإسراء – آية (٤) .

فى العاشر من رمضان السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ من تحطيم حصونهم المنيعة بسيناء وتيتيم أطفالهم وترميل نسائهم وبكاء رؤسائهم وما ضرب عليهم من الذلة والهوان وسيبعث الله عليهم بمشيئته تعالى – ونرجو أن يكون ذلك قريباً – من يطهر بيت المقدس من رجسهم ليعود إليه وجهه العربى المشرق ، وكلما انتعشوا وبغوا فى الأرض وأفسدوا سلط الله عليهم من عباده من يسومهم سوء العذاب ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب).

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا[١٠٩]) .

* * *

فقد ورد فى سياق آيات تحث على الإنفاق والبذل : فإن قبل هذه الآية الكريمة يحث الله سبحانه على الإحسان بالوالدين الإحسان الذى يتضمن الرعاية بجميع أنواعها قولية كانت أو فعلية ومنها الإنفاق عليهما عند الحاجة (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا) ثم يحث الله سبحانه على إيتاء ذى القربى والإنفاق عليهم والبّر بهم ويحث كذلك على إيتاء حق المسكين وابن السبيل ، ثم يرشد سبحانه إلى أن الطريقة المثلى فى كل ذلك إنما هى عدم التبذير والابتعاد عن الإسراف ، ثم يبين بعد ذلك مباشرة القانون الذى يرتضيه سبحانه لبنى آدم فيقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

وما من شك فى أن التبذير مذموم وأن الإسراف لا يقره عاقل ولكن البخل أيضاً مذموم والتقتير لا يقره المستنيرون ، يقول الله تعالى : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ويقول : سبحانه (فأما مَنْ أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردّى) إن البخيل المقتر الذى يكنز الذهب والفضة لن ينفعه ما له وما كنز حينما تأتيه سكرة الموت بالحق ، وحينما يحل به القدر المحتوم يوم لا ينفع مال ولا بنون وكما حث القرآن على التزام القصد وعلى اتخاذ التوسط فى الإنفاق فإن الرسول صلوات الله عليه حث على الإنفاق على الأهل ففيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت

---

(١٠٩) سورة الإسراء – آية (٢٧)

به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك ، وقال صلوات الله عليه « كفى المرء إثماً أن يضيع من يقوت » فالتقتير على الأسرة بحجة نهى الله سبحانه عن التبذير ليس طريق المهتدين بهدى الله الذى هو التوسط والقصد والاعتدال ، وليس من الدين فى شىء .

فى قول الله تعالى :

(وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا ، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تَقُل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً[١١٠]) .

* * *

فى هذه الآيات الكريمة أمر الله بالإحسان إلى الوالدين بجميع أنواع الإحسان التى لا إثم فيها ، وشدّد سبحانه فى هذا الأمر بحيث أدخله مع لزوم توحيده فى العبادة تحت أمر واحد ، فإذا شعر الإنسان بأنه قد أهمل شأن والديه وكان بعيداً عنهما فعليه أن يسافر إليهما إذا استطاع وعليه أن يكتب إليهما مستسمحاً مستغفراً إذا لم يستطع ويوسط بعض معارفه إذا كان له معارف بالقرب منهما فى أن يعفوا عنه .

وتأتى التوبة من قبل كل ذلك ، وفى أثنائه ومن بعده توبة نصوحاً إلى الله سبحانه معترفاً بذنبه ، مستغفراً منه شاعراً بالندم على أنه قابل إحسانهما إليه جنيناً ورضيعاً وطفلا ويافعاً بما لا يليق بإحسانهما إليه .

ويعزم عزماً مؤكداً أنه إذا التقى بهما يكون مثالا للابن البار ، وعسى الله سبحانه بذلك أن يغفر له ويقبل توبته هذا ما لم تكن التوبة فى لحظة الاحتضار أى ما لم يغرغر ، فإن التوبة فى حالة الاحتضار لا تفيد .

فى قوله تعالى :

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً[١١١]) .

* * *

---

(١١٠) سورة الإسراء – آيتا (٢٣ – ٢٤) .

(١١١) سورة الإسراء – آية (٥٧) .

إن الوسيلة فى هذه الآية بمعنى القربة التى يبتغى بها مطلوب ، وهو الفلاح الوارد فى آخر الآية مترتباً على التقوى والجهاد فى سبيل الله وطلب الوسيلة إليه سبحانه . وتقوى الله طريقها معروف وهو الإيمان والعمل الصالح والقربات مبينة فى الكتاب والسنة ، والجهاد أمره واضح فلا إشكال فى معرفة معنى الوسيلة ولا فى معرفة ظواهرها .

وجاءت الوسيلة بهذا المعنى فى قوله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) أى يطلبون من الله الزلفى والقربة ويتضرعون إليه فى طلب الجنة .

وجاءت الوسيلة فى السنة بمعنى قول النبى ﷺ إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ثم صلوا على فإنه من صلى صلاة صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة . . رواه عن عبد الله ابن عمرو بن العاص . والوسيلة صيغة على وزن فعيلة ، مأخوذ من توسلت إليه أى تقربت قال عنترة : إن الرجال لهم وسيلة ولعلك تقصدين من سؤالك أيتها الطالبة ما تعارف عليه بعض الناس من قولهم توسلت بفلان إلى الله أو توسلت بجاه محمد أو جاه بعض الأولياء إلى الله فاعلمى أن التوسل إلى الله لا يكون إلا بالإيمان به وطاعته ، ولا يشفع لأحد إلا بإذنه سبحانه . وإذا توسل إنسان إلى الله بدعاء رجل صالح ليكون هو الداعى دليل على حب وتقدير لهذا الصالح وتقدير الصالحين وحبهم لون من ألوان الطاعة لله .

أما قول بعضهم : أسائلك بحق أنبيائك فقد منعه بعض الفقهاء ، كما قال القدورى : المسألة بحقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق .

ومهما يكن من شىء ، فإن الواجب على المسلم أن يجتهد فى عمل الطاعات فهى وسيلته إلى الله ، وأن يدعوه ، فإن الدعاء بالعبادة رابطة العبد بالله ولا بأس من سؤال أحد الصالحين أن يدعو له ربه ، فإن الطلب كله من الله ، وقد سأل الصحابة بعضهم بعضاً . .

ويجب تحسين الألفاظ وتحديدها عند الدعاء حتى لا يكون هناك اعتراض يثير الجدل ويرمى به بعض الناس بالكفر . وأخيراً أقول (إنما الأعمال بالنيّات) وما دام المقصود بالطلب هو الله وحده ، فإنه لا إشراك فى ذلك ، وليكن تعليم الجهال من العامة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتفصيل موضوع الوسيلة بين المجيزين والمانعين ليس محله هنا .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[١١٢]) .

* * *

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان عربى مبين كما قال تعالى : (قرآنا عربيًّا غير ذى عوج) وتحدى به العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة على أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن معارضته ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ولقد افتتح الله سبحانه وتعالى بعض سور القرآن بحروف مثل : ألم ، المر ، حم ، حم عسق .

وذكر العلماء لهذه الحروف معانى متعددة ، فمنهم من قال : إنها أسماء للسور التى افتتحت بها . ومنهم من قال : إن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى والعرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التى هو منها .

ومنهم من فوض أمر علم معانيها إلى الله سبحانه وتعالى كما ذكره الجلال السيوطى فى الإتقان قال : إنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله .

والراجح كما ذكره الرازى والمحققون : أنها إنما ذكرت هذه الحروف فى مفتتح السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأنه كلمات مركبة من حروف الهجاء التى تتألف منها الكلمات التى ينطق العرب بها ، وقد عجز الخلق عن معارضتها فلو لم يكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضته .

فى تفسير قول الله تعالى :

(ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً . قُلِ الله أعلم بما لبثوا له غيب السمٰوات والأرض أبصرْ به وأَسْمع ، مالهم من دونه من ولىٍّ ولا يشرك فى حكمه أحداً[١١٣]) .

* * *

---

(١١٢) سورة الإسراء - آية (٨٨) .

(١١٣) سورة الكهف - آيتا (٢٥ - ٢٦) .

جاء ذكر أصحاب الكهف فى القرآن الكريم فى سورة (الكهف) وقال الله تعالى لنبيه : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وهى على ما وردت به الروايات :

أنه كان بمدينة أفسوس أو طرسوس – بآسيا الصغرى – ملك اسمه دقيانوس ، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة غير الله ، ويظلمهم ، ويعذبهم إن هم خالفوا أمره ، وكان فى البلدة فتية آمنوا بربهم وقرروا فيما بينهم الفرار بدينهم من ظلم ذلك الملك وعسفه ، فخرجوا وآووا إلى كهف فى الجبل واتخذوه مأوى لهم يعبدون الله فيه ، ولم يذكر فى الروايات أنهم نبهوا أهلهم أو لم ينبهوهم ، وأغلب الظن أنهم أسرّوا إلى المقربين إليهم من أقاربهم بسفرهم حتى لا يكون فى غيابهم همّ أو غمّ لأهلهم وخاصة الآباء والأمهات ، وأهل الله يحبون دائماً أن لا يكونوا مصدر قلق وحزن لغيرهم وخصوصاً إذا كانوا أقرب المقربين إليهم وأغلب الظن أيضا أنهم وإن كانوا أخبروهم بالسفر فإنهم لم يخبروهم بالمكان .

ولقد ذكر القرآن الكريم أنهم لبثوا فى الكهف ثلثمائة وتسع سنين ضرب الله على آذانهم فى الكهف هذه المدة الطويلة ، ثم بعثهم وأخذوا يتساءلون بينهم عن المدة التى لبثوها كما قص القرآن : (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا فى كهفهم هذه المدة الطويلة قال تعالى : (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بمالبثوا له غيب السموات والأرض) .

ولقد حاول كثير من المفسرين أن يحدد مكان الكهف وأخذ يذكر البلد الذى به الكهف ، ولكن هذه المحاولات إنما هى ضرب من التخمين وليس فى القرآن ولا فى السنّة ما يحدده ، وعلينا أن نكتفى بما ذكره القرآن الكريم وإنما ذكر القصة للعبرة والعظة وهى فى هذا المجال مليئة بالمعانى ككل قصص القرآن .

فى معنى الكهف :

قيل إن هذا الكهف بشرق الأردن ، وقيل بفلسطين وقيل بالضفة الشرقية من جهة نهر الأردن .

والذين بالكهف لم ينبهوا أهلهم قبل الذهاب إليه لأن كل من كانوا بالبلد الذى هم فيه كانوا

كفاراً ، فخشية أن يمنعوا من الذهاب إلى الكهف ، وخشية التعذيب لم يخبروا أحداً بمقصدهم بدليل قول الله سبحانه وتعالى :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحداً ، إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً) .

وهؤلاء هم المعروفون فى التاريخ بأنهم أهل الكهف .

فى تفسير قوله تعالى :

(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا[١١٤]) .

* * *

يختلف المؤرخون فى أمر يأجوج ومأجوج وأمر السد الذى بناه ذو القرنين ، فما رأى الدين فى ذلك ؟ يروى الإمام ابن حزم أن أمر يأجوج ومأجوج قد ذكر فى كتب اليهود التى يؤمنون بها والتى يؤمن بها النصارى ، ويروى أن أرسطو ذكر يأجوج ومأجوج ، وذكر السد فى كتابه (الحيوان) ويذكر ابن حزم أيضاً أن بطليموس : ذكر فى كتابه المسمى (جغرافيا) سد يأجوج ومأجوج ثم يقول ابن حزم .

« واعلموا أن ما كان فى عنصر الإمكان فأدْخَلَه مُدْخلٌ فى عنصر الامتناع بلا برهان فهو كاذب مبطل ، جاهل أو مجاهل ، لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره » .

ويقول السيد محمد جمال الدين القاسمى فى تفسيره قال بعض المحققين اعلم أنه كثيراً ما يحدث فى الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضى حتى تصير كالجبال وهذا أمر مشاهد حتى زمننا هذا . فإذا سلم أن سد ذى القرنين المذكور فى هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره ولا يوجد فى القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة ومعنى قوله تعالى :

---

(١١٤) سورة الكهف – آية (٩٤) .

(هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكّاء)

معناه : أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه ، لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن متانته وصلابته لا يمكن أن تقاوم مشيئة الله القوى القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله ، ولكن أجل السد له فى المشيئة الإلهية حد ينتهى إليه فإذا حان الموعد المضروب فى المشيئة الإلهية فإن هذا السد لا يقف لحظة واحدة أمام قدرة الله .

بل يدكه دكًّا فى لمح البصر ا.هـ..

والذى يفهم من القرآن : أن يأجوج ومأجوج أمتان أو قبيلتان كبيرتان تفسدان فى الأرض بالنهب والسلب والإغارة المستمرة على من جاورهما من الأمم ، وليس فى هذا الأمر غرابة ، فهو موجود فى كثير من القبائل أو الأمم الموجودة فى عصرنا الراهن ولما وصل ذو القرنين إلى من يجاور القبيلتين ورأوا منه القوة والحكمة والعلم والاستعداد لعمل الخير وجهوا إليه الرجاء فى أن يقيم بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا منيعاً فى مقابل أجر يعطونه له ، فامتنع عن أخذ الأجر وقال : (ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) .

فى تفسير قول الله سبحانه :

(إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا[١١٥]) .

* * *

فالآية تفيد أن دخول الجنة غاية للإيمان والعمل الصالح ، والإيمان هو التصديق بوحدانية الله وبصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه .

والعمل الصالح هو العمل بشرائع الإسلام وأداء أركانه واتباع ما جاء به الرسول ﷺ واجتناب المنهيات لقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْنَ عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريماً) .

فمن أتى بذلك المذكور من الإيمان والعمل الصالح واجتناب المنهيات دخل الجنة ، وأول ما يبدأ به مرضاة الله تعالى ، ودخوله الجنة إنما هوبالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة الخارجة من أعماق القلب المؤمن ، والتوبة هى أولى الخطوات للسالك إلى الرشاد والهداية ، ومن أجل ذلك حث الله عليها كثيراً فقال سبحانه فى حديث قدسى :

---

(١١٥) سورة الكهف – آية (١٠٧) .

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » وأمر سبحانه وتعالى بها فى القرآن الكريم قائلا :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وبعد التوبة يكون العمل الصالح ، وذلك أن التوبة تضع الإنسان فى مرتبة البراءة فتكون صحيفة أعماله بيضاء ويأتى بعد ذلك العمل الصالح ، ولقد رسم الله الطريق لدخول الجنة فى أسلوب محكم فيه مجال للرجاء ، وفيه وعد ووعيد ، وفيه بشرى النجاة للذين اتقوا فقال :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) إلى قوله تعالى : (ولا هم يحزنون[١١٦]) .

معنى قوله تعالى :

(وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضيًّا[١١٧]) .

* * *

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله قوله : (وإن منكم إلا واردها) قال : الصراط على جهنم ، مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة ، كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون « اللهم سلم سلم » .

يقول ابن كثير : ولهذا شوهد فى الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبى سعيد ، وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

ويكون إذن معنى الورود فى الآية الكريمة : هو المرور على الصراط والصراط على جهنم ، وليس المراد دخول النار بالفعل .

ولقد روى الإمام أحمد ، رضى الله عنه ، بسنده عن حفصة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

إنى لأرجو ألاّ يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية ، قالت حفصة : أليس الله يقول :

---

(١١٦) سورة الزمر - الآيات من (٥٣ - ٦١) .

(١١٧) سورة مريم - آية (٧١) .

(وإن منكم إلا واردها) ؟ فقال رسول الله ﷺ .

(ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيًّا) .

وهذا هو رأى قتادة أيضاً : يقول قوله : (وإن منكم إلا واردها) : قال هو الممر عليها . أما قوله تعالى : (كان على ربك حتماً مقضيًّا) فقد فسرها ابن مسعود بقوله : قسماً واجباً وفسرها مجاهد بأنها قضاء حتم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ فإمّا يأتينكم منى هُدى فمن اتبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى[١١٨]) .

° ° °

فى هذه الآيات مقارنة بين من اتبع الهدى ومن أعرض عنه ، إن من اتبع الهدى فلا يضل عن طريق الحق ومتابعة الشرع ولا يشقى مهما نزل به فى الدنيا ، إنه راض قانع ، فى نضاله وكفاحه ، مستسلم لله سبحانه وتعالى ، شرح الله صدره بالإيمان وطمأنه بالتقوى والذكر : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أما من أعرض عن نداء الحق وتجاهل أوامر الشرع وسار فى حياته بلا مرشد من الدين ولا دليل من الهدى فإنه – مهما كان غناه – ساخط ، متبرم ، قلق غاضب ، حسود ، حقود . وقد يكون كسبه حراماً وهو لا يهتم .

ويعاقبه الله تعالى فى الآخرة على ذلك بالعمى فلا يبصر طريقه ، ويسير على غير هدى ، إنه لا يبصر حجة ولا يستطيع دفاعاً عن نفسه .

ويتساءل كأنه لا يعرف أو لأنه نسى من هول ما حصل له : (ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) . ويكون الجواب بما يفيد : لقد كانت الآيات الإلٰهية أمامك فهل أبصرتها ؟ وهل سرت على هداها أو تعاميت عنها ؟ إن الجزاء من جنس العمل ، والعمى فى القيامة هو عمى البصيرة ، هو الحيرة والتخبط وعدم الاهتداء إلى سبيل النجاة .

---

(١١٨) سورة طه – الآيات من (١٢٣ – ١٢٦)

وهذا الجزء ليس خاصًا بفرد دون فرد . إنه لكل مسرف ينسى الدين وينغمس فى الدنيا إنه لكل من لا يهتم إلا بالمادة ويتناسى القيم والأخلاق .

إن المادة وحدها لا تحقق إلا الشقاء فى الدنيا والقلق والاضطرابات ، وفى الآخرة عذاب أشد وقلق عظيم واضطراب أكبر ، حيث لا نهاية لما يكون فيه الإنسان والآيات بعد ذلك وقبله إنذار وتحذير لكل من يعرض آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، فى الكتاب والسّنة ، وفى كل ما يحيط بالإنسان ، فيكفر أو يغش .

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) .

فى تفسير قوله تعالى :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون[١١٩]) .

* * *

يقول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون.الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وقد رأى رسول الله ﷺ رجلا يحرك يده ويضعها على لحيته وهو فى الصلاة فقال :

لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، وأنه لمن البديهى أن الصلاة فترة من الصلة بالله ينبغى أن تكُونَ فى جوها هادئاً وأن تبتعد عن كل ما يشغل عن المناجاة مع الله سبحانه.

فإذا عرض للمصلى شىء بعد أخذ الاحتياط الواجب فليقل : سبحان الله . ويكررها إذا احتاج الأمر إلى زيادة التنبيه ، وذلك إذا كان المصلى رجلا ، فإذا كان المصلى امرأة صفقت . وذلك لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« التسبيح للرجل والتصفيق للنساء فى الصلاة » ومع ذلك فإنه لو رفع المصلى صوته بالقراءة أو ببعض أذكارها لإسكات الأولاد أو التنبيه على أمر من الأمور فصلاته صحيحة ، ولكن الأفضل أتباع تعليم الرسول ﷺ .

فى شرح قوله تعالى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١٢٠]) .

* * *

(١١٩) سورة المؤمنون – آيتا (١ ، ٢) .

(١٢٠) سورة النور – آية (١٩) .

إن الذى يساعد على أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا إنما هو محب لذلك ، فهو داخل فيمن توعدهم الله سبحانه بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة لأنه أعان على الزّنى ومهد سبله واتخذ من الإعانة عليه حرفة ووسيلة إلى الكسب .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ نهى عن مهر البغى ، أى أخذ الأجرة على الزّنى أو استخدام النساء لإدرار الربح عن هذا الطريق المشين ، وصاحب المنزل ممن يعيشون فى الأرض فساداً ومن الواجب على أهل الحى مضايقته ومقاومته ، ومن الواجب ردعه عن هذا الفعل المشين .

وأما من جعل فندقه حانة لشرب الخمور فهو أيضاً آثم وعامل ومعين على الفساد ، وهو أيضاً ممّن لعنهم الرسول ﷺ ، ومن الواجب ردعه ومقاومته ، وهو داخل فيمن لعنهم الله ورسوله بسبب الخمر .

فى تفسير قول الله تعالى :

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة . . [١٢١]) إلخ .

* * *

شبه الله تبارك وتعالى نوره فى السموات والأرض كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة لفرط صفائها وصفاء ما بها كأنها كوكب درىّ مضىء إضاءة قوية .

فإذا اجتمع نوران : نور المصباح ، ونور الزجاجة التى تشبه الكوكب الدرىّ فى مكان يحصره ، كالمشكاة التى تكون مدورة لوضع المصباح بها ، كان النور أشد ما يكون ، وهو مثل ورد للتقريب فقط ، وإلا فنور الله عزّ وجل فى السمٰوات والأرض لا يشبهه نور .

فى تفسير قول الله تعالى :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا) [١٢٢]

* * *

إن هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان هى أول الآيات المتتالية التى يعرّف الله سبحانه وتعالى فيها أوصاف عباد الرحمن .

---

(١٢١) سورة النور - آية (٣٥) .

(١٢٢) سورة الفرقان - آية (٦٣) .

والجاهلون فى الآية الكريمة لايقصد بهم غير المثقفين ، كلا ، وإنما يقصد بهم السفهاء . . والجهل يطلق أحيانًا ويقصد به عدم العلم ، وهذا المعنى هو الشائع لكلمة الجهل ولكلمة الجهلاء .

وقد تطلق ويراد بها السّفه ، وهذا هو ماأراده الشاعر فى قوله :

ألا لايجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جَهْلِ الجاهلينا

وهذا المعنى هو المعنى المراد من كلمة « الجاهلون » التى وردت فى الآية الكريمة فهم السفهاء وقليلو الأدب .

وهؤلاء لما فى فطرهم من إفساد ، ولما فى نفوسهم من انحراف يتعرضون للفضلاء بالأذى غير مبالين بالألفاظ ينطقون بها ، أو الأفعال التى تصدر عنهم ، وموقف عباد الرحمن منهم ليس هو موقف السّفه أو قلة الأدب وإنما هو موقف الرجل المهذب الذى يحاول أن يوجد دائمًا السلام من المجتمع الذى يعمل فيه ، وعلى إيجاده فى النفوس بقوله وفعله ، فإذا تعرض له سفيه قابله بالحسنى ، فمعنى (قالوا سلامًا) أى قالوا خيرًا ، فيقابلون السّفه بالخير ، ولقد كان من صفات رسول الله ﷺ أن لاتزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا ، وموقف عباد الرحمن بعد ذلك إنما هو كما قال سبحانه : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارًا سآتيكُم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) .

وفى تفسير قول الله تعالى :

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنسَ من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلّى آتيكم منها بخبر أو جَذْوة مِن النار لعلكم تَصْطلون)[١٢٤]

° □ °

قال تعالى : (إنى آنست نارًا سآتيكم منها بخبر) . . إلخ .

وقال تعالى : (إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بخبر) . . إلخ .

---

(١٢٣) سورة النمل - آية (٧) .

(١٢٤) سورة القصص - آية (٢٩) .

فى الآية الأولى الإخبار بأنه سياتى منها بخبرٍ أو بقطعة ليستدفئوا بها . وفى الآية الثانية : يرجو أن يقف على خبر هذه النار ، أو أن يحصل على قطعة ليستدفئوا بها ويقضوا منها وطرهم . والخبر والرجاء يختلفان منطوقًا ومفهومًا ، ويتفقان غاية ، ولاتعارض بين منطوق الآيتين ومفهوم كل منهما ، لأن موسى عليه السلام لما رأى النار قال سآتيكم منها بخبر ، وهو يرجو فى نفسه أن يوفقه الله لما يريده .

« وهكذا شأن الأنبياء ومن أعدوا فى سابق الأزل للرسالات ، بل شأن العقلاء لايعولون على أنفسهم فى أى أمر يقصدون إليه ، بل يعولون على الله فى كل مطلوب »

فإحدى الآيات تعبر عمّا فى قلبه من رجاء معونة الله ، والأخرى تعبر عن حديثه لأهله مطمئنا لله .

فى تفسير قوله تعالى :

(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١٢٥]

* * *

عدها البعض آية مستقلة من سورة الفاتحة ، وعلى ذلك فلابد من الإتيان بها فى الصلاة ، كما ذهب الى ذلك الشافعى رضى الله عنه ، حسب روايته فى تلاوة كتاب الله تعالى .

كما ورد فى العدد المكى والكوفى ، وحجته فى ذلك مع الرواية وجود البسملة أول كل سورة ماعدا براءة مع اجتهاد الصحابة فى تخلية كتاب الله تعالى عما ليس منه . فلو لم تكن البسملة من الفاتحة ماأثبتوها .

وذهب بعض الأئمة إلى أن البسملة ليست آية من الفاتحة ، وعلى ذلك لا تبطل الصلاة بتركها ، مادام قد اختلف فيها ، فبأى الرأيين أخذت فصلاتك صحيحة ، غير أن الأخذ بتلاوة البسملة فى كل فاتحة فى الصلاة أولى للحيطة .

فى تفسير قوله تعالى :

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)[١٢٦] .

* * *

---

(١٢٥) سورة النمل - آية (٣٠) .

(١٢٦) سورة السّجدة - آية (١٣) .

حينما طرد الله سبحانه وتعالى إبليس من الجنة أقسم إبليس أن يكرس حياته لإغراء المخلوقات من الإنس والجن قائلا : فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .

وقد وضح الله سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين لا يتأتى أن يكون للشيطان عليهم من سبيل قائلا :

« فالحق والحق أقول : لأملان جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » وفى هذه الآيات التى ذكرناها بيان للمقصود من الآية التى تحدث عنها السائل الفاضل والجنة : هم الجن ، وسموا جنًّا لاستتارهم عن الأنظار من الجَنّ وهو الستر :

قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)

وكلمة الجن ، وكلمة العفاريت ، وكلمة الشياطين كلها بمعنى واحد ، ولا يدخل النار إلا الكفار والعصاة من الجن والإنس .

أما المؤمنون والطائعون ، فيدخلون الجنة ، سواء كانوا من الجن ، أو من الناس ، لأن الجن منهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين ، قال تعالى فى سورة الجن :

(وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا) .

فى هل وضع القرآن الكريم قواعد إذا اتبعها الأثرياء أرضوا الله ورسوله ؟

« نعم وضع القرآن هذه القواعد وحث عليها بشتى الوسائل ، وقد جمعت هذه القواعد فى ألفاظ قليلة فى قصة قارون) .

* * *

لقد كان قارون من قوم موسى آتاه الله ثراء عريضا ورزق من المال مالا يكاد يحصى ، واتخذ قارون المال سبيلا إلى الملاذ والشهوات ، شهوات الجاه وشهوات الترف ، وشهوات النعيم الحسى بكل أنواعه ، لقد أسرف قارون فى انغماسه فى الملذات ، وكان يخرج على قومه فى زينته وفى كبريائه وغروره لا يعطف على ضعيف ولا يساعد فقيرا ولايعين ذا حاجة ، وليس للرحمة إلى قلبه من سبيل .

ولما رأى قومه ذلك اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يسدوا إليه النصيحة ، فلما اجتمعوا به تلطفوا فى القول ما استطاعوا وأجملوا النصيحة فى خمس قواعد هى فى الواقع القانون

العام لما ينبغى أن يكون عليه الأثرياء ، وهى الطابع الذى يجب أن يكون عليه أهل الغنى قالوا له :

إنك مباه بثروتك فخور بها ، فرح بالمال لذاته ، وما ينبغى أن يكون الفرح بالمال إلا لأنه وسيلة إلى النفع ، فلا تفرح بكثرة المال فرح بطر وكبرياء وفخر ، إن الله لا يحب الفرحين الذين يتمثل فيهم ذلك .

وقد آتاك الله الكثير فابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، واجعل زكاة مالك مساعدة الفقير ، وزكاة قوتك نصر الضعيف ، وزكاة جاهك نصرة المظلوم .

والدنيا مزرعة الآخرة وطريقها فلا تنس نصيبك من الخطوات فى هذا الطريق بالعمل الصالح واكتساب رضاء الله قبل القدوم عليه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأحسن كما أحسن الله إليك : أحسن إلى نفسك بأن تتقى الله فى كل ما تأتى وما تدع . وأحسن إلى الآخرين وما الإحسان إلى الآخرين إلا إحسان إلى النفس لأنه تزكية لها ، والصدقة تطهر النفس وتزكيها .

(ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين) فماذا كان وقع هذه النصائح عند قارون ؟ هذه المبادئ السامية ، التى إذا عممتها كانت الدستور لكل صاحب جاه أو نعمة .

لم تلق أذنًا مصغية لدى قارون الذى ألهاه التكاثر فقال ساخرًا متحديًا لا يبالى : (إنما أوتيته على علم عندى) فماذا كان الجزاء الإلهى على ذلك ؟

كان ما عبر الله عنه بقوله :

(فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سُجَّدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون[١٢٧] .

* * *

إن من المظاهر الصادقة للإيمان بآيات الله التى عبر عنها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أنه حينما يسمعها المؤمن على لسان قارئ أو على لسان واعظ ، حينما يذكر بها على أى وضع من

(١٢٧) سورة السجدة - آية (١٥) .

الأوضاع ، فإنها تلمس فى نفسه سر الله فيه وتؤثر على مركز النور والصفاء فى روحه ، وذلك لما بينها وبين الإيمان الصادق من صلة ، فإنها تعبر عنه وتشرحه موضحة ومرشدة وموجهة .

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون) .

ومقياس الإيمان الصادق إذن إنما هو الاستجابة الكاملة لآيات الله ، الاستجابة المقرونة بتعظيم الله سبحانه عن طريق حمده والثناء عليه ، الاستجابة التى يعبر عنها المعنى العميق للخضوع لما أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه ، وهذا هو المعنى الحقيقى للسجود ، وهذا هو ما يراد من وراء هذه الكيفية المخصوصة من وضع الجبهة على الأرض خضوعًا وتواضعًا وخشية .

والسجود يعبر عن منتهى الخضوع والخشية ، ومن أجل ذلك يقول رسول الله ﷺ : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

ومن أجل هذا القرب يحث رسول الله ﷺ على الدعاء فى أثناء السجود ، لأن القرب مظنة الاستجابة ويقول الله سبحانه وتعالى : (واسجد واقترب) .

أى اقترب من الله عن طريق السجود إليه .

وجوهر السجود فى حديث رسول الله ﷺ وفى الآية الكريمة إنما هو : الاستجابة فى كل أمر بما يناسبه ويتفق والأوضاع والشروط المطلوبة .

والله سبحانه حين أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام كانت استجابتهم فورية ولم يستجب إبليس ويفسر عدم استجابته بالكبرياء المتغلغل فى نفسه ، ومن أجل ذلك وصف الله المؤمنين فى الآية التى نحن بصددها بأنهم لا يستكبرون .

إن التواضع لله سبحانه وخشيته والاستجابة إليه مقياس الإيمان الصادق ، وليس ذلك كلامًا يقال ولا ألفاظًا تنمق ، وإنما يظهر فى صور محددة منها : أن المؤمنين الصادقين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، إنهم المتهجدون بالليل ، (يدعون ربهم خوفًا وطمعًا) ، ومن صفاتهم أنهم يشكرون الله بالإنفاق مما رزقهم ، إنهم يشكرونه على القوة بالإنفاق منها فى مساعدة الضعفاء . وعلى الجاه بالإنفاق منه فى مساعدة من لاجاه لهم ، وعلى الثراء بالتصدق ، والصدقة برهان ، ويشكرونه على العلم بتعليم الآخرين ، إنهم يخرجون زكاة كل نعمة أنعم الله تعالى عليهم ، والله سبحانه وتعالى يتحدث عن عاقبة أمرهم وعما ادخره لهم فيقول سبحانه : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

فى فضل سورة (يس) :

روى الإمام أحمد والحاكم وصححه معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قلب القرآن (يس) لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له . اقرءوها على موتاكم .

وكلمة اقرءوها على موتاكم «كلمة مطلقة فهى تفيد اقرءوها على من كان فى حالة الاحتضار ، وتفيد اقرءوها على موتاكم فى المقابر ، ويساند هذا ماذكره الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ ، وكان له بعدد من فيها حسنات .

ومذهب الجمهور من أهل السنة أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى المتوفى ، بل لقد ذكر ابن قدامة فى كتابه (المغنى) أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قال :

الميت يصل إليه كل شىء من الخير ، للنصوص الواردة فى ذلك ، ولأن المسلمين يجتمعون فى كل عصر ويقرءون ويهدون لموتاهم من غير نكير ، فكان إجماع .

فإذا ماقرأ إنسان القرآن بنية إهداء الثواب إلى الميت فإنه يقول : بعد الفراغ من القراءة « اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان »

على أن الجمهور من أهل السنة يعلن فى صراحة أن القراءة التى يصل ثوابها إلى الميت إنما هى القراءة التى ليست مأجورة ، ويعلن فى صراحة أيضًا أنه لابد من النية التى تتقدم القراءة .

وقراءة القرآن على الميت لاتتقدر بزمن بعد الوفاة . فلا تتقيد بمرور سبعة أيام أو أكثر أو أقل ، وما من شك فى أنه من الخير أن يُقرأ القرآن عند الميت فى حالة الاحتضار ، وأن يُقرأ بعد وفاته مباشرة ، وأن يُقرأ له بعد ذلك كلما تتاح الفرصة ، وليس فى الإسلام مطلقًا مايدل على أن القراءة تكون بعد سبعة أيام .

فى قوله تعالى :

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون)[١٢٨]

* * *

الأغلال جمع غُلّ بضم الغين ، وهو ماأحاط بالعنق ومع العنق اليدان ، واليد الواحدة للتعذيب .

---

(١٢٨) سورة (يس) آيتا (٧ ، ٨) .

مقمحون : رافعو رءوسهم غاضو أبصارهم لا يتمكنون من تحريك رءوسهم إلى اليمين أو الشمال .

ومعنى الآية : إن هؤلاء المعرضين عن الدعوة الذين صموا آذانهم عن سماعها ، وحجزوا عقولهم عن التدبر فيها ، أو محاولة فهم ما ترمى إليه ، مثلهم كمثل من قيدت يده إلى عنقه بغل ثقيل يمنعه من التحرك ببصره إلى مافيه نفعه .

فتصميمهم على الكفر يشبه الأغلال ، واستكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه يشبه الإقماح ، إذ إنهم لايتمكنون من خفض رءوسهم وهم مقمحون ، وكذلك لايتمكنون من التواضع لاستماع الدعوة وهم مستكبرون .

وهذا التشبيه فى الدنيا يتحول فى الآخرة إلى حقيقة واقعة . . . فتظهر الأغلال الثقيلة ، ويتعذب المعرضون على هذه الصورة المرهقة من العذاب .

فى قول الله تعالى :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفُجّار)[١٢٩]

° ° °

ذكر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة علامتين للأخيار تتضمن كل علامة منهما الكثير من الصفات .

أما العلامة الأولى – وهى الإيمان – فهى أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وكل شخص لاإيمان له فإنه لايتأتى أن يكون من الأخيار . فأساس صفة الخير فى الرجل إنما هى الإيمان ، ولكن الإيمان بدون العمل الصالح لايجعل الإنسان خيّرًا ، بل إنه يكون بلا إيمان ، لابد إذن ليكون الإنسان خيّراً بالعمل الصالح .

والصورة الثانية الصادقة للعمل الصالح هى أن يسلم الإنسان وجهه لله إسلامًا تامًّا ، أى أن يحقق الإنسان معنى كلمة إسلام . . وتحقيق معنى كلمة إسلام يبدأ أول مايبدأ بالتوبة الخالصة الصادقة النصوح ، ثم الأمانة الشاملة العامة .

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه لا إيمان لمن لاأمانة له . والأمانة الشاملة هى أمانة الإنسان على نفسه ، فلا يدنسها برجس ، وأمانته بالنسبة لوطنه فلا يغش ولايخون ، وأمانته بالنسبة لله

(١٢٩) سورة ص – آية (٢٨) .

سبحانه وتعالى . . يأتمر بما أمر وينتهى بما نهى ، ولن يكون إسلام الوجه لله كاملا إلا إذا تخلق الإنسان بالرحمة التى هى طابع الدين الإسلامى وغايته التى يقول الله سبحانه وتعالى عنها لرسوله ﷺ : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

هذه هى الخطوط الكبرى لصفات الأخيار . . أما المفسدون فإنهم الذين لا إيمان لهم ولم يعملوا الصالحات ، إنهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا ، أعداء الوطن ، وأعداء الله ، ولن يجعلهم الله فى الدنيا ولافى الآخرة كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فى معنى قوله تعالى :

(إنّك ميت وإنّهم ميتون ، ثم إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون)[١٣٠] .

* * *

هاتان آيتان من سورة الزمر ، ومعناهما كما حكاه المفسرون : أن الله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه ﷺ بعد أن دعا قومه إلى التوحيد واستفرغ جهده فى دعوتهم .

أنكم ستنتقلون من هذه الدار لامحالة ، فليست بدار بقاء لأنها فانية كما قال الله تعالى : (كل مَن عليها فان) فأنت يا محمد وهم ستموتون وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله تعالى فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتّاح العليم ، فينجى المخلصين المؤمنين الموحدين الذين عبدوه وحده ، ولم يشركوا فى عبادته غيره ، وعملوا الصالحات التى تنفعهم .

وأما الكافرون فإنهم يجازون على كفرهم وشركهم وعدم إيمانهم بالعذاب الأليم ، وهذه الآية وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ، فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، وإنه ستعاد الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ويقضى بينهم الحكم بالعدل ، وهم أحكم الحاكمين ، ويجازى كُلاًّ بما يستحق . روى الترمذى : عن الزبير رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية قال أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا يا رسول الله ؟ قال ﷺ « نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقّه . وقال الزبير : والله إنّ الأمر لشديد .

---

(١٣٠) سورة الزمر – آيتا (٣٠ ، ٣١) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنّه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . .)[١٣١]

* * *

فهذه الآية الكريمة تدعو كل مذنب إلى التوبة ، إنها لاتستثنى أحدًا وتأمر أن لا يقنط المسلم من رحمة الله ولو أسرف على نفسه بكثرة الذنوب وبكثرة المعاصى .

على أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة كل ذلك قد تضافر على وجوب التسوية ، يقول الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعًا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ومن المعروف فى الجو الإسلامى أن التوبة الخالصة النصوح تَجُبُّ ماقبلها ، وأنها تعطى الإنسان شهادة البراءة .

والتوبة التى من هذا النمط ليست كلمة تقال فحسب ، أو لفظة تنتهى بانتهاء اللسان من قولها ، ولكن التوبة ، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لاتتعلق بحق آدمى ، لها ثلاثة شروط .

الأول : أن يقلع المذنب عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فلها شرط رابع ، وهو أن يرد التائب الحقوق بقدر الاستطاعة ، فإذا فقد شرط من هذه الشروط فلا تصح التوبة والأمر فيمن جمع مالا كثيرًا عن طريق غير شرعى وأراد أن يكفر الله عن سيئاته واضح ، فلابد من التوبة الخالصة النصوح ، والمحققة للشروط التى سبق أن ذكرناها .

فى تفسير قوله تعالى :

(ومَن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين)[١٣٢] .

---

(١٣١) سورة الزمر – آيا (٥٣ ، ٥٤) .

(١٣٢) سورة فصلت – آية (٣٣) .

وقال ﷺ : نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها فأدّاها كما سمعها ، فربّ مبلّغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . وربّ حامل فقه ليس بفقيه . وقال : بلغوا عنى ولو آية .

والدعوة إلى الله عن أى طريق مطلوبة ومثاب عليها ، ففيها تعليم وإرشاد لمن لايعلم . . وفيها تذكير لمن يعلم ، قال تعالى : (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ولما اتسع المجال للدعوة وتحققت لها وسائل الانتشار فى أوسع حيز ممكن كان الثواب أجزل والخير أوفر . . إذ كل من يسمع صوت الدعوة الصالحة والإرشاد السليم يشهد لصاحبها بالعمل الصالح يوم القيامة . . وله ثواب كل من استفاد فائدة أو عمل عملا صالحًا .

قال ﷺ : من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه إثم من عمل بها من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا .

ولايضر الدعوة إلى الله بالراديو أو غيره من وسائل الإعلام ، أن تذيع هذه الوسائل حكايات أو قصصا غرامية .

إن هذه الوسائل الإعلامية تصوير للحياة بكل ألوانها . ومن الممكن للمستمع أن يختار منها مايشاء وعليه تقع مسئولية هذا الاختيار .

أما عن وجوب التزام هذه الوسائل الإعلامية لطريق الجادة باعتبارها مراكز توصية ومنارات هدى فهذا ماينبغى أن يكون . وعلى المسلم أن يتخير منها مايتفق وتعاليم دينه وهديه (من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وماربك بظلاّم للعبيد) .

فى تفسير قوله تعالى :

(لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون)

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون[١٣٣]) .

° ° °

وبالتالى هل يصح السجود على أيدى المشايخ أو الوالد أو أى شخص بقصد التبرك ؟

قال الله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانًا) وقال تعالى : (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا) فعبادة غير الله كفر بالله ، لأنها تأليه للمعبود ، وشرك بالله ، وفى تلك الآية التى نجيب السائل عنها أن العبادة لاتنبغى لغير الله ، وعبر بالسجود عن العبادة لأنه أبرز مايكون فيها ، والسجود بعض العبادة ، فإن أبى أحد إلا السجود لغير الله وعبادته فالله عز وجل

(١٣٣) سورة فُصّلت - آيتا (٣٧ ، ٣٨) .

غنى عنه وعن عبادته ، لأنه لديه من ملائكته وعباده الصالحين مَنْ لايستكبرون عن عبادته ويسبحون له بالليل والنهار وهم ، لا يملّون ذلك أبدًا .

والسجود الذى هو وضع الجبهة على الأرض لايجوز لأى شخص من الأشخاص ، سواء أكان أبًا أم شيخًا ، ولايجوز للأب ولاللشيخ أن يسمح لابنه أو تلميذه بذلك أما تقبيل يد الشيخ عند السلام عليه استحبابًا إن كان الشيخ من ذوى الصلاح والتقى وترجى بركته – فذلك جائز ، لأن التقبيل حينئذ تعبير عن الإجلال والاحترام والتوقير ، وإقرار بالفضل لذويه وفى تقبيل حامل قطف العنب بالطائف ليدى رسول الله ﷺ ورجليه حينما قال له رسول الله ﷺ من أى البلاد أنت ؟ قال : من نينوى فقال له النبى ﷺ : بلد الرجل الصالح يونس بن متى ، قال العبد : من أنبأك به قال إنه نبىّ فأكب على يدى رسول الله ﷺ ورجليه يقبلها .

ونخرج من ذلك من أن السجود بمعناه الحقيقى لايجوز للمخلوق أما تقبيل اليد احترامًا وإجلالا فإنه جائز ،

فى تفسير قول الله تعالى :

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)[١٣٤] .

° ° °

الأخ المسلم لايخذل أخاه ولايسلمه ولايظلمه .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : المسلم أخو المسلم . . .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال :

قال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (متفق عليه) .

ولقد أنزل الله سبحانه فى هذا الأمر ومثله قرانًا يتلى فى سورة الممتحنة فقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) .

وقال فى آخر السورة : (يأيها الذين آمنوا لاتتولّوا قومًا غضب الله عليهم) .

وقال سبحانه : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) .

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) .

---

(١٣٤) سورة الحجرات – آية (١٠) .

من تلك النصوص المجتمعة من الكتاب والسنة نفهم أن المسلم لايناصر كافرًا على مسلم بالقتال أو غيره ، فإن فعل ذلك فقد باء بإثمه وكان مع صاحبه فى النار قال ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

بل إن صلة الإسلام أولى بالرعاية والنصرة من صلة الرحم .

ومما أسلفنا نفهم أنه تجب نصرة المسلم على الكافر مالم يكن فى نصرته معصية لله تعالى ، ومناصرة غير المسلم على المسلم معصية لله ولرسوله يجب الكف عنها .

فى قول الله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا) ثم يعلل سبحانه هذه الوصية فيقول :

(حملته أمه كُرْهًا ووضعته كُرهًا ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً)[١٣٥] .

* * *

فإذا كان الابن خيّرًا مرضيًا لله ، ومرضيًا عنه من الله ، فإن الله يبين موقفه فى الآية نفسها متابعًا كلامه سبحانه فيقول : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تُبت إليك وإنى من المسلمين) .

ثم يبين الله سبحانه موقفه من مثل هذا الصالح فيقول :

(أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعْد الصدق الذى كانوا يُوعدون) .

ومن هذا القبيل قوله سبحانه وتعالى :

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهْنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير)[١٣٦] ولقد بين الله سبحانه الموقف الكريم ، والآداب التى يجب أن يتحلى بها الابن بالنسبة لوالديه فقال سبحانه : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانًا ، إما يبلغن عندك الكِبَر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولاتنهرهما ، وقل لهما قولا كريمًا ، واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

ولقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال سألت النبى ﷺ : أى العمل

---

(١٣٥) سورة الأحقاف - آية (١٥) .

(١٣٦) سورة لقمان - آية (١٤) .

أحب إلى الله ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال برّ الوالدين ، قلت ثم أى ، قال الجهاد فى سبيل الله .

فعلى الابن أن يبادر باسترضاء والده حتى يعفو الله عنه ، وإلافهو عاصٍ بمعصية هى من الكبائر ، وإذا استمرّ فى موقفه فيمكن للأب أن يرفع أمره للقضاء ليحكم له بما يجزى من مال ابنه الموسر .

فى تفسير آيات من سورة الحجرات :

(يٰأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدَىِ الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يٰأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)(١٣٧)

* * *

هذه الآيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام ، والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى : (يٰأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لاتسرعوا فى الأشياء بين يديه أى – قبله – بل كانوا تبعًا له فى جميع الأمور حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديث معاذ رضى الله عنه حيث قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله تعالى : قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال : بسُنّة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد برأيى ، فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ .

وقد رواه أحمد وأبوداود والترمذى وابن ماجه . فالغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنّة ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) لاتقولوا خلاف الكتاب والسنة .

وقال الضحاك : لاتقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، وقال سفيان الثورى : ولاتقدموا بين يدى الله ورسوله بقول ولافعل ، وقوله تعالى : (يٰأيها الذين امنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .

---

(١٣٧) سورة الحجرات – الآيات (١ ، ٢ ، ٣) .

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ فوق صوته . .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأنى موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ – افتقد ثابت بن قيس رضى الله عنه ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده فى بيته منكسًا رأسه ، فقال : له : ماشأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ ، فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا « قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : اذهب اليه فقل له . . إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة .

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إلى قوله (وأنتم لاتشعرون) . وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ ، أنا من أهل النار حبط عملى ، وجلس فى أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ، مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبى ﷺ : لا ، بل هو من أهل الجنة ، قال أنس رضى الله عنه ، فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى ﷺ ، قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال من أين أنتما قالا : من أهل الطائف . . فقال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا – وقال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيًّا وفى قبره ﷺ دائمًا . .

فى قول الله تعالى :

(يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليم خبير)[١٣٨]

* * *

إن الله سبحانه فى حكمته السامية ماجعل الناس شعوبًا وقبائل ليتدابروا ويتنافروا ، فإن الإسلام قد نهى عن التدابر والتنافر ، وأمر بالتعاطف والتراحم حيث قال ﷺ لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتباغضوا ولاتحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، وأمرهم أن يعملوا جاهدين لتحقيق الخير من أجل الإنسانية حتى يثيبهم عليه تزكية نفس وصفاء روح وأمنًا وطمأنينة والتجاء إلى الله شكرًا وعرفاناً فتكون التقوى ، فيصل الإنسان إلى أن يكون كريمًا عند الله ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، فإذا ما كان الفرد كريمًا على الله فإن الله لايسلمه ولايخذله ، ومن يثق بالله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وإذا كان المجتمع كريمًا على الله بالتقوى فإن الله سبحانه يكون عونه وناصره وكفى بربك هاديًا ونصيرًا للفرد ، وهادياً ونصيرًا للمجتمع ، ويتحقق السلام للفرد وللإنسانية تحققًا كاملا باتباعهم الرحمة والأخوة والتعارف ، أو بتعبير أقصر بإسلامهم ، لأن الإسلام إنما هو أن يسلم الإنسان وجهه لله ، يسلمه له إسلامًا كاملا لاشائبة فيه من تعصب بيئى أو عنصرى ، قال ﷺ فيما رواه أبو داود « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية والإسلام ليس فيه تعصب ولاافتخار بالآباء والأجداد يقول ﷺ فى حجة الوداع . « إنّ الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد – الناس لآدم وآدم من تراب ، ولافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقال ﷺ لرجل قال لصاحبه يابن السوداء : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ويجب أن يكون إسلامًا صافيًا كاملا حتى تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لاشريك له ، فإذا ما أسلم وجهه هذا الإسلام كان رحمة وكان تعاطفًا ، وكانت صلته بالشعوب والقبائل صلة تعارف لاصلة تنافر ولاتعادى ولاتدابر ، وصلة الإسلام إذن بالسلام الفردى والسلام العالمى على هذا الوضع صلة واضحة .

إن الإسلام هو الموصل للسلام العالمى ، يقول الله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم

(١٣٨) سورة الحجرات – آية (١٣) .

إلى صراط مستقيم) فكتاب الله سبحانه هو الذى يرسم السلام ويرسم سبل السلام ، وهو سبحانه إذا فعل ذلك فإنما يفعله على علم ويفعله على حكمة ، والله سبحانه يأمر المؤمنين جميعًا أن يدخلوا فى الإسلام كافة (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وعدم الدخول فى السلم إنما هو اتباع خطوات الشيطان .

فى معنى قوله تعالى :

(إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لايمسّه إلا المطهرون) (١٣٩) .

* * *

القرآن نور أنار الله به طريق السير للمؤمنين ومنّة امتن بها عليهم . وطالبهم باحترامه والقيام بحقوقه ، وحذرهم من التفريط فى احترامه فضلا عن امتهانه .

والذى يبيع بعض الحاجات فى ورقة بها آية أو آيات قرآنية مرتكب لمنكر ، والذى يبيع من الورق مافيه آية قرآنية لمن يبيع فيه ويمتهنه مرتكب لمنكر وهكذا .

ولايعتبر الامتهان غير مقصود إلا إذا غفل المسلم عنه ، أو ظن أن ما فى الورق ليس بقرآن .

فإذا ماتمزقت أوراق مصحف أو بعض أوراقه بادر الإنسان بحرقها إذا لم يتيسر له حفظها فى مكان آخر أو إلقائها فى البحر ، لأن الماء سيزيل آثار الكتاب وتتحول حينئذ إلى أوراق عادية سرعان ماتتآكل .

والمقصود من هذا كله ، المحافظة على القرآن الكريم والقيام بما يجب نحوه من احترام .

وإذا كان الله تعالى قد منع غير المتطهر من مس المصحف أو شىء من القرآن فإن امتهان القرآن من أكبر المحرمات . وقد كان سبب الويال لبعض الأمراء الذين استهانوا بحرمته فمزقهم الله شرّ ممزق .

فى معنى هذه الآية :

(قد سمع الله قَوْل التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إنّ الله سميع بصير) (١٤٠) .

* * *

---

(١٣٩) سورة الواقعة -- الآيات (٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) .

(١٤٠) أول سورة المجادلة .

أولا : سبب نزولها :

روى أن خولة بنت ثعلبة ظَاهَر عنها زوجها أوْس بن الصامت فاستفتت رسول الله ﷺ فقال : حَرُمْتِ عليه ، فقالت : ماطلقنى ، فقال : حرمت عليه .

فاغتمّت لصغر أولادها ، وشكت إلى الله تعالى ، فنزلت هذه الآيات الأربع من سورة المجادلة وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقع أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ويفرج كربها .

ثانيا : المعنى :

قد سمع الله أى سمع الله شكوى المرأة التى تجادل وتكثر الأسئلة على الله عز وجلّ وكذلك الشكوى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما » أى تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب (إن الله سميع بصير) سامع للأقوال ، عارف مرماها ونتيجتها ومغزاها ، بصير بأحوالها وخبير . (من تفسير البيضاوى) .

فى قوله سبحانه فى سورة الممتحنة :

(لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)[١٤١] .

* * *

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة فى مناسبات تشبه مايسأل عنه السائل ، فقد أسلم كثير من القرشيين ولهم أقارب تختلف درجة قرابتهم قربًا وبعدًا ، ونشأت ظروف تساءل فيها المسلمون عما إذا كان يباح الاتصال بآبائهم أو أمهاتهم ، وعما إذا كان يباح لهم أن يبروا الأقارب بمختلف أنواع البر أو يتقبلوا برهم وهداياهم ، فنزلت الآيات الكريمة بالقانون الإلٰهى توضح الموقف : نسالم من سالمنا ونحارب من حاربنا وهو قانون طبيعى إنسانى . والإسلام يقف من المعادين لنا موقفًا حاسمًا ؟

(لا تَجِـدُ قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم

---

(١٤١) سورة الممتحنة - آيتا (٨ ، ٩) .

جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون)[١٤٢] .

من ذلك نتبين أن المسلم يؤاكل غير المسلم ويصافحه ويتعامل معه فى المباحثات من أنواع التعامل مادام السلام موجودًا بينهم ، أما فى حالة الحرب فلا يصح من ذلك إلا ماتقتضيه ضرورة الحرب .

فى معنى قول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)[١٤٣] .

فى هذه الآية الكريمة يسأل الله المؤمنين سؤالا استنكاريًا مؤنبًا لهم ، طالبًا منهم السبب فى أنهم يقولون بألسنتهم مالا يفعلونه بجوارحهم ، ويتحدثون إلى الناس عن الخير ولايفعلونه ، ثم يعرفهم منزلة هذا الذى يدعو إلى الخير ولايعمل به ، فيقول لهم كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون ، فكل من يدعو إلى خير ولا يعمل به ، ممقوت عند الله وملائكته والناس أجمعين .

خصوصًا هذا الذى يتكبر ولايصلى ، ذلك أن المتكبر لايحبه الله (إن الله لايحب كل مختال فخور) أما ترك الصلاة فإنه يصل بالإنسان إلى النفاق وإلى الكفر والعياذ بالله ، يقول أحد الصحابة « ... ولقد رأيتنا ومايتخلف عنها - أى عن الصلاة - إلا منافق . ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى به - أى يسنده الآخرون لمرضه حتى يقف فى الصف » .

والداعى إلى الإسلام دون أن يعيش إنما هو مثل سيئ إلى الدعوة الإسلامية ، وأن الدين الإسلامى إنما هو دين إخلاص وصفاء . لايعتد بمظاهر الخير مالم تكن صادرة من قلب طاهر (ألا لله الدين الخالص) .

فى تفسير قول الله تعالى :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون)[١٤٤] .

* * *

---

(١٤٢) سورة المجادلة - آية (٢٢) .

(١٤٣) سورة الصف - آيتا (٢ ، ٣) .

(١٤٤) سورة المنافقون - آية (٨) .

العزة هى حالة مانعة للكائن الذى يتصف بها أن يغلب أو يقهر العزيز هو الذى يُقهِر ولايُقهَر . . . العزيز على وجه الإطلاق هو الله سبحانه ، إنه القهار الغالب لايجرى فى السماوات والأرض إلا مايريد .

إن العزة المطلقة له سبحانه ، وهذه العزة يفيض الله منها على المؤمنين به حسب درجة إيمانهم إنه سبحانه يمنحها لكل من سار على هداه سبحانه ملتزمًا تعاليمه بوحدانيته مؤتمرًا بما أمر ، منتهيًا بما نهى .

وأقوى المؤمنين إيمانًا إنما هم الرسول عليهم الصلاة والسلام ، ويتلوهم من آمن بهم على تفاوت فى الدرجة . والمثل الذى نريد أن نقدمه بيانًا وتوضيحًا هو مثل المسلمين الأول ، لقد آمنوا بالله إيمانًا وقر فى صدورهم وصدقه العمل ، فكانت لهم العزة والغلبة ، وإنها لقاعدة عامة للمسلمين لاتتخصص بمكان ولازمان بأنهم كلما كانوا أقوى إيماناً كانوا أعز جانبًا (ولينصرن الله من ينصره) .

أما هذا الذى ينصرف عن الله مستسلمًا لشهواته فإن الله سبحانه يجعل منه بين الناس شيئًا تافهًا لايبالى به أحد ، إن الله سبحانه يهيئه بإنزال درجته فى المجتمع بما كسبت يداه ومن ينزل الله مكانته لايتأتى لكائن من كان أن يرفعها ، ولن ترفع إلا إذا رجع الشخص إلى الله مغيرًا سلوكه معه سبحانه ، إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . .

فى فضل من قرأ سورة الملك :

يقول رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لاأقول (الم) حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

ولسورة الملك ثواب خاص بها ، فضلا عن ثواب تلاوة القرآن الكريم ، وقدورد أنّ من داوم على قراءة هذه السورة كل ليلة كانت شافعة له فى قبره ومؤنسة لديه .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان لا ينام كل ليلة حتى يقرأ سورتى السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك ، وهذا يشعر بمنزلة هاتين السورتين وعظم فضلها .

وفى سورة الملك بالذات ورد الحديثان التاليان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفر له وهى) : (تبارك الذى بيده الملك) رواه أبو داود والترمذى وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« وددت أنها فى قلب كل مؤمن – يعنى تبارك الذى بيده الملك » .

رواه الحاكم .

فى تفسير قوله تعالى :

(قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدًا ، عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا)[١٤٥] .

* * *

رأى بعض العلماء فى هذه الآية أنه لا يطلع على بعض الأمور الغيبية إلا من اصطفاه الله لرسالته ، وأن غير الرسل لا يطّلعون على شىء من الغيب ، ورأى البعض الآخر أن المراد بالإظهار على الغيب وتعريفه انكشافه انكشافًا تامًّا لالبس فيه ، وذلك مختص بالرسل إما على وجه المعجزة أو على وجه بيان تفاصيل الشريعة التى أمروا بتبليغها .

ويرى هؤلاء العلماء أن اختصاص الرسل بالاطلاع على بعض الأمور الغيبية على ماهى عليه وفى أعلى مراتب الإدراك والمعرفة لاينفى اطلاع غيرهم على شىء من الغيب على صورة أدنى من الصورة التى يدرك بها الرسل الأمور الغيبية ، فالغيب يتكشف للرسل بالوحى الصريح ، ولاينكشف لولى شىء عن هذا الطريق .

قال النسفى : والولى إذا أخبر بشىء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه خبر بناء على رؤياه أو بالفراسة على أن كل كرامة للولى هى معجزة للرسل .

وقد روى ابن جرير والترمذى وغيرهما فى تفسير قوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

ويرى بعض العلماء أن المراد بالغيب الذى اختص الله بعلمه ولا يُطلع عليه أحداً من خلقه إنما يتمثل فى مثل قوله تعالى (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى الأمور التى تتعلق بالرزق أو الأجل أو قيام الساعة ونحوها وما يتصل بتنظيم الله تعالى .

وعلى كل فلم يرد ما يمنع صراحة من اطلاع بعض الصالحين على أمور من الغيب تثبيتاً لهم ، وتقوية ليقينهم ، ومعجزة لنبيهم لأن كل كرامة لولى معجزة للنبى الذى يتبعه .

---

(١٤٥) سورة الجن – الآيات (٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧) .

فى قوله تعالى : (عبس وتولى . .) إلخ .

* * *

أى شعر بالحرج والضيق حينما دخل عليه الأعمى وهو يدعو بعض رؤساء الكفر إلى الإسلام ، فخاف أن يقطع دخول هذا الأعمى حديث الدعوة إلى الله تعالى ويضيع ما يمكن أن يكون قد علق بقلب هذا الكافر منه .

ولم يكن إعراضه ﷺ عن الأعمى أو ضيقه به تحقيراً له أو توهيناً لشأنه وإنما كان تقديماً للأهم على المهم ، فجلوس رئيس من رؤساء الشرك لسماع الدعوة وتقبله لما يلقى عليه فرصة قد لا تعوض ، وقد يسلم فيسلم بإسلامه كثيرون ، أما هذا الأعمى فالفرص أمامه كثيرة ولقاء الرسول ﷺ متيسر له متى شاء .

قال ابن حزم : أما قوله تعالى : (عبس وتولى . .) الآيات . . فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش ورجا إسلامه ، وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير ، وأظهر الدين ، وعلم أن هذا الأعمى الذى يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته وهو حاضر معه ، فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته ، وهذا غاية النظر فى الدين والاجتهاد فى نصرة القرآن ، فى ظاهرها الأمر ونهاية التقرب إلى الله الذى لو فعله اليوم بنا فاعل لأجر لعاقبه الله عز وجل على ذلك ، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل التقى .

وكأن الله سبحانه وتعالى بهذا يوجه إلى فضل المؤمن على غيره من الكفار مهما كانت الفروق الدنيوية من المال والجاه ونحوهما ، والآية الكريمة تبين شدة حرص الرسول ﷺ على الدعوة إلى الله سبحانه ، ونبين من جانب آخر قيمة المؤمن عند الله وفضله على غيره من أهل الشرك والضلال .

فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة من سورة البروج :

إن هذه الآيات الكريمة من سورة البروج وقد نزلت هذه السورة الكريمة لتبين أن المؤمن يؤدى رسالة ، وأن مثله فى هذه الحياة الدنيا مثل أصحاب الرسالات الذين يجاهدون فى سبيل الله ، فيصادفون فى ذلك مصادفة المعارضين وكيدهم ومكرهم وتعذيبهم ، ومادام الإيمان يملأ القلب فإن المؤمن يصبر على كل ذلك مجاهداً إلى النهاية فينال النصر أو الشهادة ويضرب الله مثلا للمؤمنين

بأصحاب الأخدود ، والأخدود الحفرة المستطيلة فى الأرض ، وأصحاب الأخدود هم الذين حفروا هذه الحفرة المستطيلة وأوقدوا فيها النار مشتعلة متأججة وأتوا بالمؤمنين الذين لم يفعلوا جريمة ولم يرتكبوا أى ذنب إنما كان كل ما يأخذونه عليهم إنما هو أنهم آمنو بالله العزيز الحميد . ولقد عذبوهم بسبب إيمانهم وألقوا بهم فى النار بسبب إيمانهم ، وقد استمسك هؤلاء المؤمنون بإيمانهم لم يحيدوا عنه قيد شعرة . وجلس الطغاة على حافة النار ينظرون فى نوع من التسلية إلى هؤلاء المؤمنين الذين يقذف بهم فى النار واحد بعد واحد دون أن تنبض قلوب الطغاة برأفة أو برحمة .

وهذه القصة كانت بين اليهود ونصارى نجران ، فقد تآمر اليهود على نصارى نجران ودبروا المكيدة لهم فاستولوا على المدينة ، وحفروا الأخدود وألقوا النصارى واحداً بعد الآخر فى الحفرة التى حفروها ، وكانت جريمة بشعة تضاف إلى جرائم اليهود التى لا حصر لها عبر التاريخ ، قاتلهم الله . إن لهم أثراً سيئاً فى كل مكان يحلون به وإن لهم لجريمة فى كل أرض يمسون ترابها ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمهلهم كثيراً فى نشوة انتصارهم ، وعبر عن ذلك بقوله تعالى : (قُتل أصحاب الأخدود) أى أن الله سبحانه وتعالى أهلك هؤلاء اليهود ودمرهم بجريمتهم ، ولقد كان هذا الشأن شأن الله سبحانه وتعالى دائماً معهم ، فإنهم بنص القرآن كلما أوقدوا ناراً للحرب متمشين فى ذلك مع طبيعتهم - أطفأها الله وخذلهم شرّ خذلان . .

فى تفسير قول الله تعالى :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره)[١٤٦] .

° ° °

وكل إنسان مجزى يوم القيامة بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر هذه هى القاعدة الإسلامية ، قاعدة العدالة والجزاء على ما قدم الإنسان من عمل ، والصالحون دائماً بين الخوف والرجاء ، وهما شعار المؤمن التقى ، ولقد قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وهو من هو فضلا وتقوى ، وصلاحاً ، إنابة إلى الله ورجوعاً إليه ، لقد قال : « والله لا آمن من مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » .

بيد أن فضل الله وكرمه ورحمته لا يحدها حد ولا يقيدها قيد ، مشيئته مطلقة ، فإذا ما شاء عفا وغفر وهو الغفور الرحيم ، ومن أجل ذلك وردت نصوص تبعث فى النفس الرجاء وتذهب اليأس والقنوط ، منها الحديث التالى ، وهو حديث صحيح ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١٤٦) سورة الزلزلة - آيتا (٧ ، ٨) .

« إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق » ومنها قوله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة » وكان أبو ذرّ رضى الله عنه يسمع هذا الحديث من فم رسول الله ﷺ فقال سائلا رسول الله ﷺ : وإن زنى ، وإن سرق يا رسول الله ؟ فأجاب ﷺ : وإن زنى وإن سرق ، وكرر أبو ذرّ السؤال فكرر رسول الله ﷺ الإجابة وقال : فى المرة الأخيرة برغم أنف أبى ذرّ . على أن هذا الحديث نفسه حينما يلاحظ الإنسان قوله ﷺ : (خالصاً من قلبه) يعلم أن من قال لا إله إلا الله وتحقق إخلاص القلب بهذه الكلمة التى تزن الأرض والسماء فترجح فإنه لا يزنى ولا يسرق ولو فرضنا أنه أثِمَ ، فإنه يرجع إلى الله مباشرة بالتوبة الخالصة النصوح . والتوبة الخالصة النصوح تجبّ ما قبلها . .

وسئل رضي الله عنه
في السنة النبوية الشريفة

منهج الإيمان والرحمة فى رحلة الحياة

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أنس بن مالك بن صعصعة ، أن النبى ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به ، وكان مما قال فى هذا الحديث الصحيح : إن جبريل عليه السلام شقّ عن صدره واستخرج قلبه الشريف ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة ، فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد .

وأخرج الشيخان من طريق يونس عن الزهرى عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج سقف بيتى وأنا فى مكة ، فنزل جبرائيل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى وأطبقه .

ثم بدأت الرحلة .

وكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ هو مشهد قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى ﷺ : ياجبرائيل ما هذا : قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

وأول مشهد إذن بعد امتلاء القلب حكمة وإيماناً هو مشهد الجهاد ، وما من شك فى أن القلب إذا امتلأ إيماناً وحكمة فإن الجهاد يصبح فى أوائل ما يحافظ عليه من شعارات جهاد النفس لتتزكى ، وتزكية النفس لا حد لها ، والصفاء لا نهاية تحده ، وكلما سما الإنسان فى الصفاء درجة قرب من الله أكثر ، والقرب من الله لا نهاية له ، وهذا القرب هو غاية المؤمنين ، ومن وقف منه عند حد معتقداً أن هذا هو نهاية المطاف فإن هذا يكون دليلا على أن همته بهمة السابقين السباقين .

وجهاد الأسرة حتى تستقيم والله سبحانه وتعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة . .) ووقاية الأهل من النار هو جهادهم حتى يستقيموا ويمتنعوا عن الوقوع فى المعصية فذلك هو وقايتهم .

وجهاد المجتمع ليكون مجتمعاً مؤمناً وهذا الجهاد عنصر هام من عناصر خيرية الأمة الإسلامية والله سبحانه وتعالى يقول :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) .

ويقول سبحانه :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . .) ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه الترمذى وأبو داود :

والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم .

ومن أسمى أنواع الجهاد هو جهاد العدو بالسلاح واللسان والمال ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

ويقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . . العظيم) . هذا هو الجهاد الذى رأى رسول الله ﷺ مشهده أول ما رأى من مشاهد بعد أن مُلئ قلبه الشريف حكمة وإيماناً .

ولقد وصل الأمر فى عقاب التاركين للجهاد أن ينذرهم رسول الله ﷺ إنذاراً شديداً .

فعن أبى بكر رضى الله عنه – فيما رواه الطبرانى بإسناد حسن – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب » .

فى محبة الرسول

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

(من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية لأوليائه .

وأولياؤه هم :

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى :

« آذنته بالحرب » .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه : وأول خطوة فى هذا الطريق أداء ما فرضته عليه . ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول : شرط القرب منه سبحانه ، وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب . بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله .

لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، كما يقول رسول الله ﷺ ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لابد من أداء الفرائض وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل ، ومع أداء الفرائض فى جو القرب – الإكثار من النوافل ، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى .

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى .

ويربط أسلافنا – رضوان الله عليهم – ربطاً محكماً بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هى العمل ، ونتيجة محبة الله هى العمل ، يقول الإمام أبو سعيد الخراز : وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنهما أن أناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إنا نحب ربنا حبًّا شديداً فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عزّ وجل :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

فمن صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك ويقول :

فعلامة الحب الموافقة للمحبوب ، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه .

أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول : وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟

قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

وفى رواية : ومن نفسه .

كيف وقد قال الله تعالى :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ . إلٰهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك . صغيراً أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبًّا ، تسقينى من حياضك ، وتمهلنى فى رياضك ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك . . ولمّا طَرّ شاربى . ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كثيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

وهى أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان . يقول رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

١ – أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

٢ – وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

٣ – وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار .

والآن نتحدث إن شاء الله عن المحبة عند الشبلى أما عن أسبابها فإنها فيما يرى نتيجة (الهمة) والهمة عند الصوفية هى التشمير والجد فى العبادة ويقول الشبلى : إن من قلت همته ضعفت محبته فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعودًا وهُبوطاً .

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شىء فقال : من عرف الله ثم عصاه .

فى الاقتداء برسول الله ﷺ

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة إنه الأسوة الحسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله : يقول الله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)

ويقول الشيخ الصاوى فى شرحة على تفسير الجلالين « الاقتداء برسول الله ﷺ واجب فى الأقوال والأفعال والأحوال لأنه لا ينطق عن هوى ، ولا يفعل عن هوى بل جميع أفعاله وأقواله وأحواله عن ربه ، لذا قال العارف :

وحصل بالهدى فى كل أمر فليس تشاء إلا ما يشاء » ا . هـ .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) .

وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ واجباً فإن له شروطاً لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها ، وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط .

والشرط الأول منها : أن يرجو الإنسان الله سبحانه وتعالى : ورجاء الله تعالى قد حدده الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

فالعمل الصالح وعدم الشرك فى العبادة أمران لازمان لمن كان يرجو لقاء الله فى صدق .

ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك :

وهذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وعن طاوس قال :

قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

ورجاء اليوم الآخر هو الشرط الثانى والتأسى برسول الله ﷺ إنما يتمثل فى العمل لهذا اليوم حتى يلقى الله فيه وهو عنه راض .

ويصف الله سبحانه الذين لا يرجون لقاءه ، ولا يرجون اليوم الآخر فيقول : (إن الذين

لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

وبعد ، فإن الشرط الأخير فى الوصول إلى التأسى برسول الله ﷺ هو الذكر الكثير . ولقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلا :

إن شرائع الإسلام كثرت علىّ ، فأخبرنى بشىء أتشبث به ، فقال له ﷺ لا يزال فوك رطباً من ذكر الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : (واذكروا الله كثيراً لعلكم تتقون) .

كان أصحاب رسول الله ﷺ يقتدون به فى كل شىء . . . أخرج البخارى ومسلم ومالك والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سعيد بن يسار قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق مكة ، فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : أليس لك فى رسول الله أسوة حسنة ؟ قلت : بلى . قال : فإنه كان يوتر على البعير .

وأخرج البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بالصفا والمروة ؟ فقال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمر رضى الله عنه أكب على الركن فقال : إنى لأعلم أنك حجر ولو لم أر رسول الله ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك وما قبلتك . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

فى سيادة الرسول فى التشهد وغيره

كان رسول الله ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكنه أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال . ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة ، أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

ولا فخر . . وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر ، فنحن أمام موقفين : موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا تذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحقه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى موطن آخر ، ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه ، تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام ليذكره بألفاظ السيادة من أراد وهو ما نراه ، والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها ، بقى أن نقول إن بعض الناس غالى فى ترك النبى ﷺ بألفاظ السيادة ، فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق هواه ألا وهو حديث : (لا تسيدونى فى الصلاة) إنه ليس بحديث إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . لا أصل له .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال : لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه . قوموا لسيدكم ، ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه فيما رواه البخارى : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا – يعنى بلالا ، وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى صفة خاتم النبى ﷺ

وردت الأحاديث الصحيحة فى صفة خاتم النبى ﷺ وما عليه من النقوش ، روى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ صنع خاتماً من ذهب فتختم به فى بيته ، ثم جلس على المنبر فقال : « إنى كنت اتخذت هذا الخاتم فى يمينى » ، ثم نبذه ونبذ الناس خواتيمهم .

وبذلك بين حرمة اتخاذ الخواتم من الذهب .

وكان ﷺ يلبس الخاتم فى يده اليمنى قال الترمذى : وهذا أصح شىء روى عن النبى ﷺ فى هذا الباب وكان لخاتمه من الفضة نقش به وكان هذا النقش كما تبينه رواية الترمذى عن أنس ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ولقد كان النبى ﷺ يراعى حرمة اسم الله على الخاتم فكان إذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة نزع خاتمه .

أما عن سبب وجود اسم الله على هذا الخاتم فلأن الرسول ﷺ كان يختم به الخطابات التى يرسلها إلى رؤساء العالم وملوكه ، فكان شعاراً للدولة الإسلامية ، أو خاتماً تختم به الخطابات الرسمية ليعبر عن صفة مرسله ومكانته .

ومما لا يخفى أن هذا النقش كان خاصًّا به ﷺ ، لا يجوز لأحد تقليده فيه . . . لأنه لا رسول بعده ، ولا يصح لأحد أن ينتحل شخصيته .

وكان خاتم رسول الله ﷺ من فضة فصه منه .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صنع خاتماً من ورق فنقش فيه (محمد رسول الله) ثم قال : « لا تنقشوا عليه » . . قال الترمذى : وما معنى قوله : « لا تنقشوا عليه » نهى أن ينقش أحد على خاتمه محمد رسول الله .

فى صيام الاثنين والخميس

كان ﷺ ، يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع ، ولما سئل عن صيامه قال :

يوم ولدت فيه : وأرسل إلى فيه وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ : فضلا عن قيامه بواجب شكر الله عز وجل على ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود وإرساله إلى الناس ، فى هذا اليوم العظيم ، يأمر أصحابه بصيامه شكراً لله على تلك النعمة ، التى أسبغها الله عليهم وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين وسن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياء لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيما مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إعطاء الطعام وذكر الله عز وجل ، وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ ، وحثهم على متابعته .

أما ما يحدث فى الموالد اليوم ، من لهو صارف عن طاعة الله وطاعة رسوله ، ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيما مضى ، والموالد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يراعى لله ولا لرسوله حرمة .

فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف

أما عن الاحتفال بالمولد النبوى فهو سُنّة حسنة من السُّنن التى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « مَن سنّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

وذلك لأن له أصولا ترشد إليه وأدلة صحيحة تسوق إليه ، استنبط العلماء منها وجه مشروعيته . ومن هذه الأدلة ما يأتى :

١ – سئل ﷺ عن صوم الاثنين فقال :

« فيه ولدت ، وفيه أُنزل علىَّ » . رواه مسلم .

فجعل ولادته فى يوم الاثنين سبباً فى صومه .

٢ – سئل ابن حجر عن هذا المولد فكان مما قال وقد ظهر لى تخريجها على أصل ثابت وهو ما يثبت فى الصحيحين من أن النبى ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسألهم فقالوا : هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى ، فنحن نصومه شكراً لله تعالى . . فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما منّ به فى يومٍ من إسداء نعمة أو دفع نقمة ، ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة .

والشكر لله يحصل على أنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة – وأى نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبى نبى الرحمة فى ذلك اليوم .

أما التاريخ الذى ابتدأ به هذا الاحتفال فقد قال السيوطى :

إن أول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زيد الدين على ابن بكتكين ، أحد الملوك الأمجاد والكبراء والأجداد ، وكان له آثار حسنة ، وهو الذى عمر الجامع المظفرى بسفح قيسون وكان ذلك فى القرن السابع .

ولا يعنى ترك السلف لهذا العمل الصالح مخالفته للشرع لأن السلف الصالح كان عندهم من اليقظة الدينية وحب النبى الكريم مايغنيهم عن التذكير بيوم مولده للاحتفال . ومما ينبغى التنبيه إليه أن الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ينبغى أن يكون باستعراض سننه ، والتذكير بدعوته ، والاسترشاد بهديه ، وأن يكون بالإكثار من العبادة والذكر والصدقة فى سبيل الله ، هذا ومما ينافى الاحتفال بهذه الذكرى اختلاط النساء بالرجال ، وانتشار المفاسد والموبقات ، والإقبال على المحرمات وما إلى ذلك مما هو معروف .

لماذا لم يكن الصحابة والتابعون يحتفلون بمولد نبينا محمد ﷺ ونحن نحتفل بمولده ﷺ ؟

كان ﷺ يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع . . ولما سئل عن صيامه قال : يوم وُلدت فيه . وأُرسل إليَّ فيه . . وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل .

وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ فضلا عن قيامه بواجب الشكر لله عز وجل على ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود ، وإرساله إلى الناس فى هذا اليوم العظيم يسن لأصحابه صيامه شكراً لله على تلك النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين ومن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياء لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيما مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إطعام الطعام وذكر الله عز وجل .

وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ وحثهم على متابعته ، أما ما يحدث فى الموالد اليوم من لهو صرف عن طاعة الله وطاعة رسوله ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيما مضى .

والمولد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يرعى لله ولا لرسوله حرمة . .

فى كيفية الصلاة على النبى

كان الرسول ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكن أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول : فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشفَّع .

وفى رواية أخرى : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . وسيد لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » .

فنحن أمام موقفين موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا نذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحسنه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى مواطن أخر . ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام بذكره بألفاظ السيادة لمن أراد وهو ما نراه .

والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها بقى أن نقول : إن بعض الناس غالى فى ترك ذكره ﷺ بألفاظ السيادة فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق ميوله ألا هو حديث : لا تسيدونى فى الصلاة .

إنه ليس حديثاً - إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . . لا أصل له .

وعلى ذلك فلا مانع يمنع من ذكر الرسول ﷺ بألفاظ السيادة فى التشهد وغيره امتثالا لقوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه .

قوموا لسيدكم .

ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه فيما رواه البخارى :

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالا .

وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ ، عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى دلائل الخيرات

إن دلائل الخيرات إنما هى صلوات على رسول الله ﷺ . ولا تمنع طريقة من الطرق الصلوات على رسول الله وذلك لأن الله أمرنا بالصلاة عليه فقال سبحانه : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) ، ورجال الطريقة التيجانية

ومشايخها يقرءون دلائل الخيرات ، وكان الشيخ عمر غمبو خليفة التيجانية بالسودان يقرأ دلائل الخيرات هو وتلاميذه وتابع أبناؤه قراءتها من بعده ، بل إنه توجد نسخة من دلائل الخيرات بخط العارف بالله الشيخ أحمد التيجانى الكبير ، شيخ الطريقة ، ويقول فضيلة الشيخ الحافظ التيجانى خليفة الطريقة بمصر : إن الأوراد اللازمة فى الطريقة يصح أداؤها بأية صيغة للصلاة على النبى ، وأنه يجوز لقارئ ورد التيجانى أن يقرأ دلائل الخيرات بل إن فى الطريقة التيجانية أحزاباً من الطريقة الشاذلية وضرب النووى ولا حرج على السالك أو المريد مادام يلتزم طريقة واحدة لأن من انقطع لشىء أحسنه .

فى الرسول ﷺ ، وسنته الشريفة .

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ، ﷺ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله ، فموسى عليه السلام أرسل لبنى إسرائيل خاصة ، لقد اقتصرت دعوته على بنى إسرائيل ، لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون ، عليهما السلام ، إلى فرعون ، قالا له :

(إنّا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل) .

فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل ، ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب أو الأمم فى سبيل دعوته ، وعيسى عليه السلام : إنما أُرسل إلى . . « خراف بنى إسرائيل الضالة » على حد تعبيرهم القديم ، ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول أن يجاهد من أجلها .

أما رسول الله ﷺ : فإنه أُرسل إلى الناس جميعاً : إنه أُرسل إلى الناس جميعاً من حيث المكان ، وأرسل إليهم جميعاً من حيث الزمان ، فهو الرسول الدائم زماناً ومكانا . (قل يأيها الناس إنى رسول الله عليكم جميعاً) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذى أنزله على رسوله ﷺ ، ضماناً لهذا العموم فى الزمان وفى المكان ، وتحقيقاً له (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومن أجل هذا الوعد يحفظ الوحى كاملا غير منقوص ، صحيحاً غير مزيف ، إنّ الحكمة الإلٰهية فى الإنسانية لا تحتاج إلى رسول بعد الرسول ، ولا إلى نبى بعد النبى ، إنه صلوات الله وسلامه عليه ، خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء .

ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة ، فكان هو هى شرحاً وتفصيلا .

وكانت هى هو بياناً لمعدنه وجوهره ، وخلافة له ونيابة عنه .

تقول السيدة عائشة ، رضى الله عنها : لقد كان خُلقه القرآن ، وهذه الكلمة من السيدة عائشة : رضوان الله عليها : تحتاج إلى تحديد وبيان : ذلك أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها . ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين .

فهل تريد السيدة عائشة « رضوان الله عليها » حينما تصفه ﷺ بأن خلقه القرآن ، هل تريد الخلق الكريم فى حده الأدنى ؟ أو تريده فى حده الأوسط ؟ أو تريده فى حده الأقصى ؟

إن القرآن يحدد الدرجة التى وصل إليها الرسول ﷺ من الخلق القرآنى : فيقول : سبحانه لرسوله ﷺ (وإنك لعلى خلق عظيم)

هذه الآية القرآنية وصل إليها الرسول ﷺ ، إنها ذروتها وسنامها .

أول المسلمين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ، ليتممها بذاته ، بسلوكه ، وليتممها بقوله ، برسالته ، إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الأخلاق : لم تكن – قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه – قد تمت ، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهى إسلام الوجه لله إسلاماً تامًّا : إن الكائنات لم تكن قد وصلت – لا فى نبى مرسل ، ولا فى ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله .

والذروة من إسلام الوجه لله ، أو أول المسلمين ، والتعبيران سواء – إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق ، إن الكائن الربانى : إنه أول المسلمين ، أولهم بإطلاق أولهم بالنسبة للملائكة . وأولهم بالنسبة لبنى آدم ، أولهم قديماً وأولهم إلى الأبد . . إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .

كان الكون ناقصاً مادة ومعنى ، كان نقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته ديناً عامًّا خالداً للإنسانية جمعاء : هو إسلام الوجه لله .

ويتزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات ، ومحدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهدافاً ، ومن هنا كان من ينبغى غير الإسلام ديناً لا يقبل منه ، يقول الله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ، وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله .

إن إسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه الدين القيم ، إنه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الإلهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله ، إنما هو القرآن . وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك فى ذروة الإنسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق .

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، ولابد من أن يكون أحدهم أول المسلمين . فكان رسول الله ﷺ ، أولهم بإطلاق مطلق :

(قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول ﷺ .

ومكارم الأخلاق لا يحدها – من حيث التبشير بها – مكان ، ولا يحدها زمان ، بل لا يحدها عالم من عوالم الله فى الأرض أو السماء . . من أجل ذلك كانت رسالته صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين .

يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

من مكانة الرسول ﷺ

ورسول الله ﷺ – لأنه يمثل الأخلاق القرآنية فى ذروتها – جعل الله سبحانه وتعالى له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه – لأنه تمثّل القرآن وحقّقه ، وأصبح قرآناً ، أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق فلا ينطق عن الهوى ولا يعمل بالهوى .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً) ، بل إن طريق الدعوة نفسه ، كان صلوات الله وسلامه عليه ، يسير فيه معصوماً ، وكل من يسير فى الدعوة على نسقه إنما يسير معصوماً بعصمة الرسول ﷺ التى منحها الله تعالى إيّاه ، قل : « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

ودعوته إذن وطريق دعوته يسير فيهما على هدى ، وعلى نور من ربه ، ولذلك فإن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويعمم الله سبحانه ، الحكم تعميماً ، ويطلقه إطلاقاً فيقول سبحانه : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . ويقول تعالى : (إن تطيعوه تهتدوا) .

واتباع الرسول ﷺ علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب فى حبه تعالى له .

قل : (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . إن حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هى اتباع رسول الله ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى رواه الإمام البخارى : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه .

وهذه النوافل التى ذكرت فى الحديث الشريف ، والتى إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض ، أحبه الله : إنما هى سلوك رسول الله ﷺ ، إنها طريق رسمه ، صلوات الله عليه وسلامه بقوله : وبعمله ، إنها سننه صلوات الله وسلامه عليه التى سنّها ، لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه .

من مكانة رسول الله ﷺ عند ربه أيضا

وأحب الله سبحانه رسوله ﷺ ، وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه حبيب الله ، وبلغ الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعبوديته التامة درجة أول المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ، ونبيه ورسوله : ميزه الله سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم وهذا التميز لا يخرجه صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية ، فهو خير البشر ، ومنتهى القول فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) .

إن الإنسان الذى خصه الله بالوحى ، واجتباه لرسالته واصطفاه ليكون – باسمه سبحانه – بشيراً ونذيراً ، إن هذا الإنسان الذى فضله الله على العالمين : يجب أن نعرف له مكانته ونتزله فى الشرف الذى أنزله الله فيه ، إن هذا السراج المنير إن هذا الرءوف الرحيم ، ينبغى ألا يدعى كما

يدعى زيد وعمرو ، بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله ، يا نبىّ الله ، يا إمام المرسلين ، يا رسول رب العالمين يا خاتم النبيين وغير ذلك .

ونستفيد من هذه الآية – كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين إنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ ، فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله سبحانه فى أوائل سورة الحجرات : (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لا تتقدموا بأمر من الأمور قولا كان أو فعلا ، إلا إذا أذن الله ورسوله ، وكل أمر – قولا كان أو فعلاً – أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيمة ، يقول الضحّاك عن ذلك : هو عامّ فى القتال وشرائع الدين ، أى لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، واحذروا إن فعلتم ذلك : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف ، فإن عقولهم – فى الأغلب الأعم – ناقصة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

على أن مجرد الرغبة فى الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة . يقول الله تعالى فى سورة المجادلة : (يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) .

وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه – لعدم قدرته – المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم ما آتاه الإنسان .

وعدم توفر الاستطاعة سبب مغفرة الله سبحانه .

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، وإذ قادكم الضعف الإنسانى إلى ألا تنفذوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم ، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم وصفاء

سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل . وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله فى الصغير والكبير ، وما من ريب فى أن الله سبحانه خبير بكل ما تعملون .

يقول الله تعالى : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) .

وبعد فيقول رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) . هذا جانب من مكانة الرسول ﷺ التى أحبها الله له ، والتى نبه عليها سبحانه فى كتابه العزيز .

فى طاعة رسول الله من طاعة الله

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد أن نبينه وهو أن الله سبحانه وتعالى قد فرض طاعة رسوله ﷺ ، مقرونة بطاعته ، بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها باعتبارها فرضاً .

ويقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبيناً) .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسوله إذا دعاكم لما يحييكم) . ويقول سبحانه : (قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) .

وفى هذه الآية الكريمة : إشارة إلى أن الإعراض عن طاعة الله أو عن الرسول كفر ، وما من شك فى أنه كفر ، ذلك أن الإيمان من أركانه الإيمان برسول الله ﷺ ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولى عنه استخفافاً أو جحوداً وإنكاراً أو عناداً ومماراة ذلك كله كفر ، يخرج به المعرض عن دائرة الإسلام .

يقول الله تعالى فى طاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما يفرده بالحديث :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

ويقول تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

ويجعل سبحانه وتعالى طاعة الرسول ﷺ من طاعته فيقول سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة لله ، فيقول سبحانه : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومَن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

وطاعة رسول الله ﷺ إنما هى فيما افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله وسلامه عليه أو سنه .

وقد تابع الرسول ، ﷺ ، القرآن الكريم فى بيانه لمنزلة السنة ، ووجوب اتباعه ﷺ فيما سنه ، فلقد حث رسول الله ﷺ على تبليغ السنة ونشرها فقال فيما رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت : « نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوْعى من سامع » .

وروى فى معناه من طريق آخر : « رحم الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

فكان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه أبو بكر : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »

ولقد روى الحاكم والبيهقى أن رسول الله ﷺ قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسُنَّتى .

ويقول رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله ، وسنتى » .

ويبين رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة إلا من لا يرغب منهم فى ذلك .

يقول ﷺ : كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى . قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى .

فى مكانة السُّنَّة من القرآن

وسنة رسول الله ﷺ : لها مكانتها بالنسبة إلى القرآن ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع ، إنها المصدر الثانى بعد القرآن – للإسلام – إنها المصدر الثانى للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره تشريعاً ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره أخلاقاً .

أما منزلتها بالنسبة إلى القرآن فإنها حسبما يقول الإمام الشافعى : « وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : نصٌّ كتابٍ ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله .

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عامًّا ، أو خاصًّا وكيف أراد أن يأتى به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

وفى كلمة أخرى يبين الإمام الشافعى الوجهين فيقول : « أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين رسول الله معنى ما أراد » . وهذان الوجهان لم يختلف فيهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الإمام الشافعى : « هذان الوجهان اللذان لم يُختلف فيهما » .

والوجه الأول : بين بنفسه أنه من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يبين القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتى وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف فى الإيجاز والإسهاب بحسب حالة المخاطب . يقول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم) .

والرسول ﷺ كان يبين للناس ما نزل إليهم ، بسلوكه وبقوله وبإقراره يقول صلوات الله عليه وسلامه : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه » .

ولكن بيان رسول الله ﷺ ، كان يشتمل أيضاً على بيان ما أجمل فى كتاب الله وهذا الوجه كثير فى السنة .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : قال تبارك وتعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

وقال : وأتموا الحج ، والعمرة لله) .

ثم بيَّن على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواقيتها ، وسننها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيفية عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت وتختلف سننه وتتفق ، ولهذا أشباه كثيرة فى القرآن والسنة . ا . هـ .

وقد كان رسول الله ﷺ ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كأن يبين أوقاتها ، وأركانها وعدد ركعاتها ، وافتتاحها ، وترتيب حركاتها بعد الافتتاح . ويقول ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » .

ويبين رسول الله ﷺ ، مناسك الحج : أركانه ، وواجباته ، وسننه ويقول : خذوا عنى مناسككم .

وفرض الله سبحانه وتعالى الزكاة ، ولم يبين مقادير لها ، ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التى تجب فيها الزكاة ؛ فبين رسول الله ﷺ ذلك كله وطبقه .

ولقد بينت السنّة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث ، وأن الدَّيْن يقدم على الوصية هذا وكثير غيره مما بينته السنة .

عن عمران بن حصين : رضى الله عنه ، أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة : إنك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والسلام الزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، قال : والسنة تفسر ذلك .

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ومن قَبِل عن رسول الله ، فعن الله قبل : لما افترض الله من طاعته .

فى مكانة السنة من التشريع

ورسول الله ﷺ : يشرِّع عن الله تعالى : فيما لا نص فيه من كتاب الله .

إن رسول الله ﷺ ، بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه . إلى اليمن فقال له :

« كيف تقضى إذا عرض لك قضاء »

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله » .

قال : فبسنة رسول الله .

قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله .

قال : أجتهد برأيى ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه التى بدأها بقوله « سلام عليك » أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة .

يقول سيدنا عمر فى هذه الرسالة ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدراً من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عن ميراث الجدة فقال : مالك فى كتاب الله من شىء ولكن اسأل الناس ، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا : أن النبى ﷺ أعطاها السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضى الله عنه .(١٤٧)

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان ، أمير رسول الله ﷺ على بعض البوادى ، يخبره أن رسول الله ﷺ ورّث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

ولم يعلم حكم المجوس فى الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله ﷺ قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ، ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره أحد بسنة ، حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة رسول الله ﷺ فى الطاعون وأنه قال : إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه .

وهذا عثمان رضى الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد فى بيت زوجها حتى

---

(١٤٧) فبين الاستئذان ثلاث ، فإذا لم يأذن له انصرف .

حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبى سعيد الخدرى بقضيتها لما توفى زوجها ، وأن النبى ﷺ قال لها :

« امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، فأخذ به عثمان » .

ولقد روى الحاكم ما يلى :

« حرّم رسول الله ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره . فقال رسول الله ﷺ « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه ، وإنّ ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه .

روى أن أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام ابن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

وعن حسان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ، ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه » أخرجها أبو داود فى مراسليه .

وقيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن – فقال ، والله ما نبغى بالقرآن ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت فقال : « ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ، فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته فقد وجدته أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت : بلى : قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ .

وبعد أن يذكر الإمام الشافعى الوجوه الثلاثة :

١ – بيان السنة للكتاب على ما فى الكتاب .

٢ – بيان السنة لمجمل الكتاب .

٣ – ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

يقول : وذلك ما نريد أن ننتهى إليه ، وهو بين فى وضوح من كل ما ذكرنا – وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وإن جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ليعلم من عرف منها ما وصفنا : إن سنته ﷺ ، إذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر .

فهى كذلك أين كانت لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

فى تدوين السنة

بدأ رسول الله ﷺ فى العهد المكى يبشر بالقرآن الكريم ورسالة التوحيد سرًّا ثم جهراً ، وكان الرسول ﷺ يلقى بالأضواء كلها على القرآن .

١ – ذلك أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة وهو بعظاته يتملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ – ثم إن موضوع القرآن فى هذه الفترة كان موضوعاً محدداً : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب ، الغيب الإلهى . أو بتعبير آخر – توضيح العقيدة .

توحيداً – ورسالة – وبعثاً .

وكان أسلوب القرآن فى ذلك واضحاً لا لبس فيه ، بيناً بياناً سافراً .

٣ – وخشى رسول الله ﷺ ، أن يضيف الناس شيئاً من كلامه إلى القرآن ويخلطوه به .

وربما أسرفوا فى هذه الإضافة : فلا يستبين الناس الفواصل والفروق بين الأسلوب القرآنى الإلهى ، والأسلوب النبوى حينما يتلونهما فى أول العهد بالإسلام ممتزجين لا تمييز بينهما .

إن معالم الأسلوب القرآنى واضحة ، وكلام الله سبحانه أينما كان يتميز بصفات تجعله بمعزل عن غيره .

ولكن لابد من إيجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه المعالم فى النفوس . أى لابد من تقديم القرآن خالصاً صافياً لا يمتزج به غيره .

لابد من تقديمه كما أنزل فى ثوبه الإلهى البحت حتى تصبح المعالم معالم الإعجاز المعجز بينة سافرة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ . عن كتابة حديثه صلوات الله وسلامه عليه .

٤ – على أن هذه الآيات القرآنية ، فى العهد المكى . وهى تشرح التوحيد توحيد الله فى الصفات إنها وهى تشرح الهيمنة الإلهية على الكون ، على العوالم ، جميع العوالم ، ليست فى حاجة إلى بيان أوضح أو إلى تعبير أقوى .

بل إنه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى .

إنها وهى تهدم الشرك ، وتدك حصونه فتقول مثلا :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون ؟ أمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السُّوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله . . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . .

إنها حينما تقول ذلك ، لا تحتاج إلى شرح أو تفسير وهى : حينما تتحدث عن البعث تقول : (ونفخ فى الصور فصعِقَ مَن فى السموات ومَن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نُفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقتِ الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقُضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . وَوُفِّيَتْ كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وهى : حينما تتحدث عن الرسول ﷺ ونزول القرآن عليه تقول : (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبينْ) . ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

ثم هى ، حينما تقول ترغيباً وتبشيراً .

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك

متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وحينما تقول موعظة وإنذارا : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لِمَ شهدتم علينا ؟ ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

٥ – ثم إن الموضوعات التى تتحدث فيها هذه الآيات المكية : موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية فى الدقة ، فهل إذا تحدث الرسول ﷺ فى هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفويًا ، وهم حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية . . . هل سيحسنون التعبير ، عنها أو يقولونها كما تحدث بها الرسول ﷺ ، فى دقته الدقيقة ، وفهمه الواعى عن الله سبحانه وتعالى ؟

من أجل ذلك ، أمر الرسول ﷺ ألا يكتب عنه غير القرآن ، وحكمة هذا الأمر وتعليله واضح كل الوضوح مما ذكرنا . ولكن فى فترة العهد المدنى تغير الوضع .

ها هو ذا الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً وها هى ذى الأمة الإسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الأمل واسعاً فى أن دين الله سينتشر فى الآفاق وسيعم نوره الأقطار وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون وسيعم لألاؤه برغم أنوف الكافرين .

ومن أجل هذه الأمة بدأ الوحى ينزل أرسالا أرسالا بالتشريع فى جميع ألوانه تشريع دولى وتشريع جنائى وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية .

لقد بدأ التشريع الإلهى بنظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع أمته ، وحياته مع الله تعالى :

لقد أخذ بنظم حياة الإنسان منذ أن يستيقظ فى الصباح إلى أن ينتهى به الأمر إلى الصحو من جديد فى صباح تال .

وينظم حياته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام . وينظم حياته فى ذاته ، وينظم حياته فى أسرته ، وينظم حياته فى مجتمعه . وينظم حياة المجتمع الإسلامى كله فى الكون كله . وما كان يتأتى أن يتعرض الوحى فى ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية

التى لا تعد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه أن يكون تامًّا فى الأمور التى تكون عادة مثار النزاع وخصوصاً – الماليات كالميراث ، وكتابة الدين مثلا .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة ، فى موضوعات أخرى وكان لابد من أن يستفيض الرسول : ﷺ فى البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامى ، وألفوا الأسلوب القرآنى ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الإسلام والجاهلية . وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو اللهو ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لابد من تقييد شروح الرسول ﷺ ، وتفسيراته . لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث ، وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن أجل ذلك أباح الرسول ﷺ كتابته بعد أن كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة – رضوان الله عليهم يكتبون .

روى الإمام البخارى فى كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال : « حدثنا محمد بن سلام قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف ، عن الشعبى ، عن أبى حنيفة قال : قلت لعلى هل عندكم كتاب .

قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة .

قلت : فما فى هذه الصحيفة .

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر . ويروى الإمام البخارى : حدثنا أبو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان ، عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث ، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته ، فخطب فقال :

إن الله حبس عن مكة القتل ، أو الفيل : شك أبو عبد الله وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتى هذه حرام ، لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لى يا رسول الله .

فقال : اكتبوا لأبى فلان .

فقال : رجل من قريش : إلا الإذخر ، يارسول الله ، فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا .

فقال النبى : ﷺ : إلاّ الإذخر إلا الإذخر .

قال : أبو عبيد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبى عبيد الله : أى شىء كتب له .

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخارى :

حدثنا على بن عبد الله . قال حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو ، قال أخبرنى وهب بن منبه ، عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبى ﷺ ، أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر ، عن همام عن أبى هريرة « انتهى البخارى » . ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ حتى لقد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين . يقول حسبما يروى فى سنن الدارمى وغيره : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ، وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلاّ حق .

وروى عن أبى هريرة ـ كما يذكر الترمذى ـ أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ فلا يحفظه فيسأل أبا هريرة فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : استعن على حفظك بيمينك . أى بالكتابة .

وروى عن رافع بن خديج ، كما يذكر فى كتاب « تقييد العلم » أنه قال : قلنا يارسول الله « إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » .

على أنه قد روى عن رسول الله ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن . لعمر بن حزم وغيره ، كما يروى ذلك صاحب كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا ماكان من بعض الصحابة فى عهد الرسول ، ﷺ ، وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى . ففى مسند الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال :

كنا مع عتبة بن فرقد . فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى ﷺ ، فكان فيما كتب إليه . إن رسول الله ﷺ قال : لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شىء إلا هكذا .

وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، قال أبو عثمان : فرأيت أنها أزرار الطيالسة . ولقد كان بعض الصحابة ينقل عن بعض ، فعروة بن الزبير رضى الله عنه ، ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها فتقول له : يا بنى ، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافاً ؟ .

قال لا : قالت : لا بأس بذلك .

وبشير بن نهيك يكتب عن أبى هريرة ، ويجيزه أبو هريرة بالرواية عنه . يقول بشير : كما يذكر كتاب « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب « المحدث الفاضل » وغيره – أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال نعم . وكان لابن عباس رضى الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة ، مثل أبى رافع صاحب رسول الله ﷺ .

بل لقد وصل الأمر بأنس رضى الله عنه الذى لازم رسول الله ﷺ ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات ، إنه كان يملى الحديث على جموع من الطالبين ، فإذ أكثر الناس واحتاجوا إلى صحف يكتبون فيها ، جاء إليهم بها من عنده فألقاها إليهم ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه .

وكان يقول : رضى الله عنه ، لبنيه : يا بنى قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون فى الأحاديث ، يستفسرون ويتذاكرون ، فمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه عدة مرات يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله ﷺ .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ﷺ مثلا : يقول فى ختام كل صلاة : (اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) .

ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله ﷺ . نهى عن : قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

ويكتب زياد بن أبى سفيان إلى السيدة عائشة رضوان الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتوى ابن عباس رضى الله عنه ، فتكتب له بما كان ﷺ ، يفعله فى الحج .

ويصف المرحوم الأستاذ مصطفى السباعى بعض الجهود التى قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول فى نهاية حديثه عن تلك الجهود .

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا فى الأمصار واحتاج الناس إلى الصحابة . وخاصة صغارهم ، بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة بجمع

الحديث من كبارهم فكانوا يأخذونه عنهم .

كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ، فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبرانى ، والبيهقى ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ، ﷺ عن رسول الله ﷺ ، لم أسمعه فابتعت بعيراً فشددت عليه رجلى ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام . فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته ، فقلت له ، حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس غُرْلاً بُهْماً . قلنا ومالهم ؟ قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم نداء يسمعه من بُعْد كما يسمعه من قرب ، أنا الديّان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار واحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه .

ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلة حتى أقتصها منه حتى اللطمة .

قلنا : كيف ؟ وإنما نأتى عراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال : بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقى وابن عبد البر عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل إلى عتبة ابن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحد سمعه منه غيره فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى – وهو أمير مصر – فخرج إليه فعانقه – ثم قال ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ فى ستر المؤمن .

فقال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر مؤمناً فى الدنيا على كربته ، ستره الله يوم القيامة .

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر .

ولقد وقر فى أذهان الناس ، بصورة راسخة أن السنة لم تُدوَّن إلا فى القرن الثانى ، ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا فى نقل بعض النصوص التى تثبت الحقيقة وهى أن السنة دونت فى القرن الأول : فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عهد الصحابة الأجلاء .

ومن أجل زيادة الأمر وضوحاً ، ومن أجل تأكيد الحقيقة فى الأذهان ، ننقل هنا أيضاً رأى الأستاذ الجليل ، السيد سليمان الندوى ، كبير علماء مسلمى القارة الهندية فى هذا العصر ، ننقله عن كتابه النفيس « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها فى جامعة مِدْراس

يقول : وإنى أكشف القناع ، لأول مرة فى ناديكم هذا ، بأن من زعم بأن الأحاديث النبوية لم تدوّن إلى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ والتاريخ يعارضه .

والسبب فى هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب فى الحديث النبوى : « كتاب الموطأ » لمالك ابن أنس ، وأول كتاب فى السيرة كتاب المغازى لابن إسحاق ، وهذان الإمامان الجليلان كانا معاصرين ، وتوفى الأول ١٧٩ هـ ، والثانى سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثانى بداية تدوين الأخبار والسير .

والأمر ليس كذلك ، فإن بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ، ولى إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد إلى القاضى : أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، الذى كان إماماً فى الحديث والخبر أن يبدأ فى تدوين سنن النبى ﷺ وأخباره ، لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً .

وخاف دروس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا فى تعليقات البخارى ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمى ، فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن فى القراطيس وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت فى الصحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر من ١٣٨) .

فأبو بكر هذا الذى علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر فى كتابه إليه .

ويتابع السيد سليمان الندوى حديثه فيقول :

وأمر ، ﷺ ، فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة فى صفحتين ، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة فى بيت أبى بكر الصديق ، وأبى بكر بن عمرو بن حزم . « الدار قطنى فى كتاب الزكاة ص ٢٠٩ » ، وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة .

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرويها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) .

وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده . عمرو بن شعيب « سنن الترمذى ٢٩٣ ص ٦١ ،

١١٣ » وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروى من الصحيفة وكان ينبغى له أن يروى من حفظه .

وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣١٦) .

ويروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث ، وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان – (تهذيب التهذيب) : ١٩٨ .

وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الإمام أحمد ابن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ – ٣١٨ الطبعة الأولى) .

وكذلك بشير بن نهيك : كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه .

(كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ ، والدارمى ص ، ٦٨ والسنن الكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨٠) . وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى : أن أبا هريرة جاء برجل إلى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه رواياتى ، وقال الذى روى ذلك : إنها لم تكن مكتوبة بيده . (فتح البارى ١ : ١٧٤ – ١٨٥) . وكان أنس بن مالك – وهو معروف بكثرة الروايات يقول لأولاده يا بنى اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨) .

وكان تلميذه « أبان » يكتب رواياته بين يديه (الدارمى ٦٨) .

وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ ، يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ١٢٣/٢/٢) .

والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفى تاريخ الطبرى : أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان فى غزوة بدر مفصلا إلى عبد الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبير التابعى : كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه فى الليل من عبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمى ص ٦٩) .

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنه رواياته (الدارمى ص ٦٩) وكان نافع – وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة – يملى على الناس (الدارمى ص ٦٩) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتاباً وقال : وايم الله ، هذا ما كتبته يد ابن مسعود (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧) .

ونتابع الحديث فى الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحاً فنضيف إلى ما سبق ، أن مروان قد خطب فى الناس فذكر مكة وحرمتها فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانى إن شئت أن نقرئكه فعلنا .

فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك ، (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٤١) .

وأرسل الضحاك بن قيس كتاباً إلى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التى كان رسول الله ﷺ يقرؤها فى صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب إليه يقول : كان يقرأ (هل أتاك) (صحيح مسلم) وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة ابن فرقد كتاباً ذكر فيه : أن رسول الله ﷺ ، نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) .

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه الصادقة « فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس فى ذلك بينى وبينه أحد » .

ولما ولّى رسول الله ﷺ ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه إليها أعطاه أحكاماً مكتوبة فى الفرائض والصدقات والديات (كنز المال ٣ : ١٨٦) .

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبرانى ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع إلى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة والصوم والرّبا والخمر وغير ذلك (الطبرانى ٢٤٢) ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ﷺ فى نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان : فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ ، يبين فيه ذلك (الدار قطنى ٢ : ٤٨٥)[١٤٨]

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم فى آخر حياة النبى ﷺ – عندما حج حجة الوداع مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابى مذكورة أسماؤهم وأحوالهم فى كتب التاريخ التى أفردت تدوين أحوالهم خاصة . وأن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ، ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

(١٤٨) انظر السنة قبل التدوين ، والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ورجال الفكر والدعوة .

لقد توفى رسول الله ﷺ ، سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده إلى سنة أربعين ، وبقى بعد ذلك من الصحابة ، الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى ﷺ ، عدد غير قليل ، فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة .

وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التى ماتوا فيها وسنوات وفاتهم .

آخر الصحابة موتًا	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ – أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ – عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ – عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ – السائب بن زيد	المدينة	٩١
٥ – أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله ﷺ ، واستمر فى خدمته عشر سنوات متوالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثية كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى قد كتب ودوّن بأقلام رواة فى العصر الأول . وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة ، رضى الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس ، رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدوّن الموطأ والصحاح بكثير .

جمعت السنة إذن – جميعها تقريباً – فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة . جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناثرة ، يكتب هذا الحديث والحديثين ويكتب الآخر المائة والمائتين ويزيد الثالث عن ذلك ، ويملى الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفى ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنضيد أو التنسيق .

يقول الأستاذ العالم الورع المثبت أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث :

وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله – من غير نظام وترتيب – فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم .

ويتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون إلا فى القرن الثالث : ويعلل هذا الوهم تعليلا منطقيا فيقول :

وقد شاع فى الناس – حتى المثقفين والمؤلفين – أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب فى القرن الثانى وما نشأ ذلك الغلط إلا عن طريقتين .

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول : مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا .

وقد نبه على ذلك العلّامة مناظر أحسن الكيلانى ، رئيس القسم الدينى سابقاً فى الجامعة بحيدر أباد فى كتابه العظيم « تدوين الحديث » يقول رحمه الله : وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث .

وكذلك يقال عن أبى زرعة .

ويروى الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة .

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ، ولا يعرف كثير من المتعلمين – فضلا عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون .

فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبعمائة طريق .

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث .

فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين .

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث .

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى كتب الصحاح الستة ومسند أحمد وكتب أخرى خمسين ألف حديث منها الصحيح ، ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ، ومنها المتكلم فيه .

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله – الذى يعد من المتساهلين المتوسعين – أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف (توجيه النظر ص ٩٣)

ويقول الأستاذ :

ولم ينتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن . .

ابن شهاب الزهرى وابن جريج المكى وابن إسحاق – معمر اليمنى – سعيد بن أبى عروبة المدنى – ربيع بن صبيح – سفيان الثورى – مالك بن أنس – الليث بن سعد – وابن المبارك – ثم تتابع الناس .

فى موافقة السنة للقرآن

أن تكون موافقة لما جاء فى القرآن فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ومن أمثلة ذلك .

١ – قوله ﷺ : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » ، رواه الديلمى فإنه يوافق قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) .

٢ – قوله ﷺ : « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإنه يوافق قوله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف) .

٣ – قوله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » يوافق قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) .

أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ومن أمثلة هذا النوع . .

١ – قوله ﷺ فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

٢ – قوله ﷺ فى الجنين الخارج ميتاً من بطن أمه الذكاة « وذكاة الجنين ذكاة أمة » .

٣ – الأحاديث الواردة فى تحريم ربا الفضل .

٤ – الأحاديث الواردة فى تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور وتحريم لحوم الحمر .

فى أقسام الحديث النبوى

لقد اعتمد أسلافنا منهج الرواية أولا ، ثم بينوا عن طريق هذا المنهج نفسه : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والموضوع .

وكتبوا فى كل ذلك . ولقد ساهم الإمام السيوطى رضى الله عنه بقسط وافر فى هذا المجال وكتابه اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة أشهر من أن يتحدث عنه ، ولم يكتف أسلافنا ببيان الموضوع والضعيف والحسن والصحيح ، وإنما اتخذوا قواعد عامة منها – مثلا – أن القرآن الكريم وعمل الرسول ﷺ وعمل الصحابة كل ذلك مهيمن كمقياس للصحة والبطلان .

وقواعد الدين العامة وأصوله الصحيحة ومبادئه بل فروعه . . . إن كل ذلك واضح لدى المسلمين منذ . .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينًا) اعتمد أسلافنا منهج الرواية ، والتزموه ، ونقدوا المنتقد منه ، وأثبتوا ما ثبت وزينوا ما زان ، وسجلوا كل ذلك ، فحققوا بهذا ما هو جدير بهم من سعة الأفق ، ومن هذه النهضة العلمية الأصيلة أبانوا أنهم أفهم الناس للروح العلمية الأصيلة وآفاق البحث فى أدق صوره .

فجزاهم الله عن العلم وأهله خيراً .

فى رواية الحديث عن المتخصصين

مثل من الإمام مالك بن أنس

* * *

وكان يتحرى التخصص المتخصص ويروى عنه – فيما يتعلق بناحية التخصص أنه قال : « لقد أدركت بالمدينة أقواماً لو استسقى بهم القطر لسقوا . أى أنهم من الصلاح بحيث لو دعوا الله أن ينزل المطر لاستجاب لهم) وقد سمعوا من العلم ، والحديث شيئاً كثيراً وما أخذت عن واحد منهم ، وذلك أنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد .

ويقول هذه الكلمة البالغة العمق :

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممّن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار إلى المسجد – فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

ويريد أن يقول فى هؤلاء وأولئك إنهم ليسوا من أهل الحديث . ومن الجائز ، وهم غير متخصصين فى هذا الشأن ، أن يقرر بهم أو أن يرووا حديثاً ضعيفاً ، ويريد أيضاً أن يقول : إن الصلاح غير العلم ، وإنه لا يلزم من وجود الزهد أو الأمانة أن يكون الزاهد أو الأمين نقادة متثبتاً .

ومع هذا التحرى ومع هذا الجهد فى التثبت فإنه ماكان يروى كل ما يسمع ويقول : إن عندى لأحاديث ما حدثت بها قط ، ولا سمعت منى ، ولا أحدث بها حتى أموت ، وقال مالك يوماً : سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم .

فقال له قائل : لِمَ يا أبا عبد الله . فقال : لم يكن العمل عليها فتركتها .

ورد مالك على السائل هو المفتاح الذى نفسر به هذا الموضوع الذى يتساءل عنه الناس كثيراً ، وذلك أن مالكاً رضى الله عنه كان قد اتخذ مبادئ نقدية محددة لقبول الحديث منها :

١ – أن يكون المُحدِّث من رجال الحديث متخصصاً فيه .

٢ – وأن يكون صاحب ذاكرة قوية .

٣ – وألاّ يكون من أصحاب الأهواء .

٤ – وألاّ يخالف الحديث أصلا من أصول الدين .

٥ – وألاّ يتعارض فى وضوح مع عمل أهل المدينة .

فإذا فقد شرط من هذه الشروط فى الحديث فإن مالكاً لا يرويه ، ومع أن ابن شهاب ثقة ، ومع أنه من شيوخ الإمام مالك فإنه لما تعارضت بعض أحاديثه مع عمل أهل المدينة لم يرو الإمام عنه ما تعارض عنها وهكذا فيما روى لما لم يستكمل شروط الصحة .

فى شرح قول رسول الله ﷺ

« إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

* * *

يدلنا هذا الحديث الشريف على أن صحة الأعمال الصالحة ، إنما هى بالنية الخالصة لله ورسوله .

والواقع أنه ليس الأمر أمر النية فحسب ، وإنما الأمر أيضاً خلوص النية فى أعمال الخير كلها ، ومعنى خلوص النية أن يريد الإنسان بالعمل الصالح وجه الله وحده عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، ثم يقول رسول الله ﷺ : يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا هذه لله وللرحمة فإنها للرحم وليس لله منها شىء . ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء .

فى حديث

« الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »

* * *

ظاهر المعنى أنَّ كل امرئ يتصرف بما طُبع عليه ، فأهل الخير والبر والإحسان إذا لَيّن الله قلوبهم بالإيمان الكامل وعمّرها بالعلم النافع كانوا خير الناس لتوافر الدافعين :

أولهما : العلم المبين للخير والمميز للأصلح .

وثانيهما : حسن المعدن وكرم الأصل فى التزام المروءة وتحرى الخير .

فى بر الوالدين

روى أبو داود عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال :

يا رسول الله هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

ومن المستحب للأموات قراءة القرآن فى البيوت بعيداً عن المقابر – مع عدم إهمال الدعاء والاستغفار وفاء بحقها قياماً بحق برهما (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

أما إذا تركها المسلم فيكفيه منها الدعاء والاستغفار وإلا كان مقصراً فى حق والديه ناكراً لجميلها عليه ، ومن سمات المؤمنين الوفاء وسيعاقب بقدر تفريطه وإهماله .

فى معنى علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل

لم يعتبر المحدثون الكلمة القائلة : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل لم يعتبروها حديثاً ، ولم تثبت عندهم ، وإن كان معناها فى ذاته صحيحاً فإن أنبياء بنى إسرائيل كانوا قائمين بالوحى المتتابع على حفظ دين الله . ولما ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ قام على الدين – جيلا بعد جيل – العلماء الأثبات والحفظة والثقات .

فى حديث

« الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها »

رواه أبو داود والحاكم وابن ماجه وأبو سعيد الخدرى

* * *

ومعناه التوجيه إلى دوام تطهير الثياب من النجاسة وهذا ما فهمه أبو سعيد الخدرى حينما طلب ثياباً جديدة يستعد بها لاستقبال الموت ، وقيل إن المراد بالثياب العمل أى يبعث على عمله الذى مات عليه حسناً أو قبيحاً ، والذى نراه أن المراد الثياب الملبوسة وأن الحديث يفيد وقوع البعث للأجساد بأوضح بيان حيث إن البعث سيشمل الثياب التى مات الإنسان فيها فضلاً عن الجسد .

فى حديث

« ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء . . إلخ »

ليس بالقوىّ ، فقد قال ابن الدبيغ الشيبانى وردت أحاديث فى إكرام الغرباء وكلها ضعيفة ومن المعروف أن الإسلام يحث على إكرام اليتيم ، ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون .

والله تعالى يقول لرسوله ﷺ يحث على إكرام اليتيم ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون : (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً) . والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : (ووجدك يتيماً فآوى) وأما المراد بالغريب هنا فلعله غريب الدين ، إن الذى يتمسك بدينه حال الفتن وانتشار الضلال كالغريب كما فى حديث بدأ الإسلام غريباً . فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس .

فى شرح حديث

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد تحدث رسول الله صلوات الله عليه عن علامات المنافق ، فكانت العلامة الأولى من علاماته حسبما رواه البخارى ومسلم أنه « إذا حدث كذب » .

فالكذب إذن مجانب للإيمان ، وهو كما يروى عن رسول الله صلوات الله عليه يسود الوجه ، من كل ذلك نتبين : أن الكذب حرام ، وأن الكاذب آثم ، ومما له مغزاه : إن بعض الفرق الإسلامية تجعل حرمة الكذب أشد من حرمة الزنى والسرقة والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) .

شرح حديث

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا » .

* * *

إن هذا الحديث الشريف يساند الآيات القرآنية التى تحدد موقف الإسلام من تبرج المرأة تحديداً لا لبس فيه

يقول سبحانه : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

يأمر الله تعالى المسلمات ألا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها ، وهو الوجه والكفان ، وأن الإيمان السليم ، والإسلام الصحيح ، والخلق الكريم ، كل ذلك يريد للمرأة إجلالاً لها واحتراماً – أن تنأى بنفسها وتسمو بكرامتها عن أن تعتبر نفسها سلعة تعرض نفسها شبه عارية فى الشوارع والمجتمعات على أنظار المارة والمجتمعين .

وما من ريب فى أن المرأة العاقلة تأبى عليها عزتها ، ويأبى عليها دينها ، أن تضع نفسها متعمدة موضع الخسة بكشفها ما حرم الله أن يكشف ، وأن تعرض نفسها فى غير كرامة إلى أن تصب عليها لعنة الله والملائكة وصالح المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن الشبان فضلاً عن الرجال يحتقرون ويزدرون هذه السلع من الفتيات والنساء اللاتى يعرضن أجسادهن رخيصة مهينة وأن الملاحظة العابرة عن الملاحظة المتروية ترشد فى صورة واضحة إلى أن احترام الشبان والرجال إنما هو للمحتشمات فى الطرقات والمواصلات .

يقول الله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) .

فى شرح حديث

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

* * *

فما هو التطبيق الواجب لهذا الحديث بالنسبة للاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة وأرض العرب .

التطبيق الواجب لهذا الحديث هو أن على المسلمين أن يعلموا أن الجهاد واجب مقدس على كل مؤمن ومؤمنة كل فيما يخصه ، وللجهاد مقدمات تحرز له النصر وتنأى بالمجاهدين عن الهزيمة .

تلك المقدمات هى قيام كل مؤمن ومؤمنة بواجب السمع والطاعة : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) سورة الأنفال آية ٢٤ .

والنصر الذى يريده كل مجاهد من الله لا يأتى إلا بمعونته ومدده وهما لا يكونان لمن انحرف عن صراط الله الذى أمرنا به قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون) ، سورة الأنعام .

ولأنه جل جلاله جعل نصره للمؤمنين مترتباً على نصر المؤمنين لدينه قال تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . سورة محمد .

وقال تعالى : (ولينصرن الله من ينصره) ، ولانحراف بعض المحاربين فى جيش رسول الله يوم حنين حلت الهزيمة بالمسلمين أولا ، ولما ثابوا إلى رشدهم أنزل الله عليهم سكينته وأمدهم بجنده وتوّجهم بنصره .

قال تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) . . إلى قوله (جزاء الكافرين) . سورة التوبة .

فمها استعد المسلمون بالسلاح والرجال فإنهم لن يحرزوا نصراً ، ولن يأتيهم مدد الله عز وجل بالملائكة وغيرهم إلا إذا استمسكوا بدينهم وجعلوه الشعار لهم فى كل شىء فحسبنا فى هذا قول الله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) . . . إلى (شديد العقاب) : سورة الأنفال . ويقول النبى ﷺ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . سورة الأنفال .

وذكر الله فيه الصلوات وغيرها من الفرائض وينتظم الذكر المعروف الذى هو تنزيه الله وتهليله وحمده وهذا النوع من الذكر لا يستعصى على المجاهد فى سبيل الله ، بل إن الصلاة نفسها يستطيع أن يؤديها المجاهد وهو يقود الطائرة والدبابة والسيارة ، ويصوب المدفع إلى صدر عدوه ، ويستطيع أن يؤديها وهو يمشى على رجليه ، وذلك بأن يشير برأسه إلى الركوع والسجود وغيرهما من أركان الصلاة قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله) . سورة البقرة .

وإسرائيل التى نعانى منها لا تستطيع الصمود أمام قوم آمنوا بربهم فأمدهم بجنده وأيدهم بنصره وعليهم أن يستكملوا عدة الجهاد من أنواع السلاح كافة ، ثم ينطلقوا بجحافلهم إلى تلك البقاع المقدسة غير مستجيبين لنداءات مجلس الأمن وهيئة الأمم فإنها لم تنشأ لخدمة الإسلام بقدر ما أنشئت لخدمة المطامع الاستعمارية .

إن هذا الحديث الشريف يساير القرآن الكريم والروح الإسلامية كلها ، ويشرح ما يجب أن يكون عليه المسلمون فى حياتهم من الاجتماع على الإيمان واتخاذه أساساً للوحدة والأخوة ، فالحديث الشريف يبدأ بقوله « المؤمن للمؤمن » ومعنى ذلك أن الانطلاق نحو الأخوة والمحبة والوحدة وجمع الشمل إنما يكون قائماً على الإيمان فإذا كان الإيمان أساساً أتى حتماً ما يترتب عليه من أن يشد المؤمن أزر المؤمن وأن يكون معه كالبنيان المتماسك الذى تكون كل لبنة فيه مستندة إلى أخرى وساندة لها .

وإذا اتخذ الإيمان أساساً انتهى التفرق والخلاف ، وتحقق فى العصر الحاضر ما تحقق فى الماضى الذى عبر الله عنه بقوله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

ولابد من هذه الوحدة ، لابد منها لمصلحة العرب أنفسهم من أجل أوطانهم ، ولابد منها دينيًّا فالله سبحانه وتعالى يقول :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

ويقول سبحانه : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) .

والواقع أن الصهيونيين يعملون جاهدين بكل الوسائل على التفرقة بين المسلمين فى كل مكان ، كان هذا ومايزال دأبهم وديدنهم وحادثة شاس بن قيس مشهورة .

لقد مر على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه ، قد اجتمع فلان وفلان قبله فى هذه البلاد ونالنا معهم إذا اجتمع مَلَؤهم بها من قرار ، وأمر شابًّا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكرهم فيها بيوم بعاث ، ذلك اليوم الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج .

وتكلم الغلام وأنشدهم ما قيل فى ذلك اليومين من أشعار ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها ، وبلغ رسول الله ﷺ ذلك الأمر فخرج إليهم فيمن معه من الأنصار والمهاجرين ، فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين وكان مما قال « أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية » ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً ، فما رئى يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم ، وماكانت هذه المؤامرة الأولى أو الأخيرة من مؤامرات اليهود ضد الأخوة العربية ولقد تغلب عليها العرب بمبدأ الأخوة التى غرسها الإسلام منهم .

وإذا كان هذا المبدأ قد نجح فى الماضى فهو لا محالة ناجح فى العصر الحاضر . ومما لاشك فيه أن الصهيونية تعمل جاهدة على غرس بذور العداوة بين الدول العربية حتى يفشلوا وتذهب ريحهم ولكن السلام الوحيد الذى يجب أن نتحصن به دائماً لرد باطلهم الخبيث إنما هو التمسك بالأخوة .

فى شرح الحديث

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة» .

* * *

فأباح ﷺ بذلك زيارة القبور ، وعلل السبب فى ذلك وهى تذكر أمور الآخرة ، وما يتصل بها من الموت وعذاب القبر .

ويماثل هذا الحديث ما رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن زيارة النبى ﷺ ، لقبر أمه وقوله فزوروا القبور ، فإنها تذكر بالموت .

هذا بالنسبة للرجال :

أما بالنسبة للنساء : فإن كثرة زيارة القبور بالنسبة لهن ممنوعة ، لما روى من أنه ﷺ لعن زوّارات القبور . .

قال القرطبى : هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة ، لما تقتضيه الصيغة من المبالغة . . ولعل السبب ما يفضى إليه ذلك من تضييع حق الزوج . وما ينشأ منهن من الصياح ونحوه .

فإذا خفت زيارتهن . . ولم تقترن بسوء من كشف عورة أو قول قبيح ونحو ذلك فلا حرج منها لما روى من أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عما تقول إذا زارت القبور فقال :

قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين . . يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

وعلى ذلك فزيارة القبور مندوبة للرجال جائزة للنساء وبشرط ألا يقترن بها ما يتنافى مع الغرض منها وهو التذكير بالموت والتذكير بالآخرة .

فى الشرك الخفى

الشرك الخفى مرادف للنفاق ، وذلك لأن النفاق أن يظهر المرء خلاف ما يبطن ، فيبدو المنافق فى صورة المؤمن وهو فى حقيقته من الكافرين ، أنه يستر شركه ويخفيه ولكن الله تعالى يكشفه بعلاماته ، ويبرز أهم صفاته فى كثير من الآيات القرآنية التى تحدد منابع الإيذاء فى هذا الشرك ، وأسباب التنفير منه ، ومواطن الخطر الناتجة عنه ، يقول تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وتتابع الآيات فى كشف صفاتهم وتمثيل حالهم بأظهر صورة ، وأبلغ تعبير . وينتج عن هذا الشرك الخفى أو النفاق شرور كثيرة تلفح المؤمنين بأذاها ، وتلسعهم بشرورها ، ومن هذه الشرور المؤذية الرياء ، ويتحدث القرآن عن ذلك فيقول : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

وينتج عن الرياء أن يعطى المسلم ثقة للمرائى ، فيستغل هذه الثقة فى إيذائه وإيصال الشرور إليه ، ومن هنا قال الرسول ﷺ .

« إياكم وشرك السرائر ، قالوا : وما شرك السرائر يا رسول الله ؟ قال الرياء » . ومن الشرور المؤذية للشرك الخفى الحسد ، لقد كان المنافقون يفرحون لمصيبة المسلمين ويحزنون لما يسرهم ، يقول تعالى : (إن تُصِبْكَ حسنةٌ تسُؤْهم وإن تُصِبْك مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) .

وأظهر هذه الشرور المؤذية تثبيط الهمم ، والعمل بالقول والفعل على إطفاء نور الإسلام والقضاء على المسلمين ، ويتمثل ذلك فى وضوح فيما حدث فى غزوة الأحزاب ، لقد كان الرسول ﷺ ، يبشر بالفتح وكان المنافقون يقولون : هذا محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على بيته بالمدينة ، ويصور القرآن ذلك فيقول :

(وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . ويجمع صفات المنافقين فى وضوح ، وشركهم الخفى المانع للخير الجالب للشر ، قوله سبحانه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقّنَّ ولنكونَنَّ من الصّالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقَوْنه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذِبُون) .

أما الطريقة المثلى للتخلص من هذا الشرك وآثاره ، فتتمثل فى العمل بقول الله سبحانه : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثُقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلا . سُنّة الله فى الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فى شرح الحديث

« مَن لم تنهه صلاته »

• • •

للعمل المقبول علامات ودلائل تدل عليه ، وترشد إلى بلوغ القصد به ومنه ، وقد حدد القرآن وحددت السُّنَّةُ كثيراً من هذه العلاقات والدلائل ، يقول تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذاتليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) . ويقول : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . ويقول ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ولا يعنى ذلك أن المخطئ لا تقبل له صلاة ، لأن الإنسان فى حرب مع الشيطان ومهما كان تسلحه وتيقظه ، فقد تعتريه غفلة أو فترة فيتمكن الشيطان منه فيقع فى المعصية . . ولكن إيمانه القوى وعمله الصالح سرعان ما يعود به إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ويجد من عفو الله ومغفرته ما يتيح له السير من جديد فى طريق الخير والصلاح . . وقد يقف المرء على حافة المعصية فيؤذن المؤذن فيدخل إلى الصلاة ، وما يكاد يفرغ منها حتى يجد نفسه وقد هدأت ، وغرائزه وقد استسلمت ، ويقينه وقد استيقظ . فيحس بأثر الصلاة إحساساً فى غاية القوة والظهور . وحديث : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » رجح الحافظ ابن كثير أنه من كلام بعض الصحابة لا من كلام الرسول ﷺ .

وليس من شك فى أن الصلاة التى يداوم عليها المؤمن فلا تؤثر فى سلوكه وقوله وعمله هى صلاة غير كاملة ، لأنها غير مؤثرة ، وعلى المؤمن إذا ما واجه المنكر ، أو قابل الفحشاء أن يتذكر موقفه بين يدى الله فى الصلاة ليرتدع عن ذلك .

فى محاربة اكتناز الأموال وحبسها

قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر .

ما يجب شرحه :

١ – اثنتان : خصلتان سيئتان .

٢ – لماذا كان الحرص على المال والحرص على العمر ؟

ما يراعى عند الحديث :

١ – كنز المال وعدم استثماره وحرمان المجتمع من الانتفاع به منهى عنه شرعاً فى سبيل الحد من ضخامة الأموال أوجب الإسلام الصدقات ، وفرض الزكاة ، وجعلها ركناً من أركان الدين ، وأوجب المساهمة فى نفقات ما يعرض للأمة وما يجب لها من عدة الدفاع لحفظ الأمن والنظام أو المساهمة فى أعمال البر .

٢ – الآيات التى تتعرض للموضوع .

(ليس البرّ) البقرة آية ١٧٧

(وأنفقوا فى سبيل الله) البقرة آية ١٩٥

(والذين يكنزون الذهب والفضة) التوبة آية ٣٤

٣ – آفة الحرص على العمر .

٤ – الإسلام يدعو إلى بذل الروح رخيصة فى سبيل الله والوطن .

فى عدد الرسل من السنة

لم يرد فى عدد الأنبياء والمرسلين أثر صحيح إلا ما روى عن أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، وبسند قيل إنه مقبول ، وفيه . قلت يا رسول الله : كم الأنبياء ؟ . . قال ، مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ – قال ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب . قلت : فمن كان أولهم ؟ – قال : آدم قلت : أنبى مرسل . . قال : نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلا ثم قال : يا أبا ذر . . أربعة سريانيون « آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خطَّ بقلم ، ونوح . . وأربعة من العرب ، هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر . . وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى . وأول الرسل آدم وآخرهم محمد . فالذين كلفوا برسالة من الأنبياء بحسب هذا الحديث الذى قيل إنه مقبول ثلثمائة وثلاثة عشر ، والأنبياء الذين لهم

علاقة بمكة من حيث بناؤها أو النشأة فيها الذين ذكرهم القرآن الكريم هم إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . والرسل الذين ينتمون إلى العرب من هؤلاء كما فى الحديث : هود وشعيب وصالح ومحمد عليه الصلاة والسلام .

أما الرسل والأنبياء الآخرون الذين لهم علاقة بمكة والأنبياء الآخرون الذين ينتمون إلى العرب فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه .

وهذا الذى ذكرناه هو أقرب الآراء إلى الصحة .

فى حرمة العود فى الهبة

قال ﷺ فيما روى البخارى : (العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه) .

أى لا ينبغى لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات فى أخس أحوالها .

قال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) . ومن هنا حرم الإسلام على المرء الرجوع فى هبته ولم يجز له هذا الرجوع ولو دفع ثمن هبته لمن وهبها له فى سبيل الحصول عليها .

روى البخارى بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « حملت على فرس فى سبيل الله فأضاعه الذى كان عنده ، فأردت أن أشتريه منه وظننت أنه بائعه برخص ، فسألت عن ذلك النبى ﷺ فقال : لا تشتره وإن أعطاكه بدرهم واحد ، فإن العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه » .

لقد أعطى عمر رضى الله عنه رجلا فرساً ليحارب عليه فأهمل الرجل العناية بالفرس أو رغب فى بيعه بثمن بسيط وأراد عمر شراءه فمنعه النبى ﷺ من ذلك لأنه لا يحل .

فمن أسدى إلى شخص معروفاً يحرم عليه الرجوع فيه ، وإذا تصرف المهدى إليه فى هذا المعروف فلا رجوع لصاحب المعروف عليه . وحجه بهذا المعروف نافذ ، ورجوع صاحب المعروف فيه لا يبطل الحج .

وثواب صاحب المعروف على ذلك مستمر حيث لم يحصل على ما رغب الرجوع فيه من المعروف وإن قل عن الثواب قبل الرغبة فى الرجوع ، حيث دلت تلك الرغبة على ضعف عاطفة الخير عنده .

فى السُّنَّةِ الحسنة والسُّنَّةِ السيئة

« مَن سَن سُنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً ومن سَن سُنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً » .

* * *

إن أعمال الخير يُثاب عليها مَن فعلها ومن اقتدى به فى فعلها ، وإن ثواب المبتدئ بفعلها يزيد بزيادة عدد من اقتدى به فيها ، إذْ له مثل أجر من اقتدى به ، ولكن هذه الزيادة بسبب اقتداء الناس به لا تؤثر فى أجر المقتدى ، فلا يتوهمن إنسان أن زيادة أجر الدّاعى إلى الخير أو من ابتدأ العمل الصالح تكون بالتنقيص من أجر التابع وضمه إلى أجر الداعى .

إن الأمر ليس كذلك بل للتابع أجره كاملا وللمتسبب الأصلى أجر دعوته إلى الخير بفعله أو بقوله فضلا عن أجر عمله للخير إذا فعله ولهذا عظم شأن الفقيه الداعى المنذر حتى فضل على العدد الكثير من العباد ، لأن نفعه يعم الأشخاص والعصور .

وإذا كان هذا العمل الصالح فالأمر فى العمل غير الصالح على العكس ، إن من دعا إلى ما يخالف الدين يحمل وزر عمله ، وإذا اقتدى به غيره فيه تحمل المقتدى وزر عمله ، وتحمل المتسبب وزر التسبب فى هذا العمل .

ومما ينبغى أن يفهم أن قوله ﷺ : ومثل أجور من اتبعه ، لا يستلزم المساواة فى قيمة الأجر بل المثلية تتحقق بمجرد حصول الأجر لكل منهما وإن اختلفت قيمة الأجر على العمل عنها عن التسبب فى العمل ، والأمر بالعكس فى العمل السيئ .

ومن هنا يمكننا أن نفهم قيمة القدوة وأهمية الوظائف العليا أو مراكز التوجيه والتأثير وما يتحمل أصحابها من مسئوليات تجلب لهم الخير إن أصلحوا وتوقعهم فى الشر المستمر إذا أساءوا أو انحرفوا .

والأمثلة كثيرة ، ففرق بين من يدعو إلى الله على بصيرة ومن يدعو إلى طريق الشيطان والهوى على أساس من العمى والضلال ، وفرق بين من تربى أبناءها على الدين ومن تربيهم على الاستهتار بتعاليمه ومبادئه فى الزى والخلق والسلوك : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال :

« قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » ما معنى هذا الحديث ؟ .

الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين : الإيمان والعمل الصالح ، فعبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن الإيمان بقوله : قل آمنت بالله ، فإذا كان المرء مؤمنا فإن المراد بقوله ﷺ : قل آمنت بالله ، جدد شعورك بها وردد كلمة التوحيد بلسانك ، وعايشها بكيانك .

ثم عبر عن العمل الصالح بقوله ثُم استقم ، أى الزم الطاعات واجتنب المخالفات ، ولازم الأعمال الصالحات ، قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نُزُلا من غفور رحيم) . والاستقامة عرفها بعضهم بأنها المتابعة للسنن المحمدية ، ومع التخلق بالأخلاق المرْضية وهى كما قال القشيرى ، درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها .

وهى تستلزم مراقبة الأعمال ومتابعة الشرع وعدم الخروج على حدوده بحال .

ومن هنا كان دعاء المؤمنين فى كل صلاة عدة مرات : (اهدنا الصراط المستقيم) فعلى المسلم أن يتبين طريقه على أساس من الدين ، وأن يتجنب الانحراف ، فالخير فى الاتباع ، والشر فى كل ابتداع .

فى إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

ولقد كان رسول الله ﷺ ، أحسن الناس خلقاً ، لقد ربط حسن الخلق بالإيمان ، فقال فى حديث صحيح رواه الترمذى .

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً »

وفى حديث آخر رواه أبو داود ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » والخلق الإسلامى الأول الذى من أجله كانت الرسالة الإسلامية نفسها إنما هو خلق الرحمة ، ولقد روت الأحاديث أن أعرابيًا دخل على رسول الله ﷺ ، فوجده يقبِّل أحد حَفَدته فاستغرب الأعرابى وقال : « أتقبِّلون أبناءكم ؟

إنّ لى عشرة من الأبناء ما قبلت أحداً منهم قط ، فقال رسول الله ﷺ : « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ » .

وفى موقف آخر مثل هذا قال رسول الله ، لأعرابى آخر : « ابتعد عنى لا تحرقنى بنارك » ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُنزع الرَّحمةُ إلا من قلب شقى » .

بل إن رسول الله ﷺ ، لم يقبل تفسير الرحمة على أنها خاصة بالأهل والعشيرة ، مقتصرة عليهم ، فقد قال فى وجه من فسر الرحمة بذلك : « أنا أعنى الرحمة العامة » .

فمن أساء لأبنائه ، فقد نزعت الرحمة من قلبه ، ودخل بذلك فى عداد الأشقياء وقطع رحمه ، ودخل بذلك فى عداد هؤلاء الذين قال الله فيهم :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم) .

وذلك أن هذه الآية ، نزلت فى الذين يفسدون فى الأرض ويقطعون أرحامهم . ولقد كان رسول الله ﷺ ، ذا رحمة بالحيوانات ، وهو القائل : الشاة إن رحمتها رحمك الله .

فعلى كل إنسان بصورة عامة أن يتحلى بصفة الرحمة حتى يدخل فى نطاق قوله ﷺ : الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا مَن فى الأرض يرحمكم من فى السّماء .

فى حق التوكل على الله

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه الإمام الترمذى وحسّنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فإن الطير تذهب أول النهار ، كما يقول الإمام النورى خماصاً ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطاناً أى ممتلئة البطون ، والواقع أن الحديث الشريف يوجه الأذهان إلى أن الطير تصبح فتذهب للبحث عن رزقها ، تصبح جائعة فتعمل وتجتهد فى طلب الرزق وبعد رحلة عمل مستمر ساعات تعود إلى عشها ممتلئة البطن شبعاً وريّا .

ورسول الله ﷺ لم يقل : إن الله يرزقها وهى ساكنة فى عشها ، وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حينما بويع بالخلافة ، أصبح ذاهباً إلى السوق ، يتجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم : « لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن

أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم ، يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين ، ومما ينبغى التنبيه له أن أنبياء الله ورسله لم يبلغوا الدعوة وهم فى مساكنهم آمنين مطمئنين ، وإنما جاهدوا فى سبيلها جهاداً مستميتاً وكانوا فى جهادهم مثلا كريمة للمتوكلين يقول الله تعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام :

(إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) .

أخذ « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحَى إليه ، الحق الذى دعا إليه كل نبى ورسول ، والذى يتلخص فيما قال هود عليه السلام .

فى شرح حديث زيارة المريض وتشييع الجنازة

عن أبى سعيد رضى الله عنه – فيما رواه الإمام أحمد : أن النبى ﷺ قال : « عُودوا المريض وامشوا مع الجنازة ، تذكركم الآخرة » . وقول رسول الله ﷺ : « مع الجنازة » لا يوجب تقدماً ولا تأخراً وإنما فى معنى الإباحة فى المشى فى المقدمة أو خلف الجنازة .

ومن أجل ذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه .

« الراكب يسير خلف الجنازة ، والماشى يمشى خلفها وأمامها ، ومن يمينها وعن يسارها ، قريباً منها .

وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يمشيان أمام الجنازة ، وكان على رضى الله عنه يمشى خلفها ، ويقول رسول الله ﷺ : الراكب يمشى خلفها .

والواضح من كل ذلك أن الماشى بالخيار فى سيره مع الجنازة أما الراكب فإنه لا يسير إلا خلفها .

وسواء أكان الماشى مع الجنازة أمامها أم خلفها فإن من السنّة ألا يرفع صوته بقراءة أو بذكر وعليه أن يتدبر الموت ويعتبر به ، فإن أراد ذكراً فليذكر فى نفسه .

ومن السنّة ألا يقعد مشيع الجنازة حتى توضع ، فقد روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : إذا رأيتم الجنازة فقوموا ، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع ، ومن السنة ألا يتبع الجنازة نساء ، فقد روى ابن ماجه وروى الحاكم عن على رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا

نسوة جلوس فقال : ما يجلسكن ؟ قلن : ننتظر الجنازة قال : هل تغسلن ؟ قلن لا : قال هل تحملن ؟ قلن : لا : قال : هل تدلين فيمن يدلى ؟ قلن : لا قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات .

فى شرح حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله

السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله ورد ذكرهم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله» :

إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وأما بدؤه ﷺ بالإمام العادل : فلأن العدل من جوهر شريعة الله سبحانه وتعالى : إذ به يرتفع الجور والظلم من الأرض ، وبه ينتشر الأمن والطمأنينة بين الناس ، يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، فلا قتل ولا اغتيال للأنفس ، ولا سلب ولا اختلاس ولا اغتصاب للأموال ، ولا تعدّى ولا انتهاك للأعراض والحرمات .

ويطمئنون على أرزاقهم – فى اليوم والغد والمستقبل – جادين فى السعى لتحصيلها مما أحله الله لهم فى أرضه الواسعة ، وكفله لعباده من النعيم فى الدنيا إن هم أقاموا ما أمرهم الله وانتهوا عمّا نهاهم عنه سبحانه ، وكل ذلك لا يتحقق ولا يتم إلا بإقامة العدل فى الأرض ، ولا يتأتى هذا إلا أن يقوم به رجل موفق يرجو الآخرة ويرجو رحمة ربه ويعمل على الخير على تحقيق الخلافة فى أرض الله بإقامة شرائعه .

ذلكم هو الإمام العادل الذى ائتمر بأمر ربه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .) والقائل : (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) لذلك كانت له البشرى فى الحديث بأن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، وبأن يكون مقدماً فى الذكر .

وقد توالت عليه البشريات فى الدنيا والآخرة (إن الله يحب المقسطين) . والرسول ﷺ يقول : «خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . . وشراركم أئمتكم الذين تبغضونهم

ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . كما يقول ﷺ أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو مال .

وهذا وغيره كثير يوجب على أئمة المسلمين أن يحققوا العدل فى الأرض ويحكموا بين الناس بما أنزل الله .

وذكر هؤلاء السبعة : لا يعنى أن الأمر مقصور عليهم ، إذ العمل بأمر الله فرائض ونوافل وقربات . . والانتهاء عما نهى عنه مع الإخلاص وصدق النية فى كل عمل يجعل من الإنسان وليًّا يحظى بالقرب والحب الإلهى : ومن حظى بالقرب والحب لم يقتصر الأمر معه على أن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله وحسب ، بل له فى الدنيا البشرى وله فى الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وانظر إلى قوله تعالى : فى وضوح واضح عن أوليائه الذين ائتمروا بأمره وانتهوا عما نهاهم عنه (ألا إنّ أولياءالله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم .) وقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون . نُزلا من غفور رحيم) .

فى وعظ الرجال والنساء يوم العيد

عن جابر بن عبد الله قال :

قام النبى ﷺ يوم الفطر ، فصلى ، فبدأ بالصلاة ، ثم خطب فلما فرغ نزل ، فأتى النساء ، فذكّرهن ، وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه ، يلقى فيه النساء الصدقات . . .

قال ابن جريج : قلت لعطاء: : زكاة يوم الفطر؟ قال : لا : ولكن صدقة تتصدقن حينئذ تلقى قبيحها[١٤٩] ويلقين . قلت : أترى حقًّا على الإمام ذلك ، ويذكرهن قال : إنه لحق عليهم ، وما لهم لا يفعلونه .

وفى الحديث من الفوائد :

استحباب وعظ النساء وتعليمهن أحكام الإسلام ، وتذكيرهن بما يجب عليهن ويستحب

(١٤٩) القبح : الخاتم العظيم يلبس فى الرجل أو الخاتم العظيم بلا فص .

حثهن على الصدقة ، وتخصيصهن بذلك فى مجلس منفرد – ومحل ذلك كله إذا أمن الفتنة والمفسدة .

وفيه خروج النساء إلى المصلى .

عن أم عطية قالت : قال رسول الله ﷺ « ليخرج العواتق وذوات الخدور ، والحيض ، وتعتزل الحيض المصلى ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين » . .

قال ابن حجر : وفيه استحباب خروج النساء إلى شهود العيدين ، سواء كن شواب أم لا . . ذوات هيآت أم لا .

وعن أم عطية قالت : أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور .

وعنها قالت : أمرنا أن نخرج ، فتخرج الحيض والعواتق وذوات الخدور .

فى السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام

السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم كانت مصاحبة له حين قدم إلى مصر ، وكان ملكها وقت ذاك من الطغاة الذين يحلو لهم أن يستحوذوا على ما يعجبهم من زوجات الآخرين فأوصاها سيدنا إبراهيم أن تخبر هذا الطاغية حين يسألها عن صلتها بإبراهيم بأنها أخته ويقصد بذلك أنها أخت فى الدين ، فليست سارة أختاً لإبراهيم من النسب بل هى زوجته وأخته فى الإسلام .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : « لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله قوله : (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبّار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرك وغيرى – فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك الله لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال إنك إنما آتيتنى بشيطان ولم تأتى بإنسان فأخرجها من الأرض وأعطاها هاجر . . إلخ »

الحديث الذى أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء وأخرجه مسلم فى الفضائل وورد مثل ذلك

فى حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة وفيه أنهم جميعا يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه الشفاعة ، يقول لست لها إنى كذبت ثلاث كذبات . . (قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لامرأته أخبريه أنى أخوك) .

فالصحيح أن السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم لم تكن أخته من النسب بل هى أخته فى الإسلام ، والكذب المنسوب لسيدنا إبراهيم لا يقدح فى النبوة لأنه ليس كذباً على سبيل الحقيقة بل هو من قبيل المعاريض وإبراهيم عليه السلام قد صرح بذلك ، إذ قال إنك أختى فى الإسلام وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه وامتناعه فى الشفاعة عن الشفاعة لأنه يرى أنه وإن لم يرتكب خطأ فقد ارتكب ما هو فى صورة الخطأ .

فى الحديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فقد روى الخطيب جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

إن الظروف التى قيل فيها هذا الحديث الشريف تلقى بالضوء على المعنى الذى أراده الرسول ﷺ : وذلك أنه بينما كان الرسول ﷺ راجعاً من إحدى الغزوات قال : قدمتم من الجهاد الأصغر : أى من الجهاد الحربى وهو جهاد فى سبيل الله قد يشوبه عند بعض الناس ما يشوب النفس التى لم تخلص بعد إخلاصاً كاملا لله سبحانه وتعالى ، ومثل ذلك ما رواه أبو داود بإسناد جيد عن أبى أمامة قال :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شىء له » فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ « لا شىء له » ثم قال ﷺ « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » .

ومعنى الذكر فى الحديث الشريف أن هذا الرجل يلتمس مع الأجر والثواب أن يتحدث الناس على شجاعته وأن يمدحوه ، وأن يكون من أصحاب الشهرة والثناء فيما بينهم ، ومثل هذا لم تخلص نيته لله وحده .

أما الجهاد الأكبر فإنه جهاد النفس حتى تتزكى وتطهر ، فإذا ما تزكت النفس وتطهرت ، فإن

صاحبها يهب نفسه خالصة فى سبيل الله فهو يجاهد الجهاد الحربى بروح لا تبالى على أى جنب كان فى الله مصرعها ، ويجاهد الجهاد الحربى بإيمان قد وضح فى عناصره أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ويجاهد الجهاد الحربى وقد تشبع بالمبادئ الإسلامية فى الحرب وفى قوله تعالى مخاطباً المؤمنين مبيناً لهم ما يجب عليهم عند اللقاء والتحام الصفوف .

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) . سورة الأنفال الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ومن ذلك نتبين أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر لأنه الأساس لكل خير ، فهو الأساس للأمن فى المجتمع وهو الأساس للثبات والصبر والنصر على الأعداء فى الجهاد الحربى .

يقول الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) . . . . (سورة الشمس) .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

فى الذكر

لقد حث الله سبحانه وتعالى على الذكر فى كثير من آيات القرآن وأمر به ورغّب فيه ، وأعد للذاكرين الله كثيراً مغفرة لذنوبهم ، وأجراً عظيماً فى آخرتهم ، فضلا عن الاطمئنان النفسى الذى يصاحبهم دائماً فى حياتهم ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً،وسبحوه بكرة وأصيلا) . وقال : (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) .

وقال : (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . ولقد ذكر الرسول ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وروى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما بإسناد صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وذكر الله هو حياة النفوس والقلوب كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الكثيرة التى تشير إلى فضل الذكر وأجر الذاكرين ، وليس الذكر محصوراً فى عدد معين بل هو متروك يأتى منه كل محب للاستزادة من الخير بقدر الوسع والطاقة ولا يغفل أى لحظة من لحظاته عن ذكر الله واستشعار عظمته ، كما ورد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله .

وكما روى الترمذى أيضاً : عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأخبرنى بشىء أتشبث به قال : لا يزل لسانك رطباً من ذكر الله .

وما زاد على السبعين يعد فى العرف من الذكر الكثير.

عن أبى موسى الأشعرى قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فجعلنا نصعد شرفاً – مكاناً عالياً – ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال : يأيها الناس أربعوا على أنفسكم (اشفقوا بأنفسكم) فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته.

أخرجه الإمام أحمد والإمامان : البخارى ومسلم.

وفى هذا الحديث نلمح المراد من الآية الكريمة . . أنها دعوة إلى التأدب فى الدعاء وترك الجهر الزائد بالصوت فيه لقوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنَّه لا يحب المعتدين) . والآية تبين السبب فى ذلك ، إن الله تعالى قريب قرباً معنويًّا من الداعين ، إنه أقرب إلى الإنسان من كل ما يتصور ، يقول تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .فعلى الإنسان أن يستشعر قرب الله تعالى وأن يتوجه إليه بكل جوارحه ومشاعره وأن ينزل به حاجاته فهذا هو السبيل الوحيد للنجاح.

والآية بعد هذا وقبله تدعو المؤمنين إلى الدعاء ، وتحمل رحمة ربانية مباركة من الله إلى عباده حيث ندبهم إلى عبادته ودعائه ، ووعدهم بالثواب العظيم والإجابة وذلك وحده طريق الرجاء.

وهذه الآية الكريمة تتوسط آيات الصيام ، وذلك أن الله سبحانه جمع آيات الصيام فى مكان واحد من سورة البقرة ويتلو الإنسان هذه الآيات فيفاجأ بهذه الآية الكريمة : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . .) تتوسط آيات الصيام ولله سبحانه وتعالى حكمة فى ذلك ، إنه سبحانه يشير بذلك إلى أن استجابة الدعاء تتحقق بتقوى الدّاعى ، وأنه لابد للاستجابة من التقوى ، وذلك أن حكمة الصوم هى أن يقود الصوم الإنسان إلى التقوى (يأيها الذين آمنوا كُتِب عليكم . . . . إلى (تتقون)) .

فالصيام إذاً من وسائل استجابة الدعاء ، وإذا قاد الصيام الإنسان إلى التقوى تحقق ما قاله الله تعالى فى آية الدعاء كشرط من شروط استجابته.

(فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) .

فى الدعاء بالأسماء الحسنى

يقول الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ويقول تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) فى هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه أنه شرع الدعاء بأسمائه الحسنى . ويقول سبحانه : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . وقد بين سبحانه فى هذه الآية وفى غيرها أنه يجيب دعوة الداعى ، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ولقد بين الله سبحانه – بما لا لبس فيه ، أن الاستغفار من أسباب السعة فى الرزق ومن أسباب زيادة القوة فضلا عن فوائده فيما يتعلق بالمغفرة والرحمة ، وقد ورد فى الأخبار الصحيحة قراءة الفاتحة من أجل شفاء المريض ، وورد فى الأخبار الصحيحة نصيحة رسول الله ﷺ لبعض المرضى باستشارة الأطباء ونصح بعضهم الآخر بشرب عسل النحل . ولكن لم يرد فى الأخبار الصحيحة كتابة أسماء الله الحسنى فى لوح ثم غسله بالماء وشرب الماء طلباً للرزق أو كشفاً عن الأمراض ، ولم يرد ذلك عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح .

ومع ذلك فإنه لم يرد ما ينهى عن ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ، وقد ورد قوله تعالى : (وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) فالقرآن شفاء بأوسع معانى الشفاء ، ورحمة بأوسع ما فى الرحمة ، فإذا كتب بحبر طاهر غير مضر بالبدن وغسل بماء نقى غير مضر بالبدن وشرب فإن ذلك غير محرم ، ولا يأثم فاعله ولم يرد ما يحرمه ، ولعل حالة المريض النفسية تتأثر بذلك فيكون مساعداً على الشفاء كما هو معروف عند علماء النفس من أن للحالات النفسية صلة مؤكدة بالأمراض .

فى الشكر فى الجو الإسلامى

معنى الشكر فى الجو الإسلامى يتكون من جملة عناصر.

أولها : معرفة النعمة ، وأنها من الله سبحانه (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثانيها : استعمال النعم فيما أحبه الله وقصده بها .

ثالثاً : حمد الله سبحانه وتعالى عليها باللسان .

فإذا ما تمت هذه العناصر كان الشكر ، وما من شك فى أن الإنسان مغمور بنعم الله تعالى ، يقول سبحانه : (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ، وأن هذه النعم إنما أتت للإنسان عن طريق وسائط مسخرة لله تعالى .

وأفضل الشاكرين هو رسول الله ﷺ .

وإذا كانت حقيقة الشكر هى استعمال النعم فيما أحب الله سبحانه فإن الحمد هو التعبير اللسانى عن الشكر ، والحمد كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق .

والإنسان بإزاء النعمة على أنواع :

ومن هذه الأنواع : أن يتلقى النعمة فيفرح بها لذاتها ، كما يفرح التاجر بالمكسب ، لأنه مال أتاه ولأنه زيادة فى ثروته ولأن تجارته ستصبح بهذا المكسب أوسع ، ولا ينظر فى كل ذلك إلى مصدر النعمة ولا إلى مانحها وموهبها الذى لو شاء لأمسك ولو شاء لمنع ، وهذا ليس له فى الشكر نصيب ، حقّ ولو لم يستعمل هذا المكسب فى المعاصى ، لأن نظره لم يتعد النعمة ويتجاوزها إلى المنعم .

ومن هذه الأنواع أيضاً : أن يتلقى الإنسان النعمة فينظر إليها على أنها دليل رضا من الله سبحانه ، وينظر إليها على هذا الوضع ويشكر الله سبحانه وتعالى عليها وهذا داخل فى معنى الشكر . بيد أن الشكر التام الكامل أن يضيف الإنسان إلى فرحه بالنعمة كدليل على رضاء الله استعمالها فيما أحب الله وفى القرب منه سبحانه ، فإذا ما نظر الإنسان إلى النعمة على أنها من الله سبحانه وتعالى وحده وإذا ما استعملها فيما يرضى الله ورسوله ويقرب منهما فإنه ينطبق عليه المعنى الحقيق .

فى فائدة الشكر بالنسبة للفرد

إن شكر الله سبحانه وتعالى إنما يكون على نعمه وقد وعد الله الشاكرين وعداً مؤكداً أن يزيدهم من نعمه إذا شكروه سبحانه عليها ، يقول سبحانه : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقد وعد الله سبحانه الشاكرين ، الجزاء الحسن فقال تعالى : (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) ، أى جزاء كبيراً حسناً ، ويقول سبحانه : (وسيجزى الله الشاكرين) :

سيجزيهم سبحانه بالزيادة فى الدنيا فيزداد الغنى الشاكر غنىً ويزداد القوى الشاكر قوة وهكذا . . . وسيجزيهم خيراً ورضاً فى الآخرة .

فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينادى يوم القيامة ليقم الحامدون ، فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل ومن الحمّادون ؟ قال الذين يشكرون الله على كل حال :

ففائدة الشكر بالنسبة للفرد ليست مقصورة على الدنيا دون الآخرة ولا على الآخرة دون الدنيا : وإنما هى فى الدنيا والآخرة .

فى فائدة الشكر بالنسبة للمجتمع

فائدة الشكر بالنسبة للمجتمع ظاهرة ظهوراً واضحاً من تعريف الشكر : وذلك أن جوهر الشكر هو استعمالُ نعم الله فيما أحب الله .

فإذا استعمل المنعَمُ عليهم النِّعم فيما أحبَّ الله فإننا نرى فى المجتمع التاجر الصدوق ، والعامل المتقن ، والصانع يراعى الله فى صنعته ، والغنى يؤدى حق الله فى ماله من زكاة ومن صدقة ، وصاحب الجاه ينفق من جاهه عوناً للمظلومين يبتغى بذلك شكر الله على نعمة الجاه .

ونرى المدرس مربيًّا لا مُعلِّماً فحسب ، والحاكم أباً للجميع لا طاغية متحكماً ، والرئيس أخاً لمرءوسيه ، والمرءوسين متعاونين من رئيسهم لمصلحة العمل والوطن .

ونرى كل راع يتحمل المسئولية بالنسبة لرعيته شكراً لله على أن استرعاه وجعل له ثواباً على حسن الرعاية .

ثم نرى نتيجة الشكر فى المجتمع وهى زيادة النعم : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

فى ما هو مفهوم العبارتين : لا حول ولا قوة إلا بالله ولا إله إلا الله وما أثر مفهومها على الإنسان وتصرفاته ؟

مفهوم لا حول ولا قوة إلا بالله ، أى لا تحوّل من حال إلى حال ولا انتقال من فعل إلى فعل ولا قدرة لعبد على عمل من الأعمال إلا بالله سبحانه ، فهو سبحانه الذى يعينه وهو الذى يتمم له عمله ، ويبلغ به نهاية تمامه ، وهو كنز من كنوز الجنة . قال ﷺ : لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة ، وإذا ما أكثر الإنسان منها أشعرته عدم الغرور بنفسه ، فلا ينسب إليها شيئاً مما تفضل الله به عليه من توفيق ، فيتواضع ويلجأ إلى الله فى كل صغيرة وكبيرة . ولهذه العبارة

أثرها الضخم فى الشجاعة الأدبية والشجاعة الحسية ، لأن مَن كان شعاره : لا حول ولا قوة إلا بالله لا يخاف ولا يجبن وهى من غراس الجنة .

ولقد روى الإمام أحمد وغيره ، عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به مرَّ على إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فقال : من معك ياجبرائيل ؟ قال هذا محمد ، فقال له إبراهيم ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام : يامحمد مُرْ أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة ، قال : « ما غراس الجنة » ؟ قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهمّ .

أما لا إله إلا الله فمعناها لا معبود بحق إلا الله ، فكل عبادة لغيره باطلة .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى وحسّنه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما قال عبد لا إله إلا الله قطُّ مُخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش .

فى الإذن بالذكر

بعض أنواع الذكر لايحتاج إلى تلقين أو إذن من ذلك الاستغفار لقوله تعالى : (فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك) وقوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

ومن ذلك ، الذكر بلا إله إلا الله ، لقوله صلوات الله عليه : أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى « لاإله إلا الله » .

ومن ذلك الصلاة على النبى صلوات الله تعالى وسلامه لقوله تعالى (إنَّ الله وملائكته يصلون على النبى يٰأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا) .

ومن ذلك نعلم أن دلائل الخيرات لاتحتاج إلى تلقين ولاإلى إذن ، إذا كان الإنسان يجيد القراءة ، لأنها صلوات على رسول الله ﷺ ، وقد أمرنا الله تعالى فى كتابه الكريم بالصلاة عليه والسلام .

فى الذكر بصوت مرتفع

إن عادة قيام الناس بالذكر بصوت مرتفع فوق مساجد القاهرة يوم الجمعة وليلتها كما يقول السائل عادة غير شائعة .. ولو وجد ذلك لكان جائزًا ، بل أمرًا محبوبًا ماداموا يذكرون الله تعالى ، فالله تعالى يأمر بالذكر فى قرآنه الكريم فإذا كان ذلك فى بيوته وفوق بيوته الطاهرة لكان حَسَنًا ، وإذا كان فى ليلة عيد المسلمين يوم الجمعة لكان أكثر حُسْنًا . فالذاكرون هم أولو الألباب الذين قال تعالى فيهم : (إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار).

هذا إذا لم يؤذ الذكر أحدًا من الناس ، ولم يكن سببًا فى مضرّة بعض المجاورين للمسجد ، أما إذا كان فيه ضرر لبعض الناس الذين يكدحون مثلا طيلة النهار فيؤرقهم الذكر ويمنعهم من النوم والرّاحة فإنه يتحتم أن يكون الذكر فى هذه الحالة بصوت منخفض ، والله سبحانه وتعالى يسمع الذاكرين على أى وضع كانوا ، ويثيبهم على قدر إخلاصهم ونياتهم .

فى الذكر بلفظ « أ هـ » وبلفظ « هو »

فى هذا الموضوع لَبْسٌ هو سبب الجدل ، فإذا ما أزيل هذا اللبس انتهى — فيما أظن — النقاش فيه والجدل :

إن لفظ « أهـ » ولفظ « هو » من أسماء الله تعالى الواردة فى صراحة صريحة . والمتعبد إنما يردد اللفظ الأول باعتباره معبرًا عن الندم والحزن على مافات من أيام مضت ليست على مايحب ، وهو فى أثناء هذا الترداد : متذكر لله ، خائف منه ، مستغيث برحمته ، وهذه الحالة التى يجتمع فيها التأوه الحزين مع تذكر الله إنما هى نوع من التوبة ، وهى على هذا الوضع عبادة ، وهى على هذا الوضع ذكر ، فما الذكر إلا التذكر وهو حاصل فى هذه الحالة ، وهذه الحالة لاينبغى لإنسان أن يقول عنها إنها محرمة .

أما المتعبد الذى يردد اللفظ الثانى فتصوير حاله على ماينبغى أن يكون هو أنه يقدر عظمة الله وجلاله ، ويقف موقف المستشعر الرهبة منه سبحانه فلا يجرؤ على النطق باسمه وإنما يعبر عنه بلفظ

(هو) أى بالضمير الذى يشير ولايصرح ، فلفظ هو وإن لم يكن من أسماء الله سبحانه فإنه فى ذهن العابد وفى ضميره يراد منه الله سبحانه ، وهذه الحالة من الخشية التى تغمر العابد فترة من الزمن فتجعله لايجرؤ على النطق باسم الله الصريح . إنما هى من أسس الشعور الدينى ، ولاينبغى لأحد أن يحرمها .

والواقع أن الجهل الذى يسود جو المتخاصمين فى هذه المسائل مثبتين كانوا أو منكرين هو الأساس فى إثارة الجدل ، وهو الأساس فى استمرار النزاع .

والبيان الذى بيناه فى هذا الموضوع كفيل برد الأمر إلى نصابه ، وكفيل إذا حسنت النوايا برفع الجدل فى هذا الموضوع .

فى صيغ الصلاة على الرسول ﷺ

إن الله سبحانه وتعالى وضع مقاييس للنجاة فى الآخرة ، ولرضائه فى الدنيا والآخرة .

وهذه المقاييس ذكرها فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة الشريفة ذكرها موجزة أحيانًا ومطولة مستفيضة أحيانًا أخرى .

من ذلك مثلا قول الله تعالى : (من عمل صالحًا مِن ذكرٍ أو أنثى) الآية . ومن ذلك قوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا)

وقد اشترط الله سبحانه وتعالى دائمًا الإيمان والعمل الصالح أو الإيمان والتقوى .

وتبتدئ التقوى بالتوبة الخالصة النصوح ، والإخلاص الكامل لله فى الأعمال وفى النية ، وحديث النية مشهور (إنما الأعمال بالنيّات . . . . إلخ) . . . ومع التوبة الخالصة النصوح الأعمال :

والأعمال فروض وواجبات وسنن مستحبة وأوامر الله سبحانه وتعالى ليست فروضًا فحسب ، وإنما هى نواهٍ أيضًا ، إن الإسلام حدد الفضيلة والمعصية ، والتقوى التى اشترطها الله سبحانه وتعالى للنجاة هى بعد الإيمان ، العمل بالفضيلة واجتناب الرذيلة ، فمن اتبع ذلك نجا ، ومن انحرف عن ذلك وخالفه دخل النار بنسبة انغماسه فى الرذائل وتركه الفضائل .

ولو كانت صيغة واحدة فى الصلاة على الرسول ﷺ تكفى فى النجاة مهما عمل الإنسان فإن ذلك يكون هدفًا لجميع قوانين الله سبحانه وتعالى وشرائعه .

وكل من يقول بمثل هذه المزاعم التى تلغى الشرع وتبطل الأعمال التى حددها الدين فإنه يكون

آثمًا ، وعلى ذلك فإن من قال صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله مَنْ قالها مرة فى عمره لم تمسه النار ، هذا الكلام غير صحيح ومن يقوله يكون مرتكبًا للمعصية وللإثم .

ومامن شك فى أن الصلاة على الرسول ﷺ لها ثوابها الحسن وفوائدها الكثيرة ولكنها على أى صيغة لاتلغى الفروض والواجبات التى هى سبب النجاة .

فى دعاء الرسول ﷺ

استفتاح الدعاء واسم الله الأعظم :

عن عبيد الله بن بريده عن أبيه رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لاإله إلاّ أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، فقال :

لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب رواه الترمذى وحسنه ، وقال الحافظ أبو الحسن المقدسى : إسناده لامطعن فيه ، ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلا وهو يقول : « ياذا الجلال والإكرام » .

فقال : « قد استُجِيب لك فَسلْ» رواه الترمذى .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : مرَّ النبى ﷺ بأبى عبّاس زيد بن الصامت الزّرقى ، وهو يصلى ويقول .

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لاإله إلاّ أنت ، ياحنّان ، يامنّان ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم .

فقال رسول الله ﷺ :

لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذْ دعاه وهو فى بطن الحوت لاإله إلاّ أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له . . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . هـ

فى قول الله تعالى

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان)
وقوله تعالى : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

* * *

هذه الآيات وغيرها فى القرآن الكريم لم تحدد وقتًا معينًا للدعاء أو مكانًا ، له وإنما أطلقت إطلاقاً ، والواقع أن الدعاء مستحب فى كل الأوقات ، لأنه تضرع إلى الله ورجوع إليه فى الاستعانة وتحققاً بقوله تعالى : (إيّاكَ نستعين) ، والأوقات التى بعد الصلاة من الأوقات الشريفة التى يُرجَى استجابة الدعاء فيها . عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله أى الدعاء أسمع ؟ قال جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات ، وهذا الحديث الشريف الذى رواه الإمام الترمذى يحث على انتهاز الدعاء بعد الصلوات المفروضة ، لأنه أرجى فيما يتعلق بالإجابة فعلى المسلم أن يدعو الله كلما شرح الله صدره للدعاء ، وخصوصًا فى أجوف الليل وفى دبر الصلوات المكتوبات .

فى ظروف وأمكنة الدعاء

يقول الله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاع إذا دعان) ، وقوله سبحانه : (ادعونى أستجب لكم) .

ولإجابة المطالب ظروف ، وأمكنة تُهيّأُ لها ، فرحمة الله قريب من المحسنين ، والإحسان إذًا من الحالات التى تكون أرجى لقبول الدعاء والله تعالى إنما يتقبل من المتقين ، والتقوى من هذه الحالات التى تكون أرجى لإجابة الدعاء ويقول الرسول صلوات الله عليه : أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء فقمن (أى جدير) أن يُستجاب لكم . . وقد ورد أن الأزمنة التى يكون الدعاء فيها أقرب إلى أن يُستجاب هى : مابين الأذان والإقامة ، وفى السفر ، وعند نزول المطر ، وعند الإفطار من الصيام ، أما الأمكنة التى تهيئ للاستجابة أيضًا فهى الأمكنة الظاهرة كالمسجد الحرام ، والحرم النبوى ، وفى رحاب الصالحين أحياء كانوا أم أمواتا .

أما فيما يتعلق بالنذور فالإنسان فى هذه الحالة الظاهرة يستشفع إلى الله بإحسانه وبتقواه وبعمله

الصالح على وجه العموم ، ويقدم النذور لله سبحانه وتعالى : فالنذور لغيره لاتجوز ، وهذه النذور التى توضع فى صناديق الأضرحة إنها صدقة للفقراء والمساكين ، يجب أن تصرف إليهم ، وهى أساس قوى لإزالة كثير من البلاء ولإجابة الله سبحانه وتعالى مطالب الخير : يقول صلوات الله عليه ، حصنوا أموالكم بالزكاة وداوَوْا مرضاكم بالصدقة ، ودافعوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع .

فى صيغ الدّعاء من السنة الشريفة

عن أبى هريرة رضى الله عنه – فيما أخرجه الحاكم ، والإمام أحمد ، والترمذى – عن النبى ﷺ قال :

« ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموٰات والأرض » وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ :

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى : وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ماعلى الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلاّ آتاه الله تعالى إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . فقال رجل من القوم :

« إذن نكثر » ! فقال : الله أكثر » رواه الترمذى والحاكم وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاها إيّاه ، إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخر » رواه أحمد رضى الله عنه وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعونى – فيقول نعم يا رب » ! .

فيقول : أما إنك لم تدعنى بدعوة إلاّ استجبت لك ، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتنى يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرّج عنك فلم تر فرجًا ؟ قال : نعم يارب : فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ، ودعوتنى فى حاجة أن أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها فيقول : نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا :

ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ، فيقول نعم يارب : فيقول إنىادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا ، قال رسول الله ﷺ :

« فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلاّ بيّن له : إما أن يكون عمل له فى الدنيا وإما أن يكون ادّخر له فى الآخرة ، قال : فيقول المؤمن فى ذلك المقام :

« ياليته لم يكن عجّل له شيء من دعائه :

وإذا أردت استجابة الدعاء فابدأ :

١ – بالتوبة الخالصة النصوح .

٢ – وتحرّ الحلال .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أخرجه الحافظ بن مردويه ، تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا) .

فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة .

فقال : « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايُتقبل منه عمل أربعين يومًا ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والرّبا فالنار أوْلى به » .

ومن صيغ الدعاء المباركة التى دعا بها رسول الله ﷺ مانقلته كتب السنة الشريفة :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » رواه مسلم .

وعن بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها ، يا أم المؤمنين ماكان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه .

يامقلّب القلوب ثبّتْ قلبى على دينك .

وعن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله : علمنى شيئًا أسأل الله تعالى : قال : سلوا الله العافية فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت يارسول

الله : علمنى شيئًا أسأله الله تعالى قال لى : عباس ياعم رسول الله سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة .

رواه الترمذى .

فى الذكر والدعاء بغير المأثور

ويصح الذكر والدعاء بغير المأثور والأحاديث التالية دليل على ذلك فى جانبى الذكر والدعاء ، عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا فى الحلقة ، إذْ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد الرسول ﷺ . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما جلس الرجل قال : « الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا أن يُحمَد وينبغى له » . فقال رسول الله ﷺ ، كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال . فقال : النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص على أن يكتبها فما دروا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال اكتبوها كما قال عبدى » رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالا : كما يحب ربنا ويرضى(١٥٠)

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فيما رواه الإمام أحمد وابن ماجه ، أن رسول الله ﷺ : « حدثهم أن عبدًا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك »

لم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا : ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها ؟

قال الله ، وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : « يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك » فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

---

(١٥٠) انظر الترغيب والترهيب (كتاب الذكر والدعاء) .

فى آداب الدعاء

يذكر الإمام الغزالى آدابًا للدعاء منها : أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل ، قال تعالى : (وبالأسْحارِ هم يستغفرون) .

وقال ﷺ :

« ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعونى فأستجيب له ؟ : من يسألنى فأعطيه ؟ « من يستغفرنى فأغفر له » ومنها أن يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها .

وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات .
وقال ﷺ الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردّ وقال ﷺ أيضًا : (الصائم لاترد دعوته)
ويتابع الإمام الغزالى حديثه فيقول .

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضًا ، إذْ وقت السّحر وقت صفاء القلب وإخلاصه ، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتمادى القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل .

فهذا أحد أسباب شرف الأوقات ، سوى مافيها من أسرار لايطّلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضًا ، أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى ﷺ :

أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء ، وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال :

« إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا وساجدًا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرّب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فَقِمن أن يُستجاب لكم » .

فى كيف يدعو الإنسان ربه لأنه تعالى يقول

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان)

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء والابتهال والتضرع إليه فى كل وقت وحين ، ووعدهم على ذلك بالإجابة فقال : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أُجيب دعوة الدّاعِ إذا دعان) وقال : (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : الدعاء مخ العبادة ، ومن لم يسأل الله يغضب عليه ، والدعاء له آداب ينبغى على الدّاعى أن يراعيها ليكون دعاؤه أرجَى للقبول ، ومن هذه الآداب :

١ – أن يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه ، لقول سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .

٢ – استقبال القبلة إن أمكن .

٣ – تحرى الأوقات الفاضلة كيوم عرفة ، وشهر رمضان ، ويوم الجمعة والثلث الأخير من الليل ، والسجود ، وبين الأذان والإقامة ، وعقب الصلوات ، فإن هذه أوقات يستجاب فيها الدعاء .

٤ – رفع اليدين إلى الله سبحانه وتعالى ، فإن الله لايردها خائبتين .

٥ – حضور القلب وإظهار الخشوع والضراعة والتذلل إلى الله عز وجل ، مع خفض الصوت كما قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين)

٦ – البدء بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، لقول النبى ﷺ إذا صلى – أى دعا – أحدكم فليبدأ بتحميد ربه عز وجل والثناء عليه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بما شاء .

٧ – أن يدعو الإنسان بغير إثم أو قطيعة رحم وألا يستبطئ الإجابة ، وأن يختار المأثور من القرآن والسنة النبوية الشريفة ، مثل قوله تعالى :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

وقوله ﷺ : اللهم إنى أسلك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

فى هل يجب أن يُقرأ الدعاء بعد صلاتى الفجر والمغرب ؟

مذهب الشافعية أن القنوت فى صلاة الصبح بعد الركوع من الركعة الثانية سنة رواه الجماعة إلا الترمذى عن ابن سيرين ، أن أنس بن مالك سئل :

هل قنت النبى ﷺ فى صلاة الصبح فقال : نعم . . فقيل له : قبل الركوع أو بعده ؟ قال : بعد الركوع . ولما رواه أحمد والبزار والدارقطنى والبيهقى والحاكم وصححه عنه قال : مازال رسول الله ﷺ يقنت فى الفجر حتى فارق الدنيا . أما فى صلاة المغرب فلا قنوت فيها إلا عند النوازل ، فإنه شرع القنوت فيها وفى غيرها من الصلوات .

روى أبو داود وأحمد عن ابن عباس قال : قنت الرسول ﷺ شهراً متتابعاً فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح فى دبر كل صلاة إذا قال : سمع الله لمن حمده ، من الركعة الأخيرة يدعو عليهم ، على حى من بنى سليم : على رعل وذكوان وعصيه ويؤمن من خلفه ، وكان قد أرسل إليهم جماعة من الصحابة يدعونهم إلى الإسلام فقتلوهم .

أما الأحناف فإنهم يقنتون فى الوتر فى الركعة الثالثة قبل الركوع لما رواه الإمام أحمد وغيره بإسنادهم عن الحسن بن على رضى الله عنه قال . علمنى رسول الله ﷺ ، كلمات أقولهن فى الوتر .

« اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تَقضى ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يذِلُّ من واليت ، ولا يعِزُّ من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبى محمد .

فى دعاء الوالدين

دعاء الوالدين مستجاب إذا صدر بسبب عقوق من الولد أو إساءة أدب أو ما إلى ذلك ، فإذا أدَّى الولد حق أبيه ، فلا شىء عليه بعد ذلك ، دعا الوالد له أو دعا عليه ، لأن الله سبحانه وتعالى : قد وضع لنا مقاييس الخير ومقاييس الشر ، وعلى أساس هذه المقاييس يكون الحساب .

وقد يخطئ بعض الناس فى استغلال حقه فيسئ إلى من أحسن إليه أو لا يقنع بما يقدم إليه . . ومثل هذا لا يستجيب الله له دعاء على مَنْ أحسن إليه ، بل قد يتحول دعاؤه على غيره إلى دعاء عليه ، يصيبه شره ولا يتحقق له عن طريقه أى خير .

والدعاء على « الغير » لا يقبل إلا إذا كان صادراً عن إحساس بظلم صادر منه ، لأن الله تعالى عدلٌ لا يقبل الظلم ، وقد أنذر الظالمين وفتح للمظلومين باب الانتصار بالقول والفعل وبالدعاء ، وفى الحديث الصحيح : ثلاثة لا تردُّ دعوتهم . وذكر الرسول ﷺ منهم دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويقول : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ، والسائلة تعلم من نفسها إذا كان دعاء والدها له سبب مقبول أم لا : فإن كانت تسىء إلى حقه أو تقصر فيما يجب عليها نحوه فعليها أن تتوب إلى الله من ذلك ، وأن تستسمح والدها ، وأن تسرى عنه وتطلب منه الدعاء لها .

وإن لم يكن منها شىء من ذلك استمرت فى أداء واجبها نحوه ولا عليها بعد ذلك دعا أم لم يدعُ . لأنها أدت حق الله عليها . .

وحق الوالدين معلوم من الدين بالضرورة ، ولهما الحق أحياءً وأمواتاً . . ومن الممكن بوسائل المقدرة تفريج همومها والوصول إلى حبها ، والابتعاد عن كل ما يسبب غضبها .

وعلى كل فالمدار على حسن المعاملة والوفاء بالحق والواجب ، والسير على أساس من الخوف من الله ، والرغبة فى الوصول إلى رضاه .

فى التوبة هل تمحو الذنوب كلها

نعم فإن رحمة الله بعباده التائبين واسعة والله تعالى يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ويقول سبحانه : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) .

غير أن التوبة لابد أن تكون نصوحاً ، عسى الله أن يقبلها فيكفِّر الذنوب ويعفو عن السيئات .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شىء قدير) .

ومن شروط التوبة النصوح الندم ، والإقلاع عن المعاصى كلها ، وردّ الحقوق لأصحابها وعدم العودة بما يغضب الله سبحانه ، والإكثار من الأعمال الصالحة صلاةً وذكرًا وصومًا وصدقة ، وأداء الفرائض كلها ، وتقربًا إلى الله بالنوافل وألا يراه الله حيث نهاه ، وأن يفقده حيث أمره ، فعسى الله أن يقبله ويبدل سيئاته حسنات ، والله تعالى يقول : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) ويقول سبحانه : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحًا

فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ،وكان الله غفورًا رحيمًا . ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا . . .)

فى التوبة والشباب

إذا خلصت منه النية وصح منه العزم وكانت توبته الأخيرة توبة نصوحًا وذلك بالندم على ما فعل وعدم العودة إليه والإكثار من طاعة الله ، والإقلاع عن جميع المعاصى صغيرها وكبيرها والإخلاص لله فى العبادة ، ومراقبته فى السر والعلن فإنا نرجو أن يقبل توبته وأن يعفو عن سيئاته ، قال تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) ، وقال تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) .

هذا ونكرر النصح لشبابنا ، ونهيب بهم أن يقلعوا عن ممارسة « العادة السرية » فإنها مقيتة تودى بالصحة ، وتضعف الدين ، وتعقب الندامة ، وهى كما قررنا فى مقالة سابقة يشملها التحريم المأخوذ من قوله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) .

وعلى الشباب الذين لا يستطيعون الزواج أن يصرفوا ما عندهم من الطاقة فى طاعة الله سبحانه وتعالى – صلاة وصيامًا وذكر الله وتسبيحاً ، وعليهم أن يتساموا بغرائزهم فيصرفوها فيما يعود عليهم وعلى وطنهم بالنافع المفيد .

فى ماذا يفعل الإنسان الذى يبتليه الله بمصائب ومتاعب مع أن سلوكه طيب ويفعل الخير

الحياة الدنيا دار ابتلاء بالمتاعب والمصائب ، ولم يسلم من ابتلائها أحد حتى الأنبياء ، وليس ذلك دليلا على غضب الله أو عدم رضاه عن العبد ، لأن الله جعل المصائب اختباراً أو امتحاناً ، قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلو أخباركم) وعلى الإنسان الذى

يُبتلى فى حياته أن يصبر لينال أجر الصابرين ، قال تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

ومن كان يفعل الخير ويؤدى الطاعات وهو مُبتلًى – مع ذلك – بالمصائب قد يكون ذلك على محبة الله تعالى له ورضائه عنه كما روى فى الحديث : « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » .

ولقد مدح الله أيوب على صبره على ابتلاء الله ، وقال فيه :

(إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب) وقال عليه السلام : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل :

وليس هناك من باب للفرج وإزالة البلاء إلا باب الله سبحانه ، وإلا الالتجاء إليه والدعاء ، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن الدعاء يرفع البلاء ، وأنه ينفع فيما نزل من البلاء ، وفيما لم ينزل ، والتضرع إلى الله سبحانه باب عظيم من أبواب الفرج .

فى هل الصدقة والدعاء والقراءة تنفع الميت ؟

إنَّ الصدقة والدعاء والاستغفار للميت ينفعه ، وكذلك العلم الذى تركه بالإجماع ، وأما تلاوة القرآن فالأحسن فيها الدعاء للميت والترحم عليه والاستغفار له .

قال ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث صدقة جارية ، وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له» رواه مسلم .

فى ماحكم الدعاء للميت بعد الصلاة عليه وقبل دخوله إلى القبر ؟

إن الدعاء للميت قبل الصلاة عليه وقبل دخوله القبر وبعد دخوله القبر جائز ، بل مستحب ، لأن الميت إنْ كان مُذْنِبًا وهو من المسلمين فهو محتاج إلى الدعاء ليغفر الله له ذنوبه ، ويعامله بلطفه ، ويسبغ عليه من رحمته ، وقد دعا الأنبياء للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات – أحياءً وأمواتًا – وقال تعالى فى سورة نوح :

(ربِّ اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات) بل إن الله سبحانه وتعالى ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار للمؤمنين أحياء وأمواتًا فقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلَّبكم ومثواكم) . سورة محمد : ١٩

وهذه الآية الكريمة تعليم للأمة وتوجيه لها إلى الدعاء لموتاها المؤمنين تأسيا برسول الله ﷺ .
فالدعاء للميت – مطلقًا وفى أى وقت كان – جائز بل مستحب .

فى أدعية تفريج الكرب وجلب الرزق وسداد الديون

هناك أدعية لتفريج الكرب وجلب الرزق وتسديد الديون وماإلى ذلك . وفيما أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول : اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغِنى .

وكان ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

وصفات عباد الرحمن فى القرآن الكريم يعبر عنها قول الله سبحانه : (والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا) ويرى بعض الناس أن هذه الأدعية الصحيحة ومايماثلها يمكن للإنسان أن يجعلها فى حرز مانع من القماش أو الجلد ، وأن يعلقها على جسمه فيقوم تعليقها مقام الدعاء بها .

وقد روى أحمد والحاكم والطبرانى – رجاله ثقات – أن رسول الله ﷺ قال : من علق ودعة فلا ودع الله له ، ومن علق تميمة فلا تمم الله له ، والودعة شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين ، والتميمة خرزات تعلق على الأولاد بحمايتهم من ضرر العين. قال ابن حجر : محل ماذكر من الخير وماقبله تعليق ماليس فيه قرآن ونحوه ، أما مافيه ذكر الله ونحوه فلا نهى عنه ، فإنه إنما جُعل للتبرك والتعوذ بأسمائه . وعلى ذلك فلاشىء فى تعليق مافيه ذكر وقرآن إذا كان فى حِرْز مانع من قماش أو جلد بقصد استجلاب الرزق ، وأما إن كان فيه شىء غير الذكر فلا يجوز تعليقه وسيكون سببًا فى تحصيل مايخالف الغرض المقصود منه .

فى الدعاء على « الغير » دون حق

إن الدعاء على « الغير – دون حق ولاسبب – غير مقبول ، ولايستجاب لفاعله ، بل إن فاعله بفعله هذا اكتسب خطيئة ومعصية واحتمل بذلك بهتانًا وإثمًا . يقول الله سبحانه : (ومَن يكسب خطيئةً أو إثمًا ثم يرم به بريئًا فقد احتمل بُهتانًا وإثما مبينًا) فالدعاء على « الغير » دون

سبب – إثم وقطيعة رحم كما أخبرنا بذلك الشّارع المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يزال يُستجابُ للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

وحسب الداعى على غيره دون سبب من الشرّ والإيذاء رجوع الدعاء إليه واستعجال نزول العقوبة به ، فعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء فتُغْلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها . ثم تأخذ يمينًا وشمالا ، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذى لعن ، فإن كان أهلا لذلك ، وإلا رجعت إلى قائلها ، رواه أبوداود .

وكما أنه كان من محض عدل الله سبحانه أنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها فإن من محض عدله تعالى أيضًا أن جُعل ظهيرًا وعوْنًا للمظلوم .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا قال يا رسول الله : إن لى قرابة أَصِلُهُم ويَقْطَعُونى ، وأُحسن إليهم ويُسيئون إلىَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علىَّ ، فقال : لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفّهم المَلَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك . رواه مسلم .

فى سؤال يقول : يقول الله سبحانه

(وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعانِ) وأنا أدعو الله ولايستجاب لى فكيف ذلك ؟

يقول الله سبحانه وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الدّاعِ إذا دعانِ) وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء أكرم على الله من الدعاء ، بل إن للدعاء دخلا فى تلطيف القضاء أو تخفيفه ، أو عفو الله سبحانه ، فلقد روى الترمذى عن سيدنا سَلْمان الفارسى : أن رسول الله ﷺ قال : لايردّ القضاء إلا الدعاء ، ولايزيد فى العمر إلا البرّ .

إذن فالدعاء مطلوب وعلى كل مسلم أن يضرع إلى الله سبحانه ويتجه إليه وحده .

فهو الذى يعطى ويمنع ويجيب المضطر إذا دعاه .

ولأجل أن يكون الدعاء مقبولا ومستجابًا لابد من :

١ – التوبة الخالصة النصوح .

٢ – ولابد من تحرّى الحلال .

٣ – عدم الدعاء بما فيه إثم أو قطيعة رحم .

٤ – والشرط الأساسى هو أن يحقق الإنسان العبودية لله سبحانه ، فإذا تحققت هذه الشروط من الداعى فلاريب أن الدعاء يستجاب منه ويعطى سؤاله .

علينا أن نتدبر الحديث التالى : عن ابن عباس – قيل أخرجه ابن مردويه – تُليت هذه الآية عند النبى ﷺ : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا) ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف الحرام فى جوفه مايُتقبل منه أربعين يومًا ، وأيّما عبد نبت لحمه من السُّحْت والرّبا فالنار أوْلى به .

ولقد بين رسول الله ﷺ : فيما يرويه عن ربه الشروط التى إذا تحققت كانت استجابة الدعاء مضمونة ، وكانت مؤكدة ، فعلى مَن يريد استجابة دعائه أن يحققها فيضمن الاستجابة .

فى عدم اهتمام بعض الأئمة والعلماء بالدعاء

الدعاء ليس له وقت من الأوقات وإنما يكون فى أى ساعة من النهار أو الليل ، مثل قبل الصلاة وبعدها .

وليس له صيغة معروفة وإنما أى لفظ يؤدى إلى المعنى المراد به الدعاء على شرط أن يكون مستوفيًا للشروط التى تشترط فى الدعاء ، من الأكل الحلال ، والمطعم الحلال ، والملبس الحلال ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب هذا الدعاء يقول الله تعالى فى محكم كتابه : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى : (قل مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) .

ويقول : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال تعالى (واسألوا الله من فضله) وإن الذين يقولون عليك بالدعاء وحدك فى بيتك مخطئون .

والدعاء يكون بالجماعة والواحد سواء والجماعة أفضل ليعلم الجاهل رأى الدين الإسلامى فى ذلك أن الدعاء عام للجميع ، فى البيت ، والمصنع ، والمزرعة ، والعمل ، وفى كل شىء ، فالدعاء مطلوب ويستحب وهو مخ العبادة .

فى هل تقبل توبة المذنب وهو على فراش الموت ؟

نعم تقبل التوبة عن المذنب وهو على فراش الموت مالم يُغَرْغِرْ ، إذا كانت توبته نصوحًا اجتمع فيها الأمر برد المظالم إلى أهلها ، والندم على مافرط منه ، والعزم على ألاَّ يعود إلى معصيته أبدًا إن كان ذنبه بسبب اغتصاب حق لآدمى ، أمّا إن كان ذنبه يتعلق بحق من حقوق الله فشروط توبته الإقلاع عن معصيته ، والندم على مافرط منه ، والعزم على ألاَّ يعود إلى ما ارتكبه من الذنوب أبدًا . قالَ تعالى (قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعًا إنَّهُ هو الغفور الرّحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أنْ يأتيكم العذاب ثم لاتُنصرون) وقال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه من الدنيا لاإله إلاَّ الله دخل الجنة » .

وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْفِقْهِ

فى الاجتهاد والثبات فى الشريعة الإسلامية

فى الدين هاد للعقل

القضية أن الدين نزل هاديًا للعقل ، إننا – جميعًا نؤمن بهذه القضية ، الدين نزل هاديًا للعقل ، لكن حينما نقول : الدين نزل هاديًا للعقل ، يتساءل كثير من الناس ، فى أى المجالات ؟ ونحن لانريد أن نقول نزل هاديًا للعقل فى مجال الماديات فالدين أطلق للعقل الحرية الكاملة فيما يتعلق بالبحث والكشف فى مجال الماديات فى السماء وفى الأرض ، وفيما بين السماء والأرض ، وفقط قيده بأن يكون ذلك فى خير الإنسانية ، إنه مادام الأمر ، فيما يتعلق بمجال الماديات والبحث والكشف فيها – فى خير الانسانية – فللعقل الحرية الكاملة فى هذا ، بل إن أسلافنا رضوان الله عليهم – كانوا يسمون هذه العلوم المادية الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والأحياء – كانوا يسمونها علوم الكشف عن سنن الله الكونية ، ومادامت ، كشفًا عن سنن الله الكونية فهى كشف عن بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، مادام الأمر كذلك فهى عبادة من هذا الجانب – العلم بالماديات – الكشف عن سنن الله الكونية فى الماديات زيادة إيضاح لصفات الله تعالى ، وهو عبادة ، لكن الأمر فيما يتعلق بـ « نزل الدين هاديًا للعقل » إنما هو فى أمور المجتمع ومجالاته . العقيدة : نزل الدين هاديًا فيها ، الأخلاق نزل الدين هاديًا فيها ، نظام المجتمع نزل الدين هاديًا فيه ، التشريع نزل الدين هاديًا فيه أيضًا .

هذه الهداية – فيما يتعلق بالتشريع أحيانًا تكون مفصلة تفصيلا دقيقًا ، كالميراث مثلا وككتابة الدَّيْن ، وأحيانًا تكون كليات تضم تحتها جزئيات كثيرة ، ولاريب فى أنه نزل الدين هاديًا للعقل فى جميع مبادئ التشريع ، لكن فى وسائل التشريع – أحيانًا – يكون مفصِّلاً لها ، إن رسائل المبادئ أحيانًا يكون الدين مفصِّلا لها ، وأحيانًا يتركها للعقل الإنسانى يتصرف فيها بحسب الظروف ، مثلا الشورى : مبدأ من المبادئ التى أقرّها الإسلام وسيلة الشورى : تركها الإسلام للعقل الإنسانى ، يحددها بحسب ظروفه وبحسب أمكنته ، وأزمنته أما مبدأ الشورى فهو مبدأ لا يتغير ....

وحينما نقول نزل الدين هاديًا للعقل ، فإنما نعنى بذلك أن العقل لايتحكم فى الدين إنما يهتدى به .

ومعنى أيضًا نزل الدين هاديًا للعقل : أن العقل يفهمه وينقله ، ولايتناقض أو يتعارض هو والعقل ، لأنه نزل هاديًا له .

ولأنه نزل هاديًا له ، ولأننا نؤمن بأن الدين مِن قِبَلِ الله سبحانه وتعالى ، فهناك القضية التى تتلو ذلك وهى : أن هذه الهداية معصومة ، لأنها من قبل الله ، ومادامت معصومة لأنها من قبل الله فلابد من اتباعها ، لامناص من اتباعها .

من أجل ذلك كانت الآيات التى تدل على وجوب الاتباع فى غاية الصرامة أو فى غاية القوة . قال تعالى : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ويقول سبحانه : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . ويقول : (ومَن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون) . ويقول أيضا : (فلا وربك لايؤمنون ، حتى يحكّموك فيما شجَر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حَرجًا ممّا قضيت ويسلموا تسليمًا) .

هذه الصرامة لماذا ؟

لماذا هذا التحديد ؟ وهذه الدقة فيما يتعلق بضرورة وجوب اتباع هذه المبادئ التى نزلت من السماء .

فى تناقض الفكر البشرى

أما عن ضرورة ذلك ، فإن كل من درس تاريخ الفكر البشرى – منذ أن كتب هذا الفكر فى الأزمنة القديمة إلى الآن – كل من درسه ، تبين له قضية فى غاية السهولة هى : أن هذا الفكر البشرى على تتابع الأزمنة ، بل فى العصر الواحد وفى القرن الواحد ، وفى الأمة الواحدة هذا الفكر البشرى متعارض ، متضارب متناقض مختلف .

أين هو الحق فيما يتعلق بهذا التضارب ، وهذا التعارض وهذا الاختلاف والتعارض ، والتضارب فى جميع المجالات الفكرية البحتة ؟

لسنا بصدد المجالات المادية لأن المجالات المادية تحكمها التجربة . فالتجربة فيصل ، ولكننا بصدد المجالات النظرية ، التشريع ، الأخلاق ، العقيدة ، نظام المجتمع أين هو الحق ، وأين هو الباطل فى الآراء البشرية الخاصة بهذه الموضوعات .

ليس هناك مقياس للحق والباطل ، كل المقاييس التى حاولت الإنسانية أن تخترعها منذ الأزمنة القديمة ، كل هذه المقاييس أثبتت فشلها وبطلانها .

من أوائل هذه المقاييس مثلا فى الفصل بين الحق والباطل ، فيما يتعلق بالآراء النظرية ، ومنها التشريع بطبيعة الحال ، من أوائل هذه المقاييس (منطق أرسطو) لقد أخفق إخفاقًا كاملا ، فى تمييز الحق عن الباطل .

ومنها مقياس (ديكارت) إنه أخفق إخفاقًا كاملا أيضًا ، فيما يتعلق بالتمييز بين الحق والباطل هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، مادام لاسبيل إلى القطع بأن هذا الرأى حق ، وهذا الرأى باطل ، كان هناك المجال المتسع الكبير لتزييف الآراء أو صناعة الآراء وفى علم الاجتماع وفى علم النفس كثير من المباحث التى تتحدث عن صناعة الرأى العام .

الرأى العام يُصنع عن طريق الصحف ، ويُصنع عن طريق الإذاعة ، ويُصنع عن طريق التكرار ، يُصنع بوسائل مختلفة ، ويصنع تزييفًا أو إحقاقًا – الرأى العام ومادام الرأى العام يُصنع فهناك هذه الوسائل التى تصنع الرأى العام .

هذه هى الوسائل التى تصنع الرأى العام ، هناك كثير من الناس استخدمها ، ولكن الذين استخدموها فى قوة ، هم اليهود استخدموا صناعة الرأى العام فى قوة بالنسبة لأغراضهم ، وهم يقولون مثلا فى تكييفهم الرأى العام بالنسبة لشخصيات معينة ونحن الذين رتبنا نجاح (كارل ماركس) يقولون هذا فى كتبهم ، ويقولون هذا فى كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » لقد رتبوا نجاحه ونجاح آخرين ، لماذا رتبوا نجاحهم ؟ لأنه هَدْمٌ ، لكل الأفكار الروحية ، وهم يريدون ألاّ تسود الأفكار الروحية فى الإنسانية ويقولون أيضا عن (البروتوكولات) : نحن الذين رتبنا نجاح (دارون) صاحب نظرية (التطور) ، ونحن الذين رتبنا نجاح (نيتشه) صاحب نظرية الأخلاق .

إنه يرى أن ليس هناك فضيلة ولاشجاعة ، أو عفة أوكرم أو ماشاكل ذلك ، كل هذه الألفاظ اخترعتها الإنسانية ، من أجل حماية الضعفاء ، وتشبثوا بها من أجل حماية أنفسهم .

أراد اليهود أن تسود هذه الفكرة فى العالم لتتحلل الأخلاق ، ولينتهوا من تحلل الأخلاق إلى السيادة فى العالم .

نعود فنقول : هناك صناعة لآراء . ماهو المقياس الذى نفصل به بين الحق والباطل ؟

ليس هناك هذا المقياس . ولقد حاول – فى مواجهة الوحى الإلهى ، وفى مواجهة التشريع الإلهى – حاول بعض الناس عمل نظم اجتماعية . حاول مثلا (أفلاطون) أن يكوِّن جمهورية على ماينبغى بأدق مايمكن أن يكون من تفكير فلسفى ، وألّف (أفلاطون) جمهوريته . كتبها ونسقها ودرسها ، وعقد فيها ندوات كثيرة ، ودُعِىَ (أفلاطون) لتحقيق جمهوريته فى جمهورية

صغيرة ، وذهب (أفلاطون) إلى هذه الجمهورية وقيل له إنك مفوّض تفويضًا مطلقًا فى تحقيق جمهوريتك ، وحاولَ (أفلاطون) أن يحقق جمهوريته فأخفق إخفاقًا كاملا ، وبعد عشرين سنة بعد فترة من النضج دُعِىَ مرة أخرى لتحقيق جمهوريته بعد التجربة وبعد هذا الإخفاق الذى ناله ، وبعد أن اكتسب معرفة وخبرة فأخفق إخفاقًا كاملا مرة أخرى . . أما الإسلام فقد طُبِّقَ ، طُبِّقَ فى جمهورية ، أو فى دولة أو فى أمّة . إن هذه الألفاظ اللفظ المستعمل فيها إسلاميًّا – هو كلمة أمّة .

(إن هذه أمّتكم أمّة واحدة) .

طُبِّقَ الإسلام فى أمّةٍ ، وانتهى هذا التطبيق بأن انتقل الإسلام من النظرية إلى الواقع ، لقد أصبح واقعًا فى أمّة تمتد من كذا إلى كذا : لا تكاد تغرب الشمس عنها ، طُبِّق بالفعل ، وانتقل من النظرية إلى الواقع ، لكن كل الآراء التى قيلت – فيما يتعلق بالأنظمة التى اخترِعت ، أو ابتدعتها البشرية كلها – عرضت وأخفقت وَوُجهت بالنقد الذى أثبت تعارض بعضها مع بعض .

ولتوضيح ذلك نقول : النظام الرأسمالى اختراع بشرىّ فى أمريكا ، يتعارض تعارضًا كاملا مع النظام الشيوعى الذى هو اختراع بشرى فيما يتعلق بروسيا ، ولكن أى هذين النظامين حق ؟ لاسبيل مطلقًا إلى أن تثبت أن هذا أحق من هذا نظريًّا بالدليل والبرهان ، وكل ما يُقام من أدلة أو براهين فى أمريكا ، تنقده روسيا ، وكل مايقام من أدلة أو براهين فى روسيا تنقده أمريكا .

إذن من هذا كانت الصرامة فيما يتعلق بالدعوة إلى اتخاذ الإسلام أساسًا ومن هنا كانت هذه الآيات التى تتحدث عمن لايحكم بما أنزل الله ، بالظُّلم مرة ، وبالفسق مرة أخرى ، وبالكفر مرة ثالثة .

فى هداية الدين للعقل دائمة لاتتأثر بزمان ولامكان

ونزل الدين – كما قلنا هداية للعقل ، هذه الهداية للعقل ليست مقصورة على زمن دون زمن ، ولاعلى مكان دون مكان ، إنها فى الوضع الدينى الإلٰهى لكل المؤمنين تتبلور فى قضية ، نتحدث عنها فى كل وقت وفى كل آن ، هذه القضية هى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا هو منطق الدين ، خصوصًا حينما يكون هذا الدين هو آخر الأديان ، بإعلانه سبحانه وتعالى عن ذلك . (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا .) هى إذن صالحة لكل زمان ومكان ، هذه الكلمة أو هذه القضية صالحة لكل

زمان ومكان إذا كانت فى معناها السطحى أو الشكلى أو معناها اللغوى – واضحة فإن بعض الناس قد اتخذها أساسًا لتفسير منحرف كل الانحراف ، من هؤلاء مثلا من قال إنها صالحة لكل زمان ومكان ، لأنها تتكيف بحسب الزمان والمكان ، ثم انتقل نقلة أخرى فقال : إنها صالحة لكل زمان ومكان لأننا نكيفها بحسب الزمان والمكان .

كيف يكون التكييف ؟

قال بعضهم : وعمل على ذلك جاهدًا – نحن الآن فى بعض الأقطار نعمل فى بناء الدولة ، وبناء الدولة جهاد أكبر ، وإذا كان الجهاد الأصغر يبيح الإفطار فى رمضان فالجهاد الأكبر – وهو بناء – أولى أن يبيح الإفطار فى رمضان .

وحاول أن يطبق الإفطار فى رمضان على الدولة فأخفق ، لأن الناس كان شعورهم إيمانيًا دينيًا فلم ينصاعوا ، ولكنه حاول وبذل وجند الشرطة وجند كل شىء ، فيما يتعلق بتطبيق الإفطار فى رمضان ، فكان يقدم مثلا للمدارس الثانوية الداخلية ، وللجامعات ، والجيش ، ونحوها الوجبات العادية فى شهر رمضان ، بدلا من الإفطار والسحور ، ولكن فى النهاية – برغم كل مابذله من جهد – أخفق .

ونعود فنقول : نكيفها بحسب الزمان والمكان كيف . . نمنع تعدد الزوجات مثلا ! منع تعدد الزوجات وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، حصلت حادثة : هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصًا من الأشخاص متزوج وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته فى وضع غير صالح لاستمرار الزوجية ، من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين : إما أن يزنى وإما أن يتزوج ، والتعدد ممنوع فماذا يصنع ؟ امرأته الأولى لم تزن ، ليست مسئولة عمّا حدث لها ، هذا قضاء الله بالنسبة لها فماذنبها لتطلق ؟ ولم يطلقها ؟ إنها لم تسئ إليه ، ولم يطلق . وإنما ذهب وعقد عقدًا شرعيًا ، على امرأة وتزوجها بحسب الشرع ، وأسكنها فى مسكن ، وكان يذهب إليها ويبيت عندها . وبلغ عنه أنه تزوج امرأة أخرى ، والقانون فى هذه الناحية لايتساهل ، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبسًا بالجريمة ، جريمة الزواج بامرأة أخرى ، وأتى به للتحقيق وقالوا له : هل تزوجت امرأة أخرى فقال كلاّ . . فقيل له : ولكنك كنت عندها قال : نعم : وتنفق عليها . . نعم وقد استأجرت لها هذا المسكن . . . نعم – وتبيت عندها . . وأبيت عندها . . ماذا تكون إذن ؟ إنها عشيقة . فقيل له ، تفضل اذهب لاملام عليك ، لالوم عليك ، حرموها زوجة وأباحوها عشيقة بقانونهم ! !

حدث هذا بالفعل والتحقيق . . تحقيق البوليس . ويأتى أيضًا فيما يتعلق بالتعدد أن « اتيين

دينييه » مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر فى عهد الفرنسيين ، وهو فرنسى أقام فى الجزائر فى بلدة اسمها « بوسعادة » استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس ، واستراح إلى الخلق ، وكلها أغرته : الجو : الطبيعة الصحراء ، الناس كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر ، فأقام ، أقام فى عهدين : عهد كان فيه التعدد مسموحًا به .

وعهد حدث فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

وبعد ذلك لاحظ ثلاث ملاحظات ، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب ، كتب يقول : حينما منع التعدد والطلاق ، وجدت ظواهر ، لم تكن موجودة أيام كانت إباحة التعدد والطلاق .

ماهى هذه الظواهر التى وجدت عندما منع التعدد ؟

أولاً : «كثرة العوانس» هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاثة « حدثت بعد أن منع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض ، وليس معنى ذلك أنه لابد من التعدد . .

كلا : وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة يمكن أن يكون نصف فى الألف هم الذين يعددون الزوجات ، وإذا ارتفعت عن أكثر من الاثنتين يمكن أن يكون ربع فى الألف ، وهكذا الأمر ، نعنى يكاد يكون التعدد مع إباحته معدومًا .

ولكن من الوجهة النظرية ، لو فرضنا أن شخصًا من الأشخاص إما أن يتزوج وإما أن يزنى ، فيباح له أن يتزوج – هذا رأى الكاتب الفرنسى يقول ويستشهد بالتعداد وبالتجربة ، ماذا حدث ، وماذا كان . لكننا نتساءل الآن ما هو إذن المعنى الصحيح للقضية « الشريعة » صالحة لكل زمان ومكان ، أن الشريعة أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان ، لا للإنسان من حيث هو مصرى ، أو من حيث هو فرنسى ، أو من حيث هو كذا وكذا فيما يتعلق بالوطن .

إنها نزلت للإنسان من حيث هو إنسان . ومادامت قد أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان ، فإنها صالحة لكل زمان ومكان ، لاتتغير ، لأن الإنسان هو أينما كان ، الإنسان هو الإنسان فى عواطفه . وفى انفعالاته ، وفى سلوكه ، فى تصرفه ، فى عقله ، فى ذكائه ، فى إحساسه ، وأنزلت الشريعة إذن للإنسان من حيث هو إنسان ، فهى إذن صالحة لكل زمان ومكان ، صالحة فى مبادئها وصالحة فى وسائلها إذا حددت ، وكل خروج عليها إنما يكون انحرافًا .

فى الانحراف ودواعيه

لكن ماذا حدث عندنا فى مصر ؟ الذى حدث عندنا نحن فى مصر أننا كنا نطبق نظام الشريعة الإسلامية ، ثم جاء الاستعمار ونسف الشريعة الإسلامية من القطر المصرى ، وأحل محلها القانون الوضعى ، واستقدموا قضاة ومستشارين من الأقطار العربية ، ثم رأى أن هذا النظام لايتأتى أن يستمر كثيرًا ، فأنشئوا مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة ، قبل أن تكون كلية فأنشأ مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أو محامين أو مستشارين إلى آخره ليحكموا بالقانون الوضعى ، وكان لابد أن يكون المنهج ، والبرامج فيها هو القانون الوضعى . . وزال الاستعمار وحاولنا أن نتخلص من كل آثار الاستعمار ولكننا ألفنا كليات الحقوق ، وألفنا مدرسة الحقوق ، فخيل إلينا أن الأمر عادى ، ولكن الأمر فى حقيقته ليس بعادى ؛ إنه غاية الغرابة ، أن نقيم نحن – فى بلدنا وفى قطرنا – كليات للغزو الفكرى . لتتابع آثار الاستعمار ، ولنعمل على استمرار آثار الاستعمار ، ننفق عليها ، ونربى فيها أبناءنا ، ونضع أبناءنا فى جو ليغزوهم هذا الجو فكريًا ليكونوا أوربيين أكثر منهم مسلمين أو أكثر منهم وطنيين ، لأن الوطنية تقتضى أيضًا أن نتخلص من الغزو الفكرى ومن آثار الاستعمار ، ولكننا ألفنا الأمر ذهبت إلى كلية حقوق عين شمس لإلقاء محاضرة وسألت : كم عدد المحاضرات فى الكلية فى الأسبوع ؟ فقيل اثنتان وعشرون محاضرة .

كم منها للشريعة الإسلامية ؟ درسان فى الأسبوع ، وعشرون درسًا للقوانين الوضعية لو كانت هذه الكلية فى فرنسا ، ماكانت تزيد على ذلك ، أو لو كانت فى إنجلترا ماكانت تزيد على ذلك وأحب أن أقول : إنه لو كانت فى إسرائيل أيضًا ماكانت تزيد على ذلك .

محاضرتان للشريعة الإسلامية فى بلد إسلامى ، محاضرتان فقط مقابل عشرين محاضرة لاستمرار الاستعمار ، أو لاستمرار آثار الاستعمار ، أو للغزو الفكرى فيما يتعلق بالاستعمار .

هذا لايتأتى أن يستمر طويلا ، ولكن لأننا ألفنا ، ولأننا لم نفكر فى الوضع ولأننا ألفناه كما ألف الناس التعارض والتناقض الفكرى ، ولكنهم ألفوه واستمروا عليه ، لم يفكر فيه أحد .

من أجل ذلك كانت الأمانة – الآن – موضوعة فى أعناقكم ، أنتم – إننى تحدثت عنها ، ولكن الحديث عنها كان فى مجالات ربما لاتتصل كثيرًا بمجالات القانون ، ولكن مجالات القانون حينما نفكر فى الأمر – وحينما نتبصر فى هذا الموضوع ، فإنه تصبح مسئوليتنا كبيرة ، ونحن مؤمنون ، ومن غير شك هنا مجموعة كبيرة ، إن لم يكن الكل من الصالحين المؤمنين ، كيف يتأتى

أن يسكت الصالحون المؤمنون وهم يسمعون (ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون) . (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم) يحكموك فى حياتك ، ويحكموك بعد مماتك – بسنتك – فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم – فى صدورهم – فى قلوبهم – حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا : نقول : أين القانون الذى تحكم به ؟ وهذا سؤال من أسخف الأسئلة . كيف وأنت مسلم تتحدث اللغة العربية تقول : أين القانون ؟ القانون أمامك فى الكتب ، موجود فى كتب الفقه ، وكتب التشريع الإسلامى .

هل يتأتى أن يكون شخص تخصص فى التشريع ، ثم لايفهم كتابًا فى التشريع باللغة العربية ، وليس بلغة لاتينية ، ولاأعجمية ، أو شىء من هذا القبيل إنما هو باللغة العربية ليس فى ذلك حجة ، ليس فى ذلك مطلقًا ، أى مستند للدفاع عن تطبيق التشريع الإسلامى ومع ذلك فهناك هذه المقومات الكثيرة التى كتبت فيما يتعلق بالموضوع ، والتى تيسر كثيرًا فيما يتعلق بالموضوع ، وأحب أن أقول : إن مجمع البحوث الإسلامية وضع القانون المدنى كله ، على مذاهب مختلفة ، وقننه ، وكان فى لجانه المختلفة مستشارون من القانون ، وفيه علماء ، وفقهاء فى كل مذهب من المذاهب ، وهو الآن بصدد تقنين القانون الجنائى ، لكن مع ذلك أعتقد أنه عمل ماكان ينبغى أن يكون ، مع أنى أنا شخصيًّا – الذى بدأت به والذى شرعت فيه ، لكن الآن ماكان ينبغى أن يكون ، لأنه مادامت كتب التشريع باللغة العربية ، ومادامت هى فى التشريع ، ومادامت فيها الفصول والأبواب والفقرات . فعلماء التشريع المشرعون المستشارون ، القضاة ، من السهل عليهم جدًّا أن يستخرجوها من هذه الكتب باللغة العربية .

نعود فنقول : إن الدين نزل هداية للعقل .

ونعود فنقول : إنّ الآيات فيما يتعلق بهذا الموضوع صارمة .

فى الاجتهاد وموقعه

قد يتساءل إنسان : ماهو موقع الاجتهاد فيما يتعلق بهذا الموضوع ؟ أليس الاجتهاد فتحًا لباب التصرف عقليًّا فيما يتعلق بالتشريع ؟ وعن هذه النقطة أتحدث الآن ، فيما يتعلق بالاجتهاد هناك فكرة ، فى الواقع ، خاطئة عند الكثيرين – حتى كبار المثقفين – أن الاجتهاد إما أن يكون فى أمر سبق فى عهد الرسول ﷺ ، وإما أن يكون فى أمر استحدث من بعده ، حدث فى العصر الحاضر مثلا .

ومعنى الاجتهاد : أن الأمور التى كانت فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ينبغى أن يبذل الإنسان جهده وطاقته فى البحث ، ليصل عن طريق المراجع ، والكتب والسيرة والتاريخ ، والأحاديث النبوية ، وتفاسير القرآن إلى ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ليس فى ذلك ابتداع ولااختراع ، ولاتصرف عقلى ، ولاشىء من هذا القبيل ، وإنما هو يبحث ليصل إلى الحقيقة ومعنى الحقيقة عنده فيما بحثه أن يصل إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، فإذا ما وصل إلى ما كان عليه الرسول ﷺ فقد انتهى البحث وسلم الأمر ، أما الاجتهاد فيما يتعلق بالمسائل التى لم تكن فى عهد الرسول ، وإنما حدثت فى العصر الحاضر ، فليس معناه مطلقًا ابتداع ، أو اختراع أيضًا ، وإنما معناه بذل الجهد لوضع هذا النمط الحديث ، أو المشكلة الحديثة أو المسألة الحديثة ، فى موضعها ، تحت قاعدة كلية ، من القواعد القرآنية أو النبوية تحريمًا أو تحليلا .

يعنى مثلا مسألة « الحشيش » لم يكن موجودًا الحكم فيه ، والمجتهد فيما يتعلق بأمر الحشيش يبذل جهده ، ليضع الحشيش تحت قاعدة كلية من قواعد الدين ، إما تحريمًا وإما تحليلا ؛ لأنه فى المبدأ لايدرى إن كان هذا الأمر محرّمًا أو حلالا ، فيبذل جهده ليضع هذا الأمر تحت قاعدة كلية .

(البيرة) مثلا لم تكن موجودة ، وكل هذه الأنواع من الخمور (ويسكى) وغيره لم تكن موجودة ، ماهو موقف المجتهد ، فيما يتعلق بالحكم فى هذه المسألة أو تلك ؟

موقفه هو أن يبذل جهده مع التقوى ، مع الإخلاص ، مع النزاهة الكاملة ، يبذل جهده مع عدم التحيز ، يبذل جهده ليضع هذه المسألة أو تلك تحت القاعدة الكلية المحرِّمة ، أو المحلِّلة ، فإذا أدّى به اجتهاده إلى أنها توضع فى قاعدة كلية تحرِّم ، يصبح الحكم مُحرّمًا ، وإذا أدى به اجتهاده – مع الإخلاص مع التقوى ، مع النزاهة – إلى أن هذه المسألة تدخل فى قضية محللة تدخل تحت التحليل أو الحل ، هذا هو الاجتهاد .

فى مقدمات الاجتهاد ووسائله

لكن هذا الاجتهاد أيضاً له مقدمات ، وله وسائل ، هذه المقدمات بديهية ، ليس فيها شىء من التعقيد .

معرفة اللغة العربية : إن من أوائل الشروط فيما يتعلق بالمجتهد معرفة اللغة العربية معرفة تمكنه أو تصل به إلى مستوى فهم القرآن العربى المبين .

معرفة الأحاديث النبوية : ولابد من معرفة الأحاديث ومن الإلمام بها إلمامًا يجعله على معرفة فيما يتعلق بجو الأحاديث النبوية ، لأنه يجوز أن يفتى ، ويكون هناك حديث من الأحاديث ، معارض أو مخالف لفتواه .

معرفة السيرة النبوية : لمعرفة الواقع الذى كان عليه الرسول ﷺ ، ومادام الدين قد طُبِّقَ عمليًّا وطبق فى فترة طويلة من الزمن ، طبقه الرسول ﷺ ، وطبقه الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد الخلفاء الراشدين ، وتحدث عنه الصحابة ، وتحدث عنه الرسول – مادام قد طُبِّق ، فإننا اختلفنا فى أمر من الأمور لانلجأ إلاّإلى التطبيق .

ماهو الواقع الذى كان فى عهد الرسول ﷺ ؟ ماذا كان ؟ النتيجة التى أريد أن أنتهى إليها وبها تكون الخاتمة :

ماهو الموقف ؟

الموقف لخصه أحد الصحابة فى كلمة تشبه أن تكون إعجازًا ، يقول : « اتبعوا ولاتبتدعوا فقد كُفيتم » فقد كفيتم هذه برهان كامل على : « اتبعوا » وهى أيضا برهان كامل على و « لاتبتدعوا » اتبعوا فقد كفيتم ، ولاتبتدعوا فقد كفيتم . لأن من يبتدع إنما هو الشخص الذى لايكون عنده الكفاية ، ونحن عندنا الكفاية منذ : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا) .

عندنا الكفاية ، إذن الخاتمة أو النتيجة التى نحب أن ننتهى إليها هى « اتبعوا ولاتبتدعوا » فقد كفيتم ، إذا اتبعنا ولم نبتدع ، ماهى النتيجة ؟

النتيجة هى : ماتحدث الله سبحانه وتعالى عنه ، وضمنه لمن اتبع شريعته ، ضمن له السعادة فى الدنيا والآخرة ، وضمن له الفوز ، وضمن له النصر ، وضمن له سعة الرزق ، وضمن له كفالته ، وعنايته سبحانه ورعايته . ضمن له كل هذه النواحى ، ووعْد الله سبحانه وتعالى لايتخلف .

خاتمة

وأريد أن أختتم بواقعة حدثت فى الأيام الأخيرة ، حدث فى هذه الأيام الأخيرة أن وفدًا من أوربا ، من كبار علماء أوربا من فرنسا ، وفيه واحد من إيطاليا ، وواحد من إنجلترا وفدًا على مستوى رفيع جدًّا ، ذهب إلى السعودية ، ذهب بالفعل ، وقبل أن يذهب تكاتب وتراسل هو

ووزير العدل السعودى ، ووزير العدل السعودى رجل نابه متطور متفتح الأفق ، راسلوه واتفقوا على أن هذا الوفد الأوربى يذهب إلى السعودية ، ليتحدث مع علماء السعودية فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى الإسلام ، وذهب الوفد ، والتقى هو والوفد العربى : كان وزير العدل وكان مستشار الملك (معروف الدواليبى) وكان (محمد بن مبارك) من سوريا وكان بعض علماء السعودية ، وأخذوا يتحدثون فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى الإسلام .

وانبهر الوفد الأوربى وما كان متصورًا مطلقًا أن هذا الذى يقال هو حقوق الإنسان فى الإسلام ، وصل الإسلام بحقوق الإنسان إلى مالم تصل إليه أوربا ، وفى نهاية الجلسة التى تعددت طبعًا عدة مرات ، وفى نهاية الأبحاث سأل الوفد الأوربى : ولكن ماذا عن قطع يد السارق ؟ وأجاب (معروف الدواليبى) الذى كان رئيس الوزراء سابقًا فى سوريا ، وقد كان مستشارًا لجلالة الملك وكانوا فى الرياض ، قال له : انظر إلى الصحراء ، يمكن إذا كنت فى الوسط واتجهت يمينًا تجد ألف كيلو متر ، ويسارًا ألف كيلو متر ، وأمامًا ألف كيلو متر ، وخلفًا ألف كيلو متر وتصور أن سيارة قامت من الرياض ، وهذه السيارة محملة بالذهب والفضة قامت من الرياض لتذهب إلى مكان على بعد عشرين كيلو متر ، لايتأتى مطلقًا أن يتعرض لها متعرض فى هذه الصحراء التى لابلدة فيها ، ولاشرطة ، ولاحرس ، ولابوليس ، لاشىء من هذا القبيل فى هذه الصحراء الشاسعة تقوم سيارة محملة بالذهب والفضة ، لتذهب من الرياض إلى هذه المدينة الأخرى ولايتعرض لها متعرض لماذا ؟ لأننا نطبق الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بقطع يد السارق ، لكن انظر الآن إلى بلد مثل (نيويورك) التى يقولون عنها إنها وصلت إلى قمة الحضارة ، كم فيها من القتلى فى ساعة واحدة من أجل السرقة ؟ وكم فيها من القتلى فى اليوم الواحد ، فى أربع وعشرين ساعة بسبب السرقة ؟ قتلى وجرحى وقطع أكباد ، وقطع أمعاء بالسكاكين ، وضرب بالنار وبكل شىء ، فى أربع وعشرين ساعة ، ثم تعال إلى المملكة العربية السعودية بأكملها كم قطعنا من يد فيها فى مدة عشرين سنة ؟ قطعنا أيدى تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتقولون بعد ذلك إن الإسلام قاسٍ فيما يتعلق بقطع يد السارق ، هناك القتل ، والذبح ، والسحل ، وكل ما يتأتى أن يكون من أجل السرقة ، وهنا لاشىء قطع يد السارق أو عدد من السارقين فى مدى عشرين سنة .

وأجمع الوفد الأوربى أن هذا أحكم نظام فيما يتعلق بمنع السرقة ، وقالوا لوطبقناه لكان الأمن على كل حال ، وفى النهاية أهيب بأعضاء مجلس الشعب فى جمهورية مصر العربية ، أن يعتصموا بالإيمان ويقرروا العودة إلى تطبيق التشريع الإسلامى ليؤدوا الأمانة ويفوزوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق .

فى الاجتهاد

إن باب الاجتهاد لم يغلق ، ولم يغلقه أحد ، ولايتأتى أن يغلقه أحد ، ولم يقل عالم من العلماء المستنيرين إن باب الاجتهاد قد أغلق ، بيد أن هذا الموضوع يحيط به كثير من اللبس فى أذهان الكثيرين من الناس . . وذلك لأن الاجتهاد ينصبُّ على أمرين .

أحدهما : الاجتهاد فى المسائل التقليدية المذكورة فى كتب الفقه ، من عبادات ومعاملات وهذا معناه أن يبذل المجتهد مايستطيع ليصل إلى الوضع الحقيق الذى كان عليه الرسول ﷺ – فى هذه المسألة أو تلك ، فهو فى بحثه هذا يجب عليه أن يتخلى من كل فكرة شخصية فى الموضوع ، وأن يسير موطِّنًا النفس على أن يستجيب لنتيجة البحث ، فيقرر النتيجة التى وصل إليها فى تحقيق ماكان عليه الرسول ﷺ فى المسألة التى يبحث عنها .

إن المجتهد فى هذا الموضوع لايبتدع ولايخترع ، ولايقول من عنده شيئًا ، وإنما دوره الوحيد هو التثبّت ممّا كان عليه الرسول ﷺ ، فإذا ماوصل إليه انتهى دوره ومن أجل ذلك يقول كل متدين ، كما قال أئمة المذاهب : إذا صح الحديث فهو مذهبى وليس لأحد أن يقول برأى شخص إذا كان للرسول ﷺ فى الموضوع حديث من الأحاديث .

والأمر الآخر : من الاجتهاد ، فهو الاجتهاد فيما لم يَرِد فيه نص من الأمور المستحدثة التى أحدثها التطور الزمنى ، والمجتهد فى هذا مهمته محددة ، إنها بذْل كل مايستطيع من جهد فكرى لربط هذه المسألة بقاعدة عامة من قواعد الدين الكلية تحريمًا أو تحليلاً ، وذلك لأن كثيرًا من المسائل الجزئية التى تحدث بتطور الزمن تندرج تحت قاعدة كلية من القواعد الموجودة فى الدين .

فمثلا : هذه الأنواع الكثيرة من المسكرات أو الأنواع الكثيرة من المخدرات لم تكن فى الصدر الأول ، وعمل المجتهد الحكم بالنسبة لها أن يربطها بقاعدة كل مسكر حرام بالنسبة لأنواع الخمور بقاعدة كل مُفتِّر حرام بالنسبة لأنواع المخدرات .

ولقد قال أئمة الفقه الذين اجتهدوا فى مثل هذه المسائل بالنسبة للمخدرات إنّ مَنْ شَرِبَ الحشيش مُستَحِلا له فقد كفر ، لايصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

المجتهد فى الأمور المستحدثة التى أحدثها التطور الزمنى لايبتدع ، إذْ هو الآخر لايأتى بشىء من عنده ، وإنما هو يجتهد فى الربط بين الجزئيات المستحدثة والقواعد الكلية ، لأن هذه الجزئيات تندرج تحتها .

وليس هناك نوع ثالث من أنواع الاجتهاد وإذا كان بعض الناس يظن أن الاجتهاد اختراع وابتداع وإتيان بالرأى الشخصى ، ومحاولة تغيير الدين بحسب التطور الزمنى فإنه مخطئ .

والواقع أن الذين يظنون أن الاجتهاد اختراع وابتداع كثيرين حتى فى كبار المثقفين من الحقوقيين ، ففى بعض اللجان التى تضم حقوقيين وعلماء دينيين ، يأتى بعض الحقوقيين مكونًا رأيًا معينًا فى الطلاق أو تعدد الزوجات أو الميراث ، ويعلق رأيه فى اللجنة ، فإذا اعترض على رأيه بعض علماء الدين قائلين إنه غير موافق للشرع ، يقولون لهم : اجتهدوا ، ومعنى هذا بكل بساطة غيروا الدين ليتفق مع رأينا أو افهموا النصوص الدينية فى ضوء مانقول ، ومن يقول اجتهدوا بهذه الكيفية يكفينا منه هذا التقول أنه لايصح أن يكون فى لجنة من اللجان التى تدرس أمورًا متعلقة بالدين ، وذلك أنه فى مظهره وفى أقواله لايعبأ بالدين ، ويظن أن رأيه هو الصحيح .

فى الدين هاد للعقل

ولقد نزل الدين هاديًا للعقل وقضية الدين هاد للعقل يؤمن بها كل متدين ، وذلك أنه لو كان القائد فى العقيدة أو فى التشريع هو العقل لما كان من ضرورة للدين .

الدين إذًا من أمور العقائد وفى أمور التشريع هو القائد للعقل ، والله سبحانه تعالى أعلم بالصالح للإنسان ، ورسمه سبحانه فى الوحى عقيدة وتشريعات .

ويجب على المؤمن أن يستجيب استجابة كاملة للوحى :

وإذا كان الأمر كذلك فلا يتأتى أن يقول إنسان يزعم أنه مسلم ، اجتهدوا حينما يقال له إن رأيك مخالف للدين ودولة الإيمان لاتخرج عن الوحى فى أحوال المسلمين الشخصية المتصلة بالدين ، كالزواج والبطلان ، ونظام الأسرة على وجه العموم ، وإلا أصبحت الأسرة تقوم على أساس محرم ، وأصبحت العلاقات الأسرية تسير على نسق لادينى وهذه هى المعارضة التامة ، بل هذا مناقض لوجوب تحقيق دولة الإيمان .

وإذا كان الاجتهاد مفتوحًا على النسق الذى قلنا ، فإن للاجتهاد شروطًا يجب أن تتوافر منها ثلاث : معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة ، لقد كان الإمام الشافعى مثلا يعتبر أديبًا من كبار الأدباء لقد كان يحفظ شعر الهذليين على كثرته ، وأسلوبه نفسه ينبئ عن فحولة فى الأدب يندر وجودها ، وهكذا كان بقية الأعلام ، وذلك أنهم اتصلوا عن قرب بالقرآن الكريم حفظا وفهماً ، واتصلوا بآلاف الأحاديث فى أسلوبها العالى ، أسلوب النبوة ، أسلوب جوامع الكَلِم .

إن معرفة اللغة العربية معرفة عميقة شرط مهم من شروط الاجتهاد .

والشرط الثانى : هو حفظ القرآن وفهمه حفظًا وفهمًا فى الدرجات العليا للحفظ والفهم ، يتمكن معهامن استحضار النصوص القرآنية المتصلة بموضوع البحث ، ومعرفة أسباب النزول ، وذلك أن آيات القرآن الكريم قد نزل الكثير منها فى مناسبات ، ويزيد فهم الإنسان لها حينما يعرف أسباب النزول ، وقد ألّف أسلافنا كتبًا كثيرة فى أسباب النزول ، وهى متداولة معروفة وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بالأحكام عبادات ومعاملات ، أو التمكن من الأحاديث المتصلة بموضوع الاجتهاد .

أما الشرط الأخير للمجتهد ، وهو شرط لايتوافر للكثيرين ، فهو الذكاء وذلك لأن المجتهد يربط بين المواضيع مستنبطًا ومستنتجًا فإذا لم يكن عنده الذكاء الكافى لذلك فإنه لايتأتى أن يستنتج ويستنبط فى إحكام ودقة .

فإذا توافرت هذه الشروط ، فإن لصاحبها أن يجتهد ، وسيكون مُوفَّقًا بإذن الله إذا أخلص النية وإذا أراد بعمله وجه الله . . . .

فى الغصب والسرقة واللقطة

الغصب هو أَخْذُ شىء له قيمة بغير إذن المالك ورغماً عنه ، وحكمه : على الغاصب رد العين المغصوبة ما دامت قائمة . لقوله عليه السلام « على العبد ما أخذ حتى يرد » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لأحد أن يأخذ متاع أخيه لاعباً أو جادًّا فإن أخذه فليرده عليه وإن نقص فى يده ردَّ ما نقص أو ردّ ثمنه .

أما السرقة فقد قال الله تعالى :

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم)

وهذا الحكم صريح لا لبس فيه ، فمن سرق تقطع يده ، وإذا كان هذا محل اتفاق فإن الفقهاء اختلفوا فى المقدار الذى تقطع فيه اليد .

فذهب الجمهور تقطع يده إذا سرق نصاباً ، إلا أنهم اختلفوا فى قدره ، فعند الإمام مالك النصاب ثلاثة دراهم فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع .

واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع فى مِجَنّ ثمنه ثلاثة دراهم .

وقال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترجة قومت بثلاثة دراهم .

وقال مالك : وهو أحب ما سمعت فى ذلك . وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق ربع دينار أو ما يساويه ، والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان من طريق الزهرى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً .

أما اللقطة : فإن نافعاً رضى الله عنه يروى أن رجلا وجد لقطة فجاء إلى ابن عمر فقال . إنى وجدت لقطة فما تأمرنى فيها . فقال ابن عمر عرِّفها أى أعلن عنها قال قد فعلت قال : زِدْ .

قال : قد فعلت قال : آمرك أن تأكلها لو شئت لم تأخذها وهذه الإجابة من ابن عمر رضى الله عنه مظهر من مظاهر ورعه وتقواه يقول الإمام محمد بن أبى الحسن :

« من التقط لقطة تساوى عشرة دراهم فصاعداً عرَّفها حَوْلا ، فإن عرفت وإلا تصدق بها ، فإن كان محتاجاً أكلها ، فإن جاء صاحبها خيره بين الأجر « أى الثواب من الله » وبين أن يغرمها له » أى يرد قيمتها عند مقدرته على ذلك .

فى الزِّنى

لا يثبت الزِّنى إلا باعتراف الزّانى أو رؤية أربعة شهود عدول ، أو بإتيان المرأة للولد مكتملا فى أقل من ستة أشهر .

ويجب فى حالة ثبوت الزِّنى أن يُرْجَم الزانى إن كان محصناً ، ويُجلَد إن لم يكن محصناً ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين يقول الله تعالى : (الزانية والزّانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أما الرجم فقد ثبت بالسنة كما فى قصة ماعز والغامدية والذى يقوم بالحد هو الإمام أو نائبه لا الزوج ، حتى لا يكون المجتمع فوضى إذا اقتص كل إنسان ممن أساء إليه ، أما فى الحالة التى ذكرها السائل – فى حالة رؤية الزوج وحده – لا يثبت الزِّنى من الوجهة القضائية الشرعية ، ما دام الزانى لم يعترف ، وبذلك لا يصح قتله ، فإن قتله الزوج فقد اعتدى وظلم وخالف الشرع . وفى هذه الحالة يقدر القاضى العقوبة التى يراها والتى توجبها الظروف والملابسات ، ويجوز أن تكون هذه العقوبة قتل القاتل إذا رأى القاضى أنه كاذب ، أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو السجن فترة من الزمن تطول أو تقصر بحسب ما يرى القاضى من صدق القاتل أو الريبة فى أمره والحكم الذى صدر لا يعارضه الدين ما دام قد تبين للقاضى الظروف المخففة .

فى حد الزّنى

يعمل دين الإسلام على صيانة الأعراض ، وعلى حماية الأسرة مترابطة قوية ، وهو فى نفس الوقت يدرأ الحدود بالشّبهات كما قال ﷺ ادرءوا الحدود بالشبهات وخاصة فيما يهدم الكرامة إلى الأبد كالزنى وهو لهذا شدد فى إثبات جريمة الزّنى لخطورة حكمها وسمعتها وبيّن أن الزنى لا يثبت إلا بأربعة شهداء رأوا حقيقة الزنى وحدُّ الزنى للمتزوج وللمتزوجة الرجم حتى الموت ولغيرهما الجلد مائة جلدة لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، وهذا إذا كان برضا الزّانى والزانية ، وإذا أُكرِه أحدهما إكراهاً حقيقيًّا سقط عنه الحد . قال تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وقال : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون)

على أن الرجم للمحصَن – رجلا كان أو امرأة – والجلد لغير المحصَن – رجلا كان أو امرأة – إنما هو شريعة الأديان كلها .

ومن المعروف أن النصارى يتبعون فى شريعتهم التوراة ، والتوراة تقول بالرجم ، وكتب السيرة تروى القصة التالية .

زنى يهوديان من خيبر ، وكانا محصنَيْن ، وكره اليهود رجمهما لشرفهما فيهم ، فبعثوا رهطاً منهم يسألون النبى ﷺ فأمرهم برجمهما ، فأنكر اليهود حكم الرجم فى التوراة، فبين ابن صوريا – وكان أعلمهم باعترافهم كذبهم ، وأثبت أن حكم الرجم موجود فى التوراة ثم أسلم ، يقول سبحانه : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولَّوْن من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين) .

فى شروط قبول التوبة رد الحقوق لأصحابها
فما الحكم إذا كان صاحب الحق قد مات ؟

إن الله سبحانه وتعالى أمر بالتوبة وحث عليها الرسول ﷺ وأجمعت الأمة على وجوبها على كل مسلم ومسلمة فقال سبحانه وتعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) وعن الأغر بن يسار رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة ، وقد استعمل القرآن واستعملت السنة

الشريفة مختلف الأساليب المؤثرة ، وذلك لقيادة النفوس إلى الله بالتوبة مفتاح كل خير وباللبنة الأولى فى طريق الله .

ولا ريب أن التوبة المتحدَّث عنها إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، التوبة تنبعث من قلب تفجرت فيه ينابيع الهداية ، فاتجه إلى الله فى إخلاص مستغفراً مُنيباً .

والتوبة من هذا النوع تستتبع حتماً ردّ الحقوق بقدر الاستطاعة ، إنها تنى أن يبرأ التائب من الحقوق التى عليه .

فإن كانت مالا أو نحوه رده إلى صاحبه ، وإن كانت حد خلاف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها ، أما إذا استحال رد الحقوق أو كان أشبه بالمستحيل بالنسبة للتائب فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا بذل التائب جهده فى رد الحق ثم لم يتمكن من رده فقد أبرأ ذمته أمام الله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة نرجو الله سبحانه أن يتقبل توبته ، وأن يتجاوز عما استحال تحقيقه .

فى عقد القران بعد زِنى العروسين

إن العقد فى هذه الحالة صحيح ما دام قد استوفى الشروط من المهر والوكالة والشهود ، أما الحياة التى قبل العقد والزواج فإنها حياة سفاح وإثم ومعصية ، وكلا الشخصين آثم وإثمها – لا شك – وعقابها هو إثم الزانى والزانية .

أما الولد الذى أنجباه ، فهو ولد سفاح والقوانين الوضعية تبيح الاعتراف به ، وتعطيه الحقوق التى يُعْطاها الولد الشرعى .

ولكن الدين لمحافظته دائماً على الطهر والعفاف والحياة الفاضلة لا يقر هذا الاعتراف ، لأنه يكون إقراراً لشرعية الثمرة التى نتجت عن الزّنى ، وهذا مالا يتأتى أن يقره الدين .

فى سيدة وضعت يوم الخميس والزوج توفى يوم الجمعة مباشرة فكيف تكون عِدَّة هذه السيدة ؟

عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ، وهذه السيدة التى ذكرت فى السؤال توفى عنها زوجها بعد الولادة فينطبق عليها هذا الحكم .

وربما التبس على السائل أن الحامل عدتها وضع الحمل ، ولكن هذه لم تكن حاملا عند الوفاة ، فقد توفى عنها زوجها بعد أن وضعت لا قبل أن تضع :

قال تعالى : (والذين يُتَوفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجاً يتربصْن بأنفسِهنَّ أربعة أشْهر وعشراً ، فإذا بلغْنَ أجلُهنَّ فلا جُناح عليكم فيما فَعلْن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) .

ولو توفى عنها زوجها قبل أن تلد ثم ولدت بعد وفاته بيومين أو أكثر أو أقل فعدتها تنتهى بالوضع ، يقول تعالى : (وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حَمْلَهُنَّ) .

فى نشوز الزوجة

هذا الامتناع إما أن يكون لعذر من مرض ونحوه أوْلا ؛ فإن كان لعذر فعلى الزوج أن يعالجها ما استطاع فإن كان عيباً مانعاً من الجماع أو الاتصال بها مما نصَّ الفقهاء على أن يُفسخ به النكاح فسخ ، ولها جميع حقوقها الزوجية .

وإن كان العيب مما يرى برؤه عالجها من مالها أو من ماله وأما إن كان الامتناع نشوزاً أو إباءً منها فقد أرشد القرآن الكريم والسنة الشريفة إلى العلاج ، قال تعالى : (واللاتى تخافون نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهجروهنَّ فى المضاجع واضْربوهنَّ ، فإن أطَعْنكُم فلا تبغُوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عَليًّا كبيراً ، وإن خِفْتم شِقاقَ بينهما ، فابعثوا حَكَماً من أهلِهِ وحكَماً مِن أهلِها إن يريدا إصلاحاً يُوفِّق اللهُ بينهما ، إنَّ الله كان عليماً خبيراً) .

قال العلماء : ليس للمرأة التى تمتنع عن زوجها إذا طلبها نفقة ولاحق حتى ترجع عن هذا النشوز ، فإن أطاعت ورجعت إلى الحق وإلا انفصلت عنه بلا حقوق ، ونذكر فى هذا المجال قوله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ولم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » (متفق عليه) .

وقوله : لوكنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجا .

رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

فى حكم زيارة القبور

زيارة القبور مطلوبة شرعًا لما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة »

وكان ذلك فى بدء الإسلام حيث كان النبى ﷺ قد نهى عنها أولا ثم أمر بها .
وبعد أن اطمأنت القلوب بالإيمان أصبحت الزيارة مطلوبة إلى الآن لأخذ العبرة والعظة منها والاستعداد والتذكر للدار الآخرة .

فى حكم من أفتى بغير علم

الإسلام يكره الادّعاء والتدخل فيما لا يحسنه الإنسان وليس من شأنه ، لأن ذلك فيه إضلال للناس وتضليل لهم .
والإسلام يدعو إلى إسناد الأمور إلى أهلها ، قال تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .
فمن سئل عن شىء لا يحسنه يجب عليه ألاّ يتجرّأ على الكلام فيه خوفاً من الخطأ والزلل الذى يترتب عليه ضياع الحقوق وفساد الأحكام .
وقد ورد فى الأثر أجرؤكم على الفُتْيا أجرؤكم على النار ، وجاء أيضاً ، من أفتى بغير علم فقد ضل وأضل .
ويجب على من يريد أن يستفتى عن شىء من الدين أن يتوجه بسؤاله دائماً إلى من يتقن ذلك ، كما ورد فى الآية السابقة ، ويبتعد عن الأدعياء الذين لا يحسنون القول فى هذه الأمور إن كان يريد الوصول إلى الصواب .
والناس دائمًا يستفتون أهل العلم الصادقين ، وليس للفُتْيا طريق غير هذا .

فى الفروق والمميزات بين الرجل والمرأة

هناك فروق ومميزات بين الرجل والمرأة من حيث التكوين الجسمى والنفسى ، ومن حيث الخصائص الطبيعية المميزة لكل منهما .
ولقد راعى الإسلام كل هذه الخصائص والمميزات التى يختلف فيها الرجل عن المرأة والذكر عن الأنثى ، وجعل لكل دوره ومجاله مصداقاً لقول الرسول ﷺ « كل ميسر لما خُلِقَ له » .
فجعل التزين ولبْس الحرير والتحلى بالذهب مما تختص به الأنثى فى ملبسها وزينتها لكى تتفق مع رسالة الأنوثة ، التى خُلقت من أجلها .

أما الجهاد والنضال والعمل والسعى ومجاهدة الأعداء ومغالبة الشدائد فقد جُعلَتْ كلُّ هذه الخصائص والخصال للرجال .

وحتى لا يتشبه الرجل بالمرأة ولا ينحرف عن مميزاته واختصاصاته حرم الله عليه لبس الحرير واستعمال الذهب عن على رضى الله تعالى عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه ، وذهباً فجعله فى شماله ثم قال : « إنّ هذين حرام على ذكور أُمّتى » رواه أبو داود بإسناد حسن .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمّتى ، وأُحل لنسائهم » .

وعن علىّ رضى الله عنه قال : « نهانى رسول الله ﷺ عن التختُّم بالذهب » . يحرم الشرع إذن على الرجال لبس الذهب ، وكذلك الفضة .

أما من حيث استعمال الذهب والفضة فإن الإسلام يحرم استعمالها على الرجال والنساء على السواء ، فيحرم اتخاذ الآنية من الذهب والفضة ، فلا يحل لرجل مسلم ولا لامرأة مسلمة أن تأكل فى آنية من الذهب أو الفضة . عن أم سلمة زوج النبى ﷺ : قالت : إن رسول الله ﷺ قال « الذى يشرب فى آنية الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

وما من شك فى أن استعمال الذهب والفضة فى الأكل والشرب ترف وإسراف يتنافيان مع الوضع الاقتصادى السليم الذى تقره الأديان وتدعو إليه .

فى الميراث

إن الله سبحانه وتعالى حينما شرع نظام الميراث فإنما شرعه لحكمة علمها سبحانه ، ولقد أراد من الذين آمنوا بالله ورسوله أن يتبعوا نظامه فى الميراث كما يتبعون نظامه فى غيره ، والمؤمن الصادق الإيمان هو الذى يستجيب لله ورسوله فى الصغير من أمور الدين والكبير منها ، فإذا ما أراد تغيير ذلك بنحو من الأنحاء فإنه يدل بعمله على أنه غير مطمئن القلب للتشريع الإلهى .

يقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون) .

ومن المعروف أن الهبة قبل الوفاة صحيحة شكلا ، فإن كان الهدف منها حرمان بعض الورثة فإنها حرام من ناحية جوهر الموضع ، فإذا لم يكن هناك ورثة فالهبة لا بأس بها ، أما إذا وجد ورثة فعلى الإنسان أن يتبع الوضع الإسلامى السليم ، وهو ترك الأمر لنظام الميراث الإسلامى .

فى الثمن المؤجل

لقد أباح جمهور الفقهاء أن يكون الثمن المؤجل أغلى من الثمن المدفوع فوراً ، وذلك لأن الثمن المدفوع فوراً يمكن الانتفاع به فى معاملات تجارية أخرى ، أما الثمن المؤجل فإنه لا يتأتى فيه ذلك .

وهذا النوع من المعاملات ليس داخلا فى نطاق الرِّبا .

ومع ذلك يجب أن يراعى أن تكون المعاملات التى من هذا النوع معاملات سليمة تجاريًّا وأخلاقيًّا ، فلا يجوز أن تستغل حاجة المشترى ، فيرفع البائع الثمن كما يريد مُضاعِفًا المكسب أضعافاً مُضاعفة ، فإن ذلك فضلا عن كونه إثماً من وجهةَ النظر الأخلاقية ، لا يجوز شرعاً .

وأن التاجر الذى يراعى حق الله ويراعى واجبات الخُلق الكريم ينعم بالبشرى التى أعلنها الرسول ﷺ فى قوله : التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصدِّيقين والشهداء .

فى نجاة صاحب الكبيرة

يرى بعض العلماء عدم نجاة صاحب الكبيرة كالزانى ، سبق له الزواج أوْ لم يسبق ، وكذلك الزانية إذا ماتا بغير توبة ، للأحاديث الواردة فى كفر صاحب الكبيرة بحسب الظاهرة ومن ذلك قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

وجمهور المسلمين على جواز الغفران لها فى الآخرة لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء) .

وقد قرن الله تعالى الزِّنى بالشرك وقتل النفس ، وبين أن عباد الله حقًّا لا يزنون ، وأن الزّانى خارج عن نطاق العبودية فقال تعالى فى وصف عباد الرحمن : (والذين لا يَدْعُون مع الله إلٰهًا آخر ولا يقتلونَ النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلْقَ أثاماً ، يُضاعَفْ له العذاب يوم القيامة ويخلُدْ فيه مُهاناً إلاَّ مَنْ تاب) .

وأمرُ الغُفران فى غير الشرك موكولٌ إلى الله سبحانه وتعال : (إن شاء غفر وإن شاء عذب) .

ولكن الذى ينبغى أن يُعرف هو أن الاعتماد على الغفران مع ارتكاب المعاصى لا يجوز لقوله تعالى : (فلا يأمن مَكر الله إلاَّ القوم الخاسِرُون) .

والندم على المعصية والخوف من العذاب عليها والعزم على عدم العودة إليها شرط لقبول التوبة منها .

فعلى الزّانى والزانية الإقلاع عن غيِّها والمبادرة بالتوبة والتضرع إلى الله تعالى ، واستيفاء شروط التوبة الصحيحة .

فإن حالت ظروف بينهم وبين التوبة مع عزمهما عليها وقصدهما إليها كان احتمال المغفرة أكبر .

وإن تهاونا بالتوبة وفرطا فى المبادرة إليها كان احتمال العقاب أشد ، وفى النهاية لا يسعنا إلا أن نذكر قوله تعالى : (ولا تقربوا الزِّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

فى تولى المرأة القضاء

لا يجيز مذهب من مذاهب المسلمين تولى المرأة القضاء ، ويخطئ كثير من الناس الحقيقة أو لا يفهمون الأمر على وجهه الصحيح حينما يقولون : إن مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه يجيز تولى المرأة القضاء ذلك أن أبا حنيفة مثله كمثل الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد ابن حنبل لا يجيز تولى المرأة القضاء .

وتوضيحاً للأمر نقول : إن مذهب الإمام أبى حنيفة يرى : أن المرأة لا تصلح للقضاء وليست أهلا له ، ولا يجوز أن يوليها الوالى منصباً من مناصبه ، ولكن لوفرضنا أن الوالى أقدم على المحرم ولم يُبال بالممنوع شرعاً فولاها القضاء آثماً بذلك ومخالفاً للشرع فهل فى هذه الحالة ينفذ حكمها وقضاؤها أو لا ينفذ ؟

ويرى الإمام أبو حنيفة أن حكمها : ينفذ فيما عدا الجنايات ، أما المذاهب الأخرى فإنها ترى أن حكمها لا ينفذ لا فى الجنايات ولا فى غيرها .

ليس الخلاف إذن بين المذاهب فى جواز تولية المرأة القضاء ، فذلك ممنوع بالإجماع ، ومن يولها القضاء آثم بالإجماع ومخالف للشرع بالإجماع والخلاف ينحصر فى أنه إذا وقعت جريمة توليتها القضاء هل ينفذ حكمها أو لا ينفذ . . هذا هو رأى الشرع وكل متبصر مستنير مخلص فى تولى المرأة القضاء .

وفى حكم من يخون الأمانة

يقول الله تعالى فى آية صريحة وفى أمر واضح : (إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها) ولقد بين رسول الله ﷺ وضع خائن الأمانة أنه منافق ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما الذين يؤدون أماناتهم فإن الله سبحانه وتعالى يذكرهم فيمن أفلح من المؤمنين فيقول : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » .

والأمانة التى أحب الله سبحانه وتعالى أن تُؤدى هى :

أولا : أمانة الإنسان بالنسبة إلى نفسه هو شخصيًّا ، فلا يتدنس بإثم ولا يتلوث بمعصية ولا يعمل عملا يشينه فى المجتمع ولا يسعى مسعى لا يليق بالكرامة الإنسانية .

وثانياً : هى أمانة الرجل بالنسبة لأسرته ، فإن عليه رعايتها والعناية بها من تهذيب وتربية وتعليم ، عليه بالسعى لكفاية رزقها .

والأمانة ثالثاً : هى أمانة حقوق العباد التى اؤتمن عليها كالودائع وصيانة السر ، وذلك أن السر أمانة وإفشاءه خيانة للأمانة .

والأمانة بالنسبة للمجتمع هى ألاّ يخون الوطن بأى نوع من أنواع الخيانة .

والأمانة من قبل ذلك ومن بعده هى مراعاة ما أمر الله سبحانه وتعالى به ، وذلك بأدائه على وجهه ، وفى الوقت الذى أحب الله سبحانه وتعالى أن يؤدَّى .

وخيانة الأمانة إنما هى خيانة لله ورسوله ، يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) فخائن الأمانة منافق أغضب الله ورسوله إنه آثم فهو فى النار .

فى تركة المتوفى

إذا مات إنسان وله تركة فإن أول شىء يؤخذ من التركة إنما هو تكاليف دفن الميت ، ثم يؤخذ منها الدَّين ثم ينظر بعد ذلك فى نصيب كل وارث من التركة فإذا لم يسدد الورثة الدَّين من التركة فالتبعة عليهم .

ومع ذلك فإن الميت يناله نصيب من المسئولية إذا كان قد ماطل فى سداد الدين ، وإذا عاجله القدر قبل سداده فالتبعة كلها على الورثة ، وقد بين رسول الله ﷺ فى صراحة لا لبس فيها ، عظم جريمة المماطلة فى سداد الدين ، والتباين فى أمر حقوق الناس حتى لقد ورد فى صحيح مسلم عن ابن قتادة – رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال : يا رسول الله أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال : رسول الله ﷺ نعم إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر . ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلاَّ الدَّين فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك – رواه مسلم .

والحديث الذى أشار إليه السؤال حديث وارد ، ولما وضحت خطورة إثم المماطلة فى الدَّين وضوحاً سافراً لا لبس فيه كان رسول الله ﷺ يهتم بمن مات وعليه دَين يحاول أن يسدَّ عنه دينه بوسيلة من الوسائل الكريمة .

فى العلم بالعبادة

إن العبادة لابد فى صحتها من العلم الصحيح بورودها ولابد من العلم الصحيح بكيفيتها عن طريق الشرع الذى أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ فلا يعبد الله إلاَّ بما شرع ، على الكيفية التى شرعها ، لأنه وحده العالم بما يليق به ، فهو وحده الذى يرسم طريق الوصول إليه فمن جهل ذلك لا تصح عبادته ، فالعابد الجاهل بالعبادة لا عبادة له ، بل إنه فى الوضع الصحيح . ليس بعابد فلابد إذن من تصحيح العبادة بالعلم بها وبكيفيتها ، وأما العالم الذى لا يعمل بعلمه فإنه من الذين أضلهم الله على علم ، وعلمه حجة عليه ، والذى يعلم ولا يعمل أسوأ حالا من الذى لا يعلم ولا يعمل .

وأما من ناحية المقارنة بينهما فقد قيل لأحد الأثرياء – وكان عنده خادمان أى خادميك شر؟ فقال : هذا ثم هذا . وإن العابد الجاهل بالعبادة والعالم الذى لا يعمل بعلمه ، كلاهما شر.

والصوره التى يريدها الإسلام ، إنما هى صورة العالم العامل .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

فى الخلاف بين الأئمة

من المشاهد أن ثمَّة اختلافاً بين العلماء المجتهدين فى كثير من مسائل الأحكام مما لم يرد فيه نص صريح أو واضح الدلالة على المراد ، أو ما ورد فيه بصور مختلفة تبيح جواز العمل على عدة وجوه .

وكل من الأئمة مصيب فى اجتهاده ، حيث بذل وسعه وكان مستكملا لوسائل الاجتهاد ، ولكن المتأخرين تعصبوا لمذاهبهم ، وظنوا أن مذهب إمامهم هو السنة ، وما يخالفه لا أساس له . . ومنهم من يدفعه إلى ذلك قصر العلم عن إدراك أدلة الأئمة ومكانتهم من العلم والدين ، والسائل هنا يظن أن تكرار الله أكبر فى الأذان أربع مرات هو السنة لا غيره وأن إفراد كلمة قد قامت الصلاة فى إقامة الصلاة هو السنة لا غير . وكذا ترك قراءة البسملة فى الفرض هو السنة دون سواه .

ولكن هذه الأمور التى ظنها مخالفة للأحاديث النبوية ، قد وجدت فى كتب الحديث المعتمدة بأسانيد موثوق بها .

ووجودها لا يعنى التضارب بين المذاهب أو التعارض بين نصوص الدين ، إذ هذه الأمور ليست من الأمور التى تتناقض فيها الآراء أو تتصادم فيها الأفكار ، والرسول ﷺ لم يحدد لها صيغة معينة لا يجوز غيرها . بل أجاز فيها هذه الوجوه التى وردت فى المذاهب ، ورأى بعض الصحابة وجهاً فحمله عنه غيره ، ووصل الأمر إلى هذا الإمام فعمل به ، ورأى بعض الصحابة وجهاً آخر فحمله عنه من بعده حتى وصل إلى إمام آخر فعمل به ، ويجوز لكل مكلف العمل بأى وجه أراد .

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على يسر الدين ورفع الحرج منه ، وعلى عناية المسلمين بكل ماصدر عن النبى ﷺ من أفعال ، وعملهم بالوجوه المتنوعة لكل عمل من الأعمال فى عهد

الرسول ﷺ وعلى المسلم ألاّ يتعصب لمذهب من المذاهب دون سواه إلاّ بعد تعرف وجوه الأدلة والنظر فى كتب الحديث المعتمدة ومعرفة أساس الحكم من النصوص قبل الحكم بمخالفة النصوص .

فى إذا دخل اللص المنزل بقصد السرقة وقتله صاحب المنزل فما حكم القتل شرعاً فى هذه الحالة ؟

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قُتل دون ماله فهو شهيد .

وقال ابن بطال عن هذا الحديث : إن للإنسان أن يدفع عن نفسه وماله ولا شىء عليه ، فإنه إذا قُتل فى ذلك كان شهيداً فلا قَوَد (قصاص) عليه ولا دية إذا كان هو القاتل . وهذا كله كان من قصد أخذ ماله ظلماً له ، ولم يكن سلطاناً أو حاكماً ، روى أبو داود والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « من أُريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » وفى رواية لابن ماجه « من أريد ماله ظلماً فقتل فهو شهيد »

إن كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وظلم المسلم حرام .

والدفع عن النفس والمال والعرض واجب قال ابن المنذر والذى عليه أهل العلم : أن للرجل أن يدفع عن ماله إذا أُريد ظلماً بغير تفصيل ، إلا أن كان من يحفظ عنه من علماء الحديث كالمجمعين على استثناء السلطان للآثار الواردة بالأمر بالصبر على جوره وترك القيام عليه .

وقد وقع حديث أبى هريرة عند مسلم أن رجلا قال لرسول الله ﷺ أرأيت إن جاء رجل يريد أخْذ مالى ؟ قال فلا تعطه قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : فاقتله ، قال أرأيت إن قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلته قال فهو فى النار .

أى وأنت لا شىء عليك لأنه ظالم مفتر ، والله لا يحب الظالمين وهذا هو فصل المقام فى الجواب عن هذا السؤال .

فى النيَّة

يقول الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

ولكن مما يجب التنبيه له أن النية محلها القلب ، وأنه لا ضرورة مطلقاً للنطق بها باللسان ، إنها القصد القلبى للشىء فإذا قصد الإنسان بقلبه ، ولم ينطق بلسانه كان ذلك كافياً .

يقول الإمام ابن القيم عن النية :

النية هى القصد والعزم على الشىء ومحلها القلب لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة فى النية لفظ بحال ، وهذه العبارات التى أحدثت عندافتتاح الطهارة ، والصلاة قد جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها .

ويوقعهم فى طلب تصحيحها فترى أحدهم يكررها ، ويجهد نفسه فى التلفظ ، وليست من الصلاة فى شىء .

فى الرهن

رأى الدين الإسلامى فى الرهن أن منفعة العين المرهونة لمالكها الأصلى أى الراهن ، لا المرتهن .

وعلى هذا فعمرو الذى يملك عمارة ثم رهنها لزيد ، فإن عَمْراً المالك الأصلى هو الذى يأخذ إيجار هذه العمارة كله ، وليس لزيد حق الانتفاع بالعمارة : لا يأخذ إيجارها ولا يستغلها بأى وجه من الوجوه ، ولا يسكنها .

وليس لأحد أن يقول : ما فائدة الرهن إذن ؟

وذلك أن فائدته إنما هى ضمان وصول الحق إلى صاحبه ، فالرهن ضمان السداد إذا رغب عن قرض الضمان ، هذا فضلا عن الثواب والأجر العظيم من الله سبحانه وتعالى فى فك الكربات فضلا عن تقوية العلاقات بين المجتمع حيث تكون الألفة والمحبة والمروءة التى يحرص الشرع الكريم على غرسها فى النفوس وتعويد الثقة بين الأفراد والجماعات ، وإنجاز المشاريع التى تقام بتلك المبالغ التى يأخذها صاحب العين المرهونة كالمؤسسات والمصانع . . .

فإذا استولى صاحب المال على العين المرهونة بقصد الانتفاع بها فى أخذ الإيجار ونحوه كان

ما يأخذه رباً وتنطبق عليه هذه القاعدة ، (وكل قرض جر نفعاً فهو ربا) . وقد حرم الله تعالى الرّبا حيث قال سبحانه وتعالى : (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) .

مع أن الاستيلاء على العين والانتفاع بها مخالف للمروءة ومعطل للمشاريع ومورث للأحقاد التى تملأ القلوب بين الراهن والمرتهن حتى فى ذريتهما لأنه كثيراً ما يجبر التضييق على الراهن إلى بيع العين المرهونة فيراها أولاد الراهن وأقاربه ويتحسرون على ضياعها ، ويلعنون من تسبب فى هذا الضياع ، وهذا كله فضلا عن الوزر الذى يرتكبه المرتهن بأخذه الفائدة وأكله الربا . إذن . . يحرم أخذ إيجار العين المرهونة عمارة كانت أو غيرها .

فى ثبوت النسب

من المقرر شرعاً أن الولد يثبت نسبه ما دام الفراش بين الزوجين قائماً ، لقوله ﷺ « الولد للفراش وللعاهر الحجر » كما يثبت النسبة بالبينة الشرعية بالإقرار . وقرر الفقهاء أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأكثرها سنتان لقوله تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وقوله فى آية الرضاع : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) إلخ قالوا : فإذا كان للفصال أى الفطام سنتان فإنه يبقى الحمل ستة أشهر وهى أقل مدة الحمل ، وفرعوا على ذلك ما يأتى :

جاء فى باب ثبوت النسب من كتاب الهداية وفتح القدير من كتب الحنفية ما نصه . إذا تزوج الرجل امرأة فجاءت بولد أقل من ستة أشهر منذ يوم تزوجها لم يثبت نسبه ، لأن العلوق سابق على النكاح ، فلا يكون منه وإن جاء به بعد تسعة أشهر فصاعداً ثبت نسبه منه اعترف به الزوج أو سكت لأن الفراش قائم والمدة تامة .

وفى نفس المصدر مانصه : « وإن كان لها زوج وزعمت (أى ادعت) أنه ابنها منه وصدقها الزوج فهو ابنهما وإن لم تشهد امرأة ، لأنه التزم نسبه فأغنى ذلك عن الحجة »

وفى حادثة السؤال : فإن الزوجية كانت قائمة بين الزوجين فى المدة التى كانت تنسب الأولاد فيها إلى أبيهم والفراش قام بينهما تلك المدة والزوج صدق زوجته فيما كانت تدعيه أو على الأقل سكت ولم ينف نسب أحد من هؤلاء الأولاد إليه ، فيكون مقرًّا بالنسب .

فنسب الأولاد فى هذه الحالة ثابت بالفراش ، وثابت بالإقرار فضلا عن ثبوته بشهادة الميلاد ، وهى ورقة رسمية وحجة فى ثبوت نسب الولد إلى أبيه ما لم يطعن عليها بالتزوير — وما دام الأمر كذلك فإن نسب الأولاد — موضوع السؤال — إلى أبيهم صحيح شرعاً ولهم الحق فى ميراث أبيهم .

أما مسألة أن ميراثهم ظلم للأولاد الآخرين فليس بظلم ، فذلك مترتب على واقع الأمر وحقيقته ، فإن كان هؤلاء أولاداً للرجل حقيقة فلا ظلم فى ميراثهم ، بل هو حق فرضه الله لهم ، وإن لم يكونوا فى واقع الأمر وحقيقته أولاداً له كان ميراثهم – عند الله تعالى – أكلا لأموال الناس بالباطل ، ووزر ذلك واقع على من زعمت نسبتهم إلى هذا الرجل والله سبحانه وحده هو العليم بأسرار الناس وحقائق أمورهم ، وهو سبحانه سيجازيهم عليها .

ورسول الله ﷺ : يحث الناس على تحرى الحق فيما يدعون ، ومراقبة ربهم ودينهم فيما يقدمون من حجج وبراهين ، فيقول ﷺ : « إنكم لتختصمون إلىَّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أنا بشر أقضى بما أسمع فمن قضيت له من مال أخيه شيئاً بغير حقه فإنما أقطع له قطعة من النار » ويقول ﷺ : أنا أقضى بالظاهر والله يتولى السرائر .

فى الوصية

الأصل فى إجازة الوصية بثلث المال قوله ﷺ : « إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة فى حسناتكم ليجعلها لكم زيادة فى أعمالكم » .

والحكمة التى يهدف إليها الشارع الحكيم من ذلك هى تدارك ما فات المالك من تقصير فى حياته لمن كان يجب عليه رعايته ، ومساعدة بعض ذوى الحاجة – أجنبيًّا كان أو قريبًا – تقرباً إلى سبحانه وتعالى .

ولهذا المعنى أجاز القانون رقم ٧١ لسنه ١٩٤٦ فى المادة ٢٢٧ الوصية بثلث المال للوارث وغيره ، وتنفذ من غير حاجة إلى إذن الورثة ، كما أجاز الوصية بأكثر من الثلث ولا تنفذ فيما زاد على الثلث إلا إذا أجازها الورثة بعد وفاة الموصى .

وبناء على ما ذكر فإنه يجوز للسائل أن يوصى بثلث تركته لبنيه ، وتنفذ من غير حاجة إلى إجازة باقى الورثة ، غير أن الوصية التى أباحها الإسلام تقرباً من الموصى إلى الله سبحانه بسد حاجة ذى القربى يجب أن يراعى فيها ألاَّ تكون سبباً فى أحقاد أو ضغائن بين الأولاد وأبيهم وبين بعض الإخوة وبعضهم الآخر بسبب تفضيل بعض الورثة أو هضم لحقوق البعض الآخر ، فإن أدت الوصية إلى إثارة الكراهية والبغضاء بين الإخوة وأبنائهم من بعدهم فالأفضل تركها وإبقاء التركة لتوزيعها على الوجه الذى فرضه الله وقدره لكل وارث حسب حكمته السامية فى محكم كتابه حفاظاً على صلة الرحم ومنعاً لقطعها .

فى فوائد التقسيط

المبالغ التى ستدفع زيادة على ثمن الأرض فى صورة فوائد بعد أن تم الاتفاق على دفع الربع ثم تقسيط المبانى بدون فوائد هذه الزيادة ربا ، والربا حرام بصريح القرآن الكريم ، كما أن الفوائد التى تدفع على القروض ربا وأنها حرام كذلك ، وقد قرر المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية أن فوائد القروض ربا ، والربا حرام كله بنص القرآن الكريم وليس لأحد -- فردًا أو هيئة -- أن تقرض المال بالربا .

ولا يجوز لأحد أن يقترض بالفائدة إلا للضرورة إذ الضرورات تبيح المحظورات ، غير أن الضرورة تقدر بقدرها وكل إنسان موكول لدينه وضميره فى تقدير ضرورته وهو المسئول عن ذلك أمام ربه .

فى فوائد البنوك

الفوائد على السلف والقروض ربا كما قلنا فى الإجابة على السؤال السابق ، سواء كانت هذه الفوائد يأخذها البنك من العملاء على السلف أو يأخذها العملاء على أموالهم المودعة فى البنوك .

أما المرتبات التى يتقاضاها الموظفون بالبنوك فهى حلال لأنها أجر على الأعمال التى يقومون بها ، فالمال الذى يأخذه الموظف نظير عمله بالبنك مال حلال فإن كان للموظف سهم فى فوائد السلف والقروض كان هذا المال المأخوذ من هذه الفوائد المحرمة ، أو يتصدق به على الفقراء لأنه مال حرام ، والمال الحرام سبيله الصدقة .

فى أسرار العبادات فى الإسلام

إن الفقه الإسلامى هو مواد السلوك للمسلم ، إنه يتناول حياته فى الصغير منها والكبير ، وينظم سلوكه الأخلاق بأوسع ما تتضمنه كلمة : أخلاق منذ أن يصبح إلى أن يمسى ، ومنذ ميلاده إلى أن تنتهى به الحياة ثم ينظم شئون ميراثه إن كان له ميراث — بعد حياته .

إنه ينظم سلوكه مع نفسه ويشرح له من ذلك ما خفى وما ظهر .

وينظم سلوكه مع الله فيبين له ما ينبغى أن يتحلى به حتى يصير ربانيًّا وينظم سلوكه مع إخوانه فى المجتمع سلباً وإيجاباً ، قولا وفعلا .

إنه القانون الذى يبين أنواع السلوك من حيث كونه جائزاً أو واجباً أو مستحبًّا ومن حيث كونه حراماً أو مكروهاً وذلك فى ميادين الحياة .

لقد تتبع الأحاديث النبوية تتبعًا دقيقاً ونسقها ، فأصبح بذلك صورة واضحة لحياة المسلم وتغلغل بذلك فى جميع الميادين ، حتى تلك ماكان الإنسان يظن أنه ينتبه إليها ، أو يتجه نحوها .

خذ مثلا مسألة الروائح الزكية أو العطرة ، نجده يذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من عرض عليه طيب فلا يرده فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة » .

وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال فى المسك « هو أطيب طيبكم » .

ويذكر فى الفرق بين التزين والكبر :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمص الناس » .

ومن هذا الوادى – وادى التزين والروائح الطيبة – عن جابر أن النبى ﷺ قال : « من أكل الثوم والبصل والكراث ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » – متفق عليه .

ويتحدث الفقه عن الذهب والحرير والأقمشة المحلاة بالتصاليب فيذكر : عن أبى موسى ، أن النبى ﷺ قال « أُحِلَّ الذهب والحرير للإناث من أمتى ، وحرم على ذكورها » (رواه أحمد) والنسائى والترمذى وعن حذيفة قال : « نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية من الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه » – رواه البخارى .

وعن أنس : « أن النبى ﷺ ، رخص لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير فى لبس الحرير ، لحكة كانت بهما » .

وعن عائشة أن النبى : ﷺ ، لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه رواه البخارى .

وأبو دواد وأحمد ولفظه : « لم يكن يدع فى بيته ثوباً فيه تصليب إلا نقضه » .

ويتحدث الفقه عن نواحى التحفظ الصحى فيذكر : عن جابر عن النبى ﷺ : « أنه نهى

أن يبال فى الماء الراكد » رواه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجه » .

وعن جابر بن عبد الله فى حديث له أن النبى ﷺ قال : « أوك سقاءك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو أن تعرض عليه عوداً » متفق عليه ، ولمسلم ، أن رسول الله ﷺ قال ، غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس فيه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلاّ نزل فيه من ذلك الوباء .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « اتقوا اللاعنين ، قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله . قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم » أى الذى يقضى حاجته فى الطريق الذى يسير فيه الناس أو تحت الأشجار التى يستظلون بها » . رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

أما عن التبرج والتخنث فإنه يشرح :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس » رواه مسلم وأحمد .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ : « لعن الرجل يلبس لبس المرأة والمرأة تلبس لبس الرجل » رواه أحمد وأبو داود .

والحديث عن التبرج والتخنث يجر إلى الحديث عن كشف العورة : عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : قلت يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ، قال : احفظ عورتك إلاّ من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك ، قلت : فإذا كان القوم بعضهم فى بعض قال : إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها ، قلت إذا كان أحدنا خالياً ، قال : فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت » رواه أبو داود وابن ماجه .

وعن محمد بن جحش قال : مر رسول الله ﷺ على معمر وفخذاه مكشوفتان فقال « يا معمر : غط فخذيك فإن الفخذين عورة » رواه أحمد والبخارى فى تاريخه .

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الفخذ عورة » رواه الترمذى وأحمد ولفظه : « مر رسول الله ﷺ ، على رجل وفخذه خارجة ، فقال غط فخذيك فإن فخذ الرجل من عورته » .

وعن يعلى بن أمية : أن رسول الله ﷺ ، رأى رجلا يغتسل فى فضاء مكشوف ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل

أحدكم فليستتر » – رواه أبو داود والنسائى .

ويأخذ الجانب الأخلاقى شأناً كبيراً فى الفقه نذكر منه على سبيل المثال :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ مرَّ بقبرين فقال إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » رواه أصحاب الصحاح ، وفى رواية للبخارى والنسائى ، وما يعذبان فى كبير » ثم قال : « بلى كان أحدهما . . » وذكر الحديث .

ويصل الأمر إلى تنظيم كيفية الأكل والشرب ، وما يقوله الإنسان عند خروجه من البيت وعند دخوله وعند ركوبه وعند نزوله وفى الملابس مثلا :

عـن أبى هريرة قال : « كان رسول الله ﷺ ، إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه .

وعن أبى سعد ، قال كان رسول الله ﷺ ، إذا استجد ثوباً سماه باسمه ، عمامة أو قميصاً أو رداء ، ثم يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » رواهما الترمذى .

وما كان الفقه فى يوم من الأيام خاصًّا بجانب من الحياه الاجتماعية دون جانب .

لقد كان يتضمن الأخلاق ويتضمن التشريع كان يشتمل على العبادات والمعاملات : بيعاً وشراءً وجهاداً وقتالاً وسلاماً ، نكاحاً وميراثاً ، لقد كان الفقه يشرع للإنسان فى جميع أقطاره وزواياه .

وكانت الطريقة المثلى للتأليف فى الفقه هى الطريقة التى اتبعها السلف الصالح رضى الله عنهم . لقد اعتقدوا اعتقاداً موفقاً ، هو أن مهمتهم إنما هى : جمع الأحاديث فى كل مجال وتنسيقها وتبويبها وتقسيمها إلى فصول وإلى فقرات تنتظم جميعها تحت وحدة متحدة هى الحياة الإسلامية .

والحياة الإسلامية لا تنقسم إلى ميادين لتفصل وتعدد ، إنها وحدة متماسكة ومن هنا كانت هذه الكتب الأولى فى « الحياة الإسلامية » تبدأ بالحديث عن الوحى وعن الإيمان وعن العلم . وإذا تصفحت كتاباً مثل الموطأ للإمام مالك ، رضى الله عنه – وهو كتاب فقه – برغم كل ما يمكن أن يقال ، بل هو فى نظرنا كتاب الفقه المثالى : فإنك تجد فيه فصلا عن حسن الخلق وفصلا يطول عن صفة الرسول ﷺ ، للتأسى به ، ومتابعته فى أخلاقه وسلوكه ، وفصلا عن الرؤيا ، وتجد فصلا عن العلم ، وفصلا عن أسمائه ﷺ .

كان الفقه الإسلامى صورة كاملة لحياة المسلم على صورتها الصحيحة ، وفى ترابطها الذى لا انفصام له ولا انفكاك .

لقد كان شرحاً للإسلام وتفصيلا للإيمان ، والإسلام هو تصوير للحياة التى أحبها الله لمن كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والإيمان الإسلامى تعبير عن الحياة الإسلامية الخالصة المخلصة .

والإيمان فى وحدته التامة شعَبٌ كثيرة .

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وحينما بين سادتنا العلماء المحققون ، الذين أخلصوا لله ورسوله ، تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة ، التى تحدثت عن الإيمان قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب وما يختص باللسان وما يختص بالبدن أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله اعتقاداً وقولا ، وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة نتبين أن الحب فى الله ، والبغض فى الله من الإيمان وأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن الذى يؤذى جاره ليس بمؤمن من شبع وجاره جائع . وأن الجهاد من الإيمان ،يقول صلوات الله عليه وسلامه : « انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر وغنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولو ددت أن أُقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل » .

ومنها نتبين أيضاً أن : قيام ليلة القدر من الإيمان ، والإنصاف من النفس من الإيمان ، وبذل السلام للعالم من الإيمان . والإنفاق – من الاقتدار – من الإيمان ، وتطوع قيام رمضان من الإيمان ، والصلاة من الإيمان ، بل لقد عبر الله تعالى ، عنها بالإيمان فى قوله تعالى :

(وما كان الله ليضيع إيمانكم) ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور فتكون إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام – تعارفاً وتوداً : من الإيمان .

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان وهو لا ينعم بحلاوة الإيمان إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

لقد كان الفقه بياناً للحياة الإسلامية حسبما رسمها الرسول ﷺ وكان يلبى حاجات المجتمعات

فيما يتعلق بالأحكام الاسلامية كلما أحدثت المجتمعات جديداً من الأمر أو ابتدعت شأناً من الشئون .

لقد كان الصحابة يلجئون إلى الآيات الكريمة يستلهمونها الصواب ، وإلى الأحاديث النبوية يستمدون منها الرشد .

ما كان الفقه فى يوم من الأيام وما كانت هذه المواد التى تنظم الحياة آراء بشرية إنها ليست نتيجة منطق بشرى أو تفكير إنسانى يصدر عن الذات الإنسانية ، فيختلف فيه الناس من فرد إلى فرد ومن بيئة إلى بيئة ومن زمن إلى آخر كما يختلفون بحسب ذلك ، فى كل ما هو نتاج بشرى .

كلا : إن الفقه الإسلامى إنما هو ميراث النبوة إنه شرح للوحى ، أو بتعبير أدق إنه ترجمة للوحى واستنتاج من قواعده العامة واتباع سلوك الرسول ﷺ باعتباره المسلم الأول ، (أنا أول المسلمين) .

أو باعتباره المطبق الدقيق لما أوحاه تعالى على قلبه رسالة إلى الإنسانية لهدايتها إلى الصراط المستقيم .

إن الفقه الإسلامى : اتباع وليس ابتداعاً وأنه محاولة جاهدة لكشف الآثار النبوية والتزامها وليس اختراعاً يؤلفه بشر .

ولقد كان أئمتنا ، رضى الله عنهم ينبهون بأقوالهم ونزعاتهم وسلوكهم إلى هذا الأمر البدهى عند ذوى الشعور الدينى .

لقد كان شعار أئمتنا جميعاً رضى الله عنهم « إذا صح الحديث فهو مذهبى » .

إنما أنا متبع لا مبتدع ، كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلاّ صاحب هذه الروضة الشريفة وصاحب هذه الروضة الشريفة هو وحده الإمام وكان الإمام لأنه الكائن الوحيد الذى اجتباه الله رسولا خاتماً للرسل ونبيًّا خاتماً للأنبياء .

وكل ما أتى به قرآناً كان ، أو حديثاً قدسيًّا أو حديثاً نبويًّا شريفاً إنما هو مقدس ، لأنه ما ينطق عن الهوى ، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة ، ولأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن اتبعه فقد أحبه الله .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) كان سلفنا الصالح يتزعون هذه النزعة . نزعة الخضوع المطلق لما جاء به رسول الله ﷺ لقد كانوا ، يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم وأرواحهم ، وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ويجعلونه القائد الحكم المهيمن .

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص ، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشرى فى النص ، وكانوا يعرفون أن الوحى جاء هادياً للعقل ، قائداً له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها أو يقتحم حماها ، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس .

وهذه الميادين هى الدين وما دام الدين ليس رأياً بشريًّا لأنه تنزيل من حكيم حميد فإن كل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص الإلٰهى إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلٰهيًّا إلى أن يكون بشريًّا .

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك – أى على التبديل لما كان هناك من حاجة إلى الدين . يروى أبو داود والدارقطنى عن سيدنا على رضى الله عنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه .

إن الدين ليس رأياً وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالى : إنه معبر أقوى ما يكون التعبير ، ودقيق فى مغزاه دقة بالغة .

عن البراء بن عازب ، رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى نزلت ، ونبيك الذى أرسلت فإن مت فى ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

يقول البراء بن عازب : فرددتها على النبى ﷺ « أى أخذت فى إعادتها عليه ﷺ فلما بلغت : آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولك ، قال : لا ونبيك الذى أرسلت » رواه الستة .

وزاد البخارى والترمذى : « فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبحت خيراً » .

إن الصحابى الجليل البراء بن عازب رضى الله عنه أبدل كلمة بكلمة نسياناً منه لقد قال : رسولك « بدل أن يقول « نبيك » وكلمة رسول « تتضمن معنى النبوة فهى إذن فيها المعنى وزيادة وبحسب منطقنا ، وبحسب عقلنا تكون صالحة . . ولكنها فى منطق الحق لم تكن صالحة .

إننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا إلاّ الشكل والظاهر أما بواطن الأمور وأسرار الكلمات وحكمة الأوضاع المحددة واكتناه خفايا التقديرات الإلٰهية – كل ذلك إذا لم يكشف الله عنه أو عن بعضه – فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر .

إنا كل شيء خلقناه بقدر ، بمقدار محدد وتقدير معين . واكتناه سر هذا القدر أو هذا التقدير ، اكتناهاً تامًّا لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة .

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلٰهية والتربية الربانية إنما هو من الله سبحانه وكل ابتعاد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه إنما هو ضلال .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ، ويتصرف فى الوحى الإلٰهى نقصاً وزيادة وبترًا وإضافة وتغييراً وتبديلا يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة .

فيقول مثلا : إن الحكمة فى تحريم شرب الخمر إنما هى المفاسد التى تنشأ من الشخص الشارب فإذا ما انتفت تلك المفاسد ، فلا مانع من شرب الخمر ويقول إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير ، فإذا كان الضمير صالحاً فلا لزوم للتكاليف الدينية ويقول إن أعمال العبادة إنما هدفها التقرب إلى الله فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها ، وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه – ولا نقول بعقله – لأن كل ذلك أهواء يصورها الشيطان كأنها منطق معقول – عن الدين – كما خرج إبليس قديماً بأهوائه التى تمثلت لذهنه منطقاً عن الدين .

والإمام الغزالى رضى الله عنه : يمثل لنا ذلك بمثال معبر ، فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ، ووضع فيه شجراً من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ألاَّ يخلى هذا القصر من هذا الحشيش طول عمره ، وقال : « إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه ، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أو تاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

« فقال لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلاَّ لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلاَّ أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

« فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصرت عن إدراكه بصيرة الولد ، فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لاسر وراء معلومه ، ومعقوله كما قال تعالى : (ذلك مبلغهم من العلم) ، وقال : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .

والمغرور من اغتر بعقله ، فظن أن ما هو منتف عن عمله فهو منتف فى نفسه »

وما من شك كما يروى كتاب : إحصاء العلوم – فى أن آراء الملل وكل ما فيها من الأوضاع ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية ، لأنها أرفع رتبة منها ؛ إذ كانت مأخوذة من وحى إلٰهى لأن فيها أسراراً إلٰهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها ، وأيضاً : فإن الإنسان سبيله ، أن تفيده الملل بالوحى ممّا لا يدركه بعقله ، وما يحور عقله عنه ، وإلا فلا معنى للوحى ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما يعلمه وما يمكن – إذا تأمله – أن يدركه بعقله . ولو كان كذلك لوكل الناس إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحى لكن لم يفعل بهم ذلك فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده الملل من العلوم ما ليس فى طاقة عقولنا أن يكون ما تفيده عقولنا إدراكه ثم ليس هذا فقط ، بل ما تستنكره عقولنا أيضاً . .

وذلك أن التى يأتى بها الملك – مما تستنكره العقول وتستبشعه الأوهام – ليست هى بالحقيقة منكرة ولا محالة بل هى صحيحة فى العقول الإلٰهية .

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال فى الإنسانية : فإن منزلته – عند ذوى العقول الإلٰهية ، منزلة الصبى والحدث والغمر عند الإنسان الكامل .

وكما أن كثيراً من الصبيان والأغمار . يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست فى الحقيقة منكرة ولا غير ممكنة ، ويقع لهؤلاء أنها غير ممكنة ، فكذلك منزلة من هو فى نهاية كمال العقل الإنسى عند العقول الإلٰهية .

وكما أن الإنسان من قبل أن يتأدب ويتحنك يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها ويخيل إليه فيها ، أنها محالة ، فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب ، زالت عنه تلك الظنون فيها وانقلبت الأشياء التى كانت عنده محالة ، فصارت هى الواجبة ، وصار ما كان يتعجب منه قديماً فى حد ما يتعجب من ضده .

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية ، لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ، ويخيل إليه أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون فى المحافظة كذلك .

ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطق ، كل ذلك فى دقة دقيقة ، وفى أسلوب جميل ،

فيقول : إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل ، بوساطة السفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحى ، وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، وفى أثنائها ، مالاسبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ، ولابد من التسليم المدعو إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط « لم » ويبطل « كيف » ويزول « هلا ؟ » وتذهب « لو » وليت فى الريح ، ولو كان العقل يكتفى به ، لم يكن للوحى فائدة ولاغناء على أن منازل الناس ، متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل ، كيف كنا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد منا ؟ فإنما هو لجميع الناس .

ولو استقل إنسان واحد بعقله فى جميع حالاته ، فى دينه ودنياه ، لاستقل أيضًا بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، ولكان وحده يفى جميع الصناعات والمعارف ، وكان لايحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه ، وهذا قول مرذول ورأى مخذول) اهـ .

يقول هذا الشيخ الجليل : إن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقليًا ، ربما لايروق لغيره عقليًا ، ويجب من أجل ذلك ألاّ يتدخل العقل فى الدين وإلا لاختلف الناس فيه اختلاف عقولهم ، وادعى كل : أن ماعليه إنما هو الحق وماعليه غيره هو الباطل ونتج عن ذلك اتباع كل أهواءه (أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه) فتتفرق الأمة وتخرج على ماأحبه الله وأمر به . (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا) .

وإذا تساءلت الآن : ماهو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل فإننا نجمل الموضوع فى النقط الآتية .

أنزل الدين هاديًا للعقل فى جميع الأمور التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة وهذه الأمور هى :

(ا) العقائد فى فيما وراء الطبيعة .

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالا وتفصيلا .

(جـ) التشريع فى قواعده العامة وفى بعض تفصيلاته وقواعده العامة تتضمن الجزئيات على مر الزمن وعلى اختلاف البيئات .

أما الطبيعة والكون . من سمائه ، وأرضه ، ومن جباله ، وبحاره ، ومن كواكبه ، وأقماره وشموسه . . .

أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء ، فإن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته ، وحثه على أن يجول فى ذلك مااستطاع إليه سبيلا — حتى يكتشف

سنن الله الكونية ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ولم يحجر الدين على الإنسان فى هذا المجال ، اللهم إلا الواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائمًا . وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير .

ونزل الدين ليقود الإنسان نحو الكمال الروحى ، والإنسان إنسان بالجانب الروحى منه ، وكلما سما الإنسان روحيًا كان أسمى فى معنى الإنسانية .

والمعنى الروحى ووسيلة المعنى الروحى ، لاسبيل إلى تحديدهما من الإنسان نفسه وإنما تحديدهما مرده إلى الله سبحانه ، والقرب من الله ، أو بتعبير أدق ، تقريب الله للإنسان ، إنما مرجعه — هدفًا ووسيلة — هو الله نفسه ، وكل من حاول أن يتخذ طريقًا آخر فإنما يجرى وراء سراب ، والغاية والوسيلة حددهما فى كتابه الكريم . إنه حددهما بالأسلوب الإلٰهى نفسه ، أى أن التعبير عنهما — التعبير نفسه إنما كان من الله ، سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين ، وعلى اللغة العربية ، أن كانت وسيلة فهم الإسلام ، كما أنها التعبير الإلٰهى ، التعبير الإلٰهى بما فيه من دقة كاملة وجمال معجز ، وكمال غير منقوص ومادام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق السجود . وهو ليس سجودًا تسفيًا أو تحكميًا ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله ، ومادام من عند الله ، فإنه لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه أحكمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير . من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الالٰهى . بيد أن ذلك يسلمنا إلى سؤال آخر أو مشكلة أخرى هى أن القرآن يطالب دائمًا بالتفكير والتدبر . (فاعتبروا يا أولى الأبصار) .

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) . وينعى على المشركين التقليد ، ويتهكم بهم فى اتباعهم آباءهم فيتساءل (أَوَلَوْ كان آباؤهم لايعقلون شيئًا ولا يهتدون) وكثيرًا مانجد الآيات تختم بـ (أفلا تعقلون) (أفلا تفكرون) (أفلا تبصرون) .

وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل والواقع الذى لاشك فيه هو أن القرآن الكريم لا يستشير الملائكة ولا بنى الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم إلى الإنسان باعتباره حكمًا فى أى مبدأ من مبادئه ، ولايطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها الله ، بل هذه الأوهام تدور بخلد المتدين فقط ، ذلك أن الوحى نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة صدق كلها ، ليس فيها جملة زائفة ولاكلمة ليست فى غير موضعها ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا ، إنها الحق الخالص ،

ومن اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها انحرف ، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم ونوره اللألاء وكل ماذكره تعالى من التفكروالنظر والتدبر ، إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب فى بصركم ، أوفى بصيرتكم ، أو فيهما معًا ، إذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت ، وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلت ، وأن عقولكم قد صدأت فأصبحت لاترى الحق حقًّا ولا الخير خيرًا ، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرًّا والشر خيرًا ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم صراط الله . إن الله ، فى عظمته وجلاله ، سبحانه ، لايليق برسالته ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه ، نفيًا وإثباتًا ، سلبًا وإيجابيًا ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لايقدر الله حق قدره ، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، وإنما ألقاها سبحانه لتُتَّبَع ، ولتتبع فى خضوع وسجود ، ولتتبع دون حرج يحيك فى الصدر ، أوشك يجول فى النفس (فلا وربك لايؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا) .

وكل من وجد فى نفسه حرجًا من قضايا الدين ، وكل من لم يسلم تسليمًا كاملا مطلقًا تامًّا ، كل من كان كذلك فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحًا ، وباب الله مفتوح للتائبين آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل نَفَس ، وفى كل لحظة ، يقول أبو عمر ومحمد بن إبراهيم الزجاجى النيسابورى . كان الناس فى الجاهلية يتبعون ماتستحسنه عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع فالعقل الصحيح هو الذى يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ماتستقبحه .

ومسألة أخرى هى مسألة تعليل الأحكام ، وأن الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا وهى مسألة ترتبط بما قدمنا ارتباطًا وثيقًا ، ذلك أن التعليل ذو صلة وثيقة – عادة – بالمنهج فى فهم الدين ، وهذه المسألة لابد فيها من التفصيل .

أولا : إذا كان الشارع سبحانه ، قد حدد العلة وحصرها ، فإن لنا أن نقول : إنها الحكمة من القاعدة التى شرعت ، ومادام الشارع هو الذى حددها فإن الحكم يدور معها وجودًا وعدمًا .

ثانيًا : إذا كان الشارع قد ذكر علّة دون أن يذكر حصرًا ، فإنه ليس لنا أن نقوم نحن بالتحديد والحصر ، وإنما موقف المسلم هو أن يؤمن بالحكمة التى ذكرها الشارع من إيمانه بأنه يجوز أن تكون هناك حكمة أخرى .

ثالثًا : إذا لم يذكر الشارع حكمة للحكم ، فإن لنا أن نلتمس – إذا شئنا – حكمة ، ولكن

يجب علينا ألاّ نزعم أنها الحكمة الحقيقية التى أرادها الشارع ، ويجب علينا ألاّ نزعم أنها الحكمة الوحيدة .

وكل ذلك أن العقل البشرى لايحيط بالأسرار الإلٰهية ، وأن حكمة الشارع فى أحكامه أسمى من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة .

وسُئل رضي الله عنه في الغُسْل

فى صحة الغسل دون النية

يقول رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

يدلنا هذا الحديث الشريف على أن صحة الأعمال الصالحة إنما هى بالنية الخالصة لله ورسوله .

والواقع أنه ليس الأمر أمر النية فحسب ، وإنما الأمر أيضاً خلوص النية فى أعمال الخير كلها ، ومعنى خلوص النية أن يريد الإنسان بالعمل الصالح وجه الله وحده .

وعن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى يقول أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى » ثم يقول رسول الله ﷺ : « يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شىء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجهكم وليس لله منها شىء » ويقول الله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا) .

والغسل بغير نية لا يصح ولكن مما يجب التنبه له أن النية محلها القلب ، وأنه لا ضرورة مطلقاً للنطق بها باللسان . إنها القصد القلبى للشىء فإذا قصد الإنسان بقلبه ولم ينطق بلسانه كان ذلك كافياً .

يقول الإمام ابن القيم عن النية : النية هى القصد والعزم على الشىء ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان أصلا ، ولذلك لم ينقل عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة فى النية لفظ بحال ، وهذه العبارات التى أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ، ويوقعهم فى طلب تصحيحها ، فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه فى التلفظ وليست من الصلاة فى شىء .

فى غسل رسول الله ﷺ

روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال :

« كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار » . وروى مسلم فى صحيحه عن أنس أن النبى ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد .

وفى رواية لمسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذ أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ » .

وهذه الأحاديث ظاهرة فى أنه يجوز للجُنب أن يجامع قبل الاغتسال ، وأنه يستحب له أن يتوضأ .

وقد ثبت هذا بقول النبى ﷺ وفعله .

وثبت فى بعض روايات أبى داود أن النبى ﷺ طاف على نسائه ذات ليلة يغتسل عند هذه وعند هذه ، فقيل : يا رسول الله – ألا تجعله غسلا واحداً ؟ . فقال : هذا أزكى وأطيب وأطهر .

وحمل العلماء ذلك على الندب .

وعلى ذلك فيكفى الغسل مرة واحدة من هذه المباشرة ، أما كيفية الاغتسال ، فيبينها ما رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوء الصلاة . . ثم يأخذ الماء فيخلل أصابعه فى أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه .

قال العلماء : والمستحب أن يبدأ بناحية اليمين قبل الشمال ، وبأعلى بدنه قبل أسفله ، وأن يقول بعد الفراغ من الغسل وترك مكان الاستحمام ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً رسول الله .

ولابد من أن ينوى بالغسل التطهر من الجنابة .

فى المبيت على طهارة

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« من بات طاهراً بات فى شعاره ملك فلا يستيقظ من ليل إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك كما بات طاهراً »(١٥١)

والشعار : الثوب على الجسد . . ومعنى الحديث ، أن من بات على طهارة لازَمهُ فى نومه ملك يحرسه ويقوم على رعايته ، ويستغفر له كلما تنبه من نومه ، تحقيقاً لبركة الطهارة وتكريماً للمتطهرين .

وقد ندب سبحانه وتعالى المؤمنين إلى الطهارة وحثهم عليها وجعلها شرطاً للصلاة ولا تصح إلا بها ولا تتم بدونها . يقول تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . . وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا ، وإن كنتم مَرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

وفى حديث جامع يرويه الإمام مسلم بسنده ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » . أى تنظيف الأعضاء الحسية بالماء ، وتنظيف السلوك والأفعال الخارجية للإنسان بما يتفق مع الدين نصف الإيمان » .

أما النصف الآخر فهو : النوايا الطيبة والمشاعر الكريمة والطهارة الداخلية التى هى أساس السلوك .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يبيت على طهر ثم يتعارَّ من الليل فيذكر الله ويسأل الله خيراً من خير الدنيا والآخرة إلا آتاه الله إيّاه »(١٥٢) .

وهذه الطهارة : إما طهارة من الجنابة بالاغتسال ، أو طهارة من الحدث الأصغر – ما ينتقض الوضوء – بالوضوء .

ولكن البرد قد يكون شديداً ، وقد يتكاسل الإنسان عن الطهارة فماذا يكون الجزاء ؟ لقد

---

(١٥١) رواه البزار والطبرانى فى الكبير .

(١٥٢) أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده حسن مجمع الزوائد ج ١ ص ٢٢٣ .

وردت عدة أحاديث تحذر من البقاء على الجنابة بلا اغتسال أو التباطؤ فى تحقيق الطهارة .

فعن عمار بن ياسر رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « إن الملائكة لا تحضر جنازة الكافر بخير – أى منكر الجميل – ولا المتضمخ – أى – المتلطخ بزعفران ولا الجنب » .

وروى البزار بسند صحيح عن ابن عباس قال :

« ثلاثة لا تقربهم الملائكة : الجنب ، والسكران ، والمتضمخ بالخلون » أى ما فيه صفرة من الطيب وهو مثل الزعفران » .

والسبب فى ذلك : أن الجنابة تمنع من الصلاة كما ذكرنا ، وتمنع من قراءة القرآن وتمنع من إقبال الملائكة حيث تجذبهم الطهارة والروائح الطيبة وتبعدهم النجاسات والأقذار .

ولكن الدين يسر وما جعل الله على الناس فيه من حرج . . . وربما لا يتيسر الغسل بالليل لتعب أو برد أو نحو ذلك ، فما هو موقف الدين حينئذ ؟

لقد خفف الله عنا . وأباح لنا النوم على وضوء بدلا من الغسل .

وعن شداد بن أوس الصحابى رضى الله عنه قال :

إذا أجنب أحدكم من الليل ثم أراد أن ينام فليتوضأ فإنه نصف غسل الجنابة ولكن لابد للإنسان من التطهر قبل شروق الشمس وذلك من أجل صلاة الصبح .

ونخلص من ذلك إلى أن غسل الجنابة مطلوب . . ويتأكد طلبه عند حلول وقت الصلاة ويستحب عند النوم . جلباً للملائكة وطرداً لكل المؤذيات والمسلم . إذا صار جنبًا لا يصير بذلك نجسا .

لقد قطع الرسول ﷺ هذا الوهم – فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ لقيه فى بعض طرق المدينة فانخنس – أى تهرب منه فذهب فاغتسل ثم جاء فقال :

أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال :

كنت جُنباً فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة .

فقال ﷺ : سبحان الله . إن المسلم لا ينجس .

إن الطهارة نور لمن أراد النور ، وكمال لمن ينشد الكمال ، وسبب لجلب البركات والخيرات لكل من داوم عليها .

وإذا ما حضر وقت الصلاة . . تأكد الأمر بها وحرم تأخيرها . . إذ إن هذا التأخير سوف يخرج بالصلاة عن وقتها . . . وما أدى إلى الحرام فهو حرام .

وبعد ، فلو لم تكن الطهارة ديناً لكانت دنيا ، والتنظف بعد الجماع بالوضوء مما دعا إليه الطب ، وحذر من التكاسل عنه أو التهاون فيه .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن عمر استفتى النبى ﷺ : هل ينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : نعم ، ليتوضأ ثم لينم حتى يغتسل إذا شاء . . » .

فى وجوب غسل الجنابة

يجب الغسل من الجنابة لقول الله عز وجل :

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا) .

وقد ورد النهى من رسول الله ﷺ : عن قراءة القرآن من كل من الجنب والحائض والنفساء .

وشأن المؤمن الصادق الإيمان لزوم الطهارة ، فقد صح من رسول الله ﷺ أنه قال : « الطهور شطر الإيمان »

وقد ورد أنه ﷺ قال لبلال : رضى الله عنه : أخبرنى بأرجى عمل عملته منذ دخلت الإسلام ؟

فقال بلال : لماذا يارسول الله ؟ قال : لأنى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة ، قال : يارسول الله . . ما أحدثت حدثاً إلا وتطهرت وصليت بذلك الطهور ما شاء الله أن أصلى .

وكفى بهذا الشرف باعثاً على الطهارة من الأحداث والأنجاس كلها ، والمحافظة عليها ، ما أمكن

فى فرائض الغسل المطلوبة

(ا) فرائض الغسل ثلاثة أشياء :

الأول : النية ، لقول النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والثانى : إزالة النجاسة إن كانت على شىء من بدنه .

الثالث : تعميم الماء إلى جميع أجزاء الجسم ، ومنبت الشعر

(ب) الوضوء قبل الغسل سنة ، ولقد كان رسول الله ﷺ ، إذا اغتسل من الجنابة توضأ وضوءه للصلاة . . رواه الشيخان .

(جـ) ومبطلات الغسل : كل ما أوجب الغسل من خروج المنى ، أو الاتصال الجنسى ، أو الحيض والنفاس .

فى المبيت على جنابة

واضح أن السائل يريد أن يعرف حكم العودة إلى الجماع فى الليلة الواحدة ، هل يجوز قبل الاغتسال من الجنابة أو لابد من الاغتسال بعد كل جماع ؟ وعلى السائل أن يعرف أن الجنابة توجب الاغتسال لقوله تعالى : (وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا) ، وقوله ﷺ إذا التقى الختانان وجب الغسل ، نزل أو لم ينزل – غير أنه لا يحتم عليه الاغتسال فور الجنابة فوقت الوجوب موسع ، أى أنه يغتسل وقتما يشاء إلا إذا أراد الصلاة أو قراءة القرآن أو مس المصحف أو غير ذلك مما يحرم على الجنب فعله ، فحينئذ يلزمه أن يغتسل حتى لم يبق من الوقت إلاّ ما يسع للطهارة أو الصلاة ، فيجب عليه أن يتطهر ، أما إذا جامع زوجته وأراد الأكل أو النوم أو العودة إلى الاجتماع بها فلا يلزمه الاغتسال بل يستحب له الوضوء فقط .

فعن ابن عمر أن عمر قال : يارسول الله ، أينام أحدنا وهو جنب قال : « نعم إذا توضأ » وعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوء الصلاة » رواهما الجماعة .

ولأحمد ومسلم « إذا كان جنباً فأراد أن يأكل أو ينام توضأ » وعن عمار بن ياسر أن النبى ﷺ رخص للجنب إذا أراد أن يأكل أو يشرب أو ينام أن يتوضأ وضوء الصلاة . رواه أحمد والترمذى وصححه .

وفى استحباب الوضوء عند إرادة العودة إلى الجماع روى عن ابن سعيد عن النبى ﷺ قال : « إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ » رواه الجماعة إلاّ البخارى ، ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وزادوا « فإنه أنشط للعود » .

وهذه الزيادة تصرف الأمر فى الحدث (فليتوضأ) من الوجوب إلى الندب – ومما ورد فى ترك الوضوء ما روى عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يجامع ثم يعود ولا يتوضأ .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان النبى ﷺ إذا أراد أن يأكل أو يشرب وهو جنب يغسل يديه ثم يأكل ويشرب» . رواه أحمد والنسائى .

وعنها أيضاً قالت : «كان النبى ﷺ إذا كان له حاجة إلى أهله أتاهم ، ثم يعود ولا يمس مساء» رواه أحمد – ولأبى داود والترمذى عنها كان رسول الله ﷺ ينام وهو جنب ولا يمس ماء ، فهذه الروايات الواردة بترك الوضوء للجنب عند الأكل أو الشرب أو النوم أو العود للجماع تدل على أن الأمر بالوضوء فى الروايات الأخرى للندب لا للوجوب .

أما أن الغسل يكون بالصابون والليفة فالواجب أن يكون بالماء الطاهر المطهر ، ولم يقل أحد بوجوب استعمال الصابون والليفة ، غير أنه لا مانع منهما لإزالة الأقذار عن الجسم ، بل إن ذلك مستحب بإزالة الأقذار فقط ، وليس لإزالة الحدث ، فالحدث يزول بالماء الطهور ، وفى حديث ميمونة : المبين لصفة غسل النبى ﷺ فى الإجابة عن السؤال السابق ثم أفرغ بيمينه على شماله فغسل مذاكيره ثم دلّك يده بالأرض «ما يدل على استحباب ما يزيل الأقذار عن الجسم» .

فى جواز الصلاة بعد الغسل مباشرة

نعم يجوز للإنسان أن يصلى بعد الغسل مباشرة بدون وضوء جديد إذا كان الغسل مستوفياً للشروط الشرعية المطلوبة فيه .

ويجمع هذه الشروط كلها أن يزيل المرء النجاسة عن جسده بماء طاهر ثم يتوضأ ، ثم يغسل رأسه فذراعيه فجانبه الأيمن مع الرجل اليمنى فجانبه الأيسر مع الرجل اليسرى ، كل ذلك بماء طاهر ، ويراعى وصول الماء إلى سائر أجزاء الجسم وتخليل أصابع الرجل وتخليل الشعر .

فإذا لم ينتقض وضوءه بعد هذا الغسل بأن لم يخرج منه شىء ولم يمس ذكره ونحو ذلك . كفاه هذا الغسل عن إحداث وضوء جديد للصلاة .

فى الطهارة هل هى شرط من شروط صحة العقد

هذا الذى حدث لهذا الرجل لا يبطل عقد القران حتى لو كان هذا السائل لزجاً وكانت له رائحة ، فليست الطهارة شرطاً من شروط صحة العقد ، وليس عقد الزواج من الأمور المحرمة على المحدث حدثاً أصغر أو أكبر ، ماذا يفعل فإن الواضح من السؤال أن هذا الخارج (مذى) وليس (منيًّا) فإن كان كذلك فلا شىء عليه إلا أن يغسل عضوه وموضع إصابة المذى من جسمه

وملابسه ويتوضأ إن أراد أن يكون على طهارة ، أو أراد الصلاة أو فعل ما لا يحل للمحدث عمله كمس المصحف مثلا .

فقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : «كنت رجلاً مذّاء فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ – فأمرت المقداد بن الأسود فسأله . . . » .

فقال : « فيه وضوء » أخرجه البخارى ومسلم ، ولمسلم : يغسل ذكره وأنثييه ويتوضأ .

فى الفرق بين الاستحمام والاغتسال

لا فرق بين الاستحمام والاغتسال فهما اسمان لمسمى واحد وهو غسل جميع البدن ، وهو واجب للطهارة من الحدث الأكبر (الجنابة) والحيض والنفاس ، والواجب فيه غسل البدن كله وما كان غائراً فيه إذا كان لا يضر غسله كالسرة والقلفة التى لا عسر فى فسخها والمضمضة والاستنشاق ، وذلك بعد إزالة ما يكون ببدنه من نجاسة وغسل فرج ، كما يكون فى الاستحمام الاستنجاء ، ثم الوضوء وهو قبل الغسل سنة . فإن لم يتوضأ فعليه أن يتمضمض ويستنشق ، لأنهما فرض فى الاغتسال ثم يفيض الماء على بدنه ، والأفضل أن يبدأ بغسل رأسه ووجهه ثلاثاً مع تخليل شعر الرأس حتى يطمئن إلى أن الماء وصل إلى منابت الشعر ، ثم على بدنه ، والغسل مرة واحدة هو الفرض والتثليث سنة – ويلاحظ تأخير غسل الرجلين إن كان يقف فى محل يجتمع فيه الماء .

وقد جاء فى صفة الغسل ما روى عن عائشة رضى الله عنها – أن النبى ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل بدنه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوء الصلاة ، ثم يأخذ الماء ويدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حفنات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه ، وفى رواية لها : ثم يخلل بيديه شعره حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات . وعن ميمونة قالت : وضعت للنبى ﷺ ماء يغتسل به فأفرغ على يديه فغسلها مرتين أو ثلاثاً ، ثم أفرغ يمينه على شماله وغسل مذاكيره ، ثم دلّك يديه بالأرض ثم مضمض واستنشق ثم غسل وجهه ويديه ثم غسل رأسه ثلاثاً ، ثم أفرغ الماء على جسده ثم تنحى من مقامه فغسل قدميه ، قالت : فأتيته بخرقة فلم يردها وجعل ينفض الماء بيده ، رواه الجماعة وليس لأحمد والترمذى نفض اليد ، نيل الأوطار للشوكانى – باب صفة الغسل .

فى كى شعر المرأة

والحكم فى هذا لا غموض فيه من ناحية الشرع ، ولا يمكن أن يمارى فيه أحد ، وهو أن المرأة لا يجوز لها أن تسلم رأسها إلى رجل يجول بيده فى شعرها كما تشاء له مهنته .

ونحن نحسن الظن بالسائلات ، فإنهن يسألن عن أمور دينهن ، ونفترض أن الذى يكوى الشعر امرأة مثلهن ، وعلى أساس من هذا الغرض الطبيعى فيمن يسأل عن أمور دينه . نقول : لا فرق بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بوجوب تخليل الشعر حتى يظن الإنسان أنه قد أروى بشرته ثم يفيض على رأسه الماء بعد ذلك .

ولقد روى الإمام البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه وتوضأ وضوءه للصلاة ثم اغتسل وخلّل بيده شعره ، حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته ، وأفاض عليه الماء ثلاث مرات ، ثم غسل سائر جسده .

ويروى يحيى عن مالك ، بأنه بلغه أن عائشة رضى الله عنها سئلت عن غسل المرأة من الجنابة فقالت : لتحفن على رأسها ثلاث حفنات ماء ، ولم تقتصر السيدة عائشة رضوان الله عليها على ذلك ، بل أضافت ، ولتضغث رأسها بيديها .

وفى المعنى تضغث رأسها بيديها يقول ابن الأثير :

الضغث معالجة شعر الرأس باليد عند الغسل ، كأنها تخلط بعضه ببعض ، ليدخل فيه الغسول والماء .

وروى الإمام مسلم بسنده عن السيدة عائشة أن أسماء سألت النبى ﷺ عن المحيض ، فكان فيما قال ﷺ :

« ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شئون رأسها ، ثم تصب عليها الماء معناه : أصول شعر رأسها .

فى نسيان الغسل من الجنابة

على من نسى الغسل من الجنابة لمدة معينة أن يعيد ما صلّاه بعد هذه الجنابة وقبل الغسل لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا

برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جُنباً فاطَّهَّروا) وقوله ﷺ : « لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » .

أما النسيان المرفوع فى مثل قوله ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، فالمراد رفع إثم التأخير بسبب هذا النسيان ، أما رفع الفرض نفسه كالصلاة وعدم وجوب إعادتها فلا . .

وعلى المؤمن أن يكون مستيقظاً فى عبادته متحرزاً من كل شبه تفسد صلاته ، ولعل فى توجيه الإسلام إلى الاغتسال يوم الجمعة ونحوه ما يمنع من آثار هذا النسيان .

ذلك لأن مكانة الصلاة كبيرة ، وفضلها عظيم ، والمحافظة على أدائها بشروطها مطلوبة ، قال تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقال : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) .

وقال ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » رواه مسلم وقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وروى الإمام مسلم بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » .

فى هل يشترط الطهارة فى انعقاد اليمين ؟

ليست الطهارة من الجنابة موطأ لانعقاد اليمين ، فاليمين صحيحة ومنعقدة سواء كان الحالف طاهراً أو غير طاهر ، غير أنّ مس المصحف يحرم على من ليس على طهارة لقوله تعالى : (لا يمسه إلاّ المطهرون) فإذا كان السائل وضع يده على المصحف أو مسّه أو لمس شيئا منه فى أثناء الحلف فقد ارتكب إثماً مضاعفاً إلى ما ارتكبه من ذنوب وآثام فى حق الله ، وفى حق نفسه ومجتمعه .

وإذا كان السائل يريد أن يتوب إلى الله تعالى فبابه سبحانه مفتوح لكل من قصده ليلا أو نهاراً ، فهو سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، وسبحانه القائل : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) .

وإذا كان السائل يريد راحة ضميره واستقرار النفس فعليه بالتوبة إلى الله والإقلاع عن هذه الرذيلة وعدم العودة إليها ولا إلى غيرها من المعاصى ، وأول الطريق إلى التوبة أن يكفِّر عن اليمين

اللذين حنث فيهما وكفّارة كل يمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، فإن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام ، قال تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان ، فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) .

وعلى السائل وغيره أن يجلّ وينزه كتاب الله الكريم عن الحلف على الصغيرة والكبيرة حتى يظل لله ولكتابه مقام الجلالة والتقدير ، قال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) .

وعلى السائل بعد الكفّارتين أن يتوب إلى الله توبة صادقة خالصة ، وأن يقلع عن المعاصى ، وأن يكثر الطاعات مؤديا الفرائض ومتقرباً إلى الله بالنوافل مكثراً من العبادة والذكر والاستغفار مبتعداً عن كل ما يثير مما يقرأ أو يشاهد .

والله يوفقه إلى سواء السبيل .

فى هل يكفى أن ترش المرأة شعرها بدل أن تغسله فى أثناء غسل الجنابة ؟

لقد أنعم الله سبحانه وتعالى بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة ، من بين هذه النعم نعمة الطهارة من الأنجاس والأخباث .

فالطهارة فى الإسلام ، أو الطهارة للمسلم لها هدفها الأسمى من جهة كونها وسيلة وغاية ، أما هدفها من كونها وسيلة فهى تلبس الإنسان ثوب الجمال والحسن والحشمة والوقار والزينة والبهاء وتحليه بمظاهر الشيم ومكارم الأخلاق .

وأما هدفها من كونها غاية فهى التى تزن عبادة المرء وتجعلها فى التجارة الرابحة التى تقرب العبد من ربه ، ويكون جليساً للملائكة ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وما من شك فى أن أطيب الطيبات طهارة القلوب والأبدان ، لذلك أمر الإسلام بالطهارة وحث بالحرص عليها ، والقرآن حافل بالكثير من الآيات الكريمة التى تبين ما للطهارة من قيمة حتى يكون المتطهر حبيباً لله سبحانه . . يقول تعالى :

(وإن كنتم جنباً فاطهروا . .) الخ ، ويقول : (إنّ الله يحب المتطهرين) . ويقول : (والله يحب المتطهرين) ، وغير ذلك كثير من الآيات التى تتضمن الحث على الطهارة والأمر بها .

ومن ذلك فلا يتأتى لمسلم ولا مسلمة ، ولا يجوز لامرأة أن ترش شعرها بالماء بعد الجنابة بدلا من الغسل ، فقد قرر بعض علماء الفقه عليهم رضوان الله ، أن المرأة تنقض ضفائر شعرها حتى يصل الماء إلى منبت الشعر فى حالة الغسل .

فى تطهير الميت فى صحراء لا ماء فيها

من مات فى صحراء لا ماء فيها يُممَ وجوباً عند الأئمة الأربعة ، لأن الغسل تطهير لا يتعلق بإزالة نجاسة ، فيجب الانتقال عن الماء عند عذر وجوده إلى التيمم .

والمقصود من الغسل ليس مجرد التنظيف وإنما هو التطهير الشرعى من الحدث المتوقع غالباً باسترخاء الجسد عند الموت وزوال العقل .

وإذا كانت حياة الميت بالروح دون الجسد فذلك لا يمنع من التطهير ، إذ إن الأمور الشرعية لا تفرق بين روح وجسد وإنما تتعلق بالإنسان ككل ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان يوم البعث سيرد إلى جسده الذى تحلل أو ذاب ، والطهارة هى التى تليق بالمؤمن فى هذا المجال ، مجال الحساب والثواب أو العقاب .

هذا وفى الغسل احترام للمؤمن وإظهار لأخوة الإسلام ورعاية المسلمين حق أخيهم حتى بعد الوفاة .

وسئل رضي الله عنه في الوضوء

فى فروض الوضوء وسننه

إنّ سادتنا الفقهاء حينما يتحدثون عن الوضوء فإنهم يبينون فروضاً وسنناً ، أما الفروض فإنها تستند إلى الآية القرآنية الكريمة : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) سورة المائدة ٦ .

ويضاف إلى ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فروض أربعة فرض خامس هو النية ، وليس من شرط النية أن ينطق بها الإنسان وإنما يكفى فيها الاتجاه القلبى .

أما سنن الوضوء ويصح أن نسميها آدابه المستحبة فهى أولا التسمية أى بسم الله الرحمن الرحيم ، والتسمية مطلوبة من المسلم فى ابتداء كل عمل من أعمال الخير يشرع فيه .

* ومن سنن الوضوء (السواك) روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب .

ومن سنن الوضوء الدعاء ، ومن المأثور عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول فى ختام الوضوء : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ، وكان يقول أيضاً : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .

وروى أيضاً أنه كان يقول : فى ختام الوضوء ما حدَّث به أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ فسمعته يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع فى دارى ، وبارك فى رزقى » ، فقلت : يانبى الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شىء » ؟ .

فى الآداب الواجبة فى أثناء الوضوء

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) . سورة المائدة .

الوضوء : نوع من أنواع الطاعات يلتزم المتوضئ منه النية والتسمية عند غسل أول جزء ، واستحضار عظمة الله عز وجل ، واستقبال القبلة إن تيسر ذلك ، وأن لا يتكلم فى أثناء الوضوء بأى كلام حتى ينتهى من الوضوء ، ثم يقول بعد الوضوء أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . لقد صح عن رسول الله ﷺ أن من قالها فتحت له أبواب

الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

وورد استحباب قول المتوضئ قبل الوضوء أو فى أثنائه أو بعده :

« اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع فى دارى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، وقنعنى به ولا تفتنى بما زويت عنى » .

فى الوضوء من البرك الراكدة

هذه البرك الراكدة إذا لم تلق فيها نجاسات تغير طعمها أو لونها ورائحتها فلا مانع من الوضوء منها ، خاصة أن مياه المطر النقية تغذيها وتحرك ركودها .

والماء طهور لا ينجسه إلا ما غيرَّ لونه أو طعمه أو ريحه بغير مقره ، أو ما يرد عليه بواسطة ريح ونحوها من الأشياء الطاهرة .

وعلى ذلك . . . فمثل هذه المياه ينبغى على الأهالى المحافظة على طهارتها وعدم إلقاء النجاسات فيها .

وإنه من الدين ومراعاة لقواعد الصحة تنزيه مثل هذه المياه عن النجاسات والأقذار .

فى نواقض الوضوء على حسب مذاهب العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

أشار القرآن الكريم إلى نواقض الوضوء بقوله : (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) .

وقد أجمع المسلمون على انتقاض الوضوء بما يخرج من السبيلين من غائط وبول وريح ومذى لظاهر الكتاب ، ولتظاهر الآثار بذلك .

روى البخارى بسنده : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقبل صلاة مَن أحدث حتى يتوضأ » وقد اختلف العلماء فيما تدل عليه هذه الآثار : فعند أبى حنيفة وأصحابه والثورى وأحمد وجماعة أن كل نجاسة تسيل من الجسد وتخرج منه يجب منها الوضوء كالدم ، والرعاف الكثير ، والفصد ، والحجامة ، والقىء ، إلاّ البلغم عند أبى حنيفة ، وقال أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة : إنه إذا ملأ الفم ففيه الوضوء ولم يعتبر أحد من هؤلاء اليسير من الدم إلا مجاهد .

وعند الشافعية أن كل ما خرج من السبيلين ناقض للوضوء من أى شىء خرج ، من دم أو حصاة أو بلغم ، وعلى أى وجه خرج ، سواء أكان خروجه على سبيل الصحة أم على سبيل المرض .

وعند المالكية : أن ما ينقض الوضوء كل ما خرج من السبيلين ما هو : معتاد خروجه من البول والغائط والمذى والوَدْى والريح إذا كان خروجه على وجه الصحة ، ولم يروا فى الدم والحصاة والدود يخرج من أحد السبيلين وضوءاً ولا فى السلس .

ومما اختلف فى نقضه الوضوء النوم ، فقيل ينتقض الوضوء بقليله وكثيره وقيل لا يجب منه الوضوء إلا إذا تيقن من الحدث أو شك فيه ، وقيل يفرق بين النوم القليل الخفيف ، والكثير الثقيل ، فلا ينتقض الوضوء إلا من الثقيل وأما عن لمس النساء والسلام عليهن فيمكن تفصيل مذاهب العلماء كما يلى :

١ – يرى الحنفية عدم انتقاض الوضوء من لمس النساء .

٢ – ويرى الشافعية الفرق بين اللامس والملموس فيجب الوضوء على اللامس دون الملموس وقيل يجب على الاثنين ، وقيل يجب الوضوء من لمس الزوجة دون ذوات المحارم .

٣ – وللمالكية تفصيل جميل فى اللمس ، إن قصد اللذة ووجدها فعليه الوضوء وإن وجد ولم يقصد فيه فعليه الوضوء ، وإن قصد ولم يجد فعليه الوضوء وإن لم يقصد ولم يجد فلا وضوء عليه .

هذا وفيما يتصل بالسلام على السيدات – كان رسول الله ﷺ لا يصافح السيدات وقد روت عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط فى المبايعة ، ما بايعهن إلاّ بقوله قد بايعتك على ذلك ، رواه البخارى وغيره .

وروى أحمد والترمذى وصححه عن أميمة بنت رقيقة قالت :

« أتيت النبى ﷺ فى نساء لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن . . . . قلنا ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء » .

هذا وبالله التوفيق .

فى الريح الذى ينقض الوضوء

هذا الهواء الذى يخرج من فرج السيدة السائلة هو ما يسميه الفقهاء بالريح ، والريح ينقض الوضوء بإجماع الفقهاء إذا خرج من الدُّبر (مكان خروج البراز) أما إذا خرج من القُبُل فإنه

لا ينقض الوضوء عند الحنفية ، سواء كان خروجه من ذكر الرجل أم من فرج المرأة .

وعبارة كتب الحنفية : ينقض الوضوء كل ما خرج من السبيلين إلا ريح القبل فإنه من ذكر الرجل اختلاج ، أى حركة تنبعث من الذكر لا شيء فيها من المرأة ريح لا تنبعث عن محل النجاسة فإن كانت المرأة مفضاة أو اختلط سبيلاها استحب لها الوضوء لاحتمال أن يكون هذا الريح من الدبر ، وروى عن محمد وجوب الوضوء للمفضاة ، وقيل عنه : إن كانت منتنة وجب الوضوء وإلا فلا يجب .

وعن الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما ومحمد بن الحكيم من أصحاب مالك : الريح الخارج من القبل من الرجل أو المرأة ينقض الوضوء كالريح الخارج من الدبر .

وعند الإمام مالك رضى الله عنه وجل أصحابه : كل ما خرج من السبيلين مما هو معتاد خروجه ، وهو البول والغائط والمذى والودى والريح إذا كان خروجه على وجه الصحة من غير مرض فهو منقض للوضوء .(١٥٣)

هذا : والأخذ بمذهب الحنفية دفع الحرج الذى تشكو منه السائلة فإن شاءت الأخذ بمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه فعليها أن تتوضأ كلما خرج منها هذا الهواء إذا أرادت الصلاة وغيرها مما لا يحل لغير المتوضئ ، فإن كان هذا الهواء قد استمر معها وقتاً كاملا من أوقات الصلاة بحيث لم ينقطع زمناً يتسع للوضوء أو الصلاة فإنها حينئذ تكون معذورة والمعذور يتوضأ لوقت الصلاة ويصلى بوضوئه ما شاء من الفرائض النوافل وينقض وضوءه بخروج الوقت ما لم ينتقض بناقض آخر غير العذر الذى تشكو منه ، ويجدد وضوءه كلما دخل وقت من أوقات الصلاة ، ويظل العذر قائما حتى ينقطع سببه وقتاً كاملاً من أوقات الصلاة فيعود صاحبه صحيحاً ويأخذ حكم الأصحاء فى الوضوء . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فى نواقض الوضوء

اتفق الفقهاء على أن ما خرج من السبيلين – القبل أو الدبر – ناقض للوضوء .

النوم على غير هيئة المتمكن .

زوال العقل بالسكر أو المرض .

أما ما عدا ذلك فقد اختلف الفقهاء فيه ، وللإنسان فى اختلافهم سعة وفى اختلافهم رحمة .

---

(١٥٣) راجع نواقض الوضوء فى الهداية وفتح القدير وابن عابدين من كتب الحنفية وكتاب الأم للإمام الشافعى رضى الله عنه ، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد من كتاب المالكية ، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة .

فى حكم بول الصبى هل ينقض الوضوء

لا ينقض بول الصبى الوضوء ، لأن الوضوء لا ينقضه إلا ما خرج من الشخص نفسه كالبول ، أما إذا أصاب بول آخر جسد المتوضئ أو ثوبه أو نحو ذلك فلا ينقض وضوءه ، وعليه إذا أراد الصلاة أن يطهر موضع النجاسة بالماء المطهر ، وفيما يتصل بتطهير النجاسة من البول إذا أصابت ثوب الشخص أو بدنه .

اختلف العلماء فى بول الصبى على ثلاثة مذاهب :

أولها : إن بول الصبى إذا وقع على الثياب يرش موضعه بالماء الطاهر ولا يغسل ، وأما بول البنت الصغيرة فيغسل ، والمراد بالصبى والصبية مَن لم يستغن عن اللبن الذى يرضعه فى غذائه ، وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أتى رسول الله ﷺ بصبى فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إيّاه » .

وعن أم قيس بنت حصن أنها أتت بابن لها لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ ، فأجلسه رسول الله ﷺ فى حجره ، فبال على ثوبه فدعا بماء فنضحه ولم يغسله .

وثانيها : يكفى نضح الماء أى رشه من بول الصبى والصبية .

وثالثها : هما سواء فى وجوب الغسل من بولها .

والحكمة فى ذلك – فيما قال العلماء – أن الصبى أقرب إلى قلب أهله ، وكثيراً ما يحملونه فيبول فيتعذر تطهير الثوب من بوله .

إن الإسلام بذلك ييسر على الآباء أعباء التربية ، ويخفف فى مقابل العناية بالأطفال بعض مشقات التطهير ، وهى لفتة لطيفة تبين مدى عناية الإسلام بالأجيال الناشئة ، ورعايته لما تتطلبه تربيتها من مشاق . .

فى ما يحرم على المحدث حدثاً أصغر

أولا : ما يحرم على المحدث حدثاً أصغر هو الصلاة فرضاً أو نفلا ، وكذلك صلاة الجنازة ، لأن الطهارة من الحدث شرط فى صحة الصلاة ، لقوله ﷺ : «لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » . ومن ذلك مجرد التلاوة ومجرد الشكر ، لأنه فى معنى الصلاة . كما يمنع

الحدث من الطواف بالبيت فرضاً أو نفلا لقوله ﷺ : « الطواف بمنزلة الصلاة إلاّ أن الله قد أحل فيه المنطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير » .

وقال الحنفية من طاف محدثاً صح طوافه وإن كان آثماً ، لأن الطهارة من الحدث واجبة للطواف وليست شرطاً فى صحته .

ويمنع الحدث كذلك من مس المصحف كله أو بعضه ولو آية : لقوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) .

ثانيًا : يزاد على ذلك بالنسبة للجنب أنه يحرم ، وقال المالكية يجوز مس المصحف وحمله للبالغ الحدث ولو حائضاً إذا كان معلماً أو متعلماً .

لأن عليه قراءة القرآن ودخول المسجد كما لا يجوز ذلك للحائض والنفساء ، إلاّ أن تكون هناك ضرورة داعية لدخول المسجد ، وقال المالكية : يجوز للجنب قراءة اليسير من القرآن إذا قرأه للتحسن أو الاستدلال .

وقال الحنفية : يجوز للجنب إذا كان معلماً أن يلقن المتعلم القرآن كلمة كلمة بحيث يفصل بينهما ، كما يجوز له أن يفتح أمراً من الأمور ذات البال بالنسبة ، وأن يقرأ الآية القصيرة بقصد الدعاء أو الثناء ، ومثل الجنب فى ذلك الحائض والنفساء .

أما الصيد والذبح فلا يحرمان على الجنب ، وليس فى القرآن آية تحرم الصيد أو الذبح على الجنب .

فى التنزه عن البول

يأمر الإسلام بالنظافة ويحث عليها ويرغب فيها ، ولذا جعل الطهارة شرطاً من شروط صحة الصلاة .

ولقد أمر الرسول ﷺ بالتنزه عن البول بقوله : « تنزهوا من البوْل فإن عامة عذاب القبر منه . وقد مر صلوات الله وسلامه عليه بقبرين فقال : « إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة » .

من كل ذلك نعلم أنه يجب على المسلم أن يتنزه عن البول ويتحرز أن يصيب ثوبه أو بدنه ، ومن آداب البول الجلوس .

لكن إذا كان الإنسان محتاطاً لنفسه من إصابة البول مستبرئاً منه يجوز له أن يبول قائماً ، ولا إثم عليه ولا عقاب ، والمهم هو الاحتياط ، بحيث لا يصيب الإنسان رذاذ من بوله ، وبحيث يستبرئ من البول وينزه منه .

فى صلاة الفرائض جميعها بوضوء واحد

هل يجوز لشخص أن يصلى جميع الفرائض الخمسة طوال اليوم بوضوء واحد دون الاستنجاء ؟ الإجابة : لا تقبل الصلاة ولا تصح إلا بشرط الطهارة لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاطَّهَّروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

فمتى كان الإنسان متوضئاً فقد تحقق فيه شرط صحة الصلاة ، وله أن يصلى بهذا الوضوء ما شاء من الصلوات مادام لم يحصل منه ناقض للوضوء ولو بقى طوال اليوم وصلى خمس الصلوات بالوضوء الواجب .

والاستنجاء ليس واجباً إلا إذا خرج من أحد السبيلين نجس يحتاج إلى التطهير .

فى المسح على الباروكة

إن الله تعالى يقول فى الحديث عن الوضوء : (وامسحوا برءوسكم) .

والباروكة ليست الرأس ، فالمسح عليها باطل ، وليس لمن مسحت على الباروكة وضوء .

فى الوضوء على طلاء الأظفار

إن الوضوء على طلاء الأظفار باطل ، وذلك أنه لا يتمثل فى طلاء الأظفار عذر شرعى .

إن الطلاء طبقة على الأظفار تحجبت وصول الماء إليها ، وهو طبقة متعمدة ، ومعروف عند فاعلتها أنه طبقة حاجبة ، وهى طبقة لا تدعو إليها ضرورة ولا حاجة ماسة .

إذن وضوء من يتخذ الطلاء باطل ، وكل ما قيل عن قياسه بأشياء أخرى لا يصح .

فى كىّ المرأة شعرها هل ينقض الوضوء ؟

كىّ شعر المرأة لم يذكر فى نواقض الوضوء عند الفقهاء ، ما دامت المرأة هى التى تكويه بنفسها ، والأمر الهام فى كىّ الشعر ليس هو أن ينقض الكى الوضوء ولا ينقضه ، وإنما هو الكىّ نفسه . . هل تستسيغ الشريعة أن تكوى المرأة شعرها أوْ لا تستسيغه ؟ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون فى آخر أمتى رجال يركبون الخيل يركبون على سرج كأشباه الرجال ، وينزلون على أبواب المساجد ، نساءهم كاسيات عاريات ، على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف « العنوهم فإنهن ملعونات » .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، والمغيرات خلق الله » والوشم هو الدق ، والتنمص هو اقتلاع الشعر ، والتفلج الأخذ من الأسنان تحديداً أو ترقيعاً .

فلما قال ذلك عبد الله بن مسعود قامت امرأة تعترض مستفسرة ؟

فقال رضى الله عنه : « وما لى لا ألعن مَن لعنه رسول الله ﷺ وقد قال الله فى كتابه : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

من هذه الأحاديث ومن غيرها نأخذ أن ضياع الوقت فى كىّ الشعر أمر لا تستسيغه الشريعة . . أما إذا ذهبت المرأة إلى صالون الحلاق وأسلمت نفسها إلى الرجل يجول فى شعرها بيديه فإن ذلك حرام ناقض للوضوء .

فى الوضوء من أكل لحم الجزور

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : « أنتوضأ من لحوم الغنم : قال إن شئت توضأت ، وإن شئت فلا تتوضأ . قال أنتوضأ من لحوم الإبل قال نعم : توضأ من لحوم الإبل : قال أصلى فى مرابض الغنم قال : نعم : قال : أصلى فى مبارك الإبل قال لا » رواه أحمد ومسلم .

ويرى الخلفاء الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم أن أكل لحم الجزور لا ينقض الوضوء ، وليس هذا رأى الخلفاء الأربعة فقط وإنما هو رأى جمهور الصحابة والتابعين والفقهاء .

بيد أنه ورد أن رسول الله ﷺ قال : « من أكل لحم جزور فليتوضأ » ويبدو أن الأمر بالوضوء فى هذه الأحاديث ليس للوجوب وإنما هو للاستحباب والندب ، ومن أجل ذلك سار الجمهور على عدم نقض الوضوء بأكل لحم الجزور ، أى لحوم الإبل .

ولحم الجزور هو لحم الإبل ولا يدخل فيه لحم البقر ولا الغنم .

فى استحباب الوضوء لمن أراد النوم

جاء فى كتاب استحباب الوضوء لمن أراد النوم ، نيل الأوطار الجزء الأول : عن البراء ابن عازب قال : « قال رسول الله ﷺ إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » قال : فرددتها على النبى ﷺ فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت ورسولك قال : لا ونبيك الذى أرسلت .

رواه أحمد والبخارى والترمذى .

فى إلقاء السلام على من يتوضأ

الأولى عدم إلقاء السلام على من يتوضأ ، لأنه مشغول فى كل حركة من حركات الوضوء بالذكر المناسب له ، وقد حدث أن ألقى السلام أحد الصحابة على الرسول ﷺ وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى انتهى من وضوئه .

والأصل فى إلقاء السلام : أنه سنة ، ولكن رده واجب .

ويستحب كما يقول الإمام النووى أن يقول المبتدئ بالسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتى بضمير الجمع وإن كان المسلَّم عليه واحداً ، ويقول المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فيأتى بواو العطف فى قوله وعليكم .

وفيما رواه البخارى وغيره : أن رسول الله ﷺ قال :

« يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير » .

وعن أبي أمامة رضى الله عنه :

« قيل يا رسول الله : الرجلان يلتقيان ، أيهما يبدأ بالسلام ؟ قال صلوات الله عليه : أولاهما بالله تعالى .

فى مصافحة المرأة الأجنبية دون الشعور بشهوة والمسلم متوضئ

إنّ من توضأ ثم صافح امرأة أجنبية دون أن يقصد بالمصافحة اللذة ، ودون أن يشعر بها فإن وضوءه لا ينقض .

والإنسان بالنسبة للمصافحة له حالات يختلف الحكم فيها بالنسبة لاختلافها ، وهو إذا قصد بالمصافحة اللذة فإن وضوءه ينقض ، سواء شعر باللذة أو لم يشعر ، ويكون الوضوء بالنسبة له نوعاً من التطهر النفسى لهذا القصد الذى قصده .

وإذا صافح الإنسان امرأة دون قصد اللذة ولكنه شعر فى المصافحة باللذة فعليه الوضوء أيضاً .

أما إذا لم يقصد الإنسان بالمصافحة اللذة ولم يشعر بها فى أثناء المصافحة فليس عليه إعادة الوضوء .

وسئل رضي الله عنه في الصلاة

فى أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ

روى الشافعى فى الأم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أمّنى جبريل على باب الكعبة مرتين فصلى الظهر حين كان الفيء مثل الشراك ، ثم صلى العصر حين كان كل شيء بقدر ظله ، وصلى المغرب حين أفطر الصائم ، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، ثم صلى المرة الآخرة الظهر حين كان كل شيء قدر ظله ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثيله ، ثم صلى المغرب القدر الأول لم يؤخرها ، ثم صلى العشاء الآخرة ، حين ذهب ثلث الليل ثم صلى الصبح حين أسفر ثم التفت فقال يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك فيما بين هذين الوقتين » .

ورواه أبو داود بنحوه عن ابن عباس أيضاً .

وفى هذا الحديث ما يدل على أن أول صلاة من الصلوات المفروضة صلّاها الرسول ﷺ هى صلاة الظهر .

ويجب أن نعلم أن أولية الصلاة لا تعنى فضلا ما لها على سواها .

ومما لا شك فيه أن تحديد أول صلاة أمّ فيها جبريل النبى ﷺ يدل على حرص كامل من النبى ﷺ فى تسجيل تفاصيل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام ، وبيان التوجيه الإلهى الحميد ، والعناية الإلهية الكريمة بهذا الركن (الصلاة) ، حيث فرض من أرفع مكان ليلة الإسراء فى أرفع موقف للرسول ﷺ (قاب قوسين أو أدنى) وتولى جبريل بالتدريب العملى تعليم الرسول ﷺ هيآته وأوقاته .

فى صلاة رسول الله ﷺ

من المتفق عليه أن الصلاة المعهودة فرضت على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء ، عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : « فرضت على النبى ﷺ ليلة أسرى به الصلاة خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمساً ، ثم نودى يا محمد : إنه لا يبدل القول لدى ، وإن لك بهذه الخمس خمسين » . أخرجه أحمد والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح

وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة صلاة الرسول ﷺ ، منها ما رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن أبى حميد الساعدى قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائماً ورفع يديه حتى يحاذى (يقابل) بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه

ثم قال الله أكبر وركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه (يخفضه) ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه ثم قال : سمع الله لمن حمده ورفع يديه واستدل (أرخى يديه) حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلا ثم هوى إلى الأرض ساجداً ثم قال : الله أكبر حتى جسافى (بعد) عضديه عن إبطية وفتح (ألان وأرخى) أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها ثم اعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلا ، ثم هوى ساجداً ثم قال الله أكبر ثم ثنى رجله وقعد واعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه ثم نهض ثم صنع فى الركعة الثانية مثل ذلك حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ثم صنع كذلك حتى كانت الركعة التى تنقضى فيها صلاته أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركاً ثم سلم » .

وهناك صفات أخرى لصلاته ﷺ لا فرق بينها إلا فى بعض الهيئات كقبض اليد على جسده وإرسالها حال الوقوف ونحو ذلك ، وكل من الأئمة اعتمد ما رجح عنده والخلاف هنا ليس خلافاً مُضِرًّا وإنما هو من باب التوسعة وكل صحيح .

فإذا قبض المصلى يديه فى أثناء الوقوف فصلاته صحيحة ، وإذا أرسل يديه فى أثناء الوقوف فصلاته صحيحة ، ويجب ألا تفرق أمثال هذه الأمور بين طوائف المسلمين ، وذلك أنه لم يقل إمام من أئمة المسلمين قط : إن من أرسل يديه فسدت صلاته ، ولم يقل أحد من أئمة المسلمين قط : إن من قبض يديه فسدت صلاته . إن الصلاة صحيحة قبض المصلى يديه أو أرسلها .

فى شروط الصلاة

لا يشترط فى الصلاة أن تكون فى المسجد أو فى مكان معين ، بل تصح فى كل مكان ما دامت شروطها من الطهارة واستقبال القبلة قد توفرت . وذلك لقول الرسول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما عبد أدركته الصلاة فعنده طهوره ومسجده » .

وقد ورد فى الصحيح أن الرسول ﷺ كان يصلى حيث أدركته الصلاة ، فالصلاة فى المدينة التى ليست بها مساجد جائزة فى أى مكان منها بشرط طهارته .

وهذا من فضل الله على المسلمين وقدسية الإسلام الرحبة التى لا تحتم على المسلم أن لا يصلى إلاّ بين الجدران – بيد أن من حكمة المساجد أن يؤذن للصلاة فيها حتى يجتمع المسلمون فيستأنس بعضهم ببعض ، ويتعارف بعضهم على بعض فيتعارفوا . ولذلك ينبغى على أهل المدينة من المسلمين أن يتآزروا ويتعاونوا على بناء مسجد يجمع شملهم ويوحد جمعهم ، ومع ذلك فإن

الصلاة تجوز فى أى مكان توافرت فيه شروط الطهارة واستقبل فيه المصلى القبلة .

والشروط التى يلزم توافرها لصحة الصلاة ويجب على المصلى أن يأتى بها ، بحيث لو ترك شيئاً منها تكون صلاته باطلة هى :

١ – العلم بدخول الوقت بأى سبب من الأسباب التى يتأتى بها العلم ولو بغلبة الظن .

٢ – الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر .

٣ – طهارة البدن والثوب والمكان الذى يصلى فيه من النجاسة الحسية متى قدر على ذلك .

٤ – ستر العورة . وحدّها فى الرجل ما بين السرة والركبة ، وفى المرأة جميع البدن ما عدا الوجه والكفين .

٥ – استقبال القبلة : لقوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

٦ – أداء الصلاة على وجهها : أى العلم بكيفية الصلاة من قيام وقراءة وركوع وسجود وتشهد ، فمتى توافرت هذه الأمور صحت الصلاة وإن فقد شىء منها لا تصح الصلاة .

فى شروط ملابس المصلى

قال الله تعالى فى محكم كتابه : (وثيابك فطهر)

ظاهر الآية يدل على أن تطهير الثياب من النجاسات واجب فى الصلاة محبوب فى غيرها . وذلك بغسلها وبحفظها عن النجاسة بتقصيرها ، مخافة جر الذيول فيها وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة .

وعلى هذا الأساس يجوز أن يصلى بثياب عليها بقعة من العسل مع خلاف الأولى ، والأفضل أن يزيلها ، لأن بقاءالعسل فى الثوب يجمع عليه الذباب ، وقد يعلق بالثوب بعض التراب ، لأن العسل أقرب إلى أخذ التراب والأشياء الأخرى ، هذا إن قدر على إزالتها .

أما إذا لم يقدر على إزالتها صلى بها ولا إعادة عليه[١٥٤] .

وإذا كان الإنسان يستنكف أن يقابل عظيماً من الناس بثوب مثل ذلك فالمثول بين يدى الله عز وجل يجب أن يكون على الهيئة اللائقة بجلال الله .

والشروط التى يجب توافرها فى الملابس فى أثناء الصلاة :

أولا : أن تكون طاهرة فى أثناء الصلاة .

---

(١٥٤) ص ٢١٩ من فقه السنة للأستاذ سيد سابق .

ثانياً : أن تكون ساترة للعورة .

ثالثاً : ألا تكون طويلة بحيث تجر على الأرض ، وإنما تكون مرتفعة قليلا .

رابعاً : ألا تكون الثياب من الحرير الخالص .

خامساً : ألا يكون على الثياب صور تماثيل تصرف بعض الناس إلى النظر مثل صور حيوانات أو تماثيل لكراهة النبى ﷺ ذلك . .

فى الصلاة على الأرض الطاهرة

أجمع الفقهاء على صحة الصلاة على الأرض الطاهرة ، فيستطيع الرعاة أن يصلوا فى مكان عملهم ، وبجوار أغنامهم مادامت الأرض طاهرة ، يقول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً والتراب طهوراً » ، فيصلى المسلم حيث وجبت الصلاة غير مقيد ببيت أو مسجد ، وليست هناك ضرورة تلجئ راعى الغنم فى مثل هذه الحالة إلى تأخير الصلاة عن وقتها أو الذهاب بغنمه إلى البيت لأداء الصلاة فيفوت وقت الرعى على الأغنام ، ويستطيع أن يصلى الظهر فى آخر وقته ويصلى العصر فى أول وقته ، وبذلك يؤدى الصلاة فى وقتها ولا يفوته من رعايته لغنمه وقت طويل .

فى الأوقات التى تكره فيها الصلاة

الأوقات التى تكره فيها الصلاة ثلاثة :

١ – عند طلوع الشمس حتى ترتفع .

٢ – عند استوائها فى وسط السماء حتى تزول .

٣ – عند اصفرارها حتى تغرب .

هذه الأوقات الثلاثة نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فيها ، وأخذ الأحناف من ذلك عدم جواز الصلاة فى هذه الأوقات إلا عصر اليوم ، فإنه يصلى مع الكراهة وكره غيرهم الصلاة فى هذه الأوقات .

والشافعية : أجازوا الصلاة التى لها سبب فى هذه الأوقات الثلاثة مثل تحية المسجد ، وعلى ذلك إذا دخل إنسان المسجد فى الأوقات الممنوعة له أن يصلى تحية المسجد عند الشافعية من غير كراهة ، لأنها صلاة لها سبب وهو دخول المسجد .

فى النقطة الهابطة

إن كثيراً من الناس – طلبة وموظفين وعمالا – يسألون فى هذا الموضوع ، يتوضأ الواحد منهم وفى نهاية الوضوء أو فى أثناء الصلاة يحس بقطرة ماء تنزل منه دون أن يكون عنده المقدرة على إمساكها ، ودون أن يكون له اختيار فى عدم نزولها ، ويعيدون الوضوء ويعيدون الصلاة ويكون عندهم قليل أو كثير من القلق فيما يتعلق بنجاسة الثوب . إلى كل هؤلاء وأولئك نقول : إن كتب بعض الفقهاء تتحدث فى هذا الموضوع تحت عنوان (النقطة الهابطة) .

وكانت النتائج التى وصلوا إليها أن هذه النقطة الهابطة لا تنقض وضوءاً ولا تبطل صلاة ولا تنجس ثوباً وأن من أحس بها هابطة فى أى وضع كان فعليه ألاّ يعيرها التفاتاً وهذا من يسر الإسلام ومن تخفيفه على المسلمين ، حتى لا يكون عليهم فى الدين من حرج .

فعلى المسلم أن يتطهر تطهيراً كاملا ، ثم إذا هبطت منه بعد التطهر الكامل قطرة ما من ماء بعد الوضوء فلا يلتفت إليها . . وليس عليه إعادته ، وإذا هبطت فى أثناء الصلاة فليكمل الصلاة وليس عليه إعادتها .

وهى لا تمنع من مس المصحف ، وذلك لأن هذه النقطة لا تنقض الوضوء ، فمن هبطت منه فتوضأ يفعل كل ما يفعله المتوضئ من صلاة ومن مس المصحف ومن العبادة الصادقة بجميع ألوانها .

فى الأذان

حين قدم الرسول صلوات الله عليه المدينة كان الناس يجتمعون إليه للصلاة فى مواقيتها بغير دعوة ، وحينما انتشر الإسلام فى أطراف المدينة فكر الرسول صلوات الله عليه فى وسيلة لإعلام المسلمين ودعوتهم لحضور الصلاة ، وبينما هو فى مشورة مع الصحابة فى ذلك ، قدم عبد الله ابن ثعلبة يقص على النبى ﷺ رؤيا ، فقال له : « يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت له : يا عبد الله أتبيع لى هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قال : قلت : ندعو إلى الصلاة قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قال : قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أنّ محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ،

حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً منك ، فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله ﷺ : فلله الحمد على ذلك .

أما حكم الأذان فهو سنة مؤكدة . . .

فى إضافات الشيعة للأذان

ليس مما أضافه الشيعة فى الأذان من قولهم : أشهد أن علياً ولىّ الله أصل مقبول أو وجه جائز ، وليس لقولهم فى الأذان حى على خير العمل – أصل إلا ما رواه الطبرانى فى الكبير بسند فيه عبد الرحمن بن عمار بن سعد ضعفه ابن معين – عن بلال : « أنه كان يؤذن للصبح فيقول : حى على خير العمل ، فأمر رسول الله ﷺ أن يجعل مكانها « الصلاة خير من النوم (ويترك) حى على خير العمل » .

والأذان فعل شرعى تواترت الأدلة على وقوعه وعلى صيغته وعلى ما فيها من اختلاف فى أعداد التكبيرات ، وترجيع الشهادة ونحو ذلك .

ولا يجوز الزيادة فيه أو عليه ، لأن فى ذلك افتئاتا على الشارع وخروجاً عن حدوده . . وهو بوقته وصيغته وحدوده . يجب التزامه على ما ورد ولا يجوز أى تغيير فيه .

وعلى ذلك فلا حكمة لتلك الزيادات إلا المخالفة للسنة والافتئات على الشارع استناداً إلى روايات قد تكون مكذوبة وقد تكون ضعيفة .

ومثل هذه الأمور المخالفة للسنة يعتبر الإصرار عليها كبيرة من الكبائر ، وإن كانت فى أمر غير واجب ، لأنها تفرق بين الأمة ، وتثير اضطراباً وبلبلة بين المسلمين .

وليس الأذان من الأمور السرية أو الأمور الخفية ، لقد كانوا يؤذنون فى عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين فلم يرد عنهم أى زيادة من هاتين الزيادتين أو التزامها ، وعلى فرض ثبوت الحديث الذى ذكرناه فإن « حى على خير العمل » قد استبدل بها (الصلاة خير من النوم) فلم يبق لها وجود .

فى فضل الصلاة وفى عقوبة الترك والتهديد عليه

وكيف ينسى الإنسان صلاة سنة كاملة ويدع هذا الفضل الوافر الذى جعله الرسول ﷺ لها ، والخير الذى جعله الله سبحانه جزاء عليها ؟

قال تعالى : (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

وقال جلّ شأنه : (إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلاّ المصلين . . .) وقال ﷺ :

« خمس صلوات كتبهن الله على عباده ، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة » .

وكيف يترك المسلم الصلاة ، أو يتغافل عنها وقد ورد التحذير على تركها بقوله ﷺ « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » ولما أوشك بصر ابن عباس أن يذهب قيل له : نداويك وتدع الصلاة أياماً ؟ قال : لا : إن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الصلاة لقى الله وهو عليه غضبان » وآثر ذهاب بصره على ترك الصلاة .

فى المحافظة على الصلاة

يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه الإمام مالك : لاحظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة .

وإن من الأدب النبوى الكريم أن يُؤمر الأولاد بالصلاة لسبع وأن يُضْرَبوا عليها لعشر ، ذلك ليرتاض الإنسان عليها ويحيط بها عن طريق المران علمًا وعملا . وعلى من ترك الصلاة فترة من الزمن أن يبادر فى غير تردد ولاتوان إلى تعلمها وإلى أدائها ، لايحول بينه وبين ذلك خجل من الناس أوحياء ، ويمكنه أن يتعلمها ممن لايعرفه ، والمسلمون بحمد الله تعالى على استعداد تام لتعليم الصلاة ومايتصل بها بكل سهولة ويسر لمن لايعرفها ، وكل كتاب من كتب الفقه به باب لشرح : أوقاتها وكيفيتها .

ومن خير الكتب فى ذلك وأسهلها « كتاب إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى .

فإذا تعلم الإنسان الصلاة وتاب إلى الله توبة نصوحًا وقضى مافاته بأن يصلى مع كل صلاة ماوفقه الله لأدائه أو يقضى فى كل يوم صلاة يوم أو أيام ، ذلك أرجى لمغفرة الله له .

فى القصد من الصلاة

مَن صلى الصلاة على أنها حركات رياضية تفيد البدن ، فقد خرج بها عما شرعت له وماقصدت به .

فالحركات الرياضية متعددة ومتنوعة وليست محددة بشروط خاصة من طهارة وإخلاص ووقت محدد وشروط خاصة ، وقد لايستطيع القيام بها الرجل الكبير أو الطفل الصغير .

ولكن الصلاة فى حقيقتها عبادة تعبر عن الإيمان وتدل على الصدق فيه ، وشروطها الإخلاص فيها لله وحده فلا يقصد بالطهارة نظافة الظاهر فقط ولايقصد بحركات الصلاة تنشيط الجسم وهكذا ، ولاينصرف عما يتلوه من قرآن أو ينطق به من ذكر .

ومع ذلك فهل فى الصلاة حركات رياضية .

الواقع أن الصلاة – مع مافيها من عبادة الله تعالى وقيام بما أوجب فيها – تنشيط للجسم ، وأن حركاتها – فيما يرى العارفون بتركيب الأعضاء وألوان الحركات – من أعظم الحركات فائدة لجسم الإنسان فى كل مراحله .

وكأنما أراد الله تعالى أن تكون الصلاة جامعة لفائدة الجسم والنفس وخير الدنيا والآخرة ونظرة الناس للصلاة تختلف : مَن يهتم بالآخرة وصلاح النفس والمشاعر ورضا الله – لايرى منها سوى الجانب التعبدى .

ومن يهتم بالدنيا وصلاح الجسد ، ولايهتم بالآخرة ورضا الله – لايرى منها سوى الجانب الرياضى أو الحركى .

والرسول ﷺ يقول :

مثل الصلوات الخمس كمثل نهرٍ جارٍ عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبقى بعد ذلك من الدنس ؟ .

وعلى ذلك فإنه يجب أن يقصد بالصلاة أداء الفرض الذى أوجبه الله تعالى على جميع البالغين العقلاء ، مرضاة لله ورغبة فى ثوابه ، أما ماعدا ذلك من الفوائد فإنها تأتى تبعًا ، وتأتى لاعلى أنها هدف أو غاية ، فغاية الصلاة أداء الفرض ومرضاة الرب ،

فى الصلاة طريق للوصول إلى الله تعالى

الطاعة ومنها الصلاة كانت ولاتزال منذ الأزل ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين – طريقًا للوصول إلى الله تبارك وتعالى والقرب منه جلَّ وعلا وللطاعة الموصلة إلى الله تبارك وتعالى شروط لاغنى عنها ، وهى منها بمنزلة الروح من الجسد .

تلك الشروط هى :

١ – أداؤها على الوجه الصحيح الذى صحت به عن رسول الله ﷺ .

٢ – أداؤها فى الأوقات المحددة لها : إن كانت ذات وقت وإن فات وقتها لعذر شرعى قضيت ولاتترك ، لأنها دين على مؤديها لله تعالى لاخلاص له منه إلاّ بأدائها .

٣ – تخليصها من شوائب الهوى المستتبع مصلحة دنيوية أو حالا من الأحوال التى اشتهر بها بعض الصالحين من الكشف ونحوه ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ (قل الله أعبد مخلصًا له دينى) .

٤ – التخلص عن المذام كلها بالإقبال على الله وترك المحرمات والمكروهات والرفق بالناس فى حدود ما أمر الله .

متى فرضت الصلاة

الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج ، وقبل ذلك كان المسلمون يصلون ركعتين ركعتين ، وقد علّم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ كيف يصلى ، ثم علّم رسول الله (ﷺ) أصحابه وانتقلت إلينا كيفية الصلاة بالتواتر .

فى فرض الصلوات كلها فى وقت واحد

قال الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) أى فرضًا مؤقتًا بأوقات محددة .

وقال أيضًا : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفًا من الليل) .

أخذ العلماء من الآية عدد الصلوات ، فطرفا النهار : الصبح فى أوله ، والظهر والعصر فى آخره ، وزلفًا من الليل : المغرب والعشاء .

وقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد » رواه أحمد وروى البخارى

ومسلم : أن أعرابيًّا جاء إلى النبى ﷺ ثائر الشعر فقال : يارسول الله أخبرنى مافرض الله علىّ من الصلوات ؟ فقال : الصلوات الخمس وقد فرضت هذه الصلوات الخمس فى وقت واحد ولم تفرض متفرقة الواحدة بعد الأخرى .

أما كيف فرضت هذه الصلوات ، فإنها فرضت فى ليلة المعراج حينما تجاوز صلوات الله وسلامه عليه السماوات سماءً سماء وحينما فتحت له السماوات : سماوات المعرفة ، وسماوات المكانة ، والسماوات المادية فى تلك الليلة المباركة التى وصل فيها رسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى وهى الحد الفاصل بين عالم المادة وعالم الروح ، ثم تجاوز ذلك إلى مرتبة أعلى هى ماسماها الله سبحانه وتعالى بقوله (قاب قوسين أو أدنى) فأوحى الله إليه ماأوحى وكان مما أوحاه الله إليه فى تلك الليلة : الصلاة ومن أجل ذلك كانت الصلاة معراج المؤمنين ، يناجون فيها ربهم ويتقربون بها إليه .

فى تعويد الأولاد على الصلاة

يهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بإعداد المسلم وتعويده على مطالب الإسلام وتأديبه بآدابه والصلاة من أهم أركان الإسلام وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ متعددة ومتنوعة فى الأمر بإقامتها والتحذير من التهاون فيها ، قال تعالى : (وأقيموا الصلاة) وقال : (اتلُ ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنها صلة بالله سبحانه ، ولأنها معراج المؤمن إلى الله سبحانه فقد عمل الرسول ﷺ على أن يغرسها المسلمون فى أبنائهم منذ الصغر وللصلاة شروط وأركان وآداب وتحتاج الصلاة إلى إيمان راسخ وعزم قوى .

وتعويدهم عليها وتعليمهم إيّاها بل ضربهم عليها ، وحدد السن الملائمة للتربية بالحسنى والموعظة الطيبة والسن المتطلبة للضرب والتعنيف . .

روى أبو داود وأحمد والحكم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع ، فأدنى سن يجب علينا فيه تعليم الولد الصلاة سن السابعة ، ويستمر ذلك التعليم والتهذيب ثلاث سنوات كاملة ، فإذا لم تثمر تلك الطريقة فى حمل الصبى على الصلاة وتعويده ضربناه على ذلك وسنه عشر سنوات ، وهو أسلوب تربوى جميل ، يثمر كل خير ويدفع كل شر ، ولايستطيع كشف

علمى أن يعارضه قال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ويقول ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ثم يقول : « والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، ومن رعيته أولاده ، خصوصًا إذا كانوا من الصغار ، فيجب تعويدهم منذ الطفولة على الصلاة ، حيث تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وفى ذلك خير كثير .

الصلاة تفرّق بين المؤمن والكافر

بين الكافر والمسلم هوترك الصلاة ، أما أعمال الخير التى يؤديها المسلم فله ثوابها ، لأن الله لايضيع أجر المحسنين ، ولكنها مهما كثرت لاتغنى عن الصلاة ولاتسد مسدها ، وقد يكون الخير الذى يعمله نافلة لايعاقب على تركها ، ولكن الصلاة فريضة يعاقب الله تعالى عليها من لم يؤدها كاملة . وأما حفظ القرآن فليس فرضًا على كل مسلم ، ولكن لابد أن يحفظ كل مسلم منه آيات يستعملها فى صلاته .

فى جواز قراءة المصلى القرآن نظرًا من المصحف

يجوز للمصلى أن يقرأ من المصحف نظرًا وهو فى الصلاة مالم تبلغ حركاته ثلاث حركات متواليات فى الركعة الواحدة عند الشافعية .

وعند المالكية لاتبطل الصلاة بالحركات مادامت الحركات لاتشعر بخروج المصلى من صلاته .

فى الحكم فى الصلاة فى مسجد به الوطواط

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد / فنفيد بأن هذا مما تعم به البلوى ، ويشق الاحتراز عنه فيعفى عنه بشرط ألاّ يتعمده بالوقوف أو السجود عليه . .

واشترط بعضهم ألاّ يكون الزرق رطبًا أو القدم مبتلة . وبمقتضى القاعدة الفقهية « المشقة تجلب التيسير وعدم اشتراط ذلك .

فى الصلاة فى منزل من ليس مسلماً

لا مانع من الصلاة فى منزل من ليس مسلماً إذا تحققت الطهارة وخلا من الهياكل أو الصلبان ، وما إلى ذلك من كل ما يخالف تعاليم الإسلام .

والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن عمر أنه قال : إنّا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التى فيها الصور ، وكان ابن عباس يصلى فى البِيعة إلا بيعة فيها تماثيل .

وأخرج ابن أبى شيبة عن بكر قال : كتب إلى عمر من نجران أنهم لم يجدوا مكاناً أنظف ولا أجود من بيعة ، فكتب : انضحوها بماء وسدر – أى (وصلّوا فيها) .

والمهم فى الصلاة أن تكون على وقتها ، وأن تتحقق شروطها من ستر العورة وطهارة البدن والثوب والمكان ، فقد سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله فقال : الصلاة على وقتها وحذر رسول الله ﷺ من تأخير الصلاة عن وقتها ، وبين أن ذلك من دلائل الابتداع .

على أن الصلاة فى منزل من ليس مسلماً قد تكون سبباً فى تفتح قلبه على الإسلام .

وبصفة خاصة إذا كانت الصلاة نابعة من قلب نق وصادرة عن إيمان عميق .

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : أتيت المدينة والنبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، أى (سورة الطور) ، وذلك أول ما وقر الإيمان فى قلبى ، وكان جبير هذا من أسارى بدر . فمن الممكن أن تكون الصلاة المستكملة لشرائطها وسيلة من أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام وإظهار محاسنه ، وهذا ما ينبغى أن يحرص عليه المسلمون .

فى الصلاة فى السوق

إن الصلاة فى السوق صحيحة متى استوفت شروطها من دخول الوقت والوضوء والطهارة يقول رسول الله ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

بيد أن من المعروف أن الصلاة مناجاة قلبية ولسانية بين العبد وربه ، وكلما كانت هذه المناجاة واعية صافية كانت الصلاة أكثر قبولا وأكثر تحقيقاً لأهدافها التى منها النهى عن الفحشاء والمنكر .

والسوق عادة ملىء بالحركة وملىء بالضجيج وملىء بكثير مما يصرف المصلى عن هذه المناجاة ويجعل الذهن مشتتاً وموزعاً بين الصلاة والأحوال التى تجرى فى السوق ، ومن أجل ذلك كره بعض الفقهاء الصلاة فى السوق ، ولكن هذه الكراهة لا تؤدى إلى بطلانها .

وإذا كان رسول الله ﷺ يقول ما معناه « ليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل » فإن من الخير للمسلم أن يتلمس من أجل الصلاة الجو الذى يناسب صفاء المناجاة ، ومع استكمال تعقله لكل حركة أو فعل أو قول تتضمنه الصلاة ، وبذلك تتوفر أهداف الصلاة كاملة تامة .

ولا يفوتنا فى النهاية هذه الإجابة أن نذكّر أهل الأسواق من تجار وعمال بقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة . .) إلى قوله خير الرازقين .

فى من تذكر فى أثناء الصلاة أن وضوءه ناقص

من تذكر وهو فى صلاة الجماعة أنه نسى فرضاً من فرائض الوضوء فإن صلاته باطلة ، وعليه أن يخرج من الصلاة إذا تيسر له الخروج ، دون أن يمر أمام أحدٍ من المصلين ، ودون أن يتضرر به فى خروجه أحد من المصلين فى أثناء الصلاة ، وإن لم يتيسر له الخروج ظل فى مكانه من الصف بلا صلاة حتى تنتهى الصلاة ثم يذهب فيتوضأ ويحسن الوضوء ويصلى بعد ذلك .

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . .) إلخ الآية . وقال ﷺ « الطهور شطر الإيمان » ، فكل صلاة بوضوء ناقص فرضًا من فروضه فهى صلاة باطلة .

فى صلاة الأغلف

تصح صلاة الأغلف وليس فى ذلك شىء من الكراهية أو عدم الصحة ، ذلك لأن الختان سنة ، وتارك سنة مثل سنة الختان ما دام ليس مستهتراً بالسنة أو مستنكفاً عن الاتباع لا مانع يمنع من قبول صلاته .

وليس من شروط صحة الصلاة الاختتان . . وليس من صلة بين الصلاة والاختتان .

والصلاة كما هو معلوم – ركن هام من أركان الدين ، وأساس راسخ من أسس الإيمان لا تسقط عن أحد من المسلمين إلا بالموانع الشرعية كما حددها الإسلام فى وضوح .

فعلى هذا الأغلف أن يختتن اتباعاً للسّنة واقتداءً برسول الله ﷺ ، وإن لم يختتن فعليه الصلاة وهى صحيحة منه وليس فيها شىء ينزل بها عن درجة صلاة المختتنين . .

فى إعفاء الشيخ الطاعن السن من أداء الصلاة باعتباره ضعيفاً لا يستطيع أداءها

الصلاة هى الركن الثانى من أركان الإسلام ، يقول عليه الصلاة والسلام : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وللصلاة أهمية كبرى فى الإسلام ، وذلك أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، يقول الله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وهى تذهب السيئات وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وهى الفارقة بين المؤمن والكافر . ومن يسر الإسلام وسماحته أنه خفف على المريض والضعيف فى أداء الصلاة فمن عجز عن القيام صلى قاعداً ، ومن عجز عن الركوع والسجود صلى بالإيماء ولا تسقط عنه الصلاة بحال من الأحوال ، لأنه يستطيع أن يؤديها بأى كيفية ، إلا إذا لم يستطع الإيماء ولا الحركة فإنه تؤخر عنه الصلاة . فإذا دام عجزه أكثر من خمس صلوات سقطت عنه .

يقول تعالى : (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات) ويأمر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً بالمحافظة على الصلاة فيقول : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ويقول ﷺ : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر » .

فى حكم من صلى قبل أن يقيم الإمام الصلاة

إذا كان المراد من السؤال من صلى منفرداً بعد الأذان وقبل أن يقيم الإمام الصلاة فصلاته صحيحة ، غير أنه آثم لتركه السنة المؤكدة ، وهى الصلاة مع الجماعة .

أما إذا كان المراد أنه دخل فى صلاة الجماعة متابعاً للإمام قبل أن يصلى الإمام أى قبل أن يدخل فى الصلاة فصلاته باطلة ، لأن من شروط صحة صلاة الجماعة ألاّ يسبق المأموم الإمام وهذا قد سبقه بتكبيرة الإحرام .

فى التلفت فى أثناء الصلاة

إن التلفت فى الصلاة مكروه ، وذلك لاشتغال المصلى بغير الله عز وجل. وقوله تعالى : (قوموا لله قانتين) أى خاشعين متبتلين وجلين من ألا تقبل الصلاة .

والصلاة التى يحبها الله ورسوله إنما هى صلاة الخاشعين ، والخاشع فى الصلاة مستغرق فى أدائها على خير وجه فلا يتأتى أن يتلفت يميناً أو يساراً ولقد قال رسول الله ﷺ فى رجل غير هادئ فى الصلاة : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » . وكان ذلك ذمًّا له والعبد فى صلاته واقف بين يدى ربه والمؤمن الصادق يلتزم الأدب بين يدى الله سبحانه ، فهو حينما يقول بادئاً الصلاة : الله أكبر ، فإنه ينصرف عن كل ما عدا الله سبحانه ، ويستغرق فيما يؤديه على ما يحب الله ورسوله . . .

فى البصق فى أثناء الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين :

الصلاة يجب فيها الخشوع والخضوع وعدم الإتيان بما يتنافى مع الآداب ، لأن المصلى بين يدى ربه ، وهو منذ أن يقول : « الله أكبر » يجب أن يكون ذلك شعاره بالفعل ، ويجب عليه منذ افتتاح الصلاة أن يلزم منتهى الأدب مع من هو واقف بين يديه ، وهو الله سبحانه ، ولذا يكره البصق فى أثناء الصلاة ، لأن الإنسان لا يفعله مع رئيس أو غيره إن كان واقفاً بين يديه ، لأن فيه إساءة أدب مع من يتحدث معه .

بيد أنه إذا غلبه ذلك ولم يجد مفرًّا منه فيأخذه بطرف ثوبه أو منديله ، ومن المعروف أن من آداب الإسلام عدم البصق تجاه القبلة فى الصلاة ، وعدم البصاق فى المسجد .

فى من تذكر صلوات سنة فاتت

لا تبطل الصلاة التى يقوم بها (بأدائها) من تذكر صلوات سنة كاملة فاتته ، وقد ورد فى مثل ذلك عن ابن عمر قال : « من نسى صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليتم صلاته ، فإذا فرغ

منها فليصل التى نسى ثم ليعد التى صلاها مع الإمام » أخرجه مالك والطحاوى والدار قطنى وغيرهم .

وعليه أن يقضى هذه الفوائت بمجرد تذكرها لحديث أنس أن النبى ﷺ قال : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك ، فإن الله تعالى قال : (أقم الصلاة لذكرى) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

أما كيفية قضاء هذه الصلوات : فإن على من يريده أن يبادر إليه ، فى كل وقت يتمكن فيه من ذلك ويترك النوافل ما عدا ركعتى الفجر والشفع المتصل بالوتر ، ويجوز أن يقضى مع كل صلاة مثلها أو صلاتين مثلها تيسيراً له . .

وترك هذه الصلوات المتعددة لا يسقط أداءها بل هى معلقة بذمة صاحبها . . على أننا نستبعد أن ينسى الإنسان صلوات سنة كاملة ، فالأذان يذكر وطلوع الشمس وغروبها وتبدل الليل والنهار وغير ذلك مما يدل على وقت الصلاة . . ومن هنا فإن على من يترك الصلاة سنة كاملة إذا قضى هذه الصلوات إثم التأخير .

فى صلاة المسلم وبجواره فاسق أو فاجر

لا يبطل الصلاة أن يصلى الإنسان وبجواره فاسق أو فاجر أو حتى كافر ، فإنه ليس من شروط الصلاة أن يصلى الإنسان وبجواره رجل صالح .

بيد أنّ على المصلى الصالح واجباً اجتماعيًّا ودينيًّا ، وهو واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو واجب الإرشاد والهداية .

ولأن يهدى الله به رجلا خير من الدنيا وما فيها ، فعلى المصلى المستقيم أن يبين للمصلى المنحرف حكم الله فى انحرافه ويبين له الضرر الذى يعود عليه وعلى المجتمع من أذى الانحراف .

يقول رسول الله ﷺ من رأى منكراً فليغيره . . . إلخ .

فى مَنْ رفعت عنه الصلاة

يقول رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق » .

فالصبى قبل البلوغ لا تجب عليه الصلاة ، أما قوله – صلوات الله عليه – حاثًّا على الصلاة

« مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر » . فإن الرسول صلوات الله عليه يهدف من وراء ذلك إلى فرض التعود على الصلاة منذ الصغر ، حتى تصبح مألوفة متعودة عند البلوغ ، لأن التعوّد مما يسهل الأعمال ، وفترة الصبى إذن لا تكليف فيها ، ولذلك فإنه يجب قضاء ما فاته منها ، وعلامة البلوغ الذى يوجب التكليف إنما هى الاحتلام عند الذكر ، والحيض عند الأنثى كما هو معروف فى كتب الفقه .

فى أمر الأولاد بالصلاة

أهم أركان الإسلام وأولها هى الصلاة ، فهى عماد الدين . وقد شرعت للمسلمين قبل أن تشرع الأركان الأخرى وطبقاً لحديث رسول الله ﷺ يؤمر الأولاد بالصلاة وهم فى سن السابعة ليتعودوا عليها ، فإذا بلغ الناشئ العاشرة ولم يصلِّ ضربه ولى أمره كى يؤدى الصلاة ، وهو فى هذه السن – طبعاً غير مكلف – ولكن يضرب عليها حتى يتعودها ويدرك أهميتها ، والطفل فى سن العاشرة لا يصوم لمشقة الصيام عليه ولكنه يصلى .

فى كيفية الصلاة

إذا دخل الإنسان فى حضرة مولاه – أعنى : فى الصلاة – فينبغى ألا يشغل بشىء من النوافل أو الفرائض الأخرى التى شرعها الله سبحانه وسنها رسوله ﷺ سوى الصلاة .

لأننا مأمورون بالتأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله لا سيما لأنه أمرنا أن نؤدى فريضة الصلاة كما أداها فقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ولم يؤثر عنه – ﷺ – أنه صلى على نفسه أو أمر أحداً من أصحابه أن يصلى عليه ويسلم فى الصلاة فى غير التشهد .

والعبادات المشروعة سنة متبعة يجب ألا يدخلها ما ليس منها ، وألا يتأول فى ذلك لتبقى على هيئتها كما أخذت عنه ﷺ .

وليس لأحد من المجتهدين أن يتأول وأن يشرع فى الصلاة غير ما شرع الله تعالى وسن رسوله ﷺ ، وهذا ما عليه الجمهور غير أنه صلّى وسلم على رسول الله – ﷺ – فى الصلاة فى غير التشهد الأخير ، والتشهد الأول عند الشافعى رضى الله عنه فإن ذلك لا يفسد الصلاة ، وعلى المصلى أن يلتزم بما نص عليه الشارع ليكون مناسباً برسول الله ﷺ فى ذلك المشهد العظيم ،

مشهد الصلاة ، ولا يكون كالذى يرى نقصاً فيما شرع الله سبحانه وسنّ رسوله ﷺ فتذل قدمه ، ولا يكون له ثبات فى طريق الله سبحانه .

أما خارج الصلاة فالصلاة على رسول الله ﷺ من خير ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل ، ولا سيما أن الله أمرنا بالصلاة عليه : (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً)، ويجب الصلاة على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه قال ﷺ : « أرغمَ الله أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علىّ » ﷺ .

فى قراءة البسملة فى الصلاة

إن البسملة – بسم الله الرحمن الرحيم – من القرآن باتفاق الأئمة جميعاً ، وهى جزء من آية من سورة النمل بلا خلاف ، قال تعالى : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)

أما غير سورة النمل ففيها خلاف .

فعند الشافعية هى آية من كل سورة من سور القرآن الكريم ، أى أنها مائة وثلاث عشرة آية بعدد سور القرآن ما عدا سورة براءة ، فليست آية منها . وعند الحنفية أنها آية واحدة من جميع القرآن أنزلت للفصل بين السور .

ومن تركها فى الصلاة فقد ترك آية من الفاتحة التى هى ركن من أركان الصلاة عند الشافعية وعلى ذلك فلا تصح صلاته بدونها .

وعند الحنفية صلاته صحيحة لأنها ليست آية من سورة الفاتحة .

والخطب إذن فى أمر قراءتها وعدم قراءتها هين مادام الأئمة قد اختلفوا فيها ، فبأى الرأيين أخذ الإنسان فصلاته صحيحة ، غير أن الأخذ بتلاوة البسملة فى كل فاتحة فى الصلاة أولى للحيطة وللخروج من كل خلاف .

فى وضع اليدين على الصدر فى أثناء الصلاة

إن وضع اليدين على الصدر ، أو على ما تحت الصدر ، أو عدم وضعها لا يفسد الصلاة ، وذلك أن وضع اليدين على الصدر من سنن الصلاة ، إنه من السنن وليس من الواجبات أو الفروض ، ويستوى ذلك بالنسبة للرجل والمرأة على السواء ولقد قال الكمال بن الهمام وهو من أئمة علماء الفقه : لم يثبت عن النبى ﷺ ، حديث صحيح يوجب كون وضع اليدين تحت

الصدر أو على الصدر ، والحق أن وضع اليدين على الصدر أو تحته أو إرسالهما قد فعله الصحابة ، ولكن الأمر المهم فى ذلك بالنسبة للرجل والمرأة هو أنه إذا وضع الرجل أو المرأة اليد على الأخرى ، فإن اليمنى هى التى توضع على اليسرى ، فعن جابر رضى الله عنه فيما رواه الإمام أحمد قال :

« مرّ رسول الله ﷺ برجل وهو يصلى ، وقد وضع يده اليسرى على اليمنى ، فانتزعهما ووضع اليمنى على اليسرى » .

وللمرأة إذن أن تضع يديها على صدرها أو تحت صدرها أو ترسلهما .

فى ذهاب النساء لصلاة الجمعة

لا يجب على النساء الذهاب لصلاة الجمعة ، ويجوز لهن – إذا أمنت الفتنة عليهن – حضور الصلاة وأداؤها ، ويجزى ذلك عنهن ، لأن إسقاط الجمعة للتخفيف عنهن . فإذا لم تذهب النساء لحضور الجمعة ، أو إذا خيفت الفتنة من ذلك الحضور – فصلاة الجمعة بالنسبة إليهن هى صلاة الظهر أربع ركعات .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام عناية الإسلام بحفظ كرامة النساء ، والعمل على منع ما يمكن أن يصيبهن من مضايقات ، وفى نفس الوقت حرصه على منع العبادة من أن يتطرق إليها ما يفسدها أو يخرج بها عمّا حدّ لها من حدود .

أليس فى ذلك ما يشير إلى وجوب احترام المرأة لتعاليم دينها وبعدها عن كل ما يسبب الخروج عن هذه التعاليم فى الزى أو السلوك أو الاجتماع أو الاختلاط .

ثم إن فيه أيضاً وجوب تجريد العبادة من كل خروج بها عن حدودها والابتعاد بها عن كل ما يشغل أو يبعد عن الجو المطلوب لأدائها على أكمل الوجوه .

فى صلاة المسافر فى القطار أو السيارة

إن كان المصلى يعلم بالجهة التى يتوجه إليها بالقطار أو السيارة فيستدير نحو القبلة ثم يكمل صلاته ولا إعادة عليه . أما إذا كان لا يعلم أن القطار أو السيارة وهو فى الصلاة قد غير جهة السير واستمر فى صلاته إلى آخرها ولم يسأل بعد ذلك فالصلاة صحيحة لعدم علمه ولا إعادة عليه ، وإذا استدار القطار أو السيارة إلى أى جهة غير جهة القبلة يستدير إلى القبلة حتى يتم صلاته مُستقبلاً القبلة ، ولو تحول عن القبلة لا تجزئ صلاته فى قولهم جميعاً .

فى صلاة الجنازة على المولود

المولود الذى مات بعد ولادته مباشرة يصلى عليه صلاة الجنازة مادام قد نزل حيًّا من بطن أمه ، فقد أجمع أهل العلم على أن الطفل إذا عرفت حياته واستهل يُصلَّى عليه .

ومعنى الاستهلال : الصياح أو العطاس ، أو أى حركة يعلم بها حياة الطفل بعد ولادته .

روى الإمام أحمد وأبو داود عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال : « الراكب خلف الجنازة والماشى أمامها قريباً منها عن يمينها أو عن يسارها والسقط لا يُصلى عليه ويُدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة » .

فى قصر الصلاة والفطر فى السفر الذى لا مشقة فيه

قال الله تعالى : (ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) .

هذه الآية تبيح للمريض والمسافر الفطر ، وذلك لأن السفر مظنة المشقة ، لذلك رخص الله للمسافر أن يفطر فيه .

روى مسلم عن حمزة الأسلمى قال : « يا رسول الله أجد منى قوة على الصوم فى السفر فهل علىّ جناح ؟ فقال : هى رخصة من الله تعالى فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » .

والمسافة التى تسمى مسافة سفر هى ما يساوى اثنين وثمانين كيلومتر تقريباً ، وما بين مصر وطنطا أو بينها وبين أسيوط يعتبر مسافة سفر .

غير أن من لم يتضرر بالسفر ولم يجد فيه مشقة فصيامه أولى من فطره عملا بقوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

فى من يصلى وأولاده الصغار يحومون حوله .

من يصلى وأولاده الصغار يحومون حوله أو يتعلقون به صلاته صحيحة ما لم يكن بمن يتعلق به أو يحوم حوله نجاسة تبطل بها الصلاة ، فقد كان رسول الله ﷺ يصلى وهو يحمل حفيدته ابنة السيدة زينب فى أثناء صلاته ، حتى إذا ركع وضعها على الأرض فإذا رفع من الركوع احتملها

وقد ورد أن الحسن والحسين – رضى الله عنهما – كانا يتعلقان بالنبى ﷺ وهو ساجد ، فما كان يرفع من السجود رأسه حتى ينزلا .

وفى ذلك تأليف للأولاد وشفقة ورحمة بهم . . والصلاة فى حقيقتها خشوع لله سبحانه وتعالى ، وتهذيب للنفس وتكميل لها بجميع الفضائل التى يجب أن يتحلى بها المسلم فى كل شئونه فكيف يضيق المصلى بمن يحوم حوله من الأولاد وهو بين يدى مولاه الذى يجب منه أن يكون بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، وبأولئك الأولاد الصغار عطوفاً ودوداً .

فى أوقات الصلاة

للصلوات الخمس أوقات محدودة لابد أن تؤدى فيها لقوله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقد حددت السنة هذه الأوقات روى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ جاءه جبريل عليه السلام فقال له : « قم فصله فصلى الظهر حين زالت الشمس ثم جاءه العصر فقال : قم فصله فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله ثم جاءه المغرب فقال : قم فصله فصلى المغرب حين وجبت الشمس ، ثم جاءه العشاء فقال : قم فصله فصلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم جاءه الفجر حين برق الفجر أو قال سطع الفجر . ثم جاءه من الغد للظهر فقال : قم فصله فصلى الظهر حين صار ظل كل شىء ومثله ، ثم جاءه العصر فقال : قم فصله فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثليه ثم جاء المغرب وقتاً واحداً لم يزل عنه ، ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل أو قال ثلث الليل فصلى العشاء ثم جاءه حين أسفر جدًّا فقال : قم فصله فصلى الفجر ثم قال ما بين هذين الوقتين وقت » رواه أحمد والنسائى والترمذى وقال البخارى : هو أصح شىء فى المواقيت يعنى إمامة جبريل ، أما وقت الجمعة فهو وقت صلاة الظهر فلا تصح قبلها ولا بعدها .

فى جواز الاعتماد على الساعة فى أداء فريضة الصلاة

إن الإسلام فى بساطته ويسره ربط كثيراً من شعائره بالنسبة لأوقاتها بالمظاهر الطبيعية للكون ومن ذلك أوقات الصلاة ، وأوقات الصلاة التى حددها رسول الله ﷺ بحسب المظاهر الطبيعية هى كما حددها الحديث السابق .

وعن عقبة بن عامر ، أن النبى ﷺ قال : « لا تزال أمتى بخير أو على الفطرة ما لم يؤخروا

المغرب حتى تشتبك النجوم » وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « الشفق الحمرة ، فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة أى صلاة العشاء » ولما اخترعت الساعات – وكان اختراعها فى الحضارة العربية حاول علماؤها تحديد وقت الصلاة بحسبها فعينوا الأزمنة والأوقات لكل فرض من الفروض متبعين فى ذلك توجيهات رسول الله ﷺ فالساعة تحديد للوقت بحسب الأصول الإسلامية فيجوز الاعتماد عليها فى أداء فريضة الصلاة .

فى السنة بعد تكبيرة الإحرام

السنة بعد تكبيرة الإحرام أن يتريث المصلى قبل قراءة الفاتحة فترة يتمكن فيها من افتتاح الصلاة لما صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يفتتح الصلاة به من قوله : الله أكبر كبيراً ، ثلاثاً والحمد لله كثيراً ثلاثاً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

ثم يقرأ البسملة مع الفاتحة خروجاً من خلاف من اعتبرها آية مستقلة من الفاتحة وقال : بأن تركها يبطل الصلاة .

فى التشهد فى الصلاة

إن الصلاة من الله سبحانه وتعالى على أحد أفراد عباده إنما هى الرحمة تفيض منه سبحانه وتعالى على عبده .

ورحمة الله إنما هى رضاه وتجلياته ، وهذه التجليات لا تحد ولا نهاية لها ، وهى فياض باستمرار ، لأن الله كريم جواد والصلاة على إبراهيم عليه السلام هى رحمة الله وبركاته عليه وعلى أهل بيته ، وقد ورد فى القرآن الكريم بالنسبة لسيدنا إبراهيم قوله تعالى : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) وفى قوله تعالى : (سلام على إبراهيم) وصلاة الله سبحانه وتعالى على إنسان هى كاملة بالنسبة لهذا الإنسان أى أنها تتناسب هى وما فطره الله عليه من خير وصلاح وإحسان ، ونحن حينما نقول اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فالمعنى اللهم صلِّ على محمد بما يناسب ما فطرته عليه من كمال ذاتى كما صليت على إبراهيم بما يناسب ما فطرته عليه من فطرة طيبة ، والمثلية هنا إذن ليست مثلية اتحاد

كمًّا وكيفاً ، وإنما هى مثلية تشابه فى الصلاة وإن اختلفت الصلاة على كل منهما كمًّا وكيفاً : كل بحسب ما يناسبه وما فطره الله عليه .

أما لماذا نصلى عليه نحن ولقد صلى الله عليه وصلت ملائكته عليه وليس بعد صلاة الله وملائكته من حاجة لصلاتنا نحن عليه فإنما ذلك من أجل فائدتنا نحن ، فإننا كلما ارتبطنا برسول الله ﷺ بوساطة الصلاة عليه زادنا الله نوراً وأكرمنا ، ففائدة الصلاة عليه تعود علينا نحن ، لقد أراد سبحانه أن يوثق صلتنا برسول الله ﷺ . .

فى هل يجوز عند المذاكرة الجمع فى الصلوات ؟

لا يجوز ذلك فليست المذاكرة عذراً مبيحاً للجمع عند القائلين به ، والجمع لا يجوز عند الحنفية إلاّ فى عرفة ومزدلفة للحاج فقد يصلى الحاج الظهر والعصر قصراً وجمعاً مع الإمام فى وقت الظهر ، أى أنه يصلى فى عرفة الظهر ركعتين ويصلى العصر بعده مباشرة ركعتين كذلك بلا سنة بينهما ، ويصلى المغرب والعشاء جمعاً وقصراً للعشاء فى وقت العشاء بمزدلفة ، والأول جمع تقديم والثانى تأخير وأباح الشافعية الجمع – تقديماً أو تأخيراً – بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، للمسافر القصر بشرط السفر عندهم يجوز جمعها جمع تقديم فقط بسبب نزول المطر ويشترط لذلك شروط مبسوطة فى كتاب فقه الشافعية .

غير أنه يجوز للطالب إذا ما ضاق وقته بسبب كثرة المذاكرة وقرب الامتحان مثلا أن يجمع بين هذه الصلوات جمعاً صوريًّا كأن يصلى الظهر فى آخر وقت الظهر ويصلى العصر فى أول وقت العصر وهكذا .

وبذلك يكون مؤديا كل فريضة فى وقتها ، وموفراً لنفسه زمناً يستغله فى مذاكرته والله الموفق .

فى معرفة أوقات الصلاة فى البلاد التى لا تظهر الشمس فى سمائها فى بعض شهور السنة

هناك بلاد لا تظهر فيها الشمس فى بعض شهور السنة ، وأهل هذه البلاد يؤدون الصلاة بحسب المواقيت فى أقرب البلاد المعتدلة إليهم .

والصلاة لا تسقط إذا ظهرت الشمس أو لم تظهر ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

والصلاة هى الركن الثانى : من أركان الإسلام ، إنها الركن الذى يتلو شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله مباشرة ، وهى لا تسقط بأى حال من الأحوال سواء أشرقت الشمس أو لم تشرق ، وأمر تحديد مواقيت الصلاة فى هذه البلاد أصبح الآن أمراً ميسراً بفضل الوسائل العلمية اليسيرة التى تعين على ضبط الوقت وتحديده بحسب أقرب البلاد المعتدلة إلى الإقليم الذى لا تشرق فيه الشمس شروقاً عاديًّا . .

فى أداء الصلاة قبل الوقت

لا يجوز أداء الصلاة قبل الوقت ، ولا تصح إلاّ فى حالات خاصة محددة هى حالات جمع الصلاة جمع تقديم . وأجمع العلماء على أن الجمع بين الظهر والعصر فى وقت الظهر بعرفة سنة ، وهو جمع تقديم ، والجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة فى وقت العشاء سنة أيضاً وهو جمع تأخير ، وماعدا ذلك من ألوان الجمع غير جائز إلاّ فى وقت السفر فإنه يجوز جمع الظهر مع العصر والمغرب مع العشاء جمع تأخير ، لما أخرجه البخارى ومسلم عن أنس قال كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس – أى قبل حلول وقت الظهر أخر الظهر إلى وقت العصر – نزل فجمع بينهما ، فإن زاغت الشمس – أى حل وقت الظهر قبل أن يرتحل – صلى الظهر ثم ركب .

وما أخرجاه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ إذا أعجل السير فى السفر يؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء .

والسبب فى ذلك هو امتداد وقت الظهر والمغرب لما بعد العصر والعشاء إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وعلى ذلك فتقديم الصلاة عن وقتها لا يجوز ،وتأخير الصلاة عن وقتها لا يجوز، إلاّ فى يوم عرفة وفى السفر ، وحكم السفر فى تأخير الصلاة النوم الاضطرارى والنسيان والمرض المذهب للعقل طول الوقت ، وقد حذر الرسول ﷺ من تأخير الصلاة عن أول وقتها وبين أن فى ذلك خروجاً عن السنة وإقامة للبدعة .

ومع ذلك فإذا خرج وقت الصلاة وجب أداؤها متى تيسرت الفرصة ليسقط الفرض عن المصلى وعليه إثم التأخير إن لم يكن عذر دعا إليه . .

فى الشك فى الوضوء والصلاة

يكفى غلبة الظن بزوال آثار البول لإتمام الطهارة ولا يلزم بل يكره ، بل يحرم إعادة التطهر من النجاسة ، لأن ذلك استسلام للوسوسة ، وخروج عن حد الاعتدال ، وعليك إزالة هذا الشك من نفسك بقطع أسبابه ، وهو معاودة التطهر مرة بعد مرة .

وفى الوضوء يكفى غسل كل عضو مرة لتحقيق الطهارة ، ويندب تكرار الغسل ثلاث مرات لكل عضو ، وما عدا ذلك يعتبر إسرافاً عليك تجنبه . وإذا ما انتابك الشك فى غسل عضو ما . . أخذت بغالب الظن ، فإن غلب على ظنك عدم غسله أعدته وأعدت ما بعده ما دامت الأعضاء لم تجف ، وإلا أعدت غسل العضو الذى شككت فيه وحده أما إذا كان الشك فى وقوع الوضوء أو عدم وقوعه ، أخذت بما غلب على ظنك أو اعتمدت ما يناقض الشك ويقضى عليه .

وفى الصلاة إذا شككت فى أنك أتممت الصلاة أو بقيت ركعة أوصليت ركعتين أو ركعة بنيت على ما تيقنت أنك صليته وأكمل الصلاة ، فقد روى مالك ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا شك أحدكم فى صلاته ، فلم يدر كم صلّى ، أثلاثا أم أربعاً ، فليصل ركعة ، وليسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم ، فإن كانت الركعة التى صلّى خامسة شفعها بهاتين السجدتين وإن كان رابعة فالسجدتان ترغيم للشيطان » .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال :

« إذا شك أحدكم فى صلاته فليتوخ الذى يظن أنه نسى من صلاته فليصله ، ثم ليسجد سجدتى السهو وهو جالس » وروى مثله عن عبد الله بن عمرو على أن هذا الشك فى التطهر والصلاة بهذه الصورة لا يدل إلاّ على انصراف عن العمل وابتعاد عن التفكير فيه ، وعلى صاحبه محاولة القضاء عليه بإهماله والعمل على الظن . وجبر ما يمكن أن يكون من نقص فى الصلاة بسجود السهو كما فى الحديث .

ومما وصف لإزالة الشك قراءة المعوذتين قبل الصلاة ثلاث مرات . وقراءة : (ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون) ثلاث مرات . وقد وصفت لإزالة الشك تكرار الصيغة التالية : « سبحان الملك الخلاق . إنْ يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . .

فى وقت صلاة الصبح

وقت صلاة الصبح من طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، فإذا طلعت الشمس مضى وقت صلاة الصبح أداءً . . . ووجب قضاؤها وتصلى على أنها قضاء . .

ولا يلزم الأذان على المرء لصلاة الصبح بعد طلوع الشمس ، وإنما عليه أن يقيم لها الصلاة ، ولو كانوا جماعة غلبهم النوم فعليهم الأذان والإقامة والصلاة جماعة لما رواه البخارى بسنده عن أبى قتادة قال : « سرنا مع النبى ﷺ ... فقال : بعض القوم لو عرَّست بنا يا رسول الله ! قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة . . قال بلال : أنا أوقظكم فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه فنام ، فاستيقظ النبى ﷺ وقد طلع حاجب الشمس ، فقال : يا بلال : أين ما قلت ؟ قال : ما ألقيت علىّ نومة مثلها قط ، قال : إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء . . يا بلال : قم ، فأذن بالناس بالصلاة . . فتوضأ . . فلما ارتفعت الشمس قام فصلى » .

فى متى يمكن الجمع بين صلاتين ؟ ولماذا لا يجوز الجمع بين الصبح والظهر ولا بين العصر والمغرب ؟

يمكن الجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، وبين صلاتى المغرب والعشاء جمع تقديم بصلاة الثانية فى وقت الأولى معها أى صلاة العصر مع الظهر فى وقت الظهر ، وصلاة العشاء مع المغرب فى وقت المغرب ، ويمكن الجمع بين كل من الصلاتين جمع تأخير بصلاة الظهر مع العصر فى وقته وصلاة المغرب مع العشاء فى وقت العشاء ، وذلك كله مشروط بالسفر ، فإذا كان وصوله إلى الجهة التى يقصد إليها بعد فوات وقت العصر أو العشاء جمع جَمْعَ تقديم قبل السفر ، وإذا كان سفره قبل حلول وقت الصلاة الأولى ووصوله فى وقت الثانية جَمَعَ جَمْعَ تأخير بعد الوصول ، وذلك عند مالك والشافعى وأحمد خلافاً لأبى حنيفة وقيل يجوز الجمع بين المغرب والعشاء للمطر ، لمن يصلى جماعة بمسجد يُقصد من بعد ، لئلا يتأذى بالمطر إذا عاد مرة ثانية لصلاة العشاء .

وهل يجوز الجمع للخوف ؟ قيل نعم . والراجح أن الجمع لا يجوز ، وننتهى من ذلك كله إلى أن الجمع للسفر هو الأساس ، والجمع للمطر يجوز أحياناً عند بعض العلماء .

أما الجمع المتفق على جوازه فهو الجمع بين الظهر والعصر فى أول وقت الظهر بيوم عرفة ، والجمع بين المغرب والعشاء فى وقت العشاء بمزدلفة بعد الوقوف بعرفة والانصراف منها إلى المشعر الحرام .

والأساس فى ذلك كله التيسير على المسلم والترخيص له فى تمام العبادة فى كل الظروف . أما الجمع الذى لا يجوز فهو ما لم يكن فى إطار ما قدمناه لمن يجمع الظهر مع العصر فى وقت العصر والمغرب مع العشاء فى وقت العشاء كسلا أو تراخيا ، لأن أول الوقت رضوان الله ولأن إقامة الصلاة الإتيان بها فى وقتها المحدد لها على ما شرعها الله .

أما صلاة العصر أو العشاء قبل وقتها فلا يجوز لأن العلم بدخول وقت الصلاة بالتعيين شرط فى صحة الصلاة .

فى تحديد القبلة فى الصلاة

إن استقبال القبلة أمر ضرورى للمصلى ، فهو شرط فى صحة الصلاة وقبولها ، والله سبحانه وتعالى يقول : (فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ، ولابد من تحرى القبلة والوصول إلى العلم اليقينى ، فى ذلك من أجل أمر آخر أيضاً ، وهو أن يفرغ المصلى لتوجيه وجهه للذى فطره . فلا يكون موزع القلب بين صحة الصلاة وبطلانها ، وبين التفكير فيما إذا كان متجهاً نحو القبلة أو متجهاً إلى غير القبلة ، وأمر تحقيق القبلة الآن ميسور ، فقد وجدت الآلات التى تحدد اتجاه القبلة وهى أدوات خفيفة يمكن أن تحمل فى الجيب دون أن يكون فى ذلك إرهاق أو مشقة وقد تعددت اختراعات هذه الآلات وأصبحت متداولة بين الناس ،ولو فرضنا أنها ليست فى ميسور الطالب فيمكنه أن يشترى بوصلة ويذهب إلى أى مسجد من مساجد إنجلترا ويحدد على البوصلة فى المسجد اتجاه القبلة ، فإذا تعذر كل ذلك – ولا أظن أن يتعذر – فإنه يجتهد ما استطاع مسترشداً بآراء الآخرين ، ونحن إذ نحمد فى النهاية محاولة الطالب التحرى فى أمور دينه فإنا لنرجو له التوفيق .

فى الصلاة فوق القمر

تؤدى الصلاة ونحن فوق القمر كما تؤديها ونحن فوق الأرض ، مع مراعاة ما يحدث فوق الأرض من ظهور الفجر الصادق بالنسبة لصلاة الفجر إلى طلوع الشمس .

ومراعاة وقت الزوال وهو وقت تحول الشمس إلى جهة الغرب وتحول الظل إلى جهة الشرق إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال بالنسبة لصلاة الظهر . أما صلاة العصر فيدخل وقتها حين يصير ظل كل مثله بعد ظل الزوال إلى أن تغرب الشمس ، ووقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى وقت ظهور الشفق الأحمر ، ووقت العشاء يبدأ من ظهور الشفق الأحمر إلى ظهور الفجر الصادق ، والجانب المظلم من القمر يراعى فيه بالنسبة للصلاة المقدار الزمنى فى كل وقت ، ويمكن للذى يريد الصلاة فوق القمر أن يتجه نحو القبلة بالاستدلال بالشمس والنجم القطبى والبوصلة .

فى الصلاة فى البيت

الصلاة المفروضة فى البيت جائزة ومجزئة ، غاية الأمر أن صلاتها فى جماعة أفضل من صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة ، وصلاة المسجد أفضل من صلاة البيت وليس من المحتم على الرجل أن يؤدى الصلاة فى المسجد ، ماعدا الجمعة إلا فى مذهب أحمد لمن كان بجوار المسجد ، لحديث : لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد ، لكن الحديث لم يصح ، غير أن أحمد رحمه الله كان يقدم الحديث الضعيف على رأى الرجال . . .

فى صلاة الفريضة فى المسجد

صلاة الفرض فى المسجد أفضل أجراً وأكثر ثواباً وأرفع درجة من الصلاة فى البيت . . وقد ورد فى فضل المشى إلى المسجد والرجوع منه ما بين هذا الفضل وذلك التفاوت فى الدرجات . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أوراح أعد الله له فى الجنة نزلا غدا أو راح » . وقال ﷺ « من تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته : إحداها تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة » .

والسبب فى ذلك أن المساجد بيوت الله ، فإذا كان المرء منا يكرم من يزوره ويقدر ما تكبده من مشقة فى سبيل هذه الزيارة فالله تعالى أكثر كرماً وأعظم تفضلا على من يزوره فى بيوته الطاهرة — وهى المساجد .

ولقد كان الصحابة يسرون ببعد منازلهم عن المسجد لتكون خطواتهم إليه أكثر ومشيهم إليه أطول ، عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : « كان رجل من الأنصار لا أعلم أحدًا أبعد من

المسجد منه وكانت لا تخطئه صلاة . . فقيل له : لو اشتريت حمارًا لتركبه فى الظلماء وفى الرمضاء قال : ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد ، إنى أريد أن يكتب لى ممشاى إلى المسجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى فقال رسول الله ﷺ : « قد جمع الله لك ذلك كله » وقال ﷺ لأناس أرادوا أن ينتقلوا قرب المسجد « دياركم تكتب آثاركم . . دياركم تكتب آثاركم » فقالوا ما يسرنا أنا كنا تحوَّلنا أى انتقلنا من ديارنا البعيدة عن المسجد إلى ديار قريبة منه ، ويزداد فضل الصلاة فى المسجد إذا كانت فى جماعة كما هو معلوم . هذا وقد جعل النبى ﷺ من أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات كثرة الخُطا إلى المسجد ، وجعل المشى إليها فى الظلمات سبيلا إلى النور التام يوم القيامة . فقل : « بشر المشّائين إلى المسجد بالنور التام يوم القيامة » وقال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان . .

موقف المسلم من قراءة الفاتحة وسورة بعدها فى الصلاة

إن موقف المسلم فى الصلاة بالنسبة لقراءة الفاتحة ، وسورة بعدها فلا يخلو حاله من أمرين :

أحدهما : أن يكون مقتدياً .

وثانيهما : أن يكون منفرداً .

فإن كان المصلى خلف الإمام ، وكانت الصلاة جهرية ، لا يجوز له القراءة مطلقاً ، لا الفاتحة ولا غيرها ، عملا بقوله سبحانه :

(إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

أما فى الصلاة السرية فإنه يقرأ ما تيسر له من القرآن بعد الفاتحة . هذا بالنسبة للمقتدى .

أما بالنسبة للمنفرد فى صلاته فالواقع أن هناك شيئاً من التفصيل .

وذلك إما أن يكون المصلى ، يحسن القراءة ويحفظ شيئاً من القرآن أو لا . فإن كان يحسن القراءة ويحفظ شيئاً من القرآن ، وجبت عليه قراءة السورة ، أو آية ، أو آيات بعد الفاتحة وإن ترك ذلك وجب عليه السجود للسهو .

وإن كان لا يحسن القراءة ولا يحفظ شيئاً من القرآن مطلقاً ، جاز له أن يكتفى بالفاتحة ، وصلاته على ذلك صحيحة .

فى قراءة القرآن فى أثناء الصلاة

افترض الله على المسلم أن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا .

وليس من الفرائض إجادة قراءة القرآن إلاّ بالقدر الذى تجوز به الصلاة ، فما دام المسلم يحفظ من القرآن الكريم ، ما تصح به صلاته فلا إثم عليه فى عدم إجادة ما عدا ذلك .

غاية ما هنالك أن قراءة القرآن عبادة مرغب فيها ولها ثوابها ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

فإذا أراد المسلم أن يضاعف الله له الحسنات ويزداد قرباً من ربه فعليه بقراءة القرآن الكريم . .

فى الجمع والقصر فى صلاة السفر

السفر مظنة المشقة والتعب لذا كان من سماحة الشريعة الإسلامية ويسرها أنها رخصت فى تخفيف الصلاة على المسافر حتى لا يكون فى أدائها مشقة أو إرهاق له .

وصلاة السفر الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء يؤديها المسافر ركعتين قصراً ، وله أن يصلى جمع تقديم الظهر والعصر فى وقت الظهر ، والمغرب والعشاء جمع تأخير فى وقت العشاء .

ليكون عنده من الوقت متسع لقضاء مصالحه ومهامه فى السفر وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك فى سفره وكذلك الصحابة من بعده ، وعليه إجماع المسلمين وهى رخصة من الله سبحانه وتعالى لعباده والرسول ﷺ يقول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » والمسافر إذن يقصر ويجمع متى كان السفر أكثر من ثلاثة وثمانين كيلومتر ، والمسافر يفعل فى قيامه وركوعه وسجوده وقراءته كما يفعل المقيم ، والفرق بين المقيم والمسافر إنما هو فى إباحة جمع الظهر والعصر ، وأداء كل منهما ركعتين فقط ، وجمع المغرب والعشاء فى وقت واحد وأداء العشاء ركعتين فقط .

كيفية صلاة رسول الله ﷺ فى الليل

فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سلمة قال : « سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ فقالت : كان يصلى ثلاث عشرة ركعة يصلى ثمانى ركعات ثم يوتر ثم يصلى ركعتين وهو جالس » .

قال النووى : الصواب أن هاتين الركعتين فعلها النبى ﷺ بعد الوتر جالساً لبيان جواز الصلاة بعد الوتر وبيان جواز النفل جالساً ، ولم يواظب على ذلك ، بل فعله مرة أو مرتين أو مرات قليلة ، إذ الروايات المشهورة فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة مع روايات خلائق من الصحابة فى الصحيحين تصرح بأن آخر صلاته ﷺ فى العمل كانت وتراً وفى الصحيحين أحاديث كثيرة مشهورة بالأمر بجعل آخر الصلاة بالليل وتراً . . منها . . اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً . . صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة وبعد : فالأفضل جعل آخر الصلاة بالليل وتراً .

ويجوز عند الضرورة صلاة نفل بعد الوتر فى الليل اغتناماً للخير وتحصيلا للبركة ، ومن يخاف غلبة النوم عليه أن يوتر قبل أن ينام ، ومن يتأكد أو يغلب على ظنه اليقظة قبل الفجر يؤخر الوتر بعد اليقظة .

فى السجود فى الصلاة

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » وفى رواية : ولا يتبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » .

وروى بسنده عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك .

وعن عبد الله بن مالك بن بحينة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى فرَّج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه . . وفى رواية :

كان رسول الله ﷺ إذا سجد يجنح فى سجوده حتى يرى وضح إبطه . . أى يباعد مرفقيه وعضديه عن جنبه .

وهذه الأحاديث تدل على أنه ينبغى للساجد أن يضع كفه على الأرض ويرفع ذراعيه عن

الأرض وعن جنبه رفعاً بليغاً بحيث يظهر باطن إبطيه إذا لم يكن مستوراً .

وقال النووى : « وهذا أدب متفق على استحبابه فلو تركه كان مسيئاً ، والنهى للتنزيه ، والصلاة صحيحة ، » ولا يخفى أن متابعة السنة خاصة فى مثل هذا المظهر التعبدى أولى وآكد .

فى كيفية السجود

نعم هناك ما يمنع من بسط الذراع كلها على الأرض عند السجود فى أثناء الصلاة لما ورد فى النهى من ذلك وتقبيحه : فقد قال ﷺ :

« اعتدلوا فى السجود ، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب » وقال ﷺ : « إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك » .

وكان ﷺ إذا سجد فرج ، أى وسّع بين يديه وجنبه حتى يبدو قريباً من إبطيه .

وفى ذلك كله ما يفيد أهمية رفع الذراعين والامتناع من بسطها على الأرض قال الإمام النووى : والمقصود من هذه الأحاديث أن يضع الساجد كفيه على الأرض ويرفع مرفقيه – أى ذراعيه – عن الأرض وعن جنبيه رفعًا بليغاً بحيث يظهر باطن إبطيه إذا لم يكن مستوراً ، وهذا أدب متفق على استحبابه فلو تركه كان مسيئا ، والنهى للتنزيه وصلاته صحيحه .

والحكمة فى هذا . أنه أشبه بالتواضع وأبلغ فى تمكين الجبهة والأنف من الأرض ، وأبعد من هيئات الكسالى ، فإن المنبسط يشعر حاله بالتهاون بالصلاة وقلة الاعتناء بها والإقبال عليها .

ومع ذلك فإنه لو بسط ذراعيه على الأرض فى السجود فإن ذلك لايفسد الصلاة وصلاته صحيحة ولكنه خلاف السنة .

فى قوله ﷺ سُبُّوح قُدُّوس فى سجوده

س : أسمع بعض الناس فى سجودهم يقولون : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ فلا أفهم لها معنى فهل ذلك وارد فى الشرع وما معناهما ؟

جـ : سبوح : من صفات الله تعالى ، قال صاحب القاموس :

سبوح قدوس : من صفاته تعالى ، لأنه يُسبَّحُ ويُقدّسُ . وقال صاحب المختار : سبوح من صفات الله تعالى : وقال صاحب القاموس : وسبحان الله تنزيهاً لله من الصاحبة والولد معرفةٌ ، ونُصِبَ على المصدر أى أبرِّئُ الله من السوء براءة ، أوْ معناه السرعةُ إليه والخفة فى طاعته . هذا

كلام صاحب المختار وصاحب القاموس .

ولو نظرنا إلى أصل الاشتقاق لوجدنا أن كلمة سبوح تفيد معنيين :

الأول التنزيه . . والثانى السرعة . وهما بالنسبة إلى الله تعالى : يفيدان تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وسرعة الاتجاه والوصول إليه وعلى هذا فمعنى سبحان الله : أنزه الله تعالى عما لا يليق به ، وأتوب إليه وأتصل به مسرعاً .

وهل سبوح قدوس معناها أسبح الله وأنزهه عما لا يليق به ؟ سبوح قدوس أبلغ من أسبح الله وأنزهه عما لا يليق به ، لأن المعنى المصدرى يفيد التأكيد بخلاف الفعل فإنه لا يفيده . .

وفى صحيح مسلم : عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه وسجوده : سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

هل ورد أن رسول الله ﷺ كان يقول فى سجوده شيئاً آخر ؟

ورد أنه ﷺ كان يقول : أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

ويصح أن يقول الإنسان الدعاء الذى علّمه رسول الله ﷺ لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : وهو : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلاّ أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

فى سجود السهو

لا يجب سجود السهو عند نسيان سنة من سنن الصلاة كدعاء الاستفتاح وغيره من السنن ، ولا يجب السجود على مذهب الشافعية إلاّ فى حالة واحدة وهى ما إذا كان المصلى مقتدياً وسجد إمامه سهواً ففى هذه الحالة يجب عليه أن يسجد تبعاً لإمامه فإن لم يفعل عمداً بطلت صلاته ، ووجب عليه إعادتها ، إن لم يكن قد نوى المرافقة قبل أن يسجد إمامه ، ويكون السجود سنة فى حق المنفرد .

فى صلاة الصبح والفجر والضحى

س : ما هى صلاة الصبح وصلاة الفجر وصلاة الضحى ؟

جـ : صلاة الصبح هى الصلاة المفروضة المحدد وقتها بطلوع الفجر الصادق إلى طلوع

الشمس ، وهى ركعتان : القراءة فيها جهرية ومن السنة طول القراءة فيها وإتيانها فى جماعة لقوله ﷺ : « ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبْواً » .

أما صلاة الفجر فهى سنة الصبح ، وهى ركعتان خفيفتان ، القراءة فيها سرية وتصلى قبل صلاة الصبح وبعد أذان الفجر – وقد وردت أحاديث صحيحة فى بيانها منها ، ما رواه الإمام مسلم بسنده عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتى الفجر إذا سمع الأذان ويخففها » وقد ورد ما يفيد هذا التخفيف فيهما ، روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ فى ركعتى الفجر : (قل يأيها الكافرون) ، و (قل هو الله أحد) .

وقد حث الرسول ﷺ على هاتين الركعتين فقال :

« ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » وإذا كان هذا فى النفل فما بالك بالفرض ؟ . . هذا وقد شرف الله صلاة الفجر ووقته فأقسم بها . قال تعالى (والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر) .

وأما صلاة الضحى فهى صلاة تؤدى فى وقت الضحى أى وقت ارتفاع الشمس أول النهار ، وهى سنة ورد فيها فضل كبير وأجر عظيم قال ﷺ :

« يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعها من الضحى » .

والسلامى العرق والمفصل ، ولن يستطيع الإنسان الوفاء بحق كل عرق ومفصل من الصدقات ، ومن هنا كانت أهمية صلاة الضحى ، إنها تكمل للإنسان ما لم يستطع تحقيقه من الصدقات ، وبدونها يكون مقصراً فيما طلب منه أداؤه والقيام به وقد أوصى الرسول ﷺ بصلاة الضحى أبا هريرة وأبا الدرداء ، وأقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة . . وأكثر ما نقل عن النبى ﷺ فيها أنه صلاها ثمانى ركعات .

فى صلاة الفجر

صلاة الفجر ركعتان بعد أذان الفجر ، والقراءة فيها سرية ، وهى نافلة الصبح وليست فرضاً .

وورد فى الترغيب فيها الكثير ، وهى بنص الأحاديث خير من الدنيا وما فيها . أما صلاة

الصبح فركعتان والقراءة فيها جهرية ، وهى الفرض المطلوب ، وإحدى الصلوات الخمس اللاتى كتبهن الله على العباد .

ووقت صلاة الفجر بعد أذان الصبح إلى طلوع الشمس ، وهو وقت صلاة الصبح الذى يحرم تأخير الصلاة عنه إلاّ لعذر ، والعذر المقبول يحدده قول الرسول ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يبرأ وعن الصبى حتى يكبر » وقوله : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

فإذا ما طلعت الشمس كانت صلاة الصبح قضاء ، ومع ذلك مسقطة الفرض عن صاحبه ، وصلاة الفجر تصلى إذا لم يحل وقت الظهر بعد صلاة الصبح .

فى فضل ركعتى الفجر

ذكر الإمام مسلم فى صحيحه جملة من الأحاديث فى فضل ركعتى الفجر والحث عليهما ومن هذه الأحاديث :

عن حفصة – رضى الله عنه – قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر لا يصلى إلاّ ركعتين خفيفتين .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتى الفجر إذا سمع الأذان ويخففها ، وعنها رضى الله عنها أن النبى ﷺ لم يكن على شىء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح ، وعنها أن النبى ﷺ قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » ، وفى هذه الأحاديث دلالة على فضل هاتين الركعتين وعلى أنهما من السنن الهامة التى يحرص عليها الإسلام .

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ صلى ركعتى الفجر بعد طلوع الشمس فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة قال ما معناه : عرسنا – أى نزلنا آخر الليل للنوم مع نبى الله ﷺ فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس وأمر النبى ﷺ بالتأهب للرحيل ثم دعا بالماء فتوضأ ثم سجد سجدتين أى السنة – ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة – أى الصبح . وفى رواية لمسلم بسنده عن أبى قتادة أن النبى ﷺ استيقظ والشمس فى ظهره أى بعد أن طلعت وارتفع قرصها ، وفيه : فصلى رسول الله ﷺ ركعتين : أى السنة ثم صلى الغداة أى الصبح وعلى ذلك فعلى المسلم إذا استيقظ بعد طلوع الشمس أن يصلى ركعتى الفجر ثم يصلى الصبح كما فعل الرسول ﷺ . .

فى حكم من ترك القنوت

ما حكم من ترك القنوت ؟

إن القنوت سُنة عند صاحبها أبى حنيفة وأحمد ، وعند الشافعى ، وعند مالك مندوب ، وقد اختلفوا فى وقته .

وعلى كل فلا تبطل الصلاة بتركه ويسجد سجود السهو .

فى من أدرك ركعة من المغرب

من أدرك ركعة من المغرب – يقوم بعد تسليم الإمام فيصلى ركعة يقرأ فيها جهراً بالفاتحة وبعض آيات من القرآن ثم يتشهد فى هذه الركعة التشهد الأول للصلاة ، حيث إنها الركعة الثانية بالنسبة إليه شخصيًّا ثم يقوم من التشهد فيصلى الركعة الثالثة ويقرأ فيها جهراً بفاتحة الكتاب وبعض القرآن . . ويتشهد التشهد الأخير .

وبذلك يكون قد صلى ثلاث ركعات بثلاثة تشهدات : الأول اقتضته ضرورة متابعة الإمام ، والثانى والثالث التشهدان الأصليان فى الصلاة ، والقاعدة فى قضاء ما فات من الصلاة ، كما قال المالكية : أن يبنى على الأفعال فيعتبر نفسه حال القضاء كأنما كان يصلى ما صلى مع الإمام منفرداً ويبنى عليه ويكمل الصلاة ، ويقضى ما فاته بحسب الوضع العادى الطبيعى .

فى صلاة الشفع والوتر وركعتى الفجر

صلاة الشفع والوتر وركعتى الفجر حكمها أنها سنة مؤكدة فهى آكد السنن التى واظب عليها رسول الله ﷺ .

والشفع يكون بعد العشاء وهو ركعتان ، والوتر ركعة واحدة فتكمل ثلاث ركعات .

أما ركعتا الفجر فتصليان قبل صلاة الصبح ، وقد ورد فى الترغيب فيهما وفى فضلهما كثير من الأحاديث الصحيحة ومن ذلك ما رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن عائشة قالت : « لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل أشد معاهدة من الركعتين قبل الصبح .

وروى أحمد ومسلم والترمذى عن عائشة أيضاً أن النبى ﷺ قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

فى سنة المغرب

سنة المغرب المؤكدة ركعتان بعده ، ويندب ست ركعات بعد صلاة المغرب خلاف السنة المؤكدة – وهذا عند الحنفية – وعند الشافعية ركعتان بعد المغرب سنة مؤكدة وركعتان قبل المغرب غير مؤكدة ، ويسن تحقيقها وفعلها بعد إجابة المؤذن لحديث : بين كل أذانين صلاة ، والمراد الأذان والإقامة ويقول المالكية : إن من السنة الراتبة ست ركعات بعد صلاة المغرب وهى مندوبة ندباً أكيداً .

فى صلاة الوتر

يجوز صلاة ثلاث ركعات من الوتر بسلام واحد عند الشافعى وأحمد ، والحنفيون يعتبرون هذه الصورة – من صور صلاة الوتر مع التشهد فى الوسط دون سلام كصلاة المغرب – أمراً لا يجوز سواه ، ويستدلون على ذلك بما روى عن علىّ أن رسول الله ﷺ كان يوتر بثلاث . . أخرجه أحمد والترمذى . واستدلوا أيضاً بما روى عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يوتر بثلاث لا يسلم إلاّ فى آخرهن » .

وقال مالك : الوتر ركعة واحدة يسبقها شفع ، أى صلاة ركعتين فأكثر من الركعات المزدوجة لا المفردة .

ويمكن القول بأن الأدلة الصحيحة فيما يتصل بعدد ركعات الوتر قد تفاوتت وتعددت ، فروى أنه ركعة واحدة بعد ركعات مزدوجة ، وروى أنه ثلاث ركعات متصلة ، سواء سبقها نفل أو لا .

وروى أنه خمس ركعات متصلة متتابعة لا جلوس إلاّ فى آخرها قبل السلام ، وروى أنه سبع ركعات متصلة .

وكل هذه الروايات صحيحة صريحة وكلها سنة . والعمل بأيها على سبيل الاتباع يجزئ ولا ضرورة للاختلاف ما دام قد ثبت أن رسول الله ﷺ فعل هذه الصور ليبين للناس أنها كلها صحيحة ، وهى من السنة .

فى هل بعد الوتر صلاة ؟ وهل ورد شىء فى فضل صلاة الليل ؟

يسأل كثير من الناس فى هذا الموضوع :

والأصل فيه ما رواه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من خاف أن يقيم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره ، فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة الليل مشهودة وذلك أفضل . وكان للصحابة عادات فى ذلك معروفة ، فقد روى الإمام مالك عن سعيد بن المسيب أنه قال : « كان أبو بكر الصديق إذا أراد أن يأتى فراشه ، أوتر ، وكان عمر بن الخطاب يوتر آخر الليل » قال سعيد بن المسيب : فأما أنا ، فإذا جئت فراشى أوترت ، وقديصلى بعض الناس الوتر فى أول الليل خشية ألا يستيقظ من آخره وينام بعد الفراغ من صلاته ثم يستيقظ فى أثناء الليل ، ويمنحه الله نشاطاً ويرزقه قوة على العبادة وانشراحاً للصلاة ، وعلى هذه الحالة له أن يصلى ما يشاء الله له ، وليس عليه أن يعيد الوتر ، يقول الإمام مالك : « من أوتر أول الليل ثم نام ثم قام فبدا له أن يصلى فليصل مثنى مثنى » ويقول صاحب بداية المجتهد : ذهب كثير من العلماء إلى أن المرء إذا أوتر ثم نام فقام يتنفل فإنه لا يوتر ثانية لقوله عليه الصلاة والسلام ، لا وتران فى ليلة .

أما عن فضل صلاة الليل فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أفضل الصيام بعد رمضان شهر المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل صلاة الليل ، وهى تفسير وشرح لما ورد فى القرآن أمراً لرسول الله ﷺ باعتباره قدوة أو ورد وصفاً للصالحين ، ومن ذلك قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وقوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

فى أداء صلاة التراويح

لا تؤدى صلاة التراويح إلاّ فى ليالى رمضان فقط ، فإذا انقضت ليالى رمضان فقد انقضى وقت التراويح حتى للذين عليهم قضاء رمضان كله أو شىء منه والدليل على ذلك قول النبى ﷺ فيما رواه مسلم فى صحيحه : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه » .

وقيامه هو صلاة التراويح ، أما الذين يصومون فى غير رمضان فليس لهم إلاّ قيام الليل ، فإنه

نافلة عامة فى جميع ليالى السنة كلها ، وردت بها نصوص الكتاب الكريم والسنة الصحيحة .

قال الله تعالى : (إنَّ المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل مايهجعون) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل ، قال سالم فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام الليل إلا قليلا » متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » رواه مسلم .

فى صلاة العيدين

صلاة العيدين سنة مؤكدة وليست واجباً أى فرضاً ، لأن الصلوت قد حددها الرسول ﷺ بخمس فى كثير من الأحاديث الصحيحة ، كحديث الأعرابى حينما أخبره ﷺ عن فريضة الخمس الصلوات فى اليوم والليلة فقال هل علىّ غيرها ؟ قال لا : إلاّ أن تطوّع ، وما ورد فى حديث الإسراء هن خمس أى فى العمل وهن خمسون أى فى الأجر .

ومن لم يدرك صلاة العيد يقضيها فى وقت من أوقات إباحة صلاة النفل . أمّا عن حكم القضاء فهو تابع لحكم صلاة العيد نفسها . من أنها سنة مؤكدة .

فى سن تعجيل صلاة عيد الأضحى وتأخير صلاة عيد الفطر

السبب فى ذلك أن يوم الأضحى يوم يضحى فيه المسلم بالذبائح والذبح يكون بعد الصلاة لا قبلها ، فلو تأخرت الصلاة لتوهم بعض الناس انتهاءها ، فبادر بالذبح قبل الصلاة ففسدت الأضحية ولم تؤد عن صاحبها ، وصارت لا تزيد على كونها لحماً لا يختلف عن اللحم المذبوح فى غير أيّام العيد ، لم يستوف شروط القربة ولم تجتمع فيها شروط القبول ، ومما يوضح ذلك ويقرره ما رواه البخارى بسنده عن البراء قال سمعت النبى ﷺ يخطب فقال : « إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا » . وفى رواية للبخارى عن البراء قال خطبنا النبى ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك له » فقال أبو بردة بن نيار

خال البراء : يا رسول الله إنى نسكت شاة قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب ، وأحببت أن تكون شاتى أول شاة تذبح فى بيتى فذبحت شاتى وتغديت قبل أن آتى الصلاة قال : « شاتك شاة لحم » .

أما تأخير صلاة عيد الفطر فذلك ليأكل قبل أن يخرج فيخالف عادة الصيام بالأكل بعد طلوع الفجر : عن أنس بن مالك فيما رواه البخارى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ، ولم يكن الأكل قبل الخروج لصلاة عيد الفطر كثيرًا بل كان يسيرًا يشعر بالاستجابة لأوامر الله تعالى والشكر له ، ولو كان الأكل للقضاء على الجوع أو لمتابعة حاجة الجسد إلى الطعام لما اقتصر على التمرات ولو قل بالطعام إلى حد الشبع .

وما ينبغى التنبيه إليه أن صلاة العيد لا تصلى قبل طلوع الشمس ولا عند طلوعها ، وإنما بعد طلوعها بوقت تحل فيه النافلة ، أى بعد أن ترتفع عن مطلعها قدر ذراع ، والفرق بين وقت صلاة عيد الأضحى وعيد الفطر ليس بكثير ..

فى تكبيرات صلاة العيد

تكبيرة الإحرام فى الافتتاح لصلاة العيد تكون بقول الله أكبر ، بعد نية صلاة العيد . والقيام لها وهى فى ذلك لا تختلف عن أى صلاة عادية .

ولكن صلاة العيد تتميز بتكبيرات أخرى عدا تكبيرة الإحرام فى الركعة الأولى وعدا تكبيرة القيام فى الركعة الثانية .

ويرى الشافعية : ومن وافقهم أن عدد التكبير فى صلاة العيد سبع تكبيرات فى الركعة الأولى غير تكبيرة الإحرام ، وخمس فى الثانية غير تكبيرة القيام .

ويرى المالكية ومن وافقهم أن التكبير فى صلاة العيد سبع فى الأولى بتكبيرة الإحرام وخمس فى الثانية غير تكبيرة القيام ويستحب الفصل بين كل تكبيرتين فصلا يتميز به العدد ويتمكن المأمومون من ترديد التكبير .

وقال الشافعى وأحمد : يستحب الذكر بين كل تكبيرة وأخرى بأن يقول : سبحان الله والحمد لله : ولا إله إلاّ الله والله أكبر .

والاختلاف فى التكبير إنما اختلاف فى عد تكبيرة الإحرام منها أو عدم عدها ، والصورتان صحيحتان وكل منهما جائز .

فى ذهاب النساء إلى صلاة العيد كما يذهبن إلى الجمعة

لا يجب على النساء الذهاب إلى صلاة الجمعة ويجوز لهن إذا أمنت الفتنة عليهن أوالفتنة بسببهن حضور الصلاة وأداؤها ولا يجوز لرجل منعهن من هذا الحضور .

وإذا كانت النساء فى هذا العصر قد تغلغلن فى كثير من شئون الحياة ، ودخلن فى كثير من المجالات وأصبحن يحضرن فى أكثر الأماكن العامة – ولو كان مما يصرف عن الدين – كالسينما ونحوهما – فإن فى ذهابهن إلى المساجد لحضور صلاة الجمعة تدعيم لإيمانهن وتقوية لدينهن وزيادة فى عملهن بما يستمعن إليه من آيات الله وأحاديث الرسول ﷺ وتعاليم الدين الرشيدة فى خطبة الجمعة ، ولهن الثواب على هذا الانتفاع ، خاصة وقد اتسعت المساجد وتحددت فيها أماكن خاصة للسيدات بل لقد خصصت مساجد خاصة لصلاة النساء .

وقد ورد عن السلف ما يفيد ذلك ، فقد ورد أن ابن عمر رضى الله عنه روى عن رسول الله ﷺ قال : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، فقال ابن له : والله لنمنعهن فقال له : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول والله لنمنعهن ؟ والله لا أكلمك أبدًا ولم يكلمه حتى مات .

إذا لم تذهب النساء لحضور الجمعة وإذا خيفت الفتنة من ذلك الحضور فصلاة الجمعة بالنسبة إليهن هى صلاة الظهر أربع ركعات ، ويسقط بأدائها عنهن الفرض .

وواجب النساء فى الذهاب إلى صلاة الجمعة لبس الملابس السابغة الواسعة وأن يكون شعورهن فى الذهاب أداء الواجب الدينى ، وقد كانت زوجة سيدنا عمر رضى الله عنها وعنه تذهب إلى المسجد على هذه الصورة وكان لا يمنعها .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام عناية الإسلام بحفظ كرامة النساء والعمل على منع كل ما يمكن أن يصيبهن من مضايقات ، وفى نفس الوقت حرصه على منع العبادة من أن يتطرق إليها ما يفسدها أو يخرج بها عمّا حُدَّ لها من حدود .

أليس من ذلك ما يشير إلى وجوب احترام المرأة لتعاليم دينها وبعدها عن كل ما يسبب الخروج عن هذه التعاليم فى الزى أو فى السلوك أو الاجتماع والاختلاط ، ثم إنّ فيه أيضاً وجوب تجريد العبادة من كل خروج عن حدودها أو الابتعاد بها عن كل مالا يتوفر لها من أجواء .

صلاة العيدين تخرج النساء إليها ليتدعم الإيمان وتعم الفرحة ، وروى البخارى وغيره عن أم عطية قالت : أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور أى البالغات من النساء والمحتجبات فى ذلك اليوم ، وقد بين ﷺ علة ذلك فقال : يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، وزاد فى تأكيد خروج

النساء فى ذلك اليوم فقال : من ليس عندها جلباب تخرج به لتلبسها صاحبتها من جلبابها فيشهدون الخير ودعوة المسلمين .

وكل ذلك ما لم تخرج المرأة من حدود الشرع فى اللباس أو الوقار ، وإلا منعت من الخروج .

فى الزوجة التى خرجت متزينة لصلاة العيد

الزوجة التى خرجت لصلاة العيد فى أحسن ملابسها وطيبها لا إثم عليها ما دامت غير متبرجة لأمر النبى ﷺ بإخراج النساء العواتق وذوات الحيض يوم العيد يشهدن العيد والصلاة والتكبير واجتماع المسلمين فإن كانت متبرجة فهى آثمة ولاحقّ لها فى الخروج ولو بإذن زوجها .

فى صلاة العيدين من السنة أن يعود المصلون من طريق غير الطريق التى ذهبوا منها إلى المصلى . .

روى الإمام البخارى بسنده عن جابر قال :

كان النبى ﷺ إذا كان يوم عيد خالفَ الطريق . وأخرج أبو داود والبيهقى والحاكم (بسند رجاله الثقات) – عن ابن عمر أن النبى ﷺ أخذ يوم العيد فى طريق ثم رجع فى طريق آخر . .

السُّنّة إذن هى المخالفة بين الطريقين ، وإن جاز عدم المخالفة لما رواه أبو داود والحاكم والبيهقى عن بكر بن مبشر الأنصارى قال :

كنت أغدو مع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المصلى يوم الفطر ويوم الأضحى فنسلك بطن بطحان حتى نأتى المصلى فنصلى مع رسول الله ﷺ ثم نرجع من بطن بطحان إلى بيوتنا .

أما السبب فى تغيير طريق العودة أو الرجوع من المصلى فى العيد فيشمل وجوهاً متعددة منها :

١ – أنه فعل ذلك ليشهد له الطريقان ، وسكانهما من الجن والإنس .

٢ – وقيل ليسوى بينهما فى مزية الفضل بمروره فيهما أو فى التبرك به أو ليشم رائحة المسك من الطريق التى يمر بها لأنه كان معروفاً بذلك .

٣ – إن ذلك كان لإظهار شعار الإسلام فى الطريقين برفع الصوت بالذكر وإظهار الشكر لله على العيد .

٤ – ومن أسباب ذلك عموم السرور به ﷺ فى هذا اليوم والتبرك بمروره ورؤيته والانتفاع به

فى قضاء حوائجهم فى الاستفتاء والتعلم والاقتداء والاسترشاد والصدقة على المستحقين والسلام عليهم وغير ذلك .

٥ – ويمكن أن يضم إلى ذلك التفاؤل بتغير الحال إلى تمام الرضا وكمال المغفرة .

وأجمل ما قيل فى ذلك قول أبى جمرة رحمه الله : هو فى معنى قول يعقوب لبنيه : (لا تدخلوا من باب واحد) فأشار إلى أنه فعل ذلك حذر إصابة العين .

وقد كان الرسول ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما .

ويمكن أن نضم إلىما تقدم أن الناس كانوا يسيرون خلفه ، فلم يكن ليشق على نفسه وعليهم بالنفاذ من بينهم ، وتحويل اتجاههم ، ولذلك كان يسير فى طريق آخر باعتباره امتداداً لطريق القدوم بدلا من إعادة تنظيم السير ، والعودة إلى الخلف . . . .

فى صلاة الاستخارة

روى الإمام البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال :

كان النبى ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كالسورة من القرآن إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : « اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ، ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال : فى عاجل أمرى وآجله – فاقدره لى . . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى – أو قال فى عاجل أمرى وآجله – **فاصرفه** عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ويسمى حاجته » .

والمقصود فى هذه الاستخارة أساساً هو الدعاء ، وهذه الصلاة تهيئة وتمهيد لهذا الدعاء . وأفاد النووى أنه يقرأ فى الركعتين (الكافرون والإخلاص) أى لما فيها من الإخلاص والتوحيد مما يعين على صحة الاستخارة .

قال العراقى : ومن المناسب أن يقرأ فيهما مثل قوله : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

وقال ابن حجر : الأكمل أن يقرأ فى كل ركعة السورة مع الآية .

وهذا كله يدل على أن المرء فى الصلاة والدعاء ينبغى أن يكون طالباً من الله أن يختار له الخير ، وأن يهيئ له أسباب السعادة والتوفيق . .

فى سجدة التلاوة

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول : ويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » .

وفى القرآن الكريم بضع عشرة آية ذكر فيها السجود أو الركوع ، وشرع عند تلاوتها أو سماعها السجود من التالى والسامع طاعة للأمر واقتداء بالصالحين ورمزاً لتقديس الله وتعظيمه والخضوع له ، وذكراً لجلاله ، وشكراً لنعمه ، وابتغاء لرحمته وخشية لعذابه .

والسجود من أعمق الإشارات لمعانى العبودية والتذلل والخضوع لله العلى الكبير ويلزم لسجود التلاوة ما يلزم للصلاة من الطهارة فى البدن والثوب والمكان واستقبال القبلة ونحو ذلك ، غير أنه لا تشهُّد له ولا تسليم .

وقد نص بعض الفقهاء أن سجدة التلاوة لا تجب عند السماع من الصدى . . فلعل سماعها من المذياع كذلك حكاية للصوت الملتقط المختزن وبناء على ذلك يرجح أن من سمعها من المذياع أو التليفزيون من المتكلم نفسه ساعة نطقه لا من الشريط الذى يستعاد -- فإنه يكلَّف بالسجود . ومن تلاها فى الصلاة سجد هو والمقتدون به ، ثم عاد إلى حيث كان من الصلاة . .

فى جهر المرأة عند قراءتها فى الصلاة

جهر المرأة عند قراءتها فى الصلاة -- ينبغى أن يكون بحيث تسمع نفسها أو نفسها ومن يليها ، أما رفع الصوت كالرجال فمكروه ، وصوت المرأة ليس بعورة .

وهناك نوعان من الكلام : الكلام العادى الجادّ الذى لا تكسّر فيه ولا تمطيط ، بحيث يسمعه السامع فلا يستشعر غرابة ولا يجد فيه مظهراً من مظاهر التكلف .

وهناك الكلام المرقق الممتلئ بالتكلف وإظهار نغمات الصوت المثير للأحاسيس والغرائز .

وقراءة القرآن للمرأة إذا لم تكن عالمة بأحكامها كثيراً ما تخرج عن اللون المتوازن إلى اللون غير المتوازن فيثير الصوت ما لا ينبغى إثارته ، ويخرج بجوها عن جو الصلاة .

وقد أرشد الله سبحانه إلى الفرق بين النوعين فى قوله :

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً) .

قال القرطبى : أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يظهر فى القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ، كما كانت الحال عليه فى نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ، مثل كلام المربيات والمومسات فنهاهن عن مثل هذا .

فى شرائط صلاة الجمعة

يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

ويقول سبحانه وتعالى : ناصحاً ومحذراً : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين) .

فالغرض من يوم الجمعة هو صلاة الجمعة فى وقت الظهر على من استكمل شرائطها وهو أن يكون مقيماً خالياً من الأمراض وأن يكون بالغاً عاقلا ولا يكون على ثغر من ثغور المسلمين مجاهداً فى سبيل الله ، فإن المجاهد فى سبيل الله لا جمعة عليه إذا كان عدم وجوده يضر بالمسلمين ووجوده فى حراسة ما لابد من حراسته يجوز معه ترك الجمعة وأداؤها ظهراً ، فمن استكمل شرائط الجمعة ولم تكن لديه أعذار شرعية مانعة وجب عليه صلاة الجمعة لا يعفيه عنها أى شغل ويجب على المسئولين عن العمل أن يهيئوا الفرصة لصلاة الجمعة ، وأن يعوضوها بوقت آخر فهى لا تعد أن تكون ساعة كل أسبوع وتركها معصية .

فى طهارة المكان الذى تؤدى فيه الصلاة

من شروط صحة الصلاة طهارة المكان واستقبال القبلة ، فمتى كان المكان طاهراً واستقبال القبلة متحققاً صحت الصلاة فى أى مكان ولو كان ذلك المكان بَيْتَ مسيحىٍّ قال عليه الصلاة والسلام : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » فأيما عبد مسلم أدركته الصلاة فليصل ولا حرج فى ذلك وربما كانت الصلاة فى بيت المسيحى داعية له إلى التأمل فى وقوف المسلم بين يدى ربه على طهارة كاملة مستقبلا القبلة يناجيه بكلامه ويوحده ولا يشرك بعبادته أحداً من خلقه ربما كان ذلك داعياً له إلى التأمل فيما هو عليه ، والمقارنة بين هذه العبادة فى بساطتها وصحتها فى أى مكان وبين الطقوس التى لا يجوز له أن يؤديها إلاّ فى الكنائس وبواسطة القسيس ، فيهديه بذلك إلى الطريق الحق ويرشده إلى الصواب فى العبادة ويفتح له باب الخير والسعادة .

فى شد الرّحال إلى المساجد

روى أحمد والبخارى ومسلم : وغيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد :

المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » والسبب فى ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام » .

وما عدا ذلك من المساجد هل يوجد تفاضل بينهما يبيح للمسلم أن يترك أحدها إلى غيره .

يروى البخارى وغيره عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يأتى مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً فيصلى ركعتين .

واستدل بعض العلماء بذلك على أن أفضلية المساجد بحسب القدم ، فالقديم أولى من غيره بالصلاة فيه .

ولكن زيارة الرسول ﷺ لمسجد قباء إنما تفيد الجواز ولا تفيد التفضيل وإلا لداوم على ذلك .

وقيل أفضل المساجد ماكثر جمعه ، وقيل ما بعد لكثرة الأجر ، وقيل ما قرب لعدم العسر .

والذى نراه أن ذلك أمر جائز بشرط ألاّ يكون مَن يترك المسجد الذى يوجد فى الحى إماماً يحتاج إليه أهل حيه ، وبشرط ألا يحدث ترك المسجد تشويشاً على إمام المسجد أو على المصلين ، يتركه شخص يزعم أن الصلاة فى غيره من المساجد البعيدة عن الحى أفضل .

فى أداء صلاة الجمعة فى جماعة

نؤدى – نحن المسلمين – صلاة الجمعة فى جماعة لأن الجمعة لهم بمثابة عيد أسبوعى يجتمعون فيه لله وللتوجه إليه والتشاور فى أمورهم ، ولهذا شرعت لها الخطبة ، ومن لم يدرك صلاة الجمعة فى جماعة فلاحظ له فى الجمعة ولا يصليها ركعتين بل يؤديها ظهراً ، ومن تعمد ترك الجمعة واكتفى بصلاة الظهر بدلا منها فهو آثم والله أعلم .

فى صلاة الجمعة فى المذهب الشافعى

لا يجمع بين صلاة الجمعة والظهر فى المذهب الشافعى إذا لم تزد المساجد التى تقام فيها الجمعة عن حاجة البلد الذى تعددت فيه المساجد ، فقد كان الإمام الشافعى بالعراق لا يصلى الظهر بعد الجمعة لعدم زيادة المساجد عن حاجة البلد .

أما لو زادت المساجد التى تصلى فيها الجمعة فى البلد الواحد عن حاجة أهل ذلك البلد فإنه لا بد حينئذ من صلاة الظهر ، لأن صلاة جمعة من تأخروا عن غيرهم فى الركعة الأولى باطلة ، وهو أمر غير معروف للمصلين جميعاً فتعاد صلاة الظهر بعد الجمعة فى البلد الذى تعددت مساجده لغير حاجة احتياطاً .

فى خطبة الجمعة

خطبة الجمعة موعظة وتذكير للمسلمين فى أمور دينهم وبيان للوضع السليم فى كل ما يحدث فى المجتمع من انحرافات وإذا كانت الغالبية العظمى من المصلين لا تفهم اللغة العربية فإن فائدة الخطبة تضيع ويصبح إلقاؤها عبثاً ومن أجل ذلك فإنه على الخطيب الذى يخطب الجمعة فى مجتمع لا يفهم اللغة العربية أن يلقى أولا كلمة موجزة كل الإيجاز ، يبدؤها بحمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ ، ويوصى بتقوى الله ، ويقرأ شيئاً من القرآن ويدعو للمسلمين . ويكفى مقدار أربع دقائق مثلا لذلك ، وفى هذا من الفائدة أن يذكّر الناس ثم يبدأ فى إلقاء خطبة تامة بلغة القوم الذين يخاطبهم ، فيؤدى بذلك جميع ما يتطلبه الموقف الشرعى من قراءة القرآن باللغة العربية فى الخطبة التى بدأ بها ومن الموعظة والنصيحة بلغة القوم فيما تحدث به بعد ذلك .

أما كون خطبة الجمعة فرضا أم سنّة فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنها فرض ، وهى شرط فى صحة الصلاة وركن من أركانها .

فى حكمة فرض الجمعة

إن من حكمة فرض الجمعة أموراً منها : الاجتماع للتعارف والتآلف ، والمودة والتشاور بين المسلمين بعضهم لبعض ، والتعاون فيما بينهم ، ومنها الاجتماع فى فترة من فترات الأسبوع على ذكر

الله ، ومنها سماع خطبة الجمعة ، وخطبتها موعظة وعبرة وتذكير بالله ، وخطبة الجمعة فى الوضع السليم درس أسبوعى من فوق المنبر ، إنها تعليم للجاهل ، وتبصرة للمسترشد ، وتذكير للغافل .

ولابد أن ينصرف الناس قسراً لتجديد الإيمان عن طريق درس بصورة جبرية هو خطبة الجمعة ، لابد من صرفهم عن الانغماس فى المادة بصورة اضطرارية ليسمعوا ما يذكِّرهم بالدار الآخرة وما يبصرهم بأمور دينهم .

ولهذه المعانى وغيرها يؤدى المسلمون صلاة الجمعة جماعة .

وعن هذه المعانى وغيرها يقول الله سبحانه : (يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) .

فى أداء صلاة الفريضة فى مسجد الجمعة الذى يجتمع فيه المسلمون

لا مانع من أداء صلاة الفريضة فى مسجد غير مسجد الجمعة الذى يجتمع فيه المسلمون ، و من النعم الإلهية التى افتخر بها الرسول ﷺ وبين أنه فُضل بها على الأنبياء أن الأرض كلها جُعلت له مسجداً وطهوراً ، يصلى فى أيها شاء ما دام المكان طاهراً ، وما دام لم يرد نهى من الصلاة فيه أوكراهية لفعلها فوقه ، كالمقابر والمجازر وما إلى ذلك .

وما دام المسجد قد بنى للصلاة فيه حلت فيه صلاة الجماعة ، ووجب على المسلمين عمارته بالعبادة والأذان والصلاة فيه ، ولا يحل لهم هجره أو تخريبه تحت أى دعوى ومع أى شعار ، مادام المسجد لم يقصد به الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم وثلم وحدتهم .

على أن كثيراً من الأئمة قالوا بجواز صلاة الجمعة فى مسجد غير المسجد الجامع ، خاصة إذا كثر الناس وضاق بهم المسجد الجامع .

وما يحرص عليه الإسلام – قبل كل شىء وبعده – هو أداء الصلاة مستوفية شروطها والمحافظة على وحدة المسلمين الفكرية والعملية . وإزالة أسباب التفرق والشقاق بينهم .

ذلك : لأن العبادة الحقيقية هى التى تثمر إخاءً وتعاطفاً حقيقيًّا بين المسلمين .

فى شروط الإمامة فى الصلاة

شروط الإمامة فى الصلاة أن يكون الإمام مسلماً فلا تصح إمامة الكافر إجماعاً ، وأن يكون عاقلا حال إمامته ، وأن يكون بالغاً عند البعض ، وتجوز إمامة الصبى عند البعض الآخر فى الفرض والنفل وأن يكون ذكراً فلا تصح إمامة المرأة ولا الخنثى للرجال ، وتجوز إمامة المرأة للنساء فى الفرائض والنوافل على الراجح ، وأن يكون الإمام مستوفياً لشروط الصلاة ، سالماً من الأعذار إذا وجد من هو أصح منه .

ومن فقد شرطاً من هذه الشروط حرمت إمامته لتسببه فى فساد صلاة المأمومين إذا لم يعلموا بما هو عليه من فقد شروط الصلاة . .

والفرق بين صلاة الفرض والنفل والركوع والسجود غير موجود ، إنّ الركوع هو الركوع ، والسجود هو السجود بهيئته ولزومه فى الصلاة ، وعدم صحة الصلاة -- فرضاً كانت أو نفلا -- بدون واحد منها .

ومما لا يمكن التسامح فيه التنازع على منصب الإمام بحجة الفضل فى العلم أو القراءة أو السن أو الورع أو ما إلى ذلك . . فإن تقديم الأفضل فى ذلك أمر مندوب . . وليس بواجب ، فإذا ترتب عليه تنطع من غير الأفضل فلا تصح منازعته فى ذلك ما دام مستوفيا لشروط الإمامة والآداب الإسلامية ، يمكن الدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة . وقد اتفق العلماء على جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ما دام مستوفياً لشروط الإمامة .

فى إمامة الجمعة للمسافر

الحنفية : يجيزون إمامة الجمعة للمسافر .

فقد قالوا : يشترط فى الجماعة التى تصح بها الجمعة أن تكون بثلاثة غير الإمام ، وإن لم يحضروا الخطبة ، فلو خطب بحضور واحد ثم انصرف قبل الصلاة وحضر ثلاثة رجال بعد ذلك وصلى بهم صحت من غير أن يعيد عليهم الخطبة .

ويشترط فيهم أن يكونوا رجالا ، ولو كانوا عبيداً أو مرضى أو مسافرين أو أميين أو بهم صمم ، لأنهم يصلحون للإمامة فى الجمعة إما لكل أحد وإما لمثلهم فى الأمى والأخرس بعد أن يخطب واحد غيرهم ، إذ لا يشترط أن يكون الخطيب هو الإمام للجمعة فصلاحيتهم للاقتداء

لغيرهم أولى ، بخلاف النساء أو الصبيان ، فإن الجماعة فى الجمعة لا تصح بهم وحدهم لعدم صلاحيتهم للإمامة بمثلهم فيها .

الشافعية : تجوز إمامة المسافر فى صلاة الجمعة إذا كان زائداً على الأربعين الذين تنعقد بهم الجمعة ، فإن كان منهم فلا تجوز إمامته .

فقد قالوا : من شروط الخطبة (١) أن يكون الخطيب ذكراً (٢) أن تصح إمامته للقوم ، فإن كان من الأربعين الذين تنعقد بهم الجمعة إذ لا تنعقد عندهم بأقل من أربعين ، فيشترط فى الإمام ما يشترط فى المأمومين بأن يكونوا أحراراً ذكوراً مكلفين متوطنين بمحل واحد ، فلا تنعقد بالعبيد والنساء والصبيان والمسافرين .

وإن كان الإمام زائداً على الأربعين صح أن يكون صبيًّا أو عبداً أو مسافراً .

المالكية : يشترطون فى إمامة الجمعة أن يكون ممن تجب عليه الجمعة ولو كان مسافراً نوى الإقامة أربعة أيام ، لكن بشرط أن تكون الإقامة بغير قصد الخطبة ، فإن أقام بقصد الخطبة فلا يصح أن يكون إماماً ، ويشترط المالكية أن يكون الإمام هو الخطيب فلو صلى بهم غير من خطب فالصلاة باطلة إلا إذا منع الخطيب من الصلاة مانع يبوح له الاستخلاف -- كرعاف ونقض وضوء -- فيصح أن يصلى غيره إن لم ينتظر زوال عذره فى زمن قريب وإلا وجب انتظاره .

الحنابلة : يشترطون أن يكون الخطيب ممن تجب عليه الجمعة بنفسه فلا تجزئ خطبة عبد أو مسافر ولو نوى إقامة مدة ينقطع بها السفر . فيشترطون فيه ما يشترطونه فى الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة وهم :

١ -- أربعون ولو بالإمام .

٢ -- أن يكونوا ممن تجب عليهم الجمعة بأنفسهم -- وهم الأحرار الذكور البالغون -- المستوطنون بالمحل الذى يصح أن تقام فيه الجمعة .

فلا يصح أن يكون من جماعة الجمعة رقيق ولا أنثى ولا صبى ولا مسافر ولا مقيم غير مستوطن ولا مستوطن بمحل خارج عن بلد الجمعة .

فى صلاة النافلة فى أثناء خطبة الإمام

لقد حث الله سبحانه وتعالى على التقرب إليه بفعل الطاعات وأرشد رسوله صلوات الله وسلامه عليه على الإكثار من النوافل ليكون ذلك جبرًا للإنسان عما سبق من تقصير أو خطأ .

وعلى الرغم من أن النافلة زيادة عما فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده فإنها تجبر الإنسان وتزيده قرباً من الله تعالى ، لذلك أمر بها الله سبحانه وحث عليها نبيه ﷺ غير أن الأمر لم يكن على طريق الفرض أو الوجوب .

أما من دخل المسجد والخطيب فوق المنبر فإن السادة الفقهاء اختلفوا فيما بينهم هل تجوز له صلاة ركعتى تحية المسجد أو لا يجوز له ذلك ؟

والجواب : عن ذلك أن السادة الفقهاء منهم من قال : بجواز ذلك شرعاً ،بل إنّ الإنسان مأمور بذلك ، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ :

« إذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » .

والبعض الآخر يقول بعدم جواز ذلك واستدل على ذلك بقوله ﷺ :

« إذا صعد الخطيب فوق المنبر فلا صلاة ولا كلام » .

هذا ما ورد عن السادة الفقهاء فى حكم من دخل المسجد والإمام يخطب فهل له أن يصلى تحية المسجد أو ليس له ذلك .

أما الوجه الآخر وهو الراجح والذى نختاره أن مَن دخل المسجد والإمام فوق المنبر له أن يصلى ركعتين خفيفتين ويتجوز فيهما .

فى إذا لحق المأموم الإمام بعد الصلوات

إذا لحق المأموم الإمام فى بعض الركعات اعتبر ما صلاه معه أول صلاته ثم أكمل الصلاة بعد سلام الإمام .

فإذا أدرك الركعة الأخيرة مع الإمام اعتبرها أولى ركعات صلاته ، فإذا سلم الإمام قام فصلى ركعة ثم جلس للتشهد الثانى ثم قام فأكمل الصلاة .

وإذا أدرك ركعتين مع الإمام قام بعد سلام الإمام وأكمل باقى الصلاة وبما أن القراءة فى الصلاة تكون فى الركعتين الأوليين بفاتحة وسورة وفى الركعة الثالثة وفى الركعة الرابعة بفاتحة فقط ، فإن المأموم إذا أدرك الركعة الأخيرة مع الإمام أتم صلاته على ما بينا وقرأ فى الركعة الثانية والثالثة من صلاته بفاتحة وسورة ، ثم قرأ الفاتحة فقط فى الركعة الرابعة وإذا أدرك ركعتين مع الإمام قام فأكمل الركعتين الأخريين أو الركعة الثالثة فى المغرب وقرأ بفاتحة وسورة .

وهذا هو ما يعنيه الفقهاء بقولهم : يبنى على الأعمال ويقضى الأقوال .

فى جواز تجمع أهل المذاهب المختلفة للصلاة فى مسجد واحد

صلاة الجماعة سنة مؤكدة وورد فى فضلها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يحدث : اللهم صلى عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

فاجتماع الناس فى مسجد واحد لصلاة الجماعة صحيح ومندوب إليه وكان أهل المدينة جميعاً يجتمعون لصلاة الجماعة خلف رسول الله ﷺ ولقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بلد لا تقام فيهم الصلاة إلاّ قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

والمذاهب الأربعة مستمدة من القرآن والسنة كلها صحيحة ، فإذا اجتمع أهل المذاهب المختلفة فى مسجد واحد فمن السنة المؤكدة أن يؤدوا جميعاً صلاة الجماعة ولا يضر اختلاف المذاهب .

فى جواز مصافحة الناس بعد صلاة النافلة التى تسبق صلاة الجمعة

إن المساجد جعلت فى الإسلام لمجالس الذكر ومجالس العلم سواء أكانت تفسيراً للقرآن أم كانت غير ذلك من أنواع العلم وفروعه المختلفة ، والمساجد على كل حال إنما جعلت للعبادة بالمعنى الواسع العام الشامل – ومع ذلك فإنه لا تمنع فيها المصافحة أو الحديث فى غير إثم اللهم إلاّ فى حالة واحدة هى عندما يكون الخطيب على المنبر يوم الجمعة فى أثناء الخطبة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك حتى لقد ورد عنه النهى عن قول المسلم لأخيه (أنصت) والمصافحة إذًا تجوز فى المسجد بعد صلاة النافلة التى تسبق صلاة الجمعة ومع ذلك فإن تأخيرها إلى ما بعد صلاة الجمعة أفضل .

فى الجمع بين صلاة الجمعة والظهر

يجوز الجمع بين صلاة الجمعة والظهر فى بلد تعددت فيه المساجد لغير حاجة وأقيمت الجمعة فيها كلها . وذلك للاعتداد بجمعة من سبق غيره بالركعة الأولى من المصلين فى تلك المساجد ، قال بهذا الشافعية ، أما إن تعددت المساجد لحاجة فجمعة أهل كل مسجد صحيحة ولا يحتاجون إلى إعادة صلاة الظهر .

وذهب بعض الفقهاء إلى أن الجمعة لا تنعقد إلاّ بالمسجد العتيق الذى أنشئ قبل غيره ، وذهب آخرون إلى أن الجمعة فى كل المساجد صحيحة ولا يحتاج المصلون بعدها إلى إعادة صلاة الظهر غاية ما فى الأمر أنهم رجحوا الصلاة فى المسجد الذى بنى أولا . . قالوا إن الصلاة به تعدل الصلاة فى غيره بسبعين ضعفاً .

فى هل صلاة النافلة فى المسجد تتوقف على حضور الإمام ؟

صلاة النافلة فى المسجد لا تتوقف على حضور إمام المسجد ما دام قد حان وقتها ، لأنها للوقت وليست للإمام ، كنافلة الصبح القبلية والظهر والعصر والعشاء والنوافل التى لا وقت لها ولا سبب تؤدى متى شاء من يُريد أداءها ما دام ذلك فى غير أوقات الكراهة المنصوص عليها فى كتب الفقه بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح وعند الزوال قبل الظهر وبعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس .

ويجوز أداء نافلة الجمعة بعد صلاة الجمعة فى المسجد وفى غيره حسب ظروف المصلى .

فى السهو والتفكير فى العدو فى أثناء الصلاة فى الحرب

إن الشكوى من تشتت الذهن – فى أثناء الصلاة بهذا الذى ذكره السائل أو بما يترتب عليه من سهو أو سرحان ذهن – كثيرة متعددة ولا مفر من الالتجاء إلى الله فى هذه الحالة ، ولابد مع ذلك من المحاولات الصادقة للتخلص منها : وليس الأمر فى الحقيقة بالعسير عسراً شديداً ، فلو وطّن الإنسان العزم على أن يجمع شتات فكره ، وصدقت نيته فى ذلك فإنه سينتهى إلى ما يحب إن شاء الله .

ومن المعروف فى الجو الإسلامى أنه ليس للإنسان من صلاته إلاّ ما عقل ، وأن ثوابه إنما هو بمقدار انتباهه وتعقله للصلاة ، أو بمقدار إقامة الصلاة على حد التعبير القرآنى ، وإقامتها إنما تكون بأدائها على أتم ما تكون التأدية ، وأنه من المفيد أن يقرأ الإنسان عدة مرات سورة الناس قبل الدخول فى الصلاة وأن يقول :

رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، فإذا ما تأمل الإنسان بذلك وتهيأ للصلاة أعانه الله ووفقه .

ومن المفيد فى ذلك أيضاً : أن يقوم بمران يومى على ذكر الله مع جمع شتات أفكاره لمدة خمس دقائق ، فإذا ما نجح فى ذلك فهو ناجح لا محالة بتوفيق الله ، فى تركيز ذهنه فى الصلاة . على أنه إذا وطّن نفسه على تدبر ما يقول وما يفعل منذ ابتداء الصلاة إلى انتهائها ، فإن ذلك يصرف ذهنه عن الدنيا إلى ما هو فيه وهو الصلاة .

فى انشغال الفكر فى الصلاة

إن انشغال الفكر فى الصلاة أمر يشبه أن يكون منتشراً بين كثير من المسلمين فى العصر الحاضر ، والشكوى من ذلك كثيرة متعددة ولا مفر من الالتجاء إلى الله فى صرف هذه الحالة ولابد مع ذلك من المحاولات الصادقة للتخلص منها ، وليس الأمر فى الحقيقة بالعسير عسراً شديداً .

فلو وطّن الإنسان على أن يجمع شتات فكره وصدقت نيته فى ذلك فإنه سينتهى إلى ما يحب إن شاء الله ، وإنه لمن المفيد فى ذلك أن يقرأ الإنسان عدة مرات سورة الناس قبل الدخول فى الصلاة ، وأن يقول : رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، فإذا ما تأهل الإنسان بذلك وتهيأ للصلاة أعانه الله ووفقه ، ومن المفيد فى ذلك أيضاً أن يقوم بمران يومى على ذكر الله مع جمع شتات أفكاره لمدة خمس دقائق تزداد إلى عشرة تدريجيًّا ، فإذا ما نجح فى ذلك – وهو ناجح لا محالة إذا صدقت النية – فإنه سينجح بتوفيق الله إلى تركيز ذهنه فى الصلاة .

من سنن الهدى الصلاة فى المسجد

يقول صلوات الله عليه فيما رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه :

« إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله عز وجل (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) ويقول صلوات الله عليه فيما رواه مسلم : « مَنْ تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة » ومن أجل ذلك كان سلفنا الصالح : يؤمون المساجد فى غبطة وسرور ، وكانوا يحاولون ما استطاعوا المحافظة على صلاة الجماعة فى المسجد ، وذلك لما روى فى التهديد على تركها ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلى بالناس ثم أنطلق ومعى رجال ومعهم حزم من الحطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار » .

أخذ من هذا الحديث وغيره بعض الأئمة وجوب الصلاة فى المسجد ، وقال بعضهم بفرضيتها ، وأكثر العلماء – كما يقول القاضى عياض ، ذهب إلى أنها سنة مؤكدة .

والصلاة المفروضة فى البيت إذن على هذا الرأى الأخير ، وهو رأى أكثر العلماء مجزئة وإن كان فيها مخالفة واضحة لسنة رسول الله ﷺ والأمر فيها هو ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه معبراً عن الروح الإسلامية الصحيحة حيث قال : « من سره أن يلقى الله تعالى غداً مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم من الهدى وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف » وفى رواية قال : « إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه » .

فى آداب المسجد

للمسجد آداب تؤخذ من نص الآيات القرآنية المتعلقة بالمساجد ومن روحها يقول الله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) والآية الكريمة تنهى فى صراحة عن أن تخطر فى أذهاننا أو يجرى على ألسنتنا ذكر أحد من الناس ، وتعلل ذلك بهذا التعليل المعبر الواضح الذى تذكره ابتداء وهو أن المساجد لله ، وإذا كانت له فلا ينبغى فى الذوق السليم أن نشرك معه فيها غيره . ويقول سبحانه : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) .

لقد أذن الله أن ترفع المساجد التى هى بيوت الله ليذكر فيها اسمه ، أما تسبيح الله فيها أى تنزيه التنزيه المعتد به المثاب المتقبل من الله سبحانه وتعالى ، فهو الصادر من هؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وليس المقصود التجارة والبيع فحسب وإنما المقصود كل شئون الدنيا ، والآية الأولى إذن إنما تنهى عن أن يذكر أحد إلا الله ، والثانية توجهنا إلى أن نشتغل فى المسجد بأمر من أمور الدنيا .

ومهما يكن من شىء فإن الإنسان بمجرد دخول المسجد ينبغى أن يصلى ركعتين تحية المسجد ، وينبغى أن يلتزم الأدب اللائق برب البيت ، لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يرفع صوته فى صخب ، ولا يغتاب ولا يحدث أى شىء يصرف الناس عن سكونهم وخشوعهم وطمأنينتهم ، ومن أهم آداب المسجد النظافة وطيب الرائحة ، يقول الله تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . من كل ذلك نتبين آداب المسجد ونتبين أن الحديث فى المسجد عن أمور الدنيا إنما هو خلاف الأولى ، وهو عمل يتنزه عنه كل صاحب شعور دينى صحيح اللهم إلا إذا كان الحديث فى أمور الدنيا ضروريا لجماعة المسلمين نافعاً مفيداً فيتحدث بقدر الحاجة .

فى اتخاذ القبور مساجد

اختلف العلماء فى المراد بقوله ﷺ فى مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » هل كانوا يسجدون إلى القبور ويعظمون القبور ، أو كانوا يبنون فوقها المساجد ويصلون فيها .

فإن كان المراد تعظيم القبور والسجود لها أو لأصحابها ، فلم يعهد ذلك فى بلاد الإسلام ولا يقول مسلم بذلك أو يرضى به ، وعلى ذلك فالصلاة فى مسجد فيه قبر لاشىء فيها ، وإن كان المراد بناء المساجد على القبور أو اتخاذ القبور فى المساجد فالصلاة فى مسجد فيه قبر جرام ، وقد نهى ﷺ عنها . .

عـلى أن الصلاة فى المقابر نفسها اختلف فيها العلماء : فقيل بحرمة الصلاة وقيل بكراهيتها ، وقيل بجوازها . وهذا فيما إذا لم تتحقق النجاسة من لحوم الموتى وصديدهم وما يخرج منهم وإلاّ لم تصح الصلاة – ومن المعلوم أن المسجد إن كان فيه قبر – أو قبران أو ثلاثة – محفوظ من النجاسة مراعى فيه تحقق الطهارة – أى أن الخوف من الصلاة على النجاسة غير موجود فيه ، وتصح الصلاة فيه .

ولكن هذا لا يمنع من أن الصلاة فى غير هذا المسجد أولى من الصلاة فيه ما دام هناك غيره – مالم يفصل القبر عن المسجد بحائط أو حاجز مثلا – وإلا استوى هو وغيره من المساجد .

ومن الأمور المكروهة تخصيص مسجد ما بصلاة التراويح أو العيدين ونحوهما دون غيره ، إذ هو تخصيص بغير مخصص ، وقد يؤدى إلى الوقوع فى الابتداع المذموم ، فالمساجد كلها فى مرتبة واحدة عدا المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ، وتخصيص غيرهم من المساجد بصلاة خاصة أو عبادة معينة لا يجوز ، فالأولى الابتعاد عنه .

فى الصلاة من قعود للقادر على القيام

لا تصح الصلاة المفروضة من قعود للقادر على القيام ، ولم يكن الكسل فى يوم من الأيام ولا فى بيئة من البيئات عذراً مقبولاً ، ومن صلى الصلاة المفروضة قاعداً كسلا وهو قادر على القيام بها فإنها لا تصح ، وإن فى التأدب لله سبحانه وتعالى يوجب أن ينفض الإنسان عن نفسه الكسل ، وأن ينهض إلى الصلاة فى تفاؤل وفى غبطة متمثلا قول الرسول صلوات الله عليه لبلال رضى الله عنه « أرحنا بها يا بلال » أى أرحنا بالصلاة : أى أن الصلاة راحة وبقوله صلوات الله عليه : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » أما إذا عجز حقيقة عن القيام فى الصلاة المفروضة فله أن يصليها من قعود أو حسب ما يستطيع دون أن ينقص من أجره شىء ، أما الصلاة التى يجوز للإنسان أن يصليها من قعود فإنها النافلة على وجه العموم ، ولكن ثواب القاعد فيها وهو قادر على القيام يكون نصف ثواب القائم .

فى من منع زوجته من الذهاب إلى المسجد

كانت زوجة سيدنا عمر رضى الله عنهما : تذهب إلى المسجد للصلاة وتقول ما معناه : « والله لا أمتنع من الصلاة فى المسجد إلاّ إذا منعنى عمر » .

فما كان سيدنا عمر رضى الله عنه يمنعها ، وذلك لأنه يعلم أن سنن الإسلام أن يصلى النساء فى المسجد محتشمات غير متبرجات ولا متعطرات .

وإذا كانت صلاة النساء فى المساجد وسماعهن الدروس فيها من الأمور الضرورية فى العصور الماضية فإنها فى هذا العصر أكثر ضرورة فلعل جو المسجد وما يستمعن فيه من عظات وآيات قرآنية وأحاديث نبوية يكون موجهاً لهن إلى الخير والإنابة .

ويقول أسلافنا رضى الله عنهم فى أمر خروج المرأة لطلب العلم فى غير المساجد : إن على الرجل أن يقوم بتعليم زوجته ، ومتى كان الرجل قائماً بتعليم ما يجب لزوجته امتنع عليها الخروج لسؤال العلماء ، وكذا إن ناب عنها فى السؤال وعرّفها الجواب . . فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل يجب عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها .

ومهما أهملت المرأة حكماً من الأحكام الواجبة ولم يعلمها الرجل إيّاه شاركها فى الإثم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً) . .

فى رد المصلى للسلام

المصلى لا يجب عليه السلام ولو ردّ السلام بالكلام بطلت صلاته ، ويرى علماء الحنفية أن ردّ السلام فى الصلاة بالإشارة مكروه ، ويرى البعض أن الإشارة باليد أو بالرأس لرد السلام جائزة فى الصلاة بشرط أن تكون إشارة خفيفة .

فى صلاة الجمعة مع الراديو والتليفزيون

لا تجوز صلاة الجمعة مع الراديو أو التليفزيون أو غيرهما من الإذاعات المنقولة من المساجد ، وذلك لفقدان المعنى المطلوب من صلاة الجمعة فى المساجد ولوجود الفاصل المانع من صحة الاقتداء بين الإمام ومأمومية فى الجمعة أو فى غيرها .

فى ترك الصلاة وتأخيرها

يتبين الإنسان أهمية الصلاة فى الدين الإسلامى حينما يعلم أن الحرب نفسها فى وضع الإسلام لا تسقط الصلاة ، فقد نظم الإسلام صلاة معينة للحرب .

وعدم وجود الماء لا يسقط الصلاة فقد بين الله أن التيمم يغنى إذا لم يكن من ذلك مناص : والمرض ليس عذرًا لترك الصلاة اللهم إلا إذا استحال ذلك بأن فقد المريض عقله ، وفى هذه الحالة عليه القضاء .

من ذلك وغيره نرى الأهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام ، فليس بغريب أن تكون عماد الدين ، وأن من أقامها أى أداها على ما ينبغى أن تكون عليه فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

وأن محاولة جعل العمل عذراً فى تأخيرها إنما هى محاولة باطلة ، وذلك أن هذا الذى يعمل اثنتى عشرة ساعة ، يأكل ويشرب ويذهب لقضاء حاجته وقد يتكرر ذهابه لقضاء حاجته عدة مرات فى اليوم الواحد فلا يمنعه العمل من ذلك .

والوقت الذى تستغرقه الصلاة أقل من وقت الغداء أو العشاء ، وذلك أن الوضوء والصلاة يستغرقان أقل من عشر دقائق .

فعلى العمال أن يراعوا ما فرضه الله ، وألا يتمحلوا المعاذير ، لو عزم الواحد منهم على إرضاء الله لوفقه الله تعالى إلى مرضاته .

بمناسبة الحديث عن أهمية الصلاة ما الحكم فى من تركها :

إن من ترك الصلاة متعمداً أو مستهزاً أو غير مقرٍّ بها فقد كفر ، أما من تركها لأن الحياة قد جرفته بتيارها المادى فأصبح مستعبداً لها لا يفكر إلاّ فيها فإنه من كبار العصاة فى نظر الدين ، وهو كلما تهاوى وتكاسل عنها أظلم قلبه وازداد انغماساً فى غضب الله ، وعليه أن يبادر بالتوبة الخالصة النصوح ، ويرجع إلى الله بالطاعة ، فلعل الله يتفضل عليه بالمغفرة ويرحمه بحسن الخاتمة .

فى الصلاة على الميت

إن المسلم إذا مات فإنه يُغسَّل قبل دفنه ويُصلَّى عليه ، ولا يحتاج فى ذلك إلى شهادة شخص من الأشخاص بأنه كان يصلى ، ولا يحتاج ذلك إلى علم فلان أو فلان ، أو علم أهل القرية ،

أو علم الإمام ، إن ذلك كله لا يدخل فى الموضوع بمنع أو إباحة الغسل أو الصلاة ، فإن ذلك على المسلمين بالنسبة لمن مات مسلمًا ولو كان مسلماً عاصياً لا يؤدى الصلاة .

والأمر الوحيد الذى كان يؤخر الرسول ﷺ الصلاة على الميت من أجله (الدَّيْن) فإنه صلوات الله وسلامه عليه كان يسأل عن الميت قبل الصلاة عليه فيقول : أعليه دَيْنٌ ؟ :

فإن قالوا له نعم أخّر الصلاة عليه إلى أن يسدد دينه ، أما إذا لم يكن عليه دَيْن فإن رسول الله ﷺ كان يصلى عليه دون أن يسأل عن أى شىء من سيرته ، فلا يجب عندما يموت إنسان -- أن يسأل الإمام أو غيره عنه فى صلاته أو زكاته أو صومه فإن هذا ليس من السنة .

فى حضور النساء صلاة الجنازة

يجوز للنساء حضور صلاة الجنازة إذا خرجن متسترات غير متبرجات ولا متعطرات وأمنت الفتنة .

لما أخرجه الطبرانى بسند حسن : من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انتظر أم عبد الله حتى صلت على عتبة .

فإن كن مع الرجال صَلَّيْنَ مقتديات بإمام الرجال .

وإن كُنَّ منفردات قيل : يستحب أن يصلين منفردات وقيل يصلين جماعة وتؤمهن إحداهن .

والإسلام لا يفرق بين النساء والرجال إلاّ فيما تقتضيه الفطرة ، وتطلبه الطبيعة لكل منهما كإسقاط الصلاة عن الحائض وعدم إلزام النساء بحضور صلاة الجمعة مثلا تاركاً لهن الاختيار فى الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة أو فى المكث فى البيت وصلاة الظهر .

فى جواز النيابة فى الصلاة عن الميت إذا لم يكن يؤدى الصلاة

العبادات التى فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، بدنية محضة -- كالصلاة والصوم ، ومالية محضة كالزكاة ، ومركبة منهما كالحج .

والقصد من العبادة البدنية التذلل والخضوع لله تعالى ، ولا تصح النيابة فيها ، لأن التذلل والخضوع إنما يحصل من الشخص المؤدِّى :

فمن مات ولم يكن يؤدى الصلاة لا يرفع عنه إثم ترك الصلاة ولا يخرج من عهدة المؤاخذة بأداء أحد أبنائه ، وهو مرتكب كبيرة وأمره مفوض إلى ربه .

فى حكم صلاة ركعتى السنة قبل صلاة الجمعة

عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ، وتطهر ما استطاع من طهر ثم ادهن أو مس من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصت غفر له ، ما بينه وبين الجمعة الأخرى » وهذا الحديث يرسم صورة واضحة لما ينبغى على المؤمن من سلوك يوم الجمعة إنه بعد أن يخرج من بيته يدخل المسجد فيجلس فى المكان الذى يتيسر له ، ويصلى ما تيسر له من الركعات إلى أن يصعد الإمام المنبر ، فإذا خرج الإمام وصعد المنبر تأهب المصلون للاستماع له والأخذ عنه وكفوا عن الصلاة وعن الكلام .

وإذا دخل رجل والإمام على المنبر فهل يسن له الجلوس ، أويسن له صلاة ركعتين ؟

روى المالكية والحنفية أنه إذا جلس الإمام على المنبر فلا صلاة ولا كلام وعلى الداخل الجلوس ، أما عن صلاة السنة بعد الأذان الأول للجمعة وقبل الأذان الثانى الذى يتم بعد صعود الإمام على المنبر فقد اختلف فيه .

فالشافعية : يرون أن سنة النفل بعد الأذان الأول للجمعة ثابتة ومقررة لما رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنة عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » ولا فرق فى ذلك بين الجمعة وغيرها .

ويرى غيرهم من العلماء أن الجمعة ليست داخلة فى هذا المجال ، لأن الخطبة هى الفاصل بين الأذان والإقامة .

وكان الصحابة يدخلون المسجد مبكرين ، فإذا دخل أحدهم صلى ما تيسر له من الركعات ومما يستحق الإشارة أن الأذان الثانى فعله عثمان رضى الله عنه وفعله سنة لأنه من الخلفاء الراشدين الذين اعتبر الرسول ﷺ سنتهم جزءاً من سنته وأمر باتباعها ولم يختلف منهج الصحابة بعد هذا الأذان عن منهجهم قبله – إذا دخلوا المسجد صلوا تحية المسجد ثم لا يقومون بعد الأذان .

فى ما يجب على الإمام والخطيب

روى الإمام مسلم بسنده : عن عثمان بن أبى العاص قال : « آخر ما عهد إلىَّ رسول الله ﷺ : (إذا أممت قوماً فأخف بهم الصلاه) ويروى الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أنس رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ كان من أخف الناس صلاة فى تمام : عن أبى مسعود الأنصارى فيما

رواه مسلم قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت النبى ﷺ غضب فى موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال : « أيها الناس فإن منكم منفرين ، فأيكم أم الناس فليوجز ، فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة » .

وروى الإمام مسلم أيضًا عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف ، فإن منهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء »

وقد بينت هذه الأحاديث الأمر بياناً كافياً ، فالإنسان إذا صلى وحده فليطل الصلاة كيفما أحب ، ليطلها فى وقوفها وقراءتها ، وفى ركوعها وفى سجودها مسبحاً الله فيها وداعياً وقد قال ﷺ أقرب مايكون العبد لربه وهو ساجد ، وليطلها فى التشهد والدعاء بعد التشهيد ، أما إذا صلى بالناس فليخفف ولم يأمر الرسول ﷺ أمرالتخفيف هذا إلا بسبب الضعيف الذى لا يستطيع تحمل إطالة الصلاة ، والمريض الذى يتعذر عليه متابعة الإمام فى الإطالة والصغير الذى يمل الإطالة ، وذى الحاجة الذى يهمه قضاء حاجته ، ولكن الأمر بالتخفيف ليس معناه الإخلال بشىء من إقامة الصلاة ، كلا بل لابد من إقامتها ، وإنها للفتة موفقة من سيدنا أنس حين يصف رسول الله بتخفيف الصلاة يضيف قوله (فى تمام) وفى رواية أخرى :

يقول عن النبى ﷺ : « كان يوجز ويتم » فالصلاة خلف الإمام الذى يؤدى أركانها كلها كاملة صلاة صحيحة ولا شىء فيها ، وهى مقبولة إن شاء الله تعالى (فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين) لقد عبر الرسول ﷺ عن إطالة الإمام للصلاة بقوله : « أيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز » .

وحسبنا فى ذلك أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أمر الإمام بالتخفيف والتجوز فى الصلاة شفقة على المأمومين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه بالمؤمنين رءوف رحيم .

فى بعض أخطاء الإمام والمصلين

لقد أخطأ كل من الخطيب والإمام والمصلين الذين لم يستجيبوا لطلبه بجمع المسابح فى جيوبهم وأساءوا إلى جلال الموقف وهم فى صلاة جامعة فى بيت من بيوت الله[١٥٥] .

فأما الخطيب فقد كان عليه – وهو يخطب أن يقف موقف رسول الله ﷺ وأن يلتزم آداب الإسلام التى أدب القرآن الكريم بها من يتصدى للدعوة إلى الله ونشر دينه فقال تعالى لرسوله

---

(١٥٥) كانت هذه الفتوى نتيجة خلاف حدث فى مسجد من المساجد أدى إلى نزاع بين المصلين وإمامهم ترتب عليه فساد الجمعة فى نظر البعض ، فكانت فتوى الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه النبراس المضىء لهذا الموضوع .

المصطفى ﷺ الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، وقال تعالى لرسوله ولمن يحمل من بعده عبء الدعوة إلى الإسلام : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وأما أولئك المانعون الذين لم يستجيبوا لنداء الخطيب فقد أساءوا إلى نفوسهم وإلى دينهم وإلى جماعة المسلمين ، فإن الذين يحضرون خطبة الجمعة ممنوعون من كل ما من شأنه أن يشغلهم عن الإنصات للخطبة أو يشغل الخطيب عن إلقاء خطبته وقد ورد « إذا خرج الإمام ، أى من حجرته متجهاً إلى المنبر فلا صلاة ولا كلام » كما ورد « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب أنصت فقد لغوت ومن لغا فلا جمعة له » أما كون صلاة الجمعة فى هذه الحالة صحيحة فمن المقرر أن خطبة الجمعة شرط من شروط صحة صلاة الجمعة ، لأنها بديل عن ركعتين من صلاة الظهر .

وقد قرر الإمام أبو حنيفة أن ركن الخطبة هو مطلق الذكر الشامل للقليل والكثير ، فيكفى لتحقق الخطبة المفروضة عندهم تحميدة أو تسبيحة أو تهليلة ، وإن كان يكره تعمد الاقتصاد على ذلك لعدم تحقق سنن الخطبة وهى حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، والشهادتان والصلاة على النبى ﷺ والعظة بالزجر عن المعاصى والتخويف والتحذير مما يسبب مقت الله وعقابه ، والتذكر بما به النجاة فى الدنيا والآخرة ، وقراءة آية من القرآن الكريم ، وتكرار الخطبة واستكمال الخطبة الثانية على حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبى ﷺ والدعاء للمؤمنين والمؤمنات والاستغفار لهم . . إلخ ، فإن كان القدر الذى افتتح به الخطيب خطبته قبل أن يحدث ما حدث مشتملا على مطلق ذكر الله تعالى – والمفهوم أنه كذلك فإن صلاة الجمعة صحيحة على رأى الحنفاء .

وأما الشافعية فقد اشترطوا لصحة خطبة الجمعة أن لا ينصرف عنها الخطيب بصارف فإذا انصرف عنها ولم يعدها قبل الصلاة فقد فسدت الخطبة وإذا فسدت الخطبة فقد فسدت الصلاة ، لأن صحة الخطبة شرط من شروط صحة صلاة الجمعة .

هذا – ومادامت صلاة جمعتكم هذه قد صحت على مذهب من المذاهب الإسلامية فقد انتهى الأمر ، غير أننا نهيب بالمسلمين سواء من يقصدون للإمامة أو من يحضرون الجماعة أن يتأسوا برسول الله ﷺ وصحابته وأن يتخلقوا بأخلاق القرآن الكريم ولا يثيروا بينهم الخلافات حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وليكن المسلمون صفًّا واحداً خلف أئمتهم وليستمعوا إلى قول الله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وليحسن الأئمة النصيحة أمراً بمعروف ونهياً عن منكر وليحسن المسلمون الاستماع إلى إرشاد

أئمتهم وحسن توجيهاتهم وليعملوا بها حتى يكونوا ممن قال الله تعالى فيهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب)

فى الطريقة المثلى فى خطبة الجمعة لمن لا يفهمون اللغة العربية

إن الطريقة المثلى فى خطبة الجمعة بالنسبة لمن لا يعرفون اللغة العربية إنما هى أن يحمد الله ويتشهد ويصلى على رسول الله ﷺ ، ويقرأ آية من القرآن وحديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ باللغة العربية فيكون بذلك أدى أركان الخطبة .

وذلك كله لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق . وهو فضلا عن هذا أمر سهل ميسور لا يشق على الخطيب حفظه .

ثم بعد ذلك يخطب بلغة القوم الذين يصلى بهم الجمعة ويمكنه أن يستفيض فى الخطبة بلغة القوم كيف شاء .

وذلك أن الخطبة عظة وتذكير بالله وبالتقوى والإخلاص ، وبالآخرة والحساب ، وبالجنة ونعيمها والنار وعذابها ، فلابد أن تكون بلغة القوم وإلا فقدت الخطبة وظيفتها .

وإذا اتبع الخطيب ماذكرناه فإنه يكون قد خرج من كل خلاف لأنه ذكر أركان الخطبة باللغة العربية ثم وعظ القوم بلغة يفهمونها .

فى بناء المسجد وسط مقبرة

لا يصح بناء مسجد وسط مقبرة مسلمين إذا كان ذلك يستدعى هدم بعض المقابر وإزالتها ونبشها ، لأن حرمة موتى المسلمين وهم فى قبورهم كحرمتهم فى حال حياتهم ، وقبورهم التى حلوا بها صارت ملكاً دون غيرهم ، ولا يحل لأحد نبشها ، أو النزول بأحد قبورها إلا لضرورة ملحة كدفن بعض الأموات بقبر أسرته إن لم يتيسر دفنه بقبره منفرداً .

وقد ورد عن سيدى رسول الله ﷺ أنه قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه ثم تخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر أو يتكئ عليه » أما إذا كان فى وسط المقبرة مكان خلاء لا قبور فيه وكان بناء المسجد فيه لا يستدعى هدم قبر أو إزالته فإن ذلك جائز ولا شىء فيه .

فى الصلاة فى مسجد فيه ضريح

أحب – إجابة على هذا السؤال – أن أنبه الناس فى قوة إلى مسجد رسول الله ﷺ . إنه مسجد مبارك ، الصلاة فيه بألف صلاة ويتوسطه ثلاثة أضرحة مباركة هى الضريح

الشريف صلوات الله وسلامه على صاحبه ، وضريح الصدّيق ، وضريح الفاروق رضوان الله عليهما .

ونحن فى هذا المسجد المبارك نصلى عن يمين الأضرحة ، وعن يسارها ومن أمامها ومن خلفها .

فالأضرحة الشريفة تكون تارة عن يميننا ، وتارة عن يسارنا ، وتارة خلفنا ، وتارة أمامنا ، والصلاة فى المسجد المبارك بألف صلاة .

ولا يتأتى بعد ذلك أن يثار سؤال عن الصلاة فى مسجد به ضريح ، إنها جائزة وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إقامة الأضرحة فى المساجد ، كلا وإنما نقول : إنه لو فرض أن ذهب المسلم إلى مسجد به ضريح فلا يتحرج من الصلاة فيه ، فإنها مباحة لا حرمة فيها ولا كراهية ومسجد رسول الله ﷺ خير شاهد .

فى الصلاة خارج المسجد والإمام بداخله

لقد بنى الإسلام على اليسر ويقول رسول الله ﷺ : يسروا ولا تعسروا وصلاة الجماعة خارج المسجد والإمام داخله تجوز إذا كان المأموم عالماً بانتقالات الإمام فى الصلاة من ركن إلى ركن ومن وضع إلى آخر ، وذلك إما برؤيته أو بسماع صوته أو صوت مبلغ عنه ، وبشرط أن لا يكون المأموم أمام الإمام ، اللهم إلا إذا كانت هنا ضرورة اقتضت ذلك .

فى عجز الإمام عن القيام فى أثناء صلاته بالمأمومين

ذهب الشافعى رضى الله عنه إلى صحة إمامة الذى لا يقدر على الصلاة من قيام ، وذهب إلى أنه يجوز للقادر على القيام الصلاة وراء القاعد العاجز ، والقاعد وراء المضطجع وللقادر على الركوع والسجود وراء المومئ بهما .

ولا يجوز للقادر على شىء من ذلك موافقة ، العاجز فى ترك القيام أو القعود أو الركوع أو السجود ، قال الإمام النووى ، ولا خلاف فى شىء من هذا عندنا .

واستدل الشافعى رضى الله عنه على ذلك بأن النبى ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم « صلّى جالساً والناس خلفه قيام » .

وعلى ذلك تصح الصلاة من قيام خلف الإمام الذى يصلى من قعود لعجزه عن القيام ، وعلى

المأمومين أن يتابعوه من قيام ما داموا يستطيعون ذلك ، وتكون صلاة كل من الإمام والمأمومين صحيحة كاملة الأجر والثواب ، وليس لهم أن يجلسوا لأن الجلوس إنما رُخِّصَ للعاجز عن القيام فقط .

فى الصلاة خلف حليق اللحية

الصلاة خلف حليق اللحية صحيحة مع الكراهة ، لمخالفته أمر رسول الله ﷺ والثابت عنه طول حياته .

وما دام عليه هو والصحابة رضى الله عنهم وأمر أمراً مشدداً ومكررًا كثيراً وكثيراً الظاهر فيه الوجوب ، والواجب حرام تركه .

وهذا هو الذى قال به علماء الأمة وجمهور الأئمة قال ﷺ « قصوا الشارب واتركوا اللحى » (جزوا الشارب واعفوا اللحى) .

(احفوا الشارب واعفوا اللحى) إلى غير ذلك لدرجة أن كثيراً من الحفاظ والجهابذة ألف فى ذلك كتباً منها كتاب الدعامة فى أحكام اللحى والعمامة .

وعلى هذا فالصلاة خلفه صحيحة مع الكراهة . .

فى إمامة شارب الدخان

إن المطلوب فى الإمام الذى يصلى بالمسلمين أن يكون قدوة حسنة ، لأن الملاحظ فيه أنه إمام أى قدوة لغيره – وصلاته إماماً بالناس تدريب على الاقتداء به حتى فى سلوكه ، يتبعه الناس صغاراً وكباراً ، ويتسامع به أهل القرية والمدينة كمعلم للدين وكخليفة لرسول الله ﷺ ، يلقى الأضواء على المجتمع الذى يعيش فيه بل على الإمام أنْ يكون صورة واضحة سليمة للكتاب والسنة فى سلوكه قولا وعملا وحركة وسكوناً وذلك لا يتأتى إلاّ باتباع رسول الله ﷺ الذى هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله تعالى ، قال تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا) وقد صح أن الرسول الله ﷺ قال : « إذا حان وقت الصلاة . . فليؤذن أحدكم ويؤمّكم أفضلكم » .

نعم تجوز وتصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، لكن ذلك غير المشروع وغير المطلوب وغير الثابت عن رسول الله ﷺ .

وعلى هذا فصلاة الإمام شارب (التنباك) تصح ، وليست بباطلة ، ولكن إذا وجد فى

لمصلين من لا يشربه وكان مستقيماً عنه وأعلم منه فهو أولى بالإمامة منه .

وذلك لمايراه الكثيرون من أن شرب (التنباك) إسراف وتبذير ، حتى ولو كان الشارب غنيًّا موسراً ، ولأن فقراء المسلمين أولى وأحق بهذا المال الذى يضيع فى شرب (التنباك) فضلا عن الضرر الصحى الذى تكلم عنه الأطباء ، والإمام قدوة حسنة حتى فى الاقتصاد والمعيشة والمحافظة على الصحة .

فى ثواب الذهاب إلى المساجد

إن كل خطوة إلى المسجد لها ثوابها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« صلاة الرجل فى الجماعة تضعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لايخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خُطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ماانتظر الصلاة » .

وفى رواية « اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، مالم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه » أخرجه البخارى ومسلم ، وأبوداود ، والترمذى ، وابن ماجه ، ومالك فى الموطأ ، ولفظه :

« من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج عامدا إلى الصلاة ، فإنه فى صلاة ماكان يعمِد إلى الصلاة ، وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة ، ويُمحى عنه بالأخرى سيئة ، إن أعظمَكم أجرا أبعدكم دارًا ، قالوا : لِمَ ياأبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخُطا » والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

ولقد كان يحدث أحيانًا أن يحاول بعض الصحابة أن يقيم له مسكنًا بالقرب من المسجد ، ثم يعلم بثواب الذين يكثرون الخُطا إلى المسجد فيلتزم مكانه .

ومن ذلك ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه من أن بعض الأنصار – وكانت منازلهم بعيدةً عن المسجد – أرادوا أن يتقربوا ، فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) .

فى النهى عن دخول المساجد برائحة كريهة

لقد نهى رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد من أكل الكرات أو البصل أو الثوم وكانت رائحتها لاتزال بفمه ، وذلك من أجل ألاّ يتأذى المصلون بالرائحة .

ومن آداب المساجد أن يتزين الإنسان لها لقوله تعالى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) .

ومن آدابها أن يتعطر الإنسان إذا استطاع .

وإن مما تحدث به رسول الله ﷺ : أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم من الخبائث .

وآداب المساجد على وجه العموم أن لايحدث فيها مايخل بجلالها وقدسيتها ، ولا يجوز كذلك أن يدخن الإنسان فيها (السجائر أو التنباك) أو ماشاكلها فإن رائحتها يتأذى منها كثير من الناس فضلا عن أن فعل ذلك لايناسب ماينبغى للمسجد من حرمة وإجلال والله سبحانه وتعالى يذكر فيقول :

(فى بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه ، يُسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله) .

فى بناء المساجد

إن المؤمن فَطِنٌ حكيم يضع الأمور فى نصابها ، ويكيف الظروف والمقتضيات تكييفًا يتفق والحاجة والضرورة ، فمثلا البقعة التى لا مساجد فيها ، ولا مآذن ينادى للصلاة من فوقها ومن أجل ذلك لاوعظ فيها ولاإرشاد ولاتعليم لأمور الدين يكون من أقرب المقربات إلى الله بناء مسجد بها .

والبقعة التى تكثر فيها المساجد ويكثر فيها الفقراء يكون مما يثاب عليه الإنسان ثوابًا جزيلا أن يتصدق بما يستطيع عليهم .

وإذا كانت قرية فى مكان بعيد عن المطابع والمكاتب ومن أجل ذلك تقل فيها المصاحف فإنه يكون من الخير أن يتصدق الإنسان بنسخ من القرآن الكريم .

من ذلك ترى أن الحالة الاجتماعية توجه عمل الخير .

على أن الثواب يتفاوت بتفاوت قدر الإخلاص وصفاء النية يقول الله تعالى : (ألا لله الدين الخالص) وكل عمل من أعمال الخير تشوبه أية شائبة من الرياء فإن ذلك يبطله ، وقد تحدث الله سبحانه عن هؤلاء الذين يتقبل أعمالهم قبولا حسنًا ، ويصفهم بأنهم الذين يعملون الخير ابتغاء وجه الله ، يقول تعالى : (ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ويقول سبحانه (وماتنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله) . فعلى قدر الإخلاص وعلى قدر الحاجة ، وعلى قدر المتصدق به يكون الثواب .

فى نظافة المساجد

إن من شرط صحة الصلاة طهارة المكان ، فإذا كان المكان قد تنجس بروث الخيل والحمير فإنه لايكون مسجدًا ولاتصح فيه الصلاة .

والمسجد فى الإسلام مكان طاهر ، إنه طاهر من الناحية المادية ، وينبغى أن يكون طاهرًا من الناحية الروحية .

أما طهارته من الناحية المادية فذلك واجب وجوبًا حتميًّا من أجل صحة الصلاة ، والمسلمون فى جميع أوقاتهم يحافظون على هذه الطهارة ويشمئزون ممن يكون سببًا فى تلويث المسجد .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحاول دائمًا أن تكون الرائحة فى المسجد عطرة جميلة ، وكان يحث بسلوكه على اتخاذ العطر عند الذهاب إلى المسجد ، لأنه هو كان يمس الطيب عند ذهابه إلى المسجد اتباعًا لقول الله تعالى : (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) ومن الزينة اللباس الحسن والرائحة الحسنة . ولقد حث الإسلام على الطهارة والنظافة ، وأوجب ذلك إيجابًا فى كثير من الحالات ، وطهارة الثوب والجسم والمكان من شروط الصلاة ، والوضوء وهو نظافة وطهارة من شروطها أيضًا ، والاغتسال من الجنابة واجب شرعًا وهو طهارة ونظافة .

ولقد وصل الأمر برسول الله ﷺ أن نصح من أكل الثوم والبصل أن لا يقرب المسجد ، لأن المصلين يتأذون برائحتهما .

ولقد ذهب أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه يومًا مع صديق له لزيارة رجل قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلا مقصوداً مشهورا بالزهد ، قال : فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على مايدعيه ؟ والذى نريد أن ننتهى إليه هو أن المكان الذى فرش بروث الخيل والحمير لايسمى مسجدًا ولاتجوز الصلاة فيه ، وبيوت الله أطهر وأزكى وأجلّ من أن تفرش بمثل هذه القاذورات .

وطهارة المساجد لاتقتصر على الناحية المادية فحسب وإنما يجب أن تكون المساجد طاهرة من الناحية الروحية أيضًا فلا يدور بين المصلين حديث فى غيبة أو نميمة أو غير ذلك من آثام اللسان أو من آثام الجوارح .

إن المساجد لله ، وهى بيوت الله ، وماكان لله يجب أن يكون مقدسًا مادة وروحًا .

فى تعمير المساجد

المساجد ينبغى أن تكون خالصة لعبادة الله القائمة على أساس من توحيده وإخلاص العمل له ، فلا ينبغى أن تشغل بغير الذكر والعبادة وتدريس العلم ونحو ذلك : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا) ومعنى الآية الكريمة أن كل مكان يسجد فيه لله ينبغى أن يكون مكانًا لهذه العبادة ، وكل سجود ينبغى أن يكون قائمًا على أساس التوحيد ليكون سجودًا حقيقيًّا جائزًا للقبول عند الله .

وقد حدد الله للمساجد أهلها ، وبين ماينبغى أن تكون عليه صفاتهم ومظاهرهم فقال : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) . والمراد بعمارة المساجد كما يقول الألوسى : مايعم إصلاح بنائها وتنظيفها وتزيينها بالفرش التى لاتشغل قلب المصلى عن الحضور وتحقيق الراحة والاستغراق فى العبادة ، وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ، ودراسة العلوم الشرعية فيها ونحو ذلك . ، وصيانتها من حديث الدنيا والغناء .

فى إمامة الابن لوالده

الأحق بالإمامة هو الأعلم بأحكام الصلاة ، والأقرأ لكتاب الله ، فإذا كان الابن عالمًا وأبوه ليس بعالم فهو أحق بالإمامة من أبيه ، وذلك لأن الإمامة أمر يتصل بالدين ، والمقدم فيها هو الأعلم بالدين ، وليس على الأب من غضاضة أن يأتم بابنه روى مسلم والإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنَّة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا) .

وروى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرؤهم » .

فى حكم إمام المسجد الذى يتقاضى أجرًا عن عمله

إن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه حينما تولى الخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق ليتجر كعادته وليكسب عيشه بيده فمنعه أصحاب رسول الله ﷺ من الذهاب إلى السوق للتجارة ، وفرضوا له من بيت المال ما يكفيه ويكفى مَن يعول من أفراد أسرته مئونة العيش ، وعَمَلُ سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فى الخلافة عمل دينى ، فإنه يصرّف أمر الدين وأمور الدنيا ، وهو فى تصريفه أمور الدين إمام المسلمين ، يصلى بهم ، ويخطب فيهم يوم الجمعة ، ويفتيهم فى أمور دينهم .

وهذا هو الأصل والأساس فى إباحة أخذ الإمام أجرًا عن وظيفته وذلك أنه متفرغ لها ، ويتأسى بسيدنا أبى بكر رضى الله عنه فى أخذ مافرضه له الصحابة رضوان الله عليهم ، ويجوز أن يتبرع إمام بالإمامة دون أن يأخذ على ذلك أجرًا ، وهذا ليس حجة على غيره .

والأفضل أنه إذا كان الإمام ميسورًا قد وسع الله عليه فى الرزق وبسط له فى النعمة أن لايأخذ أجرًا على إمامته .

أما إذا كان لامال له وكان محتاجًا إلى الأجر لعيشه وعيش أسرته التى يعولها فله أن يأخذ الأجر ولابأس بذلك .

فى سدل الإمام يديه

مادام الإمام يصلى الصلاة مستوفية لأركانها وشروطها فإن صلاته صحيحة والصلاة خلفه جائزة ولو سدل يديه ولم يقبضهما ، لأن قبض اليدين ليس من أركان الصلاة ولامن شروطها ، بل هو مندوب فقط ، فمن فعله فحسن ، ومن تركه لااعتراض عليه .

كما أنه لايجوز للإمام أن ينتقد الذين يقبضون أيديهم فى الصلاة ، لأن هذا الفعل مندوب إليه ، وقدورد فيه الأحاديث عن الرسول ﷺ منها قوله ﷺ : « إنّا معشر الأنبياء أمرنا بتعجيل فطرنا وتأخير سحورنا ، ووضع أيماننا على شمائلنا فى الصلاة » .

وقال ابن عبد البر : إنه قول جمهور الصحابة والتابعين ، وذكره مالك فى الموطأ وقال : لم يزل مالك يقبض حتى لقى الله عز وجل .

فى صلاة الجمعة فى مسجد يعتقد المؤمن أن إمامه مشرك

قال الله سبحانه وتعالى (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم) .

وعلى هذا لايجوز للمسلم أن يصلى الجمعة معتقدًا أن إمامه مشرك ، لأن النية شرط فى الصلاة ، والله سبحانه وتعالى يقبل كل تائب إلاّ المشرك ، ويغفر كل الذنوب ماعدا الشِّرك حيث يقول فى سورة النساء .

(إن الله لايغفر أن يُشرَك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومَن يُشرِك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا) .

وعلى هذا الأساس لايجوز للمسلم أن يصلى الجمعة فى مسجد يعتقد أن إمامه مشرك .

فى إذا أمر إنسان بترك الصلاة

من المبادئ المقررة فى الدين الإسلامى ، أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والصلاة من أهم أركان الإسلام ، ينفى سيدنا عمر الإسلام عمّن تركها فيقول رضوان الله عليه : « لاحظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة » ويقول الرسول صلوات الله عليه : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

فلا يجوز أبدًا أن يترك إنسان الصلاة من أجل مرضاة إنسان آخر أو بسبب تهديده له ، ولن يضيع الله إنسانًا أدى ما أوجبه الله عليه ، يقول الله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

بيد أن المؤمن كيّس فطن لبق يجب عليه أن يعمل بكل وسيلة ذكية للمحافظة على دينه كما يحتال فى ذكاء للمحافظة على دنياه :

فى تهديد الخادم والأجير إذا لم يتركا الصلاة

يقول الله تعالى : (ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) ، ويقول سبحانه : (وفى السماء رزقكم وماتوعدون) ويقسم سبحانه على ذلك نظرًا لضعف الإنسان وقلقه فيما يتعلق

بالرزق فيقول تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ماأنكم تنطقون) .

هذا ومن المبادئ المقررة أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من كل ذلك تتبين الإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالأجير ، وفيما يتعلق بوجوب أداء الصلاة برغم كل الظروف فى أول الوقت ، أو فى منتصفه أو قرب نهايته إذا لم يكن بدمن هذا ، ولتكن النتيجة بعد ذلك ماتكون ، ومن اتجه إلى الله فإن الله لايضيعه .

فى المكره على ترك الصلاة

يقول الله سبحانه وتعالى (وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين) ، ويقول صلوات الله عليه عندما ذكر الصلاة يومًا : « من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا ولابرهانًا ولانجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ ابن خلف » .

ومما له مغزى عميق فى الدين الإسلامى أن الصلاة تقام حتى فى حالة الحرب ، وعندما يكون الجيشان وجهًا لوجه ، ومع كل ذلك فإن الإنسان إذا أكره على ترك الصلاة وهدد فى ذلك بالقتل ولم يجد مفرًا من تركها أو القتل فإن الله سبحانه وتعالى أرحم بعبده من أن يوجب عليه فعلها فى هذه الظروف وعليه أن يقضيها فور استطاعته وحسب استطاعته .

فى حكم المرور أمام المصلى فى أثناء الصلاة

روى الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى الجهم عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه لكان أن يقف أربعين جبرًا له من أن يمر بين يديه . قال الراوى لاأدرى قال أربعين يومًا أو شهرًا أو أربعين سنة .

والمرور بين يدى المصلى مكروه ، ومن أجل ذلك يستحب للمصلى أن يقف فى مكان لايكون طريقًا للمارة ، فإذا لم يكن ذلك فعليه أن يضع حدًّا ليمر الناس من بعده أو يخط خطًّا .

وعليه أن ينبه المار بالإشارة أو بالتسبيح أو برفع الصوت بالقراءة ، فإذا كان المصلى سيدة فإنها تصفق ولاترفع صوتها بالقراءة . وفى المرور أمام المصلى فى أثناء تسليمه فى ختام الصلاة خلاف الأولى – والأولى فى هذه الحالة انتظار التسليم ، وذلك لايعد أن يكون ثوانى محدودة .

فى إذا صلى المرء كما رأى الناس يصلون

إذا صلى المرء كما رأى الناس يصلون تصح صلاته وتسقط الفريضة ، إن كانت الصلاة فرضية أى اتفقت فيه نية الإمام مع نية المأموم أمّا إذا لم تتفق فليست مسقطة للفريضة وإنما له بها حسنات وعليه إعادة الصلاة .

أما قول رسول الله ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فيريد الرسول به أن يبين موضع كيفية الصلاة لهم بأركانها ومستحباتها وسننها ، فقال لهم صلوا كما رأيتمونى أصلى ، وسبب ورود الحديث أنّ المقام مقام تعليم وتعريف وانتقال بهم من النظر إلى العمل ، لأجل أن تستقر الصورة فى أذهانهم ويسيرون عليها ويؤدونها .

فى من يقتضى عمله أن يكون مشغولا وقت صلاة الجمعة ويصليها ظهرًا .

الفرض يوم الجمعة هو صلاة الجمعة فى وقت الظهر على من استكمل شرائطها ، وهو أن يكون مقيمًا خاليًا من الأمراض وهو بالغ عاقل ، فمن استكمل هذه الشرائط وجب عليه صلاة الجمعة لايعفيه منها أى شغل ، ويجب على المسئولين عن العمل أن يهيئوا الفرصة لصلاة الجمعة ، لأنها ساعة كل أسبوع وتركها معصية . .

فى الأمور التى تمنع المصلى من ثواب صلاة الجمعة

الأمور التى تمنع المصلى من ثواب يوم الجمعة :

١ – تخطى الرقاب .

٢ – الاشتغال بذكر الدنيا .

٣ – الحديث وقت الخطبة بأى حديث كان سواء كان الحديث حديثًا دينيًّا أو حديثا دنيويًّا ، فقد ورد فى السنة « من تخطى رقاب المصلين يوم الجمعة يجر قصبة فى النار يوم القيامة » وورد فى السنة « أن من قال لصاحبه يوم الجمعة أنصت فقد لغا ، ومن لغا فلا جمعة له » وورد فى السنة « إذا قام الإمام فلا صلاة ولا كلام » .

فى أيهما أفضل : المصلى مع ارتكاب الكبائر ؟ أم غير المصلى مع عدم فعل الكبائر ؟

لافضل فى هذا ولافى ذاك – كلاهما مقصر ومخالف للدين ، وإن كان بعضهم أخف من بعض ، فالذى يصلى ويرتكب بعض الكبائر كالزنى يدل بفعله هذا على نقص فى صلاته من ناحية الإخلاص والخشوع والاستغراق فيها ، لأن صلاته لولا هذا النقص الخطير فيها كفيلة بمنعه من ارتكاب أى كبيرة .

قال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، أى الصلاة الحقيقية الصادقة ، وعليه أن ينظر فى صلاته ويعلم أنه ليس له إلاّ ما عقل منها وأنها بدون هذا التعقل وهذا التأثير النافع فى كبح جماح النفس عن الشهوات صورة ظاهرة لا قيمة لها عند الله ، بل تصعد وعليها قترة وغبرة فتغلق دونها أبواب السماء ويضرب بها وجه صاحبها .

وأما الذين لايرتكبون الكبائر ولايصلون ، فقد هدموا بتركهم الصلاة ركنًا من أركان الدين لقوله ﷺ . (بنى الإسلام على خمس) وعد منها إقامة الصلاة .

وقد قاتل أبو بكر رضى الله عنه مَنْ ترك الزكاة قياسًا على قتال من ترك الصلاة ، فقد كان الصحابة مجمعين على قتال تارك الصلاة وقتله . وقال ﷺ : « من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر جهارًا ، وقال : « من ترك صلاة العصر حبط عمله) ، ويكفى فى إنذار تارك الصلاة وذمه قول الله تعالى : (فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا . إلاّ مَنْ تاب) وبعد فكلا الفريقين كما قلنا عاص وبعيد عن الله ؛ الذين يصلون صلاتهم – صلاة لاروح فيها ولاأثر ، والذين يمتنعون عن الكبائر لايفعلون الصالحات ويخالفون أمر الله تعالى بترك الصلاة ، والمؤمن من تمسك بفعل الطاعة وترك المعصية .

فى إغلاق المساجد وتعطيلها

المساجد بيوت الله فى الأرض تقام فيها الصلوات ، وتؤدى فيها شعائر الدين ، ولايصح إغلاقها ولاتعطيل الشعائر فيها بأى عذر من الأعذار ، وإلاّ دخل مَنْ فعل ذلك تحت قوله تعالى : (ومن أظلم ممن منعَ مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) ورحيل إمام المسجد عن القرية ليس عذرًا يجيز منع الصلاة فى المسجد أو إغلاقه بل يلزم فتحه للمسلمين يصلّون فيه ، وليست الصلاة

خاصة بالإمام الرسمى بل لكل مسلم يعلم أحكام الصلاة أن يؤم الناس فى الصلاة .
فليبادر أهل القرية بفتح المسجد وأداء العبادة فيه وعدم تعطيل شعائر الإسلام .

فى تسبب إنسان فى إفساد صلاة الجماعة

إذا تسبب إنسان فى إفساد صلاة آخر فإنه يحرم عليه ذلك ، إلاّ إذا كان مضطرًّا إلى هذا الفعل وليس له مخلص منه .

وإذا كانت الصلاة فى الطريق العام تقطع الطريق على السيارات أو تشغل المصلين بحركة المرور أو تفصل بين المصلين وبين الإمام – فإنها تكون مكروهة .

والسائل الذى قطع الصلاة على المصلين إذا كان يمكنه أن يتفادى ذلك دون قطع صلاتهم أو إفسادها فإنه يحرم عليه هذا الفعل .

إن الصلاة عبادة أوجبها الله سبحانه وتعالى : إنها ركن من أركان الإسلام ، وهى الركن الثانى ، وهى عماد الدين : من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى من أول مايُحَاسب عليه العبد ، ومن أجل كل ذلك يجب أن يساعد المصلين ويعينهم كُلُّ مسلم على إتمام صلاتهم فى هدوء وفى سكون وطمأنينة ، فإذا قطع عليهم قاطع صلاتهم فإنه يكون آثمًا .

ولكن من جانب آخر على المصلين أن لا يصلُّوا فى مكان يمنع الناس من أداء مصالحهم إذا أمكنهم أن يصلُّوا فى مكان آخر .

فى من يصلى صلاة على فترات متقطعة

الصلاة ركن من أركان الإسلام لقوله عليه الصلاة والسلام : « بُنِى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

وهى عماد الدين وركنه الركين ، وهى الفارقة بين المؤمن والكافر وهى فرض على المسلم منذ أن يصل إلى مرحلة البلوغ حتى وفاته ، يلزمه أن يؤديها ويحافظ عليها امتثالا لأمر الله : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) .

ومن قصر فى أدائها يعاقب على تركها ، وإذا أدى بعض الفرائض دون البعض سقط عنه الفرض الذى أداه وبقى الآخر فى ذمته لاتبرأ عنه إلاّ بالأداء . وإن لم يستطع حصر مافاته من

الصلوات اجتهد وقضى على غالب ظنه ، وينوى عند القضاء آخر فرض عليه سواء كان ظهرًا أو عصرًا وهكذا ، وبعد الصلاة تكون الباقية آخر صلاة عليه .

ولسهولة الأداء يلزمه أن يصلى مع كل فرض من الصلوات الخمس فرضين أو أكثر قضاء حتى تبرأ ذمته والله الموفق والمعين . .

فى تهاون الحاج فى أداء الصلاة

الصلاة ركن من أركان الدين ، وهى عماده وعليها بناؤه ، قال تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) .

وقال عليه السلام « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » وقال : « بين المرء وبين الكفر ترك الصلاة » .

فمن أهمل فى أداء الصلاة أو تكاسل أو تهاون فى أدائها صدق عليه قول الله تعالى : (فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون) وكان مستحقا لهذا الوعيد ، ولايشفع له حجه فى التهاون فى أداء الصلاة أو التكاسل عنها ، بل يزيد من مسئوليته ووجوب محافظته على أدائها فى أوقاتها ، لأن من حج فقد كمل دينه ، فيلزمه أن يحافظ على كماله ، ولايتهاون فى شىء من فرائضه وأركانه حتى يتقبل الله حجه ، لأن من علامات الحج المبرور أن يرجع أحسن حالا مما كان عليه ، ولأن الحاج بتهاونه فى أداء الصلاة يكون قدوة سيئة لمن يريدون الحج ، ويتسبب فى سب الناس لهم والتشنيع عليهم .

لذا يجب على الحاج أن يبتعد عن كل مايغضب الله مااستطاع إلى ذلك سبيلا .

فى موقف المسلم من تارك الصلاة

إن موقف المسلم من تارك الصلاة هو موقف الإنكار ، وذلك أن ترك الصلاة منكر يبغضه الله ورسوله .

وإنكار المنكر يكون تارة باليد ، وتارة باللسان ، وتارة بالقلب ، لأن رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وموقف المسلم إذن من تارك الصلاة – هو فى أقل الدرجات – إنكار بالقلب ، والإنكار

بالقلب اعتزال وتجنب ، فلا يجوز إذن شراء شيء منه طعامًا كان أو غير طعام ، وهذا هو مايترتب على الإنكار القلبى .

أما أن يرى المسلم تارك الصلاة فيصاحبه ويجالسه ويشترى منه ويفيده مكسبًا بالشراء فإن كل ذلك يخالف الوضع الإسلامى ويشبه عمل بنى إسرائيل . وإذن فالموقف السليم إسداء النصيحة ، فإن لم يستجب واستمر على ترك الصلاة فأضعف الإيمان مقاطعة كاملة .

فى الصلاة فى المساجد التى بناها المستشرقون بأموالهم

إن بناء المساجد أمر قد رسم الله سبحانه وتعالى شروطه من حيث الهدف الذى بُنى المسجد من أجله ، ومن حيث الباعث الذى جعل البانى يبنيه – بين الله ذلك بمناسبة مسجد الضرار الذى بناه أبو عامر بالمدينة منافسًا به مسجد رسول الله ﷺ – يقول سبحانه فى سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا . .) إلخ الآيات . .

فإذا كان المسجد الذى بناه المستشرق أُريد به التفرقة بين جماعة المسلمين أو أُرِيد به غرض سيىء أيما كان هذا الغرض فإنه يجب على المسلمين ألاّ يدخلوه ، وذلك توحيدًا لكلمتهم ، وتلافيًا للضرر الذى ينبئ عن الغرض السيئ الذى من أجله بنى المستشرق المسجد .

أما إذا لم يكن فى الأمر أى غرض سيئ ولم يحدث تفريق فى كلمة المسلمين ولاخوف فيما بينهم فإنه لابأس بالصلاة فى المسجد .

فى المسجد

إن الجلوس فى المسجد لسماع الخطبة عبادة ، فإذا طالت الخطبة فقد كثر الثواب ، والمؤمنون الأوفياء لعقد الإيمان قلوبهم معلقة بالمساجد فإذا أتيحت لهم الفرصة لإطالة الإقامة فإنهم يستبشرون بذلك ويعدونه من فضل الله ، أما هذا الذى يضيق بطول الخطبة فقد شغلته الدنيا وألهاه التكاثر ، فإذا ضاق بالخطبة خرج على الأوضاع الإسلامية وصلى الظهر منفردًا فهو آثم مذنب فإن الظهر لايغنى عن الجمعة فى مثل هذا الحال ، وبعض هؤلاء الذين يضيقون بطول الخطبة يقضون الساعات فى الملاهى والمقاهى ، أو فى الأحاديث التى ليست دائمًا بريئة ، ومع ذلك فإن السنة تقصير الخطبة وإطالة الصلاة ، وقد كانت خطبته صلوات الله عليه وسلامه من القصر والتركيز بحيث لاتستغرق أكثر من عشر دقائق فى أغلب الأحايين ، فعلى خطباء المساجد

مراعاة ذلك ، فإذا أطال أحدهم إلى حد يتجاوز الوضع السليم فإنه ينبه فى رفق حتى يعود إلى السنة الشريفة وهو على كل حال مأجور بقدر إخلاصه وصفاء نيته فيما يتعلق بإطالة الخطبة .

فى المرأة والمسجد

يقول صلوات الله عليه – فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه : « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » ويقول الإمام النووى فى ذلك ، بشرط أن لاتكون متعطرة أو متزينة أو يخشى منها الفتنة ، وفيصل الأمر إذن فى هذا الموضوع أن ذهاب النساء إلى المساجد محتشمات لايمنع منه مانع ، بل هو فى هذا العصر مطلوب ، ينبغى أن نشجع عليه النساء ، لعل الله يهديهن بسماع كلمة موعظة أو بالتعرض لنفحات الله فى مساجده .

ولقد فتحت أبواب السينما والمسارح على مصاريعها أمام النساء ، فمن الحكمة والأمر كذلك أن نفتح أمامهن أبواب المساجد ، أما ماروته السيدة عائشة – رضى الله عنها – من أنه لو رأى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ما أحدثته النساء فى زينتهن لمنعهن المساجد ، فإن مرادها أنه على النساء أن يذهبن إلى المساجد محتشمات ، وحاشاها – رضى الله عنها – أن تقصد منع شىء أباحه الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فإذا ماكان الاحتشام ، وانتفت أسباب الفتنة ، فلا يأتى ذهاب النساء إلى المساجد إلاّ بخير : بخير لهن وبخير للمجتمع ، بخير فى الدنيا وبخير فى الآخرة .

فى الميت الذى لم يُصَلَّ عليه

الصلاة على الميت يلزم أداؤها قبل الدفن ، فإذا دُفن الميت من غير أن يُصلى عليه أُخرج من القبر – إن كان لم يُهل عليه التراب – يُصلى عليه ثم يُعاد دفنه ، وإن كان قد أهيل عليه التراب حرم نبش قبره وإخراجه منه ، ويصلى عليه وهو فى القبر ، وقد ورد أن النبى ﷺ صلى على شهداء أُحد بعد ثمانى سنين ، ومن السنن الجميلة مانفعله نحن الآن من الصلاة على الغائب ، والسؤال الذى معنا لايجوز فيه إخراج رفات الميت بحال من الأحوال بعد هذه المدة الطويلة ، لأن فيه انتهاكًا لحرمة الميت ، ونبشًا للقبر ، وهو حرام ، والإسلام يحترم الميت كما يحترم الحى .

ومما لاشك فيه أن فتح القبر بعد هذه المدة الطويلة وإخراج مابقى من الميت من عظام ورفات إنما هو إساءة لما تعارف عليه الناس من حرمة واجبة للميت ، ثم إن الصلاة تصل إلى الميت ، سواء كان قريبًا أم بعيدًا وسواء كان فى القبر أو خارجه . ومن أجل كل هذا يُحرّم فتح القبر وإخراج الميت منه .

فى الأمور التى تمنع الإنسان من ثواب صلاة الجمعة

روى الإمام البخارى بسنده عن سلمان الفارسى قال : قال رسول الله ﷺ « لايغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر مااستطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ماكتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلاّ غفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى » .

ومن هذا الحديث نلمح الأمور التى تمنع الإنسان من ثواب صلاة الجمعة وأول هذه الأمور التفريق بين اثنين أو تخطى الرقاب .

وفى حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص « فمن تخطى أو لغا كانت له ظهرًا » وقد استثنى العلماء من تخطى الرقاب ، التخطى لسد فرجة فى صف تقدم وأن يقيم إنسان إنسانًا من مكانه ليجلس فيه ، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال : « نهى النبى ﷺ أن يقيم الرجل أخاه من مقعد ويجلس فيه ، لأنه إن كان فعله هذا من جهة الكبر كان قبيحًا ، وإن كان من جهة الأثرة وحب الذات كان أقبح » .

أما ثانى هذه الأمور فهو عدم الإنصات حال خطبة الإمام ، أو التلاعب عن هذا الاستماع ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومن مسّ الحصا فقد لغا » .

ومن الأمور التى تنقص من ثواب الجمعة ترك الغسل لها وعدم الاستعداد لها ، وقص الأظفار وتحسين الهيئة ، وتطييب الرائحة بالطيب ، والمبادرة بالخروج إليها قبل الخطبة بوقت كاف .

بقى أن نقول ماهو ثواب الجمعة ؟ إنّ مابينته الأحاديث الصحيحة : غفران الذنوب الصغائر وزيادة ذنوب ثلاثة أيام من الأيام التى بعدها ، فإن لم تكن صغائر زادت الحسنات وكثر الثواب .

فى ترك الزوجة للصلاة

أجمع العلماء على أن من أنكر فريضة الصلاة أو استخف بها كافر ، لإنكاره أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وعليه يحمل قول الرسول ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » رواه مسلم وقوله : « إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » رواه أحمد

وغيره : وأما من تركها كسلا مع اعتقاد فرضيتها فإنه مسلم عاص ، ومصيره أن يعذب عذابًا أليمًا فى جهنم .

يقول الله تعالى : (فخلفَ مِن بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْنَ غيًّا) .

وعلى كل فتاركها عمدًا أوكسلا مفرط مستحق للعقاب والتأديب ، وقد قال تعالى : (وَأْمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها) .

والخطاب فيها شامل لكل مسلم رعاية للقرابة وسعيًا إلى تكميل الخير بعد تكميل النفس الأقرب فالأقرب . وكان ﷺ يوقظ أهله للصلاة ، وكان عمر يفعل ذلك ويتمثل بهذه الآية .

وبعد ؛ فإن كانت الزوجة جاحدة لفريضة الصلاة بعد إخبارها بأهميتها وبما يترتب عليها من الكفر فهى كافرة يفسخ نكاحها ولاتحل معاشرتها .

وإن كان تركها الصلاة لكسل ونحو ذلك فعلى الزوج دعوتها إلى الصلاة برفق ولين ومصابرة حتى تتعود عليها ، فإن أبت اشتد عليها بقدر الوسع ولايلزمه طلاقها ، وعلى الزوجة ومثيلاتها أن يعلمن أن المرأة مسئولة عن عملها وأن مسئولية الزوج عنها مسئولية فرعية . قال تعالى : (مَن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) أى مَن يعمل صالحًا من ذكر أو أنثى فسيلقى جزاءه .

يقول سبحانه (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى) أى معيشة ضنكًا فى هذه الحياة أما فى يوم القيامة فإنه سبحانه يحشره متخبطًا ضالا كالأعمى الذى لايهتدى لطريقه.

فى دخول المسجد وقت الجمعة والإمام يخطب

إن الصلاة هى الركن الإسلامى الذى يلى مباشرة فى أركان الإسلام شهادة أن لاإلهَ إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله ، ولقد حث عليها الإسلام ، وحبب فيها كثيرًا مع فرضيتها التى يصل إنكارها إلى الكفر ، وذلك لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتكفر الذنوب وتغفر الآثام وتنير القلب ، وهى بكل ذلك من أهم العوامل فى إصلاح المجتمع وتدعيم الأمن فيه .

فقد فرضها الإسلام فى أوقات معينة ، وسنها الرسول ﷺ فى مناسبات كثيرة جدًّا ، منها تحية المسجد ، روى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » وهذا عام فى كل وقت يدخل فيه الإنسان

المسجد ماعدا الأوقات التى تكره فيها الصلاة .

أما فيما يتعلق بدخول المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فقد روى البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه قال : « دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال له : أصليت ؟ قال : لا . قال فصل ركعتين وقال : إذا دخل أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما » أى يخففهما – وروى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة وقد خرج الإمام – أى خرج من غرفته واعتلى المنبر يخطب فليصل ركعتين » .

صلاة النفل التى تنوب عن خمسة فروض

هذه الصلاة صلاة مبتدعة ليس لها أصل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ .

وأمر الصلاة مشهور وواضح ، وليس من المعقول أن تنوب صلاة نفل عن خمسة فروض أو عن فرض .

فالفرض معلق بذمة صاحبه وعليه قضاؤه ، وإن لم يقبل ذلك فى الدنيا حوسب عليه يوم القيامة .

ونحب أن ننبه إلى أن أى صلاة تخالف فى كيفيتها الصلاة المشروعة من قيام وركوع وسجود وألوان الذكر وصيغه ونحو ذلك – هى صلاة مبتدعة ، وتغيير فى الدين بما لم ينزل به شرع ، وخروج من حدود الاتباع ، وهى مبعدة عن الله تعالى فضلا عن كونها غير مُقرِّبة إليه . وفيما ورد عن الرسول ﷺ من الصلوات الثابتة الواردة مايغنى ومايفيد . وقد أكمل الله لنا الدين وأتم الشريعة ، وحدد مايقربنا إليه وحذرنا مما سواه .

فى من لايصلى ولاينكر الصلاة

يقول الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) وعن جابر رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وقد روى الترمذى فى حديث حسن صحيح عن النبى ﷺ قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أى من تركها إنكارًا لها وجحودًا وتكذيبًا فقد كفر إن للصلاة فى الجو الإسلامى منزلة كبيرة فهى عماد الدين ، وهى ركن من أركانه باتفاق الأئمة ، وعلى تاركها أن

يسارع بالتوبة ، وأن يحافظ عليها ، ومادام لاينكر الصلاة باعتبارها ركنًا من أركان الدين ، ومادام يقرُّ بها – فإنه لايكون كافرًا وإنما يكون بتركها عاصيًا .

والعاصى يحاسبه الله على عصيانه ويكافئه خيرًا على مايأتيه من خير ، فالمسلم تحصى عليه حسناته وسيئاته وهو مجزى بالخير خيرًا ، وبالشر شرًّا ، وأن العاصى أو تارك الصلاة الذى يتصدق لوالديه تقبل صدقته ، ويثيبه الله سبحانه وتعالى خيرًا على ذلك ، وعسى الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدره للصلاة بسبب مايعمله من خير وهو تصدقه لوالديه فيكون مصيره الصلاح والهداية .

فى مَن قالوا بإسقاط الأعمال – وفيها الصلاة – عنهم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وبعد فقد قال جلّ ذكره .

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) وإقامة الصلاة هى أداؤها على مايحب الله ورسوله ، ومعنى ذلك أن الإنسان يستغرق فى الصلاة منذ ابتدائها ، فلا يفكر فى شىء خارجها ، إن من يقيم الصلاة لايفكر فى أثنائها فى وظيفة ولامال ولاجاه ولامشاغل دنيوية أيًّا كانت ، وذلك لتكون الصلاة حقًّا صلة بين العبد وربه ، ولن تكون كذلك إلا حينما يكون الإنسان بحيث لاتلعب به – فى صلاته – دنيا ولايلعب به شيطان يصرفه عن صلاته ليفكر فى أمر آخر ، وحينما يؤكد الله سبحانه نَهْى الصلاة عن الفحشاء والمنكر فإنما يعبر الله سبحانه عن الصلاة المقامة .

أما كونها كتابًا موقوتًا فمعناه أنها فرض له وقت معين ، أى مؤقت بأوقات محددة لايجوز أن تتجاوزه دون أدائها ، وذلك يعنى أوقاتها الخمسة المحددة فى الشريعة الإسلامية ، وهذا التحديد بالوقت باق ببقاء الإنسان ، لايسقط فى أى سن ، ولايسقط مهما وصل الإنسان من الدرجات الروحية ، بل إن الدرجات الروحية تبعث الإنسان فى صورة أقوى على المحافظة على الصلاة ، ومن أجل ذلك فإن كل من يزعم أنه وصل إلى درجة تسقط فيها الصلاة عنه فإنه مفتر على الحق ، وخائن للأمانة الدينية .

وقديمًا قال رجال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحرمات من باب البر والتقرب إلى الله عزوجل فقال الجنيد رضى الله عنه : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهى عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا : وبعد فيقول الله تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) .

فى الرجل يصلى فى دكانه مع قرب المسجد منه

إن الرجل الذى يصلى فى دكانه مع قرب المسجد منه واعتذاره عن ذلك أنه يكون وحده فى الدكان ويصلى جالسًا لتعبه -- إن هذا الرجل صلاته صحيحة ، إلا أنه محروم من ثواب الجماعة ومع أن صلاته صحيحة فإننا نريد أن نضع تحت سمعه وبصره الحديث الصحيح التالى الذى رواه إماما السنة : البخارى ومسلم رضى الله عنهما : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف علىٰ صلاته فى بيته . وفى سوقه (أى فى دكانه) خمسًا وعشرين ضعفًا » وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لايخرج إلا لصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه ، مالم يحدث تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » .

فى تأخير الصلاة عن موعدها

من أدى فريضة الصلاة فى غير موعدها ولم يكن متعمدًا فى ذلك التأخير ، وكان تأخيرها نتيجة نسيان أو نوم فلا حرج عليه لقول النبى ﷺ : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وإن كان تأخيرها : نتيجة اشتغال ببعض الأعمال فؤخرها آثم وعليه أداؤها فورًا إذا تذكر حق الله عليه فى أدائها لقول النبى ﷺ : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

وعلى المسلم الذى يريد أن لايتعرض لغضب الله عز وجل ، ويريد الحظوة برضوان الله تبارك تعالى أن يبادر بالصلاة لأول وقتها وفى جماعتها الأولى متى تيسر له ذلك . وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده قد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها . ثم آمر رجلا فيؤم لها . ثم آمر رجلا فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال أحرق عليهم بيوتهم » .

لهذا نرى المبادأة بالصلاة فى وقتها ، كيلا يعرض للإنسان من شواغل الحياة ماقد يحول بينه وبينها ، بل ربما وافاه الأجل المحتوم قبل أدائها ، فيكون ملومًا بترك المبادرة إليها .

فى البصاق فى الصلاة

روى مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ رأى نخامة فى قبلة المسجد فحكها بحصاة ثم نهى أن يبزق الرجل عن يمينه أو أمامه .

وفى رواية أن رسول الله ﷺ رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فأقبل على الناس فقال : « مابال أحدكم يقوم مستقبل ربه ، فيتنخع أمامه ، أيحب أحدكم أن يُستقبَل ، فيُتَنخّع فى وجهه ؟ » .

قال العلماء : أما البصق فى المسجد فلا يجوز لقوله ﷺ : « البزاق فى المسجد خطيئة » .

والمتأمل فيما تقدم من الحديثين يجد أن الرسول ﷺ لم يمنع من البزاق فى الصلاة مطلقًا وإنما منع بعض مظاهرة فى الصلاة وأباح البعض الآخر ، فالبصاق فى الصلاة جائز ولاتبطل به الصلاة إذا كان عن غلبة وعدم اختيار ، أوكان عن اختيار ولم يقصد به صاحبه العبث ، والإنسان يمكنه – وهو فى الصلاة – أن يستخرج منديلا ويبصق فيه ، وذلك إذا لم يجد مناصًا من البصاق .

أما إذا كان يغلبه البصاق دائمًا وهو فى الصلاة فعليه أن يضع المنديل فى مكان قريب منه بحيث يتناوله فى سهولة وهو فى الصلاة .

فى الحكم فى إمام قرأ الفاتحة جهرًا حتى وصل إلى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فقال بصوت مرتفع « استعنا بالله »

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ، فنفيد بأن هذا دعاء لايشبه كلام الناس ، فلا تبطل به الصلاة ، وحكم قراءته أنه إن كان عامدا عالمًا أن الذكر يقطع موالاة القراءة وجب عليه استئناف قراءة الفاتحة ، وإن كان ناسيًا أو جاهلا ، صحت قراءته ، ولايحسب عليه الاستئناف ، هذا بالنسبة للإمام ، وأما المأموم فصلاته صحيحة لعذره والله تعالى أعلم .

فى من فاتته صلاة فى عمره

حاول كثير من المنحرفين أن يدسوا على رسول الله ﷺ كثيرًا من الأحاديث ، ولقد جاهد علماؤنا رضى الله عنهم ، فى تخليص الأحاديث من هذا الباطل ، فوفقهم الله سبحانه فى ذلك إلى

مايرضى الله ورسوله ﷺ ، وليس فى الأحاديث الصحيحة حديث يقول :

إن من فاته صلاة فى عمره ولم يحصها ، فليقم فى آخر جمعة من رمضان ، ويصلى أربع ركعات بتشهد واحد ، بنية الكفارة ، كلا ، وإنما مَنْ فاتته صلاة فإنه يجب عليه أن يتجه إلى الله سبحانه ، فى إخلاص تائبًا توبة نصوحًا ، مستغفرًا فى خضوع وخشوع ، فإذا ماقام بالتوبة على الوجه الصحيح ، فإنه يبدأ بقضاء مافاته من صلاة ، على قدر استطاعته فإن لم يكن يعرف عددها أو أوقاتها فليفعل بحسب غالب ظنه ، ولن يكلف الله نفسا إلاّ وسعها » .

ومما يجب التنبيه عليه أن الإنسان إذا اخترع حديثًا حتى ولو أراد به العظة والاعتبار فإنه يتبوأ مقعده من النار ، يقول ﷺ : « من كذب على متعمدًا ، فليتبوأ مقعده من النار » ويشترك فى الإثم والمعصية مَنْ روّج لحديث مزيف ، فإنه ناشر للباطل ، ومروج للكذب على رسول الله ﷺ ، وإن من يأتى بهذه الصلوات التى ذكرت فى الحديث المزيف فإنه بذلك يشجع غيره على فعلها فيكون آثما بصلاته وعليه مثل إثم من اقتدى به ، والواجب إذن على المؤمن أن ينهى عن ذلك ، ويبين خطأه ويوضح الوضع الصحيح لقضاء الفوائت ، فإنه بذلك ينال ثوابًا ويُؤجَرُ على عمله ويكون فى زمرة هؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم الذين آمنوا بالله إيمانًا سليمًا ، قد صح عن رسول الله ، ﷺ : أنه قال : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » وفى رواية أخرى بزيادة « لا كفارة لها إلاّ ذلك » وبهذا نعلم يقينًا أنه لا كفّارة للصلاة الفائتة إلاّ قضاؤها .

فى الذين يعملون يوم الجمعة ويقولون نحن نصليها ظهرًا والمدارس التى جدول حصصها يمنع من صلاة الجمعة

يقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وهذه الآية الكريمة تبين الوضع الإسلامى عند الأذان للجمعة ، والبيع مَثَلٌ من الأمثلة للأمور التى تشغل الإنسان عند الأذان للجمعة ، وليست المسألة خاصة بالبيع فحسب وإنما هى لكل مايشغل الإنسان ، والآية صريحة فى أمرها وفى إيجابها .

وصلاة الجمعة فى الوضع الصحيح لاتأخذ أكثر من نصف ساعة خطبة وصلاة ، فإذا ما انتهت عاد الإنسان إلى عمله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى

الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون) .

ولقد كان بعض الناس ممن لم يتغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم يتركون جزءًا من صلاة الجمعة منصرفين إلى غيرها فأنبهم الله على ذلك قائلا : (وإذا رأوا تجارة أولهوًا انفضوا إليها وتركوك قائمًا ، قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) . وليس لصلاة الجمعة من بديل إذا كان فى الاستطاعة أداؤها .

أما المدارس التى تعمل يوم الجمعة ويمنع جدول حصصها من صلاة الجمعة فإننا نشكو إلى السيد وزير التربية والتعليم لمنع هذا المحرم فى دور التعليم ، لأن التربية الإسلامية فى المدارس أساس لمنع كثير من الفتن التى تحيط بشبابنا فى عالمنا المعاصر ، ومانحرف كثير من شبابنا إلاّ لعدم وجود التطبيق السليم للنواحى الإسلامية فى دور التعليم .

فى إقامة حفلات المسرح لأجل بناء المساجد

يقول الله تعالى : (لَمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين) ويقول الله تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . إنه سبحانه يحب المتطهرين فى نياتهم ، ويحب المتطهرين فى أعمالهم ويحب المتطهرين فى أموالهم . . ومن أول شروط بناء المساجد أن يكون المال طاهرًا مبذولا من متطهر نية وعملا وأموالا : . ومامن شك فى أن بناء المساجد من أفضل القربات إلى الله وأن الإقامة بها من أفضل القربات إلى الله ، وأن الآية القرآنية الكريمة : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

تشمل البانين لها والمقيمين فيها ؛ بيد أن ذلك كله لابد أن يكون أساسه الحلال ، والله سبحانه وتعالى لايقبل إلاّ طيبًا ومن المعروف أن الحفلات التمثيلية مهما حاول القائمون بها من تطهيرها ، إنما هى حفلات لاتخلو من المجون والعبث ، أو من التبرج والسفور المستهتر ، ولايجوز والأمر كذلك أن يؤخذ من مالها لبناء المساجد ، أو أن تقام من أجل بناء المساجد .

وإذا كان هناك جهة تخلو من المساجد فهل الضرورة والحاجة إلى بناء المساجد تبيح مثل هذا التصرف ؟

إن أمر المساجد فى الإسلام هين سهل ، فقد جعلت الأرض كلها لرسول الله ﷺ ولأمته مسجدًا وطهورًا وحيثما يدرك الإنسان وقت الصلاة يصلى فى أى مكان طاهر ومسجد الرسول ﷺ

كان فى غاية البساطة ، ويستطيع الكثيرون أن يبنوا مثله دون حاجة إلى أن يكون سبيل الطاعة – وهو بناء المساجد – المعصية وأقصد الحفلات التمثيلية وسيصيح قوم فى ثورة معارضة متحدثين عن طهر الفن وبراءته ولكن هؤلاء بالتأكيد لايصدقون أنفسهم ، ولايصدقهم الواقع ، ولايصدقهم الآخرون ، والنتيجة هى أن الله طيب لايقبل إلاّ طيبا .

ثبت الفتاوى

الجزء الأول

وسُئل رضى الله عنه فى العقيدة

صفحة

فى العقيدة الإسلامية ١١
فى التعريف بالإيمان ٢٩
فى أساس الإيمان (أشهد أن لا إله إلاّ الله) ٣٥
فى أشهد أن محمداً رسول الله ٤٥
فى صور إيمانيّة ٥٦
فى صور تتعارض هى والإيمان ٦٣
فى صفات الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم ٦٤
فى قوانين إلهية خاصة بالإيمان ٧١
فى الإيمان والمجتمع ٧٣
فى نتيجة النطق بالشهادتين ٧٦
فى الدليل على وجود الله ٧٦
فى المعجزة تدل على صدق الرسول ٧٧
فى الإسلام صالح لكل زمان ومكان ٧٨
فى معنى كلمة الإسلام ٧٨
فى الحكمة من إرسال الرسل ٨٠
فى معرض الرسالة ٨٠
فى خلافة الله فى الأرض ٨١
فى معنى الإيمان فى الكتاب والسُّنّة ٨٢
فى مظاهر الإيمان ٨٢
فى هل الشك ينقض الإيمان ٨٣
فى الدين والعقل ٨٤
فى مشكلة القدر ٨٥
فى مشكلة الصفات ٨٨
فى أن روح الإنسان هى ميدان التحدى ٩١
فى ظاهرة الإلحاد فى الأوساط العلمية ٩٢

صفحة

فى الروح ٩٣
فى الروح من أسرار الله تعالى ٩٣
فى زيارة القبور والأضرحة ٩٤
فى اكتشافات العلم الحديث ووجود الله ٩٤
فى العقائد التى انحرفت بسبب الإلحاد ٩٥
فى ذكر أنبياء الله فى الكتاب ٩٦
فى عبادة الأوثان ٩٦
فى القوة المادية وسيلة لإرضاء الله تعالى ٩٧
فى الحلف بغير الله ٩٨
فى الجبر والإختيار ٩٨
فى الإسلام دين الفطرة ٩٩
فى الخلافة ١٠٠
فى الشيعة ١٠٠
فى علامات الساعة ١١٦
فى الإمام المهدى المنتظر ١١٦
فى نزول المسيح عليه السلام إلى الأرض مرة ثانية ١١٧
فى المسيخ الدجّال ١١٨
فى الخلط بين المذاهب الفنية والأدبية ، وبين المذاهب الاجتماعية الوثيقة الصلة بتصور العقيدة . ١١٩

وسُئل رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم

فى عدد الرسل ١٢٥
فى لماذا اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ١٢٥
فى ما يقال من أن سيدنا محمدا ﷺ هو أول مخلوق فأين كان حين كان آدم وحواء
فى الجنة ؟ ١٢٦
فى النسب الشريف ١٢٨
فى حكمة إرسال محمد ﷺ ١٢٩
فى معجزة النبى فى الأميّة ١٣٠
فى خلق الرسول ﷺ ١٣٠

صفحة

فى حجة الوداع ١٣١
فى معجزات النبى ﷺ غير القرآنية ١٣٣
فى كيف كان بدء الوحى ١٣٤
فى حياة الشباب لرسول الله ﷺ ١٣٥
فى الرسول ﷺ يعمل كما يعمل سائر الناس ١٣٦
فى أبرز صفات الرسول ﷺ الخالدة ١٣٧
فى عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب ١٣٨
فى عدد الغزوات التى قام بها النبى ﷺ ١٣٩
فى أن الإسلام حمل السيف دفاعاً عن العقيدة ١٣٩
فى رسائل النبى ﷺ إلى الأمراء والملوك ١٤٠
فى أن زواج الرسول ﷺ كان لمصلحة الرسالة ١٤٢
فى لقب أمهات المؤمنين ١٤٣
مظاهر الرحمة فى سلوك الرسول ﷺ ١٤٣
فى الإسراء والمعراج ١٤٤
فى الحكمة من الإسراء والمعراج ١٤٦

وسئل رضى الله عنه فى تفسير القرآن الكريم

فى المراد من أسماء الله الحسنى ١٥١
فى أفضل وسيلة لحفظ القرآن الكريم ١٥١
فى حرمة مس المصحف للمحدث ١٥٢
فى احترام ماكتب عليه آيات قرآنية ١٥٣
فى المصحف المكتوب بلغات غير العربية ١٥٣
فى فضل البسملة ١٥٤
فى استحباب سماع تلاوة المصحف ١٥٤
فى معنى كلمة آمين ١٥٥
فى نزول القرآن فى ليلة القدر ١٥٦
فى الوحى ١٥٦
فى محاولات تحريف القرآن ١٥٧

صفحة

فى التوبة كما وردت فى القرآن ١٥٨
فى حديث الإفك ١٥٩
فى إمكان الإعادة بعد العدم ١٦٠
فى منهج التشريع القرآنى ١٦٠
فى حكم النسخ فى القرآن ١٦٢
فى من قاموا بتشكيل القرآن الكريم ١٦٢
فى الحافظين لحدود الله ١٦٣
فى دعاء الصالحين ١٦٤
فى الفرق بين العزم والهم ١٦٤
فى التخلق بأخلاق الله الجمالية ١٦٥
فى خلق آدم خليفة الله على الأرض ١٦٥
فى معنى اليتيم ١٦٦
فى قصة قوم تبع ١٦٧
فى حكم قراءة القرآن على الأموات ١٦٨
فى تفسير أوائل السور ١٦٨
فى آراء فى أوائل السور ١٦٨
فى مكانة الأنبياء ١٦٩
فى تفسير الربع الثانى من الحزب الأول من سورة البقرة ١٧٠
فى تفسير : (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة . . .) ١٧٠
فى تفسير : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . .) ١٧٥
فى تفسير : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى . . .) ١٧٦
فى تفسير : (فاذكرونى أذكركم) ١٧٨
فى حياة الشهداء فى سبيل الله ١٧٨
فى تفسير : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . . .) ١٨٠
فى تفسير : (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة . . .) ١٨٠
فى تفسير : (نساؤكم حرث لكم . . .) ١٨١
فى تفسير : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً . . .) ١٨٣
فى تفسير : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم . . .) ١٨٤
فى تفسير : (فلما أحس عيسى منهم الكفر . . .) ١٨٥

صفحة

في تفسير : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه . . .) ١٨٧
في تفسير : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . . .) ١٨٨
في تفسير : (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . .) ١٩٠
في تفسير : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .) ١٩١
في تفسير : (وما محمد إلا رسول قد خَلتْ من قبله الرسل . . .) ١٩٢
في تفسير : (الذين استجابوا لله والرسول . . .) ١٩٣
في تفسير : (يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء . . .) ١٩٤
في تفسير : (الرجال قوّامون على النساء . . .) ١٩٥
في تفسير : (حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . . .) ١٩٧
في تفسير : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب . . .) ١٩٧
في تفسير : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . . .) ١٩٨
في تفسير : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . .) ١٩٩
في تفسير : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب . . .) ١٩٩
في تفسير : (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . .) ٢٠٠
في تفسير : (إذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا . . .) ٢٠١
في تفسير : (الله أعلم حيث يجعل رسالته . . .) ٢٠٢
في تفسير : (هو الذى أنشأ جنات معروشات . . .) ٢٠٣
في تفسير : الأعراف ٢٠٣
في تفسير : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا . . .) ٢٠٤
في تفسير : (إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها . . .) ٢٠٥
في تفسير : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه . . .) ٢٠٥
في تفسير : (وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً . . .) ٢٠٦
في تفسير : (إذا قرئ القرآن فاستمعوا له . . .) ٢٠٦
في تفسير : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . . .) ٢٠٧
وسائل النصر في القرآن ٢٠٨
في تفسير : (يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال . . .) ٢٠٩
في سورة براءة والبسملة ٢١٠
في تفسير أول سورة التوبة ٢١١
في حكم التشاؤم ٢١١

صفحة

في تفسير : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . .) ٢١٢
في تفسير : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض . . .) ٢١٥
في تفسير : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . .) ٢١٦
في تفسير : (الر كتاب أحكمت آياته . . .) ٢١٧
في تفسير : (وما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها . . .) ٢١٨
في تفسير : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها . . .) ٢١٨
في تفسير : (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل . . .) ٢١٩
في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ٢٢٠
في تفسير : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه . . .) ٢٢١
في تفسير : (الله الذي جعل لكم مما خلق ظلالاً . . .) ٢٢٢
في تفسير : (ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر . . .) ٢٢٣
في تفسير : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . .) ٢٢٤
في تفسير : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . . .) ٢٢٥
في تفسير : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . .) ٢٢٥
في تفسير : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً . . .) ٢٢٦
في تفسير : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب . . .) ٢٢٧
في تفسير : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين . . .) ٢٢٨
في تفسير : (وقضى ربك ألاَّ تعبدوا إلا إيّاه . . .) ٢٢٩
في تفسير : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة . . .) ٢٣٠
في تفسير : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . .) ٢٣١
قصة أصحاب الكهف ٢٣٢
في تفسير : (قالوا ياذا القرنين . . .) ٢٣٣
في تفسير : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم . . .) ٢٣٤
في تفسير : (وإنْ منكم إلا واردها . . .) ٢٣٥
في تفسير : (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو . . .) ٢٣٦
في تفسير : (قد أفلح المؤمنون . . .) ٢٣٧
في تفسير : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة . . .) ٢٣٧
في تفسير : (الله نور السموات والأرض . . .) ٢٣٨
في تفسير : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً . . .) ٢٣٨

صفحة

فى تفسير : (إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً . . .) ٢٣٩
فى تفسير : (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . . .) ٢٤٠
فى تفسير : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . . .) ٢٤٠
فى قصة قارون ٢٤١
فى تفسير : (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجَّدًا . . .) ٢٤٤
فى فضل سورة يس ٢٤٤
فى تفسير : (لقد حق القول على أكثرهم . . .) ٢٤٤
فى تفسير : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين . . .) ٢٤٥
فى تفسير : (إنك ميت وإنهم ميتون . . .) ٢٤٦
فى تفسير : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . .) ٢٤٧
فى تفسير : (ومَنْ أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً . . .) ٢٤٧
فى تفسير : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . . .) ٢٤٨
فى تفسير : (إنما المؤمنون إخوة . . .) ٢٤٩
فى تفسير : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً . . .) ٢٥٠
فى سورة الحجرات ٢٥١
فى تفسير : (يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى . . .) ٢٥٣
فى تفسير : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون . . .) ٢٥٤
فى تفسير : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها . . .) ٢٥٤
فى سورة الممتحنة ٢٥٥
فى تفسير : (يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون . . .) ٢٥٦
فى تفسير : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة . . .) ٢٥٦
فى فضل سورة الملك ٢٥٧
فى تفسير : (إن أدرى أقريب ما توعدون . . .) ٢٥٨
فى تفسير : (عبس وتولى . . .) ٢٥٩
فى قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج ٢٥٩
فى تفسير : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً . . .) ٢٦٠

وسئل رضى الله عنه فى السُّنَّة النبوية الشريفة

صفحة

منهج الإيمان والحكمة فى رحلة الحياة ٢٦٥
فى محبة الرسول ﷺ ٢٦٦
فى الاقتداء برسول الله ﷺ ٢٦٩
فى سيادة الرسول فى التشهد وغيره ٢٧٠
فى صفة خاتم النبىّ ﷺ ٢٧١
فى صيام الاثنين والخميس ٢٧٢
فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ٢٧٣
فى لماذا لم يكن الصحابة والتابعون يحتفلون بمولد النبى ٢٧٤
فى كيفية الصلاة على النبى ﷺ ٢٧٤
فى دلائل الخيرات ٢٧٥
فى الرسول ﷺ وسنته الشريفة ٢٧٦
فى مكانة الرسول ﷺ ٢٧٨
فى مكانة السُّنَّة من القرآن ٢٨٣
فى مكانة السُّنَّة من التشريع ٢٨٤
فى تدوين السُّنَّة ٢٨٧
فى أقسام الحديث النبوى ٣٠٠
فى رواية الحديث عن المتخصصين ٣٠٠
فى معنى حديث : «إنما الأعمال بالنيّات» ٣٠١
فى معنى حديث : «الناس معادن» ٣٠٢
فى بر الوالدين ٣٠٢
فى معنى حديث : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» ٣٠٣
فى معنى حديث : «الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها» ٣٠٣
فى معنى حديث : «ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء» ٣٠٣
فى معنى حديث : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر» ٣٠٤
فى معنى حديث : «صنفان من أهل النار لم أرهما» ٣٠٤
فى معنى حديث : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ٣٠٥

صفحة

فى معنى حديث : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» ٣٠٨
فى الشرك الخفى ٣٠٨
فى معنى حديث : «من لم تنهه صلاته» ٣١٠
فى معنى حديث : «يهرم بن آدم وتشب معه اثنتان» ٣١٠
فى عدد الرسل ٣١١
فى حرمة العود فى الهبة ٣١٢
فى السنّة الحسنة والسنّة السيئة ٣١٣
فى معنى حديث : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ٣١٤
فى حق التوكل على الله ٣١٥
فى زيارة المريض وتشييع الجنازة ٣١٦
فى ظلّ الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه ٣١٧
فى وعظ الرجال والنساء يوم العيد ٣١٨
فى السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام ٣١٩
فى الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر ٣٢٠

وسئل رضى الله عنه فى الذكر والدعاء

فى الذكر ٣٢٥
فى الدعاء بأسماء الله الحسنى ٣٢٧
فى الشكر فى الجو الإسلامى ٣٢٧
فى فائدة الشكر بالنسبة للفرد ٣٢٨
فى فائدة الشكر بالنسبة للمجتمع ٣٢٩
فى مفهوم : لا حول ولا قوة إلاّ بالله ٣٢٩
فى الإذن بالذكر ٣٣٠
فى الذكر بصوت مرتفع ٣٣١
فى الذكر بلفظ أهو وبلفظ هو ٣٣١
فى صيغ الصلاة على الرسول ﷺ ٣٣٢
فى دعاء الرسول ﷺ ٣٣٣
فى قوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . . .» ٣٣٤

صفحة

فى ظروف وأمكنة الدعاء ٣٣٤

فى صيغ الدعاء من السنّة الشريفة ٣٣٥

فى الذكر والدعاء بغير المأثور ٣٣٧

فى آداب الدعاء ٣٣٨

فى كيف يدعو الإنسان ربه ٣٣٩

فى هل يجب أن يقرأ الدعاء بعد صلاتى الفجر والمغرب ٣٤٠

فى دعاء الوالدين ٣٤٠

فى التوبة هل تمحو الذنوب ٣٤١

فى التوبة والشباب ٣٤٢

فى الابتلاء ٣٤٢

فى هل الدعاء ينفع الميت ٣٤٣

فى حكم الدعاء للميت بعد الصلاة عليه وقبل دخوله القبر ٣٤٣

فى أدعية تفريج الكرب وجلب الرزق ٣٤٤

فى الدعاء على الغير بغير حق ٣٤٤

فى من يدعو ويظن أنه لا يستجاب له ٣٤٥

فى عدم اهتمام بعض الأئمة والعلماء بالدعاء ٣٤٦

فى هل تقبل توبة المذنب وهو على فراش الموت ٣٤٧

وسئل رضى الله عنه فى الفقه

فى الاجتهاد والثبات فى الشريعة الإسلامية ٣٥١

فى الدين هاد للعقل ٣٥١

فى تناقض الفكر البشرى ٣٥٢

فى أن هداية الدين للعقل دائمة لا تتأثر بزمان أو مكان ٣٥٤

فى الانحراف ودواعيه ٣٥٧

فى الاجتهاد ٣٥٨

فى مقدمات الاجتهاد ووسائله ٣٥٩

فى التعاقد ٣٦٢

فى الغضب ٣٦٤

صفحة

فى الزّنى ٣٦٥

فى حد الزّنى ٣٦٦

فى شروط قبول التوبة ورد الحقوق لأصحابها ٣٦٦

فى عقد القران ٣٦٧

فى نشوز الزوجة ٣٦٨

فى حكم زيارة القبور ٣٦٨

فى حكم من أفتى بغير علم ٣٦٩

فى الفروق والمميزات بين الرجل والمرأة ٣٦٩

فى الميراث ٣٧٠

فى الثمن المؤجل ٣٧١

فى نجاة صاحب الكبيرة ٣٧١

فى تولى المرأة القضاء ٣٧٢

فى حكم من يخون الأمانة ٣٧٣

فى تركة المتوفى ٣٧٤

فى العلم بالعبادة ٣٧٤

فى الخلاف بين الأئمة ٣٧٥

فى قتل اللص ٣٧٦

فى النية ٣٧٧

فى الرهن ٣٧٧

فى ثبوت النسب ٣٧٨

فى الوصية ٣٧٩

فى فوائد التقسيط ٣٨٠

فى فوائد البنوك ٣٨٠

فى أسرار العبادات فى الإسلام ٣٨٠

وسئل رضى الله عنه فى الغُسل

فى صحة الغسل دون نية ٣٩٥

فى غسل رسول الله ﷺ ٣٩٦

صفحة

فى المبيت على طهارة ٣٩٧
فى وجوب غسل الجنابة ٣٩٨
فى فرائض الغسل المطلوبة ٣٩٨
فى المبيت على جنابة ٤٠٠
فى جواز الصلاة بعد الغسل مباشرة ٤٠١
فى الطهارة هل هى شرط من شروط صحة العقد ٤٠١
فى الفرق بين الاستحمام والاغتسال ٤٠٢
فى كىّ شعر المرأة ٤٠٣
فى نسيان الغسل من الجنابة ٤٠٣
فى هل يشترط الطهارة فى انعقاد اليمين ٤٠٤
فى هل يكفى أن ترش المرأة شعرها ٤٠٥
فى تطهير الميت فى صحراء لا ماء فيها ٤٠٦

وسئل رضى الله عنه فى الوضوء

فى فروض الوضوء وسننه ٤٠٩
فى الآداب الواجبة أثناء الوضوء ٤٠٩
فى الوضوء من البرك الراكدة ٤١٠
فى نواقض الوضوء على حسب مذاهب العلماء ٤١٠
فى الريح الذى ينقض الوضوء ٤١١
فى نواقض الوضوء ٤١٢
فى حكم بول الصبى هل ينقض الوضوء ٤١٣
فى ما يحرم على المحدث حدثاً أصغر ٤١٣
فى التنزه عن البول ٤١٤
فى صلاة الفرائض جميعها بوضوء واحد ٤١٥
فى المسح على الباروكة ٤١٥
فى الوضوء على طلاء الأظافر ٤١٥
فى كى المرأة شعرها هل ينقض الوضوء ٤١٦
فى الوضوء من أكل لحم الجزور ٤١٦
فى استحباب الوضوء لمن أراد النوم ٤١٧

صفحة

في إلقاء السلام على من يتوضأ ٤١٧
في مصافحة المتوضئ للمرأة الأجنبية دون الشعور بشهوة ٤١٨

وسئل رضى الله عنه في الصلاة

في أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ ٤٢١
في صلاة رسول الله ﷺ ٤٢١
في شروط الصلاة ٤٢٢
في شروط ملابس المصلي ٤٢٣
في الصلاة على الأرض الطاهرة ٤٢٤
في الأوقات التي تكره فيها الصلاة ٤٢٤
في اللقطة الهابطة ٤٢٥
في الأذان ٤٢٥
في إضافات الشيعة للأذان ٤٢٦
في فضل الصلاة . وفي عقوبة الترك والتهديد عليه ٤٢٧
في المحافظة على الصلاة ٤٢٧
في القصد من الصلاة ٤٢٨
في الصلاة طريق للوصول إلى الله ٤٢٩
في متى فرضت الصلاة..... ٤٢٩
في فرض الصلوات كلها في وقت واحد ٤٢٩
في تعويد الأولاد على الصلاة ٤٣٠
في الصلاة تفرق بين المؤمن والكافر ٤٣١
في جواز قراءة المصلي القرآن نظراً من المصحف ٤٣١
في الحكم في الصلاة في مسجد به الوطواط ٤٣١
في الصلاة في منزل من ليس مسلماً ٤٣٢
في الصلاة في السوق ٤٣٢
في من تذكر أثناء الصلاة أن وضوءه ناقص ٤٣٣
في صلاة الأغلف ٤٣٣
في إعفاء الشيخ الطاعن في السن من أداء الصلاة ٤٣٤

صفحة

فى حكم من صلى قبل أن يقيم الإمام الصلاة ٤٣٤
فى التلفت أثناء الصلاة ٤٣٥
فى البصق أثناء الصلاة ٤٣٥
فى من تذكر صلوات سنة فاتت ٤٣٥
فى صلاة المسلم وبجواره فاسق أو فاجر ٤٣٦
فى من رُفعت عنه الصلاة ٤٣٦
فى أمر الأولاد بالصلاة ٤٣٧
فى كيفية الصلاة ٤٣٧
فى قراءة البسملة فى الصلاة ٤٣٨
فى وضع اليدين على الصدر أثناء الصلاة ٤٣٨
فى ذهاب النساء لصلاة الجمعة ٤٣٩
فى صلاة المسافر فى القطار أو السيارة ٤٣٩
فى صلاة الجنازة على المولود ٤٤٠
فى قصر الصلاة والفطر فى السفر الذى لا مشقة فيه ٤٤٠
فى من يصلى وأولاده الصغار يحومون حوله ٤٤٠
فى أوقات الصلاة ٤٤١
فى جواز الاعتماد على الساعة فى أداء الفريضة ٤٤١
فى السنّة بعد تكبيرة الإحرام ٤٤٢
فى التشهد فى الصلاة ٤٤٢
فى هل يجوز عند المذاكرة الجمع فى الصلوات ٤٤٣
فى معرفة أوقات الصلاة فى البلاد التى لا تظهر فيها الشمس فى بعض أوقات السنة ٤٤٣
فى أداء الصلاة قبل الوقت ٤٤٤
فى الشك فى الوضوء ٤٤٥
فى وقت صلاة الصبح ٤٤٦
فى من يمكن الجمع بين صلاتين ٤٤٦
فى تحديد القبلة فى الصلاة ٤٤٧
فى الصلاة على القمر ٤٤٧
فى الصلاة فى البيت ٤٤٨
فى صلاة الفريضة فى المسجد ٤٤٨

صفحة

فى موقف المسلم من قراءة الفاتحة وسورة بعدها فى الصلاة ٤٤٩
فى قراءة القرآن أثناء الصلاة ٤٥٠
فى الجمع والقصر فى صلاة السفر ٤٥٠
فى كيفية صلاة رسول الله ﷺ ٤٥١
فى السجود فى الصلاة ٤٥١
فى كيفية السجود ٤٥٢
فى قوله ﷺ سبوح قدوس فى سجوده ٤٥٢
فى سجود السهو ٤٥٣
فى صلاة الصبح والفجر والضحى ٤٥٣
فى اصلاة الفجر ٤٥٤
فى فضل ركعتى الفجر ٤٥٥
فى حكم من ترك القنوت ٤٥٦
فى من أدرك ركعة من المغرب ٤٥٦
فى صلاة الشفع والوتر وركعتى الفجر ٤٥٦
فى سنّة المغرب ٤٥٧
فى صلاة الوتر ٤٥٧
فى هل بعد الوتر صلاة ٤٥٨
فى أداء صلاة التراويح ٤٥٨
فى صلاة العيدين ٤٥٩
فى سر تعجيل صلاة عيد الأضحى وتأخير صلاة عيد الفطر ٤٥٩
فى تكبيرات صلاة العيد ٤٦٠
فى ذهاب النساء إلى صلاة العيد كما يذهبن إلى الجمعة ٤٦١
فى الزوجة التى خرجت متزينة لصلاة العيد ٤٦٢
فى صلاة العيدين من السنة العودة من طريق آخر غير طريق الذهاب ٤٦٢
فى صلاة الاستخارة ٤٦٣
فى سجدة التلاوة ٤٦٤
فى جهر المرأة عند قراءتها فى الصلاة ٤٦٤
فى شرائط صلاة الجمعة ٤٦٥
فى طهارة المكان الذى تؤدى فيه الصلاة ٤٦٥

صفحة

فى شد الرحال إلى المساجد ٤٦٦
فى أداء صلاة الجمعة فى جماعة ٤٦٦
فى صلاة الجمعة فى المذهب الشافعى ٤٦٧
فى خطبة الجمعة ٤٦٧
فى حكمة فرض الجمعة ٤٦٧
فى أداء صلاة الفريضة فى مسجد الجمعة ٤٦٨
فى شروط الإمامة فى الصلاة ٤٦٩
فى إمامة الجمعة للمسافر ٤٦٩
فى صلاة النافلة أثناء خطبة الإمام ٤٧٠
فى إذا لحق المأموم بالإمام بعد الصلوات ٤٧١
فى جواز تجمع أهل المذاهب المختلفة للصلاة فى مسجد واحد ٤٧٢
فى جواز مصافحة الناس بعد صلاة النافلة التى تسبق صلاة الجمعة ٤٧٢
فى الجمع بين صلاة الجمعة والظهر ٤٧٣
فى هل صلاة النافلة فى المسجد تتوقف على حضور الإمام ٤٧٣
فى السهو والتفكير فى العدو أثناء الصلاة فى الحرب ٤٧٣
فى انشغال الفكر فى الصلاة ٤٧٤
من سنن الهدى الصلاة فى المسجد ٤٧٥
فى آداب المسجد ٤٧٦
فى اتخاذ القبور مساجد ٤٧٦
فى الصلاة من قعود للقادر على القيام ٤٧٧
فى من منع زوجته من الذهاب إلى المسجد ٤٧٨
فى رد المصلى للسلام ٤٧٨
فى صلاة الجمعة مع الراديو والتليفزيون ٤٧٨
فى تارك الصلاة ٤٧٩
فى الصلاة على الميت ٤٧٩
فى حضور النساء صلاة الجنازة ٤٨٠
فى جواز النيابة فى الصلاة عن الميت إذا كان لم يكن يؤدى الصلاة ٤٨٠
فى حكم صلاة ركعتى السنّة قبل صلاة الجمعة ٤٨١
فى ما يجب على الإمام والخطيب ٤٨١

صفحة

فى بعض أخطاء الإمام والمصلين ٤٨٢
فى الطريقة المثلى فى خطبة الجمعة لمن لا يفهمون العربية ٤٨٤
فى بناء المسجد وسط مقبرة ٤٨٤
فى الصلاة فى مسجد فيه ضريح ٤٨٤
فى الصلاة خارج المسجد والإمام بداخله ٤٨٥
فى عجز الإمام عن القيام أثناء صلاته بالمأمومين ٤٨٥
فى الصلاة خلف حليق اللحية ٤٨٦
فى إمامة شارب الدخان ٤٨٦
فى ثواب الذهاب إلى المساجد ٤٨٧
فى النهى عن دخول المساجد برائحة كريهة ٤٨٧
فى بناء المساجد ٤٨٨
فى نظافة المساجد ٤٨٩
فى تعمير المساجد ٤٩٠
فى إمامة الابن لوالده ٤٩٠
فى حكم إمام المسجد الذى يتقاضى أجراً عن عمله ٤٩١
فى سدل الإمام يديه ٤٩١
فى صلاة الجمعة فى مسجد يعتقد المأموم أن إمامه مشرك ٤٩٢
فى إذا أمر إنسان بترك الصلاة ٤٩٢
فى تهديد الخادم والأجير إذا لم يتركا الصلاة ٤٩٢
فى المكره على ترك الصلاة ٤٩٣
فى حكم المرور أمام المصلى أثناء الصلاة ٤٩٣
فى إذا صلى المرء كما رأى الناس يصلون ٤٩٤
فى من يقتضى عمله أن يكون مشغولاً وقت صلاة الجمعة ويصليها ظهراً ٤٩٤
فى الأمور التى تمنع المصلى من ثواب الجمعة ٤٩٤
فى أيهما أفضل المصلى مع ارتكاب الكبائر أم غير المصلى مع عدم فعل الكبائر ٤٩٥
فى إغلاق المساجد وتعطيلها ٤٩٥
فى تسبب إنسان فى إفساد صلاة الجماعة ٤٩٦
فى من يصلى على فترات متقطعة ٤٩٦
فى تهاون الحاج فى أداء الصلاة ٤٩٧

صفحة

فى موقف المسلم من تارك الصلاة ٤٩٧

فى الصلاة فى المساجد التى بناها المستشرقون بأموالهم ٤٩٨

فى المسجد ٤٩٨

فى المرأة والمسجد ٤٩٩

فى الميت الذى لم يُصلَّ عليه ٤٩٩

فى الأمور التى تمنع الإنسان من ثواب صلاة الجمعة ٥٠٠

فى ترك الزوجة للصلاة ٥٠٠

فى دخول المسجد وقت الجمعة والإمام يخطب ٥٠١

فى صلاة النفل التى تنوب عن خمس فروض ٥٠٢

فى من لا يصلى ولا ينكر الصلاة ٥٠٢

فى من قالوا بإسقاط الأعمال وفيها الصلاة عنهم ٥٠٣

فى الرجل يصلى فى دكانه مع قرب المسجد منه ٥٠٤

فى تأخير الصلاة عنْ موعدها ٥٠٤

فى البصاق فى الصلاة ٥٠٥

فى الحكم فى إمام قرأ الفاتحة جهراً حتى وصل إلى قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فقال بصوت مرتفع (استعنا بالله) ٥٠٥

فى من فاتته صلاة فى عمره ٥٠٥

فى الذين يعملون يوم الجمعة ويقولون نحن نصليها ظهراً ٥٠٦

فى المدارس التى جدول حصصها يمنع من صلاة الجمعة ٥٠٦

فى إقامة حفلات المسرح فى المساجد ٥٠٧

رقم الإيداع	١٩٩٨/٤٧٤٦
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5572-6

١/٩٨/١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن فى شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .



دار المعارف

.٠١/٠١٥٠٠٠



تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دار المعارف
٣٠٫٠٠٠



الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود

فتاوى
الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الثانى

دار المعارف

فتاوى

الإمام عبد الحليم محمود

فتاوى
الإمام عبد الحليم محمود

الجزء الثانى

الطبعة الخامسة



دار المعارف

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة : ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
وهَيِّئْ لنا مِنْ أمْرِنا رَشَدًا

سُئل رضي الله عنه في الزكاة والصدقة

فى المال

حدد الله سبحانه وتعالى لرأس المال وظيفة اجتماعية من الدرجة الأولى ، تحقق المصلحة لصاحبه وللمجتمع المحتاج المحيط به بفرض الزكاة التى تلت فى أهميتها الصلاة التى فرضها الله سبحانه وتعالى لذاته العلية ، وحدد الزكاة للمحتاجين باعتباره سبحانه وتعالى مانح المال وصاحبه ، فقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) . وقال : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

وأصبح على مَن منحه الله المال إيتاء الزكاة بشروطها الشرعية ، وكان عليه أن يؤدى الزكاة ولا يكتنز المال الذى ينقص بأدائها فى حالة اكتنازه دون توظيفه لمصلحته ومصلحة المجتمع الإسلامى . وبرزت الزكاة كدافع أساسى للمسلمين على تحريك رأس المال وتوظيفه لصالح صاحبه والمجتمع الإسلامى توظيفاً شرعياً طاهراً بالمتاجرة أو بالتصنيع أو بالاسترزاع لمن يملك الخبرة ورأس المال أو بالمشاركة فى التجارة أو الصناعة ، أو الزراعة عن طريق عقد المضاربة لمن يملك رأس المال فقط ليتمكن من أداء زكاته واستثمار ماله .

وحدد الإسلام الطريق الشرعى المشار إليه بديلا عن المعاملات الربوية التى تتمثل فى إقراض أصحاب المشروعات بالربا المحدد منسوباً إلى رأس المال .

لهذا نرى فيما حدده الإسلام من معاملات شرعية ما يدفع المسلمين الذين وهبهم الله الخبرة والمال فى التعامل بذواتهم فيما يحقق لهم ولمجتمعهم الخير ، كما يدفع من لا يملكون الخبرة أو القدرة أو الوقت لمباشرة هذه المشروعات بأنفسهم إلى أن يشاركوا أصحاب الخبرة بالمال فقط .

وهنا تظهر حكمة الشرع الإسلامى فى إباحة المضاربة مما يمكّن المضاربين بأموالهم رجالا ونساءً من استثمار أموالهم وفى نفس الوقت متابعة نجاح شركائهم أو تقصيرهم ، أو نصيحتهم حينما تجب النصيحة حفاظاً على أموالهم ، فأموالهم وإن كانت فى يد أخرى فإنها مدعمة بمتابعة يقظة مخلصة أمينة ، تحمل على إنجاح المشروعات المشروعة التى توظف فيها أموالهم لخدمة مصالحهم ومصالح المجتمع الإسلامى .

وكان تحريم الإسلام للربا لأنه استعباد من الدائن للمدين ، واستغلال بالقهر لاحتياجاته ، كما أنه سلاح بتّار فى يد الدائن الذى لا هم له إلا استخلاص ماله مصحوباً بالعائد الربوى المحدد

الذى فرضه على المدين دون مراعاة لظروفه الخاصة أو للظروف العامة التى أحاطت بمشروعه حتى لو استنفد فى سبيل ذلك ضرورات المدين وقوته ، مما قد يودى بحياته .

لهذا كانت المشاركة عن طريقة عقد المضاربة مشاركة أخوية رحيمة تتفق مع هدى الشريعة الإسلامية بأن يكونوا رحماء بينهم ، ولهذا تتضافر جهود الشركاء لإنجاح المشروع فإن قدر الله له الربح فلهما ، وإن قدر له الخسارة فعليهما ، وهذا هو العدل .

فعلى حضراتكم أن تقننوا شروط وتفصيلات المعاملات الشرعية فى التجارة والصناعة والزراعة والخدمات وكافة المعاملات الاقتصادية التى يتعرض لها المجتمع الإسلامى المعاصر ، لينطلق إلى الآفاق التى نرجوها له ، خصوصا وقد منح الله المسلمين ثروات وقدرات اقتصادية هائلة يمكن أن تغير مسار المعاملات الاقتصادية العالمية غير المشروعة إلى معاملات طاهرة شرعية ، تخدم المجتمع الإسلامى والمجتمع العالمى فى الوقت نفسه .

فى الزكاة

تأتى الزكاة بعد الصلاة ، فى ترتيب منهج الحياة الذى نحن بصدده . لقد مرّ رسول الله ﷺ – فى إسرائه – على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم . فقال من هؤلاء ؟

فقال جبريل عليه السلام : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

والزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ولقد حارب عليها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وذلك أنه حينما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، قال بعض القبائل من الأعراب : إنا نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وسنستمر نؤدى الصلاة ونصوم رمضان ونحج ، أما الزكاة فإنها مادة ومال ولا شأن لله بذلك وأعلنوا الامتناع عن أدائها ، فقال سيدنا أبو بكر : سأحاربهم فقيل له : كيف تحارب من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ فكانت إجابته أن الشهادتين لها حقوق إذا امتنع إنسان عن أدائها فإنه يحارب عليها ، وإن من حقوق الشهادتين أداء الزكاة .

وما من شك فى أن الزكاة رابطة بين الإنسان وربه ، إنها رابطة رضوان من الله ، وأجر وثواب ونماء وبركة . ورابطة شكر من الإنسان لله تعالى ، على ما أنعم به وتفضل وأحسن ، وهى من

ناحية أخرى رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، رابطة مودة وتعاطف وتراحم .

وقد أنذر الله تعالى ، الممتنع من أدائها وتوعّده بعذاب أليم .

أما الذى يؤديها : فقد ذكره الله سبحانه وتعالى فيمن رضى الله عنهم وأجزل لهم ثوابه يقول سبحانه : (فأنذرتكم ناراً تلظَّى ، لا يصلاها إلاّ الأشقى ، الذى كذَّب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يُؤتى ماله يتزكَّى ، وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى ، إلاّ ابتغاء وجه ربّه الأعلى ، ولسوف يرضى) .

ويقول سبحانه :

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم . بل هو شرّ لهم . سيُطوَقُون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض . والله بما تعملون خبير) .

وبجوار الزكاة يحسن الحديث عن الصدقة . وسواء كتاب بصدد الزكاة أو بصدد الصدقة فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) . ويقول سبحانه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ويقول سبحانه : (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) . لقد رأى رسول الله ﷺ صور الممتنعين عن الزكاة ، ورأى أيضاً – فيما يراه النائم صور آكلى الربا ، ورأينا أن نتحدث عن الربا بعد الحديث عن الزكاة والصدقة مباشرة لما بينهما من فرق هو الطريق بين الخير والشر .

فقد رأى رسول الله ﷺ ، نهراً من الدم يفور كفوران المرجل وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما اطلع طالع قذفوه بها فيقع فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر . فلما سأل رسول الله ﷺ ، قيل له : أولئك الذين أكلوا الربا ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، أما فى رحلة الإسراء والمعراج فإنه ﷺ مر بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم وقع على الأرض ، فلما سأل عنهم جبريل قال : « هم أكلة الربا » .

فى أمر الله نبيه ﷺ بأخذ الزكاة

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ – وكل من قام مقامه فى ولاية المسلمين – بأخذ زكاة المال ممن وجبت عليهم فى أموالهم للفقراء المعدمين ، الذين ليس لديهم مال قط ، ولا يجدون من العمل ما يقتاتون منه ، وللمساكين الذين لديهم مال ولكن لا يفى بكل ما يحتاجون إليه من شئون المعيشة ، وللعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم من الذين أسلموا حديثاً ، وفى عتق الرقاب للذين كوتبوا من ساداتهم واشترط عليهم لأجل عتقهم دفع مقادير من المال يعجزون عن سدادها فى مواعيد محددة ، وللغارمين فى مصالحات المتخاصمين من المسلمين ، وللجهاد فى سبيل الله ، ولابن السبيل المسافر الذى نفد زاده كيلا يريق ماء وجهه بمد يده وسؤال من قد يرده .

والزكاة تطهر نفس صاحبها من رذيلة الشح وتطهر ماله من الآفات التى تذهب به لو لم يزكه ، قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم) فى الآية أمر للنبى ﷺ ومن قام مقامه بالدعاء لمن دفع زكاة ماله ، فإن الدعاء له يجعله رضى النفس مطمئن القلب قرير العين بما قدم لدينه وللمسلمين من ماله ويجعله فى كل شئونه مقبلا على الله غير مدبر ، ويوثق الصلة بينه وبين حاكمه ، وكفى بذلك رباطاً بين المسلمين وقصة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأنزل الله فى شأنهم قرآناً جاء سبعة من المؤمنين تائبين وأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد حتى تاب الله عليهم وأمر نبيه بأخذ صدقات أموالهم منهم .

فى المجتمع والزكاة

لو علم الله وجود مجتمع لا يحتاج فيه فرد إلى الزكاة أولا يوجد مصرف من المصارف التى حددها الله لها ليس فى حاجة إلى ما ينتج عنها لما فرضها ، أو لقيد فرضيتها بوجود الفقر أو وجود المساكين ولما توسعت مصارفها هذا التوسع .

إن مصارف الزكاة متعددة وفسيحة : يقول تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم) .

فالزكاة ليست مقصورة على الفقراء والمساكين وإنما تشمل غيرهم من مصارف الزكاة ،

وإخراج الزكاة ينبغى أن يكون أولا للدولة وهى التى تتولى توزيعها على مصارفها ، ومن الواجب أن تأخذ الدولة الزكاة جبراً ممن لا يخرجها أو يتعلل فى منع إخراجها بعلة من العلل ، وتتصرف فيها بما تراه تبعاً لتوجيه الشرع .

فى حكمة الزكاة

إن الحكمة المقصودة من الزكاة : قد ذكرها الله تعالى وبينها فى قوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

أى تطهرهم من الذنوب وحب المال إلى درجة أن يصرفهم عن حب الله وعبادته ، وتزكيهم وتنمى بها حسناتهم ، وترفع بها درجاتهم إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين .

وذلك لما فى الزكاة من ربط الصلات وتوثيق العلاقات بين المُزكِّى وآخِذِ الزكاة ، ولما فيها من الذهاب بالأحقاد بينهما ، ولما فيها من سد الخلل والتخفيف من آلام الحياة وضيق المعيشة ، ولما فيها من التقريب بين الطبقات حتى لا تكسر قلوب الفقراء بتكبر الأغنياء عليهم . . .

ولما فيها أيضا من تقليل الجرائم والحوادث من السرقة والقتل . . إلى غير ذلك مما نسمع منه الكثير . . بل إن أمر الزكاة يسمو إلى محافظة الفقير على الغنى الذى أخذ منه الزكاة .

والزكاة تبارك فى المال المُزكى ، وتكون سبباً فى دفع كثير من الأضرار ، قال ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، ودافعوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع » .

فى أداء الزكاة

نرجو الله أن يجزى من يتحرى تأدية الزكاة على وجهها الصحيح خير الجزاء ، وإننا لنسر حينما نرى وحينما نسمع الاهتمام بأمر الزكاة التى يهملها بعض الناس فى العصر الحاضر ، والتى نأسف حينما نرى أن إهمالها يزيد يوماً عن يوم مع أنها ركن من أركان الإسلام . . قرنها الله سبحانه وتعالى كثيراً فى كتابه العزيز بالصلاة ، وحارب عليها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، واعتبر من امتنع عن أدائها مرتداً .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه ، وكفر من كفر من العرب (أى كفروا بامتناعهم عن تأدية الزكاة) فقال عمر رضى الله عنه : كيف

نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . . فقال عمر رضى الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق . .

وكانت تتحرى تأدية الزكاة أيضا زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وعنه قالت · كنت فى المسجد فرأيت النبى ﷺ فقال : « تصدقن ولو من حليكن » وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام فى حجرها ، قالت لعبد الله اسأل رسول الله ﷺ أيجزى عنى أن أنفق عنك وعلى ابناى فى حجرى من الصدقة ؟ فقال : سلى أنت رسول الله ﷺ ، فانطلقت إلى النبى ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار وعلى الباب حاجتها مثل حاجتى فمر علينا بلال . فقلنا سل أيجزى عنى أنفق على زوجى وأيتام لى فى حجرى ؟ وقلنا : لا تخبر بنا ، فدخل فسأله فقال من هما ؟ قال زينب ، قال : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله قال : نعم ، ولها أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة ، والصدقة هنا بمعنى الزكاة ، كما رأى ذلك الشافعى رضى الله عنه ، ولا يجوز نقلها من بلد إلى بلد اللهم إلا إذا كان للمزكى قرابة فقراء فى بلد آخر على ما رآه . الأحناف .

فى العقارات العينية والزكاة

العقارات العينية إذا كانت تستغل فى سكن مالكها فلا زكاة عليه فيها ، فقد قرر الفقهاء أنه لا زكاة فى دور السكن وعبيد الخدمة وثياب البذلة ، وأما إذا أجرت فزكاتها فيما تغله من الإيجار ، فما يبقى من الإيراد بعد دفع الضريبة وغيرها من المصروفات إذا بلغ نصابه خالياً من الدين ، ومن الحاجات الأصلية ، وحال عليه الحول – وجبت الزكاة .

وتدخل هذه الزكاة فى زكاة النقدين : الذهب والفضة ، فإذا بلغ صافى الإيراد بعد الضريبة وغيرها كما ذكرنا ما يساوى عشرين مثقالا من الذهب أو مائتى درهم من الفضة وحال عليه الحول وجبت فيه الزكاة ، وهى ربع العشر أى ٢,٥٪ وللمزكى الخيار فى التقدير بالذهب أو الفضة ، وإن كان الأولى النظر لما فيه مصلحة الفقير ، فإن كان المال يبلغ ما يساوى من الفضة ولا يساوى نصاب الذهب قدر بالفضة .

وإذا كانت العقارات تستغل فى التجارة ، أى يتجر فيها بيعاً وشراءً ، دخلت فى عروض

التجارة ، فيقوم العقار ذاته وتقدر قيمته بنصاب الذهب أو الفضة ، وفى العقار إذا كان إيراده الشهرى تسعين جنيهاً فإنه يبلغ فى السنة ألفاً وثمانين جنيهاً يخصم من هذا المبلغ ٢٥٠ مائتان وخمسون جنيهاً الضريبة العقارية فى السنة ، ويخصم كذلك جميع المصروفات التى تنفق على العمارة فى الصيانة وغيرها كما يخصم ما يحتاج إليه المالك لنفسه ، ولمن تجب عليه نفقتهم ، ويخصم ما عليه من الدين إن وجد ما يبقى بعد ذلك تجب فيه الزكاة إذا حال عليه الحول ، ويقدر بالذهب أو الفضة .

فى مقدار الزكاة

استعمل أسلافنا رضى الله عنهم كلمة الصاع فى بيان مقدار الزكاة ، والصاع عبارة عن سدس كيلة بالكيل المصرى .

يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه :

كنا إذا كان فينا رسول الله ﷺ نخرج زكاة الفطر ، عن كل صغير وكبير حر ومملوك صاعاً من طعام ، أو صاعاً من أقط ، والأقط هو الجبن ، أو صاعاً من شعير ، أو صاعاً من تمر ، أو صاعاً من زبيب ، فلم نزل نخرجه – أى نخرج هذا الصاع من هذه الأصناف – حتى قدم معاوية حاجًّا أو معتمراً ، فاعتلى المنبر ، فكان فيما كلم به الناس أن قال : إنى أرى أن مدين من سمراء الشام تعدل صاعاً من تمر أى أن نصف صاع من تمر الشام تساوى صاعاً من التمر . يريد معاوية أن يقول إن الكيلة من القمح على الخصوص تكفى زكاة فطر عن اثنى عشر شخصاً .

يقول أبو سعيد : فأخذ الناس بذلك ، أى برأى معاوية ، بيد أن أبا سعيد لم يأخذ بهذا الرأى ويقول : فأما أنا فلا أزال أخرجه أبداً ما عشت .

والواقع أن رأى أبى سعيد هو الرأى الأمثل فيما يتعلق بمصلحة الفقير ، ومن هنا أخذ به الشافعى ، إذن فإن الكيلة المصرية من الأصناف التى ذكرناها تكفى عن ستة أشخاص .

فى وجوب زكاة الزروع

زكاة الزرع واجبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة : قال تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) وحقه هو نصاب الزكاة ، وقال : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) ونصاب زكاة الزرع أى مقدار ما يخرج منها حدده قوله ﷺ (فيما سقت السماء

والأنهار والعيون العشر ، وفيما سقى بالساقية نصف العشر) والساقية آلة السقى ووسيلته ، ولا يشترط لوجوب هذه الزكاة ملك الأرض المزروعة ، وإنما يشترط الملك التام للخارج من الأرض أو للزرع لعموم قوله تعالى : (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) وقوله : (وآتوا حقه يوم حصاده) وتحديد الرسول ﷺ لنصاب زكاة الزرع دون اشتراط تحقق ملكية الأرض المزروعة .

ولذلك كانت الزكاة على زارع الأرض مستأجراً كان أو مالكاً .

وهذا هو ما جرى عليه الجمهور .

وعلى ذلك فالزكاة تجب على جملة المحصول من الأرض المسدد ثمنها أو غير المسدد ثمنها ، ولا يخصم منها شيء . ويجب على المالك إذا كان هو الزارع ما يجب على المستأجر من إخراج الزكاة ، وعزلها بمجرد الحصاد دون مراعاة لمقدار المصاريف كثرت أو قلت ، استدان هذه المصاريف أو لم يستدنها .

فى نظام إخراج الزكاة بالنسبة للزارع

إن النظام الذى ينبغى أن يتبع فى مثل هذه الحالة هو أن يخرج المُزارع والمالك الزكاة قبل تقسيم المحصول ثم قسمته بعد ذلك .

أما إذا بدأ بقسم المحصول وأخذ المالك نصيبه فعلى كل منهما إخراج زكاة ما أخذ فقط ، وإذا لم يخرج المالك زكاة نصيبه فلا مسئولية على المُزارع وعليه أن يخرج زكاة ما خصه بعد القسمة أى يخرج نصف العشر إن كان الزرع يسقى بالآلة ، ويخرج العشر إن كان يسقى بغير الآلة .

وبهذه المناسبة نقول إن الزكاة ركن من أركان الإسلام ، والامتناع عن أدائها إنما هو هدم لركن من أركان الدين ، إنها الركن الثالث يدفعها من تجب عليه لمستحقيها ليحيى بها نفوساً ، ويشبع بها بطوناً ، ويمسح بها دموعاً ، ويزيل بها آلاماً ، وينال بها ثواباً وأجراً من الله تعالى ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الزكاة برهاناً على الإيمان يقول صلوات الله وسلامه عليه « الصدقة برهان » وكل من يخادع نفسه إذن فيدعى الإيمان ثم يمتنع عن أداء الزكاة فإن هذا الامتناع نفسه برهان كذبه .

وإذا كانت برهاناً فإنها أيضاً ، امتحان يستبين فيه من أجاب داعى الله ومن أعرض عنه .

ثم هى تطهير للنفس وتزكية لها ، وتطهير للمال وتزكية له ، قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

والمال الطاهر المزكى ينمو باستمرار ويجعل الله فيه البركة ، ويحفظه الله من التلف ، ويبعد عنه الآفات ثم يخلفه الله ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو سبحانه يعوضه أضعافاً مضاعفة .

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

فى نصاب الإبل

أول نصاب الإبل خمس ، ويزكى عنها بشاة لها سنة ودخلت فى الثانية ، أو عنزة لها سنتان ودخلت فى الثالثة ، وفى كل خمس شاة ، فإذا وصلت خمساً وعشرين : زكى عنها بناقة صغيرة لها سنة ودخلت فى الثانية .

فإذا وصلت ستًّا وثلاثين أخرج عنها ناقة لها سنتان ودخلت فى الثالثة ، فإذا بلغت ستًّا وأربعين أخرج عنها ناقة لها ثلاث سنوات ، ودخلت فى الرابعة .

فإذا وصلت إحدى وستين أخرج عنها ناقة لها أربع سنوات ، ودخلت فى الخامسة .

فى إذا كان هناك رجل لديه من الإبل قطيع يؤجره فهل تجوز الزكاة منها أو من أجرتها ؟

الإبل من الأنعام التى تجب عنها الزكاة .

وشرط وجوب الزكاة فيهاأن تكون سائمة بمعنى أن ترعى من الكلأ المباح طول العام أو أكثره ، وأن تبلغ نصاباً ، وأن يحول عليها الحول ، وأن يقتنيها صاحبها للدر والنسل .

فإن كان صاحبها قد اتخذها للعمل فلا زكاة عليها لأنها فقدت شرطًا من شروط الزكاة ، وذلك كما فى موضوع السؤال .

أما أجرتها ، فإن بلغت نصابًا من الذهب والفضة وحال عليها الحول ففيها الزكاة .

فى هل يصح أن تخرج الزكاة من الديون التى فى يدالمدينين ولم يسددوها بعد ؟

إن الله تعالى قد فرض الزكاة تزكية للمال وتطهيراً للإنسان ، وعطفاً على الفقراء يقول تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . والصدقة فى الآية الكريمة هى الزكاة المفروضة ،

ولقد حدد الله سبحانه وتعالى مصارف الزكاة فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم) .

وعلى ذلك فإنه ينظر إلى المدين هل هو أحد مصارف الزكاة التى ذكرها القرآن أولا ، فإذا كان المدين لا ينطبق عليه أنه أحد مصارف الزكاة فإن الدين لا يمكن أن يعتبر زكاة ، لأن مصارف الزكاة محددة بنص القرآن .

أما إذا كان المدين أحد مصارف الزكاة فإنه فى هذه الحالة يمكن اعتبار الدين من الزكاة ، ويكون فى ذلك تيسير كبير على المدين ، بشرط أن يعلم المدين أن ما عليه من دين صار له من قبيل الزكاة .

ومن المعروف أن الدَّيْن لا تجب فيه الزكاة إلاّ إذا كان فى يد الإنسان ، وحال عليه الحول فإنه حينئذ يزكى .

فى الصدقة يعطاها الإنسان إذا كان من أصحابهاالمذكورين فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)

فإن كان من هؤلاء كان من أهل الاستحقاق ، فإن كان غير صالح وعَلِمَ المتصدق أن الصدقة توجهه إلى الخير وتصرفه عن الشر فيكون إعطاؤها له من الخير ، لأنه عمل على هداية ، وسعى فى خير ، أما إذا علم أنه سيستعين بها على ارتكاب ما حرم الله فإنه يمنع منها سدًّا للذريعة ، فإذا لم يَعلم عنه شيئاًفإنه يُعطى منها مادام من مستحقيها .

ويحسن أن يخص الإنسان بالصدقة أهل الصلاح وأرباب المروءات والخير كما ورد فى الحديث عن أحمد : « أطعموا الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » .

قال ابن تيمية : « من لا يصلى من أهل الحاجات لا يعطى شيئاً حتى يتوب ويلتزم أداء الصلاة ، وذلك لأن ترك الصلاة إثم كبير لا يصح أن يُعان مقترفه حتى يحدث لله توبة » .

ويلحق بتارك الصلاة العابثون المستهترون الذين لا يتورعون عن منكر ، ولا ينتهون عن غى ، فهؤلاء لا يعطون من الصدقات إلاّ إذا كان العطاء يوجههم الوجهة الصالحة ، ويعينهم على صلاح أنفسهم بإيقاظ باعث الخير فيهم واستثارة عاطفة التدين .

فى إعطاء الزكاة للأقارب

إن إعطاء الزكاة للأقارب الفقراء ، تعتبر زكاة وصلة رحم وهى أفضل من إعطائها لغيرهم مادام هؤلاء الأقارب من الفقراء .

بيد أنه لا يجوز إعطاؤها للأصول أى الآباء والأمهات ، ولا الفروع أى الأبناء والحفدة ، وذلك أن النفقة على هؤلاء واجبة على المزكى . أما غير الأصول والفروع فإنه يجوز أن تؤدى الزكاة إليهم . .

فى إدارة البرِّ والخيرات

فى وزارة الأوقاف إدارة تسمى إدارة البر والخير ، تقوم بتلقى طلبات المحتاجين وبحثها بحثاً دقيقاً بواسطة الاخصائيين الاجتماعيين والباحثين ، ثم تقرر صرف الإعانة لهم فى حدود الميزانية المرصودة لها . .

وكلما اتسعت ميزانية هذه الإدارة زادت قدرتها على تقديم الخيرات ، ومن الممكن للسائل تقديم الزكاة إلى هذه الإدارة والتوصية بصرفها على الفقراء والمحتاجين ،

ولا يمكن القول بانعدام وجود من يستحق الزكاة نظراً لتطور الحياة ، ذلك لأن تطور الحياة يوسع دائرة المطالب والاحتياجات ، ويوسع الفجوة بين طوائف الناس فيما يتصل بالغنى والفقير .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) وسبيل الله مصرف واسع يحتاج باستمرار إلى الموارد ، وهو الآن أحوج ما يكون إلى ما يجب على الأفراد إخراجه كالزكاة ونحوها وما إلى ذلك .

فعلى السائل إخراج زكاته إلى ما اطمأن إليه من المصارف ، أو تقديمها إلى جهات الاختصاص التى تنوب عنه فى ذلك كإدارة البر والخيرات .

وعليه ألاّ يستجيب لمثل هذه الخواطر التى تحول بينه وبين أداء ما ينبغى من الفرائض ، ذلك لأن مثل هذا التعلل باعثه شيطانى مضر .

والمسلم الحقيقى لا يتعلل لترك الفرائض التى فرضها الله وعلم باستمرار الحاجة إليها على الدوام .

فى الوصىّ على أولاد قصر هل يُخرج الزكاة ؟

نعم يلزمه أن يُخرج زكاة مال الأولاد القصر الذين تولى أمورهم بطريق أموالهم ، لأن الزكاة حق الله سبحانه وتعالى . وحق الله يجب أداؤه وإلا فإن القانون الإسلامى يبيح للحاكم حينئذ أخذه بطريق الإكراه ولو بالسيف ، قال ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . رواه البخارى ومسلم .

وعدم أدائها قصداً يفسق به الولىّ فيعزل عن ولاية هؤلاء القصر ، لأنه قد ولى عليهم وعليه واجبان : واجب دفع الحرج عنهم ، بأداء ما وجب فى أموالهم ، وواجب تثمير أموالهم حسبما ينبغى فى ذلك المال الذى تحت يديه ، قال رسول الله ﷺ :

« من ولى يتيماً له مال ، فليتجر له ، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة » . رواه الترمذى والدارقطنى .

فى من لم يخرج الزكاة فى عيد الفطر

زكاة الفطر واجبة على كل مسلم وجد لديه من المال ما يزيد عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته يوم العيد وليلته ، ويخرجها عن نفسه وعن كل من تلزمه نفقته من ذكر وأنثى من المسلمين .

ويقول ابن عمر رضى الله عنهما فيما رواه البخارى ومسلم :

« فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير ، من المسلمين ، ويجوز أن يخرجها الإنسان بمجرد الدخول فى شهر رمضان ، ويكون عنده شهر رمضان كله فرصة لإخراجها ، والوقت المستحب للإخراج هو يوم العيد ، فقد روى البيهقى والدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال : « اغنوهم فى هذا اليوم » وفى رواية البيهقى : « اغنوهم عن طواف هذا اليوم »

وصدقة الفطر حق الله سبحانه وتعالى : وهى كأى حق من حقوق الله لا تسقط بفوات وقتها ، وإنما تستمر ديناً على من لم يؤدها ، ويكون فى تأخيرها إثم على من أخرها . . وعليه أن يعمل على أدائها .

وهى على كل حال دين فى ذمته يستمر حتى تؤدى ولو فى آخر العمر ، وإذا مات قبل أن يؤديها فعلى ورثته أن تخرجها من تركته قبل تقسيمها .

فعلى كل من لم يؤد زكاة الفطر من المسلمين أن يخرجها الآن فإنها مَطْهرةٌ للصائم من اللغو والرفث .

فى الأعياد والصدقة

إن أعيادنا الإسلامية أعياد مبادئ ، وهذه المبادئ تتركز كلها وتتبلور فى كلمة الإسلام ، والواقع أن هذه الكلمة هى التعبير الصادق عن هدف كل العبادات والتكاليف الإسلامية ، فالإسلام إنما هو إسلام الوجه لله ، أن يسلم الإنسان كيانه كله لله تعالى ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام فقال :

« أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

ومن الحق أنه إذا أسلم القلب أسلمت الجوارح ، بل أسلم الكيان الإنسانى كله ، فكانت النفس وكان المال لله .

قال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وهى القلب وصلاح القلب إنما هو إسلامه ، أو هو أن يسلم لله نفسه ، فيكون : ربانيًا .

وهل هناك عقبات أمام إسلام الوجه لله ؟

إن من العقبات التى تقف فى سبيل إسلام الوجه لله تعالى حب المادة ، وسيطرة المادة على البشر ، واستعباد المادة للإنسان .

ومن أجل ذلك كان من مظاهر الأعياد الرسمية ، وبتعبير أدق من مظاهر الأعياد التى نحتفل فيها بمن أسلم وجهه لله — عن طريق الصوم ، وعن طريق الحج ، إذا كان الصوم وكان الحج سبباً فى أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله .

من مظاهر هذه الأعياد الاستعلاء على المادة ببذلها وإنفاقها فى سبيل الله ، فصدقة الفطر استعلاء على المادة عام شامل ، إنه استعلاء على المادة حتى من هذا الذى لا يملك منها الكثير .

الأُضْحية التى يتصدق بالكثير منها إنما هى استعلاء على المادة وتضحية بها .

وهذا الاحتفال فى جميع أرجاء العالم الإسلامى بمن أصلحوا ما بينهم وما بين الله ينبغى أن يكون عاماً شاملا ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان الفقراء والمساكين فى سعة ، ومن أجل ذلك يقول

رسول الله ﷺ : « اغنوهم فى هذا اليوم » . ويقول : « اغنوهم عن طواف هذا اليوم » .

وإذا كان رسول الله ﷺ قال ذلك بمناسبة عيد الفطر فهو سارٍ بالنسبة لعيد الأضحى أيضاً . ومن أجل كل ذلك ارتبطت الأعياد عندنا بالصدقة ، أو ارتبطت بالاستعلاء على المادة من أجل إسلام الوجه لله .

فى إذا حان وقت الزكاة وأنت تستعد بدفع أموالك ، وفجأة ضاع المال كله قبل أن تتمكن من دفع الزكاة فماذا تفعل ؟

إذا حال الحول على المال الذى تجب فيه الزكاة وجب إخراجها ، ولزم على صاحب المال المبادرة إلى ذلك .

فإن هلك المال فى هذه الحالة بدون تعد منه وهو يستعد للإخراج فلا شىء عليه وسقطت عنه الزكاة ، وإن هلك جزء من المال سقط نصيبه من الزكاة .

أما إذا ضاع المال بسبب تعد منه فإن الزكاة لا تسقط وتبقى ديناً فى ذمة المزكى يجب عليه أداؤها عند الميسرة .

فى حقوق المال غير الزكاة

وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقاً سوى الزكاة ، كالنخعى والشعبى ، وعطاء ، ومجاهد ، قال الشعبى بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

واستدلوا بقوله عز وجل : (ومما رزقناهم ينفقون) وبقوله تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم) وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر إذا وجد محتاجاً أن يزيل حاجته ، فضلا عن مال الزكاة .

فى قيام الأبناء بالصدقة على روح آبائهم وأمهاتهم

إن قيام الأبناء بالصدقات – كالأغنام – والنقود . . إلخ .

على آبائهم وأمهاتهم وذلك فى ليلة وصباح التاسع من شهر ذى الحجة سنويًّا والتزامهم ذلك جميعاً ذكوراً وإناثاً على السواء هذا العمل وتلك الصدقات ، وإذا كانت من أموال المتصدقين خاصة ولم يكن فيها حق لقاصر أو يتيم فهى من أعظم ما ينفع الميت ، وهى فى الوقت نفسه ثواب وأجر للذكور والإناث ، ثواب وأجر كامل لا نقص فيه ، كأنهم تصدقوا على أنفسهم .

فهذا العمل له أجران كاملان : أجر للميت ورحمة وصدقة يخفف عنه العذاب إن كان فى عذاب ، ويرفع قدره ، ويزيد فى نعيمه ، إذا لم يكن فى عذاب .

وأجر آخر للقائمين بهذه الصدقات ، حيث إنهم المتسببون فيها ، وهى من أطيب العادات التى تقرب الميت والحى من الله زلفى ، وتزيد البركة فى الصحة والمال ، وتدفع الكربات ، وتدفع الآفات ، وتخفف وتلطف من وقع القدر على الإنسان ، وهذا العمل له ثلاث جهات :

الأولى : أنه برٌّ بالوالدين .

والثانية : أنه صدقة .

والثالثة : صلة رحم .

وبر الوالدين كما يكون فى حياتهما يكون أيضاً بعد وفاتهما ، أما فى الحياة فهو الإحسان إليهما والإكرام لهما . . وأما بعد وفاتهما فبالزيارة لقبرهما ، وبالتصدق عليهما ، والدعاء لهما .

وأما أنها صدقة وصلة رحم :

فقد قال ﷺ : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » .

وأما البركة فى المال وفى الصحة والتخفيف من دفع القدر : فقد قال ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، ودافعوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع » .

وعلى هذا فتلك عادة من أطيب العادات ، وقربة من أعظم القربات ، تحددت بوقت أم لم تحدد ، على أن إخراجها فى ليلة ويوم عرفات إنما هو توفيق من الله سبحانه ، فإنه يوم مبارك يسن فيه الصوم على من ليس بعرفات ، وتسن فيه الصدقة وعمل الخير .

فى الصدقة فى سبيل الله

الصدقة فى سبيل الله فضلها كبير وثوابها عظيم عند الله سبحانه وتعالى ، ولقد حث عليها القرآن الكريم ورغب فيها ، وورد فى الحث عليها والترغيب فيها كثير من الأحاديث والآثار .

قال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المرء فى ظل صدقته يوم القيامة » .

ومن نوى أن يتصدق ثم حالت ظروف خارجة عن إرادته فحالت دون تنفيذ نيته فله ثواب هذه الصدقة .

أما من تصدق بأكثر من الصدقة التى نواها فله ثواب ما تصدق به لا ما نواه فقط ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول فى إطلاق وفى تعميم شمول : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

وقال جل شأنه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) ، والله يضاعف ثواب الخير ولا ينقص منه شيئاً ، وقد يثاب المرء برغم أنفه كما ورد فى الآثار .

فى ثواب الصدقة

الصدقة لها ثواب عظيم عند الله ، فلقد حث القرآن الكريم عليها ورغب فيها فقال تعالى : (يمحق الله الرِّبا ويربى الصدقات) وقال أيضاً : (إن المصدِّقين والمصدِّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم) .

وقال عليه السلام : « المرء فى ظل صدقته يوم القيامة » وقال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ، وقال عليه السلام : « ما من عبد يتصدق بصدقة من كَسْبٍ طيب إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فَلُوَّه[1] حتى تبلغ التمرة مثل أحد » إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة .

وإذا كان هذا ثواب الصدقة فللمتصدق أن يهب ثواب صدقته إلى الأموات ليرحمهم الله . .

فى أيهما أكثر ثواباً : من يتصدق بفضلات طعامه أو من يخصص طعاما يتصدق به دون أن يتذوقه

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا

---

(١) الفلو : المُهْر .

الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد) .

يأمر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين بالصدقة من طيبات أموالهم ، قال حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما : « أمرهم بالإنفاق ومن أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق بخبالة المال ودنيئه ، وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

ويقول الإمام ابن كثير : ولهذا قال : (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) ، أى لو أعطيتموه ما أخذتموه ألا تتغاضوا فيه ، فالله غنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهونه ، والهدف الذى من أجله ذكرنا هذه الآية الكريمة أنّ كثرة الثواب فى الصدقة تابعة لطيب المتصدَّق به وجودته ، فإن كانت فضلات الطعام فى الأطهر الأجود والأنفس فثوابها أكبر ، على أن كثرة الثواب فى الصدقة متعلق بأمر آخر أيضاً هو صفاء نية المتصدق وإخلاصه وإرادته وجه الله سبحانه فى تصدقه .

والخلاصة أن كثرة الثواب إنما تكون على الطيب من الصدقة ، أى أن يكون المتصدق به طيباً فى النوع وطيباً من حيث نية المتصدق .

ويقول الله تعالى : (وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم) .

ويقول الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » فعلى قدر جودة المتصدَّق به وعلى قدر صفاء نية المتصدق يكون الثواب .

فى حكم من أسهم بماله فى بناء مسجد أو كنيسة

إن المساجد لها شأن كبير ، قال تعالى :

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

وعمارة المساجد كما تكون بالذهاب إليها والصلاة فيها والجلوس بها تكون ببنائها وتكون بإصلاحها .

ويقول صاحب الكشاف : (العمارة) تتناول رم ما سقط منها وقَمَّها – أى كنسها – وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر . . .

وروى الإمامان : البخارى ومسلم عن عثمان بن عفان – رضى الله عنهم أجمعين – أن رسول الله ﷺ قال :

« من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله تعالى بنى الله له بيتاً فى الجنة » والمساهم بماله فى بناء

مسجد إذن إنما يسهم فى عمل شريف حث عليه القرآن وجعل صاحبه فى عداد المهتدين وحثت عليه السنة وجعلت صاحبه من أهل الجنة .

أما المساهمة فى بناء كنيسة فإن ذلك محرم على المسلم ، لأنه يعتبر نشراً لدين غير دينه ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الدين عند الله الإسلام) . ويقول : (ومَن يَبتَغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه) فليس لمن يسهم فى بناء كنيسة من المسلمين أجر وإنما عليه وزر وإثم .

فى زكاة الزروع والخضر

قرر الفقهاء أن زكاة الزروع والخضر تخرج بعد قطعها ، وزكاة الحبوب بعد كيلها وتنقيتها ، وذلك ليعرف مقدار الخارج من الأرض فيعرف بذلك حق الزكاة ، قال تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، قال : العلامة الألوسى فى تفسيره لهذه الآية « ليس الأداء وقت الحصاد والحب فى سنبله كما يفهم من الظاهر بل بعد التنقية والتصفية » .

فى الكفّارة

إن الكفّارة من الأمور التى حدد الله كيفيتها تحديداً دقيقاً لا لبس فيه ، والآيات التى تتحدث عن مختلف أنواع الكفارات لا تحتمل تأويلا ولا صرفاً لها من ظاهرها يقول الله تعالى فى كفّارة اليمين :

(لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتُّمُ الأيمانَ فكفّارته إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ما تُطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) .

وفى هذه الآية يبين الله الكفارة محدداً أنواعها ، فخيره بين عدة أنواع ، فإذا لم يتيسر له نوع منها أجاز له سبحانه النوع الرابع وهو الصيام ، ثم قال سبحانه مشيراً إلى هذه الأنواع : (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) . فلا يجوز لمسلم أن يتخطى هذا التحديد .

فى حجم الصدقة

يقول الله تعالى : (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) .

إن الذى يتصدق بقدر صغير أو كبير له ثوابه ، فإن تصدق بعشرة قروش وهو ينوى أن

يتصدق بقرش فلينظر إلى قلبه : هل فرح بذلك أو ندم عليه ؟ فإن كان قد فرح فله ثوابهما وإن كان قد ندم فليس له إلا ثواب ما قصد وهو القرش فقد يثاب المرء برغم أنفه ، قال تعالى : (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . ثم إنه يتفاوت الثواب فى القليل والكثير الذى ينفق بحسب درجة الإخلاص وبحسب العسر واليسر .

فى هل يجوز للمسلم أن يأكل من طعام يوزع صدقة على الموتى

يجوز للمسلم الذى ليس من آل البيت أن يأكل من طعام الصدقة إذا كان فقيراً محتاجاً ، وذلك أن الصدقات للفقراء والمحتاجين .

وقد حث الله سبحانه وتعالى الناس عليها ليشبعوا بها بطوناً ويزيلوا بها جوعاً ويرضوا بها أنفس الفقراء .

أما إذا لم يكن الإنسان فى حاجة إلى أكل مال الصدقة فيسن ألا يتناول منه شيئاً ، بل ينبغى له أن يتصدق هو حتى يدخل فى نطاق الذين يثيبهم الله سبحانه وتعالى ثواب المتصدقين .

والرسول ﷺ يقول :

« الصدقة تسد سبعين بابا من أبواب الشر » ويقول : « الصدقة تطفئ غضب الرب » . ويقول : « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » . فعلى الأغنياء أن يتنافسوا فى الصدقة ، ومع ذلك فإنه إذا أكل من صدقة ليست بواجبة فلا حرمة عليه ، كما لو أكل من طعام يوزع صدقة على الموتى ، وثواب توزيع الصدقة يصل إلى الموتى ، سواء أكل منها الفقراء فقط أم شاركهم فى بعضها من ليسوا بمحتاجين . .

كسب شخص من اليانصيب خمسة وعشرين ألف جنيه وبنى بهذا المبلغ مسجداً ، واشترى بعض الحاجات بما بقى وأوقفها على المسجد ، فهل هذا جائز شرعاً ؟

إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ، وهذا المال حرام . . وما ينبغى أن يكون الحرام طريقاً للوصول إلى الله ، والوصول إلى الله لا يكون إلا بما شرع الله

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد) .

والخبيث المنهى عنه فى الآية كل ما حرم الله الانتفاع به لتحريم مصدره ، كمال الميسر واليانصيب ، ومال الاتجار بالخمر . والحشيش والأفيون ، والربا من أى طريق كان . .

والحاجات التى اشتريت بما بقى من ربح اليانصيب وأُوقفت على المسجد وقفها باطل ، ولا ينعقد شرعاً ، كبطلان إقامة المسجد بهذا المال الذى حرمه الله ، وحرم طريق الوصول إليه .

فى حكم من امتنع عن الزكاة

لقد امتنع عن أداء الزكاة قبائل من العرب فى عهد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فقاتلهم رضى الله عنه على أنهم من المرتدين ، أى على أنهم كفروا بعد إيمان .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فيما رواه الإمام البخارى قال :

« لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه ، وكفر من كفر من العرب : فقال عمر رضى الله عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » ، فقال والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عَناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها .

قال عمر ، رضى الله عنه :

« فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر ، رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » .

فمن امتنع عن الزكاة إنكاراً لها فهو كافر .

أما من امتنع عنها شحًّا بها فإنه داخل فى نطاق المسلم العاصى ، إنه داخل فى نطاق من يقول الله تعالى فيهم : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب ألم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

وسئل رضي الله عنه في الصيام

فى شهر رمضان

يقول الله تعالى :(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم . ولعلكم تشكرون) .

إن الله سبحانه وتعالى بين فى هذه الآية الكريمة أن القرآن أنزل فى شهر رمضان . وأنه أنزل هدى للناس .

والهداية هى أسس نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنسانية وهذه النعمة تقتضى شكراً .

ويتمثل الشكر على الهداية فى عبادة تزكى النفس ، وتسمو بالروح ، وتستغرق الشهر كله ، فكانت هذه العبادة هى الصوم الذى يثمر التقوى .

ويقول الله تعالى عن ذلك : (يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

فصوم شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن إنما هو شكر على العبادة وهذا الشكر يثمر التقوى ، والتقوى تثمر رعاية الله للمتقى فى كل ضيق . (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

ويقول :(يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم) .

والتقوى التى هى ثمرة الصوم لها ثمارها الطيبة إذن فى هذه الحياة الدنيوية وفى الحياة الأخروية .

فى اسم شهر رمضان ولماذا خصه الله بالصوم

يقول الله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

فقد أمر الله تعالى بالصوم بعد أن ذكر أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى

القرآن ، فكان لابد أن نحتفل به ، والاحتفال بشيء ما إنما يكون بما يناسبه ، فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن إنما يكون بما يعد النفس ويمهدها لاستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى ، وذلك بالصوم ، فكأننا بالصوم إيماناً واحتساباً نصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها فتتنسم هدى السماء وتتشرب به ، وتمتزج به فرحة مغتبطة ، فتفهم فى عمق قول الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

والشهر فيما قيل أصله من الشهرة يقال عنه :

قد شهر فلان سيفه ، إذا أخرجه من غمده ، فاعترض به من أراد ضربه – يُشهِره شهراً وكذلك شهر الشهر ، إذا طلع هلاله ، وأشهرنا نحن إذا دخلنا فى الشهر ، هذا عن كلمة شهر .

أما عن كلمة رمضان : فإنها من الرمض ، يقول صاحب مختار الصحاح : (الرمض) بفتحتين شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض (رمضاء) بوزن حمراء ، وقد (رمض) يومنا : اشتد حره ، وبابه طرب وأرْضٌ (رَمِضَةٌ) الحجارة . و (رُمِضَتْ) قدمُهُ أيضا من الرَّمضاء ، أى احترقت ، وفى الحديث : « صلاة الأوَّلين إذا رَمِضَت الفِصالُ من الضُّحا » ، أى إذا وجد الفَصلُ حَرَّ الشَّمس من الرَّمضاء ، يقول صلاة الضُّحا تلك الساعة ، وأرْمَضَتْهُ الرَّمضاءُ أحرقته . شَهر (رمضانَ) جمعه (رمضانات) و (أرمضاء) بوزن أصفياء ، قيل : إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك .

وكان مجاهد رضى الله عنه يكره أن يقال : « رمضان » ومن كلامه لكن نقول ما قال الله شهر رمضان .

فى تاريخ شهر رمضان

صيام شهر رمضان فريضة فرضها الله تعالى ، أما صيام رجب وشعبان فمندوب فقط ، وشهر رجب من الأشهر الحرم الذى ذكرها الله تعالى فى كتابه ونبه المسلمين إلى حرمتها ، وهو من الأشهر الحرم المعظمة فى الجاهلية والإسلام ، وفيه ليلة الإسراء والمعراج التى كرم الله فيها رسول الله ﷺ وأكرمنا فيها بفرضية الصلاة علينا وعلى المسلمين ، فشهرٌ فيه هذه الليلة جدير بشكر الله فيه ، وشهر شعبان خصه رسول الله ﷺ بالصيام فيه أكثر من غيره ونبه إلى أن شهراً يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى الله ، ورسول الله ﷺ يحب أن يرفع عمله وهو

صائم ، أما من صام الأشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، لا يحاسبه الله يوم القيامة مهما كانت ذنوبه فظنى أنه غير وارد .

فى متى فرض صيام رمضان

فرض صيام رمضان فى السنة الثانية من الهجرة .

روى ابن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال :

نزل فرض شهر رمضان بعد ما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر ، فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مُهاجَر رسول الله ﷺ .

فى حكمة الصوم

الحكمة الأولى : يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) . فإذا ماوطّن الإنسان نفسه على الصلاح والخير بعد أن مهد له الصوم إلى ذلك ، وأعده ليسير فى سهولة ويسر على الصراط المستقيم ، فقد فاز بثمرة الصوم وهى التقوى . .

والتقوى هى تجنب المعصية الكبرى التى لا يغفرها الله أبداً وهى الشرك بالله . وكذلك تجنب ما دونها من المعاصى ، وهذا جانبها السلبى . أما جانبها الإيجابى فإنه القيام بكل واجب افترضه الله تعالى . وإذا ما حقق الإنسان التقوى فقد فاز ، ودخل فى نطاق الآية القرآنية الكريمة :

(ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدّنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) . .

وقد روى فى الحديث : إن الله ينادى يوم القيامة : يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، فترفع الخلائق رءوسهم ، فيقولون : نحن عباد الله عز وجل ثم ينادى الثانية : الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكس الكفار رءوسهم ، ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم ، ثم ينادى الثالثة ؛ : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فينكس أهل الكبائر رءوسهم ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم .

أما الحكمة الثانية : التى من أجلها فُرض الصوم فهى مايمكننا أن نلتمسه فى قول الله تعالى :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

فقد أمر الله بالصوم بعد أن ذكر أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى القرآن ، فكان لابد أن نحتفل به ، والاحتفال بشىء ما إنما يكون بما يناسبه ، فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن إنما يكون بما يعد النفس ويمهدها لاستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى ، وذلك هو الصوم فكأننا بالصوم إيماناً واحتساباً نصل إلى مستويات من شفافية النفس ، وتطهيرها وتزكيتها . . فتتسم هدى السماء وتتشربه وتمتزج به فرحة مغتبطة ، فقهم فى عمق قول الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

وأما الحكمة الثالثة : لفرض الصيام فإننا نلتمسها فى قوله تعالى : مختتماً بعض آيات الصوم : (ولتكبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) .

فقد فرض الصوم لننتهى منه ونحن فى رحاب الله مغتبطين مستبشرين قد تزكت عنا النفوس وتطهرت منا الأفئدة فيترتب على ذلك أن نكبر الله ونحمده على هدايته السماوية أولا ، وعلى توفيقه لنا بإتمام الصوم ثانياً ، ونشكره على كل ذلك فيزيدنا سبحانه بهذا الشكر هداية وتوفيقاً . . (لئن شكرتم لأزيدنكم) ومما له مغزاه العميق أنه فى ثنايا هذه الآيات الكريمة التى تتحدث عن الصوم وتوجهنا إلى التقوى وإلى تكبير الله وإلى الشكر يخاطب الله رسوله ﷺ فيقول : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشُدون) .

ولا ريب أن النفوس التى صامت إيماناً واحتساباً وتزكت وتطهرت والتزمت التقوى وكبرت الله وشكرته إنما هى نفوس قريبة من الله ، إذا دعته استجاب ، وإذا استلهمته الرشد والصواب ألْهَمَ واستهدته هدَى .

فى قول الرسول ﷺ « من صام رمضان إيماناً واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »

صيام رمضان يكفر خطايا الإنسان الماضية كما ورد فى الحديث المذكور ، ومعنى أنه يصوم إيماناً واحتساباً : أن يكون الصيام موجهاً له فى كل سلوكه فيتعلم من الصيام مراقبة الله فى أعماله والإخلاص له ، وعند ذلك يحترز عن الخطايا والمنكرات ، ويكون ممن انتفع من الصيام ، ولا حرج على فضل الله ، والذى يغفر الذنب ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ،

ولقد اشترط رسول الله ﷺ فى مغفرة الذنوب أن يكون الصوم إيماناً واحتساباً ومما يشرح كلمة « إيماناً واحتساباً » ما رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما ينبغى له أن يتحفظ منه كفّر ما قبله » لابد إذن فى تحقيق إيماناً واحتساباً ، أن يعرف الإنسان حدوده ، وأن يتحفظ من السيئات ، وبذلك يتحقق قول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح :

« الصيام جنة وحصن من النار » .

وشرط الصيام إيماناً واحتساباً أن يبدأ الإنسان فيه بالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة التى تنادى كل خلية من خلايا جسم الإنسان بها ، التوبة التى تنبع من أعماق الإنسان فتكون توبة صادقة تأخذ صفة النصوح ، وإذا ما كانت التوبة كذلك فإنها تثمر التقوى ، فإذا ما أثمرت التقوى كان الإنسان فى رضا الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة .

رسول الله ﷺ وشهر رمضان

عبّر الرسول ﷺ عن فضل شهر رمضان فيما كان يخطب به المسلمين إذا أهلّ عليهم هذا الشهر المبارك ، فعن سلمان رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فى آخر يوم من شعبان قال :

« يأيها الناس ، قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيامه تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يُزاد رزق المؤمن فيه ، من فطّر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن يَنقص من أجره شىء » .

قالوا يارسول الله : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم .

فقال رسول الله ﷺ : « يعطى الله هذا الثواب من فطّر صائماً على تمرة ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، من خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال :

خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما .

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه : وأما

الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار .

ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة » . رواه ابن خزيمة فى صحيحه ثم قال : صح الخبر .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلّقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين» . أما عن ثواب الصيام فيبينه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل :

« كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم إنى صائم .

وقال ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك »

وقال ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

فى جهاد النفس فى رمضان

على الصائم أن يجاهد نفسه فى رمضان بالبعد عن مجالس الهوى والبعد عن كل ما لا يقربه من ربه ولا يحفظ عليه صيامه ، وعليه أن يُقبل على تلاوة كتاب الله ، وعلى الإكثار من الاستغفار وذكر الله ، ومجالسة العلماء والصالحين فى نهاره ، وأن يشغل ليله بطول القيام لله رب العالمين ، وأن لا يستجيب لشهوات نفسه من طعام أو شراب ، لأن القصد من الصوم كسر شهوة النفس ، وتعويدها الاكتفاء باليسير من الطعام والشراب ، وما يفعله المسلمون فى هذا الزمان من التفنن فى إعداد الطعام والتكلف فيه وإيجاد المرغبات فى تناوله مما يضر بصحة الصائم ينافى مشروعيته ، وعلى الصائم فى سلوكه فى رمضان أن يتأسى برسول الله ﷺ ، فيصوم نهاره مبتعداً عن كل ما يغضب الله عزَّ وجلَّ ، بل وعليه أن يترك المباحات طلباً لترقى المقامات العلية فى كل أحواله ، وأن يجتهد فى ليله بطاعة ربه وإيقاظ أهله للقيام فيه ، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إن كان من ذوى العلم بذلك ، وأن يسرع بالخير فيكسب المعدوم ويغيث الملهوف ، ويتحلى بالفضائل بعد التخلى عن الرذائل ، ويكون بحق من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

فى رؤية هلال رمضان

تختلف رؤية الهلال من بلد إلى بلد بحسب اختلاف المطالع كما هو مشاهد ، ومن المعلوم أن رؤية العدل أو العدلين إذا أخذ بها الحاكم تلزم الجميع فى نفس البلد أو القطر وهذا متفق عليه .

أما أهل البلاد الإسلامية الأخرى فما هو الحكم بالنسبة لهم ؟ هل يلتزم كل بلد بما التزم به أهل بلد معين أو لا ؟

يرى كثير من الفقهاء أن الرؤية فى بلد ما من بلاد الإسلام تلزم أهل البلاد الأخرى ، وأنهم إذا أفطروا فتبين لهم صيام غيرهم فى بلد آخر عليهم قضاء اليوم الذى أفطروا فيه ، وهم يرون ذلك لأن الأمة الإسلامية فى الوضع الإسلامى أمة واحدة فأى جزء منها إنما يعتبر ممثلا لها كلها يقول سبحانه : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ويقول سبحانه : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .

ويرى آخرون أن الرؤية لا تلزم أهل البلد الذى وقعت فيه الرؤيا . روى مسلم عن كريب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام فقال : قدمت الشام فقضيت حاجتها واستهل علىّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر ، فسألنى ابن عباس ثم ذكر الهلال فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة ، فقال : أنت رأيته ؟ فقلت : نعم : ورآه الناس وصاموا وصام معاوية ، فقال لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه ، فقلت : أولا تكتفى برؤية معاوية وصيامه ، فقال : لا ، هكذا أمرنا النبى ﷺ . فظاهر هذا الأثر يقتضى أن لكل بلد رؤيته قُرب أو بَعُد .

وما من شك فى أنه من الممكن الاتفاق على توحيد وقت الصيام ، وعلى موعد العيدين ، وذلك باتفاق رؤساء البلاد الإسلامية على الأخذ برؤية وبشهادة العدول فى أى بلد إسلامى ، وذلك له وجهة فى الشرع من ناحية النظر ومن ناحية الأثر ، فإذا فعلت ذلك الأمة الإسلامية تحققت لها الوحدة فى مواسمها وأعيادها .

فى اتباع أوامر الحاكم فى الصيام والفطر

المسلمون بالنسبة إلى الصوم لرؤية الهلال فى بلد غير بلدهم ، أو فى قبوله من رآه ببلدهم ، واعتبار شعبان تسعة وعشرين يوماً تابعين لسلطانهم . . إنْ قال بالصيام صاموا وإن قال بالفطر أفطروا ويستثنى من ذلك من رأى الهلال بنفسه ، فيلزمه الصيام لتحقق الرؤية بالنسبة إليه .

والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن كريب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام ، قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها واستهل علىّ رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة فى آخر الشهر فسألنى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم ذكر الهلال فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة ، فقال أنت رأيته ؟ فقلت نعم ، ورآه الناس وصاموا وصام معاوية ، فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت ، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه ، فقلت : أولا تكتفى برؤية معاوية وصيامه ، فقال : لا . هكذا أمرنا رسول الله ﷺ .

وعلى ذلك فليس بلازم الصيام على رؤية أهل القطر المجاور اللهم إلا إذا قرر ذلك السلطان ، فإن الصيام يتعين حينئذ أو الفطر إذا قرر الحاكم الفطر ، وهذا من الإسلام احترام للإمارة ، وتنظيم لأمور الدولة ، على أن هذا لا يمنع فى هذا العصر الذى تقدمت فيه وسائل المواصلات وتحول العالم إلى كتل تتجمع لأوهى الأسباب من أن نتقدم برجاء إلى الله نسأله فيه توحيد مواعيد الصيام والفطر فى كل بلاد الإسلام واتفاق الولاة على ذلك .

فى اختلاف وقت الصيام

يقول الله تعالى فى آيات الصيام من سورة البقرة الآية رقم ١٨٧ (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل) .

وينبه الله سبحانه وتعالى : فى هذه الآية الكريمة أن وقت الصيام إنما يبدأ من الفجر وينتهى عند غروب الشمس ، وقد كان ابن أم مكتوم رضى الله عنه يؤذن إعلاناً بطلوع الفجر وبوجوب الإمساك عن الطعام والشراب ، وقد كان الرسول صلوات الله عليه ، يقول : إذا أقبل الليل من هنا ، وأدبر النهار من هنا فقد أفطر الصائم .

وعلى هذا الأساس يختلف وقت الصيام من قطر لآخر باختلاف توقيت الغروب سواء طالت

ساعاته فى الأربع والعشرين ساعة أم قصرت ، ومن لا يطيق الصيام وهو فى الأمكنة التى يطول فيها النهار أو حتى فى غيرها فإن الله سبحانه وتعالى : قد جعل الدين يسرًا وفتح له باب القضاء عندما يستطيع ، أو الفدية عند عدم الاستطاعة .

فى الصوم كل عام

يصوم المسلمون كل عام امتثالا لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) إلى قوله تعالى (فليصمه) ومعنى شهد أى عاش فيه ، وهو مكلف بتحمل لمسئولياته تجاه الإسلام .

والصوم عبادة ، والعبادة مظهر من مظاهر الاستسلام لله تعالى . وتنفيذ أوامره وتوجيهاته ، لعلمنا بأن تدبيره لنا خير من تدبيرنا لأنفسنا ، ومعرفتنا بغناه عن أعمالنا ، وأن تشريع هذه الأعمال ليس إلا لنفعنا وتحصيل الثواب لنا .

ومع ذلك فقد تلمس العلماء الحِكَم المرادة من العبادات وخرجوا من ذلك بمحصول لا بأس به ، ففى الصوم تحكيم للمسلمين فى عادات الحياة ، وتربية لإرادتهم ، وتدعيم لإيمانهم وتذكير بوحدتهم ، وجمع لمشاعرهم على هدف واحد وسلوك واحد ، وإعداد لهم لمقابلة المصاعب من الشدائد ، وإراحة الجسم من تعب الهضم ، وما إلى ذلك مما تحدث عنه العلماء ، والهدف الأساسى للصوم تحصيل التقوى ، ليسعد بها الإنسان دنيا وأخرى ، أما متى فرض الصوم لأول مرة فى الإسلام فقد فرض فى السنة الثانية من الهجرة وقيل إن فريضته كانت فى شعبان من هذه السنة .

فى النية فى الصوم

النية فى الصيام ركن من أركانه لا يصح بدونها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ولابد من النية فى كل ليلة من ليالى رمضان ، لأن صيام كل يوم عبادة مستقلة ، وتصح النية فى أى جزء من أجزاء الليل ، وليس المقصود هو التلفظ بها لأنها عمل قلبى ، وحقيقتها : القصد إلى الفعل امتثالا لأمر الله تعالى ، وطلباً لوجهه الكريم .

ومن تسحر بالليل قاصداً الصيام تقرباً إلى الله بهذا الإمساك فهو ناوٍ للصيام ، ومن عزم أثناء الليل على الكف عن المفطرات أثناء النهار مخلصاً لله فهو ناوٍ للصيام كذلك وإن لم يتسحر.

فى شروط الصوم الصحيح

شروط الصيام الصحيح : الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم ، فيفسد بالأكل أو الشرب عمداً .

أما إذا أكل أو شرب ناسياً ، فلا يفسد ذلك صومه ، وكذلك الإمساك من الناحية الجنسية .

هذه هى شروط الصيام الصحيح من الناحية المادية ، وهى على كل حال تسقط الفرض .

بيد أن هذه الشروط مع إسقاطها الفرض ، لا تكفى مطلقاً فى نظر الصالحين ، وللصالحين شروط أخرى منها :

١ – غض البصر عما حرم الله تعالى ؛ يقول الله تعالى : (قل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) . ويقول رسول الله ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله ، فمن تركها خوفاً من الله أتاه عز وجل إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » .

٢ – حفظ اللسان من الغيبة والنميمة والكذب ، وقد نهى القرآن عن كل ذلك .

ويقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه الشيخان : « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ، ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم إنى صائم » .

٣ – كف السمع عن المحرم حتى لا يدخل فيمن قال الله تعالى فيهم : (سمّاعون للكذب) . وبالجملة كف الجوارح كلها عما حرم الله تعالى .

وما من شك فى أن كف الجوارح عما حرم الله تعالى له درجة أرقى من درجة مجرد الامتناع عن الأكل والشرب والناحية الجنسية .

أما الدرجة العليا فى الصوم ، فإنها صوم القلب عما سوى الله تعالى ، يقول أبو سعيد الخراز : « كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل » .

فى أقسام الصوم

قسم الفقهاء الصوم إلى ستة أقسام :

١ – فرض ٢ – واجب .

٣ – مسنون ٤ – مندوب .

٥ – نفل . ٦ – مكروه .

فالصوم المفروض : هو صوم رمضان أداء وقضاء ، وصوم الكفارات والمنذور .

والصوم الواجب : هو قضاء ما أفسده من نفل ومثله فى الوجوب صوم الاعتكاف المنذور .

والصوم المسنون : هو صوم عاشوراء لما ثبت من أنه ﷺ صام العاشر من المحرم وقال : لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر .

وأما المندوب : فهو صوم ثلاثة أيام من كل شهر ويندب أن تكون الأيام البيض التى يتكامل ضوء الهلال فيها ، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر ، وصوم الاثنين والخميس وصوم ست من شوال متتابعة أو متفرقة ، ويندب صوم ما ثبت طلبه والوعد عليه بالسنة عن رسول الله ﷺ قولا أو فعلا كصوم داود عليه السلام ، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أفضل الصيام وأحبه إلى الله كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ فقد روى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال له : « صم فى كل شهر ثلاثة أيام قلت : إنى أقوى من ذلك ، فلم يزل يرفعنى حتى قال : صُمْ يوماً بعد يوم فإنه أفضل الصيام وهو صوم أخى داود عليه السلام » .

وأما النفل فهو : ما سوى ذلك مما لم يثبت كراهيته .

والصوم المكروه قسمان : مكروه كراهة تنزيهية ، ومكروه كراهة تحريمية .

فالأول كصوم عاشوراء منفرداً عن يوم التاسع ، والثانى : هو صوم العيدين عيد الفطر وعيد الأضحى ، وصوم أيام التشريق وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة ، وكره إفراد يوم الجمعة وإفراد يوم السبت بالصوم ، فقد روى عن جنادة الأزدى قال : دخلت على رسول الله ﷺ فى يوم الجمعة فى سبعة من الأزد وهو يتغدى ، فقال هلموا إلى الغداء ، فقلنا يارسول الله إنّا صيام فقال أصمتم أمس ؟ قلنا : لا ، قال : أفتصومون غداً ؟ قلنا : لا . قال : فافطروا ، فأكلنا معه ، فلما خرج وجلس على المنبر دعا بإناء من ماء فشرب وهو على المنبر والناس ينظرون . . إنه لا يصوم يوم الجمعة . وعن ابن عباس : أن النبى ﷺ قال : « لا تصوموا يوم

الجمعة وحده » . رواهما أحمد . وعن عبد الله بن بسر عن أخته واسمها الصماء أن رسول الله ﷺ قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم فإن لم يجد أحدكم إلا عود عنب أو لحاء شجرة فليمضغه » رواه الخمسة إلا النسائى .

ويكره صوم الوصال ولو يومين وهو ألا يفطر بعد الغروب أصلا حتى يتصل صوم الغد بالأمس ، كما يكره صوم الدهر .

هذا وإنّا لنرجو أن يكون صوم الصائم سُنّة كان أو مفروضاً أو مندوباً ليس صوماً عن الطعام والشراب والمتعة فقط ، بل أن يكون كما يريده الله سبحانه ، صوماً للجوارح كلها عن كل ما لا يليق من عبد أسلم وجهه لله رب العالمين ، حتى تتحقق الغاية من الصيام التى أجملها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

فى مظاهر التيسير فى الصوم

قال الله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، وقال سبحانه : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، ومن مظاهر التيسير على المسلم إعفاؤه من فريضة صوم رمضان إذا فنيت قوته وعجز عن أداء الصوم لكبر سنه ، وهو ما يسميه الفقهاء بالشيخ الفانى والعجوز الفانية ، قالوا : ويجوز الفطر لشيخ فانٍ أو عجوز فانية وتلزمهما الفدية ، وهى إطعام مسكين عن كل يوم غداءً وعشاءً أو فطوراً وسحوراً ، أو غداءين أو عشاءين ، أو يخرج عن كل يوم نصف صاع من بر أو صاعين تمراً قيمة ذلك ، والأصل فيه قول الله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال العلماء : أى لا يطيقون صيامه وتقدير حرف النفى (لا) أسلوب معروف فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى : (تالله تفتأ تذكر يوسف) أى لا تفتأ ، وقوله تعالى : (يبين الله لكم أن تضلوا) ، أى لا تضلوا . . إلخ .

ويرى بعض العلماء أن المعنى : وعلى الذين يطيقونه : أى يقدرون عليه بمشقة وعسر روى عطاء أنه سمع ابن عباس رضى الله عنه يقرأ على الذينَ يطيقونه فدية طعام مسكين ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً . رواه الترمذى .

قال الفقهاء : فمن لم يقدر على الفدية لعسرته يستغفر الله سبحانه ويستقيله ، أى يطلب منه الإقالة أو العفو .

ومن الفقهاء من قال : إنه لا فدية على الشيخ الفانى والعجوز الفانية وهو مذهب المالكية . وبعض فقهاء الحنفية : لأنه عجز مستمر إلى الموت ، فكان كالمريض إذا مات قبل أن يصح ، والمسافر قبل أن يقيم ، وإن كان المستحب أن يفدى .

ومن هذا يتبين أنه ليس على الشيخ الفانى – إذا كانت حالته كما شرحنا – صيام ولا فدية ، وليس عليه إلا أن يستغفر الله سبحانه ويطلب عفوه والله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

فى أى سن يجب على الطفل أن يصوم ؟
وهل على الآباء مسئولية فى هذا الواجب ؟

الصيام كسائر العبادات لا يكلف بها إلا البالغ العاقل فمتى وصل الطفل إلى سن البلوغ أصبح مكلفاً بسائر العبادات ومنها الصيام .

وسن البلوغ غير محدد ، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والبيئات ، ولكن الدليل عليه هو الاحتلام ، فمتى احتلم الطفل أصبح مكلفاً ، وعلى الوالدين مسئولية تبصير الولد بدينه ، ومطالبته بأداء ما افترض عليه ، وتعويده ذلك من صغره ليشب على الطاعة .

قال رسول الله ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

وفى الحديث أن إحدى الصحابيات أخبرت أنهم كانوا يصوِّمون أطفالهم فى الصغر ، حتى إذا جاعوا عللوهم وأحضروا لهم اللعب من العهن .

روى البخارى ومسلم عن الرُّبيِّع بنت معوذ قالت : « أرسل رسول الله ﷺ صبيحة عاشوراء إلى قرى الأنصار – من كان أصبح صائماً فليتمَّ صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه » . فكنا نصومه بعد ذلك ونُصَوِّم صِبياننا الصغار منهم ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العِهْن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إيّاه حتى يكون عند الإفطار .

فى تأخير السحور

إن تأخير السحور مستحب : ذكر ذلك رسول الله ﷺ ، بيد أنه ينبغى أن يكون السحور قبل الفجر بوقت كاف . فإذا استيقظ للسحور متأخراً وأدركه أذان الفجر والطعام فى فمه فإن الأحوط بالنسبة له أن يمسك عن الطعام إلى نهاية النهار ، ثم يقضى اليوم بعد رمضان والمؤذنون عادة يتثبتون من حلول الوقت فيؤخرون الأذان ولو نصف دقيقة .

ومن أفضل العادات فى رمضان أن يجعل الإنسان مدفع الإمساك حدًّا فاصلا بين إباحة الأكل والإمساك عنه ، وهو عادة ينطلق قبل الفجر بثلث ساعة .

فى ما يتحلى به الصائم من سلوك

يتخذ بعض الناس تعلة يتعللون بها فى أنواع السلوك لا يحبها الله ورسوله : منها ضيق الخُلق الذى يتمثل فى الغضب ، وهو خُلقٌ يبغضه الله ورسوله . وقد طلب رجل النصيحة مرة من رسول الله ﷺ فقال له : لا تغضب.وإن من آثار الصوم الصحيح الصبر ، بل إن الصوم نفسه نوع من الصبر ، بل هو نصف الصبر على حد تعبير رسول الله ﷺ ، فإذا لم يتحل الإنسان بالصبر فى رمضان فإن فى صيامه خللا .

والصائم الصادق فَرِحٌ بصومه ، متفائل به ، راج به المغفرة . فإذا تفاءل الصائم بصومه ورجا به المغفرة من الله تحلى بحسن الخلق وبمكارم الأخلاق ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

فى الاعتكاف فى رمضان

كان رسول الله ﷺ يدخل المسجد قبل غروب شمس يوم العشرين من شهر رمضان حتى يستقبل ليلة الحادى والعشرين منه ، ويبتدئ فى العبادة ولا يخرج من المسجد ، ولا يتحدث فيه مع أحد اللهم إلا للضرورة القصوى ، إلى أن ينتهى رمضان .

وهذا الطريق هو الأكمل ، وهو ما يسمى بالاعتكاف ، وقد لا يتيسر لبعض الناس فيكون الطريق الآخر ، وهو التفرغ بقدر الاستطاعة للعبادة فى البيت .

وسواء أكان الإنسان متخذاً طريق الاعتكاف أم طريق التفرغ بقدر الاستطاعة فإن العبادة وإحياء الليل فى هذه الأيام يكون بقراءة القرآن والصلاة والذكر والدعاء .

أما قراءة القرآن فقد روى فى فضلها الكثير ، من ذلك ما رواه البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه » وما رواه الترمذى عنه « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول (ألم) حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف . وقد وردت الآثار فى الحث على سور وآيات مخصوصة ، والفاتحة أعظم سورة فى القرآن .

فى رخصة الفطر

يقول الله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) .

والآية الكريمة ترشد إلى أن المريض يفطر ثم يقضى ما أفطره فيما بعد حينما يكتب الله له الشفاء .

ويجوز له أن يقضى ما لم يصمه يوماً يوماً ، أى يقضيه متفرقاً ، أو متتابعاً بحسب الظروف المواتية .

فإذا استمر به الضعف فى العام الأول فليقضه فى العام التالى أو فى العام الذى يليه .

ولقد علل الله سبحانه وتعالى هذا الفطر وإرجاء القضاء بتعليل جميل جليل هو قوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . والجو جو تيسير . ولا فدية على المريض المنتظر الشفاء إذا تأخر الصيام ، عاماً أو أعواماً فيما روى السادة الأحناف ، وعليه أن يقضى حينما يمن الله عليه بالشفاء .

فى من رخص له بالفطر

يقول حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما :

« رخص للشيخ الكبير أن يفطر ، ويطعم كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه ؛ وهذا الحكم إنما هو للرجل والمرأة على السواء ، وهو حكم يتفق عليه جمهرة الأئمة ، وهو حكم يسير فى انسجام

مع ما ورد فى آيات الصيام من قوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . والفدية بإطعام مسكين » . ولقد روى الإمام البخارى فى التفسير : أن أنس بن مالك رضى الله عنه أطعم – بعد ما كبر ، عاماً أو عامين – كل يوم مسكيناً ، خبزاً ولحماً وأفطر ، فإذا لم يقدم المسن طعاما ما وأراد أن يقدم نقداً فإن المبلغ المناسب فى العصر الحاضر هو على التقريب مبلغ أربعين قرشاً .

ولا يجوز الصيام عن إنسان مادام على قيد الحياة ، لأن الصيام من الأمور التى لا يجوز فيها الإنابة مثل الصلاة سواء بسواء .

فى حكم من يصوم رمضان ولا يصلى

إن هذا السؤال يتردد فى أذهان كثير من الناس ، وذلك لما يرونه فى مختلف البيئات فى المشرق والمغرب من عشرات من الأفراد ، بل من مئات منهم مَن يصومون شهر رمضان ، بل يستعدون له قبل مجيئه ، وذلك مع تركهم للصلاة ، ومن أجل ذلك نستفيض قليلا فى بيان أهمية الصلاة فنقول وبالله التوفيق :

الصلاة عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين .

وبعد فقد يسأل سائل وما حكم الصوم ؟ ونقول إن صومه صحيح ، بمعنى أنه تأدية للفرض ، وأنه لا عقاب عليه فيما يتعلق بالصوم ، وحسابه وعقابه إنما هو على ترك الصلاة ، والله نرجو أن يوفق هؤلاء الذين يصومون ولا يصلون إلى صراطه المستقيم .

فى من أخبره الطبيب بأن فى الصوم ضررًا عليه

إذا أخبره طبيب مسلم أومأمون بأن فى الصوم ضررًا عليه ، أوكان لايستطيع سنه جاز له الفطر ولو استغرق المرض شهر رمضان كله ، وعليه إعادة صوم الشهر إذا برئ من المرض وتمكن من الصوم ، أما إذا لم يبرأ من المرض فإنه يخرج فدية عن كل يوم من شهر رمضان .

وإذا كان شيخا كبيرا لا يستطيع الصوم فعليه فدية عن كل يوم إطعام مسكين يطعمه من طعامه العادى ، من غالب قوت البلد ، أومايعادل ذلك نقودًا يقدمها لمسكين أو محتاج ، والأصل فى ذلك قوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أيامًا معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدَّة من أيام أُخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرًا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وهكذا يرى السائل من بين ثنايا الآية الكريمة ما قدمنا من الحكم ويتعرف على سماحة الشريعة الإسلامية ،ومناسبة الإسلام لكل البيئات والظروف .

فى حكم من شرب الدواء فى نهار رمضان ولكن لم يتناول شيئاً آخر وبعد ذلك لم يستطع قضاء هذا اليوم لمدة ثلاث سنوات

يقول الله فى تحديد فترة الامتناع عن الأكل والشرب امتناعًا كليًّا (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل) .

ومن الفجر إلى الليل إذن يحرم تناول أى مأكولات ، ويحرم شرب أى مشروب عمدًا ، فإذا فعل شيئًا من ذلك عمدًا فإن صيامه يبطل ، وشرب الدواء إذن فى نهار رمضان مفطر ، وعلى من شرب الدواء قضاء يوم بدل اليوم الذى أفطر فيه .

يقول الله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

أما كونه قد مضى عليه عام أو عامان أو ثلاثة أعوام فإن ذلك لا يوجب شيئًا آخر غير صوم اليوم ، لأن شارب الدواء معذور فى إفطاره ، فشرب الدواء ضرورة من الضرورات . فعليه إذن أن يعيد صيام اليوم فقط . .

فى من كان يكثر الغُسل فى نهار رمضان هل يصح صومه أو لا ؟

لا فرق فى الغسل بين رمضان وغيره ، غير أنه يجب الاحتراز فى أثناء الغُسل فى رمضان من أن يدخل شىء من الفم أو الأنف لئلا يفسد الصوم .

ويقول الحسن رضى الله عنه كما أورده البخارى : « لا بأس بالمضمضة والتبرد للصائم » .

وأخرج مالك وأبو داود رضى الله عنهما ، من طريق أبى بكر بن عبد الرحمن عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : « رأيت النبى ﷺ بالعَرْج يصب الماء على رأسه وهو صائم ، من العطش أو من الحر » .

والإمام البخارى رضى الله عنه لا يكره الاغتسال للصائم ، ويقول الإمام ابن المنير فى تفسير ذلك .

لأنه إن كرهه خشية دخول الماء حلقه فالعلة باطلة بالمضمضة والسواك ، وإن كرهه للرفاهية فقد استجب السلف للصائم الترفه والتجمُّل .

أما أنس بن مالك رضى الله عنه قال عن نفسه : إنّ لى أبْزنَ أتقحم فيه وأنا صائم ، والأبزن ، حجر منقور يشبه الحوض أو يشبه ما يسميه الناس الآن « البانيو » وأتقحم فيه ، أى أدخل .

وفى رواية أخرى عن أنس رضى الله عنه يقول : « إن لى أبزن إذا وجدت الحر تقحمت فيه وأنا صائم » .

ويقول صاحب فتح البارى عن ذلك : « وكأن الأبزن كان ملآناً ماء فكان أنس إذا وجد الحر دخل فيه يتبرد بذلك » .

وكل هذه الآثار تدل على أن للصائم أن يغتسل فى نهار رمضان دون أن يبطل ذلك صومه ، ومن ذلك فإننا نقول يغتسل فى حدود المعقول دون إسراف .

فى حكم صيام من أصبح على جنابة حتى طلوع الشمس

روى الإمام مسلم رضى الله عنه ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : « كان رسول الله ﷺ يدركه الفجر فى رمضان وهو جُنُب من غير حلم فيغتسل ويصوم » .

وروى الإمام مسلم أيضا : عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يستفتيه وهى تسمع من وراء الباب ، فقال : يارسول الله تدركنى الصلاة وأنا جُنب أفأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ ، وأنا تدركنى الصلاة وأنا جُنب فأصوم . فقال : لست مثلنا يارسول الله فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فقال ﷺ : « إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله ، وأعلمكم بما أتقى » . ولقد ذهب سليمان ابن يسار رضى الله عنه يوماً إلى أم سلمة زوج النبى ﷺ سألها عن الرجل يصبح جُنباً من غير احتلام ثم يصوم ، وكل ذلك يرشد إلى أنّ مَن أدركه الفجر وهو جُنُب فعليه أن يعجّل بالاغتسال حتى يدرك صلاة الصبح ويتم صوم اليوم .

وهذا كله موافق للقرآن الكريم ، فإنّ الله سبحانه وتعالى ، كما يقول الإمام النووى ، أباح الأكل والمباشرة إلى طلوع الفجر ، قال الله تعالى : (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) .

فى إذا أكل الإنسان وشرب ناسياً . . هل يفسد ذلك صومه ؟

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا نسى فأكل وشرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » . فالأكل والشرب نسياناً لا يفسدان الصوم .

تسأل كثيرات من النساء عن الكحل هل يفسد الصوم أو لا يفسده ؟

قال الحسن وغيره رضى الله عنهم : « إنه لا بأس بالكحل فى رمضان ، فاستعمال الكحل فى رمضان لا يفسد الصوم » .

فى صيام المسافر

إنّ السفر لا يسقط فريضة الصوم ، ولكنه يتيح للإنسان الحرية فى أن يصوم كما لو كان مقيماً وفى أن يفطر . فإذا ما أفطر فى رمضان بسبب السفر فإنه من الواجب عليه أن يقضى الأيام التى أفطر فيها حينما يقيم .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن حمزة بن عمرو الأسلمى قال للنبى ﷺ : أأصوم فى السفر ؟ وكان كثير الصيام ، فقال له ﷺ : « إن شئت فصم وإن شئت فافطر » . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : كنا نسافر مع النبى ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

فى من أدركه الفجر وهو غير طاهر

ثبت أن بعض أئمتنا من المسلمين فى الصدر الأول للإسلام كان يدركه الفجر ولم يغتسل بعد ، ثم يغتسل متطهراً ويصلى ويتابع صيامه .

والفقهاء نصُّوا على من أدركه الفجر وهو غير طاهر لا يبطل صيامه بذلك ، ومبطلات الصيام حددها الفقهاء وليس ذلك منها .

فى استعمال السواك فى رمضان

يذكر الإمام البخارى رضى الله عنه أنه استاك وهو صائم .

وقال ابن سيرين رضى الله عنه : لا بأس بالسواك الرطب ، فقيل له : إنّ له طعماً ، فقال : والماء له طعم وأنت تتمضمض به . يريد أن يقول : إذا كان الماء لا يفسد الصوم إذا تمضمض الإنسان به مع أن له طعماً فإن السواك لا يفسد الصوم .

فى جواز إخراج فدية الصيام لمن لا يستطيع الصوم للمحاربين الفدائيين

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أُخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) .

فمن لم يستطع لعجزه عنه عجزا لا يُرجى زواله وجب عليه أن يطعم عن كل يوم مسكينا بنحو صاع أو نصف صاع من الطعام .

قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه » . رواه الدارقطنى والحاكم وصححاه .

بنص الآية والحديث أن الذى يصرف له الفدية عن الصوم هو المسكين ، وليس المحاربون والفدائيون من هذا الصنف ، إنما هم ممن يدخل تحت قوله تعالى : (وفى سبيل الله) فلا يصح دفع فدية الصوم إليهم ، ولكن يجوز دفع الزكاة لتسليحهم ، ولتوفير الإعداد والاستعداد لهم على مختلف أنواع متطلبات القتال .

فى شم العطر أو الأكل هل يفسد الصوم ؟

شم العطر أو الأكل لا يفسدان الصوم ، ورائحة العطر أو الطعام إذا استنشقها الإنسان لا تبطل صومه ، ذلك أن الصوم عبارة عن الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . والإمساك فيما يتعلق بالطعام والشراب معناه العمل على عدم إدخال شيء منهما من مدخله المعتاد ، وهو الفم أو الأنف فى بعض الأحيان .

أما رائحة العطر أو رائحة الأكل فلا تعتبر أكلا معتادا أو شرابا معتادا ، إنها مجرد رائحة . وانسيابها إلى الحلق ليس انسياب طعام أو شراب ، وإنما هو كانسياب النَّفَسِ . وليس فى الصيام قطع للهواء أو إمساك عن النفس ، والإنسان وهو يتنفس فى الشارع مثلا أو فى أى مكان قد يشم الروائح العطرية ، وقد يشم الأطعمة الشهية .

فإذا كان صائماً زادته رائحة الطعام شوقاً إلى الطعام . فيزداد احتياجه إلى قوة الصبر اللازمة لإتمام الصيام .

نعم : كره بعض العلماء شم مثل تلك الروائح للصائم ، مبالغة فى الاحتياط ، ولأنها تضر الصائم أكثر مما تنفعه ، إذ تفتح شهيته ، وتضعف مقاومته لتأثير الطعام والشراب وغير ذلك مما يمسك عنه الصائم .

فى الوصال فى الصيام

روى الإمام البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تواصلوا ، قالوا : إنك تواصل ، قال لست كأحد منكم ، إنى أبيت أُطْعم وأُسقى » وفى رواية لهذا الحديث : (إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى) ويرشدنا هذا الحديث الشريف إلى أن الوصال فى الصيام منهى عنه ، ولكن بعض الصحابة حاول الوصال تأسياً برسول الله ﷺ ، وألح فى طلب الإذن من رسول الله بذلك ، فأراد صلوات الله عليه أن يقسوا عليهم ليزدجروا ، وكان ذلك فى رمضان ، فواصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال صلوات الله عليه وسلم : « لو تأخر عنى الهلال لزدتكم » أى الوصال بهم بعد ذلك يوماً ثالثاً . قال أبو هريرة وذلك كالتنكيل لهم لما أبوا ألا ينتهوا عن الوصال .

الوصال إذن منهى عنه نهى تحريم ، إذا أضر بالإنسان ، ونهى كراهية إذا لم يضر ، لأنه وإن لم يضر فإنه يبعث فى الإنسان فتوراً عن العمل على أن رسول الله ﷺ رخص فى الوصال إلى السحر ، فعنه صلوات الله عليه أنه قال : لا تواصلوا ، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر - أى إلى ما قبل الفجر بوقت كاف لتناول الطعام والشراب .

يؤخذ من كل ذلك أن الوصال خاص بالرسول صلوات الله عليه ، وأما الترخيص بالوصال فإنما هو إلى السحر فقط ، وأن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يريدون أن يواصلوا ولكنهم عدلوا عن ذلك اتباعاً لأمره صلوات الله عليه وسلامه . .

وأما الطريقة المثلى للصيام فإنها تعجيل الفطر وتأخير السحور كما ورد عن رسول الله صلوات الله عليه من قوله : « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور » والإنسان يمكنه بالرياضة أن يواصل ثلاثة أيام ولكن ذلك فى الإسلام حرام .

فى الغسل والاستحمام نهار رمضان

لا مانع يمنع الصائم من أن يغتسل أو يستحم ، فى نهار رمضان ، إذ الصوم عبارة عن الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ، والاغتسال أو الاستحمام ليس فيه إحداث شىء يخرق هذا الإمساك ، وقد روى البخارى أن أنس بن مالك رضى الله عنه كان له أَبْزَنٌ يشبه « البانيو » للاستحمام - يتقحّم فيه وهو صائم .

إن الغسل فى نهار رمضان جائز ولا مانع منه ، بل قد يكون واجباً إذا ترتب على تأخيره فوات أوقات الصلاة .

وقد ورد أن الرسول ﷺ كان يؤخر الغسل إلى ما بعد الفجر ، روى البخارى بسنده ، عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : أن عائشة وأم سلمة أخبرتاه أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم .

والواقع أن الصيام إمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، والإمساك معناه : منع دخول الطعام والشراب من المداخل المعتادة للحلقوم كالفم ، وأحياناً الأنف ، ولا يستلزم الاستحمام خرق هذا الإمساك أو دخول شىء إلى البطن .

فإذا ما غلب الماء على المرء فى الغسل أو الاستحمام فدخل فى بطنه فعليه القضاء وإلا فلا شىء عليه .

فى الحكم فى رجل تناول سحوره عند الفجر ثم نام ورأى فى المنام أنه جامع امرأة حتى استيقظ من نومه بعد طلوع الفجر ، هل يصح صيامه فى ذلك اليوم أولا ؟

من تناول سحوره عند الفجر إن كان قد تناوله والمؤذن يؤذن للصلاة فصومه غير صحيح ، وعليه القضاء لعدم إمساكه عن الطعام فى أول وقت الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما ، مما يفطر الصائم ، لقوله تعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل) .

وعلى الصائم أن يستعد للصوم قبل الفجر بقليل ، فقد كان ما بين سحور رسول الله ﷺ ، وأذان الفجر ما تستغرقه قراءة خمسين آية مع استيفاء شروط القراءة .

روى البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : تسحرنا مع النبى ﷺ ثم قام إلى الصلاة ، قلت : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية . ألا وإن فيما استحدث من تنبيه الصائمين قبيل الفجر بوقت كاف بإطلاق مدفع الإمساك لنظام جميل ينبغى الأخذ به لتحقيق هذا الاحتياط .

ومادام الإنسان قد أمسك عن الطعام والشراب والجماع قبل الفجر فقد صام ، فإن نام بعد ذلك ورأى فى المنام أنه جامع واستيقظ فوجد نفسه قد أنزل فلا شىء عليه ، لأن الحرج مرفوع عن النائم حتى يستيقظ ، ولأن الصوم إنما يفسد بتعمد فعل ما يفطر ، أو التسبب فيه بعدم الاحتراز ، ولأنه يجوز الغسل فى أثناء الصيام وبقاء الجنابة فى أثناء النهار لا يفسد الصوم ، وإنما حرم لتأخير الصلاة بسببه عن وقتها المشروع لقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة) .

وقد عد الرسول ﷺ من أفضل الأعمال الصلاة على وقتها . أى فى وقتها .

فى صائم يضطر لاستخدام دواء لعلاج رأسه وجميع أجزاء جسمه فى نهار رمضان فما حكمه ؟

إن حقيقة الصوم تكمن فى الإمساك عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . . ولذلك لا بد أن يكون الصائم متمكنا من نفسه ، محترزا من أن يدخل شىء إلى جوفه من المنافذ المعتادة كالفم والأنف . . وماعدا ذلك مما لا يمكن عادة أن يصل شىء عن طريقه إلى

الجوف لا نظر فيه ، فاستخدام الدواء لعلاج الرأس أو غيره ، من أجزاء البدن لا يؤدى إلى الفطر مادام هذا الاستعمال بعيد عن أن يدخل به شيء إلى الجوف عن طريق الفم أو الأنف ، فإذا ما دخل شيء من الدواء عن طريق الأنف أو الفم (إلى الجوف) بطل صومه وأصبح مفطرا لخروجه عن حد الصيام وحقيقته ، وعليه أن يعيد اليوم .

فى هل يجوز للصائم أن ينام فى الصباح وهو صائم

ورد فى الآثار أن نوم الصائم عبادة ، لأن فيه كف الجوارح وصيانتها عما حرم الله تعالى : ومع ذلك فإن النوم بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس ممايكرهه الصالحون ، لقد كانت عادة رسول الله ﷺ أن يصلى الصبح ، ثم يأخذ فى ذكر الله حتى تطلع الشمس ، وقد روى الإمام الترمذى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ : « من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حَجَّة وعُمْرة ، قال رسول الله ﷺ : تامة تامة . تامة » : أى أن الحجة تامة وأن العمرة تامة إذا فعل ما ذكره رسول الله ﷺ فى إخلاص وخشوع .

ثم له أن ينام بعد ذلك ما شاء إذا لم يكن عليه من الأعمال الواجبة ما يستلزم يقظته وانتباهه .

فى حكم ممن أخذ حقنة طبية تحت الجلد أو الوريد

أخذُ الحقنة تحت الجلد فى نهار رمضان أوفى الوريد يختلف باختلاف نوع الحقنة نفسها . فإن كانت الحقنة للتغذية وللتقوية ، فلا تؤخذ ، لأن الحكمة من الصوم تنتفى بأخذها وذلك أن حقنة التغذية تقوم لدى أخذها مقام الطعام ، أما إن كانت الحقنة لمجرد التداوى فإن جمهور الفقهاء على أنها لا تضر بالصوم ولا تفسد ، وذلك أن جمهور الفقهاء يرى أن الذى يفسد الصوم هو الطعام والشراب الذى يصل إلى الجوف عن طريق الفم ، واستثنى من ذلك حقن التغذية والحكمة فى هذا الاستثناء واضحة .

والنية التى ينويها الصائم فى يوم صيامه كله هى أنه يقصد الامتناع عن الطعام والشراب بقصد الصيام ، ولو قال عند ذلك نويت صيام غد من رمضان إيمانا واحتسابا لوجه الله الكريم اللهم يسره لى وأعنّى ، وتقبل منى ، لكان خيراً ، والتلفظ بالنية ليس واجباً بل هو مستحب ، خصوصاً عند الذين يتشككون هل نووا الصوم أولا : قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيّات وإنما

لكل امرئ مانوى » . ويكفى فى النية أن يتهيأ الإنسان للسحور ، وأن يتسحر بالفعل ، بيد أنه لو لم يتسحر ونوى ابتداءً من الليل أو فى أثناء الليل ، فإن ذلك يكفيه ولولم يتلفظ . وإنما نوى بقلبه ، فإن ذلك كاف أيضاً .

فى إذا دخلت ذبابة فى حلق الصائم

إذا دخلت الذبابة فى حلق الصائم فإنه لايفطر ، لأن دخولها بغير اختيار من الصائم وفى الحديث : « عفى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ومن المعلوم أن دخول مثل هذه الذبابة لا يكون إلا قسراً ، وعلى ذلك فالصيام صحيح ولا قضاء على الصائم .

وقال البخارى : فى صحيحه قال الحسن : إن دخل حلقه الذباب فلا شىء عليه ، وروى ابن عباس.لقد نقل ابن المنير الاتفاق على أن من دخل فى حلقه الذباب وهو صائم أن لا شىء عليه .

فى حكم من تقايأ فى رمضان هل يصح صومه ؟

القىء إذا خرج قهراً عن الإنسان فلا يبطل صومه ، أما إذا استقاء عامداً بشم شىء يقيئه أو إدخال يده فى فمه فإن صومه فاسد وعليه القضاء فقط .

روى أحمد وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من ذرعه القىء – أى غلبه – فليس عليه قضاء ، ومن استقاء عمدًا فليقض) .

فى من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه

الزور هو الباطل كله ، وهو اللهو ، وهو العبث ، وهو الإثم بجميع ألوانه إنه الإثم قولا يتمثل فى الغيبة والنميمة ، والكذب ، وغير ذلك من آثام اللسان الذى قالت العرب فيه « مقتل الرجل بين فكيه » .

وهو الإثم فعلا ، ويتمثل فى كل ما يأتيه الإنسان من أفعال على خلاف السنن الشرعية مما نهى الله سبحانه ورسوله ﷺ عنه .

وإن من الأوصاف الجميلة التى مدح الله سبحانه وتعالى بها عباد الرحمن الصادقين أنهم لا يشهدون الزور ، وإذا كانوا لا يشهدونه ولا يشاهدونه فإنهم من باب أولى لا يقولونه ولا يفعلونه ، ولا يأتونه بوجه من الوجوه .

والحديث الشريف يقول فى صراحة لهؤلاء الذين ينغمسون فى الزور قولا وينغمسون فيه فعلا على خلاف ما أحب الله لعباده ومارضيه للمؤمنين . . يقول لهم : إن الله لا حاجة له فى أن يدعوا طعامهم وشرابهم مع إتيانهم ما نهى عنه ، أى أنه لا فائدة لهم من ثواب من قبله أو من رضى عنه أو من لهم منه ، فإنهم أخلوا بقواعد الثواب ومبادئ الرضا وأسس المحبة .

وما من شك فى أن الحديث مع هذا دعوة قوية فى توجيه المؤمنين إلى الرجوع إلى الله مؤتمرين بأمره منتهين عما نهى عنه وتعرضاً للرضا الإلهى ورجاء فى قبول الصوم وكسب الثواب .

فى من أفطر على خمر

من أفطر على خمر بطل صومه وعليه القضاء فقط ، على رأى بعض المذاهب ، وعليه إثم شرب الخمر ، وحدٌّ شاربها أربعون جلدة .

وبعض المذاهب الإسلامية يقول بقضاء اليوم الذى أفطره ، وبالكفارة عتق رقبة مؤمنة فإن لم يستطع أن يعتق رقبة لعدم وجودها أو لعدم استطاعته دفع ثمنها صام ستين يوماً متتابعة غير اليوم الذى أفطره ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً ، يعطى كل مسكينٍ مُدًّا من غالب قوت بلده والمُدّ نصف قدح تقريباً .

فى معنى فعدّة من أيام أخر

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« إنْ كانت إحدانا لتفطر – يعنى فى رمضان – فى زمان رسول الله ﷺ فما تقدر على أن تقضيه مع رسول الله ﷺ حتى يأتى شعبان » وهذا الحديث مبين لقوله تعالى : (فعدة من أيام أخر) أى أن القضاء لا يلزم فيه أن يكون عقب رمضان مباشرة إذا كان هناك عذر يمنع من المسارعة فى القيام به ، كاستعداد المرأة لزوجها ، أو تأدبها بعدم الصوم إلا فى أيام صومه ، بل قال الجمهور بجواز تأخر القضاء لغير عذر إذا كان الفطر فى رمضان لعذر ، وإذا أخر قضاء الصيام حتى دخل رمضان الآخر فإن كان لعذر – بأن دام مرضه مثلا حتى دخل رمضان الثانى – صام

رمضان الحاضر ثم يقضى الأول ولا فدية عليه عند الأئمة الأربعة والجمهور . وإن أخّر القضاء لغير عذر فعليه مع القضاء فدية طعام مسكين .

فى إذا أفطر إنسان على أساس أن الشمس قد غربت ثم رأى الشمس بعد ذلك وهو لم يتعمد

إذا أكل الصائم أو شرب ظانًّا أن الشمس قد غربت ثم تبين له خلاف ذلك بأن كانت الشمس محتجبة فى غيم ثم ظهرت أو كانت الشمس وراء مرتفع وعلاه فرآها فإنه يعتبر مفطراً فى هذا اليوم وعليه القضاء يوم بدل هذا اليوم ، وهذا عند الأئمة الأربعة ، ولا كفارة عليه لأنه غير متعمد .

ولا إثم عليه لأنه غير متعمد أيضاً ، وإنما أخطأ التقدير ، يقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه الإمام مسلم ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أقبل الليل وأدبر النهار ، وغابت الشمس فقد أفطر الصائم » والإمساك عن الأكل إلى غياب الشمس شرط فى صحة الصوم عند جميع الائمة .

فى خروج المذى من الصائم هل يفسد الصوم

خروج المذى من الصائم لا يفسد الصوم عند الحنفية والشافعية ، وقال المالكية إذا تسبب الصائم فى إخراج المذى بقبلة أو نحوها ، أو استدامة نظر أو فكر فسد الصوم وعليه القضاء فقط ، أما إذا خرج المذى لمرض فلا يفسد الصوم ، كما لا يفسد إذا غلب عليه المذى فخرج بمجرد نظر أو فكر من غير استدامة ، متى كان ذلك يكثر عروضه له ، بأن كان حصوله مساوياً لعدم حصوله فى الزمن أو زائداً ، أما إذا كان عروضه أقل من زمن ارتفاعه فإنه يفسد الصوم .

ويفسد الصوم عند الحنابلة إذا مذى بيد غيره ، أو بسبب تقبيل ، أو لمس ، أو مباشرة دون الفرج ويجب القضاء فقط . .

فى شأن الحيض والصيام

قال الرسول ﷺ فى شأن الحيض : «هذا شىء كتبه الله على بنات حواء» يعنى لهن العذر ولا إثم عليهن فى ترك الصلاة والصيام فى أثناء الحيض ، لكن الصيام يُقضى دون الصلاة .

وقضاء أيام رمضان التى كانت فى أثناء الولادة أو فى أثناء الحيض لا يشترط أن تكون متوالية ، بل المهم أنها تُقضى ولو متفرقة ، سواء أكانت بسبب الحيض أم بسبب غيره .

وعلى هذا فصيامها الذى أكمل ثلاثين يوماً كافياً فى قضاء رمضان قضاء صحيحاً .

فى حكم من أفطرت بسبب الوضع

الحكم فيمن أفطرت للوضع والمرض فى رمضان عليها القضاء إلى رمضان المقبل ، فإن لم تستطع بأن خافت على نفسها المرض بشهادة دكتور مسلم عدل ، أو خافت على ولدها – إنْ صامت – أن يمرض بسبب قلة اللبن لم تصم وعليها الكفارة عن كل يوم أفطرته ، وهو مقدر عند الشافعية بنصف قدح من قمح أو شعير أو ذرة من غالب قوت البلد ، أو زبيب أو تمر أو أقط – وهو اللبن – وإن لم تصم حتى دخل رمضان الثانى فعليها عن كل يوم مُدّان مما تقدم ، هذا على مذهب الشافعى ومالك وأحمد رضى الله عنهم ، أما مذهب السادة الأحناف رضى الله عنهم فليس عليها إن لم تصم حتى دخل رمضان المقبل إلا مد واحد إن لم تقدر على الصوم .

ما حكم صيام من يحسد الناس ويتمنى لهم الشر؟

يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

فى هذا الآية الكريمة يحدثنا الله سبحانه وتعالى أنه كتب علينا الصيام وفرضه لغاية معينة وهدف محدود ذكره الله تعالى فى قوله : (لعلكم تتقون) .

والتقوى هى اتقاء الله سبحانه فى القول والصمت ، وفى الفعل والترك ، أى أنها اتباع الله فيما أمر ، والانتهاء عما نهى ، والصيام المقبول هو ما كان « إيمانا واحتساباً » كما فى حديث رسول الله

ﷺ . أى يصوم الإنسان على التصديق ، والرغبة الطيبة بالصوم نفسه ، غير كاره ولا مستثقل لأيامه ، وصام لوجه الله تعالى ، وصدقت نيته فى النجاة ، واستشرفت نفسه لمرضاة الله وغفرانه .

والإنسان الذى يريد أن يصوم إيماناً واحتساباً - أى صباحًا متقبلا - يفعل كما كان يفعل أسلافنا ، فإنهم كانوا يقدمون التوبة والإنابة إلى الله ، ويرعون الله طيلة شهر الهداية فيما يأتون وفيما يدعون ، فإذا لم يفعل الإنسان ذلك وإنما أخذ يحسد الناس ويتمنى لهم الشر فإنه لا يكون قد صام إيماناً واحتساباً ، فيدخل فى نطاق الذين تشملهم الأحاديث النبوية الشريفة .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » وقول الزور والعمل به يدخل فيه الحسد وتمنى الشر ، وذلك لأن الزور هو الباطل ، وهو الشر ، وهو الفساد على أى وضع كان ، ومن أجل ذلك يقول الإمام الأكبر سفيان الثورى : « إن الغيبة تفسد الصوم » ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

فالصائم الذى يحسد الناس ويتمنى لهم الشر ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديه إلى التوبة الخالصة النصوح ليدخل فى نطاق ، من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه .

فى من جامع زوجته فى نهار رمضان

أجمع الفقهاء على من جامع زوجته فى نهار رمضان فقد فسد صومه وعليه القضاء والكفارة ، فأما القضاء فهو أن يصوم يوماً عوضاً عن اليوم الذى أفسد صومه ، وأما الكفارة فهى أن يصوم ستين يوماً متتابعة ، ليس فيها يوم عيد ولا يوم من أيام التشريق ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً فيطعم مسكيناً عن صيام كل يوم غداء وعشاء أوغداءين وعشاءين مشبعين تكفيراً عن انتهاكه لحرمه نهار رمضان ، لما ثبت من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت وأهلكت فقال له : ماذا صنعت ؟ قال : واقعت امرأتى فى نهار رمضان متعمداً ، فقال رسول الله ﷺ : اعتق رقبة . فقال : لا أملك إلا رقبتى هذه ، فقال : صم شهرين متتابعين فقال وهل جاءنى ما جاءنى إلا من الصوم فقال : أطعم ستين مسكيناً فقال : لا أجد فأمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بفرق من تمر - ويروى بعزق - فيه خمسة

عشر صاعاً وقال : فرقها على المساكين فقال الرجل ما بين لابتى المدينة أحد أحوج منى ومن عيالى .

قال : فضحك النبى ﷺ حتى بدت ثناياه ، ثم قال خذه فأطعمه أهلك يجزيك ولا يجزى أحداً بعدك ، والفرْق بسكون الراء مكيال معروف بالمدينة والعرق هو الزنبيل .

وأما من استمنى بيده ، وهو ما يسمى بالعادة السرية فى نهار رمضان متعمداً فعليه القضاء فقط ولا كفارة عليه ، لأنه وإن وجد فيه معنى الجماع – وهو الإنزال بشهوة – فإنه لم توجد صورة الجماع ولم تكتمل عنده الحالة الموجبة ، للكفارة وإن كان ذنب ذلك كله عند الله عظيما .

فى إنسان أفطر عمداً فى رمضان فلزمته الكفّارة ، وبينما هو فى صومها أفطر أيضاً عامداً أو غير عامد

ذهب الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعى رضى الله عنهما إلى أن من أفطر متعمداً فى شهر رمضان وكان إفطاره بالأكل والشرب فإن عليه قضاء يوم واحد ، وذهب أهل الظاهر جميعاً إلى ذلك أيضاً ، وهو أن الأكل والشرب لا يوجب إلا قضاء يوم فقط ، أما الأمر الذى يوجب الكفارة فهو الجماع عمداً فى شهر رمضان ، فإذا جامع فى شهر رمضان فعليه الكفارة متتابعة ، فإذا أفطر فى أثناء الكفارة فعليه أن يعيدها من جديد اللهم إلا إذا كان إفطاره لعذر قاهر ، فإنه فى هذه الحالة يستمر فى الكفّارة ويقضى اليوم الذى أفطر فيه لعذر اضطرارى يوماً واحداً .

فى صدقة الفطر

المصريون مسلمون ، يلتزمون بأحكام الدين وحدوده ، ومن ذلك صدقة الفطر فهم يؤدونها على الوجه الذى تقرر لها فى الشرع .

وقد فرضها رسول الله ﷺ على كل مسلم عن نفسه وعمن تلزمه نفقته صاعاً من غالب الطعام المستعمل فى البلد وهى صدقة لمن يملك قوت يومه وليلته على من يملك أقل منه ، أو يشعر بأنه أشد حاجة إلى مطالب الحياة وأحوج إلى المعاونة ، يخرجها المرء بنفسه إلى المستحقين لا إلى الحكومة ، وإذا ما قامت بعض الجمعيات بتحصيلها ممن يرغب فى تقديمها وتوزيعها على المستحقين كان ذلك حسناً ، ولكن لا يجوز أن يكون تحصيلها عن طريق السطوة والسلطان أو القهر والإلزام ، ومما تقدم يمكن القول بأن الغنى والفقير يشتركان فى تقديم صدقة الفطر

وإخراجها ، بل إن بعض الناس يأخذها ممن فوقه لحاجته ، ويخرجها عن نفسه وعمن تلتزمه نفقته إلى من هو دونه . ويشعر الجميع بفرحه العيد ، ويحققون حكمته وهى الجود والبذل ، وتحقيق أخوة الإسلام ، قال ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ».

هل زكاة الفطر واجبة على كل شيء؟ أو أنها تجب بشروط مخصوصة؟ وهل يخرجها الشخص عن زوجته؟

زكاة الفطر واجبة على كل مسلم وجد لديه من المال ما يزيد على حاجته ، وحاجة من تلزمه نفقته ، يوم العيد وليلته ، ويخرجها عن نفسه ، وعن كل من تلزمه نفقته من ذكر وأنثى من المسلمين ، الزوجة والأولاد ، والخدم المتكفل بهم .

يقول ابن عمر رضى الله عنهما ، فيما رواه الإمامان البخارى ومسلم : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير على العبد والحر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين » .

وعن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة .

وروى الإمام مسلم ، بسنده عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ أمر بإخراج زكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة ، وتيسيراً لأهل المدن نعرفهم أن أربعين قرشاً تكفى فى سعة عن الفرد الواحد ، ويجوز أن يخرجها الإنسان بمجرد الدخول فى شهر رمضان ، ويكون عنده شهر رمضان كله فرصة لإخراجها ، والوقت المستحب للإخراج هو يوم العيد قبل صلاة العيد .

فقد روى البيهقى والدارقطنى ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : فرض رسول ﷺ زكاة الفطر ، وقال : « اغنوهم فى هذا اليوم » وفى رواية للبيهقى : « اغنوهم عن طواف هذا اليوم » وصدقة الفطر حق الله سبحانه وتعالى ، وهى كأى حق من حقوق الله لا تسقط بفوات وقتها ، وإنما تستمر ديناً على من لم يؤدها ، ويكون فى تأخيرها ، إثم على من أخرها ، وعليه أن يعجل بأدائها .

وهى على كل حال دين فى ذمته ، يستمر حتى تؤدى ، ولو فى آخر العمر وإذا مات قبل أدائها فعلى ورثته أن تخرجها من تركته قبل تقسيمها .

فعلى كل من لم يؤد زكاة الفطر فيما مضى أن يخرجها الآن ، فإنها مطهرة للصائم من اللغو والرفث ، وثوابها عند الله جزيل .

هل يجوز لشخص غنى أن يتقبل الزكاة بعد صيام رمضان كقبول الهدايا أو الألماظ ؟

لا يجوز للغنى أن يتقبل الزكاة مطلقاً من أحد ، سواء كانت تلك الزكاة زكاة فطر أو زكاة مال لأن الله عز وجل بيّن لنا فى محكم كتابه الأشخاص الذين تصرف الزكاة إليهم فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء) الآية . وقال ﷺ مامعناه : إن الذى يتعرض لسؤال الناس وهو غنى أو قادر على الكسب يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم والتحايل على أخذ زكاة الفطر باعتبار أنها هدية لا يجوز بحال من الأحوال ، لأن الله لا يخفى عليه خافية ، هذا وإن كانت هذه الزكاة المؤداة زكاة مال مدخر كالذهب أو الفضة . فلا ينبغى له أخذها كذلك ، لأنها – أى الزكاة – حق الفقير .

فى فضل الأيام العشرة الأخيرة من رمضان

إن فيها أولا الفضل الذى فى جميع أيام شهر رمضان ، ثم هى تزيد على هذا بأنها مظنة ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر .

وقد كان الرسول ﷺ يجتهد فى العشر الأواخر مالا يجتهد فى غيرها ، إنه ﷺ كان طيلة حياته مُجدًّا فى العبادة ، ولكنه كان فى شهر رمضان يجتهد أكثر ، ثم إذا حل العشر الأواخر يتفرغ إلى الله عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أن النبى ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله وشد المئزر ، ومعنى شد المئزر أنه شمر عن ساعد الجد ، وكان بكيانه كله نشاط واجتهاد فى العبادة .

متى تكون ليلة القدر؟ ومنزلتها فى نظر الإسلام؟
ولماذا تسمى ليلة القدر؟ وما الواجب نحوها؟

فى هذا الشهر المبارك ، أُنزل القرآن الكريم ، يقول سبحانه : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان) .

ويقول سبحانه :

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزّل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر) .

ولقد سمى القرآن الليلة التى نزل فيها ليلة القدر ، أى ليلة الشرف والرفعة ، ووصفها بأنها مباركة ، يقول الله تعالى :

(إنا أنزلناه فى ليلة مباركة . إنّا كنّا منذرين ، فيها يُفْرَقُ كل أمرٍ حكيم ، أمراً من عندنا ، إنّا كنا مُرسِلين ، رحمة من ربك ، إنه هو السميع العليم) .

ومادام القرآن الكريم قد أنزل فى ليلة القدر ، وأنه سبحانه قد أنزله فى شهر رمضان ، فإنه يتعين أن تكون ليلة القدر فى شهر رمضان .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم ، فإننا نجد أنه لم يحددها ، ولم يحددها الرسول ﷺ تحديداً تاماً ، وإنما حددها على التقريب ، فإنه صلوات الله عليه وسلامه ، يقول فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما :

« تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر » أى فى العشر الأواخر من رمضان .

وتحروا أى اطلبوها بجد فى العبادة ، ثم يقرب الرسول ﷺ الأمر أكثر من ذلك فيقول فيما رواه الإمام البخارى :

« تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : « أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر قال : هى فى شهر رمضان فى العشر الأواخر ، ليلة إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أواخر ليلة من رمضان ، مَنْ قامها إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له

ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

يقول الإمام الصاوى فى حاشيته على الجلالين : وأحسن ما يُدْعَى به فى تلك الليلة العفو والعافية كما ورد .

وينبغى لمن شق عليه طول القيام ، أن يتخير ما ورد فى قراءته كثرة الثواب ، كآية الكرسى ، فقد ورد أنها أفضل آية فى القرآن .

كأواخر البقرة لما ورد : من قام بهما فى ليلة كفتاه .

وكسورة « إذا زلزلت » لما ورد : أنها تعدل نصف القرآن .

وكسورة « الكافرون » لما ورد أنها تعدل ربع القرآن .

« والإخلاص » : تعدل ثلثه .

ويس لما ورد : أنها قلب القرآن ، وأنها لما قرئت له،ويكثر من الاستغفار ، والتسبيح والتحميد ، والتهليل ، وأنواع الذكر، والصلاة على النبى ﷺ ويدعو بما أحب لنفسه ، ولأحبابه أحياءً وأمواتاً . ويتصدق بما تيسر له ، ويحفظ جوارحه عن المعاصى .

فى صيام رجب وشعبان

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، فما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر غير رمضان ومارأيته أكثر صياماً منه فى شعبان » .

وعنها قالت : لم يكن النبى ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان ، فإنه كان يصوم شعبان كله .

على هذا فلم يصح بل لم يرد أن النبى ﷺ صام شهراً كاملا غير شعبان ، ولكنه ﷺ لم ينه عن صيام شهرى ، رجب وشعبان ، فمن أراد صيامهما قبل رمضان فلا بأس وله ثوابه ، ومن أراد الاقتداء برسول الله ﷺ وهو أن يصوم كثيراً من رجب ، وأن يصوم شعبان بأكمله فحسن ، وثواب الصيام إيماناً واحتساباً كثير جدًّا .

ولكن الثواب لا يمنع من الحساب ، وكل إنسان محاسب ومجزى بما فعل ، والصيام الصادق يدفع إلى العمل الصالح ، ومن عمل صالحاً أمن فى الدنيا والآخرة ، ولقى الله وهو عنه راض ، وإذا لم يدفع الصيام إلى العمل الصالح ، فإن ذلك دليل على ضياع أو ضعف تأثير .

فى جواز صيام يوم العيد

لا يجوز للمسلم صيام يوم العيد لنهى رسول الله ﷺ عن صوم يوم عيد الفطر ، ويوم عيد النحر ، روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما وغيرهما عن عمر أنه قال فى خطبة عيد : (إن النبى ﷺ نهى عن صيام هذين اليومين ، أما يوم عيد الفطر ففطركم من صيامكم ، وأما يوم الأضحى فتأكلون من لحم نسككم ، وإلى هذا يشير قوله تعالى فيما يتعلق بعيد الفطر : (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم) فإكمال العدة – أى عدة الصيام – ومتى كملت العدة فلابد من الفطر ليتحقق هذا الإكمال .

أما ما قيل من أن المسلم يجب أن يصوم ويفطر على قلب خروف العيد فلا أصل له ، وهو اختراع فى الدين مذموم ، لأنه يحرّم ما أحل الله ويعدل عن وجوب الفطر كما جاء به الشرع إلى وجوب الصوم .

وأما القول بأن الخروف يجب أن لا يأكل شيئاً قبل ذبحه فهو أيضاً من الخرافات التى لا يجوز للمسلم أن يأخذ بها أو يعول عليها ، فلم ترد فى كتاب ولا سنة ، ولا فى عمل السلف رضوان الله عليهم .

فى الصيام والمغفرة

صيام يومى : الاثنين والخميس ، خلال شهرى رجب وشعبان طاعة مندوبة لله تعالى ، وليست طاعة أحد بموجبة على الله تعالى مغفرة ذنب الطائع لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) .

ومغفرة الله للعبد إنما تكون بمحض الفضل من الله تعالى ، وقد وعد عباده التائبين بمغفرة الذنوب جميعاً قال تعالى :

(إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات) ، وقال تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) .

وأداؤك لفروض الله تعالى منذ الصغر يقربك من الله تعالى مالم يتخلل طاعتك لله اقتراف كبائر

الذنوب ، أما صغار الذنوب فإن الله واسع المغفرة ، يغفرها جميعاً ، وليست طاعة أحد لله تعالى بموجبة المغفرة لذنوبه ، فإن مغفرة الذنوب بمحض فضل الله عز وجل .

ومع ذلك فإن صيام يومى الاثنين والخميس خلال شهرى رجب وشعبان ، وأداء الفروض منذ الصغر – فإن كل ذلك – يهيئ الإنسان لمغفرة الله سبحانه ، ولدخول الجنة ، ومن يفعل ذلك يتعرض لنفحات الله وتجلياته بالرحمة والمغفرة والرضا ، والأمل كبير فى فضل الله لمن يفعل ذلك .

وزكاة شهر رمضان لا يجوز إخراجها إلا لمستحق لها من المسلمين الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه ، وليس منهم الآن إلا الفقراء والمساكين وابن السبيل ، أما المسيحى فليس من أهلها ، لأن القصد منها أن لا يكون – من المسلمين – يوم العيد من يحجزه الفقر عن مشاركة إخوانه المسلمين أفراحهم .

ورسول الله ﷺ يقول : « اغنوهم فى هذا اليوم » . أى يوم العيد .

فى من أتبع صيام رمضان بصيام ست من شوال

حكم من صام شهر رمضان إيماناً واحتساباً ثم أتبعه بصيام ست من شوال ، عن أبى أيوب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر » . رواه مسلم ، ويقول الرسول ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (رياض الصالحين) .

وعلى هذا الأساس فصيام ستة أيام بعد العيد – وهو اليوم التالى مباشرة – مستحب ، وله ثواب عليه ، بشرط أن يكون صومه لله إيماناً واحتساباً .

فى حكم من صام شهر رمضان إيماناً واحتساباً ثم أتبعه بصيام ستة أيام من شوال هل له ثواب على هذا ؟

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزى به والصيام جُنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإنه سابه أحد أو قاتله ، فليقل : إنى صائم » وقال عليه السلام : « والذى نفس محمد بيده لخوف فم الصائم وأطيب عند الله من ريح المسك » . وقال ﷺ : « للصائم فرحتان يفرحها : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه بصومه فرح » .

ويقول رسول الله ﷺ فى وضوح حاسم عمن صام إيمانا واحتساباً : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

فإذا أتبع ذلك بست من شوال فإنه يكون قد غفر له ما تقدم من ذنبه بالصيام إيماناً واحتساباً ، ثم تكون هذه الأيام الستة حسنات فى كفة المسلم .

عن أبى أيوب رضى لله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر » .

وسئل رضي الله عنه في الحج

الحج المبرور وثوابه

فى حديث عن رسول الله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة » .

روى الإمام البخارى والإمام مسلم وغيرهما بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » والحديث صحيح .

آما كون 'الحج كافياً لدخول الجنة . .

فإن رسول الله ﷺ لم يقل الحج ليس له جزاء إلا الجنة ، ولكنه قال « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » والمسألة إذن هى تفسير الحج المبرور ، والحج المبرور من أفضل الأعمال ، فقد روى الإمام البخارى والإمام مسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور » ومن تفسير الحج المبرور نقول إن الله سبحانه وتعالى يقول : (الحج أشهر معلومات ، فَمَن فرضَ فيهن الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يأُولى الألباب) .

ومن شروط الحج المبرور إذن الانتهاء عن آثام اللسان التى تتلخص فى الرفث والجدال ، أو الكلام العابث والكلام المشاحن والانتهاء عن آثار الفعل التى عبر الله عنها بالفسوق ، وهذا المعنى هو ما رواه الإمام عبد بن حميد بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « من قضى نسكه وسَلِم المسلمون من لسانه ويده غُفر له ما تقدم من ذنبه » فيجب الأنتهاء عن الرفث والفسوق والجدال ، وهو سلامة المسلمين من لسان الحاج وجوارحه ، وفضلا عن هذا فإن أعمال الحج تبدأ أول ما تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح .

إنها تبدأ بالندم على ما فات من أرتكاب المعاصى وبالعزم الذى لا تزعزعه الأعاصير على ألا يأتى الذنب فى المستقبل ، إنها تبدأ بالنية المؤكدة على أن يستقبل حياة يتزود فيها بالتقوى لينال رضوان الله ، ومادام الأمر كذلك فإنه يدخل فى نطاق من يقول رسول الله ﷺ فيهم حسبما روى الإمام البخارى والإمام مسلم فى سندهما عن أبى هريرة : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

فى شروط الحج المبرور

بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الله تعالى :

(الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى .. واتقون يأُولى الألباب) .

إن الحج فريضة من فرائض الإسلام مثلها كمثل بقية الفرائض فى أن هدفها تطهير النفس وتزكيتها ، ومن أجل ذلك فإن من أوجب على نفسه الحج بأنّ أحرم فى أشهره المعلومة : شوال وذى القعدة والأيام الأولى من ذى الحجة فعليه أن يلتزم الخُلق الفاضل ، أى أن ينتهى عما نهى الله عنه من آثام اللسان والقلب والجوارح ، وأن يتحلى بالخلق الكريم .

وقد لخص الله سبحانه وتعالى آثام اللسان والقلب والجوارح المنهى عنها فى قوله تعالى :

(فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) .

وهذا المعنى تردده . الأحاديث النبوية الشريفة حاثة عليه ، موجبة له ، جاعلة الحج المبرور مترتباً على تحقيقه : يقول رسول الله فيما رواه الإمام عبد بن حميد بسنده ، عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « من قضى نسكه ، وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » وروى الشيخان وغيرهما بسندها عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من حج فلم يرفث ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وأحسن تفسير للرفث قاله الحافظ المنذرى من أن الرفث يطلق ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلق بالجماع ، وما من شك فى أن المراد فى هذه الآية الكريمة كل هذه المعانى أما الفسوق فإنه المعاصى فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن الفسوق هو : ما أصيب من المعاصى ، صيداً أو غيره ، ومنه السباب فقد ثبت فى الصحيح قوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

أما الجدال فهو الأمر الثالث المنهى عنه فى الحج ، وهو بمعنى المراء والملاحاة والنزاع اللسانى الذى يغضب ويسىء يقول ابن عباس رضى الله عنهما ، إنه المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك ، فنهى الله عن ذلك .

ولا يتأتى فى الأوضاع السليمة أن ينتهى الإنسان عن معاصى اللسان والقلب والجوارح إلاّ إذا بدأ أعمال الحج بالتوبة الخالصة النصوح ، التوبة التى لا تُردد فيها ولا فتور ، التوبة العازمة التى

تفتح لها أبواب السماء ، والتى تغير من اتجاه الإنسان ومن سلوكه فيصبح بعدها من المصطفين الأخيار .

وبعد : فيقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى :

« الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة » ويقول فيما رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنهما :

تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلاّ الجنة .

فى مراحل الحج

إن أول شىء يقوم به الحاج هو أن يتوضأ ثم يلبس ملابس الإحرام بيضاء نقية رمزاً إلى الصفاء والطهر ، ثم يصلى ركعتين سنة الإحرام ثم يتجه إلى الله فى ضراعة مستقبلا القبلة ويتوب إلى الله توبة خالصة ، نصوحاً ، ثم يحرم أى أنه يقول بلسانه مصدقاً بقلبه :

« نويت الحج ، اللهم يسره لى وتقبله منى » أو يقول : « اللهم إنى نويت العمرة فيسرها لى وتقبلها منى » ثم يلبى فيرفع صوته قائلا :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » .

وهذه الأمور يمكن أن يفعلها فى بيته قبل ركوب الطائرة ، ويمكن أن يفعل فى بيته منها ما لا يتيسر له فعله فى الطائرة ، ثم يتمم الأمور بمجرد أن تنطلق الطائرة فى الجو ، حتى إذا ما وصل مكة اتجه إلى البيت فيطوف طواف القدوم إن كان قد نوى الحج ، أو يطوف طواف العمرة إن كان قد نوى العمرة . فإذا كانت العمرة فإنه يذهب بعد الطواف إلى مقام إبراهيم عليه السلام ويصلى ركعتين ثم يذهب إلى بئر زمزم ويشرب وينوى مع شربه أمراً يحبه راجياً الله أن ييسره ، فزمزم لما شرب له ، ثم يذهب إلى السعى فيسعى سبع مرات مبتدئاً من الصفا منتهياً بالمروة .

وبذلك تتم عمرته بعد الحلق أو التقصير .

ثم ينوى الحج فى اليوم الثامن من ذى الحجة مبتدئاً به كما ذكرنا فى ابتداء العمرة ثم يذهب إلى منى يبيت فيها ، وهذه سنة ،ولو بات ليلة التاسع فى مكة ما كان عليه وزر ، وأهم أعمال الحج

الوقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة يقول رسول الله ﷺ : « الحج عرفة » ويستمر فى عرفة إلى غروب الشمس ، ثم يأخذ فى الرحيل إلى المزدلفة ويبيت فيها اتباعاً للسنة ، يأخذ منها الحصا الذى يرمى به إبليس ، وإذا مكث فى المزدلفة مدة ساعة مثلا أجزأه ذلك ، ثم يذهب إلى منى ، وبعد صلاة الصبح من اليوم العاشر من ذى الحجة يتوجه لرمى جمرة العقبة ثم يحلق أويقصر ويتحلل التحلل الأصغر ، ثم يذهب إلى مكة للطواف ويتحلل التحلل الأكبر فيباح له كل ماكان ممنوعًا مما أحله الله سبحانه ، ثم يعود إلى منى يبيت فيها ، ولابد من البيات فيها ، ويرمى فى اليوم الحادى عشر الجمرات الثلاث ، أى يرجم رمز إبليس ، وهى ثلاث رموز يرميها بعد الزوال ، يرمى كلاً منها سبع مرات قائلا فى كل مرة : بسم الله والله أكبر. وكذلك الأمر فى اليوم الثانى عشر ثم هو بالخيار إن شاء أنهى إقامته فى منى . وإن شاء أقام فيها يوماً آخر هو اليوم الثالث عشر من ذى الحجة . يقول تعالى : (فمن تعجَّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه)

ويعود فى أمان الله إلى مكة يكثر فيها من الطواف بالبيت فإذا ما عزم السفر طاف طواف الوداع وسافر فى رعاية الله .

فى حكمة الحج

فى الحديث الصحيح : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » وفيه أيضاً : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » والحج من الفرائض التى تكفر كل الذنوب عن العبد ، وتجعله خالصاً من الآثام ، فإذا مات بعد حجه مباشرة فقد مات طاهراً من الإثم ، نقيًّا من الذنوب بشرط أن يكون الحج خالياً من كل ما يفسد ، سالماً من كل ما يعيب .

إن الحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية ولا يقارف إثماً ، والواقع أنه من فضل الله على الأمة الإسلامية أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها ، حتى تنال رضا الله وتنعم بثوابه .

ومن النوافذ الكبرى: الحج المبرور .

وليس من العسير على الإنسان أن يخلص وجهه لله فى أيام معدودات ،يصبح الإنسان بعدها من البراءة والطهر كيوم ولدته أمه خالصاً من الدنس ، مبرءاً من الآثام .

وفى الحج تَعَرُّفٌ على الله سبحانه وتعالى مصدر الخير كل الخير ، ومصدر النعمة كل النعمة ،

ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنسانى .

إن الذى يتعرف على الله يصبح من الكمال الإنسانى فى الذروة .

ولما كانت طريقة التعرف إلى الله فى الحج توبة نصوحاً ، واستجابة مخلصة ، وطوافاً بالبيت فى تضرع ، وابتهالا إلى رب البيت ، وسياحة من الصفاء إلى الرى ، ومن رى يزداد إلى صفاء يصفو لمَّا كانت كذلك كانت تزكية للنفس .

فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نوراً يعرفها به فتتعرف عليه وتلزمه ، وتقف عنده وتنتهى إليه ، (وأن إلى ربك المنتهى) .

وإذا ما توجه الإنسان بكل كيانه إلى مولاه ، غمره بنعمه ، وأكرمه بالمغفرة وأهّله لدخول الجنة والتنعم بالثواب .

ولقد فتح الله سبحانه أبواباً كثيرة يدخل منها طلاب المغفرة والرحمة إلى مغفرته ورحمته من هذه الأبواب الحج ، وفى حديث عمرو بن العاص – فيما رواه مسلم – أن رسول الله ﷺ قال :

« أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » .

وقد بين الرسول ﷺ فائدة الحج فى أوضح بيان ، فقال فيما رواه الشيخان وغيرهما : « من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وعن عبد الله بن مسعود فيما رواه الترمذى وغيره ، قال : قال رسول الله ﷺ « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلاّ الجنة » وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحجاج والعمار وفد الله : دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم » . وفريضة الحج مرة واحدة فى العمر .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :خطبنا رسول الله ﷺ فقال :

« يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا . . فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم قال : ذرونى ما تركتم ،فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه مااستطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

إن الله تعالى فرض الحج لحكمة سامية هى تزكية النفس وتطهيرها ، ومن أجل ذلك كانت أعماله هى من أجل هذا التطهير ، إنه منذ ابتداء شعائر الحج يتوب توبة نصوحاً ويلبس الملابس البيضاء علامة على الطهر والصفاء ويلبى قائلا : « لبيك اللهم لبيك ،لبيك لا شريك لك

لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

والتلبية استجابة لله سبحانه وتعالى فيما أمر ، واستجابة له فى الانتهاء عما نهى ، ثم إن الطواف والصلاة فى مقام إبراهيم عليه السلام والسعى والوقوف بعرفة داعياً مستغفراً تائباً ،ورجم إبليس مصدر الشر والإثم ، أى معاهدة الله فى نهاية الحج على ترك المعصية برجم مصدرها وهو إبليس ، إن كل ذلك إنما هو تطهير وتصفية للنفس وتزكية لها ومن هنا كانت حكمة الحج .

فى نفقات الحج

إن الحج جائز دائماً إذا كان المال حلالا سواء أكان ذلك المال من مال الشخص نفسه أم كان من مال الغير المتبرع به عن طيب نفس ، والله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ، وقد كان بعض الصالحين الأثرياء من سلفنا الصالح يحج ويأخذ معه مجموعة من الفقراء الذين لم يؤدوا فريضه الحج فينفق عليهم ومن هؤلاء الأثرياء الصالحين الذين لهم قدم راسخة فى العلم والزهد والثراء والكرم الإمام الربانى عبد الله بن المبارك ، فقد كان يحج على نفقته كل عام عشرات ممن لم يحجوا من قبل ، وهى سنة جميلة لها ثوابها الجزيل ، وحبذا لو اتبعها أثرياؤنا فى العصر الحاضر.

هل للزوجة أن تحج من مال زوجها ؟ وهل للإنسان أن يحج من مال مهدى من أجنبى ؟

الحج ركن من أركان الإسلام،واجب فى العمر مرة على المستطيع ، وسواء كان الحج حج الفريضة أم كان حج النافلة فإنه قربى إلى الله سبحانه ، والقربى يجب أن يتحرى الإنسان فيها أن تكون بمال حلال .

ومال الزوج بالنسبة للزوجة حلال إذا كان بإذنه وعن رضا منه ، ومالها بالنسبة له حلال أيضاً إذا كان عن رضا منها وبإذنها .

والأمر كذلك فيما يتعلق بمال الوالد بالنسبة للولد ، ومال الولد بالنسبة للوالد .

أما المال المهدى من أجنبى فللإنسان أن يحج منه إذا برئ المال من الشبه ، فلا يكون المال المهدى من تاجر مخدرات مثلا ، أو ممن يتجر فى الخمر وما دام الله سبحانه لا يوجب الحج على غير المستطيع فإن فى سعة رحمة الله عذرًا لمن لم يجد المال الحلال الصافى .

هل يجوز لمسلم أن يعطى مبلغًا من المال لمن يريد أداء فريضة الحج لكى يدعو له فىأثناء مناسك الحج ؟

إن الإنسان يمكنه أن يقدم مبلغاً من المال على سبيل الهدية لمن عزم على الحج ثم يرجوه الدعاء له

ويمكنه أن يقدم مبلغاً من المال على سبيل الصدقة ، ثم يرجو من عزم على الحج أن يدعو له فى أثناء تأديته مناسك الحج .

وإذا كان يصح للإنسان أن يدفع نفقات وتكاليف شخص ليذهب إلى الحج ويؤدى فريضة الحج عنه ويدعو فى أثناء فريضة الحج فى الطواف مثلا أو على عرفات فإنه يجوز له أن يدفع بعض هذه النفقات فقط فى سبيل أن يكرمه الله سبحانه وتعالى بقبول دعوات الحاج فى البقاع الطاهرة المباركة .

ما حكم من ذهبت إلى الحج على حساب أحد أقاربها وفى أثناء الذهاب إلى الحج سرقت مبلغاً من المال فهل حجها يقبل أوْلا ؟

نقول أولا : إن الحج لم يكن واجبًا عليها لأن الحج واجب على المستطيع وهى غير مستطيعة .

ونقول ثانيًا : إن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب) .

وبمقتضى هذه الآية الكريمة ، واستناداً إلى الجو الإسلامى كله فى موضع الحج نرى أن جريمة السرقة أو أى جريمة من الجرائم الكبرى بعد الإحرام بالحج تكون مبطلة له .

وقد يغتفر فى الحج بعد الإحرام به بعض توافه الأمور أو بعض صغائر الذنوب . أما الجرائم الكبرى بعد الإحرام فإنها مبطلة له كما ذكرنا .

أما إذا كانت جريمة السرقة قبل الإحرام بالحج أى فى أثناء الذهاب ، ولكن قبل الوصول إلى الميقات الذى يحرم منه الإنسان فإن ذلك لا يبطل الحج وتكون السرقة معصية يقام على السارقة

الحد فإن لم يقم عليها الحد فإن التوبة الخالصة الصادقة النصوح كفيلة بمحوها فتحرم بعد التوبة وهى على طهارة ونقاء ولا يبطل حجها بالسرقة قبل الإحرام .

بيد أنه يجب أن يكون معلوماً أن من صدق التوبة رد ما سرقت .

ما حكم الذين يحتالون ويسرقون أموال حكوماتهم ليؤدوا فريضة الحج ؟ هل يصح حجهم أو لا ؟

السرقة والاحتيال لأخذ المال من غير الطرق المشروعة حرام ولو كان هذا المال مال الحكومة لأن أموال الحكومة لا يحل أخذها إلا بالطرق المشروعة ، فمن أخذ مالا عن طريق الاحتيال أو السرقة فهو حرام .

وقال الإمام أحمد لا يجزئ الحج بالمال الحرام ، لقول الرسول ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً » .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا خرج الحاج حاجًّا بنفقة طيبة ، ووضع رجله من الغَرْز فنادى : لبيك اللهم لبيك ناداه منادٍ من السماء : لبيك وسعديك ، زادك حلال ، وراحتك حلال ، وحجك مبرور غير مأزور » .

« وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز فنادى : لبيك ناداه مناد من السماء لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور » .

فى الإحرام

إن الإحرام ركن من أركان العمرة ، مثله فيها كمثله فى الحج ، سواء بسواء ، ولكننا نحب أن ننبه إلى أن الإحرام شىء ولبس الملابس الخاصة –وهى الرداء والإزار أو البشكيران – شىء آخر .

فالإحرام هو النية التى ينوى بها الإنسان العمرة أو الحج ، وهذه النية هى الركن ، ولها ميقاتها أى مكانها المعين ، أما لبس الملابس البيضاء فإنه ليس بركن ، ويمكن أصحاب الأعذار أن يستمروا بملابسهم العادية ويخرجوا فدية ، أى صدقة تتراوح بين اثنى عشر وعشرين ريالا كل بحسب مستواه .

فى ملابس الإحرام

إن الحج فترة تجرد كامل لله سبحانه وتعالى ، وتوبة واستغفار وإنابة ، وأداء شعائر ومناسك وقطع الصلة بالماضى الذى تشوبه شوائب من هوى النفس ونزغات الشيطان .

ومن الرموز لقطع الصلة بالماضى واستقبال عهد جديد ، أن يتخلى الإنسان عن ملابسه ليلبس ملابس الإحرام بيضاء ناصعة طاهرة نقية توجيها لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى سره وعلانيته من الصفاء والطهر ، فمن كان به مرض يمنعه عن لبس ملابس الإحرام فإن الله سبحانه أرأف به وأرحم من أن يبطل حجه ، وإنما عليه أن يذبح شاة بالحرم المكى ، أو يطعم ستة مساكين ، أو يصوم ثلاثة أيام ، وهو مخير فى هذه الأمور الثلاثة .

أما المرأة فإنها تلبس ملابسها العادية التى تستر كل جسمها وإحرامها معناه ألاّ تغطى وجهها ولا كفيها ، وأما ما عدا ذلك ففرض عليها أن تستره .

فى الحج عن الغير

روى أبوداود وابن ماجة وغيرهما ، أن النبى ﷺ سمع رجل يقول : « لبيك عن شبرمة » فقال له ومن شبرمة ؟

قال : أخ لى أو قريب لى .

قال ﷺ : « أحججت عن نفسك ؟ » قال : لا . قال : « فحج عن نفسك ، ثم عن شبرمة » .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة ، عن أبيه رضى الله عنهما أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فأخذت تسأله عن مسائل ، وكان من بينها أن قالت عن أمها : إنها لم تحج قط ، ثم سألت أفأحج عنها ؟

فقال ﷺ : حجى عنها .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : جاءت امرأة من خشعم إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله فى الحج على عباده أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال صلوات الله عليه : « نعم » ثم علل عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله : « فإنه لو كان على أبيك دين قضيته » .

وعن أبى رزين العقيلى : أنه أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبى شيخ كبير ، لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن أى لا يقوى على السير ولا الركوب لكبر سنه ، فقال صلوات الله عليه « حج عن أبيك واعتمر » .

والإنابة فى الحج مشروعة عند عجز الإنسان عن مباشرة أعمال الحج ، وإذا تبرع إنسان لإنسان فحج بنفسه عنه ، أو دفع عنه قيمة تكاليف الحج متبرعاً ، وأناب شخصاً آخر ليقوم بأداء ذلك صح هذا وسقطت الفريضة عمن تمنعه حالته الصحية من أدائها ولا يحرم الله سبحانه صاحب الهدية المتبرع من الأجر الجزيل .

هل يجوز فى الإسلام أن تسافر المرأة وحدها بدون صحبة زوجها ؟

لا يجوز أن تسافر المرأة ولو إلى الحج إلا ومعها زوجها أو ذو رحم محرم منها ، وذلك لما روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يخلون رجل بامرأة إلاّ ومعها ذو رحم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وكذا ، فقال : انطلق فحج مع امرأتك » .

وفى حديث آخر :

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر ثلاثة أيام ولياليها إلاّ ومعها زوجها أو ذو رحم محرم منها » .

وأجاز الشافعية خروجها مع رفقة من النساء الصالحات .

فى حج الصبيان

روى مسلم بسنده عن ابن عباس قال :

« رفعت امرأة صبيًّا لها فقالت : يا رسول الله : ألهذا حج ؟ قال : نعم ولك أجر » .

وروى البخارى بسنده عن ابن عباس والسائب بن يزيد – ما يفيد حجها مع النبى ﷺ قبل البلوغ .

والسؤال الآن : هل يسقط هذا الحج فريضة الحج عن الصبى بعد البلوغ أو لا ؟

إن هذه الحَجة لا تُسقط الفريضة عن الصبى بعد البلوغ لما روى بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : « أيما غلام حج مع أهله ، ثم بلغ فعليه حجة أخرى » .

أما قول الرسول ﷺ للمرأة التى سألته عن الصبى ألهذا حج : نعم ، فلا يفيد إلاّ أن للصبى ثواب الحج ، ولأمه أيضاً الثواب لأنها هى التى مكنته من ذلك ، ولكنه لا يفيد سقوط الفريضة .

فللصبى مهما كان صغيراً – إذا حج – ثواب الحج ، وعليه إذا بلغ الحلم أن يحج حجة الفريضة إذا توافرت له شروطها .

ولعل السبب فى منح الثواب للصبى ولأهل الصبى هو تشجيع الحجاج على اصطحاب الصغار فى الحج ، وعدم تركهم فترة الحج بغير رعاية ولا عناية ، وتعوُّد الصبى منذ الصغر على أداء الشعائر وعلى التعرف على المناسك ، وعلى تحمل بعض المشاق التى لا مناص منها فى الحج ، والجميع على كل حال مأجورون من الله تعالى .

فى حج من عليه دَيْن

يقول الله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) .

ومن الاستطاعة أن توجد النفقة دون أن يكون على الإنسان دين للآخرين ، فإذا كان على الإنسان دين يستغرق ما معه من نقود ، أو يستغرق جزءاً من نفقات الحج فإنه غير مستطيع ، فلا يجب عليه الحج .

وإذا كان على الإنسان دَيْن ، فحج دون أن يبالى بالدَّيْن أو الدائن ، فإن حجه مردود عليه ، وقد كان الرسول ﷺ يتشدد جدًّا فى أداء الدَّيْن ، بل كان ﷺ لا يصلى على المدين أبداً ، فإن كان على الميت دين .

قال : « صلوا على صاحبكم » .

فإذا ما سدد دينه صلى عليه .

ومادام الحج لا يجب إلاّ عند الاستطاعة ، ومادام المدين غير مستطيع فالأولى – بل الواجب عليه – أداء الدَّين ثم الحج عند الاستطاعة .

ما حكم ترك طواف الإفاضة جهلا أو سهوًا أو عمدًا

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟

قال : إيمان بالله ورسوله .

قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله .

قيل : ثم ماذا : قال حج مبرور » .

وروى ابن حبان فى صحيحه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أفضل الأعمال عند الله تعالى إيمان لاشك فيه ، وغزو لاغلول فيه وحج مبرور » والمبرور الذى لا يقع فيه معصية .

وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً : إن برّ الحج ، إطعام الطعام وطيب الكلام ،وعند بعضهم إطعام الطعام وإفشاء السلام . ومما لا شك فيه أن ذلك من بر الحج . ولقد حدد الله سبحانه وتعالى : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) .

والحج الذى تسقط به الفريضة ويثيب الله تعالى عليه هو الحج الذى استوفى أركانه وواجباته ، وكان خالياً مما عبر الله تعالى عنه بقوله :

(فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) ومن أركان الحج طواف الإفاضة أى طواف الرجوع من مِنًى إلى مكة .

وإذا لم يؤد الإنسان الركن على أى وضع كان عند الأداء وبأى صورة حدث فإنه لا حج له ولكن ينبغى أن يكون معروفاً أن ليس من الضرورى أن يكون طواف الإفاضة عقب رمى الجمرة والجمرات مباشرة ولكن زمنه ممتد فى ذى الحجة .

أما إذا أدى الإنسان الحج بأركانه وواجباته وسنته فإنه يصدق على أداء ما يقوله رسول الله ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وفى رواية للترمذى أنه قال : « غُفر له ما تقدم من ذنبه »

وعن ابن مسعود رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال :

« تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلاّ الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرمًا

إلاّ غابت الشمس بذنوبه » .

وعن عبد الله بن جواد الصحابى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حجوا فإن الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن » .

فى أداء النذر عن الغير

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : « إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟

قال : نعم حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟

اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء » .

يقول الإمام النووى :

« والجمهور على أن النيابة فى الحج جائزة عن الميت » .

ويقول : « إن الجمهور على أن النيابة فى الحج جائزة عن العاجز ، الميئوس من برئه » .

والوضع الطبيعى فى هذه المسألة أنه مادام السائل قد حج عن نفسه ، فإنه يجوز له أن يحج عن غيره ، العاجز ، أو الميت ، ويجوز فى النيابة فى الحج أن يحج الرجل عن المرأة ، والمرأة عن الرجل .

ويقول الإمام النووى : قال الشافعى :

« يجوز الحج عن الميت ، عن فرضه ونذره ، سواء أوصى به أم لا ، ويجزى عنه » .

ومذهب الشافعى وغيره أن ذلك واجب فى تركته . ويستوى فى ذلك أن ينوب فى الحج عنه شخص فى مكة ، أو فى المدينة ، أو فى إقليم آخر بَعُدَ أو قرب » . ولا حرج .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف فى حجة الوداع فجعلوا يسألونه ، فقال رجل :

لم أشعر ، فحلقت قبل أن أذبح ؟

قال : « اذبح ولا حرج » .

وجاء آخر فقال : لم أشعر ، فنحرت قبل أن أرمى ؟

قال : « ارم ولا حرج » .

فما سئل يومئذ ، عن شىء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال :

« افعل ولا حرج » .

فى بعض ما لا يفعله المحرم

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينكح المحرم ولا يُنكح ولا يخطب » .

وعن أبى قتادة الأنصارى رضى الله عنه فى مصيدة الحمار الوحشى ، وهو غير محرم ، قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه وكانوا محرمين .

« هل منكم أحد أمره أو أشار إليه بشى؟ » .

قالوا : لا . . . قال :

« فكلوا ما بقى من لحمه » .

فى دواب يقتلن فى الحل والحرم

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خمس من الدواب كلهن فواسق ، يقتلن فى الحل والحرم : العقرب ، والحدأة ، والغراب ، والفأرة،والكلب العقور » .

فى أولئك لهم نصيب مما كسبوا

سأل رجل ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال : إنى أكرى نفسى إلى مكة ، وقد زعم الناس أنه ليس لى حج . . فقال : بل أنت ممن قال الله فيهم :

(أولئك لهم نصيب مما كسبوا) .

وفى رواية ، فقال : « فإذا فعلت المناسك فأنت حاج » .

فى إذا بلغ الصبى

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما صبى حج ، ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى ، وأيما عبد حج ، ثم أُعتق ، فعليه أن يحج حجة أخرى » .

المحلقون والمقصرون

روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما ، أن رسول الله ، ﷺ قال :

« اللهم ارحم المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال فى الثالثة : « والمقصرين » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ قال :

« ليس على النساء حلق وإنما يقصرن » .

فى من يبعث ملبياً

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينا رجل واقف مع رسول الله ، ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته ، فأقصعته فقال رسول الله ﷺ :

« اغسلوه بماء وسدر وكفنوه بثوبيه ، ولا تخمروا رأسه ولا تحنطوه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا » .

وفى روايه لهم : أن رجلا كان مع النبى ﷺ ، فوقصته ناقته وهو محرم ، فمات . فقال رسول الله ﷺ :

« اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا » .

وفى رواية لمسلم :

فأمرهم رسول الله ﷺ أن يغسلوه بماء وسدر ، وأن يكشفوا وجهه ، حسبته قال :

« ورأسه فإنه يبعث وهو يهلل » .

فى إذا حاضت المرأة قبل الطواف

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

« خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلاّ الحج ، حتى جئنا سرف ، فطمثت فدخلت على رسول الله ﷺ ، وأنا أبكى فقال : ما يبكيك ؟

فقلت : والله لوددت أنى لم أكن خرجت هذا العام . .

قال : مالك ؟ لعلك نفست . . قلت : نعم .

قال : هذا شيء كتبه الله على بنات آدم ، افعلى ما يفعل الحاج غير أنك لا تطوفى بالبيت حتى تطهرى . .

قالت : فلما كان يوم النحر طهرت ، فأمرنى رسول الله ﷺ فأفضت . .

قالت : فأتينا بلحم بقر ، فقلت : ما هذا ؟

قالوا : أهدى رسول الله ﷺ عن نسائه بقرة » .

فى الحج بعد الطهر

من أتاها الحيض وهى فى الحج تفعل كل ما يفعله الحاج من المناسك ماعدا الطواف ، فهى تسعى ، وتقف بعرفة ، وترمى الجمار ، وتستمر إلى أن تنتهى حيضتها فتطهر ثم تطوف بالبيت بعد الطهر .

وقد حدث ذلك لبعض أمهات المؤمنين ولبعض الصحابيات فى حجة رسول الله ﷺ ، وكن يسألنه فيقول لهن افعلن كل ما يفعله الحاج غير الطواف بالبيت حتى تطهرن ، والحج – بعد الطهر والطواف – صحيح لا شك فى ذلك ، وتسقط به الفريضة ، وله ثوابه الجزيل .

فى الصلة الجنسية بالزوجة وهل هى مباحة أيام الحج ؟ وما هى الأوقات التى تحرم فيها الصلة الجنسية بالزوجه ؟

لقد حدد الله سبحانه وتعالى أياماً معينة وأوقاتاً محددة لا يجوز فيها الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته ، منها مثلا أيام الحج للرجل الحاج أو المرأة الحاجة يقول الله تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) ، ومنها أوقات الإمساك فى شهر رمضان أى فى نهار الشهر المبارك يقول تعالى : (أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) .

فالاتصال الجنسى فى ليالى رمضان حلال ، أما فى نهاره حرام ، ومنها أيام الحيض ، يقول

الله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْن) .

ومنها أيام الاعتكاف يقول الله سبحانه وتعالى : (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد)

فى الحج وغفران الذنوب

روى الشيخان ، بسندهما ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من حج فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » .

وروى الشيخان – بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة » .

والحج المبرور ، هو الحج الذى يتقبله الله سبحانه – والحج الذى يتقبله الله سبحانه – هو الحج الذى توفر فيه الإخلاص .

ويبدأ توفر الإخلاص بالنية نفسها ، بنية الحج . لابد أن تكون خالصة لله سبحانه فلا يعتبر الإنسان الحج دعاية لنفسه ، أو رحلة سياسية للمتعة ، أو رحلة يراد بها غير وجه الله سبحانه بأى وضع من الأوضاع .

ولابد أن يصاحب الإخلاص كل أعمال الحج ، ومن أول هذه الأعمال :

التوبة الخالصة النصوح . . التوبة التى تجبّ ما قبلها من سيئات ومعاصى لأنها إقلاع بات عن الذنوب والآثام ، وندم باك على حياة مضت ، لم يرض سبحانه ، عما شابها من سيئات وعزم مصمم على الطهر الطاهر النقى بتوفيق الله ، فيما يستقبل من حياة تتغير مجراها من خضوع لهوى النفس ونزعات الشيطات إلى خضوع للخير ومتابعة للرحمن . .

ويسجل كل ذلك بلبس الملابس البيضاء النقية بعد الاستحمام ، تطهيرًا للظاهر ، ليكون الصفاء شكلا ومعنى وتكون الطهارة ظاهرة وباطنة .

ويسجل ذلك كله نطقاً بلسانه ، كما سجله عملا بجوارحه ، وعزماً بقلبه .

فيعاهد الله على الاستجابة له فيما أمر ، وعلى الاستجابة له فيما نهى ، وعلى أن يكون له وحده ، قائلا سرًّا وجهرًا .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

هذا العهد يعلنه إذا كان فى جمع من الناس ، ويعلنه إذا كان منفرداً ، إنه يعلنه إذا لقى صديقاً ويعلنه إذا فارق الصديق .

فى اللهم حجة لا رياء فيها

ليس الحج ترفاً ، ولا سياحة استمتاعية ، ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل فى التقشف فى الحج ، وسار على نسقه من اتبع هديه .

عن أنس ، أن النبى ﷺ حج على رحل رث ، وقطيفة تساوى أو لا تساوى ، أربعة دراهم فقال :

« اللهم حجة لا رياء فيها » .

وعن أنس أن النبى ﷺ حج على رحل رث ، وتحته قطيفة وقال :

« حجة لا رياء فيها ، ولا سمعة »

وعن بشر بن قدامة الضبابى ، قال :

« أبصرت عيناى حبيبى رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع الناس على ناقة له حمراء قصواء تحته قطيفة بولانية وهو يقول :

« اللهم اجعلها غير رياء ، ولا مباهاة ولا سمعة » والناس يقولون : هذا رسول الله ﷺ .

وعن ثمامة قال : « حج أنس على رحل رث ولم يكن شحيحًا » .

فى صيد البر

الأرانب والحمام وغيرها من الطيور تعتبر صيد البر إذا لم تكن ملكًا لأحد من الناس .

ولامانع من صيدها ، لغير المحرم بالحج أو العمرة لقوله تعالى : (أُحِلَّ لكم صيد البحر وطعامُه متاعًا لكم وللسيّارة ، وحُرِّم عليكم صيد البر مادمتم حرمًا) .. وقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا ليبلونّكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب ألم) ولابد من استيفاء شروط الصيد وهى مفصلة فى كتب الفقه نذكر منها . مارواه البخارى فى كتب الفقه بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه . قال : سألت

النبى ﷺ عن صيد المِعْراض (عصا فى طرفها حديدة ولها حد) فقال ﷺ ماأصاب بحده فكله ، وماأصاب بعرضه فهو وقيذ ، أى مقتول بما لاحد له ، ولم ينفذ فى المقتولة مايخدش اللحم ويخرج الدم ، وسألته عن صيد الكلب فقال ، ما أمسك عليك فكل ، فإن أخذ الكلب ذكاه أى هو بمثابة الذبح الشرعى ، وإن وجدت مع كلبك أوكلابك كلبًا غيره فخشيت أن يكون أخذه معه ، وقد قتله فلا تأكل ، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره .

وروى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « ماصدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل ، وماصدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله فكل ، وماصدت بكلبك غير معلم فأدركت ذكاته فكل » .

وقال ﷺ : « إذا أرسلت كلبك وسميت فأمسك وقتل فكل ، وإن أكل فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه ، وإذا خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكته فقتلن فلا تأكل ، فإنك لاتدرى أيها قتل ، وإن رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل » .

الحج للمقيمين فى الحجاز

إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ مانوى ، وإن الذين يقيمون بالحجاز ويعملون به يصح لهم أن ينووا القيام بالحج ويؤدوا مناسكه فى وقته ، فالإقامة بالحجاز والعمل به لايمنعان من صحة أداء النسك ، وذلك تخفيف من الله سبق إليه لاينقص أجره والإقامة بقصد العمل إن كانت سبباً يرضاه الله فى طلب الرزق الحلال يعف به نفسه وأهله فإنها فى سبيل الله ، لاتنقص أجرًا ولاتعد شائبة دنيوية فى عباداته وانتقال الإنسان من مكان إلى مكان لايغير من صحة العبادة شيئًا ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : (وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم) .

والمنافع التى يشهدونها إنما هى منافع دينية ودنيوية ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه البخارى ، قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى المواسم ، فنزلت : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أى فى مواسم الحج .

فى من عزم على الحج ولم يتمكن من أدائه

يقول صلوات الله عليه وسلامه : « من هم بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإذا عملها كتبت له عشرًا » ، فمن عزم على الحج صادقاً فى عزمه ، مخلصًا فى نيته ، ولكن الظروف الخارجة عن إرادته لم تمكنه من أدائه فله ثواب نيته وعزمه وسعيه من الله تعالى ، بيد أن ذلك لايسقط الفرض ، ذلك لأن الحج فريضة الله ، فمن فاته فى سنة من السنين بقى مطالبًا به ، يجب عليه أداؤه متى أمكنته الفرصة ، فإذا أمكنته الفرصة فى عام ولم يؤده أثِمَ ، لأنه ركن من أركان الدين يجب عند الاستطاعة ، قال الله تعالى : (ولله على الناس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

فى جواز شراء بضائع لمن يؤدى فريضة الحج من الأراضى المقدسة ليتاجر بها بعد عودته إلى وطنه

الحج هو زيارة البيت الحرام ، والوقوف بعرفة فى أوقات الحج ، وله أركان وشروط فمن أتى بها صح حجه .

ومايكون بعد ذلك من شراء بضاعة وغيرها لايؤثر فى الحج ، قال الله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على إباحة التجارة وسائر أنواع المكاسب الحلال فى الحج .

أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت عكاظ ومجنة ، وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) .

غير أنه يلزم أن يكون خروج الحاج لأجل الحج لاللتجارة ، وأن ينوى بخروجه أداء الحج حتى لايضيع ثوابه فى حجه لقول الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كان هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » .

فى أصل رمى الجمار والحكمة فيها وحكم من لم يرم

يروى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما هم بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام جاءه الشيطان موسوساً يريد صرفه عن طاعة الله فى رؤيا يعتقد إبراهيم عليه السلام أنها إشارة له من لدن الله سبحانه ، مثلها مثل الوحى سواء بسواء ، وأحس سيدنا إبراهيم بالشيطان يحاول أن ينفذ إلى طهره وطاعته وعصمته وتفانيه فى الله سبحانه وتعالى ، فرجمه بسبع حصيات ، فانصرف عنه الشيطان إلى الابن يوسوس بعدم الطاعة ، إنها رؤيا ، مجرد رؤيا أيذبحه أبوه من أجل رؤيا ؟ . .

وأحس الابن بالشيطان ومحاولته الخبيثة فرجمه بسبع حصيات ، فانصرف عنه الشيطان إلى الأم مُوسوِساً أدركى ابنك ، إن أباه يريد أن يذبحه استنقذيه من قبل فوات الأوان . ورجمته الأم لثقتها بأن زوجها لايتصرف إلاّ تبعاً لما يرضى الله . .

فحكمة رمى الجمار إنما هى رجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية ، رجمه مراراً وتكراراً ، وتنتهى أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة ، صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية .

وذلك تسجيل مؤكَّد ، وإعلان مشهور ، وإشهاد سافر على أن الحاج قد عزم عزماً لاتزعزعه أعاصير الشهوة ومغريات الفتنة ، عزم على أن يصبح خيراً كله لامجال لنزعات الشيطان للتسلل إلى نفسه فقد أصبح بتطهير نفسه ويرجم الشيطان من عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان للشيطان عليهم .

فمن تعذر عليه الرجم بسبب الزحام الشديد فله أن يوكل من يرمى عنه أما إذا لم يرم ولم يوكل من يرمى عنه فعليه ذبيحة يذبحها ولايفسد حجه .

فى الأضحية

الأضحية غير واجبة على المسلم ، بل هى على الراجح سنة مؤكدة ، ولايشترط لأدائها تكليف ولابلوغ ، ولاسن معينة ، فمن الممكن للصبى أن يضحى عن نفسه من ماله الخاص أما ولى اليتيم والسفيه فلا يضحى عنهما ، قال النووى : مذهبنا أنه لايجوز لولى اليتيم والسفيه أن يضحى عنهما من مالهما ، لأنه مأمور بالاحتياط لمالهما ، ممنوع من التبرع به ، والأضحية تبرع .

ومن المعروف أن الأضحية تكفى عن الرجل وعن أهل بيته ، قال عطاء بن يسار ، سألت

أبا أيوب ، كيف كانت الضحايا على عهد رسول الله ﷺ ؟ فقال : « كان الرجل يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته ، يأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصارت كما ترى » رواه مالك وابن ماجة والترمذى وصححه ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « أمر رسول الله ﷺ بكبش أقرن يطأ فى سواد ، ويبرك فى سواد ، وينظر فى سواد ، فأتى به ليضحى به ، فقال : ياعائشة هلمى المدية ؟ ثم قال اشحذيها بحجر ففعلت ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : باسم الله . اللهم تقبل من محمد وآل محمد ، ومن أمة محمد ثم ضحى به رواه أحمد ومسلم وأبو داود . والمقصود أن للمسلم أو المسلمة ثواب الأضحية فى أى سن أخرجها ، ولكنها تسن تأكيدًا فى حق الرجل عن نفسه وعن أهله إن كان له أهل .. والله أعلم .

ومن أسرار تشريع سنة الأضحية التوسعة على العيال وعلى الأسرة فى أيام العيد ، وكذلك التوسعة على الفقراء ، وذلك أنه يُسنّ أن ينال الفقراء ثلثها يوزع عليهم ، حتى يشعروا هم أيضًا بالتوسعة فى أيام العيد ، وإذا كان الله سبحانه قد فرض صدقة الفطر توزع فى مناسبة عيد الفطر توسعة على الفقراء فإن رسوله ﷺ قد سن الأضحية فى عيد النحر للهدف نفسه .

ومما يجب أن يلاحظ أن من أسرار تشريع سنة الأضحية أنها فداء من الآفات والكوارث والمصائب فى أثناء العام كما كان الكبش الذى ضحى به سيدنا إبراهيم فداء لسيدنا إسماعيل من كارثة عظيمة هى كارثة ذبحه ، فالأضحية فداء من كثير من الكوارث ، وهى توسعة على الأهل وعلى الفقراء .

فى الهَدْى

إن وقت ذبح الهدى إنما هو يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة ، يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه أحمد : « وكل أيام التشريق ذبح ، ولايصح تأخيره عن أيام التشريق » .

أما فيما يتعلق بالانتفاع بالمذبوح فذلك واجب الدول الإسلامية ، وقد أصبح من السهل جدًّا فى العصر الحاضر الاحتفاظ بالمذبوح وتوزيعه على الفقراء بحسب الحاجة والظروف . ويخطئ من يظن أن الذبح إنما هو من أجل الفقراء ، فليس ذلك هو العلة الوحيدة للذبح ، بل ربما لم يكن علة أصلا ، ذلك أنه يمكن من الوجهة النظرية البحتة فى عرف الإمكان المحض أن يمر الحج بأكمله دون أن يحدث فيه ذبح ، فمن صور الحج الإفراد ، وقد فضل الإمام الشافعى رضى الله عنه هذه الصورة من صور الحج على غيرها ، وهذه الصورة لاتقتضى ذبحًا ، فلو أفرد الحجاج

جميعًا لما كانت هناك ذبيحة واجبة ، على أننا مع هذا نضم صوتنا إلى آلاف الأصوات التى ترتفع سنويًا مطالبة الأمم الإسلامية أن تسلك كل سبيل للاحتفاظ بهذه الذبائح حتى ينتفع بها الفقراء .

الفرق بين الفدية والهَدْى فى الحج

هناك فرق بين الفدية والهدى فى الحج ، فالفدية تكون فى حالة مخالفة لشعائر الإحرام بفعل محظور من محظوراته . وإليها يشير قوله تعالى :

(وأتموا الحج والعمرة لله ، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ، ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضًا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نُسك) .

وقوله ﷺ لمن كان محرمًا معه فأذاه القمل فى رأسه فأمره بأن يحلق رأسه ثم قال له : صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين مُدَّيْن لكل إنسان ، أو أنسك بشاة . أى ذلك فعلت أجزأ عنك . وموضع الفدية على ما رأى الإمام مالك أنها تفعل فى أى مكان بمكة أو بغيرها ، وإن شاء ببلده ، وسواء فى ذلك الذبح أو الإطعام أو الصيام .

وعلى مذهب الإمام مالك ، تجوز الفدية بالبلد ، ولاداعى للإنابة فى إرسالها إلى مكة . . وعلى كل فإنه يجوز أن ينيب المرء شخصًا فى الفدية عنه بالحرم بالذبح أو الإطعام ، أما الهدى فهو مايقدمه الحاج من الحيوان باسم الله إلى الحرم يذبح فيه ويطعم منه المسكن الفقير ، ويكون فى حالات خاصة ، منها :

١ – حدوث مانع يمنع من إتمام الحج والعمرة كمرض أو عدو . لقوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله ، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) . ولايكون إلاّ حيوانًا يذبح . . وإذا عجز الإنسان عنه ، فليس له أن يستبدل به غيره ولاأن يقتضيه إذا تيسر له .

٢ – التمتع بالتحلل من إحرام العمرة لاستئناف إحرام آخر للحج عند الخروج إلى عرفة ، وهو مايعبر عنه قوله تعالى : (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) .

فإذا لم يجد الحاج هديًا كان عليه ماعبر الله تعالى عنه بقوله : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) .

وهذا النوع من الهدى يجيز الإمام مالك نحره بغير مكة كالفدية .

٣ – الهدى الواقع جزاء للصيد فى الحرم ، ولايجوز فعله بغير الحرم لقوله تعالى : (يأيها الذين

آمنوا لاتقتلو الصيد وأنتم حُرم ، ومن قتله منكم متعمدًا فجزاءٌ مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديًا بالغ الكعبة ، أوكفارة طعام مسكين ، أو عَدْلُ ذلك صياما) .

ومن الممكن لمن رجع من الحج ولم يرد الصيام أن ينيب غيره عنه فيه .

فى الذبح بمكة ومنى

الذبح بمكة جائز ، والذبح بمنى جائز وفى هذه الأيام الذبح بمكة له فوائده وله نفعه : إذ إن الذبيحة بمكة تجد من الفقراء من يتقاسمونها ، ولكن مما يجب التنبيه إليه هو أن يتحرى المعتمر أو الحاج أن تكون الذبيحة صالحة حقًا للأكل ، وذلك لتجد من يقبل عليها ، ومن الأفضل أن يقف عليها حتى تسلخ ويوزعها بصورة حسنة نافعة ، فإن ذلك له ثمرته المرجوة من هذا النسك .

فى الذبح فى عرفات

إن الذبح لايجوز إلا فى الحرم ، ولو ذبح فى عرفات فإنه لايجزئه الذبح وذلك أن عرفات ليست من الحرم ، وإذا كان الذبح فى عرفات لايجزئ فإنه من باب أولى لايجزى الذبح بعد العودة .

ونحب أن نقول للعالم إن الإحرام أنواع هى :

إحرام الإفراد بالحج ، وإحرام القران ، وإحرام التمتع ، وهو الإحرام بالعمرة أولا فى أشهر الحج ، ثم الإحرام بالحج ، قبل يوم عرفة أوحتى فى صباح عرفة .

والإفراد بالحج هو أن يحرم بالحج وحده قائلا : « اللهم إنى نويت الحج فيسره لى وتقبله منى » ويستمر لابسًا ملابس الإحرام إلى أن يتحلل بعد أداء الشعائر وهذا النوع من الحج لاذبيحة فيه ، فليس على المفرد بالحج ذبيحة فإذا ماتحلل بعد الانتهاء من المشاعر يمكنه أن يذهب إلى المكان المسمى بالتنعيم قرب مكة ، وينوى العمرة ، ويتم له بذلك حج وعمرة دون أن يذبح ذبيحة . أما إذا حج قرانًا أو حج تمتعًا فلابد من الذبيحة ، ولايجوز أن تكون الذبيحة إلاّ فى الحرم ، فإذا لم يستطع فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع .

هل لغياب الزوجة تأثير فى طلب الأضحية

الأضحية تسن تأكيدًا على الرجل لنفسه ولأهل بيته ، وغياب الزوجة لاتأثير له فى طلب الأضحية من الزوج ، لأنها مطلوبة منه لنفسه أولا ولأهل بيته تبعًا له ، ولايعتبر غياب الزوجة

مبرراً شرعياً للامتناع عن ذبح الأضحية ، لأن غيابها أو حضورها فيما يتصل بذبح الأضحية سواء .

وقد ورد فى فضل الأضحية وثوابها من الأحاديث مايدفع المسلم إلى المبادرة إليها ، والبعد عن التهرب منها ، أو التماس الوسائل لعدم أدائها ، ومن ذلك قوله ﷺ : « ماعمل آدمى من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم ، وأنها لتأتى يوم القيامة بقرونها ، وأشعارها وأظلافها ، وأن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفسًا » .

رواه ابن ماجه والترمذى ، وقال : حسن غريب هذا ويجوز لمن له مال خاص من أهل البيت أن يضحى عن نفسه وله الثواب على ذلك .

فى كيفية توزيع الذبائح

استحب كثير من العلماء أن تقسم ذبيحة الأضحية ثلاثة أقسام وتوزع ثلثًا للأقارب وثلثًا للفقراء ، وثلثًا يحتجزه المضحى لنفسه وأهله ، وإن كان بعض الفقراء لايستطيع طهى مايُعطاه من لحم الأضحية ، فالأفضل أن يأخذ نصيبه منها مطهيًا .

أما عن أى أنواع الدواب أفضل للذبح ، فقد أجمع العلماء على جواز الضحايا من جميع بهيمة الأنعام . . والأفضل من ذلك الكباش أو الضأن ، فإن لم يتيسر ذلك فمن المعز ، ولابد أن تكون خالية من العيوب الشديدة كالعرج البين ، والمرض الشديد ، ونحو ذلك . وينبغى أن يكون عمر الأضحية أكثر من سنة .

هل الأضحية واجبة فى الحج

الأضحية واجبة عند الإمام أبى حنيفة وسنة مؤكدة عند غيره ، قال تعالى (إنا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر) وقال عليه الصلاة السلام : « من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا » وسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن الأضحية فقال : « هى سُنة أبيكم إبراهيم » .

غير أن الحاج لايجب عليه أن يضحى ، وليس مكلفًا بها ، لأنه مشغول بأداء الحج ، وقد يشق عليه التضحية قال تعالى : (لايكلف الله نفسًا إلا وسعها) (وماجعل عليكم فى الدين من حرج) .

وماذبحه الحاج فى منى ليس أضحية وإنما هو هَدْى ، إما واجب أو مسنون لأداء نسك الحج والعمرة ، ولايقال عنه إنه يكفى لأن الأضحية ليست واجبة على الحاج لانشغاله بأعمال الحج .

فى حكمة الأضحية

أما لماذا شرعت الأضحية فإنه موضوع من أهم ماينبغى أن يتدبره المسلمون ، إن مما شرعت الأضحية من أجله أمرين :

الأول منهما : أنها شرعت من أجل الفداء ، أى أنها فداء من كثير من الأذى والسوء يصيب الإنسان أو الأسرة فى أثناء العام وهى فداء بنسبة مايخرج منها للصدقة لصلة الأرحام ، وهى ترتبط فى ذلك بقاعدة الصدقة العامة ، إذ إن الصدقة فداء أيضًا ورسول الله ﷺ يقول : « داووا مرضاكم بالصدقات » ويقول « الصدقة تسد سبعين بابًا من أبواب الشر » فكل صدقة فداء ، ومع ذلك فإن الأضحية لها أيضًا وضعها الخاص ، وذلك أنها ترتبط فى الذهن بذكرى معروفة : هى ذكرى الفداء لسيدنا إسماعيل ، يقول الله تعالى :

(وفديناه بذبح عظيم) .

وهى إذن فداء من حدث هائل هو الموت ذبحًا ، وهى من باب أولى فداء لمادونه ، إنها فداء .

والأمر الآخر أنها مرتبطة بالعيد ، أى أنها تكون إحدى الحلقات فى مظاهر الابتهاج بالعيد ، والابتهاج فى العيد إنما هو ابتهاج بطائفة من الأمة الإسلامية يسر الله لهم سبل الحج ، وكتب لهم قبوله ، فظفروا بالحج المبرور والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة ، والحج المبرور يطهر الإنسان من ذنوبه ، فيصبح الإنسان بحجه كيوم ولدته أمه . براءة وطهرًا . فنحن فى الصيام إنما نحتفل بالبراءة والطهر ، ونحتفل بالبذل والتضحية والفداء وفى ذاكرتنا صور هؤلاء الذين استجابوا لله استجابة تامة فى الحج على مدار السنين ، وهؤلاء الأول : إبراهيم وإسماعيل وأم إسماعيل الذين قدموا لله راضين أعز مالديهم ، وهى نفسهم أو نفس عزيز لديهم ، تأمل مدى ماوصلت استجابتهم لله فى هذه الصورة التى قصها القرآن الكريم (يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) .

فالأضحية فداء ، وهى ابتهاج بمن كتب الله لهم حجًا مبرورًا فأسلموا وجههم لله ، واستجابوا إليه . مسلمين كيانهم كله له سبحانه وتعالى .

فى حكم الأضحية

إنّ أحب حكم للأضحية إلى نفسى إنما هو قول الإمام مالك رضى الله عنه : « الضحية سُنّة . وليست واجبة ولاأحب لأحد ممن قوى على ثمنها أن يتركها » .

وقت الذبح :

كان رسول الله ﷺ يذبح بعد فراغه من صلاة العيد ، وقد أخرج البخارى ومسلم ومالك رضى الله عنهم بسندهم عن بشير بن يسار أن أبا بردة بن نيار ذبح ضحيته ، قبل أن يذبح رسول الله ﷺ . يوم الأضحى ، فزعم أن رسول الله ﷺ أمره ، أن يعود بضحية أخرى ، قال أبو بردة لاأجد إلا جذعًا (ما استكمل سنة ولم يدخل فى الثانية) قال : وإن لم تجد إلا جذعًا فاذبح وقد روى ابن ماجه بسنده عن عباد تميم أن عويمر بن أشقر ذبح ضحيته قبل أن يغدو يوم الأضحى ، وأنه ذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأمره أن يعود بضحية أخرى .

صفة الأضحية :

ويشترط فى الأضحية :

١ – أن لاتكون عرجاء واضحة العرج .

٢ – أن لاتكون عوراء بيّن عورها .

٣ – أن لاتكون مريضة ظاهر مرضها .

٤ – أن لاتكون هزيلة لاشحم فيها .

وتكفى أضحية واحدة عن الأسرة مهما كثر عدد أفرادها ، وقد كان رسول الله ﷺ يضحى بأضحية واحدة عنه وعن أسرته .

حكم من يرتدى ثياب الحج وهو غير حاج

من يرتدى ثياب الحج وهو غير حاج لاشىء عليه ، لأن الواجب على المسلم ستر عورته مابين سرته وركبته ، ومازاد على ذلك فهو من تمام الزينة التى أباح الله أن يتحلى المسلمون بها ، بل أمر بها عند الذهاب إلى المسجد ، قال تعالى : (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال

تعالى : (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) ، غير أن الأولى بمن لديه مايستر به جسده غير ثياب الإحرام أن يدع ثياب الإحرام ويتحلى بغيرها ، كى لايقع الناس فى الظن أنه محرم بحج أو عمرة ، أو أنه بقى عليه بعض نسك الحج التى لاينبغى للمحرم أن يتحلل من إحرامه إلا بأدائها كرمى جمرة العقبة الأولى يوم النحر وطواف الإفاضة والحلق أو التقصير .

فى عدم استطاعة الفقراء الحج

الحج فى اللغة العربية هو السعى والقصد إلى مُعَظَّم ، وفى الشرع هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف حول الكعبة ، والسعى والوقوف بعرفة وسائر المناسك استجابة لأمر الله ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وهو فرض عين مرة واحدة فى العمر على المستطيع ، لقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) وروى أحمد وأبوداود والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس كُتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع » ومن ذلك نعلم أن الحج فرض على القادر المستطيع أما غير القادر فليس الحج فرضًا عليه ، وقد خفف الله عنه فلم يكلفه بمالا يقدر عليه .

ولايصح الحج لأى مكان إلاّ للكعبة ، البيت الحرام ، الذى أمر الله خليله إبراهيم برفع قواعده ، والأذان فى الناس بالحج إليه ، قال تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) .

على أن غير القادر على الحج لم يَحْرِمه الله بل جعل له حجًّا فى صلاته دون سعى ومشقة ، فهو فى صلاته يتجه إلى البيت الحرام وتطوف روحه حوله ، فيخرج من صلاته وقد غفر له ، كما يعود الحاج مغفورًا له .

من أين تؤخذ حجار الرجم وأين تذهب بعد رجمها ؟

رمى الحجارة من مناسك الحج ، ويكون يوم النحر والأيام التى تليه ، والحكمة فيه كما ذكرها الإمام الغزالى فى الإحياء بقوله :

وأما رمى الجمار فليقصد الرامى به الانقياد للأمر إظهارًا للرق والعبودية وانتهاضًا لمجرد الامتثال ، من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك ، ثم ليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس لعنه الله فى ذلك الموضع ، ليدخل على حجه شبهة أويفتنه بمعصية ، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعًا لأمله .

والحجارة التى يرمى بها الحجاج يأتون بها من المزدلفة ، وبعد أن ترمى وينتهى موسم الحج تُرفع من أماكنها حتى يخلو المكان للرمى الجديد ، وهكذا ، والمزدلفة بها من هذه الأحجار الصغيرة مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وقد هيأها الله فى سابق علمه لذلك ولاغرابة فى الموضوع .

أماكن الحفلات للحجاج

ليس فى الإسلام تخصيص أماكن معينة فى الحفلات وغيرها ، وإنما هذا يرجع إلى العرف والعادة . وتخصيص بعض الناس أماكن للحجاج فى الحفلات عند الزفاف أوالعقيقة إنما هو عرف حسن وعادة حميدة ، وفيه تكريم للطائعين الذين أتم الله عليهم نعمة الدين ، وإن كان هذا العمل من نية حسنة تعظيمًا للصالحين من عباد الله فصاحبه مثاب عليه من الله سبحانه ، ومن الآداب الإسلامية إنزال الناس منازلهم .

وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكرم ابن عباس ويقدمه على الأشياخ من قريش مع حداثة سنه ، وذلك لعلمه وفهمه لكتاب الله .

ومرجع التقدير هو الدين ، ومادام الأمر كذلك فهو سنة حسنة ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم .

هل الأفضل الحج قبل الزواج أو بعده ؟

إن الحج ركن من أركان الإسلام وهو واجب على كل مسلم عاقل بالغ إذا توافرت شروطه ، وشروطه تتوافر فى كلمة واحدة هى الاستطاعة . الاستطاعة من حيث أمن الطريق ، والاستطاعة من حيث توافر التكاليف ، والاستطاعة من حيث طريق المواصلات ، وقد فسر بعض أسلافنا رضوان الله عليهم الاستطاعة بأنها الزاد والراحلة .

وهذا التفسير يصدق عندما يكون الأمن أرجح من الخطر ، وعندما يكون الإنسان فى صحة تسمح له بالسفر .

فإذا ماتوافرت الاستطاعة فإن الحج واجب على الفور ، سواء أكان الإنسان متزوجًا أم غير متزوج ، وذلك أن الزواج ليس شرطًا فى الحج . ويجب على الإنسان الذى توافرت له الاستطاعة أن يعجل بالحج ، فإنه لايدرى متى يحين أجله ، إذ إنه إذا مات وقد توافرت له الاستطاعة ولم يحج فإنه يكون آثمًا .

ولقد قال الإمام الكبير طاووس : « إذا علمت شخصًا توافرت له الاستطاعة ولم يحج ومات ودعيت للصلاة عليه صلاة الجنازة فإننى لا أفعل » .

والحج رحلة للتطهير ، وإذا ماحج الإنسان فإنه يخرج من ذنبه ويصبح كيوم ولدته أمه يقول رسول الله ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . ويقول ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة » .

فى سن تعجيل صلاة عيد الأضحى وتأخير صلاة عيد الفطر

السبب فى ذلك أن يوم الأضحى يوم يضحى فيه المسلم بالذبائح ، والذبح إنما يكون بعد الصلاة لاقبلها ، فلو تأخرت الصلاة لتوهم بعض الناس انتهاءها فبادروا بالذبح قبل الصلاة فتفسد الأضحية ولم تؤد عن صاحبها ، وصارت لاتزيد عن كونها لحمًا لايختلف عن اللحم المذبوح فى غير أيام العيد ، روى البخارى بسنده عن البراء سمعت رسول الله ﷺ يخطب فقال : « إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، فمن فعل فقد أصاب سنتنا » .

وفى رواية للبخارى عن البراء قال :

خطبنا النبى ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة لانسك له » فقال أبوبردة بن نيار خال البراء : « يارسول الله ، فإنى نسكت شاتى قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب ، وأحببت أن تكون شاتى أول شاة تذبح فى بيتى ، فذبحت شاتى وتغذيت قبل أن آتى الصلاة ، قال شاتك شاة لحم » . أما تأخير صلاة عيد الفطر فذلك ليأكل قبل أن يخرج فيخالف عادة الصيام بالأكل قبل طلوع الفجر ، عن أنس بن مالك فيما رواه البخارى قال :

كان رسول الله ﷺ لايغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ولم يكن الأكل قبل الخروج لصلاة عيد الفطر كثيرًا ، بل كان يسيرًا ، يشعر بالاستجابة لأوامر الله تعالى والشكر له ، ولو كان الأكل للقضاء على الجوع أولمتابعة حالة الجسد إلى الطعام لما اقتصر على التمرات ولوصل بالطعام إلى حد الشبع .

ومما ينبغى التنبه إليه أن صلاة العيد لاتصلى قبل طلوع الشمس ولاعند طلوعها وإنما بعد طلوعها بوقت تحل فيه النافلة ، أى بعد أن ترتفع عن مطلعها قدر ذراع ، والفرق بين وقت صلاة عيد الأضحى وعيد الفطر ليس بكثير .

فى لقب حاج

لقد حج أصحاب النبى ﷺ ولم يكن أحد منهم ينادى مَن حجَّ بيت الله باسم حاج ، وإنما كان ينادى بعضهم بعضًا بأسمائهم التى عرفوا بها ، وحج بيت الله المحرم الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهذا الركن مثله كمثل غيره من بقية أركان الإسلام ، فقول الناس ياحاج لمن حج بين الله إنما هو تكريم له ولكن لاينبغى له أن يطلب من أحد تكريمه به ، لأن من عبدَ الله تبارك وتعالى مخلصًا لايطلب جزاءه إلاّ من ربه عز وجل ، والرجل الذى يحج من أجل أن يقول الناس له ياحاج إنما هو لم يخلص إخلاصًا كاملا لله سبحانه ، وقول الناس ياحاج إنما هو مجرد عادة من عادات التكريم وليست موجية فيجوز أن ينادى من حج بيت الله الحرام باسمه مجردًا عن كلمة حاج . .

وسُئل رضي الله عنه في الجهاد في سبيل الله

فى الجهاد فرض عين

إن الجهاد الآن فرض عين على كل الأمم الإسلامية دون استثناء ، ولكن ليس معنى ذلك أنه على كل مسلم أن يحمل سلاحه ويترك عمله أيًّا كان للذهاب إلى ميدان القتال ، وإنما على كل دولة وعلى كل فرد أن يجعل حياته موجهة نحو النصر : العامل بعمله ، والصانع بصناعته ، والجندى بسلاحه ، ويجب أن توجّه جميع الدول الإسلامية أعمالها واقتصادياتها توجيهًا يمكنها من رد العدوان متعاونة متساندة . إن على الدول الإسلامية أن تضع نصب عينيها هدفَ النصر على العدو المحتل فإذا لم يعمل الأفراد ولم تعمل الدول على الوصول إلى هذا الهدف أو إذا ماتناسته فإنها تكون آثمة والله سبحانه وتعالى يقول :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

فى المقصود بالجهاد فى سبيل الله

المقصود بالجهاد فى سبيل الله هو قتال أعداء الدين الذين يقاتلون المسلمين أو يمنعونهم من تبليغ رسالتهم ، رسالة العدل والحق والخير .

ويشترط لتحقيق هذا الجهاد واعتباره فى سبيل الله صدق النية والإخلاص . . فالحرب مع اليهود مثلا ومع من يساندونهم ويساعدونهم بشتى الوسائل الحربية والسياسية والإعلامية والاقتصادية هى جهاد فى سبيل الله . وهى فى نفس الوقت فرض على كل مسلم ومسلمة فى كل دولة إسلامية بقدر ماتؤهل الظروف وتتيسر الإمكانيات ، والتهاون فى الاشتراك فى هذه الحرب سبب من أسباب الذل وطريق من طرق الهوان للمسلمين لقوله ﷺ : « مامن امرئ يخذل امرءًا مسلمًا فى موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلاّ خذله الله تعالى فى موطن يحب فيه نصرته ، ومامن أحد ينصر مسلمًا فى موطن ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلاّ نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته » .

وإن ظروف الحرب الحالية وملابساتها هى ظروف وملابسات الحرب الأولى الإسلامية وذلك أن الله سبحانه يذكر الظروف والملابسات للحرب الأولى فى الإسلام فيقول .

(أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلِموا ، وإنّ الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) .

إن ظروف الحرب الإسلامية الأولى كما تذكر الآية الكريمة هى أن المسلمين :

١ – قوتلوا .

٢ – ظلموا .

٣– أخرجوا من ديارهم بغير حق .

وهذه الآية الكريمة كأنها نزلت اليوم تذكر ظروف الحرب الحالية ، فلقد قُوتلنا وظُلمنا وأُخرجنا من ديارنا بغير حق .

إن الحرب الحالية جهاد فى سبيل الله ، وكل من حمل السلاح فيها فهو مجاهد فى سبيل الله ، والمجاهد فى سبيل الله له الجنة – سواء انتصر وعاد سالمًا أو استشهد والجنة تحت ظلال السيوف .

فى الأسرار الحربية

كان رسول الله ﷺ يأمر بالاستعداد للجهاد ولايعرف أحدًا بالمكان الذى يقصده ولابالهدف الذى يهدف إليه ، وكان ﷺ يخفى ذلك حتى عن أقرب المقربين إليه . وكان ﷺ يفعل ذلك حتى لايعلم أعداؤه بتدبيره ، وحتى يكون عامل المفاجأة سببًا من أسباب النصر ، وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها كغيرها من الرجال والنساء لاتعلم عن الغزوة شيئًا إلاّ فى اللحظات الأخيرة من الوصول إلى الهدف .

ولكن بعد أن تقع الغزوة وتتحقق فإن أمرها يذيع فلا تصبح سرًّا ويعلمها القاصى والدانى ، ولقد عُرفت كل الغزوات للكبير والصغير ، والمرجح الذى يشبه اليقين هو أنه لم توجد غزوة لاتعلم السيدة عائشة رضوان الله عليها مكانها واسمها .

والله أعلم

فى الحديث الشريف رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فما هو الجهاد الأكبر وماهو الجهاد الأصغر

قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبلنا وإنّ الله لَمعَ المحسنين) سورة العنكبوت ، الآية الأخيرة منها .

الجهاد الأصغر جهاد الأعداء وكان أصغر لأن الذى يباشره لايتحمل فيه من عنائه أى شىء أكبر من قتل عدوه أو أسره أو قهره حتى يقهر .

وكان الجهاد الأكبر الذى هو جهاد النفس أكبر من جهاد العدو ، لأن مطالب النفس كثيرة ، وهى دائمًا تواقة إلى الملذات والحظوظ الدنيوية ، وكبح جماحها فى كل ماتشتهى شىء يطول شرحه لتعدده بتعدد مايعرض لنا من مشتهيات الحياة .

فالجهاد معها لاينقطع حتى تفيض الروح إلى بارئها ، وتنتهى النفس بنهايتها ، أما الجهاد الأصغر بالنسبة إلى الجهاد الأكبر فهو مدة يسيرة فى عمر الزمن الذى يمتد بامتداد الحياة ، ولهذا كانت رتبة الصديقين عند الله أعلى من مرتبة الشهداء .

والله أعلم .

فى الشهادة

الشهادة فى الإسلام فضلها عظيم وعاقبتها حميدة : إنها سبيل الحياة الدائمة ، والنعيم الذى لاينفد يقول الله تعالى:(ولاتحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) وقال : (ولاتقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لاتشعرون) ولهذا الفضل كان لابد من توفر شروط لتحصيلها ، وتحقق أمور للحصول إلى خيراتها ونتائجها الشريفة المجيدة .

وأول هذه الشروط ، أن يقصد المجاهد بموقفه فى ميدان القتال وجه الله دون سواه فقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

أما ثانى هذه الشروط : فهو أن يُقتَل مُقبلا على الأعداء غير مدبر ولافار ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلاّ متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) وهناك شروط أخرى مثل بذل الجهد فى القتال وترك الغلول : أى السرقة من مال الغنيمة ونحو ذلك .

وقد أخبر الرسول ﷺ عن حال الشهداء وصورهم تصويرًا رائعًا جميلا فقال لمن سأله عنهم : أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ فقالوا : أى شىء

نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ، ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأو أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسامنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

أما قتل المسلم أخاه بسبب المادة فلا يجوز ، إنه قتل نفس بغير حق ، وجزاء القاتل على ذلك جهنم خالدًا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا .

أما المقتول فإن كان مستعدًّا لقتل صاحبه فهو كالقاتل فى الإثم ، لقوله ﷺ « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه » .

وإذا كان غير حريص على قتل صاحبه أو كان مدافعًا عن ماله أو عن نفسه أو عن أهله فهو شهيد لقوله ﷺ : « من قتل دون نفسه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد » .

والله أعلم . .

فى صفة الشهيد

إن صفة الشهيد تتاح لأصناف عدة ، وذلك أن الغريق مثلا شهيد والمسموم شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد .

بيد أن كل هؤلاء وإن كانوا شهداء فإن أجرهم لا يماثل أجر شهيد المعركة ولو قدر للقريب من خط النار أن يموت بقذائف العدو ولم يكن من الجنود الذين يقفون على خط النار للدفاع عن الوطن ولردع العدو فإن له أجر شهادة الموت قتيلا .

أما الذى يموت دفاعًا عن دينه ووطنه ، بأيدى أعدائه الحربيين ، فإن له أجر شهيد المعركة وهو من الذين قال الله فيهم : (ولاتحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

أما غيره فإنه إن قُتل بسلاح عدوه فليس له أجر شهادة المجاهد ، لأنه لم يتدرب لذلك ولم يكن يقصد – قبل أن يقتل – أن ينال من عدو الله بقتل ، ومع ذلك فإنه إن كان يقوم بعمل يتصل بالجيش وهذا العمل لا يمكن التخلص عنه . وفيه نفع للمجاهدين فيرجى حينئذ أن يكون له بموته أجر شهيد المعركة .

صورة الحرب فى العصر الراهن وتأثيرها على صفة الشهيد

تغيرت صورة الحرب فى هذه الأيام ، عنها فى أيام الرسول ﷺ وصحبه الكرام ، رضوان الله عليهم :

لقد كانت الحرب فيما مضى تستلزم تصادم المتحاربين وجهًا لوجه ، وتصارعهم بالسلاح ولذلك كان الشهيد عبارة عن جندى قُتل فى ميدان القتال أو فى الطريق إلى ميدان القتال .

أما الآن فقد تحولت الحروب إلى حروب شاملة ، تشمل بنيرانها وآثارها المدمرة الجندى وغير الجندى ، فاتسع بذلك مجال الشهادة وتنوعت أصناف الشهداء .

ومن هنا فإن كل من يصيبه سلاح الأعداء مباشرة أو بالواسطة كهدم البيت عليه ونحو ذلك شهيد فى نظر الإسلام .

والسبب فى ذلك أن المسلم الذى يكون فى دولة محاربة ، يعتبر محاربًا ، يبذل جهده فى تسيير دفة الدول من الحرب ويتحمل ماتستلزمه الحرب من أعباء ، ومنها التعرض لسلاح الأعداء .

والحصول على ثواب الشهادة يكون أيضًا بأن يتلقى الإنسان الموت فى الغارات أو فى حالة هجوم الأعداء ، وهو رابط الجأش ثابت النفس ، مطمئن الإيمان ، فالهلع والجزع والسخط ومقابلة الموت بنفس هالعة وإيمان مزعزع فإنه ينأى بصاحبه عن درجة الشهيد ويجعله من غير الصابرين والمحتسبين فى القتال .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه مالك والبخارى والترمذى عن أبى هريرة « ماتعدون الشهداء فيكم ؟ قالوا : يارسول الله من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ، قال : إن شهداء أمتى إذن لقليل قالوا : ممن يارسول الله ؟ قال : من قُتل فى سبيل الله فهو شهيد ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون فهو شهيد ، ومن مات من البطن فهو شهيد » .

فى من قُتل فى المقاومة الشعبية

من قُتل فى أثناء عمله فى المقاومة الشعبية فهو من شهداء الحرب ، لأنه يدافع عن الوطن ويحارب أعداء الله وأعداء العرب والمسلمين .

ومن المعروف أن ألوان الحرب وأنواعها قد تغيرت فى هذه الأيام ، وأن المقاومة الشعبية هى لون من ألوان الحرب وقسم من أقسامها ، والجهاد بواسطتها جهاد مستكمل لكل ألوان الجهاد .

وسواء فى ذلك أكان القتل نتيجة إصابة مباشرة من قذيفة أو نتيجة سقوط بناء أو حادث مفاجئ فى أثناء المقاومة فكل ذلك شهادة فى سبيل الله .

وقد سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، ويقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وإذا كان من جهز الغازى له مثل أجر المجاهد لقوله ﷺ .

« من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا » فإن من يشترك فى المقاومة الشعبية له ثواب المجاهد ، بل والمرابط الذى يحرس الثغور ويدافع عن المصالح الحيوية للمسلمين .

وقد قال الرسول ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها » « ورباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » وأن من مات مرابطًا جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن من الفتان » .

أى أن من قُتل فى المقاومة الشعبية وهو مخلص فى حراسته جاد فى عمله يستمر له أجر العمل الصالح ، ومنه الرباط الذى بينت الأحاديث ثوابه الجسيم إلى يوم القيامة ، فضلا من الله ونعمة .

والكل يعلم أن الجهاد أو الرباط لو لم يكن دينًا لكان وطنية وخلقًا كريمًا وغريزة فطرية ، فالحيوان يدافع عن نفسه إذا هوجم . . وكل كائن حى يقاوم مااستطاع كل اعتداء أو هجوم عليه وكرامة الإنسان فى ذاتها تحتم عليه أن يعيش عزيزًا أو يموت كريمًا .

وقد تفضل الله تعالى على الإنسان إن أثابه على هذا العمل الذى تدعو إليه مصلحة (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) .

لمصلحة الإنسان فى ذاته ومصلحة أسرته ومصلحة وطنه (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

هل كان للمرأة دور فى الجهاد أيام رسول الله ﷺ

نعم : إنها كانت تجاهد حسبما تستطيع ، لقد كانت تعمل الأعمال التى تناسبها فعن أم عطية الأنصارية رضى الله عنها قالت : غزوت مع رسول الله ﷺ غزوات ، أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى . وتقول بنت معوذ رضى الله عنها : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، نسقى القوم ، ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة .

ولكن ألم يشاركن فى الحرب بمعنى الكلمة ؟

لقد شاركن فى الحرب بمعنى الكلمة ، فعن أم سعد بنت سعد بن الربيع رضى الله عنهما قالت : دخلت على أم عمارة رضى الله عنها فقلت لها ياخالة أخبرينى خبرك . فقالت : خرجت يوم أحد أول النهار أنظر مايصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انكشف المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذبّ عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىّ ، قالت : فرأيت على عاتقها جرحًا أجوف له غور فقلت لها : من أصابك بهذا ؟

قالت ابن قمئة أقماه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول « دلونى على محمد ﷺ لانجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير رضى الله عنه ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات لكن عدو الله كانت عليه درعان » .

وقال الرسول ﷺ عنها : « ماالتفت يمينًا ولاشمالا إلاّ وأراها تقاتل دونى ».

هل الدفاع عن المسجد الأقصى وتطهيره من العدوان ، وحفظه خاص بقوم دون قوم أو فرض على كل مؤمن بالله وقرآنه ورسوله ؟

قال تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولابالیوم الآخر ولايحرّمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

فنشر كلمة التوحيد عامة والدفاع عن الإسلام كذلك ، وإجلاء الكافرين عن كل بقعة احتلوها من أرض المسلمين عامة ، وإجلاء اليهود عن المسجد الأقصى وعن كل ما احتلوه من بلاد المسلمين واجب مقدس وفريضة مفروضة على كل مسلم .

وعلى كل مسلم أن يستعد لأداء هذا الواجب ، وألاّ ينتظر دفاع غيره ممن لايدينون بدينه عنه ، لأن الكفر ملة واحدة ولن تمد دولة مالا تدين بدين الإسلام يدها للمسلمين مدافعة معهم عن أوطانهم إلاّ إذا كان لها فى ذلك العمل مصلحة تعود عليها .

لهذا نرى أن الدفاع عن المسجد الأقصى واجب المسلمين وحدهم ، ليستردوا أرضهم ويطهروا المسجد الأقصى وغيره من رجس عدوهم .

والله أعلم ..

جزاء القاعدين عن الجهاد والمثبطين
وكيف يعرفهم الناس ليتقوا شرهم

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى وتحدث رسول الله ﷺ عن القاعدين عن الجهاد والمثبطين ، وفضح القرآن وفضحت السنة نواياهم وكشفا عن سرائرهم بحيث أصبح أمرهم واضحًا .

يقول الله تعالى لرسوله عن القاعدين عن الجهاد : (لوكان عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لاتبعوك) أى لو كانت هناك غنيمة سهلة ورحلة ميسرة لساروا معك ، ثم يتابع القرآن الحديث عن هؤلاء فيقول : (ولكن بعدت عليهم الشُّقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم) أى أنهم يهلكونها بهذا الحلف الكاذب ، يستأذنون النبى فى القعود عن الجهاد فيقول الله لنبيه ﷺ مبينًا موقف المؤمنين وغير المؤمنين من الجهاد فيقول : (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) .

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن الذين لم يخرجوا للجهاد مستأذنين فى القعود ، وأعلن أنهم لايؤمنون بالله ولابااليوم الآخر ، وأنهم قلوبهم مرتابة ، وأنهم فى ريبهم يترددون . أما الرسول ﷺ فإنه يقول فيما رواه مسلم : « من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

ومعنى الحديث الشريف أنه إذا أتيحت الفرصة للمسلم فى أن يغزو فإنه يجب عليه أن ينتهزها أما إذا لم تتح الفرصة لسبب من الأسباب القاهرة التى تخرج عن إرادته فإنه على الأقل يتمنى أن لو أتيحت الفرصة . أما إذا لم تتح الفرصة للغزو ولم يتمن إتاحة الفرصة فإنه يموت حين يموت على شعبة من النفاق . والحكم بعد كل ذلك أن المتخلف عن القتال مع استطاعته غير مؤمن فهو فى النار فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فإنه يستحق بكل بساطة كل ماتفرضه قوانين الدولة من عقوبات .

أما كيف نعرفهم فإن ذلك سهل فسيماهم ومواقفهم وكل أحوالهم تفضحهم وتشير إليهم .

والله أعلم ...

هل الحرب القائمة بين العرب والإسرائيليين حرب جهاد أوهى دفاع عن النفس

إن الحرب بين العرب والإسرائيليين هى جهاد ، وهى فى الوقت نفسه دفاع عن النفس ، ومن مات فيها فهو شهيد ، ولانجد فى التاريخ جهادًا يشبه تمامًا الجهاد الإسلامى الأول أكثر من هذه الحرب القائمة ، وإذا تدبرنا الأسباب الأولى التى أذنت بالجهاد الإسلامى فى أول الأمر نجد أن الآيات التى ذكرتها الآيات الشريفة هى نفس الأسباب التى أدت إلى هذه الحرب يقول الله تعالى : (أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ؛ وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله) .

وعرب فلسطين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وشتتوا وشردوا ، ومن بقى فيها الآن من العرب ينكل بهم ويعذبون فى صورة لاإنسانية ولارحمة ويهانون بكل أنواع المهانة ، والواجب على جميع الدول الإسلامية الآن أن تهب لنجدتهم وللعمل على أن تعود فلسطين عربية ، وعلى أن تتحرر من هذه الشرذمة الأفاقة ، وإذا تخلفت دولة عربية عن هذا الجهاد المقدس فإنها تكون آثمة يمقتها الله ورسوله .

فالحرب الحالية هى جهاد ، وهى دفاع عن المقدسات ، وهى حرب فى سبيل الله وفى سبيل العدالة ، وفى سبيل استرجاع الحق المغتصب ، وهى دفاع عن النفس وعن المال وعن العرض ، وهى محاربة فى سبيل الله وفى سبيل الحق ، ومن يتخلف عنها فهو غير مؤمن ،

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيد فلسطين عربية إسلامية كما كانت ، وأن ينكل بهؤلاء الذين اغتصبوا الحقوق وقتلوا الأبرياء وأسالوا دم الشرفاء ، ومن الله يُستمد العون والنصر..

الشباب والجهاد

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال :

إنى لواقف يوم بدر فى الصف فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما ، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزنى أحدهما فقال : ياعماه ، أتعرف أبا جهل ؟ فقلت : نعم ، وماحاجتك إليه ؟

قال : أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق وجهى وجهه

حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر ، فقال : لى أيضا مثلها . فلم يطل الوقت حتى نظرت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه ؟

فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ فأخبراه فقال أيكما قتله ؟

قال : كل منهما أنا قتلته .

قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا .

قال : فنظر النبى ﷺ فى السيفين فقال : كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضى الله عنهما .

الشباب فى المعركة

تدافع الشباب فى سن الخمس عشرة سنة فأكثر على رسول الله ﷺ يريد كل منهم أن يظفر بالإذن له فى المساهمة فى شرف العمل فى سبيل الله .

لقد جاء إلى رسول الله ﷺ سَمرة بن جندب ، وجاء إليه رافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة فردهما .

فقيل له : يارسول الله إنّ رافعًا رام ، فأجازه ، فلما أجاز رافعًا قيل له : يارسول الله إن سمرة يصرع رافعًا ، فأجازه .

ولكنه ﷺ رد : أسامة بن زيد ، عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت أحد بنى مالك بن النجار ، ورد البراء بن عازب أحد بنى حارثة ، وعمرو بن حزم ، وأسيد بن ظهير .

رد جميع هؤلاء لصغر سنهم على الرغم من أنهم كانوا فى شوق شديد لخوض المعركة ، معركة الشرف فى سبيل الله .

ولقد بلغت فرحتهم حينما أجازهم ﷺ شرف المساهمة فى غزوة الخندق .

أما من كان أكثر من خمس عشرة سنة ، وكان فى حالة تمكنه من الحرب فقد أجازه رسول الله ﷺ ...

فى من ليس عنده مال ولا ثياب ويريد التطوع للجهاد دفاعاً عن ديننا ومقدساته ، ووطننا وحرماته

إن هذا المواطن الكريم يذكرنا بعمرو بن الجموح ، وكان شيخاً كبيراً طاعناً فى السن وكان أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد أراد الجهاد وقالوا له :

إن الله عز وجل قد عذرك فأتى رسول الله ﷺ فقال إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه فوالله لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال رسول الله ﷺ أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك .

وقال لبنيه : ما عليكم أن تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل يوم أحد . .

وقول الرسول ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك.إنما هو إشارة إلى قول الله تعالى :

(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً) .

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول : (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها) .

فهذا المواطن – لشيخوخته – معفى من الجهاد الحربى والوقوف جندياً فى الميدان ، ومع ذلك فإنه يستطيع أن يقدم نفسه للقائمين على هيئة الدفاع ليوجهوه الوجهة التى تناسب حالته .

والله سبحانه وتعالى يجزيه عن شعوره الكريم خير الجزاء . .

فى من طُلب لحمل السلاح هل يستجيب ويترك ارتباطاته ؟

عملك مع أبيك ، وقيامك برعايته وبرّك به ورعاية أسرتك وبنتك الصغيرة إن كل ذلك واجب عليك لا يعفيك منه ذهابك للجهاد فى سبيل الله والوطن فإن الجهاد بالعمل الجاد هو نوع من الجهاد فى سبيل الله ، وفى الحديث الشريف :

« إن أحد المجاهدين فى سبيل الله ، سأله رسول الله ﷺ عن أحواله وقال له : ألك أبوان ؟ قال نعم قال ففيهما : فجاهد » .

وقال الله تعالى : (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً) .

وكفى بهذا التوجيه الإلهى المحمدى بياناً وإرشاداً . فمباشرة الطاعة مع الإخلال بتنفيذ أمر الله حسب ما تقتضيه ظروف الأحوال قد يكون محبطاً للعمل .

لهذا ننصح ببقائك مع والدك والقيام بما ينبغى عليك نحوه : اللهم إلاّ إذا طُلبت من أولى الأمر لحمل السلاح ، ففى هذه الحالة يجب عليك الاستجابة ، وسيتولى الله سبحانه وتعالى أمر الأسرة .

فى هل التطوع فى الحرب فيه اعتداء على حق الوالدين

إننا نحيى فى السائل هذه الروح الوطنية . . والدفاع عن الوطن واجب مقدس ، والجهاد فى سبيله فرض على كل واحد من أبنائه وقد قال الرسول ﷺ : « من مات ولم يجاهد ولم يكن له نية فى الجهاد مات ميتة جاهلية » .

وحقوق الوالدين من الواجبات التى حث عليها الإسلام ورغب فيها ودعا إليها ، والعمل على كل ما يرضى الوالدين – وخاصة فى حالة الكبر وبلوغ السن الكبيرة – من الفرائض التى يجب أداؤها وعدم التقصير فيها ، وهو جهاد فى سبيل الله سبحانه .

بيد أنه إذا كان العدو فى أرض الوطن فإن الجهاد الحربى يصبح فوق كل جهاد ، ويصبح فرضاً على كل من يمكنه حمل السلاح أن يضع نفسه تحت تصرف ولاة الأمور فى الدولة ، حتى يتحرر الوطن من رجس المعتدين . وأن الله سبحانه وتعالى يتكفل بالأهل فإنه سبحانه كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة : « لا يضيع أهله » .

هل مواصلة التعليم تعفى من الجهاد

الجهاد فى الجو الإسلامى من أسمى القربات إلى الله سبحانه وتعالى ومن أفضل الأعمال ، ولقد سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال :

الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله .

والله سبحانه وتعالى يقول : (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

ويقول سبحانه : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

والجهاد فرض إذا دخل العدو أرض الوطن يجب على كل قادر أن يدفعه بما يستطيع ويطهر

الوطن من رجسه واستعاره ، والجهاد أنواع ، منه جهاد بحمل السلاح ، وجهاد بالتعبئة الروحية ، وجهاد بالدعاية لقضية البلاد ، وجهاد بتخذيل الأعداء ، وبث روح التفرقة بين صفوفهم ، والتحصن بالعلم أيضا جهاد ، لأن الوطن كما أنه فى حاجة إلى السلاح ، فهو فى حاجة أيضا إلى العلم والتزود منه ، وقد يستطيع المتعلم الجمع بين مواصلة التعليم والانتظام فى صفوف الفدائيين فى أوقات العطلة ، ويفضل ذلك الكثيرون من شبابنا المتعلم ، ويكون بذلك قد جمع بين الحسنيين ، ودافع فى الميدانين ، وله بكل ذلك أجره وثوابه ، (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

فى جزاء الجندى الذى يقتل نفسه إذا جابه العدو خشية أن يقع أسيراً فى يده ويحاول العدو أخذ أسرار منه

روى الإمام البخارى رضى الله عنه ، وروى الإمام مسلم رضى الله عنه ، وروى كذلك أصحاب السنن أحاديث كثيرة فى الذى يقتل نفسه ، ومنها نتبين أنه فى النار .

من هذه الأحاديث :

عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« من قتل نفسه بحديدة عذب بها فى نار جهنم » .

ومنها عن جندب عن النبى ﷺ قال : « كان برجل جراح قتل نفسه ، فقال الله بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة » . ومنها عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « الذى يخنق نفسه فى النار ، والذى يطعنها فى النار » .

وهذه الحالات إنما تكون أسبابها اليأس من الدنيا ، أو الضيق بالحياة أو التعب أو المرض أو مايشبه ذلك ويماثله .

بيد أن الأمر الذى نحن بصدده يختلف اختلافاً تاما لما ذكرنا من حالات ، فإن سببه سبب شريف وأمره إذن إلى الله ، وباب الرجاء فى عفو الله بالنسبة له مفتوح ، ورحمة الله أوسع من أن تضيق بأمثاله من المجاهدين المحبين لأوطانهم ودينهم ، المضحين بالنفس فى سبيل الله وفى سبيل الإباحة بالأسرار .

واجب كل فرد من أفراد الجبهة الداخلية عن دوره فى المعركة

إن المعركة الشريفة التى تخوضها قواتنا المسلحة معتمدة على الله واثقة فى وعده – هى معركة المصير – معركة الكرامة والعزة ، معركة الحاضر والمستقبل ، معركة من أجل أبنائنا وحفدتنا ، فهى معركتنا جميعاً ، يجب أن نعيشها بوعى صادق ، ونحياها بإدراك رشيد .

والوعى الصادق والإدراك الرشيد يقتضى أن يفرض كل مواطن على نفسه واجبات المعركة ويلتزم بها التزاماً أمينا ، التزاما ينبع من كيان كل فرد لا دافع له إلاّ الإخلاص لله تعالى ، ولا رقيب عليه إلا ضميره .

على كل قادر أن يتقدم للتطوع فى مجالات الدفاع الوطنى أو الشعبى ، أو الإسعاف ، أو التمريض ، أو الخدمة العامة ، كل على قدر طاقته ووفق ظروفه واستعداده .

إن المعركة الجليلة التى دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، لا تعيشها قواتنا المسلحة وحدها وإنما يجب أن يعرف كل فرد من أفراد الجبهة الداخلية دوره وموقعه فيها ويؤديه على النحو الذى يسمو به إلى مستوى الواقع الذى نعيشه .

ويقتضينا الواجب أن نتحد ونتماسك حتى نصير كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله كما قال رسول الله ﷺ .

فالوحدة والتماسك بين المواطنين فى الجبهة الداخلية هو الأساس الذى يرتكز عليه كل عمل نقوم به ، وكل دور نؤديه . والوحدة والتماسك كلاهما يقتضى الحذر لكل ما يحاول العدو أن يقوم به إعلاميًا أو نفسيًا أو عن طريق العملاء أو المتسللين .

وعلى كل مواطن أن يؤدى عمله الذى يمارسه جادًا فى الأداء باذلا ما أوتى من طاقة ، كل فى مجال عمله .

وإذا كان العمل الجاد ضرورة حتمية فى مرحلتنا التى نجتازها فإن المطالب الشخصية يجب أن تتوارى فى هذه المرحلة ، لأن النصر هو المطلب الأكبر الذى يجب ألا ينشد غيره .

ومن أجل ما ينبغى أن يتحلى به المجتمع وقت الحرب هو الاقتصاد فى الإنفاق وتجنب الكماليات . .

أحاسيس الإمام عبد الحليم محمود رضى الله عنه
بالنسبة لحرب أكتوبر

إنها أحاسيس الحمد لله والشكر لله ، أحاسيس الرضا والاعتزاز بفضل الله ، أنا فخور بوطنى وبأمتى ، وبالقيادة الموفقة الحكيمة ، وبالجيش المظفر الذى أيده الله بروح من عنده ترعاه عنايته ، وتحوطه حمايته ، ويمده بجند من عنده وصدق الله العظيم . .

(إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) .

وإن ما يجرى اليوم فى جميع جبهات القتال – فى مصر وسورية من زحف مقدس وجهاد دينى وما تتحدث عنه الدنيا من بطولات مشرفة ، ومن صلابة رائعة ، ومن صعود فى المواجهة ، ومن صبر فى اللقاء ومن إصرار ، على الانتصار ، لما يباركه الله ، ويسجله التاريخ فى أكرم صفحاته لقواتنا المناضلة بكل فخار .

لقد زرت الجرحى ورأيتهم وهم راضون مغتبطون لما أصابهم فى سبيل الله وأحسست منهم مدى شوقهم إلى العودة إلى مواقعهم فى الميدان لمشاركة إخوانهم فى شرف العمل على أرض المعركة .

روح عالية تذكر بكل تقدير . . إنهم جند الله ، الذين بشرهم بالنصر : (وإن جندنا لهم الغالبون) صدق الله العظيم .

إنهم جند الله الذين بددوا عار الهزيمة والخوف ، وكسروا قيود التفكك والضعف ، وأزالوا الإحساس بالنفس والشعور بالذنب ، وأعادوا الثقة بالنفس ، والأمل فى المستقبل ، وبهبوا إلى الرجال فى جانب الله .

ولقد كنت فى زياراتى المتعددة لمواقع قواتنا قبيل المعركة أنظر إلى الدمار والخراب والغرور الإسرائيلى على ضفاف القناة ، وأشاهد البيوت المهجورة والمعطلة ، وأرى علم إسرائيل يرفرف فوق أرض بلادى ، وكان يلم بى إحساس قاتم كئيب حزين مرير لا يمكن بحال أن يوصف ولا أن يستهان به ، ولكنى ما فقدت يوماً الرجاء فى الله ولا الثقة فى جيشنا الباسل .

ثم شاء الله أن نعبر القناة ، وأن نحطم خط بارليف المنيع ، وأن نتقدم إلى الأمام فى الجولان ، وأن نسترد جزءاً عزيزاً من أرض الوطن ونطهره من رجس الأعداء . . وأن نسقط أعلامهم ، ويرفرف علمنا من جديد ، عالياً خفاقاً مضيئا عزيز الجانب موفور الكرامة .

إن ذكرى يوم العاشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف يجب أن تبقى – مع مثيلاتها – حية فى نفوسنا ، ماثلة أمام أعيننا مذكورة على كل لسان ، لا نغفل عنها ساعة من ليل أو نهار ، لنتعلم منها كل ما يجب أن نتعلم من الدروس ، ونأخذ منها العظة ليومنا وغدنا القريب والبعيد إن شاء الله ، ولتذكرنا بفضل الله سبحانه وبكريم رعايته لعباده المؤمنين .

وسئل رضي الله عنه في الأحوال الشخصية

فى الزواج

فى رؤية الخاطب من أراد أن يتزوج بها

إذا أراد الإنسان الزواج بآنسة أو بأرملة فإن الشرع يحثه على أن يراها ويتحدث معها .

أما رؤيتها فذلك لأن الأذواق تختلف فيما يتعلق بالجمال المرغوب فيه ، وتختلف فى القبح الذى ينفر الإنسان منه ، وقد تكون المرأة لا بأس بها فى نظر إنسان فيرضاها زوجة ، وقد لا يستريح إلى النظر إليها – هى نفسها – إنسان آخر ، فيعدل عن الزواج بها .

وحث الشرع على الرؤية لترى هى أيضاً من ستعاشره معاشرة دائمة ، إذ إنه يجوز أن لا ترى فيه مثلها الأعلى فترفضه .

وحثّ الإسلام على الرؤية لأنه يريد للعشرة الزوجية أن تكون رباطاً مقدساً دائماً ، ومن أجل ذلك يحكم أساسها بالرؤية .

ويحكم أساسها بشىء آخر وذلك أن الرؤية شكل ومظهر ، فكان لابد من الحديث حتى يتبين الاثنان عقل كل منهما وذكاءه ، ومن أجل ذلك يحث الشرع أيضًا على الحديث مع من يريد الإنسان أن تكون شريكة حياته .

وسواء أكنا بصدد الحديث أم بصدد الرؤية فإن ذلك لا يكون فى خلوة خاصة فإن الخلوة الخاصة قد حرمها الإسلام قبل العقد .

أما إذا زادت العلاقة عن الرؤية والحديث بأن كانت اتصالا جنسيًّا أو لمساً قريباً من الاتصال الجنسى فإن ذلك محرم تحريماً مطلقاً فى نظر الإسلام ، وهو يعتبر زنى وعقوبة الزنى فى الإسلام معروفة ، ومادام لم يعقد العقد فإن كل علاقة غير الرؤية والحديث تكون محرمة .

فى نصيحة للمقدم على الزواج

قال ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تَرِبَت يداك » – أى أن زواج ذات الدين سعادة الأبد – سعادة الدنيا والآخرة – فهى بدينها تبتعد عن الحرام ، وتعين الزوج على الكسب ، وتنمى الشخصية لزوجها ، وتحقق كل ما يمكن أن يجده المرء فى نفسه من آمال .

والفتاة غير الشرعية لن يكون فى زواج المرء منها إلا هم ونصب وغم وحزن ، فساد الدنيا وفساد الدين ، تقتل المال بالتبذير ، وتهدم الحب بالعبث ، وتقضى على الدين بالفساد والهتك والفجور . . وتميت الجمال بالإسراف فى التبرج والتزين والانسياق مع الشهوات .

والحكمة من النكاح فى الإسلام أن يجد الزوج من الزوجة سكنا يطمئن إليه ، وسنداً يعتمد عليه . . ومتعة يتفس بها عن تعبه وإرهاقه .

يقول ﷺ : « خير النساء من تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك إذا أمرت » .

ويقول سبحانه مبيناً حكمة الزواج :

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ولا يتحقق فى الفتاة غير الشرعية شىء من ذلك . .

ومع ذلك فإذا عقد النكاح على مثل تلك الفتاة فهو واقع ، وعلى الزوج أن يجبرها جبرًا على اتباع الشرع ، وأن يأخذها بالشدة ، ويروضها ما استطاع على ذلك . . وإلا كان مقصراً فى حق نفسه ومقصراً فى حق ربه . . وكان زواجه وبالا عليه فى الدنيا والآخرة .

فى أركان الزواج

للزواج خمسة أركان عند الشافعية : زوج وزوجة وولى وشاهدان وصيغة تدل على التراضى والقبول .

ومن شروط النكاح أن يتمكن الشاهدان من رؤية العقد ، وأن تتوفر الشروط المطلوبة فى كلٍّ من هؤلاء .

فإذا لم يتمكن الزوج والزوجة والشاهدان من الحضور فى مجلس واحد وحاولا الاستعاضة عن ذلك بوسيلة من وسائل الاتصال كالتليفون المرئى مثلا ، وإذا اتسع مجال الرؤية فى هذا التليفون بحيث يمكن للجميع رؤية كل منهم الآخر ، ويتيسر سماع الأقوال وتبادل الآراء بين بعضهم وبعض ، كان النكاح جائزاً وواقعاً إذا عوضت الرؤية المتبادلة والأقوال المسموعة الواضحة ما يخشى من آثار بعد المكان من الافتراق وعدم التمييز .

أما إذا لم يتسع التليفون إلا لصورة فرد من الأفراد كزوج أو زوجة أو شاهد . . فإن أمكن التأكد من رؤية كل منهم للآخر وتعرفه على أقواله وأحواله بالتعاقب ، وتم النكاح على أساس من الإيجاب والقبول بين الزوج والزوجة أو وليها ، وتأكد الشاهدان كل على حدة من ذلك ،

واجتمع رأيهما عليه فإن ذلك فيما نرى جائز أيضًا .

وإذا لم يتيسر ذلك أيضًا فلا يجوز .

والمقصود من ذلك أن يتأكد أطراف النكاح كلٌّ منهم من الآخر ، وألا يحصل اختلاط أو إبهام ، وأن يقوم النكاح على أساس قوى متين .

فى حكمة الزواج

الأصل فى الزواج أن يكون بين الزوجين مودة ورحمة ، وتعاطف وتعاون ، ومعاشرة بالمعروف يقول الله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . فكان لزامًا على المرأة أن تطيع زوجها وتلتزم بأوامره ، وأن تكف عن كل مايغضبه ويؤذيه ، لأنه صاحب القوامة عليها ، وهو الذى يعفها عن الحرام ، ويسعى عليها وعلى أولادها ، ومخالفة أوامره وعدم إطاعته معصية لله سبحانه وتعالى لقول الرسول ﷺ : « لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقة عليها » .

فالمرأة التى تسىء إلى زوجها أو تشتمه هى امرأة سيئة الخلق ، عاصية لربها بعيدة عن تعاليم الدين ، ويحبط هذا العمل السيئ حسناتها - إن كان لها حسنات - وهى بهذا العمل سيئة العشرة ، ولزوجها الأجر الكبير والثواب العظيم على تحمل إساءتها وحسن معاشرتها .

فى الألفة والمحبة بين الزوجين

إن الشرع الشريف يعمل دائمًا على دوام الألفة والمحبة وخاصة بين الزوجين ولهذا أمر الرجل عند إرادة الزواج أن ينظر إلى الوجه والكفين ، لأنهما المنظر الظاهر لجمال المرأة غالبًا ، ولأن ذلك أدعى للاطمئنان .

وأمر أن يستأذن البكر عند الرغبة فى زواجها ، حتى تعرف رغبها ، وذلك كى لاتسوء العشرة فيما بعد ، كما يشاهد ذلك كثيرًا لعدم اتخاذ ترتيب الشرع الشريف طريقًا للزواج .

نعم للوالدين أن ينصحا البنت والولد ، لأنهما أعرف بالحياة وبالناس أكثر ، ولكن ليس لهما الإكراه على الزواج فذلك جريمة وجناية كبيرة على الأولاد فليست المرأة التى تعجب الوالد تعجب ولده ، لأن الأرواح جنود مجندة : « ماتعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » .

ولكن لو أكره والد ولده على الزواج من امرأة لا يحبها ، وحاول الولد تعليل نفسه ومعالجتها

فى أن يحبها فلم يحظ بذلك ، وجب على الولد أن يخبر والده بذلك ورحمة الوالد كفيلة بحل المشكلة ، إما بإزالة أسباب الكراهية ، والعمل على تلاشيها ، وإما بالتفريق عند اليأس .

فإذا استبد الوالد ، وجب على ابنه أن يجعل مجلسًا عرفيًا يحكم ويدرس ويخاطب الوالد ويقنعه بتبرير الفراق والطلاق .

مع ملاحظة أن الشرع لايتهم الوالد ، لأن المفروض فيه أنه أحرص الناس على مصلحة ابنه .

ولكن فرض ذلك وشكل مجلس من أجل الزوجين واستحالة العشرة الهادئة السعيدة فلا حل لذلك إلاّ بالفراق والطلاق ، ولاشيء على الولد .

قال تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا . .) (النساء ١٢٨) .

وقال تعالى : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) (النساء ٣٥) .

فى الإجبار على الزواج

الزواج عقد بين طرفين لابد فيه من رضا كل طرف وموافقته عليه ، ولايصح فيه الإجبار أو الإكراه ، ويلزم الوالد أو الولى أن يستأمر ابنته فى الزواج ويتعرف على رغبتها لقوله عليه السلام : « البكر تستأمر وإذنها صماتها والثيب تعرب عن نفسها » .

فمن تزوجت وهى مجبرة أو مكرهة من حقها شرعًا أن تعترض على هذا الزواج ، لما ورد من أن فتاة أتت إلى الرسول ﷺ وقالت له : « يارسول الله أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع خسيسته وأنا له كارهة . فقال عليه الصلاة والسلام اذهبى فانكحى نفسك من شئت . فقالت لارغبة لى عما صنع أبى ولكن أحببت أن أعلم النساء أنه ليس للآباء من أمورهن شيء » .

فى التغالى فى المهور

قال الرسول ﷺ : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » .

(والباءة) تكاليف الزوجة من مأكل ومسكن . . . إلخ . إذن لم يشترط الإسلام فى الراغب فى الزواج إلا القدرة على تكاليف الأسرة الجديدة ، حتى تعيش فى كرامة وعزة ، أى إنه لم يشترط الغنى أو الثراء العريض .

إن المهر أوجبه الإسلام لمصلحة المرأة نفسها ، وصونًا لكرامتها ، وعزة لنفسها ، فلا يصح أن يكون عائقًا عن الزواج أو مرهقًا للزوج .

وقد قال عليه الصلاة والسلام عن المهر لشخص أراد الزواج:« التمس ولو خاتمًا من حديد » .

فإذا كان خاتم الحديد يصلح مهرًا للزوجة فالمغالاة فى المهر ليست من سُنّة الإسلام .

والمهر الفادح عائق للزواج ، فهو عائق بذلك للغرض الأصلى من الزواج ، وهو عفة الفتى والفتاة ، محافظة على الطهر للفرد وللمجتمع .

ويقول ﷺ « أقلهن مهرًا أعظمهن بركة » .

والإسلام وإن لم يضع حدًا أعلى للمهر ، فإن السنة المطهرة دعت إلى تيسير المهر وتيسير الزواج والحض عليه – عند الاستطاعة – بكل وسيلة ممكنة ، وكان الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ يتزوجون ، ومهر الزوجة أن يعلمها آيات من القرآن الكريم .

يقول عليه السلام لرجل أراد الزواج:« تزوجها على مامعك من القرآن » فتعليم بعض آيات كان هو المهر .

فمن الواجب عدم المغالاة فى المهر ، وأن ييسر الأب لبناته الزواج بكل السبل إذا وجد الزوج الصالح حتى نحافظ على شبابنا وفتياتنا من الانحراف ، والحكمة كل الحكمة إنما هو فى النصيحة الشريفة التى قالها رسول الله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »

إن هذه النصيحة من جوامع كلمه ﷺ وهى من الدرر الغالية التى يجب أن تكون شعار كل أب فى موضوع الزواج .

ونحن خالفنا تعاليم الإسلام وتيسيره للزواج ، وحثه على التقلل من المهر وإباحة الزواج مع تأجيل المهر ، فصرنا إلى الفتنة والفساد الكبير ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

فى التوكيل فى الزواج

الزواج عقد من العقود التى يجوز التوكيل فيها بشرط أن يكون الوكيل من أهل العقود الذين تصح عبارتهم .

وعلى هذا يجوز للابن أن يوكل والده فى عقد زواجه ويضيف الأب العقد إلى ابنه ، لأنه

الأصيل فيه والوالد ماهو إلا سفير معبر عن رأى ابنه فقط ، ويكون قبوله الزواج لابنه وعقده له كعقد الابن سواء بسواء .

وهذا التوكيل يجوز سواء أكان الابن غائبًا أم كان حاضرًا ، وفى ذلك تيسير كبير لأمور الزواج فى حالة غيبة الموكل .

فى نكاح المحرمات

قال تعالى : (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلاّ ماقد سلف ، إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلا . حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حُجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ماقد سلف ، إنّ الله كان غفورًا رحيمًا . والمحصنات من النساء إلاّ ماملكت أيمانكم كتاب الله عليكم) . .

وروى الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « الرضاعة تحرم ماتحرم الولادة » .

قال القرطبى : فى الحديث دلالة على أن الرضاع ينشر الحرمة بين الرضيع والمرضعة وزوجها ، يعنى الذى وقع الرضاع بلبن ولده منها .

وروى البخارى عن جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن تجمع المرأة على عمتها أو خالتها – قال الشافعى : تحريم الجمع بين المذكورين هو قول من لقيته ممن لااختلاف بينهم فى ذلك .

وباستقراء هذه الأوامر الصريحة والتحديدات القاطعة فيما يتصل بتحديد المحارم لانجد امرأة العم أو الخال داخلة فيهن . فليس إحداهما من المحرمات بالقرآن أو السنة ، بشرط أن تكون خالية من الموانع كزواج أو عدة من زوج ، وزواج بأختها أو بنت أختها ، أو بنت أخيها ، ونحو ذلك .

فزوجة الخال داخلة فى قوله تعالى عند ذكر المحرمات من النساء : (وأحل لكم ما وراء ذلك) . . ولم يرد فى السنة ما يحرمها . .

فى الشروط الواجب توافرها فى المرأة التى يعقد عليها

يشترط فى المرأة التى يعقد عليها عقد الزواج أن تكون خالية من الموانع الشرعية ، ومن الموانع الشرعية أن تكون فى عدة زوج آخر ، أو حاملا ، فمن عقد على امرأة لا يعلم حقيقة أمرها ثم

اكتشف بعد ذلك أنها حامل فالعقد عليها باطل ويجب فسخه ، لأنها عند العقد لم تكن خالية من الموانع الشرعية ، والحمل شاهد على ذلك ، وهذا الحمل إن كان شرعيًّا ، أى إن كان الحمل من زوج كان قد تزوجها فإن العقد يقع فى أثناء العدة فيكون باطلا ، أما إن كان الحمل ليس شرعيًّا فإنه فضلا عن الحمل باعتباره مانعاً فإنها فعلت ما يتنافى وحياة الطهر والفضيلة ، ويقتضى فى أعراف المؤمنين الصادقين الانفصال دون تشهير أو محاولة لإثارة ضجة أو فضيحة ، وفى كلتا الحالتين يفسخ العقد .

فى الولاية فى الزواج

أصل الحديث قوله ﷺ : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فإن كان دخل بها فلها صداقها بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما . . والسلطان ولى من لا ولى له » .

رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة والحاكم عن عائشة ، ورواه الإمام الشافعى أيضاً فيما نقله الربيع .

والمراد بالسلطان هنا الحاكم أو من ينوب عنه ، وهو عند الشافعية فى المرتبة الأخيرة من مراتب الأولياء ، حيث يبدأ الأولياء فى النكاح على الترتيب الآتى :

الأب ثم أبوه ثم أبوه ثم أبوه ثم الأخ الشقيق ، ثم الأخ لأب ، ثم ابن الأخ الشقيق ، ثم ابن الأخ لأب ، ثم العم الشقيق ، ثم العم لأب ، ثم ابن العم الشقيق ، ثم ابن العم لأب ، ثم تنتقل الولاية إلى الحاكم عند فقد الأولياء من النسب .

وهذا الترتيب عند الشافعية بين الأولياء شرط لابد منه ، ولا تنتقل الولاية من الولى الأقرب إلى الولى الأبعد إلا فى أحوال يمكن إجمالها فى عدم توفر شروط الولاية فيه لصغر أو جنون أو فسق أو سفه ونحو ذلك .

وينتقل حق مباشرة الزواج للسلطان بالولاية العامة فى أمور منها :

الإحرام بالنسك ، فإذا كان الولى محرماً امتنع من مباشرة العقد ، وانتقلت الولاية للسلطان دون غيره من ولى أبعد . .

ومنها أن يغيب الولى الأقرب مسافة قصر ولم يوكل عنه وكيلا .

ومنها أن يكون الولى محبوساً حبساً يمنع من مباشرة العقد .

ويعتبر السلطان عند الشافعية وليًّا غير مجبر ، يختص بتزويج الكبيرة العاقلة البالغة بإذنها ورضاها ، فإن كانت بكراً بالغاً فرضاها يعرف بسكوتها عند الاستئذان ما لم تقم قرينة على عدم رضاها كصياح ونحوه ، وهذا بالنسبة لرأيها فى الزوج .

أما فى المهر فلابد من رضاها صريحاً إذا كان دون مهر المثل – وقال بعض الشافعية لابد فى الرضا عن الزوج من تصريح البكر ولا يكفى سكوتها بالنسبة للولى غير المجبر .

ولا يجوز له أن يزوج الصغيرة العاقلة بحال . . فإن كانت يتيمة لا أب لها صح له تزويجها بشرطين : أن تبلغ – وأن تحتاج إلى النفقة والخدمة ، بحيث لا تندفع حاجتها بغير الزواج .

والسفير نائب عن الحاكم الذى يتبعه ، ويصح له أن يزوج المرأة الموجودة تحت ولاية بلد إسلامى آخر إذا لم يكن أبوها أو أحد من أوليائها المجبرين موجوداً معها .

فى العقد الشرعى

العقد الشرعى الذى يكتب عن طريق المأذون أو الذى يسجل فى المحكمة على الطريقة المعروفة فى أغلب البلاد الإسلامية عملية توثيق . . المقصود بها إثبات الزواج كتابة ، والرجوع إلى هذه الكتابة عند النزاع . .

وليس هذا التوثيق من شرط العقد . . أو من شروط صحة الزواج .

ولم يكن هذا التوثيق قائماً فى عهود الإسلام الأولى – وكان العقد القائم على الإيجاب والقبول هو الصورة الوحيدة من صور الزواج .

ولكن المشاكل والاختلافات ، والنزاع والشقاق ، والتنصل من مسئوليات النكاح وما إلى ذلك دفع الحكومات إلى اشتراط توثيق العقد ، وإلا صار الزواج غير معترف به رسميًّا من المحاكم أو الحكومة . .

ومن هنا وجب مراعاة هذا التسجيل للرجوع إليه عند الاختلاف .

فإذا كانت حكومتهم تشترط فى الاعتراف بالنكاح توثيقه بعقد شرعى مكتوب من المحكمة فإن الزواج بدون هذا العقد لا يعتبر رسميًّا ، وإن كان من ناحية الشرع – ما دام قد استوفى الشروط – مقبولا .

وإذا لم تشترط حكومتهم ذلك صح الزواج ولا شىء فيه ، وليس من شك فى أن الإسلام يعتبر كل ما يحفظ الأعراض ويدعم الحقوق مطلباً من مطالبه ، ومقصداً من مقاصده التى راعى

بها إصلاح نظام الحياة . ومن أجل ذلك ننصح بتسجيل العقد وإعلان الزواج والشهادة بصورة لا يتأتى فيها الإنكار أو التنصل من المسئولية .

هل الزواج العرفى يوجب ما يوجبه الزواج الرسمى ؟

إننا لا نحبذ الزواج العرفى ، فإن فى الزواج الرسمى ما يغنى ، وأبواب الزواج الرسمى مفتحة ، فلا حاجة إذن للزواج العرفى ، وعلى كل حال إذا استكمل الزواج العرفى شروط الزواج فى الإسلام فإنه يوجب شرعاً ما يوجبه الزواج العادى من نفقة والتزام بمقتضيات الزوجية ، وإذا ما حصل الانفصال فإنه يوجب العدة والنفقة بحسب القواعد المتبعة .

وهذه الشروط :

الشهود : وهذا الشرط أعلنه ابن عباس رضى الله عنه ، ولا مخالف له من الصحابة كما يقول صاحب كتاب بداية المجتهد .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بإعلان الزواج فيما رواه أبو داود ، بل إن رسول الله ﷺ كان يوصى بالوليمة فى الزواج . .

وأقل درجات الإعلان الإشهاد ، ولا يقل الشهود عن رجلين أو رجل وامرأتين ، فإن كان الشهود رجلا وامرأة فقط أو امرأتين فقط فإن النكاح يكون فاسداً . .

فعن ابن الزبير المكى قال : إن عمر بن الخطاب أتى بنكاح لم يشهد عليه إلا رجل وامرأة ، فقال : هذا نكاح السر ولا أجيزه . .

وهناك شروط أخرى غير الشهود وهى :

الصداق : (أى المهر) .

لقد قال تعالى : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) وقوله تعالى : (فآتوهن أجورهن) .

وقال ابن يزيد : النحلة فى كلام العرب الواجب ، يقول :

لا تنكحها إلا بشىء واجب لها ، وليس ينبغى لأحد بعد النبى ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب ، ولا ينبغى أن يكون تسميته الصداق كذباً بغير حق ، ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً ، وأن يكون طيب النفس بذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيباً ، فإن طابت نفسها به بعد تسميته أو عن شىء منه فليأكل حلالا طيباً وذلك لقول الله تعالى :

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) . فإذا توفر فى الزواج العرفى الشهود والصداق فإنه يكون زواجاً شرعيًا يلزم الزوج بكل ما أمر به الشرع وإن لم يسجل عند المأذون .

أما إذا لم يتوفر فيه ذلك فإنه لا يكون زواجاً شرعيًا .

فى السن الشرعى للزواج

لم يشترط الإسلام للزواج سنًّا معينة ، ولقد ترك تحديد السن إلى التقاليد المستقيمة ، والعرف السليم ، دون أن يبطل العقد فى أى سن كان ، ودون أن يحرمه فى أية مرحلة من مراحل العمر .

ولكن الإسلام مع ذلك حرم الضرر الذى يلحقه شخص بآخر متعمداً .

والقاعدة الإسلامية العامة الشاملة هى : لا ضرر ولا ضرار .

وبحسب هذه القاعدة يحرم تزويج البنت الصغيرة فى السن إذا ألحق ذلك بها ضرراً دون أن يبطل ذلك العقد ، ويصح تزويج البنت التى لم تبلغ الخامسة عشرة ، من الناحية الشرعية سواء أكان والدها حيًّا أم ميتاً .

بيد أن العرف السليم ، والأوضاع المستقيمة ، التى لا يأباها الشرع ، ترى أن حكمة الزواج تتمثل فى أمور منها :

١ – عفة النفس وصونها عن الإثم بالنسبة للفتى والفتاة .

٢ – قيام الزوجة على تدبير شئون المنزل الداخلية .

٣ – ومنها إنجاب الذرية والقيام على تربيتها تربية تجعل منها لبنات صالحة فى بناء المجتمع .

وكل ذلك بل بعض ذلك لا يتأتى أبداً حينما تكون الفتاة فى سن صغيرة .

وقد حددت المجتمعات الناهضة سن الزواج بست عشرة سنة وهى سن مناسبة .

فى الكفاءة فى الزواج

يجب فى الإسلام على والد البنت أو ولى أمرها أن يتخير لها الزوج الصالح الكفء ، وهذه الكفاءة مردها إلى الدين والصلاح والتقوى ، فقد ألغى الإسلام الفروق بين الناس فى الجنس ، وجعل مرد القرب من الله إلى التقوى ، فقال سبحانه : (يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقد روى أبو داود عن الزهرى فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أمر بنى بياضة أن

يزوجوا أبا هند امرأة منهم . فقالوا لرسول الله ﷺ : أنزوج بناتنا مواليا ؟ يرون أن ذلك غير مستساغ فنزلت الآية الكريمة تبين أن درجة القرب من الله إنما هى بالتقوى . وقد قال الله سبحانه (أتقاكم) ولم يقل أكثركم مالا . ولا جاهاً . ولاأحسنكم صورة . ولا غير ذلك من الأمور التى تفنى وتزول . ويقول صلوات الله عليه وسلامه : « لا فضل لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى »

من كل ذلك نعلم أن مرد الكفاءة إلى التقوى . وأنه إذا تقدم الكفء لخطبة فتاة فليس لولى الأمر — بحسب الإسلام — أن يرده .

فى العصمة فى يد المرأة

إذا اشترطت المرأة فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها فلها ذلك ، ولكن ذلك لا ينفى أن يكون للرجل حق الانفصال عنها بالطلاق ، وإنما يكون هناك مساواة بينهما فى وقوع الانفصال ، إذا أحب .

فى نكاح المرأة وهى فى العدة من رجل آخر

لا يجوز نكاح المرأة وهى فى العدة من رجل آخر . . وعدة الحامل حتى تضع حملها . قال تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

ولا يصح النكاح إذا وقع فى العدة . .

وعلى ذلك فعقد الزواج الذى يدخل به الرجل على هذه المرأة الحامل غير مستوف لشروطه . وهو عقد غير صحيح .

فقال مالك والأوزاعى والليث : يفرق بينهما ولا تحل له أبداً .

قال أبو حنيفة والشافعى والثورى فيمن دخل على امرأة فى عدتها كما هو الأمر هنا : « يفرق بينهما ، وإذا انقضت العدة فلا بأس فى تزويجه إياها مرة أخرى . . وعلى كل فلها الصداق بما استحل منها . . » .

ولكن لمن ينسب الولد

الراجح عدم تأثير مائه فى نسب الولد — وانتساب الولد إلى والده الأصلى .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه المرأة آثمة بهذا الزواج ، على الزوج مفارقتها حتى تنقضى العدة — فإذا انقضت العدة تقدم إليها بمهر جديد وعقد جديد ، وعلى القول بأنها تحل له ولا تحرم

عليه بهذا النكاح ، وهو ما نرجحه ، ولا تأثير لهذا الزواج الباطل فى نسب الولد إلى أبيه الأصلى . .

فى آداب الزواج

يقول الله تعالى فى موضع الامتنان والتفضل ، وفى موضع إظهار آياته وحكمته السارية فى الكون : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وما من ريب فى أن الزواج من سنن الإسلام ، ولقد كان الصحابة رضى الله عنهم يعرضون بناتهم وقريباتهم على الصالحين الأكفاء دون مغالاة فى مهر أو تكلف أيًّا كان ، وهذا هو طريق الرشاد . أما وقوف الأب أو ولى الأمر عقبة فى سبيل زواج ابنته أو إحدى قريباته ، وامتناعه عن إتمام ذلك عند وجود الكفء ، فإنه حرام ، ومن فعل ذلك كان آثماً من الوجهة الدينية ، وكان آثماً من الوجهة الخلقية ، ذلك أن الزواج أغض للبصر ، وأصون للعرض ، وهو قانون الفطرة ، فإذا منع الوالد ابنته من الزواج تعسفاً فنى إمكان الإخوة التحايل على أن يتم الزواج دون حاجة إلى موافقة الأب ، ويكفى أن توكل الأخت أخاها أمام اثنين من الشهود فى تزويجها .

أما خضوع الرجل لزوجته خضوعاً يخالف فيه آداب الدين والإنسانية فإنه ليس من الدين ، وليس من الرجولة . .

فى احترام أهل الزوج

يطالب الإسلام الزوجات باحترام أهل أزواجهن ، ومعاملتهم بالحسنى .

وتختلف أساليب المعاملة بأخلاق البيئات . . فإذا كان مثل هذا النداء فيه استهانة بأهل الزوج ، أو تحقير لهم فهو حرام وإساءة أدب ، وقد قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) .

وفى الحديث الصحيح : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

ويتأكد هذا الحق بتلك الصلة الوثيقة صلة المصاهرة .

وإن كان مثل هذا النداء على وجه التخفف والتلطف ورفع الكلفة فلا شيء فيه مع من هم فى سنهن أو فى مرتبتهن أما مع الكبار فلابد أن يكون مسبوقاً بما يشعر بالاحترام .

وقد جعل الإسلام زوجة الابن كالابنة فى تحريم نكاحها ، وجعلها بالنسبة إلى الأب كالمحرمات من النسب ، قال تعالى فى ذكر المحرمات من النساء :

(وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم).

على مثل هؤلاء الزوجات أن يراعين آداب الإسلام العالية ، وإرشاداته السامية ، رفعاً لمستوى الأخلاق ، وتحسيناً لمظهر الأسرة .

فى طاعة المرأة لزوجها

طاعة المرأة لزوجها واجبة ، وامتثالها لأمره حث عليه الإسلام ورغب فيه ، ولا تملك أن تحرم زوجها على نفسها ، فإن العصمة بيده هو الذى يملك مفارقتها أو تحريمها على نفسه .

فإذا حرمت المرأة زوجها على نفسها فمعنى ذلك أنها أرادت هجرانه والابتعاد عنه وهو معصية .

وتحريم الحلال كما يقول الفقهاء يمين : فكأنها فى هذه الحالة قد حلفت أن لا تكلمه أو تعاشره . وهذا معصية لله .

والرسول ﷺ يقول : « من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » .

فوجب على هذه الزوجة أن تحنث فى هذا اليمين وترجع إلى مكالمة زوجها واستماع كلامه وامتثال طاعته ، ووجب عليها كذلك كفارة اليمين ، وهى كما ورد فى القرآن : (إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفّارة أيمانكم إذا حلفتم) .

فى حكم تعدد الزوجات

حكم تعدد الزوجات « فى الإسلام » جائز بشرط أن يعدل بينهن فى الطعام والشراب والمبيت وما إلى ذلك – وأن يستطيع القيام بحقوق الزوجات .

قال تعالى : (وإن خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث

ورباع ، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة) .

أى أن تعدد الزوجات جائز فيكون للرجل زوجة أو زوجتان أو ثلاث أو أربع نسوة ، ولا تصح الزيادة على ذلك . وقد فرق الرسول ﷺ بين الرجل وزوجاته الأكثر من أربع عند إسلامه .

وكان الكثيرون من السلف الصالح يجمع أحدهم عن طريق الزواج بين اثنين أو ثلاث أو أربع .

وفى مصر قليل ممن يجمعون بين زوجتين ، ومن النادر جداً أن نجد فى مصر من يجمع بين ثلاث زوجات ولا نكاد نجد من هو متزوج بأربع .

وعلى كل حال فإن الحكم الشرعى لا يتوقف على عمل المسلمين به .

ويجب أن يكون مستقراً فى الأذهان أن تعدد الزوجات جائز بشروطه المعروفة وأنه ليس بواجب . .

فى وجوب العدل بين الزوجات

العدل بين الزوجات واجب لقوله تعالى :

(فإن خفتم ألاّ تَعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) .

ولما ثبت من أنه ﷺ كان إذا أراد السفر أقرع بينهن . وهذا العدل مقيد بحضورهما عنده .

فإذا كانت إحداهما فى مستشفى فلا بأس من الإقامة عند الأخرى ، فقد كان الرسول ﷺ يأخذ إحدى زوجاته فى السفر ويترك الأخريات ، ولم يكن يدع المكوث عندها فى حصة الأخريات ، فالعدل بينهما مقيد بما إذا لم تمنع منه موانع غير مقصودة .

ولو استأذن الزوج زوجته المريضة فى ذلك لكان جبراً لخاطرها وأرضى لربه ، ومع ذلك فله أن يبيت عند الأخرى دون أن يستأذن المريضة .

فى حكم رجل متزوج من زوجتين ويفرق بينهما فى المعاملة

العدل فى الإسلام له مكانة كبيرة ، والمقسطون – العادلون – على منابر من نور يوم القيامة ، وقد مقت الله الظلم وحرمه على عباده ، يقول سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « ياعبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

وحكم الرجل المتزوج من زوجتين ويفرق بينهما فى المعاملة أنه سيلقى جزاءه من الله تعالى معجلا أو مؤجلا ، يقول رسول الله ﷺ ما معناه : « من تزوج من اثنتين ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وإحدى شقيه ساقط ».

والعدل بين الزوجات إنما يكون فى النفقة اليومية التى تتصل بالمأكل والمشرب ، وتتصل بالملابس والفراش ، ويكون فى السكن ، ويكون فى البيت ، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى كل ذلك ، وأوجب على كل من لم يستطع العدل فى هذه الأمور أن يكتفى بواحدة ، فقال تعالى : (وإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة) .

أما القلب فإن الإنسان لا يستطيع السيطرة عليه فيما يتعلق بحبه وكرهه ، لأن الإنسان لا يملك ذلك ، ومن أجل ذلك لا يدخل الحب القلبى فيما يتعلق بالعدالة بين الزوجات ، ومع ذلك فيمكن الإنسان أن يدارى ، وأن يجامل ، وأن لا يظهر بغضاً لطرف وحبًّا سافراً لطرف آخر .

فى الزواج من الأمة

يقول الله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) .

يؤخذ من هذه الآية أنه يجوز التزوج بالأمة – ولكن هذا الجواز أو هذه الإباحة من الشرع مشروطة بشروط ، وقد بين القرآن بعض هذه الشروط فقال سبحانه : فى سورة النساء فى الآية رقم ٢٥ : (ومن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) . والطَّوْل هو القدرة على تزوج الحرة ، والآية تنص صراحة على أن إباحة الزواج بالأمة إنما تكون عند العجز عجزاً تامًّا عن الزواج بالحرة .

وقد تبين أئمتنا الفقهاء رضى الله عنهم أن الزواج بالأمة مشروط بشرطين :

الشرط الأول : العجز عن الزواج بحرة .

الشرط الثانى : أن يخشى الرجل على نفسه الوقوع فى الزنى .

ومن هذا نتبين رأى الإسلام فى هذا الموضوع . .

فى من يريد طلاق زوجته لمرضه

ليس مرض الزوج من الأسباب التى توجب عليه أن يطلق زوجته . . وقد تجد زوجة المريض التى أنجبت منه أولاداً شيئاً من راحة الضمير ، ومن الشعور بلذة التضحية . .

– وللتضحية لذة – حينما توطن النفس على تخصيص حياتها لرعاية أولادها والعطف على زوجها الذى لم يُسئ إليها صحيحاً سليماً ، والذى سيعرف لها جميل عنايتها وهو مريض .

وأمر الطلاق إذن فى هذه الحالة ليس مرده إلى واجب دينى ، وإنما مرده إلى رغبة الزوجة نفسها وإلى ضمير الزوج بالنسبة لها . .

فإذا رغبت الزوجة فى استمرار الحياة فليحمد الزوجُ الله ويحمد زوجته على موقفها الكريم ، أما إذا رغبت فى الطلاق فليسرحها سراحاً جميلاً معتذراً عنها فى نفسه ، راضياً بقضاء الله ، صابراً عليه ، محتسباً له . .

والله لا يضيع أجر الصابرين ، وأن الله مع الصابرين . .

هل يجوز الزواج ممن لا دين لها ؟

يقول الله تعالى : (ولا تَنكِحوا المشركات حتى يؤمنَّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تُنْكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .

وقد حرم الله نكاح المشركات لبطلان عقيدتهن بطلاناً تامًّا فيؤثر على الذرية ، إذ تخرج مشركة متأثرة بالأم ، وكذلك الحكم فى المرأة التى لا دين لها ، فإن الأبناء منها ينشئون متأثرين بها فينشئون غير متدينين .

أما الكتابيات فإن الإسلام يبيح الزواج منهن ، يقول الله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم ، وطعامكم حِلٌّ لهم ، والمحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن مُحصِنين غير مسافحين ولا مُتخذى أخدان) .

والجو الإسلامى كله يدل على أن زواج المسلم لا يجوز إلاّ من مسلمة ، وهذا هو الأولى ، ويصح عند الضرورة أن يكون من كتابية ، أما المشركة والتى لا دين لها فلا يجوز الزواج منها .

فى جواز تزوج المسلم ممن كان يعاشرها معاشرة الأزواج

يجوز للمُسلم أن يتزوج ممن كان يعاشرها معاشرة الأزواج سواء كان له منها ولد أو لم يكن ، وذلك هو الغالب على أولئك الذين تزل أقدامهم ويقعون بتلك الفاحشة قال تعالى : (الزانى لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك) .

وقيل المراد بالآية السالفة أن الزانى لا يأتى هذه الفاحشة إلاّ مع زانية أو مشركة ، والزانية لا تأتيها إلاّ مع زان أو مشرك ، وهذه الفاحشة حرام على المؤمنين رجالا ونساءً ، ومفهوم هذا التنفير من تلك الفاحشة وبيان أنها ليست سبيلا للمؤمنين ، بل لا ينبغى أن تخطر ببال المسلم ، قوله تعالى : (ولا تقربوا الزّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

ويفهم من هذا أن إتيان الزانى الزانية بطريق العقد والشرع عليها صحيح إذا استوفى شروط صحة العقد من خلو الرحم من ماء لغيره قد يتكون منه مولود ربما نسب إليه ، وليس فى الحقيقة له .

إذن يجوز للرجل الذى عاشر امرأة معاشرة حراماً مدة طويلة أن يعقد على تلك المرأة وأن يتزوجها من غير أن تعتد منه لأن ماء الزنى لا حرمة له ، غاية ما فى الأمر أنه يسن له أن لا يعقد عليها حتى تنقضى مدة ، ليتبين فيها له إن كانت حاملة منه بطريق الزنى ليتميز بذلك ولده الشرعى منها الذى يصح نسبته إليه ويرثه بعد وفاته من الولد الذى أتى بطريق السفاح ولا تصح نسبته إليه ولا يرث .

فى تحديد النسل وعلاقته بالزواج

إذا كانت المرأة تعانى آلاماً عند الوضع لا تطيقها وتتضرر منها وتخاف على نفسها من الهلاك وذلك بتقرير طبيب مسلم حاذق فلها أن تحدد نسلها لهذا السبب ، لأن المحافظة على حياتها وعلى صحتها أولى من النسل وأحق لأنها حياة متحققة ولها منافعها ، فلا تتعرض للأخطار فى سبيل حمل قد ينزل حيًّا أو ميتاً .

ولا شىء فى ذلك عليها من ناحية الشرع ، والإسلام يبيح لها ذلك .

فى ثمرة الزواج

إن ثمرة الزواج الأصلية هى النسل والإنجاب وهو الذى امتن الله سبحانه وتعالى به على عباده فى قوله :

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات) .

ومن حق الزوج على زوجته أن تحقق له نعمة البنوة ليسعد بأن يكون أبًا ويرى امتداد حياته وذكراه فى ابنه .

ومن حق الزوجة لذلك أن تشعر بنعمة الأمومة التى تدعوها إليها فطرتها وطبيعتها .

هذا إذا كان فى الزوجين صلاحية الإنجاب .

أما إذا كانت الزوجة لا تنجب فلزوجها أن يتزوج بأخرى طلباً للذرية والنسل مع وجوب إحسان معاشرة زوجته الأولى وأداء حقها كاملا ، إلا إذا رغبت هى فى الطلاق ورضى أن يطلقها فلها ذلك برضاهما .

فى حكم المسلم الذى يضرب زوجته

يقول الله تعالى : (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إنّ الله كان علياً كبيراً) .

وهذه الآية تبين مدى حرص الإسلام على بقاء الصلة الزوجية ، وأن لا يكون الانفصال نتيجة لخلاف ولو كان يسيراً .

لقد بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية القواعد التى تتبع ، وذلك أنه إذا نشزت المرأة أى عصت وساءت عشرتها وترفعت عن الطاعة ، يقال فى اللغة « نشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها : استعصت عليه ، وارتفعت عليه ، وأبغضته ، وخرجت عن طاعته » .

إذا فعلت ذلك فإنه سبحانه وتعالى يبين أن العلاج لذلك ليس هو الطلاق ، وإنما هو فى درجته الأولى النصيحة والوعظ ، يقول سبحانه : (فعظوهن) أى بينوا لهن سوء أفعالهن ، والنتيجة السيئة التى تترتب على ذلك ، وأن ذلك خلاف القواعد المرغبة فى الدين الذى أوجب

حق الزوج على الزوجة ، وحرم عليها معصيته ، فإن استمرت الزوجة فى عصيانها وإساءتها لزوجها فإن المرحلة الثانية فى العلاج هى هجرها فى المضجع .

يقول الله تعالى : (واهجروهن فى المضاجع) .

أى فى النوم والصلة الجنسية ، والكلام أيضاً ، فإذا لم يفد ذلك بعد تأتى المرحلة الثالثة قبل الانفصال وهو أن يضربها ضرباً غير شديد ولا شاق ، ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ قال : يارسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طَعِمْتَ ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت .

كل هذا من أجل عدم الانفصال فى الزوجية ، وكل ذلك علاج لسوء العشرة بين الزوجين ، ومع ذلك فإن الإسلام يوصى دائماً بالنساء ، وفى حجة الوداع يقول رسول الله ﷺ : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه » ويختم الله سبحانه وتعالى بقوله : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً) .

وعلى هذا فإن الضرب الخفيف يأتى بعد استنفاد مراحل العلاج الأخرى ، وكل ذلك حرصاً على دوام العلاقة الزوجية ، وليس على الزوج من إثم إذا التزم قواعد الدين فى ذلك ، أما الزوجة التى لا تلقى إلا الظلم من زوجها والإهانة والضرب ظلماً وعدواناً فلها أن تطلب الطلاق من زوجها والانفصال عنه ، وزوجها يكون مخالفاً لرسول الله ﷺ الذى قال : « استوصوا بالنساء خيراً » .

فى الواجب على الزوج بالنسبة لزوجته

إن الواجب على الزوج الذى ينشد السعادة الزوجية ، ويفوز برضا الله تعالى يوم القيامة أن يحسن إلى زوجته ، ويعطيها حقها كاملا غير منقوص من نفقة ومئونة وكسوة ، عن طيب نفس ، ولينٍ من القول . وهو مسئول عن ذلك وآثم فى تقصيره .

ففى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه والنسائى عن أنس مرفوعاً قال رسول الله ﷺ : إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته .

وإن من واجب الزوج أيضاً أن يقوم بتعليم زوجته ، قال أهل العلم :

« ومتى كان الرجل قائماً بتعليم ما يجب لزوجته ، امتنع عليها الخروج لسؤال العلماء ، وكذا إن ناب عنها فى السؤال وعرفها الجواب ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل واجب عليها

ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها ، ومهما أهملت المرأة حكماً من الأحكام الواجبة ، ولم يعلمها الرجل إياه شاركها فى الإثم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

(يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً) .

فالزوج مكلف بتعليم زوجته جميع ذلك .

. فى الفرق بين زواج المتعة والزواج الشرعى غير الموثق

الفرق بين زواج المتعة والزواج الشرعى هو أن زواج المتعة موقوت بأجل ، والزواج الشرعى زواج نهائى غير مؤقت بوقت ، وقد أحل الله تبارك وتعالى الزواج الشرعى لأنه الزواج الذى كان منذ كان رسول الله ﷺ ولم يزل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وليست شرعيته بمانعة من ترتب آثاره عليه ما استوفى شروط الزواج الموثق من وجود ولى الأمر وشاهدى العدل ، أما زواج المتعة فإنه زواج مؤقت بوقت ، وقد كان حلالا فى بدء الإسلام ثم حرمه الله تبارك وتعالى على لسان رسول الله ﷺ زمن خيبر . ثم أحله فى غزوة الفتح ثم حرمه بعد ذلك واستمر التحريم إلى أن توفى رسول الله ﷺ ، وقول الله تبارك وتعالى :

(والذين هم لفروجهم حافظون ، إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) .

يدل على حل الزواج الشرعى وحرمة نكاح المتعة .

فى زوج سافر وترك زوجته لمدة سنتين وبعد عودته وجد أن قاضياً قد حكم بطلاق الزوجة ، فهل يصح مثل هذا الحكم ؟

الزواج عقد يقصد منه سكن كل من الزوجين إلى الآخر وتمتعه وإيناسه به ، فإذا غاب الزوج عن زوجته مدة لا تحتملها عادة فخشية وقوع الفتنة للزوجة من أجل هذا الغياب أجازت بعض المذاهب طلب التفريق للضرر ، ويقوم بهذا التفريق القاضى رفعاً للضرر عن الزوجة .

والغياب المجيز للتفريق هو الذى يكون بغير عذر مقبول ، أما إذا كان بعذر مقبول فلا تفريق ، لأنه لا يقصد بذلك الأذى .

وهذا هو مذهب مالك وأحمد ، لأن المرأة قد تقع فى جريمة دينية بإهمالها وتركها تعيش من غير عشير يؤنسها « ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » .

وقد جعل الإمام أحمد أدنى مدة يجوز أن تطلب التفريق بعدها ستة أشهر ، لأن عمر رضى الله عنه كان لا يجعل الجند يغيبون عن أزواجهم أكثر من ستة أشهر .

ومذهب مالك قدر فى رأى له سنة وبهذا أخذ القانون .

مادة ١٢ : إذا غاب الزوج سنة فأكثر بلا عذر مقبول جاز لزوجته أن تطلب إلى القاضى تطليقها بائناً إذا تضررت من بُعده عنها ، ولو كان له مال تستطيع الإنفاق منه .

والحالة التى فى السؤال : أن الزوج غاب سنتين فتطليق القاضى عليه زوجته صحيح ، ولا اعتراض عليه .

فى الدخول الخاطئ

هذا الدخول الخاطئ لجهل كل من العريس والعروس بصاحبه – يعتبر كل منهما معذوراً فيما ينتج عنه من الجماع . . . إذا ظن كل واحد منهما أنه مع من تزوج .

وعلى ذلك فإذا ما تبين الخطأ . . . توقف كل من الزوجين عن مقاربة من دخل عليها خطأ حتى تستبرئ أى تمر فترة العدة . . وهى ثلاثة قُروء .

فإن لم يظهر حمل حلت كل منهما من هذا الوطء وأصبحت بالخيار . إما أن تعود إلى صاحب العقد . . . وإما أن تستمر مع من دخلت عليه ولها صداق المثل ، ويعوض صاحب العقد الأصلى عما بذل من صداق .

وإن ظهر حمل . . استمرت العدة إلى حين الولادة ، وينتسب الولد إلى أبيه الذى دخل على أمه . . . وبعد الولادة : لها الخيار فى أن تستمر مع أبى الولد ولها صداق المثل – أو تعود إلى زوجها الذى عقد عليها .

هذا ومن الواجب على كل مسلم أن يتثبت ممن يريد مباشرتها ويتحقق من أنها زوجته ، وذلك الواجب أيضاً على كل مسلمة فعليها أن تتثبت ممن يحاول الاتصال بها ، ومثل هذه المسألة فى كتب الفقه افتراض بعيد عن واقع الحياة افترضه العلماء سعياً لحصر المسائل الممكنة الحدوث كما يتصورها عقل الإنسان وموقف الدين منها .

فى هل تعتد الزوجة بعد وفاة زوجها مباشرة ، أم تبدأ العدة من يوم الجمعة ؟

عدة الزوجة المتوفى عنها زوجها تبدأ من حين الوفاة مباشرة لقول الله تعالى :

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً . . فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) .

وعلى هذا جرى العمل منذ نزلت الآية الكريمة إلى وقتنا هذا . .

وهذه العدة التى أشارت إليها الآية الكريمة هى :

« للتى لم تكن حاملا حال وفاة زوجها » .

أما مَن كانت حاملا فعدتها بوضع الحمل لقول الله تبارك وتعالى :

(وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

والقول بأن العدة تبدأ من يوم الجمعة لا أصل له .

فى عدة الوفاة

يقول الله سبحانه وتعالى :

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير) .

فالزوجة التى يتوفى عنها زوجها تعتد عدة الوفاة وهى أربعة أشهر وعشراً بمقتضى هذه الآية ، ولا فرق فى ذلك بين المدخول بها وغير المدخول بها لعموم الآية ، وكذلك لها الحق فى الميراث من زوجها المتوفى .

روى الإمام أحمد أن ابن مسعود سُئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال أقول فيها برأيى فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .

لها الصداق كاملا ، وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : « سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واثق » ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً .

فى الزوجات الصالحات فى الدنيا يكن مع أزواجهن فى الجنة

إذا مات الرجل على الإسلام وكانت زوجته مسلمة ودخلا الجنة فإن زوجته تكون له فى الجنة ، وإن تعددت الزوجات فهن زوجاته أيضاً لا فرق بين الأولى وغيرها ، وستنزع الغيرة منهن فى الجنة ، لأن الجنة دار صفاء لا كدر فيها كما قال تعالى :

(ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمُخْرَجين) .

وإذا كانت المرأة قد تزوجت برجلين فإنها تكون زوجة لمن ماتت وهى على ذمته ، فهو زوجها الأخير الذى سيكون زوجاً لها فى الآخرة . وذلك أنها ماتت وهى فى عصمته ، فهى زوجته عند موتها ، ولو كان هو الذى مات قبلها فإنها ترثه وتستمر منتسبة إليه مادامت لم تتزوج غيره .

فى الحامل تنتهى عدتها بالوضع ، فهل يكون الأمر كذلك إذا وضعت بعد وفاة زوجها بيومين أو ثلاثة أيام . . وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز لها أن تتزوج رجلا آخر ؟

يقول الله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير) .

ويؤخذ من الآية أن التى يتوفى عنها زوجها تعتد بأربعة أشهر وعشر ليال وهذا حكم عام فى جميع الزوجات إلا الزوجة التى توفى عنها زوجها وهى حامل ، فإن عدتها بوضع الحمل ، لعموم قوله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ولو لم تمكث سوى لحظة ، وبهذا تكون قد انقضت عدتها وحل لها أن تتزوج رجلا آخر بعد أن تطهر من نفاسها .

أخرج الصحيحان أن سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته بليال فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها :

ما لى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر .

قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى .

فى الحكمة من عدة المتوفى عنها زوجها

الحكمة فى أن الله عز وجل جعل عدة الحرة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، إنها المدة التى تزول فى نهايتها عادة آلام فراق الزوج ، فجعلت عدة للحرة تلبس فيها ثياب الحداد التى تناسب ما يتنابها من آلام لموت زوجها الذى عاشرته بالزواج فكان سكناً لها ، وكانت سكناً له ، وقد ربط الله بينهما برباط المودة والرحمة ، حتى إذا ما انتهت هذه الآلام بانتهاء تلك المدة ، أصبحت تصلح لأن تكون زوجة لزوج آخر ، لا تنغص عيشته ، بما كان يتنابها من آلام وفاة الزوج الأول .

وليس المراد براءة الرحم بعدة الوفاة ، وإنما المراد الحداد ، لأن براءة الرحم علمت قبل ذلك بعدة المطلقة ثلاثة قروء إن كانت من ذوات الحيض ، وثلاثة أشهر إذا كانت لا تحيض .

وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل طالت المدة أو قصرت ، فإن فرحها بمولودها يخفف عنها من آلام وفاة زوجها ، وإذا خفت الآلام وعلم بالولادة براءة رحمها إن قصرت مدة الحمل – فإنها وهذه حالتها تصلح للزواج مرة أخرى .

أما طول مدة الحمل ولو زادت عن أربعة أشهر وعشراً فذلك لأن بها من زوجها ما يمنعها من أن تكون فراشاً لغيره ، وما دامت هذه حالتها ، فإنها تظل فى عدة وفاة زوجها الأول إلى وضع حملها .

هل يجوز لرجل طلق زوجته أن يتزوج أختها ؟

لقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بالزواج ، فرسم له طرقاً مشروعة ، وحدد له حدوداً لا يجوز لإنسان أن يتجاوز حماها ، ولا أن يضل طريقها نحوه .

من هذه الطرق ، وتلكم الحدود أن الإسلام حرم على الإنسان الجمع بين الأختين فى مسألة الزواج فى عقد واحد وحالة واحدة ، وجعل الجمع بينهما من الأمور التى حرمها الشارع الحكيم ، بحيث لا يصح لمسلم مهما عظم أمره إباحة هذا الجمع : (وأن تجمعوا بين الأختين) بهذا النص القرآنى الكريم ، نهى الله سبحانه أن يجمع الإنسان بين الأختين فى حالة واحدة

من العقد والعشرة وغير ذلك مما تقتضيه مصالح الزواج ، ولكن بالنسبة لمن طلق زوجته ، ثم أراد أن يتزوج بأختها فالواقع أن شأن هذا الأمر واضح ظاهر لا خفاء فيه .

لا دليل يمنعه ، ولا نص يحرمه ، حيث إنه لم يكن جمع بين الأختين ، وإنما هو المقصود والمعنى فى قوله سبحانه : (إلا ما قد سلف).

أى كما لا يجوز الجمع بين الأختين . بنص الآية التى تضمنت – التحريم والنهى – وهى (وأن تجمعوا بين الأختين) .

فقد أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأخت زوجته المطلقة بعد طلاق الأولى وانقضاء عدتها ، وذلك بنص الآية الكريمة : التى اعتبرت ذلك الأمر أنه قد سلف ولم يكن جمع بين الأختين : (وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما قد سلف).

فى جواز أن يتزوج الإنسان بزوجة شقيق أبيه

نعم يجوز للإنسان أن يتزوج بزوجة شقيق أبيه ، ويجوز له أيضاً أن يتزوج بزوجة شقيقه (أخيه) مادامت موانع الزواج كالرضاع منفية .

أما جواز الزواج بهما فلأنهما ليستا من المحارم اللاتى ذكرهن الله فى قوله تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة . . .) .

واللاتى ذكرهن النبى ، ﷺ فى قوله : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

فى المعاشرة الجنسية دون عقد شرعى

إن المعاشرة الجنسية دون عقد شرعى لا تسمى زواجاً ، وإنما هى معاشرة يحرمها الله ورسوله ، لا تبيحها شريعة ، ولا يعترف بها قانون .

ومن اجتمع بامرأة دون عقد شرعى وظل كذلك حتى أنجبت له أطفالا تعتبر حياته معها حياة سفاح ، يطبق عليها ما يطبق على حياة السفاح من أحكام .

فيكون الأولا أولاد سفاح ، ولا قيمة لنسبتهم إلى أبيهم ، حيث لا يعتبر الإسلام السفاح سبباً فى إقامة حكم شرعى وصلة نسب بين الوالد ومن وُلد له ، بل إن ماء السفاح هدر وما ينتج من الأولاد يعتبر لقيطاً ، حكمه كحكم اللقيط ، يرعاه أهل الخير وترعاه الدولة ، أو يرعاه من تسبب

فيه إن أفلت من العقاب . . . وعليهما إشهار زواجهما شرعاً ليتسنى لهما العيش فى ظل حياة كريمة فى نظر الإسلام وليخرجا من الزنى الواقعان فيه باستمرار وعلى الدوام .

فى الشبهة فى الزنى

من زفت إليه غير زوجته وقيل له هذه زوجتك فوطئها يعتقدها زوجته فلا حد ، ولا نعلم فيه خلافاً .

وإن لم يقل له هذه زوجتك أو وجد على فراشه امرأة ظنها المدعوة أو اشتبه ذلك لعماه يعتقدها زوجته فلا حد عليه ، وبه قال الشافعى . وحكى عن أبى حنيفة أن عليه الحد .

لا يجب الحد بالوطء فى نكاح مختلف فى صحته :

كنكاح المتعة ، والنكاح بلا ولى ، والتحليل ، والنكاح بغير شهود ، ونكاح الأخت فى عدة أختها ، والخامسة فى عدة الرابعة ، والبائن ونكاح المجوسية .

لا يجب الحد على من لم يعلم بتحريم الزنى ، فإن ادعى الجهل بالتحريم وكان يحتمل أن يجهله كحديث عهد بإسلام ، أو ناشئ ببادية . لأنه يجوز أن يكون صادقاً . وإن كان ممن لا يخفى عليه ذلك لم يقبل

وكذلك إن ادعى الجهل بفساد نكاح باطل قبل قوله ، لأنه علم قبل قول المدعى الجهل بتحريم النكاح فى العدة

لا يجب الحد على مكرهة على الزنى

وأما الرجل إذا أكره على الزنى فلا يحد أيضاً على أصح الأقوال .

إذا تزوج ذات محرم من نسب أو رضاع فوطئها فعليه الحد فى قول أكثر أهل العلم ، وقال أبو حنيفة والنووى لا حد عليه .

كل عقد أجمع على بطلانه – كنكاح الخامسة أو مزوجة أو معتدة ، أو نكاح المطلقة ثلاثاً – إذا وطئ فيه عالماً بالتحريم فهو زنى موجب للحد المشروع فيه قبل العقد . وهو قول الشافعى . وقال أبو حنيفة لا حد فيه .

فى زواج المسيحى بمسلمة

من شروط النكاح أن يكون الزوج مسلماً ، فلا يجوز زواج المسيحى بمسلمة ، ولا ينعقد هذا الزواج إذا وقع ويجب فسخه .

وإذا أسلم مسيحى وتزوج مسلمة ثم رجع إلى المسيحية فرق بينه وبين زوجته ومنع الأب ابنته منه دون طلاق كما فعل الرسول ﷺ بالكافرين .

وقد فرق الرسول ﷺ بين ابنته زينب وزوجها أبى العاص بن الربيع ، ثم ردها إليه حين أسلم .

والأصل فى ذلك قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن) .

وقوله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) .

فمثل هذا الزواج لا يقع شرعاً ، ويجوز لأى مسلم أن ينكحها ولو مع الكافر الذى تزوجها – بشرط أن يستبرئها أى أن يتوقف عن جماعها فترة العدة .

وعلى هذا الوالد – إذا لم يفرق بين بنته وزوجها الذى ارتد عن الإسلام – إثم مخالفة الدين وإيذاء بنته ، والخروج على ما يجب التمسك به من عزة الإسلام وحرمة المسلمين .

لماذا يمنع الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم ؟

يمنع الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم كى لا يكون لغير المسلم ولاية على مسلمة فيقرها على فعل ما لا يتفق وتعاليم دينها ، أو يزين لها ذلك .

وقد حصر الله ولاية المؤمن له حل جلاله ولرسوله وللمؤمنين دون سواهم ، فقال تبارك وتعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

وقال عز من قائل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

ولما كان الزواج يجعل للزوج ولاية على زوجته بحكم الشرائع والطبائع إذ إن رغبة الزوجة فى

الغالب تابعة لرغبة الزوج ونابعة من إرادته ، وكانت الزوجة المثالية تعمل دائماً على راحة زوجها بتوفير كل ما يرضيه كى تحظى بإقباله عليها وتعيش معه عيشة مرضية – لما كانت حال الزوجة مع زوجها كذلك – إلاّ ما شذ ويخشى على المسلمة أن تبدل دينها أو تفرط فى شىء منه تبعاً لرغبة زوجها غير المسلم – منعت من الزواج لذلك حفاظاً على دينها وعليها من إلحاق الضرر بها ، لما يرى من مخالفتها له فى عقيدتها التى تناقض عقيدته ، أو حفاظاً على الذرية التى يخشى من تبلبل أفكارها بين كل من الزوجين .

فى الأحوال الشخصية ومجلس الشعب

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

من آن لآخر يثار فى المجتمع الإسلامى قانون الأحوال الشخصية ، ويختلف الكُتّاب تبعاً لأهوائهم . فبعضهم يستجيب للنص القرآنى لا يريد به بديلا ، وبعضهم يأخذ فى محاولة الالتواء بالنص ليقربه مما يجرى العمل به فى الغرب ، أو ليقربه من أهوائه التى ينحرف بها تلبية لرغبة منحرفة أو لهوى جامح .

ولكنك إذا سألت الجميع فإنهم يقولون لك نحن مع الوحى ومع الرأى الإسلامى . ولا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك حتى لا يثيروا الرأى العام عليهم . وأحب أن أقول :

إن النتيجة الحتمية التى ينتهى إليها كل باحث مخلص : ينتهى إليها تاريخيًّا ، وينتهى إليها إسلاميًّا ، أمران بديهيان ، وهما من البداهة بحيث لا يمارى فيهما من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان .

أما أولها : فإن الطلاق بيد الرجل : يوقعه حينما يشاء لحكمة يراها لا قيد عليه فى ذلك ولا تحديد ، ذلك هو الأمر الذى سار عليه التشريع الإسلامى منذ أن نشأ التشريع الإسلامى . وهو الأمر الذى يلجأ إليه الغرب الآن حتى فى إيطاليا نفسها .

فإذا كان الغرب قد أخذ بمبدأ الطلاق وبالتالى فى التقرب إلى الإسلام فهل نحاول نحن الابتعاد عن الإسلام للتقرب من الغرب القديم فى الوقت الذى يتخلى فيه الغرب عن مبادئه القديمة ؟

إنك مهما حاولت ، حتى ولو متعسفاً ، فلن تجد مناصاً من القول بأن الطلاق بيد الرجل يوقعه متى شاء حسب حكمة يراها . على أنه من المباح الجائز أن تشترط المرأة عند العقد أن يكون لها حق تطليق نفسها إذا أضيرت ، فيكون الطلاق بيدها توقعه حينما ترى أن مصلحتها تقتضى ذلك .

وعن الطلاق يقول المستشرق الفرنسى « إتيين دينيه » :

« وهل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً وقد خاب ظنهما فى الزواج ، ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك . .

هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا بقضيان بقية أيامهما فى عذاب ونكد وشقاء ؟

كذلك إذا كان أحدهما عاقرا ؟

أوكان غير كفء لزميله ؟

هل يحرم الآخر من أن يبنى لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ؟

هذا ما يقوله مستشرق غربى » .

ويقول الله تعالى : (الطلاق مرتان : فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان) .

أما عن تعدد الزوجات فإنه من الواضح أن الإسلام يبيحه : ذلك واضح نصًّا ، وذلك واضح من الوجهة التاريخية ، إن ذلك أيضاً بدهى ، ومهما حاول ذوو الأهواء فإنه لا يمكن للدارس إلا أن يقول :

إن التعدد مباح فى الإسلام ، فعله الخلفاء الراشدون ، وفعله الصحابة كبارهم وصغارهم ، وفعله التابعون ، وتابعو التابعين ، قرناً بعد قرن ، والقرآن الكريم ينص عليه ، والأحاديث الشريفة تدل عليه ، ثم إن الوضع الاجتماعى يوجبه ، وربما يدهش بعض الناس لقولنا : إن الوضع الاجتماعى يوجبه ونحن فى ذلك نورد أموراً :

١ – فى أحد الأقطار منع زعيم القطر تعدد الزوجات : وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصاً من الأشخاص متزوج ، وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته هذه فى وضع غير صالح من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين :

إما أن يزنى ، وإما أن يتزوج ولكن التعدد ممنوع ، فماذا يصنع ؟

إن امرأته الأولى ليست مسئولة عما حدث لها ، هذا قضاء الله بالنسبة لها ، فما ذنبها لتطلق ؟ ولمَ يطلقها ؟

إنها لم تسىء إليه ، لم يطلق ، وإنما ذهب وعقد عقداً شرعيًّا ، على امرأة وتزوجها بحسب الشرع ، وأسكنها فى مسكن ، وكان يذهب إليها ويبيت عندها وبلغ عنه أنه تزوج امرأة أخرى ، والقانون لا يتساهل ، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبساً بالجريمة ، جريمة الزواج بامرأة أخرى ، وأتى به للتحقيق ، وقالوا له :

هل تزوجت امرأة أخرى ؟ فقال . . كلا . .

فقيل له : ولكنك كنت عندها .

قال : نعم .

وتنفق عليها ؟ قال : نعم .

قالوا : وقد استأجرت لها هذا المسكن ؟

قال : نعم .

قالوا : وتبيت عندها ؟

قال : وأبيت عندها .

قالوا : ماذا تكون إذن ؟

قال : إنها عشيقة .

فقالوا له : اذهب لا ملام عليك ، لا لوم عليك .

حرّموها زوجة بالفعل والتحقيق ، تحقيق البوليس ، وأباحوها عشيقة وخدينة .

٢ – ويأتى أيضاً فيما يتعلق بالتعدد أن «إتيين دينيه» مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر ، فى عهد الفرنسيين – وهو فرنسى – وأقام فى الجزائر فى بلدة اسمها « بو سعادة » استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس ، واستراح إلى الخلق ، وكلها أغرته : الجو ، الطبيعة ، الصحراء ، الناس ، كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر فأقام .

أقام فى عهدين : عهد كان فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

فلاحظ ثلاث ملاحظات ، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب ، كتب يقول :

حينما مُنع التعدد والطلاق ، وجدت ظواهر لم تكن موجودة ، أيام إباحة التعدد والطلاق .

ما هى هذه الظواهر ؟ ما هذه الظواهر التى وجدت عند مانع التعدد ؟

الأمر الأول : كثرة العوانس ، هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاثة ، حدثت بعد أن مُنع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض ، وليس معنى ذلك أنه لابد من التعدد .

كلا ، وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة فإنه لا يزيد عن نصف فى الألف ،

إن هذا النصف فى الألف من الناس فقط هو الذى يعدد الزوجات ، إنه يعدد الزوجات إلى اثنتين . .

أما الثلاث والأربع فلا وجود له . . وهكذا الأمر ، نعنى : يكاد يكون التعدد – مع إباحته – معدوماً .

ولكن من الوجهة النظرية وفى حالات الندرة ، وفى حالات الحاجة لو فرضنا أن شخصاً من الأشخاص ، فإما أن يتزوج ، وإما أن ينحرف ، يباح له الزواج .

هذا رأى الكاتب الفرنسى الذى يقول ، ويشاهد ، بالتعداد وبالتجربة ما حدث ، وما كان . .

ثم ماذا : ألم يتزوج الخلفاء الأربع كل منهم بأكثر من واحدة ؟ والحسن ؟ والحسين ؟ وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم ؟ وكلهم : مثنى وثلاث ورباع ؟

* * *

وبعد فإن مما يشبه اليقين عندنا : أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام . إنه لا قيود على الطلاق إلاّ من ضمير المسلم ، ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم . .

(ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

فى الطلاق

فى حكمة مشروعية الطلاق

إن حكمة مشروعية الطلاق دفع الضرر الذى يلحق الزوجين ، فإن الحياة الزوجية قد تفسد بينهما ، فحينئذ يصير بقاء النكاح مفسدة محضة ، وإضرار بإلزام الزوج النفقة والسكن ، وإمساك المرأة مع سوء العشرة ووقوع الخصومة والشحناء من غير فائدة . لذلك أباح الشارع الطلاق لإزالة النكاح لتزول المفسدة الحاصلة من النكاح .

قال تعالى : (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .

وقد أجمع العلماء المجتهدون من أمة سيدنا محمد ﷺ ، على أن الطلاق جائز دفعاً للضرر الذى يعود على الزوجين : (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء) .

وقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما جاء فى سؤال السائل : « أبغض الحلال إلى

الله الطلاق » لا يستلزم أن يكون الطلاق مكروهاً كراهية أصولية ، بل إنه يعنى : أن أقرب الحلال للبغض الطلاق .

فالمباح لا يبغض بالفعل ، لكنه قد يقرب له إذا خالف الأَوْلَى ، والطلاق من أشد أفراد خلاف الأولى[١] .

وكون الطلاق مبغوضاً لا يقتضى أن يترتب عليه لازم المكروه الشرعى ، إلا إذا كان مكروهاً بالمعنى المصطلح عليه ، ولا يلزم أن يكون مكروهاً بالمعنى المصطلح عليه من حيث وصفه بالبغض ، لكنه يكون كذلك إذ لم يصفه بالإباحة ، لكنه وصفه بها وغاية ما فيه أنه مبغوض إليه سبحانه وتعالى ، ولم يترتب عليه مارتب عليه المكروه[٢] .

وبعد فيقول الإمام أحمد – رضى الله عنه – فى طلاق المرأة غير العفيفة :

« لا ينبغى له إمساكها ، وذلك لأن فيه نقصاً لدينه ، ولا يأمن فسادها لفراشه ، وإلحاقها به ولداً ليس هو منه ، ولا بأس بعضلها فى هذه الحال ، والتضييق عليها ، لتفتدى منه ، قال الله تعالى :

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة) .

فى الطلاق وتعدد الزوجات

إن الدين اتباع ، ولا رأى لإنسان فيما أتى به الدين ، والطلاق حق وتعدد الزوجات حق ، وكل من قال بغير ذلك فهو منحرف . . .

إن أمور الدين لا تؤخذ بالرأى ، وإلا لكانت الفلسفة تكفى عن الوحى ، والفلسفة تنظم أمور المجتمع ، ومبادئ اتصال الإنسان بأخيه الإنسان ، وتزكية الإنسان لنفسه ، تنظم كل ذلك على أساس بشرى فردى ، ومنذ بدأت الفلسفة وهى مختلفة . .

وكان سبب اختلافها أنها تنبع عن الإنسان باعتباره فرداً ، ولو ترك أمر تنظيم المجتمع إلى الإنسان لحدث الاختلاف والاضطراب .

وقد أتى الوحى بتنظيم المجتمع ، تنظيمه من ناحية الفرد فى نفسه ، وتنظيمه من ناحية صلة الأفراد بالحاكم . والدين اتباع ، ولا رأى لإنسان فيما أتى به الدين ، وإذا اختلفنا فى شىء من

---

(١) حاشية الدسوقى على الشرح الكبير جـ ٢ ص ٣٦١ .

(٢) فتح القدير جـ ٢ ص٢٢ .

النصوص فإننا نرد أمر الاختلاف إلى عمل الرسول ﷺ ، وإلى عمل الصحابة ومسلكهم ، والله سبحانه وتعالى يقول : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

والآن نتساءل عن عمل الرسول ﷺ والصحابة فيما يتعلق بتعدد الزوجات ، وفيما يتعلق بالطلاق ؟

إن الله سبحانه وتعالى قد بين فى كتابه العزيز أن للإنسان أن يتزوج فى إطار العدد الذى ذكره ، وهو أربع ، وعلى أساس منهاج الإباحة فعلت الصحابة وتزوج بعضهم واحدة ، وتزوج بعضهم أكثر من واحدة ، وسار النسق على هذا الوضع ، إلى أن أصبح المسلمون يشعرون بمركب النقص بالنسبة للغرب المسيحى ، فأخذوا يتحدثون فى همس منذ عشرات السنين ولا يجرءون على التصريح ، لأن الشعوب الإسلامية كانت قوية والإيمان كان عميقاً ، ثم أخذ الهمس ينتشر ويقوى شيئاً فشيئاً ، إلى أن أصبح إعلاناً صريحاً فى الصحف والمجلات وفى غير ذلك من الدوائر ، وكل ذلك لا يتفق مع الدين فى شىء ، فالدين فيما يتعلق بتعدد الزوجات قولا وسلوكاً إنما هو الإباحة المطلقة فى هذه الحدود التى حددها الله سبحانه وتعالى . وكل محاولة فيما يتعلق بتقييد التعدد إنما هى محاولة خارجة عن الدين .

وأذكر فى هذا المجال أمرين ذكرتهما آنفاً :

الأمر الأول : هو ماكتبه الكاتب الفرنسى الكبير « إتيين دينيه » . . لقد عاش فى الجزائر فترة من الزمن فى مدينة « بوسعادة » ثم كتب يقول :

« إن مدينة « بوسعادة » كانت خالية من ثلاثة جرائم حينما كان تعدد الزوجات فيها أمراً عادياً ، لقد كانت خالية من العوانس ، وخالية من اللقطاء ، وخالية من الأمراض السرية . . ولما بدأت فى التفرنج وتقييد التعدد انتشر فيها العوانس ، وانتشر فيها اللقطاء ، وانتشرت فيها الأمراض السرية . . ويأسف هذا الكاتب الفرنسى على أن هذه المدينة لم تتمسك بالإسلام تمسكاً يعفيها من هذه الأوبئة الثلاثة . .

وحادثة أخرى : فى قطر من الأقطار الإسلامية التى قيدت تعدد الزوجات بواحدة ، ولأول وجود هذا القانون وكان منفذاً بشدة بحيث يعاقب عقاباً أليماً كل من خالفه فى الأيام الأولى لوجود هذا القانون حدث – وكنت أنا فى البلدة التى وقع فيها الحادث – أن رجلا أصبحت امرأته لا تصلح للناحية الجنسية لطارئ من الطوارئ العادية ، وكان القانون الموجود يحرم التزوج مرة ثانية إلاّ إذا انفصل الشخص عن الزوجة الأولى بحكم القاضى ، ولكن هذه الزوجة الأولى عند هذا

الرجل زوجة كريمة على نفسه ، وهى أم لأولاده ولا ذنب لها فى أن يفصلها عنه بالطلاق ، فاستبقاها وتزوج زواجاً شرعيًّا بأخرى ، واستأجر لها شقة ، وكان يبيت عندها . . وبُلِّغ فيه بأنه تزوج بأخرى ، وتربص البوليس به حتى قبض عليه وهو فى غرفة الزوجية ، وقاده مكبلا فى الحديد ليعاقب على الجريمة الشنعاء فى نظرهم – وهى جريمة الزواج بأخرى – وذهب إلى القسم ، وبدأ التحقيق ، وكانت الأسئلة كما يلى :

هل أنت متزوج بأخرى ؟

كلا (ويقصد فى نفسه أنه لم يتزوج بها زواجاً رسميًّا حكوميًّا) .

– ولكنك ضبطت الآن فى غرفة امرأة ليست لك بزوجة !

– نعم .

– والتحريات أثبتت أنك استأجرت هذه الشقة .

– نعم .

– والتحريات أثبتت أنك تنفق على هذه المرأة .

– نعم .

– وتبيت عندها .

– نعم .

– إذن ماذا تكون هذه المرأة ؟

– عشيقة !

– وهنا أخلى سبيله باعتباره غير آثم ولا مذنب . . وتركوه ينصرف ، ولو كان أقر بأنه زوج لهذه المرأة لزج به فى السجن . . .

أما فيما يتعلق بالطلاق ، فيكفينا فى الاستئناس على حكمة مشروعيته ما فعلته إيطاليا أخيراً من إباحة الطلاق ، وإيطاليا المسيحية التى بها الفاتيكان . .

ويكفينا ما تفعله أمريكا حيث يسافر الذى يريد الطلاق من ولاية إلى أخرى أى من ولاية تقيد الطلاق إلى ولاية أخرى تبيحه لأجل أن يطلق . . ولعل فى ذلك كله ما يبين حكمة الله فى تشريع التعدد ، وفى تشريع الطلاق . .

على أنه حتى ولو لم نفهم الحكمة لوجب علينا الاتباع ، مادام الوحى قد أتى بهذه المبادئ صريحة لا لبس فيها ، ومادام عمل الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وعلى مرأى ومسمع منه ،

وعملهم بعد وفاته ﷺ يرشد إلى الوضع الحقيق فى المسألة الصحيحة ، فبعد ذلك كله لا قول لقائل .

وكل من قال بخلاف ما نص عليه الوحى الذى طبقه الرسول ﷺ وطبقه الصحابة بعملهم ، كل من قال بغير ذلك فهو منحرف ، ونعوذ بالله أن يكون فى العصر الحاضر انحراف عما سارت عليه الأمة الإسلامية وانطبق عليه الإجماع مدة أربعة عشر قرناً .

فى الطلاق

ذكر الله سبحانه أحكام الطلاق وحدده فى القرآن الكريم ، وحدد عدد المرات التى يجوز فيها التطليق فقال تعالى :

(الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) .

وجعل للطلاق سورة خاصة ، فصّل فيها أموره وتحدث فيها عن أخباره .

أى أن الله تعالى تحدث عن الطلاق كأمر واقع ، وضرورة من ضروريات الحياة ، فنظم له الأحكام ووضع له المقاييس الشرعية اللازمة .

أما عن قوله ﷺ : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . فالمقصود منه أن الطلاق أمر غير محمود ، ولم تجوزه الشريعة إلا للضرورة ، فيجب الاقتصار فيه على ما يقتضيه ، وعدم الدخول فيه بلا سبب مقبول .

ومن المعلوم أن الشىء قد يكون حراماً ولكن الضرورة فى نظر الشرع تجوزه كما فى أكل الميتة للمضطر ، وكما فى التعرض للموت فى الجهاد فى سبيل الله مع أن التعرض للموت مطلقاً حرام .

قال تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

ونحو ذلك ، ثم إن الحديث قد بين أنه أبغض الحلال . . أى أنه فى أدنى مراتب الحلال أو الجواز وليس من الأمور المنهى منها أو الداخلة فى دائرة الحرام .

ومعنى أبغض الحلال إلى الله ، أقلها فى دائرة الإباحة والجواز فلا ينبغى اللجوء إليه إلاّ للضرورة . . .

فى عدة الرجل

إذا طلق الرجل زوجته طلاقاً يملك رجعتها فيه – بأن يكون الطلاق ليس هو الطلاق الثالث الذى لا تحل له زوجته بعده حتى تنكح زوجاً غيره – فقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز له أن

ينكح أختها وهى فى عدتها من هذا الطلاق ، أو ينكح غيرها إذا كانت هى واحدة من زوجاته الأربع .

أى أنها وهى فى عدتها من الطلاق الرجعى حكمها حكم من فى عصمته من الزوجات يحرم عليه نكاح أختها وما إلى ذلك من المحرمات عليه بسببها ويحرم عليه أن يكمل من فى عصمته إلى أربع بغيرها .

وهذا هو ما يعبر عنه بعدة الرجل .

أى تقيده فى التزوج بخروج مطلقته من العدة .

وقد أجمع العلماء على ذلك إذا كان الطلاق يمكن الرجوع فيه ، أما إذا كان الطلاق لا يمكن الرجوع فيه كمن طلقها الطلقة الثالثة فإنه لا يتقيد بعدة ويباح له أن يتزوج .

فى من طلق زوجته ثلاثاً

الطلاق الثلاث يحرم الزوجة على زوجها ولا يحل له معاشرتها حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ويدخل بها ويطلقها ، بشرط أن لا يكون هذا الزوج قد تزوجها لأجل التحليل ، وبعد عدتها تحل لزوجها الأول .

قال تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . . .)

إلى قوله : (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) .

فمن طلق زوجته طلاقاً ثلاثاً بانت منه ، ولا يحل له معاشرتها ، وإن استمر على معاشرتها كانت معاشرة فى الحرام ويلزم التفريق بينهما .

فى الطلاق الذى لم يسجل فى الجهات المختصة

الطلاق صحيح ، وما قيل من أنه لم يقع لأنه لم يسجل فى الجهات المختصة غير صحيح ، لأن الطلاق وقع بالفعل والواقع لا يرفع ، سُجِّل أو لم يُسجَّل ، ولم يرد من لدن رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا رفع الواقع من الطلاق ، أو إيقاع غير الواقع منه ، فليتق الله كل من تعرض للفتوى فلا يُفتى بغير علم ، فيبوء بإثمه من أفتاه .

وعلى الذين يستفتون أن يلجئوا إلى العلماء المتخصصين فى الفقه الإسلامى ، أو إلى إذاعة جمهورية مصر العربية التى ترحب كل الترحيب بأن تجيبهم على فتاواهم .

فى التوكيل فى الطلاق

إذا وكل شخص غيره فى الطلاق جاز ذلك ، كما يجوز التوكيل فى الزواج ، وهذا الطلاق الذى وقع بالكتابة والتوقيع والشهود على التوقيع صحيح شرعاً ، وكما يكون الطلاق باللفظ يكون بالكتابة ، ولا يشترط فى الطلاق أن يكون بمحضر الزوجة ، وذلك لأن أمر الطلاق بيد الرجل ويجوز له أن ينفذه فى أى وقت شاء ، تلفظاً أو كتابة أو توكيلا ، بيد أنه حينما يكون طلقة واحدة فإن للزوج أن يرجع زوجته فى أى وقت قبل انقضاء العدة دون اختيارها ، فإذا انقضت العدة فلا بد من عقد جديد . .

فى من قال لزوجته : أنت طالق ثلاثاً

من قال لامرأته « أنت طالق ثلاثاً » وقع عليها الطلاق الثلاث عند الأئمة الأربعة ، ولا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره كما قال تعالى :

(فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) .

ويرى بعض أهل العلم أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا طلقة واحدة رجعية للزوج أن يراجع زوجته بعدها ، وهذا هو ما جرى عليه قانون الأحوال الشخصية ، وعليه العمل الآن فى المحاكم .

وهو رأى عليه أدلة عقلية ونقلية ، وقد أيده الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم ، وإن لنا فى اختلاف الأئمة المهديين رحمة واسعة ولا بأس على من يأخذ بهذا الرأى الأخير ، إذ العمل جار به فى الفتوى والقضاء فى مصر الآن .

فى الخلع

يجوز الخلع بأكثر من المسمى أو مهر المثل لقوله تعالى : (فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى فيما افتدت به نفسها من المال قليلا أو كثيرًا غير أن الفقهاء قالوا إن كان النشوز منه فيكره أن يأخذ منها شيئاً لقوله تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) ، والنهى محمول على الكراهة نظراً لإطلاق

الآية الأولى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) ، وإن كانت هى الناشزة كره له أنه يأخذ أكثر مما أعطاها .

لما روى أن « جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول . وقيل حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت ابن قيس بن شاس فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله : لا أنا ولا هو » .

وفى رواية أخرى : « يارسول الله . ثابت بن قيس ولا أعتب عليه فى دين ولا خلق . ولكنى أكره الكفر فى الإسلام » ، أى تكره ألاّ تؤدى حقوق زوجها لبغضها له ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت فقال قد أعطيتها حديقة فقال رسول الله ﷺ لها : أتردين عليه حديقته وتملكين أمرك ؟ فقالت نعم وزيادة ، قال : أما الزيادة فلا ، فقال عليه الصلاة والسلام يا ثابت خذ منها ما أعطتها وخل سبيلها ، ففعل ، وأخذ الحديقة ، فنزل قوله تعالى :

(ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به) .

وإن أخذ منها أكثر مما أعطاها حل له ذلك بمنطلق الآية وهى قوله تعالى :

(فلا جناح عليهما فيما افتدت به) .

فى عدم معرفة الزوجة بالطلاق

لا يشترط فى وقوع الطلاق أن تشعر الزوجة به . وإذا طلقها الزوج طلاقاً استنفد فيه مرات الطلاق فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، ثم يتزوجها هو من جديد إذا طلقت بسبب من الأسباب من زوجها الثانى .

أما إذا طلقها طلاقاً رجعيًّا فله أن يرجعها إلى عصمته ويدخلها فى حياته من جديد .

وأما الأولاد فالأم أحق بهم فى حالة الصغر ما لم تتزوج لما روى من أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت له :

« يارسول الله : إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وحجرى له حواء ، وثديى له سقاء ، وزعم أبوه أنه ينزعه منى » فقال عليه الصلاة والسلام : « أنتِ أحق به ما لم تتزوجى » .

فالأم – بشفقتها – أحق بالأبناء ما لم تتزوج ، إلى أن يستغنى الأبناء عن الأم ، ويحتاجوا إلى رعاية الأب وعنايته ، وتأديبه وتربيته ، وقد قدر الفقهاء ذلك بسبع سنين للأبناء الذكور ، وتسع سنين للبنات .

ودين الإسلام حكمة كله ، فإنه حينما كان الأولاد أحوج ما يكونون إلى الرحمة والشفقة

والعطف ، كانوا فى رعاية الأم ، وحينما يكونون أحوج ما يكونون إلى التربية والتهذيب ، كانوا فى رعاية الأب .

فى زواج المرأة بغير زوجها مع بقائها فى عصمته أو فى العدة

المرأة المتزوجة بل المطلقة التى لم تنقض عدتها لا يحل لها أن تتزوج بزوج آخر ، فإذا احتالت وتزوجت كان زواجها زواجاً باطلا ، لأنها لا تحل لزوجها ولا يحل لها الزواج بغيره إلا إذا طُلقت منه أو مات عنها وانقضت عدتها .

وما لم يتم ذلك فإنها تحرم حرمة مغلظة على غير زوجها ، فما أقدمت عليه المرأة موضوع السؤال عمل لا ترضاه شريعة ولا قانون ، ولا تحل معاشرتها لكائن من كان خلاف زوجها ، وما يزعمه بعض الناس أن هبة المرأة للرجل تحلها له زعم باطل ، وهو احتيال منهم للعبث بالدين والعرض والكرامة .

نعم إذا كانت المرأة خالية من الأزواج وعدتهم وعقد عليها رجل بلفظ الهبة مقصوداً به النكاح بإيجاب وقبول شرعيين وبحضور شاهدين كان عقد الزواج صحيحاً عند الحنفية .

فى من تزوج بمسيحية رغبة فى إسلامها

يمكن للمسلم الذى تزوج بامرأة مسيحية رغبة فى إسلامها أن يطلقها متى شاء ما دامت لم تقبل الإسلام ، وله أن يبقيها لأنها كتابية ، وقد أحل الله للمسلمين نكاح الكتابيات .

هذا وعليه أن يحسن عشرتها ولا يعجل فى طلاقها ، وما دام قصده من الزواج إسلامها فعليه أن يعرض عليها الإسلام عرضاً سهلا مشوقاً لها فيه ، مبيناً الحكمة من كل أمر من أوامره أو نهى من نواهيه قال تعالى :

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) .

هل لوالد الزوجة أو والد الزوج أو وليه حق تطليق الزوجة ولو لم يرض الزوج ؟

إن الطلاق حق الزوج ، لا يملك والد الزوجة ، أو والد الزوج ، أو وليه حق تطليق الزوجة نيابة عنه . اللهم إلاّ إذا كان قد وكل عنه من يطلق الزوجة فى حالات معينة . وهذا التوكيل يصح لأى شخص .

بيد أن القاضى يملك تطليق الزوجة رغماً عن الزوج – إذا رفض الطلاق بنفسه فى حالات تقتضيها المصلحة ، من هذه الحالات مثلا :

أن يكون الزوج ممتنعاً عن معاشرة زوجته معاشرة الأزواج .

أو يكون معسراً لا يستطيع الإنفاق عليها ، أو يكون مقطوع الذكر ، أو عنيناً لا يقدر على وقاع زوجته .

أو يكون مريضاً بمرض من الأمراض المعدية كالبرص والجذام ونحوهما ، وكل ذلك لأن الإسلام يحب دائماً أن لا يقع ضرر على أحد ، وفى جميع هذه الحالات يقع ضرر محقق على الزوجة ، ومن أجل ذلك أعطى الشرع القاضى حق رفع الضرر ، وذلك بإيقاع الطلاق .

هل يشترط فى الطلاق شعور الزوجة به ؟

لا يشترط فى وقوع الطلاق أن تشعر به الزوجة ، وإذا طلقها الزوج طلاقاً استنفد فيه مرات الطلاق فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ثم يتزوجها هو من جديد إذا طلقت بسبب من الأسباب من زوجها الثانى بعد انقضاء عدتها منه – أما إذا طلقها طلاقاً رجعياً فله أن يرجعها إلى عصمته ويدخلها فى حياته من جديد .

فى من يطلب زوجته من أهلها بعد طلاقها وردها ولكنهم يرغمونه على عدم رجوعها بعد أن طلقها ثلاث مرات

الحياة الزوجية إنما شرعها الله سبحانه وتعالى ليسكن كل من الزوجين إلى الآخر ، ويكونا أسرة جديدة تكون لبنة من لبنات المجتمع .

وإذا دب الشقاق إلى هذه الأسرة وكان هناك من دواعى الانفصال ما تتعذر معه الحياة السعيدة بين الزوجين أمكن الانفصال بينهما بالطلاق ، الذى جعله الله بيد الزوج ، لأنه أقدر على المحافظة عليه والبعد به عن التلاعب ، وجعل لهذا الطلاق حدوداً معينة إذا وصل إليها استحالت المعاشرة الزوجية . .

قال تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) . فإذا طلق الرجل امرأته مرة وندم على ذلك أمكنه مراجعتها ، فإن طلقها للمرة الثالثة فلا حق له عليها ، لأنها تكون الآن مطلقة طلاقاً لا رجعة فيه ، ولا تحل له بعد هذا الطلاق حتى تتزوج غيره زواجاً صحيحاً ويدخل

بها ، وتنقضى رغبته منها ، ثم إذا طلقها الزوج الثانى وانقضت عدتها منه جاز لزوجها الأول أن يتزوجها بعد ذلك .

قال تعالى : (فإن طلقها) – أى بعد المرتين السابقتين – (فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) – وعلى الذى طلق زوجته ثلاث مرات إذن أن يكف عن طلب رجوعها إليه لأنها لا تحل له . .

هل يجوز استرجاع المهر بعد الطلاق

لا يجوز لك استرجاع المهر ، لأن أول الديون بالقضاء ما استحل به الزوج وإن كانت هذه الزوجة قد دخلت بها قبل الطلاق فلا يحل لك أخذ شىء منها لقول الله تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) .

وإن لم تكن قد دخلت بها قبل الطلاق فلها نصف المهر ولك نصفه .

فى حكم زوجة مسلمة وزوجها مرتد

إن هذا الرجل الذى ارتد عن الدين الإسلامى لا يجوز لزوجته التى بقيت على دينها البقاء معه لأنها بانت منه بسبب ردته ، مسلمة كانت أو كتابية ، دخل بها أو لم يدخل بها ، لأن الردة تنافى النكاح ، ووجود السبب المنافى للنكاح موجب للفرقة بنفسه ، فهو يستحق القتل بردته ، ويخير فى مدة ثلاثة أيام بين التوبة والقتل ، ربما تكون عنده شبهة فتزال ، وإن لم يتب أهدر دمه وقتل لظهور إصراره بعدم توبته .

وحكم الأطفال هنا أن يُسلَّموا للأم ويكونوا فى رعايتها ، لأن الولد يتبع شرعاً خير الأبوين ديناً ، والأم خير منه ولو كانت كتابية ، لأن لها ديناً أصله سماوى ، وهو مرتد لا دين له ، ومن باب أولى إن كانت مسلمة دينها الإسلام ، وهو خير الأديان وناسخها .

فى البينونة الكبرى

إذا طلق الرجل زوجته أصبحت أجنبية عنه ، وله أن يراجعها مادامت على قيد الحياة ، إلاّ إذا كان الطلاق بائناً بينونة كبرى فلا حق له فى ذلك حتى تنكح زوجاً غيره كما نص القرآن الكريم .

فإن ماتت الزوجة وهى مطلقة من زوجها أصبحت غير محل للمراجعة ولا لعقد الزواج ، وعلى ذلك فلا يجوز إعادة عقد الزواج بينها وبين زوجها ، لأن ذلك عبث ولا معنى له ولا فائدة فيه ، ولا يترتب عليه آثار الزوجية .

فى من طلق امرأته أكثر من مرتين ، بالنسبة لدخوله بيته أكثر من مرتين

الواقع أن هذه الكثرة لا تعنينا ، ولا تهمنا بشىء . وذلك لأن الطلاق مرتان ، كما بينه الله لنا فى القرآن الكريم :

(الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان) .

وغاية الأمر أن هذه الكثرة لم تأت بجدية ، حيث إن الطلاق حصل بالمرتين .

ومثل هذه الكثرة إنما تكون ، مثل الصائم الذى أفطر فى نهاره ، ثم أخذ يكثر من تناول الطعام والشراب .

والإفطار قد حصل منذ أن تناول طعامه ، أو شرابه لأول مرة ، فالتكرار بعد ذلك لا يزيد فى إفطاره معنى جديدًا .

لذلك فإن لعدم فائدة هذه الكثرة من الإيمان ، ولقلة جدواها ، فإن الشريعة لم تعيرها التفاتاً لا فى القرآن ولا فى السنة اللهم إلاّ على طريق الإنكار لحقيقتها ، والاستبشاع لصورتها :

(ولا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم)

أما كون الرجل قد طلق امرأته مائة مرة ، بالنسبة لدخوله بيته مائة مرة فالواقع أن هذا ليس من الشريعة فى شىء .

حيث إنه لا يوجد شىء من الأحكام التى تصور لنا وقوع الطلاق مائة مرة ، لأن نهاية الطلاق مرتان كما جاء ذلك واضحاً فى القرآن الكريم .

وبعد ذلك إنما يكون كله مرادفاً لما وقع منه من طلاق ، أو لغو فى أيمانه لا يؤخذ به (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) .

حق المرأة فى طلب الطلاق

يرى الشافعية أن من حق المرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا خشيت من التفريط فى حق من حقوقه ، أو استشعرت كراهية عميقة له قد توقعها فيما لا يجوز .

وسواء فى ذلك أكان طلبها الطلاق مصحوباً بعوض منها للزوج وهو ما يعرف بالخلع أم غير مصحوب بعوض .

فإذا لم تكن ثَمَّة أسباب مما سبق ، فإن طلب الزوجة الطلاق من زوجها يصبح مكروهاً ، إذ لا داعى يدعو إليه . .

والرجل الذى يتزوج على امرأته لا يعتبر هذا الزواج الجديد مزيلا لكراهية طلب الزوجة الأولى الطلاق منه إلا إذا استشعرت من الغيرة ما تعجز عن حمله ، وإلا إذا تأكدت من أنها لن تستطيع الوفاء بحقوقه ، فإن الكراهة تزول حينئذ .

وليس من المشروط أن تبدى الزوجة – عند طلب الطلاق من زوجها – أسباب الطلاق – بل من حقها أن تسترها عنه إذا لم تجد بُدًّا من إخفائها ، وهذا من تيسير الإسلام وسماحته واحترامه للمرأة ، وحرصه على أن تقوم الحياة الزوجية على أساس متين من الخُلق والدين .

فى الحضانة

لما كان الصغير فى حاجة إلى الخدمة والرعاية ، ومزيد من الشفقة والحنان ، وكانت المرأة أقدر على ذلك من الرجل وهى – بحكم غريزة الأمومة فيها – أكثر حناناً بالطفل ، وأعظم شفقة عليه ، فقد جعلت الشريعة الإسلامية حق حضانة الصغير إلى الأم . وكذلك فعل القانون .

فالأم أحق بحضانة الصغير بالإجماع ، وإن كانت كتابية أو مجوسية ، لأن الشفقة لا تختلف باختلاف الدين ، ولما روى أن امرأة قالت : يارسول الله ، إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء ، وحجرى له حواء ، وثدى له سقاء ، وإن أباه طلقنى وأراد أن ينزعه منى . فقال لها رسول الله ﷺ : « أنتِ أحق ما لم تتزوجى » ، ولأن الأم – كما قلنا – أشفق وأقدر على الحضانة ، فكأن دفع الصغير إليها أنظر له .

وروى الإمام مالك رضى الله عنه فى الموطأ عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد قال :

كانت عند عمر امرأة من الأنصار فولدت له عاصما ، ثم فارقها عمر رضى الله عنه فركب يوماً إلى قباء ، فوجد ابنه يلعب بفناء المسجد ، فأخذ بعضده فوضعه بين يديه ، فأدركته جدة الغلام ، فنازعته إياه أباه فأقبل حتى أتبأ أبا بكر رضى الله عنه ، فقال عمر : هذا بعضى وقالت المرأة : ابنى . فقال أبو بكر خلِّ بينه وبينها ، فإن ريقها خير له من شهد وعسل عندك ياعمر ، قال أبو بكر ذلك والصحابة حاضرون متوافرون ، فلم ينكر ذلك أحد ولم يعارضه عمر ، فإن لم تكن للصغير أم بأن ماتت أو تزوجت بأجنبى عن الصغير ، أى بغير رحم محرم منه كان حق الحضانة إلى أم الأم وإن بعدت ، لأن ولايته الحضانة تستفاد من قبل الأمهات لما ذكرنا من موفور شفقتهن ، فمن كانت تدلى بأم فهى أولى ممن تدلى بأب ، فإن لم تكن له أم الأم بأن كانت ميتة أو متزوجة بغير محرم منه فالحضانة إلى أم الأب ، فإن لم تكن له جدة فالحضانة للأخوات ، وهى أولى من العمات أو الخالات ، لأنهن أقرب للصغير ، لأنهن بنات الأبوين ، وتقدم الأخت لأب ولأم ، لأنها أشفق ، ثم الأخت من الأب ، لأن الحق لهن قبل الأم ، ثم الخالات أولى من العمات ترجيحًا لقرابة الأم وتقدم الخالة الشقيقة ثم الخالة من الأم ثم الخالة من الأب ، ثم العمات ، ويرتبن كما رتبت الخالات ، أى أن العمة الشقيقة أولى ، ثم العمة من الأم ثم العمة من الأب .

وكل من تزوجت من هؤلاء يسقط حقها إلا الجدة إذا كان زوجها الجد ، لأنه يقوم مقام أبيه فى الشفقة عليه ، وكذلك كل زوج هو ذو رحم محرم من الصغير لقيام الشفقة ، نظراً للقرابة القريبة ، ومن سقط حقها بالتزوج يعود حق الحضانة إليها إذا ارتفعت الزوجة ، فإن لم يكن للصبى امرأة من أهله انتقلت الحضانة إلى أهله من الرجال ، وأولاهم بها أقربهم تعصيباً على الترتيب الوارد فى الميراث ، غير أن الصغيرة لا تعطى (لعصبة) غير محرم كابن العم تحرزاً من الفتنة ، هذا ونرجو أن يكون السائل قد عرف حده بعد هذا البيان من أحق بحضانة ابنته .

وسئل رضي الله عنه في الأحكام الشرعية للمرأة

المرأة فى صدر الإسلام والمرأة فى العصر الراهن

إن الفرق بين المرأة فى صدر الإسلام والمرأة فى العصر الحاضر فرق كبير ؛ فالمرأة فى صدر الإسلام كانت تعرف مهمتها معرفة صحيحة ، كانت تعلم أن المرأة وجدت لتكون أمًّا وربة بيت ، وكانت تعلم أن شرف المرأة إنما هو فى هذا ، وأن رسالتها ، حينما تؤدَّى على الوجه الصحيح لها قيمتها الكبرى بالنسبة للوطن ، ذلك أن الأم لها الأثر الأكبر فى نهضة المواطنين على نهج معين من السلوك ، والأخلاق ، والأم ذات الخلق الكريم ينشأ أطفالها على خلق مستقيم ، فيكونوا عُمُداً لنهضة الوطن والرقى نحو المجتمع المنشود ، وإذا تمكنت الأخلاق الكريمة وسادت فى بيت من البيوت فرضت السعادة عليه وأحاط به الهناء والطمأنينة .

لكن المرأة فى العصر الحاضر قد انحرف بها الاتجاه المادى الشيوعى عن رسالتها ، وانحرف بها أصحاب أدب الجنس ، والمترفون وذوو السلوك المنحرف ، وصوروا لها أنها لم تُخلق إلا للزينة والتبرج والمتعة .

وبين الاتجاه المادى الشيوعى وأدب الجنس ، تأرجحت المرأة وشقيت البيوت إلا من عصم الله ...

فى قول رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله »

يقول الله تعالى موصياً الأزواج بالزوجات :

(وعاشروهن بالمعروف) ويقول ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

ولقد وضع الإسلام نظاماً به تستقر الحياة الزوجية وتدوم وتصلح ، ولقد وضع هذا النظام حرصاً منه على عدم تفكك روابط الأسرة ، ورغبة فى أن لا تنهار رابطة المودة ، فى هذا النظام يجعل الإسلام من الرجل ربًّا للأسرة ، ويجعل للأزواج حقًّا على نسائهم ولنسائهم حقًّا عليهم ، فيفسر ذلك الرسول ﷺ فيقول : « ألا إن لكم على نسائكم حقًّا ، ولنسائكم عليكم حقًا ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن » .

فإذا ما خاف الزوج عصيان زوجته ونشوزها ، فأولى الخطوات التى تتخذ إنما هى وعظها بالحسنى ، وتذكيرها بما يحب الله أن تكون عليه ، فإذا لم يُجد ذلك فالخطوة الثانية ، إنما هى هجرها فى المضجع واعتزالها عند النوم ، فإذا استمرت على عصيانها ولم يُجد ذلك فيها فقد يُجدى ضربها ضرباً خفيفاً ، فإن أطاعت سارت الحياة بين الزوجين دون تفكك ودون انهيار ، أما إذا استحكم الشقاق والخلاف والعصيان فتكون المرحلة الرابعة والأخيرة وهى أن يبعث أهل الزوجة حكماً ويبعث أهل الزوج حكماً للإصلاح ، وتستمر الحياة الزوجية فلا تنهار ، وعن كل ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان علياً كبيراً . وإن خفتم شِقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إنّ الله كان عليماً خبيراً) .

وبعد فيقول رسول الله ﷺ : « واستوصوا بالنساء خيراً فما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم » .

فى الفتاة المسلمة

إن الفتاة التى تعيش فى طهر كامل مثلها مثل الشاب الطاهر تكون فى ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله . . وطهر الإنسان وتزكية نفسه من سمات المسلم التى أوجبها الله وحث عليها رسول الله ﷺ ، بيد أن بعض الناس يقع فى شراك الشيطان أو يسير وراء أهواء النفس فإذا استمر على ذلك ومات دون أن يتوب فإنه فى مقت الله وغضبه . وبعض الناس يقع فى الإثم ثم يدرك نفسه فيرجع إلى الله تعالى مستغفراً تائباً منيباً ، يقول تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً) .

ويقول تعالى فى تعميم شامل : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . ومن البشريات الجميلة لأمتنا الإسلامية أن الله تعالى يقول عن نفسه:(إن ربك واسع المغفرة) . ويقول سبحانه : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) وهو سبحانه يغفرها حينما يتوب الإنسان توبة صادقة خالصة نصوحاً .

فى الزواج

يقول الله سبحانه وتعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

فالزواج نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى ، جعله الله رباطاً بين الزوجين بكلمة الله ، وجعل بينهما المودة والرحمة والتعاطف ، يحرص كل منهما على صاحبه وشريكه فى الحياة ، ويتقاسمان يسر الحياة وعسرها .

والزوجة التى عاشت مع زوجها فى أيام فقره وتحملت معه شظف العيش ومرارة الحياة من حقها عليه ، أن تشاركه فى النعمة التى أنعم الله بها عليه وتعيش معه فى السراء كما عاشت معه فى الضراء ، ومن الوفاء بالعهد والرعاية لحقوق الزوجية أن يحفظ لها جميلها ولا يتنكر لها بعد أن وسع الله عليه ، أما من طلق زوجته التى عاشت معه أيام المحنة وتزوج غيرها بعد أن وسع الله عليه فهو إنسان خال من المروءة متجرد من الإنسانية الكاملة ليست لديه الرجولة أو الشهامة ، لأنه تسبب فى هدم بيته وضياع أولاده .

ولعل الله قد وسع عليه بسبب هؤلاء فلا يبطر ويكفر بنعمة الله عليه ، وليبادر بشكرها ومن شكر النعمة الوفاء بالعهد ، والمحافظة على الود ، والإبقاء على العشرة السابقة .

فى حُسن معاملة أهل الزوج

إن الواجب على الزوجة فيما يتعلق بأقارب زوجها أن يكون موقفها منهم كموقفه هو بالضبط ، يجب عليها أن تبرّهم وتحسن إليهم ، وتتلطف معهم ويجب عليها بالنسبة لأب أو أم زوجها أن تتحلى بما أمر الله به فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقُل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

أما فيما يتعلق بالدعاء : فإن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

« لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) .

أما الحديث الحاسم فى الموضوع ، فهو ما رواه أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : « إن العبد إذا لعن شيئًا ضعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالا فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذى يُلعن إن كان أهلا لذلك ، والا رجعت إلى قائلها » .

ومهما يكن من شىء فإن الإحسان عادة ينتهى إلى الإحسان والخير يجر عادة إلى الخير ، والذى ننصح به أن تستمر الزوجة فى حسن المعاملة لأم زوجها ، وإذا استطاعت الزيادة فى حسن المعاملة فلتفعل ، والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

هل المرأة يجب عليها أن تراعى حقوق زوجها قبل أبيها أو حقوق أبيها قبل زوجها ؟

متى تزوجت المرأة أصبحت شريكة لزوجها فى الحياة الجديدة ، وصار له عليها حقوق يجب عليها أن تؤديها ولا تقصر فيها ، وإلا كانت مسئولة عنها أمام الله تعالى .

أخرج بن حبان فى صحيحه ، عن النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها » وفى الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ، وللوالد على ابنته كذلك حق البر والصلة قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

ومتى كان الجميع فى محبة وائتلاف ، أمكن تحقيق رغبة الزوج ورغبة الأب ، وأداء حقهما معاً مادام الهدف هو مصلحة الأسرة .

أما إذا تعارضت الرغبات فعليها أن تطيع زوجها فى غير معصية لله تعالى ، وتتلطف فى الاعتذار للأب من غير أن تقطع الرحم التى أمر الله بها أن توصل ، وعلى الوالد كذلك أن يراعى ظروف ابنته ويكون معيناً لها على استقرار حياتها الزوجية ، وعلى الزوج أن لا يمنع زوجته عن القيام بحقوق والديها مادام ذلك لا يضر بحقه ولا يفوت عليه مصلحة هامة تخصه .

فى منع المسلم زوجته من زيارة أهلها

ليس مطلوباً من المسلم أن يستطلع الغيب ، أو يتعرف على ما سوف يحدث ، وإنما المطلوب منه أن يكون فطناً فى تصرفاته ، وأن يتخذ من الاحتياطات العادية ما يحول بينه وبين السوء .

ومن واجب المسلم أن لا يمنع زوجته من زيارة أهلها ، ولكن عليه حينئذ أن لا يدعها تخرج وحدها لزيارتهم ، وأن يتأكد من أنها لن تذهب إلى غيرهم .

أى أن عليه أن يراقب سلوك زوجته وتصرفاتها حتى تطمئن نفسه إليها ، ويأمن عليها الفتنة فى مثل هذا الخروج .

فإذا ما اطمأن إليها بعد الاختبار ، واستأذنته فى زيارة أهلها فأذن لها . فذهبت لترتكب الزنى : فليس عليه من الإثم شىء ، لأنه لا يد له فى الموضوع ، والإثم كله عليها .

أما إذا قصر فى الاختبار أو أهمل فى ملاحظتها والتعرف على سلوكها ، فإن عليه قسطاً وافراً من الإثم ، لأنه فرط فى واجبه كزوج مسلم ، وترك لزوجته الحبل على الغارب .

والأولى بالمسلم : أن لا يأذن لزوجته بزيارة أهلها أو غيرهم إلا معه ليطمئن قلبه ويسعد عيشه ، ويأمن مثل هذه المساوئ والآثام .

فى قول الرسول ﷺ :لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها

هذا حديث شريف يبين لنا مارسمه رسول الله ﷺ ، من السلوك الحميد الذى يتفق وحالة المرأة ، وبيان ما يجب على الزوجة أن تسير عليه خاضعة لإذن زوجها ، فى أمور دينها ودنياها ، مالم يكن فى إذنه معصية الله سبحانه .

إذن فلا يجوز للزوجة أن تتعدى حدودها ، ولا يجوز لها أن تذهب إلى بلد أهلها ، وليس هذا فحسب ، بل إنه لا يجوز لها أن تخرج من بيتها إلا بإذنه .

فإن تعدت بالخروج دون أن يأذن لها ، أو يصرح إليها ، فهى ناشزة ، وجزاؤها على ذلك إنما يكون بتوقيع العقوبة عليها ، التى وردت فى كتاب الله سبحانه :

من الهجر فى المضجع ، والضرب غير المبرح . هذا إذا لم يكن هناك إذن أو تصريح لها . فإن أذن لها جاز لها الخروج لزيارة أهلها ، ومادامت فى موضع الحشمة والوقار لتكون حافظة له فى غيبته ، أمينة له فى أمانته .

فى تعدد الزوجات

قال تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) .

وقال : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) والناظر فى هاتين الآيتين يجد أن العدل المطلوب إيقاعه بين الزوجات عدل مخصوص يمكن الإنسان أن يقوم به ، وأن هناك نوعاً آخر من العدل لا يمكن الإنسان أن يتحكم فيه .

فإما العدل الذى يدخل تحت الاختيار ويطالب به الإنسان أن يقوم به فهو ميل القلب . وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يوضح المراد بذلك .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت :

كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . ومن مظاهر القسم بين النساء ماروى عن عائشة قالت : « إن رسول الله ﷺ كان إذا سافر أقرع بين نسائه » .

أما الذى لا يعدل فيما أمر الله بالعدل فيه فيتمثل فيما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى ، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط »

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام برعايته العدل بين الزوجات إنما يوجه نظر الإنسان إلى مراعاة العدل فى كل شئونه بين أبنائه وأهله ، ومع مرءوسيه ، ومع كل الناس ، تحقيقاً لقول الله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا) .

فى أسرار الحياة الزوجية

لقد نهى رسول الله ﷺ أن تصف المرأة لزوجها محاسن امرأة أخرى ، وكذلك نهى عن أن يتحدث الرجل عما يكون بينه وبين زوجته ليلا ، ووصف من يفعل ذلك بأنه شيطان ، ومما لاشك

فيه أن الحديث عن الجنس من المثيرات للشباب سواء كانوا فى طور المراهقة أو كانوا فى فورة الشباب اليانع ، وحينما تستثار غرائز الشباب فإنهم لا يبالون بتقاليد أو بعرف أو بمبادئ دينية . وحينما تكثر كتب الجنس فى دولة وحينما ينحل الأدباء فيها ويكثرون من الأدب المكشوف ، وحينما يجرى الفنانون وراء فكرة خاطئة وهى أن الفن لا يتقيد بالأخلاق فينتجون من الفنون ما يثير ، وما يتنافى مع الفضيلة من العرى الفاضح والصور المبتذلة والأغانى الخليعة ، نقول إنه حينما يكثر فى دولة ذلك ، فإن مصيرها لا ريب إلى الانهيار ، ولقد بينت الأحداث فى عصرنا الراهن ذلك فى وضوح واضح أن فرنسا حينما كثر فيها أدب الجنس وذاعت فيها فكرة الفن للفن عقب الحرب العالمية الثانية ، وحينما استكانت إلى اللذات نتيجة لما نشره فيها أدب الجنس من الانحلال انهزمت فى الحرب الكبرى الثانية شر هزيمة ، لقد انهزمت هزيمة مضحكة ، إن كان فى الهزائم ما يضحك ولقد أعلن أحد المرشالات إعلاناً عالمياً نشرته الصحف ورددته الإذاعات وهو أن سبب انهيار فرنسا استجابتها إلى الغرائز ، وانغماسها فى الملاذ ، وجريها وراء كل ما من شأنه أن يذهب بالأخلاق ، سواء كان ذلك عن طريق الأدب المكشوف ، أو السينما الخليعة ، أو الأوصاف المثيرة للشباب والمراهقين ، ومن أجل أمثال هذه النتائج من الانهيار الدولى حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ودرأ الله المفاسد بسد أبوابها ، وبقطع الطرق الموصلة إليها ، فأمر بغض البصر ، ونهى عن اللين فى القول من المرأة ، حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض ، ونهى عن الخلوة بالأجنبية ، وقال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى رزقته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » وقال تعالى : (قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم) وقال سبحانه (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) وإن علاج الانحراف فى الشباب ليس طريقه الاستثارة وإنما طريقه تقوية الإيمان .

فى حسن المعاشرة الزوجية

قال تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، وقال ﷺ : « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه » وقال ﷺ . « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

ومن هنا فإن الزوجة التى تحسن معاشرة زوجها لابد أن يقابل خلقها الجميل بأجمل منه ، وتصرفها الحكيم بأحكم منه ، ولابد أن تكون معاملتها خيراً من معاملة الزوجة التى لا تحسن المعاشرة إحسانها ، ولا تحسن التصرف كما تحسنه هى عند معاملة الزوج .

ولا يعنى ذلك أن تأخذ حقًّا ليس لها ، أو أن تحظى بحق زوجة أخرى لم تصل إلى درجتها فى المعاملة . لأن لكل زوجة حقًّا ، والقسم بين الزوجات بالسوية هو الشرع ، فقد قرن الله إباحة التعدد بالتنبيه إلى وجوب العدل بين الزوجات ، وقال تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ماملكت أيمانكم) ، ثم قال : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وليس المراد بالعدل بينهن من كل الوجوه أو العدل المطلق الذى يتعذر وجوده بين بنى البشر ، أما العدل المطلوب بين الزوجات فهو التسوية بينهن بما يليق بكل منهن ، فإذا وفّى لكل واحدة منهن كسوتها ونفقتها والإيواء إليها لم يضره مازاد على ذلك من ميل قلب أو تبرع بتحفة ، وقد كان الرسول ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل فيقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

قال الترمذى : يعنى به الحب والمودة . . وقال ابن عباس فى الحب والجماع ، فالإحسان إلى من تحسن إليه مطلوب ، والعدل بين الجميع فيما يتصل بالحقوق الزوجية ينبغى ألاّ يحرم ، وتشجيع المحسن ينبغى أن يكون بصورة تبعث على إحسان الآخرين ، بأن يبين أن إحسانه مقابل للعمل الطيب الذى صدر ممن أحسن إليه . .

فى نشوز الزوجة

حدد الله سبحانه موقف الرجل من زوجته إذا عصته وخالفت أوامره أو نشزت عليه فقال : (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغُوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليًّا كبيراً) .

وفى هذه الآية أمر الله أن يبدأ الرجل زوجته إذا خالفته بالموعظة أولا ، ثم بالهجران ، فإن لم ينجحا فبالضرب ، فإنه هو الذى يصلحها ويحملها على الوفاء بحقه ، والمراد بالضرب : الضرب الذى يؤدب ولا يعجز ، ويؤلم ولا يكسر أو يجرح ، فإن المقصود منه الصلاح لا غير .

وفى الحديث الصحيح عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكن عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح » .

وقد أرشد الرسول ﷺ إلى الحكمة فى معاملة النساء ، والتراوح فى ذلك بين الشدة والرحمة ، لما فى طباعهن من التقلب ، فقال ﷺ « اتقوا الله فى النساء فإنهن خُلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه » .

ومادامت الزوجة لم تصل فى مخالفتها إلى حد إدخال من يكره الزوج دخولهم المنزل فعلى الزوج ألا يلجأ إلى الضرب . وليعلم وهو يعامل زوجته أن مصير البيت فى يده ، وأنه مسئول عنه ، ومن الممكن له الهدم إذا تعذر الإصلاح أو خرج الأمر عن حدود قدرته .

وفى مجالنا هذا عاشر الزوج زوجته معاشرة طويلة ، وكونا أسرة طيبة ، وربما أولاداً فى الجامعات ووصلا إلى مرحلة يخبو فيها الاندفاع ، وأصبحت حاجة كل منهما إلى أخيه حاجة يغلب عليها العقل ، ويقتضيها التفكير السليم . . فعلى الزوجة أن تطيع وتتحمل ما تراه غير محتمل من طباع زوجها ، وعلى الزوج أن يكون موقفه منها كذلك ، وعليه ألا يحمل قولها له : « تزوج غيرى » على محمل الجد ، وأن يحاول تذكيرها بحياتها الطيبة ، وموقفها فى المجتمع ، ومسئوليتهما نحو الأولاد ، وأن يحاول إشراك الأبناء فى تلطيف الجو وحل المشاكل ، وتفسير أمور الحياة . .

فى المرأة بعد انقضاء العدة

إذا طلقت المرأة مطلقًا سرًّا أو جهراً ، علمت بالطلاق أو لم تعلم ، وانقضت مدة العدة قبل وفاة زوجها – فلا حق لها ، فى الإرث منه ، كما لاحق له فى الإرث منها إن ماتت قبله ، قال تعالى : (ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، من بعد وصيَّة يوصِين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ، من بعد وصية توصون بها أو دَين) .

والمرأة التى انقضت عدتها لا يطلق عليها اسم الزوجة وعلى ذلك فالآية نص صريح فيما قلنا يجب العمل بمقتضاه دون غيره .

سيدة مسلمة حولت حجرة الاستقبال إلى صالون دينى يفد إليه أئمة الدين ورجال العلم ، إلى جانب الكثير من السيدات المسلمات ، هل يمكن تشجيع هذه المحاولة ؟ وكيف ؟ . .

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والإسلام يبارك مجالس العلم والذكر وتحضرها الملائكة ويغفر الله لجلسائها ، ويستجيب لدعائهم ، ويمنحهم البركة والرحمة والغفران ماداموا يتدارسون علوم الدين والقرآن وما ينفع الناس .

وحبذا أن نعمر مساجد الله بالمسلمين والدارسين فى كل مكان ، حتى تنتعش الحركة الثقافية الدينية ، ويعم نفعها جميع الذين يؤمونها .

ولا بأس من مُدارسة الدين والعلم فى المنازل ، وخاصة فى وقت لا تكون فيه المساجد مفتوحة ولا مستعدة ، وحبذا لو انتقل ذلك إلى النوادى العامة والخاصة ، بشرط الوقار والحشمة والأدب والتواضع ، وأن يكون هناك فاصل بين الرجال والنساء ، لنحفظ للنساء احترامهن وحياءهن وللدين حرمته واعتباره فى حدود مارسم الشارع ، من ملبس وتوقير وتقدير وجدية وإخلاص حتى تنتشر مثل هذه المحاولة ، وينتشر الحديث فى شئون الدين ، فإن أصبح الحضور عادة ، وللدروس جدية ، وفى النفوس شدة رغبة وجاذبية ، تنتقل إلى المتدى والمدرسة والمسجد ، وكل مكان يؤدى هذا الهدف ويحقق الغرض المنشود .

ملابس بعض النساء تعرض أبدانهن للنظر
فما حكم النظر لهن فى هذه الحالة ؟

إن هذا السؤال يستلزم الحديث عن زوايا مختلفة خاصة بالتبرج لابد من علاجها ، وأول هذه الزوايا التبرج نفسه ، وبهذا الصدد نبدأ بذكر حديث لرسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد ، نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة . لا يرين الجنة لا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط كأذناب البقر بها يضربون بها الناس » . وهذا الحديث فيما يتعلق بالنساء المتبرجات كأنه قيل بالأمس القريب ليعبر عن الوضع فى العصر الحاضر . ويكفى مافيه من وعيد لبرد انحراف من يؤمن بالله واليوم الآخر .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الواجب بالنسبة للرجل والمرأة على السواء فيما يتعلق بالنظر . (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون) .

هذه بالنسبة للرجال أما بالنسبة للنساء فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن . ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهن أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهنّ ، وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمره أن يصرف بصره .

وقال رسول الله ﷺ ، لعلى رضى الله عنه : « يا على لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة . . » .

قال عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ فيما رواه عن ربه عز وجل قال : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » .

وما من شك فى أن على المرأة مسئولية كبيرة ، مسئولية تؤدى بها إلى غضب الله ومقته ، إذا لم تتب وترجع إلى الله محتشمة متأدبة بآداب الإسلام ، وعلى الرجل أيضا مسئولية مزدوجة هى مسئولية الراعى وكل راع مسئول عن رعيته ، ومسئولية النظر الذى يجب أن يكفه عن محارم الله ، فإذا قام الرجل بمسئوليته فقد أرضى الله ورسوله .

فى الحيض والجنابة بالنسبة للمرأة

الحيض والجنابة وما إلى ذلك لا يؤثر فى التصرفات العادية ، وإذا كان الحيض يمنع المرأة من الصلاة حيث خفف الله عنها وأسقطها ولم يطالبها بالقضاء ، ويمنع من الصوم مع وجوب قضاء ما أفطرته من الأيام ، فإنه لا يمنع من مؤاكلة الحائض الرجل والنوم بجانبه والاستمتاع بكل شىء فيها ما عدا الصلة الجنسية .

والحيض أو الجنابة أمر حكمى ، ولا يتسبب فى الحكم نجاسة جسم الحائض أو الجنب ، أو تسببهما فى نجاسة ما تمتد إليه أيديهما .

وقد لقى النبى ﷺ أحد الصحابة فتهرب ، منه ، فسأله عن السبب فى ذلك فقال : كنت جنباً فكرهت أن ألامسك ، فقال ﷺ : « إن المؤمن لا ينجس حيًّا ولا ميتاً » وكذلك المؤمنة لا تنجس بالحيض فلا مانع من إحضار المرأة لزوجها ماء الوضوء ، بل من الواجب عليها ذلك ، حيث فرض الله عليها طاعة زوجها . . قال ﷺ : « لو كنت آمرا أحدا بالسجود لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ، وقال عن خير النساء : « إنها تسرك إذا نظرت ، وتطيعك إذا أمرت ، ولا تخالفك فى نفسك ومالك بما تكره » .

كىّ شعر المرأة هل يؤثر فى الوضوء مع ملاحظة أنها تكويه بنفسها

كى شعر المرأة لم يذكر فى نواقض الوضوء عند الفقهاء مادامت المرأة هى التى تكويه بنفسها ، والأمر الهام فى كىّ الشعر ليس هو أن ينقض الكىّ الوضوء أو لا ينقضه ، وإنما هو فى الكى نفسه ، هل تستسيغ أن تكوى المرأة شعرها ، أولا تستسيغه ؟

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سرج كأشباه الرجال ، وينزلون على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف ، العنوهن فإنهن ملعونات» . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال : «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، والمغيرات خلق الله» والوشم هو الدق . . والتنمص هو اقتلاع الشعر والتفلج الأخذ من الأسنان تحديداً أو ترقيعاً .

فلما قال ذلك عبد الله بن مسعود قامت امرأة تعترض مستفسرة ؟ فقال رضى الله عنه ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ وقد قال الله فى كتابه :

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

من هذه الأحاديث ومن غيرها نأخذ أن ضياع الوقت فى كىّ الشعر أمر لا تستسيغه الشريعة . . أما إذا ذهبت المرأة إلى صالون الحلاق وأسلمت نفسها إلى الرجل يجول فى شعرها بيديه فإن ذلك حرام ناقض للوضوء .

فى الغسل وتخليل الشعر المكوى

هذا الموضوع له شقان :

أما الأول منهما :

فهو ذهاب المرأة إلى من يكوى شعرها والحكم فى هذا لا غموض فيه من ناحية الشرع ، ولا يمكن أن يمارى فيه أحد ، وهو أن المرأة لا يجوز لها أن تسلم رأسها إلى رجل يجول بيده فى شعره كما تشاء له مهنته . .

أما الشق الآخر : فهو تخليل الشعر نقول : لا فرق بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بوجوب تخليل الشعر ، حتى يظن الإنسان أنه قد أروى بشرته ثم يفيض على رأسه الماء بعد ذلك . .

ولقد روى الإمام البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ ، إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه وتوضأ وضوءه للصلاة ثم اغتسل ، يخلل بيده شعره ، حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات ثم غسل سائر جسده» . ولكن الحديث خاص بالرجل .

ويروى يحيى عن مالك أنه بلغه أن عائشة رضى الله عنها سئلت عن غُسل المرأة من الجنابة فقالت : «لتحفن على رأسها ثلاث حفنات من الماء» .

ولم تقتصر السيدة عائشة رضوان الله عليها على ذلك ، بل أضافت قائلة : « ولتضغث رأسها بيديها » وتفسير معنى تضغث رأسها بيديها يقول ابن الأثير :

الضغث معالجة شعر الرأس باليد عند الغسل ، كأنها تخلط بعضه ببعض ليدخل فيه الغسول والماء .

وروى الإمام مسلم بسنده عن السيدة عائشة أن أسماء سألت النبى ﷺ عن المحيض فكان فيما قال ﷺ .

« ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتى تبلغ شئون رأسها . ثم تصب عليها الماء » وقوله شئون رأسها . . معناه أصول شعر رأسها . .

بالنسبة للنساء : هل تعليق المصحف وبه سور من القرآن الكريم والدخول به مثلا دورات المياه حرام ؟ وأيضا بالنسبة إلى حجرة النوم

قال تعالى فى سورة الواقعة :

(إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) وقد استنبط العلماء من ذلك عدم جواز مس المصحف إلا على طهارة ، وقد روى عن سلمان رضى الله عنه قال : « لا يمس القرآن إلا المطهرون » فقرأ القرآن ولم يمس المصحف ولم يكن على وضوء وقد ورد ما يؤيد ذلك فى قصة إسلام عمر حيث قال لأخته : أعطينى الصحيفة التى بيدك ، فقالت : إنك نجس وأنه لا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل وتوضأ ، فاغتسل وتوضأ ثم أخذ الصحيفة فقرأها .

وروى عن سعد بن أبى وقاص وابن عمر مثل ذلك ، وقد ثبت فى أخبار متظاهرة عن النبى ﷺ أنه كتب فى كتابه لعمرو بن حزم « لا يمس القرآن إلا طاهر » . واستثنى العلماء من ذلك من لا يستغنى عن مس المصحف فى أغلب أوقاته أو كلها ، كمعلم القرآن ومتعلم القرآن ، فيجوز لهما مس المصحف على غير وضوء .

أما تعليق آية من القرآن أو المصحف فينبغى أن يكون ما يعلق من ذلك فى حرز ساتر كجلد ملفوف حوله أو قماش سميك ، وحينئذ يكون بعيداً عن مسه مباشرة ، أو حمله على غير طهارة ، أو حصول الأذى بدخول دورة المياه به ، وبدون ذلك لا يجوز دخول دورة المياه به مطلقاً ، ولو قصد الداخل الاستهانة أو عدم الاحترام له ركَفَر بذلك وتعليقه على غير طهارة لا يجوز على

الراجح ، والمقصود من ذلك كله صيانة القرآن من كل النواحى : من ناحية لفظه ، ومن ناحية تعاليمه ، ومن ناحية الاحترام القلبي والعملي له ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فى عمل المرأة

لا يمنع أحد المرأة من العمل خارج منزلها إذا كانت مضطرة إلى ذلك ، أما إذا أفاء الله عليها من نعمته ، فإن فى منزلها وفى تربية أولادها والعمل على توفير السعادة لأسرتها ما يشغلها طول الوقت . .

وما من شك فى أن هذه المهانة التى تتعرض لها المرأة فى عملها تسىء إلى كل قلب ينبض بالرحمة .

وما من شك فى أن هذا التبرج الذى تظهر به المرأة العاملة يسىء إلى كل قلب ينبض بالفضيلة والتقوى .

وفى دولة الباكستان تتعلم الفتاة وتتثقف ثم تعنى بالأسرة ، ولا يكاد يجد الإنسان فى الباكستان امرأة عاملة ، وملابسهن هناك واسعة فضفاضة . وفى السعودية الأمر كذلك .

وحينما كانت الدولة الإسلامية عالية الصوت ، عزيزة الجانب ، قوية مرهوبة ، لم تكن المرأة موظفة أو متبرجة ، أو مطالبة بتعديل شريعة فيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية .

المرأة تعمل إذا كانت مضطرة ، فإذا لم تكن مضطرة ففى أسرتها ما يشغل وقتها فى عمل نافع مفيد للمجتمع .

فى وجود أولياء لله من النساء

لا مانع شرعاً من وجود أولياء لله من النساء ، فشروط الولاية فى الإسلام معروفة ، ذكرها القرآن الكريم : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون) والإيمان والتقوى مطلوبان من الرجال والنساء وباب الاجتهاد فيها مفتوح للجميع للرجال والنساء (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) .

ولقد جاء القرآن بولاية كثير من النساء ، وظهور الكرامات لهن تأييداً لموقفهن الإيمانى ، ودليلا على مدى ما وصلن إليه فى طريق الولاية ، ومن أبرز هؤلاء ، مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فخاطبتها الملائكة : (إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) .

فلما ولدت المسيح عليه السلام قال قومها ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًا . فأشارت إليه ، فخاطبهم وهو غلام كرامة لها ورفعًا للسوء عنها ومريم هذه كان يأتيها الرزق فى المسجد (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا) . . إلخ .

وآسية امرأة فرعون وقد ذكرها الله فى القرآن وضرب بها المثل :

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) .

وفى تاريخنا الإسلامى كثير من النساء اللاتى بلغن مرتبة الولاية منهن السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت عالمة عاملة وشهرتها فى العلم معروفة وشهرتها فى الولاية معروفة أيضًا . والسيدة رابعة العدوية – رضى الله عنها – كانت صائمة النهار قائمة الليل وهى التى تجردت فى عبادتها عن أن يكون لها طلب من دخول جنة أو بعد عن نار ، وهى التى تقول مامعناه « اللهم إن كنت أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإن كنت أعبدك خوفًا من نارك فأدخلنى فيها ، أما إن كنت أعبدك لوجهك الكريم فلا تحرمنى رؤيته يا أرحم الراحمين » .

فى ذهاب النساء إلى المساجد

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن » .

(رواه أبو داود بإسناد صحيح)

وعن ابن مسعود قال : قال رسول ﷺ :

« صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » . (رواه أبو داود)

عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم ، فقال بلال : والله لنمنعهن فقال له عبد الله : أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقول أنت لنمنعهن فما كلمه عبد الله حتى مات »

(مسلم وغيره)

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ :

« إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها » . (متفق عليه)

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ :
« إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسَّ طيبًا ». (رواه مسلم)
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
« أيما امرأة أصابت بخورًا ، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة » . (رواه مسلم)
عن بلال بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم ، فقال بلال والله لنمنعهن » فقال عبد الله ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقول أنت لنمنعهن .
وفى رواية سالم عن أبيه ، قال : فأقبل عليه عبد الله فسبّه سبًّا سيئاً ما سَمِعْتُهُ سبّه ، مثلهُ قط وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ . وتقول : والله لنمنعهن » . (رواه مسلم)
عن عائشة قالت : نساء المؤمنات كن يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الناس » .
(رواه البخارى)

قال النووى : هذا وشبهه من أحاديث الباب ظاهر أنها لا تمنع المسجد لكن بشروط ذكرها العلماء مأخوذة من الأحاديث ، وهو أن لا تكون متطيبة متزينة ، ولا ذات خلاخل يسمع صوتها ، ولاثياب فاخرة ولا مختلطة بالرجال ، ولا شابة ونحوها ، ممن يُفتتن بها . وأن لا يكون فى الطريق ما يخاف به مفسدة ونحوها .

وهذا النهى عن منعهن من الخروج محمول على كراهة التنزيه ، إذا كانت المرأة ذات زوج أو سيد ، ووجدت الشروط المذكورة ، فإن لم يكن لها زوج ولا سيد حرم المنع إذا وجدت الشروط .

هل يجوز للمرأة قراءة القرآن فى مسابقة ؟

نعم يجوز قراءة المرأة للقرآن فى المسابقة أمام الجمهور ، ولم يرد ما يمنع من ذلك بشرط أن تلتزم فى قراءتها ما تتطلبه القراءة من أحكام .

وقد كانت النساء تسأل الرسول ﷺ ، بمحضر من الرجال . . ولم يمنعهن من ذلك ، ومنهن المرأة التى سألته الزواج فزوجها لرجل بما معه من القرآن .

وتحرم قراءة المرأة أمام الرجل أو إظهار صوتها إذا كانت تتكسر فى كلامها أو تستثير الرجال بالمد والترخيم ، وما إلى ذلك بما هو خارج عن حدود النطق السليم . وعلى اللجان التى تختبر

الفتيات فى مثل هذا الموقف التأكد من جدية القراءة ومنع كل خروج عن حدودها من النساء .

والإسلام بذلك لا يسد على المرأة بابًا من أبواب الخير تتسع له طاقتها وتؤهلها له إمكانياتها وإنما يقف بها عند حدود الدين والأخلاق .

هل كان للمرأة دور فى الجهاد أيام رسول الله ﷺ ؟

إن عبء الحرب كان يقع على عاتق الرجال كما هو الأمر الآن ، وما خلقت النساء للحرب ولكن لهن فى الحرب دور مشكور ، هو دور العون والتمريض وإسعاف الجرحى وما يماثل ذلك من الخدمات ، وقد كانت المرأة فى عهد الرسول ﷺ تجاهد حسبما تستطيع ، ولقد كانت تعمل الأعمال التى تناسبها .

فعن أم عطية الأنصارية رضى الله عنها قالت :

غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى .

وتقول بنت مُعوذ رضى الله عنها :

كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، نسقى القوم ، ونخدُمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة . وأحياناً كانت الظروف تضطر اضطراراً للمشاركة فى الحرب الفعلية . فعن أم سعد بنت سعد بن الربيع رضى الله عنها قالت :

دخلت على أم عمارة رضى الله عنهما فقلت لها : يا خالة أخبرينى خبرك فقالت : خرجت يوم أحد أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انكشف المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىّ قالت : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة أقماه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ ، أقبل يقول دلونى على محمد – ﷺ – لانجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير رضى الله عنه ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات لكن عدو الله كانت عليه درعان .

وقال الرسول ﷺ : « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى » .

وعن عبّاد قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن ، فمر رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين الرسول ﷺ من عهود ، تقول

صفية : وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ وأصحابه فى مواجهة العدو ، ولا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا .

فلما رأيت اليهودى يطوف بالحصن قالت ، ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من اليهود وقد شُغل رسول الله ﷺ ، ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن .

هل تستحم المرأة وهى حائض ؟

نعم تستطيع المرأة وهى حائض أن تستحم وتغسل ملابسها وتعيد تصفيف شعرها ، وليس فى ذلك ضرر ، لأنه نظافة والنظافة من الإيمان ، واستحمامها لا يطهرها من الحيض ، لأن الحيض أقله ثلاثة أيام ، أوسطه خمسة أيام وأكثره عشرة أيام بعد ذلك يكون استحمامها طهراً لها لأنها ترفع عنها الصلاة ، ولكن الصوم يبقى عليها بعد الطهر .

هل الرسول ﷺ هو المأمور وحده بحجب زوجاته أو أن الأمر يشمل المسلمين جميعاً

نريد بتوفيق الله أن نقول أولا إنه ليس معنى الحجاب فى الإسلام أن لا تعمل المرأة إذا كانت مضطرة للعمل ، فقد أباح لها الإسلام أن تعمل عندما تقتضيها الحاجة ، وأباح لها الإسلام أن تتصرف فى أموالها بالتجارة أو ببناء العمارات أو بغير ذلك من أنواع التصرف ، وإنما المعنى الحقيقى للحجاب فى الإسلام هو إبعاد جو الفتنة وجو الشر عن طريق المرأة وعن طريق الرجل ، ومن معانى الحجاب إذن فى الإسلام عدم التبرج ، وعدم تعمد إظهار الزينة إلا للزوج أو المحارم ، يقول الله تعالى : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليُعلَمَ ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ومن ضروب الإيقاع فى الفتنة التى حرمها الإسلام أن يخلو رجل بامرأة ، والحجاب بهذا المعنى

ليس خاصًا بأزواج النبى ﷺ ، وإنما هو عام يشمل المسلمين جميعاً ، يقول الله تعالى : (يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) .

ويقول رسول الله ﷺ ما معناه : « حينما يخلو الرجل بامرأة يكون الشيطان ثالثهما » والحجاب بالمعانى التى ذكرناها واجب على جميع المسلمين .

فى مصافحة النساء

لقد كان رسول الله ﷺ لا يصافح من النساء إلا زوجاته أمهات المؤمنين ومحارمه رضى الله عنهن ، ولا تجوز ملامسة الرجل للمرأة ولا ملامسة المرأة للرجل إلا عند الضرورة القصوى كعلاج الرجل للمرأة أو كشفه عليها ، وعلاج المرأة للرجل أو قيامها بالكشف عليه إذا لم يكن هناك من يصلح للقيام بهذه المهمة سوى الذى تعينت فى حقه منهما ، وسنة رسول الله ﷺ أولى بالاتباع على أن مصافحة المرأة للرجل لا تكون إلا عند السلام غالباً ، والسلام سنة ، والسنة لابد من مراعاة الآداب الإسلامية فى أدائها .

فى حقوق المرأة

إن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً لم يعطها لها نظام من قبله ، ولقد أوصى ﷺ بالنساء خيراً فى كثير من الأحاديث الشريفة ، وأوصى بهن خيراً فى حجة الوداع . ويقول الله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف) .

وفى مقابل الحقوق التى للمرأة جعل الله عليها واجبات ، وهى أن تحفظ الزوج فى ماله ، وعرضه ، وولده ، وبيته ، وألا تخرج إلا بإذنه .

فإذا هجرت زوجها إلى بيت لمدة تعد بالشهور من غير إذن زوجها فهى آثمة عاصية وليس على زوجها بالنسبة لها حقوق فى هذه الحالة ، والحل الذى يراه الإسلام فى مثل هذه الحال واضح فى قوله تعالى :

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها . إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيراً) .

فالإسلام فى مثل هذه الحالة محافظة على الحياة الزوجية وعلى دوامها ، وإزالة لأسباب النزاع

يأمر بتكوين لجنة من حكمين : أحدهما من قبل الزوج ، والآخر من قبل الزوجة ، لبحث أسباب الخلاف والشقاق ، ودرس الحالة من جميع نواحيها ، ثم تقترح فى ضوء التعاليم الإسلامية ما يزيل الشقاق والنزاع .

أما إذا كانت أسباب الشقاق والنزاع متأصلة متمكنة بحيث لا يتأتى زوالها ، فإن أبغض الحلال إلى الله – وهو الطلاق – يكون الفاصل بينهما .

فى حكم امرأة تستعمل أحمر الشفاه وتتزين

من حق المرأة أن تتزين وأن تتمتع بجمالها وزينتها ، وهذا يدخل تحت قول الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

لكن هذا مشروط بأن يكون تزينها لزوجها فقط ، ولا تظهر به أمام أحد سواه ، لأن هذا خروج عن تعاليم الشرع ، وقد حددت الآية الشريفة ذلك ، قال تعالى فى سورة النور :

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن . . إلى آخر الآية .

وروى الترمذى عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا » يعنى زانية ، وروى الترمذى أيضاً عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » .

والهدف الإسلامى من ضرورة أن تحتشم المرأة إنما هو منع الفتنة ، خصوصاً بين الشباب والشابات وهم فى الدور الذى يسهل فيه الافتتان والانحراف ، والزينة فى نفسها غير محرمة ، والله جميل يحب الجمال ، ولكن يجب أن يكون المقصود للمرأة من زينتها زوجها .

فى فتوى بجريدة أخبار اليوم بعنوان المرأة والقضاء والإفتاء والتبرج ، بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٦٤

المرأة شأنها شأن الرجل كل منهما يصلح أن يكون مفتياً فى أمور الدين فى أى عصر من العصور مادام كل منهما قد تسلح بالعلوم التى تؤهله لأن يكون متبعاً ومعلماً فى تلك العلوم ، بل من كان

عالماً بمسألة من مسائل الدين وسئل فيها عليه أن يفتى ويجيب من سأله ، والشواهد على ذلك فى الإسلام كثيرة ، فقد كان فى أمهات المؤمنين من يفتى ، فهذه عائشة رضى الله عنها كانت مرجعاً من مراجع الصحابة ، يرجع إليها عند اختلافهم فى بعض مسائل الدين ، فروى أنها كانت تزور قبر أخيها عبد الرحمن فقيل لها ألم ينه النبى ﷺ عن زيارة القبور ؟ فقالت رضى الله عنها : « ثم أمر بها » . وقد سألها عروة بن الزبير عن قوله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) وقد فهم فيها أنها لا تفيد فرضية السعى بين الصفا والمروة فأجابته : لو كان المقصود منها ما فهمت لقال فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ثم ذكرت له سبب النزول .. وعلى حال عائشة أمهات المؤمنين وفضليات التابعين كسكينة بنت الحسين بن على وغير ذلك كثير .

وإننا إذ ذكرنا ضرورة تسلحها بسلاح العلم فنذكر أنه لابد من شرط آخر ، وهو مواجهتها للمجتمع فى زى شرعى ، بحيث تكون ساترة لعورتها ، غير مظهرة لزينتها ، وأن يوجد ما يحول بينها وبين ما يؤدى إلى الفتنة بها . وكانت عائشة تسدل الحجاب بينها وبين من يسألها .

وبما ذكرنا من صلاحية المرأة للفتوى فى أمور الدين إذا كانت متسلحة بسلاح العلم يتبين لنا الغرض من إنشاء كلية البنات الإسلامية ، وهى تخرج طائفة من النساء تكون مماثلة لتلك الطائفة من الرجال ، وبذلك تتمكن تلك الطائفة من إرشاد النساء إلى أمور الدين وأحكام الشريعة وهذا بدون شك يكون أثره بالنسبة للنساء أجدى وأنفع .

وكلية البنات بمناهجها التى هى عليها الآن تمكن المرأة من أن تقوم بمهمة الوعظ الدينى .

كما ذكرنا وأن المرأة فى صدر الإسلام كانت تقوم بالإفتاء وكانت عائشةرضى الله عنها متصدرة للفتوى ، وكانت عالمة بالكتاب والسنة ، مسلحة بسلاح العلم النبوى الشريف ، والمرأة فى العصر الحاضر وإن كانت لا تصل إلى منزلة عائشة فالرجال فى هذا العصر لا يصلون إلى منزلة رجال السلف ، فإذا ما تعلمت المرأة تعليماً مناسباً لتعليم الرجال قامت بالفتوى هى أيضاً كما يقوم الرجال بالشرط الذى ذكرناه .

أما قضاء المرأة فى الأمور المدنية فهو كقضائها فى الأمور الشرعية ، وذلك قد اختلف فيه الفقهاء ، فالأئمة الثلاثة على منعه ، لقول النبى ﷺ : لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة ، وأبو حنيفة أجاز ذلك قياساً على جواز شهادتها ، وذلك أن الشهادة نوع من الولاية ، فيكون القضاء كذلك ، إلا فى الحدود والقصاص ، وعلى ذلك يكون الخلاف فى القضاء المدنى بالنسبة لها .

أما ما يُذكر من أنّ صوت المرأة عورة فليس ذلك بمسلم على إطلاقه ، وإنما يكون عورة إذا وقع فيه تكسُّر وإثارة فى نفس السامع داعية للشهوة ، وهو فى تلك الحال يكون محرمًا فى قضاء وفى غيره من الأمور العادية ، مثل ما يقع فى البيع والشراء الذى يباح لها ، وأما ما يتعلق بعلاج المرأة فى زينتها فليس العلاج إلا لأحد رجلين : أولها الحاكم الرادع ، فإن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ، والرجل الثانى ولى أمر تلك المرأة من أب وأخ وزوج ، فكل واحد من الفريقين راع ومسئول عن رعيته .

وسئل رضی اللہ عنہ فی معاملۃ خیر المسلمین

فى معاملة غير المسلمين

كتب الدكتور ميجيل دى ايبالثا سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية – المسيحية إلى الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الإسلام يسأله مشاركة الأزهر فى (مؤتمر قرطبة العالمى الإسلامى – المسيحى الثالث) خلال عام ١٩٧٩ . وأرى من الأمانة أن أسجل هنا نص الرسالتين المتبادلتين بين الإمام الأكبر والدكتور ميجيل ايبالثا ، لأن فى ذلك ما يلى :

أولا : توضيح وجهة النظر الإسلامية من أكبر مرجع دينى إسلامى .

ثانيًا : وضع الأسس السليمة لأى تقارب إسلامى مسيحى :

يقول الدكتور ايبالثا فى رسالته إلى الإمام الأكبر شيخ الإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر – القاهرة – جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

فيسر جمعية الصداقة الإسلامية – المسيحية فى مدريد أن تتوجه إلى فضيلتكم لتشرف بإخباركم بما استقر عليه الرأى من انعقاد مؤتمر قرطبة العالمى الإسلامى – المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩ م . إن شاء الله ، وقد رأت إدارة الجمعية اختيار موضوع (محمد وعيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة) ليكون محور اللقاء الإسلامى – المسيحى المقبل ، والمقصود أن يشرح المسلمون كيف يعبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه القيمة المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم سواء برسالته وعقيدته ودعوته أو بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية . فى حين يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عن مسيحى اليوم .

ورغبتنا أن يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون فى مجتمع متكافل ، يعيش بالمودة والوفاق وإن اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت أديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم وإعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة فى علوم اللاهوت – نذكر منها بصفة خاصة – كلية اللاهوت بمدريد ، والجامعة البابوية فى روما .

ويعد الموضوع – بمشيئة الله من الجانب الإسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الإسلامية ، ومؤسسات إسلامية ، وشخصيات مسلمة ، يستوى فى ذلك من يعيشون داخل إسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد أنه من الممكن دراسة رءوس الموضوعات التالية فى نطاق الموضوع العام للملتقى وهى :

الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، فى مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة فى هذا الدين أو ذاك ، ولا يعنى هذا – بطبيعة الحال – أن هذه هى الكلمة النهائية . على العكس نحن نتوجه إليكم منذ الآن ، وفى لحظة نشأة الفكرة ، آملين أن تثروا الموضوع بما تقترحونه ، وأن تتفضلو بإضافة ماترونه مفيداً ونافعاً . ولسنا نشك فى أنكم ستزودوننا بسديد الرأى وصائبه – بإذن الله – فأنتم أدرى بهذا الحقل منا ، ولكم فى هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وجهودكم فى القارات المختلفة .

وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلتم بإيفاد وفد مثل بلادكم فى مؤتمر قرطبة الإسلامى – المسيحى الأول الذى عقد فى عام ١٩٧٤ م .

وما نبغيه فى هذه المرحلة – مرحلة الإعداد والدراسة – هو النصيحة وتبادل الرأى ، والاستفادة بالمشورة دون إلزام أو التزام بحضور المؤتمر ، وسوف نتصل بكم فى مرحلة أخرى – إن شاء الله – من أجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه إذا رغبتم فى ذلك .

وفى انتظار كريم ردكم نرجو أن تتقبلو خالص تحياتنا وأطيب أمنياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته .

د . ميجيل . ايبالثا

سكرتير عام جمعية الصداقة

الإسلامية – المسيحية

مدريد أبريل ١٩٧٨ م

وقد رد الإمام الأكبر . . على الدكتور ميجيل موضحاً وجهة نظره بالنسبة لهذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات المشابهة بما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتب الإمام الأكبر

الأزهر

شيخ الأزهر

السيد المحترم د . ميجيل دى ايبالثا

تحية طيبة

وبعد

فقد وصلنى خطابكم المؤرخ فى أبريل ١٩٧٨ م

وإنى أشكر لكم هذه الرغبة فى التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ، وإثراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى إلى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم ، وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلتنى أخبار المؤتمرين السابقين :

وأحب أن أنبه فى مودة ، ومن أجل تفاهم عميق إلى بعض الأمور :

١ – إن الإسلام – منذ أن بدا – خالف الجو العالمى اليهودى والوثنى . . فى أمر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . أما عيسى عليه السلام فهو وجيه فى الدنيا والآخرة . وأما أمه فهى صدّيقة ، ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم . وبراءة أمه وطهرها جزء من إيمان المسلم . ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين مازالوا على موقفهم إلى الآن من عيسى وأمه . لقد افتروا – ومازالوا – على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع ، أما الإسلام فإنه مجدهما ومازال مستمرًّا فى تجميده لهما .

فماذا لقى المسلمون من المسيحيين فى مقابل ذلك ؟ . .

٢ – إنه لابد من الاعتراف بالدين الإسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون فى أوربا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائرهم ، وإنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون وهو عيسى عليه السلام ، وأتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد ﷺ .

٣ – إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد ، وكان يجب أن يسيروا فى خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة ، ولكن ، للأسف ، يسير المسيحيون فى طريق تنصير المسلمين بقوة . فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين فى كل مكان فى العالم .

وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح ، أو بأسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقاً شديداً . وبرغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق فى سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية ، وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة ، ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا خراف بنى إسرائيل الضالة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين ، تساعدهم الثروة ، وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للأسلوب ولموضوع التنصير نفسه .

٤ – والمسلمون أقليات فى بعض الأقطار ، مثل الفلبين ، وهذه الأقليات المسلمة يُنكل بها باسم المسيحية ، تؤخذ أرضها ، ويتم أطفالها ، ويترمل نساؤها ، ولاتجد إلا ارتياحاً فى نفوس الأغلبية المسيحية . ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الأقطار التى بها الأغلبية المسيحية ، ونحب أن ينتهى ذلك : إنسانية ودينياً .

٥ – وفى المؤتمرات التى تعقد فى إسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث :

(ا) التزام العقل : وفى هذا يتحلل المسيحيون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود ، يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديدًا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديداً .

ولكن المسلمين فى هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام وأمه ، أما المسيحيون فإن بعضهم لا يبالى فيتحدث عن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام بما يضيق به المسلمون ، فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم وإنما تكون وسائل تنافر وذلك كما حدث فى المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين .

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم : فلا يساء إلى المسلمين فى مقدساتهم .

٦ – ونحن من جانبنا قد قدمنا أسس التفاهم واضحة سافرة : احترام المسيح عليه السلام ، واحترام أمه عليها السلام .

فماذا قدم المسيحيون ؟ . . لاشىء .

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا ومازالوا يهاجمون رسول الإسلام فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٧ – وأحب أن أقول إن الإسلام هو العامل الأكبر فى تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام وحين برّأ أمه . ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له ومازال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أُديت للمسيح عليه السلام . .

وبعد

فإنى أحب صادقاً أن نتعاون فى صدّ كل انحراف .

وأحب أن أقول إنه لولا تقديرى لكم لما كتبت لكم هذا ، وإننى يسرنى أن أقرأ لكم . . وسأتحدث إليكم عن رأيى فى موضوع المؤتمر فى المستقبل إن شاء الله . .

ولكم تحيتى وتقديرى . .

عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

هل يجوز لمسلم أن يدعو غير مسلم إلى حفل عقد قرانه أو فى حفل ميلاد ابنه ؟

إن الصلة بين المسلم وغير المسلم فى البر والعدل والتعامل مؤسسة على قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) .

وعلى هذا الأساس يجوز للمسلم أن يدعو غير المسلم إلى حفل عقد قرانه وإلى حفل ميلاد ابنه مادام غير المسلم لم يؤذ المسلمين ولم يقاتلهم فى الدين ، أما إذا كان غير المسلم من الذين يؤذون المسلمين فى دينهم أو فى أمورهم الأخرى كالتجارة والصناعة لا يجوز للمسلم أن يدعوه إلى حفل عقد قرانه أو حفل ميلاد ابنه وذلك أن هذه الدعوة إنما هى إعلان عن المودة وعن الصلة الوثيقة ، ولا يجوز أن يكون بين المسلم ومن يؤذى المسلمين صلة مودة لقوله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

والله أعلم .

فى العلاقات بين المسلم وغير المسلم

إن دين الإسلام يعمل دائماً لتوثيق الروابط بين المجتمع البشرى أفراده وجماعاته عملا بقوله تعالى :

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

ويقول سبحانه : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

وعلى هذا فإن المؤمن يكون شأنه آلفا مألوفاً كما قال ﷺ : « المؤمن آلف مألوف ، ولا خير فى من لا يألف ولا يُؤلف » . . فهو يعمل دائماً لجذب القلوب إليه لعلها تهتدى على يديه .

وإذن فلا مانع من حضور حفلات ميلاد أولاد غير المسلمين تأليفاً لقلوبهم ، وتطييباً لخاطرهم مالم تكن هناك منكرات : مثل شرب الخمر والرقص ، والاختلاط المشين . . أو أى شىء آخر يحرّمه الدين . فإذا وجد مثل ذلك فحضور هذه الحفلات يحرم لما فيها من الاشتراك فى الإثم . .

فى ذهاب المسلم إلى الكنيسة

معاملة المسيحيين بالحسنى مطلوبة ، لأن الدين الإسلامى لا تعصب فيه وأساس ذلك قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) .

والآيات التى تنهى عن موالاة الكافرين أو غير المسلمين إنما هى فيما إذا حاربوا المسلمين ، أوكانت العلاقة بهم على حساب مصلحة الإسلام وأهله .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن تابعهم من المؤمنين يعاملون المسيحيين وغيرهم من الذميين بالحسنى ، ويرفقون بهم ويخافون من أن يمسوهم بظلم أو يلحقوا بهم أى أذى .

فهذا عمر رضى الله عنه ، يعطى أهل بيت المقدس الأمان ، ويسير حتى يدخل كنيسة القيامة ، ويحين وقت الصلاة فيقول للبطريرك : أريد الصلاة – فيقول له : صل موضعك – فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفرداً ، فلما قضى صلاته قال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر .

على أن هذه العلاقة خاصة فيما يتصل بالذهاب إلى الكنائس والأديرة مشروطة بألا تؤدى إلى الميل إليهم أو التهاون معهم فيما يتصل بتقرير الحقائق التى جاء بها القرآن وجاءت بها السنة ، فإن

أدبت إلى شيء من ذلك وجب على المسلم الابتعاد حرصاً على دينه أولا وعلى حسن معاملة إخوانه من أهل الذمة ثانياً :

يقول ﷺ : « من آذى ذِمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

المسيحية فى العصر الراهن

هل المسيحية فى عصرنا هى المسيحية التى كانت فى عصر الرسول ﷺ أو هى المسيحية المبدلة المغيرة التى تشوه أصلها الحقيق بالتثليث والاشتراك وما إلى ذلك مما هو معروف .

ويرى بعض الصحابة كابن عمر أن المسيحية واليهودية من المشركات لقولهم فى الله مالا يليق به ، فلا يجوز نكاح واحدة منهن والراجح جواز نكاحهن .

هذا : ويجوز للحاكم المنع من ذلك لظروف خاصة ، وإذا خشى من ذلك ضرراً قد يسىء إلى المسلمين – أو إلى من يتزوج بواحدة من الكتابيات .

ويستثنى الإمام الشافعى من الكتابيات من تخالف أهل دينها فى أصل ما يحلون من الكتاب ويحرمون . . أى من تخرج على أصول دينهم

ويرى أن الكتابية التى يجوز نكاحها إذا نكحها المسلم كالمسلمة فيما لها وما عليها إلا أنهما لا يتوارثان – يجبرها زوجها المسلم على الغسل من الحيض والجنابة والتنظف .

ويمنعها من الكنيسة والخروج إلى الأعياد ، ويمنعها من شرب الخمر وأكل الخنزير .

وبالجملة يتصرف معها فى المنع والأمر كما يتصرف مع المسلمة سواء بسواء .

فى أكل طعام أهل الكتاب

قال تعالى : (اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حل لهم)

وقال : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

ولاخلاف بين العلماء فى جواز أكل طعامهم الذى لاصنعة فيه ، كالفاكهة والخضراوات ونحوها . . وكذلك ما فيه محاولة صنعة لا تعلق للدين بها ، كخبز الدقيق وعصر الزيت وطهى الطعام ونحو ذلك .

وأما ما يحتاج إلى محاولة متعلقة بالدين والنية كالذبائح فقال كثير من العلماء بحليتها للنص فى ذلك وهو ماذكرناه من قوله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم) .

وذلك إذا ذكر اسم الله عليه ، أما مالم يذكر اسم الله عليه من ذبائحهم فليس بحلال . ومن المعلوم أن هذا الحكم إنما هو فيما حل لنا من الطعام لا فيما حرم كالخنزير ونحوه ، فلا يجوز تناوله على الإطلاق .

فالطعام الذى تطبخه الفتاة المسيحية للمسلم مادام متأكداً من التسمية على الذبح وطريقته الموافقة للشرع لاخلاف فى جواز تناوله ، والصوم بعده ، ولا مانع من ذلك مادام الطعام لا يشتمل على محرم . .

فى مسلم تزوج من امرأة مسيحية ويرغب فى أن تصبح مسلمة ، ولكنها ترفض فكيف يتم الطلاق ؟ وهل يجب أن يتم أو يمكنه الاحتفاظ بها ؟

يمكن المسلم الذى تزوج بامرأة مسيحية رغبة فى إسلامها أن يطلقها متى شاء مادامت لم تقبل الإسلام ، وله أن يبقيها لأنها كتابية . . وقد أحل الله للمسلمين نكاح الكتابيات . . وإتمام الطلاق إن أراد يكون أمام الجهة التى تم التعاقد عندها . .

هذا وعليه أن يحسن عشرتها ولا يعجل فى طلاقها مادام قصده من الزواج إسلامها . . فعليه أن يعرض عليها الإسلام عرضاً سهلا مشوقاً لها فيه مبيناً الحكمة من كل أمر من أوامره أو نهى من نواهيه . .

قال تعالى : (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) .

فى إذا كانت أم المسلم كافرة ثم ماتت

إذا كانت أم المسلم كافرة ثم ماتت فإنه يستدعى الجهة الدينية التى تتبعها أمه ويكل إليهم أمر القيام على كل مايتعلق بطقوس الجنازة والدفن ، هذا إذا كانت كتابية أى تدين بدين أهل الكتاب ، ولايجب عليه شىء نحو أمه ، أى أنه لا يجب عليه غسلها ولاالصلاة عليها ولاغير ذلك من شعائر المسلمين نحو الميت .

أما إذا كانت الأم وثنية فإنه يفعل فى طريقة دفنها عادات الوثنيين ويتولى الوثنيون دفنها .

كل هذا إذا وجد من أهل دينها من يقوم بهذا الأمر ، أما إذا لم يوجد من أهل ملتها من يقوم بالأمر . فإن ابنها يقوم على دفنها فإذا أتم له ذلك يغتسل ولقد جاء أحد الصحابة يستشير رسول الله ﷺ فيما يفعل بجثة أبيه وقد كان وثنيًا فقال له : « اذهب فوَارِ أباك » .

فلما وارى أباه (أى دفنه) عاد إلى رسول الله ﷺ فقال له : « اذهب فاغتسل » .

فى شخص مسلم وأبوه غير مسلم ، أى من أهل الكتاب فهل يجوز لهذا المسلم أن يرث أباه

بسم الله الرحمن الرحيم – الحمد لله رب العالمين .

لايجوز أن يرث المسلم غير المسلم ولو كان أباه .

قال صاحب الرحبة :

ويمنع الشخص من الميراث واحدة من علل ثلاث
رق وقتل واختلاف دين فافهم فليس الشك كاليقين

فى المستشرق الذى يبنى مسجدًا

لما بنى المنافقون مسجد الضرار لصرف المسلمين عن مسجد المدينة هدمه الرسول ﷺ امتثالا لقوله تعالى : (والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكُفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لاتقم فيه أبدًا) .

والسبب فى ذلك كما ذكرت الآية أن الغرض من بنائه كان إشاعة التفرقة بين المسلمين ونشر الأفكار الهدامة من طريقه .

فإذا كان المستشرق الأوربى الذى بنى هذا المسجد يقصد به نشر دعاية ضارة بالإسلام أو انحرافًا بالمسلمين عن أهدافهم أو استغلاله لنفع خاص له أولدولته حرمت الصلاة بمسجده ، وإن لم يقصد شيئًا من ذلك وتركه للمسلمين ، يتصرفون فيه كما يشاءون فعلى المسلمين المحافظة عليه ، ويستوى هو وغيره من مساجد المسلمين . وعلى ذلك فمسجد المستشرق إذا لم يتركه للمسلمين . . وتولى توجيه الإرشاد فيه بنفسه تكره أو تحرم الصلاة فيه ، بحسب قوة تأثير التوجيه ومدى التحكم فى الإدارة وإذا تركه للمسلمين جازت الصلاة وفيه وكان كغيره من المساجد . والمساجد بيوت الله تعالى يجب أن تُصان عن الخبث الحسى والمعنوى ، وأن تكون منارات إشعاع

يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وأى انحراف لها عن ذلك هو بمثابة هدم لها وخروج بها عن أهدافها ، فإذا بناها واستغلها لأى غرض آخر يسىء إلى الدين أو إلى المسلمين فإنه يحرم الصلاة فيه .

فى حكم من ارتد عن الإسلام

لايعد من المسلمين من ارتد عن الإسلام إلى المسيحية ، والولد تابع لوالديه فى الدين حتى يبلغ فيظهر إيمانه أو عدمه ، وعلى ذلك فلا يجوز للمسلمين عقيقة المولود من الزوجين المسيحيين – اللهم إلاّ إذا فصل عن والديه من حين مولده ، وتولى المسلمون تربيته ورعايته لأنه حينئذ يكون فى عداد المسلمين .

أما عن حكم الشريعة فى الزوج فهو حكمها فى المرتد الذى تشرّب الكفر وركن إليه ويعبر عنه قوله تعالى : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) .

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال : « من بدَّل دينه فاقتلوه » . وقتل أبوموسى الأشعرى يهوديًا أسلم ثم ارتد إلى اليهودية . وحرق على بن أبى طالب زنادقة بالنار .

ويتولى ذلك الحاكم المسلم ، فإذا لم يكن هناك حاكم مسلم أولم ينفذ ذلك الحاكم المسلم فليس لغيره من المسلمين تنفيذه ، إن أمر المرتد إلى الحاكم وحده لا إلى غيره .

أما فى الآخرة فهو فى مقت الله وغضبه .

فى الزواج بمجوسية

المجوس : قوم يعبدون مصادر النور مثل : الشمس ، والقمر ، والنيران ، وعلى ذلك فالمجوس مشركون لاتجوز مناكحتهم ، وماورد عن تسرى بعض الصحابة بمجوسية فهذا فى الإماء .

هذا عن الاقتران بمجوسية ، أما كيف تعتنق الإسلام فهذا مرهون برغبتها وبإرادتها ليس من سبيل إلى ذلك إلا بشرح الإسلام وعرضه عرضًا ييسر لها فهمه ومعرفة محاسنه ، هذا وفى المسلمات غِنًى عن هذا الزواج المحرم الذى لايجوز اللهم إلاّ إذا أسلمت أولا :

قال تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولابالميوم الآخر ولايُحرِّمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولاتؤخذ الجزية إلا من المقاتلين ، فقد أجمع العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار

البالغين دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفانى .

والجزية باقية إلى الآن ، لأن سببها – وهو الجهاد دفاعًا عن الإسلام وصدًّا للكفر – باقٍ إلى اليوم .

ولاصلة بين الجزية والرِّبا ، لأن الربا أخذ مال زائد عن الحق بدون سبب شرعى موجب لهذه الزيادة . أما الجزية فهى مبلغ معين لايزيد على أربعة دنانير يدفعها غير المسلم فى مقابل تأمينه على حياته ، وعلى أهله ، وعلى ماله ، والقيام عنه بأعباء الإدارة والدفاع ، وتقديم الخدمات العادية من تعليم وطب ومساعدة ونحوها .

وإن كان الرِّبا يمثل اعتصارًا عنيفًا للمستدينين وجشعًا لاحد له من الدائنين فإن الجزية تمثل رحمة واسعة من المسلمين ، ورفقًا زائدًا لغير المسلمين . حيث يتكفل المسلمون بالدفاع عنهم وتأمين حياتهم وتعبيد طرقهم ومساعدتهم اجتماعيا بشتى الصور .

وسئل رضي الله عنه في الحلال والحرام

فى حكم من عاش مائة عام كافرًا ثم أسلم قبل وفاته بسنة واحدة

لايشترط فى صحة الإسلام مدة معينة ، فالإنسان مهما عاش على دين ما ثم شرح الله صدره للإسلام فأسلم قبل موته بسنة أو بشهر أو بأسبوع أو حتى بلحظات قليلة فإن إسلامه صحيح يتقبله الله مادام معافى صحيح العقل صادقًا فى إسلامه .

والإسلام فى هذه الحالة يجبُّ ماقبله كما يقول الفقهاء ، أى يمحو السيئات السابقة ، والخطايا التى تكون بين العبد وربه .

فى بعض الناس لايؤدون الواجبات الدينية والفروض ، ويدّعون أنه لا شىء عليهم فى ذلك مادامت معاملتهم طيبة للناس

سئل ﷺ عن قوم قالوا : نحسن الظن بالله ونترك العمل ، فقال : « كذبوا : لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

إن الإخلاص فى العمل ، والحكم على المسلم بالصلاح مشروطان باتباع أوامر الدين واجتناب نواهيه ، ومثل هذا الادعاء ، قد يدعيه غير المسلم فى تركه الإسلام محتجًا بطهارة قلبه وصفاء نفسه وإخلاصه فى عمله ، وهو ادعاء باطل يخالف النصوص الدينية الصريحة الآمرة باتباع الرسول ﷺ ، يقول تعالى :

(قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له مُلك السموات والأرض لاإله إلاّ هو يحى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون) إن ترك الواجبات الدينية دليل على عدم طهارة القلب وصفاء النفس فى العمل وإن من الخطأ الفاضح والوهم الواهم أن يعمد المرء إلى الواجبات الدينية فيجعل لها أهدافًا خاصة ، ثم يتحلل من هذه الواجبات بحجة تحققه بما تهدف إليه ، فما يدريه أن هذا الهدف هو وحده المطلوب وقد يكون المطلوب شيئًا آخر غير هذا الهدف أو مع هذا الهدف .

إن تعليل النصوص الشرعية لايقبل إلا لزيادة الإيمان بقدسية النص وروعة دلالته ، أما إذا أدى التعليل إلى إهدار النص أو إبطال مايدل عليه فهو تعليل المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وأسلوب المبتدعين ، ولنضرب لذلك مثلا :

إن الله تعالى يقول : (وأقيموا الصلاة) أى أدوها فى أوقاتها مع استكمال شروطها ، كما جاء عن الرسول ﷺ ، فإذا ماقال قائل الهدف من الصلاة تطهير النفس ، والانتهاء عن المنكر وأنا كذلك بلا صلاة ، فلماذا الصلاة ؟ وامتنع من أدائها ، فهو أمام أحد أمرين ، إما أنه أعلم من الرسول ﷺ حيث كان يصلى ويكثر الصلاة ، وهذا جهل فاضح ، وإما أنه متلاعب يستر تلاعبه بباطل الآراء ، وقد ذكر رجلٌ المعرفة أمام الجنيد قال : أهل المعرفة بالله يضلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجنيد :

إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا .

ويقول الإمام الغزالى : فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولايضره بعض المحظورات .

قلت : اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا : لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان .

فى من يعلقون التمائم خوفًا من الحسد ومن مس الشيطان لهم

إن المسلم إذا كتب بعض آيات من القرآن ، أو بعض أسماء الله الحسنى وحملها تبركًا بها ورجاء أن يمنع الله عنه الشر بفضلها فإن ذلك ليس بممنوع ، ولقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يحملون بعض آثار الرسول ﷺ تبركًا بها ، وحبًّا فيه صلوات الله عليه وسلامه .

أما تعليق أشياء يبغضها الدين فإن ذلك هو مايسمى فى الإسلام بالتمائم وقد كان العرب يعلقون أشياء من هذا القبيل ، يمنعون بها فيما يزعمون الحسد والشر ، فنهى عنها الإسلام .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد : « من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنهما أنه دخل على امرأته ، وفى عنقها شىء معقود فجهز به فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانًا ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة ، شرك ، قالوا يا أبا عبد الله هذه التمائم والرقى عرفناها فما التولة ، قال : شىء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن » .

ومن ذلك نعلم أنه لايجوز لمسلم أن يعلق فى عنقه أو فى عنق أطفاله أشياء يبغضها الدين .

فى قراءة القرآن على غير وضوء

إن قراءة القرآن على غير وضوء جائزة مادام القارئ طاهرًا من الجنابة ، وقد ورد أن سيدنا عمر رضى الله عنه كان يقرؤه على غير وضوء ، فلما سُئل فى ذلك أجاب بما يفيد أنه جائز ، وأما حمله على غير وضوء ، فقد أجاز أبو حنيفة رضى الله عنه ذلك إذا كان بغلافة ، أى إذا كان مُغلَّفًا داخل كساء .

ولقد اختلف العلماء فى مس المصحف على غير وضوء ، فالجمهور على المنع من مسه ، ويقول الإمام القرطبى :

واختلفت الرواية عن أبى حنيفة فروى عنه أنه يمسه المحدث حدثًا أصغر ، وقد روى هذا عن جماعة من السلف ، منهم ابن عباس وغيره .

ويقول الإمام القرطبى أيضًا : وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن على أنه لابأس بحمله ومسه للمسلم طاهرًا أو محدثًا حدثًا أصغر .

أما مس الصبيان للمصحف فالأظهر الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ، وبعد فإنه مما لاشك فيه أن مس المصحف على طهارة كاملة من الأمور التى يحرص عليها المؤمن كلما أتيحت له الفرصة لذلك ، وهو فى هذا يسير مع الوضع الصحيح لتكريم المصحف واحترامه ، بيد أنه تحدث ظروف لايتمكن الإنسان فيها من الوضوء لسبب من الأسباب ، وتكون فى الوقت نفسه الفرصة متاحة للقراءة فى المصحف ، وفى هذه الحالة للإنسان أن يأخذ برأى الأئمة الذين أباحوا مسه على غير وضوء ، وأن ذلك خير من أن يترك فرصة متاحة للقراءة والثواب .

هل تجوز قراءة القرآن الكريم داخل دكان التجارة بالسوق ؟

إن قراءة القرآن الكريم وسماعه من الأمور التى يجب أن تكون شعار المسلمين باستمرار ، وإن من الفروق بينهم وبين الذين كفروا ماحدثنا الله تعالى به فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون) .

وإذا كان هذا شأن الذين كفروا فإن شأن المسلمين أن يستمعوا للقرآن ، وأن يتلوه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وعلى هذا فإنه يجوز تلاوة القرآن فى داخل دكان للتجارة بالسوق ، فإنه يذكر أهل الدكان

بالصدق والخير والتسامح والفضيلة ويشيع فى جو الدكان تياراً من النور والتذكير بالله ويشيع عند كل من يسمعه ذلك .

ومع ذلك فإن هذا مشروط بأن لايكون فيه تعريض للقرآن إلى عدم توقيره أو إجلاله ، فإذا كانت قراءة القرآن فى وضع يتعرض فيه القرآن لأى أمر من الأمور التى لاتليق بجلاله فإنه حينئذ تحرم قراءته ، سواء كان ذلك فى دكان للتجارة فى السوق أم فى غير ذلك من الأمكنة .

فى قراءة القرآن على الإنسان بعد وفاته

قراءة القرآن على الإنسان بعد وفاته جائزة ، وهى لاشك تهون على الإنسان فى قبره كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ ، وقد حثنا صلوات الله عليه على قراءة القرآن للميت بعد وفاته فقال : « مامن ميت يُقرأ عليه سورة (يس) إلا تهون عليه » .

وقال أيضًا : من دخل المقابر فقرأ سورة (يس) خفف الله عنهم يومئذ . وكان له بعدد من فيها حسنات » ذكره الثعلبى عن أبى هريرة » .

هذا بالنسبة لما ثبت من الصحة فى قراءة القرآن على الميت بعد وفاته ، وجواز ذلك دون أن يكون هناك حرج يمنع من قراءة القرآن للميت ، فضلا عن أن القراءة يصل ثوابها للمتوفى

أما بالنسبة لما يتعلق بالقارئ ، فالقراءة كما أنها تعود على المتوفى وتوصل إليه الثواب ، فهى أيضًا تعود على القارئ بالثواب الحسن والأجر الجزيل ، كما أخبرنا بذلك الحديث السابق .

وبعد : فيقول رسول الله ﷺ :

« إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، وعلم يُنتفع به ، وابن صالح يدعو له » وقراءة القرآن من أهم أنواع الدعاء الذى يتوجه بها الداعى إلى ربه ففى الحديث الشريف مامعناه : من شغله القرآن عن ذكرى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

فى مناط تحريم الخمر

مناط التحريم فى مثل هذه المشروبات وعدمه إذا كانت مسكرة أو مفترة كانت من الأشياء التى نهى رسول الله ﷺ من تناولها ، وكان حكمها حكم الخمر فى التحريم ويحرم قليلها كما يحرم كثيرها ، روى أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنهما قالت : « نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر » .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : «كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام» رواه الجماعة إلا

البخارى وابن ماجه . وفى رواية « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الحنطة خمرًا ، ومن الشعير خمرًا ، ومن العنب خمرًا ومن التمر خمرًا ، ومن العسل خمرًا » رواه الخمسة إلاّ النسائى زاد أحمد وأبوداود : وأنا أنهى عن كل مسكر . فالبيرة والبوظة وماشابهها من المسكرات والمخدرات جميعها حرام ، وهى خمر وإن اتخذ الناس لها أسماء أخرى غير اسم الخمر ، وهذا رسول الله ﷺ يحدثنا عن ذلك فيقول فيما يرويه عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لتستحلن طائفة من أمتى الخمر باسم يسمونها إيّاه » ، رواه أحمد وابن ماجه ، وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر ، ويسمونها بغير اسمها » .

والقليل فى التحريم كالكثير سواء بسواء ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « ماأسكر كثيره فقليله حرام » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « كل مسكر حرام ، وماأسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام » وفى رواية الإمام أحمد بلفظ « فالأوقية منه حرام » وفى رواية « فالحسوة منه حرام » والفرق بفتح الراء وبسكونها مكيال معروف بالمدينة يسع ستة عشر رطلا ، وقيل : هو بفتح الراء ستة عشر رطلا ، فإذا سكنت فهو مائة وعشرون رطلا ، وليس المراد حقيقة الفرق ولاملء الكف والأوقية أو الحسوة وإنما هو تمثيل للكثير والقليل .

قال الشوكانى فى نيل الأوطار وذكره ملء الكف ، فى الأوقية فى الحديث على سبيل التمثيل ، فالحكم شامل للقطرة ونحوها .

قال ابن رسلان فى شرح السنن المسلمون على وجوب الحدّ على شاربها ، سواء شرب قليلا أم كثيرًا ولو قطرة واحدة .

أما جزاء من يشرب من ذلك إذا مات ولم يتب عنها فقد بينه رسول الله ﷺ ، فقد روى عن جابر أن رجلا من جيشان – وجيشان من اليمن – سأل النبى ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر ، فقال أمسكر هو ؟ قال نعم : فقال « كل مسكر حرام » إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا يارسول الله وماطينة الخبال ؟ قال : « عرق أهل النار أو عصارة أهل النار » رواه مسلم وأحمد والنسائى .

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كل مخمر خمر ، وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا » أى رُدّت عليه ولم يقبلها الله أربعين يومًا ، فإن تاب تاب الله

عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وماطينة الخبال يارسول الله ؟ قال صديد أهل النار ، ومن سقاه صغيرًا لايعرف حلاله من حرامه كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » رواه أبوداود .

فى حكم شارب خمر ترك الخمر والتجأ إلى شيء آخر غير خمر ولكنه مسكر

الخمر حرام حرمها الله سبحانه وتعالى بنص القرآن ، قال تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) .

فمن شربها بعد هذا النص الصريح مستحلا لها ، كان كافرًا ، لأنه أنكر ماعلم من الدين بالضرورة .

أما إذا شربها وهو يعتقد حرمتها فهو مرتكب للكبيرة ، وهو عاص بشربها ، ولابد له من التوبة والرجوع إلى الله والإقلاع عن هذا المنكر .

وليست الخمر نوعًا معينًا محدودًا من المشروبات ، وإنما كل مسكر خمر ، كما ورد فى الحديث الشريف ، ومن المعروف أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام . ومن المعروف أن الخمر ماخامر العقل أى أخل باتزانه ، وإن لم يذهب العقل كلية ، والسكر يبدأ باختلال هذا التوازن العقلى ، وكل ما أخل بالتوازن العقلى من شرب أى شيء مسكر فقد ارتكب محرمًا ويجب عليه الإقلاع عنه .

لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة

لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة ، عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشترى له ، فلا يكفى فى الخروج من إثم الخمر أن يمتنع الإنسان عن شربها ويتسبب فى شرب الآخرين لها أو يعينهم على هذا الشرب .

وقد ورد لعنه صريحًا فيما ذكرناه عن رسول الله ﷺ ، ثم إن إثمه قد يكون أكبر من إثم شارب الخمر ، لأن عليه مثل آثام من شربوا على يديه ، أو بسبب مناولته الخمر لاينقص ذلك من آثامهم شيئًا لقوله ﷺ :

« من دعا إلى ضلالة ، كان عليه مثل آثام من اتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئًا » إن الإسلام لايقر شرب الخمر ، ولايرضى من المسلم بأن يقره ، وهل هناك إقرار لشربها وتشجيع عليه من تقديمها للضيوف مهما امتنع من يقدمها عن شربها .

إنه بذلك يحارب الله ورسوله ، وينتهك حرمات الله ، يستحل ماحرم الله وهو ملعون فى كل ذلك . فليحذر مخالفة الله ورسوله ، وليحذر أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم .

فى البيرة والكينا

جاء فى تقرير المؤتمر الدولى لمكافحة المسكرات عام ١٩٣٩ عن البيرة قوله :

إن إنتاج هذا الشراب وغيره من أنواع الخمور لايستفيد منه إلاّ صانعه وبائعه ، أما ضحاياه فهم أولئك الذين أغرتهم الأهواء بإدمانه وتعاطيه .

لقد اعتبر هذا المؤتمر أن البيرة من أنواع الخمر ، وهو على كل حال ، حسبما تذكر التقارير تحتوى على نسبة من الكحول تتفاوت كثرة وقلة وإذا لم يكن قليلها مسكرًا فكثيرها مسكر وقد قال : صلوات الله عليه فيما رواه الإمام أحمد وابن ماجة والدارقطنى : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » فقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ حرّم المزر ، وهو شراب كان يتخذه أهل اليمن من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد ، وهذا نص فى البيرة فيقول صلوات الله عليه فيما رواه ابن ماجه:(إن من الحنطة خمرًا ، ومن الشعير خمرًا) ، وروى مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله عليه وسلم قال : « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » . من هذا نتبين أن البيرة خمر وأنها حرام .

وكذلك الكينا المخلوطة بالخمر ، ولاعبرة باختلاف الأسماء ، فقد قال صلوات الله عليه : « يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها » .

أما الاتجار فيها فهو داخل فى نطاق اللعنة التى صبها رسول الله ﷺ فيما قال : « لعنت الخمر على عشرة أوجه : بعينها وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها ، وشاربها ، وساقيها » .

أما شربها للتداوى ، فقد سأل طارق بن سويد الرسول ﷺ عن الخمر يصنعها للدواء ، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال هذه الكلمة التى هى كالحكمة « إنه ليس بدواء ولكنه داء » .

وفيما رواه ابن ماجه فى صحيحه قوله صلوات الله عليه « إن الله لم يجعل شفاءكم فى حرام » .

فى أيهما شر الذى يشرب الخمر أو الذى يهمل فى فرائض الله

كلاهما شر ولافضل فى أحدهما . فكلاهما ناقص ، الأول ارتكب ماحرم الله ، والثانى أهمل فرض الله :

وإذا كان ترك الصلاة من أكبر الكبائر وقد يؤدى إلى الشرك فإن شرب الخمر من الكبائر وقد يؤدى إلى عدم قبول العمل .

والمفاضلة إنما تكون بين طيب وخبيث ، أو بين طيب وأطيب ، أما هذان فكلاهما خبيث وبعضهما أخبث من بعض ولامجال للمقارنة بينهما فى فضل . .

فى حكم التداوى بالخمر

التداوى بالخمر حرام لقول النبى ﷺ : « لم يجعل الله شفاء أمتى فيما حرّم عليها » ، ولأن الشفاء مظنون والحرمة مقطوع بها ولايغلب مظنون على مقطوع ومع ذلك فإن الخمر وسائر ماحرم الله على المؤمن حلال إن تعين لحفظ الروح عملا بقوله تعالى : (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) .

وذلك كما لو كان على وشك الموت جوعًا ولم يجد إلا الميتة أو لحم الخنزير أو جرعة من خمر ، وكما لو كان على الأكل ووقفت اللقمة وليس لديه إلاّزجاجة من خمر بالقرب منه فعليه أن يأخذ منها مايزيل به غصته .

أما أمر التداوى فإن فى تقدم الاختراعات الكيماوية فى العصر الحاضر مايجعل التداوى بالخمر أمرًا غير محتم ، إذ فى غيرها مما ابتدعه الإنسان وجاء به العلم يغنى عنه ، ولقد قال رسول الله ﷺ عن الخمر مامعناه : « إنها ليست دواء ولكنها داء » .

فى حكمة تحريم الخمر فى الدنيا وتحليلها فى الآخرة

يتحدث الله سبحانه وتعالى فى أكثر من آية فى القرآن الكريم ، عن نعيم أهل الجنة ومن نعيمهم الحسى ، تناول شراب الخمر ، وكما أن فى الجنة أنهارًا من لبن ، ومن عسل ، فإن فيها أنهارًا من خمر يقول سبحانه :

(مثل الجنة التى وُعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذّةٍ للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى) .

أما تناولهم هذا الشراب ، فإن الله تعالى يصفه بقوله :

(يُطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لافيها غَوْلٌ ولا هم عنها ينزفون) .

والغَوْل : الضَّرر والصداع ، والله سبحانه وتعالى ينفى عن خمر الآخرة ذلك ، وأما كلمة ينزفون التى نفاها القرآن الكريم عن شارب الخمر فى الجنة ، فمن معانيها :

إذهاب العقل ، يقال : نزفت الخمر عقله بالسكر ، أى أذهبته ، والخمر إذن فى الآخرة لاتُذهب العقل وخمر الآخرة لاضرر فيها ولاسكر ، وهذان الأمران هما : السبب الذى من أجله حُرِّمت الخمر فى الدنيا .

ولقد سميت الخمر من أجل هذين الأمرين « أم الخبائث » ولقد حرمها بعض العرب فى الجاهلية على أنفسهم ، لأنها تقود الإنسان إلى كل خبيث ، وكان ممن حرمها عبد المطلب جد النبى ﷺ .

ولقد لعنها الله سبحانه وتعالى فى الدنيا فى نفسها كمادة سائلة ، ولعنها فى شاربها ، ولعنها فى عاصرها ، ولعنها فى معتصرها ، ولعنها فى حاملها ، ولعنها فى المتَّجر فيها .

لقد لعنها الله سبحانه وتعالى فى جميع ظروفها وملابساتها ، وقال سبحانه : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ومادام قد انتفى منها الضرر والسكر فى الآخرة ، فقد بقيت لذتها وهى من نعيم أهل الجنة ..

فى المخدرات

إن المخدرات ظهرت فى البيئة الإسلامية فى القرن السابع الهجرى مع دولة التتار ، وبمجرد أن ظهرت أجمع علماء المسلمين على تحريمها مستندين إلى أصول عامة من قواعد التشريع الإسلامى ، وإنه لمن المعروف أن من قواعد التشريع الإسلامى أن ماأفسد العقل يحرم تناوله مأكولا كان أو مشروبًا ، أو مشمومًا ، والمحافظة على العقل ، وعلى الاتزان الأخلاقى ، وعلى السمو الروحى كل ذلك من أهداف الإسلام وأغراضه الجوهرية .

ومما لاشك فيه أن المخدرات مفسدة للعقل ، مخلة بالسلوك الأخلاقى الكريم ، ومن أجل ذلك كانت محرمة عن طريق قواعد التشريع الإسلامى ، وكانت محرمة لأنها تخل بأهداف الدين وغاياته . .

على أن المخدرات وإن لم تكن على عهد رسول الله ﷺ فقد ورد تحريمها فى أحاديثه كمعجزة من معجزاته ﷺ .

فقد روى أبو داود أن رسول الله ﷺ ، نهى عن كل مسكر ومفتر ، ونهى رسول الله ﷺ عن المسكر يتضمن كل أنواع الخمور ، ومنها البيرة ونهيه عن المفتر يتضمن كل أنواع المخدرات .

والنهى عن المسكر والمفتر إنما هو نهى عن كل مايحدث تغييرًا فى الاتزان العقلى على وجه

العموم ، ومن أجل مافى المخدرات من مفاسد قال الإمام ابن تيمية عنها ، إن فيها من المفاسد مما ليس فى الخمر ، فهى أولى بالتحريم .

أما ابن القيم فإنه يسمى المخدرات « باللقمة الملعونة » ويقول عنها : إنها لقمة الفسق والفجور التى تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن .

أما من استحل الحشيش أو المخدرات على وجه العموم فإن الإمام ابن تيمية يقول عنه : « من استحلها وزعم أنها حلال فإنه يستتاب ، فإن تاب ، وإلا قتل مرتدًّا ، لايُصلى عليه ولايُدفن فى مقابر المسلمين » .

ما حكم من ذبح جاموسة وتحقق فقدها للحياة وسال منها دم أسود قاتم ولكنها لم تتحرك لاقبل الذبح ولابعده ؟

الجاموسة التى لم تتحرك قبل الذبح ، ولم تتحرك بعد الذبح ، تدل الظواهر على أنها كانت ميتة .

ومهما سال منها الدم فإنها لاتحل ، وأكلها حرام ، لأنها ميتة ، وقد حرم الله أكل الميتة ، فقال تعالى : (حرِّمت عليكم الميتة والدَّمُ ولحم الخنزير وما أهِلَّ لغير الله به والمُنْخَنقة ، والموقُوذة ، والمتردِّية ، والنَّطيحة ، وما أكل السَّبُع إلاّ ماذكَّيتم ، وماذُبح على النُّصب) فهى إذن حرام ، لأنها ميتة ، وليست من الأصناف المستثناة .

ما حُكم إنسان كان فى سفر مع صديق له فمات الصديق من جوع وعطش ، فلما خاف أن يموت هو أيضا – من الجوع والعطش – أكل لحم أخيه الصديق الميت ؟

يقول الله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية ، والنطيحة ، وماأكل السبع إلاّ ماذكيتم ، وماذبح على النصب) .

هذه الأمور محرمة على الإنسان بحكم هذه الآية فلا يحل له أن يتناولها – لكن قد يضطر الإنسان لحفظ حياته إلى تناول شىء من هذه المحرمات ، ولذلك قال الله تعالى : (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم) أى أن من اضطرته المخمصة – أى الجوع الذى أشرف منه على الهلاك – إلى تناول شىء من المحرمات حفظًا لحياته فليس مرتكبًا ذنبًا بشرط أن يكون تناوله من

المحرم بقدر الضرورة كما صرحت الآية الأخرى : (فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلاإثم عليه) .

وإذا مات الإنسان يحرم الاعتداء على أى من أعضائه أو تناول أى شىء من لحمه ، إلا فى مثل هذه الصورة ، فإنه يباح للصديق أن يأكل بقدر مايحفظ عليه حياته .

وقيل فى الإقناع : « وللمضطر أكل آدمى ميت إذا لم يجد ميتة غيره كما قيده الشيخان فى الشرح والروضة لأن حرمة الحى أعظم من حرمة الميت » .

فى أكل لحم الخنزير

الواجب علينا كمسلمين أن نؤمن إيمانًا جازمًا أن الله سبحانه ماأحل لنا إلا الطيب ، وماحرم علينا إلا الخبيث (ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وهو سبحانه حكيم فى كل أفعاله ، وكل ما أمر به عباده أو نهاهم عنه إنما هو لخيرهم وصلاح أمرهم لحكمة بالغة حتى ولو غابت هذه الحكمة عن العباد ، فواجبنا أن نطيع الأمر الإلهى ، نعبد الله سبحانه حتى وإن لم تصل مداركنا البشرية القاصرة لحكمة الله فى أوامره ونواهيه ، ومع ذلك وبالنسبة للحم الخنزير ، فإن لحم الخنزير ضار بالأبدان ، مولد للأمراض ، مفسد للأخلاق ، ذلك أنه يحمل من الميكروبات ماثبت بالتجربة العلمية أنها لاتموت فى أقصى درجات الحرارة والغليان ، فتنتقل إلى الإنسان الذى يأكله فتصيبه بأمراض كثيرة قد لايستطيع التخلص منها ، كميكروب التينيا ، وغيرها ، هذا من الناحية الجسمية أما من الناحية النفسية والأخلاقية فإن من المعروف أن خصائص الحيوان قد تنتقل إلى الإنسان بالأكل منه ، والخنزير معروف بالبلادة والخسة ، وأنه عديم الغيرة على أنثاه ، وهذه الصفات الخسيسة لايرضاها الإسلام لأتباعه .

أما حالة الاضطرار التى أباح الله فيها للمضطر أن يتناول ماحرم الله عليه فقد حددتها الآية الكريمة بالمخمصة أى المجاعة ، فأبيح فى حالة المخمصة أن يأكل المسلم ماحرم عليه لرد مخمصته ، فقد قال تعالى : (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) أى غير مائل لإثم يتجاوز به سد الرمق ، وقال تعالى فى الآية الأخرى : (فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه) .

وقد بينت لنا السنة المطهرة أن هذه الحالة إنما تكون حين تنعدم جميع الأطعمة التى أحلها الله فإذا حدثت المخمصة ولايجد المسلم فى البلد الذى يقيم فيه طعامًا ولاشرابًا من لبن أو لحم أو بقل أو غيرها إلاّ الطعام المحرم فإن الإسلام يبيح له أن يأكل غير باغ ولاعاد .

فقد روى أحمد والطبرانى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنّا بأرض تصيبنا المخمصة فما يحل لنا من الميتة فقال : إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بها بقلا فشأنكم بها .

والاصطباح هو أكل الصبوح وهو- هنا الغذاء- والاغتباق هو أكل الغَبوق وهو- هنا العشاء - وقد ذكر الشوكانى فى نيل الأوطار أن الصبوح شرب اللبن أول النهار ، والغَبوق بفتح الغين شرب اللبن آخر النهار ، ثم استعملا فى الأكل للغداء والعشاء ، وبمعنى لم تحتفئوا بها بقلا ، إن لم تقتلعوا من الأرض بقلا تأكلونه فيغنيكم عن أكل الميتة « فشأنكم بها » أى فكلوا وفق مقتضى حالكم مع الميتة ، أى إن لم تجدوا غير الميتة فكلوا منها لاضطراركم للأكل منها إذا لم تجدوا غيرها .

ويؤخذ من الحديث الشريف : أن الطعام المحرم لايحل تناوله إلا فى حالة الاضطرار ، وأن حالة الاضطرار لاتكون إلا عند المخمصة ، ولم يجدوا أى طعام من الأطعمة التى أحلها الله لحمًا أو بقلا أو غيرهما من أنواع الأطعمة .

وفى اعتقادنا أن هذه الحالة لاتوجد فى أى معيشة من المدن فى هذه الأيام ومع ذلك فالحلال بيِّن والحرام بيِّن . وحالة الاضطرار بينتها السنة المطهرة والمسلم أمين على دينه مسئول أمام ربه ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

فى استعمال دهن الخنزير فى المعلبات مثل الزبدة واللبن

يجب التحقق من أن الجمعيات والمؤسسات التى تقوم بتعليب الزبدة واللبن تستعمل فى صناعة تلك المعلبات دهن الخنزير وإذا تأكد ذلك لنا فيجب اجتناب كل ما تنتجه تلك الشركات والجمعيات ، للقطع بتحريم الخنزير كله ، والتنبيه على تلك الشركات بترك استعمال دهن الخنزير فى كل مصنوعاتها ، واستبدال المعلبات التى تضطر إلى دهن الخنزير لمنع صدئها بمعلبات أخرى لاتصدأ كالألمنيوم والبلاستيك ، ومايعرفه العلماء المتخصصون فى ذلك ، وكما حرم الله علينا - نحن المسلمين - لحم الخنزير وبين لنا النبى أنه نجس حرم علينا التجارة فيه ، وحرم علينا استعمال أى شىء منه وعلى من يعلم شيئًا فى ذلك من أفراد الشعب أن يسارع بالتنبيه على أولى الأمر ليحفظوا على الشعب كرامته ، ويحولوا بينه وبين مايضره .

هل يجوز للمسلم المتزوج من غير مسلمة أن يسمح لزوجته بطبخ لحم الخنزير؟

لايحل لمسلم متزوج من غير مسلمة أن يسمح لزوجته بطبخ لحم الخنزير أو لحم الحيوانات والطيور المذبوحة ، بطريقة غير إسلامية .

ولايحل له أيضًا أن يشاركها طعامها ، وذلك لأنه ليس لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتعدى حدود الله ، فيحل ماحرم الله ورسوله ، أو يرضى بفعل ماحرم الله ورسوله ﷺ ، قال الله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأُهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلاّ ماذكيتم وماذبح على النُّصب) وماحرم الله على الإنسان أكله ، حرم عليه أيضًا أن يُقرَّ أحدًا عليه ، أو يشاركه أكله ، لأنه بذلك يخالف نص الشارع الحكيم ، وفعله يشعر باختياره ، وعدم رضاه بحكم الله وحكم رسوله ﷺ ، ومن فعل ذلك مستحلا له فقد كفر والإيمان كل لايتجزأ .

إن هناك من الطائفة الإسماعيلية فى أوربا من يأكلون لحم الخنزير فهل هذه الطائفة مسلمة تؤدى الواجبات الإسلامية ؟

من شهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله وآمن بكل ما جاء به من عند الله فهو من المسلمين ، ولايخرجه من الإسلام إلا أن ينكر شيئًا مما علم من الدين بالضرورة ، وأكل لحم الخنزير حرام بالكتاب والسنة والإجماع ، وأصبح معلومًا من الدين بالضرورة ، فمن أكله مستحلا له فإنه يكون كافرًا . وطائفة الإسماعيلية والبهائية والقديانية والبابية فرق كافرة بالإجماع .

أما من أكله وهو معتقد حرمته فهو مسلم عاص ، مرتكب كبيرة من الكبائر قال الله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل لغير الله به) . ومثله هذا كمثل من ترك الصلاة والصيام ، فإنه إن ترك ذلك مستحلا له فإنه يكون كافرًا ، أما إن ترك ذلك تكاسلا فإنه يكون عاصيًا ، فمن أكل لحم الخنزير مستحلا لأكله مع ورود النص الصريح بتحريمه فإنه يكون كافرًا ، أما من جرى مع العرف والعادات فى أوربا وأكل لحم الخنزير كما يأكلون وهو يعتقد أن لحم الخنزير حرام فإنه يكون مسلمًا عاصيًا ، وعليه أن يتوب توبة نصوحًا ، فإن لم يتب فإنه يُحاسب على مافعل من مخالفة الأمر الصريح المحرم للحم الخنزير .

ومرجع الإسلام ، أو عدم الإسلام هو الإيمان أو عدم الإيمان ، بأن محمدًا ﷺ رسول نسخت رسالته جميع الرسالات السابقة ، وكانت خاتمة الرسالات ، فلا رسالة بعدها ، وإن ماأتى به رسول الله ﷺ من الأوامر واجب الاتباع ، وماأتى به من النواهى واجب الاجتناب ، فإذا كان الإنسان مؤمنًا بهذا فهو مسلم ، وإن لم يؤمن بهذا فليس بمسلم . فكل من يؤمن بوجود رسول أو نبى بعد سيدنا محمد ﷺ فهو كافر وكذلك من اعتقد أن رسالته ليست عامة لكل الناس أو أن رسالته ليست خاتمة لكل الشرائع فهو كافر بالإجماع .

فى نجاسة الكلب

لُعاب الحيوان يأخذ حكم لحمه ، لأنه متولد منه ، ولحم الكلب نجس فلعابه[1] نجس ، فإذا كانت الحشائش التى كان الكلب عليها يلحسها مبتلة حين جلست عليها فقد تنجست ثيابك وإذا كانت جافة فثيابك طاهرة .

أما الولوغ فى قوله ﷺ : « إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات » فمعناه شرب بطرف لسانه فى الإناء فحركه وقيل هو أن يدخل لسانه فى الماء وغيره من كل مائع فيحركه – شرب أم لم يشرب – فإن كان غير مائع يقال لعقه والتطهير من لعاب الكلب إن كان المتنجس ثيابًا ونحوه يكون بغسل الثوب ثلاث مرات ، والعصر بعد كل مرة كما هو الحال فى التطهير من المائعات النجسة ، وإن كان المتنجس من لعاب الكلب إناء وجب تطهيره بغسله سبع مرات عند جمهور العلماء الفقهاء ، وروى بعض الفقهاء أن إحدى الغسلات يجب أن تكون بالتراب أخذًا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أحمد ومسلم : « طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب » وفى رواية « أخراهن بالتراب » ويرى الحنفية أن الواجب هو الغسل ثلاث مرات كما هو الشأن فى التطهير من باقى النجاسات ، والغسل سبع مرات من لعاب الكلب إنما هو على سبيل الندب لا الوجوب .

فى الحكم فى أكل الدجاج الدنمركى المستورد

يقول الله سبحانه وتعالى : (وطعام الذين أُوتوا الكتاب حِلّ لكم وطعامكم حل لهم). فالدجاج المستورد من هذا النوع حلال مادام قد ذبح ذبحًا صحيحًا ولاشىء فيه .

---

(١) عند المالكية لعاب الكلب طاهر ولاشىء فيه كما نص عليه فى الشرح الصغير عند قوله « الطاهر الحى » .

وللمسلم أن يأكله ويسمى الله عليه احتياطًا ، فربما أنه لم يذكر اسم الله عليه عند الذبح . وهذا من يسر الإسلام وسماحته وعدم تعصبه أو تضييقه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

بعض الناس يأكلون لحم الضبع فهل هذا يجوز ؟

يقول الله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إليَّ مُحرَّمًا على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أودمًا مسفوحًا[1] أو لحم خنزير فإنه رجس أو فِسقًا أُهلَّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولاعاد فإن ربك غفور رحيم) .

ويقول الله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهلّ لغير الله به) بأن ذبح على اسم غيره والمنخنقة – الميته خنقًا – والموقوذة – المقتولة ضربًا والمتردية – الساقطة من علو إلى سفل فماتت – والنطيحة : – المقتولة بنطح أخرى لها – وماأكل السبع إلا ماذكيتم ، وماذبح على النصب – جمع نصاب وهى الأصنام .

ويقول الله تعالى : (ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) هذه الآيات الكريمة متساندة متعاونة يشرح بعضها بعضًا وترشدنا إلى المنهى عنه من المطعومات .

ويضاف إلى ذلك حديث لرسول الله ﷺ فى النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وفسر الإمام الشافعى السباع المنهى عنها بأنها السباع العادية التى تعدو على الناس كالأسد والنمر ، ومن أجل ذلك أباح الشافعى رضى الله عنه أكل الضبع لأنه لايعدو على الناس ولاينقض عليهم مفترسًا كالأسد أو النمر .

ولقد جاء فى الأحاديث أن عبد الرحمن بن عمار قال : سألت جابر بن عبد الله عن الضبع آكلها ؟ !

قال : نعم ، قلت : أصيد هى ؟ قال : نعم : قلت : أفأنت سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم .

وعبد الرحمن – راوى هذا الحديث – ثقة عند جماعة أئمة الحديث . وعلى ذلك ، وبناء على مذهب الإمام الشافعى يجوز أكل لحم الضبع .

---

(١) مسفوحاً : سائلا ، بخلاف غيره كالكبد والطحال .

ماهو الذى أُهِلَّ به لغير الله ؟
وهل اللحوم المحفوظة مما أُهلَّ لغير الله به ؟
وهل الأغذية المحفوظة مباح تناولها ؟

لقد حدد الله سبحانه وتعالى للمسلم حدودًا معينة ، ورسم له طرقًا مشروعة ، فلا ينبغى لمسلم أن يخترق ستار هذه الحدود ، أو ينتهك حمى تلك الطرق التى رسمها الله وأمر باتباع ذلك كله ، من بين تلك الحدود ، ومن وسط هذه الطرق ، ذِكرُ اسم الله سبحانه على ما أحله الله من الحيوانات بأكل لحمه وإباحة دمه .

وهذا التفضل الإلهى ، والتكرم الربانى على خلقه بالكثير من نعمه التى منها استباحة إراقة دماء بعض الحيوانات المأذون بأكلها ، قرنه الله سبحانه وتعالى وقيده بشرط ذكر اسمه ، وجعل ذكر اسمه على مايذبح صنو هذا التفضل ، بل مقدم عليه بحيث إنه لايحل أكل ماأحله الله إلا بذكر اسمه عليه عند الذبح .. (ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) .

فقد أوجب علينا أن نذكر اسمه على مايذبح ، وجعل عدم ذكره عند الذبح خروجًا عن طاعة الله ، وأن الذى يذبح ولم يذكر اسم الله عليه فسق لايحل أكله .

ومن هنا كان المعنى المقصود من قوله تعالى .. (وماأُهلَّ لغير الله به) .

إنه الحيوان الذى ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، وذكر عليه اسم غيره كقولهم اسم اللات ، والعزى برفع الصوت عند ذكر غير اسم الله عليه .

أما الكلام عن اللحوم المحفوظة هل هى مما أُهلَّ لغير الله به أوْلا ؟ وهل تناولها مباح ؟ فالواقع المشاهد أنها لم تكن مما أُهلَّ به لغير الله ، لأنها لم يقصد بها غير الله عند الذبح ولم يسم عليها اسم غير اسم الله عليها .

وأما الحكم عليها أمباح تناولها أم لا ؟

فالجواب عن ذلك : إذا تيقن من ذكر اسم الله عليها فلامانع من تناولها وإلا فلا يباح تناولها .

والله أعلم .

فى الصيد

حينما ينطلق المسلم إلى أماكن الصيد فإنه يكون :

أولا : قاصدًا الصيد على وجه العموم من جميع الأنواع التى يحل أكلها .

ثانيا : يكون مستشعرًا لتسمية ، ومنطويًا عليها ، سواء انطلق بها لسانه قائلا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » أو أسرّ بها فى قلبه ، والمسلم مفروض فيه دائمًا ذكر الله وتسميته وإن لم ينطق بذلك لسانه .

ومن أجل هذين المبدأين فإنه حينما يرسل كلب الصيد لطائر ما أصابه السهم أو الرصاصة فإن الصيد الذى ينتج عن ذلك يحل أكله .

يقول شيخ الإسلام برهان الدين على بن أبي بكر المتوفى سنة ٥٩٣ ، فى كتاب الهداية : « ولو أخذ الكلب صيدًا فقتله ، ثم أخذ آخر فقتله ، وقد أرسله صاحبه ، أكلا جميعًا ، لأن الإرسال قائم لم ينقطع ، وهو بمنزلة ما لو رمى سهمًا إلى صيد فأصابه وأصاب آخر » اهـ .

أى أن من رمى سهمًا قاصدًا صيدًا معينًا فأصاب الصيد وأصاب صيدًا آخر أكل الصيد المقصود والصيد الذى لم يقصد .

وعلى هذا فمن رمى صيدًا وكان بالمصادفة صيده مختبئًا وراء آخر ، وأصابت الرصاصة هذا الأخير فإنه يؤكل ، سواء أصابته الرصاصة الأولى أولم تصبه .

فى من يعمل فى مطحن للحبوب ويعطيه الزبائن إكراميات من الحبوب

إن الذى يعمل فى مطحن ويأخذ من الزبائن إكراميات على الحبوب التى يطحنها فلو تُرك بدون هذه الإكراميات .. لأهمل الطحين ولم يهتم به الاهتمام اللازم ولم يتقنه الإتقان المطلوب وهم يعلمون ذلك منه ومن أجل ذلك يعطونه ليعنى العناية التامة بالحبوب وطحنها . إن كان الأمر كذلك فحرام مايأخذه ، وذلك لأنّ له أجرًا يستوفيه من صاحب العمل أو من الحكومة إن كان تابعًا للحكومة .

وإن كان لاينتظر ذلك منهم ويجيد عمله دون أن تتطلع نفسه للإكراميات فما يأخذه حلال

طيب ، لأنه بمثابة هبة وعطية بدون مقابل ، ولاحرمة فى قبول الهدية الخالصة التى لايتعلق بها غرض مصلحى يكون هو الباعث على إهدائها . ومع ذلك فإنه من الخير ومن الورع التعفف عن الأخذ فى مثل هذه الحالات لأن فيها شبهة .

فى المؤمن يسكت على المنكر

إن المؤمن لايسكت على منكر يرتكب ، خصوصًا إذا كان هذا المنكر من الجرائم الكبرى مثل السرقة والقتل ، ويجب أن يمنع القتل والسرقة مااستطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن لم يتمكن من منع ذلك بنفسه أبلغ الحاكم الأمر ، فإذا حدثت السرقة أو القتل ، قبل أن يتمكن من إبلاغ الحاكم أمرهما يجب عليه أن يدل على الفاعل ، حتى يقتص منه فإذا لم يفعل شيئًا من ذلك فهو آثم .

والجرائم متفاوتة ، فالقتل مثلا جريمة أكبر من السرقة ، والفتنة جريمة أكبر من جريمة القتل ، وقد فسر الله سبحانه وتعالى الفتنة التى هى أكبر من القتل بأنها الصد عن سبيل الله والكفر به وإخراج المسلمين من ديارهم فقال سبحانه (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه..) الآية وقال سبحانه (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم . . .) الآية وهذا النوع من الفتنة موجود الآن ، يتمثل فى إخراج المسلمين من ديارهم فى فلسطين ، وبيت المقدس ، والواجب على المسلمين أن يهبوا جميعًا للقتال فى سبيل الله حتى لاتكون هذه الفتنة ، وأن الجهاد فى سبيل الله الآن فرض على المسلمين أفرادًا ، وفرض على جميع الدول الاسلامية ، وإن كل من تباطأ فيه أو تهاون فهو آثم .

من أكثر معصية لله من بين هؤلاء

(ا) القاتل . **(ب) الوجودى الذى لادين له .**
(جـ) شارب الخمر ومدمنها . **(د) الزانى .**
(هـ) الـــكـــذاب . **(و) كثير الفتن .**
(ز) النمام . **(ح) السارق .**

أكثرهم معصية لله سبحانه وتعالى الوجودى الذى لادين له ، لأنه يسند الأمور إلى الطبيعة معتقدًا أن كل شىء خلقته الطبيعة ونسى قول الله تعالى سبحانه : (أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون

أم لهم سُلَّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون) . . سورة الطور .

هذه الآيات تدل على أن كل شيء من عند الله ، لأنه خالق حقائق الأشياء ولاخالق سواه ، وعالم بطبائعها ، والطبيعة من نفس المخلوقات فالوجوديون هم أكثر الناس معصية لله عز وجل .

ثم يأتى من بعدهم أهل الفتن لأن الفتنة أشد من القتل ، قال الله تعالى : فى سورة البقرة (واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل).

ثم يأتى من بعد ذلك النمام .. حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة الحجرات : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم).

ثم يأتى من بعد ذلك شارب الخمر ومدمنها ، حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة المائدة : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون) .

ثم يأتى من بعد ذلك القاتل ، حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة الإسراء : (ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا) .

ثم يأتى من بعد ذلك الزانى حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة الإسراء : (ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

ثم يأتى من بعد ذلك السارق ، حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة المائدة : (السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم) .

ثم يأتى من بعد ذلك الكذاب حيث يقول الله تعالى فيه فى سورة الزمر : (إن الله لايهدى من هو كاذب كفّار) وكلهم واقعون فى معصية الله ، وهم بعيدون عن الله عز وجل ، ولايقربون إليه إلا بالتوبة النصوح : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم) .

فى حكم الدولة المسلمة التى لا تحكم بالقرآن وحكم الشعب التابع لتلك الحكومة

لايوجد مسلم صادق يأبى أن يحكم بالإسلام ، سواء أكان هذا المسلم من الشعب أم من رجال الحكم ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : (فلاوربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر

بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا) وتحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم القرآن والسنة ، ومامن شك فى أن من لايرض بالقرآن حكمًا لايكن مسلمًا ، ولايكن قد ذاق حلاوة الإسلام والإيمان .

والواقع أن الدول الإسلامية فى الفترة الماضية كانت مكبلة بأغلال الاستعمار ، وكان أهلها مغلوبين على أنفسهم لايملكون من أمرهم قليلا ولا كثيرًا ، فرض عليهم الاستعمار قوانين لاتمت إلى دينهم بصلة ، وفرض عليهم نظمًا اجتماعية غريبة على جوهم الروحى ، فلم يتمكنوا من أجل ذلك من التشريع لأنفسهم ، ولكن الأمم الإسلامية الآن والحمد لله قد نفضت رجس الاستعمار عن كاهلها وأصبحت تحكم نفسها بنفسها ، ومن أجل ذلك بدأ المصلحون فيها ينادون بالرجوع إلى جوهم الروحى وبيئتهم الدينية ، إن الأصوات تتعالى بالنداء إلى تشريع قوانين نابعة من الشرق ومن العروبة ومن الإسلام ، إن رجال الإصلاح الآن وفيهم كثير من رجال الحكم ينادون باتخاذ الدستور القائم على قواعد من الأخلاق الدينية ، وبدأت الحكومات تستعد للسير فى هذا الاتجاه ، والله نرجو أن يكتب لها التوفيق ، وأن يهيئ ، لها جوًّا من الاستقرار تعمل فيه على إعادة الإسلام والمسلمين .

فى الكبائر والتوبة

الكبائر بريد الكفر ، ودليل على عدم ثبوت الإيمان . والوعيد فيها شديد ، بل لقد ورد من الوعيد فى كثير منها مايقارب الوعيد على الكفر ، كالقتل والزنى وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأكل الربا ونحو ذلك .

وحفظ القرآن المقصود منه تأمله وتدبره وتعرف الأحكام منه وعدم الخروج على تعاليمه . وفى الحديث الصحيح « القرآن حجة لك أو عليك » أى القرآن يشهد لما عملت من خير ويشهد على ماعملت من شر بما فيه من تعاليم رشيدة ، وأحكام سديدة تحكم على تصرفات المسلم وتبين موقف الدين منها ..

وهو معنى قول بعض السلف : « رُب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، (يقول ألا لعنة الله على الظالمين) وهو ظالم لنفسه ولغيره . . إلخ .

فحافظ القرآن الذى يترك الصلاة ويقترف الذنوب الكبيرة ، لايزيده حفظه إلاّ لعنة من الله ، ولايجنى من القرآن خيرًا ولابركة ، لأنه مهمل لتعاليمه ، خارج على حدوده ، معرض عن تدبر مافيه والسير على هداه .

ومع ذلك فرحمة الله واسعة ، والله لايغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، والله تعالى يقول : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا) . فإذا مابادر إلى التوبة قَبِل الله توبته ، وعاد القرآن حجة له ، وتكشفت له أنواره ، ونفعه وهداه .

فليبادر إلى التوبة حذرًا من مقت الله ، وليحسن مصاحبة القرآن وإلا طرده القرآن عنه وأبعده منه ، وخرج عن حدود الإسلام باتباعه خطوات الشيطان .

فى القتل العمد والخطأ

للمسلم عند الله حرمة كبيرة ومكانة عظيمة ، ومن أجل ذلك كان إزهاق روحه كإزهاق أرواح البشر جميعًا . . قال تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ، ومن أحياها[1] فكأنما أحيا الناس جميعًا) .

ومما لاشك فيه أن الفرق واضح بين قتل العمد وقتل الخطأ . ففى قتل العمد القصاص ، منعًا لتكراره ، وزجرًا لمن تسول له نفسه السوء .

وفى قتل الخطأ . . الدِّية . . قال تعالى : (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلاّ خَطَأً ، ومن قَتل مؤمنًا خطأً ، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلاّ أن يَصَّدَّقُوا) .. ثم يقول فى آخر الآية : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليمًا حكيمًا) .

فعلى السائق الذى قتل رجلا وعددًا من الناس خطأً دية من قتله ، وتشترك فى أداء الدية عائلته فيما زاد على الثلث على الراجح ، وتؤدى فى ثلاثة أعوام على أقساط ، وتكون على البالغين من الرجال .

وهذا كله ، فيما إذا لم يكن القتل ناتجًا عن إهمال فى اختبار آلات السيارة ومايلى ذلك ، وإلاّ كان القتل عمدًا ، والسائق يُقتَلُ به لتسببه فيه بإهماله .

كما أن القتل قد لايكون للسائق فيه يد . . لخروجه عن إرادته كظهور القاتل أمامه فجأة ولايمكنه التخلص من قتله ، أو يكون المقتول هو السبب فى هذا القتل . .

وعلى ذلك فالسائق لاشىء عليه فى مثل هذا . . وهذه الصور التى ذكرناها يدركها السائق من نفسه ، ويدركها المتخصصون ، ممن يقومون بالتحقيق فى مثل هذه الحوادث ، ومتى حددت المسئولية كان الحكم ماذكرناه .

---

(١) أحياها : تسبب فى منع قتلها .

ماحكم زوجة تهدد زوجها بالقتل من حين لآخر؟
وماذا يفعل الزوج فى هذه الحال؟
وماهو الواجب على الزوجة تجاه زوجها؟

إن القرآن الكريم فصل فى موضع الخلاف الذى يحدث بين الرجل والمرأة ، إنه قد وضع الرجل موضع القوام على امرأته ، أى أنه القائم على المصالح والتدبير والتصرف بالنسبة للأسرة ووضعه بالنسبة للأسرة – بما فيها الزوجة – وضع الوالى بالنسبة للرعية .

فإذا حصل نشوز أى تمرد من جهة المرأة فعلى الزوج أن يتخذ فى ذلك مراحل لإصلاحها . المرحلة الأولى : وعظها والوعظ هو بيان حكم الله فى ذلك ، أعنى وجوب طاعة المرأة لزوجها فى غير ماحرم الله ، وقد كثرت الأحاديث فى ذلك .

فإذا لم تستجب فعليه أن يهجرها فى المضجع ، فإذا لم يُجْدِ ذلك فإنْ ضربها ضربًا خفيفًا يكون أهون فى شريعة الله وفى عرف الناس من الطلاق ، وإذا لم يُجد كل ذلك أيضًا فإن الحل قبل الطلاق هو أن يوكل الزوج حكمًا من أهله وتوكل هى حكمًا من أهلها للإصلاح بينهما ، فإذا لم يُفد كل ذلك كان الحل الوحيد هو الطلاق ، وكل هذا مأخوذ من قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فَضَّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إنّ الله كان عليًّا كبيرًا . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما ، إنّ الله كان عليمًا خبيرًا) .

أما واجب المرأة نحو زوجها فهو يؤخذ من الأحاديث التالية : روى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (الرجال قوامون على النساء) .. إلى آخرها وعن أبى هريرة رضى الله عنه رواه الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت ، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » وبالجملة : فإن واجب الزوجة تجاه زوجها إنما هو الطاعة فى غير معصية ، وذلك يؤخذ صراحة من قوله تعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) بيد أنّ مما ينبغى أنْ

يلاحظ أن للنساء على الرجال حقوقًا ، ومن أجل ذلك يقول رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم » .

ومن حقوقها على زوجها فى الجملة : أن تعيش عيشة كريمة متمتعة بالحياة السعيدة فى حدود استطاعة زوجها .

فى اشتراك مجموعة فى القتل

إذا اشترك رجلان أو أكثر فى قتل رجل واحد : فإن رأى الدين فى الحكم على هؤلاء كالآتى :

إذا ثبت أن هذين الرجلين أو الأكثر قد اشتركوا حقيقة فى قتل رجلا قتلا عمدًا بأن ضربه كل واحد منهم ، أو أمسك به البعض ، وضربه البعض الآخر إذا ثبت ذلك ومات ، فإنهم جميعًا يُقتلون قصاصًا منهم وزجرًا لغيرهم ، وتبريدًا لصدور أهل القتيل .. يقول الله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) .

وأما القتل الخطأ ففيه الدية تدفع لأهل القتيل .

ولأهل القتيل أن يقبلوا الدية ، ولهم أن يعفوا وذلك خير لهم .

فى الأخذ بالثأر

القتل من الذنوب الكبائر التى توعد الله عليها بالعذاب الأليم يوم القيامة كما فى الآية الكريمة (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيما) . ومن قتل مؤمنًا متعمدًا فيجب القصاص من القاتل .

ومع أن القاتل يقتص منه فليس معناه أن هذا القصاص يتولاه أى إنسان بل يكون على يد الحاكم بعد أن تثبت إدانته ، ويثبت عليه أنه ارتكب هذه الجريمة ، ولايجوز لإنسان أيًّا كان أن يتولى القصاص بنفسه ، لأن ذلك إشاعة للفوضى والاضطراب .

والقاتل ارتكب هذه الفعلة بغير إذن الحاكم ، مشيعاً للفوضى واضطراب الأمن ، غير أنه متى استيقظ قلبه وشعر بخطورة فعله ، وندم على مافعل ورجع إلى ربه فى إخلاص وصدق وطلب منه الصفح والغفران فإنه سبحانه وتعالى غفور رحيم . يقبل التوبة من التائبين مهما كانت ذنوبهم إذا صدقوا حقًّا فى توبتهم فلا ييئس من رحمة الله ولايقنط ، وليرجع إلى ربه بإخلاص وصدق فى

التوبة ، وفى هذه الحالة فإن الله سبحانه وتعالى أكرم من أن يرده خائبًا : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) .

والوعيد فى الآية على القتل يفيد الخلود إلا أن يعفو الله ويغفر الذنب للقاتل ، والقصاص لاينفذه إلا الحاكم بعد ثبوت الجناية ولايتولاه أهل القتيل بأنفسهم .

أداء الشهادة أفضل أم عدم أدائها سترًا على المسلمة ؟

قرر الفقهاء أن من تعين لأداء الشهادة فيفترض عليه أداؤها إذا طُلب ذلك ، ولايسعه كتمانها لقوله تعالى : (ولايأب الشهداء إذا مادعوا) وقال:(ولاتكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .ويحرم الامتناع عن أدائها لمآ فى ذلك من إضاعة حقوق الناس .

وهذا فى غير الحدود . أما فى الحدود كالزنى ، فإن الشاهد مخير بين أداء الشهادة لإقامة حد الله وبين الامتناع سترًا على المسلم ، والستر أفضل لقوله ﷺ : « من ستر على مسلم ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة » وقد صح أن النبى ﷺ لقن ماعزًا الرجوع عن إقراره بالزنى وسأله عن حاله سترًا عليه لئلا يرجم ويشهر وكفى برسول الله ﷺ قدوة حسنة لنا ، ومن هذا يتضح أن للرجل – موضوع السؤال – أن يمتنع عن أداء الشهادة ، بل إن ذلك خيرًا له وهو الأفضل كما قرر الرسول ﷺ ، خصوصًا أن هذه المرأة قد وعدته بالإقلاع عن ذلك ، وأنها تابت إلى ربها وأنابت ، ولعلها تكون توبة نصوحًا فيمن الله تعالى عليها بالقبول ، ويبدل سيئاتها حسنات ، وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

قال تعالى : (إلآ من تاب وآمن وعمل عملا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا) وليس من حق أحد أن يلزمه بالحلف على القرآن الكريم أو غيره .

فى لعب القمار والمال الناتج عنه

القمار حرام :

قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) .

فالقمار وما ينتج عنه من كسب حرام ، وهو مصدر غير مقبول للربح أو الاكتساب ، ومن

شروط المال الذى يجوز للمسلم الانتفاع به أن يكون حلالا طيباً لا حراماً صرفاً . قال تعالى : (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) .

وقال : (يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

وقد تليت هذه الآية عند النبى ﷺ ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال ﷺ :

« يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده : إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتقبل منه أربعين يوماً ، أيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

ويقول ﷺ :

« يأيها الناس . . إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون عليم) . وقال:(يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » .

وننتهى من ذلك إلى أن شراء لوازم الإنسان بمال القمار أو كسبه لا يجوز ، وكل تناول أو استعمال لهذه اللوازم يزيد الإنسان بعدا عن الله تعالى وخروجا عن السعادة والنجاة .

فالسعى إلى الكسب من مثل هذه الطرق سعى غير مشروع ومرجعه إما إلى ضياع لما يملكه الإنسان ، أو أخذ لما لا يستحقه من مال غيره .

والحلال الطيب هو ما ينبغى أن يحرص عليه المسلم ويطلبه ، وأكل الحرام سبيل إلى البعد عن الله تعالى وعدم القرب منه ، فالعمل لا يتقبله الله من آكل الحرام ، والدعاء لا ينظر الله إليه ، ويكفى أن يتغذى به الجسم ويستمر أثره عليه .

ونظرة الإسلام إلى هذا المال هى نظرته إلى كل شىء مخالف لتعاليمه خارج عن حدوده . أنه شر يجب التخلص منه ، وينبغى على المسلم أن ينأى عنه وأن يشترى بهذا التخلص سعادة الآخرة الدائمة ، والإسلام بتحريم مثل هذا المال يبتعد بالمسلم عن الاعتماد على المصادفات وعلى الحظ وعلى ما لا مطمع فيه ، ويوجهه إلى أن يكون واقعيًّا مع الحياة يأخذ منها ما يستطيع بعرقه وجهده ويبتعد عما لا تأثير له فيه .

فى اليانصيب

اليانصيب أوراق لها سعر معين تقوم بإصدارها جماعة أو هيئة ، ثم تجمع المبالغ المتحصلة من بيع هذه الأوراق ، وتجرى قرعة على مبلغ كبير منها . . ومن تستقر عليه القرعة يفوز بهذا المبلغ الضخم .

والشريعة الإسلامية تنظر إلى هذا العمل على أنه صورة من صور الميسر أو القمار ، حيث يدفع مشترى الورقة مبلغاً صغيراً ثمناً لها فى انتظار ربح ضخم ، فإذا لم يربح خسر ما دفعه .

فاليانصيب صورة منظمة من صور الميسر الذى حرمه الله تعالى فى القرآن فى قوله : (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ثم بين علة هذا التحريم فقال : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون).

فاليانصيب – لكونه لوناً من ألوان الميسر – ينشر العداوة والبغضاء ، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهو مع ذلك يؤدى إلى ارتباك الحالة النفسية لمن يشترك فيه بين اليأس المقنط والأمل الكبير ، ويبعد عن المواجهة الجدية للمشاكل ، ويجعل المرء متعلقاً بأباطيل الأمانى وكواذب الآمال ، ومن أجل هذا فالشريعة الإسلامية تحرمه وتحذر منه وتجعل المال المتحصل فيه سحتاً لا يحل لمؤمن تناوله أو التعامل به والاستفادة منه .

ماحكم من أجبر على شراء ورقة يا نصيب وربحت ؟

ليس على من أجبر[1] على شراء ورقة يا نصيب ذنب فى هذا الشراء ، لأنه مضطر لذلك ، مجبر عليه ، لا يمكنه التخلص منه .

ولكن شراء مثل هذه الورقة لا يبيح له الكسب عن طريقها أو الاستفادة من هذا الشراء ، فإذا مافازت الورقة ، بمبلغ كبير فليس لصاحبها الحق فى الحصول على هذا المبلغ ، وإنما له الحق فى الحصول على ثمن هذه الورقة التى أجبر على شرائها ، ولا يجوز له أخذ ما يزيد على ذلك .

والسبب فى تحريم شريعة الإسلام أخذ المؤمن هذا المبلغ ونحوه أن اليانصيب لون من ألوان القمار ، إذ يدفع الرجل مبلغاً صغيراً طمعاً فى مبلغ كبير ، فإما ربح المبلغ الكبير وإما خسر .

---

(١) كيف يتأتى الجبر فى شراء الورقة ؟

فهو بذل مال فى سبيل مكسب كبير ، وقد يضحى الإنسان فى سبيل ذلك بما هو فى أشد الحاجة إليه ، وعن تحريم القمار يقول تعالى :

(يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ورسول الله ﷺ يقول : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن » .

ويقول أيضًا : « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » .

فى القرض بالربا عند الاضطرار

إن الإسلام عند الإضرار وعند الإشراف على الموت جوعاً أو عطشاً يبيح أكل الميتة المحرمة ، ويبيح شرب الخمر وهى رجس من عمل الشيطان . وعلى هذا الأساس فإن من حُكم عليه بالإعدام وقبلت الحكومة الدية نظير العفو عنه ، فإنه ينظر فيما يملك من أرض وعمارة أو حلى من الذهب ونحوه فيباع وتسدد الحكومة ، أما إذا لم يوجد شىء من هذا فإنه يجب عليه أن يستفرغ جهده فى طلب القرض الحلال : أى القرض بدون ربا من الجار أو الصديق فضلا عن الأهل والعشيرة ، فإذا عجز عن ذلك ، ولم يجد طريقاً غير الربا فإنه يباح له بقدر الضرورة ، وإنه من المعلوم أن الربا حرام ، وأن آكله كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، والحرمة كل الحرمة على هذا الذى عنده المبالغ الطائلة فيعطيها بالربا ، ولا تسمح نفسه أن يعطيها قرضاً حسناً لوجه الله الكريم .

فى رجل كان يستثمر أمواله فى الربا ثم بنى منها مسجداً وأسهم فى أعمال خيرية فما حكمه ؟

إن الله سبحانه وتعالى حرم الربا بجميع صوره وألوانه ، وأمر بالتطهر منه بقوله تعالى:(وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وكل مال خالطه الربا فهو مال حرام ، ولا بركة فيه ، ويحرم تناوله حتى يتخلص المال من الربا .

والإنفاق فى سبيل الله كبناء المساجد وغيرها يجب أن يكون من المال الحلال حتى يتقبله الله ويرضى عن فاعله ، وقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يأيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا

صالحا) وقال (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول يارب يارب ومطعمه حرام وملبسه حرام وقد غذى بالحرام فأنى يستجاب له»، وفى هذا دليل على أن الحلال شرط فى قبول الأعمال ، وإذا كنا نرجو القبول من الله يجب أن يتحرى الإنسان المال الحلال ويجعل ما أنفقه فى بناء المسجد أو أعمال الخير من أصل المال أو من الكسب الحلال ليتقبله الله .

فى عدم القدرة على دفع الدين

دائن لم يقدر على دفع دين حتى تجاوز عنه المدين قائلا إنى تركت الدين لوجه رسول الله ، فإذا استطاع الدائن بعد عامين مثلا أن يدفع الدين ماذا يفعل ؟ وهل يجوز إخراج زكاة من هذا المبلغ إذا كان معه وقت إخراج الزكاة ؟

إذا لم يقدر المدين على سداد الدين وتجاوز عنه الدائن أبرأه منه فقد برئت ذمته ولاشىء عليه للدائن بعد ذلك ، لأنه قد تجاوز عن دينه بمحض اختياره وتركه ابتغاء وجه الله ورسوله ، ولا يصح له الرجوع فى ذلك ، لأنه قد وهبه له . . والرسول ﷺ يقول :« العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه . . » رواه البخارى .

ولا زكاة على الدائن على هذا المال لأنه ليس مالكاً له . .

أما المدين فعند استطاعته وامتلاكه المال فعليه أن يؤدى الزكاة عنه إن بلغ نصاباً وحال عليه الحول ، لأنه يعتبر مالكاً له ، بعد تنازل المدين عنه .

فى الأشياء المحرمة بين الرجل والمرأة

إن الأشياء التى حرمها الله تعالى بين الرجل والمرأة حددها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهنَّ على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهنَّ أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أُولى الإرْبة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وهاتان الآيتان تحرمان على المؤمنين النظر إلى ما حرم الله ، وما حرم الله هو ما سوى الوجه والكفين وكذلك كل ما أثار الفتنة ولو كان الوجه واليدين ، ومن أجل ذلك كان النظر إلى ما حرم الله من جسم المرأة واللمس والمباشرة والاتصال الجنسى ، كل ذلك محرم بين الرجل والمرأة مالم يكن عقد ، وكذلك الخلوة بين الرجل والمرأة محرمة ما لم يكن عقد ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، يقول رسول الله ﷺ فى النظر إلى ما حرم الله مخاطباً سيدنا عليا : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » .

ويتحدث رسول الله ﷺ عن آداب الطريق فيقول ﷺ مخاطبًا الصحابة رضوان الله عليهم : « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يا رسول الله لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ».

قالوا وما حق الطريق يارسول لله ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

فى الزنى

أجمع الفقهاء على أن الزانى والزانية إذا كانا غير محصنين وثبتت عليهما جريمة الزنى بالبينة ، أو الإقرار ، فإن عقوبتهما التى قررها الإسلامى هى الجلد مائة جلدة ، قال تعالى فى سورة النور : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، فإن كانا محصنين فعقوبتهما الرجم بالحجارة حتى الموت ، فقد ورد أنه جاء فى القرآن الكريم مما بقى حكمه ونسخ لفظه الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .

وصح أن رسول الله ﷺ أمر برجم ماعز والغامدية حينما أقرا بذلك وكانا محصنين .

(تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) .

وجلد الزانى والزانية إذا كانا غير محصنين ورجمهما حتى الموت إن كانا محصنين عقوبة دنيوية ، وحد من حدود الله يجب على ولى أمر المسلمين إقامته حفاظاً على الأمر وصوناً للمجتمع من العبث والفساد .

أما عقوبة الآخرة فبينها القرآن الكريم ، فى قوله تعالى فى سورة الفرقان فى وصف عباد الرحمن بالدين:(لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مُهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) .

من يزنى بامرأة غير متزوجة أو من يزنى بامرأة متزوجة أيهما أكبر ذنباً

الزنى كله حرام ومن الكبائر قال تعالى : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فحرم القرب من الزنى بالنظر والمخالطة وتمهيد أسبابه ، ونحو ذلك فكيف بالزنى ، وقد عده الرسول ﷺ من أكبر الكبائر وقرنه بالشرك بالله . وهو فى ذلك إنما يطبق الآية الكريمة التى وصف الله بها عباد الرحمن فقال : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة) .

وقد ورد عقاب الزنى فى الآية الكريمة (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) .

وهذا العقاب إنما هو على الرجل غير المتزوج والمرأة غير المتزوجة ، فإذا ما كان الرجل متزوجاً أو المرأة متزوجة فإن العقاب يكون من نوع آخر ، إنه الرجم فيرجم الرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة بالأحجار حتى الموت .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أنه قال :

« أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال : يا رسول الله ، إنى زنيت فأعرض عنه ، فتنحى تلقاء وجهه فقال له يا رسول الله إنى زنيت ، فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات ، أى كرر ذلك أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك جنون قال : لا . قال : فهل أحصنت : تزوجت ودخلت بامرأتك ، قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فارجموه ، قال جابر : فكنت فيمن رجمه فرجمناه ، بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة (أصابته بحدها) هرب فأدركناه بالحرة (اسم مكان) فرجمناه .

ومن ذلك يتبين أن من زنى وهو متزوج فإن جريمته أفظع وذنبه أشنع وكذلك من زنت وهى متزوجة .

فى رجم الزانى والزانية

الزنى من الجرائم الخطيرة التى شدد الإسلام النكير على مرتكبها لما لها من الآثار السيئة على الفرد والجماعة على السواء ، وقد جعل الإسلام عقوبة الزانى فى الدنيا الجلد – إن كان غير محصن – والرجم حتى الموت إن كان محصناً ، قال تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين) .

وقد ثبت من السنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ رجم الزانى والزانية المحصنين ، وأجمعت الأئمة على ذلك وقد قرن الله تعالى مرتكب الزنى مع المشرك وقاتل النفس فى آية واحدة مما ينبئ عن فظاعة هذه الجريمة ، وشدة عقوبتها يوم القيامة .

قال تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) .

وإذا كان الزنى بالأجنبية منكراً فهو بالمحرمة أشد نكراً وأعظم إثماً . وزوجة الأخ إن لم تكن كالأخت والعمة وغيرهما من ذوات الرحم المحرم فإن الزنى بها لا يقل إثما وجرماً عن الزنى بإحدى المحارم ، فالأخ الذى تسول له نفسه ارتكاب معصية مهما صغرت مع زوجة أخيه قد اعتدى على الزوجة وخان الأخوة ، ولم يراع الأمانة مع نفسه وربه ، وأجرم فى حق أسرته وأخيه .

وحكم الإسلام هو الجلد مائة جلدة لغير المحصن والرجم حتى الموت للمحصن إذا ثبت الزنى بالبينة الشرعية أو الإقرار ، هذا فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وحسبنا أن نقول إن القرآن الكريم قدين شدة عقوبة الزانى يوم القيامة : (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما) .

أما الزواج بزوجة الأخ فذلك لا يجوز إلا إذا طلقها زوجها أو مات عنها وانتهت عدتها منه مالم يكن هناك مانع شرعى .

فى دواعى الزنى هل تحرم المصاهرة

يقول السادة الحنفية : إن دواعى الزنى كلمس أو قبلة بشهوة كالزنى ، يحرم المصاهرة فمن زنى بامرأة أو ارتكب شيئاً من دواعيه حرمت عليه أصولها وفروعها وحرم عليها أصوله وفروعه فيحرم الشاب السائل الزواج بينت تلك السيدة التى ارتكب معها ما أشار إليه فى سؤاله حتى ولو لم يدخل بها .

ويرى الإمام الشافعى : رضى الله عنه أن ماء الزنى هدر لا حرمة له فلا يأخذ حكم النكاح فى تحريم المصاهرة ، فمن زنى بامرأة وارتكب معها شيئاً من دواعيه فلا يحرم عليه أن يتزوج ابنتها .

فيجوز للسائل – على رأى الإمام الشافعى – أن يتزوج بالبنت التى يرغب الزواج منها ، وإن كنت أرى وأنصح بعدم الزواج منها ، لا ترجيحاً لمذهب على مذهب ، ولكن لأن طبيعة الحياة الزوجية وظروفها المختلفة ، ستجمع بين الزوجين وبين والدة زوجته ، بل لقد تؤدى إلى الخلوة بينهما ، وهى حينئذ حماته وأم زوجته ويخشى أن تكون هذه ثغرة ينفذ منها الشيطان إليهما فيوسوس لهما مجدداً ما كان بينهما ، فينتهى الأمر بالحياة الزوجية إلى الانهيار أو على الأقل عدم الاستقرار .

هذا وإنى أوجه النظر إلى أن الإسلام حين حرم الخلوة بالأجنبية ولو كانت زوجة العم أو زوجة الأخ أو ابنة العم أو ابنة الخال أو ما شابه ذلك إنما فعل ذلك حفظاً لدين الرجل وصيانة لعفاف المرأة ومحافظة على الأسرة الإسلامية ووقاية لها من أن يحدث بها ما يقوض أركانها ويودى بأخلاق الرجال وكرامة النساء .

فعلى المسلمين أن يراعوا تعاليم دينهم وأن يخضعوا العرف السائد بينهم لأحكام شريعتهم التى جاء بها القرآن الكريم من لدن حكيم عليم ، ونادت بها السنة المطهرة التى سنها رسول لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وقد قال صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه:« لقد تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنتى » .

فى الإجهاض بعد تكون الجنين

قالى تعالى فى وصف عباد الرحمن : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة

ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

ولا يرضى الشرع للفتاة أن تجهض نفسها بعد أن يتكون الجنين فى أحشائها ، لأن ذلك قتل لنفس حرم الله قتلها إلا بالحق مالم يكن فى بقائه بأحشائها ضرر محقق بها فحينئذ يجوز للضرورة فإن الضرورات تبيح المحظورات .

فى لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن

قال الله تعالى : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) ، وقال رسول الله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان يحس بمسئولية إتيان الفاحشة ويدرك العواقب الوخيمة المترتبة على وقوعها بالنسبة للفرد والأسرة والمجتمع .

والذى يباشر الزنى ويرضاه ذكراً كان أو أنثى ، شخص انحط مستواه عن درجة الإنسانية إلى درجة الحيوانية بل إن فى الحيوان من يعرف أليفه ولا يرضى بغيره .

وحسبك أيها الزانى تجريد رسول الله ﷺ لك من الإيمان وأنت متلبس بجريمتك ، وهب أنك مت متلبساً بتلك الجريمة موغلا فى معصية ربك ، تفوح منك رائحة الإثم التى تزكم الأنوف ، وتجعل كل من يراك ويجد من تلك الرائحة من المؤمنين يفر منك ويبتعد عنك ، ولا يشارك فى تجهيزك لآخرتك ، فمن يشارك فى تجهيزك ؟ شياطين الإنس أم شياطين الجن ؟ أوكيف يكون حالك فى الإقدام على ربك وأنت تقارف معصيته ؟

لقد قلت إنك تحس بالخجل فى الصلاة ولا تستطيع إتمامها وما أدرى ذلك إلا من عدم صدقك فى التوبة ، ولو أنك تبت إلى الله تعالى توبة نصوحاً لانشرح صدرك لله فى الصلاة وكل عمل يقربك إلى الله .

وعليك أن تذكر نفسك بأن جريمة الزنى جريمة منكرة لاترضاها أنت لأمك ولا لأختك ولا لابنتك ولا لعمتك فإنك إن تذكرت ذلك أمكنك أن لا تقع فى الإثم مهما كان الداعى إليه ، وعليك إن أردت التوبة النصوح – أن لا تيأس من رحمة الله ، وأن تكثر من الاستغفار على ما فرطت – وأن تعزم على أن لا تعود إلى تلك المعصية أبداً .

فى الملاعبة بين النساء

يقول الله سبحانه وتعالى : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) هذا أمر الله سبحانه وتعالى للمؤمنات بأن يغضضن من أبصارهن عن التطلع إلى كل ما لا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما حرم الله سبحانه وتعالى من الزنى وغيره مثل المساحقة وهى معاشرة المرأة للمرأة .

وهذا منكر ، فضلا على أنه منهى عنه لأنه انتكاس للفطرة والطبيعة التى خلق الله عليها الذكر والأنثى ، وهو أيضاً مناف للعفة والكرامة فوق أنه يهيج كلا من المرأتين ويشعل الشهوة عندهما مما يدفعهما إلى ارتكاب الفاحشة ويفضى ، بهما إلى الجرى وراء الرجال .

وقد نهى الرسول ﷺ عن أن يفضى الرجل إلى الرجل أو المرأة إلى المرأة فى ثوب واحد وذلك حتى لا يحصل ملاصقة البشرتين بعضهما ببعض ، فيؤدى ذلك إلى المنكر والفحشاء .

وقد يكون فى ذلك استغناء المرأة بالمرأة مما يؤدى بهما إلى الإعراض عن الزواج وانتشار العزوبة المفسدة للمجتمع .

فيلزم التحامى عن هذه العادة المرذولة والابتعاد عنها ، والتمسك بآداب الدين ، والله هو الحافظ والمعين .

فى جزاء الزوجة الخائنة

قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) وقال رسول الله ﷺ : « إنه لا أمان لمن لا أمانة له ولا صلاة ولا زكاة » .

فالخيانة (عامة) هى شر ما يبتلى به المجتمع ، وهى من الزوجة أشد وأنكى ، وجزاؤها ما أعده الله سبحانه وتعالى للخائنين من العذاب الأليم ، ولا يصح للزوج أن يشك فى امرأته من غير أن يتحقق فإن ذلك يجرها إلى الفساد . .

أما إذا علم منها الخيانة فلا يصح له أن يرضى بذلك . هذا فى الخيانة بوجه عام .

أما إذا كانت الخيانة انحرافاً فى الناحية الجنسية فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) .

ما حكم المسلم الذى يحتفظ بزوجة تخونه على علم؟
وما حكم الأبناء الذين يأتون نتيجة لخيانتها

الحديث عن هذا الموضوع لابد من التفرقة بين الظن واليقين ، فإن كان الزوج يظن فقط وكانت المسألة لا تعدو أن تكون ظنًّا فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم) أما إذا كان على يقين من الخيانة فإنه يجب عليه مباشرة مفارقتها ، يقول الله سبحانه وتعالى : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين) .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر والعاق لوالديه ، والذى يقر فى أهله الخبث » أى الذى يعلم بخيانة امرأته ويسكت على ذلك ، أما الأبناء الذى علم يقيناً أنهم ليسوا من صلبه وإنما هم الثمرة لخيانتها المحرمة ، إذا علم ذلك يقينًا فعليه أن يتبرأ من نسبتهم إليه ، ونختتم الإجابة يقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجة عن ابن مالك رضى الله عنه : « من أراد أن يلق الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر » أى العفيفات من النساء ذوات الدين الطاهرات .

زوجة المسلم حرام على غيره

إن زوجة المسلم حرام على غيره بأية وسيلة ، وعن أى طريق ، ولا يجدى فى استحلالها عقد شرعى ، لأن من شروط العقد الشرعى أن لا تكون المرأة زوجة لرجل آخر .

وعلى ذلك فهذا الزواج اعتداء أثيم وهى محرمة عليه ، ويعتبر بها زانياً وكل لحظه تمر بهما فى هذه العلاقة هى لحظة إثم وفسوق .

فعلى الحاكم فسخ هذا النكاح ، ومعاقبة هذا الآثم وعلى المسلمين جميعاً التشهير به والإنكار عليه .

أما بالنسبة لصلاتهما فى المسجد فلا مانع يمنع من دخولها المسجد والصلاة فيه فرادى ، أو جماعة على أن يكون الإمام شخصاً آخر غير هذا الذى تزوج زوجة المسلم بالقوة ، ولا يجوز لهذا الذى تزوج زوجة المسلم بالقوة أن يصلى بالناس إماماً لأنه فاسق آثم ، مشهور بالفسق والإثم ، فلا يجوز أن يكون إماماً .

فى معاشرة الرجل لغير زوجته

معاشرة الرجل لغير زوجته منكر ، وفاحشة حرمها الله ونهى عنها ، وهى من الكبائر التى شرع الإسلام إقامة الحد على من تثبت عليه أنه ارتكبها .

فمن ثبت عليه ذلك وجب عليه الجلد مائة جلدة إن لم يكن قد تزوج من قبل ، والرجم حتى يموت إن كان قد تزوج قبل ذلك ، بهذا جاء القرآن والسنة .

ويلزم من وقع فى شىء من ذلك أن يبادر بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى وكل ولد ينتج من هذه المعاشرة فهو ولد زنى لا يثبت نسبه من أحد .

فى حضور الإمام سبوع طفل مولود من حرام

إذا فهم من حضور مثل هذا الإمام إقرار الزنى أو مباركة نتاجه فحضور مثل هذا اليوم حرام على الإمام وعلى غيره وإن كانت حرمته على الإمام أشد .

أما إذا فهم من حضوره إكرام المولود الذى ينظر له المجتمع بعين الاحتقار دون ذنب جناه ورد ما يمكن أن يؤذيه به المجتمع من اضطهاد وحرمان فحضوره فى مثل هذا اليوم حلال ، بل مندوب وعليه أن يذكر الناس بأحكام الله فى أسلوب رقيق يصل إلى القلوب ، وأن ينتهز هذه الفرصة ليذكر بالحلال والحرام ، ولعل الله يهدى به الأفئدة وينير به الضمائر ، والذى تجوز الإشارة إليه فى هذا اليوم أن حضور الإمام أو عدم حضوره فى اليوم السابع لميلاد أى طفل لا يخرج عن حد المباح .

فلم يرد الندب إلى حضور الإمام يوم السابع من الميلاد أو إلى اجتماع الأحباب فيه .

وكل ما ورد هو الندب إلى ذبح ذبيحة يوم السابع تيمناً بالمولود وتقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ومن دعى إليها أجاب .

والولد الذى ولد من زنى ولد له حقوق الأولاد العاديين على المجتمع وإن لم يكن له مثل ما للابن الشرعى من حقوق .

ويعتبر كاللقيط وكل من أحسن إليه له ثواب هذا الإحسان على أى وجه من الوجوه .

فالله تعالى لا يؤاخذ ولداً بما جنى أبواه ، وعلى المسلمين مساعدة مثل هذا الطفل على أن ينشأ نشأة صالحة مستقيمة .

فى الوضع بعد ستة أشهر

ما دام الوضع تم بعد ستة أشهر من الدخول فنسبه إلى من دخلت به ، ولا يمكن قبول ادعاء غير ذلك بأية وسيلة من الوسائل إلا باعترافها بذلك .

فقد روى أن عثمان أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر فأراد أن يقضى عليها بالحد . فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها قال الله تعالى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وقال (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) فالرضاع أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر .

هذا فيما يتصل بنسب الولد ، وإلى من ينتسب .

أما إذا اعترفت بأن الولد ليس ولده وإنما هو ولد غيره فإنها تنفصل عنه ويلغى ما كان بينهما من نكاح ثم تعتد منه . . ثم تحل بعد ذلك له كما تحل لغيره ، ويصير خاطباً من الخطاب لأن النكاح وهى حامل فاسه يفسخ ثم تحل له بعد العدة من هذا النكاح الفاسد كما تحل لغيره .

فى من عمل أعمالا صالحة وارتكب أموراً سيئة

من كان قادراً على العمل فلم يعمل فقد أذنب وأثم ، لأنه عطل طاقة كان من الممكن أن تأخذ بيده وبيد مجتمعه إلى ما فيه نفع دينى أو دنيوى لها .

وإذا كان من يقدر على العمل ولا يعمل فقد أثم ، فما بالك بمن يعمل عملا محرماً كما جاء فى سؤال السائل – مخالفاً لتعاليم الدين ومغضبا لرب العالمين ؟

إن جزاء ذلك الرجل الذى اتخذ من تلك الجريمة وسيلة للكسب إنما هو العذاب يوم القيامة ومأواه النار ومثواه جهنم ، إذ كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

والزنى جريمة خلقية وكبيرة من الكبائر نهانا الله سبحانه وتعالى عنها وعدها فاحشة تفضى إلى أسود خاتمة وأسوأ سبيل فقال (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

وأضرار هذه الفاحشة أكثر من أن تحصى فهى تقوض بناء الأسرة وتهدد بنيان الأمة وتنشر الفجور فيها وتؤدى إلى اختلاط الأنساب وتورث الأمراض الخبيثة فى المجتمع وتأخذ به للفناء والانقراض .

فى الاستمناء

الاستمناء داء استشرى بين الشباب ، وهو داء قديم عُرف عند بعض سفهاء العرب فضلا عن غيرهم .

وقد سئل مالك عنه فتلا قول الله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) فحصر الله سبحانه وتعالى وسيلة استخراج المنى فى النكاح الشرعى الصحيح أو امتلاك الإماء وما عدا ذلك حرام لا يجوز .

بيد أن الاستمناء جائز عند الضرورة القصوى ، لإنه إخراج فضلة من البدن كالفصد والحجامة ، ولكن أكثر العلماء على تحريمه ، بل قال بعض العلماء : إن فاعله كالزانى بنفسه ، وقال القرطبى : وهو معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قبلة وياليتها لم تقل . . ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها على أن كثيراً من الأطباء قد حذر من ضرر الاستمناء بالجسم من ناحية القوة الجنسية ومن ناحية قوة البصر والجهاز التنفسى ونحو ذلك ورسم الطرق للنجاة من أخطارها كممارسة الألعاب الرياضية ومخالطة الناس والاشتراك فى الأنشطة التى تصرف عن التفكير فيه ونحو ذلك .

ونزيد على ذلك التوجيه إلى الإكثار من الصوم والعبادات ، ومخالطة علماء الدين لتنكسر الشهوات ويذهب التفكير فى هذا المجال .

والعلاج الحاسم الذى يرضى الله ورسوله إنما هو الزواج ، وإذا اتجه الإنسان إلى الله فى صدق راجياً أن ييسر له أمر المعيشة والزواج ، واجتهد فى أن يكسب المال من حلال فإن الله سبحانه يفتح له الطرق وييسر له الرزق .

فى غض البصر والرقص الأوربى

يقول الله سبحانه وتعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون،وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) . .

وهذا أمر الله سبحانه وتعالى للمؤمنين والمؤمنات بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وعدم إظهار زينة النساء إلا للمحارم ، وذلك بُعداً عن مواطن الفتنة وسدًّا لذريعة الفساد . ويؤخذ من

ذلك أن اختلاط الرجال بالنساء لا يبيحه الشرع إلاّ إذا كان فى نطاق هذه الآية[١] والالتزام بآدابها وتعاليمها ، أما اختلاط الرجال بالنساء على الوضع المألوف ، والرقص والتثنى فهو حرام ومنكر لا يبيحه الإسلام ولا يرضى عن فاعله .

وقد دخلت أسماء بنت أبى بكر على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها قائلا : « إن الجارية إذا بلغت المحيض لا يحل لها أن يظهر منها إلاّ هذا وهذا » وأشار إلى الوجه والكفين .

والرقص الأوربى الذى يحتضن فيه الرجل امرأة أو فتاة لا تحل له ، ويراقصها على أنغام الموسيقى إنما هو إثارة شديدة للغرائز وانتهاك لما حرم الله ولا شك فى ذلك ولذا كان من المحرمات ، وحرمته لا يختلف عليها اثنان من علماء الإسلام .

فى قول رسول الله ﷺ : « من نظر إلى محاسن امرأة لا تحل له صب فى عينيه الآنك[٢] يوم القيامة » فكيف يتجنب الإنسان هذا الإثم ؟

يتجنب الإنسان إثم النظر إلى كل امرأة لا تحل له بغض البصر كما قال الله تعالى ، وخفضه إلى الأرض واشتغاله بما هو ألزم له إن كان ماشياً كى لا يتعثر فى طريقه وقد كان رسول الله ﷺ يجعل بصره إلى الأرض مهما سار فى طريقه راجلا أو راكباً ، ومن كان همه مولاه اشتغل به عن كل ما سواه .

فى تلقيح أطفال الأنابيب

تلقيح الأطفال فى الأنابيب لا يجوز ولا تدعو إليه مصلحة ولا ضرورة ، وهو اتجاه فاسد ، لأنه بهذا الاتجاه تنقطع الروابط الإنسانية التى يقول الله فيها : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

وهذا الذى يُربى فى أنبوبة يخرج إلى الحياة – إذا أخرج – وهو لا يرتبط بالإنسانية بأب ولا بأم ، ولم يعرف حنان الأب أو الأم ، ولا عطفها فيكون مجردا عن كل ما تتحلى به الإنسانية فى عواطفها وفى توادها وتراحمها ، فيكون ضرره على المجتمع كثيراً .

---

(١) آية (٣١) من سورة النور .

(٢) الآنكُ : الرصاص الخالص .

ومما يجدر أن نوجه الأنظار إليه ، أن تلقيح الأطفال فى الأنابيب لا تعنى خلقاً أو اختراعاً وإنما تعنى تغيير الجو الذى ينمو فيه الطفل ونقله من رحم الأم إلى رحم الأنبوبة أو داخلها .. إنه تقليد لما جرت عليه طبيعة التناسل ، ومحاكاة لجو الرحم فى داخل الأنبوبة ، ولا يوجد ما يدعو لإباحته والإنسانية الآن تشكو كثرة النسل وهى بصدد تحديده فلا حاجة مطلقاً لزيادته عن طريق فاسد يضر بالإنسانية أكثر مما ينفعها .

رأى الدين فى السينما والمسرح

السينما شأنها شأن المسرح ، والتليفزيون ، تكون أحياناً مباحة وأحياناً مستحبة إذا كانت تعرض أفلاماً ثقافية ، أو توضح أموراً غامضة عن الكون : فى أعماق البحار أو فى أرجاء المعمورة ، أو فى آفاق السماء .

وكلما كانت الأمور المعروضة هدفها إصلاح المجتمع أو بيان الحقائق ،أو تهذيب الأخلاق أو عرض ما يحسن بالإنسان معرفته من زوايا العلم وظواهر الكون ، فإن مشاهدتها فى السينما لعامة الناس مباحة بل مستحبة .

كل هذا ما لم يتخلل ذلك ما يحرمه الدين ، مثل العرى ، والرقص الخليع والأسلوب النابى ورؤية النساء الكاسيات ،العاريات اللاتى قال فيهن رسول الله ﷺ:« إنهن بعيدات عن الجنة وعن رائحة الجنة » .

أما إذا كانت الأفلام أفلاماً مثيرة للجنس تبرز مفاتن المرأة وتدعو إلى الإغراء وإذا كانت عبثاً ولهواً وإذا امتلأت بالأسلوب المكشوف فإن الإسلام لا يبيح مشاهدتها لعامة الناس وجمهورهم ، ودواعى هذا التحريم وبواعثه لا تخفى على الناس ، فهى واضحة وضوحاً لا خفاء فيه .

وذلك أن الإسلام يحافظ ما استطاع إلى ذلك سبيلا على الأعراض ، ويسد سبل الفتنة وينهى عن السوء بكل الوسائل .

ولقد حرم التبرج لأنه يؤدى إلى الإغراء والفتنة ، وحرم الخلوات المنفردة بين الرجال والنساء ، لأنها مزالق الشيطان .

فإذا ما أصبحت السينما أداة للإغراء وإذا ما أصبحت الأجسام النسائية تعرض فيها وكأنها سلعة تعرض على الناس ، فإن ذلك ينهى عنه الإسلام نهياً تاماً .

أما إذا تبرأت الأفلام وتبرأت المسرحيات من ذلك فلا بأس بحضورها وهناك محاولات لإيجاد

المسرح الإسلامى وإيجاد الفيلم الإسلامى ، وإيجاد التمثيليات والروايات الإسلامية ، وإنه حينما تنجح هذه المحاولات مبرأة من الفساد فإنها تكون ثروة للإصلاح وللتهذيب ويكون حضورها مستحباً .

الرأى فى النزاع بين الشبان والعلماء عن التليفزيون والسينما

من الأمور التى اتفق عليها المستنيرون أصحاب العقول الناضجة فى الشرق والغرب أن التليفزيون والسينما آلتان يمكن أن يستفاد بهما فى التوجيه الأخلاقى المستقيم والسلوك الحسن ، والثقافة العلمية على مختلف المستويات والأوساط .

وبذلك يكونان أداة فعالة فى رقى الأمة أخلاقياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً . وهما من أهم وسائل النهضة إذا أحسن استعمالها .

أما إذا أُسىء استعمالها فأصبحا أداة للتخنث والميوعة والانصراف عن جد الحياة ولهوها وعبثها إنهما يكونان شرًّا على الأمة فى الأمن وفى الأخلاق وفى الرقى ، وفى النهوض بها

وعلى ذلك يكون الرأى واضحاً وليس هناك من داع إلى النزاع بين الشبان والعلماء عن التليفزيون والسينما ، كما أنه لا يكون هناك نزاع بين الشباب والعلماء على أية آلة وجهت إلى الإصلاح أو إلى الضرر ، والمسألة إذن ليست مسألة تليفزيون وسينما وإنما هى مسألة القائمين الذين يقومون على التليفزيون والسينما .

فإذا أُحسن اختيارهم وكانوا من العناصر الصالحة ، كان التليفزيون والسينما أداتين للخير والرقى والنهوض بالمجتمع .

فى التمثيل وشخصية الرسول

إن التمثيل فى ذاته وسيلة ثقافية سواء كان على المسارح أو الشاشة أو التليفزيون فإن كثيراً من روائع التاريخ وأحداث السياسة ، ومواقف الأبطال فى ساحات الجهاد والدفاع عن الأوطان ينبغى أن يتجدد ذكرها ، وينادى بها لتكون فيها القدوة الحسنة للأجيال الحديثة وذلك إذا كان تمثيلها تمثيلا واقعيًّا صحيحا . غير أن التمثيليات قد تتجاوز الأهداف الجدية وتتخذ وسيلة لما هو ممنوع ولما كان الرسول ﷺ مقامه أعلى مقام وحركاته وسكناته وحديثه تشريع كما قال تعالى : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحى يوحى) .

فإن منزلته صلوات الله وسلامه عليه فوق منزلة الناس ، وذلك يؤخذ من قوله تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) .

ولا توجد شخصية تماثل شخصية الرسول ﷺ ، ولا يجوز تمثيله بأى حال من الأحوال وهذا للاعتبارات الآتية :

١ – لأن مقامه أعلى وأجلّ من أن يتخذ وسيلة للتمثيل وغيره .

٢ – كل ما يصدر عن الرسول ﷺ تشريع لأنه لا ينطق عن الهوى .

٣ – هو القدوة الحسنة فى كل الأعمال .

٤ – التمثيل قد ينحرف بالمثل إلى مالا يناسب مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

لكل هذا ينبغى أن يسد هذا الباب نهائيًا ولا يصح التفكير فيه لأنه فتنة وفساد كبير .

فى الغيبة

لقد حذرنا الله تعالى فى كتابه العزيز من الوقوع فى الغيبة ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال سبحانه : (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم) فقد مثل الله تعالى الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وأراد سبحانه زيادة التنفير فجعل المأكول أخاً وميتاً ، ويقول صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه البخارى ومسلم « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » ولا ريب أن الغيبة تتناول العرض ، وقد جمع صلوات الله عليه وسلامه بينه وبين المال والدم ، ويقول صلوات الله عليه فيما رواه أبو داود بإسناد جيد : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

هذا هو الأصل ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظُلم) والظالم فاسق ، وقد أباح الله الجهر بالسوء فى حقه ، وقد أباح الفقهاء قياساً على ذلك وأخذاً من بعض الأحاديث غيبة المجاهر بالفسق ، والمجاهر بشرب الخمر ، وقالوا ثلاثة لا غيبة لهم الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . وقد وردت أحاديث تبيح أنواعاً من الغيبة مثل قوله

صلوات الله عليه : « أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس واذكروه بما فيه حتى يحذره الناس » ويقول صلوات الله عليه وسلامه:« من ألقى جلبات الحياء عن وجهه فلا غيبة له » وقال سيدنا عمر رضوان الله عليه:« ليس لفاجر حرمة »أما الأثر « لا غيبة فى فاسق » فإن معناه صحيح ، وإن كان لفظه لم يصح من طريق صحيح ، وعلى كل حال فإن الغرض المرخص لذلك إنما هو الإصلاح والتحذير من الشر ، والتوجيه للخير .

فى الغيبة فى الفاسق

يقول الله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه - واتقوا الله إن الله تواب رحيم) .

وفيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . . . هذا هو موقف الإسلام من الغيبة بوجه عام . ولكن الظروف قد تحتم أن يتحدث الإنسان عن شخص بما به ، وقد أباح الإسلام ذلك فى ظروف محدودة وبشروط معينة منها :

التظلم : فيجوز للمظلوم أن يعلن ويقول بأن فلاناً ظلمنى بكذا .

ومنها إذا سُئل الشخص عن إنسان يعرفه ، وكان ذلك من أجل مشاركة أو مصاهرة أو معاملة أو مجاورة ، فيجب أن يذكر عنه ما يعلمه بنية النصيحة .

والقياس العام هو أن تباح الغيبة لغرض صحيح شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها ، فكلما وجد هذا الغرض الشرعى الصحيح يباح للإنسان أن يتحدث عن الغير بما فيه .

فى حكم من هدى وثنيًّا إلى الإسلام ثم صار يستهزئ به بعد ذلك ويعيره بفضله عليه

إن هداية إنسان إلى الإسلام من أفضل القربات إلى الله سبحانه وتعالى ، ولقد روى محدثون عن رسول الله ﷺ أنه قال ما معناه : « لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم » وأنه قال ما معناه أيضًا : « لأن يهدى بك رجلًا خير لك من الدنيا وما فيها » . وذلك

أن هداية البشر دينًا وأخلاقاً إنما هى رسالة الأنبياء والرسل ، فمن قام بذلك فثوابه عند الله جزيل ، على شرط أن يتخلق بالخلق الكريم والأعمال الفاضلة ، أما إذا أخذ يستهزئ بمن هداه ويعيره بفضله عليه فإنه يكون بذلك قد أبطل ثوابه ، ومثله كمثل المتصدق الذى يؤذى من تصدق عليه أو يمن عليه ، والله سبحانه وتعالى يقول فيه :

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ما له رئاء الناس) أى مراءاة لا إخلاص فيها ولا صدق ولقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الاستهزاء والسخرية على أى وضع كان ذلك فقال سبحانه وتعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

وقال سبحانه وتعالى : (ويل لكل همزة لمزة) .

والويل عذاب شديد ، واللمزة هو الذى يؤذى الناس بالقول ، وهو مذموم ملعون ، كما أن (الهمزة) الذى يؤذى الناس بالفعل فهو أيضاً مذموم ملعون ، والمسلم عليه أن يتحلى بمكارم الأخلاق قولا وعملا تأسيا برسول الله ﷺ الذى كان خلقه القرآن ، والذى يقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) والله سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لكل إنسان أما من لم يتب إلى الله سبحانه وتعالى وينيب إليه فى إخلاص وصدق فأولئك هم الظالمون .

فى استبدال جزء من المعاش

قد يلجأ كثير من الموظفين إلى استبدال جزء من معاشهم للانتفاع به وذلك بأن يحصلوا على مبلغ من المال جملة يستقطع من المعاش بنسبة معينة مع فائدة قد تضاعف المبلغ الذى حصلوا عليه .

وهذا التصرف يوقع الأسر فى كثير من الاضطرابات المالية بعد إحالة الموظف إلى المعاش أو وفاته .

وفضلًا عن ذلك هو من التعامل بالربا المنهى عنه والذى حرمه الله سبحانه وتعالى بقوله : (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) وقول الرسول ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » .

فى لبس الحرير والذهب

روى جماعة من الصحابة منهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ خرج وبإحدى يديه حرير وبالأخرى ذهب قال : « هذان محرمان على ذكور أمتى حلال لإناثهم » ويروى : حِلّ لإناثهم ولهذا فقد أجمع الفقهاء على تحريم التحلى بالذهب والفضة للرجال .

وقد روى عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ نهى عن التختم بالذهب وأما الأسنان فقد قال أبو حنيفة رحمه الله لا تشد الأسنان بالذهب وتشد بالفضة ، وقال صاحباه أبو يوسف ومحمد : لا بأس بالذهب أيضاً ودليلها أن عرفجة بن أسعد الكنانى أصيب أنفه فى موقعة من المواقع العظيمة بين العرب تسمى يوم كُلاب ، وكُلاب بضم الكاف ، على وزن غُراب : واد بين البصرة والكوفة ، فاتخذ أنفاً من فضة فأنتن فأمره النبى ﷺ بأن يتخذ أنفاً من ذهب ، فقياساً على إباحة اتخاذ الأنف من الذهب للضرورة أبيح شد الأسنان من الذهب للضرورة كذلك ويرى أبو حنيفة أن الضرورة فى الأسنان تندفع بالفضة .

ومن هنا يتضح للسائل أن الفقهاء قد اختلفوا فى إباحة شد الأسنان بالذهب ، فإن لم يمكن اتخاذها من الفضة وكان لابد من الذهب فلا مانع من ذلك عملا بقول أبى يوسف ومحمد رحمهما الله ، ولأن الضرورات تبيح المحظورات .

فى حرمة الشعوذة

يحث الإسلام دائماً على العمل الجاد المثمر ، ويأمر بتحرى الحلال فى الكسب .

والشعوذة من الأمور المنافية لتعاليم الإسلام ، والبعيدة عن مبادئه وهى من النصب والاحتيال على الكسب غير المشروع ، وقد نهى الرسول ﷺ عنها بقوله : « إن الكهانة والتكهن فى النار » والكسب من وراثها كسب خبيث لا يحل أكله ولا الانتفاع به ، وقد كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه غلام فأتاه يوماً بطعام ، وبعد أن تناول منه لقمة سأله عن مصدره فقال له كنت أحسن الكهانة فى الجاهلية ولقد مررت بقوم فتكهنت لهم فأعطونى هذا الطعام فوضع أبو بكر أصبعه فى فمه واستقاء هذه اللقمة قائلا : والله لو لم تخرج مع نفسى لأخرجتها لأننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » وإنى خشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة .

ومن ذلك يعرف أن الشعوذة عمل غير مشروع ولا يحل الانتفاع بشىء من الكسب المتحصل من هذا العمل .

فى حكم أكل مال اليتامى بغير رضاهم

أساس الحكم فى هذا الموضوع قوله تعالى فى سورة النساء : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

ولقد شاهد رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عذاب الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال : « انطلق إلى خلق من خلق الله كثير رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير ، وهو موكل بهم ، رجال يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف فى فم أحدهم حتى تخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ .

قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

ورسول الله ﷺ : صرح بأن أكل مال اليتيم من السبع الموبقات أى التى توبق الإنسان فى جهنم أى تدخله فيها ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أما الإمام السندى فإنه قال :

يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهيب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه ، يعرفه كل من رآه ، وقانا الله شر هذا كله .

فى التسول بقراءة القرآن

قراءة القرآن بهذه الحالة امتهان ، فهى ممنوعة شرعاً لأن القارئ بهذه الكيفية يعرض القرآن للسخرية ، وهناك وسائل كثيرة للحياة الكريمة بدل الاستجداء بالقرآن ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم حافظين للقرآن ، ومع هذا كانوا تجاراً ، وكانوا عاملين للحياة الكريمة العزيزة :

قال الله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

وقال ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خيرٌ ، له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ويظهر فى هذا الحديث النهى عن المسألة والتحذير منها قال ﷺ : « إنها تأتى يوم القيامة نكتة سوداء فى وجه صاحبها » وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

وزجر رجلا تفرغ للعبادة وترك السعى وراء الرزق ، وكان أخوه الذى ينفق عليه حيث قال له : « أخوك أعبد منك » .

وضرب عمر رضى الله عنه رجلا اعتكف فى المسجد وهو قادر على الكسب وقال له : « إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

وأمرنا الله تعالى بالسعى ، لا فرق بين قارئ للقرآن وغيره ، حيث قال : (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) ، وقال :(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله).

وقال : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث المحذرة من التكاسل عن العمل ، بل كانت حياة الرسول ﷺ المثل الأعلى فى السعى والعمل وهو إمام المتقين .

فى إنشاء بنك اللبن

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية تحرم من الرضاع ما تحرم من النسب ، يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » معنى هذا أن الشريعة الإسلامية تحرم على الشخص تناول لبن أجنبية ما يحرمه النسب ، بشروط ذكرها الفقهاء ، وبذلك نعلم أن إنشاء بنك للبن فيه اختلاط للأنساب لأن الطفل حينما يتناول لبناً معيناً تصير صاحبة اللبن أمًّا له ، ويصير زوجها أباً له ، أى أن يحسب من أسرة صاحبة اللبن فيحرم عليه أن يتزوج من بنات هذه المرأة سواء من هذا الزوج أو من غيره ، وكذلك يحرم عليه تزوج بنات هذا الرجل سواء من هذه المرأة أو من غيرها .

ومما سبق يعلم أن إنشاء بنك اللبن فيه اختلاط للأنساب لا يقل خطراً عن اختلاط الأنساب فى الزنى ، إذ يجوز أن يتزوج الإنسان أخته من الرضاع أو عمته من الرضاع . . إلخ فنكون بهذا قد اعتدينا على أصل من أصول هذه الشريعة الغراء فالإسلام إذاً يحول بيننا وبين مثل هذا العبث بمقدساته . .

فى تحديد النسل

إن الأسباب التى قد توحى إلى بعض الناس بتحديد النسل كثيرة منها مثلا :

١ – أن تكون المرأة مريضة لا تحتمل صحتها الحمل والولادة ويقرر الأطباء أن فى الحمل خطورة على حياتها وفى هذه الحالة يباح لها تحديد النسل .

٢ – ومنها أن ترغب المرأة ويرغب زوجها فى استبقاء جمال المرأة وسمنها – كما يقول الإمام الغزالى – لدوام التمتع بها واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق ، يقول الإمام الغزالى « وهذا أيضاً ليس منهيا عنه » .

٣ – ومنها أن يتحرج أحدهما من إنجاب ذرية مريضة وفى هذه الحالة يباح أيضاً تحديد النسل ، أما الحالة الوحيدة التى يحرم فيها تحديد النسل فهى الخوف من عدم وجود القوت بالنسبة للأسرة لأن الله ضمن الرزق لكل كائن ، يقول تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها) .

علما بأن تحديد النسل يختلف عن تنظيم النسل ، فإن تحديد النسل لا يخضع لظروف أو ملابسات وإنما يسير بطريقة تعسفية تحكمية ، أما تنظيم النسل فإنه يساير الظروف والملابسات ويخضع للأحوال والعوامل والمناسبات وحينما يتخلى الإنسان عن الاعتقاد الفاسد من أن الله يخلق شخصاً ولا يتكفل برزقه ، فإن تنظيمه للنسل للظروف الاضطرارية لا مانع منه .

فى الاشتغال بالمزمار

الشخص الذى ينفخ فى المزمار آثم ما لم يكن فى عرس لورود النهى عن ذلك ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «أمرت بهدم الطبل والمزمار» أخرجه الديلمى وعن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال : « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » رواه البيهقى وابن أبى الدنيا ، وأبو داود بدون التشبيه ، وعن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ نهى عن ضرب الدف ولعب الصنج وضرب المزمار ، لما أسلفنا من الأحاديث نرى أن الاشتغال بالمزمار حرام وقد عده ابن حجر الهيتمى من الكبائر بالنسبة لفاعله ومستمعه .

فى مرتب مدرس التربية الإسلامية

الأصل فى المرتب الذى يتقاضاه مدرس اللغة العربية أنه حلال ، لأنه أجر فى مقابلة عمل مشروع ونقول الأصل لأنه إذا أهمل المدرس فى عمله أو تكاسل أو ناله الفتور فيه فإن مرتبه لا يصبح حلالا طيباً وبقدر نشاطه إذن وإخلاصه فى عمله يكون مرتبه حلالا ، وبقدر إهماله يكون حراماً .

أما مرتب مدرس التربية الدينية الإسلامية فليس منظوراً فيه إلى أنه أجر فى مقابلة عمل مشروع ، لأن الأعمال الدينية لا أجر عليها إلا من الله تعالى ، وإنما ينظر المسلمون إلى الأمر بالمنظار الآتى :

وهو أن هذا المدرس تفرغ لعمل يفيد الأمة فيجب على الأمة أن تكفل له نفقته ، وهكذا كان الأمر بالنسبة للخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لقد كانت أعمالهم كلها دينية فى سبيل الله ، حتى التى ترتبط بالمصالح الدنيوية منها لابد أن تكفل لهم الأمة أمر نفقاتهم ، فقدرت لهم من بيت المال ما يكفيهم وهذا هو الأساس الذى يبيح أخذ المرتب على تدريس التربية الدينية الإسلامية .

فى الحلف بغير الله

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال ﷺ « كل يمين يحلف بها دون الله شرك » .

من هذا نعلم أن الحلف لا يكون إلاّ بالله ومثل الحلف بالله الحلف بالقرآن ، لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته فهو كالحلف بالله سواء بسواء وأما الإجبار على الحلف فممنوع شرعاً إلاّ إذا كان لغرض شريف مثل التثبت من صحة قول الحالف فى موضوع يتصل بمصلحة المسلمين . وإلاّ فالإجبار على الحلف الباطل حرام والإكراه على الحلف لا يضر الحالف إذا تحققت شروط الإكراه ، وكان الحالف بريئاً وعند الإكراه بغير حق ، يرفع الحالف أمر من أكرهه إلى القضاء لحفظ دينه وكرامته ، وإذا ترتب على الحلف أضرار مادية يرفع الحالف أمره إلى القضاء .

فى اللقطة

إن الأشياء التى يجدها الإنسان فى الطريق إذا كانت ذات قيمة فإنه يجب على الإنسان أن يعلن عنها فى أماكن وجودها ، والمظان التى يوجد فيها صاحبها ، وعليه أن لا يتصرف فيها تصرفاً ينقص من قيمتها على أى وجه من الوجوه ولا يحل له أخذها لنفسه بمجرد العثور عليها ، فإذا لم يجد صاحبها فعليه أن يسلمها لقسم الشرطة حتى يأتى صاحبها ويتعرف عليها .

ومسألة الإيداع فى قسم الشرطة أمر لم يكن معروفاً من قبل ، ولذلك قال الفقهاء إن من وجد شيئاً ذا قيمة ويئس من وجود صاحبه بعد البحث عنه فإنه إذا كان محتاجاً إليه احتياجاً حقيقيًّا فله أن ينتفع بالشىء وإذا لم يكن محتاجاً له وجب عليه ، أن يتصدق به على ذمة صاحبه لأنه لما عجز عن إيصال عين الشىء إليه فعليه أن يوصل ثوابه إليه .

والإعلان عن المفقود يكون بحسب قيمته مدة ومكاناً .

فى السرقة

يقول الله سبحانه وتعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم) .

فحد السرقة هو قطع اليد ، وهذا هو حدها فى الشرع فى أى بلد كان من بلاد الإسلام لا يختص ببلد دون بلد ، فمن طبق هذا الحد كان ممتثلا لأمر الله أينما وجد ، ومن لم ينفذ هذا الحد على السارق كان مخالفاً لحكم الله ، فى أى مكان كان ؛ وقطع يد السارق يطبق دائماً فى مكة حينما تثبت جريمة السرقة ثبوتاً قاطعاً ، ويطبق أيضاً فى جميع أرجاء المملكة السعودية ، وقد كانت السرقة منتشرة فى هذه المملكة قبل تطبيق هذا القانون فلما طُبق على السارق قلت السرقة قلة كبيرة ، حتى لقد أصبحت نادرة أو غير موجودة فى كثير من المدن والقرى .

فى صلة الرحم

يقول الله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

نزلت هذه الآية الكريمة فى أبى بكر رضى الله عنه ، وقد حلف ألا ينفق على مسطح ، وهو

ابن خالته ، وكان مسطح هذا مسكيناً فقيراً وقد فعل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ذلك ، عندما أساء إليه مسطح إساءة بالغة ، فلما نزلت الآية قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بلى أنا أحب أن يغفر الله لى ، ورجع إلى مسطح ماكان ينفقه عليه .

وفى معنى هذه الآية الكريمة الأحاديث الكثيرة التى تعبر عن مستوى رفيع فى الأخلاق وتعبر عن الشعور السامى فى الإنسانية يقول صلوات الله عليه : « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح » أى المنقطع المعادى .

على أن صلة الرحم ليست مكافأة على معروف ولا جزاء على حسنات ، وإنما هى واجب دينى وإنسانى حث عليه الإسلام ويحذر من البعد عنه ، يقول صلوات الله عليه « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إن قطعت رحمه وصلها » .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ ، وأحلم عليهم ويجهلون علىّ ، فامتدحه صلوات الله عليه على فعله ، وحثه على التزامه وعدم العدول عنه .

على أن من أحب أن يبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أجله فليصل رحمه . ونختتم الإجابة بقوله تعالى :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فى برّ الوالدين

قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً) وقال : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) ، وقال ﷺ: « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الحث على الإحسان إلى الوالدين ووجوب إكرامها والتزام الخلق الخير بالنسبة إليهما كثيرة ولقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كل ما يسىء إليهما والآيات الجامعة للأدب الإسلامى بالنسبة للوالدين هى قوله تعالى : (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

فإذا ما أساء الإنسان فى حق أمه متعمداً فلعنته فإن عقابه عند الله شديد ، أما إذا أخطأ غير

متعمد فعليه فى هذه الحالة وفى الحالة الأولى أن يستغفر الله مباشرة وأن يذهب إلى أمه مستعطفاً مستغفراً تائباً وعليه أن يتلطف ليسترضيها بكل وسيلة مشروعة حتى ترضى عنه فإذا لم ترض بعد كل ذلك فليس عليه إلاّ أن يحسن إليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يلجأ إلى الله طالباً عفوه وغفرانه ، والله سبحانه وتعالى يقول بصدد هذا:(ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً) .

فى طلب رجل مسن عاجز عن العمل نقوداً من ولده الموسر فلم يعطه وأساء إليه فماذا يفعل ؟

يقول الله تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً).

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما معناه :

« أنت ومالك لأبيك » . فقد نص القرآن الكريم على الإحسان إلى الوالدين وأمر الله سبحانه وحث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على البر بهما ، وغير ذلك مما هو متعلق بحقوق الوالدين ، وليس من الإحسان بل ليس من الإسلام فى شىء كف الابن عن والده العطاء ، وحرمانه مما يملك وخاصة فى وقت الحاجة .

فإذا كان الشرع أكثر وصاياه الحكيمة بالوالدين فلا يكون ذلك إلاّ لأمر له . من الأهمية ما يقتضى الثواب الجزيل والأجر العظيم لمن استجاب إليه ، فإذا طلب الرجل نقوداً من ابنه الموسر فلم يعطه فله الحق أن يأخذ منه عن طريق الحاكم والشكوى لولى الأمر ، أو الجهات المسئولة حتى يتسنى له الأخذ من ولده ما يكفيه شر الحاجة ويكف يده عن المسألة .

فى بر الوالدين بعد موتهما

إن طريقة بر الوالدين بعد موتهما قد رسمتها الأحاديث النبوية فى وضوح لا لبس فيه ومن أنواع البر : أن يتصدق الإنسان عنهما .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال : يا رسول الله إن أمى توفيت ولم توصنى أفينفعها أن أتصدق عليها ؟ قال صلوات الله عليه : « نعم » أى تنفعها صدقة ابنها عنها .

ومن أنواع البر الدعاء لهما فقد ورد فى ذلك الحديث المشهور عن أبى هريرة قال صلوات الله عليه : « إذا مات العبد انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

ويجمع الكثير من أنواع البر بالوالدين ما رواه أبو أسيد رضى الله عنه قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال صلوات الله عليه : « نعم : خصال أربع : الدعاء والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لك من قبلهما » .

وقد ثبت بالسنة أن درجة الميت ترفع بسبب استغفار الابن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ترفع للميت بعد موته درجته ، فيقول : أى ربى ، أى شىء هذه ؟ فيقال : ولدك استغفر لك .

فى رجل مسن ومريض أساء إليه ولده

طاعة الوالدين وبرهما والإحسان إليهما أمر حث الله عليه . قال تعالى : (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

وتتأكد طاعة الوالدين عند الكبر حينما يبلغان مرحلة الضعف والحاجة ، وحينئذ يجب ألا يتضرر الولد من تصرف والده ، ولا يتأذى من قوله ، ولا يتأنف منه ، ولا يظهر له أى تبرم مهما كان ، لأن الله خص هذه المرحلة بالذات بالذكر والتنبيه كما مر فى الآية الكريمة من قوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً) .

والولد الذى يخالف ذلك يكون عاقًّا لوالديه مهما كان كبيراً ، لأن هذا دَيْن ، وسيعامله أبناؤه كما يعامل أباه ، فليختر لنفسه ما يجب أن يتعامل به عندما يصل إلى هذه المرحلة من السن .

فالولد مخطئ ولا شك ، ويلزمه أن يعتذر لوالده – ويندم على ما فرط منه فى حقه ، ومع ذلك فعلى الوالد ، وهو صاحب العقل الكبير والتجارب – أن يكون شفيقاً على ولده ، مقدراً لظروفه وأن يكون حكيماً مع أولاده لا يفضل أحداً منهم على الآخر لأن الكل محتاج إلى عطفه وحبه وعليه ألاّ يلجأ إلى أسلوب الحرمان ، فإنه أسلوب قد يؤدى عكس الغرض منه ، ويوجد العداوة بين الإخوة فى حياة الوالد وبعد العمر الطويل له .

والرسول ﷺ يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا » رواه الترمذى بسند صحيح ، على أن الخصام منهى عنه بين الغرباء ، وإذا حدث فالمبادرة إلى الصلح مطلوبة قال تعالى : (والصلح خير) .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

فى من انقطع للدراسة مدة طويلة ولم يزر أهله

أمر الله سبحانه وتعالى بطاعة الوالدين والإحسان إليهما فى كثير من آيات الكتاب العزيز وقرن ذلك بعبادته قال تعالى : (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً) .

والإحسان إلى الوالدين يكون بقدر الاستطاعة وحسب الإمكان كما قال تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها) .

فمن كان غائباً عن والديه وجب عليه أن يبرهما بالسؤال الدائم عنهما بالمكاتبات ، والمعاونة المالية إن أمكن ، وغير ذلك من أنواع الهدايا والطرف ، بقدر استطاعته ولو كان مستطيعاً للسفر وعنده نفقاته زائدة عن حوائجه الأصلية ، وجب عليه أن يسافر لزيارة الوالدين ما دام قادراً على ذلك ، فإن قصر فى هذا الواجب كان مؤاخذاً عليه من الله سبحانه وتعالى ، والغائب خاصة إذا كان طالباً للعلم ، فى حاجة إلى رضا والديه ودعائهما ليوفقه الله فى طلبه العلم ، ويحفظه فى غربته ، ودعاء الوالدين مستجاب لولدهما .

فى الحلف على تحريم منزل الأخت على النفس

(يأيها النبى لِمَ تُحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم) .

وفى الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » .

ومن المعلوم أن تحليل الحلال خير من تحريمه فعلى من حلف على تحريم الحلال المبادرة إلى الخروج عن هذا التحريم ، والرجوع إلى حالته الطبيعية من الحل ، والتكفير عن ذلك ، وكفارة اليمين ذكرها الله تعالى فى قوله : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن

لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) .

وإطعام كل مسكين بما يشبعه فى أكله ولا يقل عن ثمن نصف قدح من الحبوب الغالبة فى قوت البلد .

فعلى السائلة أن تكفِّر عن يمينها ، وأن تدخل بيت أختها ، سواء وُجد لهذا الدخول باعث من حاجة أو صلة رحم ، وذلك أن صلة الرحم لها أهميتها الكبرى فى الدين الإسلامى ، ومن قطع رحمه قطعه الله ، ومن وصل رحمه وصله الله .

فى من قال لأخيه أنت ابن غير شرعى

من قال لأخيه أنت ابن غير شرعى كان قاذفاً لأمه وعاقالها وإن شاءت طالبت بحده لقذفه لها ، قال تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون) .

ومن قال لأخيه أو لأحد من المسلمين : ياكافر ، فإن كان من قيلت له كافراً فليس عليه شىء وإن لم يكن كافراً باء القائل بالكفر ، وعليه التوبة فوراً .

فى من يصوم ويصلى ويقاطع والديه وذوى رحمه ويسىء إليهم

يقول الله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) .

أما عن الرحم على وجه العموم فإن الله سبحانه يقول : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

فمن قطع رحمه يلعنه الله ويجعله كالأصم الأعمى ، وهذا تهديد عنيف نستعيذ بالله من أن نقع تحت طائلته .

وقد كانت أول صفة لرسول الله ﷺ وصفته بها السيدة خديجة رضوان الله عليها:« أنه يصل رحمه » ولقد قال رسول الله ﷺ عن الرحم:« من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

على أن الرحمة على وجه العموم ، الرحمة العامة الشاملة الرحمة التى يشعر بها القلب ويحفظها

الإنسان ، من أسس الرسالة الإسلامية ومن أهدافها ، وإن من لا خير فيه لأهله فإنه لا خير فيه لغيرهم ، وأداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم إذا لم يحمل الإنسان على العطف والرحمة خصوصاً بأهله فإن فى أداء هذه الواجبات خللا يجب أن يتلافاه الإنسان حتى يصل إلى مرضاة الله ورسوله .

هذا كله إذا كان قاطعاً لرحمه ، أى لم يصلهم دون أن يكون مسيئاً إليهم ، أما إذا كان قد بلغت به قسوة القلب إلى الإساءة إلى الأرحام فإن ذلك لا يعلم عقابه إلاّ الله ، وإن ذلك ليدل دلالة واضحة على أن أداءه للفروض الدينية إنما هو شكل من الأشكال ورسم من الرسوم ، فيجب عليه المبادرة إلى الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وعسى الله أن يوفقه إلى ما يحبه ويرضاه .

فى من احتقر أقاربه بسبب فقرهم

يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » رواه مسلم .

لقد نهانا الله سبحانه وتعالى نهياً كليًّا وحذرنا رسوله ﷺ تحذيراً عامًّا أنه لا يحل لامرئ مسلم أن يسخر أو يستهزئ بأخيه أو يحتقره سواء أكان المستهزأ قريباً أم بعيداً ، ذا رحم أم أجنبيًّا ذكرا كان أم أنثى ، فإن ذلك تترتب عليه العداوة بين الناس ، ويسود الشقاق بين أفراد الأمة ويورث الحقد والضغائن فى القلوب فتنحل بسبب ذلك أواصر المحبة وتنقطع أسباب المودة ، على حين أن الإسلام يأمر بالتوادد والتعاطف والتحابب فى الله ولله .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى فى هذا النهى أن الإنسان لا يدرى قيمة نفسه وغيره عند الله تعالى ، فربما كان المستهزأ به أفضل عند الله وأعظم من المستهزئ .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » هذا وإن جزاء احتقار المسلم لأخيه المسلم الطرد من الجنة ، وعدم السعادة بها فى الآخرة .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجن من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة،فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » ومعنى بطر الحق دفعه وغمطهم احتقارهم .

فلا يحل لإنسان يؤمن بالله ويصدق ماجاء به رسولنا ﷺ أن يحتقر أخاه بسبب من الأسباب الدنيوية مهما كان فقيراً أو غنيًّا فإن الغنى ليس مقياسًا لتقدير الإنسان أو احترامه كما أن الفقر لا يكون سبباً داعياً للاحتقار أو الاستهزاء إنما المقياس العام الوحيد : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالذى يحتقر أخاً له لفقره عليه أن يستغفر الله من ذلك ، ويسترضى أخاه ويطلب منه الصفح والعفو .

فى من يعاملها أقاربها معاملة سيئة ولهذا قطعت علاقتها بهم

قطع علاقة الشخص بأقاربه ، بل المسلمين من أعظم الأخطاء ما لم يترتب على الاختلاط أو مجرد الصلة : الوقوع فى مأثم فيترك كل ما يؤدى إلى معصية دون ما عداه .

قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

فتحملى أيتها السيدة فى صلة رحمك وإن أساءوا إليك ولا تقاطعيهم فإن لك بذلك الأجر وعليهم الوزر .

أسأت إلى أمى وأختى فما الطريقة التى أكفِّر بها عن هذه الإساءة ؟

الطريقة التى تكفر بها عن جرمك هى استغفارك الله عز وجل وتوبتك توبة نصوحاً تندم فيها على ما فرط منك مع عزمك على عدم إهانة أختك مرة أخرى وطلبك رضاها ورضا أمك فإذا ما سامحاك سامحك الله وغفر ذنبك ، وإذا لم يسامحاك فاستغفر الله لهما واطلب منه أن يرضيهما عليك . .

هل يجوز للمسلم شرعاً البكاء على وفاة أحد أقربائه : والده أو أمه ، أو غيرهما مثلا ؟

البكاء على الميت ليس ممنوعاً شرعاً إذا كان الدافع له عاطفة الفراق أو المحبة ولم يكن نتيجة جزع ، ولم يصحب بقول أو فعل مخالف لما أمر الله تعالى به ، ولقد روى البخارى رضى الله عنه أن أنس بن مالك ومعه بعض الصحابة رضى الله عنهم دخلوا على ابن رسول الله ﷺ قال أنس :

فأخذه رسول الله ﷺ فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه (يحتضر) فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان (أى تدمعان) فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، وأنت يارسول الله ؟ فقال : يابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى (أى أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى) ثم قال ﷺ : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلاّ ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » وفى حديث آخر أن عبد الرحمن بن عوف قال : يا رسول الله أتبكى ؟ أو لم تنه عن البكاء ؟ فقال ﷺ : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند لهو ولعب ومزامير الشيطان ، وصوت عند مصيبة » .

ثم فسر رسول ﷺ هذا الصوت الثانى فقال خمش وجوه « أى لطم ، وشق جيوب ، ورنة شيطان » .

ثم فسر رسول الله ﷺ ، دمعه فقال : « إنما هذه رحمه ، ومن لا يَرْحم لا يُرْحم فما دامت الدموع لا يصاحبها جزع أو فعل مخالف أو قول مخالف لما أمر الله تعالى به ، أو نهى عنه فإن ذلك ليس بمحرم .

استدان شخص من آخر ثم توفى ، هل إذا سامحه صاحب الدين يغفر الله للمتوفى ؟

إن الصلة بين الدائن والمدين فيما ينبغى أن تكون حددها الله سبحانه وتعالى بقوله : (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدَّقوا خيرلكم إن كنتم تعلمون) أى انظروا المُعسر ، وأن تتركوا رأس المال بالكلية بالنسبة للمدين المعسر وتضعوه عنه فإن ذلك خير لكم ، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ليسر عن مُعسر أو ليضع عنه » وقد روى الإمام مسلم فى صحيحه أن أبا قتادة كان له دَيْن على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبى فسأله عنه فقال : نعم ، هو فى البيت يأكل خزيرة (نخالة مبلولة) فناداه فقال : يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا ، فخرج إليه فقال : ما يغيبك عنى ؟ فقال إنى معسر وليس عندى شىء ، قال : والله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة ، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة فقد أخرج البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال : ماذا عملت فى الدنيا ؟ فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا ، أرجوك بها قالها ثلاث مرات ثم قال العبد عند

آخرها يا رب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأُنظر المعسر ، قال : فيقول الله عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة » .

هذا فيما يتعلق بالموقف الذى يجب أن يقفه الدائن من المدين إذا كان معسراً أما فيما يتعلق بمغفرة الله للمدين الذى لم يسدد دينه فيقول رسول الله ﷺ ما معناه : « من أخذ مال امرئ يريد إتلافه أتلفه الله ، ومن أخذ مال امرئ يريد أداءه أدى الله عنه » . ونية المستدين إذن لها شأن كبير فيما يتعلق بمغفرته سبحانه وتعالى ، فإذا كانت نيته سداد الدين حينما أخذه ولم تسمح له ظروف الحياة بسداده مع أنه كان يريد فى صدق وإخلاص هذا السداد ومات على هذه النية فإن الرجاء فى الله سبحانه وتعالى كبير فى أن يتجاوز عنه لأن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها فإذا سامحه صاحب الدين غفر الله له ، وتجاوز عن عدم سداد الدين ، أما إذا كانت نيته عند أخذ الدين إتلافه فإن الله عز وجل يحاسبه على نيته وإذا سامحه صاحب الدين فى هذه الحالة فإن ذلك يخفف عنه كثيراً ولكنه لا يمحو كلية جريمة سوء النية وسوء القصد .

فى شرب الدخان

الذى يدخن السجائر ونحوها من التنباك والمعسل آثم لكراهة رائحة الدخان المنبعث من تلك المشروبات ، وقد قال رسول الله ﷺ فى آكل الثوم والكرات والبصل ما معناه : « من تناول هذه الأشياء فلا يقربن مسجدنا يؤذينا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ورائحة الدخان أشد كراهة من رائحة الثوم والكرات والبصل ، وهو ينافى آداب الدخول فى المسجد والمكث فيه .

وإن آداب الدخول فى المسجد والمكث فيه تتلخص فى ثلاثة أشياء :

١ – الطهارة من الحدث والنجس .

٢ –التزين بأحسن اللباس والتطيب بما تيسر من الروائح الطيبة .

٣ – الاشتغال بذكر الله عز وجل .

قال تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) .

وقال تعالى : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ،يُسبح له فيها بالغدو والآصال . . .) .

فى حكم التدخين فى الإسلام

بعض الناس تحتمل صحته ويحتمل جسمه التدخين ولا تضره السجائر كثرت أو قلت ، ولا يلحق به التدخين ضرراً من حيث نفقته ولا نفقة من يعول ، وفى هذه الحالة يكون حكم التدخين أنه مكروه ، لأنه إنفاق المال فيما لا يفيد ، وإنفاق المال فيما لا يفيد ليس من عمل المتزنين روية وتفكيراًوعقلا ، ومن أجل ذلك يعتبر التدخين فى هذه الحالة مكروهاً فقط ، أى أنه ليس بحرام .

أما إذا انعكس الأمر وأضر التدخين بالصحة فإنه يكون حراماً وشربه يكون إثماً ومعصية وإذا أضر التدخين بمن يعولهم شارب الدخان ، وذلك كما لو كان فى حالة ضنك فى معيشته ، وكان محتاجًا إلى المال فى إنفاق على أسرته من أجل مسكنها أو ملبسها أو مأكلها أو من أجل علاج مريض فى الأسرة – فإن التدخين فى هذه الحالة يكون أيضاً حراماً وكفى بالمرء إثماً أن يهمل من يقوت بإنفاق المال فيما لا يجدى .

إن كل راع مسئول عن رعيته ، والمسئولية كما أنها واجبة فى الجانب الأدبى رعاية وعناية وإصلاحاً فإنها أيضاً واجبة فى الجانب المادى إنفاقاً وتطبيبًا وتوفيراً للمسكن والمأكل .

وقد يكون التدخين نوعاً من الإسراف والتبذير والله سبحانه وتعالى يقول : (ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) ويقول : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) .

ونخرج من كل ذلك بأن حكم التدخين يختلف باختلاف حالة الشخص ، والقاعدة العامة هى ما قاله رسول الله ﷺ « لا ضرر ولا ضرار » أى أنه يجب على الإنسان أن يتجنب كل شىء يلحق به ضرراً وأن يتجنب كل أمر يلحق ضرراً بالآخرين .

فى لزوم الوفاء بالنذر

يقول الله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) لقد امتدح الله تعالى فى هذه الآية الأبرار ، حيث وصفهم بالوفاء بالنذر وقد أخبر الله بوقوع العقاب على من لم يوف به فقال تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

فالوفاء بالنذر لازم ، وهو لازم عند الاستطاعة فإذا ما استطاع الإنسان أن يوفى بالنذر وأخر الوفاء به فهو آثم ويجب عليه ، للتخلص من الإثم: الاستغفار والتوبة والوفاء بالنذر كاملا .

فى تقبيل يد الصالحين

إن تقبيل يد الشيخ الصالح التقى العامل بالدين أوامره ونواهيه ، يكون تعبيراً عن الإجلال والاحترام والتوقير والإقرار بالفضل لذويه . وتقبيل اليد فى مثل هذه الحالة تعبيراً عن الاعتراف بالفضل وإظهاراً للشعور بالتقدير جائز بل مستحب ، ويكفى نفياً لكل شبهة أن نروى القصة التالية :

« ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف فهاجمه سفهاء أهل الطائف هجوماً عنيفاً وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة فلما رآه أصحاب الحائط أرسلا إليه عنباً ، مع غلام لهما نصرانى يقال له عَدّاس .

ذهب عَدّاس بالعنب حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل ، ثم نظر عدّاس فى وجهه ثم قال إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال رسول الله ﷺ ومن أهل أى بلاد أنت يا عدّاس ؟

وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح « يونس بن متّى » فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متّى ؟ فقال رسول الله ﷺ ذلك أخى كان نبيًّا وأنا نبى فأكب عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه » ا . هـ . من هذه القصة نرى أن عداسًا قبّل يدى رسول الله ﷺ ورجليه ونرى أن رسول الله ﷺ لم ينهه عن ذلك ، ولم يبين له أن ذلك ممنوع ، فدل ذلك على أنه لا بأس به .

فى الهدية تقدم للشرفاء والشيوخ

الهدية التى تقدم إلى الشرفاء والشيوخ تكون مندوبة إذا قصد بها المودة ولم يقصد بها نفع مادى يعود على مهديها ، أما بالنسبة إلى الشرفاء فلقول الله عز وجل : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة فى القربى) .

وقال تعالى : (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) .

ويقول الله تعالى : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) وأما بالنسبة للشيوخ

الذين تصدوا لملاقاة الناس وقضاء حاجاتهم والإجابة عن أسئلتهم فتقديم الهدية إليهم مندوب كذلك ، لأنهم إما أن يكون لهم من المال ما يفى بحاجاتهم أصلا أو يكون ما يفى ببعض حاجاتهم دون البعض . بكل ما يحتاجون إليه ، وفى الحالتين الأوليين يجب على الدولة بصفة خاصة وعلى المستطيع من المسلمين بصفة عامة أن ينظروا إليهم نظرة إجلال وإكبار وأن يقدموا لهم ما يحتاجون إليه لاعلى سبيل الصدقة ولكن بطريق الهدية ولا يغفلن أحد ما قام به الأئمة : مالك والشافعى وغيرهما من العلماء المشتغلين بالعلم ولولا ماكان يؤديه الخيِّرون إليهم لما تمكنوا من إجابة الناس عندما يسألون ولما تمكنوا من القيام بدروسهم التى بينت معالم الدين وجعلته ميسور الاطلاع عليه والأخذ به من كل متعطش إلى المعرفة والعلم بدين الله .

والهدية إن لم تكن واجبة فى بعض الأحيان فهى مندوبة وإن لم تكن الهدية واجبة أومندوبة فى بعض الأحيان فهى مستحبة . فمن أين يعيش أولئك الشيوخ إن لم يكن لديهم ما يفى بحاجاتهم وحاجات الطالبين.أما من كان لديه المال الكافى فليست الهدية إليه واجبة بل هى مستحبة ، لأنها برهان وتعبير صادق عن تقدير مهديها للعلم فى شخص أهله ، على أنه حينئذ سترد إليه هديته مضاعفة .

ما حكم الميت يُوضع فى صندوق ويدفن ؟

اتفق الفقهاء على أن الدفن للميت واجب على المسلمين . والمقصود من الدفن مواراة الميت فى حفرة تحجب رائحته وتمنع السباع والطيور عنه والأعداء وعلى أى حال إذا تم ذلك فقد حصل الغرض وينبغى تعميق القبر قدر قامة محافظة على ذلك المعنى .

روى النسائى والترمذى عن هشام بن عامر قال شكونا إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقلنا يا رسول الله الحفر علينا لكل إنسان شديد ، فقال رسول الله ﷺ : « احفروا وأعمقوا وأحسنوا وادفنوا الاثنين والثلاثة فى قبر واحد » فقالوا : فمن نقدم يا رسول الله قال : « قدموا أكثرهم قرآنا » وكان أبى ثالث ثلاثة فى قبر، وروى ابن أبى شيبه وابن المنذر عن عمر أنه قال : « أعمقوا إلى قدر قامة وسطه » وعند أبى حنيفة وأحمد يعمق قدر نصف القامة ويقصد اللحد وهو الشق فى جانب القبر جهة القبلة ينصب عليه اللبن ، فيكون كالبيت المسقف على الشق فى حفرة وسط القبر تبنى جوانبها للميت ويسقف عليه وكل ذلك جائز .

وعلى ذلك فيعتبر صندوق الخشب الذى يوضع فيه داخل القبر خاصة عند الحاجة كما جاء فى

السؤال كاللحد والقبر للميت فيجوز ذلك .

وعليه أن يلتزم السنة بأن يجعل الميت على جنبه الأيمن ، ووجهه تجاه القبلة ويقول واضعه : بسم الله ، وعلى ملة رسول الله . ويحل أربطة الكفن وهو فى الصندوق كالقبر.

روى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : كان إذا وضع الميت فى القبر قال : « باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، أو على سنة رسول الله ﷺ » رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

فيكون الصندوق جائزاً وحكمه حكم القبر ويوضع بإحكام فى القبر ، وينبغى ذلك عندما تكون الأرض صالحة كما جاء فى السؤال .

فى الطقوس الواجب اتباعها بالنسبة للميت

ما يجب اتباعه بالنسبة للميت هو عند خروج الروح قول : « لا إله إلاّ الله » بجواره ليسمعها لعله يقولها وتخرج روحه وهو مؤمن . .

فقد قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلاّ الله دخل الجنة » ولا يكره على قولها ، لعله قد تمنعه سكرات الموت عن استطاعة التلفظ بها ، وهو مطمئن القلب بها .

ثم إغماض العينين عقب خروج الروح ، ثم يقول مُغمِضُ عينيه : اللهم اغفر له وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبيه ، واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له فى قبره ونور له فيه . ثم توجيهه للقبلة ، ثم تغسيله ، وتكفينه فى ثلاثة أثواب بيض ثم الصلاة عليه .

ويستحب أن يكثر عدد المصلين رجاء أن يشفعهم الله فيه ، فقد ورد أن من صلى عليه أربعون رجلا شفعوا فيه .

وعلى قدر صلة الشخص بالمتوفى يكون اهتمامه به وعمل كل ما يستنزل رحمة الله عليه . ثم تُشيَّعُ جنازته ، ثم دفنه .

ثم بعد ذلك : تسدد ديونه ثم تنفذ وصاياه ثم تقسم تركته على مستحقيها .

فى التطهر من تغسيل الميت

الميت المسلم طهور ، وليس التطهر من تغسيل الميتْ واجباً بل مندوب ، لما روى من أن النبى ﷺ قال : « من غسل ميتاً فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ » والأمر هنا محمول على الندب لما روى عن عمر رضى الله عنه قال : « كنا نغسل الميت فمنا من يغتسل ومنا من لا يغتسل » .

ولما غسلت أسماء بنت عميس زوجها أبا بكر الصديق رضى الله عنه حين توفى خرجت فسألت من حضر معها من المهاجرين : إن هذا يوم شديد البرد ، وأنا صائمة فهل على من غسل ؟ قالوا : لا .

وعلى ذلك فليس فيمن غسل الميت ما يقدح طهارته وطهارة ثيابه ، ولم يرد ما يمنع من إمامته الناس فى صلاة الجنازة أو اشتراكه فى هذه الصلاة بل هو كغيره من المسلمين فى هذه الصلاة ، له ثوابها وعليه أن يبادر إليها .

فى عدم جواز لمس عورة الميت

لا يحل لمس عورة الميت أو النظر إليها . . فيلف الغاسل على يده خرقة ليغسل بها عورة الميت . ومما لا شك فيه أنه يجوز لمس الميت لمن هو متوضئ وغير متوضئ ما دامت اليد نظيفة من نجاسة تلوث الميت ، وينبغى أن يكون لهذا اللمس ما يبرره وإلا كان عبثاً لا يليق .

فالمسلم غير المتوفى ليس بنجس ، بل المسلم إذا كان جنباً ليس بنجس بمعنى أن يده غير ملوثة بالنجاسة وأن من لمسه لا يجب عليه غسل يده ، والميت كالحى فى ذلك .

ومن رحمة الله بالمسلم أن جعله الله طاهراً حيًا وميتاً طهارة معنوية ، وجعل من حقه على المسلمين أن يغسلوه بعد الموت ليقبل على الحياة الأخرى طاهراً ظاهراً وباطناً إن شاء الله .

وعناية الإسلام بالميت مظهر رائع من مظاهر الوفاء يقوم به الأحياء من إخوانه المسلمين إشعاراً لهم بأن الواجب يقضى أن يكون لله خالصاً ، لا ينبغى انتظار مثوبة من أحد ، وعلى فعل المعروف .

قال تعالى : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) ، ومثل الإطعام غيره من كل خير وبر ، واحترام الميت كجسد وكخصائص وصفات وآثار واجبة . وفى الحديث : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » .

فى نقل رفات الميت

يجوز عند الضرورة القصوى وعندما يكون لا مفر من ذلك نقل رفات أحد الموتى لغرض عام كبناء المساجد كما فعل ﷺ فى بنائه لأول مسجد فى الإسلام بالمدينة .

كما يجوز نَقْلُهُ من الطرق العامة : ليكون بعيداً عن المشى عليها ولكى لا يتعرض لبعض المارة عليه .

كما يحرم تركه بالممرات أو إهانته أو إهماله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ واحترامه فى جمعه فى مكان بعيد عن المشى أو القعود عليه لأن من قعد على جمرة من نار تنفذ من ثيابه إلى جسده خير له من أن يقعد على قبر كما أخبر بذلك النبى ﷺ حيث قال ، فيما رواه الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر » .

هل يجوز الدعاء للميت ؟
وهل يجوز دفن الميت بدون كفن ؟
وهل يصح للرجل غسل زوجته ؟

لامانع من الدعاء للميت فى البيت بعد الصلاة عليه والدعاء له عند الدفن والله تعالى يقول : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) .

وقد أمرنا بالصلاة على النبى ﷺ ، والدعاء له بأن يصلى عليه ويسلم تسليماً مع استغنائه عن ذلك .

والدعاء ينفع صاحبه وينفع غيره من الناس حيًا كان أو ميتاً .

أما بالنسبة للكفن فلا يجوز دفن ميت بغير كفن ، لأن الكفن حق له على إخوانه المسلمين ، وقد كان الرسول ﷺ يطمئن إلى تكفين كل ميت . ولم يثبت أن ميتاً دُفن بغير كفن ، وعلى ذلك فدفن الميت بغير كفن مخالف للسنة والإجماع ، اللهم إلاّ فى حالة الشهيد ، فإنه يدفن بثيابه كما هو دون غسل أو كفن .

أما الغسل فالجمهور على جواز غسل الرجل زوجته ، وقال أبو حنيفة لا يجوز غسل الرجل زوجته .

وسبب اختلافهم هو تشبيه الموت بالطلاق فمن شبه الموت بالطلاق قال لا يحل أن ينظر إليها بعد الموت ، ومن لم يشبهه بالطلاق فإن ما يحل له من النظر إليها قبل الموت يحل له بعد الموت وهو الراجح .

فى الطعام الذى يقدم بعد الموت

الأصل فى الطعام الذى يقدم بعد الموت أن يقدم لأهل الميت من غيرهم ، لانشغالهم بمأتمهم وحزنهم الذى يصرفهم عن إعداد الطعام ، وانصراف شهيتهم عن البحث عنه ، والأصل فى ذلك أن النبى ﷺ قال حينما استشهد جعفر بن أبى طالب : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإن لديهم ما يشغلهم » وإذا كان الطعام المقدم لأهل الميت يزيد على حاجتهم فلا مانع من اشتراك غيرهم معهم فيه .

أما أن يعد أهل الميت طعاماً ويحمِّلون أنفسهم فوق هم المصيبة ، وألم الحزن مسئولية إعداد الطعام وتهيئته للمعزين فهذا ما لم يرد به الشرع ، بل هو ضد روح الشرع ، ومخالف لمقاصده .

ومع ذلك : فإذا أعد أهل الميت طعاماً للناس فلا مانع من أكله ، إذ لا حرمة فيه ، ولا مانع يمنع منه . . وإن كان هذا التناول خلاف الأولى ، لأن فيه تشجيعاً على هذه العادة ومساهمة فى انتشارها .

هذا وقد عد الصحابة التوسع فى إعداد الطعام وتقديمه للمعزين من النياحة ، أى المبالغة فى التذكير بالميت وعد محاسنه والتفاخر بها ، فعن جرير بن عبد الله البجلى قال :

« كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة » أى أنه نهى عنه ، كما أن النياحة منهى عنها .

وأنه من الإنسانية ومن المروءة أن يُعَد لأهل الميت الطعام لا أن يعد أهل الميت الطعام للآخرين .

فى تغسيل الميت وتكفينه

إذا مات الميت وجب على جميع من علم بموته وجوباً كفائيًّا أن يقوم بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه فإذا أدى هذه الأعمال أحد المسلمين سقط الوجوب عن الباقين وإذا لم يقم به أحد أثموا جميعاً .

والصلاة على الميت لها ثوابها ، وكذلك اتباع الجنازة حتى تدفن له ثوابه أيضاً .

روى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : « يا عبد الله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟

إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان ، أجر كل قيراط مثل أُحد ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له مثل أُحد » فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما . خباباً إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره بما قالت : فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

من هذا نعلم أن من صلى على الجنازة فقط له أجر واحد ، ومن تبعها حتى تدفن له أجران ، وما دام هناك من يقوم بالدفن ويؤدى الواجب به فهو جائز ولا إثم على من رجع قبل الدفن .

فى الثواب الذى يصل إلى المتوفى

قراءة القرآن عبادة وقربة إلى الله سبحانه وتعالى لها ثوابها عند الله ، وكذلك إطعام الطعام قربة وطاعة لها ثوابها عند الله سبحانه وجو المأتم جو يذكر بالفناء ، وفراق الدنيا ، ولقاء الله للعرض والحساب ، لذا يلجأ المسلمون عند المأتم إلى التقرب إلى الله بقراءة القرآن وإطعام الطعام يرجون بذلك أن يثيبهم الله على ذلك ، وأن يكون ذلك الثواب لهم عند الله يوم لقائه .

وكذلك يرجون الرحمة والمغفرة لميتهم بهذه الطاعة التى يتقربون بها إلى الله من قراءة وإطعام طعام .

ثواب القراءة يصل إلى الميت كما هو رأى الجمهور من أهل السنة ، وعلى ما هو مذهب الشافعية والحنابلة وكذلك إطعام الطعام والتصدق وقد ورد عن الإمام أحمد رضى الله عنه :

« الميت يصل إليه كل شىء من الخير للنصوص الواردة فيه »ولأن المسلمين يجتمعون فى كل مصر يقرءون ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعاً .

أما البدعة المكروهة فهى أن يتكلف الإنسان فى ذلك ما يرهقه ويجعله يستدين ، أما إذا كان ميسوراً أو من ذوى الثراء فإن دعوة القراء بقراءة القرآن وعمل الولائم صدقة على روح المتوفى مستحب فهى قربات فى سبيل الله عسى أن يتقبلها الله ويرضى عمن أقامها وعمن أقيمت له .

القبور فى نظر الإسلام

للإسلام نظرته الخاصة إلى القبور . فالقبر فى نظر الإسلام ينبغى أن يكون واسعاً عميقاً لا يتسع لأكثر من واحد إلا لضرورة ويستحب رفعه عن الأرض قدر شبر ليعلم أنه قبر فيتوقى صاحبه ،

ويدعى ويزار أماماعدا ذلك من تشييد القبور والزيادة فى رفعها عن شبر فلم يكن موجوداً فى الصدر الأول للإسلام ، وعمل الصدر الأول للإسلام واضح فى مقبرة البقيع بالمدينة المنورة إنه لا تشييد فيها أو لا ارتفاع للبناء ولا زخرفة .

عن جابر رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ أن يتعدى على القبر وأن يجصص ويبنى عليه .

والمقصود أن القبور مكان للموتى ، ودليل الفناء فالمبالغة فى بنائها وتشييدها وتعليتها مخالفة لما ينبغى أن تدل عليه من التذكير بالموت ، والدلالة على الفناء .

والقبور تذكر بالموت وزيارتها عظة وعبرة ، ولا تتأتى العظة والعبرة بالتنافس فى التشييد والزخرفة .

ومع ذلك فإنه لا يحرم بناء ضريح لأحد كبار أولياء الله احتراماً له وتقديراً لما بذله فى سبيل الدعوة إلى الله بسلوكه الصالح وعمله الكريم ، وذلك على غرار القبة الشريفة الخضراء التى تضم أطهر الأجساد بالمدينة المنورة .

جسد رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما .

فى ذبح الذبائح عند القبور

ذبح الذبائح عند القبور مكروهة وهى من البدع السيئة التى يجب الإقلاع عنها ، أما زيارة القبور فإنها مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة ، ويندب للزائر أن يقول عند رؤية القبر : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » .

ومما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبر : « اللهم رب الأرواح الباقية ، والأجسام البالية والشعور المتمزقة ، والجلود المتقطعة ، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة ، أنزل عليها روحاً منك وسلاماً منى » .

وكما تندب الزيارة للرجال تندب للنساء العجائز اللاتى لا يخشى منهن الفتنة إن لم تؤد زيارتهن إلى الندب والنياحة وإلا كانت الزيارة محرمة عليهن .

أما النساء اللاتى يخشى منهن الفتنة ويترتب على خروجهن لزيارة القبور مفاسد كما هو الغالب على نساء هذا الزمان فخروجهن للزيارة حرام .

وقال الشافعية والحنابلة يكره خروج النساء لزيارة القبور مطلقاً ، سواء كن عجائز أو شواب فإن كان خروجهن يؤدى إلى الفتنة أو وقوع محرم كانت الزيارة محرمة . .

فى جواز زيارة القبور بالنسبة للمسلم

زيارة القبور للمسلم جائزة ولم يرد ما يمنع منها ، بل لقد ورد أن رسول الله ﷺ زار القبور وأعطى المثل والعبرة للزائرين ، روى مسلم بسنده – عن أبي هريرة رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون .

وددنا أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال أنتم أصحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ فقال : أرأيت لو أن رجلا له خيل غرّ محجلة ، بين ظهرى خيل دُهم بهم ألا يعرف خيله ، قالوا : بلى يارسول الله قال : فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ، ألا ليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال أناديهم : ألا هلم فيقال إنهم قد بدلوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ مر بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » أخرجه الترمذى وحسنه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم أغفر لأهل بقيع الغرقد »أخرجه مسلم .

ولقد كان النهى عن زيارة القبور فى أول الإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية ، وما كان فيها من فحش القول ، وسوء الأدب ثم أباح لهم ذلك بعد أن أرشدهم إلى ما ينبغى فى هذه الزيارة من الأدب . روى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا » أخرجه الشافعى وأحمد .

والمقصود من إباحة الزيارة بل الندب إليها ، أن يتزود المسلم لحياته من النظر إلى الأموات والتفكر فى الموت لعل ذلك يصرفه عن الشر ويدفعه إلى الاستكثار من الخير .

فى زيارة النساء للقبور

قال القرطبى فى قوله ﷺ : « لعن الله الزائرات للقبور » هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة ، ولعل السبب فى هذا اللعن ما يفضى إليه تكرار الزيارة من تضييع حق الزوج ، وما ينشأ

منهن من الصياح ونحوه فإذا كانت زيارتهن للاعتبار بلا نواح ولا تذكير بمآثر الميت فهى مكروهة كراهة تحريم لظاهر الحديث .

ويرى بعض العلماء أن كراهة زيارة النساء للقبور للتنزيه لما رواه أحمد والشيخان وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : « نهينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا » .

والراجح أن زيارتهن جائزة للترخيص فيها بعد ذلك ، ويؤيده حديث عبدالله بن مليكة : « أن عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها : ياأم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت لها : أليس كان نهى النبى ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها » . رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى .

وروى أحمد ومسلم أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عما تقول إذا زارت القبور فقال رسول الله ﷺ : قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وعلى ذلك فلا مانع من زيارة النساء للقبور إذا لم يخرجن عن حد الخشوع وستر العورة وآداب الإسلام وخرجن إليها متحشمات يردن العظة والعبرة ، وكفى بالموت واعظاً فإذا خرجت متعطرة متزينة ليشم الناس عطرها ويرون زينتها فإن ذلك حرام ، وعليها لعنة الله ورسله وملائكته .

فى استحباب قراءة القرآن عند القبر

يرى الإمام الشافعى رضى لله عنه استحباب قراءة القرآن عن القبر لتحصل للميت بركة القرآن ووافقه على ذلك القاضى عياض والقرافى من المالكية ويرى الإمام أحمد أنه لا بأس بها .

والذى أميل إليه أنه لا بأس بها لأن الرحمات تتنزل عند قراءة القرآن فيرجى أن تعم الميت رحمة الله عز وجل عند قراءة القرآن .

وليس المراد بالقراءة هى مايفعله القرّاء الآن ، بل لابد فيها من التأدب بآداب التلاوة وعدم الإخلال بالحروف والامتثال لأمر الله تعالى فى قوله : (ورتل القرآن ترتيلا) ومما لا شك فيه أن القرآن نور ، وأن قراءته سبب فى إنزال الرحمات ، وسبب فى التجليات الإلهية بالمغفرة والرضا ، ومن أجل ذلك يقرؤه أهل الميت عند القبر راجين أن تنزل الرحمات على فقيدهم ، ولقد مر رسول الله ﷺ على قبرين يُعذَّب صاحباهما ، وكانت بيده جريدة رطبة فشقها نصفين ووضع على كل قبر نصفاً راجياً الله أن يخفف عنهما ، وإذا كان وضع الشىء الأخضر الرطب على قبر الميت يرجى منه التخفيف فإن قراءة القرآن بالشروط المسنونة للقراءة من باب أولى .

ما رأى الدين فى تأجيل دفن جثمان الميت أكثر من الحد المفروض ؟

يرى الدين سرعة تجهيز الميت ودفنه لتقريبه إلى ما أعد الله له ، ويعتبر ذلك فرض كفاية على جميع من علموا بذلك ، وفى استطاعتهم أن يقوموا بأداء ما يلزم نحو الميت فإن تأخر دفن الميت عن القدر الذى يتسع لتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ثم دفنه كان جميع من علموا بذلك ولم يقوموا بما يلزمهم نحو ميتهم آثمين .

وتأخير دفن جثمان الميت ليس من الدين فى شىء ، بل إنه مخالفة شرعية .

ورسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون وقادة الفتح الإسلامى الذين حكموا مصر وغيرها لم يبق واحد منهم فى مكانه الذى توفى به أكثر من القدر الذى تم فيه تجهيزه .

ما الذى نهى عنه الدين فى زيارة القبور

نهى الدين فى زيارة القبور عن الجلوس على القبر ، فقد قال ﷺ : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده ، خير له من أن يجلس على قبر ».

رواه مسلم وغيره .

ونهى ﷺ عن النياحة فقال : « إذا لم تتب النائحة قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال قطران ، ودرع من جرب » وأما حزن القلب ، ودمع العين فلا بأس بهما ، فإنه قد حصل ذلك من رسول الله ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم فقد قال ﷺ:« إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

فى سرادقات العزاء

لقد خرجت عادات المأتم فى كثير من البلاد الإسلامية عن الجو الإسلامى الصحيح ، والجو الإسلامى الصحيح فى ذلك هو أن الموت عبرة وأنه عظة وكفى بالموت واعظاً ومذكراً بالآخرة ، وبأن الحياة مهما حاول الإنسان أن تمتد به ستنتهى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) .

ومن أجل العظة حث الإسلام على تشييع الجنازة وذكر الثواب عليها لما فى جوها من تذكير

بأن كل مشيع سيلقى نفس المصير عاجلا أو آجلا . . وبهذا السبب أو بذلك تعددت الأسباب والموت واحد ، وربما تدفع هذه العظة إلى التوبة والرجوع إلى الله . وبعد تشييع الجنازة يعزى أهل الميت وينصرف كل لشأنه متعظاً معتبراً متذكراً للآخرة وللموت الذى لا مفر منه .

فإذا غلب التأثر على أهل الميت فشغلهم على أن يعدوا لأنفسهم الطعام فينبغى لجيرانهم ولأقاربهم أن يكفوهم ذلك .

هذا هو الجو الإسلامى فى الجنائز . . أما ما يفعله الناس الآن فإنه وضْع لا يستقيم مع الروح الإسلامية خصوصا الإسراف فى هذه السرادقات التى تقام والمغالاة فيها حبًّا للمظاهر والسمعة والتفاخر .

وإنه لمن المشاهد المؤلمة أن الحديث فى أمور الدنيا على أنحاء شتى ، وتدخين السجائر فى نوع من اللامبالاة ، كل ذلك يجرى فى هذه السرادقات حين يرتل القرآن الكريم ، من أجل ذلك نعلن فى صراحة أن هذه المظاهر ليست مظاهر إسلامية ، وهى أحرى أن تكسب فاعليها السيئات ، وعلى كل متبصر مستنير أن يعمل على عدم إقامتها فيرضى الله ويرضى رسوله .

فى البائع يتبين خطأ بيعه

إذا تبين البائع خطأ ما وقع حال بيعه ، وكان هذا الخطأ لصالحه . . بدون قصد فلا شىء عليه فيما وقع لقوله ﷺ :

« رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، ولكن هذا العفو عن الخطأ وعدم الذنب فيه يرتفع بمجرد علمه به ، وإدراكه له . . إذ عليه بمجرد العلم أو الإدراك تصحيح الخطأ .

فإذا كان البائع عارفاً بمن اشترى منه بادر إلى إعطائه حقه ، وإصلاح ما حدث من خطأ . وإن كان لا يعرفه فعليه الاحتفاظ له بحقه حتى يرجع عليه ولو طال الزمن ، ولو نمّا له هذا الحق واستثمره لكان خيراً وعملاً صالحاً ، ففى حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة فسدت الغار وسألوا الله بصالح أعمالهم فرفعها عنهم قال أحدهم :

اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال لى ، ياعبد الله . . أدّ إلىّ أجرى فقلت : كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . . فقال : ياعبد الله لا تستهزئ بى فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذه كله فساقه فلم يترك منه شيئاً .

والمقصود : أن حق المشترى فى ذمة البائع ، ولا يجوز للبائع أن يتصرف فيه ، بأى وجه ، بل عليه أن يوصى من بعده حتى يحصل صاحبه عليه .

اللهم إلاّ إذا كان هذا الحق مما يمكن التجاوز فيه ، ومراعاة وقوعه فإن للبائع حينئذ الحق فى التصرف فيه .

فى الحكم فيمن يسخرون من العبادة ومن العباد ويشوهون صفاتهما

يبين الله سبحانه وتعالى الحكم فى السخرية بوجه عام فيقول سبحانه : (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

فالساخر فى حكم الله ظالم ، وللظالمين عند الله عذاب يختلف فى شدته بحسب جريمتهم . .

هذا فى الساخر بوجه عام .

بيد أن جريمة السخرية من العباد والعبادة تصل فى شفاعتها عند الله سبحانه وتعالى إلى حد الكفر ، وكفى أن نذكر فى ذلك قوله تعالى :

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مرُّوا بهم يتغامزون . . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء الضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ، هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون) .

ولا ريب فى أن السخرية بالعبادة والعباد إنما هى سخرية بالدين فى عناصره السامية ، وذلك كفر صريح ، ومن تاب توبة نصوحاً وجد الله غفوراً رحيماً .

هل يجوز شراء طعام معد للأكل من شخص لا يصلى ؟

لا يجوز شراء الطعام المعد للأكل من شخص لا يصلى ، لأنه بتركه الصلاة أهدر دم نفسه وعرض نفسه لقتال ولى الأمر والمسلمين ، قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » . ومن يعامله بعد معرفته بهذا الحديث

الذى ينص على محاربته وقتله ، إن لم يؤد الصلاة يعد مخالفاً لرسول الله ومتعاوناً على من عصى الله ورسوله ، فتركه الشراء منه قد يؤدى به إلى سواء الصراط ، ويشعره بنقصه وتفريطه فى أمور دينه ، إن كان لديه وازع وبقية من إيمان .

وروى أبو داود بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما أدخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ومن حديث لأحمد : (ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وقال تعالى : (لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

فى الاستدانة

من استدان من الناس وجب عليه أن يؤدى هذا الدين ولا تبرأ ذمته إلاّ بالسداد ، وما دامت نية الإنسان على سداد دينه صادقة فإن الله سبحانه وتعالى يسهل له ذلك إذا التجأ إليه متضرعاً ، طالباً منه سبحانه تيسير سداد الدين ، ففى الحديث عن النبى ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » ، ومن استدان وعجز عن السداد لا تبرأ ذمته من الدين حتى يسدد أو يستسمح أصحاب الحق ويطلب منهم إبراء ذمته من الدين أو إمهاله إلى أن ييسر الله له ، ولا يصح للإنسان أن يقنط أبداً أو ييأس ، فإن الله ييسر لمن عزم مخلصاً على السداد ييسر له قضاء الدين أو عفو الأولياء عنه .

وعليه أن يكافح بالعمل على حسب استعداده ، وأن يتخذ الأسباب المادية من تجارة أو زراعة أو غيرها من أجل سداد الدين ، وليعلم أن رسول الله ﷺ ما كان يصلى على أحد مات إلاّ إذا تأكد من أنه غير مَدِين ، وإذا كان عليه دين فإن رسول الله ﷺ كان ينتظر أن يسدد دينه ثم يصلى عليه ، وكان ﷺ يشدد فى الدين تشديداً كبيراً حتى لقد قال فى المجاهدين إن جهادهم يكفر سيئاتهم إلاّ الدين . .

هل يجوز نسبة طفل إلى غير والده بالتبنى ؟

إن نسبة طفل إلى إنسان يعلم أن هذا الطفل ليس ابناً له ومع ذلك ينسبه إلى نفسه على أنه أبوه ، سواء كان الولد معلوم النسب أو مجهولا ، يطلق عليه اسم : التبنى وهو الذى أبطله الإسلام بقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تُظاهرون منهن أمهاتكم ، وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) .

وقد كان رسول الله ﷺ كرم زيد بن حارثة بنسبته إليه مكافأة له على تفضيله البقاء فى خدمته على الذهاب حرًّا مع والده حارثة ، فتبناه رسول الله ﷺ ، وسماه زيد بن محمد ، فلما أبطل الإسلام نظام التبنى عاد زيد إلى اسمه الأول زيد بن حارثة ، ونزل قوله تعالى : (ماكان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً) .

والتبنى الذى يريده السائل بنسبة طفل إليه على أنه أبوه ، وزوجته أمه ، وأولاده إخوته – كما يناديهم – هو ما أبطله الإسلام ، لما يترتب عليه من المفاسد الاجتماعية الخطيرة ، فإن هذا هو الولد المتبنَّى سيشارك فى الميراث وهو ليس صاحب حق ، بل قد يحرم صاحب الحق من حقه . وسيترتب على بنوته تحريم ما أحله الله وإباحة ما حرّمه بالنسبة للميراث والمصاهرة وإباحة الخلوة بالأجنبيات والأجانب على أنهم من المحارم والمحرمات إلى غير ذلك من المفاسد التى من أجلها حرم الإسلام هذا اللون من التبنى ، لكن يجوز للسائل ولغيره ممن يريدون المساعدة والعون لهؤلاء الأطفال المساكين أن يقوموا بتربيتهم والإنفاق عليهم والوصية لهم بجزء من مالهم تأميناً لمستقبلهم على أنهم إخوة لهم فى الدين لا على أنهم أبناؤهم ، وبذلك يستطيع السائل أن يقدم العون كما يشاء لهذا الطفل على أن لا ينسبه إليه ولا إلى زوجته ، ولا مانع أن يفهمه حينما يكبر ويعقل أن أبويه أصيبا فى حادث من الحوادث وأنه قد تطوع بتربيته وتعليمه والله يجزيه هو وأهل الخير من أمثاله أعظم الجزاء .

فى من يفعل المحرمات قبل الحج أو بعده

هذا الذى يشرب الخمر ويزنى ويذهب إلى المراقص إما أن يقع ذلك منه قبل الحج أو بعده . . فإن وقع ذلك منه قبل الحج ، وأخلص فى حجه وتاب توبة نصوحاً ، وأدى الحج كما ينبغى غفر الله له الذنوب وعاد من الحج نقيًّا طاهراً متأهلا للترقى والسعادة كقوله ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

أما إذا وقع منه بعد الحج ، فإنه يدل على أن الحج لم يثمر فيه ، وعلى أن عبادته لم تكن خالصة لله ، وعليه إثم كل ذنب اقترفه بعد الحج ، وهو بفعله هذه المنكرات يضيع على نفسه أثر الحج ، ويبتعد تدريجيًّا عن رحمة الله .

ومع ذلك فإذا حج بإخلاص أثمر الحج معه ثمرته ، وتاب الله عليه لإخلاصه . على أن من شروط قبول التوبة العزم المصمم على عدم العودة لمثلها ، فإن التائب وهو مصر على الذنب كالمستهزئ بالرب ، وهو فى الحقيقة إنما يدمر نفسه ويضيع عليها كل فرصة للنجاة والخروج من سجن الذنوب .

فإذا كان فى حجه مصرًّا على هذه المعاصى ، عازماً على عدم تركها ، فإن حجه لن يكون سبباً فى تكفير ذنوبه ، بل سيكون حجة عليه ، لأن الحج تجرد من الهوى والشهوات ، وإقبال بكل الهمة على الله ، وكيف يقبل على الله من عزم على مقارفة المعصية ، وأبى التصميم على تركها ، فليحذر عذاب الله من ينتهكون حرماته ، فإن الله تعالى غيور عليها ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

أما من ناحية إسقاط الفريضة فإن حجه يسقط الفريضة عنه ، ويكون مثل ذلك كمثل شخص يصلى الفروض ويشرب الخمر فإن صلاته تسقط عنه الفرض ، وأما شربه الخمر فإن حسابه عليه مرجعه إلى الله ، كذلك الأمر فى من حج وعصى فإن حجه يسقط عنه الفرض وحساب معصيته على الله .

ما هى تحية الإسلام الجائزة شرعاً ؟
وهل جائز أو مكروه تحية الوجوه بالأنف والفم أو معانقة الأكتاف

من حق المسلم على أخيه المسلم أن يحييه عند لقائه ، والتحية التى شرعها الإسلام وسنها رسول الله ﷺ هى ما ورد فى الحديث الصحيح الذى قال فيه صلوات الله وسلامه عليه :

« حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبع جنازته » .

فتحية الإسلام هى « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » وما أبدعها من تحية ! لأنها تبشر بالسلام والاطمئنان والأمن والرحمة والبركة من الله .

وهى تحية أهل الجنة ، قال تعالى حين تحدث عن أهل الجنة : (تحيتهم فيها سلام) وتحية الملائكة لهم كما قال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) ومن بدأ أخاه بهذه التحية كان له من الله الثواب الجزيل كما ورد فى الحديث الشريف : « أن من قال : السلام عليكم له عشر حسنات ، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله له عشرون حسنة ومن قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته له ثلاثون حسنة » .

ويكره للمسلم أن يعدل عن هذه التحية إلى غيرها أيًا كان نوعها ، لأنها تقليد وخروج عن الآداب التى شرعها الإسلام وزهادة فى الثواب الذى أعده الله لمن حيًا بالسلام .

والمعانقة تكون عند شدة الشوق ، كما إذا عاد المسلم من سفر أو غزوة أو حج ، وقد ثبت أن النبى ﷺ عانق سيدنا جعفر بن أبى طالب ابن عمه حين قدومه من الحبشة ، وكان مهاجراً بها فى أول الإسلام .

فيؤخذ من ذلك مشروعيتها وجوازها ، ومع ذلك فإنها ليست تحية ، وإنما التحية هى : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فإذا حيًا الإنسان بهذه التحية فإنه لا بأس بعدها بتحية من نوع آخر تبعاً للعادات والتقاليد .

ما حكم الإسلام فى المسلمين يلتقون ولا يسلم بعضهم على بعض ؟

من السنن التى رغب فيها الرسول ﷺ إفشاء السلام ، وهو حق للمسلم على أخيه المسلم ، وورد فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « حق المسلم على المسلم ست » :

١ – إذا لقيته فسلم عليه .

٢ – وإذا دعاك فأجبه .

٣ – وإذا استنصحك فانصحه .

٤ – وإذا عطس فحمد الله فشمته .

٥ – وإذا مرض فعده .

٦ – وإذا مات فاتبع جنازته .

والسلام يقوى الروابط ويوثق الصلات بين المسلمين ، ويغرس المحبة فى قلوبهم كما قال عليه السلام :

« ألا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ، افشوا السلام بينكم »

فإذا التقى المسلمون سن لهم أن يسلم بعضهم على بعض ، فإذا تهاونوا فى ذلك كانوا تاركين لسنة الرسول ﷺ التى رغب فيها وحث عليها .

فى من تعرض نفسها للحمل مع علمها بخطورة ذلك

إن من أسس الإسلام المعروفة بداهة المحافظة على سلامة الكائن الإنسانى بحيث يجب عليه ألا يعرض نفسه لأذى ، وعلى المحيطين به أن لا يوقعوه فى ضرر ، والله سبحانه وتعالى يقول : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أى لا تتعرضوا للشر مختارين مندفعين إليه بإرادتكم ، وقد أباح جمهور الفقهاء للأم أن تمتنع عن الحمل ، وللزوج أن يمنع امرأته عن الحمل إذا تعرضت بسببه إلى أذى يصيبها فى جسمها أو فى نفسها ، بل أباحوا ذلك لمجرد الظن الراجح .

وقالوا : إن الزوج يكون آثماً إذا عرض امرأته للحمل مع علمه بخطورة ذلك على صحتها ، وقالوا : إن الزوجة تكون آثمة إذا عرضت نفسها للحمل مع علمها بخطورة ذلك على صحتها ، ومن أجل ذلك فإنه إذا قرر الأطباء أن فى الحمل ضرراً على صحة الزوجة ، وأنه يجب إجراء

عملية لأجل منع الحمل فإن الموافقة على إجراء العملية واجب شرعاً ، والامتناع عن إجرائها محرم شرعاً .

فعلى الزوج أن يوافق على إجراء العملية مطمئن النفس ، هادئ القلب ، وبارك الله لها فيما رزقها ، وليس الأمر فى الأبناء بالكثرة ، وإنما هو بالنجابة وحفظ الله وتوفيقه . ونرجو الله أن يتولى ما رزقها بالحفظ والتوفيق .

فى سيراليون جماعة من المسلمين يتزوجون بأكثر من أربع نسوة ولا يلتزمون بأداء الصلوات الخمس فى كل يوم ، بل منهم أيضاً من لا يصلى إلاّ فى رمضان ، وإذا زنى أحدهم بزوجة غيره فإنه يدفع لزوج تلك المرأة جنيهين أو ثلاثة ثمناً لما ارتكبه

فهل هؤلاء مسلمون ؟

يحرم على الرجل المسلم أن يجمع فى عصمته أكثر من أربع زوجات فى وقت واحد ، قال تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) .

حتى حل الزواج بأربع مشروط بالعدل بينهن ، فإن خاف عدم العدل فليقتصر على واحدة .

وأخرج النسائى أن النبى قال لغيلان بن أمية الثقفى وقد أسلم وتحته عشر نسوة : « اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن » .

هذا إذا أسلم وتحته أكثر من أربع ، أما إذا تزوج المسلم أكثر من أربع فإن كان ذلك فى عقد واحد فزواج الجميع باطل ، ولا ينعقد النكاح وإذا كان مفرقاً فعقد ما زاد على أربع يكون باطلا ولا ينعقد النكاح ، أما ترك الصلوات الخمس فهو من الكبائر .

روى الترمذى عن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » .

وروى أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر » . والصلاة كما تكون فى رمضان تكون فى غيره ، لأنها مفروضة خمس مرات كل يوم لا فرق بين رمضان وغيره .

والزّنى حرام حرمه الله ورسوله وأجمع المسلمون على حرمته ، سواء دفع الزانى أجراً أم لم يدفع ، قال تعالى : (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

وورد عن النبى ﷺ قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا تحل له » .

وهؤلاء الذين يفعلون هذه المنكرات مسلمون اسماً ، إلا أنهم عصاة مرتكبون للكبائر ، ولابد لهم من التوبة حتى يكفّر الله عنهم خطاياهم ، ويعفو عن سيئاتهم .

فى تعود الناس فى الريف رهن عقار يأخذه الدائن وينتفع به إلى أن يسدد المدين دينه فهل هذا جائز شرعاً

إن رأى الدين فى ذلك هو أن منفعة العين المرهونة لمالكها الأصلى ، وعلى هذا فإنه إذا رهن شخص بيتاً ، وكان للبيت إيجار ، فإن الإيجار لصاحب البيت أى للراهن ، وليس للمرتهن ، فى إيجاره شىء ، ولا يجوز للمرتهن استغلال البيت على أى حال سكناً أو إيجاراً وليس لأحد أن يقول :

وما فائدة الرهن إذن ؟ وذلك أن للرهن فوائد كثيرة ، فهو :

أولا : ضمان لوصول الحق لصاحبه ، فالرهن ضمان سداد ، إنه عبارة عن قرض بضمان .

وثانياً : الثواب والأجر العظيم بسبب فك الكربات . . ورسول الله ﷺ يقول ما معناه : « من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب الآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه » .

وثالثاً : تقوية الروابط بين المجتمع ، فتكون الألفة والمحبة التى يحرص الشرع الكريم على غرسها فى النفوس .

ورابعاً : ينفع الرهن فى تيسير بعض الأعمال التجارية التى تعود بالنفع على المستدين – فإذا استولى صاحب المال على العين وانتفع بها فإن ذلك يكون ربا إذ تنطبق عليه القاعدة :

« كل قرض جر نفعاً فهو ربا » .

وقد حرم الله تعالى : الرّبا حيث قال : (وأحل الله البيع وحرّم الرّبا) .

وآذن أهله بالحرب فقال : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ومن الملاحظ أن الله سبحانه لم يعلن الحرب فى القرآن الكريم إلا على أكلة الربا ، وذلك لبشاعة الربا ، وقد قال الله سبحانه : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) .

فى أخذ الأجر على خطاب الضمان المصرفى

هل يجوز أخذ الأجر على خطاب الضمان المصرفى ؟ علماً بأن خطاب الضمان هو تعهد نهائى يصدر من البنك بناء على طلب عميله بدفع مبلغ نقدى معين ، أو قابل للتعيين بمجرد طلب المستفيد ذلك من البنك خلال مدة محدودة ، ويقوم العميل بدفع المبلغ للمصرف فور دفعه للمستفيد ؟

وأن الكفالة هى عقد بمقتضاه يكفل شخص تنفيذ الالتزام إذا لم يف به المدين نفسه ، فغاية كل من خطاب الضمـان والكفالة غاية تأمينية هدفها مساعدة العميل فى تقوية مركزه الائتمـانى تجاه المستفيد فى خطاب الضمـان أو المكفول له ؟

خطاب الضمان المصرفى فى حقيقته العملية صورة من صور الكفالة بوجه عام ، وهو البديل المقبول فى المعاملات للتأمين النقدى ، فبدلا من قيام المتعاقد بتقديم تأمين نقدى كبير متجمد كتأمين الوفاء بالتزامه يقوم خطاب ضمان مصرفى بالقيمة المطلوبة فى أى مجال من مجالات معاملاته كتأمين لدخول المناقصات وللدوائر الجمركية وللضرائب وكوثيقة لتسلم البضائع المشحونة فى ميناء الوصول قبل وصول المستندات وغير ذلك .

وخطاب الضمان غير قابل للنقض من جهة الأمر إذا تعلق به حق المستفيد ، لكن إذا عدل عن طلب الخطاب قبل إصداره ، أو بعد إصداره قبل تسليمه للمستفيد أجيب إلى طلبه .

ودفع المصرف للمبلغ المعين لا يمنع من محاسبة العميل الآمر للمستفيد ودياً أو قضائيا ، ونظراً إلى أن العلاقة بين الآمر بخطاب الضمان المصرفى وبين المصرف هى كالعلاقة بين الموكل ووكيله ، فإن دفع المصرف للمبلغ المعين بناء عن أمره لا يتعارض مع رجوع المصرف على الآمر بما دفع للمستفيد كالوكيل يرجع على موكله بما دفع طبقاً للقواعد العامة ، باعتباره الموكل ملزماً بأن يرد للوكيل ما أنفقه فى تنفيذ الوكالة التنفيذ المعتاد .

نجيب على هذا بأن الفقهاء قد فرقوا بين أنواع الكفالة حسب الموضوع الذى تتعلق به « من كفالة بالمال ، وكفالة بالنفس » .

وفرقوا فى الكفالة بالمال بين الكفالة التى يكون موضوعها الالتزام بأداء دين أو الالتزام بتسليم عين ، أو ضمان خلوص المال المبيع من كل ما عليه للغير من حقوق ، وهو ما يعرف بضمان الدرك عند الحنفية ، ويسمى ضمان العهدة عند غيرهم ، ومعظم الحالات التى يستعمل فيها خطاب

الضمان المصرفى بناء على ما ذكر فى السؤال تعد فى أكثرها من نوع كفالة الدين .

والكفالة فى الاصطلاح الفقهى هى : ضم ذمة إلى ذمة فى المطالبة ، كما هو مذهب أكثر الحنفية أو فى المطالبة بالدين كما هو مذهب الشافعية والمالكية ورواية عن أحمد .

والمقصود من ذلك على كلا الرأيين هو تأكيد التوثيق ، وهو الغاية المرادة من خطاب الضمان المصرفى ، وإذا كان القانون قد أجاز خطاب الضمان بإيجاب من المصرف دون توقف على قبول المستفيد فإن الإمام أبا يوسف فى قوله الأخير لم يجعل القبول ركناً فى الكفالة بالنفس أو المال تتوقف عليه صحتها وهو مذهب الثلاثة .

كما ذهب الحنفية إلى جواز رجوع الكفيل على المكفول عنه إذا كانت الكفالة بأمره ، ونقل السرخسى فى المبسوط كما نقل صاحب البحر الزخار جواز الرجوع بدلالة المادة ، ولاخلاف فى جواز الكفالة إلى أجل معلوم ، ويرى أكثر الفقهاء جواز الضمان قبل وجوب الحق وبعده . وبناء على ما تقدم : نرى أن خطاب الضمان المصرفى يتضمن معنى الضمان والكفالة لأنه التزام من المصرف للمستفيد أيًا كان بدفع ما يلزم العميل الآمر فى الموعد المحدود وبالشروط المتفق عليها .

كما يتضمن معنى الوكالة حيث يقوم المصرف نيابة عن عميله بإجراءات إتمام ما يشتمل عليه كتاب الضمان وتسهيلها .

ويستحق ما يدفعه على الآمر فور دفعه للمستفيد .

لذلك يحق للمصرف أخذ عوض لقاء قيامه بما وُكِل إليه من اتخاذ إجراءات خطاب الضمان المصرفى ، هذا وقد أجاز علماء الإمامية أخذ الأجر على الضمان مطلقاً .

فى شأن طلب الرأى فى موضوع الاعتمادات المستندية التى يباشرها البنك فى التجارة الخارجية وتحقق للتجار مستوردين ومصدرين فوائد وتيسيرات عديدة

فيما يتعلق بالرأى فى موضوع الاعتمادات المستندية التى تشيرون إليها ، فإن مفهوم المذكرة التفصيلية المرفقة بكتابكم أن الاعتماد المستندى هو تعهد مصرفى بوفاء دين المشترى (المستورد) الذى يستحقه البائع (المصدر) لقاء البضاعة التى صدرها إليه .

وأن المصرف الإسلامى فى سبيل تسهيل معاملات عملائه من المستوردين الراغبين فى فتح اعتمادات مستندية لصالح المصدرين الأجانب فى الخارج مضطر إلى أن يتفق مع بنوك أجنبية

بالخارج لتنوب عنه فى سداد مستحقات المصدرين الأجانب هناك على الوضع الذى أشارت إليه الصفحة الثانية من مذكرة البنك التفصيلية .

وأن البنوك الأجنبية فى مقابل نيابتها عن البنك الإسلامى فى دبى فى هذه العملية تشترط أن يودع البنك تحت تصرفها مبالغ معينة لتسدد منها مستحقات البائعين المصدرين بناء على تعليمات منه .

وأن البنوك المتفق معها تعرض على البنك الإسلامى احتساب فوائد لصالحه على المبالغ المودعة لديها على الوجه المتقدم ، وعن المدة التى تبقى خلالها تحت ذمة التصرف فيها ، وهى مدد تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر أو أكثر ، وتبين من ذلك أن المبالغ المودعة لدى البنوك لحساب البنك الإسلامى بدبى ليست ديناً للبنك عليها ، وليست قرضاً طلبته هذه البنوك ، وإنما أودعها البنك الإسلامى لديها فى مقابل نيابتها عنه فى عمل يعود نفعه عليه وعلى المستوردين والمصدرين ، ولو لم يودع البنك الإسلامى ما تطلبه البنوك الأجنبية بالخارج من مبالغ على هذا الوجه لما تحقق للتجار الذين يتعاملون معه كبنك إسلامى ، أى نفع أو فائدة فينصرفون عنه إلى غيره من البنوك التى تستغل حاجتهم أبشع استغلال .

ولا شك أن البنك الإسلامى حين يودع هذه المبالغ – مضطرًا – لدى البنوك الأجنبية التى تستثمرها إنما يقصد إلى مصلحة يعود نفعها عليه وعلى التجار ، وإلى حمايتهم من التعامل بالربا الصريح مع غيره من البنوك الأخرى ، وذلك غرض شريف يستحق التشجيع وبخاصة أن البنك ما زالت معاملاته حديثة العهد ، فإذا ما عرضت البنوك الأجنبية بالخارج فوائد لصالحه من مبالغه المودعة لديها لحساب اعتماداته المستندية وهى تستثمرها فى مجالات يندر فيها الكساد أو الخسران ، فليس فى ذلك مظنة ظلم لأحد أو استغلال لحاجة إنسان .

وعلى الرغم من أن هذا النوع من المعاملات بكيفيته وظروفه لم تكن معروفة لفقهائنا الأولين لحداثة العهد به ، فإن الميزان الشرعى فى حل التعامل وحرمته قول الله تعالى : (لا تظلمون ولا تظلمون) .

وما دامت الفوائد التى تعرضها البنوك الأجنبية فى هذا السبيل ليست فائدة لدين ولا منفعة جرها قرض .

وما دامت البنوك الأجنبية فيما نعلم توجه الفوائد التى لا يقبلها بعض الأفراد المتعاملين معه إلى جهات تبشيرية .

ما دام الأمر كذلك فإننا لا نرى حرجاً من قبول ما تعرضه البنوك الأجنبية فى هذا الشأن كجزء

من أرباح استثمارها لأمواله المودعة لديها لحساب اعتماداته المستندية على أن يوجه ذلك إلى المنشآت الإسلامية العامة ، فلا يضيفه البنك الإسلامى إلى رأس ماله ولا يملكه لأشخاص معينين من ذوى الحاجة . والله ولى التوفيق .

فى التعامل مع البنوك

إن التعامل مع البنوك أنواع متعددة ، فقد يضع الإنسان ماله فى البنك على ذمة شركة من الشركات قد وضع البنك لها مشروعها ورسم لها تخطيطها ويحاول تنفيذ المشروع : وذلك كما كان يصنع بنك مصر وكما تصنع بعض البنوك .

وهذا النوع من التعامل مع البنك لا شىء فيه ، وهو حلال ، وذلك أنه عمل تجارى لأنه شراء عدة أسهم فى مشروع تجارى يقوم به البنك .

وكلما كان التعامل مع البنك نوعاً من التجارة كان ذلك جائزاً مثل مساهمة الإنسان فى شركة الحديد والصلب أو فى شركة « راكتا » أو فى شركة الخزف وهكذا .

ولا يتأتى أن يقول إنسان على المساهمة فى هذه الشركات إنها عمل محرم ، ذلك أنها أوضاع تجارية لا شبهة فيها للربا .

أما إذا وضع الإنسان ماله فى البنك ليأخذ عليه فائدة محددة ولا شأن للمودع بتجارة البنك خسرت أو كسبت ، ولا شأن له بالأسعار ارتفعت أو انخفضت ، فإن ذلك يكون ربا حرمه الله سبحانه وأنذر متعاطيه بالحرب .

فى حكم من يتشبه بالأوربيين فى طريقة حلق رأسه

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا فى أنفسهم نادمين) .

فمن تشبه بالأوربيين فى طريقة حلق شعر رأسه حبًّا لهم وتودُّداً إليهم وابتعاداً عن أبناء دينه ووطنه وبيئته واشمئزازاً منهم ونفوراً فإنه يكون بذلك خارجاً على الأوضاع الإسلامية ، ويكون آثماً وعاصياً من ناحية الدين ، ومن ناحية الخُلق ، ومن ناحية الوطنية .

أما إذا لم يقصد شيئاً من ذلك وإنما كان عادة وعرفاً شاع وأصبح الناس يتبعونه دون التفات إلى أنه تشبه بالأوربيين فإن ذلك حكمه حكم العادات التى تشيع .

والعادات التى تشيع لا إثم فيها ولا معصية مادامت لا تتنافى مع ما أمر به الله أو نهى الله عنه ، وحلق الرأس على طريقة معينة من العادات التى لا تخالف نصًّا من نصوص الدين ، فهى إذن من المباح ، ما لم يتعمد الإنسان أن ينفصل عن إخوانه ليكون من الأوربيين ، فإن فعل ذلك كان فى حكمهم . ولقد أراد مرة أحد المريدين أن يأكل الغليظ من الطعام ، وأن يلبس الخشن من الثياب فقال له شيخه : « اتق الله وكن كيف شئت » .

فى ما ورد أن رسول الله ﷺ قال : « اطلقوا اللحى وجذوا الشارب » .

روى البخارى بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال :

« خالفوا المشركين وفروا اللحى واحفوا الشوارب » . قال عياض : يكره حلق اللحية وقصها وتجذيفها ، وأما الأخذ من طولها وعرضها إذا عظمت فحسن ، بل تكره الشهوة فى تعظيمها كما تكره فى تقصيرها .

وتوفير اللحى أو إعفاؤها لا يقصد به تركها بلا حلق ، وإنما تشذب وتهذب بما يحقق الاعتدال فيها بلا تطويل ولا تقصير .

وقد أخرج مالك فى الموطأ عن ابن عمر أنه كان إذا حلق رأسه فى حج أو عمرة أخذ من لحيته وشاربه .

والكراهية هنا للتحريم على ما اختاره كثير من العلماء للأحاديث الواردة فى الأمر بإعفائها ، وهى كثيرة ، والأصل فى الأمر الوجوب ، ولا يصرف عنه إلا لدليل ، ولا دليل على هذا الصرف ، ثم إن المشهور من فعل الرسول ﷺ وأصحابه التوفير ولم يرد الحلق ، فساند الفعل القول وتأكد الوجوب . .

هذا عن توفير اللحى . أما عن قص الشارب فهو مثل توفير اللحى ويستحب أن يبدأ بالجانب الأيمن . والقص إنما يتحقق بتخفيف شعره وتقصيره وإظهار طرف الشفة وفى ذلك كمال الهيئة والتميز عن النساء وتحقيق هيبة الرجال ، وتيسير الأكل والشرب بلا عائق من شعر الشارب . ما يعطى فكرة صحيحة عن موقف الإسلام فيما يتصل بحلق اللحية أو إخفاء الشارب .

هذا وقد اعتبر الإسلام كلا الأمرين من خصال الفطرة التى يعتبر الخروج عليها خروجاً على

طبيعة الإنسان ، وقلبًا لصورته وتشبه من الرجال بالنساء وبذلك فالحديث فى توفير اللحية وتقصير الشارب أو حلقه صحيح ، والحكمة من ذلك ما ذكرناه من السير على ما تقتضيه الفطرة ، وعدم تغيير الخلقة ، والبعد بالرجال عن التشبه بالنساء وتيسير التنظيف وتحسين الهيئة .

فى حكم من حلق لحيته فى الإسلام

حلق اللحية فى الإسلام نهى عنه رسول الله ﷺ : لأنه تشبه بالصبية من الأطفال وتشبه بالنساء ، وتربية اللحية سنة النبيين ، قال تعالى مُخبراً عن حديث جرى بين هارون وموسى عليهما السلام : (يابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) ، دلت الآية على أن سيدنا هارون – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – كان ذا وفرة لشعر لحيته ورأسه ، وقد صح أن رسول الله ﷺ لم يحلق لحيته قط فى تحلله من الإحرام لا فى حجة ولا فى عمرة .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : خالفوا المشركين ، اخفوا الشوارب واعفوا عن اللحى ، ولقد بغض الفقهاء شهادة من يحلق لحيته ، ومع ذلك فإن بعض الفقهاء يرى أن إرسال اللحية سنة ، ومهما يكن من شىء فإن رسول الله ﷺ لم يحلق لحيته قط ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخرة وذكر الله كثيراً) ، ولقد نهى رسول الله ﷺ عن إزالة الشعرة البيضاء من اللحية السمراء ، لأنها علامة الوقار ونور المؤمن يوم القيامة ، وهذا النهى هو فى الوقت نفسه نهى عن إزالة شعر اللحية .

ما حكم استعمال الكرافتة فى الإسلام ؟

فى هذا الزمان جائز باعتباره من الأمور التى جرت بها عادة المسلمين فى العصر الحاضر ، والمسألة فى الواقع فيما يتعلق بالكرافتة ليست مسألة حل وتحريم ، وإنما هى مسألة ضرورة أو عدم ضرورة ، ولقد رأى كثير من الغربيين والشرقيين أن الكرافتة لا ضرورة لها ، وهى تؤذى الإنسان أكثر مما تنفعه ، وكثيراً ما نرى بعض الناس يحل رباط رقبته ليتنفس بالهواء يملأ صدره وليتنفس فى يسر ورحابة ، وما من شك فى أن الكرافتة وارد من واردات الغرب ، ولعل فى الأزياء الوطنية ما يغنى ، والنزعة التى تعتز بالزى الوطنى خير من نزعة التقليد لكل ما هو غربى .

وننتهى من ذلك بأن مسألة الكرافتة تخرج عن دائرة التحليل والتحريم إلى دائرة الاعتزاز بالوطنية .

فى شروط التحريم بالرضاع

من شروط التحريم بالرضاع ، أن يصل اللبن إلى جوف الرضيع ممن أرضعته فى وقت يكفيه غذاء اللبن ، لأن هذا هو المقصود بالرضاع ، أى الاشتراك فى التغذى بلبن واحد .

وما دامت الأم متأكدة من أن ثدييها لم يكن بهما لبن فلا يعتبر هذا رضاعاً محرماً ، وإنما هو نوع من هدهدة الطفل أو محاولة إسكاته .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها رجل فكأنه تغير وجهه وكأنه كره ذلك فقالت : إنه أخى ، فقال : « أنظرن من أخواتكن . فإنما الرضاعة من المجاعة » .

أى الرضاعة التى تثبت بها الحرمة وتحل بها الخلوة هى حيث يكون الرضيع طفلا يسد اللبن جوعته ، لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن ، وينبت بذلك لحمه فيصير كجزء من المرضعة فيشترك فى الحرمة مع أولادها ، فكأنه ﷺ قال : « لا رضاعة معتبرة فى الشرع إلاّ الرضاعة المطعمة من المجاعة » .

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لا رضاع إلاّ ما شد العظم وأنبت اللحم » .

وروى الترمذى بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحرم من الرضاع إلاّ ما فتق الأمعاء . . » وقال صحيح .

فى تأخير الزفاف عن العقد

لا يلزم تأخير الزفاف عن العقد مدة أسبوع ، ولا يوم بل إتمام العقد هو بدء حل الزفاف والدخول ، وما يقال غير ذلك ابتداع لا دخل له بالإسلام ، بل هو مضاد له مخالف لتعاليمه ، والمرأة بالعقد أصبحت زوجة لزوجها معاشرتها بعد العقد مباشرة .

فى التشاؤم

تشاؤم بعض الناس من بعض الأشياء منهى عنه ، ولن يكون شؤم إلاّ بالتشاؤم ، ولو أن الذين يتشاءمون استعصموا بالله عز وجل ، واعتقدوا أن الأمور كلها بيده ، لما أصابهم شىء مما

يتخوفون منه عند رؤية ما يتشاءم منه ، قال رسول الله ﷺ : « لا طير ولا هامة ولا صَفَر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد » .

والحديث الوارد فى أن الشؤم فى ثلاثة « المرأة ، والدار ، والفرس » وارد وذلك أن الأرواح بالنسبة للمرأة جنودٍ مجندة ، فربما كانت روح هذه المرأة لا تأتلف مع روح زوجها ، وربما يكون مع المرأة قرين من الجن يفسد على زوجها الحياة معها ، والدار قد تكون مسكونة ببعض طوائف الجن التى لا قدرة لبعض الذين يقيمون بها على التحصن من شر أولئك الجن ، وربما تكون الدار مقبرة قديمة لبعض الذين ماتوا على غير دين الله . فتكون محلا لنزول العذاب بها إلى يوم القيامة ، لهذا ينبغى الابتعاد عنها لمن علم بذلك ولمن أصابه من المكث بها ضرر .

والفرس تصحب بقرين من الجن أيضاً ، إذا ما حلت حلّ به ، ونال أهل ذلك البيت منه عناء شديد .

لهذا يكون الشؤم باعتبار الثلاثة الواردة فى الحديث بحسب ما يراه الناس ، والحقيقة ما قلناه .

فى وسوسة الجن

إن النفس الإنسانية لها أحوال غريبة أحياناً يحاول العلم لها تعليلا فينجح مرة ويخفق أخرى فهناك مثلا ، انفصال الشخصية ، وهى حالة واقعية لاحظها العلم وأجرى عليها تجاربه وسجل مظاهرها ، وانتهى فيها إلى بيان وتفسير ، وفى حالة انفصال الشخصية يتردد الإنسان فى صورة منتظمة بين شخصيتين فإذا كان فى إحدى الشخصيتين فإنه لا يعلم عن الأخرى شيئاً وقد تكون إحداهما مناقضة تماماً للأخرى .

ومن الحالات العجيبة التى يضعها العلم فى نطاق الأمراض النفسية ما شاع فى الناس فى كل زمان ومكان ، من أن يلبس عفريت جسم امرأة أو جسم رجل ، وهذه الحالة أصبحت شبه مألوفة منذ أن كثرت التجارب فيما يسمونه بالروحانية الحديثة ، وليست الروحانيات الحديثة إلاّ أن يلبس عفريت جسم الوسيط ويتحدث على لسانه ، وليس الوسيط إلاّ إنساناً ، رجلا أو امرأة ، مهيأ النفس والجسم لأن يحل فيه كائن من العوالم غير المنظورة ، والسبب الأصيل فى هذه التهيئة هو ضعف الإرادة عند الوسيط وسرعة استجابته للوهم وللإيحاء إنه عادة شخص مهيأ بسبب ضعف إرادته ، لأن يكون مسرحاً لكل وهم ولكل إيحاء .

وإن كثرة التجارب فى الروحانية الحديثة لتدل على عدم استحالة هذه الظواهر التى يلبس فيها عفريت جسم إنسان .

أما علم الغيب الماضى والغيب الحاضر فإن فى استطاعة الجن أن تعلمه وأن تصدق فى الإخبار به وليس لذلك قيمة كبيرة ، فإنه غيب وقع بالفعل ومعرفة ما وقع بالفعل فى الحاضر أو فى الماضى ليس أمراً من الأمور الهامة ، والغيب الذى استأثر الله بعلمه إنما هو الغيب الذى لم يحدث بعد ، يقول سبحانه : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلاّ بما شاء) .

ويمنحه الله بوساطة الرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

فى حكم من يريد معرفة الغيب عن طريق المنجمين

الغيب أنواع ثلاثة :

الأول الغيب الحاضر : أو بتعبير آخر ، غيب مكانى ، بمعنى أن تقع الحادثة فى مكانٍ بعيد ويعلمها المنجم بعد وقوعها بقليل أو حين وقوعها ، وهذا النوع من الغيب يمكن معرفته لكثير من الأشخاص ، ولم يبين الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أنه قد اختص بعلمه ، وحقيقة الأمر أنه ليس بغيب ، لأنه قد وقع بالفعل ، وكل ما فى الموضوع أنه بعيد فى المكان فقط من أجل ذلك سميناه غيباً حاضراً .

الثانى الغيب الماضى : وهو الغيب الحادث فيما مضى من الزمان كحياة الشخص ، ولم يخبر الله سبحانه وتعالى أنه اختص بعلمه ، وكثيراً ما يكون طريق معرفة الغيب الحاضر والغيب الماضى عن طريق الجن ، ومهما يكن من شىء فإن هذين النوعين من الغيب يمكن معرفتهما بوسيلة أو بأخرى .

الثالث الغيب المستقبل : وهو الغيب الذى لم يحدث بعد فإن هذا الغيب اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه ولكنه سبحانه يعطى منه ما شاء لمن شاء يقول سبحانه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول).

ويقول سبحانه وتعالى : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلاّ بما شاء) ، وهذا النوع من الغيب لا يعلمه المنجمون مهما كانت مقدرتهم .

وحكم من يريد معرفة الغيب بأى نوع من أنواعه عن طريق المنجمين هو أنه منحرف عن الطريق المستقيم .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن بعض أمهات المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال :

« من أتى عرّافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » حديث صحيح . وأخرج الإمام أحمد فى مسنده ، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ، حديث حسن .

فى الأوقات التى لا يجوز فيها الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته

فقد حدد الله سبحانه وتعالى أياماً معينة وأوقاتاً محدودة لا يجوز فيها الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته ، منها مثلا أيام الحج للرجل الحاج ، والمرأة الحاجة ، يقول الله تعالى:(الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) ومنها أوقات الإمساك فى شهر رمضان ، أى فى نهار الشهر المبارك يقول تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) .

فالاتصال الجنسى فى ليالى رمضان حلال ، أما فى نهاره فإنه حرام ومنها أيام الحيض ، يقول الله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) .

ومنهما أيام الاعتكاف يقول الله سبحانه وتعالى : (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) أما الأوقات التى يستحب فيها الاتصال الجنسى فإنها لم تحدد : ذلك أن الاتصال الجنسى إنما يتم حينما تكون هناك رغبة من أحد الزوجين واستجابة من الآخر ، والرغبة والاستجابة يحدثان فى أى وقت ، وكل الأيام – فيما عدا الأوقات المحدودة المحرم فيها الاتصال الجنسى – تستوى بالنسبة للاتصال بين الزوجين . .

فى منع المرأة من حقها فى الميراث

المسائل التى تكون عادة مثار نزاع فى المجتمع أو بين أفراد الأسرة الواحدة قد فصلت فى القرآن تفصيلاً تاماً ، ووضحت فى صورة سافرة لا لبس فيها .

ومن ذلك موضوع الميراث :

لقد بين القرآن الأنصبة محددة فى مختلف الحالات والظروف ، فأبان نصيب الزوجة حينما يكون للمتوفى أولاد ، ونصيبها حينما لا يكون له أولاد ، وبين الحالات التى فيها الأم ، والبنت ، والأخت ، وهكذا . مع بيان الأنصبة بتحديد محدد ، وهذا يعتبر معلوما من الدين بالضرورة ، فمن جحده إنكاراً له أو جحده غير معترف بعدالته ، أو جحده ، مفضلا غيره من التشريعات عليه فإنه يكون بذلك قد خرج عن محيط الملة الإسلامية .

إن القرآن ليصف أمثال هؤلاء الذين يخرجون على قوانين الله سبحانه بأنهم ظالمون ، وبأنهم فاسقون ، بل بأنهم كافرون .

ومن أجل أن لا يقع الإنسان تحت طائلة غضب الله ، يجب عليه أن يعطى المرأة نصيبها الذى حدده الله لها .

فى الملابس

لم يحدد الإسلام للمسلم ملابس معينة ، وإنما الذى شرطه هو ستر العورة للرجل والمرأة ، وعدم إبداء مفاتن الجسم ، والملابس تخضع للبيئات والأجواء ، ويلزم كشرط عام فى الملابس ألا تكون محدودة للعورة ، ولا مظهرة لما يجب ستره عن الأعين ، وأن لا يقصد بلبسها التشبه بالكفار والمشركين ، فإن الإسلام يحب دائماً للمسلم أن تكون له ذاتية مستقلة عن غيره ، فلا يكون مقلداً للغير ، وإنما يكون متبعاً للتعاليم الإسلامية .

والذى فضله الإسلام هو الثياب البيضاء ، فقد ورد فيها الأثر : « خير ثيابكم البيض » . وكان رسول الله ﷺ يفضلها ، وكذلك يحب الإسلام اللون الأخضر ، وقد أمر الشرع بأخذ الزينة والتحلى بأحسن الثياب بقدر الاستطاعة عند الذهاب إلى الجمع والأعياد والمحافل العامة ، قال تعالى : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين) .

وكذا من المستحسن أن لا تكون الثياب ضيقة تضايق الجسم ، أو طويلة تجر على الأرض وذلك احترازاً عن النجاسات والأقذار ، وابتعاداً عن الوسوسة فى الصلاة ، وطرداً للعجب والخيلاء الذى يصاحب جر الثياب ، وقد فسر كثير من المفسرين قوله تعالى : (وثيابك فطهر) أى قصر ، توقياً للنجاسات .

ملابس بعض النساء تعرض أبدانهن للنظر
فما حكم النظر لهن فى هذه الحالة ؟
وهل شيوع مثل ذلك يكون مبرراً لعدم تحريم النظر؟

إن هذا السؤال يستلزم الحديث عن زوايا مختلفة خاصة بالتبرج لابد من علاجها ، وأول هذه الزوايا : هى التبرج نفسه . . وبهذا الصدد نبدأ بذكر حديث لرسول الله ﷺ ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة ، لا يرون الجنة ولا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » .

وهذا الحديث فيما يتعلق بالنساء المتبرجات كأنه قيل بالأمس القريب ليعبر عن الوضع فى العصر الحاضر ، ويكفى ما فيه من وعيد ، ليرد انحراف مَن تؤمن بالله واليوم الآخر .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الواجب بالنسبة للرجل والمرأة على السواء فيما يتعلق بالنظر ، قال تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إنّ الله خبير بما يصنعون) . هذا بالنسبة للرجال . . أما بالنسبة للنساء ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعاً أيّه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمره أن يصرف بصره . وقال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : « يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » . وقال ﷺ عن ربه فيما رواه عبد الله بن مسعود : « إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » . وما من شك فى أن على المرأة المتبرجة مسئولية كبيرة ، مسئولية تؤدى بها إلى غضب الله ومقته ، إذا لم تتب وترجع إلى الله محتشمة ، متأدبة بآداب الإسلام ، وعلى الرجل أيضاً مسئولية مزدوجة ، إن عليه مسئولية

الراعى ، وكل راع مسئول عن رعيته . . وعليه مسئولية النظر الذى يجب أن يكفه عن محارم الله ، فإذا قام الرجل بمسئوليته المزدوجة فقد أرضى الله ورسوله .

هل النبى محمد ﷺ هو المأمور وحده بحجب زوجاته أو أن الأمر شمل المسلمين جميعاً ؟

نريد بتوفيق الله أن نقول أولا : إنه ليس معنى الحجاب فى الإسلام أن لا تعمل المرأة ؛ فقد أباح لها الإسلام أن تعمل ، وأباح لها الإسلام أن تتصرف فى أموالها بالتجارة أو ببناء العمارات ، أو بغير ذلك من أنواع التصرف ، والمعنى الحقيقى للحجاب فى الإسلام هو إبعاد جو الفتنة وجو الشر عن طريق المرأة وعن طريق الرجل ، ومن معانى الحجاب فى الإسلام عدم التبرج ، وعدم تعمد إظهار الزينة إلاّ للزوج أو المحارم .

يقول الله تعالى : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ومن ضروب الايقاع فى الفتنة التى حرمها الإسلام أن لا يخلو رجل بامرأة ، والحجاب بهذا المعنى ليس خاصًّا بأزواج النبى ﷺ وإنما هو عام يشمل المسلمين جميعاً . يقول الله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين) ، ويقول رسول الله ﷺ ما معناه : « حينما يخلو الرجل بالمرأة يكون الشيطان ثالثهما » . والحجاب بالمعانى التى ذكرناها واجب على جميع المسلمين .

فى الزوج الذى يحجب زوجته ويبعدها عن مزالق الفتن

الزوج الذى يحجب زوجته ويبعدها عن مزالق الفتن ومواضع الشبهات زوج قد تأدب بأدب الإسلام وحافظ على عرضه وكرامته .

وفى توليه إحضار الأشياء من السوق قيام بالواجب عليه نحو بيته وهو مثاب على ذلك من الله سبحانه وتعالى : لأن من أفضل السعى سعى الإنسان على أهله وأولاده وهو بهذا العمل يكون قد جنب زوجته الاختلاط فى الشوارع والأسواق ، وأبعدها عن أن يتعرض لها من لا خلاق لهم ، والله سبحانه وتعالى يثبته على هذا العمل الحميد .

ما هو حجب النساء ؟ وما حكمه فى الإسلام ؟

إن الحجاب فى الإسلام معناه أولا أن لا تخلو المرأة برجل ليس من محارمها ، وأن لا تسافر وحدها أو مع رجل ليس من محارمها .

روى الشيخان : عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا معها ذو محرم فقال له رجل : يارسول الله : إن امرأتى خرجت حاجة وإنى كنت فى غزوة كذا وكذا . فقال له ﷺ : انطلق فحج مع امرأتك » .

والحجاب معناه ثانياً عدم التبرج ، وهو أن تحجب المرأة ما أمر الله بحجبه من جسمها ، ولقد أباح الشرع لها كشف الوجه واليدين والأحاديث فى هذا والآيات القرآنية كثيرة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة ، لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » . والحجاب ثالثاً معناه إبعاد المرأة عن جو الفتنة : الفتنة بالنسبة لها ، والفتنة بالنسبة للرجال ، وهذا كله إنما هو ارتفاع بالمرأة إلى جو السمو والتكريم يتناسب مع مكانتها وتكريم الإسلام لها .

فى البيع بالتقسيط

لقد أباح جمهور الفقهاء أن يكون الثمن المؤجل أعلى من الثمن المدفوع فوراً ، وذلك لأن الثمن المدفوع فوراً يمكن الانتفاع به فى معاملات تجارية أخرى ، أما الثمن المؤجل فإنه لا يتأتى فيه ذلك .

وهذا النوع من المعاملات ليس داخلا فى نطاق الربا ، ومع ذلك فإنه يجب أن يراعى أن تكون المعاملات التى من هذا النوع معاملات سليمة تجاريًّا وأخلاقيًّا . فلا يجوز أن تستغل حاجة

المشترى فيرفع البائع الثمن كما يريد مضاعفاً المكسب أضعافاً مضاعفة ، فإن ذلك – فضلا عن كونه إثماً من وجهة النظر الأخلاقية – لا يجوز شرعاً .

وأن التاجر الذى يراعى حق الله ويراعى واجبات الخلق الكريم ينعم بالبشرى التى أعلنها الرسول ﷺ فى قوله :

« التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء » .

مَن يجد كنزاً فى الأرض هل هو من حقه أو من حق صاحب الأرض ؟

لقد تحدث الفقهاء رضوان الله عليهم فى هذا الموضوع تحت عنوان (الركاز) أى الشىء النفيس المدفون فى الأرض الخفى ، وهو ما نسميه الآن الكنز . والكنز الذى وجده أحد العمال فى أرض من يعمل عنده هو لصاحب الأرض وليس للعامل حق فيه ، لأن الأرض وما فيها وما عليها ملك صاحبها ، وليس لغيره حق فيها ، وإنما له أجرة عمله حسب ما اتفق عليه هو وصاحب الأرض ، ولكن على صاحب الأرض فى هذه الحالة إخراج خُمس ذلك الكنز الذى وجد بها لبيت المسلمين إذا وجد ، وإلا فيوزعه على من تصرف لهم الزكاة ، ومصارف الزكاة معروفة قد بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم) .

ويقول رسول الله ﷺ : « ما يؤخذ من الركاز ففيه الخُمس » . رواه الشيخان .

فى التعادى بين المسلمين

لا يجوز شرعاً أن يتعادى المسلمون ، وعليهم أن يفسحوا صدورهم لبعضهم ، وأن يتآلفوا لقول الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

وفى نهى القرآن الكريم عن الفرقة قال تعالى :

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) . والعلماء أولى الناس بحسن التفاهم فيما بينهم ، وترك ما يثير الفرقة مهما اختلفت مذاهبهم ، وتعددت مشاربهم ، ولتكن أسوتهم برسول الله ﷺ الذى قال الله له :

(خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين).

والاختلاف فى الآراء أمر طبيعى ، وقد حدث فى كل مكان وفى كل زمان ، وقد كان الصحابة يختلفون فى الرأى ، وكان التابعون يختلفون فى الرأى ، والعلماء منذ أن وجد الإسلام يختلفون فى آرائهم ، ولكن مع الاختلاف فى الرأى كانت المودة دائماً سائدة فيما بينهم ، لأن الهدف لكل من العلماء إنما هو الحق ، والبحث عن الحق لا ينشأ عنه عداوة بين الباحثين ، بل ينشأ عنه تكاتف وتعاون ، فإذا حدثت العداوة فإنها تكون دليلا على أن صفات العالم الصادقة ليست متوافرة فى المتعادين .

نسأل الله أن يهدينا جميعاً للحق ، وأن يمنحنا التوفيق فى طلبه .

فى أخذ العوض هل هو جائز؟

لو كان أخذ العوض ممن أتلف شيئاً لا يملكه غير جائز لربما أدى ذلك إلى استهانة بعض الناس بالأشياء التى لا يملكونها ، إن الناس ليسوا جميعاً على وتيرة واحدة ، فبعضهم أمين محافظ يعنى بالأشياء لغيره كما يعنى بالأشياء التى يملكها ، بل ربما كانت عنايتهم ومحافظتهم على الأشياء التى يستعيرونها من الغير أشد من محافظتهم وعنايتهم بما يملكون وهؤلاء هم أصحاب الفطر السليمة ، والمقاييس الأخلاقية الكريمة ، ويقابل هؤلاء من لا يبالون بما يملك غيرهم ، إنهم فى حياتهم عابثون مستهترون ، لا يرعون حقًّا ولا يحافظون على ذِمام ، وبين هؤلاء وهؤلاء درجات لا تكاد تحصى تتأرجح بين طرف وآخر .

والتشريع الإسلامى تشريع يوجه وينظم ويحافظ ويرعى ، من أجل ذلك أجاز أخذ العوض لصاحب الشىء وأوجبه على من أتلف وعلى مَن أتلف شيئاً أن يردّ مثله لصاحبه أو يرد قيمته ، بيد أن الإسلام إذا أجاز أخذ العوض وأوجب رده فإنه لا يغلق الباب فيما يتعلق بالتسامح ، فإذا تنازل صاحب الشىء وسامح من أتلف فيكون هذا إحساناً منه والله يحب المحسنين .

فى الانفعالات النفسية التى تسبب أفعالا محرمة

قد تدفع القوة الغضبية والانفعالات النفسية إلى أن يقوم الإنسان ببعض الأعمال التى لا تليق به كإنسان ، والتى يبغضها الدين ويحرمها الشرع ، من ذلك شق الثياب ، ويأثم الإنسان بفعله ، ومن يأتيه فهو عاص ومذنب ، ويجب عليه أن يعجل بالتوبة والإنابة إلى الله مستغفراً طالباً العفو

والرحمة منه سبحانه ، ولقد كان الرسول ﷺ ، يهتم كثيراً بعلاج ما يؤدى إلى شق الثياب ، ويؤدى إلى ما هو أعنف من ذلك ، أعنى الغضب .

ولقد قال رجل لرسول الله ﷺ : أوصنى ، فقال ﷺ فيما رواه البخارى : « لا تغضب » فردد مراراً قال : لا « تغضب » .

ومن نصائحه ﷺ لتهدئة الغضب أن يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم ، وأن يجلس إذا كان واقفاً ، وأن يغادر المكان أو أن يتوضأ ويصلى ، أو أن يقرأ شيئاً من القرآن ، فإن فيه الشفاء إن شاء الله . . .

فى المزاح

المزاح من أصله مذموم ، إلا قدراً يسيراً يحقق الألفة ويوثق المحبة ولا يخرج عن حدود الوقار . . والسبب فى ذلك :

١ – أن فيه كثرة الضحك واستمراء اللعب وسقوط الهيبة وما إلى ذلك مما هو معروف ، قال عمر رضى الله عنه : « من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » . وقال النبى ﷺ يوماً لأصحابه :

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » . فبكى الصحابة وسمع لهم صوت واضح بالبكاء ، وقال ابن عباس : « من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكى » .

٢ – أن فيه سقوط الهيبة . . قال سعيد بن العاص لابنه :

« يابنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترئ عليك » . وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : « اتقوا الله وإياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة ، ويجر إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال » .

٣ – أنه سبيل إلى العداوة والنزاع ، قيل : « لكل شىء بذور ، وبذور العداوة المزاح » .

أما ما يجوز منه فهو ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته الأخيار ، كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا ، وقال الصحابة : يارسول الله إنك تداعبنا قال : « إنى وإن داعبتكم فلا أقول إلاَّ حقًّا » . رواه الترمذى وحسنه .

وقد وردت أحاديث توضح صور المزاح الذى كان يصدر من الرسول ﷺ من ذلك : جاءت امرأة فقالت : يارسول الله : احملنى على بعير ، فقال : « نحملك على ابن البعير » ،

فقالت : ما أصنع به ؟ إنه لا يحملنى فتبسم رسول الله وقال : « ما من بعير إلا وهو ابن بعير » ، وكان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير ، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : « يا أبا عمير ما فعل النغير » . أى العصفور الذى كان يلعب به . وقال ﷺ : لصهيب وبه رمد : « أتأكل التمر وأنت رمد » . فقال : إنما آكل على الشق الآخر فتبسم النبى ﷺ .

هذا هو المزاح الذى لا يخرج عن الحق ، ولا يؤدى إلى كثرة الضحك أو تحقير الغير أو ما إلى ذلك .

فى الختان

يرى الإمام الشافعى ومن وافقه أن الختان واجب لقوله تعالى : (اتبع ملة إبراهيم) ، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ بأن إبراهيم النبى ﷺ قد اختتن .

والسبب فى ذلك أن الآية صريحة فى وجوب اتباع سيدنا إبراهيم فيما فعل ، إلا فيما قام الدليل على أنه سنة فى حقنا وليس بواجب ، حينما يروى عن طريق السنة الصحيحة . . وفى الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ قال : « خمس من الفطرة . . وعدّ منها الختان » .

وكلمة الفطرة شاملة للواجب والسنة والمندوب ، إذ هى بمعنى السنة أى الشريعة الكاملة المطهرة بكل ما تشمل عليه من إصلاح الدين والدنيا .

واستدل بعض العلماء على وجوبه بجواز كشف العورة لأجله ، وكشف العورة حرام ، لا يجوز إلا لداع يقاوم الحرمة وهو الوجوب .

وهذا الاستدلال لا يظهر فى حق الطفل الصغير غير البالغ ، وإنما يظهر فى حق من لم يتم ختانه حتى وصل إلى مرحلة البلوغ ، أما متى يكون الختان فقيل : فى اليوم السابع من الولادة ، وقيل فى الأربعين ، وقيل فى السابعة .

وعليه فمن المتفق عليه عند من قال بوجوبه أنه لا يجب إلا بعد البلوغ حينما يكون المرء داخلا تحت التكليف ، وواقعًا تحت حكم الوجوب ، هذا فيما يتعلق بمذهب الشافعى .

أما فيما يتعلق بمذهب الإمام مالك فإن الكلمة المعروفة عند المالكية التى تعبر عن مذهبهم هى قولهم : « الختان للرجال سنة وللنساء مكرمة » . والختان واجب عند أحمد وسنة عند أبى حنيفة ، وننتهى من كل ذلك إلى أن الختان للرجال والنساء عند الإمام الشافعى واجب ، وعند الإمام مالك سنة بالنسبة للرجال ومكرمة بالنسبة للنساء ، وعلى كل المذاهب فإن من الواجب فيما يتعلق

بختان المرأة اتباع توجيه الرسول ﷺ للمرأة التى تختن بالمدينة : « لا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل » .

فى التقتير والإسراف

إن قوله تعالى : (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً) . جاء فى سياق آيات تحث على الإنفاق والبذل . وبحث الله سبحانه على الإحسان بالوالدين ، الإحسان الذى يتضمن الرعاية بجميع أنواعها ، قولية كانت أو فعلية ، ومنها الإنفاق عليهما عند الحاجة ، (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً) . ثم بحث الله سبحانه على إيتاء ذوى القربى والإنفاق عليهم والبر بهم ، وبحث كذلك على إيتاء المسكين وابن السبيل ، ثم يرشد سبحانه بعد ذلك مباشرة إلى أن الطريقة المثلى فى كل ذلك إنما هو عدم التبذير والابتعاد عن الإسراف ، ثم يبين بعد ذلك مباشرة القانون الذى يرتضيه سبحانه لبنى آدم فيقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) .

وما من شك فى أن التبذير مذموم ، وأن الإسراف لا يقره عاقل ، ولكن البخل أيضاً مذموم ، والتقتير لا يقره المستنيرون ، يقول الله تعالى : (ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون) . ويقول سبحانه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى) . إنّ البخيل المقتر الذى يكنز الذهب والفضة لن ينفعه ماله وما كنز حينما تأتيه سكرة الموت بالحق ، وحينما يحل به المحتوم . يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وكما حث القرآن على التزام القصد وعلى اتخاذ التوسط فى الإنفاق فإن الرسول صلوات الله عليه وسلامه حث على الإنفاق على الأهل فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » . وقال صلوات الله عليه : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ، فالتقتير على الأسرة بحجة نهى الله سبحانه عن التبذير ليس طريق المهتدين بهدى الله الذى هو التوسط والقصد والاعتدال وليس من الدين فى شىء .

وسئل رضي الله عنه في الإسلام والعلم

فى أمر الله الناس بالعلم والتعلم

أمر الله عز وجل المسلمين بالعلم والتعلم إلى أقصى ما يستطيعونه حيث قال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وقال : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال : (الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علّمه البيان) ، وقال : (ن ، والقلم وما يسطرون) ، وقال : (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم) .

وكشوفات العلم الحديث من خير ما يوثق صلة العبد بربه ، ويجعله يقر بوحدانيته ، قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) ، وحديث إسراء رسول الله ﷺ وعروجه إلى ما فوق سبع سموات يؤكد وجود الله ووحدانيته وقدرته .

والذين صعدوا إلى القمر ، لم يستطيعوا البقاء عنده ولا المكث عليه مدة أطول مما مكثوا ، لأن الذى خلق السموات والأرض وما بينهما جعل لكل عالم ما يناسبه ، ونص فى كتابه على أن الأرض لنا ، ونحن لها ، بحيث لا نستطيع الحياة على كوكب سواها قال تعالى :

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

وقال سبحانه : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) .

فدلت هذه الآية على أن الأرض لنا ونحن لها ، والسماء لغيرنا وليس لعالمنا .

وحادثة صعود الإنسان فوق القمر ، وعدم استطاعته البقاء فيه من أول الدلائل على صدق ما جاء فى كتاب الله تعالى . .

والله أعلم . . .

فى الحث على العلم

طالب الله بالعلم وحث عليه ، ومن توجيهات القرآن للرسول ﷺ فضلا عن غيره أمره بأن يقول : (وقل رب زدنى علماً) .

ولا يمكن المساواة بين العالم والجاهل فى المنزلة أو المكانة:(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

ومن هنا كانت مسئولية العالم كبيرة ، إن خطأه ليس خطأً عادياً ، وإن مسئوليته جسيمة ، وإن العالم إذا زل زل بزلته عالم ، وقد صور الرسول ﷺ موقف العالم الذى يأمر الناس بالخير ولا يقوم بأدائه تصويراً معبراً فيما روى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه .

ومن الآثار الواردة فيما يتصل بقارئ القرآن الذى لا يعمل بما قرأ بل يأتى ما لا يتناسب وهذه القراءة قول بعض السلف : « رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه » ، يقول : ألالعنة الله على الظالمين وهو ظالم لنفسه . . .

وفى الحديث الصحيح : « القرآن حجة لك أو عليك . . . » أى أن القرآن يشهد لك بالصلاح والتقوى إن امتثلت ما فيه وطبقت العمل على القراءة ، ويشهد عليك إذا تركت العمل بما فيه وانصرفت عن طريق الدين .

ومن هنا كان السلف الصالح يرون فى القرآن : مرآة لأحوالهم وميزاناً لتصرفاتهم ، وكانوا يستحيون من القرآن أن يوجد فى مكانهم ثم يخرجون عما ينبغى من جد فى العمل واتزان فى السلوك ، فعلى هذا العالم أن يتمسك بحدود الدين ، وأن يعمل بما فى القرآن ، وإنْ خرج عن ذلك أو انحرف وجب تنبيهه .

فى الدين والعلم

إن مسألة الصلة بين الدين والعلم ، انسجاماً واتفاقاً ، أو تعارضاً ونزاعاً – تثار من آن لآخر على صفحات الجرائد ، وفى ثنايا الكتب ، وبين المفكرين فى أنديتهم .

ولقد كتب الغربيون كثيراً فى هذا الصدد ، بل إنهم أول من كتب فيه ، ولكن هذه المسألة تجاوزت الغرب إلى الشرق ، وكتب مفكرو الشرق فيها ، واختلفوا فيما بينهم كما اختلف مفكرو الغرب .

وإن ما كتبه العلامة الفرنسى : «إميل بوترو» بهذا الصدد يعطينا صورة عن هذه المسألة فى الغرب وفى الشرق الحديث ، إنه يقول فى ترجمة المرحوم مصطفى عبد الرازق :

« إن أمر العلاقات بين الدين والعلم حين يراقب فى ثنايا التاريخ ، يثير أشد العجب ، فإنه على

الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد مرة ، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحين فى حل هذا المشكل حلا عقليًّا ، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب .

على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين . ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم ، فقد تحرر العلم من هذا الرق ، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك .

وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان ، ولكن الأديان ظلت راسخة ، وشهد بما فيها من قوة الحياة وعنف الصراع .

ونريد فى هذه الكلمة أن نتحدث عن العلاقة بين الإسلام بالذات والعلم ، واتخذنا الإسلام بالذات كمثال للدين :

١ – لأن كتابه المقدس حفظ بصورة هى من الدقة بحيث لا يتأتى فيها الشك ، فالقرآن المتلو الآن – كما يقول المستشرق الفرنسى الكبير الأستاذ (ديمومبين) – هو القرآن الذى كان يتلوه محمد فى القرن الأول الهجرى .

وأن الباحثَ المنصف – كما يقول – لا يجد مناصاً من الإقرار بهذا .

٢ – ولأن حضارته المادية والثقافية والعقلية والروحية التى صدرت عنه ونتجت عن وجوده معروفة إلى حد كبير . .

وموقف الدين الإسلامى من العلم واضح كل الوضوح ، فأول كلمة فى الدستور الإسلامى القرآن : (اقرأ) .

ثم إن الآيات القرآنية التى تحث على العلم وتبين فضل العلماء كثيرة .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : (وقل رب زدنى علماً) ويقول الله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ويقول تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

ومن طريف القراءات فى هذه الآية قراءة لبعض العلماء منهم الإمام أبو حنيفة ترفع لفظ الجلالة وتنصب لفظ العلماء ، وتقول حاشية الصاوى على الجلالين : (والمعنى) إنما يعظم من العباد العلماء ، وإنما كان كذلك لكونهم أعرف الناس بربهم ، وأتقاهم له ، فالواجب على الناس تعظيمهم واحترامهم اقتداء بالله تعالى ، فإن الله تعالى أخبر أنه يعظمهم ويجلهم .

أما الأحاديث النبوية فإنها هى الأخرى كثيرة ، من أجمعها الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى ، يقول صلوات الله عليه وسلامه :

« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وأن الملائكة لتضع أجنحتها

لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وأن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذه بحظ وافر » .

وقد دفع هذا الاتجاه – فى القرآن الكريم وفى الأحاديث – المسلمين إلى المباحث العلمية فى جميع نواحى الحياة : روحية أو عقلية أو مادية ، ونشأت من ذلك : الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال : جابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعيات ، وأبى بكر الرازى فى الطب ، وابن سيناء فى الطب كذلك والفلسفة ، والغزالى فى الجانب الروحى ، وابن رشد فى الفلسفة العقلية ، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ . . . . وكثيرين غيرهم .

وقد أشاد كثيرون من منصفى الغربيين بالحضارة الإسلامية وبمناهجها . يقول « غوستاف لوبون » ويعزى إلى بيكون : على العموم ، أنه أول من أقام بالتجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة . ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شىء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .

ويقول العلامة الشهير « هيولد » بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة فى العلوم : « إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يحملها القدماء تقريباً » .

وإن مؤرخى الحضارة الغربية يعترفون بأن المبشر الأول بالعلم التجريبى إنما هو « روجر بيكون » ويعترفون بأن آراءه فى العلوم أصدق وأوضح من آراء « فرنسيس بيكون » يقول الأستاذ « دوهرنج » : « إن آراء روجر بيكون فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور » .

وهذا العلم التجريبى هو – دون جدال – الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوربية والأكثرية العظمى من مؤرخى الحضارة الأوربية يعزون هذا المنهج على الخصوص إلى روجر بيكون ، وفرنسيس بيكون ، ولكنّ عالماً من علماء الغرب الممتازين بعد أن درس دراسة عميقة بحث بحثاً مستفيضاً ، انتهى به الأمر إلى تقرير حقائق كان يجب على الشرقيين أن يعرفوها من زمن بعيد ، هذا العالم هو الأستاذ بريفولت ، إنه يقول فى كتابه الذى ألفه تحت عنوان : بناء الإنسانية : « إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلاّ رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة

العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا[1] .

ويستفيض الأستاذ « بريفولت » فى تصوير ما كان عليه العرب من العبقرية فى العلم والحضارة ونجد طرفاً من ذلك فى الكتاب الذى ألفه الدكتور محمد إقبال تحت عنوان : (تجديد الفكر فى الإسلام) .

ويقول الدكتور إقبال ما نصه :

« ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس .

« والقسم الخاص من كتابه الذى خصصه للبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم . وكتاب بيكون فى جملته ، شاهد ناطق على تأثره بابن حزم » .

هذه الحقائق التى قدمناها عن حضارة العرب : منهجاً وعلماً : أصبحت من الذيوع والشهرة لدى المنصفين ، بحيث لا نحتاج إلى التوسع فى الاستدلال عليها.

ويتبين لنا مما سبق أن الإسلام :

١ – يحث على العلم ، ويشجعه ، ويدعو إليه ، ويأمر بالاستزادة منه .

٢ – وأن روح الإسلام هذه أنتجت حضارة مزدهرة عمت جميع أقطار الحضارة وجوانبها مادية كانت تلك الجوانب أو عقلية ، أو روحية .

إذا كان موقف الإسلام من العلم : هو ما بيننا ، فما هو موقف العلم من الإسلام ؟

إن موقف العلم من الإسلام – باعتبار الإسلام مثلاً صحيحاً للدين – إنما هو فى حقيقة الأمر تصوير لموقف العلم من الدين الحقيقى .

وهذا الجانب من البحث هو من الوضوح بحيث ما كان ينبغى أن يكون فيه جدال ولا مناقشة ، ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين : يعترفون فى صراحة لا لبس فيها ، وفى وضوح لا خفاء فيه بأن دائرة أبحاثهم إنما هى المادة ، إنما هى المحس ، وأنهم يعتمدون فى ذلك على التجربة وعلى الملاحظة .

إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم ، وليس الاستقراء إلاّ تتبع جزئيات محسة تتبعها بالملاحظة أو بإجراء التجارب عليها .

---

(١) من كتاب تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ، ترجمة عباس محمود ص ١٤٩ .

والمنهج العلمى إذن ، إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة ، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة فقد خرج عن دائرة العلم .

وعلى هذا الأساس : فليس للعلم مطلقاً دخل فى أمور الدين : إثباتاً وإقراراً ، أو نفياً وإنكاراً ، وإذا ما قال قائل : إن العلم يثبت كذا من الأمور الروحية ، فإنه يكفينا منه هذه الكلمات لنسحب ثقتنا به كعالم ، وإذا ما قال : إن العلم ينكر كذا من الأمور الروحية فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لسحب ثقتنا به كعالم ، إذ إن العلم فى المجال الروحى لا يثبت ولا ينفى ، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه .

ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه ، وإبداعه والتناغم الذى يسوده ، والدقائق الباهرة التى يبينها علم التشريح مثلا فى التركيب الحيوانى .

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين مواد يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهم ، وبيانهم أن العالم لم يكن نتيجة المصادفة العمياء أو الاتفاق الأصم ، ويبينون من نتائج العلم أن الآيات فى مجال المادة نفسها تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

فى معنى قول الله تعالى : (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . .) الآية

معنى قوله تعالى :(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) إنما يفهم من سياق ما قبله من الآيات إن سورة الرحمن من السور التى تتوجه بالخطاب إلى الجن والإنس ، وتذكر مظاهر قدرة الله وعظمته وقهره لجميع خلقه ، والآية التى معنا تتوجه إلى الجن والإنس بالخطاب وتبين عجزهم وضعفهم أمام قدرة الخلاق العليم .

فالجن والإنس محصورون فى السموات والأرض ، وليس فى استطاعتهم تجاوزهما أو النفوذ منهما ، وفى قوله تعالى : (إن استطعتم . . . فانفذوا) تهكم بهم وإظهار لمدى ما هم عليه من ضعف .

وفى التعبير (انفذوا) بيان لاحتياج الخروج إلى التغلب على موانع عديدة ، على الإنسان أو الجان أن يتخلص منها ليتحقق له النفاذ ، ولن يتأتى له ذلك .

فالآية تفيد أن الجن والإنس محصورون فى مجال معين ، وفى نطاق خاص لا يمكنهم تجاوزه ، وهم مقهورون على ذلك . وعليهم الإقرار والاعتراف والإذعان لقدرة الله تعالى .

وقد بين الله سبحانه أن النفاذ من أقطار السموات والأرض يتأتى بالعلم يقول سبحانه :

(لا تنفذون إلا بسلطان) والسلطان فى الآية الكريمة معناه العلم ، وعلى ذلك فإن كل ما نراه من غزو للفضاء ، ونزول على الكواكب لا يتعارض مع الوضع القرآنى فى كثير ولا قليل ، بل إن القرآن يحث عليه ويدعو الإنسان إلى الوصول فى أجواء السماء إلى الحد الذى يستطيع ، وإلى الغوص فى أعماق الأرض إلى الحد الذى يستطيع كذلك ، وذلك أن الله سبحانه يمن علينا بأن سخر الكون كله لنا ، ونص على تسخير الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء .

وعلينا أن نستجيب إلى امتنانه سبحانه فنسخر ما سخر لنا ، فإذا سخرنا الكواكب لفائدة الإنسانية فإننا نكون مستجيبين للتوجيه الإلهى . .

والله أعلم . .

هل القناعة بالعلم النظرى – فى هذه الآونة – قد تحدث انفصاماً بين الحياة والدين ؟

عرف الإسلام قيمة العلم ، وحث عليه ، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وعظم العلماء العاملين المخلصين ، وقرنهم معه سبحانه ، ومع ملائكته المطهرين : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) .

ولم يفرق الإسلام بين علم نظرى وعلم عملى ، بل دعا إلى كل ما فيه العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما فيه خير البشرية ونفع الإنسانية .

وسخَّر الله كل ما فى الكون للإنسان ، ودعاه إلى التفكير والتدبير والتعقل وجولان النظر فيما خلق الله تعالى ، للعبرة واستنباط ما فيه الخير لنفع البشرية .

وكما عبر بالإنزال عن كتابه سبحانه لإقامة الحق والعدل بين الناس ، عبر عن الدعوة إلى الانتفاع بالحديد والمعادن ومافى حكمها بالإنزال ، حتى يتذكر المسلمون بأن القوة مطلوبة ، وأن العزة مطلوبة ، وأن التكامل الاقتصادى أيضاً مطلوب ومرغوب ، يقول تعالى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناسُ بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إنّ الله قوى عزيز) .

والأزهر يدرّس – للتخصص – العلوم النظرية فى بعض كلياته – ويزاوج بين العلوم العملية والنظرية فى بعض كلياته الأخرى .

ولم يقل أحد أن القناعة بالعلوم النظرية مطلوبة فى هذه الآونة ، بل لابد من هذا وذاك . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

تحدث الإنجازات العلمية التى تطالعنا كل يوم تأثيرات متفاوتة على العقيدة الدينية ، فكيف نعزز حجتنا الدينية بقيمة علمية تتواءم وهذه الإنجازات ؟

الحضارة الحديثة والإنجازات العلمية المعاصرة تقوم على أساس من العلم ، وتمكن الإنسان من تيسير أمور الحياة ومتعها ومنافعها ، والإسلام يقدر العلم حق قدره (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

ويقول ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » لأن العالم قلما يحنح عن الصواب فى عبادته ، والإسلام لا يفرق بين علم وعلم ، ما دام ينفع البشرية وخيرها . والإسلام بذلك يقر الدعامة الأولى التى تقوم عليها الحضارة الحديثة ، والإنجازات العلمية الرائعة ، وليس على الإنسان من شائبة فى أن يتفع ويستمتع بمتع الحياة الدنيا ومباهجها ما دامت فى حل واعتدال وإنسانية : (قل مَن حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون) .

فأباح الإسلام التمتع بها ، بشرط ألا تتحول إلى سرف ، ومصدر هلاك وشقاء فتخرج عن طبيعتها ، لأن التمتع بها موضع للاختبار والابتلاء أيضاً .

ويحذر الإسلام من أن تصبح هذه الإنجازات مصدر فتنة له ، وأن يخدع بها ، أو يهلك بها نفسه أو غيره ، ويحذر من سيطرتها على الإنسان حتى يطغى بها فيضل وينسى نفسه ويطغى بسيطرتها عليه ، أو يطمس معالم الجانب المشرق الروحى فى الإنسان أو انكماشه ، حتى تضيق دائرته وتضمحل .

فالإسلام يدفع إلى التطور والحضارة ، ويقف موقفاً إيجابيًا ، ولكنه يحذر من سلبياتها وأخطارها .

وإذن : إذا قصد بالتقدم والاكتشافات السمو والتهذيب الإنسانى ، فالإسلام يدعو إليه ، وإذا قصد به الانحلال والتسلط والاعتداء والطغيان فهو برىء منه ومن نزعته هذه .

ولنتدبر مليًّا قوله تعالى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا

الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إنَّ الله قوى عزيز) .

فالقرآن يسوى بين إنزال الله تعالى لأحكام العدل والهداية . . وإنزال الحديد (بلفظ الإنزال) لتساند القوة المادية القوة المعنوية ، فتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليكون المسلمون أعزة وأقوياء ، وأصحاب متعة ، ويتصفوا بصفات الله كما فى ختام الآية . .

فى الإنجازات العلمية الحديثة

الإنجازات العلمية الحديثة تقوم على العلم ، والإسلام يقدر العلم والعلماء فى مختلف القطاعات والفروع ، ويدفع الإسلام إلى الحضارة والتقدم والرقى لخير الإنسانية ، ويحذر من الطغيان والاعتزاز ، والإضرار والضرر بها ، وحين يكون للمسلم قوة العلم والعمل تكون العزة والكرامة والتكامل والغنى ، يقول تعالى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ويقول جل شأنه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

فى المعجزة والعلم

المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقاً له فى دعواه ، ويلاحظ أن المعجزة – من اسمها – تعجز الغير عن الإتيان بمثلها – وأنها من الله القوى القادر القاهر ، وأنها ليست عادية ، لا تخضع للأسباب الظاهرة ولا العلمية ، ولا تكون إلاّ على يدى النبى من أنبياء الله ، فكيف يتأتى للعقل البشرى القاصر المحدود والمخلوق والذى يدور فى فلك معلوم ومحدود ، كيف له أن يحكم على المعجزة بالإمكان وعدمه ؟ إن العاقل لا يعرف ماهيته ، وعليه أن يلزم حده ، ونحن نؤمن بالمعجزات ووقوعها لأنبياء الله تعالى ، والله على كل شىء قدير .

فى الصوفية والعلم

الصوفية الصافية هى التى تلتزم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله قولا وعملا وإخلاصاً ، ويحيون فى ظل الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده أساسه التوحيد الخالص ، ومراقبة الله فى السر والعلن ، وتكوين الضمير القائم على خشية الله ، وحسن الصلة والخلق بين الناس ، وجعل الله تعالى قبلتهم

فى كل شىء ، وجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، والمادة عندهم فى أيديهم لخير الناس ونفعهم وليست فى قلوبهم .

وإذا كانت المبادئ ، الوافدة والمستوردة قد أفسدت وضلت وأضلت ، وإذا كان الإلحاد قد استشرى ويقوم به أناس تربوا فى حجر المستعمر وعلى موائده ، وليسوا مواطنين صالحين ، لأن ولاءهم لغيرهم ولغير الله والوطن ، فإن الحاجة ماسة إذن لوجود تيار إيمانى ، يعمل بكتاب الله وسنته ، ويقاوم المادية الملحدة ، والله الموفق .

فى حث الإسلام على العلم

الإسلام يحث على العلم ، وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وعرف قدر العلم والعلماء (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ؟ ولا يفرق بين علم نظرى وعلم عملى ، بل يدعو إلى كل فروع العلم والمعرفة والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ، والله سبحانه قد سخر كل ما فى الكون للإنسان ، ودعاه إلى التفكير والاستنباط والانتفاع .

والأزهر يزاوج بين العلوم الدينية وغيرها من العلوم العملية . ولم يقل أحد بأن القناعة بالعلوم النظرية مطلوبة ، لأن هذه نظرة قاصرة والله تعالى أعلم .

فى اشتراط العلم فى الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الإسلام واجبة على كل مسلم ومسلمة بالقول والعمل ، ويدعو الإسلام إلى العلم ، والتفقه ، وإعداد نفر للدعوة إلى الحق والخير والسلام (فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون) . ويشترط فى الداعى : الإخلاص أولا ، والقدوة الصالحة ، والثقافة الواسعة ، والرؤية المستنيرة ، والتسلح بعلوم العصر ، والإلمام بلغة أجنبية ، وحب الموقع والعمل ، والاستعداد للعمل والجهاد ، والنفاذ إلى روح الدين ومغازيه . . ولقد افتتحنا بحمد الله كلية للدعوة فى طنطا ، وسنفتح أخرى بالقاهرة ، ونرجو أن نحصل منهما على الداعية الواعى المستنير ، والله الموفق .

فى معنى الروحية والمادية

معنى الروحية : إدراك المعانى الإنسانية المهذبة الفاضلة ، والتمثل بالقيم الدينية الرفيعة ومراعاة تعاليم الكتاب والسنة ، وإيثار ما هو خير وأفضل عند الله ، والخير والحق ، والجمال ، والإيثار ، (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) والإسلام يدعو إلى ذلك لأن فيه عمار الكون ، وسعادة البشر ، ورضاء الله ، وقد أفلح من تزكى .

ومعنى المادية : الاتجاه إلى المادة ، والوقوف عندها وحدها : فى الجاه ، والمال ، والولد ، والمتع الدنيوية ، والاستغراق فى حب الدنيا ، والغفلة عن الآخرة ، وكل ما من شأنه أن يرقى الإنسان . والإسلام وسط : لا يحرم الاستمتاع بالمادة ، ولكن فى وسط واعتدال ومن وجه حلال يحلها : (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) .

وإنما يحرم الإسلام المادية الطاغية ، والماديين المغالين ، ويصفهم بأنهم:(الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) . فالإسلام يفضل الجانب الروحى ، ويجعل الجانب المادى لخدمته ورقيه ، والله الموفق .

فى الثقافة الأصيلة

الثقافة الأصيلة للمجتمعات الإسلامية والعربية ، هى الثقافة الإسلامية ، ووعائها العربى ، وغيرها دخيلة ، ووافدة أو مستوردة . ومن يحد عن الثقافة الأصيلة ينس نفسه وماضيه ، ويقع فى حيرة واضطراب .

ولقد حرص الاستعمار وأذنابه من بعده على زرع أجساد غريبة فى جسم العالم الإسلامى والعربى لتظل مرتبطة به ، وتبقى بعيدة عن هدى السماء وعن مصادر ثقافتها الأصيلة .

وقد آن الأوان لأن تسترد هذه الثقافة عرشها المسلوب وتتبوأ مكانتها اللائقة بها فى بلادها فى عصر العلم والإيمان ، وعلى رأس وزارة التربية والتعليم [1] رجل فاضل وخير كريم ، أسهم فى إنعاش الثقافة الدينية فى المدارس ، وزاد فى أوقاتها ، وبقى أن يعرف ذلك طريقه إلى الجامعات وسائر أجهزة الدولة ، ليتحقق التكامل والفائدة ، فإن المجتمعات المادية والملحدة شقيت تماماً ، برغم التقدم العلمى ، ولن تسعد إلاّ بالروحية المهذبة الفاضلة .

---

(١) يعنى الدكتور مصطفى كمال حلمى الوزير العالم إذ كان يعلق عليه الإمام رحمة الله آمالا كبيرة فى أن تأخذ التربية الإسلامية حظها فى عهده وعلى يديه .. وفقه الله لما يحبه ويرضاه .

فى الإلحاد

الإلحاد أثر من آثار الاستعمار وأثر للعلمانية ، وأثر للشيوعية التى تنكر وجود الله ، وتهزأ بالأديان ، وتسخر من رجالها حتى يتفلت الشباب والغوغائية من ربقة الدين ، والسير فى طريق الحيوانية ، والهبوط إلى مستوى لا يليق بالإنسان . .

ومقاومة الإلحاد يتطلب تضافر الجهود من الدولة بأجهزتها المختلفة ، والعناية بتدريس الدين وإعداد الداعية الواعى البصير القادر ، والدعوة الصادقة من كل إنسان مؤمن لنفسه وآله ومحيطه إلى خير العمل ، وإلى سبيل الله السوى ، وتبنى الكتاب الصالح والدعوة الطيبة والكلمة الحسنة ، والقدوة الخيرة .

وأيضاً إلى مقاومة الفساد ، وتقليم أظفاره ، وإبعاد أصحابه عن مجال التوجيه ، وتحديد إقامة الكلمة الشريرة ، وتطبيق شرع الله ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

فى مباركة الله مجالس العلم

يبارك الإسلام مجالس العلم – وتحفها الملائكة ، ويغفر الله لحاضريها ، ولقد كانت للندوات الدينية ومجالس العلم حظ كثير بين الخلفاء والعلماء والملوك المسلمين الصالحين العاملين ، والصالون إذا تحول إلى منتدى دينى أجدى بكثير من استعماله فيما لا فائدة فيه ، أو ما يجلب سخط الله وغضبه . . . وحبذا لو تحولت كل الصالونات والنوادى والساحات والملاعب والمساجد إلى ندوات دينية وعلمية لتزدهر الحركة العلمية والدينية ويعم نفعها بإذن الله .

الأزهر حصن للثقافة الإسلامية

الأزهر حصن للثقافة الإسلامية والعربية أكثر من ألف عام . وبذلك حفظ للمسلمين تراثهم والتقت فيه العروبة والإسلام فى محيط الثقافة التى أفاضها القرآن ، وصارت وحدة قوية إلى أن أوقع بينها المستعمر والعدو . . ووفدت إلى الأزهر وفود من شتى أنحاء الأرض ، تنهل من معينه ، وتعود بالخير لبلادها ، وبالأزهر كليات مختلفة تحت اسم (كلية البنات الإسلامية) للعناية بالمسلمة واستقام أمر هذه الكليات ، ويفد إليها كثيرات من البلاد الإسلامية ، وأقبل عليها المسلمات بشكل

رائع لعدم الاختلاط فيها ، واستقبلت الدولة والبلاد العربية خريجاتها بقبول حسن ، وقد توسع الأزهر فى إنشاء المعاهد الثانوية والإعدادية والابتدائية للبنات ، لتكون روافد طبيعية لهذه الكليات والتى أعددنا لها لتكون فرعاً لجامعة الأزهر ، ولتتسع للأعداد اللازمة لإعداد الفتيات المسلمات إعداداً لائقاً بهن ، ويناسب دورهن فى الحياة بإذن الله . . والله الموفق والمعين .

فى حكم الإسلام فى نزول الإنسان على القمر

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخّر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار ، وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخّر لكم الليل والنهار) .

من هذا نعلم أن القمر سخره الله سبحانه وتعالى لبنى آدم وفى ذلك حث لهم على أن يصلوا إلى السيطرة عليه باكتشاف القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى لتسخيره ، ليطوعه لهم ليستفيدوا منه ، وليزدادوا إيماناً بالله سبحانه وتعالى مبدع الكون وبارئه على أحسن نظام وأبدع تكوين .

فإذا وصل الإنسان إلى القمر ونزل على سطحه وسار فوقه وانتفع بما خلقه الله فيه ، فإنه بذلك يكون قد انتفع بما سخره الله له .

ومن الواجب حينئذ على الإنسان الذى يصل إلى القمر أن يشكر الله على هذه النعمة التى أنعم بها عليه ، وهى أن قدر على الوصول إلى القمر ، وشكر هذه النعمة باستعمال هذا الاكتشاف الجديد فى كل ما يعود على البشرية بالخير والسعادة ، لا فيما يدمر العمران ، ويقضى على بنى الإنسان ، أو فيما يعود على العالم بالشر من الاستعلاء والاستعباد للإفساد ، فإن ذلك كفر بنعمة الله وابتغاء للإفساد فى الأرض ، والله لا يحب المفسدين .

ولقد حرص الإسلام على نفى ماكان فى الأعصر القديمة من أن الكواكب آلهة ، أو أنها مقدسة ، وبين أنها كغيرها من المخلوقات من نبات وحيوان وجبال وبحار من مخلوقات الله ، فقال سبحانه وتعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون) .

الكواكب من مخلوقات الله سبحانه وتعالى مثلها كمثل بقية المخلوقات ، وعلى الإنسان أن يبذل كل ما يستطيع فى سبيل استكمال المعرفة بها .

ما حكم الإسلام فى إرسال الأقمار الصناعية إلى القمر ؟

إنه ليسرنا أن نجيب عن هذا السؤال الذى يدور فى أذهان كثير من الناس الآن ، وموقف الإسلام من هذا الموضوع إنما هو موقفه من العلم ، ولقد حث الإسلام المسلمين على التزود من العلم فى صور وأساليب بلغت حد الروعة ، والقرآن الكريم هو الذى بين أن العلماء يشهدون « التوحيد » مع الله ومع الملائكة ، وشهادة التوحيد هى قمة الدين الإسلامى ، والقرآن الكريم هو الذى طلب إلى الرسول ﷺ أن يدعو الله قائلا : (ربى زدنى علماً) .

والعلم الذى يقصده الإسلام هو العلم الروحى والعلم المادى ، إنه العلم بالكون وما وراء الكون ، إنه العلم بالمادة وما وراء المادة .

ولقد أنبأنا الله سبحانه وتعالى : بأنه سخر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء ، لقد سخر لنا سبحانه وتعالى البحار والأنهار والجبال ، وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يدفعنا إلى امتلاك ذلك كله والسيطرة عليه بالعلم والمعرفة والتجارب والملاحظات .

فإرسال الأقمار الصناعية إلى القمر إنما هدفها زيادة المعرفة بسنن الله الكونية ، وفى ذلك زيادة للمعرفة بقدرة الله وعظمته .

ويجب على الأقطار الإسلامية أن تسهم فى غزو الفضاء ، وفى إرسال الأقمار الصناعية إلى القمر ، وإلى غير ذلك من الكواكب ، ويجب عليها أن لا تقف مكتوفة الأيدى متفرجة أمام هذا التقدم العظيم فى العلم ، وإنما يجب عليها أن تأخذ فى طريق معرفته وتحقيق المساهمة فيه وتطويره ، فإن كل ذلك إنما هو تحقيق لهدف القرآن الكريم الذى يقول : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات) وتحقيق لهدف السنة النبوية الشريفة التى تقول : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة » .

والاكتشافات الحديثة من أوضح الأدلة على وجود الله ، لأن هذه الاكتشافات تُظهِر إبداعاً وتنسيقاً وعناية وحكمة لا تدع مجالا للمصادفة أو الاتفاق وإن انتفت المصادفة ثبت وجود الله .

يمتنع بعض الناس عن التداوى والذهاب إلى الأطباء قائلين إن الشافى هو الله فما رأى الدين فى ذلك ؟

إن العقيدة الإسلامية هى أن الله سبحانه وتعالى هو الشافى ، يقول الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : (وإذا مرضت فهو يشفين) وذلك لا خلاف فيه . بيد أن الشفاء لا يختلف عن غيره من الأمور التى جعل الله لها الأسباب وأمرنا باتخاذها ، وأن نواميس العالم التى هى من صنع الله أن لكل مسبب سبباً ، والشفاء إذن مسبب له سبب ، ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى : « تداووا عباد الله ، فإن الله لم يضع داءً إلاّ وضع له دواءً ، غير داء واحد . .

قيل يارسول الله : وما هو ؟

قال الهرم » .

وروى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال :

« لكل داء دواء ، فإذا أصاب الدواءُ الدّاء ، برأ بإذن الله » .

ويؤكد رسول الله ﷺ قانون الأسباب والمسببات فيقول فى صراحة : « إن الله لم ينزل داء إلاّ أنزل له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، إلا السام وهو الموت » .

فى الكتب الجنسية

لقد حث الدين على العلم ورغب فى التزود منه ، ودعا إلى كل ما يوسع المدارك ويزيد فى ثقافة الإنسان وينفعه فى دينه ودنياه .

وهذا كله إنما ينطبق على العلم النافع والثقافة المفيدة .

والكتب الجنسية كلها إثارة وتشجيع على ارتكاب الفاحشة ، إن لم يكن ذلك بصريح عباراتها ففى شرحها للعملية الجنسية وما يترتب عليها مما يدفع القارئ إلى تقليد ما يقرأ أو تطبيقه .

ولا شك أن قراءة مثل هذه المعلومات من أخطر ما يكون على سلوك الشباب والفتيات ، لإثارتها الغرائز ، وإشاعتها للفاحشة .

وما انتشرت الفوضى والإباحية إلا بعد أن انتشر هذا النوع من الثقافة بين شبابنا وفتياتنا .

فواجب المربين التحذير منها ، والحث على الابتعاد عنها لنضمن شباباً سليماً من الانحرافات .

وإنّ فى كثير من الكتب النافعة التى تحث على الفضيلة وتشجع على البطولة والوطنية أو تزيد المعلومات والمدارك ، إن فى كل ذلك لغنًى عن هذا الفساد .

وسُئل رضي الله عنه في التصوف الإسلامي

فى كلمة تصوف

١ – يُروى عن أحد الصالحين أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه لفعل راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لهما إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يُلائم هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه : إن طائفة الصوفية ، لو تنزهت عن الفردية والشخصية لنزههم الله عن التسمية تنزيهاً مطلقاً . ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وضع لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : الصوفية .

وسئل الشبلى رضى الله عنه : لم سميت الصوفية بهذا الاسم قال : هذا الاسم الذى أطلق عليهم اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه ، ولم ينته الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت وأطرفها ما ذكره البيرونى من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة . يقول البيرونى :

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر فى الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة وبها سمى « الفيلسوف » فيلاسوفيا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سموا باسمهم ، ويرى البيرونى أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك فقال مفسراً ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم فنسبهم للتوكل إلى الصفة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبى ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصيِّر من صوف التيوس .

ورأى البيرونى هذا على طرافته ، لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية ، فالبيرونى يقول فى صراحة :

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم ، ورأى البيرونى إذن لا يستقيم ، إلاّ على أن هذا اللفظ ، نشأ فى الإسلام بعد أن عُرفت الكلمة اليونانية وعرف معناها ، وتداولتها

الألسنة ، ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى ، على ما يرى صاحب « اللمع » .

ولكن إذا كان رأى البيرونى لا يستقيم ، فإلام نتجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان ، وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً رأياً ، وينقضها جميعاً .

(ا) فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوّف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمّص إذا لبس القميص ، فذلك وجه . لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

(ب) ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى .

(جـ) ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

(د) وهناك قول أنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى . ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية ينتقد كل هذه الآراء فإنه إذن لا يرى الاشتقاق ، ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد للاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، لقد استعرضنا الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع قديماً ، فهل ترى هناك من جديد ؟

٢ – رأى الباحثين الحديثين فى أصل كلمة (تصوف) :

يقول الشيخ عبد الواحد يحى :

أما أصل هذه الكلمة (صوفى) فقد اختلفت فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة .

إنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية ، وأنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف ، « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكيم الإلهى » فيكون الصوفى الحقيقى إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية إنه : (العارف بالله) إذ إن الله لا يُعرف إلاّ به وتلك هى الدرجة العظمى (الكُلية) فيما يتعلق بمعرفة

الحقيقة ، وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى ، فيما نعلم ، بهذا الرأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، يستسيغه قوم دون برهان وينفر منه آخرون من غير ما حجة .

وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد لننظر إلى الباحثين فى هذه اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم أبا الريحان البيرونى ، فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى هو كلمة (سوفيا) اليونانية .

وقد قال بهذا الرأى (فون هامر) من المستشرقين ، واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين وأيده فى حرارة محمد لطفى جمعة .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون من نسبة الكلمة إلى الصوف فهو : أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير محمد لطفى جمعة : « يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام من صفة الحكمة والفضيلة » وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأى يعطون قوة وتأييداً لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة الأفلاطونية ، وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور/زكى مبارك هذا الرأى فى قسوة وفى منطق سليم ، لقد كان العرب – حسبما يرى – مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصُّوا عليه فى كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب فسموا الطب : (الحكمة) ، وكلمة (حكيم) لا تزال تؤدى معنى كلمة (طبيب) ، والفلسفة نفسها سماها العرب (الحكمة) وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » أما الحكمة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا لمحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان ثم يقول الدكتور زكى مبارك فى ظرف طريف ، وفى صورة من الجد هى تعبير ، أبلغ تعبير ، عن التهكم والسخرية : « على أنه ما الذى يمنع أن تكون (سوفيا) بمعنى الحكمة الروحانية جاءت من كلمة (صوف) وهى قديمة فى العربية » .

إن التصوف ، قديم جدًّا عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف كان علامة

التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأى ، على حد تعبير الدكتور/زكى مبارك : « ليس ضرباً من الإغراب » .

أما الفريق الثانى من الباحثين الحديثين – وهم أكثرية – فإنه يرى أن كلمة تصوف « مأخوذة من الصوف » .

٣ – إننى أرى – كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين – أن لفظ « التصوف ينتسب إلى الصوف ، وكما يقال : تقمص إذا لبس القميص – كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهذا الرأى : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والمرحوم الدكتور زكى مبارك ، والمستشرق مرجليوث .

وإذا كانت هذه الكلمة تنتسب إلى الملبس – وهو مظهر وشكل ورسم – فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال ، وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلى للاسم هو المراد مما وضع الاسم له ، إذ المعنى قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين ، كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى والأصل للاسم وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معروف لا شأن له بالمظاهر والأشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون فى قيمته أو فائدته فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين .

على أننى أرى – كما يرى كثيرون غيرى – وكما يثبت التاريخ أن هذه الكلمة (تصوف) لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهمه الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة الزاهدين والناسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس تمشياً مع فكرة دينية ، وإرضاء لشعور تنسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله . ويتعذب بها بعض الناس

إرضاءً لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقلي يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يأتي إلا بتحديد الرغبات والبعد عن الشهوات ، وذلك هو الزهد . وسواء أكان الزهد من الدنيا ديناً أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم العصور . فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد – من ناحية الملبس – في الصوف ما يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف والخشونة ، فهو متين رخيص لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ، ذلك أنه لا يبلى بسرعة فتصوفوا ، أي لبسوا الصوف ، وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، أو أطلق الاسم مصادفة فذاع وشاع . وأصبح الزهاد يعرفونه – في البيئات العربية – باسم « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد كانوا موجودين في العصر الجاهلي تديناً أو منطقاً ، وكانوا موجودين في صدر الإسلام تديناً أو منطقاً ، حتى إذا كانت رابعة ، وكان الجنيد ، وكان ذو النون ذاع التصوف ، وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين الصوف ، وأطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف ، هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف . ولم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ذهب في نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير هي التي هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ إنها تمت بصلة حرفية جرسية إلى كثير من الكلمات التي تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء ، وصلته ظاهرة ، والصف (الصف الأول في الجهاد) جهاد العدو وجهاد النفس (والصفة) صفة مسجد رسول الله ﷺ التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد .

والصفة (الصفة الجميلة) .

وسوفيا اليونانية هي التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص . وكان من التوفيق أيضاً : هذا الغموض نفسه في أصل الكلمة ، فما من شك في أن اختلاف المذاهب والآراء في أصلها يبين الكثير من معاني التصوف ومن مظاهره .

فى تعريف التصوف

يتجه الكثير من الناس فى تعريف التصوف إلى الجانب الأخلاقى ، وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية ، وعند غيرهم من الباحثين فى التصوف والمؤرخين له . ونذكر الآن عدة أمثلة نتبين منها هذا الاتجاه .

يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٣٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء » . وتروى الرسالة القشيرية : أن أبا محمد الجريرى المتوفى سنة ٣١١ هـ سُئل عن التصوف فقال :

« الدخول فى كل خلق سَنى ، والخروج من كل خلق دَنى » .

وأحد تعريفات أبى الحسين النووى ، للتصوف – كما تذكره تذكرة الأولياء ينفى عن التصوف أن يكون رسماً أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » إنه يقول : « ليس التصوف رسماً ولا علماً ، ولكنه خلق » . ثم يعلل ذلك بقوله : « لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .

ويحدد أبو الحسين النووى – فى تعريف آخر – الأخلاق التى يتكون منها التصوف فيقول :

« التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء » .

هذا الاتجاه الأخلاق فى تعريف التصوف شائع فى الشرق وفى الغرب ، وهو أيضاً شائع فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك – على الأقل – يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاق فى تحديد التصوف وتعريفه .

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو فى الجانب الأخلاقى الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين فى المحيط الأخلاقى وفى المجتمع . ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية .

ولو نظرنا فى البيئة اليونانية ، لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ، ومحاولا نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلى .

أو بالأسوة الكريمة . ذلك هو سقراط ، ومع ذلك فإن سقراط ، هذا لم يكن صوفيًا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية فإننا نجد الحسن البصرى رضى الله عنه من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلا صادقاً للشعور الأخلاق فى طهره وصفائه ، وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثالى ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفيًا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

على أنه من الطبيعى أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق فى أسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف .

ومن الطبيعى أيضاً أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفى فيما بين الأساس والثمرة ، فهى إذن ملازمة للتصوف ، وللصوفى ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف .

وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق وهو تعريف (التصوف) بـ (الزهد) ، وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : (التصوف) يفهم منها معنى (الزهد) ولا يفهم من كلمة (صوفى) إلاّ الزاهد فى الدنيا .

وما من شك فى أن الصوفى لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد فى الدنيا شىء والتصوف شىء آخر ولا يلزم من كون الصوفى زاهداً أن يكون التصوف هو (الزهد) .

ويخلط كثير من الناس بين الصوفى الزاهد والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة قالوا عنه إنه (صوفى) .

ولا ريب أن (الصوفى) كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من الصوفية .

ولخلط الناس بين الزاهد ، والعابد ، والصوفى ، حاول ابن سينا أن يفرق بينهم وبين أهداف كل منهم ، يقول : فى كتابه « الإشارات » :

١ – المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم (الزاهد) .

٢ – المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم (العابد) .

٣- المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق فى سره ، يخص باسم (العارف) .

و (العارف) عند ابن سينا هو (الصوفى)

ويتحدث ابن سينا : أن الزاهد قد يكون عابداً والعابد قد يكون زاهداً فيمتزج الزهد والعبادة فى شخص واحد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً (صوفيًّا) ولكن (الصوفى) لا محالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة بين زهد الصوفى وعبادته ، وبين زهد غير الصوفى وعبادته . وهذه التفرقة إنما هى فى الهدف أكثر منها فى الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفى ، إنما هدفه الاستمتاع فى الآخرة ، فهو نوع من المعاملة ، كأنه يشترى متاع الدنيا بمتاع الآخرة .

أما الصوفى فإنه يزهد فى الدنيا لأنه يتنزه عن أن يشغله شىء عن الله .

وعبادة غير الصوفى هدفها دخوله الجنة ، كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة ، هى الأجر والثواب ، فمثله كمثل الأجير يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره فى المساء .

أما عبادة الصوفى فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله لأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة ، وتقول السيدة رابعة رضوان الله عليها ، ما معناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفًا من نارك فألقنى فيها ، وإن كنت أعبدك طمعًا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم ، فلا تحرمنى من رؤيته » .

هذه المعانى الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله - إنما هى معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدهية فى محيطهم وفى جوهم : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » .

والتصوف إذن : ليس خُلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ولا عبادة لا غير ، وإنما هو يتضمن الخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة وبرغم كل ذلك فإنه شىء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شىء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً بل يعتبرونها من الأشياء اليسيرة التى تبعث

السرور فى قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى تدل على أنه لم يبلغ بعد التصوف قدماً ثابتة ولا درجات ممتازة .

ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التى تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقى لهذا الموضوع :

١ – أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوفى فقال : « من صفى ربه قلبه ، فامتلأ قلبه نوراً ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » .

٢ – الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف هو : أن يميتك الحق عنك ويحييك به .

٣ – أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف صفاء ومشاهدة .

٤ – جعفر الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف طرح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل الشبلى عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده .

وإذا نظرنا إلى تعريف الكتانى ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين ، هما اللذان – فيما نرى – يكوّنان – فى وحدة متكاملة – تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثانى : « غاية » .

أما الوسيلة : فهى « الصفاء » .

وأما الغاية : فهى « المشاهدة » . والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية ، طريق يتضمن نواحى كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التى كانت السبب فى هذه التسمية ، واتخاذها عنواناً على هذه الطائفة .

لقد قال جماعة : إنما سميت « صوفية » لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . وقال : بشير بن الحارث : الصوفى : من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفى : من صفت لله معاملته ، وصفت له من الله عز وجل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة (الصوفية) إنما تشير إلى الصفاء وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة ، ومادامت « إشارة » فإنه من التعسف أن يجادل إنسان فى أمر انسجامها مع اللغة وعدم انسجامها .

ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف ، أى إلى الصف الأول فى العمل على الوصول إلى الله والجهاد فى سبيله .

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فإنها تشير إلى أوصافهم من العبادة والتهجد ، وعدم الطمع فى الدنيا واستعدادهم الدائم للجهاد فى سبيل الله ، وتشير الكلمة للصفة : أى الصفة الكريمة التى لا يتعلق فيها القلب بالمادة ، وإنما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .

على أن هذه الوسائل التى تشير إليها الكلمة لها وسائل أخرى ، هذه الوسائل الأخرى منها ما يعبرون عنه بقولهم : (لا يَمْلِكْ ولا يُمْلَكْ) ، ويعنون بذلك أنه « لا يسترقه الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الجاه من الانغماس فى الملذات من الجرى وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف من الصفات التى تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف فى هذه الوسائل : أنها تؤدى إلى الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله عليه بها إن شاء .

هذه المشاهدة هى أسمى درجات المعرفة ، وهى الغاية النهائية التى يسعى وراءها ذو الشعور المرهف والفطر الملائكية والشخصيات الربانية .

فالتصوف إذن معرفة – أسمى درجات المعرفة بعد النبوة – إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام الغزالى فى تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول فى كتابه الخالد : إحياء علوم الدين .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة » .

ومن القصص اللطيفة التى تصور الوسيلة إلى المشاهدة فى سهولة ويسر القصة التالية :

قال ذو النون :

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام .

فقلت لها : من أين أقبلتِ رحمك الله ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . قلت : وأين تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . قلت : صفيهم لى : فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله علقت ... فما لهم هم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل فى بلد
إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

والمشاهدة التى هى الغاية (الصوفية) هى أيضاً تحقيق واقعى للتعبير .

الذى تنطق به فى كل آونة حينما تقول : (أشهد أن لا إله إلا الله) . فالشهادة هى غاية الصوفى ، وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ، ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولا أو ما يقوله حروفاً .

وما من شك فى أن تعاريف التصوف الكثيرة التى نجدها منشورة هنا وهناك ، والتى تكاد تبلغ الألف ، إنما فى أغلب الأحايين تعبر عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها – إذا ما كانت كذلك – إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو فى أخذها على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة ، أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف الكتانى : (التصوف : صفاء ومشاهدة) .

فى مصادر التصوف الإسلامى

يحاول المستشرقون وغيرهم من الذين يكتبون فى التصوف الإسلامى رد الحياة الروحية الصوفية فى الإسلام إلى مصدر أجنبى بحت ، هندى أو يونانى . . إلخ . أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال . فيرى أن العامل الأول فى نشأة التصوف إنما كان القرآن وحياة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية – هندية أو يونانية أو فارسية ، أو مسيحية – هى التى أثرت فيه وجعلته يتطور وهى التى أمدته من الآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته .

وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول فى صراحة : « وأما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة » . فإن المستشرقين ، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامى أو لا يشترك . والتصوف إذن على رأى بعضهم : « مذهب دخيل فى الإسلام » مأخوذ إما من رهبانية الشام وهو رأى « ميركس » وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود وهو رأى جونس .

ويأخذ المستشرقون فى مناقشة بعضهم البعض ، وهدم بعضهم البعض ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلا يذهب فى أول حياته إلى أن التصوف الإسلامى إنما هو مأخوذ عن أصل مجوسى .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن التصوف ، وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة ، يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ وسيرته .

ويقول الأستاذ الدكتور/أبو العلا عفيفى – بحق – ولما بدأت حركة طبع الكتب فى مصر ، والهند وغيرهما ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمى لا فى التصوف وحده ، بل فى جميع فروع الدراسات الإسلامية .

وتغير إذن رأى « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته وأسانيده ، وكما اعتبر فى فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسى للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر فى فترة حياته

الثانية أن أدلته وأسانيده فى المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه وجد فى فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث لثولك هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكلسون » أنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأهم هذه العوامل وأبرزها فى نظره ، هو الأفلاطونية الحديثة المتأخرة ، والتى كانت شائعة فى مصر والشام إلى عهد ذى النون المصرى ، ومعروف الكرخى .

وإذا أردنا تصوير رأى نيكلسون بقلمه فى هذه الفترة فإننا نراه يقول : « ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندى ، أو فارسى ، ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليونانى ، والديانات الشرقية ، أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . والديانة المسيحية والمذهب الغنوصى » . ثم يتحول نيكلسون عن هذا الرأى ، حينما يكتب مادة التصوف فى دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامى ، حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التى استعادت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التى تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية – يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً دقيقاً بإرجاعها إلى أصل واحد كالفيدانتا الهندية ، أو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة – أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة ، لا الحقيقة كلها .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول :

« وقد بين نيكلسون أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وقراءتهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويتابع الأستاذ ماسينيون شرح فكرة نيكلسون ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ، ونمت فى كنفه » .

وفكرة نيكلسون هذه : هى تقريباً فكرة نفس الأستاذ ماسينيون فماسينيون يرى أن التصوف

لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولا إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التى استمد منها التصوف نشأته وحياته .

كما يرجع إلى المصدر الثانى وهو الحديث ، والفقه ، وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير ، فهو الثقافة العلمية الأجنبية العامة التى وجدت فى البيئة الإسلامية فى عهودها الأولى .

هذه الاختلافات الكثيرة التى استفاض فيها الكاتبون وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتى لاتزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهى ، ولا تريد أن تنتهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه ، وهذا الخطأ فى وضع المشكلة مفهوم السبب والعلة .

لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية . والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب أو الشاعر أو المفكر على وجه العموم ، الذى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وربما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه إذن هو أثر البيئة الخارجية ، اللهم إلاّ إذا كانت له أصالته التى تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذى يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى ، وإذا أردنا أن نتحدث فى تحديد ودقة ، فإنا نرى أن المشكلة التى نحن بصددها تتفرع إلى أمرين :

١ – الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢ – الشعور الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحتة وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ، لابد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجوداً مهيئاً ، ويكفى لأن يسلك عملياً هذا الطريق كلمة أو فكرة ، أو إشارة أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلا فى سيره نحو الله تعالى : إنى ذاهب إلى ربى .

هذا العزم المصمم ، الذى يتمثل فى هذه الكلمة الكريمة ، لابد له من الاستعداد الفطرى ، الذى لا يغنى عنه فلسفة أفلاطونية ، ولا فيدانتا هندية ، ولا زرادشتية فارسية ، وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً للأفلاطونية الحديثة أولايكون ، وقد يكون على علم بعقائد الهند ، أو لا يكون ، فالمتخصص فى الأفلاطونية الحديثة لا يفيده تخصصه هذا ، ولا قلامة ظفر ، فى أن

يكون صوفيًّا ، وكذلك الأمر فى المتخصص فى عقائد الهند . وقد قرأ الإمام الغزالى كتب الصوفية أنفسهم ، ويحدثنا بذلك فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى – قدس الله أرواحهم – وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيًّا ، ولم يكن الإمام الغزالى بهذه الكتب ولا بمطالعته لفلسفة اليونان ودراسته العميقة صوفيًّا ، ولكنه تبين أن أخص خواصهم – على حد تعبيره – ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة والاشتياق بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وهذا هو جوهر الشعور الصوفى .

أخص خصائص التصوف شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه ، والذى لابسته تلك الحالة – على حد تعبير الإمام الغزالى – لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

المشاهد الصوفية إذن ليست ثقافة كسبية ولا يتأتى الحدث عن مصادرها الخارجية – أيًّا كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة – مسألة مصادر التصوف – إذن موضع البحث والنظر . والدراسة إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلاّ من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم فى تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التى نريد أن ننتهى إليها إذن هى أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفى ، والشعور الصوفى ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد من مصدر النور والهداية .

فى نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ مع نشأة الإنسان ، والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ، لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل . ولكنه من البديهى أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم ، ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ، إنها تعترف بصلته بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها ، والنبوة أعلى درجة من التصوف ، إنها تتضمنه ، وتزيد عليه أن النبوة تتضمن الولاية ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

(إن الله اصطفى آدم ونوحاً) .

والأديان – على وجه العموم – لا تنتهج نهج التطور بين النشوئيين الذين يرون أن العقل الإنسانى درجات مختلفة ، وأن تطلعه للمعرفة الإشراقية إنما نشأ متأخراً أى عندما نضج وتهذب . والحق أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات تتابعت رقيًا ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل – باعتباره عقلا لا باعتباره معرفة – مكتسبة – هو ، هو ، فى بنى البشر باديهم ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلا من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته فى أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ، لنشأ نشأة أوربية بحتة .

وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلا من أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنسانى : هو ، هو منذ أن وُجدت الإنسانية إلى الآن ، والذى اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، هى وحدها التى تميز المتحضر عن البدائى ، والتى تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

ومما هو جدير بالذكر أن التصوف – فى وجوده وتحققه – غير محتاج إلى معارف مكتسبة طبيعية أوكيمياوية أوفلكية ، أوغير ذلك ، إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله . ونفخ فيه من روحه .

هذه النفخة الإلٰهية ، أو هذا السر الإلٰهى فى الإنسان ، أو هذه الروح التى بين جنبيه ، أو هذا القلب الذى منحه الله إيّاه ، إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد فى طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التى تؤدى إلى الاتصال بالملأ الأعلى فإنه ينتهى – بتوفيق الله – إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعنى المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذى يراود الكثير من النفوس التى تريد أن تتنزه عن المادة ، وأن تسمو على الحس ، وأن تصبح ربانية .

وهذا النمط من الناس موجود فى كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعى أنه من الندرة بمكان « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه إلاّ الواحد بعد الواحد » على حد تعبير ابن سينا .

ومن المعقول أن هذا النمط وُجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب فطرة فى بعض الطبائع .

وجد التصوف إذن منذ أن وُجد الإنسان ، وفيما قبل الحضارة اليونانية كانت المسائل – فيما يتعلق بالمعرفة – تسير سيراً طبيعيًّا ، فقد كان هناك ميدان للحس يجول فيه كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل يبحث فيه كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف فى الحكمة الهندية مثلا ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط فى تلك الحضارات أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملا ، لا لبس فيه ولا غموض ، كانت محددة فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة فيما يتعلق بالموضوعات .

وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرتهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله ، بل حدث فى بعض الأحيان أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هى الطبقة التى يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها .

وطبقة البراهمة عن الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولا تزال هذه الفكرة للآن – فكرة تحديد ميادين المعرفة وتحديد وسائلها – موجودة فى الهنود المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول

نوعاً ما بين ميادين المعرفة ، وبدأت بالتالى ، تضطرب الأمور فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارات اليونانية القديمة نفسها – فى بعض صورها – كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة . هندية كانت أو مصرية .

فهذا مثلا « فيثاغورث ومدرسته » كانوا يسيرون فى المعرفة على أسس صحيحة .

ولكن وجد بجوار فيثاغورث من انتهجوا النهج العقلى فى معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط حتى كان أرسطو ، فذهب بهذا الخلط إلى أقصى مداه واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعانى الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل فى مسائل ما وراء الطبيعة انحراف يؤرخ بالعصر اليونانى ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفيًّا فى العصر اليونانى ، وفيما تلاه من العصور على كثير من ذوى البصائر النافذة الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمة والذين اتخذوها دثاراً وشعاراً .

والذين عملوا بها وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . . فقادتهم إلى أن يكونوا ربانيين ، لقد قادتهم إلى الأمل المنشود شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد فانضووا تحت لواء الآية الكريمة :

(شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة وأولو العلم) .

إنهم أولياء الله ، إنهم الصوفية . .

فى التصوف والدين الإسلامى

هل للتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته روحية : رضا الملأ الأعلى وحب الله والاتصال به والفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها أو إلى بعضها الصوفى .

لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال .

إذن التصوف : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضحناها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله لا يتأتى إلا عن طريق الوحى المعصوم ، فلابد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً .

وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف أبداً ما لم يكن هناك اتباع كامل لشريعة صادقة ، وأن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداءً تامًّا برسول الله ﷺ ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخرة وذكر الله كثيراً) .

ويمكننا أن نقول فى صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف إلاّ فى المحيط الإسلامى ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا فى النصوص الإسلامية ، إن القرآن الكريم كلام الله ، وهو الآن كما كان أيام رسول الله ﷺ ، وقد عرف ذلك بعض الغربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام مستمسكين بوحيه ، سائرين على نسق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره ، مجتنبين نواهيه . وساروا فى الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم ينطلق من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق فإنه لا يصل إلى شىء من درجات الصوفية ، إن الصوفية لا تتأتى إلاّ بالاقتداء والقدوة المعروفة الآن سيرتها فى صدق ويقين هو رسول الله محمد ﷺ ، إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله فى صدق ، لقد تناقش الناس كثيراً إلاّ فى كون محمد ﷺ هو القدوة لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو أو إلى الكمال الروحى ، ليكون عارفاً بالله . وليس من عناصره فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول ، بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم ، وما اتهامات أعدائهم إلاّ اتهامات أعداء .

هذا هو المحاسبى ، الذى لا يشك فى أنه من زعماء الصوفية ليست عنده فكرة الاتحاد أو الحلول أو ما شاكل ذلك من حالات السكر التى يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم ، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير فيرون فى النهاية أنه :

(فأينما تولّوا فثم وجه الله) .

و (إن الله معنا) .

وإذا كان الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسى – كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبى ، أو الغزالى ، أو رابعة العدوية ، أو كثير غيرهم – ليس إلا الجهاد لرضاء الله ، وتزكية النفس حتى تعرف الله به . إذا كان الأمر

كذلك فإننا – نعتقد – ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين – أن محمداً ﷺ كان أول قدوة لصوفية الإسلام .

بقى الحديث عن التصوف فى القرآن ، وقد كثر الكلام فيه أيضاً ، ومحط النزاع هو أن القرآن كتاب دنيا وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول فى صراحة وإيجاز : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) .

أما التصوف فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير .

والحقيقة أن كلا الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن كتاب دين ودنيا ، ولكنه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ، والصوفى : ليس رجل آخرة فقط لأنه يصارع فى الحياة صاعداً بها نحو الكمال .

أجل إن القرآن يدعو إلى ألاّ ننسى نصيبنا من الدنيا ، وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية . كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة فى نظر القرآن خير وأبقى وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر ، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن ، هم الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، إلى آخر ما فى القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم هى حقًّا الحياة الدنيا ، وأن الآخرة خير وأبقى ، والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة ، وهو جهاد فى سبيل الله ، وقد رفع الصوفية رايته خفاقة فى كل العصور .

أما أن الصوفى رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، أو على الأقل عدم التحديد ، فهذا الصوفى يتزوج ، ويدعو هو الآخر إلى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب خير من أن يتكفف الإنسان الناس أعطوه أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن .

(وللآخرة خير لك من الأولى) .

فمعنى إيثاره للآخرة إذن إنما هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك فى أنّ القرآن الكريم والرسول ﷺ يطويان جميع المسائل ، ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصبغة الله ، يريد أن يكون كل عمل إنما

يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون الأعمال بهذا عبادة . وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهيًّا يتخلق بأخلاق الله .

فى قضية التصوف

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب ، بل إن النزاع بين الفقهاء و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا حرباً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً للآراء ويرون أنه وحده الهادى إلى الرشاد .

ولم يهدأ الصراع قط بين « الصوفية » وغيرهم – فقهاء كانوا أو عقليين – على مر الزمن .

فما هى مآخذهم على « التصوف » ؟

أولا : يرى « الفقهاء » ويشاركهم فى هذا الرأى كثير من الباحثين أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته ، وإرادته ، موجودة فى القرآن الكريم ، فى وضوح لا لبس فيه ، فإذا ما تركناه وذهبنا نلتمسها فى متاهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل فى مجاهل الطريق .

ثالثاً : التصوف ليس فى متناول الجميع ، فهو إذن أرستقراطية تتنافى مع روح الإسلام الديمقراطية .

ولأن « التصوف » ليس فى متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله – سبحانه وتعالى – منحنا العقل لنهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه ، كما يفعل الصوفية فقد احتقرنا أجلّ نعمة لله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين فى محيط ما وراء

الطبيعة وهم يبرهنون على وجود الله عقليًّا ، ويرون فى براهينهم غناءً ودقة ، ويقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله فى القرآن الكريم على استعمال العقل ، والآيات التى تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هى أهم ما يأخذه منكرو التصوف على التصوف و « الصوفية » وأما ما عداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التى يلصقونها بـ « التصوف » . وليست منه ، فإنا نضرب عنها صفحاً ، وذلك أننا نتحدث عن (التصوف) الحقيقى والصوفية الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع :

ونريد الآن أن نبين – فى إيجاز – بعض ما يراه « الصوفية » فى هذه الاعتراضات ، لنتبين الحق فى هذا الغموض والاضطراب والخلط الذى يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج – فى نظر الصوفية – إلى كد الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة فى نظر الصوفى ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله ، إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هى انتقاص من جلاله سبحانه ، فمتى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل على وجوده؟ إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية – شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة – لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب فى إلحاح وفى قلق ، وفى تحمس جارف ما وراء إثبات وجود الله ، النفس الإنسانية هكذا خلقت ، فكما منح الله الإنسان عقلا كبيراً ، وذكاءً حاداً ، ونفساً متطلعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل فى البحث فيما وراء الطبيعة .

قالوا : إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، كل هذه مسائل هينة . لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة ، ولما كان علم الكلام ، ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة . ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ، ولن يتأتى لها – عن رغبة أو رهبة – أن تقتصر على ذلك .

المشاكل التى يُراد حلها :

كيف خلق الله العالم ؟ أخلقه من العدم المطلق ؟ فكيف إذن ينتج شيئاً من لا شىء ؟ إن شيئاً من لا شىء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته ، أم خلقه من مادة كانت موجودة ؟ فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان الله ، والمادة .

والله لا نهائى الذات ، ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو كل شىء فى كل شىء ، وبهذه النظرة يخاطب « شلى » الله سبحانه وتعالى — فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعبها النسيم ليست بضعة منك (جزءاً من أجزائك) كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية » ويقول : « إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان بها يحيى كل موجود وهى هو »[1] .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماء ، ولا برًّا ، ولا بحراً ، فهى إذن محدودة ، لأنها ما عدا هذا الكون .

ثم إن الله — زيادة على ذلك — لا يمكن أن يوجد فى كل مكان والله عالم . أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما يكون وبما هو كائن على أنه سيكون ؟ أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟ أيسيطر الزمن على علم الله ؟ أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه فى حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقًّا أن نفهم أن الله فى حاضر لا يزول مع بداهة شعورنا بالماضى والحاضر والمستقبل .

والله عالم : كما قلنا ، أهو عالم بذاته فحسب لأنّ علمه فى شرفه وسموه وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته سبحانه وتعالى ؟

أم أن علم الله يتعلق بذاته وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات والجزئيات على الرغم مما فى الجزئيات من نقص وتفاهة ؟ ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر ؟ والله قادر : أهو قادر على كل شىء ؟ أقادر هو على

---

(١) عن مبادئ الفلسفة ، ترجمة الدكتور أحمد أمين .

الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل – كما يقول علماء الكلام معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال .

والله مريد :

أيريد الخير والشر ؟ فلِمَ الحساب والعقاب أو المثوبة إذن ؟ وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر فى هذا العالم رغماً عنه ؟ أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟

أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟

إن رضاءه بالشر يتنافى من كماله ، وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟ أيحب الله أن يُعصى ؟ أم أنه يُعصى رغماً عنه ؟ وصفات الله عامة ، مطلقة شاملة لا نهائية ، إنه رحمٰن رحمة مطلقة لا نهائية ، ورحمته وسعت كل شيء وهو جبار ذو جبروت لا نهائى ولطيف لا حد للطفه .

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق مع أن البداهة تقضى بأن تنفى كل صفة منهما وجود الأخرى . وإنه لمن الرائع حقًّا : أن نرى ما يريد أن يراه الشاعر إسماعيل صبرى حينما خاطب الله قائلا :

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار

أيمكننا أن نرى حقًّا غضب اللطيف الذى لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذى لا نهاية لجبروته .

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ إن صفاته كلها مطلقة شاملة فهل إسماعيل صبرى محق إذن حينما يقول :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك فى ، السموات العلا والأرض شبراً خالياً للنار

وكيف يلقى الله بالمعرفة إلى رسله ؟ بأى لغة يخاطبهم ؟ وكيف ينزل الملك على رسول الله فيراه ويسمعه فى حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه .

ومن أين يأتى « المَلك » أمن السماء ؟ ولمَ ؟ مع أن الله فى كل مكان . إن مشكلة الوحى ، هى الأخرى ، من المشاكل التى استنفدت الكثير من المداد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياة أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ونلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه فى حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة ومن طاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟ أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح ائتلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة فى دقة دقيقة وفى تحديد محدد . والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسى وروحانى ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحانى بحت .

وما هدف الله فى إيجاد هذا العالم أخلقه ليعبده (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، أم خلقه ليعرف كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق فبى عرفونى ؟ » .

إن كمال الله غنى عن أن يكون فى حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطاً (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

والحكمة : إنما هى تعبير عن الغرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لِمَ أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التى أثارت العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، وبعدها من المتشابه . قال رحمه الله فى رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم ، أو فى الجنس كالقدرة والاختيار ، والسمع والبصر .

وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها فى الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين . ثم أفاض فى الفضاء السابق ، وفى الاختيار الممنوح للإنسان وجادل الغالبين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم أخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداعاً ، وإنما هى موجودة تصادفك فى الفلسفة ، وتصادفك فى علم الكلام ، وهى موجودة قديماً حديثاً ، وهى بعض من كل : كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحواس والملاحظة والتجربة والعلم الحديث وما فيه من طبيعة وكيمياء أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقًّا عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى .

وعقل من ؟ أعقلى أنا ، أنحتكم إلى عقلى وهو – فيما أرى – ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصبية أيرضى بعقلى حكماً ؟ أم نحتكم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟

وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصبية . ولكن إمام « الشيعة » بحسب نظرهم – معصوم ، وهم يلجئون إليه فيما ادلهم من الأمور ، ولن يرضوا بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة أنستلهمهم الرشد فى هذه المسائل .

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، إنه على الأقل – فيما يرون – معصوم فى الأمور الدينية ، ورأيه هو الفيصل فى كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضى آراؤه البوذيين أو المسلمين أو اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أو من اختصاص أصحاب العمائم ؟ أحلُّها محصور فى السوربون أم هو من اختصاص الأزهر ؟ إن هذه المسائل شغلت الرءوس على اختلاف أنواعها ، من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمائم ، إلى لابسى

القبعات السوداء ، إلى أرباب الضفائر إلى ألوف تصببت عرقاً من البحث[١٠] إلى أى هؤلاء نلجأ فى حلها ؟ لقد :

تحيرت البدو ماذا تكون وضلت بوادى الظنون الحضر

وقد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » ؟

وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أو إلى عقل « ديكارت » ؟

هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسى ؟ أو إلى عقل « فيلسوف مثالى » . أو نلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ أللنظام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك « وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل نتبعه ؟

أو نتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ أنتبع « الشيخ محمد عبده » أم الشيخ (عليش) إن كلاً منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان فى شىء من آرائهما سواء فى ذلك الوسائل والأهداف فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول : « إن العقل الإنسانى مركب تركيباً يؤسف له ، فإنه مع شغفه ، بالبحث فى مسائل لا تدركها حواسنا لم يستطع أن يكشف عن معمياتها » .

أما الإمام « الرازى » فإنه يقول فى عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلامه الحكيم ، ولقد تأملت الطرق « الكلامية ، والمناهج الفلسفية » فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ويقول فى وصيته التى أملاها على تلميذه إبراهيم بن أبى بكر الأصفهانى : « ولقد اختبرت الطرق الكلامية « والمناهج الفلسفية » فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن الكريم .

والإمام الرازى هذا ، وهو الذى يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » فاق أهل زمانه فى علم « الكلام » والمعقولات ، وعلم الأوائل .

---

(١٠) من مبادئ الفلسفة . ترجمة الدكتور أحمد أمين .

وليس « كانت » وليس الرازى إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى فى النهاية مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :

يارب أهلنى لفضلك . واكفنى شطط العقول ، وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس الدينى المرهف وتؤرق أعينهم وتشغلهم – مصبحين ممسين ، ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم عليه السلام إذ قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن قال : بلى : ولكن ليطمئن قلبى) .

فما هى الوسيلة التى يروون عن طريقها غلتهم ، وتشفى صدورهم وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده ، عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين أن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب يحارب بعضه بعضاً ، بل يكفِّر رجاله بعضهم بعضاً . إلام نتجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله معترفين بفضله فى ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه فى ما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه فى غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد ، وإذا ماتوجهنا إلى القرآن نسترشده فيما ادلهمّ وخفى ، فماذا نجد ؟ نجد أن القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يرشد فى مواطن عدة إلى نوع من المعرفة ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صوره وأعمها وأشملها هو الرؤيا ، فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى:(إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) .

ويعتقد والده فى رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة:(يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) .

وحينما سجن العزيز يوسف:(ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه) وذهبا إلى يوسف واستنبآه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين:(نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى ، ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك:(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى فيرى أن نفس « الملك » تكشف لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه فى صورة رمزية ويعبر « يوسف » الرمز قال : (تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً ، ذكَّر « يوسف » أباه برؤياه السابقة وقال : (يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جلعها ربى حقًّا) .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة وهو الرؤيا فى النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحاً وإما فى صورة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًّا عليه ، كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب ، لأنكر وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[١] .

والنبوة هى الأخرى ، ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، ليست استقراء ناقصاً أو تامًّا ، وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله .

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية ، إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعنى الملائكة والقرآن يحدثنا أيضاً فى

---

(١) الغزالى فى المنقذ من الضلال .

أسلوب قصصى شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا موسى فى البحث عنه جهده حتى وجده وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته فقال له العبد الصالح ، إنك لن تستطيع معى صبرًا . وألح موسى .

وقبل العبد الصالح – فى النهاية – على شروط اشترطها ولم يكن فيها رفيقاً « بموسى » أو عطوفاً عليه .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لاتنسجم مع العاطفة ولا مع المنطق ولا مع القانون .

ولم يكن موسى يحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شىء ، ولم يجد موسى إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح وقد أخل موسى بالشرط – مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة (هذا فراق بينى وبينك) والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق .

(وإذ قال موسى لفتاه ، لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُباً ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً ، قال : ذلك ماكنا نبغِ فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى ، هل أتبعك على أن تعلّمنى مما عُلّمْتَ رُشداً . قال : إنك لن تستطيع معى صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تُحِط به خُبْراً . قال : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً .قال : فإن اتبعتنى فلا تسألن عن شىء حتى أحدِث لك منه ذكراً .فانطلقا حتّى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً ، قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكراً ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ؟ قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال : لو شئت لتَّخذت عليه أجراً .قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنَين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كَنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً[1]) .

هناك إذاً طريق للمعرفة غير الحس وغير العقل . ما السبيل إليه ؟

فى الطريق إلى المعرفة

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى فتفيض عليها نفحات وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق الصواب :

ولكنّ الكثيرين يشكون فى هذا الطريق – طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر – الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون فى إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة والرسالة والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة .

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين قاله فى ساحة السربون لأساتذة الجامعة وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم فى « ما وراء الطبيعة » .

سيتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟ إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

---

(١) سورة الكهف ٦٠ – ٨٢ .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان .

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده إنه لمن الغريب حقًّا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكاً إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه – فى قليل أو كثير – ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة نفسها » إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة .

وهذا الرأى نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين فى كل عصر .

إنه رأى الفارابى ، ورأى ابن سينا ، ورأى الشيخ محمد عبده . .

يقول الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الإنس بما يقارب تلك الحال ، حال الاتصال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال : لا تنكرها عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما حدث به الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف » .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة .

« ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غرروا بهم ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول ، وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون حالهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »[1] .

---

(١) رسالة الشيخ محمد عبده فى التوحيد ط صبيح ص ٦٩ ، ٧٠ .

التصوف أرستقراطية :

مما سبق نتبين أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة له ميدانه . وأن العقل وسيلة إلى المعرفة له ميدانه هو أيضاً .

والبصيرة التى سبيلها تزكية النفس – وسيلة إلى المعرفة لها ميدانها ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة و « الصوفية » أقل الناس تأثراً بالعواطف على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه فى الله وهو المقصود بـ « الذكر » وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصًا لا يمكن سلوكه إلاّ لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التى يجب توافرها فى السالك ، علمنا النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم التصوف قائلين :

« التصوف » إذن : أرستقراطية .

وهذا اعتراض لا قيمة له فالتصوف حقًّا (أرستقراطية) . وطبيعة الأمور تأبى ألا يكون « أرستقراطية » إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من نور .

الديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى فى كل شىء فهى أسطورة من الأساطير ، فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من الأحوال ، إنه لا يوجد بين الحيوانات فى الغالب ولا يوجد بين بنى آدم فى المدن أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ولا فى قوتهم الجسمانية ، ولا فى ذكائهم ولا فى دهائهم ومكرهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم ، ونظام « الطبقات » الذى يسود فى (الهند) والذى ننتقده ونشنع عليه إنما هو النظام الواقع فعلا فى جميع أقطار الأرض .

والروس الذين بلغت الديمقراطية عندهم حد الفوضى فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد

بذكائه وقوته ، والمسود بغبائه وضعفه و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » : وهو فيلسوف نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف ، ففى جمهوريته طائفة الإنتاج ، وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرهة والشهوة الغلابة ، وطائفة الجند ذات العاطفة القوية .

وطائفة القادة معدن العقل والحكمة ، والبصيرة والإشراق .

التصوف نهج الخاصة :

التصوف « أرستقراطية » وهو فى ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص الذى يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم ، ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة التصوف يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة أن ينهجوا نهج السادة المختارين معدن الصفاء والحكمة .

« الناس معادن » على حد تعبير الرسول ﷺ ، ومعادنهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبى ، وفيهم المعدن الفضى ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول فى رسالة التوحيد « مما شهدت به البديهة » أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفِطَر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى ما لا يحصره العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً ، فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاهد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه تورثهم بادئ الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أنّ منهم الأنبياء ومنهم الصديقين ومنهم الشهداء . . إلخ .

قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً) .

لا يدعو (الصوفية) إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين و (جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد) .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة بيد أن « الصوفية » إذا كانوا لايدعون الناس جميعاً إلى (التصوف) فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة ، يجعل الناس إخواناً متعاونين متكاتفين .

تفاوت الناس فى فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، ولا يتيسر لكل إنسان ، فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند (الصوفية) إن (الصوفية) لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة الإنتاج ناجية .

ونحن جميعاً نعلم أن التحقيق الإسلامى ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس . إن إيمان (أبى بكر) رضوان الله عليه ، ليس كإيمان غيره ، والرسول ﷺ ، يمثل تفاوت الطبائع فى الاسترشاد فيقول : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا ووزعوا .

وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة عندهم فى سبيل الله ، يبذلونها عن رضاً لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع إفريقيا وأقطارها التى لم تفتحها الجيوش الإسلامية .

وقد كان لهم الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى (أندونيسيا) وغيرها من الأقطار النائية . وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية ، مكرساً حياته لصد غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة . يقول ابن سينا عن الصوفى (العارف شجاع) وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت . (التصوف) روحانية ، والروحانية قوة ، لا يمارى فى ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام فيكفينا فى الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء :

أولها : للشيخ عبد الواحد يحيى « وهو فيلسوف مسلم صوفى » .

والثانى : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » الذى يعتبر أعظم باحث فى التصوف بين المستشرقين فى العصر الحاضر .

والثالث : لصاحب كتاب « التبصير فى الدين » وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

ومؤلفه هو « الإمام الكامل الفقيه الأصولى المفسر الإسفراييني » ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن التصوف يكون جزءاً جوهريًا من الدين الإسلامى ، إذ إن الدين يكون ناقصًا بدونه ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى « يونانى » أو « هندى » أو « فارسى » وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض (الاستعارة) ذلك بأنه مادامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويقول الأستاذ (مسينيون) وقد بين (نيكلسون) أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها « متصوفة » المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث ، وتقرئتهما

وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وما حل بالأفراد من نوازل .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به أهل « السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

علم (التصوف) والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمى أنه لم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » و « الروافض » و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء وكلامهم على التعليم والتفويض والتبرىء من النفس والتوحيد والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

التصوف والعصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان » فى القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس – شرقيين وغربيين – منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث معتقدين أنه سيحل كل مشكلة فى الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذى غيّر اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يفسر لنا بأسلوبه الرصين .

ما الذى غير اتجاه العقل الإنسانى فى القرن التاسع عشر؟ الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً فى دعواه ، يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

ولا نريد أن نقول : إن العلم أخفق فى تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره كلا ، بل نريد أكثر من ذلك ، نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة فى الأثير ، وما الأثير؟ شىء كلا شىء ، وليست له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا فى هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس ، وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر .

كلا – أيضاً – لأن الفكر محدود ككل شىء فى الإنسان ، فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى من وسائل الحس ووسائل التفكير .

لابد لها من البصيرة أو من البديهة أو من الإلهام ، وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين ، فهذه هى المعرفة التى يتعاون عليها الحس ، والفكر والإلهام . ا هـ .

أما بعد/ فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من نزاع ، وإنى لعلى يقين من أن نظرة الإنصاف ستزيل ما فى نفوس خصومهم من حدة فيتلاقى الجميع – فى رحاب المودة التى يدعو إليها الصوفية – إخواناً فى الله متحابين .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

فى كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم فى الميدان الدينى وفى الميدان السياسى وفى الميدان العلمى ، ونجدهم كذلك فى ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق ، وكما لا يضر الدين ولا يضر العلم أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون . فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة وسمات معينة وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين فكذلك الأمر فى الجانب الصوفى .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التى لم تتعمق فى الجانب الدينى عموماً ، ولا فى الجانب الصوفى خصوصاً .

هذه البدعة ترى أن الشخص الذى وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون ، ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت فى العصر الحاضر ، بين رجال درسوا القانون والتشريع يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التى وصلتهم فسترى عجباً عجاباً ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التى يستحضرونها فتلبس – فيما يزعمون – جسم الوسيط وتتقمصه وتكشف لهم عن الغيب من أزلة إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته ومن مشرقه إلى مغربه .

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح فى وسطهم يتحدثون عنها مصبحين وممسين حتى لقد أصبحت دينهم الذى لا يدينون بغيره ولا يتلقون الوحى عن سواه وأصبحت كلمة الأرواح عندهم تحل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ومن أساطين العارفين ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم فى فترة من الفترات أنه من كبار الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ثم كان فيما بعد محمداً ﷺ ثم تخلص من البشرية جملة فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه والأرواح التى يستحضرها تؤيده فى كل ما يزعم ، ولا ترى هذه الأرواح – كما لا يرى هو – فى ذاك شذوذاً ولا تناقضاً وصدق الله تعالى إذ يقول فيه وفى أمثاله ممن يتصلون بالجن وينحرفون عن سواء السبيل :

(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) .

ولعلك تتساءل هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟ وجواب رجال التصوف فى ذلك حاسم قاطع ، ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة لأنها تَعَاملٌ مع الجن والشياطين ويتذكرون فى هذه المناسبات قول الله تعالى :

(هل أنبئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين ، تَنَزَّلُ على كل أفّاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

وقوله تعالى : (ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين ،وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف والضلال والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه وليس من همنا أن نبين نشأتها التاريخية فى العرب بين الأوساط اليهودية التى روجت لها وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة « تحضير الأرواح » .

إن عرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة إسقاط التكاليف الشرعية وهى مسألة لم يبتدعها من يزعمون التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل ، فى كل مشكلة من المشكلات ، إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم أثنان نجدهم سواء فى ذلك – القدماء منهم والمحدثين – ينكرون الفكرة إنكاراً تامًّا ، ويرونها زيفاً وضلالا وانسلاخاً عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى هذا الموضوع ثم نفصل نوعاً ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى وهو ،زعيم علم من زعماء الصوفية فى العصر الحديث .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلا مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل ، المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه » .

ومن كلام أبى يزيد :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

ويقول سهل التسترى معبراً : عن أصول التصوف « وأصول طريقنا سبعة » التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق ، ويقول الجنيد – سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى – :

« ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال : « علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » . وقال : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالى فإننا نجده يقول فى شىء من التفصيل فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ،ونحن نعرفك علامة له، وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلاّ من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض » .

فإن قلت فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟ وأقول لك : اعلم أن ذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا : « لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان . . وهو الحق » .

فإذا ماانتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه إننا نجده يقول : «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة .

والصوفية يتبعون فى كل هذا النصوص القرآنية والسنة النبوية القولية والعملية للرسول ﷺ . وهم يعلمون – لا شك – البديهات التاريخية من أن الرسول ﷺ كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء وخير ما نختتمه به إنما هو الحديث النبوى الكريم : سئل النبى ﷺ : عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله فقال : « كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى[١]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا فى الغرب الحديث .

ولا شك فى أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى فليس ذلك جوهر بحثنا هذا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أويهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ولو من جانبها العملى ، ذلك أن الأكثر وهو التصوف يتضمن الضرورة الأقل وهو الشريعة .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى إلى الشريعة من حيث عدم أهميتها وعلى الخصوص أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له . . هذه النظرة تتضمن ولو نظرياً تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه ، وفى هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً أن يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة الاستعداد الصوفى ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه بالنسبة للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعى أن يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ،

---

(١) الشيخ عبد الواحد يحيى من كبار المفكرين العالميين ، نشأ فى فرنسا كاثوليكياً ، وانتهى به البحث إلى اعتناق الإسلام والأخذ بالتصوف ، ومارس التصوف نظرياً وعملياً ، حتى ليعد من أكبر الحكماء فى العصر الحديث . وقد توفى بالقاهرة منذ سنوات ، وترجمت كتبه إلى اللغات الحية . وأثره فى الغرب كبير إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات فى أوربا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه .

وهو فى هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظره فحسب .

وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم أعنى التزام الشريعة . قلنا إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا .إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق .

ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشىء واحد أحدهما خارجى والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد فى الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفى وهى مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية مجرد خداع ؛ ومن البديهى أن هذه الجماعات من وجهة النظر الصوفية الصحيحة ليست على شىء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر فى الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هى بناء فى الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك ، فإنه كلما سار التصوف فى طريقه واستغرق فيه بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى . ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى ، ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى ويحياها إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى ، على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يتصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك بلا شك نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التى يؤديها ، أريد أن أقول : إن الأعمال فى نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية ، وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها وقد يكون العمل واحداً فى نوعه يؤديه شخصان ، فيوصف عند أحدهما بأنه دينى ، وعند الآخر بأنه دنيوى ، فإن كان القصد « لله » فالعمل دينى ، وإن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أوامرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

ومن البديهى أن الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال وأن مسألة الهجرة فيه تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا بل ، لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً . وهانحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى أن الغرب حاليًّا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد – ونحسن على يقين من الأمر – لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تامًّا .

فتوى للإمام الغزالى فى التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

كتب له بعض الزائفين :

ما قوله متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

مع كون ظاهره معموراً بأحكام الشرع وآدابه منزهاً عن مآثمة ومخالفاته ، ويجد فى الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه أن المقصود من التكاليف الشرعية والرياضات الدينية هو الفطام عما سوى الحق كما قيل لـ « موسى » عليه السلام .

فإذا تم الفطام وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره انقطع عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية وإلى مراعاة الظاهر .

وهذا الرجل ينزع يده من التكليف الظاهر ، ولا يقصر فى أحكام الشريعة لكن الاعتقاد الذى كان له فى الظاهر ، والتكاليف تناقض عما كان فى الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة لا لأجل الخلق وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

« إن المقصود من الداعى والدعوة حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الداعى والواسطة .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعى أبداً لا محالة .

فربما قال الداعى قد بين ما احتيج إلى بيانه وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته فى زوائد وإيرادات لم تكن المراجعة فى هذه الحالة فيقول :

ما هو طبيب علتى فى هذه الحالة ، لأنه غاب عن إمكان المراجعة فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :

الجواب وبالله التوفيق : ينبغى أن يتحقق المريد هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله ، والتجرد له فهو مُصيب فى ظنه إن ذلك مقصود ومخطئ فى ظنه أنه كل المقصود ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى فى الفرائض التى استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام تقتصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ووضع فيه

شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية على ولده أن لا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين وطلب فى البر . والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة ،

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لا شك أن والدى أوصانى بحفظ هذا الحشيش لطيب رائحته والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق هذا المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ظهرت من بعض نقب القصر حية هائلة وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الولد برائحته وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيّات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغترّ بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى :

(ذلك مبلغهم من العلم)

وقال : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .

والمغرور من اغترّ بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه ، فهو منتف فى نفسه . ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى كذلك القصر ، وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيها وقيدها بطريق خاصة المكتوبات والمشروعات .

بقوله سبحانه : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقوله تعالى : (كتب عليكم الصيام) فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى استخراج الحيات بل فى استسخار الجن والشياطين وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر فى استمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ، ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة إذا كوشفت السر بها من اللوح المحفوظ . فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد وسجودين وعدد مخصوص وألفاظ معينة من القرآن متلوة ، مختلفة المقادير عند طلوع الشمس وعند الزوال ، تؤثر بالخاصة فى تسكين التنين المستكن فى قلب الآدمى

الذى يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعدد أخلاق الآدمى يلدغه وينهشه فى القبر متمكناً من جوهر الروح وذاته أشد إيلاماً من لدغ من القلب أولا ثم يسرى أثره إلى الروح وإليه الإشارة بقوله ﷺ :

« يسلط الله على الكافر فى قبره تنيناً له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين فى خلق الآدمى ، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة ، فهى المنجية من المهلكات ، وهى أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

(وما يعلم جنود ربك إلا هو)

* * *

فإذاً من التكليف غرضان :

أدرك هذا المغرور أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع « لأبى حنيفة » مثل هذا الظن فى الفقهيات فقال : « أوجب الله فى أربعين شاة ، شاة وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آلة فى الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود .

فقال الشافعى رضى الله عنه .

صدقت فى قولك : إن هذا مقصود وركب متن الخطر فى حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فمم تأمره إذ يقال له يوم القيامه : كان لنا سرّ فى إشراك غير الفقير مع نفسه وفى جنس ماله كما كان من يرمى سبعة أحجار فى الحج يؤدى بدلها خمس لآلئ أو خمساً أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحص التقييد فى الحج ، وأن يتمحص المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحيل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً فى الزكاة فتكون إزالة الفقر والسر غير معقولة ؟

وزاد أبو حنيفة على هذا فقال :

المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان وبين قوله « الله أعظم »

فقال الشافعى :

وكما علمت أنه لافرق فى صفات الله بين العظمة والكبرياء مع أنه تعالى يقول : « العظمة »إزارى و « الكبرياء » ردائى و الرداء أشرف من إزار ، وهل استنبطت مقصود « الخضوع » من الركوع وأقمت مقامه السجود .

لأنه أبلغ منه فى الاستكانة ؟

فإن قلت : لعل لله سرًّا فى الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه فلِمَ يستحيل أن يكون له سر فى

كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه الحديث ، وكل خطاب للآدمى وإن يكن له سر فى القرآن المعجز لا يقوم مقامه غيره ، وقد أقام الترجمة مقامه إن يكن له سر فى الفاتحة وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن وتأثر القلب لا حروفه وأصواته فإنها آلات ، فهلا قال المقصود من حركة اللسان تأثر القلب فليكف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى : على هيئة الإجلال والذكر والسؤال ، بصورة الصلاة .

وجميع ما ذكر أبو حنيفة بطلان مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك اللسان وملازمة الذكر مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة فمقطوع ببطلانها بالإجماع وهذا ما انجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدئ فى المعرفة يجرد عن التصور ويطرح الصور ، فيطفئ نور معرفته نور ورعه ، فيثور عليه التنين فى قبره فيتعجب منه ويبدو له من الله ما لم يكن يحتسب فإذا أصابته ضربة التنين قال ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة وإليه الإشارة بما يروى : « أن الميت يوضع فى قبره فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه فيدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجليه فيدفعها الحج . . » الحديث .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته وقال : من بلغ رتبة الكمال كما بلغت أمِنَ هذا التنين وظهر باطنه عنه فيقال له : إنك مغرور فى أمنك .

(فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

فبمَ تأمن أن يكون التنين ساكناً مستكنًّا فى صميم الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد أو استكنان النار فى الرماد ، وإن مات فيعود حيًّا فإن منبته ومنبعه هذا القلب هو مظنة الشهوات والصفات البشرية . وقلع الحشيش لا يؤمن عوده مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض معرضة لانسياب الماء إليها من منابعها فكذلك القلب مادام مصبًّا لواردات المحسات والشهوات لم يؤمن فيه عود النبات بعد الانقطاع والانبتات .

° ° °

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال إبليس وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد اغتراراً بما عنده من العلم وغفلة عن أسرار الله فى الاستعباد ولم يسقط عن

درجته إلاّ بكياسته وفطنته وتمسكه . بمعقوله فى كونه خيراً من آدم ، عليه السلام .

فنبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة .

الثانى : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ، ليعلم أن فى ركوب النهى إبطال (اعتقاد) الكمال لخالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ فإن هذا المغرور لعله يقول : إنه تسلم رتبة الكمال . ثم إنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه بل يزيد فى فرائضه وأوجب عليه التهجد ولم يوجب على غيره وقيل له : (يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا) .

وإنما وجبت عليه هذه الزيادة لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة وشرفاً ، ينبغى أن يزداد حصنها إحكاماً وعلوًّا فلذلك قيل فى تعليل إيجاب التهجد :

(إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) فتبين له أن هذه الصلوات هى حصن الكمال فلا يبقى إلاّ به .

ولعل المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الاقتداء لاحاجته إليها فى حفظ الكمال .

فيقال له : فلِمَ زاد عليه فى التهجد وجوبا ؟ هلا قال إن مبلغ درجة النبوة يستغنى عما يحتاج إليه غيره ولو قال لقبل منه كما قبل منه أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ما شاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار والتسهد ليلا وهو ينام .

ويقول : إنى بلغت درجة استغنيت بها من ذلك . وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبى والصديق وكل من واظب على الفرائض ، وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم:(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً).

أما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله عن القربة التى نالها والكمال الذى بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح لأن التكاليف قسمان : أمر ، ونهى .

فأما المنهيات : مثل الزنى والسرقة والقتل والضرب والنميمة .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ، والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات .

وأما المأمورات : فكالزكاة والصوم والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ، فما الذى يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار فى شهر واحد هو رمضان .

وأما الصلاة فتنقسم إلى :

أفعال وأذكار ، وأفعالها : قيام وركوع وسجود .

ولا شك فى أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل فيكون إما قائماً أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ماهو سبب القربة ؟ قال الله تعالى لنبيه ﷺ : (واسجد واقترب) .

ومن عشق ملكاً ذا جمال فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه استكانة له ، وجدَ فى قلبه روحاً وراحة وقرباً .

ولذلك قال ﷺ :

« جعلت قرة عينى فى الصلاة » فاستدامة حال القربة واستزادتها فى السجود أيسر منه فى الاضطجاع والقعود .

ومهما ألقى فى قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً من حال إبليس ، حيث ألقى فى نفسه أن السجود بحكم الأمر سبب زوال قربته وكماله . فكل ولى سقط من درجة القربة إلى درجة اللعنة فسببه ترك السجود ومقتداه وإمامه إبليس . وكل ولى أسعد بالترقى إلى درجات القرب قيل له :

(واسجد واقترب) ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ .

ولا ينبغى أن يتوهم الولى الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ما دام فى هذه الحياة بل لا ينجو عنه الأنبياء . . غير أنهم محفوظون كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم) .

وأما أركان الصلاة فتكبير وفاتحة وركوع وسجود وتشهد لا فريضة إلا هذا ، فما وجه الضرر فى قوله :

« الله أكبر ، وفى : الحمد لله ، والالتجاء إليه ، واستعانته ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى :

وإن صح ما يقوله مثلا وفى كل يوم آلاف الأنفاس فليصرف هذه الأنفاس المعدودة إلى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر التنين الذى لا يعتد بشر سواه ، ويتخلص من خطر الخطأ فى هذا الاعتقاد .

ولا شك فى أن الخطأ ممكن فيه إن لم يكن مقطوعاً به . وإن قال إن عزوف القلب إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار هو الذى يشغلنى عن درجة القرب فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإلحاحه ، بل يجد من نفسه فى ذلك هزة ونشاطاً .

فكيف لا تكون قرة عين العبد فى مناجاة محبوبه ، وخدمته التى رسمها وارتضاها له ؟

معنى ارتفاع التكاليف عن الولى :

معنى ارتفاع التكليف عن الولى ، أن العبادة تصير قرة عينه وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه[1] .

وهو كالصبى يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهراً ، فإذا اكتمل بالعلم صار ذلك ألذ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ محال ؛ لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به فأى معنى لتكليفه ؟

إذن تكليف الولى محال والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلى ويشرب ، ويزنى .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه والتواضع له ، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته فكذلك غذاء روح الولى ، فى ملازمة ذكره ، وامتثال أمره والتواضع له بقلبه لا يمكنه إشراك القالب مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك فى الالتذاذ قلبه وقالبه كما قيل :

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى : هى الخمر

أى ليدرك سمعى لذة اسمه ، كما أدرك ذوق طعمه ، بل تنتهى لذة الولى من القيام لربه قانتاً مناجياً إلى أن لا يدرك الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً .

---

(١) وفى ذلك يقول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتكلف المواظبة عليها ؟

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق فى وجودها وعدمها فى حفظ درجة الكمال والقرب أو دفع مهلكات الباطل ، وجوز أن يكون لله تعالى سر فيها ليس يطلع عليه هو فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصيته سر هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالإلهية والنبوة تخيل باطل ، فإنه إذا لم يُجوِّزْ فى كمال قدرة الله تعالى سرًّا بعينه من الأسرار وخاصية من الخواص فى الأعمال والأذكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كفر صريح .

وإن جوز ذلك وإنْ لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة فإنه ﷺ بلغ قوله تعالى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).

وفهم الصحابة وأهل الإجماع وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء فإن شك فى إيجاب الرسول فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك فى قدرة الله تعالى على نفسه فى الأعمال والأذكار تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال وكالحراسة عليه من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى فى عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه .

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل إذا أثبت رقومه على خزف لم يصبه ألم بشرط مخصوص .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

=

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

ولو أعطى المرأة التى تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة وأنه يؤثر بخاصية تقتصر عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبته . ويكثر مثل هذا فى عجائب الخواص ، فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية فى الفاتحة مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود والقعود خاصية فى النجاة الأخروية أو فى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التى تلدغ فى القلب لدغاً أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثرة فى سعادة الآدمى بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه ، فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً .

فى وحدة الوجود

١ – نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل – بصورة غير متوقعة – حدة المناقشة فى هذا الموضوع وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الموجود.والموجود متعدد : سماء وأرض ، جبال وبحار ، أشجار ، وأناسى . . . إلخ .

وهو مختلف صلابة وهشاشة لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلا وخفة . . إلخ . ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين – منهم ابن عربى والحلاج – بوحدة الوجود . وماكان لمؤمن ولا يتأتى لمؤمن أن يقول بوحدة الوجود وماكان للصوفية وهم الذروة من المؤمنين أن يقولوا – وحا شاهم – بوحدة الوجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التى يعتقدها كثير من الناس من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟

وتفسير ذلك لاعسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة فى الأزمنة القديمة ، وفى الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، يعنى أن الله سبحانه وتعالى هو والمخلوقات شىء واحد .

قال بذلك هو إقليطس فى العهد اليونانى ، والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه – على حد تعبيره – كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذى يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول :

والله سبحانه وتعالى – فى رأى شلى فى العصور الحديثة – هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم وهو هذه النسائم العليلة التى تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراقة المتألقة

بالنجم الهادى فى ظلمات الليل وهو هذه الورود اليانعة تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة ؛ إنه الجمال أينما وجد ولكنه أيضاً – سبحانه وتعالى – القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة وفيه وسامة يكون جثة ميت ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك ، ولوحدة الوجود ، بمعنى وحدة الموجود أنصار فى كل زمان ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعرى – رضى الله عنه – رأى فى فلسفته الكلامية أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه بأن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة فى آراء هؤلاء الخصوم وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات : لأنه أتفه – فى منطق البحث – من أن نعيره التفاتاً وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك مخترعة ملفقة مزيفة ضالة فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية غريبة على الجو الإسلامى ، تنادى بصورتها ومعناها ؛ إنها اخترعت تضليلا وافتياتاً .

إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج رضوان الله عليه ، أو إلى غيره ، لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه ، لقد اخترعوها اختراعاً ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ – الوجود الواحد : وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق ، الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن ، وليس لكائن غيره سبحانه الوجود من نفسه ، إنه سبحانه الخالق وهو البارئ وهو المصور ؛ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى :

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وصلة الله بالإنسان إذن هى أنه سبحانه يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن إنما هى على هذا النمط ؛ إنه سبحانه مثلا يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.إنه يمسكهما وجوداً ويمسكهما تدبيراً ، ويمسكهما تماسكاً وتناسقاً . . إنه يمسك فيهما الكيف والكم ، وإذا ما سحب إمداده عنهما تلاشتا كماً وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى محيط بالكون ، مهيمن عليه قيوم السموات والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت وقائم على كل ذرة من كل خلية وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكثر بحيث لا يعزب عن هيبته ، عن قيوميته ، مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة ليهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له وفى إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

٣ – ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد . إن الله سبحانه وتعالى يوجه نظرنا فى سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون :

(أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . . (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) . . . (أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) .

وعلى العكس من ذلك لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، وبيده أمر الخلق إيجاداً وإعدامًا .

أرأيت هذه الرمية التى ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

أرأيت الانتصار فى الجهاد ، إن هذا الانتصار من عند الله ؟ أما القتلى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) .

ورزق الإنسان هذا وطعامه :

(فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبًّا ، ثم شققنا الأرض شقًّا ، فأنبتنا فيها حبًّا وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبًّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم) .

٤ – هذه الهيمنة وهذه القيومية يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً إنهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل ، إن الله سبحانه وتعالى لا يخل من شعورهم درجة أيًّا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين إنما هو ملء البطن ، أوكنز الذهب والفضة أو التزاع على جاه أو العمل لشبيت سلطان ، إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها وتحيط بهم آثاره فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يخل فى قلوبهم ولا فى تفكيرهم ولا فى بيتهم ولا فى حياتهم ، قليلا ولا كثيراً .

والطرف الآخر المقابل لهذا هو هؤلاء الذين انغمسوا حقًّا فى محيط الإلهية ، سبحوا فى بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية وغمرهم لألاؤها وضياؤها لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التى تحيط بهم من جميع أقطارهم فزادهم الله نعماً وآلاء :(لئن شكرتم لأزيدنكم . . .)

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله .

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم وأخذوا شيئاً فشيئاً يحاولون تحقيق التوحيد ، قولا وعقيدة وتذوقاً وتحققاً وأخذوا يرون فى « أشهد أن الا إله إلا الله » معانى لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين سبب شقائهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك ، يحطمون أصنامه ، وأوثانه من النفس والهوى والشيطان ومن الغرائز الحيوانية والغرائز الإنسانية وانهار الشرك حتى همسات الفؤاد ، لقد انهار الشرك الواضح وانهار الشرك الخفى وثبت فى أذواقهم واستقر فى أحوالهم . ومقاماتهم : « أن لا إله إلا الله » وأنه (أينما تولوا فثم وجه الله) وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشيرهم إنه يغمر كيانهم فلا يرون غيره سبحانه ، لا يرون غيره قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره مالكاً للملك يؤتى الملك ، من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين . وأصبح الله فى بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفى قلبهم من قبل ذلك ومن بعده يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٥ – وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة ، لا نتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء .

لقد حاولوا أن يواجهوا نظر الناس إلى الله عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شىء خلقه سبحانه ، أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : فى الزهرة تتفتح ، وفى الزرع ينبت متجهاً إلى السماء ، وفى الشمس تشرق وفى القمر يتألق وفى مواقع النجوم ومداراتها . وفى كل هذا الإبداع السارى فى الكون . يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة .

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

وكان تعبيراتهم تعبيرات متذوقين . وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة – وهم فى تعبيراتهم – يشرحون أن الله سبحانه وتعالى الممد الوجود لكل موجود . إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة .

إنه – على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة – الذى يقطع وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق وليست النار هى التى تحرق ، وهو الذى حينما يريد يقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون برداً وسلاماً .

ومهما عبر الصوفية فى هذا الميدان عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا واشتطوا فإنهم لن يبلغوا المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة ، التى تمثل فى روعة رائعة الهيمنة المهيمنة والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل والتى لا تعنى وحدة متحدة ولا اتحاداً متطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد ، والمعبود والآية هى :

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن) .

والآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن « لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيًا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائمًا إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض ، وبالنظر إلى أسفل وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ويوجههم إلى الله تعالى ، فهؤلاء إنما يحاربون الله ورسوله وجزاؤهم معروف .

٦ – وقد تتساءل فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟ إن أمر هذه القضية قضية الحلاج معروف سرها ولم يكن خافياً فى يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون معه أينما ارتحل .

وكان – ككل صوفى – يحب آل البيت ، لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت نسل رسول الله ﷺ ، ومادام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان وتتجه إلى كل بلد فيجب – حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لاستقرارها – أن ينكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينيًّا قط ، وإنما كان سياسيًّا بحتاً ، ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والرقية ، وأن ينفذوا أهواءهم .

فكان ما كان من قضية ومن قتل ، والدين من كل ذلك براء والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه ، وكتبه – وبعضها موجود – لاتسند خصومه ولا تؤيدهم هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح ألاّ يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء وألاّ يحكم الأديب باعتباره أديباً فى أعمال المهندسين ، ومن العدالة – على هذا الوضع – ألاّ يحكم على هذه القمم الشامخة – ابن عربى والحلاج وابن الفارض – من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلاناً ينتقد ابن عربى فى المجلات ، فقال رضوان الله عليه وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعى – رضوان الله عليه – فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيى الدين بن عربى : إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا اهـ .

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف الرأى الحق هو ما قاله الإمام الشعرانى ، عن الصوفية عامة وعن سيدنا محيى الدين خاصة : « ولعمرى ، إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم

عين الله بل قالوا (ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى) فكيف يظن بأولياء الله أن يدعو الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم رضوان الله عليهم » .ا هـ .

فلابد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه رضى الله عن سيدنا محى الدين ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعنا بهم وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

ما هو التصوف الإسلامى ؟ ومتى بدأ ؟ ومن هم الأوائل ؟

يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٣ هـ فى تعريف التصوف :

« التصوف خلق فمن زاد عليه فى الخلق فقد زاد عليه فى الصفاء » ويقول : أبو الحسن النورى : « ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ولكنه خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : « لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلٰهية بعلم أو رسم » .

ويقول أبو الحسين أيضاً : « التصوف الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء » أما أبو سعيد الخراز فإنه يعرِّفه بقوله : « من صفى ربه قلبه ، فامتلأ نوراً . . ولا دخل فى عين الله فيذكر الله » وسئل الشبلى عن التصوف فقال : « بدؤه معرفة الله . . ونهايته توحيده » .

والتعريف الجامع هو قول أبى بكر الكتانى : التصوف صفاء ومشاهدة .

ولقد بدأ التصوف مع الإسلام مباشرة وذلك لأنه خلق كريم واتجاه إلى الله فى اليسير من الأمور والعظيم منها ، وهذا هو الإسلام ، ومن أوائل الصوفية بعد الصحابة والتابعين ، إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وذوالنون المصرى ، والحارث بن أسد المحاسبى رضى الله عنهم أجمعين .

فى قول الله تعالى : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)

وعلى ضوء هذه الآيات يمكن أن نصف الولى بأنه المؤمن التقى . . وقد جمعت التقوى صفات عديدة ذكرها الله تعالى فى مجالات مختلفة من القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى : (ذلك الكتاب

لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) . والمتصوف حقًّا من تحقق الإيمان ودعم الإيمان بالتقوى فى قوله وفعله ، وخلقه ومشاعره ، وفكره وكل شئون حياته فضم إلى العلم العمل ، وأقام العمل على أساس من التدين الصحيح وللذكر عند الصوفية مقام جليل وعليه عماد اجتهادهم ومحور سلوكهم يناجون به ربهم ويستمطرون به رحمته ، ويتحققون عن طريقه بالعبودية الخالصة .

فإذا ما قلنا إن كل متصوف – تصوفاً حقيقيًّا – ولى لله تعالى فلا مبالغة فى هذا القول ، وإذا ما قلنا بأن من الأولياء من ليس بصوفى . . فلا خطأ فى هذا القول أيضاً ، (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) . . (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) .

واحترام المؤمن التقى – أو الولى – صوفيًّا كان أو غير صوفى مطلوب والخروج عن هذا الاحترام مرذول . والله تعالى يقول فى الحديث القدسى :

« من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . . . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وإن سألنى لأعطينه » .

فالأولياء الحقيقيون موجودون إلى قريب من الساعة ، والصوفية نوع منهم يقول ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

فى وجود أولياء لله تعالى من النساء

لا مانع من وجود أولياء لله تعالى من النساء ، فمريم عليها السلام التى عبدت ربها وبالغت فى حصانة نفسها كانت صديقة ، وكانت من القانتين وامرأة فرعون التى ضاقت بكفر زوجها وآمنت بربها ، وقالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، كانت من أولياء الله والسيدة خديجة أم المؤمنين وابنتها الزهراء من أولياء الله تعالى ، والسيدة عائشة رضى الله عنها وسائر أمهات المؤمنين وبنات النبى ﷺ من أولياء الله وكل من آمن بالله تعالى وأخلص فى عبادته من الرجال والنساء .

فى الطرق الصوفية

الطرق الصوفية وسائل لتزكية النفس وتهذيب الخلق وتحسين السلوك ، والسير بالمريد فى طريق الاتباع العملى للرسول ﷺ ليكون مؤمناً حقًّا ومسلماً صدقاً ، ولا يشعر بأثر الطرق الصوفية إلاّ من مارسها بإخلاص وهيأ الله له من وسائل الترقى ما يحقق له الوصول .

وبينما الصوفية الحقيقيون يدعون إلى الله بالقول والعمل ، ويحاولون انتشال المؤمنين من كل ما يثبط عن الدين أو يصرف من هدى النبوة ، فإن بعض الأدعياء قد شوهوا صورة التصوف فى نظر الناس وأدخلوا فيه ما ليس منه بل ما يخالف أسسه وقواعده ، وتحولوا به عن الهدف الذى يميزه عن غيره من ألوان التربية والتعليم . . فغالوا فى الحديث عن الكرامات وجنحوا به نحو الشعوذة والمظاهر البعيدة عن روح الإسلام الصحيحة والمنافية لحقيقة الاتباع .

ولعل هؤلاء الأدعياء هم الواجهة السيئة التى يصرف الله بها عن الحق من لم يصدق فى قصده ولم يتحقق منه كمال العزم فى نيته إذ إن على من يريد التصوف الحقيقى ألا يعير هؤلاء المدعين أدنى أهمية وأن يبحث عن التصوف الحقيقى فى أهله ، والحق واضح والباطل لا يخفى ، قال تعالى : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) وقال ﷺ : « الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ » .

فإذا لم يعط بعض الطلبة الطرق الصوفية أية أهمية فإن ذلك راجع للفكرة الخاطئة التى يروجها أعداء التصوف خاصة والإسلام عامة عن التصوف بأنه وسيلة للتكاسل والتواكل والاستجداء والبعد عن تحمل مسئوليات الحياة ، كما طالب الإسلام ، والتى يؤكدها أدعياء التصوف والمنتسبون إليه والمخربون فيه من الداخل ، ولكن هذا العذر غير مقبول ، لأن الحق عزيز وطالبه لابد له من البحث عنه والتماس الطرق التى توصل إليه .

ومن هذه الطرق الدخول فى طريقة صوفية تبعد الإنسان من ناحية الفكر والسلوك عن كل ما يشين ، وتوجهه إلى طريق الخير وتجمع مع غيرها من الطرق المسلمين شباباً وشيوخاً رجالا ونساءً على كلمة التوحيد ومبادئ الدين ، مما يؤدى إلى سيادة مبادئ الدين ووحدة المسلمين .

فى حكم الطرق الصوفية حلال أو حرام

الطرق الصوفية فى معناها الصادق وسائل متعددة للهداية إلى الله تعالى ، إنها تعمل على هداية الأفراد وتعمل على هداية الجماعات وتريد أن تصل بالمجتمع إلى أن يكون مجتمعاً ربانيًّا ، وشيخ

الطريقة يرجو الله دائماً أن يدخل فى نطاق من قال رسول الله ﷺ فيهم : « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم » .

وهى تبدأ – جميعها – بالتوبة الخالصة النصوح إلى الله تعالى ، ومن المعروف أن الله تعالى حث على التوبة بشتى الوسائل ، وحث عليها رسول الله ﷺ بمختلف الوسائل يقول الله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) .

ويقول سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويروى الإمام مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وللتوبة شروط : يشرحها الإمام النووى فى كتابه الجميل « رياض الصالحين » فيقول : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

والثالث : أن يندم على فعلها . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، يروى الإمام مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

وأخذ العهد بيعة : روى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات رسول ﷺ وقد صلت معه للقبلتين . وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار قالت :

جئت رسول الله ﷺ ، نبايعه فى نسوة من الأنصار فلما شرط علينا ألاّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن .

ارجعى فسلى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ فسألته ، فقال : تأخذ ما له فتحابى غيره . ومشايخ الطرق يتأسون برسول الله ﷺ فى الدعوة إلى البيعة على طاعة الله ورسوله ، ولا يخرج العهد عن أن يكون بيعة على الطاعة .

والبيعة على الجو الإسلامى من أسمى الوسائل فى تقريب العبد من ربه ، وهى مجموعة من العقائد والأخلاق أحبها الله ورسوله ، وهى عامة للرجال والنساء .

وقد ذكر الله تعالى : فى القرآن الكريم بيعة النساء فالله تعالى يقول : (يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألاّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) .

وقد ذكرت السنة الصحيحة بيعة الرجال ؛ روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى عنه ، وكان عبادة شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله جماعة من أصحابه:« با يعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك . وهذه بيعة عامة .

وقد تكون البيعة بيعة خاصة ، كبيعة الرضوان ، يقول الله تعالى فيها :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

ويقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بماعاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

ولقد بين رسول الله ﷺ أن البيعة تتخذ صوراً مختلفة وذلك أنه ما دام أساسها طاعة الله ورسوله فهى بيعة لله تعالى .

ومن صور البيعة مثلا أن يمتشق الإنسان الحسام فى سبيل الله وأن يطلق المدفع جهاداً للعدو ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : « من سل سيفه فى سبيل الله فقد بايع الله » .

كل هذه ألوان من البيعة والبيعة أوسع من ذلك .

ومن عاهد الشيخ فقد بايعه على الطاعة ومن بايع على الطاعة فقد بايع الله سبحانه وتعالى : وليست البيعة على الطاعة الصادقة بأقل من البيعة على امتشاق الحسام أو استلام الحجر الأسود ، بل إن امتشاق الحسام واستلام الحجر الأسود أجزاء من البيعة على الطاعة .

ونعود فنقول إننا حينما نتحدث عن الطرق الصوفية إنما نتحدث عن الطرق الصادقة التى تسير متناسقة تماماً مع جو القرآن والسنة .

(ومن يشاقق الرّسول من بعد ماتبيَّن له الهُدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ماتولى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيراً) .

أما المتبع فإنه يدخل تحت قوله تعالى : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) .

فى تعدد الطرق الصوفية

يقول السادة الصوفية :

التوحيد واحد ، والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم . .

ويعنى قولهم هذا هو أن نتيجة سلوك الصوفية لا تختلف من قطر لقطر ولا من زمن لزمن ولا من شخص لشخص ، إنها التوحيد ، توحيد الله سبحانه فى ذاته وتوحيده فى خلقه وفى تصوفه وفى عنايته بالكون ورعايته ألا له الخلق والأمر إليه يرجع الأمر كله .

وإذا كان التوحيد واحداً وإذا كانت هذه الحقيقة من طبيعتها لا تتغير ولا تختلف فإن طريق القرب من هذه الناحية طريق تذوقها اليقين ، فالطرق تختلف والثمرة واحدة .

أما السبب فى اختلاف الطرق فهو أن طبائع الناس وفطرهم مختلفة يصلح لبعضها ما لا يصلح للبعض الآخر ، وقد يصلح لسلوك طريق ولا يصلح لسلوك طريق آخر ، وقد يصلح طريق لشخص ولا يصلح لآخر . .

والناس – منذ أن وجد الناس – يحاولون جهدهم التقرب من الله ، لأن فى القرب من الله كمالا ذاتيًّا وذلك أن الله هو الكمال المطلق ، فالقرب منه سبحانه قرب من الكمال ، وقد ورد : « تخلقوا بأخلاق الله » وورد « كونوا ربانيين » . والناس كذلك يحاولون جهدهم القرب من الله

لأن من كان قريباً من الله كان الله قريباً منه بالرعاية والعناية والتوفيق . وسلك الناس طرقاً إلى الله مؤسسة على الأساس العام ، وهو الشريعة .

سلك بعضهم طريق الذكر على الخصوص ، وسلك بعضهم طرق الصوم على الخصوص ، وسلك بعضهم طرق الصلاة على الخصوص ، وهكذا .

ونجحت بعض هذه المسالك فى الوصول إلى القرب من الله ، فرسمها من نجحت معه طريقاً وبيَّنها سبيلا ، ودعا إليها مسلكاً وذاعت فكانت طريقة صوفية ، وهذا منشأ الطرق .

إنها لا تعدو أن تكون إبرازاً لزاوية معينة من زوايا الشريعة دون إهمال لسائرها ، بل من التمسك بسائرها ومن أهمل شيئاً من الشريعة فليس من التصوف فى شىء .

فكلهم من رسول الله ملتمس غَرْفاً من البحر أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

فى تمسك الطرق بالكتاب والسنة

إن الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، هو الصراط المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه ، وما من شك فى أن من التزم كتاب الله تعالى واستمسك بسنة نبيه فإنه يكون من الناجحين الفائزين فى الدنيا والآخرة وذلك هو الاعتصام بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

وكل طريقة صوفية سليمة إنما تدعو إلى التزام الكتاب والسنة والطريقة التى تنحرف عن ذلك تكون فاسدة ضالة مضلة : فقد نزل القرآن بياناً للهداية الصادقة ، وفسره رسول الله ﷺ بقوله وعمله وبأحوالها كلها فمن حاد عن ذلك فهو من الخاسرين .

فإذا التزمت الكتاب الكريم والسنة الشريفة فإنك من الفائزين وأما قولك : « وأحكِّم عقلى » فذلك يحتاج إلى تنبيه ، وذلك أن الدين نزل هادياً للعقل ، وكونه نزل هادياً للعقل يقتضى أن يتحكم الدين فى العقل ، وأن يقوده وأن يهديه إلى الطريق المستقيم ، ويقتضى أن يستسلم العقل للدين ولعلك تريد بذلك أنك تستعمل عقلك لتفهم النص على وضعه الصحيح ، فإن كنت تريد ذلك فإنك على حق ونرجو الله أن يكتب لك التوفيق .

أين تقف الصوفية اليوم من هزات العلم ومادية العصر؟

الإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده (ورضيت لكم الإسلام ديناً) أساسه التوحيد وتكوين الضمير القائم على الخشية من الله ومراقبة الله فى السر والعلن . وحسن الصلة بين المرء ونفسه وبين المرء ومجتمعه ، اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخُلق حسن .

ووظيفة العبادات فيه : عبادة الخالق ، وتنمية روح الجماعة فى النفس ، والحد من الأنانية ، ودفع روح التعاون والمحبة والمودة ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ومنهج الإسلام هو منهج الحياة المستقيمة فى جميع جوانبها ، وفى اتجاهاتها المختلفة فى المكتب والعمل ، وسياسة الأسرة والأمة ، وفى الدنيا والدين (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) ولقد عمل الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم فى كل مناحى الحياة فأتقنوا العمل ، وجعلوا الله قبلتهم فى كل شىء وصيروا الدنيا مزرعة الآخرة ، وكانوا مع الله فكان الله معهم ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

هذه خطوط عريضة لمنهج الإسلام وخطته ومبادئه السامية .

وقد التزم بها الصوفية المخلصون وأخذوا بها أنفسهم وسألوا الله سبحانه التوفيق فيما قصدوا ، والإخلاص فيما عملوا ويعملون .

وما أحوج البشرية اليوم إلى الالتزام بهذا المنهج الإلهى فى وقت طغت فيه المادية واستشرى فيه الإلحاد ، وسادت فيه الأنانية وعم الجشع والطمع ، وازدادت فيه ضراوة الطغيان ومجاوزة الحد فى الظلم حتى بات فيه الضعيف هلعاً ، والفقير جزعاً والحق مهضوماً والسلام مهدداً ، بسبب مادية العصر ، وطوفان الإلحاد وكثرة الفساد والاغترار بالمنجزات العلمية ، والتفوق فى التقنية والتكنولوجيا .

فما أحوج البشرية لمنهج الصوفية الصافية والرجوع إلى الله : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

والإسلام يبارك العلم والتقدم والرقى لخير البشرية وسعادتها .

بالغ الصوفية فى التحدث عن كرامات الأولياء فلا يكاد يخلو كتاب صوفى من عرض العديد من كرامات مشايخ الصوفية فما هو وجه الحقيقة فيما يدّعونه ؟ وما هى الحدود الفاصلة بين الكرامة والخرافة

ليس لأحد أن يبتدع تعريفاً للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها ؛ إنه سبحانه وتعالى يقول عن « الأولياء » إنهم :

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم ، وعنايته بهم فقال سبحانه : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

وزاد سبحانه وتعالى تفضلا بالنسبة لهم فقال :

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى : (لا تبديل لكلمات الله) .

ثم بين نفاسة الثمار التى تجتنى من الولاية فقال :

(ذلك هو الفوز العظيم) .

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى قال :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ومعنى آذنته بالحرب : أعلمته بأنى محارب له . وكرامات الصحابة والتابعين لاتكاد تحصى : ففى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة ، فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا ، فتفرق النور معهما . وفى البخارى أيضاً أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة . ونادى عمر بن الخطاب : « يا سارية الجبل » يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو ،

وبينهما مسيرة أيام فسمعه سارية ، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو ، ويقول صاحب كتاب نشر المحاسن عن ظهور الكرامات :

« إنها جاء عنها فى القرآن الكريم ، والأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد ، فمن ذلك فى القرآن الكريم ما أخبر الله تعالى عن مريم رضوان الله تعالى عليها بقوله عز وجل:(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنّى لك هذا ، قالت هو من عند الله) .

« وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء ، هكذا جاء فى التفسير وكذلك إلهام أم موسى – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – فى أمرها ما هو معروف ، وكذلك ما أخبر الله تعالى من العجائب على يد الخضر رضوان الله تعالى عليه مع موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وكذلك قصة ذى القرنين رضوان الله تعالى عليه ، وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره ، وكذلك قصة عرش بلقيس فى قوله تعالى :

(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) . وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء . اهـ.

ويقول الإمام الشافعى : « ظهور الكرامات على الأولياء رضى الله تعالى عنهم جائز عقلا ، وواقع نقلا ؛ أما جوازه فى العقل فلأنه ليس بمستحيل فى قدرة الله تعالى ، بل هو من قبيل الممكنات ، كظهور معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والنظار الأصوليين ، والفقهاء والمحدثين رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وتصاريفهم ناطقة بذلك شرقًا وغرباً عجماً وعرباً ».اهـ .

فى الأوراد الصوفية

الورد التزام صيغ معينة – من العبادة القولية والقلبية فى أوقات معينة من النهار أو الليل ، وهذه الصيغ المعينة قد تكون استغفاراً ، بسيد الاستغفار مثلا وهو :

« اللهم أنت ربى لا إله إلاّ أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى (أى أعترف) فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت » وقد يكون الاستغفار بصورة يسيرة هى تكرار أستغفر الله أستغفر الله .

وقد تكون صيغة الورد الذكر باسم من أسماء الله وتكرار مئات أو آلاف المرات مثل لفظ الله .

أو الذكر بلا إله إلاّ الله ويقول رسول الله ﷺ : « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله » .

وقد تكون صيغة الورد صلاة على الرسول ﷺ معينة من صيغ الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد تكون صيغة الورد جزءاً معيناً من القرآن لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقسمون القرآن أقساماً يقرءونها يومياً كل بحسب فراغه واستطاعته .

والعادة أن يكون الورد باقة متسقة من كل ماذكرناه .

فى التوكل

إن المعنى الحقيقى للتوكل هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً ، أن من وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب فى أسسها وبواعثها ، وهى مشرفة على الأسباب فى غاياتها ونهاياتها ، وعلى الإنسان أن يعمل كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب . وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه حينما بُويع بالخلافة أصبح ذاهباً إلى السوق يتجر كعادته فتكاثر عليه المسلمون قائلين : كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ قال لهم : لا تشغلونى عن عيالى . فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع .

حتى فرضوا له قوت أهله من بيت المسلمين .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ويكتسبون وكانوا ، مع ذلك من كبار المتوكلين ، فالكسب لا ينافى التوكل .

ما الذى يفهم من رؤيا الرسول ﷺ فى المنام ؟ . وهل تصدق الرؤيا ؟ . .

يقول رسول الله ﷺ : لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة .

وما من شك فى أن رؤيا رسول الله ﷺ من الرؤى الصالحة ، فإن الشيطان لا يتمثل به ﷺ فى الرؤيا ، يقول ﷺ :

« من رآنى فى المنام فكأنما رآنى فى اليقظة ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » .

وهذه الرؤيا بشرى طيبة لصاحبها ، وعليه أن يسلك السلوك الذى يناسب الرؤيا بأن يلزم

الإنابة إلى الله تعالى ، ويحافظ على أداء الفروض الدينية ومتابعة الرسول ﷺ فى النوافل والسنن ، وأن يقرأ سيرته ﷺ فى الكتب الصحيحة حتى يمكنه أن يتأسى به ﷺ فى صورة صادقة . .

هل يمكن رؤية الشخص العادى لسيدنا جبريل عليه السلام ؟

نعم يمكن الشخص العادى أن يرى سيدنا جبريل عليه السلام ، فليست رؤيته بمستحيلة ولكن ليست رؤيته وعدمها خاضعة لرغبة شخص أو عدمها ، وإنما هو ذلك كله إلى الله عز وجل وعلى المنحو الذى يريده الله سبحانه حسب قدرة الرّائى ، لأن سيدنا جبريل عليه السلام ليس كآحاد البشر ،وقد رأته السيدة مريم عليها السلام وليست بنبية ورآه أناس كثيرون فى حياة النبى ﷺ وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . إلخ الحديث فى أول صحيح مسلم ، وكان هذا الذى رآه الصحابة هو جبريل عليه السلام وليس معنى أنه يُرى أن كل من يراه يُوحى إليه وحى تشريع ، لأن وحى التشريع انتهى بوفاة رسول الله ﷺ ، وإنما تعتبر الرؤيا مناماً أو يقظة بالمعنى الذى يتناسب وحال الرائى من بشارة أو نذارة أو تقرير ، أو نحو ذلك والله أعلم .

فى حكم من ليس لديه مال لزيارة قبور الأنبياء والأولياء

يقول الله سبحانه وتعالى : (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها) ويقول تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً) .

وإن من فضل الله على بنى البشر وتكريم الله للإنسان أن كلفهم بما يطيقون فهو بخلقه رءوف رحيم لا يكلفهم ما يشق عليهم أو ما يعجزون عنه ، يقول سبحانه : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وزيارة قبور الأنبياء والأولياء ليست واجبة ومع أن الحج ركن من أركان الإسلام فإنه واجب مادام الإنسان قادراً على ذلك ، مستطيعاً أداءه فإذا لم يستطع فإن الله سبحانه وتعالى : لا يؤاخذه على عدم أدائه .

أما زيارة القبور بالنسبة للأنبياء والأولياء فهى سنة ، فقد ورد فى حديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وآتاكم ما توعدون غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . اللهم اغفر لأهل

بقيع الغرقد» ، رواه مسلم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مرَّ رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه الترمذى حديث حسن . فالذى لا يملك من المال ما يمكنه من زيارة قبور الأنبياء والأولياء فليس عليه شيء ، وله أن يقرأ شيئًا من القرآن ويجعل ثواب ذلك للنبى ﷺ ، وعليه أن يصلى عليه كثيراً ، فمعنى الصلاة عليه صلة توصله برسول الله ﷺ ، ويقرأ القرآن ويهب ثوابه لروح الولى ويدعو له بالرحمة والمغفرة . وإن ذلك يكفيه إن شاء الله .

يذهب بعض الناس إلى أضرحة الأولياء بطلبات لهم مكتوبة مؤملين قضاءها فما علاج هذه الحالة ؟

إن آمال الإنسان ، إذا لم تجد تحقيقاً لها فى عالم الواقع وعالم الأسباب والمسببات تحاول : معتمدة على الخيال ، أن تجد تحقيقاً لها عن طريق غير عادى ، فتلجأ إلى وسائل ليست بالوسائل العادية .

وقد أمر الله سبحانه وأمر رسوله صلوات الله عليه باتخاذ الوسائل والأسباب الطبيعية العادية : كالدواء للشفاء ، وكالعمل لكسب الرزق .

ومع أن كل شيء بأمر الله فقد جعل الله فى العالم نواميس وأسباباً ومسببات ، وعللا ومعللات ، فلا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

فإذا ما أدى الإنسان ما عليه بالطريق الطبيعى فإنه بعد ذلك يترك الأمر لله متجهًا إليه سبحانه أن يجعل عمله منتهيًا إلى النجاح ، وأن لا يخيب رجاءه فى مسعاه . وقد قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) .

وقال سبحانه : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده) .

وإننا فى كل يوم نكرر فى الصلاة قوله تعالى : (وإياك نستعين) فيجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى ، فى قضاء أموره مع اتخاذه الأسباب التى جعلها الله تعالى نواميس للكون ، وأمر عباده بالسير على منهاجها .

فى إقامة الموالد فى المساجد

إن المساجد بيوت الله تقام وتشيد لتكون واحات ترتاح فيها النفوس من صحراء الحياة المجدبة ، ترتاح فيها النفوس بالعبادة والذكر ، والاتجاه إلى الله مستغفرة ضارعة ، وترتاح فيها النفوس بالاستماع إلى دروس التفسير ، والحديث والفقه ، وعلوم الدين على وجه العموم .

ولقد أنشئت المساجد لتكون أمكنة للدرس كما تكون أمكنة للعبادة بل لتكون أندية للصلح بين الناس ، ولحل مشاكل المجتمع العامة والخاصة .

فإذا انتقلنا من المساجد إلى الموالد فإن الحكمة فى إقامة المولد ، إنما هى التذكير بفضائل من يحتفل به ، وتعليم الناس التأسى به فى أخلاقه الجميلة ، وأحواله الحسنة ، وأعمال الخير التى أراد بها وجه الله تعالى ، وشرح ما قام به من خدمات للإنسانية . وكل ذلك من أجل التأسى به والاقتداء بسيرته ، وحينما تلتقى أهداف المولد بأهداف المسجد ، وحينما لا تتعارض الأهداف فإنه يجوز إقامة المولد بالمسجد . ومن أهداف المساجد ما ذكره الله تعالى بقوله : (فى بيوت أذِن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكره فى قوله سبحانه : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

يجوز إذن الاحتفال بالمولد فى المسجد بشرطين :

١ – أن تلتقى الأهداف .

٢ – ألا يؤدى الاحتفال إلى مفسدة ، كأن يكون فيه تشويش على المصلين بالفعل أو التكلم بكلام لم يأت به شرع ، أو تعطيل قيام فريضة .

فى ذكر أسماء الأولياء

هذا الهتاف هو نوع من الاستغاثة ، مثل يا أبى ، يا أخى ، والحقوا بى ، وأغيثونى ، ونحو ذلك . ولا يمانع أحد فى الاستغاثة بالحى فيما يمكن أن يساعد فيه من دفع للصوص ومشاركة فى عزاء ، أو فى تحمل مسئولية أو ما إلى ذلك .

أما إذا كانت الاستغاثة بالحى فيما لا يمكن أن يساعد فيه كتفريج كربة أو تحسين مستقبل أو تحقيق بركة فى مال أو عمل أو ما إلى ذلك فإن كانت على وجه الاعتقاد بأنه يستطيع النفع والضرر وأن له بعض خصائص الألوهية فهى كفر والعياذ بالله ، لأنه اعتقد النفع والضر فى غير الله سبحانه وتعالى .

وإن كانت على وجه التبرك وطلب المعونة بالدعاء لحسن اعتقاد أو معرفة بتقوى وصلاح من استغاث به فلاشىء فيها ، وقد قال الرسول ﷺ لعمر ، وقد جاء يستأذنه فى العمرة ، لا تنسنا يا أخى من دعائك .

وسواء أكان المستغاث به قريباً أم بعيداً ، حيًّا أم ميتاً فالمدار على تحسين الاعتقاد ، وعلى أنه لا فاعل فى الحقيقة إلا الله ، وجميع المسلمين يعلمون ذلك ويؤمنون به ، ويعتقدونه .

على أننا يجب أن يكون توجهنا دائماً إلى الله تعالى فى كل ما نتعرض له من أخطار « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

فى الطريقة التيجانية

الطريقة التيجانية طريقة من طرق أهل التزكية ، تزكية النفس ، الذين تخصصوا لتصفية القلوب من المعاصى الباطنة ، وهم الذين يسميهم العلماء المحققون « الصوفية ».

وإذا كان من العلماء من تخصص لدراسة العقائد ورد شبه الملحدين والمشككين ومنهم من تخصص فى استنباط الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة . ومنهم من تخصص فى دراسة السنة ورجالها ، لتمييز الصحيح من غيره من حديث رسول ﷺ .

فإن منهم من تخصص فى تزكية النفوس وتربية الهمم وتطهير القلوب من الأدران والأرجاس ، سيراً فى طريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بحسب الطاقة الإنسانية وهم الصوفية ، ومنهم التيجانيون .

أما عن ملاءتهم البيضاء التى يجلسون حولها فأصلها : أن أصحاب الشيخ أحمد التيجانى كانوا يذكرون فى ساحة يسير الناس فيها بنعالهم ، وتعتبر الطهارة فيها حكمية ، فاقترح بعض هؤلاء الأصحاب أن يتخذوا فراشاً أطهر من هذه الأرض ، فاتخذوا هذا الفراش لزيادة الثقة بالطهارة عند الذكر .

ومن التيجانية من يفعله ، ومنهم من لا يفعله ، ومما لاشك فيه أنه من المتفق عليه أن الطهارة

مندوبة عند ذكر الله عز وجل بدناً وثوباً ومكاناً ، وكلما كانت الطهارة أعظم كان النور أعظم .

أما عن فعل الرسول ﷺ أو عدم فعله لذلك فليس كل مالم يفعل على عهد رسول الله ﷺ باطلا متى كان جائزاً عقلاً وشرعاً ، ولا ترده القواعد الشرعية ، وهذا الفعل لا يتصل بالأحكام الشرعية فى قليل ولا كثير ، إنه من فروع الشريعة اليسيرة ، بل من الفضائل . من شاء أخذ به ، ومن شاء لم يأخذ ، ولا يلتزم التيجانيون به التزاماً مؤكداً ، وليس من أعمدة الطريقة أو أسسها الهامة . .

فى أوراد الطريقة التيجانية

أوراد الطريقة التيجانية كغيرها من الطرق داخلة فى نطاق الذكر ، ولذاكرها ثوابها ، وقد وردت فى الحث على الذكر عموماً آيات وأحاديث كثيرة مشهورة ، منها قوله تعالى : (فاذكرونى أذكركم) وقوله (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكره وأصيلا) وقوله : (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وقول الرسول ﷺ : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله . . مثل الحى والميت » . . وقوله : سبق المفردون . وقيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً .

وقوله : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

ولكن المسلم قد يلزم نفسه بذكر معين ويعاهد الله على هذا الالتزام ، وحينئذٍ يلزمه ما تعهد به لقوله تعالى : (وليوفوا نذورهم) . . وقوله ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه » .

والأوراد على وجه العموم ليست فريضة ، وإنما تكون سُنّة إذا كانت مما كان يقرؤه رسول الله ﷺ وبالصورة والكيفية التى كان يقرؤها بها ، وأوراد الطرق ليست كذلك ، فهى ليست فريضة ولا سنة ، وإنما هى طاعة لله سبحانه يلتزمها من أحب ، ويترك التزامها من أراد .

فى دلائل الخيرات والطريقة التجانية

إن دلائل الخيرات إنما هى صلوات على رسول الله ﷺ ، ولا تمنع طريقة من الطرق الصلوات على رسول الله ﷺ وذلك لأن الله أمرنا بالصلاة عليه فقال سبحانه وتعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) .

ورجال الطريقة التيجانية ومشايخها يقرءون دلائل الخيرات ، وكان الشيخ عمر غمبو خليفة الطريقة التيجانية فى السودان يقرأ دلائل الخيرات هو وتلاميذه ، وتابع أبناؤه قراءتها من بعده . بل إنه توجد نسخة من دلائل الخيرات بخط العارف بالله الشيخ أحمد التيجانى الكبير شيخ الطريقة . ويقول فضيلة الشيخ محمد الحافظ التيجانى خليفة الطريقة بجمهورية مصر العربية : إن الأوراد اللازمة فى الطريقة يصح أداؤها بأى صيغة للصلاة على النبى ، وإنه يجوز لقارئ ورد التيجانى أن يقرأ دلائل الخيرات ، بل إن فى الطريقة التيجانية أحزاباً من الطريقة الشاذلية وحزب النووى ، ولاحرج على السالك أو المريد فى صيغة الصلاة على الرسول ﷺ مادام يلتزم طريقة واحدة ، لأن من انقطع لشىء أحسنه .

أسماء الله الحسنى والطريقة التيجانية

قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلحِدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون) .

وإذا كان الله تعالى يأمرنا فى هذه الآية بدعائه بأسمائه الحسنى فلا يصح من أحد – كائناً من كان – أن يحرِّم قراءة الأسماء الحسنى أو الذكر بها .

والشيخ أحمد التيجانى رحمه الله لم ينه عن الذكر بالأسماء الحسنى أو التقرب إلى الله تعالى بقراءتها واستحضار معانيها ، وكيف يقول بذلك ، وأذكار طريقته التى قررها وغير ذلك من الأذكار التى كان يتقرب إلى الله بها لا يخلو ذكر منها من اسم أو عدة أسماء من أسماء الله الحسنى .

إن الشيخ التيجانى قال : إن هذه الأسماء الكريمة لما لها من مدلولات سامية وفضل كريم ينبغى أن تصان عن كل ما يجعل منها وسيلة لتحصيل غرض دنيوى أو نفع مادى . فحرَّم قراءتها للوصول إلى مطالب دنيوية ، لأن فى ذلك انحرافاً عن الطريق الصحيح الذى وجهنا الله تعالى إليه ، إن الذكر فى أساسه ومضمونه وسيلة لاستحضار عظمة الله تعالى ، وإن مدلول هذه الأذكار سواء أكانت بأسماء الله تعالى أم بغير ذلك مما ورد يتغلغل فى قلب المؤمن ويسرى فى مشاعره ويتحكم فى سلوكه ويصل به فى نهاية المطاف إلى أن يكون عبداً ربانيًّا ، متخلقاً بأخلاق الله سبحانه وتعالى . ونخلص من ذلك إلى أن قراءة أسماء الله الحسنى مطلوبة بشرط الإخلاص فيها ، والتوجه إلى الله مباشرة بتلك القراءة ، وعدم الاشتغال عنه بدنيا تستولى على الخاطر ، أو مادة تستغل الذكر للوصول إليها ، لأن الإنسان بذلك يقدم الأغراض ويتخذ العبادة وسيلة لتحقيقها ، وهو ما سماه

الشيخ التيجانى شرك الأغراض ، أو عبادة الأغراض بواسطة العبادة الشرعية .

فإذا ما جمع العبد بالذكر بين التقرب إلى الله تعالى وطلب تحصيل الدنيا فهو فى ذكره أدنى درجة ممن يخلص التوجه إلى الله والتقرب إليه بألوان الذكر وأنواع العبادة .

وقد حذر الله تعالى من الإلحاد فى أسمائه بوصفه بما ينافى قدرته أو عظمته ، أو تسميته بما لا يليق أو لم يرد عن الشرع ما يفيد صحة التسمية به ، لما فى ذلك من إساءة الأدب فى حق الألوهية أو التهجم على مواطن الخطر دون دراية أو معرفة .

وما نهى عنه الشيخ التيجانى إنما هو اتخاذ الذكر بأسماء الله الحسنى وسيلة لابتزاز الأموال من الناس واستغلالهم على وجه من وجوه الدنيا .

صلاة الفاتح

صلاة الفاتح ليست من اختراع الشيخ التيجانى ، وليست وحياً نزل عليه من عند الله ، لقد وجدت هذه الصلاة قبل الشيخ التيجانى ، وبعض صيغها مأثور عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه مذكور فى بعض الكتب المعتمدة ، ودعوى أنها وحى جلى أو خفى أو أنها من الكلام المقدس النازل من عند الله تعالى دعوى كاذبة ، ولم يقل بذلك الشيخ التيجانى أو أحد من أتباعه المعتمدين .

وعلى ذلك فمقارنتها بشىء من القرآن مقارنة غير مقبولة وغير واقعية . . ذلك لأن القرآن بلفظه ومعناه لا تتسامى صيغة من الصيغ مهما كانت إليه ، ولا يمكن أن توضع موضع المقارنة به أو المفاضلة بينها وبينه .

وما ورد من معادلة ثواب من قرأها بثواب من قرأ القرآن ستة آلاف مرة غير مقبول وغير معقول ، وهو من الأمور التى زيفت على الشيخ التيجانى فيما نعتقد . ولا يتسامى إلى القرآن غيره ، ولا يقارن به أى كلام سواه . .

وفضل كلام الله على سائر كلام البشر كفضل الله على خلقه ، ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، ويقول رسول الله ﷺ فى ذلك : « إنى لا أقول « الم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . ولا يتأتى أن يفرغ إنسان من الحديث عن فضل الكلام لله فى الثواب ولا عن فضله فى الهداية العامة للإنسانية ، وكل موازنة بين كلام الله وغيره إنما هى إلحاد فى الدين ، يجب أن لا يدور بذهن المسلم . .

فى تردُّدِ المريدين بين الطرق

الطرق الصوفية وسائل عملية للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالطاعة والعبادة والذكر ومجاهدة النفس والأهواء ، إنها محاولات عملية للرجوع بالمسلم إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته بالتربية والتوجيه السليم النابع من رغبة المنتسب إليها ومساعدة الشيخ أو المرشد له فى ذلك .

ومن دخل طريقة من هذه الطرق فوجد فيها ذلك ، فعليه أن لا يتركها لأنه بذلك يترك طريقاً للخير يسره الله له ، وسبيلا للتقوى وضعه الله أمامه . وهو بهذا الترك يكون هاجراً للخير ، مبتعداً عن طريق الفلاح ، يصح فيه ما قاله الرسول ﷺ فيمن ترك حلقة العلم ورجع .

هذا عن ترك الطريقة : وأما الدخول فى طريقة أخرى بعد ذلك ، فلا مانع منه مادام الدخول بقلب سليم ورغبة صادقة فى التطهر والتزكى ، وعلى من يريد الدخول فى الطريقة – أى طريقة – أن يقتنع أولا بأهمية هذا الدخول ، وأن يصدق فى العزم عليه .

ونعود فنقول : الطرق الصوفية الصحيحة واحدة وإن اختلفت فى أساليب التربية ووسائل التزكية . . فمن المعلوم أن الأذكار النبوية لا يستطيعها إنسان ، واجتهاد النبى ﷺ فى العبادة ودوام تذكره وخشيته لا يمكن الوصول إليه ، وكل شيخ من مشايخ الطرق استعذب ما استعذب ، وتمسك بما استطاع من الهدى النبوى الكريم ، ورسم طريقته على هذا الأساس ، فالأسلم السير فى طريق واحد وإن كان الانتقال عنه إلى غيره جائز فى حدود ما ذكرناه . والانتقال إذًا بهذه الشروط أن لا يشهر أو يستخف بالطريقة المتروكة وأن لا يحقر منها أو من شيخها ، وعلى من ترك طريقًا ، من ورد طريقة صوفية إلى ورد طريقة صوفية أخرى لا مانع منه مادام ترك مثل هذا الورد وتناول الورد الآخر ليس ناتجاً عن استخفاف بالورد المتروك أو تحقير له ، أو عداء لشيخ الطريقة أو أهلها أو ما إلى ذلك . . والورد فى أى طريقة لا يخرج عن كونه ذكر الله سبحانه وتعالى :

وقد كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ، وكان يغاير من صيغ الذكر ، وكان ذكره جامعاً لكل أوراد الطرق المعتبرة .

والطرق الصوفية ليست إلا ألواناً من التربية والتهذيب ، والسير بالمريد إلى طريق النجاة باتباع سنة رسول ﷺ ، على كل حال ، خاصة فى مجال الإصلاح النفسى والتهذيب الخلقى والتطهير الروحى . ومن الأدب عدم ترك طريقة إلى أخرى إلا لداع صحيح ، كعدم الاستفادة من الطريقة

أو الشعور بالضيق والحرج فيها ، أو غير ذلك من الأسباب الشرعية ، فإذا دخل فى طريقة أخرى فعليه أن يبدأ بأخذ العهد والأسباب إلى توجيه الشيخ الجديد .

بقى أن نوجه النظر معنا هنا إلى شىء هام ، وهو أن ذلك فيما إذا لم يلزم الإنسان نفسه بورد معين ويعاهد الله على التزامه ، فإن إهماله له بعد ذلك يعتبر معصية وتركاً لواجب أوفرض ، فقد جعل الله تعالى النذر فى الصالحات موجباً لفعل ما التزم الإنسان به منها قال تعالى : (وليوفوا نذورهم) وقال ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . والأولى لمن التزم طاعة أن لا يخرج عنها أو يتركها إلى غيرها .

فى الدخول فى الطريقة التيجانية ثم الخروج منها

من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام وحج وما إلى ذلك من أركان الإسلام وشروطه لا يستطيع كائن من كان أن يحكم عليه بغير الإسلام ، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

والدخول فى الطرق التيجانية ثم الخروج منها أو تركها لا يمكن أن يكون كفراً ، ولم يقل بذلك أحد ممن يعتمد من علماء هذه الطريقة أو رجالها ، ولو قاله أحد منهم فيجب أن نضرب بكلامه عرض الحائط .

بيد أن رجال الطريقة التيجانية كغيرهم من رجال الطرق الصوفية يأسفون كل الأسف ممن يخرج من طرقهم ، وذلك أنهم يرون – وهو حق – أن هذه الطرق هى معارج إلى الله ، إنها ذكر وتسبيح وتعاهد بالتزام الطاعة وتقرب إلى الله بشتى الوسائل الشرعية الصحيحة ، ومن أخذ طريقة ثم تركها يكون إذن تاركاً لطاعة قد تعهد بالتزامها وبايع الشيخ على الطاعة لله ورسوله ، وشخص كهذا يكون قد نقض ماعاهد الله عليه على يد الشيخ ، فهو لم يوف بعهده ، وهو إذن عاص وعليه أن يتوب توبة خالصة ، وأن يلتزم بعد ذلك الطاعة متخذاً طريقة أخرى ، أو راجعاً إلى طريقته الأولى أو يلتزم الطاعة دون التزام طريقة بعينها .

وكل هذا ليس خاصًّا بالطريقة التيجانية وإنما هو عام بالنسبة إلى كل الطرق الصوفية .

رأس الإمام الحسين رضى الله عنه فى القاهرة

الحسين بن على رضى الله عنه سيد الشهداء وعترة الرسول ﷺ ومن خيرة أهل بيته ، شاء الله تعالى أن يُقتل شهيداً وهو يقاوم فتنة طاغية أبت عليه إلا أن يكون وقوداً لها .

وقُتل رضى الله عنه بكربلاء ، ودفن بها . . ولكن قاتليه لم يكتفوا بما ارتكبوا من إثم فى قتله . . بل حملهم الفجور على ما هو أشنع من ذلك فاحتزوا رأسه وأحضروها إلى يزيد بن معاوية كدليل محسوس على إخلاصهم للباطل وقيامهم بواجب الفساد والإفساد .

واقتنع يزيد بما وقع وانتقل الرأس فيما انتقل إلى مصر بموكب حافل ودفن فى مكانه المعروف بالقاهرة ، وبنى عليها مسجد من أكبر مساجد القاهرة وجسمه إذن رضى الله عنه فى كربلاء ، أما الرأس فإنه فى القاهرة .

السيدة رابعة العدوية

إن قصة حياة السيدة رابعة العدوية هى قصة حياة مكافحة ، تغلب فيها الدين على الفجور ، والصلاح على الفساد ، ولقد ولدت فى البصرة فى مطلع القرن الثانى ١٨٠ هـ .

لقد ولدت لأب فقير عابد فتشربت منه العبادة فى بواكر حياتها ، وتطلعت إلى تذوق حلاوة الطاعة ، واتجهت أفكارها إلى النواحى الدينية ، خاصة فيما يتمثل فى المراقبة والخوف من الله . سألها أبوها وقد قالت : يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه ، أرأيت يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً ؟ فقالت : نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الآخرة على النار .

مات والدها وهى صغيرة ولحقته أمها ، ولم يبق لها سوى قارب تشاركها فيه أخواتها الثلاث ، شمرت عن ساعديها وعملت على تشغيله حتى قيل إنها كانت تدعى بالعدوية لأنها كانت تعمل فى تعدية الناس بقاربها من شاطئ إلى آخر ، وكانت تسمى المعداوية . ثم اختصرت إلى العدوية .

سمعت وهى فى قاربها هاتفاً ينشد بعض أبيات فى حب الله وفناء الدنيا فانجذبت إليه . . رددت قوله ، واضطرتها ظروف الحياة فى عصرها إلى ترك القارب والانطلاق فى الأرض ، وانطلقت رابعة إلى حلقات الذكر وإلى المساجد ، وإلى حياة روحية حقبة لفتت إليها أنظار الناس فى ذلك الوقت ، وشغلت مكاناً مرموقاً فى عالم الصوفية ، ولم تكن كما قيل عنها لعوباً تغترف

اللذات وتسهر الليل فى اللهو واللعب ، لقد كانت تصلى الليل كله ، فإن طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر .

ولم تترك لها هذه الحياة وقتاً للزواج ، فعاشت عذراء بتولا لأنها وجدت أنها لا تستطيع القيام بحقوق الزوج بعد أن تغلبت روحانيتها على حياتها الدنيوية .

ومن روائعها أن سائلا سألها :

إنى قد أكثرت الذنوب والمعاصى فلوتبت هل يتوب علىّ ؟ فأجابت : « لا بل لو تاب عليك لتبت » تشير بذلك إلى قوله تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) .

عمّرت ثمانين عاماً وتوفيت سنة (١٨٠) ودفنت بالبصرة على أرجح الأقوال .

فى التبرك بأسماء الله الحسنى

إن الاعتقاد فى بركات أسماء الله الحسنى سواء كانت متلوة مكررة أو مكتوبة محمولة اعتقاد سليم ، وعلى هذا فإنه لا مانع للمسلم أن يحتفظ بأسماء الله الحسنى مكتوبة محفوظة محجبة متبركاً بها ، وأن يحتفظ بها معلقة فى رقبة أطفاله مصونة بتجليدها واحترامها حتى لا يتسرب إليها ما يتنافى والتقديس .

وليس فى كتابتها والاحتفاظ بها كحجاب للكبار أو للصغار إلا التقدير وتعويد الأطفال على تقديسها .

وما من شك فى أن القرآن نزل أولا وبالذات هداية إلى سبيل الله وإلى الصراط المستقيم ، ونزل يحدد العقيدة السليمة ، والخلق القويم ، والتشريع الحكيم ، ولكنه نزل أيضاً شفاء ورحمة وحفظاً ، وهذا المعنى الأخير لا يتنافى والتعاليم الإسلامية .

فى مجالس الذكر

إن بعض الطرق لها أوراد خاصة بها لا يشاركها فيها غيرها ، وهذه تحتاج إلى تلقين لتكون أكثر تأثيراً فى النفس ، وليعرف الملقن جوها وروحها وظروفها فيكون أكثر تعرضاً لأنوارها ، بيد أن باب الذكر مفتوح على مصراعيه ، وهو فى تنوعه وسعته وكثرة المأثور فيه بحيث يرضى كل طموح من حيث المعنى ومن حيث الأسلوب ، يقول تعالى فى شمول وتعميم : (اذكرونى أذكركم) ومن الذكر قراءة القرآن . ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان بسندهما عن عائشة رضى الله

عنها : « الذى يقرأ القرآن وهو ما هر به من السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول « الم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف » .

ومن الذكر الصلاة على رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى فقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم : من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً . .

ومن الذكر الاستغفار ، يقول تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توّاباً) ويقول سبحانه . . (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

وهل توجد أوقات مفضلة للذكر ؟

من أفضل أوقات الذكر الثلث الأخير من الليل .

فقد ورد ما معناه أن الله سبحانه ينزل إلى سماء الدنيا فى الثلث الأخير من الليل وينادى ألا هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا هل من تائب فأتوب عليه ؟ ألا هل من سائل فأعطه ؟ ألا هل من كذا ألا هل من كذا حتى مطلع الفجر .

وما معنى نزول الله سبحانه فى ثلث الليل الأخير ؟ .

معناه تجليه سبحانه بالرحمة فى هذه الفترة من الزمن .

وسئل رضي الله عنه عن بعض الشخصيات

فى سيدنا آدم عليه السلام وبناء البيت الحرام

وردت روايات مختلفة وليست بالقوية حول بناء البيت ، أقربها إلى القبول أن آدم عليه السلام هو أول من بناه ، ثم بنى بيت المقدس بعده بأربعين سنة . . ويشير إلى ذلك ماروى فى الصحيحين ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : « أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام قلت : ثم أى : قال المسجد الأقصى . . قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة » .

ومما لا شك فيه أن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بنيا البيت ، ورفعا قواعده قال تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) أى عيناه له ، وجعلنا منزله عنده وعبادته فيه . وقال : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) والآية الكريمة تشير إلى أن القواعد كانت موجودة ، وكان عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يرفعا هذه القواعد أى يبنيا عليها حتى ترتفع ارتفاعاً كاملاً . والله تعالى يقول : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين) وهو ما يتناسب وبناء آدم عليه السلام له . . وقد روى ابن أبى حاتم بسند صحيح عن سيدنا على رضى الله عنه قال : (كانت البيوت قبله – أى قبل البيت – ولكنه أول بيت وضع لعبادته تعالى) .

أما عن داخل الكعبة ورؤية الله فى السماء منه فخيال مخالف للدين ، والله تعالى منزه عن أن يحل فى السماء ، فى مقابلة الكعبة أو أن تدركه الأبصار ، وهو خيال يخالف الواقع وتكذبه التجربة فقد دخل الكعبة كثيرون من الصالحين ولم يرد عنهم ما يفيد شيئاً من ذلك وهذا لا ينافى فضل الكعبة وأنها هدى للعالمين ومجمعاً للمؤمنين .

فى لماذا اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ؟

يقول الله تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا) ، وهذا البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام ، وإبراهيم عليه السلام إنما رفع قواعده التى كانت موجودة من قبل : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) .

وكما كان أول بيت للعبادة فإنه فى التقدير الأزلى آخر بيت لله تعالى فيه العبادة على الوجه الصحيح ، ولقد اختار الله تعالى الجزيرة العربية للرسالة المحمدية .

لأن بها بيته هذا المحرم ، ملتقى الحجيج من كل جانب من جوانب الأرض ، ولأن أهلها كانوا حينئذ أحسن الناس استعداداً لحمل رسالة الله ، ولو أن الرسالة كانت فى غير جزيرة العرب ما وجدت آذاناً صاغية ، ولا قلوبًا واعية ، ذلك أن الروم كانوا أهل دين يصعب عليهم تركه إلى دين آخر ، والفرس كانوا ذوى ملك وسلطان يرون فيهما العزة والمتعة ولا يمكن أن يدينوا معها بدين آخر من أبرز ما فيه تغيير العقيدة وتغيير الأنظمة وإزالة الطغيان الذى كان سمة كثير من الملوك والأمراء .

لذلك كانت الجزيرة العربية المكان الصالح لنشر الدعوة المحمدية ، لأن أهلها كانوا بفطرتهم وعدم انتمائهم لأى دين من الأديان – التى كانت حينئذ – مهيئين لقبول الرسالة وحملها ، ولقد رفض اليهود الإسلام بالمدينة وما حولها ، وهم يعلمون تمام العلم صفة رسول الله ﷺ فى كتابهم ولكن خوفهم من ذهاب السلطان جعلهم يجحدون .

فى سيدنا نوح عليه السلام

إن المصدر الوحيد الصحيح عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الآن إنما هو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولا يوجد كتاب آخر يمكن أن يوثق به فى المعلومات الخاصة ، بسيدنا نوح عليه السلام ، والقرآن لم يتحدث عن المكان الذى دفن فيه سيدنا نوح ، وكل ما يذكر فى هذا إنما هو ضرب من التخمين ، ويجب ألا نعيره التفاتاً ، وما من شك فى أنه لا مستند من التاريخ لدى صاحب بدائع الزهور .

أما كرك فإنه اسم لموضوعين : أحدهما قلعة مشهورة حصينة ، فى طرف البلقاء من أرض الشام من ناحية جبال الشراة ، وليست هى المقصودة ، وإنما نبهنا عنها حتى لا تلتبس بالأخرى .

والبلدة المقصودة هى قرية كبيرة من نواحى بعلبك ، لأن بها قبراً طويلا يزعم أهل تلك النواحى . أنه قبر سيدنا نوح عليه السلام ، وما من شك فى أنه لا يتأتى إثبات ذلك تاريخيًا .

هل هناك أنبياء هاجروا قبل سيدنا محمد ، هاجروا بأبدانهم ودعوتهم ؟ وإذا كانت الهجرة مرتبطة بالدعوة فما معنى الهجرة هنا ؟ ولماذا هذا الارتباط ؟

أولا : هاجر سيدنا إبراهيم عليه السلام ، هاجر من أورالكلدانيين إلى حران بلدة بين دجلة والفرات فى بلاد العراق إلى دمشق ، وشرق الأردن ، وفلسطين ، ومصر ، والحجاز .

ثانيا : سيدنا يعقوب هاجر من عين مولح إلى قدان أرام من أرض العراق حيث خاله هناك . ثم رحل بعد عشرين سنة إلى فلسطين ، ثم هاجر إلى مصر أيام كان يوسف بها .

ثالثاً : سيدنا موسى هاجر من مصر إلى مَدْين بأرض بين الحجاز والشام قبل نبوته ، ولما أمعن فرعون فى إذلال بنى إسرائيل ومن معه من المؤمنين به هاجر هو ومن معه من المؤمنين واجتازوا البحر إلى جهة غير مصر ، وأغرق الله فرعون ومن معه .

الهجرة دائماً مرتبطة بالدعوة إلى الله ، ولما لم تفد الدعوة فى قوم يودون التخلص من الداعى وكل ما يمت إليه بسبب ، فإن الله جلت قدرته يفتح للدعوة ميداناً آخر تشق فيه طريقها وتبلغ به غايتها ، لتقوم بذلك الحجة ، لله ولرسوله على الذين خالفوا ولم يؤمنوا وحاربوا الأنبياء حتى اضطروهم إلى الفرار بدينهم هم ومن معهم من المؤمنين ، فالهجرة لا تنفك عن الدعوة ، وقد تنفك الدعوة عن الهجرة ، فإن الله عز وجل قد يبعث رسولا ، ويكون له فيهم من الحياة والسلطان ما يمنعهم من التسلط عليه كيوسف عليه السلام . قال تعالى : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) آية ٣٤ من سورة غافر .

فى سيدنا إسماعيل عليه السلام

إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، أما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجهاً .

فى كتاب اليهود أن الله أمره أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظٍ (وحيده) ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده .

قد بشر الله أم إسحاق به وبابنه يعقوب فقال تعالى عن الملائكة : (وامرأته قائمة فضحكت

فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب) محال أن يبشرها بأن يكون له ولد ثم يأمر بذبحه . . ثم قال تعالى : (وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين) بشارة من الله وشكراً على صبره على ما أمر به .

سمى الذبيح حليماً لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه عليماً ، والقرآن يقدم إسماعيل دائماً . إن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذه خليلا ، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة وألا يشارك بينه وبين غيره فيها ، فلما اتخذ الولد شعبة من قلب الوالد جرت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق فى الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم ، وتوطين النفس فيه ، فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح ، وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الرب .

فى سيدنا موسى عليه السلام

إن الله سبحانه وتعالى حينما تحدث عن سيدنا موسى فى سورة القصص حينما كان سيدنا موسى بمصر أن رجلا جاء من أقصى المدينة يسعى ليعرف موسى بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، ونصحه بأن يخرج فى سرعة حتى لا يناله منهم شر ، فخرج موسى خائفاً يترقب داعياً الله سبحانه أن ينجيه من القوم الظالمين .

واتجه موسى عليه السلام إلى مدين ، ولما وصلها ووقف على البئر الذى يستقى منه أهل مدين وجد زحاماً شديداً لسقى الماشية ، ووجد امرأتين تمنعان مواشيهما من الماء حتى لا تصابا بأذى فى الزحام ، فقال لهما ماشأنكما ؟ فعرَّفتاه أنهما تنتظران أن ينصرف الرعاة فيخف الزحام ليسقيا مواشيهما وعرفتاه أن أباهما شيخ كبير عاجز عن الخروج والسقى ، فسقى لهما ، وبعد قليل جاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . . إلى آخر هذه القصة المعروفة .

هذه القصة لم يذكر الله سبحانه وتعالى فيها اسم « الشيخ الكبير » ولم تذكر الأحاديث الصحيحة الاسم ، ومن هنا اختلف العلماء فى الشيخ ، وهل كان شعيباً أو غيره ؟ ولمَ تتجه الأذهان إلى سيدنا شعيب عادة ؟

لقد اتجهت الأذهان إلى سيدنا شعيب بالذات لأن القرية التى وصل إليها سيدنا موسى هى قرية مدين ، وقد كان سيدنا شعيب بها ، وليس هناك من سبب سوى هذا ، وأن هذا لا يقوم وحده بتحديد اسم الشيخ الكبير .

وما هو الموقف السديد فى مثل هذه الأمور ؟ والأوفق أن يدع الإنسان أمر هذا الشيخ إلى الله ومهما بحث الإنسان فلن يصل إلى اليقين فى الموضوع ، إذ إن اليقين فى هذه الأمور البعيدة عنا فى الزمن بعداً كبيراً ليس بالأمر السهل ، وذلك لأن اليقين يتأتى عن النص الإلهى ولا نص ولا تاريخ ثابتاً فى هذا ، فوجب التوقف وهو أسلم ، خصوصاً أن الأمر ليس أمر عقيدة مطلوبة أو إيمان مفروض .

فى سيدنا لقمان عليه السلام

ظاهر نصوص الكتاب والسنة تدل على أن لقمان لم يكن نبيًّا ، بل كان رجلا أخلص لله نفسه فتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه ، وتحدرت من لسانه جداول يرتوى من سلسالها العذب كل من أضناه الفكر ، وأحرقت الحيرة قلبه .

وليس ما آتاه الله لقمان الحكيم بعزيز على غيره ، ففى بعض أفراد أمتنا المحمدية شخصيات امتازت بعمق نظرتها وجلاء فكرتها ، فعمر بن الخطاب أمير المؤمنين والخليفة الثانى لرسول الله ﷺ كان القرآن ينزل مصدقاً لقوله ، كما نزل حاكياً لقول لقمان ، ولم يكن عمر رضى الله عنه نبيًّا ولكنه كان من المخلصين ، وله من الحِكم التى تدل على صدق فراسته وعمق عبقريته ما يجعله فى الرعيل الأول من سادة الحكماء ، وكذلك لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه من الحِكم ما يجعل الناظر فيها والسامع لها يخر لله ساجداً لقوة جرسها فى سمعه ، واستيلاء معانيها على قلبه ، ولابن عطاء الله السكندرى وغيره من المتصوفين من الحِكم ما يرتقى من يعقلها من خصيصة الهوى والشهوات إلى أوج الخضوع لله تعالى والمسارعة فى الطاعات .

وما على الذى يريد شيئًا من ذلك إلاّ أن يستديم الإخلاص لله تعالى ، فقد ورد أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

فى سيدنا يونس عليه السلام واسم السمك الذى ابتلعه ، والبحر الذى ابتلعه فيه

اسم السمك الذى ابتلع سيدنا يونس هو الحوت ، وهو صنف من السمك معروف ، أما البحر الذى ابتلعه الحوت فيه فهو البحر المتوسط ، حيث ذكر الإمام القاسمى فى تفسيره أن الله تعالى أمر يونس أن ينطلق إلى أهل نينوى من أرض الموصل ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ، ونشر العدل وحسن السيرة ، وكانوا على الضد من ذلك ، لقد تعاظم كفرهم وتزايد فخشى أن لا يتم الأمر معهم ، فأَبَقَ من بيت المقدس إلى يافا ، ونزل فى سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها .

ومن المعلوم أن يافا على البحر المتوسط وأنه البحر الوحيد فى هذه المنطقة . قال بعض المحققين ، ولعل هذا الحوت من النوع المعروف « بالزفا » وهو من كبار الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم ، يبتلع الرجل برمته دون أن يخدشه أو يجرحه ، ولكن المعجزة مع سيدنا يونس عليه السلام أنه مكث فى بطنه مدة كبيرة مالكاً رشده ، ملازماً الدعاء والتسبيح والتضرع إلى الله سبحانه ، حتى فرج الله عنه الشدة وأزال عنه الكرب .

فى سيدنا يوسف عليه السلام

قال تعالى : (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) أى فى خبره وخبر إخوته فالذين أوقعوا سيدنا يوسف فى الجب هم إخوته من أبيه فقط .

وقد اختلف فى موقع الجب أى البئر الكبير ، فقيل ببيت المقدس وقيل بأرض الأردن .

وقد أورد الله سبحانه وتعالى قصة يوسف وإخوته فى القرآن الكريم من أجل العبر والعظات الكثيرة التى تؤخذ منها ، والواقع أن السورة الكريمة سورة يوسف ، مليئة بما يجب التأمل فيه والتروى ، والله سبحانه وتعالى يشير إلى ذلك فى هذه السورة على الخصوص إذ يقول فى مفتتحها : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) ويقول فى آخر السورة : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . . لقوم يؤمنون) .

فعلينا أن نتجه إلى عظات هذه السورة وعبرها لعل الله ينفعنا بها .

فى سيدتنا مريم عليها السلام

يقول الله تعالى فى سورة مريم : (واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًّا ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقيًّا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًّا) .

كانت مريم رضوان الله عليها من بيت طاهر وقد نذرتها أمها قبل أن تلدها قائلة : (ربِّ إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) ولقد تقبل الله نذرها بقبول حسن وأنبت مريم نباتاً حسناً ، ونشأت مريم على العبادة والزهد والتنسك ، ونشأت فى كفالة نبى الله زكريا يرعاها ويوجهها ، ولما وجدت أن الاختلاط بالناس لا يمكِّن الإنسان من التفرغ لما ينبغى للعبادة اتخذت مكاناً شرقيًّا بعيداً عن أهلها ، واستترت بحجاب حتى لا تحجبها رؤية الخلق وسماع أحاديثهم الدنيوية عما يفيضه الله عليها من أنواره وتجلياته ، وبينما هى فى هذا المعتكف ظهر لها كائن على الصورة البشرية فظنته إنساناً يريد بها السوء ، ويريدها على نفسها فاستعاذت بالله منه قائلة : (إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أى إن كنت تخاف الله وتتقيه وتعمل بأوامره ، والتَّقىُّ ينهاه إيمانه ودينه عن أن يسىء ، خصوصاً إذا ذكره إنسان بالله فتقى فى الآية صفة وليست اسماً لشخص .

هذا هو الصحيح الذى عليه جمهور المفسرين ، ولما أخبرها أنه رسول الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًّا هدأت من جانب ظن السوء به ولكن القلق غمرها لأمر آخر لسنا بصدد بيانه .

فى السيدة عائشة رضوان الله عليها

كانت السيدة عائشة رضوان الله عليها أحب نساء رسول الله ﷺ إليه وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه : فقال : عائشة ، فقيل له : ثم من قال أبوها : (صديقة بنت صديق)

فى ورقة بن نوفل

يتردد سؤال عن ورقة بن نوفل – أول من عرف رسالة الرسول – ﷺ هل مات مسلماً ؟ والحقيقة أن ورقة بن نوفل هو ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنها ، وقد ذهبت إليه مع الرسول ﷺ بعد أن رجع إليها يرجف فؤاده بعد أن جاءه جبريل لأول مرة وهو معتكف فى غار حراء ، وقص الرسول ﷺ ما رأى فقال له ورقة : « هذا الناموس الذى نزل على موسى ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك من بلدك ، فقال : أَوَ مُخرجىَّ هم ؟ قال نعم : لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عُودِى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ولم يلبث ورقة أن توفى بعد ذلك .

قيل فى الروض الآنف : آمن ورقة بن نوفل بالنبى ﷺ قبل البعثة ، أى قبل أن ينزل عليه ﷺ ، قول الله تعالى : (يأيها المدثر قم فأنذر) . روى الترمذى بإسناد جيد عن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : سُئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل كما بلغنا فقال : لقد رأيته فى المنام عليه ثياب بيض أظن أن لوكان من أهل النار لم أر عليه البياض .

قيل فى الروض الآنف : وكان يذكر الله فى شعره فى الجاهلية ومن ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهاً غير خالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا جدد
سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له وقبلنا سبح الجودى والجمد

والواقع أن فى كلام ورقة لرسول الله ﷺ ما يشعر شعوراً واضحاً بأنه آمن به وعلى ذلك يكون قد مات مسلماً .

فى أى يوم بدأ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتعلّم القرآن

كان عمر بن الخطاب شديداً على المسلمين قبل أن يسلم ، وكان الرسول ﷺ يدعو الله بأن يعز به الإسلام .

والسبب فى إسلامه أنه دخل على أخته وزوجها وعندهما من يعلمها القرآن ، فلما سمعوا طرقه على الباب اختفى زوج أخته وأخفت أخته الصحيفة ، ولما دخل عليها وسألها عما سمع وأغلظ لها

القول وضربها اعترفت له وأعطته الصحيفة فقرأ فيها : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . .) فدخلت حلاوة الإيمان فى قلبه وذهب مسرعاً إلى رسول الله ﷺ معلناً إسلامه .

ومن هذا اليوم بدأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ القرآن ويتعلمه .

فى سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه

روى البزار بسند فيه رجال وثقوا على ضعفهم عن أبى رافع أن رسول الله ﷺ قال فى على : « من أبغضه فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله ، ومن أحبه فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحبه الله » .

وروى الطبرانى بإسناد حسن ، عن أم سلمة قالت : « أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول من أحب علياً فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحبه الله ، ومن أبغض علياً فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله » .

وروى الطبرانى بإسنادين – قال فى مجمع الزوائد أحسب فيهما جماعة ضعفاء وقد وثقوا عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « أوصى من آمن بى وصدقنى بولاية على بن أبى طالب ، من تولاه فقد تولانى ومن تولانى فقد تولى الله عز وجل ، ومن أحبه فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحب الله تعالى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله عز وجل » .

وهذا هو الحديث الذى ذكره السائل : وقد ورد مما يؤيده فضلا عن ذلك حديث غدير خم ، وقد ورد بعدة روايات نذكر منها ما رواه أحمد بسند رجاله رجال الحديث الصحيح عن سعيد بن وهبة قال : نشدعلى عليه السلام الناس فقام خمسة أوستة من أصحاب النبى ﷺ فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

والمراد بالولاية هنا ولاية الدنيا الحب وعدم الذم أوالانتقاص كما يفعل الجاهلون ، أما ولاية الملك والسلطة فغير مرادة هنا ، لأن النبى ﷺ أوصى ببيته خيراً وأوصى بعلى خيراً ، ولم يوص بملك أو خلافة لأحد . . وإن كان قد أشار إشارات واضحة إلى خلافة أبى بكر ، وقد نفى على رضى الله عنه أن يكون الرسول ﷺ أوصى له بشىء أو اختصه بعلم خاص كما أشاع بعض الناس ، كما فى صحيح البخارى ، من أن علياً سُئل هل أوصى لكم رسول الله ﷺ فقال : « ما عندنا إلا كتاب الله وهذه الصحيفة ، فإذا فيها العقل (أى الدية) وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر » .

والمسلمون جميعاً يحبون سيدنا علياً كما يحبون أهل البيت ، لأنهم من رسول الله ﷺ ، والمسلم الصادق يحب سيدنا أبا بكر الصديق رفيق رسول الله ﷺ فى الغار وصاحبه فى الهجرة ، والذى يقول له ﷺ : (لا تحزن إن الله معنا) ويحب المسلمون عمر بن الخطاب الفاروق الذى كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً غيره ، والذى يقول فيه رسول الله ﷺ فيما ذكره عن المحدثين : « فإن كان فى أمتى محدَّث فعمر منهم » .

لماذا يُقال عند ذكر أحد الصحابة « رضى الله عنه »
وعن ذكر على « كرم الله وجهه » ؟
ومن هم الذين قال الله فيهم : رضى الله عنهم ورضوا عنه

الرضا من الله سبحانه وتعالى على العبد معناه قبول عمله ومكافأته عليه ، ورضا العبد عن الله معناه فرحه بما أعطاه من أنواع الكرامة والنعيم .

والذين رضى الله عنهم ورضوا عنه هم المؤمنون المتقون الذين ذُكروا فى قوله تعالى فى سورة البينة : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه).

ويدخل فى هؤلاء كثير من الطوائف على تفاوت فيما بينهم ، يدخل فيها الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى قوماً معينين وأعلن أنه رضى عنهم ، يقول الله سبحانه وتعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة).

وكل بيعة للجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس إنما هى رضاء لله سبحانه وتعالى ، والذين يبايعون الله بأموالهم وأنفسهم مخلصين ضمن الله لهم الجنة ، فهو راضٍ عنهم وهم راضون عنه ، والآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن كل من آمن وعمل صالحاً – أى التزم بحدود الله فى أوامره والتزم بحدود الله فى نواهيه – فقد رضى الله عنه وقد رضى عن الله سبحانه وتعالى .

وسيدنا على هو ابن عم رسول الله ﷺ ، وقد أسلم صغيراً فلم يضع جبهته على الأرض سجوداً لصنم ، إذ إنه دخل فى الإسلام وهو غلام ومن هنا كرم الله وجهه بأن لم يسجد إلا لله سبحانه .

سيدنا على كرم الله وجهه

كان لسيدنا على أنصار وشيعة بايعوه بالخلافة ووافقوه على رأيه فى محاربة من لم يقرّوا له بالخلافة لخروجهم على رأى جماعة المسلمين.

وفى موقعة صفين – بين علىّ ومعاوية – كاد علىّ أن ينتصر، فرفع جيش معاوية بمشورة عمرو بن العاص المصاحف على الرماح ونادوا بيننا وبينكم كتاب الله. « من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ».

كان الخوارج أو القراء أول من أشار بقبول التحكيم وشكلوا قوة ضاغطة على سيدنا علىّ، وأحاطوا به وهددوه بالقتل كما فعلوا بعثمان، إذا لم يقبل التحكيم، وأراد أن يختار ابن عباس حكماً عنه فأبوا إلا أبا موسى الأشعرى.

فلما ظهرت نتيجة الحكم ثار الخوارج على علىّ لأنه قبل التحكيم وانفصلوا عنه، ناقشهم فعادوا إلى الجماعة، ثم انفصلوا مرة ثانية، ناقشهم عبد الله بن عباس فرجع أكثرهم وبقيت جماعة تركهم علىّ، لكنهم أفسدوا فى الأرض وقتلوا الأبرياء واحترموا ذمة الكفار، ولم يحترموا حرمة المسلمين، قاتلهم علىّ بعد أن أعلنها صريحة مدوية: أنهم المارقة الذين قال الرسول ﷺ فى حقهم: « يمرقون، من الدين كما يمرق السهم من الرمية ».

سيدنا أبى الدرداء رضى الله عنه

أبو الدرداء رضى الله عنه، كما يقول الذهبى، الإمام القدوة قاضى دمشق، وصاحب رسول الله ﷺ، أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس حكيم هذه الأمة، وسيد قرائها.

وهو معدود فيمن قرأ القرآن على الرسول ﷺ ولم يثبت أنه قرأ على غير الرسول ﷺ.

وهو معدود فيمن جمع القرآن فى حياة رسول الله ﷺ. وتصدر للإقراء فى خلافة عثمان رضى الله عنه بدمشق، وولى بها القضاء، أسلم أبو الدرداء يوم بدر ثم شهد أحداً وكان فيمن رد المشركين عن الجبل ومنعهم من الانقضاض على المسلمين، وقال فيه رسول الله ﷺ نعم الفارس عويمر..

وقد جمع رضى الله عنه بين العلم والعمل، وقد غلب عليه جانب التعبد.

ولما رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه استغراق أخيه أبى الدرداء فى العبادة وكان الرسول ﷺ قد آخى بينهما ، أقسم عليه ليفطرن ، ولينامن ، وقال له إن لجسدك عليك حقًا ولربك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا .

أما عن قبره فهو موجود بدمشق ، قال الذهبى :

لما كان زمن عمر كتب إليه يزيد بن أبى سفيان أن أهل الشام قد كثروا وملئوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم فى الدين ، فأعنّى برجال يعلمونهم فأرسل إليه ثلاثة رجال : ثم ذكر أن الثلاثة كانوا عبادة بن الصامت بحمص ، وأبى الدرداء بدمشق ، ومعاذ بن جبل بفلسطين . . ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات ، وكان موته سنة ٣١ أو سنة ٣٢ من الهجرة النبوية .

وقد أسهم مساهمة كبيرة فى نشر القرآن الكريم حتى كان من فى حلقته أزيد من ألف رجل ، ولكل عشرة منهم ملقن ، وكان أبو الدرداء يطوف عليهم قائماً فإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبى الدرداء يعرض عليه قراءته .

رحم الله أبا الدرداء وأحسن مثواه .

سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه

يقول الإمام الذهبى :

إنه الإمام الفقيه المجتهد الحافظ ، صاحب رسول الله ﷺ ، أبو هريرة الدوسى اليمانى سيد الحفاظ الأثبات .

كان مقدمه على رسول ﷺ وإسلامه فى أول سنة سبع عام خيبر ، واختلف فى حضوره هذه الموقعة أو مجيئه فى آخرها بعد الفراغ منها ، وقد صحب الرسول ﷺ أربع سنين . . وقد لازم المسجد وقاسى الجوع ، وعاش عيشة متقشفة مع أهل الصّفّة .

وقد انتفع بملازمة الرسول ﷺ قال له مروان يوماً : يا أبا هريرة . . إن الناس قد قالوا : أكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، وإنما قَدِمَ قبل وفاته بيسير . فقال أبو هريرة : قدمت والله ورسول الله ﷺ بخيبر ، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين سنة ، سنوات . . وأقمت معه حتى توفى . . أدور معه فى بيوت نسائه ، وأخدمه ، وأغزو وأحج معه ، وأصلى خلفه ، فكنت أعلم الناس بحديثه . وعدّه ابن سعد من كبار المفتين بالمدينة بعد وفاة عثمان رضى الله عنه . .

وكان كثير العبادة ، قال أبو عثمان النهدى ، تضيفت أبا هريرة أى كنت ضيفاً عنده –

سبعاً . فكان هو وامرأته وخادمته يتناومون الليل أثلاثاً : يصلى هذا ثم يوقظ هذا ويصلى هذا ثم يوقظ هذا وكان يصوم الاثنين والخميس . .

وولاه عمر على البحرين فكان فيهم نعم الأمير – ولاه معاوية على المدينة وكان مروان فى ولايته على المدينة يستخلف أبا هريرة .

ونخلص من ذلك إلى أن أبا هريرة عاش فترة إسلامية بالمدينة مصاحباً الرسول ﷺ ، وخادماً له وكان من أئمة المحدثين والمفتين وعلماء المسلمين ، جمع بين القول والعمل وكانت وفاته بالمدينة ودُفن بالبقيع وكل ما يقال عن أبى هريرة من سوء فإنه من نزغ الشيطان ، فقد كان رضى الله عنه من صفوة الصحابة رضى الله عنه وأرضاه .

فى آل البيت رضوان الله عليهم

لقد وضع الله سبحانه وتعالى البركة فى نسل سيدنا الحسن وفى نسل سيدنا الحسين ، وتفرق أفراد الأسرة الشريفة فى أقطار الأرض فراراً من الاضطهاد ، أو سعياً وراء الرزق أو لغير ذلك من الأسباب .

وليس ببعيد إذن أن تكون هذه الأسرة ، أو تلك فى هذا القطر أو فى ذاك من ذرية سيدنا الحسن أو من ذرية سيدنا الحسين ، أو من ذريتهما معاً أى تكون الوالدة حسنية والوالد حسينيًّا أو العكس .

ذلك كله ممكن ولا استحالة فيه ، ومرجع الأمر إذن إنما هو شجرة الأنساب .

على أن ما يجب أن يكون نصب أعيننا أن الميزان الإلٰهى إنما هو التقوى ، ولقد قال الله سبحانه:(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولقد مات ابن سيدنا نوح غريقاً مشركاً ، ولما قال سيدنا نوح يستعطف ربه فى ابنه :

(ربِّ إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق) .

قال الله له موضحا ومربيا ومعلماً إنه ليس من أهلك ، ثم علل سبحانه وتعالى ذلك بقوله : (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وزاد سبحانه هذا التعليل شيئاً من العتاب فقال : (إنى أعظك) فالعبرة إذن إنما هى بالتقوى .

ولقد ضرب الله الأمثال للناس موضحاً هذا المعنى على أنحاء شتّى فقال سبحانه : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط).

ثم قال سبحانه فى الطرف الآخر :

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) . وموازين الله سبحانه لا تنظر إلى نسب ولا إلى مال ولا إلى جاه ، ولا إلى عصبية : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) .

ولقد قال ﷺ : سلمان منا آل البيت ، وإنما كان سلمان من آل البيت – وهو فارسى – لأنه رضى الله عنه كان يعمل ما يرضى الله ورسوله .

ويقول الله تعالى : (فإذا نُفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . .) وقال ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى لن أغنى عنك من الله شيئاً » ، وقال : « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبداً حبشيًّا ، والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشيًّا » ، العبرة إذن إنما هى بالتقوى .

فى عبد الله بن سبأ ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه .

يختلف تقدير أسلافنا رضى الله عنهم بالنسبة لعبد الله بن سبأ وكعب الأحبار ووهب بن منبه .

فأما عبد الله بن سبأ فقد خرج على الإسلام وأثار الفتن على عثمان رضى الله عنه ، وكان عامل هدم وفساد فى جسم الدولة الإسلامية عقيدة وسياسة . . وأما كعب الأحبار : فقد روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قوله : إن عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً .

وروى معاوية رضى الله عنه ، فيما رواه البخارى من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن قال : إنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان لمن أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب .

وكعب الأحبار أسلم فى عهد سيدنا عمر وهو لا يروى عن النبى ﷺ مباشرة وإنما يروى على الخصوص عن عمر وصهيب وعائشة رضى الله عنهم .

ورواة الحديث يحتاطون من روايته ولم يرو عنه الإمام البخارى . وقد نخل أسلافنا رضى الله عنهم حديث رسول الله ﷺ نخلا دقيقاً وبينوا منه الصحيح وغير الصحيح .

أما وهب بن منبه فيقول عنه صاحب ميزان الاعتدال إنه : « من خيار علماء التابعين وله فى آخر خلافة عثمان حديثه عن أخيه همام فى الصحيحين » . أى البخارى ومسلم .

وجمهور المحدثين على أنه كان ثقة صادقاً ، ومن ثقة المسلمين فيه أنه كان على قضاء صنعاء ، وقد قال مثنى بن الصباح : « لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوء » ولقد قال عنه أبو زرعة والنسائى : ثقة . وذكره ابن حبان فى الثقات .

وسئل رضي الله عنه في الدين والحياة

فى أمر الحكم فى الإسلام

إن أمر الحكم فى الإسلام مبنى على الشورى يقول سبحانه : (وأمرهم شورى بينهم) ويقول تعالى لرسوله ﷺ : (وشاورهم فى الأمر) وأمر الحاكم فى الإسلام مبنى على الرعاية ، يقول صلوات الله عليه وسلامه : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » فالحاكم داخل فى هذا العموم الذى فى الحديث الشريف . والمثل الأعلى فى الإسلام بعد الرسول ﷺ وبعد ، أبى بكر رضى الله عنه هو سيدنا عمر بن الخطاب الذى كان يمعن النظر فى كل صغيرة وكبيرة مما يقترح عليه من أمور الدولة والذى كان يسهر على شئونها ، مؤمناً بأن الله سبحانه سائله عما استرعاه كيف كان تصرفه فيه . . وقد حذر الرسول ﷺ أن يهمل الحاكم فى العناية بأمور الدولة ، يقول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » .

وفيما رواه الإمام مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : فى بيتى هذا : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به » . وإن الحاكم الذى لا يمعن النظر فيما يُقترح عليه من أمور الدولة غاش لرعيته وهو من أجل ذلك داخل فى حكم رسول الله ﷺ بتحريم الله عليه دخول الجنة . وأما سماع أقوال الوشاة فإنه من الغيبة ، لقد حذر الله ورسوله عن الغيبة : قولها وسماعها ، وما أبشع الصورة التى صورها الله عن الغيبة . يقول سبحانه (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) .

ويقول سبحانه (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

وإن الحاكم الذى يصغى إلى أقوال الوشاة ولا يمعن النظر فى تحقيق ما يسمع مهمل أيضاً يحرم عليه دخول الجنة بنص الحديث . ولقد كان رسول الله ﷺ يوصى بأن لا يحدثوه عن أصحابه بما يسىء ، لأنه يريد أن يلقاهم دائماً بصدر منشرح .

فى القانون الإلهى والقانون الوضعى

كل حضارة لها شطران : شطر مادى ، وشطر روحى ، أو معنوى أو نظرى بحت . ففيما يتعلق بالشطر المادى ، فهو هذا الشطر الذى يعتمد على الحس وعلى العقل ، ويعتمد على المنهج السليم ، وهو منهج الملاحظة والتجربة والاستقراء .

وهذا الشطر يتطور ويرتقى ويتكون شيئاً فشيئاً ، ويسير دائماً فى طريق الرقى ، لأن هذا الشطر من الحضارة له مقياس يحسم به الخطأ والصواب ، ويحسم به الباطل من الحق ، وهذا المقياس هو التجربة ، فكل أمر يختلف فيه العقل أو الحواس التجربة تحسمه ، لأنها خير مقياس يضم الحواس ويلزم العقل .

ومن هنا فقد كانت الثمرة الدائمة للحضارة هى : الترقى الدائم ، وقد وصل العالم الآن إلى القمر ، لأن التجربة المستمرة ، عبر أخطاء تم تلافيها أولا بأول أوصلت الدفع الصاروخى إلى التغلب على العوائق التى كانت تثيرها الجاذبية الأرضية واختلاف طبقات الجو ، من حيث الطبيعة والمناخ والتكوين .

وليس الأمر كذلك ، فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى من الحضارات الإنسانية .

وأقصد بهذا الشطر النظرى : العقيدة والأخلاق والتشريع ونظام المجتمع . هذا الشطر لم يصل بعد إلى الشأو الحاسم فى الرقى الذى وصل إليه الشطر المادى ومازال فيه مستمرًا ، ربما لأن من خصائص النظريات العقلية أنها لا مقياس لها . ما هو المقياس الذى نقيس به الخطأ والصواب ، فيما يتعلق بالسلوك من ناحية العقل ؟ ليس هناك مقياس . وعقليًا ، ما هو المقياس الذى نقيس به الخطأ والصواب فيما يتعلق بالعقيدة ؟

وعقليًا ما هو المقياس الذى نقيس به الخطأ والصواب فيما يتعلق بالمجتمع ؟ لا شىء . . وعقليًا ما هو المقياس الذى نقيس به الخطأ والصواب فيما يتعلق بالتشريع ؟ لاشىء . . ولهذا بقى هذا الشطر حتى الآن خلال تاريخ الإنسانية الطويل ظنيًا يمكنك أن تثبته بأدلة ، هذه الأدلة يمكنك دائماً أن تنفيها وأن تدعمها . . ثم يأتى آخرون ويهدمون العموم وينفون النفى .

وكل مسألة من مسائل التشريع فيها رأى معارض لرأى آخر . ومنذ أيام (أرسطو) ومقياسه الذى هو المنطق ، والإنسانية تبحث بجهودها الخاصة عن مقياس للأمور النظرية وللتشريع وللأخلاق وغير ذلك . ومنذ ابتداء العصر اليونانى قبل الميلاد والإنسانية تضع فى التشريع ونظم

المجتمع وأخلاقياته نظماً كثيرة وتشريعات شتى لاتستقر عليها سوى سنين أو قرون معدودات ثم لاتلبث أن تهجرها .

ولنتوقف قليلا عند المفكر الفيلسوف الإغريقى (أفلاطون) الذى حاول أن يوجد تشريعات أو نظاماً للمجتمع . . فألف(جمهوريته) كنظام للمجتمع المتكامل .

لقد قسمه إلى طبقات ، واعتقد أن نظام الطبقات هو النظام الطبيعى فى العالم ، فهناك طبقة المفكرين فى المجتمع ، وهناك طبقة العواطف ، وهناك طبقة الشهوات ، وقد سمى الطبقة الأولى الطبقة الذهبية « طبقة رجال الفكر » وسمى الطبقة الثانية الطبقة الفضية « طبقة الجنود » ، وسمى الطبقة الثالثة الطبقة النحاسية ، وهى طبقة « التجار والصناع والزرّاع والعاملين فى الإنتاج » .

حاول (أفلاطون) بعد هذا أن يضع نظاماً لكل طبقة ، فحدد سن الزواج للفتاة ، وسن الزواج للرجل من كل طبقة ، ففيما يتعلق بطبقة الإنتاج مثلا . . حدد الزواج للفتاة فيما بين سن العشرين ، وسن الخامسة والأربعين ، والأطفال الذين تنجبهم الفتاة بين هذين السنين هم الأطفال الشرعيون فقط فى اعتباره ولا شرعية لمن تنجبهم فى غير هذه السن ، ويتركون فى العراء حتى يموتوا ، وفيما يتعلق بالرجل فقد اعتبر شرعية الأطفال واجبة فيما بين سن الرابعة والعشرين وسن الخمسين ، ومن هنا لا يتم الإنجاب إلا فى هذه الحدود ، وإذن فالأطفال الذين يولدون خارج هذه الحدود ماذنبهم ؟ ذنبهم أنهم أتوا إلى الدنيا فى غير هذه السن المحددة .

وأما طبقة الجيش فينبغى ألا تتزوج – فى رأى أفلاطون – زواجاً مستمرًّا ، ويجب ألا تمتلك شيئاً : لا ملابس ، ولا عقاراً ، ولا مالا ، ولا زوجة ، ولا أولاداً ، وإنما يأتون فى ليلة معينة ويعقدون زواجاً بالقرعة لمدة سنة . والأطفال الذين يأتون ثمرة هذا الزواج يودعون فى مصحة أو ملجأ ويكونون أبناء للدولة ، فضلا عن هذا يرى أن الشاب الممتاز جسميًّا وعقليًّا ، يتصل جنسيًّا بمجموعة كبيرة من الفتيات الجميلات . ومنطقه فى هذا ، كما يقول فى جمهوريته نحن نعنى بالخيل ، فننجب منها سلالات ممتازة ، فلِمَ لا نعنى بالبشر ، مثلما نعنى بالخيل ؟

إن الشبان الممتازين صحيًّا وبدنيًّا ، وجماليًّا ، يجب أن نأتى لهم بالنساء الممتازات صحيًّا وبدنيًّا وجماليًّا ، ولا نجعل بينهما قيوداً فى الاتصال الجنسى ثم نأخذ السلالة الممتازة الناجمة عن اتصالها ، لتكون نواة لارتقاء نوعية البشر فى الجمهورية .

ثم إن أفلاطون حدد الملكية ، فلم يسمح للرؤساء وهم طبقة رجال الفكر أن يملكوا ، ولم يبحها كذلك – كما رأينا – للجند . . وإنما أباحها للرجال من طبقة الإنتاج ، وبشرط أن يكون هناك حد أقصى للملكية ، لا يتجاوز أربعة أمثال المتوسط ، يعنى مثلا : إذا كان متوسط نصيب

الفرد فى مدينة ما ، نصف فدان ، فيجب ألا يملك شخص أكثر من فدانين ، وفى جمهوريته : إذا ولد طفل مريض يُعدم .

وإذا ولد طفل مصاب بعاهة يعدم ، وإذا ولد طفل مشكوك فى ذكائه يعدم .

وليس فى جمهورية « أفلاطون » مكان للشعراء والأدباء ، ولقد دُعى « أفلاطون » نفسه مرة لتطبيق جمهوريته ، فأخفق إخفاقاً كاملا ، ثم دُعى مرة أخرى بعد سنوات فأخفق أيضا إخفاقاً كاملا .

ومضت الإنسانية – فى طريق التجربة والخطأ – تبحث عن تشريع يحكمها ، ويزيل خلافاتها ويقيل عثراتها . . وكان من تجاربها المثيرة فى هذا المجال مذهب المزدكية ، الذى استفحل أمره لدرجة أن ملك الفرس اتبعه واعتنقه وطبقه ، وهو مذهب يبدأ منطلقه الفكرى من سؤال مطروح هو : ما الذى أقلق الإنسانية وأرقها وأتعبها منذ فجر التاريخ ؟ وأجاب المذهب المذكور قائلا : (المال والنساء) ولكى نزيل قلق الإنسانية فلابد أن تكون هناك شيوعية كاملة فى المال والنساء .

وصادف ذلك هوى لدى ملك الفرس ، فاتبع المذهب ، وذهب مزدك وأتباعه إلى القصر وأحبوا الاتصال بنساء الملك وبناته .

وأخذ ولى العهد يتضرع إلى مزدك ويرجوه ،فى أن يترك والدته وإخوته حتى لقد قبل قدميه ، وهو يتضرع إليه فترك مزدك أمه وإخوته ، ثم آل المُلْك إلى ولى العهد فأتى بمزدك وقتله .واندثرت تجربة إنسانية أخرى ، تبحث عما تعتقد أنه عدل ، وحق .

واستمرت الإنسانية فى بحثها القلق ، الذى تدفع ثمنه دائماً من أخطائها .

فتأتى مثلا إلى المذهب (المانى) نسبة إلى شخصية المفكر الفارسى (مانى) قال « مانى » إن العالم فى ضيق دائم ، وكرب مقيم ، بسبب الصراع والجشع والعداوات والبغضاء المستشرية بين الناس فى سبيل أغراض الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يستمر هذا العالم ؟ إن مجموعة من الرجس والقاذورات والشرور ، يجب أن تزول ، وخرج الفيلسوف العبقرى من هذا السؤال برأى هو : إذا تطهر العالم من الناس فقد تطهر من البؤس والشقاء والشر ، ولكى يتم تطهير العالم من الناس ، فقد شرع « مانى » أن يمنع الزواج ويمنع الاتصال الجنسى . . وبهذه الطريقة لا يولد أطفال فى المجتمع ويموت الناس ويندثرون فى مدى سبعين أو ثمانين سنة ، وربما مائة ، وبهذا تتطهر الأرض من الرجس ، والضلال والشر .

واتبع « مانى » كثيرون ونقص النسل ، وكان فى هذا إضعاف للدولة ، وأتى به ملك الفرس

وسأله عن مذهبه أمام حشد من الناس من أتباعه ، فراح « مانى » يحدثه بمنطقه عن مذهبه ويدعو إليه .

فقال له ملك الفرس : مادمت ترى أن تطهير العالم من الناس ينهى الشقاء فيه . فلنبدأ بتطهيره منك ، وفعلا أمر بقتله ، وقتل أتباعه .

الاختلاف فى التشريع لاحد له فهناك تشريع شيوعى ، وهناك تشريع رأسمالى ، والشيوعية نفسها ملل ونحل ، فهناك شيوعية يمينية ، وهناك شيوعية يسارية ، وهناك شيوعية اشتراكية ، وهناك شيوعية معتدلة ، وهناك شيوعية متطرفة وغير ذلك .

وفى « الرأسمالية » يمين متطرف ، ويمين معتدل ، ويمين اشتراكى يسارى ، يحد نوعاً من الملكية .

وبعض هذه التشريعات الحديثة تلغى الأديان نفسها ، « والصهيونيون » يعترفون علانية فى كتاب « برتوكولات صهيون » أنهم هم الذين رتبوا نجاح كارل ماركس الذى خرج على العالم بأنه يجب أن يزول الدين ، ويجب أن تتطهر الإنسانية من الدين ، ومن فكرة الإله .

ووجد « كارل ماركس » من يتبعه وينشئ دولا على منهاج مبادئه ، ولست أدرى هل يمكن أن يكون هناك دليل أقوى من ذلك ، على أن الإنسانية التى وصلت إلى الذرا فى حضارتها المادية ، قد توقفت فى بعض نواحيها ولم تتقدم خطوة واحدة من الناحية الروحية .

والخلاصة : أنه ليس هناك مقياس عقلى واضح أو مبين أو ثابت فى المسائل العقلية والنظرية والتشريعية يفصل بين الحق والباطل . . وإلا لما تقبلت بعض المجتمعات ونفذت أفكاراً تدعو إلى شيوعية النساء وشيوعية المال وإلهاء الناس بالمسرح عن الله ، كما قال « كارل ماركس » وفى هذا يقول « سقراط » إن العقل الإنسانى بالنسبة للمسائل النظرية كلوح من الخشب ، يريد أن يعبر به الإنسان بحراً هائجاً ، لجىّ العواصف .

ولهذا التعارض كان لابد من سفينة آمنة ، لا تغرق فى البحر بالإنسانية ، ولا تزعزعها العواصف والأعاصير ، ولقد نزلت الأديان هداية للعقل فى الجانب النظرى . .

نزلت فى التشريع ، والأخلاق ، ونظام المجتمع ، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع أنه هاد للعقل ، ولا يتأتى أن يكون هناك إيمان أبداً بدون الاعتقاد بأن الدين هاد للعقل ، ويكون خارجاً عن دائرة الإيمان مَن اعتقد غير هذا .

ونزل التشريع الإلهى معصوماً ، وهذه قضية أخرى يؤمن بها كل مؤمن ، هذه العصمة يعبر

عنها الله سبحانه وتعالى بقوله : (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) . وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

ومن خصائص التشريع الإسلامى الإلهى أنه يكف الإنسان تماماً ، عن محاولة الخروج عليه . أما بالنسبة للتشريع الوضعى فإذا أنت وجدت فرصة للخروج عليه ، دون أن تضبط فلا جناح عليك ، مادامت عين القانون لم تلمحك لدرجة أن بعض الفلاسفة المنحرفين مثل « نيتشه » الذى أشاد به « اليهود » وروجوا له ، يقول : إذا أمكنك أن تخرق القانون الوضعى فاهدمه إذا استطعت هدمه ، إذا كان ذلك فى مصلحتك . بشرط أن تكون ذكيًّا لا تقع تحت طائلته . وبتعبير آخر : إذا كنت تقود سيارتك بسرعة فائقة وصدمت إنساناً ، وقتلت بذلك النفس التى حرم الله بغير حق ، واستطعت أن تفر دون أن تضبط ودون أن يتمكن أحد من التقاط رقم سيارتك ونجوت من المحاكمة والعقاب فإنك تكون « ماهراً » أو « شاطراً » لأن القانون الوضعى لم يضبطك . . أما القانون الإلهى فهو يكف الإنسان ظاهراً وباطناً ، فى حين أن القانون الوضعى لا يكفه إلا ظاهراً ، فالله عليم بذات الصدور ، ولكن القانون الوضعى عليم بما يراه الشهود فحسب .

ومن خصائص القانون الإلهى : أنه حينما يطبق تعزُّ الدولة التى تطبقه . . وحينما يغفل عنه يُذلّ المجتمع الذى أدار له ظهره . . إما بالتناحر والبغضاء فيما بين الناس ، وإما باستذلال المجتمع للفقراء أو للاستعمار ، أو للتخبط والهزيمة .حينما طبقته الأمة الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ ، وحينما طبقته فى عهد الصحابة – الخلفاء الراشدين – كانت الأمة التى لا تغيب عنها الشمس ، وليس بمنكور قصة الخليفة الذى رأى سحابة فقال لها : « امطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » . .

طبقت الشريعة فطهرت النفوس ، وظهرت القوة وتم النصر ، وكان المسلمون يخوضون المعارك بروح الفداء والشريعة والإيمان ، وكانوا ينتصرون على أضعاف أضعافهم عدداً ، وعلى من هم أقوى منهم سلاحاً وعدة « كما حدث فى معركة القادسية مثلا » ، لأن هناك جزءاً من حافز القتال وهو إيمان المؤمن بعدالة القانون الذى يحكمه ، والمساواة بينه وبين جميع الرعايا فى هذه المعادلة ، ومن هنا يقبل الموت والفداء سعيداً مستبشراً ساعياً إلى النصر ، أو الشهادة بدلا من أن يتباطأ أو يتخاذل ، وشعاره المضمر أو المعلن : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » .

وقد كان الحث على لزوم الشريعة حازماً ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون) .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما

شَجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ما المانع من تطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من القانون الرومانى وقانون نابليون ؟ حقًّا : لماذا ؟

لقد انتصرت الأمة الإسلامية ، وعزت فيما سبق فى ظل إيمان ثابت وطيد بالإسلام ، وكانت محترمة بين الأمم ، مهيبة الجانب ، قوية الشوكة طيلة تمسكها بالشريعة الإسلامية ، ثم بدأت شيئا فشيئاً تنصرف إلى الانحلال والبعد عن الشريعة ، وجاء الاستعمار ، فكان من أهم أهدافه أن يستذلها عن طريق القضاء نهائيًّا ، على شريعة الله واستبدالها بقانونه الوضعى ، أتى بعشرات القضاة من بلاده ، بثيابهم المزركشة وشعورهم المستعارة ، ووقارهم المزيف ليحكموا بغير ما أنزل الله ، وباسم الحرية الشخصية قتلوا كرامة الإنسان بإباحة الرِّبا ، والبغاء العلنى . وقد حرص المستعمرون قبل أن يخرجوا من قطر من الأقطار بعشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر على أن يخططوا لمستقبلهم فى تلك الأقطار ، ولم يجدوا خيرًا من أن يذيبوا – نهائيًّا – طاقات الأمة التى يتركونها فى غمار ثقافتهم والتزاماتهم الفكرية ، ومقاييسهم الحضارية فيما يتصل بالسلوك والتشريع .

وفى بعض الأقطار الإفريقية ، حين أرادوا أن يجعلوها موالية للغرب أخذوا خمسة وثلاثين ألف لقيط ويتيم ، وكفلوا لهم رعاية أسطورية فى ظل مذاهب تعادى الإسلام ، وخرَّجوا منهم المهندسين والأطباء والقادة والإداريين ، فلما خرج الاستعمار يجنوده بقى أبناؤه الروحيون هم الذين يقودون أفئدة تهوى إلى المستعمرين بمثلهم العليا ، وأساليبهم وأخلاقياتهم ، وترتبط بهم وتدور فى فلكهم . ففى مصر مثلا ، خرج الاستعمار بجنوده بعد أن زرع فيها مدرسة الحقوق ، التى كان نصيب الشريعة الإسلامية فيها ساعتين من اثنتين وعشرين ساعة فى الأسبوع ، وترك قوانين يخالف بعضها ما أنزل الله ، ولما تملكنا نظام سياستنا التعليمية لم نخرج عن قوانين نابليون ، والقانون الرومانى ، والقانون البلجيكى . والنتيجة أن المحامى والقاضى وعضو النيابة الذى يتخرج فى كلية الحقوق فى مصر ، وفى كثير غيرها من البلاد الإسلامية ، يخرج بعقلية أوربية ، وفكر أوربى ، وأنماط أوربية فى القياس والتوجيه والمنطق . . وماذا يريد الاستعمار أكثر من أن يربط إليه أبناء أمة يتركها بهذه الطريقة ؟ الذى حدث شىء يستمر الإنسان فى الحديث عنه فى حسرة وألم يحزّان فى النفس .

حدث فى غيبة التشريع الإلهى ، هذه الكثرة من جرائم السرقة لو اتبع التشريع الإسلامى لما كانت هناك سرقة ، ولننظر إلى بلاد أخرى غيرنا ، بلاد حولنا تطبق شريعة الإسلام وحدود الله فى جرائم السرقة .

فى المملكة العربية السعودية مثلا : قبل أيام الملك « عبد العزيز آل سعود » كانت هناك

سرقة ، وكان هناك نهب وقتل ، وكان حجاج بيت الله الحرام يسيرون فى حراسة الجيش ، لدرجة أن مصر كانت ترسل مع حجاجها كتيبة من الجيش تحرس الحجاج .

وجاء الملك « عبد العزيز » وأمر بتطبيق شريعة الله وحدوده ، فانتهت جريمة السرقة ، أو كادت تنتهى ، ولقد حدث أن زار السعودية منذ سنين قليلة وفد أوربى يضم مفكرين ومشرعين وفلاسفة من إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، وانبهر الوفد لسبق الإسلام فى كثير من التشريعات ، فيما يتعلق بحقوق الإنسان ، بل اكتشف أن بعض مواده لم ترق إليها الحضارات الموجودة بعد . ولكنه تساءل فى نهاية الحوار الذى دار بينه وبين بعض علماء الإسلام السعوديين ، تساءل عن قطع يد السارق : أليس فى ذلك بشاعة ؟ أليس فى ذلك قسوة ؟

فقال العلماء السعوديون للعلماء الأوربيين : انظروا إلى هذه الصحراء المترامية يسير فيها الإنسان وقد لا يسمعه فيها أحد أو يراه أحد أو يحس به أحد واملئوا سيارة من الذهب أو الفضة أو المال أو النفائس وانتقلوا بها فى الصحراء من مدينة إلى مدينة ، أو فاتركوها إذا تعطلت السيارة بها وسط الصحراء وهيموا على وجوهكم بحثاً عن المعونة ، ثم عودوا إلى السيارة تجدون ما بها سليماً لم تمسه يد ، وقارنوا بين هذا وبين ما يحدث فى مدينة مثل « نيويورك » فى ساعة واحدة ، كم حادث سرقة وقع ؟ وكم حادث قتل ؟ وكم حادثة اغتصاب ؟ .

وقال العلماء السعوديون : إنه فى مدى ثمانية عشر عاماً لم تطبق حدود الله فى قطع اليد – على أكثر من ستة أو سبعة على أكثر تقدير ، ولكن جريمة السرقة انقطعت تماماً ، وماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ، هذه الأنهار من الخمور ، والكثرة الكاثرة من الخبائث والمنكرات . مصر بلد إسلامى – ومازالت الأقطار الأخرى تحسن الظن بمصر ، لكن البعض فى هذا البلد يتباهى بإنتاج البيرة والخمر ، فى الأسبوع الذى ذكرت فيه الجرائد أن مصر كسبت مليون جنيه من البيرة ، كتبت هذه الجرائد نفسها أن « السينما » خسرت ثمانية ملايين جنيه ، ثم يقولون – فى تبرير إباحة الخمور إنما نبيع الخمور من أجل السائحين ، كل هذا هُراء ، لا يأتى إلا من المنحرفين عقلياً ، وأخلاقيًا ، وليس عندهم فكرة عن الآية الكريمة :

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) يجب أن يعود التشريع الإسلامى – يعود لأمرين :

١ – الأمن على النفس ، والمال ، والعرض ، يتسنى ذلك حتى لمن لم يكن مسلماً .

٢ – استمرار النصر بتوفيق الله تعالى .

حينما كان شعار الجندى المصرى « الله أكبر » فى (حرب رمضان) صمدت « الله أكبر »

مبشرة ، بزمرة من المؤمنين انفصلت عن الانحراف ونطقت بكلياتها « الله أكبر » ولكن هذا النصر له قوانين لضمان استمراره ، إن الله سبحانه وتعالى ذكر قوانين النصر والهزيمة .

فإذا ما تخلينا عن الله سبحانه وتعالى : تخلى الله عنا ، أما قوانين النصر فمنها : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتو الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) كل بحسب موقعه فى المجتمع « أمر بمعروف ونهى عن المنكر » .

إذا انصرفوا عن ذلك فليس هناك ضمان لاستمرار النصر .

هناك مطالبة من كثير من الطوائف ، وهناك بطبيعة الحال استجابة فى مجلس الشعب ، وإلاّ فلا يصح أن يكون ممثلا لأمة إسلامية ، ويكون لكم الفضل – أيها القراء ، والمفكرون والزعماء فى وضع القوانين التى يستمر بها النصر والأمن على المال والعرض والنفس .

(ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم) .

فى الانتخاب

إن انتخاب إنسان نائباً عن دائرة من الدوائر ينبغى أن لا يكون من أجل مصلحة شخصية ، وإنما يكون من أجل صفات فى النائب تجعله أهلا للنيابة ، وينبغى أن لا يكون انتخابه من أجل وعود أو عهود يرتبط بها أمام الناخبين ، خصوصاً إذا كان الناخبون يعرفون فيه من قبل أنه ليس أهلا للنيابة عنهم ، إن الانتخابات أمانة تؤدى للمخلص الكفء دون أن تكون هناك حاجة إلى عهود أو وعود قد لا يتمكن فى المستقبل من أدائها ، وقد لا يكون أداؤها فى يده وحده دون معارضة .

وعلى كل حال فإن العهود والمواثيق التى تتصل بوجوه الخير والتى تكون فى سبيل الله إذا أخل النائب بها متعمداً أو مهملا لها غير مبال لها فإنه يدخل بذلك تحت الآيات والأحاديث التى تناولت ذلك وحذرت منه تحذيراً شديداً ، من ذلك قول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ومن ذلك ، قوله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

أما إذا دعا بالخير وعمل على تحقيق وعده ما استطاع فحالت الظروف دون ذلك فإنه مثاب مأجور على إرادة الخير والعمل له ، ومن همَّ بحسنة فلم يتيسر له تحقيقها كتبت له حسنة .

فى شعار الإيمان للدولة

إننا نستمتع فى العصر الحاضر بكثير من حرية الكلمة وحرية إعلانها ، وأول أمر أتحدث عنه هو أن الرئيس أعلن شعار الإيمان ، أعلنه غير مرة ، وأعلنه فى خطبه وفى الصحف ، وعرف القاصى والنائى أن الرئيس أعلن شعار الإيمان ، وما من شك فى أن الأغلبية العظمى من أعضاء مجلس الشعب من المؤمنين الصالحين ، ولو عرض عليهم مشروع يتناسق مع شعار الإيمان لبادروا إلى الموافقة عليه .

ومازلت أذكر جلسة مشهورة من جلسات مجلس الشعب ، جلسة جاء فيها عرض قطع يد السارق فتحمس الغالبية العظمى من أعضاء مجلس الشعب لتشريع قطع يد السارق ، وتأزم جو المجلس ولم تنته المسألة إلا بعد أن أخذ الأعضاء وعداً بدراسة الموضوع دراسة مستفيضة وعرضه فى « الرول » إذ إنه ليس معروضاً ، ولم يدرس من قبل .

والصورة التى أريد إعلانها من هذا أن مجلس الشعب مستعد لإقرار شعار الإيمان إذا عُرِض عليه .

وكنت أفهم أن القضاء وزارة وقضاة وأجواء قضاء على اختلافها وتعددها ستبادر بدراسة شعار الإيمان وتعدد القوانين وتقعد القواعد ، ولكن لم يحدث شىء من ذلك وكنت أفهم أن كليات الحقوق فى جميع أرجاء الجمهورية ، أو على الأقل كلية منها ، تبادر فتتخلص من آثار الاستعمار واللادينية التى فرضت عليها عشرين درساً فى الأسبوع فى القوانين الوضعية ودرسين فقط فى الأسبوع فى الشريعة بكل فروعها المتعددة .

إن النظام الذى تسير عليه كليات الحقوق هو نفس النظام الذى فرضه الاستعمار ، وقد زال هذا الاستعمار فكان على هذه الكليات وهى مشهورة بالتحرر أن تتحرر من آثار الاستعمار ، وأن تعيد النظر فى مناهجها وبرامجها ، التى تعلن أن الاستعمار باق يتحدى فى زاوية من أخطر زوايا المجتمع وهى زاوية القضاء والعدالة .

إن الرئيس لا يتسع وقته لمتابعة الجزئيات ، ولكنه يعلن المبادئ العامة ويدع التطبيق والتفصيلات إلى المسئولين عنها ، ولقد وفقه الله فى إعلان دولة العلم والإيمان إلى المنهج الإسلامى الصحيح ، المنهج الذى وضعه الله تعالى للأمة الإسلامية وهذا المنهج هو المنهج الذى قام به رسول الله ﷺ ورسمه لأمته ، إن دور الرسول ﷺ هو أن : (يعلمهم ويزكيهم) .

وهذ هو الشعار الذى أعلن ، أما العلم فإنه يسير فى صورة لا بأس بها ، ولكنه إذا كان يسير فى صورة لا بأس بها من ناحية الثقافة المادية فإنه قاصر كل القصور من ناحية المنهج الإيمانى الذى يمثل الشطر الثانى من دول العلم والإيمان .

والعلم بدون إيمان مدمر مهلك ، ونحن فى أمس الحاجة إلى تلاميذ وطلبة قد أخذوا حظًّا كافياً من شعار الإيمان فى جميع درجات التعليم .

وإن تعجب فعجب أن يأمر الرئيس أحد وزراء التعليم بالعناية بالدين كمًّا وكيفًا فى جميع مراحل التعليم التى تدخل فى دائرته ، وعلى إثر ذلك عقدت اللجان وبدأت اجتماعاتها ، وحضرت أنا بعضها ، واستمرت اللجان تنعقد على فترات طويلة ثم انتهت بلا شىء ، ومازال الأمر على ماهو عليه ، والدراسات الدينية فى جو وزارة التعليم على هامش الحياة .

وكنت أفهم أن وسائل الإعلام حينما تسمع إعلان شعار الإيمان تستجيب له استجابة كاملة ، ولا أحد ينكر أثر وسائل الإعلام ، إنها تصنع الرأى العام ، والرأى العام يصنع كما تصنع الماديات ، ولو استقامت وسائل الإعلام لكانت عاملا من أهم العوامل فى إصلاح المجتمع وتحقيق شعار الإيمان ، ولكن الأغلبية العظمى من وسائل الإعلام سارت وتسير على اللامبالاة بشعار الإيمان . والشيوعيون – وهم متغلغلون فى وسائل الإعلام بحسب منهج مرسوم – وصل بهم الأمر إلى مهاجمة الدين ، فإن الشيوعية نقيض الإيمان والوحى والرسالة على خط مستقيم ، وهى فى وسائل الإعلام لا تسكت عن الإيمان ، وإنما وصل بها الأمر إلى مهاجمته ، وإنه من المعروف أن المنهج الشيوعى يهاجم أولا علماء الدين فى التمثيليات وفى المسرحيات وفى المقالات والكتب ، حتى إذا ما ضعفت شوكة علماء الدين بدءوا يهاجمون الدين نفسه على صور مختلفة تتكيف بالجو وبالبيئة التى يعيشون فيها ، ووصل الأمر بالشيوعيين فى إحدى المجلات أن يشجعوا على الفسق والزنى وكتبوا فى صورة علنية عن آراء سافرة تبرر حرية الفتاة فى أن ترافق وتزنى وتفعل الرجس تحت قانون الحرية ، وكأن البلد بلا دين وبلا رقابة خلقية .

وكنت أفهم أن هناك رقابة على هذه الصور التى تعلق فى الشوارع وعلى جدران المنازل مثيرة للغرائز ، داعية إلى أفلام كلها رجس وفسق ، ورقابة على الأفلام المثيرة للشباب الموجهة إليه إلى تحقيق غرائزه بصورة أو بأخرى . وأعود فأقول إن الرئيس وهو يعلن المبدأ العام مبدأ الإيمان لا يتتبع الجزئيات ، وليس هناك قائد اجتماعى يعلن المبادئ ثم يضيع وقته لتتبع الجزئيات فعلى كل فرد وعلى كل مؤسسة أن تستجيب لشعار الإيمان .

أما النتيجة لهذه الاستجابة فهى النصر الذى وعد الله به المؤمنين حيث قال : (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) .

وإنى إذا كنت أنبه على هذه الأمور فإنى أحب أن أتحدث فى النهاية عن الخطورة التى تترتب على عدم الاستجابة .

لقد انتصرنا على الرغم من كل توقعات المتشائمين ، وصدر الأمر التاريخى العظيم بالعبور وعبرنا بتوفيق الله تعالى وانتصرنا .

وإن دوام هذا النصر موكول بالاستجابة لله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم) والواجب إذن – من أجل دوام النصر – أن يقوم كل منا بدوره فى شعار الإيمان ، والله سبحانه وتعالى يقول : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) . .

فى موقف الإسلام من الوحدة العربية

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران :

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

فى هذه الآيات الكريمة أمر صريح بالاتحاد وبالاجتماع ، ونهى عن الخلاف والتفرقة ، وقد ورد ذلك أيضا فى الأحاديث الشريفة ، فقد روى الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

هل يعمل أعداء العرب على التفرقة بينهم ؟

إن أعداء الإسلام يعملون دائماً على إيجاد عوامل التفرقة بين العرب ، وافتعال أسباب للخلاف بينهم ، ومن أقدم ما عرف من ذلك حادثة شاس بن قيس اليهودى التى يرويها التاريخ وترويها كتب السيرة .

لقد مر شاس على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه ، قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد ومالنا – إذا اجتمع ملؤهم بها – من قرار وأمر فتى شاباً يهودياً – وكان معهم – أن ينتهز فرصة يذكرهم فيها بيوم بعاث ذلك اليوم الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج .

وتكلم الغلام فأنشدهم ما قيل فى ذلك اليوم من أشعار ، فذكر القوم ذلك اليوم ، وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها ، وبلغ رسول الله ﷺ ذلك الأمر فخرج إليهم فيمن معه من الأنصار والمهاجرين ، فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين ، وكان مما قال : « أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية » ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً .

ومن أجل البقاء على وحدة الأمة العربية قوية متينة آخى رسول الله ﷺ بين المؤمنين منذ أن كان بمكة قبل الهجرة ، وآخى بينهم فى المدينة بعد الهجرة ، فقد آخى بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان . . وبين آخرين كثيرين .

وفى مجلس المؤاخاة هذا قال علىّ رضى الله عنه : يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى ؟ قال صلوات الله عليه : « أنا أخوك »

فلما هاجر صلوات الله عليه إلى المدينة ، آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار قائلا : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » .

ولقد كان جعفر بن أبى طالب – ذو الجناحين الطيار فى الجنة – يومئذ غائباً بأرض الحبشة ، ومع ذلك فقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاذ بن جبل .

هذه المؤاخاة : إنما هى مجرد رمز لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يقول الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) .

فى الإسلام والسيف

الواقع أن هذه المسألة إنما هى فرية مصطنعة ، أثارها أعداء الإسلام دون أن يكون هناك مبرر لإثارتها .

وذلك أن الإسلام بدأ بواحد وهو رسول الله ﷺ ، وفيما بعد قال أحد الصحابة : لقد رأيتنى

وأنا أمثل ثلث الإسلام ثم أخذ الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً بالحجة والبرهان والإقناع ، فعارض انتشاره المشركون بالسيف والتعذيب والتنكيل ، وكان لابد من الدفاع عن النفس ، وهذا الدفاع عن النفس كان يتخذ أحياناً صوراً تحزّ فى النفس وتملؤها إشفاقاً ، كصورة غزوة الخندق التى كان المسلمون يتحصنون فيها من أعدائهم من وراء خندق حفروه يتقون من ورائه أعداءهم وقد أتوا إليهم فى دارهم يريدون أن يقضوا على الإسلام ، فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا .

والدفاع عن النفس هذا هو الذى عبرت عنه الآية الكريمة القرآنية خير تعبير حين قال تعالى : (أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا) وفى كل ذلك يقول شاعرنا الكبير أحمد شوقى :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما دنا الله عفوًا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

فى ما يعتقده الكثيرون من أن الفكر الدينى – فى هذا العصر يعانى أزمة عاصفة فى مواجهة التطور المادى

حتى تكون الرؤية واضحة كل الوضوح ينبغى أولا وقبل كل شىء تحديد المقصود بالفكر الدينى ، لأن إطلاق العبارات دون التعرف على مضامينها يوقع فى اللبس فتغم الرؤية ، ولا يستبين المحتوى استبانة يطمئن عليها القلب والفكر .

فإذا كان المقصود بالفكر الدينى المحتوى المتكامل الأبعاد لمبادئ الإسلام ومقرراته فإنه لا توجد أزمة بين هذا المدلول وبين التطور المادى حتى يعانى هذا المحتوى أزمة ما ، ذلك لأن الإسلام دين الله الحق الذى بعث به خاتم المرسلين ﷺ ، والإسلام بوسائل متعددة يدفع إلى التطور والإفادة من معطيات الفكر المتحرك دوماً ونظراً إلى أن الإسلام دين الله الحق فهو يحث على ذلك ويشجع عليه ، لأن التطور على مدار مطافه لا يصطدم بالإسلام أبداً ، ومن ناحية أخرى كلما تقدم التطور فى طريقه أعطى آكد البراهين على حقية محتوى الإسلام ، فلا أزمة إذن بين التطور المادى والإسلام فى محتواه الذاتى .

أما إذا كان المقصود بالفكر الدينى الحالة الفكرية التى لها علاقة وثيقة بالتأثير والتأثر العقدى فإن الأمر يختلف لعوامل ليس من بينها التطور المادى فى ذاته وإنما لملابسات تحيط بهذا التطور ،

وأهم هذه الملابسات الصخب الإلحادى الذى تقوم عليه بعض المجتمعات التى نحّت الدين من طريقها لاعتبارات ليس من غرض الحديث التعرض لها ، بيد أنها فى جملتها وتفصيلها اعتبارات لا تقوم على منطق ولا تتذرع بحجة صحيحة .

ومن بين هذه الملابسات أيضا عجز المعتقدات الدينية فى الغرب عجزاً تامًّا عن إشباع تطلعات العقل والقلب ، الأمر الذى أتاح ويتيح الغرض لسيطرة التطور المادى وتخاذل الفكر الدينى أمامه هناك ، وانزوائه فى غمرة الفراغ الفكرى نتيجة مجانبة الإسلام فى السلوك لدى هذه المجتمعات وتسلُّل الصخب الإلحادى وما تمخض عنه من عجز المعتقدات الدينية فى الغرب إلى بعض الأفكار فى المجتمعات الإسلامية ، فكان لذلك أثره فى الظاهرة التى شاعت بين بعض الأفكار وهى بحمد الله قلة فى مجتمعنا – من أن الفكر الدينى يعانى أزمة فى مواجهة التطور المادى ، وأما الجماهير فإن لهم من حصانة الإسلام فى ذاته وقاية طبيعية من هذه الظاهرة المرضية ، الأمر الذى ينتهى بنا إلى القول بأن المجتمعات الإسلامية فى مجموعها لا تعانى أزمة فى مواجهة التطور المادى ، وإنما تشكو ظاهرة مرضيةبدت لدى البعض ، ويتحتم علاج هذه الظاهرة ، إذ العدوى ليست فى الأجسام فقط وإنما تتعدى إلى الأفكار والأخلاق .

يلاحظ الكثيرون بعض المظاهر التى توحى بعزلة رجال الدين عن الحياة الاجتماعية والسياسية كما يلاحظون بعض المظاهر السلبية فى العادات والتقاليد والتواكل والاستسلام للواقع فما هو موقف الدين من كل ذلك ؟

هذه الملاحظة فى عمومها الذى وردت به غير مقبولة من الناحية الواقعية بإطلاق ، فالمعروف تاريخيًّا أن علماء الإسلام كانوا على مر العصور يشاركون مشاركة تامة فى أحداث السياسة والاجتماع ، ومن يدرس التاريخ أو يطلع عليه يجد ذلك حقًّا ، بل يجد أنهم كانوا القادة والمحركين وأقرب الأحداث نسبيًّا ماكان من علماء الإسلام أيام الحملة الفرنسية ثم ثورة ١٩١٩ . وهل ينسى الناس أمثال عمر مكرم والشيخ السادات ، وسعد زغلول ؟ أليس هؤلاء ممن خرجهم الأزهر ؟

بل إن علماء الأزهر كانوا درع الشعب الواقية من صلف الحكام وظلمهم ، وهل ينسى أحد مواقف الشيخ أحمد الدردير – رضى الله عنه وأرضاه .

لكن الذى كان فعلا هو أن الاستعمار الإنجليزى عمل بكل جهده على عزل علماء الأزهر عن مجالات التأثير ، وبخاصة فى التدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية ، وكان (بطل) هذا العمل هو القس الإنجليزى (دانلوب) الذى عمل بما استطاع من حيلة أن يخنق جهاز الأزهر ويحصره فى نطاق ضيق يحول دون فاعلية التأثير ، وعلى الرغم من كل ذلك استطاع العملاق بفضل الله وعونه أن يظل صامداً فى حلبة التأثير وإن كان قد أصابته خدوش ، فذلك ضرورة من ضرورات المعارك .

وليس أدل على أن علماء الإسلام يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية من قيام جبهات غير إسلامية تحاول بمختلف الأساليب أن تنال منهم حتى يخف وزنهم فى قلوب المواطنين ، الأمر الذى يتبعه حتماً فقدان التأثير .

وليس من اللازم فى توصيف المشاركة أن يوكل إلى المشارك عمل اجتماعى أو سياسى بعينه ، وإنما المشاركة فى معناها الأصيل فهم الواقع ، والتأثير بأى أسلوب من أساليبه .

أما عن المظاهر السلبية فى العادات والتقاليد فإن الإسلام لا يقرها ، ذلك أنه يدعو إلى استغلال الطاقة فى العمل النافع الذى يرفع من شأن الإنسان فى دنياه ، وينزله أكرم منزل فى أخراه ، فالتواكل لا يرضاه الإسلام ، وينبغى أن يعنى الدعاة بتوضيح المفاهيم الإسلامية توضيحاً لا يترك فى النفوس رواسب حتى يتضح الفرق بين التوكل والتواكل مثلا ، فالتوكل على الله مفهومه أن يقدم الإنسان إلى العمل بطاقته راجياً من الله المعونة والتوفيق ، فهذا وضع إيجابى ينبغى أن يكون فى صحبته كل مسلم ، إذ يدفع الطاقة ويزيد من فاعليتها .

أما التواكل فإنه يعنى القعود وتفريغ الطاقة فى غير وجهة ، وهذا لا يقبله الإسلام وإنما يرفضه رفضاً قاطعاً ، وقول الرسول ﷺ « اعقلها وتوكل » صريح فى وجوب بذل الطاقة ، وقول عمر رضى الله عنه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » . منبثق انبثاقاً طبيعياً من تعاليم الإسلام .

كيف يمكن الأزهر أن يستعيد دوره فى ازدهار الفكر الدينى وتغذيته الجماهير بالقيم الدينية ؟

إن دورالأزهر فى ازدهار الفكر الدينى مرتبط ارتباطاً نوعياً بأجهزة الإعلام المتعددة فى الدولة ، كما أنه مرتبط بنوعيات بعض القوانين الموجودة .

فبعض أجهزة الإعلام تقدم فيما تقدم من مواد سواء على الشاشة الصغيرة أو الكبيرة ما من

شأنه أن يحول دون التأثير لما يقوم به الأزهر ، وبعض الكتب أيضاً وبعض المجلات تتخذ هذا الاتجاه ، وبخاصة أن الوسائل كلها تتخذ من الإغراء وسيلة تجتذب بها الأفكار .

وبعض القوانين الموجودة التى تتراخى مع بعض المنكرات المؤثرة كثيراً لها أثرها على السلوك . وتعتبر عاملا سلبيًّا فى حركة التأثير ، لذا يتحتم التخطيط لأجهزة الاعلام ، وبخاصة السينما والمسرح تخطيطاً يقوم على عدم التهاون فى المواد التى تقدم للجماهير تزويرا على مايسمى بالفن وماشاكل ذلك من سمعيات تلوكها ألسنة كثيرة بوعى هابط حيناً وبعدم وعى حيناً آخر فيجب ألا يقدم إلا النافع فعلا ، وما من شأنه أن يسمو بالدوافع الفطرية للإنسان ، كما يتحتم النظر فى جميع القوانين التى تتراخى مع المنكرات التى لا يقرها الإسلام وحدود الإسلام واضحة « والحلال بين والحرام بيِّن » كما يقول رسول الله ﷺ .

هذا إذا أردنا لمجتمعنا الخير والعزة ، ولاشك فى أن الحريصين على مستقبل المجتمع يعملون لتحقيق ذلك .

كيف بدأت الدراسات الدينية والعلمية فى الجامع الأزهر

ينبغى أن يكون معروفاً أن عقد الدراسات الدينية والعلمية فى الجامع الأزهر عام ٣٧٨ هـ لم يكن بدعة اختص بها هذا المسجد الكبير ، وإنما سار فيها على سنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، الذى يجعل من مسجده مركزًا للقيادة والتوجيه والتعليم ، إلى جانب كونه مكاناً للعبادة والتهجد والاعتكاف ، وكذلك كانت المساجد من بعض مسجد الرسول الكريم .

وقد سبق جامع الأزهر إلى ذلك فى مصر مسجد سيدنا عمرو بن العاص الذى بنى عام ٢١ هـ وكان مركزاً للإشعاع الثقافى والعلمى ، ولما سار الأزهر على هذا المنوال رصد له الخلفاء والولاة الأموال ، وأوقفوا عليه الأوقاف للإنفاق منها على الطلبة والعلماء ، وقد تأكد مركز الأزهر كجامعة إسلامية عندما جعل منه صلاح الدين الأيوبى معقداً لآمال العلماء والدارسين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، واستمر الأزهر فى تأدية رسالته الإسلامية الكبرى قائماً على حفظ الإسلام حتى يظل صحيحاً كما أنزله الله وكما بلغه رسوله ، والدفاع عنه حتى لا يدخل إليه ما ليس منه فتتبدل أحكامه ، أو تطمس معالمه ، والتمكين له حتى تستقر تعاليمه فى العقول فتصبح ثقافة ومعرفة وإيماناً ، ثم تتمثلها النفوس فتصير عرفاً وسلوكاً وأخلاقاً .

وبهذا صار الأزهر مركزاً لإشعاع الفكر الإسلامى ولتوثيق الروابط بين المسلمين فى جميع أنحاء العالم .

هل كان للأزهر أثره فى الأوضاع السياسية والاجتماعية فى تاريخه المجيد ؟

نعم ، ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية لقيام علماء الأزهر بواجبهم الذى يحتمه عليهم الإسلام باعتباره الدين الذى يصل بين الدنيا والآخرة ، ويربط برباط وثيق بين العقيدة والأخلاق ، وبين العقيدة والسياسة ، وبين العقيدة والعلم ، كما ساعد على قيام العلماء بهذا الواجب ثقة المسلمين فيهم ، وفى إخلاصهم لله ، وساعد على ذلك إيمان القادة بدينهم ، وبأن هذا الدين هو الصراط المستقيم ، الذى يحقق لهم غايتهم فى إصلاح أحوال الشعب . والأزهريون ، فى تاريخهم الطويل لم يبعدوا عن الجهاد فى أداء رسالتهم أو يتخلفوا عن النهوض بواجباتهم .

فظلت راية الجهاد عالية فوق رءوسهم جيلا بعد جيل ، فعزَّبهم الإسلام وسار بهم فى العالم مسرى النور فى الظلام ، وبقيت الشريعة الإسلامية والثقافة الربانية تصدر عن الأزهر إلى جميع بقاع الأرض فتعلم الجاهلين وتهدى المدلجين وتوضح للناس فضل الإسلام عليهم وعلى الحياة معًا .

وشارك علماؤه فى الحياة العامة مشاركة احتلوا بها مكان الصدارة فى كل حركة وكل كفاح ضد المستعمرين وأعداء الدين .

وإذا رجعنا إلى التاريخ القريب ، وجدنا كيف لجأت الجماهير إلى الشيخ أحمد الدردير رضى الله عنه لرفع الظلم عنهم ، فأمر بإعلان الثورة ، والبدء فى الاستعداد للقتال ضد المماليك الذين يعسفون بالرعية ظلمًا ونهبًا وإفسادًا ، كذلك لجأت الجماهير إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، فعقد اجتماعًا حضره العلماء أصدروا فيه قرارهم بإغلاق الحوانيت والأسواق والاستعداد للقتال ضد ظلم الحاكمين ، وكان الأزهر مركز القيادة الشعبية فى الثورة ضد الحملة الفرنسية ، مما عرضه للضرب بالقذائف المدمرة وسقوط أبنائه وعلمائه ضحايا ، وامتدت قيادة الأزهر السياسية للشعب إلى العصر الحديث عندما بدأت ثورة عرابى على الحكام ، وأصدر علماء الأزهر فى ذلك الوقت فتواهم الشرعية بخروج الخديوى على أحكام الدين ، وبخيانته للأمة وتواطئه مع أعداء الإسلام . . وأدى ذلك إلى أن حركة العلماء عندما فشلت الثورة كما حوكم زعماؤها وكان للأزهر أيضًا دوره القيادى المعروف فى ثورة ١٩١٩ .

ماهو وضع الأزهر الآن فى عصر الثورة العلمية الحديثة ؟

لاشك أن الأزهر وهو الأمين على رسالة الإسلام يؤيد بكل فروعه وإمكاناته التقدم العلمى الحديث الذى يستهدف خير البشرية وسعادتها ، وهو يتابع مظاهر هذا التقدم ويؤصله فى دراساته الجامعية ويضيف إليه من هدى الإسلام ونوره ، وتفد إليه للإفادة من دراساته وبحوثه وفود الطلاب فى جميع أنحاء العالم ، كما تفد إليه الرسائل والبحوث والاستفسارات ليجيب عليها ويضعها موضع العناية والاعتبار ، كذلك يرسل الأزهر علماءه وطلابه وبحوثه إلى المراكز العلمية فى الخارج ، وفى جامعات مصر والجامعات العربية والمدارس العربية والإسلامية يحتل العلماء الأزهريون أماكنهم ويحاضرون ويؤدون واجبهم العلمى والثقافى والاجتماعى .

هل هناك أجهزة فى الأزهر تهتم بمتابعة التيارات الإعلامية والثقافية ؟

لعلك تعلم أن مجمع البحوث الإسلامية هو إحدى هيئات الأزهر الرئيسية وهو يقوم بأقسامه المختلفة بمتابعة ماينشر عن الإسلام من كتب ونشرات ويبدى علماؤه آراءهم فيما ينشر أو يذاع أو يشاهد من وسائل الإعلام – كما يقوم بتبصير المسلمين بواجبهم فى هذه المجالات عن طريق ماينشره من مجلة الأزهر والمطبوعات التى يصدرها بصفة دورية .

فى أثر مناهج الفكر الأزهرى فى الفكر الإسلامى والعالمى

الفكر الأزهرى هو جزء من الفكر الإسلامى ، ومن ثم فتأثيره فى الفكر المحلى أو العالمى مظهر من مظاهر تأثير الفكر الإسلامى ككل ، ولاشك أن عناية الأزهر بالدراسات العربية والإسلامية قديماً وحديثًا جعلت للفكر الأزهرى مكانة كبرى وسمعة وطيدة لدى مختلف الهيئات العلمية فى المجالات العربية والإسلامية والعالمية ونحن نلمس اهتمامهم بمعرفة رأى الأزهر فى المشكلات العلمية والحيوية المعاصرة وذلك مانتبادله مع هذه الجهات من رسائل ومكاتبات .

فى اللغة العربية

إن اللغة العربية ليست لغة وطنية فحسب وليست لغة قومية فقط ، ولئن كانت كذلك قبل الإسلام فهى بعد نزول القرآن بلسان عربى مبين ، أصبحت تمتاز بخاصية أخرى ، وهى أنها أصبحت لغة دينية على كل مسلم أن يتعلمها إذا أراد الدقة الدينية فى دينه ، والصحة الصحيحة ، لإسلامه .

وكونها أصبحت بعد نزول الإسلام لغة دينية فإن ذلك لم يخرجها عن وضعها الأصلى وهو أنها لغة قومية ، ودول وأقاليم عربية ، فهى بالنسبة لهم أصلية ولغة دينية ، وبالنسبة لغيرهم لغة دينية ، وهى على كل حال بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء لغة مقدسة . ومامن شك فى أن الإسلام لايشجع على ترجمة معانى القرآن ، وذلك لأسباب واضحة ، منها : أن ترجمة القرآن إنما هى مجرد تعبير عن فهم المترجم فهى لاتعبر عما أراده الله سبحانه ، وإنما تعبر عن زاوية ضئيلة مما أراده الله سبحانه ، وقد يكون فهم المترجم مجرد خطأ وهو على كل حال قاصر عن استيفاء جميع ما أراده الله سبحانه .

والإسلام لايشجع أيضًا على الترجمة حتى لايكون فى ذلك الاستغناء بها عن تعلّم اللغة العربية ، مع أن تعلم اللغة العربية فى النظرة الإسلامية من أهم الأمور ، وذلك أنه كما يربط الدين بين شعوب لايربطهم جنس واحد فإنه مما يقوى هذه الرابطة أن تكون هذه الشعوب متفاهمة بلغة واحدة ، ومن أجل الدين ومن أجل قوة الترابط بين الشعوب التى تدين به يجب تعلّم اللغة العربية ، ويجب فضلا عن ذلك الاحتفاظ بها عن أن تلوثها العامية على أى وضع من أوضاع التلوث ، أى يجب الاحتفاظ بها عربية قرآنية صافية نقية .

ولكل ذلك فإن ترجمة القرآن بالنسبة للمسلمين لاتُعَدّ قرآنًا ، ويجب على المسلم أن يحفظ من القرآن قليلا أو كثيرًا بحسب استطاعته ، ويحاول فهمه بحسب إمكانياته ، وإن فى قول الله تعالى : (ماتيسر) سعة لكل مستجيب لنداء الله ورسوله والاستجابة إنما تكون بحفظ وتكرار ماتيسر من القرآن بلسانه العربى المبين ونقول فى ختام هذا فى صراحة لالبس فيها ، وفى وضوح لاغموض فيه أن كل من يستطيع من المسلمين تعلّم اللغة العربية ، ولم يتعلمها فهو آثم دينيًّا ، ونقول فضلا عن هذا إن كل من يستطيع أن يزداد تمكنًا من اللغة العربية فى أسلوبها ومعانيها من العرب أنفسهم فلم

يفعل آثم دينيًّا ، ونقول فى النهاية ، إن كل دعوة إلى العامية فى الأجواء الإسلامية إنما هى إلحاد فى دين الله ، وإلحاد فى حق الوطن الإسلامى .

فى أهمية هبوط الإنسان على سطح القمر

هذه مسألة تعتبر فى الجو الإسلامى اكتشافًا لنواميس الله فى كونه ، وهى من المسائل العلمية التى يحث الإسلام على الوصول إليها ، وحبذا أن يغزو الإنسان الفضاء وأن يكتشف مافيه ، وأن يغزو الكواكب .

وقد قال الله تعالى : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان) .

وغزو الفضاء مسألة من المسائل التى يحث عليها الإسلام ولاتتعارض مع تعاليمه .

فى التعريف بالعلاقة بين القمر والمسلمين والرؤية بشأن هذه العلاقة فى المستقبل

القرآن يقص عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه حينما رأى القمر بازغًا : قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، ومعنى هذا الكلام أن من صفات الله أن لايغيب . والقمر يعتبره المسلمون كائنًا من الكائنات التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، وأنه فى الوضع الإسلامى علامة لمعرفة الشهر العربى ، قال تعالى : (ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) ، وليس له وضع أكثر من ذلك فى العرف الإسلامى ، وقد قال الرسول ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينخسفان لموت أحد ولالحياته » .

فى بعض الناس يرى وجود حالة من الفقر فى العالم المعاصر ومن ناحية أخرى فإن التخطيط لصناعة سفن الفضاء يحتاج لكثير من الأموال ، ومثل هذه الأموال يجب أن تنفق فى سبيل الاحتياجات الأساسية للبشرية

إن الدول التى تنفق الكثير من المبالغ فى غزو الفضاء دول غنية لايؤثر فيها إنفاق هذه المبالغ ، على أن الحروب هى التى تستنفد المبالغ الهائلة ، وهى التى تعمم الفقر فى الدول .

أما غزو الفضاء فإنه كشف للمجهول فى الكون ، ولابد للإنسان من الوصول إلى ذلك مهما أنفق فى سبيله من مال .

فى موضوع ملكية القمر

القمر ليس ملكًا لأحد ، وإذا كان هناك مايمكن أن ينتفع به فيما يتعلق بأرض القمر فيجب أن يخصص هذا عن طريق اتفاقاتٍ دولية لإزالة الفقر والمرض والجهل من الإنسانية وأن لايكون القمر ملكًا لدولة معينة .

أى نوع من الفائدة يمكن توقعها عن طريق هبوط الإنسان على سطح القمر؟

الفائدة من هبوط الإنسان على سطح القمر ازدياد معرفته بالكون ، وهذه أسمى مايمكن أن يكون من ثمرة هبوط الإنسان على القمر ، لقد اعتقد القدماء أنه كائن مقدس ، ومع أن الإسلام لم يؤمن بذلك يومًا فإن معرفة القمر على حقيقته مسألة نتطلع إليها جميعًا ، وهذه المعرفة غاية فى نفسها . . . .

كم من أقطار الأرض الإسلامية يحكمون بما أنزل الله على محمد ﷺ فى زماننا هذا؟

إن الاستعمار الذى جثم على صدر الأمم الإسلامية بذل جهده لمنعها عن العمل بالإسلام . بل لقد فرض عليها قوانين من الغرب ومن أمريكا ، وكان من فضل الله تعالى أن خلت البقعة التى كانت مهد الإسلام من الاستعمار ومن فرض قوانين أجنبية ، فاستمرت تتعامل بالقانون الإسلامى . بيد أن الأمم الإسلامية وقد تحرر أكثرها من الاستعمار قد بدأت تتجه نحو تشريع إسلامى ، وبدأت تقنن الشريعة الإسلامية كما تفعل مصر الآن ، والله نرجو أن يكتب لنا النجاح والنصر .

فى الإسلام والشيوعية

إن منهج الشيوعيين بالنسبة لضرب الإسلام أصبح معروفًا لدى المعنيين بصلة الإسلام بالشيوعية .

والخطوة الأولى فيه هى مهاجمة علماء الدين ، مهاجمتهم بشتى الوسائل ، بالكلمة والنكتة والمسرحية والتمثيلية ، مهاجمتهم بالافتراء عليهم ، وتلفيق التهم ضدهم ، والكذب يلبسونه صورة الصدق ، وهم يرون أن كل ذلك لايجدى إذا لم يكن هناك تكرار باستمرار ، فالتكرار للفكرة يجعلها تستقر فى الشعوب ، ويجعل الجمهور يسير فى التيار ويألف ذلك ، فلا يستثيره النّيل من علماء الدين .

والشيوعيون فى سبيل تحقيق هذه الدعوة والخطوات التى تتلوها يحاولون دائماً وفى كل قطر أن يتغلغلوا فى وسائل الإعلام شيئًا فشيئًا ويصبحون أكثرية فيها ، أو على الأقل يصبحون من كبار الموجهين فيها ، إن منهجهم أن يستولوا على تصرف الأمور حسبما يحبون فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة والمسارح والسينما ، وهم يسخّرون كل ذلك فى تخطيط دقيق ليسير الوضع حسبما يشتهون .

فإذا نجحوا فى هذه الخطوة ولو بعض النجاح فإنهم يبدءون الخطوة التالية وقد تتداخل الخطوتان ولكنهم يبدءون دائماً بالهجوم على علماء الدين .

أما الخطوة الثانية : فإنها مهاجمة الدين فى فروعه وفى تاريخه ومن لهم القداسة من رجاله الأوائل ، ومن هنا كانت الحملة مثلا على سيدنا عبد الرحمن بن عوف بل على سيدنا عثمان وهما من المبشرين بالجنة ، وثانيهما اختاره المسلمون خليفة لهم ، وعنه يقول رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه حينما جهز عثمان رضى الله عنه جيش العسرة من ماله الخاص . . يقول « ماعلى عثمان مافعل بعد اليوم » .

عثمان الذى من أجله كانت بيعة الرضوان حينما أشيع أن المشركين قتلوه ، وإذا صفا لهم الجو ولم يجدوا معارضًا يصل بهم التهور إلى حد التهجم على آل البيت .

وإذا وجدوا أن الأمور تسير على هواهم بدءوا الخطوة الثالثة وهى : مهاجمة الدين فى عقيدته وأركانه فينكرون وجود الله ، وينكرون الرسالات – كل الرسالات – وينكرون البعث والقيامة .

وقد وصلوا فى بعض البلاد الإسلامية إلى هذه المرحلة الثالثة ، وسخروا بالإيمان ، وأعلنوا الكفر ، ولكنهم هنا فى مصر وصلت بهم الجرأة إلى المرحلة الأولى والمرحلة الثانية ، وفى المرحلة الأولى وصل بهم الأمر إلى مهاجمة علماء الدين فى شيوخهم .

وهم بذلك يؤمنون أن المرحلة الأولى قد انتهوا منها ، ولكن الله أخلف ظنهم فمهاجمة شيخ الأزهر جزء من مخططهم ، وعلى الأمة أن تتنبه لذلك ، وأن تتخذ لكل خطوة مايلائم وضعها

موضع الإخفاق التام .. (كيف تفسرون أن عدد مسلمى الاتحاد السوفيتى يقترب من ٦٠ مليونًا فى حين لايحج منهم فى العام أكثر من عشرة أشخاص على أحسن تقدير ؟) .

فى عدة سنوات ، مر الحجاج السوفييت بالأزهر ، وقابلتهم فى كل مرة مروا بالقاهرة ، إنهم فى كل مرة ماكانوا يزيدون عن العشرة إلاّ قليلا ، والمرة الوحيدة التى كانوا فيها من الكثرة بمكان كانوا تسعة عشر ، ولم تتكرر ...

وفى كل مرة سألتهم : ليس من المعقول أن يكون بروسيا هذا العدد الكثير من المسلمين ولايحج منها إلاّ هذا العدد الضئيل الذى لاتتجاوز نسبته واحدًا على خمسة ملايين . .

فإذا بشفاههم ترتجف ، وإذا بوجوههم تعلوها الصفرة ، ويتطلع كل منهم إلى الآخر فى نوع من الفزع ، وذلك لأن ماقلته يعتبر نقدًا ، وإذا ماسكتوا عليه فإنهم يسألون ، ويكون هناك تحقيق يعقبه ما الله به عليم ، وإذا أجابوا فماذا يجيبون !

ووقعوا فى حيرة أسفت لها ، وأردت إخراجهم منها فقلت لهم : إن شاء الله يكون العدد فى العام القادم كثيرًا . . . وتنفسوا الصعداء .

وتتساءل : لماذا هذه القلة ؟ والسبب معروف ، وجو هذا الموقف العدائى من الشيوعية للدين ، وماذا تريد ممن لادين له أن يفعل غير ذلك .

إن هذه القلة هى الوضع الطبيعى أما غير ذلك فهو الشذوذ .

فتوى عن الشيوعية

لقد بدأ الكفر بالدين مع (ماركس) منذ ابتداء الشيوعية ، فقد قال (ماركس) كلمته المشهورة : « إن الدين أفيون الشعوب » ولقد تلقف (لينين) هذه الكلمة (لكارل ماركس) وأعلن أن هذه الكلمة هى حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية فيما يتعلق بالدين ، إنه يقول حرفيًا : قال كارل ماركس : إن الدين أفيون الشعوب الفقراء ، وهذا هو حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات جميعها والكنائس وكل أنواع المنظمات الدينية آلة لرد الفعل البرجوازى وفى المقدمة التى كتبت لكتاب (لينين) مايلى نصًا :

« الإلحاد جزء طبيعى من الماركسية لاينفصل عنها » ونتابع أقوال الشيوعيين عن الدين ، يقول (لونا شارميكى) الذى كان يومًا وزيرًا للتعليم فى حكومة الشيوعيين :

« نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقًا نعده شرَّ أعدائنا ، وهم

يبشرون بحب الجيران ، والعطف والرحمة ، وهذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة ، فليسقط حبنا لجيراننا ، فإن مانريده هو الكراهية والعداوة .

وحين ذالك نستطيع غزو العالم » إن تبشير المسيحية أو – بتعبير آخر – تبشير الأديان بحب الجيران والعطف والرحمة يثير الكراهية فى نفس الشيوعى .

إذ إنه لايعرف إلا الحقد والكراهية والعداوة ، وبهذه الكراهية والعداوة يستطيع – فيما يزعم – غزو العالم .

والزعيم الشيوعى لينين يعلن فى وضوح سافر عن الصلة بين الدين والشيوعية بكلمات قليلة حاسمة ، إنه يقول : « الماركسية هى المادية : ومن ثم معادية للدين » . أما البرنامج الذى وضع للمؤتمر الدولى الشيوعى السادس الذى عقد فى عام ١٩٢٨ فإنه يقول حرفيًا : « إن الحرب ضد الدين وهو أفيون الشعوب تشغل مكانًا هامًا بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة » .

ولايكاد لينين يمل الحديث عن الأديان ووجوب تحطيمها ، إنه يتحدث عنها بمناسبة وبدون مناسبة .

ولقد كتب فى يوم خطابًا للكاتب الروسى (مكسيم جوركى) يقول فيه :

« إن البحث عن الله لافائدة فيه . . ومن العبث البحث عن شىء لم تضعه فى مكان تخبئه فيه ، وبدون أن تزرع لاتستطيع أن تحصد ، وليس لك إله ، لأنك لم تزرعه بعد ، والآلهة لايبحث عنها وإنما تزرع ، يخلقها البشر يلدها المجتمع » .

ومما سبق نرى أن الشيوعية فى العقيدة معارضة للإسلام .

وهى فى الأخلاق معارضة للإسلام . وهى فى الاقتصاد معارضة للإسلام . وهى فى كل هذه المعارضات ، منكرة متعمدة ، بل سافرة مستهزئة . فهى إذن ملحدة ، لايشكون هم فى ذلك ، ولايشك فيه غيرهم ، والواقع يكذب كل مماراة لهم ، وهم فى موقفهم أشد انحرافًا عن الإسلام من المشركين .

ولقد بين الله الأحكام بالنسبة للملحدين والمشركين من هذه الأحكام ، فالأحكام الخاصة بالزواج : مثلا :

يقول تعالى : (ولاتَنكحوا المشركات حتى يُؤمنَّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولاتُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون . .) .

فالمسلمة إذن لاتحل لشيوعى – فإذا كان اعتنق الشيوعية بعد الزواج ، فإنها تصبح محرمة عليه .

والمسلم لاتحل له الشيوعية : فإذا كانت اعتنقت الشيوعية بعد الزواج فقد أصبحت محرمة عليه .

وإذا مات الشيوعى أو الشيوعية فإنه لا يُصلى عليه . ولا يدُفن فى مقابر المسلمين ، ولا يرثه وارث مسلم ، ولا يرث هو من الأقارب المسلمين .

وإذا تاب الشيوعى فإن باب التوبة مفتوح ، والله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) . .

فى طريق الفلاح حتى يتبعه من يرد الله به خيرًا

يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) والركوع والسجود علامتا الخضوع لله سبحانه ، والتواضع له ، إنهما العلامتان الظاهرتان ويجب أن تصحبهما علامة باطنية هى خضوع القلب أو سجود القلب ، وسجود القلب ، ظاهرة يجرى وراء تحقيقها الصالحون باعتباره غاية سامية فى أعراف المتقين ، وأن التعبير الجارى الذى يقول : من تواضع لله رفعه إنما يعنى على الخصوص هذا الذى تواضع لله سبحانه بقلبه وهو يجارى قوله ﷺ ، فيما رواه الإمام مسلم ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » وقال تعالى : (واسجد واقترب) .

أى تواضع لله سبحانه واخشع له واخضع ، فإن ذلك وسيلة القرب منه سبحانه ، والقرب من الله هو منتهى الرفعة للإنسان . ويقول رسول الله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

وينصح رسول الله ﷺ أن يدعو الإنسان ربه وهو فى هذه الدرجة من القرب قائلا : « فادعوا فى سجودكم فقمن أن يستجاب لكم » .

والسجود الذى يريده الله ورسوله هو على الخصوص العميق فى النفس ، والذى يتمثل فيه الشعور القلبى والروحى بجلال الله وعظمته ، والذى تصوره هذه الشارة المعروفة من وضع الجبهة على الأرض ، تمثل الخضوع لجلال الله وعظمته ، والانقياد المطلق لحكمته الرحيمة وعظمته

الحكيمة ووده القريب ، وتقربه ممن تقرب إليه .

ومن الأحاديث ذات المغزى العميق فى هذا ما رواه الإمام مسلم عن أبى فراس الأسلمى خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصفّة رضى الله عنه قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : « سلنى » .

فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك .

فقلت : هو ذاك :

قال : أعنى على نفسك بكثرة السجود .

والسجود إذن تعبير عن التضامن لله سبحانه ، وعن الخشية والخضوع وهو من أجل ذلك سبيل إلى الجنة ، فمادام الإنسان يخشى الله فإنه يقوم بالواجبات والفروض وينتهى عما نهى الله عنه ، وتلك هى العبادة ، وهى التقوى ، وذلك هو معنى العبودية التى أمر الله سبحانه وتعالى بها كثيراً فى القرآن وأمر بها فى الآية التى نحن بصددها فقال : (واعبدوا ربكم) .

وإذا ما خشى الإنسان ربه فإنه لا محالة فاعل للخير ، وذلك أن التزام أوامر الله واجتناب نواهيه هو الخير كل الخير .

فإذا ما حقق الإنسان السجود لله بمعناه الصحيح – مقدماته ونتائجه – فقد حقق سلوك طريق الفلاح فى الدنيا ، وسلوك طريق الفلاح فيما يتعلق بالآخرة .

أما فى الدنيا فإن الله سبحانه قد تكفل بمن سجد له متمثلا العبودية . يقول سبحانه : (أليس الله بكاف عبده) .

ويقول : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

ويقول تعالى فى عموم وشمول عن الذين آمنوا وكانوا يتقون : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

فى حرية الصحافة وأدب الجنس

الصحافة حرة فى حدود القانون ، وهى حرة فى حدود الدستور ، ولكنها من قبل ذلك وبعده حرة فى حدود الإسلام ، ثم هى من قبل ذلك ومن بعده حرة فى حدود الأخلاق .

على أن القانون والدستور قائمان على أن دين الدولة الإسلام ، وعلى أن الخُلق أساس المجتمع ، وعلى أن كل تيار يهوى بأفراد المجتمع نحو الشذوذ والانحراف إنما هو تيار آثم . نقول ذلك بمناسبة الحديث عن حرية الصحافة والحديث عن أدب الجنس .

ومما لا شك فيه أن أدب الجنس لا يرتبط بالخلق الكريم إلا بالرباط العكسى ، وأن الرجل الكريم على نفسه وعلى الله ، لا ينحدر إلى هذا المستوى المكشوف الذى لا يتمثل فيه السمو الروحى وإنما تتمثل فيه الغريزة الشهوانية الجنسية فى أحط مظهر يمكن أن تظهر فيه .

وهذا الأدب الجنسى يجد رواجاً لدى المراهقين ، وهذا الرواج معناه ثورة طائلة للمؤلف ، ومن أجل ذلك ، من أجل المال المكتسب بطريق خبيث ، يكتب الكتّاب المنحرفون عن أدب الجنس ، وهؤلاء الكتاب لا يعرفون المثل العليا ، ولا المبادئ الشريفة ، وإنما همهم – كل همهم – المال من أجل اللذات ومن أجل الجنس ، أما الوطن ومصلحته وأما إفسادهم المراهقين ونشرهم الفساد متأثرين بأدب الجنس . . فذلك لا يثير ضميرهم المنحل فى كثير ولا قليل .

ولقد سارت فرنسا فى هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الأولى ، فكانت النتيجة أن دمرتها ألمانيا فى أيام معدودة ، ولقد أعلن زعيمها المرشال بيتان إذ ذاك السبب فى انهيارها فلم يكن إلا انتشار أدب الجنس ، والسير وراء كتّاب أدب الجنس لتحقيق مثلهم السافلة .

هؤلاء الكتاب مثلهم فى الوطن كمثل الميكروب الخبيث ، بل إن خطرهم أشد ، وكما تحارب الدولة الميكروب فتقضى عليه بالوسائل المناسبة فكذلك الأمر بالنسبة لهؤلاء الكتّاب الذين تتمثل فيهم العداوة الكاملة للفضيلة وبالتالى للوطن .

ولا يجوز أبدًا أن تتخذ حرية الصحافة دعامة ليقول الكاتب ما يشاء ، فإن مقدسات الأمة إذا هدمت بالأقلام الخبيثة فإن مصير الأمة إلى الانهيار .

وعلى هذا يجب – فى منطق الأخلاق والوطن ، ولمصلحة الأخلاق والوطن – أن تضرب الدولة بيد من حديد على كل من يعيث فساداً فى مقدساتها ، وأخلاقاً ودينا ، مسمياً الدعوة

السافرة إلى الانحلال أدبًا ، وما هى إلا انعكاسات نفس ضحلة ظهرت على قلم كاتب لا يمت إلى الفضيلة بصلة .

ورجاؤنا إذن ، حفاظاً على الدين والأخلاق والوطن ، وإنقاذاً للمراهقين ، أن تتكون فى الدولة رقابة خاصة بالكتب والصحف ووسائل الإعلام تراعى المثل العليا والمبادئ الشريفة .

على مر السنين كان الأزهر يقصر دوره على ميدان المسلم فهل من جديد عن الميدان الآخر ، ميدان المرأة المسلمة ، التى تعتبر النبع القويم لتأصيل القيم الدينية والروحية فى نفوس النشء ؟

الأزهر حصن الثقافة الإسلامية ، وتراثها الأصيل فى شتى جوانب الفكر والحفيظ على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والقيم على حفظ وعائها ، وهو اللغة العربية ، وبذلك التقت العروبة والإسلام ، فى محيط الثقافة التى أفاضها القرآن وامترجتا ، وصارتا وحدة لا انفكاك فيها .

وبقى الأزهر على مر الدهور مركزاً حصيناً لصيانة هذا التراث بفضل ما بذلت مصر فى سبيل الحفاظ عليه والحمد لله .

وقد أمَّت أمم شتى – ممثلة فى صفوة من بنيها – الأزهر الشريف ، فانتهلوا من معينه ، وتفيئوا ظلاله ، وعادوا إلى بلادهم بعد ربهم داعين قومهم إلى الله على هدى وبصيرة .

على أن الأزهر لم يقتصر دوره على المسلم فقط ، بل له دوره الفعال بالنسبة للمرأة المسلمة أيضًا فكلية البنات الإسلامية تابعة له ، ومن مميزات هذه الكلية أنها لا اختلاط فيها ، وفيها تنبيهات على ضرورة الالتزام بالزى الإسلامى ، ليكون قدوة . .

وللكلية قيادة حازمة ورشيدة ، وقد اتسعت هذه الكلية الآن ، وتمدها روافد من المعاهد التى توسعنا فيها للبنات ، لتكون روافد طيبة لهذه الكلية .

وقد أقبلت عليها وافدات من البلاد الإسلامية بشكل كبير ، نظرًا لعدم الاختلاط ولتدريس المناهج الإسلامية ، حتى فى الكليات العملية . .

متى نحصل على رجل دين بالمعنى الحق ؟
وهل يمكن أن يكون الأزهر بمعاهده المختلفة
ودراساته الدينية (فقط) سبيلنا إلى هذا ؟
أو أن الأمر يحتاج إلى روافد أخرى ؟

ليس فى الإسلام رجل دين بالمعنى المفهوم ، فكل مؤمن مكلف بالدعوة إلى الله (كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . وإنْ دعت الضرورة إلى التخصص فى طلب العلم ، وإتقان أساليب الدعوة وعلومها ، نظرًا لما جدّ ويجدّ من تشابك وتباين فى مصالح الناس وحياتهم اليومية : (فلولا نَفَر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

على أنه يشترط فى الداعى قبل كل شىء : الإخلاص لله ، وأن يجعل من نفسه قدوة ، وأن يتسلح بعلوم العصر ، وأن يكون مستنيرًا بالثقافة العامة ، ليستطيع أن يواجه الدعوات الهدامة والنحل الضالة ، والملل الخاطئة ، وأن يلم بلغة أجنبية أو أكثر .

ولذلك أنشأنا كلية للدعوة فى طنطا ، وقد بدأت فيها الدراسة بالفعل وستفتح كلية أخرى للدعوة فى القاهرة ، وأخرى فى المنوفية ، ونأمل أن يكون البرنامج المنتقى لهذه الكلية وافيًا بالغرض ، وأن يؤدى فيها أساتذة متخصصون على دراية واسعة بأهداف الكلية ، وحاجات العصر . وحقائق الدين وروحه[1]

وعندى من المشروعات مايكفل للإمام والداعية ورجل الدين الحياة الكريمة ، والإعداد السليم ، ونسأل الله المعرفة لإخراج كل ذلك إلى حيز الوجود والتنفيذ .

وأرى أن المكان الطبيعى لكل ذلك إنما هو الأزهر ، الذى حمل أمانة الدعوة أكثر من ألف عام . وفى كلياته العلمية والعملية مايكفل ازدهار الدعوة إن شاء الله .

---

(١) تم فى عهد الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الأزهر تحقيق تنفيذ هذه الكليات بالإضافة إلى كلية البنات الإسلامية بأسيوط ، وكليات أصول الدين ، والشريعة بالمنصورة ، والشريعة بطنطا ، وتم افتتاح حوالى ١٠٠٠ معهد دينى بين ابتدائى وإعدادى وثانوى .

العالم الفرنسى (أندريه بوشان) ينكر شق البحر كمعجزة ، معللا ذلك بأسباب بيلوجية وطبيعية فما رأى فضيلتكم فى ذلك ؟

المعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مُدعى النبوة ، تصديقًا له فى دعواه كما قال علماء التوحيد .

فهى أمر معجز ، وخارق للعادة ، أى لايجرى على سنن المألوف والعادة فى حياة الناس ، ويؤيد به الله تعالى الرسل تصديقًا لهم فى دعوتهم ، ليحيا من حَيَّ عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة وللمعجزة تأييد من الله القوى القادر ، الذى لايعجزه شىء ولايعجز عن شىء .

والعقل البشرى مهما سما وعلا وارتقى ، فهو محدود وقاصر ، وإدراكاته محدودة ، ومعارفه كذلك تحد بقيود وحدود وتفاوت ، والنظريات العلمية محكومة بقوانين ونظريات معروفة ، فكيف يتأتى لعقل بشرى أن يحكم على معجزة بالإمكان أو عدمه ؟

أولى بالإنسان أن يعرف قيمته ، وأن يسهم فى محيطه الضيق ، وأن يجول فى مجالاته التى يقدر عليها ، وتتاح له بتوفيق الله ويسره ومعونته .

والمتتبع للبشرية – حين وعت على مدار تاريخها ، ويرى أن من شأن الطفولة البشرية التمسك بالماديات ، والوقوف عند الملموس المحسوس ، والتشبيه والتجسيد والوقوف عند الأشياء المادية وحدها ، وقياس كل شىء بمقياس العقل والموازين البشرية .

ومن شأن الرشد الإنسانى التجريد ، والتنزيه ، وعدم الوقوف فى دائرة المحسوس وحده ، وإكبار شأن العقل فيما وصل إليه فقط .

والإيمان بأن قدرة الله تعالى وعظمته لاتقف عند حد ، ولاتحيط بها العقول ، ولاتحدها الأفهام ، ولذلك كان الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه : (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ومأأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) .

فنحن نؤمن بما جاء به كتابنا – وماحدثنا به نبينا ﷺ ، ونعتقد بوقوع المعجزات لأنبياء الله ورسله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

استلهام الدين فى الثقافة الجنسية

للإسلام فكرته ونظامه ومنطقه فى السلام ، وللإسلام فكرته ونظامه ومنطقه فى الحروب : أسبابها ، والاستعداد لها ، وبعث الرهبة فى نفوس الأعداء وموقف الجندى فيها ، ومعاملة الأسرى وتحديد جزاء المقبل المتفانى ، وعقاب المدبر المتخلف ، وللإسلام فكرته ونظامه ومنطقه فى التجارة ، من بيع وشراء وكتابة عقود . . وللإسلام فكرته عن النظافة التى يسميها التطهر أو الطهارة طهارة النفس ، طهارة النية ، طهارة الضمير ، طهارة الجسد ، طهارة الثوب وطهارة المكان .

لقد حدد الإسلام ونظم كل أمر سواء فى ذلك ما اتصل بالمادةأو ماالتصل بالأخلاق ، أو ما اتصل بالغيب ، أعنى ماوراء الطبيعة ، ولقد وصل فى ذلك إلى أمور غير متوقعة فى نظام عام ككيفية الجلوس : الجلوس فى الطرقات ، وفى الأماكن العامة ، وفى غيرها وآداب ذلك ، وتدخل حتى فيما يراه الإنسان فى أثناء سيره ومايجب عليه بصدده ، بل تدخل حتى فى أسماء الأشياء ، فالحروب سماها (الجهاد) والنظافة سماها « الطهارة » فتدخله فى الأسماء نفسها إنما كان الهدف منه السمو بها ، وبموضوعاتها إلى مستوى إنسانى روحى يبعدها عن أن تكون فسادًا أو سببًا فى فساد .

على أن تغيير الأسماء الهدف الإسلامى منه الجوهر ، وليس الهدف منه الشكل كما يبدو لأول وهلة ففكرة « الطهارة » تستنكر فكرة الأناقة من أجل الإغراء ، وفكرة « الجهاد » تستبعد فكرة الحرب من أجل السيطرة وامتصاص الدماء واستعباد الأمم .

إذن للإسلام إصلاح فى كل ميدان . . وتنظيم فى كل مجال . . ووضع القواعد لكل أمر . . ووضع للأمور فى نصابها ، سواء منها ماتعلق بالشخص نفسه ، أو فى صلته بأسرته ، أو فى صلته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، أو العالم الذى يحيط به ذلك هو الإسلام .

فليس من الغريب – والأمر كذلك – أن يتحدث القرآن عن الحياة الجنسية . والحياة الجنسية تحتل فى عالمنا الحاضر مكانًا كبيرًا ، فالكتب فيها تؤلف بكثرة ، وتنتشر على نطاق واسع ، بعد أن يطبع منها الآلاف .

بيد أن السمة الغالبة عليها إنما هى اللهو والعبث وإثارة الغرائز ، ولهذا الطابع نفسه نالت رواجًا كبيرًا ، فالفتاة تقرؤها فى خدرها متخفية ، والشاب المراهق يلتهم صفحاتها التهامًا .

وفى المساء – عندما يستلقى كل منهم على فراشه تأخذ الفتاة ويأخذ الفتى فى أحلام اليقظة المتصلة بما قرأ .

من أجل ذلك حاول المصلحون أن يقوموا فى وجه هذا الفساد الذى يسرى بسرعة ، والذى لايقتصر شره على ساعات تضيع عبثًا فى القراءة ، وعلى ساعات تضيع عبثًا فى التخيل والأحلام وإنما يتجاوز الشر فى ذلك إلى تنفيذ الأحلام والتخيلات عمليًا فتتحقق الرذيلة وتنهار دعائم الفضيلة .

ولكن المؤسف أن الجرائد لاتستجيب إلى هؤلاء المصلحين ، فلا تفسح صدرها لآرائهم ، ذلك أن الجرائد نفسها ترى وتلمس أن من الوسائل التى تكون عاملا فى انتشارها إثارة الجنس .

ولذلك تنشر الصور المثيرة والأخبار الفاضحة ، والألاعيب والحيل التى يستعملها ممزقو الأعراض وجارحو الفضيلة .

بيد أننا لانكون منصفين إذا قصرنا فى الحديث على هذه الكتب العابثة ، فهناك لون آخر من الكتب تتحدث عن الحياة الجنسية بطريقة علمية وتشرح آراء « فرويد » وآراء مدرسته وتدعو فيما يدعو إلى إدخال التعليم الجنسى بطريقة منظمة فى المدارس ، وتزعم أنها بذلك تتلافى الضرر الذى يحدث عن طريق هذه الكتب العابثة .

وهذه الفكرة الأخيرة قد جربت فى عالم الغرب فكانت النتيجة على عكس ماتصوروا ، وفشلت التجربة فشلا ذريعًا . ونحن فى الشرق ، وسمتنا التقليد اللاواعى فى عالم الفتنة ، نريد أن نفعل مافعل الغربيون وفشلوا فيه .

أما التفكير النظرى العلمى فى هذا الجانب ، أعنى مايفعله علماء النفس عندنا من شرح آراء فرويد ومن نهج نهجه فإنه تفكير مضطرب كشأن التفكير النظرى عامة ، وإذا نسينا ، أو تناسينا هذا التغيير المستمر فى التفكير النظرى فإن ذلك لايمحو ولايزيل الحقيقة الصارخة وهى أن التفكير النظرى فى تغيُّر مستمر ، فما أثبته بالأمس ينقصه اليوم ، وما ابتدعه فى الآونة الراهنة يحطمه فى الغد القريب .

ومن المعروف أنه بمجرد ظهور نظرية (فرويد) قام فى وجهه – من علماء الغرب نفسه – المعارضون والمهاجمون .

ومدرسة (فرويد) نفسها ليست مدرسة محددة الآراء ، وليست مدرسة تلازم فكرة زعيمها دون مخالفة أو نقض سواء فيما يتعلق بالأسس ، أوفيما يتعلق بالنتائج .

وإذا تأملنا بعد ذلك أن الآراء البشرية خطاءة متعارضة متناقضة . فإننا لانقول إلا شيئًا بديهيًا بمعرفة من له صلة بالتفكير البشرى .

فى وسط هذه الحيرة كان لابد أن تتطلع النفوس إلى ملجأ يعصمها من الزلل . وهذا الملجأ العاصم المعصوم هو الدين ...

حول فيلم (محمد رسول الله) أو (الرسالة)

إن قرار مجمع البحوث الإسلامية فيما يتعلق بفيلم (محمد رسول الله) لايحتاج إلى رؤية الفيلم فإن القرار منفصل عن هذا الفيلم وعن غيره من الأفلام .

والقرار يقره كل مسلم لأنه تقديس واحترام لرسول الله ﷺ وصحابته إنه يقول :

لايجوز مطلقًا أن يظهر الرسول ﷺ أو أحد من الصحابة على الشاشة وذلك لأمور :

أولا : يعترف المسلمون جميعًا أن الرسول ﷺ أكمل البشر ، وخير المخلوقين وصورته المعنوية فى أذهان المسلمين صورة مستمدة من إيمانهم وعقيدتهم بأنه صلوات الله عليه وسلامه على الذروة من الخلق الكريم ، ولايتأتى تمثيله فى صورة تنزل بمكانته الرفيعة وبقدسيته التى فرضتها الرسالة .

والصحابة رضوان الله عليهم أثنى عليهم الرسول ﷺ ووصفهم بالحميد من الصفات ، وتمثيلهم نزول أيضًا بهم عن مكانتهم الشريفة .

من هو ذلك الممثل الذى يمثل شخصية أبى بكر رضى الله عنه ، وعثمان ، وعلى وأبى عبيدة ؟ ومن هو الممثل الذى يستطيع أن يمثل سيد الشهداء حمزة عم الرسول ﷺ ؟ إن كل تمثيل لسيد الشهداء نزول به عن مكانته فمن يدانيه حتى يمثله . . ؟ **هذا أمر** .

والأمر الثانى : هو أن الممثلين يرتبطون فى أذهان المشاهدين بعدة مواقف مثلوها من قبل بعضها عابث ، وبعضها عريق فى الإجرام ، وبعضها يساهم فى مواقف الغرام بحظ موفور ، فكيف نبيح لأمثال هؤلاء الذين يرتبط ماضيهم بهذه المواقف التمثيلية المختلفة أن يقتحموا حصن القداسة فيمثلوا حمزة أو يمثلوا أبا بكر ؟

ثم إن هؤلاء الممثلين سيمثلون فى مستقبل حياتهم أدوارًا أخرى ، أدوار المهربين أو اللصوص ، أو العشاق ، أو المهرجين ، ولايسمح الأزهر والصورة هكذا بأن يمثل الصحابة على الشاشة .

والأمر الثالث : الذى من أجله يمنع الأزهر تمثيل الصحابة : هو الجانب التاريخى الإسلامى

ممثلا فى الصحابة ، وهذا الجانب قول فيه عبارة عن وثيقة ودين يعمل به ويحتج به ، وكل انحراف فيه له خطورته ، وردعًا لكل انحراف ، وتلافيًا لكل خطأ فإن الأزهر يمنع تمثيل الصحابة .

وأمر أخير فى غاية الأهمية ، ذلك هو تفسير التاريخ على ضوء أحداث العصر والبيئة والمبادئ المعاصرة ، وفهم الشخصيات فى ضوء المبادئ السائدة ، وذلك فى غاية الخطورة وهو تزييف للتاريخ ، ومن أمثلة ذلك ماحدث فعلا فى تمثيلية أبى ذَرٍّ الغفارى ، التى عرضها التليفزيون علينا فى يوم من الأيام .

لقد كانت مهزلة فأبو سفيان عابث صاحب خمر ونساء ، وهو من هو اتزانًا وحكمة ، وعبد الرحمن بن عوف إقطاعى بالمعنى الذى تعنيه الكلمة فى العصر الحاضر ، وهو المبشّر بالجنة ، وهذا وذاك من الصحابة فى صورة هى مسخ للتاريخ .

وإذا نظرنا فى إخلاص إلى كل هذه الأسباب مجتمعة فإننا سنقر وجهة نظر الأزهر وهى وجهة نظر لاترتبط كما قلنا برؤية الفيلم لأنها منفصلة عن الرؤية ، وذلك أن أسسها مبادئ محددة باقية على مر الزمن .

فى خلق الداعية

تحدثت عدة مرات عن خُلق الداعية ، وكنت كل مرة أبين أن العنف فى القول ، وأن القسوة فى التعبير ، وأن الإساءة إلى الناس – ميتين أو أحياء – لايتناسب مع قول الله تعالى:(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وكنت أبين أن الرفق فى القول ، واستعمال الحكمة ، والأخذ فى الموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن من خُلق الإسلام الحميدة ، ومن وسائل النجاح فى الدعوة .

وكنت أضرب الأمثلة على ذلك ومن تلك الأمثلة :

أن واعظا ذهب يعظ المأمون فكان عنيفًا فى الأسلوب ، قاسيًا فى التعبير ، فقال له المأمون : ياهذا إن الله تعالى قد أرسل من هما خير منك ، وهما موسى وهارون عليهما السلام ، إلى من هو شرّ منى وهو فرعون ، فماذا نصحهما سبحانه ؟ إنه تعالى قال لهما :

(فقولا له قولا لينًا لعله يتذكر أو يخشى) .

لقد وعظه المأمون ووقف منه موقف المرشد متتبعًا التعاليم الإسلامية . ولقد ذكرت كمثال أيضًا : أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان يصلى الصبح فى يوم من الأيام بالقرب من ضريح

الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . ومذهب الإمام الشافعى القنوت فى الصبح ، ومذهب الإمام أبى حنيفة القنوت فى الوتر فترك الإمام الشافعى مذهبه وهو القنوت فى الصبح آخذًا بمذهب أبى حنيفة فى تركِ القنوت فى صلاة الصبح ، وترك القنوت لايبطل الصلاة ، ومادام الأئمة قد اختلفوا فى الصلاة التى يترك فيها القنوت وفى الصلاة التى يقنت فيها الإنسان فلا ضير على مسلم فى أن يتبع مذهبًا منها ، وليس فى هذا مجاملة فى الصلاة ، فلم يترك الإمام الشافعى ركنًا من أركانها ولا واجبًا من واجباتها .

وقد قنت رسول الله ﷺ فى الصبح ، وقنت صلوات الله وسلامه عليه فى الوتر ، فمن قنت فى الصبح فقد أخذ بسنة رسول الله ﷺ التى ثبتت عنده ، ومن قنت فى صلاة الوتر فقد أخذ بسنة رسول الله ﷺ التى تثبت عنده ، وصلاة كل منهما صحيحة .

وإذا أقيمت كما يحب الله ورسوله فإنها تثمر ثمرتها وهى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى صراط مستقيم وأن يرزقنا التوفيق فى الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

فى منزلة المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين

إن منزلة المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين منزلة عظيمة إنه أحد مقدساتهم ، وله فى نفوسهم منزلة كبيرة منذ أن أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يقول تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) لقد باركه الله ، وبارك ماحوله من أماكن وبقاع ببركات الدين والدنيا ، وفى ليلة الإسراء المباركة جمع رسول الله ﷺ الأنبياء والرسل ليصلى بهم فى المسجد المبارك ، فلما اصطفوا للصلاة أخذ جبريل عليه السلام بيد رسول الله ﷺ وقدّمه إمامًا لهم جميعًا ، فدل ذلك على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، ودل أيضًا بطريق الرمز والإشارة ، بل بطريق واضح لالبس فيه ، على أن الكلمة الأولى والقيادة المباشرة فى بيت المقدس يجب أن تكون للمسلمين ، إن بيت المقدس هو أولى القبلتين ، وهو ثانى المسجدين ، وهو ثالث الحرمين ثم إنه مسرى خاتم النبيين ، وهو معراجه إلى السماوات العلا حيث رأى صلوات الله عليه وسلامه سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذْ يغشى السدرة مايغشى مازاغ البصر وماطغى ولقد تفضل الله عليه وأنعم فأراه من آياته الكبرى .

ومن مظاهر تقديس المسلمين أن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان إذا دخله لايشرب

من مائه وذلك ليجرد قصده عن كل شيء سوى الصلاة ، وهذا من دقائق الملاحظات عند هذا الإمام الجليل ، هاهو ذا إذن الموقف الذى يجب أن يكون للمسلمين فيما يتعلق بهذا المسجد ؟

إن قداسة هذا المسجد ووجوب المحافظة عليه لاتختص بأمة من أمم المسلمين دون أخرى . فجميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أفرادًا وجماعات وأمما يجب عليهم جميعًا المساهمة الفعالة فى استرداده والمحافظة عليه والقيام على شئونه ، وكما أصلحه سيدنا عمر بن الخطاب وهيأه تهيئة كريمة حينما فتح القدس ، فكذلك يجب على المسلمين أن يتولوا من شأنه الكبير والصغير ، وأن لايفرطوا فيه وهو من مقدساتهم .

وأن أرواح الشهداء الذين فتحوا القدس ، وأرواح شهداء الحروب الصليبية ، وروح صلاح الدين لتطل على المسلمين جميعًا منتظرة منهم البطولة والتضحية التى ترضى الله ورسوله .

فى موقف علمائنا من أخلاقيات اليهود وجرائمهم

إن اليهود منذ أن وجدوا لم ينقطعوا عن ارتكاب الجرائم فى عهد من العهود ، إن الشر طبيعة فيهم ، ولم يسلم أحد من أذاهم ، لقد قالوا عن الله تعالى : إنه فقير ونحن أغنياء ، وقالوا عنه سبحانه : يد الله مغلولة .

ورد عليهم بقوله : (غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا) : ولعنة الله قد صبت عليهم لأسباب كثيرة ، منها نقضهم العهد والميثاق ، يقول سبحانه:(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) ، ومنها ماعبر الله عنه بقوله:(لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) .

ولقد أخذ الله سبحانه وتعالى عليهم أيضًا أنهم قالوا على مريم بهتانًا عظيما ، لقد اتهموها وهى الطاهرة المطهرة بالمنكر والفحشاء ، وسبوها فى عرضها وشرفها وهى المبرأة التقية .

ولايستبعد على اليهود أى جريمة من الجرائم ، وكتب التفسير التى ألفها العلماء منذ القرن الثانى للهجرة إلى الآن – وهى من الكثرة بحيث لاتكاد تعد والكتب الخاصة باليهود التى ألفها العلماء أيضًا وحديث العلماء فى الإذاعات والتليفزيون والصحف والمجلات ، وخطبهم فى المساجد ، ومحاضراتهم فى الأندية ، كل ذلك شاهد على أن العلماء منذ العصور الأولى للإسلام لم يقصروا فى واجب ولم يقصروا فى بيان الحق .

وهاهم أولئك على خطوط المواجهة مع الجنود جنبًا إلى جنب أمام الأعداء يقومون بدورهم ، ويؤدون واجبهم ، ويشهد بذلك قادة الجيش أنفسهم .

أما إذا لم يحط شخص علماً بكل هذا الذى أدوه ويؤدونه فإن مسئولية ذلك لاتقع عليهم ، وإنما تقع على الذين يصدرون الآراء دون عناية بدراستهم .

فى فلسفة مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالنسبة للعدوان الإسرائيلى

ينطلق المؤتمر فى مواجهة العدوان الإسرائيلى على البلاد العربية والمقدسات الإسلامية من مبدأ فكرى معين ، هو أن الصراع القائم فى المنطقة له واجبات مختلفة وله جذور تمتد إلى مجال العقائد نفسها ،

فالصهيونية وإن كانت تمثل أطماعاً سياسية واستعمارية معينة فإنها ترتكز فى فلسفتها وفى تجميع الآراء حولها على قاعدة عقائدية تدين بالعنصرية وبتفوق الجنس ، كما تدين بكراهية الأديان والعقائد المخالفة كافة وتعمل على تدميرها ، وتحقير أصحابها ووضعهم فى مواضع الذل والضعف والتبعية ، ومن ثمة كان لابد من عقيدة تواجهها ، وكان لابد لهذه العقيدة من أن تدين بمبادئ مخالفة للصهيونية فى جوهرها ، لابد لها من أن تكون قائمة على السماحة وتكريم الإنسان وحرية الرأى والشمول الإنسانى ، وهذه العقيدة التى يدعو إليها المؤتمر فى مواجهة الفلسفة الصهيونية العنصرية هى بالبداهة عقيدة الإسلام هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن البشر الذين ينبغى تكتيلهم للوقوف موقف الدفاع ضد أصحاب العقيدة الصهيونية الباغية كان لابد من أن يرفعوا لهم شعاراً عقائدياً ناضجاً يواجه شعار الصهيونية الفاسدة ، ومن غير التوصل إلى مثل هذا الشعار تذهب سدى كل الجهود التى تبذل للتجميع والتوحيد .

ومن هنا يدرك المؤتمر أن شعار الإسلام هو الكفيل بتحقيق الوحدة المأمولة لكل راغب فى الدفاع عن المقدسات ومدافع عن الكرامة .

فى دعم المعاهد الأزهرية

إن المعاهد الدينية تشكل القاعدة العريضة فى الهيكل التعليمى للأزهر الشريف وقمة هذا الهيكل هو جامعة الأزهر ، وهذه الجامعة كانت فيما مضى تضم كليات ثلاثة هى : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ، وتعنى هذه الكليات بعلوم العقيدة والشريعة واللغة العربية ، ويتخرج فيها علماء فى هذه المجالات ، يقومون بعد تخرجهم بمسئولية الدعوة الإسلامية

أئمة للمساجد ووعاظًا ومرشدين على المستوى الجماهيرى والقوات المسلحة ، ويتولى بعضهم تدريس الدين واللغة العربية فى المدارس العامة والمعاهد الدينية ، وتقوم طائفة منهم بمهمة النظر فى قضايا الأحوال الشخصية والفصل فيها ، ذلك على المستوى الداخلى .

أما على المستوى الخارجى فإن كثيرًا من علماء الأزهر يوفدون إلى البلاد الإسلامية يحملون رسالة الإسلام ونشرها بين ربوع هذه البلاد ، ويشاركون فى مجال التدريس بالمعاهد الدينية والجامعات الإسلامية بها ، كان ذلك قبل صدور القانون رقم ١٠٣ السنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها ، وقد استحدث هذا القانون إلى جانب كليات جامعة الأزهر الأصيلة كليات أخرى نظرية وعملية ، هى كليات : التجارة والتربية والزراعة والعلوم ، والهندسة والطب بأنواعه ، والصيدلة ، وكلية البنات الإسلامية . لقد استهدف القائمون من ذلك بعد أن اتسعت جوانب الحياة واستردت الدول الإسلامية حريتها واستقلالها وتخلصت من كابوس الاستعمار الذى عاق حركتها وحصرها فى دائرة التخلف قرونًا طويلة . استهدفوا أن يُوصل بين الدين والحياة ويُربط بين العقيدة والسلوك فحرصوا على أن تخرّج جامعة الأزهر علماء عاملين ، يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح والتفقه فى العقيدة والشريعة ولغة القرآن كفاية علمية وعملية ، فيشاركون فى كل أنواع النشاط والإنتاج والزيادة ، والقدوة الطيبة على مستوى العالم الإسلامى والوطن العربى ، إن كليات جامعة الأزهر فى ظل هذا القانون لايمكن أن تكون صورة مكررة من كليات الجامعات الأخرى وإنما هى ذات نوعية خاصة تحقق للطالب ثقافة دينية واعية إلى جانب الثقافة المهنية التى يحصلها نظراؤهم فى الكليات المماثلة فى الجامعات الأخرى ، وليست هذه النوعية جديدة فى تاريخ الأزهر والجامعات الإسلامية ، فإن أعظم علماء الطب والكيمياء والرياضيات والفلك كانوا علماء دين منهم الشيخ ابن سينا ، والفارابى ، وابن الهيثم ، وجابر ابن حيان ، وآخرون ، كثيرون استفاد العالم كله شرقه وغربه بعلمهم وخبراتهم .

وجامعة الأزهر تنال حظها وافرًا من العناية والاهتمام ، أنشأت لها فروعًا فى كل من أسيوط وطنطا والزقازيق والمنصورة .

وحتى تجد جامعة الأزهر طلابها الذين يجمعون بين علوم الدين والدنيا ، ولهم الأهلية الكاملة لمتابعة الدراسة الجامعية فى كليات جامعة الأزهر كانت المعاهد الدينية هى الروافد الأصيلة لهذه الجامعة ، ولكن المعاهد الدينية قد وقف نموها عند الحد الذى كان عليه أكثر من قرن ، فى الوقت الذى تزايد فيه عدد السكان فى الداخل والخارج ، وتعددت الكليات والفروع فى جامعة الأزهر فعجزت المعاهد عن الوفاء بحاجة هذه الكليات من الطلاب لقد كان عدد المعاهد فى العام

الدراسى ٧٤ /١٩٧٥ على النحو التالى :

٢٩٠ معهداً ابتدائياً .

٩٦ معهداً إعدادياً .

٩٦ معهداً ثانوياً .

٥ معاهد للفتيات .

إلى جانب معهدين اثنين للقراءات وآخرين للمعلمين .

ولن تستطيع هذه الأعداد أن توفر ٣٠٪ من حاجة جامعة الأزهر على أحسن الفروض وبذلك يتبين أن الهرم التعليمى للأزهر معكوس ، ولكى تحقق جامعة الأزهر أهدافها وحتى يتمكن الأزهر من مواصلة رسالته التى نهض بها منذ أكثر من ألف عام كان لابد من دعم المعاهد الدينية ، وهى القاعدة العريضة فى الهيكل التعليمى للأزهر ، ومن العمل على وضع خطة لتوفير العدد الكافى منها بقدر مايتوفر من إمكانات مالية .

ولقد قامت مصر بواجبها فى هذا الشأن ولم تبخل بمال على قدر ماتتحمل ميزانيتها التى أرهقتها مسئولياتها القومية ، فلم أجد بدًّا من أن أتجه إلى أبناء وطنى داخليًّا وخارجيًّا فوجهت دعوتى إلى الحكومات الإسلامية ، وإلى الغيورين على دين الله على مستوى العالم الإسلامى والعربى .

أما على المستوى الداخلى فقد وجهت دعوتى أيضًا إلى الهيئات والشركات والأفراد ومازلت أدعو ، وقد استجاب القليل من الهيئات والشركات بقدر ماسمحت به ميزانيتهم أما على مستوى الأفراد فإنه لما يستوجب الحمد لله ويبشر بالخير أن أرى بعض المواطنين قد عمدوا إلى إنشاء معاهد ابتدائية أو إعدادية بجهودهم الذاتية ، والأزهر يقدم لهم المعونة المالية وبقدر ماتسمح به ميزانيته مساعدة وتشجيعًا لهم ، وهم بهذا العمل المحمود يقومون بواجبهم نحو دينهم ووطنهم ، وإنى أعلن أن الأزهر يرحب كل الترحيب بهذا الأسلوب ، ويوفر لهم المعونة الفنية ، ويقدم المساعدة المالية بقدر طاقته كما أن كل معهد يتم بناؤه بالجهود الذاتية وتتوفر فيه إمكانات الدراسة يسارع الأزهر إلى قبول التبرع به ويضمه إلى معاهده وفتح الدراسة به .

ومن الأهمية بمكان أشير إلى أن المعاهد الدينية يجد فيها طالب الدين بغيته ، وطالب الدنيا أمله فإن المتخرجين فيها يجد كل واحد منهم مكانًا فى جامعة الأزهر وكلياتها النظرية والعلمية دون التقيد بمجموع معين ، فضلا على أنه يتمتع بعد تخرجه وبلوغه الستين ببقائه فى الخدمة خمس سنوات زيادة على غيره خريجى الجامعات الأخرى حتى تنتهى مدة خدمته عند بلوغ الخامسة والستين .

فى الدعوة إلى الحضارة العلمية والصناعية مع التمسك بالقيم الإنسانية التى جاءت بها رسالة الإسلام

يقول الله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا ، بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز) .

فتوضح الآية الآن أن نعمة الرسالة على الناس أمران : أمر يكشف عن طريق الحق وصراط الله المستقيم ، وهدايته إلى العدل بين الناس جميعاً ، وهو كتاب الله ، والميزان الذى جاء به هو تلك المبادئ التى تحدد المنهج السليم فى التفكير والسلوك والمعاملات .

وأمر يرشد الناس إلى مصدر المنافع المادية ، وإلى مصدر القوة والمنعة وهى الحديد والصناعة .

والله سبحانه إذ يصف نفسه هنا بأنه قوى لا يغلب ، وبأنه عزيز وصاحب منعة ، فإنه يبغى لعباده أن يكونوا على صفته فى القوة والمنعة ، وقوتهم – كما تصرح هذه الآية تستند إلى هداية الله فى كتابه ، وإلى استخدام الحديد فى منافعه العديدة وفى قوته المادية ومنعتهم ضد الاعتداء عليهم ، ولا تتوافر لهم القوة والمنعة إلا باتباع هداية الله فى كتابه ، وباستخلاص الحديد من ترابه واستخدامه فى مصالح الناس .

وحضارة الحديد وحدها – وهى الحضارة الصناعية اليوم القائمة على التطبيق العلمى – لا توفر وحدها القوة والعزة من غير التمسك بهداية الله ، لأنها قد تتجه – لو أطلقت وحدها – إلى تدمير وإرهاب البشرية أكثر مما تتجه لخيرها ، وهنا تكون مصدر تهديد وخوف ، وتتحول إلى شبح يقلق البشرية ويجعلها تعيش فى فزع مستمر ، وعندئذ تبعد تماماً عن أن توفر للبشرية القوة التى تقيها من شرور الضلال .

وهداية الله فى كتابه وفرت للمؤمن قوة النفس ويقظة الضمير ، ووفرت الصبر وعدم الاضطراب والقلق فى مواجهة الأزمات ، وهذه الهداية فى حاجة معها إلى القوة المادية لدفع الاعتداء عن الإيمان والمؤمنين بالله من أعداء الإنسانية ، وهم الماديون .

لا ينبغى أن يفر المؤمنون من إيمانهم برسالة الإسلام ، فإنها الرسالة التى تقيهم الطغيان بالقوة ، والتى تحملهم على تجاوز الأزمات والشدائد ، والتى تحكم الروابط بينهم على أساس من

هداية الله فيها ، وهى روابط الإنسانية فى حصائصها ، بعيدة عن القبلية والشعوبية والعنصرية ، وإذ ينادى القرآن الكريم فى قول الله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . فإنه يرشد إلى قيمة التماسك على أساس من الخصائص البشرية وحدها ، فوق مصادر التفرقة والخصومة التى توحى بها القوميات والشعوبية ، والإسلام بندائه هذا يمجد الإنسانية ، ويوصل دعوته إلى محيط العالمية .

كما لا ينبغى لهم أن يفرطوا فى اكتساب العلم والتطور الصناعى ، فالمعرفة والصناعة هما دعامتا التقدم الحضارى فى القوة المادية ، والإفادة من الحديد فى منفعتهم ومصالحهم الدنيوية .

وبهذا وذاك يجمعون بين الحسنيين ويطيعون كتاب الله فيما جاء فيه خاصًّا بهدايته ، وكذلك بنعمه على الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، وفى مقدمة هذه النعم الحديد ، وكل ما يطلب منهم أن يحذروا أن تطغى إليه الصناعة فتستعبد هذه الآلية إرادة الإنسان ، فتزل قدمه فى هاوية الفساد والانحراف والانحلال .

والعاصم للبشرية دائماً هو تذكر الله وخشيته واتباع ما وصاهم به ، وبذلك يحمون أنفسهم من الإسراف (إن الله لا يحب المسرفين) .

فى معنى العبادة

ما معنى كلمة العبادة ، وما معنى الأمر التعبدى ؟

العبادة معناها الطاعة والخضوع ، ومعنى قوله تعالى : (إياك نعبد) نطيعك الطاعة التى نخضع معها ، والعبادات فى الإسلام أعمال أمرنا الله تعالى بالقيام بها فأطعنا ونفذنا ما أمر به . وهى أساساً الصلوات الخمس وأداء الزكوات بمختلف أنواعها ، وصيام رمضان وما تطوع به العبد بعد ذلك .

ومعنى عَبَدَ الله : أطاعه وأدى ما أمره به .

أما الأمر التعبدى فهو الأمر الذى لا نعرف به حكمة ولا تعليلا ، وهذا لابد منه فى العبادات . وبعض الناس يحاول أن يجعل للعبادات فوائد مادية ، فهم يقولون مثلا : فى الصلاة رياضة بدنية ، وفى الصيام صحة ووقاية من بعض الأمراض ، وعلاج من أمراض أخرى ، وهكذا وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكننا لا نصلى رياضة ولا نصوم حمية وعلاجاً ، وإنما نفعل ذلك كله طاعة لله وامتثالا لأوامره ، ولو قصدنا الرياضة والصحة ما كان عملنا عبادة ولا استحققنا عليه

ثواباً ، ثم إنه كان من الممكن أن يستغنى عن العبادة بعمل يؤدى وظيفتها فهناك من تمارين الرياضة ما هو أجدى على الجسم ، ثم يكون حينئذ من الممكن أن يفطر الصائم قبل المغرب بدقائق أو بعد الفجر بلحظات ، فهذا لا يؤثر فى الحمية ولكنه يفسد العبادة ، ويكون من الممكن أن نصلى الصبح أربع ركعات ، ولكننا نؤدى العبادات طبقا لما أمر به الشارع فإذا أنقصناها أو زودنا فيها فسدت نهائيا ، لأننا خالفنا تعاليم الله .

وهناك من شئون العبادة ما لا تظهر له حكمة ولا يعود علينا بفائدة مادية ، فوضوءنا ينتقض بخروج غازات من أجسامنا ، ولا تصح الصلاة به بعد ذلك ، ونحن نطوف حول الكعبة وهى على يسارنا ولا يجوز أن نطوف بها وهى على يميننا ، وطوافنا يكون سبعة أشواط لا خمسة ولاثمانية ونحن نفعل ذلك كله طاعة لله ووفقاً لما أمرنا .

كأن ذلك يعنى أن العبادات عمل بين العبد وربه ولا علاقة لها بدنيا الناس وحياة المجتمع . . لا ، لا ليس الأمر كذلك .

العبادة فى كيفيتها وطريقة أدائها أمور تعبدية علينا أن نؤديها حسبما بينها الله لنا ، أما أثرها بعد ذلك فى سلوكنا وحياتنا الاجتماعية فأمر بيّن لا ينكره أحد ، فالشخص الذى عوّد نفسه أن يؤدى العبادة ، حسبما أمر بها طاعة لله وخشية منه ، يسهل عليه أن يخضع نفسه لطاعته فى الأمور الأخرى التى أمره بها ، من حسن التعامل ومساعدة الضعيف . والصدق فى القول ، وكل شىء يعلم أنه يرضى ربه يسهل عليه أن يعمله وإن ثقل عليه ، وكل شىء يعلم أن الله لا يرضاه ، يستطيع أن يكبح نفسه عنه ، وإن كان حبيبا لديه .

ألست ترى الجيش فى تدريبه يقوم بحركات عديدة لا يعرف لها سبباً ولا فائدة ، ولكنها تعوّده النظام والطاعة .

ومن العبادات ما شرع لصالح المجتمع مثل الزكاة ، فهى مال يدفعه الأغنياء من فضول أموالهم للفقراء أو لبيت المال ، وهى تنفق لسد حاجات الفقراء وحاجات الدولة ، وذلك لإصلاح المجتمعات ، والحج أيضاً هو مؤتمر عام للمسلمين يجب أن يدركوا حكمته الاجتماعية ويستفيدوا منها ، فنحن نحج طاعة ونستفيد فائدة اجتماعية ، ونؤدى زكاتنا طاعة وعبادة ، ونستفيد فائدة اجتماعية ، وكذلك نصوم طاعة ونجنى فائدة صحية واجتماعية ، والعبادات دائماً إصلاح للسريرة ، وتعوّد على الاستقامة على حدود الله ، ولا يصلح مجتمع بغير ذلك . وفى القرآن الكريم : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) وذكر الله تعالى يعنى تذكره وخشيته .

والرخصة هى الشيء الاستثنائى ، والعزيمة الشيء الواجب ، فمثلا الصوم أمر مفروض من الله تعالى على كل مسلم مكلف فهو عزيمة ، وقد يطرأ للشخص ما يجعله ضعيفاً عن أداء صومه فيسمح له بالفطر محافظة على صحته ، أو تمكيناً له من أداء واجبه ، فهذا السماح رخصة ، أى شيء استثنائى لسبب طارئ ، والله سبحانه وتعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه والصلاة التى هى أربع ركعات فى الحضر يرخص للمسافر نظراً للمشقة التى يلاقيها فى سفره أن يقصرها ، فيصلى ركعتين اثنتين فقط . فهذه رخصة أيضاً ، الحاج القادر يطوف بنفسه ويسعى ، ورُخص للضعيف أن يستأجر من يحمله ، فهذه رخصة وهكذا .

أما عن المسافة التى يجب فيها قصر الصلاة فالأمر يتوقف على المسافة التى يقطعها المسافر ، فإذا كانت مسافة قصر جاز له أن يقصر ، وأنه يفطر – فإذا وقفت الطائرة بشخص فى مطار ما وكان وقت صلاة الظهر أو العصر مثلا – صلى ركعتين فقط ، وإذا قامت به طائرته من بلد ما قبل الفجر لتصل إلى بلد آخر عند الظهر أو بعده جاز له أن يقصر ، لأن المسافة أكثر من أربعة بُرُد ، وشرع لقطعها الفطر وقصر الصلاة ، وقصر الصلاة فى هذه الحالة أفضل ، وصوم اليوم أفضل لقوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم) وإذا وصلت به الطائرة بلده قبل المغرب ولم يكن صلى الظهر والعصر صلاهما كاملين ، لأن سفره قد انتهى ووقتهما لا يزال حاضراً .

وأوصى بالإضافة للفرائض بالعناية بصلاة النوافل ، والإكثار منها ، لأنها مما يقرّب العبد من ربه . . وفى الحديث لا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه . ونوافل الصلاة كثيرة ، ركعتان قبل الظهر وبعده ، وركعتان قبل العصر ، وبعد المغرب وبعد العشاء ، أما صلاة الليل فإنها من السر الخفى بين العبد وربه ، وثوابها . أكبر من ثواب النوافل الأخرى .

وكذلك التطوع بالصيام : صوم يومى الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من أول كل شهر ، وستة أيام بعد رمضان وكل تطوع بعبادة يرفع درجة المؤمن عند ربه ، والله تعالى يقول : (فمن تطوع خيرًا فهو خير له) ونسأل الله الهداية والتوفيق لجميع المسلمين .

والحمد لله رب العالمين.

نصيحة إلى الشباب المعاصر

سن المراهقة هى أخطر مراحل الحياة التى يمر بها الشباب ، وكثيرًا ما يميل فيها الشباب إلى الانحراف ، ويظهر ذلك فى سلوكهم وأخلاقهم وخروجهم عن المألوف والآداب العامة ، مندفعين وراء طيش الشباب ، ولذا كان من الواجب على الآباء والمعلمين والمربين أن يتخذوا العدة لتربية

الشباب قبل بلوغهم هذه المرحلة ، وذلك بتنشئتهم على الآداب والمثل العليا ، واتباع أوامر الشرع الشريف حتى يصلوا إلى هذه المرحلة وقد انغرست فى نفوسهم الآداب والأخلاق الحسنة ومرنوا على احترام شعائر الدين .

قال صلوات الله وسلامه عليه ، « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

ومن الكلمات الرائعة الجامعة التى بلغت الذروة فى تربية الشباب وتنشئته ، والتى يجب أن يتخذها المرشدون والمصلحون والمربون نموذجاً يسيرون عليه ماورد فى الحديث الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت رديف النبى ﷺ . فقال : « ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ :

احفظ الله يحفظك ،احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، طويت الصحف وجفت الأقلام » .

وإنه لمن المعروف المجرَّب أن من شب على شىء شاب عليه ، فإذا اعتنى الآباء والأمهات بتنشئة الأطفال على الدين ومكارم الأخلاق منذ الطفولة فإنهم يسيرون على ذلك طيلة حياتهم ، وإذا كانت المسئولية ملقاة فى الدرجة الأولى على عاتق الآباء والأمهات فإن المدارس ومعاهد العلم فى درجاتها المختلفة عليها مسئولية كبيرة فى هذا الشأن ، ولقد نادى المصلحون فى كل عصر بوجوب العناية بأمر الدين فى المدارس ، ولكن أصواتهم ذهبت أدراج الرياح فى كل الأقطار الإسلامية والآن المشرفون فى وزارات التعليم أغلبهم الأعم من خريجى الجامعات الغربية فهم يحتذون فى أمور الدين ما يحتذيه الغرب فى هذه الأمور فلا تتفتح آذانهم للدعوة إلى الدين ، ولا تنشرح صدورهم لإيجاد المجال له اللهم إلاّ فى أضيق الحدود ، فإذا فتحت المدارس أبوابها للدعوة الدينية فى صورة من الجد فإن ذلك بالإضافة إلى عناية الآباء والأمهات – يعدّ خطوة متقدمة من أجل وسائل إصلاح الشباب . .

فى السعى على الرزق

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يسعوا فى طلب الرزق وكسب العيش فى كثير من الآيات ، وكذلك حث النبى ﷺ على الكسب ليعيش الإنسان من كسب يده .

ولكن هذا الكسب مقيد بأن يكون من الطرق المشروعة التى ليس فيها معصية لله ولا مخالفة لأمره ولا ارتكاب لما نهى عنه ، أو معاونة على المعصية .

والمسلم بمقتضى إيمانه يعبد الله وحده ولا يشرك به أحدًا ، ويلزمه على ذلك أن يبتعد عن كل عمل فيه مساس بهذه العقيدة أو المساعدة على ما ينافيها ويناقضها ، وليس كسب العيش مقصوراً على العمل فى الأمور التى تنافيها عقيدة المسلم ، بل طرق العيش كثيرة وأسبابه متنوعة فليطلبها المسلم من الحلال البعيد عن المحرم ، ومتى خلصت النية لله فإن الأبواب تتفتح ، ويبارك الله فى السعى فليلتزم المؤمن بقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) . . وقال : (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) » ، والله الموفق والمعين .

فى الإسلام والحضارة الحديثة وفكرة التطور

موضوع الدين والحضارة يستدعينى أن أقول فى المبدأ : إننى مهما تحدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومهما تكلمت عنها بنقد أو تحليل فإن الدين على وجه العموم لا يعارض أبدا التقدم العلمى لإسعاد الإنسانية ، لا يعارض التقدم الصناعى لإسعاد الإنسانية ، لا يعارض الناحية العلمية على أية صورة كانت مادام الأمر يتعلق بإسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه القضية مفروغاً منها ، فإنى أتجه إذن لتصوير نشأة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت فى فترة معينة من التاريخ ، وفى زمن محدد نعلم ابتداء ، ونعلم العوامل التى أنشأتها والتى كانت الأساس فى هذه النشأة .

وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربى سيطرة تامة ، ماكان هناك شىء يفعل ، أو شىء ينتهى فيه الأمر .

ولا شىء يقام أو يهدم ، وماكان إنسان يقدم على أمر أو يحجم عن أمر إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين ، ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسفوا فى استعمال سلطتهم حتى لقد أنشئوا محاكم التفتيش . وقد كتب الأوربيون المسيحيون عن محاكم التفتيش كثيرا وصوروها فى أبشع مظاهرها ، وفى أسوأ صورها : كتب الكاثوليك والبروتستانت ، وكتب الفرنسيون ، وكتب الإنجليز ، كتب هؤلاء — وهم رجال المسيحية فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وضحوا وبينوا أن الكبت الذى كان يغمر أوربا فى ذلك العصر ولّد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاهاً معيناً ، واتخذ الاتجاه الإنسانى ، وأخذ قادة الحضارة – مبتدئين من هذا الاتجاه الإنسانى – مقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاتيته له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التى يجب أن يحتلها الإنسان ، المكانة التى تليق به .

ومن هنا كانت كلمة الإنسان التى تطلق – كرمز مميز – على هذه الحضارة ، ومن هنا كان تمجيد الإنسانية .

ولكن حينما بدءوا يتحدثون عن الإنسان ، فى ثورة عواطفهم القوية وفى غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية توحى – عند قادتهم بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث : انفصال الدين عن الدولة .

يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين تجاه الألوهية ، تجاه النص المقدس ، تجاه الكنيسة ، ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان .

فالإنسان له عقله له منطقه ، ويجب أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعة من الجماعات كانت السيوف مصلتة عليها من جميع النواحى ، ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجه إلى نحرها ، ماذا يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ، وبالنسبة لحامليه . بالنسبة لهذا المصدر الذى كان سبباً للكبت إن تفكيرها فى أهدأ حالاته يكون معارضاً منتقداً ، ومتحمساً فى معارضته ، وفى انتقاده ولكن يشعر أحياناً بشعور السفاك النَّهم لإسالة الدماء .

هكذا كان الأمر فى بدء الحضارة الحديثة ، لقد أراد زعماؤها ، أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها بدون معارضة لها أوكبت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » يختلط الأمر نوعاً ما ، إذ إن معنى هذه الكلمة اكتسب من الدم التى نزلت بالإنسانية فى كثير من فترات التاريخ نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعطف ، ولذلك فإنى دون إخلال بالمعنى سأستعمل كلمة البشرية ، وإذا استعملت كلمة البشرية كان المعنى الذى أريده أدق فيما يتعلق بصلة الثورة الأوربية ، أو الحضارة الأوربية فى بدء نشأتها وفى ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك إذن الدين من جانب ، وكانت هناك البشرية من جانب آخر ، وأرادت هذه البشرية أن تقف فى وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها فى وضع أصولها وقواعدها ونظمها ، وأن

تنتهى فى النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحى التى تتعلق بهذا الجانب الروحى .

وتلقت الحضارة أو ممثلو الحضارة ، أو الذين يقومون على الحضارة ، تلقوا يميناً وشمالا الأصول والقواعد التى يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم البشرية وتساءلوا ماذا يمكن أن يحل محل الدين .

إن الدين نظام اجتماعى وتشريعى وأخلاق ، فما الذى يمكن أن يحل محل هذه النظم إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم ، لأنها نظم دينية يقوم عليها رجال الكنيسة ، لا رجال محاكم التفتيش ، وما هى المصادر والمنابع التى نتقى منها إذا أردنا أن يسود الاطمئنان فى المجتمع ؟

أما المصادر فما كان يمكن ، وماكان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ – العقل فى ناحية ما وراء الطبيعة .

٢ – والضمير من ناحية الأخلاق .

وإذا لجأت الحضارة الحديثة فيما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت فى الأخلاق إلى الضمير ، فالعقل : هو الذى يؤسس ما وراء الطبيعة ، والضمير : هو الذى ترجع إليه فى الأخلاق .

ولكن ، تخبط العقل ، لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن ، ومن مكان إلى مكان ، ومن ثقافة إلى أخرى .

وأخذ الضمير من جانبه أيضاً يوحى بإيحاءات مختلفة ، فالضمير ليس إلا أثراً للبيئة وللوسط الذى يعيش فيه ، ليس الضمير معصوماً قط ، وإنها لفكرة خرافية كون الضمير معصوماً ، والضمير إذ تخلص من سيطرة الدين فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامى ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى ، ومن الواضح أن ضمير الأوربيين لا يؤنبهم أبداً على السفك الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح إذن – لو اتخذناه مقياسا – السفك والتنكيل ، والاستعمار . ليس هناك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير .

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فيما وراء الطبيعة .

وتخبط العقل . . وتخبط الضمير . فما المخرج إذن ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة أن يلجئوا إلى شىء يبعد عنهم وصمة العجز ، فلجئوا إلى فكرة التطور ، الإنسان المتطور ، الأفكار المتطورة ، وإذن فالمسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعانى ، ومادام هناك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطئوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم ، وفى كل فترة من فتراتهم . . ونادى الحضاريون البشريون بفصل الدين عن الدولة ، وحينما فُصل الدين عن الدولة ، رأت الدولة نفسها تتخبط حينما تستند إلى العقل فى نظمها الدينية والاجتماعية ، وحينما تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية فاخترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة التطور هى الطلسم السحرى الذى يحاولون التعلل به ، لإخفاء عجز العقل والضمير الإنسانى لإخفاء هذا العجز المطلق الذى يجعل الإنسان متخبطاً بعقله فى أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطاً بضميره فى أمور الأخلاق . لقد أخفوا كل ذلك بفكرة التطور .

ليس فى الأحكام القاطعة تطور :

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور فى الدين والأخلاق فما معناها حقيقة ؟ ما معنى فكرة التطور ، إذا أدخلناها فى الفكر على وجه العموم ؟ إن فكرة التطور ما هى إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى آراء اليونان القدماء ، لأن معنى التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة ، وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور لا ينتهى إلى حد ، إذن هناك النسبية باستمرار ، وهناك النسبية المطلقة ، وهناك إذن الخطأ المستمر ، وهذا الخطأ لا علاج له مادمنا نقول بالتطور ، لأنه مادمنا نقول بالنسبية وبالتطور فليس هناك الثبات ، وإذن لا يكون هناك ثبات فى الدين ، ولا يكون هناك ثبات فى الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور فى الدين فقد قضينا على الدين ، وإذا أدخلنا فكرة التطور فى الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

وهذه الفكرة التى أتحدث عنها ، فكرة إدخال التطور فى الدين فكرة سمعناها من الكثيرين ، لقد أُلِفْنا كلمة التطور ، وألفنا كذلك كلمة إدخال التطور فى الدين إلى درجة أنه يخيل إلىّ وأنا أتحدث فيها ، أن الأمر غريب على بعض الأذهان التى تتساءل لِمَ لا يكون فى الدين تطور .

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها ، وإذا فهمت فكرة الدين على حقيقتها كان

لامناص من الإقرار . بأن الدين لا يدخله أبدًا ، ولا شَرْوَى نقير ، لا ، ولا قلامة ظفر : فكرة التطور .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه تغيير لا يتنابه هدوء ولا سكون ، إنها إذن النسبية ، إنها إذن السوفسطائية القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة القديمة التى لم يمكن فيها دين ثابت ، ولم يكن فيها خلق ثابت ، فالأمر فيهما حينئذ عند السوفسطائيين ليس أمراً ثابتاً مطلقاً وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار ، وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين ، ويقضى على الأخلاق ، وإنه لمن المؤسف حقيقة ، أننا نجد فكرة التطور تتسرب إلى الناحية الدينية . وإلى المحيط الدينى فى الأقاليم الإسلامية وهذه الفكرة لخطورتها ، ولأنى أعلق على إزالتها كثيراً من الأهمية . أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى نكون على بينة من الأمر .

قرأت فى بعض المجلات مقالا يقول كاتبه إن فضيلة الشيخ (...)

رجل متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره – فى رأى الكاتب – أنه يأبى إلا أن يقيم صلاة الغائب على روح فلان ، وفلان هذا الذى ذكره الكاتب لا يدين بدين الإسلام ، وما من شك فى أن ذلك لا يجوز (إسلاميًا) وما من شك فى أن العالم الكبير لا يفعل ذلك ولا يبيحه ولكن ذلك إن دل على شىء ، فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التى لا تتغير بتغير الأهواء والعواطف ، ويدل من جانب آخر على الخطورة التى يتعرض لها الدين حينما ، تدخله فكرة التطور ، وحينما تتناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

أننا جميعًا نجلّ الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير ، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنجده يقول : بأنها تمثيل.نتساءل : لِمَ اتجه الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه ؟ لِمَ اتجه فى قصة آدم إلى أنها تمثيل ؟ حينما نتساءل حقيقة عن السر العميق – فى الشعور فى اللاشعور – نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا ، بل العالم ، وهى فيما يرى – تتعارض هى والتعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له .

رأى الشيخ ، محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكرة التطور المزعومة . فماذا صنع ؟ قرر بأنها قصة ، وأنها تمثيل ، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها بأنها حسية فى زمن موسى ، فكانت رسالة سيدنا موسى حسية ، ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة ، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية ، ثم تطورت الإنسانية من الحس ، والعاطفة إلى العقل ، فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية .

ورأيى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أينما سرنا ، وعند أى فرد رأينا ، وفى أى مجتمع شاهدنا – فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاث : الحس ، والعاطفة ، والعقل ، ولكن فكرة التطور ، وأن الإنسانية متطورة انتهت ، بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى محيط الدين ، فأفسدت كثيراً من القضايا ، ونعود فنترحم على الشيخ محمد عبده ، وإذا كنا ننتقده فلأننا نعلم أنه رحمه الله ، كان من سعة الصدر ومن سعة الأفق بحيث لا يضيق بنقد ، ونعتقد أنه لا يضيق الآن بنقدنا .

لقد حاول كثير من الناس الانسلاخ من آيات الله سبحانه وتعالى لقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأى ، وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يلائم النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله فتهيئوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم إذ أخلدوا إلى الأرض .

وما من ريب فى أن الإخلاد إلى الأرض فى أبشع صورة هو الشيوعية (واتبعوا أهواءهم).

وما من شك فى أن اتباع الهوى فى أسمج صورة هو الفلسفة الوجودية سواء كنا بصدد الشيوعى ، أو بصدد الوجودى فمثله كمثل الكلب إن تحْمِل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ولكن لم يلهث سواء أحملت عليه أم تركته .

إن الشيوعى ليس همه إلا المادة والإخلاد إلى الأرض ، ومهما بسط الله له فى الرزق فهو ضيق بذلك ، وإذا ضيق الله عليه فى الرزق ، فهو ضيق بذلك أيضا ، إنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة – مهما أوتى الإنسان منها – فإنها ما دام جشعاً ، لا تنتهى إلى إرضائه ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى .

فإنه وقد آثر اتباع الهوى – وليست الوجودية إلا إيثار اتباع الهوى – فإنه لا يعتمد على هادٍ يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعاً ، سواء كان سعيداً أو شقيًّا ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة ، أولا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعى والوجودى إلى ماكان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعى وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى عن السرادق الإلهى .

مما لا شك فيه ، أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة إنما تتخبط وتكون باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر باستقرار نسبيًا إلا بالحديد والنار والسلاح ، وبسفك الدماء ، وبالقتل ، وأن ماوراء الستار الحديدى يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال ، عن الألوهية ، الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار .

تلك أسس الحضارة ومنابعها ، ومصادرها : عقل ، فضمير ، فتطور ، فانتهاء إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين إذن لا يعارض التقدم فى سبيل إسعاد البشرية ، هذه قضية نحن مسلمون بها .

الإسلام :

نريد أن نتحدث عن الإسلام ، وتكفينى كلمة « الإسلام » تكفينى هذه الكلمة للدلالة على أن هذا الدين صحيح ، منزّل من عند الله ، إنّ معنى الإسلام الاستسلام لله فى كل مظهر من المظاهر ، وفى كل حركة من الحركات ، وفى كل أمر من الأمور ، ويصور المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة : (قل إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

إن هذا التصوير للإسلام فى هذه الآية الكريمة رائع حقًا .

استسلام لله ، أى دخول فى النطاق الإلهى ، وابتعاد عن الهوى والشيطان ، إنه إسلام الوجه لله ، فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الإلهى بالشيوعية أو بالوجودية .

وفيما يتعلق بالإسلام هناك النظم المعصومة ، هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم ، هناك إذن العصمة كاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئًا آخر هو الجهاد ، والكفاح المستمر من أجل الحق والخير وإعلاء كلمة الله ، فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا إسلام ، ومن لم يجاهد من أجل إسلامه فليس بمسلم ، هناك إذن الجهاد ، وهناك الاتجاه إلى جعل الإنسان ربانيًا أو إلهيًا .

ولكن ما هى السبيل التى رسمها الإسلام لجعل الإنسان ربانيًا

١ – ضمن الله الرزق .

٢ – وحدد الآجال .

(وفى السماء رزقكم وماتوعدون) وضعفنا وانشغالنا بالرزق والحرص عليه أكد الله ضمانه بقوله تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) وحدد الآجال ، وضرب لذلك أوضح الأمثال ، فلو فرضنا أن إنساناً فى برج مشيد وكتب عليه القتل ، لخرج من هذا البرج المشيد إلى القتل : (ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنةً نعاساً ، يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لوكان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، قل : لوكنتم فى بيوتكم لبرز الذين كُتِب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور) .

فإذن الآجال محددة والأرزاق مضمونة ، فماذا بعد ذلك إلا اتجاه إلى الله كلية وبكل ما تملك وما تحس ، وبكل ما تشعر .

وليس الاتجاه إلى الله كسلا ، فالأعمال عبادة مادمت متجهاً بها إلى الله .

حركاتك وسكناتك وأنفاسك إذا اتجهت بها إلى الله فهى عبادة ، فالعامل فى معمله إذا اتجه بعمله إلى الله فهو عابد ، والصانع فى مصنعه عابد ، إذا كان متجهاً بعمله إلى الله ، ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله بعمله وصناعته وحركاته وسكناته ، فهجرته إلى الله ورسوله ، والله يثيبه على ما فعله . إذا كان الله قد ضمن الرزق ، وحدد الآجال ، فليس هناك مطلقاً عذر من الأعذار للمسلم لأن يتخاذل وأن يتكاسل وأن يتواكل .

والصورة المثلى فى ذلك ، إنما هى صورة محمد صلوات الله عليه وسلامه فى كفاحه الذى لم يفتر ، وجهاده المستمر ، وهى صورة للمتأسين به يجب أن تحتذى ، ولكن لِمَ الجهاد ؟ ولِمَ الكفاح ؟

هناك رسالة إسلامية ونحن مكلفون بها ، ونحن لا نقول الأزهر فحسب هو المكلف بها ، إنما نقول : إن كل مسلم مكلف بهذه الرسالة .

وهذه الرسالة الإسلامية تصورها الآية الكريمة : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

والرحمة بالإنسانية : إنما هى إخراجها عن دائرة الشيطان إلى دائرة الله سبحانه وتعالى . إخراجها عن التناحر ، وعن التنازع من أجل المادة إلى السمو فى آفاق الإخوة ، وفى آفاق الرحمة الشاملة العامة ، هذه الرسالة الرحيمة الرحمانية التى حددها الإسلام بنظمه ومبادئه هى التى كُلفنا بها ، وكنا خير أمة أخرجت للناس من أجلها ، إذا لم نقم بها فى وجه الحضارة الحديثة لا نكون

مسلمين ، أو على الأقل فى عملنا السلبى من الذين يتأسون بصاحب الرسالة الإسلامية ، ولـن يكون لنا إلا الفخر بأننا من حملة الرسالة الرحمانية رسالة الرحمة المهداة .

اعتزاز المسلم بدينه :

والواقع أن المسلم يجب أن يفخر حقيقة بدينه وبنظمه وبرسوله ، وبأمته ودون أن نريد موازنة فى قليل ولا كثير ، نرى أن هذا الشيخ الوقور سيدنا نوح عليه السلام الذى عاش فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، انتهى به الأمر فى هذه الفترة الطويلة بأن كانت كل الحصيلة مجموعة حُملت فى سفينة .

وإذا جئنا إلى سيدنا موسى نجد أنه حين أراد القتال قال له قومه : (يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) .

ومن الصور القرآنية الطريفة جداً ، أن سيدنا موسى بعد أن جاهد فى قومه هذا الجهاد بالدعوة والإرشاد والنصيحة تركهم فترة وتقدمهم قليلا ، فخاطبه الله بقوله :

(وما أعجلك عن قومك يا موسى ، قال : هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى) فذكر كليم الله ، أن قومه هم أولاء على أثره ، ولكن الشوق والحب حمله على ذلك :(وعجلت إليك رب لترضى) وجميل هذا لكن انظروا إلى التربية الحكيمة فى الأسلوب المهذب هذا الأسلوب الذى كأنه يقول : إنك لم تحكم أمر الدعوة من ورائك ، وإن إحكام أمر الدعوة إنما هو لقاء الله : (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرىُّ ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً) .

وإذا جئنا إلى عيسى ، فإننا نجد أن سيدنا عيسى صلوات الله عليه وسلامه حين رفعه الله إليه ، لم يكن هناك من يقر برسالته ، إلا بضعة أفراد يُعدّون على الأصابع ، أو يُعدّون بالعشرات ، وأكبر تقدير لأتباع سيدنا عيسى أنهم كانوا ثلثمائة .

أخذ سيدنا موسى قومه من مصر فاراً بهم ، ولم يقاتل ، ولم يجاهد ، وحين أدركه فرعون لم يتوجه إلى القتال وإلى الجهاد ، وإنما توجه إلى الله ، فأمره بضرب البحر بعصاه ، فضرب البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، ومرَّ موسى وقومه آمنين دون جهاد ودون كفاح .

وسيدنا عيسى لم يتوجه إلى القتال ولا الكفاح ، فى سبيل إعلاء كلمة الله التى هى الحق والخير .

ولكن إذا جئنا إلى سيدنا محمد ﷺ ، فإننا نجد مباشرة العزم المصمم ، والإرادة النافذة .

يجب أن يدين العالم لله ، وأن يسلم وجهه لله ، لتلك الرسالة الإسلامية ويجب أن يقف محمد صلوات الله عليه – ولو بمفرده – فى وجه العالم كله ، فى وجه الكون بأكمله ، فى وجه هذه الدنيا .

يجب أن يدين العالم ، يجب أن تدين السماء والأرض ، وأن يدين البشر بأجمعهم لرسالة السماء ، ووقف سيدنا محمد يجاهد ويجالد ويكافح ويتخطى العقبات ويتغلب على الصعوبات إلى أن انتهى به الأمر إلى النصر الكامل بالكفاح فى سبيل الحق ، الكفاح إذن جزء لا يتجزأ من الرسالة الإسلامية ، إنه الكفاح من أجل الله لا من أجل مادة الشيوعيين ، الكفاح من أجل الله لا من أجل أهواء الوجوديين ، إن الرسالة الإسلامية رسالة رحمة ورسالة كفاح من أجل الرحمة ، ورسولها خير معبر عنها بسلوكه ومواقفه ، فمن لم يتأسَّ بالرسول ، ومن لم يكافح فى سبيل الإسلام فليس له أن يفخر بأنه مسلم فضلا عن أن يزعم أنه مسلم مثالى :

تغلب محمد رسول الله ﷺ على كل عقبة ، وزلزل كل صعوبة ، وحطم كل صنم ، وانتهى به الأمر إلى أن شاهد ارتفاع الأذان الإسلامى فوق الكعبة ، وفى مكة التى كانت تأبى كل الإباء أن تدين لله ، وأن تسلم وجهها إلى الله وحده .

ومهمتنا جميعاً إذن هى مهمة الرسول العظيم تحطيم الأصنام ، صنم الشهرة والهوى المتغلغل فى النفس ،وتحطيم صنم المادة ، ونشر رسالة الحق والرحمة حتى ننتهى من كل ذلك بأن يسلم العالم وجهه إلى الله .

فإذا انتهينا إلى ذلك ، أو إذا ما حققناه كنا فى رضوان الله ، وكنا من هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وإنى لأرجو فى النهاية أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى ويتساندوا ، ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدنية الغربية التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه ، وفى نظمه ، وفى تعاليمه ، وفى أقدس مقدساته ، وإذا أمكن أن يتكاتف المخلصون فإن الأمر سينتهى بالنصر ، أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يعفى كل مسلم – منفرداً من العمل الجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والعمل على سيادة المبادئ الإسلامية ، ففيها سعادة العالم إن شاء الله تعالى . .

تحديد النسل فكرة منكرة

لم تظهر هذه الفكرة المنكرة إلاّ فى العصور الحديثة ، وأراد أنصارها تبريرها فلجئوا إلى الحديث عن موضوع (العزل) وليس لموضوع (العزل) بها من صلة ، إن موضوع العزل مثله

كمثل الامتناع عن النسل بالنسبة للأم المريضة التى يضرها الحمل ، أترى أن الامتناع عن الحمل بالنسبة للأم المريضة يأتى برهاناً فى باب إباحة تحديد النسل ؟ هناك المرض الجسمانى . . إنه لا يتخذ حجة إباحة تحديد النسل ، وهناك الإرادة الحكيمة عند كثير من الناس الحرص على شرف الأنساب ، أو بتعبير مناسب ، فى الحرص على صحة الأنساب ، أى على ألا تكون الأنساب مريضة .

والغالبية العظمى من الجوارى لا يعرف لهن أنساب فأبيح « العزل » بالنسبة للجوارى حرصاً على النطفة من أن تصل إلى خضراء الدِّمن ، سواء كانت خضراء الدِّمن من الأحرار أو من الجوارى ، يقول رسول الله ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء » . وكانوا يعزلون تخيراً لنطفهم .

يقول رسول الله ﷺ : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس » . إن فى بنى البشر أناساً يتطهرون ، ومن تطهرهم أن يحرصوا على الفضيلة فى أنفسهم ، ويحرصوا على أن يهيئوا جوَّ الفضيلة لأبنائهم قبل أن يُولدوا ، وبعد أن يولدوا ، ومن هنا كان حرصهم على أن يظفروا بذات الدين ، فإذا لم يتهيأ لهم ذلك فإنهم لا يجدون بأساً فى الامتناع عن الإنجاب حتى يهيئ لهم الله الجو المناسب للإنجاب ، فإذا ما تهيأ الجو المناسب للإنجاب – وهذا ما نرجو أن ينتبه إليه المؤيدون لتحديد النسل – فإنهم ينجبون بدون حساب – شاكرين الله على نعمته – لا يحددون نسلا ، فإنهم ينجبون ولا ينظمون نسلا ، لا صلة إذن للعزل بموضوع تحديد النسل ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، حين يطمئنون إلى شرف الجوارى لا يعزلون ، كما حدث ذلك بالنسبة لبنات كسرى ، وقد أنجبن الشرفاء والنجباء . هل سمعت عن أحد من الصحابة حدد النسل لضيق ذات اليد ؟ أين إذن قول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وأين إذن : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) ، ثم القسم الإلهى على ذلك : (فورب السماء والأرض إنه لحق) ويلجأ أنصار تحديد النسل – فى مصر – دائماً ، إلى رقعة الأرض المصرية . . المزروعة ويحددونها (بالمتر) (والسنتيمتر) ، ويحددون ما تكفيه هذه الرقعة من أفواه ، ويحسبون ذلك بالعقل (الإلكترونى) ، وإنهم لمخطئون .

أولا : إنّ الصحراء يمكن أن تُقهر أو تذلَّل وأن تصبح ثروة ضخمة لو وجدت الإخلاص لله وللوطن ، لو وجدت أذكياء قد تخلوا عن الخمول ، لووجدت رجالا ينظرون إلى مصر محبين لها عاملين من أجلها ، وخذ أمثلة من كل قارة فى العالم فستجد من زرعوا الصحراء بزراعات مناسبة ، وتغلبوا عليها . . إن أشجار الزيتون مثلا تصبر على الماء ثلاث سنوات ، هل فكرنا فى

زراعة الزيتون ، وليس فى أراضينا أرض لا ينزل فيها المطر ، لا صيفاً ولا شتاء ثلاث سنوات متوالية إلا فى النادر المحدود ، إن أقاليم « بتونس » لا تنزل فيها الأمطار إلا نادراً ، لقد زرعتها « تونس » زيتوناً ، وأصبح الزيتون فى تونس من المصادر الرئيسية للثروة ، ويستطيع خبراء الزراعة أن يحدثوك عن إمكانات لاحد لها فيما يتعلق باستثمار الصحراء .

هل قرأت كتاب (الصحراء ثروة وثورة) إن مؤلفه يؤكد أنه من الممكن زراعة سبعين مليوناً من الأفدنة فى مصر ، لابد من أن ينتفض رجال مصر انتفاضة مؤمنة بمصر وبمستقبل مصر ، ويجب أن يفكروا فى جدّ وإخلاص فى تذليل الصحراء وقهرها ، وفى الاستفادة بكل قطرة من مياه النيل ، وفى طرق الرى الحديثة . وفى وسائل الإخصاب الزراعى الكثيرة . وفى عصر مزدهر لمصر الزراعية .

ومع كل ذلك فإننا نقول مع القائلين المخلصين الصادقين إن الاتجاه فى مصر إلى الزراعة قصور فى التفكير ، بل هو قصور المستعمر ولم نتخلص منه إلى الآن . إن المستعمر أراد لمصر أن تقبع بين حدود معينة من الأراضى الزراعية التى لا تنطلق منها إلى بقية البقعة الأرضية الصحراوية لتظل محدودة الدخل ، محدودة الإمكانيات ، محدودة التأثير فى العالم ، لا دور لها بين الأمم .

واستجاب لذلك عملاء الاستعمار ، فوجهوا الأنظار دائماً إلى خمسة ملايين من الأفدنة ، هى الأرض الزراعية فقط ، وأعلنوا أن لا مجال فى غيرها ، وتركوا النيل يصب فى البحر ، ووجه المستعمر اهتمامه إلى الزراعة فقط ، إن مصر – فيما رأى المستعمر – بلد زراعى ، لا شأن له بالصناعة ، وليست مصر بجو صالح للصناعة ، إن الصناعة تحتاج إلى مواد خام ، وليس بمصر من هذه المواد الخام ما يفى بمتطلبات الصناعة . واستجاب عملاء الاستعمار إلى هذا التوجيه ، وأعلنوا – كما أعلن المستعمر – أن مصر بلد لاتصلح فيه الصناعة ، وردد عملاء الاستعمار هذا الإعلان بحجة المستعمر بأنه ليس فى مصر مواد خام .

وكل مصرى يعلم أنّ هذا كله باطل ، وأن المواد الخام أو معظمها موجودة بمصر ، وأن مصر بلد صناعى ، بمقدار ما هو زراعى ، ومع كل ذلك فقد بدأ « البترول يسيل شيئاً فشيئاً ، وبدأت الآمال عريضة فى تيسير الله تعالى لتدفقه .

تحديد النسل ! ! إنها فكرة منكرة ! !

وهى إذا اتخذت الأساس « ضيق ذات اليد » فإنها فكرة تخالف الدين ، يحرّمها الدين ، وأقولها بالصوت الجهير ، وأكتبها بالخط العريض ، إنها فكرة ليست فى مصلحة مصر .

ويمكن أن نقول مع الدكتور على عبد الواحد عميد علم الاجتماع فى مصر : (إن مشكلة مصر قلة النسل) .

وعلى ذلك : فإن ما ينفق على مراكز تنظيم النسل يجب أن ينفق على شىء نافع ويجب أن تغلق هذه المراكز : اللهم إنى قد بلغت ، اللهم فاشهد .

القرآن مصدر الهداية

ولابد هنا من كلمة إلى كل مسئول فى الدولة : إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا وأساس نجاحنا دنيا وأخرى ، ومهما اختلفنا فى أمر من الأمور ، فإننا لا نختلف فى النتيجة السعيدة التى تثمرها العناية بالقرآن الكريم ، للفرد ، وللأسرة ، وللمجتمع .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) التى هى أقوم فى العقيدة ، والتى هى أقوم فى الأخلاق ، والتى هى أقوم فى التشريع ، والتى هى أقوم فى نظام المجتمع .

وإن من مفهوم الإيمان عند كل مؤمن ، اليقين بذلك ، ولا يختلف المؤمنون فى شىء من هذا أبداً ، وتعاليم القرآن – فى كل زاوية من زوايا الحياة هى الصراط المستقيم ، خذ مثلا العلم والحث عليه : العلم بالله ، وبالكون ، وبالأرض والسماء ، وبما بين الأرض والسماء ، فستجد أروع ما قيل فى الحث على طلب العلم . خذ مثلا الأمانة : تجد القرآن يدخلها – كجزء لا يتجزأ – فى مفهوم الإيمان ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . خذ الشورى ، خذ الجهاد ، وخذ الإعداد للجهاد ماديًّا ومعنويًّا . خذ العمل والضرب فى الأرض ، والسعى فى مناكبها ، وخذ أروع الأخلاق الإنسانية العالمية من :

الرحمة : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

العدل ، والإحسان : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

ومفهوم الإيمان الصادق ، ما هو ؟

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون).فإذا أردت بياناً لهذه الآية الكريمة ، فى شىء من التفصيل فستجد: (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير مَلُومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ،

والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

وسنجد : (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) .

وسنجد : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنّا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرًّا ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ومَن يفعل ذلك يَلْقَ أثاماً ، يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مُهاناً إلاّ من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يُبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ، والذين لايشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً ، والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُما وعُمياناً ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ، أولئك يُجزون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها ، حَسُنت مستقرًّا ومُقاماً) .

وسنجد الخلق أسمى ما يكون الخلق ، وستجد التشريع المعصوم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنجد العقيدة أصدق ما تكون العقيدة .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) لقد تمت صدقاً فى العقيدة والأخلاق ، وتمت عدلا فى التشريع ونظام المجتمع إنها تمت صدقاً فى جميع أجواء الصدق وتمت عدلا فى جميع أجواء العدل .

وهى – فى صدقها – خالدة أبدية ، وكلها متضمنة فى القرآن الكريم ، وفيما بينه من سنة رسول الله ﷺ وسيرته .

وإذا كان الأمر كذلك فما بال قومنا اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ؟

إن الكثيرين – من كبار المسئولين ، لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له ، وإن الكثيرين من كبار الأثرياء ، لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له ، وإن الكثيرين من كبار المثقفين لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له ، وستنتهى حياة كل هؤلاء فى يوم من الأيام ولن ينفعهم جاههم ولاثراؤهم ولا ثقافتهم ، إلى هؤلاء جميعاً نقول : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ، إنّ الله

خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبِّح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

وما من شك فى أن هناك صفوة من المتقين لهم عناية بالقرآن ولكن الجمعيات التى تعنى بالقرآن تعانى من بخل الأثرياء ، ومن تعويق المسئولين ما تعانى .

وهناك مجموعة – قليلة – من المحافظين تتجه مشكورة إلى العناية بالقرآن ولكنها تخطو فى خطوات بطيئة ، أما وزارة التعليم فإنها فى حقيقة الأمر المجال الخصب والحقل المثمر لو اتجهت نحو القرآن الكريم بعزيمة صادقة .

وإن كل من يتجه إلى العناية بالقرآن الكريم ، فى وزارة التعليم فإن الله سبحانه وتعالى سيجزيه خير الجزاء ، فى نفسه وفى أسرته ، (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا) ولن ينفع الأثر الشح بمالهم فى هذه الحياة ، ولا فى الحياة الأخرى ، ولقد شح الأثرياء بأموالهم عن إنفاقها فى سبيل الله والعناية بالقرآن ، وتقوية الشعور الدينى – شعور الاستمساك بالكتاب والسنة – فدارت عليهم دائرة مصادرة الأموال وقمع الحريات ، والتعذيب والتنكيل والخسف وباءوا بالخسران والحسرة .

لقد التقى أحد كبار الأثرياء يوماً بشيخ من شيوخنا الصالحين ، فنصحه هذا الشيخ بأن يقدم لله ولآخرته بناء معهد دينى للقرآن الكريم وللعلم الشريف ، فأبى الثرى ، صاحب الضياع الواسعة والآلاف من الأفدنة ثم . . . ثم كان ما يعلمه كل ثرى ، شح بماله فى سبيل الله .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله) ولعلك تتساءل : ما بال الأزهر لا يرعى هذا الجانب ؟

والواقع أن الأزهر يعنيه – فى الدرجة الأولى – إنشاء معاهد تخرج العلماء الذين يقفون سداً منيعاً ، يصد كل تيار منحرف ، إن الأزهر يجب أن يكون له فى كل قرية معهد ابتدائى وآخر إعدادى ، ويكون له فى كل بلدة معهد ابتدائى وآخر إعدادى وثالث ثانوى ، أما المدن وعواصم المحافظات ، فإن الأزهر يجب أن يكون له فى كل حى معاهد من كل نوع مما تقدم ، ولكن يحول دون ذلك قصور ميزانيته .

إن من أنفس أعمال الخير – التى يباركها الله سبحانه وتعالى ورسوله – إنشاء هذه المعاهد ، لما يرجى منها فى نشر الوعى الدينى وإحياء التراث الروحى حقًّا ، إن كثيرين من أفراد الأمة المصرية – جزاهم الله خيراً – قد اتجهوا إلى بناء المساجد ، وهو عمل يشكرون عليه ، وإن من الأعمال العريقة فى الخير إنشاء المعاهد لتحفيظ القرآن وتعليم العلم فإذا اتجه الخيرون إلى إنشاء هذه المعاهد فإن ذلك يكون دليلا على الأخذ بأسباب الإصلاح المثمرة .

وأحب أن أقول للعاملين على الإصلاح : إن من وسائل الإصلاح الأخلاقى الحاسمة أن ينتشر الوعى الدينى فى استفاضة ، ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكثرنا من المعاهد الدينية الأزهرية . . . ونضرع إلى الله تعالى مخلصين أن يوجه الخيِّرين إلى ذلك .

الإسلام لكل زمان ومكان

الإسلام على الحقيقة ، كما يقول الإمام البخارى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) .

أما إذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره : (إن الدين عند الله الإسلام) . وعلى قوله سبحانه : (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه) .

الإسلام – الدين الخالص – يقول عنه « الراغب الأصفهانى » إنه فوق الإيمان ، وهو – مع الاعتراف – اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر ، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فى قوله : (إذ قال له ربه أسلم قال : أسلمت لرب العالمين) وقوله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) وقوله : (توفنى مسلماً) أى اجعلنى ممن استسلم لرضاك ، ويجوز أن يكون معناه : اجعلنى سالماً عن أسر الشيطان ، حيث قال : لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين .

وقوله : (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، أى منقادون للحق مذعنون له . (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) أى الذين انقادوا من الأنبياء ، الذين ليسوا من أولى العزم (من الرسل) الذين يهتدون بأمر الله ، ويأتون بالشرائع . وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى اللغوى لكلمة إسلام .

يقول : ابن الأنبارى : « المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان من الهجرة » فى المعنى اللغوى للكلمة : (المسلم : معناه المخلص لله فى عبادته ، من قولهم سلم الشىء لفلان : خلص له ، فالإسلام معناه : إخلاص الدين ، والعقيدة لله تعالى) .

وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة ، أو إلى المعنى اللغوى فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير :

١ – إلى شخص معين ، كما تشير (البوذية) مثلا إلى بوذا ، والزرادشتية إلى زرادشت .

٢ – ولا إلى شعب معين ، كما تشير (اليهودية) إلى شعب بذاته .

٣ – ولا إلى (إقليم) أو بلد معين ، كما تشير (النصرانية) والدين الذى يدل أو ينتسب أو يشير إلى شخص معين أو إلى شعب معين ، أو إلى إقليم معين ، يتحدد زمنه ، ضرورة بابتداء الشخص أو الشعب ، ويتحدد بالمكان ، ولكن كلمة « الإسلام » لا تدل على زمان ولا مكان فهى لا تشير إلى زمن يحدها . ولا إلى مكان تتقيد به .

وتضعنا هذه الكلمة – مباشرة – فى جو عالمى ، مطلق ، بل فى جوّ عالمى ، يتخطى حدود هذا العالم الأرضى – إذا أمكن ذلك فلا يتقيد به ، ولا يتحدد بحدوده .

إنها لا تحد بالبعثة المحمدية ، فسيدنا نوح عليه السلام يقول لقومه :

(فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين) وسيدنا إبراهيم يقول عنه القرآن الكريم : (ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) .

وحينما كان سيدنا إبراهيم يرفع القواعد من البيت ، هو وسيدنا إسماعيل أخذا يدعوان الله سبحانه قائلين :

(ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مُسلمَيْنِ لك ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم) .

ولم ينس سيدنا إبراهيم ، وسيدنا يعقوب أن يوصيا بنيهما بالإسلام ، يقول تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ، ويعقوب ، يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت قال لبنيه مستفسراً ليذهب إلى ربه مطمئناً : (ما تعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

وقال سيدنا موسى لقومه : (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وسيدنا يوسف يتجه إلى الله بالحمد والشكر والدعاء (ربِّ قد آتيتنى من المُلك وعلَّمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) .

وأوحى الله إلى الحواريين أن : (آمنوا بى ، وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون) ولما أحس عيسى من قومه الكفر سألهم قائلا :(من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مُسلمون) على أن تسمية أتباع الدين الإسلامى – فى العصر الحاضر– بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى ، فلقد بيّن الله سبحانه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الإسلامية وأشار فيها إلى سيدنا إبراهيم ، وهى آية التوجيه الإلهى الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم ، فقال سبحانه : (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) .

ومن البديهى أن يكون الإسلام بهذه المكانة من العموم والشمول فى المكان ومن عدم التحديد بالبعثة المحمدية ، فإن أساسه لا يختلف فيه اثنان ، وإن مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة لا تجد إلا القبول والإذعان .

فى أساس الإسلام وجوهره

القرآن يعرض الإسلام – فى أساسه وجوهره – فى كلمات.قليلة لا مناص من الإيمان بها عندما يوجد الإخلاص ، يقول تعالى آمراً رسوله الكريم :

(قل إنما يُوحَى إلىّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فهل أنتم مسلمون) ويأمره ﷺ فى خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم : (قل : يٰأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا : اشهدوا بأنّا مسلمون) .

وبين الله لهم سبحانه وتعالى إحدى علامات الصادقين والمرسلين مفرقاً بهذه المناسبة بين الكفر والإيمان فيقول :

(ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذْ أنتم مسلمون) .

ويبين الله فى عموم شامل وفى شمول عام ، فى صورة استفهام تقريرى – جوهر التدين فيقول سبحانه : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

ومن هذه الآيات السابقة ، نعرف أن جوهر الإسلام هو :

١ – فى العقيدة : إسلام الوجه لله ، ومعنى إسلام الوجه لله ، الإيمان بوحدانيته ، كما ترشد الآية الأولى ، مما أردناه سابقاً ، ووحدانيته سبحانه تقتضى ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابًا .

إنها تقتضى ألا نتخذ الملائكة والنبيين أرباباً ، وتقتضى أن نكون ربانيين ، والربانية فى العقيدة أن يكون الله وحده هو المقصود والمرجو .

٢ – أما فى الأخلاق : فإن جوهر الإسلام هو الإحسان ، والربانية كما تكون فى العقيدة فإنها تكون فى الأخلاق ، والربانية فى الأخلاق أن يتخلق الإنسان بالأخلاق التى أمر الله بها .

والإسلام إذن كلمة شاملة لإسلام الوجه لله ، وللإحسان ، والإحسان فى الحقيقة : يؤسس على إسلام الوجه لله ، وينبع منه ، فإسلام الوجه لله فى النهاية هو : الإسلام .

ولن يتأتى أن يعارض أحد أو يرفض إسلام الوجه لله ، إلا هؤلاء الذين خلت قلوبهم من معنى التدين ، ومن البديهى إذن أن الإسلام هو إسلام الوجه لله ، وهو طريق الهداية .

(فمن يرد الله أن يهديه ، يشرح صدره للإسلام) .

ومن شرح الله صدره للإسلام – إسلام وجهه لله – فهو على نور من ربه .

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين) .

ومعنى إسلام الوجه لله قد فسره الله سبحانه وتعالى حينما وضع ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ ، إذ يقول :

(قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى أيضاً ، وكانت بذلك توجيهاً من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله ، لا باسم شىء آخر أوكائن آخر .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

وآيات أخرى أشارت إلى المعنى الذى نقصده ناهية عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) .

أما ما ذُبح على النصب ، فإنه فسق أيضاً ، لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، أو لأنه – بتعبير آخر – لم يرد به وجه الله تعالى ، والإسلام إذن – وفى ضوء ما سبق – هو الدين فى إطلاقه

المطلق ، وفى تحديده المحدد ومما لا شك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله ، وأن الدين – فى معناه الصحيح – إنما هو إسلام الوجه لله ، وسواء عرّفت الدين بهذا التعريف أو ذاك ، فإن معناه الصادق هو إسلام الوجه لله .

ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين ، وكانت القضية : (إن الدين عند الله الإسلام) قضية لاشك فيها .

وكانت القضية المترتبة على هذه : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

قضية – هى الأخرى – لا شك فيها .

إن كل من يرفض إسلام الوجه لله إنما يرفض الدين ، وبمقدار بعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق لدين الله .

وليس بغريب – والأمر كذلك – أن يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب انطوت جوانحهم على الإخلاص فيعلنون إسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن ، بل يعلنون أنهم كانوا من قبله مسلمين يقول تعالى :

(ولقد وصَّلْنا لهم القول لعلهم يتذكرون ، الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يُؤْتَوْن أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

والنتيجة المنطقية لما سبق ، ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى :

(شرعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يُنيب) .

ويقول سبحانه :

(قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتى موسى وعيسى وما أُوتى النبيُّون من ربهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وإسلام الوجه لله هو التوحيد ، وإذا كانت سمة النصرانية فى وضعها الراهن على ما يروى (البيرونى) هى التثليث فإن سمة الإسلام – حسبما يقول بحق – هى التوحيد ، إنها توحيد الله بالربوبية ، بالخلق ، بالإيجاد ، بالإعطاء ، بالمنع :

(قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير) .

إنه سبحانه وتعالى يملك الملك ، فى اليسير منه ، والعظيم فى الصحة ، فى القوة ، فى الجاه ، فى الرزق ، فى الغنى .

وهو يملكه فى الناحية القلبية ، وقلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وهو يملكه فى الهداية ، ومن يهدِ الله فماله من مُضل ، وهو يملكه فى الآخرة : (مالك يوم الدين) .

إنه سبحانه وتعالى المتصرف المطلق فى الصغير والكبير ، لا يعزب عن علمه ولا عن قدرته ، ولا عن إرادته وحكمته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهيمنته شاملة عاملة مطلقة .

ونعود فنذكر قوله تعالى :

(قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنّا مسلمون) .

أى فإن لم تعترفوا معكم ، بأنه يجب أن تخصص العبادة لله وحده ، وأن ينتفى الشرك به سبحانه ، وألاّ يتخذ المخلوقون بعضهم بعضاً أرباباً .

أى فإن لم يعترفوا بهذا التوحيد وأعرضوا فأعلنوا أنكم مسلمون أى موحدون .

الإسلام هو التوحيد

والإسلام كما كانت الأديان فى نقائها وصفائها من قبل ، إنما هو التوحيد ، وهو دعوة إلى التوحيد ، فالتوحيد – أى إسلام الوجه لله – جوهره وأساسه ، وكل تعاليمه ومبادئه ، إنما هى توحيد ، وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد . (أشهد أن لا إله إلا الله) إنها رسالة السماء الخالدة (وأشهد أن محمداً رسول الله) . الذى بلّغ الرسالة فأدى – بهذا التبليغ الصادق – الأمانة ، التى وكلت إليه وهى التوحيد .

التوحيد : هو مبدأ الإسلام وجوهره ، ولكن التوحيد ليس مجرد قول ، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور .

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيماناً يملك عليه جميع أقطاره ، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ، ويغمر قلبه ونفسه ، ويكيف جسمه ويوجهه الوجهة السليمة فإنه لا يكون

كامل الإيمان ، ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية كانت تعاليم الإسلام . فالصلاة إنما هى انفصال عن كل ما سوى الله ، من أجل الاتصال بالله فهى توحيد .

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر » ليشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من بشر تتعلق بهم الآمال ، أو يُناط بهم الرجاء ، فإن الله أكبر منهم وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال ، به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه ، ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة ، من قراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، لتعلن بكل حركة وبكل وضع ، الانفصال عما سوى الله من أجل الاتجاه إلى الله وحده ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه .

والصوم : إنما هو تنزه عن المادة ، وعن السوء فى القول والعمل فترة من الزمن من أجل مرضاة الله ، إنه تنزه عن نقص البشرية ، الذى يتمثل فى شهوات المعدة ، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله ، إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه – سبحانه – الكمال المطلق ، الذى لا يحتاج إلى شىء ، والذى لابد لمن يأمل فى شىء من الكمال من أن يتحلى بما أراده – سبحانه – منه ، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

والزكاة : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله إنها بذل المادة ، التى يجرى وراءها البشر ويكادون يعبدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، بذلها ، وقد كان فيها الوسيلة للملاذ والشهوات ، إنها تجرد عن المادة توحيداً لله سبحانه .

وفى الحج – والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام ، فإنه تجريد كله ، إنه تجرد عن الماضى ، فهو فى بدايته التوبة عن الذنوب والآثام ، أى عن الفترات التى غفل فيها الإنسان عن ذكر الله ، فأشرك معه غيره ، واتخذ إلٰهه هواه ، فنسى الله فوقع فى المعصية والإثم .

هو تجرد – حتى عن ملابس الماضى – وهو تلبية من أول لحظاته ، تلبية هى استجابة لله وحده ، أو هى توحيد خالص ، إنها استجابة كاملة للأمر ينفى الشريك . لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . إن هذا النداء الذى يتعالى – وله عبير طيب – وله سناء متألق ، فيصعد إلى السماء فتفتح له أبوابها ، إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد .

وتتوالى أعمال الحج كلها ، واضحة سافرة ، أو رمزية مستعلية معلنة التوحيد منادية به ، تسعى وراءه طائفة من أجله واقفة تستشرفه ، راجية من الله سبحانه وتعالى : أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين ، يقول الله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه ، أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة .

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان ولا يرد فى سلوكه الشخصى أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلهى ، ومعالم التوحيد فى « النية » أن يكون الإنسان ، فى كل ما يأتى وما يدع – قاصداً وجه الله تعالى هو أن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها وإنما الممات أيضاً .

والتوحيد – على العموم – هو أن يهب الإنسان نفسه لله فى قيامه وجلوسه فى نومه ويقظته ، فى حديثه وصحته ، فى غضبه ، ورضاه ، فى صداقته ، وعداوته فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره وآرائه ، فى توجيهه وإشاراته ، فى نصائحه وتحذيراته ، فى كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

ونعود فنذكر ، كقانون جامع ، أن توحيد الإنسان : هو أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته ، لله رب العالمين لا شريك له ، ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى عقيدة وأخلاقاً ، ونية .

وقوله تعالى : (ألا لله الدين الخالص) إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك سواء أكان الشرك فى العقيدة أم كان فى الأخلاق والنية ، والله سبحانه ، أغنى الشركاء فمن عمل عملا لله ولغيره فإن الله سبحانه برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكاً لله فالله برىء منه . « إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا .

إسلام الوجه لله ، ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال : قال رجل : يا رسول الله : ما الإسلام ؟

قال صلوات الله وسلامه عليه : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » . وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وأنها على حد قول رسول الله ﷺ :

« لو خشع قلبه خشعت جوارحه » وعلى حد قوله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

فى إسلام الوجه لله

قد يتساءل إنسان : ما كيفية إسلام الوجه لله ؟

وما هى الوسائل لذلك ؟

أما الوسائل فإنها المبادئ الإلٰهية التى قررها الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ قرآناً كانت ، أو سنة قولية ، أو عملية ، ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله – سبحانه – من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن ومن أن يرجع فى ذلك أيضاً إلى السُّنّة ، أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية أو التدين الحق من أن يلجأ إلى القرآن والسنة ، وذلك أن القرآن الكريم هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ بحفظ الله له ، بالتعبير الإلٰهى الذى يشرح الدين ويوضحه دون تحريف ، بزيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ لما أوحاه الله – بالمعنى فحسب – وإنما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة لا تدانيها منزلة ودرجة فى الدقة والصدق ، ولا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب ، وإنها لمفخرة للمسلمين أن يكون الدين الذى يدينون به إنما يرجعون فيه إلى النص الإلٰهى نفسه فى دقته ، وفى نضارته وفى بركته ، وفى سنائه ولألائه .

وإنها لمفخرة للغة العربية أن تحتفظ بالنص الإلٰهى الوحيد فى العالم ، أن تحتفظ بالكتاب الذى أُحكمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير .

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليها فهى : أن الدين ، وإسلام الوجه لله والتوحيد ، والإسلام ، كلها بمعنى واحد ، يفسر بعضها بعضاً ، ويشرح بعضها بعضاً ، وكلها مطلقة عامة ، لا يحدها زمان ولا مكان ، وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها ، وفى كمالها : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم ، إنما هى إسلام الوجه لله أو التوحيد ، أو التدين الصادق ، أو الإسلام ، وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته .

فى غيبة التشريع الإسلامى

هذا الإسلام الذى نشأت عليه ، والذى أحمد الله حمداً جزيلا على هذه النعمة الكبرى التى لا تعدلها نعمة قد طُبِّق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعاً ، فأنتج بعقائده

وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس ، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهى المعصوم عدة قرون إلى أن أنشأت مصر ما سمته المحاكم المختلطة ، وتخلت فيها عن التشريع الإسلامى ، وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلى كلية عن التشريع الإسلامى ، فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدءوا يهدمون ما يقوى الشعور الإسلامى فى النفوس ، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية وأتوا بقوانين أوربية ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة ، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم ، وينشرون تشريعهم ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أنشئوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية ، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات ، وهى كليات الحقوق ، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية وتنفق عليها الدولة لتخرّج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا فى التشريع الأوربى ، واستمر الأمر كذلك سنين طوالا ، فبدأ على مر الزمن وكأنه أمر طبيعى ، وأصبح انفصال المسلمين عن شريعتهم وإحلال شريعة أوربا محلها أمراً عادياً ، ولا يجدون غضاضة فى إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم .

وما من شك فى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام كان الاستعمار جاثماً على صدور الأمم الإسلامية ، يأمر فيها وينهى ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهزم ، ورجع المستعمرون إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار فى التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين فى اللغة العربية التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر ، وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى المستوى الذى لا تنهض معه .

وفى التشريع الذى جعله أوربياً ، وأحله محل شريعة الإسلام ، ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار فى ميادين مختلفة فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها فى مجال التشريع لا تجد أثراً فى وزارات العدل فى مختلف الأقطار الإسلامية ، ولا نجد لها أثراً فى دوائر القضاء .

ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل : وأين هو القانون الإسلامى الذى نحكم به ؟ إن القانون الإسلامى فى كتب الفقه الإسلامى ، وكتب الفقه هذه كتب عربية ، ألفاظها عربية ، وجملها عربية ، وخطها عربى .

ولقد وصل الاستعمار أن صاغ خريجى كليات الحقوق بحيث لا يفهمون – بعد الليسانس – كتاباً عربياً فى المواد التشريعية ، وليس الأمر بغريب .

أتدرى أيها القارئ الكريم أن جدول التدريس فى كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة فى الأسبوع للقوانين الأوربية ، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية .

أتدرى لو أنشئت هذه الكليات فى فرنسا أو فى انجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟ وهذه

الكليات هى السر فى تخلفنا فى مجال التشريع ، وذلك أنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين ندور فى فلكهم ، ونسير على خطواتهم .

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية ، ورجاله من نوابغ المفكرين فى العالم لكننا الآن – بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية – قد أصبحنا أتباعاً مقلدين .

وهذا الموضوع أطرحه أمام القادة ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً فيما يتعلق بهذه الكليات .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه بعد ذلك هو ما حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ، ماذا حدث ؟ شرّ كله ، وإننى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة لا أتحدث عن مصر وحدها ، وإنما أتحدث عن كل الدول التى غاب عنها التشريع الإسلامى ومازال غائباً ، أتحدث عن كل الدول التى تنتسب إلى الإسلام وقد ألغت شريعة الله فيها .

ماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ؟

١ – حدث كل هذا الرجس الذى نراه ونشاهده أينما سرنا ، فى المعاملات وفى السلوك وفى العقيدة ، وفى الاستهتار بالقيم الدينية استهتاراً بلغ من شأنه أن أصبح الإلحاد فى دين الله من الأمور التى تمر فلا تسترعى الانتباه ، الإلحاد فى دين الله كفراً وارتداداً ، والإلحاد فى دين الله استهتاراً بالقيم الدينية .

٢ – والإلحاد فى دين الله جدلا فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقاباً على الجرائم .

وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول :

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لا خلاف فيه ، وهو علاج ناجع ضد السرقة ، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ ، يكفى أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد يعد على أصابع اليد ، فتمتنع عن السرقة نهائيًا .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد ، وذلك أن طابع الجد يجعل كل من تسول له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة ، فيرهب ويهرب من مجرد التفكير فى الأمر .

ولكن ذوى التفكير المنحرف يهرجون بأن الأيدى سيقطع كثير منها فتكون البطالة وتقل الأيدى العاملة ، ويقل الإنتاج ، ويستمرون فى هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله . وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور ، والخمر على حد الوصف فى القرآن رجس من عمل الشيطان قليلها حرام وكثيرها حرام ، واتخاذها كدواء حرام ، فما جعل الله دواء أمتى – كما قال رسول الله ﷺ – فيما حرّم عليها ، وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ومن الواجب على المجتمع أن يطبق حدود الله

ويلتزمها ، فإن الله سبحانه يمده بنصر دائم ، وهو سبحانه يمد بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله ، ويمد به المجتمع إذا طبق حدود الله ، وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله :

(ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إنْ مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) .

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً) .

وما من شك فى أن النصر من عند الله وحده :

(وما النصر إلا من عند الله) .

وما من شك فى أنه إذا نصر الله فلا غالب عن نصره :

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) .

ولقد وضع الله سبحانه وتعالى قوانين للنصر ، ووضع القوانين لدوام النصر ، وكلها تتركز فى طاعته فيما أمر ، وفى الانتهاء عما نهى .

أيها الإخوة المؤمنون : إن قوله تعالى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) .

يجب أن يدوى دائماً فى آذاننا ، وأن يكون دائماً على ألسنتنا ، وأن تمتلئ قلوبنا وأن تتحقق التقوى .

إن الذين يحبون أن يكونوا فى عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلاّ إذا أقبلوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط .

ويكفى إرادة الخير ونية الخير ، ليصلوا إلى مرضاة الله ، وليكونوا فى زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ويكونوا من حزب الله .

وبعد/

فلا ريب فى أن جهادنا المقدس للنهوض بالمجتمع لم ينته بعد ، ومن أجل الوصول بجهادنا إلى غايته التى نرجوها له – وهى تطبيق الإسلام بجميع كلياته وجزئياته يجب على كل منا أن يتحمل مسئوليته فى ذلك بحسب موقعه فى المجتمع .

إن القرآن الكريم يستعمل مادة (أمر) حينما يتحدث عن مسئولية كل منا تجاه المجتمع الإسلامى : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر).

والرسول ﷺ يستعمل (أمر) كذلك عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وحسّنه .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلاّ كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه ، فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

فإذا ما تحمّل كل منا مسئوليته ، بحسب موقعه فى المجتمع عاد أمر الأمة الإسلامية على ما كان عليه ، قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله ﷺ . .

ثبت الفتاوى

الجزء الثانى

سئل رضى الله عنه فى الزكاة

صفحة

فى المال ٩
فى الزكاة ١٠
فى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأخذ الزكاة ١٢
فى المجتمع والزكاة ١٢
فى حكمة الزكاة ١٣
فى أداء الزكاة ١٣
فى العقارات العينية والزكاة ١٤
فى مقدار الزكاة ١٥
فى وجوب زكاة الزروع ١٥
فى نظام إخراج الزكاة بالنسبة للزارع ١٦
فى نصاب الإبل ١٧
فى إذا كان هناك رجل لديه من الإبل قطيع يؤجره فهل تجوز الزكاة منها أو من أجرتها ... ١٧
فى هل يصح أن تخرج الزكاة من الديون التى فى يد المدينين ولم يسددوها بعد ١٧
فى الصدقة يُعطاها الإنسان إذا كان من أصحابها المذكورين فى قوله تعالى :
(إنما الصدقات للفقراء والمساكين) ١٨
فى إعطاء الزكاة للأقارب ١٨
فى إدارة البر والخيرات ١٩
فى الوصىّ على أولا دقُصَّر هل يخرج الزكاة ٢٠
فى من لم يخرج الزكاة فى عيد الفطر ٢٠
فى الأعياد والصدقة ٢١
فى إذا حان وقت الزكاة وأنت تستعد بدفع أموالك وفجأة ضاع المال كله قبل أن تتمكن
من دفع الزكاة فماذا تفعل ؟ ٢٢
فى حقوق المال غير الزكاة ٢٢
فى قيام الأبناء بالصدقة على روح آبائهم وأمهاتهم ٢٣
فى الصدقة فى سبيل الله ٢٤
فى ثواب الصدقة ٢٤

صفحة

فى أيهما أكثر: ثوابًا من يتصدق بفضلات طعامه أومن يخصص طعامًا يتصدق به دون أن يتذوقه ٢٤
فى حكم من أسهم بماله فى بناء جامع أوكنيسة ٢٥
فى زكاة الزروع والخضر ٢٦
فى الكفارة ٢٦
فى حجم الصدقة ٢٦
فى هل يجوز للمسلم أن يأكل من طعام يوزع صدقة على الموتى ٢٧
فى كسب شخص من اليانصيب خمسة وعشرين ألف جنيه وبنى بهذا المبلغ مسجدًا أواشترى بعض الحاجيات بما بقى وأوقفها على المسجد فهل هذا جائز شرعًا ٢٧
فى حكم من امتنع عن أداء الزكاة ٢٨

وسئل رضى الله عنه فى الصيام

فى شهر رمضان ٣١
فى اسم شهر رمضان ولماذا خصه الله بالصوم ٣١
فى تاريخ شهر رمضان ٣٢
فى متى فرض صيام رمضان ٣٣
فى حكمة الصوم ٣٣
فى قول رسول الله ﷺ «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له من ذنبه ماتقدم وماتأخر» ٣٤
فى رسول الله ﷺ وشهر رمضان ٣٥
فى جهاد النفس فى رمضان ٣٦
فى رؤية هلال رمضان ٣٧
فى اتباع أوامر الحاكم فى الصيام والفطر ٣٨
فى اختلاف وقت الصيام ٣٨
فى الصوم كل عام ٣٩
فى النية فى الصوم ٣٩
فى شروط الصوم الصحيح ٤٠
فى أقسام الصوم ٤١

صفحة

في مظاهر التيسير في الصوم ٤٢
في أي سن يجب على الطفل أن يصوم؟ وهل على الآباء مسئولية في هذا الواجب؟ ٤٣
في تأخير السحور ٤٤
في مايتحلى به الصائم من سلوك ٤٤
في الاعتكاف في رمضان ٤٤
في رخصة الفطر ٤٥
في من رخص له بالفطر ٤٥
في حكم من يصوم رمضان ولايصلي ٤٦
في من أخبره الطبيب بأن في الصوم ضرراً عليه ٤٦
في حكم من تناول الدواء في نهار رمضان ولكن لم يتناول شيئًا آخر وبعد ذلك لم يستطع
قضاء هذا اليوم لمدة ثلاث سنوات ٤٧
في من كان يكثر من الغسل في نهار رمضان هل يصح صومه أو لا؟ ٤٧
في حكم صيام من أصبح على جنابة في طلوع الشمس ٤٨
في إذا أكل الإنسان أو شرب ناسيًا هل يفسد ذلك صومه؟ ٤٩
في الكحل هل يفسد الصوم أو لا؟ ٤٩
في صيام المسافر ٤٩
في من أدركه الفجر وهو غير طاهر ٤٩
في استعمال السواك في رمضان ٥٠
في جواز إخراج فدية الصيام لمن لايستطيع الصوم للمحاربين الفدائيين ٥٠
في شم العطر أو الأكل هل يفسد الصوم ٥١
في الوصال في الصوم ٥١
في الغسل والاستحمام نهار رمضان ٥٢
في الحكم في رجل تناول سحوره عند الفجر ثم نام ورأى في المنام أنه جامع امرأة واستيقظ
من نومه بعد طلوع الفجر، هل يصح صيامه في ذلك اليوم أو لا؟ ٥٣
في صائم يضطر لاستخدام دواء لعلاج رأسه وجميع أجزاء جسمه في نهار رمضان فما حكمه .. ٥٣
في هل يجوز للصائم أن ينام في الصباح وهو صائم ٥٤
في حكم من أخذ حقنة طبية تحت الجلد أو في الوريد ٥٤
في إذا دخلت ذبابة في حلق الصائم ٥٥
في حكم من تقايأ في رمضان هل يصح صومه؟ ٥٥

صفحة

فى من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه ، شرابه ٥٥

فى من أفطر على خمر ٥٦

فى معنى « فعدة من أيام أخر » ٥٦

فى إذا أفطر إنسان على أساس أن الشمس قد غربت ثم رأى الشمس بعد ذلك وهو لم يتعمد ٥٧

فى خروج المذى من الصائم هل يفسد الصوم ؟ ٥٧

فى شأن الحيض والصيام ٥٨

فى حكم من أفطرت بسبب الوضع ٥٨

فى حكم صيام من يحسد الناس ويتمنى لهم الشر ؟ ٥٨

فى من جامع زوجته فى نهار رمضان ٥٩

فى إنسان أفطر عمداً فى رمضان فلزمته الكفارة وبينما هو فى صومه أفطر أيضًا عامداً أوغير عامد ٦٠

فى صدقة الفطر ٦٠

فى هل زكاة الفطر واجبة على كل شىء ؟ أو إنها تجب بشروط مخصوصة ؟ وهل يخرجها الشخص عن زوجته ؟ ٦١

فى هل يجوز لشخص أن يتقبل الزكاة بعد صيام رمضان كقبول الهدايا أو الألماظ ٦٢

فى فضل الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ٦٢

فى متى تكون ليلة القدر ؟ ومامنزلتها فى نظر الإسلام ؟ ولماذا تسمى ليلة القدر؟ ومالواجب نحوها ٦٣

فى صيام رجب وشعبان ٦٤

فى صيام يوم العيد ٦٥

فى الصيام والمغفرة ٦٥

فى من أتبع صيام رمضان بستٍّ من شوال ٦٦

فى حكم من صام شهر رمضان إيمانًا واحتسابًا ثم أتبعه بصيام ستّة من شوال هل له ثواب على هذا ؟ ٦٦

وسئل رضى الله عنه فى الحج

صفحة

فى حديث رسول الله ﷺ (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) ٧١

فى شروط الحج المبرور ٧٢

فى مراحل الحج ٧٣

فى حكمة الحج ٧٤

فى نفقات الحج ٧٦

فى هل للزوجة أن تحج من مال زوجها؟ وهل للإنسان أن يحج من مال مهدى من أجنبى؟ ٧٦

فى هل يجوز للمسلم أن يعطى مبلغًا من المال لمن يريد أداء فريضة الحج لكى يدعو له أثناء مناسك الحج ٧٦

فى حكم من ذهبت إلى الحج على حساب أحد أقاربها وفى أثناء الذهاب إلى الحج سرقت مبلغًا من المال فهل حجها يقبل أو لا؟ ٧٧

فى حكم الذين يحتالون ويسرقون أموال حكوماتهم ليؤدوا فريضة الحج ٧٨

فى الإحرام ٧٨

فى ملابس الإحرام ٧٩

فى الحج عن الغير ٧٩

فى هل يجوز فى الإسلام أن تسافر المرأة وحدها وبدون صحبة زوجها ٨٠

فى حج الصبيان ٨٠

فى حج من عليه دين ٨١

فى حكم ترك طواف الإفاضة جهلا أو سهوًا أو عمدًا ٨٢

فى أداء النذر عن الغير ٨٣

فى بعض ما لا يفعله المحرم ٨٤

فى دواب يقتلن فى الحل والحرم ٨٤

فى أولئك لهم نصيب مما كسبوا ٨٤

فى إذا بلغ الصبى ٨٤

المحلقون والمقصرون ٨٥

فى من يبعث ملبيًا ٨٥

فى إذا حاضت المرأة قبل الطواف ٨٥

صفحة

فى الحج بعد الطهر ٨٦
فى الصلة الجنسية بين الزوج والزوجة أيام الحج ٨٦
فى الحج وغفران الذنوب ٨٧
فى اللهم حجة لارياء فيها ٨٨
فى صيد البر ٨٨
فى الحج للمقيمين فى الحجاز ٨٩
فى من عزم على الحج ولم يتمكن من أدائه ٩٠
فى جواز لمن يؤدى فريضة الحج أن يشترى بضائع من الأراضى المقدسة ليتاجر بها بعد عودته إلى وطنه ٩٠
فى أصل رمى الجمار ومالحكمة فيها وحكم من لم يرم؟ ٩١
فى الأضحية ٩١
فى الهدى ٩٢
فى الفرق بين الفدية والهدى فى الحج ٩٣
فى الذبح بمكة ومنى ٩٤
فى الذبح فى عرفات ٩٤
فى هل لغياب الزوجة تأثير فى طلب الأضحية ٩٤
فى كيفية توزيع الذبائح ٩٥
فى هل الأضحية واجبة فى الحج ٩٥
فى حكمة الأضحية ٩٦
فى حكم الأضحية ٩٧
فى حكم من يرتدى ثياب الحج وهو غير حاج ٩٧
فى عدم استطاعة الفقراء الحج ٩٨
فى من أين تؤخذ جمار الرجم وأين تذهب بعد رجمها ٩٨
فى أماكن للحجاج فى الحفلات ٩٩
فى هل الأفضل الحج قبل الزواج أو بعده ٩٩
فى سن تعجيل صلاة عيد الأضحى وتأخير صلاة عيد الفطر ١٠٠
فى لقب حاج ١٠١

وسئل رضى الله عن الجهاد فى سبيل الله

صفحة

فى الجهاد فرض عين ١٠٥
فى المقصود بالجهاد فى سبيل الله ١٠٥
فى الأسرار الحربية ١٠٦
فى الحديث الشريف «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ١٠٦
فى الشهادة ١٠٧
فى صفة الشهيد ١٠٨
فى صورة الحرب فى العصر الراهن وتأثيرها على صفة الشهيد ١٠٩
فى من قُتِل فى المقاومة الشعبية ١٠٩
فى هل كان للمرأة دور فى الجهاد أيام رسول الله ﷺ ١١٠
فى هل الدفاع عن المسجد الأقصى وتطهيره من العدوان، وحفظه خاص بقوم دون قوم أوفرض على كل مؤمن بالله وقرآنه ورسوله ١١١
فى جزاء القاعدين عن الجهاد والمثبطين وكيف يعرفهم الناس ليتقوا شرهم ١١٢
فى هل الحرب القائمة بين العرب والإسرائيليين حرب جهاد أو دفاع عن النفس؟ ١١٣
فى الشباب والجهاد ١١٣
فى الشباب فى المعركة ١١٤
فى من ليس عنده مال فهو فقير، ولاثياب ويريد التطوع للجهاد ١١٥
فى من طُلِب لحمل السلاح هل يستجيب ويترك ارتباطاته ١١٥
فى هل التطوع فى الحرب فيه اعتداء على حق الوالدين ١١٦
فى هل مواصلة التعليم تعفى من الجهاد ١١٦
فى جزاء الجندى الذى يقتل نفسه خشية أن يحاول العدو أخذ الأسرار عن جيش المسلمين ١١٧
فى كلمة لكل فرد من أفراد الجبهة الداخلية عن دوره فى المعركة ١١٨
فى أحاسيس الإمام عبد الحليم محمود بالنسبة لحرب أكتوبر ١١٩

وسئل رضى الله عنه فى الأحوال الشخصية

فى الزواج ١٢٣
فى رؤية الخاطب من أراد الزواج بها ١٢٣

صفحة

فى نصيحة للمقدم على الزواج ١٢٣
فى أركان الزواج ١٢٤
فى حكمة الزواج ١٢٥
فى الألفة والمحبة بين الزوجين ١٢٥
فى الإجبار على الزواج ١٢٦
فى التغالى فى المهور ١٢٦
فى التوكيل فى الزواج ١٢٧
فى نكاح المحرمات ١٢٨
فى الشروط الواجب توافرها فى المرأة التى يعقد عليها ١٢٨
فى الولاية فى الزواج ١٢٩
فى العقد الشرعى ١٣٠
فى هل الزواج العرفى يوجب مايوجبه الزواج الرسمى ١٣١
فى السن الشرعى للزواج ١٣٢
فى الكفاءة فى الزواج ١٣٢
فى العصمة فى يد المرأة ١٣٣
فى نكاح المرأة وهى فى العدة من رجل آخر ١٣٣
فى آداب الزواج ١٣٤
فى احترام الزوجة أهل الزوج ١٣٤
فى طاعة المرأة زوجها ١٣٥
فى حكم تعدد الزوجات ١٣٥
فى وجوب العدل بين الزوجات ١٣٦
فى حكم رجل متزوج من زوجتين ويفرق بينهما فى المعاملة ١٣٦
فى الزواج من الأمة ١٣٧
فى من يريد طلاق زوجته لمرضه ١٣٨
فى هل يجوز الزواج ممن لادين لها ١٣٨
فى جواز تزوج المسلم من كان يعاشرها معاشرة الأزواج ١٣٩
فى تحديد النسل وعلاقته بالزواج ١٣٩
فى ثمرة الزواج ١٤٠
فى حكم المسلم الذى يضرب زوجته ١٤٠

صفحة

فى الواجب على الزوج بالنسبة لزوجته ١٤١

فى الفرق بين زواج المتعة والزواج العرفى ١٤٢

فى زوج سافر وترك زوجته لمدة سنتين وبعد عودته وجد أن قاضيًا قد حكم بطلاق الزوجة ، فهل يصح مثل هذا الحكم ؟ ١٤٢

فى الدخل الخاطئ ١٤٣

فى هل تعتد الزوجة بعد وفاة زوجها مباشرة أم تبدأ العدة من يوم الجمعة ١٤٤

فى عدة الوفاة ١٤٤

فى الزوجات الصالحات فى الدنيا يكن مع أزواجهن فى الجنة ١٤٥

فى الحامل تنتهى عدتها بالوضع فهل يكون الأمر كذلك إذا وضعت بعد وفاة زوجها بيومين أوثلاثة أيام.. وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز لها أن تتزوج رجلا آخر؟ ١٤٥

فى الحكمة من عدة المتوفى عنها زوجها ١٤٦

فى جواز لرجل طلق زوجته أن يتزوج أختها ١٤٦

فى جواز أن يتزوج الإنسان بزوجة شقيق أبيه ١٤٧

فى المعاشرة الجنسية دون عقد شرعى ١٤٧

فى الشبهة فى الزنى ١٤٨

فى زواج المسيحى بمسلمة ١٤٩

فى لماذا يمنع الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم ١٤٩

فى الأحوال الشخصية ومجلس الشعب ١٥٠

فى الطلاق ١٥٣

فى حكمة مشروعية الطلاق ١٥٣

فى الطلاق وتعدد الزوجات ١٥٤

فى الطلاق ١٥٧

فى عدة الرجل ١٥٧

فى من طلق زوجته ثلاثًا ١٥٨

فى الطلاق الذى لم يسجل فى الجهات المختصة ١٥٨

فى التوكيل فى الطلاق ١٥٩

فى من قال لزوجته : أنت طالق ثلاثًا ١٥٩

فى الخلع ١٥٩

صفحة

فى عدم معرفة الزوجة بالطلاق ١٦٠

فى زواج المرأة بغير زوجها مع بقائها فى عصمته أو فى العدة ١٦١

فى من تزوج بمسيحية رغبة فى إسلامها هل يطلقها إذا لم تسلم ؟ ١٦١

فى هل لوالد الزوج أو وليه حق تطليق الزوجة ، ولو لم يرض الزوج ؟ ١٦١

فى من يطلب زوجته من أهلها بعد طلاقها وردها ولكنهم يرغمونه على عدم رجوعها .. ١٦٢

فى جواز استرجاع المهر بعد الطلاق ١٦٣

فى حكم زوجة مسلمة وزوجها مرتد ١٦٣

فى البينونة الكبرى ١٦٣

فى من طلق امرأته أكثر من مرتين ١٦٤

فى حق المرأة فى طلب الطلاق ١٦٥

فى الحضانة ١٦٥

وسئل رضى الله عنه فى الأحكام الشرعية للمرأة

فى المرأة فى صدر الإسلام والمرأة فى العصر الراهن ١٦٩

فى قول رسول الله ﷺ خيركم خيركم لأهله ١٦٩

فى الفتاة المسلمة ١٧٠

فى الزواج ١٧١

فى حسن معاملة الزوج ١٧١

فى مفاضلة المرأة بين حقوق زوجها وأبيها ١٧٢

فى منع المسلم زوجته من زيارة أهلها ١٧٣

فى قول رسول الله ﷺ : لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ١٧٣

فى تعدد الزوجات ١٧٤

فى أسرار الحياة الزوجية ١٧٤

فى حسن المعاشرة الزوجية ١٧٥

فى نشوز الزوجة ١٧٦

فى المرأة بعد انقضاء العدة ١٧٧

فى استقبال المرأة للرجال مع زوجاتهم ١٧٧

فى ملابس بعض السيدات ١٧٨

فى الحيض والجنابة بالنسبة للمرأة ١٧٩

صفحة

فى كى شعر المرأة ١٧٩
تعليق المصحف والآيات القرآنية ١٨١
فى عمل المرأة ١٨٢
فى وجود أولياء الله من النساء ١٨٢
فى ذهاب النساء إلى المساجد ١٨٣
فى جواز قراءة المرأة للقرآن فى مسابقة ١٨٤
فى هل كان للمرأة دور فى الجهاد أيام رسول الله ﷺ ١٨٥
فى هل تستحم المرأة وهى حائض ١٨٦
فى هل الرسول ﷺ هو المأمور وحده بحجب زوجاته أوأن الأمر يشمل المسلمين جميعًا ١٨٦
فى مصافحة النساء ١٨٧
فى حقوق المرأة ١٨٧
فى حكم التبرج ١٨٨
فى المرأة والقضاء والإفتاء ١٨٨

وسئل رضى الله عنه فى معاملة غير المسلمين

فى معاملة غير المسلمين ١٩٣
فى العلاقات بين المسلم وغير المسلم ١٩٨
فى ذهاب المسلم إلى الكنيسة ١٩٨
فى المسيحية فى العصر الراهن ١٩٩
فى أكل طعام أهل الكتاب ١٩٩
فى زواج المسلم بمسيحية ٢٠٠
فى المسلم من أم غير مسلمة ٢٠٠
فى هل يجوز أن يرث المسلم من أبيه غير المسلم ٢٠١
فى غير المسلم الذى يبنى مسجدًا ٢٠١
فى من ارتدّ عن الإسلام ٢٠٢
فى الزواج بمجوسية ٢٠٢

وسئل رضى الله عنه فى الحلال والحرام

صفحة

فى حكم من عاش مائة عام كافرًا ثم أسلم قبل وفاته بسنة واحدة ٢٠٧

فى بعض الناس لايؤدون الواجبات الدينية والفروض ويدّعون أنه لاشىء عليهم فى ذلك مادامت معاملتهم طيبة للناس ٢٠٧

فى من يعلقون التمائم خوفًا من الحسد ومن مسّ الشيطان لهم ٢٠٨

فى قراءة القرآن على غير وضوء ٢٠٩

فى جواز قراءة القرآن الكريم داخل دكان التجارة بالسوق ٢٠٩

فى قراءة القرآن على الإنسان بعد وفاته ٢١٠

فى مناط تحريم الخمر ٢١٠

فى حكم شارب خمر ترك الخمر إلى شىء آخر غير خمر ولكنه مسكر ٢١٢

فى لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة ٢١٢

فى البيرة والكينا ٢١٣

فى أيهما شر الذى يشرب الخمر أو الذى يهمل فى فرائض الدين ٢١٣

فى حكم التداوى بالخمر ٢١٤

فى حكمة تحريم الخمر فى الدنيا وتحليلها فى الآخرة ٢١٤

فى المخدرات ٢١٥

فى من ذبح جاموسة وتحقق فقدها للحياة وسال منها دم أسود قاتم ولكنها لم تتحرك لاقبل الذبح ولابعده فما الحكم ٢١٦

فى حكم إنسان فى سفر مع صديق له فمات الصديق جوعًا وعطشًا فلما خاف أن يموت هو أيضًا من الجوع والعطش أكل لحم أخيه الصديق الميت ٢١٦

فى أكل لحم الخنزير ٢١٧

فى استعمال دهن الخنزير فى المعلبات مثل الزبدة واللبن ٢١٨

فى مسلم متزوج من غير مسلمة هل يسمح لزوجته بطبخ لحم الخنزير ٢١٩

فى أن هناك من الطائفة الإسماعيلية فى أوربا من يأكلون لحم الخنزير فهل هذه الطائفة مسلمة تؤدى الواجبات الدينية ٢١٩

فى نجاسة الكلب ٢٢٠

فى الحكم فى أكل الدجاج الدنمركى المستورد ٢٢٠

فى بعض الناس يأكلون لحم الضبع فهل هذا يجوز؟ ٢٢١

صفحة

ماهوَ الذى أُهِلَّ به لغير الله ٢٢٢
فى الصيد ٢٢٣
فى من يعمل فى مطحن للحبوب ويعطيه الزبائن إكراميات من الحبوب ٢٢٣
فى المؤمن يسكت على المنكر ٢٢٤
فى من أكثرهم معصية : القاتل أو الوجودى أو شارب الخمر أو الزانى أو الكذاب أو النمام أو السارق ٢٢٤
فى حكم الدولة المسلمة التى لاتحكم بالقرآن وحكم الشعب التابع لتلك الحكومة ٢٢٥
فى الكبائر والتوبة ٢٢٦
فى القتل العمد والخطأ ٢٢٧
فى من تهدد زوجها بالقتل ٢٢٨
فى اشتراك مجموعة فى القتل ٢٢٩
فى الأخذ بالثأر ٢٢٩
فى أداء الشهادة ٢٣٠
فى لعب القمار والمال الناتج عنه ٢٣٠
فى اليانصيب ٢٣٢
فى من أُجبر على شراء ورقة يانصيب ٢٣٢
فى القرض بالربا عند الاضطرار ٢٣٣
فى رجل كان يستثمر أمواله فى الربا ثم بنى منها مسجداً وأسهم فى أعمال خيرية فماحكمه... ٢٣٣
فى عدم القدرة على دفع الدين ٢٣٤
فى الأشياء المحرمة بين الرجل والمرأة ٢٣٤
فى الزنى ٢٣٥
فى من يزنى بامرأة غير متزوجة ومن يزنى بامرأة متزوجة أيهما أكبر ذنبًا ٢٣٦
فى رجم الزانى والزانية ٢٣٧
فى دواعى الزنى هل تحرم المصاهرة ٢٣٨
فى الإجهاض بعد تكوّن الجنين ٢٣٨
فى لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ٢٣٩
فى الملاعبة بين النساء ٢٤٠
فى جزاء الزوجة الخائنة ٢٤٠
فى الذى يقر فى أهله الخبث وهو يعلم ٢٤١

صفحة

فى زوجة المسلم حرام على غيره ٢٤١
فى معاشرة الرجل لغير زوجته ٢٤٢
فى حضور الإمام سبوع طفل مولود من حرام ٢٤٢
فى الوضع بعد ستة أشهر ٢٤٣
فى من عمل أعمالا صالحة وارتكب أمورًا سيئة ٢٤٣
فى الاستمناء ٢٤٤
فى غض البصر ٢٤٤
فى من صب فى عينيه الآنكُ يوم القيامة ٢٤٥
فى تلقيح الأطفال فى الأنابيب ٢٤٥
فى رأى الدين فى السينما والمسرح ٢٤٦
فى الرأى فى النزاع بين الشبان والعلماء عن التلفزيون والسينما ٢٤٧
فى التمثيل ٢٤٧
فى الغيبة ٢٤٨
فى الغيبة فى الفاسق ٢٤٩
فى حكم من هدى وثنيًا إلى الإسلام ثم سخر منه بعد ذلك ٢٤٩
فى استبدال جزء من المعاش ٢٥٠
فى لبس الحرير والذهب ٢٥١
فى حرمة الشعوذة ٢٥١
فى حكم أكل مال اليتامى بغير رضاهم ٢٥٢
فى التسول بقراءة القرآن ٢٥٢
فى إنشاء بنك اللبن ٢٥٣
فى تحديد النسل ٢٥٤
فى الاشتغال بالمزمار ٢٥٤
فى مرتب مدرس التربية الإسلامية ٢٥٥
فى الحلف بغير الله ٢٥٥
فى اللقطة ٢٥٦
فى السرقة ٢٥٦
فى صلة الرحم ٢٥٦
فى بر الوالدين ٢٥٧

صفحة

فى طلب رجل مسن عاجز عن العمل نقوداً من ولده الموسر فلم يعطه وأساء إليه ٢٥٨
فى بر الوالدين بعد موتهما ٢٥٨
فى رجل مسن وأساء إليه ولده ٢٥٩
فى من انقطع للدراسة مدة طويلة ولم يزر أهله ٢٦٠
فى تحريم منزل الأخت على النفس ٢٦٠
فى من قال لأخيه أنت ابن غير شرعى ٢٦١
فى من يصوم ويصلى ويقاطع والده وذوى رحمه ويسىء إليهم ٢٦١
فى من احتقر أقاربه بسبب فقرهم ٢٦٢
فى من يعاملها أقاربها معاملة سيئة ولهذا قطعت علاقتها بهم ٢٦٣
فى من أساء إلى أمه وأخته ٢٦٣
فى هل يجوز للمسلم شرعًا البكاء على وفاة أحد أقربائه ٢٦٣
فى من استدان من شخص آخر ثم توفى هل إذا سامحه صاحب الدين يغفر الله للمتوفى... ٢٦٤
فى شرب الدخان ٢٦٥
فى حكم التدخين فى الإسلام ٢٦٦
فى لزوم الوفاء بالنذر ٢٦٦
فى تقبيل يد الصالحين ٢٦٧
فى الهدية تقدم للشرفاء والشيوخ ٢٦٧
فى حكم الميت يُوضع فى صندوق ويدفن ٢٦٨
فى الطقوس الواجب اتباعها بالنسبة للميت ٢٦٩
فى التطهر من تغسيل الميت ٢٦٩
فى عدم جواز لمس عورة الميت ٢٧٠
فى نقل الميت ٢٧٠
هل يجوز الدعاء للميت؟ وهل يجوز دفن الميت بدون كفن؟ وهل يصح للرجل غسل زوجته ٢٧١
فى الطعام الذى يقدم بعد الموت ٢٧٢
فى تغسيل الميت وتكفينه ٢٧٢
فى الثواب الذى يصل إلى المتوفى ٢٧٣
فى القبور فى نظر الإسلام ٢٧٣
فى ذبح الذبائح عند القبور ٢٧٤
فى جواز زيارة القبر بالنسبة للمسلم ٢٧٥

صفحة

فى زيارة النساء للقبور ٢٧٥

فى استحباب قراءة القرآن عند القبر ٢٧٦

مارأى الدين فى تأجيل دفن جثمان الميت أكثر من الحد المفروض؟ ٢٧٧

فى ما الذى نهى عنه فى زيارة القبور؟ ٢٧٧

فى سرادقات العزاء ٢٧٧

فى البائع يتبين خطأ بيعه ٢٧٨

فى الحكم فيمن يسخرون من العبادة والعباد ٢٧٩

فى هل يجوز شراء طعام معد للأكل من شخص لا يصلى ٢٧٩

فى الاستدانة ٢٨٠

هل يجوز نسبة طفل إلى غير والده بالتبنى ٢٨١

فى من يفعل المحرمات قبل الحج أو بعده ٢٨٢

فى ما هى تحية الإسلام الجائزة شرعاً؟ ٢٨٣

فى حكم الإسلام فى المسلمين يلتقون ولايسلمون على بعضهم بعضاً ٢٨٤

فى من تعرض نفسها للحمل مع علمها بخطورة ذلك ٢٨٤

فى سيراليون جماعة من المسلمين يتزوجون بأكثر من أربع نسوة ٢٨٥

فى تعود الناس فى الريف رهن عقار يأخذه الدائن وينتفع به إلى أن يسدد المدين دينه
فهل هذا جائز شرعاً ٢٨٦

فى أخذ الأجر على خطاب الضمان المصرفى ٢٨٧

فى الاعتمادات المستندية التى يباشرها البنك ٢٨٨

فى التعامل مع البنوك ٢٩٠

فى حكم من يتشبه بالأوربيين فى طريقة حلق الرأس ٢٩٠

فى إطلاق اللحية وجز الشارب ٢٩١

فى حكم من حلق لحيته فى الإسلام ٢٩٢

فى حكم استعمال الكرافتة فى الإسلام ٢٩٢

فى شروط التحريم بالرضاع ٢٩٣

فى تأخير الزفاف عن العقد ٢٩٣

فى التشاؤم ٢٩٣

فى وسوسة الجن ٢٩٤

فى حكم من يريد معرفة الغيب عن طريق المنجمين ٢٩٥

صفحة

فى الأوقات التى لا يجوز فيها الاتصال الجنسى بين الرجل وزوجته ٢٩٦

فى منع المرأة حقها فى الميراث ٢٩٦

فى الملابس ٢٩٧

فى ملابس بعض النساء تعرض أبدانهن للنظر ٢٩٨

فى هل النبى ﷺ هو المأمور وحده بحجب زوجاته أو أن الأمر يشمل المسلمين جميعاً .. ٢٩٩

فى الزوج الذى يحجب زوجته ويبعدها عن مزالق الفتن ٢٩٩

فى ما هو حجب النساء وما حكمه فى الإسلام ٣٠٠

فى البيع بالتقسيط ٣٠٠

فى من يجد كنزا فى الأرض هل هو من حقه أو من حق صاحب الأرض ٣٠١

فى التعادى بين المسلمين ٣٠١

فى أخذ العوض هل هو جائز ٣٠٢

فى الانفعالات النفسية التى تسبب أفعالا محرمة ٣٠٢

فى المزاح ٣٠٣

فى الختان ٣٠٤

فى التدبير والإسراف ٣٠٥

وسئل رضى الله عنه فى الإسلام والعلم

فى أمر الله الناس بالعلم والتعلم ٣٠٩

فى الحث عن العلم ٣٠٩

فى الدين والعلم ٣١٠

فى معنى قول الله تعالى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . . .) الآية ٣١٤

فى أن القناعة بالعلم النظرى فى هذه الآونة قد يحدث انفصاماً بين الحياة والدين ٣١٥

فى تحدث الإنجازات العلمية التى تطالعنا كل يوم تأثيرات متفاوتة على العقيدة الدينية فكيف نعزز حجتنا الدينية بقيمة علمية تتواءم وهذه الإنجازات ٣١٦

فى الإنجازات العلمية الحديثة ٣١٧

فى المعجزة والعلم ٣١٧

فى الصوفية والعلم ٣١٧

صفحة

فى حث الإسلام على العلم ٣١٨
فى اشتراط العلم فى الدعوة إلى الله ٣١٨
فى معنى الروحية والمادية ٣١٩
فى الثقافة الأصلية ٣١٩
فى الإلحاد ٣٢٠
فى مباركة الله مجالس العلم ٣٢٠
فى الأزهر حصن للثقافة الإسلامية ٣٢٠
فى حكم الإسلام بالنسبة لنزول الإنسان على القمر ٣٢١
فى حكم الإسلام فى إرسال الأقمار الصناعية إلى القمر ٣٢٢
فى امتناع بعض الناس عن التداوى قائلين إن الشافى هو الله ٣٢٣
فى الكتب الجنسية ٣٢٣

وسئل رضى الله عنه فى التصوف الإسلامى

فى كلمة تصوف ٣٢٧
فى تعريف التصوف ٣٣٢
فى مصادر التصوف الإسلامى ٣٣٨
فى نشأة التصوف ٣٤٢
فى التصوف والدين الإسلامى ٣٤٤
فى قضية التصوف ٣٤٧
فى الطريق إلى المعرفة ٣٥٧
فى التصوف قوة ٣٦١
فى التصوف ليس دخيلا على الإسلام ٣٦٢
فى التصوف والعصر الحديث ٣٦٣
فى التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية ٣٦٤
فى رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى ٣٦٨
فتوى للإمام الغزالى فى نفس الموضوع ٣٧٠
فى وحدة الوجود ٣٧٩
فى ما هو التصوف الإسلامى ومتى بدأ ومن هم الأوائل فيه ٣٨٥

صفحة

فى قول الله تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ...) ٣٨٥

فى وجود أولياء الله تعالى من النساء ٣٨٦

فى الطرق الصوفية ٣٨٧

فى حكم الطرق الصوفية حلال أو حرام ٣٨٧

فى تعدد الطرق الصوفية ٣٩٠

فى تمسك الطرق بالكتاب والسنّة ٣٩١

فى أين تقف الصوفية اليوم من هزات العلم ومادية العصر ٣٩٢

بالغ الصوفية فى التحدث عن كرامات الأولياء فما هو وجه الحقيقة فى هذا وما هى الحدود

الفاصلة بين الكرامة والخرافة ٣٩٣

فى الأوراد الصوفية ٣٩٤

فى التوكل ٣٩٥

فى ما الذى يفهم من رؤية الرسول ﷺ فى المنام وهل تصدق الرؤيا ؟ ٣٩٥

فى رؤية الشخص العادى لسيدنا جبريل عليه السلام ٣٩٦

فى حكم من ليس لديه مال لزيارة قبور الأنبياء والأولياء ٣٩٦

فى ذهاب بعض الناس إلى أضرحة الأولياء بطلبات مكتوبة ٣٩٧

فى إقامة الموالد فى المساجد ٣٩٨

فى ذكر أسماء الأولياء ٣٩٨

فى الطريقة التيجانية ٣٩٩

فى أوراد الطريقة التيجانية ٤٠٠

فى دلائل الخيرات والطريقة التيجانية ٤٠٠

فى أسماء الله الحسنى والطريقة التيجانية ٤٠١

فى صلاة الفاتح ٤٠٢

فى تردد المريد بين الطرق ٤٠٣

فى الدخول فى الطريقة التيجانية ثم الخروج منها ٤٠٤

رأس الإمام الحسين رضى الله عنه فى القاهرة ٤٠٥

السيدة رابعة العدوية ٤٠٥

فى التبرك بأسماء الله الحسنى ٤٠٦

فى مجالس الذكر ٤٠٦

وسئل رضى الله عنه عن بعض الشخصيات

صفحة

فى سيدنا آدم عليه السلام وبناء البيت ٤١١

فى هل الكعبة من بناء إبراهيم عليه السلام؟ وهل كان قبلها بيوت لله على الأرض؟ ولما اختار الله الجزيرة العربية للرسالة المحمدية ٤١١

فى سيدنا نوح عليه السلام ٤١٢

فى هل هناك أنبياء هاجروا قبل سيدنا محمد ٤١٣

فى سيدنا إسماعيل عليه السلام ٤١٣

فى سيدنا موسى عليه السلام ٤١٤

فى سيدنا لقمان عليه السلام ٤١٥

فى سيدنا يونس عليه السلام ٤١٦

فى سيدنا يوسف عليه السلام ٤١٦

فى سيدتنا مريم عليها السلام ٤١٧

فى السيدة عائشة رضوان الله عليها ٤١٧

فى ورقة بن نوفل ٤١٨

فى أى يوم بدأ سيدنا عمر بن الخطاب يتعلّم القرآن ٤١٨

فى سيدنا علىّ كرّم الله وجهه ٤١٩

فى يقولون عن ذكر أحد الصحابة رضى الله عنه ، وعن ذكر على كرم الله وجهه . فلماذا؟

ومن هم الذين قال الله فيهم رضى الله عنهم ورضوا عنه؟ ٤٢٠

فى سيدنا على كرم الله وجهه ٤٢١

فى سيدنا أبى الدرداء رضى الله عنه ٤٢١

فى سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه ٤٢٢

فى آل البيت رضوان الله عليهم ٤٢٣

فى عبد الله بن سبأ وكعب الأحبار ووهب بن منبه ٤٢٤

وسئل رضى الله عنه فى الدين والحياة

صفحة

فى أمر الحكم فى الإسلام ٤٢٧

فى القانون الإلهى والقانون الوضعى ٤٢٨

فى الانتخاب ٤٣٥

فى شعار الإيمان للدولة ٤٣٦

فى موقف الإسلام من الوحدة العربية ٤٣٨

فى الإسلام والسيف ٤٣٩

فى ما يعتقده الكثيرون من أن الفكر الدينى فى هذا العصر يعانى أزمة عاصفة فى مواجهة التطور المادى ٤٤٠

فى ما يلاحظ الكثيرون بعض المظاهر التى توحى بعزلة رجال الدين عن الحياة الاجتماعية والسياسية . كما يلاحظون بعض المظاهر السلبية فى العادات والتقاليد كالتواكل والاستسلام للواقع فما هو موقف الدين من كل ذلك ؟ ٤٤١

فى كيف يمكن للأزهر أن يستعيد دوره فى ازدهار الفكر الدينى وتغذيته للجماهير بالقيم الدينية ؟ ٤٤٢

فى كيف بدأت الدراسات الدينية والعلمية فى الجامع الأزهر ؟ ٤٤٣

فى هل كان للأزهر أثره فى الأوضاع السياسية والاجتماعية فى تاريخه المجيد ؟ ٤٤٤

ما وضع الأزهر الآن فى عصر الثورة العلمية الحديثة ؟ ٤٤٥

فى هل هناك أجهزة فى الأزهر تهتم بمتابعة التيارات الإعلامية والثقافية ؟ ٤٤٥

فى أثر مناهج الفكر الأزهرى فى الفكر الإسلامى والعالمى ٤٤٥

فى اللغة العربية ٤٤٦

فى أهمية هبوط الإنسان على سطح القمر ٤٤٧

فى التعريف بالعلاقة بين القمر والمسلمين والرؤية بشأن هذه العلاقة فى المستقبل ٤٤٧

فى بعض الناس يرى وجود حالة من الفقر فى العالم المعاصر ومن ناحية أخرى فإن التخطيط لصناعة سفن الفضاء يحتاج لكثير من الأموال ومثل هذه الأحوال يجب أن تنفق فى سبيل الاحتياجات الأساسية للبشرية ٤٤٧

فى موضوع الملكية للقمر ٤٤٨

فى أى نوع من الفائدة يمكن توقعها عن طريق هبوط الإنسان على سطح القمر ؟ ٤٤٨

صفحة

في كم من أقطار الأرض الإسلامية يحكمون بما أنزل الله على محمد ﷺ في زماننا هذا؟ ٤٤٨
في الإسلام والشيوعية ٤٤٨
فتوى عن الشيوعية ٤٥٠
في طريق الفلاح حتى يتبعه من يرد الله به خيراً ٤٥٢
في حرية الصحافة ٤٥٤
في موقف الأزهر من المرأة المسلمة ٤٥٥
في متى نحصل على رجل دين بالمعنى الحق؟ وهل يمكن أن يكون الأزهر بمعاهده المختلفة ودراساته الدينية فقط سبيلنا إلى هذا؟ أو أن الأمر يحتاج إلى روافد أخرى..... ٤٥٦
في العالم الفرنسي أندريه بوشان ينكر شق البحر كمعجزة معللا ذلك بأسباب بيولوجية وطبيعية ٤٥٧
في استلهام الدين في الثقافة الجنسية ٤٥٨
حول فيلم (محمد رسول الله) أو (الرسالة) ٤٦٠
في خلق الداعية ٤٦١
في منزلة المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين ٤٦٢
في مايرتكبه اليهود من منكرات في المسجد الأقصى ٤٦٣
في فلسفة مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية لموضوع العدوان الإسرائيلي على البلاد العربية والمقدسات الإسلامية ٤٦٤
في دعم المعاهد الأزهرية ٤٦٤
في الدعوة الى الحضارة العلمية والصناعية مع التمسك بالقيم الإنسانية التي جاءت بها رسالة الإسلام. ٤٦٧
في معنى العبادة ٤٦٨
في نصيحة إلى الشباب المعاصر ٤٧٠
في السعي على الرزق ٤٧١
في الإسلام والحضارة الحديثة وفكرة التطور ٤٧٢
في تحديد النسل فكرة منكرة ٤٨١
في القرآن مصدر الهداية ٤٨٤
في الإسلام لكل زمان ومكان ٤٨٧
في أساس الإسلام وجوهره ٤٨٩

صفحة

فى الإسلام هو التوحيد ٤٩٢
فى إسلام الوجه لله ٤٩٥
فى غيبة التشريع الإسلامى ٤٩٥

□ كتب للمؤلف □

- القرآن فى شهر القرآن .
- القرآن والنبى .
- شهر رمضان .
- محمد رسول الله (ترجمة) .
- الإسراء والمعراج .
- التفكير الفلسفى فى الإسلام .
- المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى .
- مقالات فى الإسلام والشيوعية .
- فتاوى عن الشيوعية .
- أبو ذر الغفارى والشيوعية .
- الرعاية لحقوق الله (تحقيق) .
- الجهاد فى الإسلام .
- الصلاة أسرار وأحكام .
- غيث المواهب العليّة فى شرح الحكم العطائية (تحقيق) .
- لطائف المنن (تحقيق) .
- مع الأنبياء والرسل .
- قضية التصوف .
- فتاوى الامام عبد الحليم محمود (جزءان) .
- الفلسفة والحقيقة .
- الطريق إلى الله .
- أوربا والإسلام .
- الإسلام والعقل .
- فاذكرونى .. أذكركم .
- المسيحية نشأتها وتطورها (ترجمة) .
- العارف بالله سهل بن عبد الله التسترى .

- العارف بالله إبراهيم بن أدهم .
- العارف بالله بشر بن الحارث .
- أبو بكر الشبلى .
- أبو مدين الغوث .
- سيدنا زين العابدين .
- أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى .
- سفيان الثورى .
- السيد أحمد البدوى .
- قضية التصوف المنقذ من الضلال .
- الحمد لله هذه حياتى .

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٩٦٧٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6387-7

١/٢٠٠٢/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعَدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و« القرآن فى شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .

دار المعارف

٠٠٠١٦٩/٠١

